
يوسف القعيد
الأعمال الكاملة
شكاوى المصري الفصيح
دار الشروق







شكاوى المصري الفصيح

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

© دار الشروق
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٣٩٣٤٨١٤ - ٣٩٣٤٥٧٨ برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

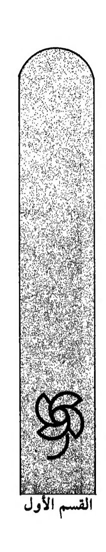
يوسف القعيد

الأعمال الكاملة

شكاوى المصري الفصيح

دار الشروق

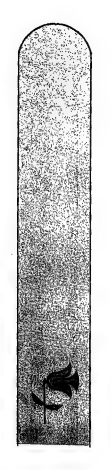




القسم الأول

نـوم الأغنيـاء





«أخفض رأسك يا أخي فإن الرأس المرفوع يشقي صاحبه».

«من نصائح المصري الفصيح»



١

عندما تصبح البداية هي النهاية

ـ الكتابة لعنة.

انتهت الرواية هكذا. الكلمة السابقة التي انتهت بها الرواية لم ترد على لسان أحد الأشخاص، وليست جزءاً من السرد، ولكنها جملة همس بها المؤلف لنفسه بعد أن انتهى تماماً من كتابة روايته. نهاية غريبة، أليس كذلك؟ بالتحديد، همس بها المؤلف لنفسه، وهو يكتب الكلمة الأخيرة في روايته الجديدة. وبعد أن وضع النقطة الأخيرة التي تعوّد على وضعها في ختام الرواية. نظر في ساعته، الثالثة والنصف صباحاً. قرأ أجندة المكتب، دوّن في ذيل القصة المكان والزمان. بعد السطر الأخير، خط بيده، ولكن بقلم أحمر هذه المرة: الكتابة الثالثة. وضع الأقلام، سوّى أوراق الرواية، خلع نظارته، فرك عينيه، ومر بيده على وجهه ماسحاً عنه التعب والإجهاد، تساءل: هذه المرة الكم التي يعيش فيها لحظة الإنتهاء من خلق رواية جديدة؟ السادسة؟ السابعة؟ الثامنة؟ اختلط عليه عدد رواياته. توقف. بحث عن شعوره في هذه اللحظة. حاول أن يتذكر ما كتبه غيره من الروائيين في وصف شعورهم عند الإنتهاء من ابداع رواية جديدة. تمثل ما قاله النقاد والباحثون وعلماء النفس والاجتماع عن الإبداع وخلق الرواية وتحريك

الأبطال والجري وراء الاحداث. توقف عند هذا الحد، اكتشف أنه ليس سعيداً، تساءل: ماذا جرى؟ تذكر لحظة الانتهاء من الكتابة الأخيرة لروايته التي نشرت قبل هذه الرواية مباشرة، لا يفصله عن هذه اللحظة سوى ثلاثة أعوام فقط. ولكن الحال غير الحال. فكر: هل ينزل الى الشارع؟ يجري؟ يضحك؟ يبكي؟ لم يجد بداخله الحماس القديم. جلس ساكتاً. الفكر بحور تذهب به الى آخر العالم وتحضره الى جلسته الصامتة. حاول الخروج من حالته، هجم عليه موضوع حاول الهروب منه كثيراً، ولكنه لم يفلح في المزيد من الهروب... عليه أن يستعد من الآن للخطوات الباقية حتى تصل كلماته الى القارىء. أولها كتابة الرواية على الآلة الكاتبة. عدّ الصفحات. ضرب عددها في اثني عشر قرشاً للصفحة الواحدة. تعجب عندما تذكر ان الصفحة كانت تكتب بستة قروش فقط وقت كتابة الرواية السابقة. ستة وثلاثون شهراً أضافت ستة قروش زيادة لستة قروش أصلية. هالته السرعة الرهيبة التي تندفع بها الأمور في بلاده. والتي تفوق حتى سرعة الطائرة الأسرع من الصوت. المبلغ المطلوب ليس صغيراً. لا بد من تدبيره في ظرف أسبوع. قرر أن يعطي الرواية لرجل يكتب على الآلة الكاتبة في منزله. مطلوب منه الابتعاد عن الذين يعملون في مكاتب. لأنهم يكتبون صورة زائدة يقدمونها لأجهزة الأمن حيث تبدأ متاعبه عندما لا يستطيع من يقرأ الرواية متابعتها وفهم ما فيها. اختلطت الأمور، وضاقت المسافة بين الرواية والمنشور السياسي والمقال. في نظر الأجهزة ربما لا توجد مسافة أصلاً.

بعد الكتابة الأخيرة، تبدأ رحلة البحث عمن يقرأ مخطوطة روايته، قبل أن يقدمها للنشر. فكر بذهنه: من يقرأ الرواية؟ من؟ من؟ من؟ وجد ذهنه صافياً فارغاً، لم يطف على السطح أي أسم. همس لنفسه:

هل خلت البلد ممن يقرأ؟ مرت الوجوه في ذهنه ضبابية، اخرج ورقة وقلماً. دوّن كشفاً ببعض الأسماء لكي يختار من بينها من يقرأ روايته، الأصدقاء، الزملاء، كتّاب الرواية، النقّاد، القراء العاديون استبعد من الكشف من لا يقرأون والمجاملين والمدعين، احترم المجموعة التي قررت منذ فترة ان تحصل على ثقافتها من أجهزة الاعلام. حيث ان ذلك أسهل ولا يكلف الانسان أي جهد. يكفي أن يجلس الانسان منهم أمام شاشة السينما أو جهاز التليفزيون، أو يعطي اذنه للراديو أو جهاز التسجيل وستقوم هذه الأجهزة بالعملية كلها. ان القراءة في هذه الحالة تصبح حرقاً للأعصاب ومجلبة لكل أمراض العصر. من يقرأ في عصر الاعلام مجنون. ومن يقرأ في عصر الاستهلاك السعيد شخص معلب متخلف عن روح العصر. لا بد ان يأتيه الموت سريعا. في العقد الثالث أو مع مقدمات العقد الرابع. والمؤلف يحترم في هؤلاء صراحتهم مع أنفسهم. استبعد كثيراً من الاسماء. أجرى عمليات تفضيل. واستقر رأيه على ناقد شاب وضع تحت اسمه أكثر من خط بعصبية وتوتر. وحتى هذا الناقد الشاب، لم يكن المؤلف واثقاً أنه سيمنح الرواية من وقته وجهده ما تستحقه. ضاع يقين الزمان القديم، وانتهت راحة التعامل مع عالم من الناس والافكار والأشياء المؤكدة. وصل ذهنه الى حكاية النشر، فأحس بضيق حقيقي. أمامه رحلة لا يعرف متى يبدأها، ولن تستغرق أقل من ثلاثة أعوام، حتى يرى هذا المخطوط وقد أصبح عملاً مطبوعاً، وبهذا تمرّ ست سنوات على اللحظة التي بدأ يخط فيها الأحرف الأولى من الرواية. لن يصف الوقت الذي أمضاه في التفكير والتخطيط وجمع المادة. والمقابلات والزيارات الكثيرة والكتابة واعادة الكتابة. وفترات الانقطاع التي توقف فيها عن العمل أكثر من مرة. وتأتي عملية النشر رحلة من المساومات والمحاولات وبذل الوساطات والدخول في المناورات. وقد

لا ترى الرواية النور بعد هذا كله. عجيب أمر بلدنا، إلى متى تظل مثل القطط تأكل ابناءها بلا رحمة؟ سبعة أعمال أدبية منشورة من قبل. ولا يزال نشر عمل أدبي جديد مشكلة، ولا يعرف أحد الى متى تظل هذه المشكلة قائمة ومستمرة؟ سيحاول، وهل يملك غير المحاولة؟ يقول عنه اصدقاؤه أنه لم يفقد حماسه رغم كل محاولات الهدم، ويكمل هو لنفسه في الليالي المستطيلة الوجه: ان الذين لم يفقدوا حماسهم أبطال بشكل ما. قد تصل محاولاته الى طريق مسدود. وفي هذه الحالة لن يكون أمامه سوى نشر هذه الرواية على حسابه الخاص قال لنفسه: ليكن. لا بد وأن تصل هذه الكلمات لمن كتبت لهم ومن أجلهم وعنهم، لمن تعطيهم صفحاتها حق الكلام. لا بد من نشر الرواية حتى لو تم هذا على حساب لقمة العيش نفسها... مط المؤلف شفتيه. لنفرض أنها نشرت، من يقرأ الروايات في أيامنا؟ انبعثت من صمت الليل وظلامه صور من صداقاته من خارج الوسط الأدبي، اطباء، مهندسين، حرفيين، وكلاء مكاتب أجنبية، تجار. كلهم يعيشون بدرجة متفرج على ما يحدث. المشاركة لا تتعدى حدود عمل كل منهم. والعمل محصور داخل حسابات الربح والخسارة. من يقرأ رواية فيهم؟ الكل يريد التعامل مع عالم مكوناته من الأشياء الحقيقية والمؤكدة وليس عالماً من ابداع كاتب لا يزال واقفاً في منتصف الطريق... يرقص على السلالم، وبهذا ضاعت عليه فرصة ان يراه الذي فوق والذي تحت معا، وفي وقت واحد. قفزت الى ذهنه حكاية النسب المئوية على الطريقة المصرية. انه يقول دائماً: نحن نعيش في بلد، الأمية فيه تعشش وتفرخ كل ثانية وجوها جديدة... ياه... نحن في بلد ٨٦٪ من ابنائه لم يتعودوا بعد على معرفة العالم السحري الذي يمنحه الحرف المكتوب لمن يقرأون. ان الـ ١٤٪ الباقين يكفون أي كاتب. وهم نسبة مقبولة باعتبار ان ذلك هو حكم الأمر الواقع. يطل

السؤال من جديد: من يقرأ من هذه النسبة الضئيلة؟ واحد في المائة؟ اثنان؟ من السهل تفصيل العدد بالأرقام وصولا لحقيقة مرة. من يكتب هو من يقرأ في الوقت نفسه، وكفى الله المؤمنين شر القتال. حلقة صغيرة معزولة تتعاطى الكلمة، دائرة مفرغة يدور فيها منذ سنوات. ومع ذلك يبقى الوهم، والقدرة الفريدة على الحلم، تمنح كتاب عصرنا ما يبخل عليهم به الواقع. يجلسون في مقاهيهم. بعد أن ينزل الليل، والظلام يخفي حقائق الأشياء. وعند كل منهم حكاياته الجاهزة والتي لا يخجل من ترديدها. تجد من يقول: تعاقدت مع شركات الانتاج السينمائي على انتاج خمس روايات لي، تصور كلها الآن. ان الاستوديوهات مشغولة بتصويرها في اللحظة التي نجلس فيها الآن. يضاف الى ذلك ست روايات تعاقدت عليها في الموسم السينمائي الماضي. أي ان احد عشر استديو يجري فيها حالياً تحويل اعمالي الأدبية من أحرف مصفوفة الى صور متتابعة ملونة على شريط سينمائي. تفاجئه باعتراف بسيط وهو ان بلادنا لا يوجد فيها العدد الذي ذكره من الاستديوهات. . . تتوقف يده البيضاء المشربة بالحمرة والتي يقول لك لونها ان الجالس أمامك لا ينحدر من أصل مصري. وقد استثمر في بداية حياته قصة انحداره من أصول شمالية بعيدة، تركية على الأغلب، ولعب بها على أديب كهل، غارق في عالم من المجاملات المقززة، فزوده بخطابات توصية، لكل من يستطيع عمل أي شيء للأديب الشاب. لكي يحميه من الأدباء المصريين الفلاحين الأجلاف، وابناء الأحياء الشعبية في المدن. فدمه أزرق وجلده أحمر. وهاتان الصفتان تميزانه عن الآخرين من ابناء مصر. يحرك يده بطريقة انثوية مثيرة. يقول لك: هذا حق. لو اعطيتني الفرصة لأوضحت لك الأمر. رواياتي تصور في استديوهات ما بين القاهرة ودبي واثينا وتونس. ويمعن في اظهار مفاتنه الانثوية. والتي يقال إنها كانت سبب حظوته لدى بعض كبار الكتاب.

الذين فقدوا القدرة على الاتصال بجنس النساء ويقول مكملاً حديثه: وهكذا حققت بفني ما لم يحققه الزعماء العرب في كل العصور وهو حلم الوحدة، ويصمت ليقول آخر، ان جامعة فرنسية تعقد في هذه الايام حلقة دراسية لدراسة روايته التي تنشر مسلسلة في مجلة نسائية. لم يقل إنه كتب الرواية خصيصاً للنشر في هذه المجلة بالذات. وانه كتبها على طريقة التفصيل حسب الطلب. ذهب إلى رئيسة التحرير وجلس معها. وشرحت له الخطوط العريضة لعمل روائي يضمن ارتفاع توزيع المجلة، وكتبت له الملخص... وقدمته له. وعدها بأن تكون المعالجة جاهزة للنشر بعد حوالي شهر من الآن. قالت له: إنه من الأفضل أن تكون الرواية طويلة جداً فوعدها بذلك. وفي منزله حبس نفسه شهراً. بعده كانت الرواية جاهزة للنشر. ثالث يؤكد أن كتابه وزع في الطرح الأول من الطبعة العاشرة خلال عام واحد. عشرة آلاف نسخة بالتمام والكمال. وتتطاير أخبار الاوهام مع زجاجات البيرة والخمور الرخيصة. كان المؤلف يجلس وسطهم في المقهى عندما وصل الحال الى حد التحليق مع الاوهام. نقر بأصبعه على المنضدة وقال من جديد ولكن لنفسه هذه المرة:

ـ فعلاً. الكتابة لعنة.

حمل مخطوط الرواية... وضعه في مظروف كبير ومشى... في صباح الغد سيحمله الى كاتب الآلة الكاتبة. فر الصفحات. توقف أمام صفحة في الجزء الأخير من الرواية نظر فيها وضحك على نفسه... أين ذهبت محاولات التجديد... وما قاله عن ضرورة الوصول الى شكل روائي خاص بنا؟ قرأ ما كتبه عن النهايات الثلاث لروايته. ودعوته للقارىء لكي يشترك معه في وضع خاتمة مناسبة للرواية. انسال بداخله حزن جاف. فقد طراوة الحزن الانساني النبيل. وضع الرواية في المظروف من جديد. اتجه الى حجرة نومه.

أخذ معه رسالة تسلمها صباح اليوم. فتحها ولم يكن قد قرأها بعد نظراً لانشغاله بروايته وتصميمه على أن يحتفل بالانتهاء منها. آملا ان يقضي بقية يومه وهو يعيش سعادة الانتهاء من خلق عمل أدبي جديد. تصفح الجرائد والمجلات. توقف أمام حديثين اجريا. واحد مع روائي مصر الأوحد والآخر مع كاتب مصر الاذاعي الأوحد. قال لنفسه: لأقرأ الرسالة أولا. ولأعد لأحاديث نجوم العصر والأوان. ولعباقرة أيامنا قبل النوم مباشرة حتى أغمض عيني على الاحساس اليومي بالقرف والتقزز والرفض وهذا يضمن له البقاء في مكانه بعيداً حتى عن دنس المشاركة في هذا العصر العجيب انه يظل في موقف الراصد، الذي يرصد كل مظاهر عصرنا ويتمنى ان يكون كل ذلك مادة خاماً لرواية العمر كله. ملحمة ضخمة، عدد صفحاتها يفوق الألف، يخلق فيها العصر أو يعيد خلقه من جديد، بكل ما فيه، ما له وما عليه. الصعوبة انه لا يتحدث عن زمن مضى أو احداث وقعت بالفعل. لن يستخدم في هذه الملحمة فعل الماضي التام، حديثه سيكون عن الواقع اليومي. تفوح منه رائحة المعاصرة. وسيكون الفعل المضارع سيد الموقف. انه الآن متفرج فقط. لأن المشاركة جريمة، والصمت جريمة وحتى الفرجة جريمة أيضاً. ولكن ماذا يستطيع أن يفعله؟ المسألة أكبر من امكانياته وهو يواجه العصر كله بمفرده. كثيرون هم الذين يواجهون هذا الواقع بالرفض ولكن كل منهم يواجه الأمور منفرداً. لا يوجد دفء المشاركة. كم مرة شعر برجفة الخوف لأنه وحيد.. وكانت هناك استحالة ان يجد من يواجه المأساة معه. اخرج الرسالة، بدأ بقراءة اسم المرسل أولا كما هي عادته، الاسم ليس غريباً عليه، وان كانت الاسباب مقطوعة بينهما منذ فترة طويلة. أحد أصدقاء قريته البعيدة. الرسالة طويلة، عشر صفحات كاملة، جودة الخط وتنميق الرسالة ينطقان بحالة الفراغ التي عانى منها كاتب الرسالة. ذهنه متعب. لذا مر بعينيه على فقرات

الرسالة وأسطرها بسرعة . كان ينوي تـركها ليقـرأها في الايـام القادمـة على حلقات . ولكن صيغة الرسالة دفعت اليه بيقظة حـارقة ، أضـاعت مقدمات النوم من عينيه . من الممكن تلخيص الرسالة كلها في كلمات . وجهت اليه الرسـالة سؤالا حـاداً ومدبباً . ضرب في الذهن بقسوة . . لم تكتب؟ هكذا بدأت كل فقرات الرسالة . قال لنفسه : تجمعت الصدف كلها على غير موعد . في نفس الليلة طرح السؤال على نفسه ، دون أمـل في العثـور عـلى اجـابـة لـه ، ومن بعيـد ، أتتـه رسـالــة تصرخ بنفس الكلمتين : لم تكتب؟ أول مرة ووجه بالسؤال احتـار . مط شفتيه وقـال ضاحكاً : وهل هذا سؤال يسأله أحد؟ ان الاجابة عليه من البديهيات ، هل يمكن القول مثلاً : لماذا نعيش؟ لماذا نأكـل؟ لماذا نشرب؟ انها أسئلة لا اجابات لها . لأنه لا مبرر لطرحها من الاساس . إنه يكتب لأنه يـريد أن يكتب وهـذا يكفي . بعد مجيء الليـل ، فوجيء بـالسؤال يـتربـع في مواجهته . فكر فيه من جديد ، وانفتح أمام عينيه سرداب الامنيات التي لا يعترف بوجودها أمـام الآخرين . رغم أنها تلهبـه بسياط التـطلع كل دقيقة . اكتشف في هدأة الليل ، انه يكتب لكي يصبح مشهوراً ، ولكي يجمـع المال ، ولكي يتحـرك الملايـين من حولـه . يكتب لكي يحيا مثـل المشاهير الذين قرأ لهم وعنهم . وهو مستعد لفعل أي شيء في سبيل هذا الهدف . ضحك ساخراً من نفسه عندما تذكر ، انه في جلسـة مثل هـذه منذ سنوات مضت ، استبشع سرداب الغايات المظلم ، فقـرر ان يصنع اجابة يقدمها لمن يسـأله عن الهـدف من الكتابـة . تكون هـذه الاجابـة بمثابة غطاء ، يخفي محتويات السرداب الذي يخصه وحده . الوقت الذي قضاه في صياغـة الاجابـة أو البيان ان شئنـا الدقـة كان طـويلاً والجهـد الذي بذله كان مرهقاً . خرجت الكلمات رنانة . انني اكتب لأن الكتابـة هي الطريقة ـ ربمـا الوحيـدة ـ التي أعبر بهـا عن نفسي ازاء هذا الكـون بكل ما فيه . ان الكتابة ـ يكمل البيان ـ هي دفاعي الوحيد ضـد الفناء

وجواز مروري الى الخلود بمعناه الأدبي. هذا ما سيقوله أمام البعض. خاصة الذين يفكرون في الحياة الأخرى والخلود بعد الموت. والذكرى التي تدق في عالم النسيان. ولكن لا بد من اجابات أخرى، تقال في مقامات تخالف هذه. ماذا يفعل لو جلس مع مجموعة من المناضلين التقدميين. في هذه الحالة سيقول انه يكتب لأنه لا يشعر بالتطابق مع هذا العالم القبيح. ولو حدث هذا التطابق. وحقق هذا العالم ما بنفسه لكف عن الكتابة فوراً والى الابد. لكسر قلمه وانصرف الى عمل آخر. الكتابة لديه تعبير عن قلق كوني. انه يبحث عن النظام في الفوضى، والعدل وسط أكوام الظلم، والمنطق وسط حالة العبث واللامعقول التي تجتاح البلاد. وعندما تنتهي رحلة البحث ويصل الى اليقين لن يكون هناك مبرر لأن يخط كلمة واحدة. الكتابة رسالة وليست وظيفة. وفي بعض الاحيان كان يقول انه حزين لأنه يكتب فقط، وكان يريد ان يفعل، الكلمة ليست بديلاً للفعل أبداً. من قال هذا؟ بدلاً من الكتابة عن معركة ما، مفروض ان يشارك فيها. ثم تأتي الكتابة من رحم الفعل نفسه. استراحت نفسه للبيان، راجعه أكثر من مرة. واكتشف رنين الكلمات ووقع الجمل الأخاذة. من يومها وهو يردد الكلمات كرد على كل من يسأله: لماذا تكتب؟ وفي كل مرة كان يبدأ في الرد حتى قبل ان ينتهي السائل من قول سؤاله. كانت نهاية السؤال تتداخل مع مقدمات الاجابة، بصورة يصعب معها الفصل بينهما وكان يبدو لمن يراه انه كمن يدير اسطوانة محفوظة سلفاً. فتنطلق من فمه كلمات سبق ان قيلت من قبل آلاف المرات. عند الحديث كانت عيناه تسرحان مع الفيللا الانيقة والعزبة البعيدة وحساب البنك الضخم والسيارة الحديثة والزوجة والأولاد. ومظاهر الشهرة. والسفر، التطواف حول العالم والتخفي من الناس حتى ينعم بحياته الشخصية بعيداً عن جيوش المتطفلين من البشر. احياناً كان

يتصور ان بيانه غدا عاجزاً وغير قادر على تغطية سرداب الغايات. وان الغايات تطل بعينيها من تحت الغطاء الصغير. تخرج له لسانها، تقول له اكذب كما شئت وان كانت لك الحرية التامة في الكذب. . . فلنا نحن حرية واحدة. ان نخرج لك السنتنا من تحت الغطاء الصغير. مرة واحدة. فكر ان لا يستخدم هذا البيان. وان يعلن الحقيقة. ولكنه اكتشف ان الاستمرار أسهل الف مرة من التوقف. واستمر. اعاد قراءة الخطاب من أوله. اكتشف انه ليس خطاباً، بل محاكمة، قادمة له من قريته البعيدة، ها هي الرسالة تسأله: ما جدوى الكلمة المكتوبة؟ هل لها دور في بلدنا الآن؟ انت أول من يدرك عبث ما تقوم به، ومع هذا تستمر في اللعبة. بل انك تصر على الاستمرار رغم انك أعلنت أكثر من مرة. وبأكثر من وسيلة. ان اليأس المطلق هو موقفك الوحيد. وانه لا شيء يستحق الدخول في معارك مع أي طرف من الاطراف. ومع هذا تدخل المعركة تلو المعركة من أجل اتفه الأشياء. تعال نتكلم عن الروايات التي قدمتها كجزء من مساهمتك في اللعبة الدائرة والتي تتشدق برفضها في جلساتك الخاصة. الكلام لن يتناول الموقف السياسي ولا الرؤية الفكرية. لأنك تقول ان الخيار المطروح على الروائي في هذه الأيام. إما أن يلعب تحت مظلة النظام. أو خارج هذه المظلة. والمفروض أن يكون اللعب خارج الحلبة المرسومة. لأن اللعب داخلها يعني المشاركة. وهي تعني الموافقة الضمنية على جزء أو كل من النظام. حديثي سيكون عن أمور فنية. لأن التناقض السابق من المستحيل حله.

ابطال رواياتك يخرجون من الضباب، واليه يعودون، ليس لديهم تميزهم الدقيق ويفتقرون إلى التنوع وأصولهم الطبقية مائعة وسائلة. أغلبهم يتأرجح على سلم البرجوازية المطاط والفضفاض والواسع. وعيهم بالواقع ومعطيات الواقع ضيق جداً. بل إنه وعي مسلوب،

سلبتـه أنت منهم خلال عمليـة القص، لأنك تلعب ـ بـوعي أو بـدون وعي، الأمران سيان ـ وكل لعبة لها أصولها وقواعدها والخطوط البيضاء هي التي تحدد حجم ومساحة الحركة. كل من يلعب أمامه خطوط. . . ومسموح به وممنوع. وحكم في فمه صفارة، وجمهور من المتفرجين لا بد من ارضـائه. ولهـذا تسلب الابطال وعيهم الحقيقي حتى تستمـر اللعبة بشروطك أنت، المسبقة على العمل وعلى الابطال أنفسهم. النتيجة ان الرواية تفتقـر الى نقطة ارتكـاز يدور من حـولها الحـدث والاشخاص. ونقـطة الارتكـاز هي البـوصلة الـداخليـة التي تحـدد للعمـل الـروائي اتجاهه. وافتقار العمل لها يجعله يسير ولكن بدون اتجاه محدد، وهذا مـا يعكس ازمتـك الفعليـة، انـك لم تجـد بعـد مسـاحـة من الأرض تقف عليهـا، ولا وجهة نـظر شاملة تجـاه قضايـا الواقـع. . . السرد الروائي عنـدك تتخلله كثير من الاستـطرادات والحكايـات الفـرعيـة والقصص الجـانبية التي تثقـل ساق الـرواية، ويجعله يميـل تحت عبئها. محـاولات التجديد في أعمالك أقرب لاستعراض العضلات وممارسة قهر ثقافي تجاه القـارىء، الذي تحـاول اشعاره بمـدى تخلفه ومـدى تفوقـك حضـاريـاً عليه. ثم ريف مصر، تلك حكايـة أخرى، عنـدما دفعـك الطمـوح، وتركت القرية الصغيرة، والوظيفة المتواضعة. قلت لنا يوم سفـرك، ان الـريف المصري يجري في دمـك. وان دمك بـه كرات بيضـاء وكـرات حمراء وكرات ثالثة ريفية لا توجد الا بك. وكنت تريد ان تكون صادقاً وقتها. وجاهـدت في البدايـات الأولى، ان تحافظ عـلى الوعـد. ولكننا شعرنا فيها بعد. ومن خلال متابعة أعمالك، أنك حولت هذا الريف الى بضاعة تقدمها لسكان المدن وكـأنهم سياح، وانت الحـاوي الذي يملك خرجا، عمقه يصل لسـابع أرض، والخـرج مليء بـالأشياء المثـيرة. . . وأصبحت مفردات لغتك تدور حول معنى واحد: اتفرج يا سلام تخرج من جراب الحاوي ما يثير الدهشة لدى المتفرجين. بعدها ابتعدت عنا.

كم أنت بعيد بعيد بعيد بعيد الآن؟ ما يفصلنا عنـك ليس سبعة بحـور ولا سبـع صحاري ولا سبـع سنوات عجـاف ولا سبـع سـماوات؟ انـه عصر بأكمله وطموح بلا حدود. الا تعرف أن الطموح تراب قاتل؟ ان الاستكانة لحياة المدن، بكل ما فيهـا من مباهـج ومسرات وترف طعـام سام، إنه سحر البرجوازية الخفي، من الصعب الامساك به أو تحديده، ولكنه سحر نفاذ قوي وقاهر. انت تتمتع الآن بمباهج الحياة، والمستقبل لن يحمل لك سوى المزيد والمزيد والمزيد. كثيراً ما تكون أمنيـة الانسان هي حبـل المشنقة المعلق. وكلما ابتعـد عن الحبل، اكتشف ان الـطريق يقوده اليه. وانت الذي توليت الأمر كله. حولت من رحلتك الى المدينة الى حبـل المشنقة، واقمت القضيـة. وكنت الحكم. كنت أنت القاضي والمفتي والجلاد والضحية أدوار كثيرة قمت بها. لن تكون صوتنـا. ولن نجـد صورتنـا من خلال قلمـك وعليك بـالاتجـاه الى المـدينـة. ففيهـا بداياتك وهي أيضاً المقبرة المعدة لك، وستظل قريتنا أرضـاً بكراً تنتـظر من يحملها فوق سن قلمه. كلمة ليست أخيـرة. ما دمت تحيـا. وعندك تلك القدرة الفريدة على الاستمرار. لِمَ هذه الانهزامية والتشاؤم والحزن والتهجم في تناول بلدنا. دع كـل هذا لغـيرك. وحاول أنت فـك رموز العصر السعيد الذي تعيش فيه. حزنك وتشاؤمك المصطنع غير مقنع. ولهـذا استهلكتك الـرغبة في مجـرد تصويـره. و اضحى هذا التصـويـر وسيلة وغاية. وهذا يجعلك عاجزاً عن أن تضع أيـدينا عـلى أي مخرج. الانسان لديـك مهزوم مكسـور حتى النخاع. وكـان يجب ان تعرف ان الانسان لم يخلق ليهزم أو ينكسر أو يتحطم أبداً. ان الهزيمة شر مـا يحيق بروح الانسان. ومن يستسلم لهذه الحالات غير جدير بأن يوصف بأنـه انسـان.. أبداً. اختلطت عليـك الأمور. واعـذرني فأنـا تلميـذك، أنـا صوتك القديم، صورتك أيام البحث والضنى. أنا ضميرك الذي نسيته هنا يوم سفرك للقاهرة وسأظـل مستيقظاً دائـماً. لن أعرف النـوم أبداً.

وسأنبهك في اللحظات الحاسمة. التي توشك فيها على السقوط النهائي الذي لا قيام بعده أبداً. . . سأنبهك قبل أن تسقط. فأنت - رغم ما جرى - رمز لنا جميعاً. نحن تلاميذك حقاً. علمتنا الكثير قبل رحيلك الدامي والمأساوي. أنا أقول لك الآن هل نسيت حديثك معي، عن الفارق بين الاستغراق في تصوير الواقع بلا هدف آخر. . . وبين القدرة على رصد حركة الواقع في تفاعلاته اليومية. . . قلت لي في الزمان القديم. ان مجرد التصوير يقدم لنا الواقع وهو في حالة جمود، صورة مكتملة، لا جديد فيها ولكن رصد حركة الواقع ونموها وتصاعدها يضع ايدينا على الاتجاه الصحيح للحركة. كور أوراق الرسالة، وشعر بغضب حقيقي اندفع الى صدره هواء ساخن وتسلل اليه شعور بالاحباط والفشل والعجز. همس لنفسه: حتى أنتم؟ حتى أهل قريته يناصبونه العداء ويشككون في قدرته على أن يصبح كاتباً كاد أن يمزق الخطاب ويرميه. توقف، طواه، اعاده الى مكتبه. قال لنفسه ليكن الضيق هو أول لحظات اليوم وهو آخرها أيضاً. هكذا ضمن لنفسه من الآن ان يجد في الغد ما يفسد عليه يومه أيضاً. أخذ الجريدتين واتجه الى سريره. وفي صمت تلك اللحظات الموحشة من الليل. قرأ حديث روائي مصر الأوحد. الذي خلا له الجو فباض وصفر وصال وجال. . . . سألته محررة الصفحة الأدبية بالجريدة، قالت له: انه نشر سبع روايات في عام واحد. وهي سابقة لم تحدث في تاريخ الأدب منذ أن عرف العالم فن الرواية. وهذه الروايات السبع نشرت ما بين مسلسلة أو في كتاب. ولكن الصورة عتاب ترجو أن لا يعكر صفو اللقاء: لماذا لم يكتب رواية ملحمية ضخمة لا تقل عن الالف صفحة من القطع الكبير، والمكتوبة على وجه الصفحات وظهرها عن العبور العظيم والنصر؟ اعتدل الروائي الذي يقول عن نفسه، إنه وحيد العصر والأوان. اعتدل في أنوثة لحظتها المحررة واثنى على ذكائها

وقدرتها الفريدة والمشكورة على متابعته. قال لها: انه ثمة توارد خواطر بينهما. وان ذلك التوارد مشجع ومبشر بالخير، تحسرت المحررة، فلا فرق بينها وبين الجالس أمامها قال لها: إنه فكر منذ أسبوع في هذه الحكاية. وادرك أنه مقصر فعلاً. لهذا اتصل بالقوات المسلحة وطلب دوسيها به بطولات الحرب. ووصله الدوسيه في اليوم نفسه، وهو موضوع على مكتبه، وله أولوية مطلقة بالنسبة لدوسيهات الروايات الأخرى. سيتفرغ له شهر واحد. لكي يستخرج منه فكرة رواية سينمائية ضخمة. تدخل البلاد بها عصر الانتاج السينمائي الضخم. لن تستغرق القراءة والعثور على الفكرة والانفعال بها سوى ليلة واحدة. وكتابة رواية لا تحتمل سوى أسبوع واحد مهما كان حجمها وطبيعة موضوعها، فهو عبقري يكتب مرة واحدة. من يقومون باعادة الكتابة أكثر من مرة، يعانون من حالة تشوش عقلي وقاموسهم اللغوي شحيح المفردات. ولهذا لا تحضر الكلمات الى أذهانهم بالسرعة المطلوبة. في اليوم التالي للانتهاء من الكتابة سيجلس مع المخرج والمنتج، ولأن الفيلم ينطبق عليه الاعمال الوطنية، ستقدم له كل التسهيلات. وبهذا يكون الفيلم جاهزاً للعرض بعد شهر واحد فقط.

سألته المحررة عما يقرأه الآن. لم يرد عليها. اخرج دوسيهاً، عبث بأوراقه بعض الوقت، ثم أخرج لها ورقة، عبارة عن كشف به اسماء الكتب التي يقرأها في هذه الأيام. كانت الورقة بدون تاريخ ومكتوبة على الآلة الكاتبة. القائمة بها حوالي عشرين كتاباً، موزعة حسب أنواعها. وكل نوع له عنوان جانبي: في الرواية، في النقد، الشعر، التاريخ، العلوم البحتة، علم النفس. استفهمت منه عن الأمر. قال لها: ان تلك هي أحدث طريقة في الحياة والتي تتمشى مع ايقاع الواقع الجديد. ان يتحرك الانسان ومعه كل الوثائق المطلوبة منه. ثم ان فكرة الكشف المدون، شكل من اشكال محاربة النسيان، وتلك احدى

خصائص المصرية الأصلية. اجدادنا بنوا الاهرامات، ليقولوا لكل الاجيال السابقة إنهم كانوا هنا في زمن ما. وهو يدون هذه الوثائق، لنقول بعد عدد لا نعرفه من السنوات. انه كان هنا. في زمن ما. . . أديب مثقف قرأ كل هذا العدد من الكتب. سألته المحررة باسمة: وهذا الكشف شهري. بان الانزعاج واضحاً على وجهه. قال لها بغضب (كل هذه الاوصاف ليست مأخوذة من الموضوع المنشور بالجريدة طبعاً). ان الكشف أسبوعي، يتم اعداده يوم الجمعة من كل أسبوع. بانت الدهشة على وجهها. قال لها: إن هذه الدهشة كان يتوقعها، لأنه من جيل جاد. . هل كثير عليه ان يقرأ عشرين كتاباً في أسبوع واحد فقط. انها مسألة سهلة جداً. وتتلخص في أمر واحد اسمه: التنظيم. انه يقرأ أربع عشرة ساعة يومياً، وذلك بفضل قدرته الخارقة في تنظيم يومه، وبهذا يصل عدد الكتب التي يقرأها الى عشرين كتاباً في الاسبوع. أما ساعات الكتابة فهي عشر ساعات في اليوم الواحد. وباقي ساعات اليوم يمارس فيها حياته الخاصة والعائلية وصداقاته ويذهب الى عمله ويروح عن نفسه ويستلهم الواقع المحيط به. رمى الجريدة من شدة الغيظ، أمسك الأخرى. قال لنفسه: لنتخلص من رجال العصر مرة واحدة. قدم المحرر كاتب مصر الاذاعي الأوحد. وصف سلسلة مفاتيحه الذهبية. تكلم عن أنواع المفاتيح. قال انها عشرة مفاتيح. هذا مفتاح السيارة الكبيرة. سيارة عطلات نهاية الأسبوع نطقها الكاتب الاذاعي «الويك اند» ووضعها المحرر بين قوسين وكتبها بالانجليزية وبجوارها ترجمتها العربية. وهذا مفتاح السيارة الصغيرة، المخصصة لمشاوير وسط البلد. وذلك بسبب الزحام الرهيب الازدهار الحقيقي في مصر. والعصر الذهبي الذي تمر به. جعل عدد السيارات يصبح أكثر من عدد بني البشر. لا بد من وجود سيارة صغيرة خاصة تناسب زحام عصر الرخاء. الثالث مفتاح منزل

العائلة. الرابع مفتاح شقة العشق والمحبة واسمها هو، الجارسونيرة. الخامس مفتاح العش الهادىء حيث يكتب أعماله وهو عبارة عن شاليه لا يعرف مكانه أي انسان في هذا الوجود، ولا تصله بالعالم أي صلة. حتى يتفرغ هناك لكتابة السيناريوهات الاذاعية. السادس مفتاح مكتب يقابل فيه رجال المال والاعمال لتسويق أعماله عربياً ودولياً، وينوي تحويله الى استديو للتسجيلات الاذاعية، يؤجر بالساعة لمن يريد عمل مواد اذاعية قطاع خاص. باقي المفاتيح لشقق مفروشة يؤجرها للأشقاء العرب حلا لمشكلة الاسكان الصعبة، ومساهمة فردية متواضعة منه في دفع عجلة الانفتاح السياحي، أو السياحة الانفتاحية. انها محاولة يقدمها في تواضع وصمت. لجلب العملة الصعبة لبلاده، دون أي اعلان... اقترب من المحرر، قال له ان كل المعلومات السابقة ليست للنشر، انها له شخصياً، لأن العلاقة بينهما علاقة خاصة وأكثر من انسانية. قالها في حالة مكاشفة بين أخ واخيه في الانسانية. ان نشرها للغوغاء والرعاع وعامة القوم يجعل صورته غير محبوبة. خاصة ان استخدمها الحاقدون الذين ورثتهم البلاد من العصر الماضي بكل ظلاله الكئيبة. سأله المحرر عن عدد المسلسلات التي قدمها في السنوات الخمس الأخيرة. رفض ذكر العدد. تساءل المحرر: هل العدد سره الخاص به؟ قال المؤلف الاذاعي الأوحد.. انه بالفعل يحتفظ بالعدد سراً خاصاً به. بسبب قرار اتخذه بينه وبين نفسه وهو تصميمه ان يكمل عدد المسلسلات حتى الواحد بعد الألف وبهذا ينافس شهرزاد في عدد لياليها. التي حكت فيها قصصها لشهريار. وبهذا ينتصر لعالم الرجال في ميدان لم ينتبه له أحد من قبل. رغم مرور سنوات طوال على الانتصار الذي سجلته حواء فيه. هناك بالطبع فوارق هامة بينه وبين شهرزاد. فهي كانت تحكي لملك واحد. أما هو فيقدم حكاياته لمائة مليون عربي.

س: وصلتنا ملايين الخطابات من المعجبين والمعجبات، تسأل عن السر في قدرتك على اختيار اسماء ابطال وبطلات مسلسلاتك هلا شرحت الأمر؟

ج: أولا، اهنيء المحرر على ذكائه الحاد، وأشكر المستمعين والقراء على حبهم الرهيب لي. ولهذا سأتنازل وأعلن سراً لم أعلنه من قبل أبداً. انني اختار الاسماء بطريقة بالغة البساطة افتح دليل التليفون وأول اسم يقع عليه نظري يكون اسم البطل أو البطلة. إنها الموجة الجديدة في التأليف. أليس كذلك؟!.

ـالكتابة لعنة.

قالها المؤلف هذه المرة دون أن يسبقها بالسؤال الساذج لماذا يكتب. استعرض في ذهنه كل المبررات التي قالها لنفسه وللآخرين في الفترات الماضية. وتساءل من جديد: هل هو الهم الذي لا ينام بداخله أبداً؟ ليس الهم. ربما كانت أكثر الكلمات صدقاً هي الضنى. أي العذاب الذي بلا نهاية. أم هو الصوت المبحوح الذي يئن دوما. يقطر حزنا ومرارة وبكارات مستباحة ذلك الصوت الذي سلبه راحته وقدرته على الاستمتاع بحياته وسحرها. لماذا يكتب؟ يطل السؤال برأسه. ذهنه خاو. ضحك على نفسه. في الزمان القديم. نفخ عروق رقبته بهواء كاذب وقال: أنا لم أخلق الا لكي أكون كاتباً روائياً بالتحديد. لو ضاعت مني القدرة على الكتابة لفقدت مبرر وجودي في الحياة. كان يكمل البيان المنمق بصوت عال:

ـ وسأعتصم بكلماتي. سآكل صمتي.

الكتابة لعنة تجعله يعيش في عالم مصنوع من الكلمات. وسادته محشوة بأنات من يطلبون فرصة الكلام. وخلال النوم يتدفق من فمه

شـلال الأغنيات القـديمة، التي فقـد القدرة على الشدو بهـا في لحظات اليقظة القاسية والحارقة.

الكتابة لعنـات، ولكن من يجرؤ عـلى التفكير في هجـرها. وان كسر قلمه فما البديل. أي كـاتب يغمس سن قلمه في دمـه ويكتب لا بديـل أمـامه سـوى الموت. أيـاً كانت صـورة هذا المـوت. فهـو مـوت قـاس وصعب. قال لنفسه:

ـ اذن ألخص الموقف. الكتابة لعنة. ولكنها اللعنة التي لا بديل لها. وكل وضع بدون بديـل لا بد من الابقـاء عليه. لحين العثور عـلى هذا البديل.

٢

كيف اقتحم سكان القبور حياة المؤلف وأفسدوا سعادته؟

بدأت الرواية هكذا.

كان سهلاً على المؤلف كتابة الجملة المعروفة. والمدونة أعلاه. ولكن بعد كلمة هكذا. بدأت متاعبه. لأنه بعد هذه الكلمة. كان على المؤلف الأصلي ان ينقب في عقل المؤلف الداخلي ليعثر على النقطة التي بدأت بها الرواية فعلاً. ولكن هذا الكلام ربما يبدو بعيداً عن الفصل الذي نحن بصدده الآن. فهذا الفصل مفروض فيه أن يجيب على سؤال واحد. كيف أصبحت حياة المقابر قضية عمر المؤلف. وهو الذي لا يعيش فيها. وكيف أخذت من عمره عدداً من السنوات لا يستهان به. ان المؤلفين ـ الخارجي والداخلي معاً ـ يحاولان تذكر هذه الحكاية ويبدو هذا الى حد ما من الأمور الصعبة. عموماً لنستمر وربما وجد القارىء ما يبحث عنه هنا في هذا الفصل. أو في الفصل الذي يليه مباشرة. والآن لنعد الى قصة الرواية نفسها. لكل عمل فني لحظة ما. من الصعب الامساك بها وتحديدها. لا يعرف أحد متى تنبثق في الذهن. ليست لها بداية واضحة ولا نهاية محددة ولا يمكن السيطرة عليها. هذه اللحظة يلتقي فيها المؤلف لأول مرة بفكرة عمله. إن هذه اللحظة في كل الأحوال لا تبدأ بفكرة مجردة. ربما كانت حادثة.

شخص، ذكرى قديمة. رائحة منظر ما. ولحظة الانبثاق في الذهن لا تكون سوى بداية البداية الاولى. وبعدها تمر هذه الفكرة بمراحل لا أول لها ولا آخر. الى أن تستقر في صورتها الأخيرة. وحتى هذه الصورة الأخيرة تبقى مجرد مشروع أو اطار عام. يتغير في كل لحظة جديدة. ان الكاتب تظل علاقته بعمله غير نهائية حتى اللحظة التي يصبح فيها عملاً مطبوعاً. هنا تتغير نظرة الكاتب للعمل.

تأخذ العلاقة شكلاً جديداً. اكتسب المولود القدرة على الخروج الى النور. واستقل. أصبح كياناً خاصاً في مواجهة مبدعه. وبدأ رحلته بمفرده. يقابل فيها العالم معتمداً على نفسه، لا وصاية لأحد عليه. حتى ولا للمؤلف نفسه وحتى لو أراد المؤلف اجراء أي تعديل. فان ذلك يبدو مستحيلاً عند نقطة الانبثاق الاولى لفكرة الرواية اختلف المؤلفان تماماً. . . جرت بينهما مناقشات كثيرة. كان كل منهما متمسكاً بتصوره للطريقة التي دخلت بها القبور بسكانها حياة المؤلف. كاد الأمر أن يصل إلى الشجار والعراك. (وهذا كله يذكر على سبيل الأيهام. لأن في الرواية مؤلفين. ولا بد ان يختلفا على أكبر وأبسط الأمور. وان يأخذ الاختلاف شكل الشجار والعراك. والا فما هو مبرر وجودهما معاً في رواية واحدة). كان لا بد وان تسوى المسألة. رفض كل منهما ان يتنازل عن تصوره للطريقة التي وصلت بها الرواية الى حياته. ولأن عدم التنازل موقف عظيم في أيامنا المليئة بالتنازلات اليومية. أو تنازلات كل دقيقة تمر. فقد أصر المؤلفان أن يذكر كل منهما طريقته. كل مؤلف له ذاته واحساسه بهذه الذات أول مفردات وجوده اليومي. لهذا سيجد القارىء طريقة أحد المؤلفين في هذا الفصل. وفي فصل قادم سيجد الطريقة الأخرى. الخاصة بالمؤلف الآخر. أما من صاحب هذه الطريقة. ومن صاحب تلك. فمسألة متروكة لذكاء القارىء. ذلك لأن أحداً لا يعلم مسبقاً موقف هذا القارىء من الطريقتين. ربما

رفض واحدة وقبل الأخرى، وتحديد مؤلف كل طريقة في هذه الحالة. ستصبح له أضراره البالغة. ثم أن عدم تحديد كل مؤلف مع طريقته. سيجعل القارىء يقوم بجهد ما ليحدد كل مؤلف بطريقته من خلال تمايزهما. إن وجد هذا التمايز.

ها هو أحد المؤلفين. يحاول العودة إلى اللحظة التي اهتم فيها بحياة سكان القبور، وبالحادث الذي تدور حوله هذه الرواية. ويحاول في الوقت نفسه أن يكون صادقاً مع نفسه. وتلك المحاولة ـ محاولة الصدق ـ تبدو صعبة لحد الموت. من منا يتعاطى الصدق في كل أو بعض ما يقوله. الصدق عمله غريبة لا مكان لها في أيام الكذب اليومي. الصدق يبدو غريباً مرّاً على الألسنة وفي الأفواه. يبدو حالة استثنائية والقاعدة الأساسية هي القدرة على إجادة الكذب. ان كل مؤلف يضفي على الإبداع جواً من السرية. حتى تبدو من الأعمال الخارقة في نظر الآخرين. ان المؤلف يعد بأن يتعامل مع الابداع كعمل بشرى عادي. ذات مساء. منذ أكثر من عام، قبل البدء في كتابة الرواية. كان المؤلف عائداً الى منزله. ولأنه كان في الوقت نفسه صحفياً جديداً. المهنة جديدة وطازجة. واهتمامه بها أكثر من اللازم ولم يكن قد دخل بعد الى دائرة الانكسار. وكان قد تخطى المسافة بين الصحفي والموظف. بين انسان صاحب قضية ومستخدم في إحدى المؤسسات يعمل نظير أجر معين يحصل عليه آخر الشهر، كان الموظف يشتري من دخله البسيط كل الجرائد والمجلات التي تصدر في البلاد (وكانت لا تحصى اختفى أغلبها الآن) أما الجرائد التي ترد من خارج البلاد (كان يوجد الكثير من المجلات والجرائد والكتب. تأتي من الوطن العربي والعالم الثالث. وكل الدنيا. ولكن حماة العقل المصري من الفكر المستورد. ووقف الاستيراد على البضائع الاستهلاكية اقاموا خفر حدود مهمتهم مصادرة كل كلمة مكتوبة تدخل البلاد. مسموح بدخول كل شيء وأي شيء ما عدا

الكلمة والفكرة والرأي. اعداء ألدّاء ثلاثة يجب محاربتهم على طول الخط. ان الحديث عن صحافة وكتب العالم التي تدخل مصر. يبدو حديثاً عن أزمنة سحيقة موغلة في القدم. رغم قرب هذه الأيام منا. ولكنها السرعة المخيفة في الانحدار). نعود الى حكاية الجرائد والمجلات التي ترد من خارج البلاد. كان المؤلف يستعيرها من بائع جرائد. اتفق معه على ذلك نظير مبلغ معين. بشرط ان يعيد الجريدة أو المجلة في اليوم التالي مباشرة.

فالميزانية لم تكن تسمح بشراء كل هذا العدد من المجلات والجرائد. في هذا المساء (كم يبدو بعيداً) مر المؤلف على بائع الجرائد. الذي يتعامل معه. أخذ منه المجلات والجرائد اليومية. من المفروض ان يعيدها غداً في الصباح واشترى جريدة المساء. وذهب الى محطة الاتوبيس. من الصعب العثور على مقعد في الاتوبيس. والوقوف بجوار نافذة مفتوحة مسألة غير مضمونة. المؤلف يقف الآن عند تقاطع شارعي المبتديان وقصر العيني. والمفروض ان يتجه الى شارع الهرم. حيث يوجد منزله وسط الحقول الخضراء التي تذكره بقريته. لو ركب الاتوبيس المتجه الى الهرم لما تمكن حتى من الوقوف فضلاً عن أن أي ضغط على المجلات التي معه. سيدفع بائع الجرائد غداً لعدم أخذها منه. ولا بد من دفع ثمنها. التاكسي لا يقدر عليه. وأصحاب السيارات الملاكي لا يقفون الا بغرض التقاط الفتيات فقط. ليس أمامه سوى ركوب الاتوبيس القادم من الهرم الى ميدان التحرير. حتى يلف به من هناك. وتكون فرصة الجلوس كبيرة. وان لم تتوفر فلا أقل من أن يضمن الوقوف إما بجوار النافذة. أو في مكان يبعده عن ضغط الاجساد البشرية... أتى الاتوبيس. ركبه. عند آخر الخط لم يصدق نفسه عندما وجد مقعداً خالياً وبجوار احدى النوافذ وفوق المقعد لمبة كبيرة... وهكذا تحققت كل امنيات المؤلف في تلك الليلة مرة واحدة.

المقعد للجلوس عليه. والنافذة حتى لا يختنق من الهواء الراكد وسط الاتوبيس. واللمبة حتى يتمكن من استغلال الوقت من التحرير الى الهرم في القراءة. جلس على الكرسي وفتح الجرائد والمجلات وبدأ في القراءة. وفي العادة فهو لا يقرأ في الاتوبيس بل يقوم بعملية تصفح عامة. يحدد من خلالها ما سيقرأه بعد عودته الى المنزل. في جريدة المساء بدأ بصفحة الحوادث. انها في تصوره ترمومتر حساس لكل ما يجري في البلد. فالحادث الذي يعني تصادم مصالح أو رغبات. . أحد المؤشرات الهامة بالنسبة للمجتمع. كان لديه سبب آخر يدفعه الى قراءة الحوادث اولا في كل الصحف. انه لم يمض عليه سوى عام وهو يعيش في القاهرة. بعد ان ترك قريته البعيدة. وكانت تداعب ذهنه في بعض الاحيان الرغبة في الكتابة عن القاهرة. كان يود تقديم احداث القاهرة اليومية في عمل روائي تسجيلي يكون جديداً في كل شيء. تكون أقسام الشرطة مصدره الوحيد. يجمع أكبر قدر ممكن من الحوادث. ويجري لها عملية غربلة. ليضع يده على أكثر الأمور غرابة باعتبارها تعبر بتركيز عن العصر. اكتشف بعد فترة استحالة ان يقوم بهذا العمل بمفرده. حاول أن يتخصص في الجريمة. فاكتشف صعوبة أو استحالة هذا. ان من يتخصص في الكتابة عن الجريمة لا بد وان يكون مندوباً معتمداً في وزارة الداخلية. وهذه الوزارة بالذات هي التي تختار مندوبيها بنفسها. وهناك بالفعل مندوب لها. قال له مدير التحرير انه لا يفضل له القيام بهذا العمل. لأن من يقومون به. تفرض عليهم أعمال أخرى غير مشروعة. وبمرور الوقت يصبح غير المشروع هو القاعدة. والمشروع هو الاستثناء. قنع بما قيل له. ولكن رغبته ظلت مثل الجرح الذي لم يشف تماماً. ويعاوده الوجع بين الحين والآخر. . قرر ان يتابع الحوادث في أبواب الجريمة في الجرائد والمجلات وان يحتفظ بها عنده. واشترى بالفعل دوسيهاً. جمع فيه مادة الكثير من الحوادث؛ لم يستطع التوقف

عند حد معين. . الغرائب والعجائب تزداد كل يوم. . ومن الصعب الاكتفاء بما وصلت اليه أمور هذا البلد الغريبة. ترك المسألة مفتوحة. . ومن يومها وهو يفتح الجرائد من باب الحوادث اولاً. . هذا المساء. فتح صفحة الحوادث في الجريدة المسائية. النظرة الأولى أكدت له أن الأمور عادية. المال والجنس هما الموضوعان الرئيسيان لكل الجرائم. قبل أن يغلق الجريدة. قرأ حادثاً صغيراً. مربع تائه وسط الصفحة. غير موقع. عنوانه صغير أيضاً. ضاقت به الحال فعرض أولاده للبيع في ميدان عام. خبر صغير ضائع فعلاً.

ومع هذا توقف المؤلف أمام الخبر طويلاً. شعر بتخلفه وببعده عن قسوة الواقع. وبأن كل ما لديه من الحوادث لا يصل إلى بشاعة هذا الحادث. فعلا الخبر يقع في أربعة أسطر على عامود واحد. رجل من سكان القبور ضاقت حياته فأخذ أولاده وعرضهم للبيع في ميدان عام. بالتحديد على رصيف النقطة التي يلتقي فيها شارعا سليمان باشا وفؤاد. ألقي القبض عليه. وأجري تحقيق معه بتهمة التسول التي يحرمها القانون المصري. انتهى الخبر أو الحادث. حاول المؤلف أن يتصفح الجرائد والمجلات الأخرى. ولكن ذلك كان صعباً لحد الاستحالة. عاد أكثر من مرة للحادث نفسه. ويمكن القول إن اهتمام المؤلف في البداية لم يتعد طرافة الحادث وغرابته. ولكنه بعد ذهابه الى المقابر. ولقياه بالأسرة. وقد تم ذلك في الاسبوع التالي مباشرة. حول المسألة من موضوع غريب الى قضية أخرى. لخصها المؤلف في ثلاث كلمات «سكان مدينة الموتى» من الصعب القول ان المؤلف عاش هذه المشكلة من لحظة القراءة الأولى. في البداية نقل الحادث الصغير كما هو. ضمه لملفه الخاص بحوادث مدينة القاهرة. ودوّن على غلاف الملف اشارة الى أن هذا الحادث هو أغرب الحوادث كلها. ثم استمر في عمله المتجدد مع كل يوم جديد.

ثم حدثت للمؤلف عدة حالات من الصعود الاجتماعي. زاد دخله وغير سكنه وأصبح من ذوي الاربع فرد كاوتش. من الصعب التوقف أمام كل حالة من هذه الحالات، فذلك يقودنا الى عملية تفتيش في ضميره قد لا ترضيه أبداً. . وفضلاً عن الرضا وعدم الرضا، فلا بد وانه سيكذب علينا. ولكن المؤلف يؤكد أنه في هذه الرحلة التي لا تخصه وحده. . وانما تخص ابناء الجزء السفلي من الطبقة الوسطى يؤكد انهم كلما صعدوا. كلما ازدادوا تمسكاً بالأصول التي صعدوا منها. أو انحدروا منها الى أعلى. والمؤلف في محاولته لتحليل هذه الظاهرة يقول إنها ليست دليلاً من أدلة الأصالة. بقدر ما هي محاولة لاسكات ضمير كل منهم ولتجهيز أجوبة لكل من يفكر في محاكمتهم بعد ذلك. يضيف المؤلف ان الصعود في عصر مليء بالمغامرات يجعل كل الذين صعدوا. يدركون انه صعود الى أسفل. انه يؤكد ان الصعود في حد ذاته في مجتمع طبقي مأساة. منذ اليوم الذي أصبح فيه المؤلف من أصحاب السيارات ومن سكان ضاحية مصر الجديدة. وأصبح طريق صلاح سالم هو طريقه المفضل. ولأنه شرقي، اهتم بمسألة الموت. ولفت نظره كل صباح وكل ظهر مروره بمساحات هائلة من المقابر. التي لا يصل النظر الى آخرها. ربما دارت في ذهنه بعض الأفكار والمشاعر عن الموت. الذي هو النهاية المؤكدة للصراع اليومي. وربما التقط المؤلف فتاة او امرأة من الطريق، في ذهابه وعودته. ولكن من المؤكد. أنه خلال فترة الصعود. كانت الأمور في وطنه تتهاوى الى الأسفل بسرعة مخيفة وقرر هو أن يستفيد من هول المأساة الحاصلة في بلده. ان يحول بحار الدموع. وتأوهات الضنى الى أموال تدخل جيبه. في كل يوم، كان يطل على الدوسيه. . ولكنه كان يخشى لحظة البدء. التي هي أصعب اللحظات في العمل كله وأكثرها خطورة. كان يقول لنفسه: من يضمن لي أن لا يحدث العجب العجاب بعد البدء بدقيقة واحدة.

قد يفاجئه الواقع بما هو أخطر من كل ما في ذهنه. في هذه الفترة نما لدى المؤلف احساس قديم. تقوى حتى درجة اليقين الذي يفسد على الانسان حتى معتقداته القديمة. هذا اليقين. انه لا بديل عن ان يكون الواقع هو نقطة البدء ونقطة الانتهاء معاً. . من ابتعد عن هذا الواقع ـ بكل ما فيه ـ بدد رصيده ونسف جذوره. ووصل لحد الخيانة نفسها. كان صادقاً. . وحاول بعد هذا نقل هذا الواقع من خلال ذاته حتى يعكس بذلك الواقع نفسه. .

المؤلف لا يدري بالتحديد اين تقع تلك اللحظة التي أصبحت فيها القبور وسكانها قضية عمره. اين تقع هذه اللحظة على خريطة حياته. مر كثيراً على القبور. وفي احدى هذه المرات وقف وركن سيارته. ودخل. اكتشف ان وسط القبور عالماً قائماً بذاته. بكل مفرداته. من يومها وهو ينقب في حياتهم. في المكاتب. في الاوراق. من خلال المسئولين. . يجري لاهثاً في كل مكان له أي علاقة بهم (سيجد القارىء كل هذا في فصل قادم). سأل نفسه ذات مرة: وماذا بعد؟ ماذا بعد الجري والبحث. وحتى ماذا بعد صدور الرواية نفسها ان قدر لها ان تصدر ذات يوم؟ لن ينقذ هؤلاء الناس مما هم فيه سوى ان يعاد فك وتركيب واعادة صياغة كل علاقات ومفردات الواقع في مصر. وذلك معناه تغيير كل شيء. . الامساك بالهرم القائم وقلبه. . اعلاه يصبح أسفله وأسفله يتربع فوق القمة الجديدة. وتلك مسألة لن تستطيع روايته. ولا آلاف الجمل القائمة في الكتب ان تفعله. قال لنفسه ليكن هدفي أن أكتب. ان يكون قلمي هو صوت الناس الذين أوصلهم التعود على ما هم فيه. الى درجة الشعور انه وضع طبيعي. وساكن القصر لديه احساس حاد. بأن القصر وكل مستلزماته حقه التاريخي. قال المؤلف لنفسه ذات مساء: هنا تكمن المشكلة. اننا تعودنا وألفنا ذلك الوضع الشاذ. وهكذا أصبحنا ننظر الى الوضع غير الطبيعي. . . على أنه من الاوضاع

الطبيعية. وهكذا تحولت مفردات الرفض، الى أدوات للقبول بما هو قائم فعلاً. لتكن هذه الرواية محاولة بسيطة يقول المؤلف من خلالها، ان النظر الى الوضع الحالي على انه أمر طبيعي جريمة. والاستمرار في ذلك جريمة.. ثمة خلل ما. مطلوب من الكل البحث عنه وتشخيصه واستئصاله. قد يقال ان الخلل أصبح ضخماً. ومحاولة الاصلاح قد تؤدي الى قتل الجسد كله. ولكن لا بد من الاصلاح. استمرار الوضع على ما هو عليه لن يطول. تلك أبسط قواعد الأشياء. وحركة الواقع الطبيعية. آه لو فعلت الرواية هذا. لو قالت: ان الوضع القائم غير طبيعي. لو قالته لصاحب القصر وساكن القبر. وكل الذين يقفون على السلم الاجتماعي الضخم بينهما. لو فعلت هذا. لتكون قد حققت المطلوب كله. همس المؤلف لنفسه في حزن آه من كلمة لو هذه. لو خلت اللغة العربية نفسها من كلمة لو. التي تعلق الفعل البشري على شماعة التمني أو تضعه في بحار التوازنات اياها.

هل أقول إن المؤلف استراح بعد أن وصل تفكيره لهذا المستوى. استحالة ان يعرف قلبه وعقله نعيم الراحة. ان استراح يكون قد مات. ليس مهماً شكل هذا الموت. هناك بشر راحتهم ورضاهم تعني انتهاء الدور الذي هو وفاة بكل معاني الموت. وهكذا استمر المؤلف في عمليات البحث والتنقيب في حياة سكان القبور.

٣

البحث عن قارىء
من بين ٤٠ مليون مواطن

قال المؤلف لنفسه:

ـ تبقى مشكلة البحث عمن يقرأ روايتي.

ضحك في مرارة. وكان السؤال القديم عن جدوى الكتابة يطل عليه. فصرف تفكيره بعيداً هذه المرة. قد تكون الكتابة نفسها لحظة تحقيق لذات الانسان، ولكن قراءة ما كتبه المؤلف، ربما فاقت الكتابة نفسها. انها اللحظة التي يعثر فيها المؤلف على حقيقة ذاته وحجمها ومدى تأثيرها، كان المؤلف جالساً الى مكتبه، أمامه خمس نسخ مخطوطة من روايته. أربع مكتوبة على الآلة الكاتبة. . والخامسة بخط يده. راجع النسخ المكتوبة بالآلة الكاتبة. صحح الأخطاء في الأصل والصور الثلاث. اعتنى بالنقط والفصلات وبدايات ونهايات الجمل. نقر بأصبعه فوق الرواية وتساءل:

ـ من يقرأ هذه الرواية اذن؟

ـ ثم أكمل:

ـ انتهينا من الجهاد الأصغر ليبدأ الجهاد الأكبر.

فعلاً، لا بد من العثور على عين تشع ضوءها على الأحرف الصماء، فتنطقها. عين تغمس نفسها في الخطوط الميتة، فتحركها مانحة الأبطال

والناس والحكايات والمواقف فرصة التعبير عن أنفسهم . . قرر المؤلف أن لا يقوم من مكانه قبل حسم هذه المشكلة . ألقى نظرة على ما يسمى بالحياة الأدبية في مصر، قال لنفسه: أي الاكتشافات تعد جديدة؟ الأمر كله قديم . ولن يكون هناك جديد سوى الكلمات التي تصف الموقف . بحث عن الكلمة المناسبة . جفت الكلمات بداخله . ضرب رأسه . وجدها أخيراً: الهاوية .

الكتاب نوعان . هناك من سقط حتى القاع . النوع الآخر مشكلة في حد ذاته: الوقوف على حافة الهاوية لا يمكن ان يكون البديل الوحيد للسقوط فيها . انه موقف عاجز . فلا بد من بديل . أسفل، في عمق الهاوية نفسها . هناك الفترينات الثقافية الهشة . . وخلف الفترينات يجلس تنابلة سرك الحوار الدائر . أما الذين فضلوا الوقوف على الحافة فقط . من تحت يرسلون لهم رسل الترويض والتليين والتطويع ، ليمسكوا الأقلام السلطوية ويكتبون .

الفارق حاد وواضح وقاطع . اما أن يكون هناك ابداع أدبي أو مجرد محاولات لرص الكلمات بجوار بعضها البعض . كاتب أو لا كاتب على الاطلاق . وفي ذلك الجو المعتم حيث الظلام مكعبات فوق مكعبات فوق مكعبات . قد تكون هناك ومضات ابداعية . من الذين على الحافة حتى الآن . . ابداع قليل كما ومنزو . متهم دائماً ويعيش مثل نباتات الظل المنسية . ولكن لن يكون في مصر نقد يرقى الى مستوى هذا الابداع القليل . لن يحدث هذا . . ليست حتمية تاريخية ان كل حركة ابداعية تخلق من داخلها نقادها . . هناك فارق ضخم بين الابداع والنقد . النقد مرتبط بالفكر بالتيارات الفكرية السائدة في الوطن . في مرحلة زمنية معينة . والفكر مرتبط بالطريقة التي ندير بها حياتنا . في كل النواحي وعندما نصل الى الحد الذي وصلنا اليه . حيث أن أمور حياتنا

تدار بصورة غارقة في التخلف والغيبية. لقد عـدنا للخلف نصف قـرن من الزمان. ولهذا لن يظهر نقد اطـلاقاً. إنها عصـور الظلام والاظـلام التـام والعتمة. ولن يـوجد في هـذه العصور سـوى الخفافيش الـذين لم يقدروا على التواجد في نور الخمسينيات والستينيات الباهـر. ثم تألقـوا وفي كل منهم مدرسة متكاملة في نقد الأدب وتفسيره. وسنـوات الظلام هي المرتع الخصب للخفافيش التي لا تعرف العمل في الضوء. ستكـثر في مصر المذاهب والاتجاهات الخفاشية في نقد الأدب. ولكن مـاذا قدم الذين على حافة الهاوية؟

لا داعي للحـديث عن الهجرة الجـماعية التي تعـد تسمية غـير دقيقة للهـروب من ميدان المعركـة الحقيقي، الى ميـادين وهميـة. تـدار منهـا معارك وهمية. حتى الذين لم يهربوا ولم يهاجروا.. ماذا قدموا. ظروفهم في صعـوبة المـوت. هذا صحيـح. ولكن البعض منهم مضى على آخـر مقال نقدي كتبـه ست سنوات.. البعض الآخـر هجر النقـد الى أعمال أخرى. مثل العمل الاجتماعي أو الصحفي أو السياسي أو التدريس.

لهذا قد يكـون هناك ابـداع ما. جيـد أو متوسط. فـالابداع عمليـة فردية تعبر في الغالب عن حالة من عدم التوافق مع هذا العالم.. ولكن لن يكون هناك نقـد أبداً. ولان الجـو خال. فـالمسرح معد للخفـافيش القادمة من عصور الظلام والتخلف والجهل والبدائية.

لأول مرة يشعر المؤلف بـراحة فعليـة من بدء يـومه.. تلك المعـادلة البسيـطة هي مـا كـان يفتقـده فعـلاً.. وتـوالت عليـه في جلستـه الاكتشـافات. من يقـرأ الروايـة؟ هل سيعـود للبحث عن ناقـد؟ رغم وجهة نظره الأخيرة هذه. من الأفضل فعلاً، ان يقرأ هذه الـرواية نـاقد وليس كاتباً مثله. وحتى لو بحث عن هذا الكاتب هل سيجـده؟ جرتـه خواطره الى مواجهة نفسه: من من كتاب هذه الأيام يعد صديقاً له؟ في

احدى قصصه القصيرة شبه الأمر في الواقع الأدبي بالمعترك القاسي. قال ان كل كاتب يمشي وبين يديه قطعة من لحم الآخر، وبين أسنانه تنز قطرات الدم. هل كان مبالغاً؟ انه يكتشف في جلسته هذه وبعد سنوات الخلق والابداع. ودخوله معترك ما يسمى بالحياة الأدبية، انه لا صديق له. تذكر الأيام الأولى.

ذات مساء عندما كان يخطو خطواته البكر. كتب في احدى صفحات مذكراته: الصديق هو الشخص الآخر الذي تتعرى أمامه حتى من جلدك. وتشعر ان دفء الصداقة يغطيك ويسترك ويحجبك عن الأعين. لنخرج الصداقة من الأمر، فهي تعبير عاطفي وغير عملي، انه يطلب الآن شخصاً يقرأ عمله. لنضع مقياساً بديلاً. انه يبحث عن شخص يعطيه هذه الرواية، يملك القدرة على التعامل معها. من؟ من؟ من؟ لا أحد على الاطلاق.

كل من يقابلهم أو يجلس معهم. يتركون لديه انطباعاً باللامبالاة والعبثية وادارة الظهر للواقع اليومي بكل ما فيه. ثم يبقى الاحساس المأساوي الذي يترسب في نفسه وهو في الطريق الى منزله. الاحساس بأن اليوم الواحد، معركة مصيرية. معركة لن يكون فيها غالب أو مغلوب. بل الخسران لكل الأطراف، والشيء الذي يخسرونه جميعاً هو انسانيتهم. هذا فضلاً عن الذاتية. . كل واحد أغلق الدنيا على دائرة ذاته وهمومه ومطامحه.

انه يبحث في أعماقهم عن قطرة واحدة من الحس الانساني أو الشعور بالآخرين أو القدرة على منح العلاقات بين الناس دفئاً انسانياً. لدى كل منهم قضية شخصية وذاتية لأبعد الحدود. . ومعركة كل يوم هي حالات التماس والتقابل والتنافر بين مجموعات خطوط المصالح. وقف في نافذة غرفته. قال لنفسه: ان الحياة الأدبية في هذه الأيام

ضائعة بين تطرفين: اليمين بكل جهله وتخلفه وأميته وغباوته، واليسار الذي يعامل كأنه خارج على القانون. يمارس عملاً مرفوضاً اسمه التفكير.

اليمين في يده كل ما في البلد. وقد يمنح بعض الفرصة لأشباه الكتاب. ولكن شعاره واضح ومحدد إما أن تكون تحت إبطي والا فلا.. من ليس في ركابي فهو ضدي. وهذا أوصله لحالة غريبة. فهو لا يعرف التعامل سوى مع العملاء. والعميل لا يمكن أن يكون موهوباً الموهبة مع التقدم. الموهبة الحقيقية لا تتعامل الا مع جوهر الواقع.. وهذا الجوهر هو التقدم.. لا يمكن لموهوب أن يقبل العمالة. فالعمالة تعني أن بالداخل عطباً انسانياً. وتلك هي مأساة الجيل البديل من العملاء. خلقوهم واستكتبوهم وزرعوهم في كل الأمكنة، وفتحوا لهم كل أبواب مصر، في محاولة محكوم عليها بالفشل مسبقاً بقتل الجيل الأصلي وخلق جيل بديل.

في المواجهة فصائل اليسار. ورغم أنهم خارج الدائرة.. ويتعرضون جميعاً للقهر والفصل والتشريد وربما التجويع. الا ان حروبهم الداخلية الطاحنة جعلت الباقين منهم في الساحة لا يصلح الا لمعالجة جراحه. والأسلحة التي بأيديهم رغم قدمها، فهي ما زالت فتاكة. ان الاتهامات والخلافات والتشكيك بعض هذه الأسلحة.. وستظل مأساتهم هي العوم في بحار اللغة والحرب وسط عالم مصنوع من الكلمات والجدل والنقاش بلا نهاية، لنترك المبدعين وننظر في قائمة النقاد.

هاله انه لم يعد في مصر سوى عدد قليل جداً.. الكل في المنفى.. منفى اختياري أو اجباري.. توزعوا على خريطة العالم، لا يحملون بداخلهم سوى ألم الغربة. ووجيعة البعد عن الوطن. تحتل مكان تجويف

القلب. قبضة من تراب وادي النيل. من يوجد في مصر من النقاد؟ استعرض الاسماء. ترك قراء المقاهي وكتاب الكازينوهات. حاول العثور على اسم أو أسمين. هالته حالة العفن التي وصلت اليها البلاد. قال لنفسه بيأس قاتل: لا يوجد أحد عاد وقرر ان الأمور نسبية. لنفترض ان كل الموجود سيىء، هذا صحيح .ليكن البحث اذن في اطار هذا الموجود السيىء.المطلوب هو وضع اليد على أفضل السيئين.. مضت فترة من التفكير العميق.

أخيراً قال: وجدته. توقف أمام إسم بعينه. قال لنفسه، انه فعلاً شارب البيرة، المتوتر جنسياً دائماً وأبداً، صديق شبان تحت العشرين. ولكن هل يوجد من هو أفضل منه؟ قرر الذهاب اليه. ليكن رأيه فيه ما يكون. ولكنه الآن في موقف المحتاج، واحتياجه بالتحديد لشخص يقرأ روايته.

لم يتصل به. فهو يعرف جيداً مكان تواجده وقت الظهر الميت، أو بعد العاشرة ليلاً. ذهب اليه في ركنه المعتم في البار الذي يجلس فيه. كعادته كان يشرب ويحتفظ على المنضدة بزجاجات البيرة الفارغة كشاهد اثبات على بطولته الوهمية. وكتفسير لا بد منه، لما وصل اليه حاله من التدهور الأدبي والخلقي. رسم على شفتيه ابتسامة يقتضيها الموقف العصيب وعكرت ملامح وجهه ابتسامة واسعة. رسمها بصورة أو بأخرى. تقدم منه وصافحه كاد ان يقبله. مع ان كلا منهما يكره الآخر لحد الرغبة في قتله، ويتمنى موته وفناءه. جلس. تبادلا كلمات لا معنى لها. فشلت في أن تجعلهما يهربان من لحظة الصمت الطارئة. هذا الفشل دفعه لأن يفكر في الحديث عن الموضوع الذي جاء من أجله.

أعفاه الناقد وسأله:

ـ هيه، ما وراءك؟

ـ رد عليه بصوت خافت:
ـ لدي رواية جديدة.
ـ فهمت، تريدني ان اقرأ الرواية، وأقول لك رأيي فيها؟
ـ فعلاً.
ـ تماماً، مثل كل مرة.
ـ لا، الجديد هذه المرة انني أنوي.

قاطعه الناقد الذي يقول عن نفسه انه شاب، رفع يده المرتعشة في المسافة الضيقة بينهما. أثارته كلمة الجديد هذه المرة. تساءل بمرارة: أي جديد هناك، لا جديد تحت الشمس. لقد مل القراءة.. خاصة قراءة الروايات، فهي تقدم عالماً من الخيال، ثم ما هي قيمة قراءة المخطوطات. انها مجرد مشروعات لأعمال أدبية قد لا ترى النور. أي لم تكتمل بنشرها. والأهم من هذا. هل ثمة فائدة تعود عليه من القراءة؟ في الداخل سدت كل الأبواب والحمدلله. وفي الخارج لا يستطيع للكتابة عن عمل لم ينشر بعد. سأله:

ـ ما اسم هذه الرواية؟
ـ شكاوى المصري الفصيح.
ـ أشاح بيده:
ـ أف، وهذا سبب آخر لرفض القراءة.
ـ لم؟.
ـ الأسباب في كثرة الهم فوق القلب. اليك يا سيدي.

توقف الناقد، تذكر فجأة أمراً ما. سأل المؤلف:

ـ حدثتني منذ عام عن رواية تعاني كتابتها. الرواية عن رجل ضاق به الحال. فعرض أولاده للبيع في الشارع.
ـ صاح المؤلف:
ـ انها هي بالفعل.

ـ لا ، يومها قلت لي عنواناً طويلاً. سأحاول تذكره. كان يبدأ بكلمة عندما على ما اعتقد. كان العنوان يقول: عندما عرض عباس المليونير أولاده للبيع في ميدان سليمان باشا. وما جرى حول هذا من أحداث.

وصلت سعادة المؤلف الى درجة لم تحدث من قبل. عندما اكتشف ان الناقد يحفظ عنوان الرواية، رغم مرور عام على حديثهما عنها.

أكمل الناقد:

ـ لعلك تذكر ان صديقاً ثالثاً كان معنا. رئيس نيابة، وهو قارىء جيد. قال ان الموضوع كئيب بما فيه الكفاية. وهو حزين ومقبض في حد ذاته. ولا بد من تناوله بشكل كوميدي صرف.

ـ كل هذا أذكره.

ـ اذن هي الرواية نفسها.

ـ فعلاً.

ـ ولماذا تريد مني قراءتها؟

ـ لأنه ليس لدي شخص آخر يقوم بنفس المهمة.

ـ وهل وصل الحال الى هذا الحد في مصر؟

ـ وأكثر.

ـ ورغم هذا لن أقرأها.

ـ هل لي أن أعرف الأسباب؟

ـ قلت لك انها كثيرة. اليك يا سيدي المؤلف الشاب.

صفق المؤلف، طلب زجاجتين من البيرة المثلجة التي يبدو زجاجها مغبشاً من شدة البرودة. صب المؤلف البيرة المثلجة في كوب الناقد وفي كوبه. واستمع الى الأسباب الكثيرة التي شرحها الناقد. قال الناقد ان هناك جملة أسباب تحول دون قراءته للرواية . . بدأ بالأسباب النفعية.

ان الرواية تحتاج ليوم وليلة لقراءتها. اليوم والليلة ان أحسن

استغلالهما، من الممكن أن ينجز فيهما مقالاً أو عرضاً لكتاب أو تحقيقاً صحفياً، ينشر في الصحافة العربية. حيث أنها تدفع عشرين ضعفاً لما تدفعه الصحافة المصرية. توقف وتساءل: الصحافة المصرية تدفع أقل، ولكن هل تنشر فيها أي شيء ثقافي جاد، حتى لو كان النشر بدون مقابل. مطلوب من صحافتنا ان لا تتعامل مع الذهن البشري. تلك أصبحت جريمة يعاقب عليها القانون. التعامل مع كل أجزاء الجسم البشري مطلوب. وبالأخص غرائزه. أما العقل فالمطلوب هو تفريغه من محتواه. اذا ضاع الوقت في القراءة فسيكون وقتاً بدون عائد. الحال صعب والناقد دون عمل. ليس له دخل ثابت أول كل شهر ولديه التزامات كثيرة. ولا بد من العمل يومياً وبأي صورة من الصور ومهما كانت التضحيات والتنازلات لكي يضمن لقمة العيش فقط.

الأسباب الأخرى نفسية صرفة، الا يكفيه الضيق اليومي الذي يعانيه من كل ما في مصر. حتى تضيف هذه الرواية الى ضيقه الأصلي ضيقاً جديداً. لن يعود الناقد للحديث عن مهمة الفن.. سواء كانت هذه المهمة هي تجميل الواقع أو تقديمه كما هو، أو اضافة مزيد من القبح والسوء اليه. يكفيه ما يراه كل يوم. ان مستودع الرفض والضيق والغضب وصل بداخله لحد الانفجار وهو يعاني من كبت هذه المشاعر ويخشى ان تصل المسألة معه الى الحد الانفجاري.

تبقى مسألة الأمن. كيف يقرأ عملاً لا يمجد النظام ويسبح بحمده. انه يخرج بهذا على العرف والنظام والتقاليد: ويضع نفسه تحت طائلة القانون. وما أدراك ما القانون؟ انه سلاح ذو حدين. ومن الممكن استخدامه لحماية الانسان، وفي الوقت نفسه فهو مهيأ لأن يصبح حبل مشنقة يلتف حول رقبة من يشاء، التهم موجودة وجاهزة وتحت الطلب.. ثم من يضمن له الا تكون هذه الرواية بكل ما فيها

من رفض، ليست مجرد شبكة أو طعم تستخدمه الأجهـزة حتى تكتشف من لا تعرفهم من المختلفين مع النظام. وعند حدوث أول متـاعب. أو قيـام أول مظاهـرات أو انتفاضـات، يصبح كـل من قـرأ الـروايـة، أو تعاطف معها، أول من يقبض عليه.

ليس معنى هذا ان الأيام كسرت الناقد. وانه يطلب الأمن والسلامة بـأية صـورة. ان ثوريتـه القديمـة كما هي، هكـذا قال النـاقد مـوضحاً الموقف للمؤلف. وهو مستعد لدخول السجن في أي وقت. حتى بدون أمل في الخروج منه مرة أخـرى. ولكن بشرط ان يتم هذا بسبب قضيـة كـبرى تستحق الرمي في السجن، تشخيص مـوقفه السليم يتـطلب ان يقـال انه حــذر وليس خائفـاً. الحذر مطلوب اما الخـوف فمـرفـوض. صحيـح ان الحذر الـزائد عن الحـد هو المقـدمـة الأولى نحـو الخـوف. الخـوف شعور سلبي ومـا يفصله عن الحذروالحيطة خيط رفيع ودقيق. ولكنـه يعي هذه الفوارق جيداً.

كان التعب قد بدا واضحاً على وجه الناقد. ولهـذا بدأ ينهي حـديثه قائلاً:

ـ هناك سبب أهم وهو اني مشغول بعدة مقـالات أرجو الانتهـاء من كتـابتها قـريباً. كلهـا مطلوبـة ومتفق عليها. وقبضت جـزءاً من ثمنهـا مقـدمـاً من السـادة أصحـاب الـوكـالات الصحفيـة والفنيـة والأدبيـة والفكـرية، والتي انتشرت في مصر مؤخـراً كجزء من سيـاسة الانفتـاح الاقتصـادي العظيمـة. وهـذه الـوكـالات تستكتب الكتـاب والمؤلفـين والصحفيين مقالات وأبحاثاً ودراسات ومقابلات تتبعها لصحافة الدول العربية. ارتفـع سعر المقـال. نتيجة التنـافس بين أكـثر من مكتب ومن وكـالة. ووصـل ـ بالنسبـة لي على الأقـل ـ الى خمسين جنيهـاً للمقـال الواحد. مما دفع قصاصاً شهيـراً يعد من كتـاب الصف الأول. ويفتعل

القضايا الجانبية. ويناوش حواء المصرية أحياناً. وينتقل من التأييد المطلق، الى الرفض المطلق في غمضة عين. هذا الكاتب أصبح يعيد نشر مقالاته التي ينشرها في الجريدة التي يعمل بها. على أنها قصص قصيرة. وهو يحصل على مائة وخمسين جنيهاً ثمناً للقصة الواحدة. حتى لو كانت من ورقة واحدة. تصور قصة من ورقة واحدة، مكتوبة من وجه واحد بهذا المبلغ. . ان مرتبي الشهري، من جهة عملي، قبل أن أفصل منها، لا يمكن مقارنته بهذا المبلغ. وهل تتصور انه بمجرد الاتفاق على الموضوع، حتى تدفع لك الوكالة جزءاً من المبلغ.

لا أعرف كم عدد هذه الوكالات الآن. ولكن مبلغ علمي ان عددها سيزيد. لأن هناك عدداً من أصحاب مكاتب الاستيراد والتصدير ينوي كل منهم فتح فرع من مكتبه لشئون الفن والأدب والصحافة بعد اكتشافهم مدى الربح الذي يعود عليهم من هذه العملية. ثم أن تجارة الفكر والصحافة تعطي لمن يمارسها وجاهة فكرية قد تكون مطلوبة بجانب تصدير السلع واستيرادها. ان نزول أصحاب مكاتب التصدير والاستيراد الى ميدان الوكالات الصحفية، ومنهم ضباط سابقون، وتجار خردة وسماسرة. وهم جميعاً لا علاقة لهم بالفكر والأدب. سيجعل قانون العرض والطلب هو سيد الموقف. وفي هذه الحالة لا يعرف الناقد المدى الذي سيصل اليه ثمن المقال. قد يأتي يوم يبيعه فيه بالسطر أو بالكلمة. . كل هذه التطورات تحدث في مصر. ثم تحضر لي. وتطلب مني قراءة روايتك. أف. واسمها: شكاوى المصري الفصيح. . أي شكاوى ونحن على أبواب زمن الكسب بلا حدود. ما دام الكسب هو هدفك لن يسألك أحد عن وسائلك أو طرقك. أعرف انك لن تصدق هذا. . ها هي قصاصة ورق بها بعض الموضوعات المطلوبة مني فوراً أقدمها لك كدليل على صدقي.

مد الناقد يده . كانت الرعشة قد ازدادت وأصبحت واضحة . أمسك النظارة . وضعها على عينيه بصعوبة . حاول القراءة ولكنه لم يتمكن . انقاذاً للموقف أخذ المؤلف الورقة منه . وقرأ رؤوس عناوين الموضوعات المطلوب من الناقد كتابتها فوراً . وتسليمها في ظرف أسبوع من تاريخه . عشرة موضوعات عن القصة والشعر والرواية والنحت ومقابلات مع ممثلات وممثلين . وجولة في الاستديوهات لتغطية الافلام التي يتم تصويرها حالياً . وجولة في دنيا المسرح ومعارض الفن التشكيلي . وتغطية لجريمة الموسم وكل موسم . وظاهرة تدفق السياح على مصر . ومشروعات الانفتاح الاقتصادي ونشاط الجامعة الامريكية في مصر . والدور العظيم الذي يلعبه المركز الثقافي الأمريكي . والمركز الثقافي الايراني في توعية شعب مصر والنهوض به . ظهر الورقة أو قفاها . كانت به عناوين موضوعات أخرى للأسبوع الذي يليه . قبل ان يدير المؤلف الورقة ليقرأ ظهرها . قطع الناقد الصمت متسائلاً :

ـ أليست موضوعات هامة؟

ـ قال المؤلف :

ـ انها هامة ومصيرية وموسوعية وعلى درجة عالية من الخطورة .

ـ أكمل الناقد :

ـ وتحتاج لمراجع وقراءات وتأمل وربما اجراء مقابلات وتصوير بالألوان والأسود والأبيض .

أعاد المؤلف الورقة الهامة للناقد . فكر في نقل ما بها . أو الجري لأقرب استديو لتصويرها . فهي وثيقة هامة من وثائق هذا العصر . ولكن تسلل اليه كسل مفاجىء . فأخذ مخطوط الرواية . وقف . نادى على الجرسون . حاسبه على ما طلبه من بيرة . مد يده ليصافح الناقد . الذي تسلل البياض الى شعر رأسه . كان تائهاً في غيبوبة لحظة الظهيرة الحارة . قال المؤلف :

ـ انها موضوعات مجزية، ومطلوبة سلفاً، ومتفق عليها. وعلى وجهة النظر التي تقدمها. وأهم من هذا. فهي تنهي دور وطنك في آخر ميدان لم نهزم فيه بعد.

أفاق الناقد فجأة.. هز يد المؤلف بعصبية لفتت انتباه كل السكارى تقريباً.

ـ وطني، وطنك، وطن، أين هذا الوطن؟ هل حضرت هنا اليوم لتوجه لي الاهانات، وأنا في حالة لا تسمح لي بالرد عليك. مطلوب منا ان نعيد النظر في كل مسلمات حياتنا. وأولها مفهوم المواطنة. الحقد يطل من عينيك. جبال الحقد أراها واضحة. مشكلتك ان النقاد مطلوبون أكثر من المؤلفين في أيام الانفتاح الاقتصادي العظيم.

أسكته السكارى. كانوا خائفين وهم يحاولون اسكاته. خائفون من ماذا لا أحد منهم يعرف مصدر الخوف. رعب من جبال القوانين المكتوبة التي تعاقب من يتكلم أو يغني أو يفكر أو يتناول الخمر. أو الخوف من القوانين غير المكتوبة. التي تحظر كل شيء.. ربما كان الخوف من الحرية والديمقراطية التي كثر الحديث عنها في هذه الأيام.

خرج المؤلف. على رصيف الشارع المزدحم بالأرداف الثقيلة والأيادي البضة والسيقان المثقلة باللحم. لحم زائد عن الحاجة يقول لك ان هناك حالة من الترف الانساني. الصدور مترجرجة وأعين النساء يخرج منها نداء جنسي صارخ. تساءل: هل خلت البلد من الرجال حتى تخرج نساؤها بتلك الصورة. راح يضرب خطواته بقوة وعصبية كأنه جندي في طابور. وان كان لا يعرف الى أين يتجه بالتحديد. توقف ثم واصل سيره. ثم توقف.

استدار الى الشارع. نساء. نساء. بضائع، بضائع. تلال من البضائع. نهر متدفق من السيارات، لافتات على العمارات انها كلها

مكاتب استيراد وتصدير، مكاتب استشارية، بيوت خبرة. شركات تحت التأسيس. دوائر أعمال الأمراء العرب في مصر. شقق مفروشة. شقق مفروشة، شقق مفروشة. البلد كلها مفروشة. مكاتب لدراسة الجدوى الاقتصادية للمشروعات. . مكاتب سفريات. مكاتب توكيلات سياحية. وكلاء شركات. شركات ما وراء البحار. وأعالي البحار وأسافل البحار.

مر بيده على مخطوطة الرواية. قال لنفسه تلك هي الشكوى الأولى للمصري الفصيح. تساءل في أسى: وهل بقي واحد فصيح في طول البلاد وعرضها. لنعد الى الشكوى الأولى: لقد أذل الحرص أعناق الرجال. وأين هم الرجال؟ لا، يجب كتابة الجملة مرة أخرى هكذا: لقد أذل الحرص أعناق المصريين. أوه، ان الجملة تبدو ناقصة. الحرص كلمة عامة. الحرص على ماذا؟ هل هو الحرص على تحرير الأرض المحتلة؟ الحرص على اقناع من يموت بالجوع بأن الثورة أصبحت الطريق الوحيد؟ الحرص على اقناع من يموت من التخمة بأن تحرك الأمور ليس في صالحه. كلا،انه الحرص. في هذه اللحظة اكتشف ان وقفته عطلت حركة المرور. . كاد الأمر ان يصل إلى أزمة. استأنف سيره، وهو يحاول الوصول إلى اقصى صياغة للجملة التي توصل اليها.

عند عودته الى المنزل. كان مكسوراً. دخل الى حجرة نومه مباشرة. مر على حجرة المكتب. شاهد مكتبه. فوقه الأقلام والأوراق الباقية بعد كتابة الرواية. انسالت في خاطره كلمات. ابنة اللحظة التي عاد فيها. اتجه الى المكتب. لم يجلس. أمال جسمه الى الأمام قليلاً. وأمسك بالورق وكتب بعض الجمل التي لا رابط بينها أبداً. لا يدري لِمَ دونها. ولكنه فعل.

عندما تصبح الكلمات فترينات هشة لواقع كئيب. تنابلة سرك

الحوار الدائر. الوقوف على حافة الهاوية هل يصبح بديلاً للوقوع فيها. سياسة التليين والترويض والتطويع الى متى تستمر؟ الأقلام السلطوية. من يعجن خبز الفقراء ويعبر عن وجع البيوت الطينية وأنين من لا صوت لهم. من؟ من؟ من؟

نظر الى الورقة من بعيد بدهشة. تساءل في مرارة. هل يجمع بين هذه الكلمات شيء ما. قال لنفسه: ربما كانت الكلمات هذياناً. هذيان ذهن متعب. ربما.

٤

المؤلف يتساءل:
هل من حقي ان أقدم نفسي لكم؟!

هـذه الروايـة لها مؤلفـان. . مؤلف يقدم العمـل كله لكم، ومؤلف داخـلي. . المؤلف الأسـاسي ستجـدون اسمـه بـالكـامـل عـلى غـلاف الرواية. . وربما طالعتكم صورته على غلافها الأخير. وقد تجدون كلمة عنه. . وبياناً بكل مؤلفاته التي سبق نشرها. . والأعمال التي لم تـر النور بعد. ومازالت تحت الطبع. ولأنه شخص موجود على قيد الحياة. يمكن معـرفته. فـلا جدوى من الحـديث عنه هنـا. لنتفق من الآن على هـذا الأمر.

ان المؤلفين وجهان لعملة واحـدة. ولهذا لن نـذكر اسـماً ما للمؤلف الداخلي. وان تم هذا فسيكون من باب الايهام بأن هناك مؤلفاً آخر. . وهذا غير صحيح من الناحية العملية. . من السهل على المؤلف الأصلي أن يجلس ويكتب اسماً لمؤلف. ربما كان الاسم الذي يتمنـاه لنفسه. لـو كانت له فرصة اختيار اسمه. ومن السهل أيضاً أن يمنح هذا المؤلف مـا يشاء من الصفات. فلا أعتقد أن هناك صعوبة في الحديث عـن نشأتـه وحالته الاجتماعية والوظائف التي تولاها. . وعمله الحـالي. . وهوايـاته والنادي الذي يقضي فيه فراغه. ذلك أمر سهل. والأسهل منه أن يثبت هنا. المؤلفات التي نشرها. والدراسات التي كتبت عنه والمقـابلات التي

أجريت معه. ولكنه كما قلت لن يكون أكثر من محاولة للايهام. ولهذا سيشار الى المؤلف الداخلي من الآن. وحتى نهاية هذه الرواية المركبة بلفظ المؤلف فقط، لأنه ليس أكثر من أحد وجهي العملة التي يمثلها المؤلفان معاً.

كل ما سيفعله المؤلف الأصلي الآن. أنه سيقدم لكم المؤلف الداخلي. ليقدم من خلاله لعبة جديدة في عالم الرواية، يسمونها في أوروبا، الرواية من داخل الرواية. وهي محاولة من المؤلف الأصلي لكي يستعرض عضلاته الفنية وحتى يقال عنه بعد سنوات إنه أضاف جديداً للرواية العربية في مصر. قد يؤخذ عليه، اهتمامه بالشكل الفني أكثر من اللازم. ربما قال أحد. وهل تحتمل الأمور في مصر، في الأيام التي كتب فيها المؤلف روايته هذه. أي مغامرات شكلية؟

كانت هذه الرواية أحد أحلام المؤلف الأصلي.. منذ فترة طويلة. ها هو ينفذها في هذه الرواية. وهو الآن سيقدم لكم المؤلف الداخلي. الذي خلقه هو لكي يخلق بدوره هذه الرواية. وبعد قراءة هذا الفصل. سيكشف القراء الأذكياء، ان المؤلفين وجهان لشخص واحد. انهما ليسا صورتين لشخص واحد. بل وجهان لعملة واحدة. على الوجه الأول المؤلف كما هو في الواقع، وعلى الوجه الأخر: المؤلف الذي تمنى أن يكونه.. انها الصورة الأخرى من الواقع التي نتمناها ونقضي العمر نلهث وراءها. اننا نحاول ان نحقق من خلال الخيال ما عجزنا عن القيام به في الواقع. لهذا سيحاول المؤلف الأصلي ـ مجرد محاولة فقط ـ أن يبدو أمامكم الآن، بأنه رجل ينكر ذاته، ويقدم المؤلف الآخر فقط. المسألة ليست لعبة يحاول المؤلف أن يلهي الناس بها عن القضية الأساسية، وليست مهرباً.

الرواية عبارة عن شكاوى ومن لا يشكو في هذه الأيام؟ أليس

المؤلف بشـراً؟ وأليست لـه من الشكـاوى أضعـاف مـا لغـيره من أبناء البشر. هذا الكلام سيزعج الآخرين. سيقولون انه مؤلف ذاتي. يـدير ظهـره لواقـع وصل فيـه الحـال إلى هـذا الحـد. لكي يتكلم عن نفسـه وهمومه ومتاعبه. انـه انسان يضـع نفسه في دائـرة الكون ويجعلهـا نقطة ارتكاز أساسية. تدور من حولها الحياة وما من مؤلف أقدم على هـذا الا وكان الفشل نصيبه.

المسـألة محـيرة حقاً. . ولكن المؤلف الأصـلي يهمه أن يـوضح الأمـر بالأصالة عن نفسه ونيابة عن المؤلف الآخـر. فالمسـألة تعـود الى بدايـة الاهتمام بالرواية نفسهـا. بالتحـديد الى لحـظة الانبثاق الأول، الحـادثة الأولى التي خـرجت الروايـة من معطفهـا ـ كما يقـولون ـ حـادث رجل ضـاق به الحـال، وسدت في وجهـه كل المنـافذ فعـرض أولاده للبيع في ميدان عام. ان المسألة بهذه الصورة لا تحتـاج الا لقدر ضئيـل جداً من الكلمات. لا يتجـاوز الصفحة الـواحدة. يقـول فيهـا المؤلف. بشكـل فكاهي أو مأسـاوي. يقطر أسى ومـرارة. ان فلان الفـلاني، شعر ذات صباح بضيق الحال، فذهب بأولاده الى ميدان التحريـر، حيث عرضهم للبيع.

ليس من الصعب أبـداً انهاء قصة من القصص. تلك مسـألة سهلة كاد الأمر ان ينتهي عند قصة قصـيرة من ورقة واحـدة مختصرة. موشـاة بكلمـة من هنا وكلمـة من هناك عن أي أمـر من أمـور الحيـاة. . وهي كثيرة. . وكلها تستحق الكتابة عنهـا. . وكان من السهـل أن يجد نـاقداً ملاكياً. . قـطاع خاص. . يكتب لـه على الغـلاف الخلفي، أنه شـاعر القصة أو قصاص القصيدة الشعرية الوحيد من أبناء جيله. الذي تمكن من العثور على أسلوب خـاص به. مـا كان أسهـل الكتابـة. وما كـان أسهل النشر. ما دام الكلام يدير ظهره للواقع اليومي الراهن. ويتكلم

عن أمور أخرى. . وما كان أسهل العثور على ناقد، من فضلات هذا العصر خلا له الجو فباض وصفر.

ولكنه وهو يكتب قصته المختصرة التلغرافية. بنفس لغة وأبجدية عصر الأعلام. توقف عندما أطل عليه سؤال بسيط. في هذه الحالة ما هو هدفه من كتابتها؟ هل ستكون مجرد المتعة التي يحصل عليها من الكتابة؟ لا بد وأن يكون هناك هدف آخر لديه.

تصور للحظة أن القصة القصيرة فيها تركيز شديد. وان البطل الذي تقدمه وصل لخلاص خاص به. وهو بيع أولاده في ميدان عام. ولكن في هذا الوطن ملايين يعانون ولم يصل أحد منهم إلى هذا المخرج. وبهذا يبدو بطل القصة أسعد حالاً منهم. لأنه عثر على مخرج يخصه. والذين لم يصلوا الى هذا المخرج حالهم أتعس.

استمر في الكتابة. وبعد الانتهاء من الكتابة الأولى توقف أمام حقيقة جديدة: هل تجسد هذه الورقة الواحدة معاناة الناس؟ لقد توقف بالتحديد أمام: «معاناة الناس». كلمتان فقط. ومع هذا تجسدان ما لا يمكن الحديث عنه. ملايين من البشر. ملايين اللحظات الضائعة في الضنى والتعب، في ملايين الأمكنة. كيف يعبر عن هذا. ان الحال الذي وصل اليه الناس يؤرقه. ينخر ذهنه وقلبه وعروقه. الناس. كيف ينامون؟ كيف يذهبون الى عملهم؟ كيف يعودون؟ كيف يعيشون؟ ما هي الطريقة التي تجعل حياتهم تمضي كل يوم بين احتياج واحتياج؟ وبؤس ورجفة خوف؟ كيف ينظرون للغد؟ ان كان لهم غد أصلاً. الناس، الناس، الناس، هم يومي يحمله في ذهنه. مضت أيام كثيرة. والمؤلف يتحرك بداخله هذا الهم الغريب. تحرك ومعه شخوص قصته ورغبته الحارقة في الحديث عن هموم الناس.

لم يكن راضياً عما كتبه في القصة القصيرة التي انتهى منها. وحكاية

الرضا هذه. تعود لقياس غريب في أعماقه. لا يعرف كيف يعمل. ولا يعرف مصدره. ولكنه في لحظة معينة يتوقف فجأة.. ولا يستطيع اكمال ما بدأه.. ينبت في داخله احساس ان ما يفعله خطأ. ليس كما يجب أن يكون، انه يلعن هذه اللحظة التي تغتال حماسه ورغبته في القول. وينصرف عما يقوم به. وتمر لحظات مشحونة بالقلق يحاول الكتابة. يفشل، يقابل الأصدقاء، يفشل في التواصل معهم، يذهب الى السينما، لا يستطيع متابعة ما يشاهده.

تتسع بحور الغربة التي تفصله عن دياره وأهله وناسه. يشعر أن عشه معلق في الرياح. مربوط بخيوط وهمية في سماء بعيدة لا تراها عيناه. وان كلماته كتبت فوق مياه البحار المتحركة. وانه لا جدوى من الكلمة والفعل والقول. وانه من المؤسف له ولأبناء جيله انهم أتوا الى هذا العالم. في تلك الأيام المشربة بالمذلة المليئة بالهوان.

من جديد تمر الأيام والليالي لأنها لا بد وأن تمر. وتتحول الثواني الى دقائق. والدقائق الى ساعات. والساعات أياماً. والأيام أسابيع والأسابيع أشهر. وتقترب دورة العام من الاكتمال. وهو لا يستطيع العودة الى قصته القصيرة، في كل مرة تجيش أعماقه بتلك الرغبة الحارقة في الامساك بالقلم، فيسعد، يجري يلهث في الشوارع. يشتري أقلاماً من أنواع جديدة وورقاً من مقاسات وأنواع لم يتعامل معها من قبل. يعود إلى منزله. ودقات القلب أسرع، وجريان الدم في العروق أغزر.

يجلس. الورق والقلم بين يديه. والكلمات في الذهن، يعيد كتابة نفس القصة القصيرة. ثم يتوقف. سطر آخر أو سطران ولكن ذلك الشيء الذي لا يمكن معرفة مصدره يصيبه... يكبس عليه. فيفقده الرغبة في مواصلة الكتابة. يقوم. تخط يده كلمة أو كلمتين. ولكن القدرة على الاستمرار تتوه منه. يشعر أن صحارى الغربة لا حدود لها

أبداً. بينه وبين الكلمات التي تعبر عنه، صحارى وبحور وأرض شراقي. وأشجار عاقرة. ويصر على الكتابة. وبالفعل تتحرك يده. ولكنه يشعر أن قوة أخرى هي التي تحرك هذه اليد التي خانته وتتصرف مستقلة عنه. فيتوقف ويشطب ما كتبه. ولا يبقى له سوى الضيق غير المحدود.

تعالوا نواصل اللعبة، وهل نملك في هذه الظروف الصعبة بديلاً لمواصلة اللعب، وفي هذه اللعبة يقول المؤلف المدون اسمه على غلاف الرواية عن المؤلف الداخلي ما يلي:

من الصعب تلخيص حياة وخبرة وتجربة انسان في بضع كلمات أو تقديمها في مشاهد محددة. ولكن المؤلف يقول بكل بساطة، انه ابن للطبقة الوسطى المصرية. لا يجب تحديد هل هي الطبقة الوسطى الكبرى أو الصغرى. سكان المدن أو أبناء الريف. ان المؤلف يكتفي بالقول بأنه ابن لهذه الطبقة. والمؤلف يركز كثيراً على حكاية الطبقة الوسطى. وقد تمنى كثيراً لو كان عالماً أو باحثاً أو طالباً. لقام في هذه الحالة بعمل دراسة عن الطبقة الوسطى المصرية ولواكبها منذ ظهورها في الحياة العامة ودورها الذي لعبته حتى عصرنا الحاضر. ان المؤلف يرى انه يكمن في هذه الطبقة سر مشاكل مصر كلها. انه يلخص رأيه فيها بأنها طبقة عظيمة المجد والأخطاء. انها المسؤولة عما وصل اليه الحال في مصر والوطن العربي.

يذكر المؤلف انه في بداية حياته. عندما اكتشف صعوبة اجراء مثل هذه الدراسة بمفرده. وبامكانياته الذاتية. فكر في تحويل الأمر الى دراسة لسيكولوجية الانسان المتوسط وردود فعله تجاه الواقع اليومي وطريقة تصرفه ازاء الحياة. وانه دون رؤوس الموضوعات والعناوين يذكر كل هذا، ولكن تاريخ كل منا هو في الوقت نفسه تاريخ الآمال

المؤجلة والأحلام التي لا تتحقق أبداً والاحباطات اليومية. فقد مرت أيام وتراجعت الأحلام. وأصبحت الدراسة طموحاً لا يستطيع المؤلف أن يذكره أمام الآخرين.

تراجع الحلم أيضاً وأصبحت مهمة المؤلف هي الجري وراء مراكز البحث العلمي. والجمعيات. لكي يوجه سؤالاً واحداً. هل لديكم أي دراسة حول الطبقة المصرية الوسطى. وفي كل مرة كان يجاب بالنفي. سؤاله الثاني كان: هل دراسة مثل هذه الموضوعات من الممنوعات. وهي كثيرة؟ وكان يجد اجابات مختلفة في كل مرة. ومن كثرة البحث والتحري والسؤال والجواب، أصيب المؤلف بحالة من الهذيان التي هي احدى علامات العصر.

يقول المؤلف الخارجي عن المؤلف الداخلي.. انه ابن تاجر من تجار الأرياف لم يكن ابن عامل أو فلاح. حتى ينتمي ولو بمجرد الذكرى للعمال أو الفلاحين. ثم حصل على وظيفة في المدينة وسكن في شقة في حي راق. وكل هذا سار به بعيداً عن أصوله الأولى. ولكنها لم تصل به بعد الى مشارف طبقة أخرى. المؤلف يدرك أن هذا الكلام كله ربما ينطلق من مغالطة أساسية وهي حكاية الطبقات. فالصراع الطبقي اما أن تصدر قرارات رسمية بتأميمه. أو أن يبقى مجرد معنى غير محدد. وحتى في الواقع اليومي، فإن الأمور ليست بهذا القدر من التحديد الذي يتحدث به المؤلف.

ان خطوات المعاناة البطيئة التي يمر بها العمل من الصعب رصدها. خطوة خطوة. ولكن المؤلف، في لحظة اشراق من النوع النادر قرر أن يكتب الرواية من خلال خطين أساسيين. الأول حكايته وتجربته من خلال مؤلف داخلي والثاني قصة الناس انفسهم.

الفن لا يعرف الكذب ويرفض الافتعال. وان نجح المؤلف في

مسألة صدقه. سواء في تجربته مع نفسه أو مع الرواية. من لحظة البدء في الكتابة الى همـوم النشر. وحتى الأساس الحاد بخيبة الأمـل الـذي يعيشه بعد النشر. ان فعل هذا. سيقدم رواية جيدة. اتضحت المسألـة في ذهن المؤلف. في لحظة اكتشاف سريعة وعابـرة ألقت ضوءاً كـاشفاً على ما كان وما سيكـون. وبعد هـذه اللحظة يسـتريح العقـل من عناء البحث واللهاث وراء الحلول.. خطط المؤلف روايته على هذا الأساس وبدأ العمل فعلاً.

ومـا دمنا قـد اتفقنا منـذ البـدايـة، عـلى أن المؤلفـين وجهـان لعملة واحدة. فالحديث عن شخصين لن يكون واقعياً بـدرجة كـافية.. انهما شخص واحـد. له وجهـان. وجه من أرض الـواقع. والـوجـه الآخـر سيظل قيد الأمنيات. التي لن تتحقق أبداً. وهـذا يجهل حـديث المؤلف الأصـلي عن المؤلف الداخـلي. يسبب لهما معـاً بعض الحـرج والـتردد. ويفضل المرور على هذه المسألة. بسرعة. ويقول لنفسـه، ان الصعوبـة الفعلية أمام أي روائي هي عثوره على نقطة البدء. وهـو قد عـثر عليها بـالفعل، فلماذا يتـوقف طويـلاً أمام قضـايـا شخصيـة، تـظهـره أمـام الآخرين. وكأنه رجل معذب بنفسه. وربما نصحه البعض بـالذهـاب الى طبيب نفسي. ثم ماذا يقول عن نفسه؟ هل يحكي تـاريخه القـديم؟ من يحب الحديث عن الماضي أمام فداحة الخطب وهول المأساة الجاريـة في الحاضر؟ الذي يحاصر الجميع في كل لحظة. انه لا يحب الحديث عن المـاضي. مع إدراكـه أن من ليس له مـاض ليس من حقه أن يكـون له مستقبل.

المؤلف له وضع خاص. قلت من قبل انه خطا أكـثر من خطوة عـلى سلم الصعود، والصعود في مجتمع طبقي مأسـاة. وان كان الصعـود في حد ذاته ليس المشكلة. ولكن الحفاظ على البقاء في الدرجـة التي وصل اليهـا هو القيـد وحبل المشنقـة. والدواء الـذي يقتل الانسـان بدلاً من

شفائه. الحفاظ على المستوى. ثلاث كلمات تأكل بداخلها الموهبة. والاحساس. سرطان يلتهم في جوفه كل الينابيع الخضراء في نفس الانسان. المعادلة صعبة وهي تخص المؤلف وجيله. وهو لهذا يحاول القفز فوقها. وان كان ذلك يبدو صعباً. فالحديث عن الذات جريمة. نعود الى حكاية الصعود. منذ أن وجدت الدولة. ذلك الشر الذي لا بد منه. وشعارها معروف. الحاكم لا يطلب من المحكوم سوى الرضوخ. وان فتح المحكوم فمه. فكعب حذاء الحاكم كفيل بسده فوراً. على المحكوم أن يدع الحاكم يحكم في هدوء.

وهكذا يدخل كل المحكومين. في كل الدول. في دائرة الانحناء. وان قال أي حاكم ذات مرة. ارفع رأسك يا أخي.. فسيكون هدفه من ذلك معرفة من يستعد لرفع هذا الرأس مستقبلاً. في وقت ما. وبمجرد أن يرفعها تلبية لنداء الحاكم، يقطعها سيف الحاكم حتى تتساوى بكل الرؤوس المحنية.. أما ان كان المواطن داهية ولم يستدرجه فخ النداء الوطني: ارفع رأسك يا أخي المواطن. وفضل التريث والبقاء محني الرأس حتى تأتي اللحظة المناسبة. في هذه الحالة لدى الحاكم أيضاً سلاح جديد والقاعدة معروفة سلفاً: من لم يسكته السيف أسكته ذهب الحاكم. وذهب الحاكم أنواع. وهو مثل سراديب ألف ليلة وليلة. التي لا يعرف لها نقطة بدء ولا محطة وصول.. وهي تلعب الدور البسيط الصعود سلمة أو اثنتين على الدرج الضخم الموصل لسلم طبقي. البقية معروفة أما أن يكون الطموح مدمراً. وفي هذه الحالة يصر الصاعد على العراك حتى مع سقف العالم. والمسألة لا تحسب بمنطق الربح والخسارة. لن يقول أبداً ماذا كسب وماذا خسر. ولا الى أين وصلت الرحلة وما هو الباقي حتى القمة.

الصعود أنواع وله أشكال مختلفة. اما إن كان الصاعد قنوعاً.

واكتفى بالبقاء حيث شده ذهب السلطان فالحرص على البقـاء مشكلة. والحرص نبات سام. انه بداية التنازلات والحسابات. . وعمل الموازنات وارضاء هذا الطرف والتحنية مع ذلك.

الحـرص نبات أقـوى من كل المخـدرات وكل الخمـور. من يتعـود عليه. انتهى أمره تماماً. ولكن الحرص على ماذا؟ هناك من يحرص على مـرتب لا يتعدى الخمسـين جنيهاً كـل شهر. وهنـاك من يحـرص عـلى مرتب يصل الى خمسة آلاف جنيه في العام. . وسيارتـه وسيارة الـزوجة وسيـارة الأولاد. وسيارة شراء الخضـار. والفيلا واسـتراحة المصيف. . والشقة الصغيرة في وسط البلد من أجل العشيقة.

في هـذه الحالـة لا بد وأن يكـون من حزب كن فيكـون. والمقـابـل معـروف أن يكـون من جـوقـة طلع السلطان علينـا. يكتبهـا ويغنيهـا ويرددها في الأوقات المطلوبـة وبالـطريقة المنـاسبة. يفقـد صوتـه ومبرر وجـوده. يقولهـا في الوقت الـذي يرغب السلطان في قـولها فيـه، كلمـة مقابل خدمة. خذ وهات.

بعد التربـع على القمـة. ولكل منـا قمته الخـاصة بـه. يبقى الحنين الموجع. كالضنى الذي يعاود الانسان بين الحين والآخـر. يحاول رؤيـة وجهه القديم ذات مساء. ولكن وجهه القديم تاه ولن يعـود اليه أبـداً. ويحـاول بطرق صنـاعية أن يضـع قناعاً ويقول ان الجمـع بين الـوجـه والقناع مسألة طريفة. وبعد العودة الى المنزل ليلاً. والليل يخفي حقائق الأشياء. يدرك أن وجهه القديم يطل عليه أحيـاناً. أمـا في النهار. فـلا بـديل لـه عن استخدام القنـاع الصناعي. لكي يحـافظ عـلى الـزوجـة والأولاد والأسرة. . وما دام القناع موجوداً. يغطي الوجه القديم. فـلا توجد قوة تمنعه من عمل أي شيء.

وبين الحين والآخر تنتفض الروح. وتصيبه صحوة مـا قبل الـوفاة.

يحاول أن يقول، أن يكتب، أن يسمع صوته القديم، ويحاول الوصول الى هذه اللحظة حتى ولو بشكل صناعي صرف، بالعقاقير والوسائل الطبية. ولكن هل يفلح؟ ان المؤلف يسأل: من المسؤول عن حالة الخراب هذه؟ هنا لا يتكلم المؤلف. ويقرر الدفاع عن نفسه. في هذه الفرصة الأخيرة. ويسأل: على أي شيء يحرص؟ شقة صغيرة على أطراف المدينة بعدها الصحراء والجبال. ومركز تدريب قوات الأمن المركزي. وسيارة صغيرة. متعبة منهكة. وعمل عائده صغير. حيث يبقيه دائماً على الحافة. وعلاقات وواقع اجتماعي. ورغم هذا فهو حريص. والحرص يجعله يبدو في أوقات كثيرة كبندول الساعة الذي يتحرك بين تطرفين. ولكن ماذا أوصلنا الى كل هذا الكلام عن المؤلف. . ان تداعيات الذهن البشري لا حدود لها. في هذا الفصل كان المؤلف يريد الحديث عن أمر آخر. وهو الانهاك اليومي. الذي يلاقيه كل من يعاني التعامل مع الحرف المكتوب. رحلة الجري اليومي وراء لقمة العيش. وهو يعمل صباحاً في وظيفة. ولكن دخله منها لا يكفيه. وهو مطالب بالحفاظ على المستوى الذي وصل اليه. فهو يعمل أحياناً بعد الظهر في أعمال كثيرة. حتى يصل دخله الى الحد المطلوب.

في الصباح يذهب الى عمله. وقت الظهر تكون لديه مواعيد ومقابلات. وفي بعض الأماسي ربما ذهب الى السينما أو المسرح أو معارض الفن التشكيلي محاولاً رؤية الجديد في كل الفنون. حتى لا تصيبه حالة من الترهل الفكري. ويمارس هوايته المفضلة بالتسكع في شوارع القاهرة ليلاً. وبعد هذا وقبله. لديه الرواية التي يعمل فيها. وهي في نظره أهم من هذا كله. الحكاية صعبة وتصل في بعض الأحيان لحد الاستحالة. وان كان هو أسعد من غيره كثيراً.

فالبعض منهم لم يدبر بعد لقمة العيش بصورة ثابتة. وفي كل

الأحوال: يعاني المؤلف من حالة وحدة ثلجية قاتلة. ومن رعب دائم من الغد. وحالة من الاحباط والعجز. والشعور بعدم وجود القدرة على تحقيق ذاته أبداً.

وفي وسط هذا الجو فانه يكتب.

٥

من يحمي نوم الأغنياء
من أرق الفقراء؟!

ـ «شكاوى المصري الفصيح».

قرأت الناقدة عنوان الرواية. المكتوب بخط المؤلف في منتصف الصفحة الأولى. مرت لحظة صمت. أعادت القراءة. شكاوى.. ثم توقفت ولم تكمل القراءة. التفتت الى المؤلف وقالت:

ـ عنوان جديد ولكن..

ـ سألها المؤلف متحفزاً:

ـ ولكن ماذا؟

ـ يبقى العمل نفسه.

جلست رباب أمامه. امرأة هادئة طبيعية، واثقة من نفسها تماماً. حددت المسافة بينها وبين العالم. لا تضع نظارة على عينيها الا وقت القراءة أو الكتابة فقط. لا يطل الاهمال من وجهها أو ملابسها. ويقول لك هنا امرأة نسيت نفسها. نسيت انها امرأة. لم يكن في وجهها شحوب من يمنحون أعمارهم لرسالة واحدة. ومن يحبسون أنفسهم بين أربعة جدران. حدق فيها طويلاً. امرأة تعيش الحياة بطريقة سهلة. لم يشاهد تحت الجفون ما يعلن عن الكبت واغلاق الباب أمام رغبات الحياة. عندما تكلمت بدت طبيعية وعادية. وعندما اتصل بها. تركت

له تحديد الموعد. مكانه وزمانه. وضع شجاعة العالم على طرف لسانه. وحدد لها موعداً في مكان عام. ضحكت في بساطة وقالت:

ـ أنت تحاول الحصول على موعد عشاق بطريقة ملتوية. احمّر وجهه ونبتت حبات عرق: فارتعشت يداه. ولكن ضحكتها العادية التي أتت بعد الكلام. جعلته يدرك انها كانت تمزح. في الموعد جلست أمامه.. ردد اسمها بنفسه. رباب حيدر. حضر النادل فطلبت قهوة مضبوطة: قال لنفسه: مشروب جاد يحدد شكل اللقاء وطابعه. نظر اليها. جمال يتسلل اليك بهدوء. ينفذ الى النفس من خلال مسارات خاصة به. مسام الجلد ومنابت الشعر. تاه مع النظرة. وتساءل: هل يتفق الجمال مع الجدية، أو ربما الصرامة؟ مسألة عجيبة.

قال لها:

ـ بي لهفة لمعرفة رأيك.

نظرت رباب الى الشارع الذي يموج بالحركة:

ـ اطمئن، ليس لدي ما أعمله. سوى قراءة المخطوطات الأدبية وهي عملية محببة الى نفسي. منذ أن نقلت من الجريدة التي كنت أعمل بها. أنا بلا عمل. والفراغ مسألة قاتلة.

تنهدت ووضعت يدها على المخطوط:

ـ لنعد الى الشكاوى.

ـ تساءل المؤلف:

ـ أية شكاوى.

ـ أوضحت له:

ـ هذا مجرد اختصار للاسم.

نظر الى خاتم الزواج في يدها. تذكر أن اسم حيدر ليس اسم عائلتها، ولكنه اسم عائلة زوجها. وعندما تزوجت. بعد قصة حب

عنيفة شهدها الكل. تخلت عن اسم عائلتها باختيارها هي. وأخذت لقب عائلة زوجها.

أخرجه سؤالها من أفكاره:

ـ هل قرأ الشكاوى أحد؟

ـ رد عليها بود:

ـ عيناك أول من يصافح كلماتي..

نظرت اليه محذرة. أفاق من الحلم. اعتدلت في جلستها. وسأل نفسه في مرارة. هل تكون مثل الأخريات اللاتي عرفهن من قبل؟ أنصاف العاهرات الكاذبات اللاتي يطلبن الدعارة بدهان خارجي من الفكر والثقافة؟ وينطقن وهن في أسرة الغرف المؤجرة بالساعات بكلمات عن هزيمة حملة الأغنياء التي تحطمت عند حدود عاصمة الفقراء. وكوميونات الكادحين. هل يتدفق من فمها بعد قليل نهر الأكاذيب؟ تمنى من كل قلبه أن تكون مختلفة عمن عرفهن من قبل، ليؤمن انه صادف واحدة. واحدة فقط مازالت صامدة. نقرت على يديه باصبعها فسرت في جسمه رعشة طارئة. قالت له:

ـ نحن هنا.

انتبه لها:

ـ نبدأ العمل.

أخذ الحوار بينهما شكل السؤال والجواب. الأسئلة قصيرة. والاجابات لا تزيد عن كلمة أو كلمتين فقط. سألته: متى كتبت الشكاوى. وكم استغرق في كتابتها. ما هي الأعمال الأدبية التي كان يقرأها. وقت الكتابة.

طلبت منه أن يحدد الأعمال الروائية التي يكرر قراءتها كل سنة لأنها في نظره أعمال شامخة. وما هي الأعمال الروائية التي كان يقرأها قبل البدء

في الكتابة مباشرة. كذلك الدراسات الخاصة بفن الرواية. كم مرة كتبت هذه الرواية. متى بدأت كمجرد مشروع في الذهن. وهل انبثقت كقصة قصيرة ثم تطورت الى رواية خلال الكتابة. أم بدأ التفكير فيها كرواية. منذ البدايات الأولى. ثم ما الفارق بين الكتابتين، الأولى والأخيرة. من حيث عدد الصفحات.

سألته عن الأبطال والبطلات، كم عددهم وما هي أعمارهم والوسط الاجتماعي الذي يتحركون خلاله. والأصول الطبقية التي ينحدرون منها. والأعمال التي يزاولونها. زمان ومكان وقوع الأحداث. الفترة الزمنية التي تغطيها نوعية الأشياء المستخدمة في الرواية. مثل الأثاث والملابس والأبنية والسيارات. الأفعال المستخدمة في الرواية. ما نوعها. ماض تام؟ مضارع ما يزال في طور التكوين. مستقبل في رحم الغيب لم يحدث بعد.

أي الضمائر مستخدمة في عملية القص: الغائب حيث يتولى الحكاية كلها مؤلف غائب حاضر يعلم كل شيء ويخترق ضمائر وأفكار أبطال الرواية. أو ضمير المتكلم الذي يجعل الكلمات تقترب من دوائر الرومانسية. أم المخاطب الذي يضع الأبطال في المواجهة منذ الكلمات الأولى. النقط والفصلات وعلامات التعجب والاستفهام. أيها أكثر في الاستعمال خلال الرواية. الفصلة أم النقطة. أي مفردات اللغة تفرض نفسها طوال الرواية. الأسماء أم الأفعال أم الأحرف. لو حاولنا الوصول الى النسب المئوية. كم عدد الكلمات العامية؟ وكم عدد الكلمات التي وردت باللغة الفصحى ؟ هل تتخلل الرواية أبيات من الشعر؟ هل فيها هوامش وكم عددها وفي أي الصفحات؟

بدا الارهاق على وجهها. تعبت رباب من توجيه الأسئلة. وأرهقت الاجابات المؤلف. وان شئنا الدقة. أرهقه عدم الاجابة. ذلك انه

فوجىء بالأسئلة التي بدت له في بعض الأحيان كأنها عملية اعادة خلق لروايته من جديد وجعلته يقف أمام الكثير من المسائل والأمور التي كان يمر عليها بحكم العادة. ربما لم يتوقف من قبل ليدرسها أو يحاول فهمها. سكتت رباب. امتدت يدها وراحت تقلب صفحات الرواية. تنفس المؤلف. شعر بأنه استراح أخيراً من استجواب الناقدة له. ولكنها وضعت المخطوط أمامه واتجهت له:

ـ لخص لي موضوع روايتك، حدثني عنه.

ـ رد المؤلف بحذر:

ـ كل ما تريدينه موجود في الأوراق التي أمامك.

ـ أوضحت فكرتها:

ـ ما أطلبه ايضاحات ربما لم ترد في العمل نفسه.

ـ كل ما يقال عن العمل الآن يعد مصادرة لما جاء فيه. وبعد القراءة. أي بيان يطلب عن الرواية. يعني انها لم تصل اليك جيداً. الفن الجيد يرفض البيانات والايضاحات والمبررات. وتبيان الأسباب. اسمعي. أنا لا أحترم الروائي الذي يتكلم كثيراً عن العمل الذي سيكتبه. ويتصل بالجرائد ويطلب نشر خبر عنه. يقول انه سافر الى الاسماعيلية حيث يعكف على عمل جديد. وبعد العمل. يظل يتحدث عنه.

ـ قاطعته باسمة:

ـ ذكرتني بالروائي الأوحد.

ـ بان الغضب على وجه المؤلف:

ـ لا عمل له سوى المرور على كل الجرائد والمجلات واملاء الأخبار عن نفسه. في يوم واحد قرأت خمسة عشر خبراً وكلها عن قصص تمثل في السينما ومع كل خبر صورة معدة بعناية شديدة. تقول لك ان المؤلف

المحترم وقف أمام المصور ساعـات وساعـات. يجلس في الوضـع الذي يطلبه منه المصور. هذا فضلاً عن أوراق من الفولسكاب مـطبوعـة على الآلة الكاتبة. فيها قصة حياته ومولده ونتاجه ومن تأثـر بهم. ويقول في هذه الأوراق انه كان يكتب الأدب وهو في بطن أمه.

الـذنب ليس ذنبه. الـذنب يقع عـلى من فتحوا لـه الأبـواب. ومن قدموا له الواقـع الثقافي. عـلى طبق من الفضة وفي الـوقت نفسه منعت الفرص عن الآخرين. ولكن السؤال التاريخي هو، وبتـوارد الخواطـر. نطق المؤلف والناقدة معاً. وفي نفس اللحظة:

ـ هل تخلق هذه الظروف كلها شبه أديب؟!

ـ وردا معا:

ـ لا.

ـ نقرت رباب بيدها فوق الشكاوى وقالت:

ـ لي طلب أخير. أرجو أن تختار جزءاً صغيراً من الروايـة. وتقرأه لي الآن بصوت عال. لا أستطيع تحديد الهدف من ذلك. ولكني أرجوك.

امتدت يد المؤلف. أخذ مخطوط الشكـاوى. قلب الصفحات. غـرق كل منهما في صمته. كان المؤلف سعيداً. قال لنفسـه: ربما لا تجـود عليّ الأيام القادمة بلحظة سعادة كهذه. من يدري؟ أين أجد من يطلب مني قـراءة جـزء من روايتي مستقبـلاً. أخـذت أصـابـع يـده اليمنى تعبث بصفحات الشكاوى. ولكن ربـاب تدخلت مـرة ثانيـة. طلبت منه أن يقرأ لها. الفقرة الأولى من الرواية. أي المفتتح بلغة النقاد. ثم يقـرأ لها ما يراه مناسباً بعد هذا حسب اختياره هو. دون تدخل منها.

طلبت قهـوتها المضبـوطة. وطلب شـايه.. الـذي تعود شرابـه منذ نشأته في قريته البعيدة.

ـ شكاوى المصري الفصيح..

ـ مشروع ـ قرأ المؤلف بصوت عال ـ لكتابة رواية عن عصرنا.
ـ قاطعته رباب:
ـ لي تساؤل هنا. ماذا تقصد بحكاية المشروع. ألم تقل انها الكتابة الثالثة؟
ـ أبعد المؤلف الشكاوى:
ـ فعلاً هي الكتابة الثالثة. ولكن ماذا يمنع أن تكون مجرد مشروع: بمعنى انني سأعطي هذا المشروع لعدد كبير بقصد قراءته. ولدي نية تجميع ملاحظاتهم وفي النهاية سأكتب العمل من جديد. قد يأتي رواية مختلفة كل الاختلاف عن هذه الرواية. من يدري؟
ـ ألا يعد ذلك تدخلاً من الآخرين في العملية الابداعية؟
ـ ولم لا نسميه تجربة جديدة؟
ـ ابداع جماعي. رواية يشترك المؤلف والناقد وعامل المطبعة والناشر والموزع والقارىء في تأليفها فعلاً. قد يكون الأمر مثيراً بصورة ما.
ـ لا تعنيني التسميات كثيراً. ولكنها تجربة فقط.
ـ اذن أكمل..
قلب المؤلف الصفحة الأولى. الصفحة الثانية كانت بيضاء. في أسفلها من ناحية اليسار سطر واحد فقط. مكتوب بخط واضح:
«في مصر أصبحت مهمة الدولة الوحيدة هي حماية نوم الأغنياء من أرق الفقراء».
ـ قالت رباب:
ـ عندما تطول المقدمات، لا تهيء القارىء لتلقي العمل. بل تشتته. وتفسد عملية التلقي نفسها. نحن لم نبدأ العمل بعد.
ـ ألا تعرفين فن الصبر.
ـ أشعلت رباب سيجارتها. وقرأ المؤلف:

ـ أمـامنا الآن، ثـلاث طرق لبـدء هـذه الـروايـة. الأولى تقليـديـة وقديمة، وتبدأ بفعل كان. وكل الجمـل التي تأتي بعـد الأولى تبدأ بنفس الفعل. انها طريقة سهلة في الكتابة والقراءة، ومـريحة لكـل الأطراف. فهي تطلب منا الاطمئنان. كل مـا يقال حـدث فيما مضى من الـزمان، وسالف العصر والأوان. ولا يوجد في الأمر ما يزعجنا أبداً.

ونحن نحكي مـا حدث، اما على سبيـل الـذكـرى أو عـلى سبيـل التسلية واستخلاص العظة والعبرة. الطريقة الثـانية حـديثة. فيهـا قدر من التجديد. ومحاولة للخروج من عنق الزجاجة الذي تمر به الرواية في مصر والوطن العربي وربما العالم. لم يعد أمام الرواية سـوى البحث عن دروب ومسـارات جديـدة والا ماتت. . الحكـايـة ليست مسـألـة قهـر حضاري يمارسه ضدنـا العالم المتقـدم. فروايـة هذا العـالم نفسه تـواجه الأزمـة نفسها. أعـدكم أن لا يكون التجـديد مجـرد طـلاء خـارجي لا علاقة لـه بالعمـل يتساقط عنـد أول هزة. الـطريقة الثـالثة لا يستـطيع المؤلف تصنيفهـا في اطار مـا. بل هي حكـايـة استهـوت المؤلف. قـام برحلة بدأها ذات صباح.

واستغرقت منه وقتاً طويلاً بغير حد. وأخرت البدء في كتابة الروايـة فترة ليست بالقصيرة. انه يجدها أقرب البدايات الثلاث الى نفسه. كان المؤلف سعيداً بالرحلة التي قام بها. وكان أكثر سعادة بلحـظة الكتابـة. وعندما قرأ ما كتبـه بعد الكتـابة الأولى. اكتشف كم هي جميلة. وربمـا كان اعتراض المؤلف على هذه الطريقة انها متوسطة. تمسك بالعصا من منتصفها ولا تنحاز لموقف معين. والمؤلف يعلن كـراهيته المـطلقة لكـل المواقف الوسط. انه يكره عدم تحديـدها وميـوعتها وعـدم حسمها. ان الطرق الثلاث واللجوء اليها، تعكس حالة غـزل للقارىء. تحـاول أن تجدد من هنا. أو من هنـاك. قد يكـون فيها بعض الاثـارة التي تضمن

متابعة القارىء للرواية بعد هذا. ما كان أحد يتصور أن الحال من الممكن أن يهبط حتى القاع. وان تكون الاثارة وسيلة وحيدة لضمان انتشار كتاب أو نجاح فيلم. لدرجة أن تدبير هذه الاثارة أصبح أهم من خلق العمل نفسه.

الطريقة الأولى:

ويمكن أن يكون عنوانها الجانبي: عندما يفقد الانسان القدرة على الاختيار ولا يصبح أمامه سوى طريق واحد. اما هو واما النهاية.

وتبدأ هكذا:

كانت الأسرة كلها قد قررت أن الأمور لم تعد تطاق. هكذا قرر كل فرد لنفسه، دون أن يناقش الأمر مع الآخرين. حتى الأطفال الصغار أدركوا بحسهم أن استمرار الحال ليس صعباً فقط. بل مستحيل. ثمة صلة ما غير منظورة لم تقل خلالها كلمات. جعلت الكل يعاني نفس الاحساس. في ذلك الصباح التاريخي والهام. بالنسبة للاسرة. قال الأب لنفسه:

ـ لا بد من حل.

ثم أكمل:

ـ لا بد من مخرج.

لم يكن في الأسرة كلها من يفك الخط. ولهذا لم يصل عقل واحد منهم الى تصنيف حالتهم. ساء الحال كثيراً. تلك حقيقة. ولكن فزعهم الحقيقي كان من استمرار الحال على ما هو عليه. مع ان الاستمرار في حد ذاته ضد قوانين الطبيعة وحركة الأشياء. قد تندفع الأمور الى الأمام. في الطريق الى الأحسن. وقد تتقهقر الى الخلف نحو الأسوأ. قد تصعد الى أعلى. تهبط الى سابع أرض. ولكنها لا يمكن ان تستمر هكذا أبداً. وان استمرت، وهذا مستحيل، فإلى متى يستمر

الاستمرار نفسه؟ ان الصباح الذي اخترناه مناسبة لبدء الرواية وحولناه الى نقطة واضحة في مجرى الزمان. يمكن تسميته بالنقطة الحاسمة أو الذروة أو لحظة التوقف المحددة. أي تلك اللحظة التي لن يتجاوزها الأشخاص الا بعد أن تكون الأمور قد تغيرت بالنسبة لهم. بصورة أو بأخرى. في الصباح صحوا من نومهم. وقبل أن يفعلوا أي شيء.

وهل كان هناك ما يفعله أي منهم؟ قال كبيرهم: ان اجتماعاً هاماً سيعقد للعائلة كلها صباح اليوم. ولن يتخلف أحد عن حضور الاجتماع أبداً.

سيتقرر فيه مصير الأسرة.

في انتظار عقد الاجتماع. قال عباس المليونير لنفسه: لا بد من حل.

حتى الآن، يوجد الكثير من الثغرات، التي لا بد من الوقوف أمامها. قبل الانطلاق في أحداث الرواية. حتى نضمن حسن السير والتسلسل الطبيعي والمنطقي.

قلت انهم صحوا من النوم. أي أنهم كانوا نياماً.. أين؟ ان الزمان عنصر واحد في تشكيل وعي الانسان باللحظة التي يعيشها والمكان هو الوعاء الذي يتشكل بداخله الزمان. اللحظة والمكان يشكلان مفتاح البدء ولأن المكان عبارة عن أشياء يتعامل معها الانسان. ولأن أشخاص الرواية لا يعرفون القراءة أو الكتابة. لذا فهم من النوع الذي لا يتعامل الا مع ما يمكن ادراكه باللمس والتذوق والشم والرؤية. أي مع ما يقع في دائرة الحواس الخمس فقط. لهذا فالزمان سيظل معاني تطفو في الذهن سابحة في بحار التجريد.

في ذلك الصباح، لم يفطر أحد، لأنه لم يكن في المنزل ما يفطرون به. كان صباحاً عادياً. في الاجتماع جلسوا جميعاً. كان بودي أن تكون لديه كاميرا لالتقاط صورة تذكارية للعائلة، وهي تتأهب لعقد

الاجتماع. في الاجتماع وقبل أن ينطق أحد. . تنحنح عباس المليونير. دارت عيناه في الجالسين. سر في نفسه. ربما كانت المرة الأولى التي يجتمع فيها شمل العائلة بالفعل. كانوا كلهم حوله ما عدا الباشا. تركوا مكانه خالياً، وتجنبوا الحديث عنه. وعن القبض عليه والتحقيق معه. وعدم عودته الى المنزل منذ ثلاثة أيام. في البداية تصور الأستاذ ـ وهو أحد أبناء الأسرة ـ أن الاجتماع مخصص لمشكلة الباشا، ودون في ورقة معه أربعة موضوعات رئيسية يجب مناقشتها في ذلك الاجتماع العائلي الهام:

١ ـ البحث عن مقبرة جديدة بعد الحكم بطردهم من هنا.

٢ ـ مسألة لحم الحمير الذي أكلوه. والمسؤول عن ذلك ومعاقبته. وتلافي تكرار ذلك مستقبلاً.

٣ ـ خروج الباشا عن خط العائلة وملابسات الأمر وظروفه الخاصة.

٤ ـ كيفية الخروج من المأزق الذي يواجه العائلة في الفترة الأخيرة.

قال للجالسين ان ذلك هو ترتيب الأهميات. السكن، الطعام، ثم الأمن ثالثاً. ولا يمكن للمليونير أن يتكلم سوى بهذا الترتيب. مهما كانت رغباته وتصوراته الخاصة. سألوه ان كان قد تناقش مع المليونير في ذلك. فنفى وأكمل ان ما يقوله هو تصوره الخاص به.

عاود المليونير النظر للجالسين حوله. توقفت نظراته عند البعض. ثمة حسابات لا بد من تصفيتها وكلمات يجب ان تقال. كل هذا لا بد من تأجيله لفرصة أخرى. ليس أمامه سوى الحديث عن القرار الذي اتخذه المليونير منفرداً. مثل كل القرارات الهامة في مصير العائلة. . يتخذها بعد الدوخان والتوهان والسطل والسكر. أي بعد أن يغيب الوعي تماماً. وفي لحظة الغيبوبة هذه. فإن أول ما يطرأ على الذهن. أو يطفو على سطحه. يكون هو القرار النهائي والمصيري.

لا بد من تنفيذ ذلك القرار اليوم. مهما كانت الظروف بداخله كلام كثير ومعانٍ ومشاعر وعواطف. من ينقل كل ما بداخله الى هؤلاء الجالسين حوله. الوقت لا يسمح. ليقل ما اجتمعوا من أجله فقط. وليؤجل العواطف والمشاعر الى ما بعد الأزمة التي يواجهونها ان كان في العمر بقية. وان التقوا مرة أخرى من جديد. ربما سيكون للكلمات طعم آخر ومعانٍ لم تخطر لهم ببال. كان الصمت والهدوء الذي ساد اللحظات الأولى من الاجتماع غريباً على جو العائلة التي لم تعرف طعم الهدوء من قبل. بدت لحظات الصمت بطول العمر كله. يتوسط المؤتمر عباس المليونير بجواره زوجته: أم العائلة. كان من المفروض أن يجلس بجواره من الناحية الأخرى ابنه الكبير. ولكنه غائب. ترك مكانه كما هو.

ثم جلست الابنة المتزوجة في المكان الذي يليه. والأبناء المتزوجون جلسوا، تليهم زوجاتهم وأبناؤهم.. ثم البنات المتزوجات وأزواجهن ثم الأبناء الذكور غير المتزوجين وأخيراً الفتيات. كان هذا هو الترتيب الذي تراعيه العائلة منذ فترة من الوقت. لم يخالف أحد مكانه المرسوم له. من جديد تنحنح المليونير. أعجبه رنين صوته وسط الصمت. ود لو استمر الحال هكذا فترة أخرى من الوقت ولكن الوقت سلاح يعمل ضدة. لا بد من الكلام.

قال انه جمع العائلة كلها لأمر هام وجدي وخطير. وسيتوقف المستقبل عليه. لقد فكر في الأمر، ليالي بطولها قضاها ساهراً يقلب الأمر على وجوهه كلها. ووصل الى قرار. لا يشك لحظة واحدة انه في صالح الكل منهم. وقد جمعهم في هذه اللحظة ليبلغهم بذلك القرار.

ارتفع صوته وهو يحدد انه جمعهم الآن لابلاغهم بالقرار فقط. ولن يسمح لأحد بمناقشة القرار. فهذا لن يكون أبداً. عليهم الاستماع. وليس الكلام. فهو رب العائلة وله على العائلة كلها الحق المطلق في

الامتثال والطاعة والاذعان. ان ما يقرره هو صواب على طول الخط. والاجتماع هدفه مناقشة كيفية التنفيذ ومعرفة التفاصيل الصغيرة والدقيقة. أما القرار نفسه فلا خلاف عليه أبداً. انه مسئول عنهم أمام الله وحده. وسبحانه وتعالى هو الوحيد الذي من حقه محاسبته. أما هم فليس عليهم سوى الطاعة. ان قراره واضح. في ميدان التحرير. على قاعدة التمثال الخالية. ذلك المكان الذي ينتظر تمثاله منذ سنوات.

ستعرض الأسرة كلها للبيع. وان هذا سيتم في الثامنة من مساء اليوم، وليس هناك من مخرج آخر سوى هذا.

كتب الأستاذ في أوراقه أنه مطلوب منه معرفة اسم هذا الميدان السابق. حاول أن يتذكر. آه. وجدها. كان اسمه يحمل اسم الخديوي الذي قرر منذ قرن مضى أن يجعل مصر جزءاً من أوروبا فاكتفى ببيعها لأوروبا وكل ما فيها ومن فيها.

قال لنفسه: غريب أمر التاريخ هذا.. كتب أيضاً انه مطلوب معرفة متى سمي ميدان التحرير. وماذا كان المقصود يومها؟. تحرير من.. وتحريره ممن.. ومتى سيغير اسمه ليسمى: ميدان بيع المصريين؟ ولماذا بقيت قاعدة التمثال فيه خالية كل هذا الوقت. وما هي أهم الأحداث العامة المرتبطة بالكعكة الحجرية. التي تشكل قاعدة هذا التمثال الخالية.

قرر أن يبحث هذا كله فيما بعد. ولكنه قال لنفسه: أليست هذه الكعكة الحجرية هي التي شهدت مذبحة الطلاب من قبل؟ وتساءل: هل تكون نهايتهم مذبحة أخرى.. في مساء هذا اليوم.

قال المليونير انهم بعد هذا الاجتماع مباشرة. سيتحركون من القبر الذي يعيشون فيه. الرحلة من القبر الى الميدان.

كـل منهم سيسلك طريقـاً مختلفاً عن الآخـر. ممنوع أن يسـير اثنـان معاً. منعاً للفت الأنظار اليهم. أهم من هذا السرية المطلقـة لو تسرب النبأ لمنعت الأسرة ولو بـالقوة من تنفيـذ خـطتهـا. سيشرح لكـل منهم طريقه. وكل الطرق تؤدي الى مكان المزاد. وأيا كانت النتائج فلا يوجد في العالم كله ما هو أسوأ من الحال الذي وصلوا اليه. في الأيام الأخيرة. انهم يباعون في كل يوم. في أسواق من أنواع مختلفة ولن يكون المزاد هو الأول أو الثاني. كما أنه لن يكون المزاد الأخير.

ذهل أفراد العائلة. استبشع بعضهم ما قالـه المليونـير. . تاهـوا بين الدهشة وعـدم التصديق. رفضت الأذهـان تصديق مـا يسمعونـه. قد يجوع البعض. قد يطردون من السكن. ربما يحدث لهم ما هـو أسوأ ممـا وصل اليه الحال. ولكن قبول أن يعـرضوا في ميـدان عام للبيـع. وعلى شكل مزاد علني. فتلك مهانة. ستوصل كـلا منهم الى ما هـو أبعد من نهاية العالم. . مستحيل أن يحدث هـذا. تاهت الأصـوات أمام تصميم المليونير. الذي نبه الكل الى حقيقة هامة. سبق أن قالها من قبـل. وهو الآن مضـطر لتكرار مـا سبق أن قـالـه. وهـو أنـه لم يجمعهم لأخـذ رأيهم. فتلك مسألة لم تكن واردة. بل جمعهم بقصـد ابلاغهم بـالقـرار وخـطوات التنفيـذ. ولن يسمح لأحـد منهم بجره إلى النقاش.

قد يكون مسموحاً بالنقاش في بعض الأمـور غير الهـامة والفـرعية. ولكن الأمـر يختلف الآن تمـامـاً. ان المـوقف يتعلق الآن بـالمستقبـل والمصـير. وآثاره ستصـل الى الأبناء الصغـار. الأستاذ هـو الـذي تكلم بهدوء. قال بصوت مبحوح:

ـ انها مغامرة اذن. قد ترفعنا الى السماء السابعة. أو تنزلنا الى سـابع أرض.

ابتسم المليونير قائلاً:

ـ هذا صحيح.

قالت الأم الكبير مشيرة الى الأستاذ:

ـ نحن لا نأخذ منه سوى الكلام الذي لا يفهمه أحد:

باقي الكلام لم يقله الأستاذ. اذ اكتشف في هذه اللحظة عبث الحوار. ولا جدواه. لهذا اكتفى بتدوينه في أوراقه. كانت له بعض التحفظات على البيع. قال لنفسه: ما دامت الأسرة قد أصبحت مجموعة من الخصيان.. بدون رجل يقول لا.. اذن تصبح المسألة هي كيف نباع ومن الذي يشتري.. وما هو الثمن الذي يدفع في النهاية. كتب أن البيع يجب أن يكون للمصريين فقط. ولن يسمح لأي أجنبي بدخول المزاد. كما أن الأغنياء جداً من المصريين لن يدخلوا المزاد لأنهم أعداء حتى النهاية. ومجرد دخولهم المزاد سيمثل حالة من الذل القومي العام للاسرة كلها. والحل في تصور الاستاذ أن يتم فرز الذين يدخلون المزاد.

رغم الرفض وعدم التصديق والخوف من الغد والرهبة من الخطوة المخيفة والتي ستقدم عليها الأسرة. الا أن المليونير بدأ يرسم لكل مجموعة الطريق الذي ستسلكه الى مكان البيع. على ان تسير المجموعة على شكل أفراد وليس كمجموعات، وان كانوا يجب أن يكونوا قريبين من بعضهم البعض.

قال الأستاذ موجهاً الحديث الى المليونير:

ـ الحال لم يعد يطاق، تلك حقيقة، ولكن هل ما سنفعله هو المخرج الوحيد..؟

لم يرد عليه المليونير، ولم يعلق أحد من العائلة. لأنهم لم يفهموا ما قاله الأستاذ. وازاء حالة من اللامبالاة جمع الأستاذ أوراقه وصاح فيهم بأعلى صوته:

ـ أرفض الاشتراك في اللعبة.

نظر اليه المليونير:

ـ هل لديك حل آخر؟

تكلم الأستاذ. موجهاً كلامه الى الحاضرين كلهم :

ـ قد يكون البيع هو المخرج الوحيد. ولكني أرفضه لأسباب كثيرة. بعضها انساني. ثم ان القرار نفسه فردي اتخذته بنفسك. ويبدو انك بعد أن أوصلتنا لهذا الحال الميئوس منه بمفردك أيضاً. اتخذت قراراً فردياً بنفس الطريقة. وهذا هو السبب ان العملية جاءت عفوية وبدون أي دراسات مسبقة.

صاح المليونير في الجالسين :

ـ أسكتوه، جاءني صداع من كلامه.

لم يتحرك أحد. فواصل الأستاذ كلامه:

ـ هل درست المخرج في حالة الفشل؟ هل نحن ذاهبون لكي نباع فعلاً. وان تم بيعنا هل نجد مشترياً يقدر على شرائنا جميعاً. وان وجدناه، هل نشترط عليه طبيعة الأعمال التي سنقوم بها عنده. وان لم نجد مشترياً واحداً؟ هل سنتفرق وان تفرقنا وتشتتنا متى يجتمع الشمل مرة أخرى؟ وهل هناك ضمان ان نلتقي خلال فترة البيع؟ ثم اننا منذ لحظة وصولنا الى الميدان الذي سنباع فيه نكتسب اسماً جديداً. عبيداً أو رقيقاً أبيض. ان جيش العبيد الذي سيقف في وسط الميدان، سيكون مخالفاً لكل قوانين البلاد. التي تحرم تجارة الرقيق رسمياً منذ فترة طويلة. وتعد من المخالفات الجسيمة ومخالفتنا للقوانين ستجعلنا نباع برخص التراب. لأننا لم نوفر لأنفسنا فرص المساومة والمفاضلة بين بائع وآخر. بل سنباع لأول من يرفع يده. ويشتري. وتلك مصيبة في حد ذاتها.

صاح فيه المليونير:

ـ ومن تحدث عن البيع يا حضرة..؟

أكمل الاستاذ:

ـ هنا فهمتك. تريد لفت الأنظار الى مشكلتك. وتحريك المشكلة نحو الحل. هذا سليم. ولكن من يضمن لك ان لا ينقلب اللعب الى جد؟ هل ضمنت ان لا يحدث تجمهر حولنا نؤخذ نحن الى السجن بسببه. هل لديك تأكيد انه لن يقبض علينا. انت تلعب. ولكني لا أعرف من الآن أين ينتهي اللعب وأين يبدأ الجد؟ كل المغامرين يجب أن تكون لديهم حسابات تحدد نسب الربح والخسارة في الالعاب التي يقومون بها. لا تفاجئهم الخسارات والانكسارات.

هجم عليه المليونير:

ـ أسكت، أف منك؟

فصل بينهما باقي الأفراد، وتكلم المليونير:

ـ هل سمعتم الاستاذ: يريد لنا الاستمرار في هذا الحال الصعب. طبعا كلكم ترفضون ما يقوله.

فوجىء بالعبقري يقف:

ـ لا.

نظر اليه الآخرون بدهشة:

ـ أنا من رأي الاستاذ.

ثم انضم اليه. والكل لا يصدق ما يراه ويسمعه. تراخت قبضة المليونير واصابه هبوط مفاجىء. هل جرؤ أفراد العائلة على عدم سماع كلامه. ان ذلك يحدث لأول مرة منذ زواجه ومجيء أولاده الى الدنيا. ان العرف العام الذي يلتزمون به. حتى في أخطر الأمور. ان رب العائلة لا يناقشه أحد أو حتى يرد عليه، ولكن ماذا جرى للعائلة في هذا اليوم.

جلس في مكانه.. قرر أن يغير أساليب تعامله مع العائلة تمشياً مع

الظروف التي يواجهونها الآن. صحيح ان لديه رغبة في قتلها. الظرف في جانبهما. بهدوء مصطنع كاذب، طلب من الاستاذ والعبقري ان يجلسا. رفضا أولا. وبعد محايلات وأخذ وعطاء قبلا الجلوس في مكان منعزل. بعيداً عن الباقين، الذين قبلوا البيع. قال لنفسه، ان تماسك هذه العائلة كان مضرب الأمثال.

وحتى عندما كانت تأتي الظروف الصعبة والقاسية، كان تماسك العائلة يزداد. ان ابنه البكر ووريثه في ادارة العائلة في السجن الآن. وها هو الاستاذ، الوحيد الذي تعلم، يخرج على طاعته، والعبقري، الوحيد الذي حصل على وظيفة ثابتة، يقول له لا.

يبدو ان الأسرة انتهت ولم يعد لها وجود. تلك هي بوادر النهاية التي أتت سريعة ومفاجئة. كظم غيظه. ورطب شفتيه بأحزانه. وتكلم معهم. قال ان آخر ما خطر بباله ان يعرض العائلة للبيع في ميدان عام. والذين رفضوا هذا لهم الحق. فهو لم يوضح نفسه بالقدر الكافي.

وكان يعتمد على فهمهم للأمر. الحال وصل الى طريق مسدود. لقمة العيش أصبحت مهددة. والقبر الذي يعيشون فيه عليهم تركه بكرامتهم وذلك بدلاً من انتظار البوليس حتى يخرجهم منه بالقوة ويصبحون فرجة للآخرين. ويشمت الكل فيهم. حاول الاستاذ ان يتكلم. ان يقول ان المليونير هو الذي أوصل الحال لما هم فيه. ولكن المليونير، طلب منه السكوت حتى ينتهي من كلامه أولاً. قال ان هذا ليس وقت توزيع التهم، ولا البحث عمن أوصل الحال الى ما وصل اليه. ذلك ليس وقته أبداً. المهم الآن هو مواجهة التدهور الحاصل في شئون العائلة. الباشا قبض عليه.

وهذا سيدفع البوليس للانتباه لهم. ووضعهم تحت المراقبة. وحيث ان المنطقة كلها تعيش على أعمال مخالفة للقانون. فستكون العائلة هي

مقدمة مراقبة مدينة الموتى كلها. من يدري، قد تلفق لهم تهمة. لم يرتكبها أحد منهم. البحث عن قبر جديد، مشكلة أخرى، لا يوجد الخلو المطلوب، وخلوات القبور ارتفعت قيمتها في الفترة الأخيرة وايجارات القبور في هذه الأيام. ليست مثل الأيام السابقة أبداً. بعض القبور وصل ايجارها لعشرة جنيهات في الشهر. والغريب ان سكان البيوت لهم لجان تقدر الايجارات.. وعقود ايجارات ومحاكم يذهبون اليها. ولكن سكان القبور محرومون من هذا. لأن وجودهم هنا غير شرعي. وبالتالي ليس من حق أي منهم اللجوء الى القضاء. اذن ما الحل؟

المطلوب عمل فرقعة، لعبة محسوبة تنتهي قبل ان تتحول الى جد. هذه الفرقعة، أو اللعبة، تجعل صوت العائلة كلها يصل الى الكل. وبالتالي يصبح حل مشكلتهم مطلوباً تحاشياً للفضائح والقيل والقال عن البلد. اللعبة لها حدود مقدرة بدقة قبل ان تبدأ. سيحركون القضية من صمت القبور الى ضجيج ميدان التحرير وبعد هذا التحرك ستحل المشكلة فوراً.

قد يتسلون بها يوماً أو يومين. ولكن المليونير واثق من ان المسؤولين سيوفرون لهم أكثر من شقة. اذ لا يعقل ان تقيم أكثر من أسرة واحدة في شقة واحدة. على الأقل هذا لن يحدث أمام الناس. لديه يقين الآن. انه هو نفسه سيحصل على شقة هو والأم الكبيرة. والباشا وزوجته وأولاده شقة. والدليل المتنقل وأسرته شقة. حتى العزاب من الاسرة سيمنح كل منهم شقة بشرط أن يؤسس شقة في القريب العاجل. ستصرف للأسرة اعانة عاجلة. تمكنهم من مواصلة الحياة حتى يدبروا أمورهم. وسيمنح كل منهم وظيفة. وهو متأكد أيضاً ان الصحافة والإذاعة والتليفزيون سيجرون تحقيقات عنهم. واحاديث

معهم. سيقال ان العائلة العظيمة ناضلت بعيداً عن الأضواء. وكافحت في صمت ثم حلت مشكلتها بهذه الضربة البسيطة والمغامرة المحسوبة.

قاطعه الاستاذ:

ـ هل لديك تأكيد من المسؤولين بذلك؟

تلعثم المليونير ولم يرد. سأل الاستاذ: ما يقصدة بحكاية التأكيد.

شرح العبقري الأمر:

ـ هل اتفقت مع أحد من قبل؟

صاح الاستاذ منفعلاً:

ـ ان كانت هناك وعود مسبقة. يصبح ما ستقوم به العائلة كلها لعبة قذرة. وان كانت الحكاية ضربة في الهواء كيفما اتفق. تصبح عملاً انتحارياً والأمران أحلاهما مر.

كاد المليونير ان يسأله عن الحل في نظره. ولكنه خوفاً من الكلام. ومن احتمال انضمام آخرين اليه من أفراد العائلة. استمر المليونير يصف الفوائد التي ستعود على العائلة من وراء عملية البيع. وراح يوزع الوظائف الجديدة عليهم. قال ان الباشا سيفرج عنه فوراً. بعد ان تعرف الدنيا كلها ظروف العائلة الخاصة. سيعين مديراً لمكتب سفريات الى الدول العربية تفتحه الدولة بنفسها.

وان الدليل المتحرك (وهو شخص من العائلة) سيصل الى منصب رئيس مكتب سياحي. والاستاذ مكانه محفوظ له من الآن رغم رفضه. وهو محام في احدى شركات القطاع العام. والعبقري عمله معروف. ان يكون المدير العام في المصلحة الحكومية التي يعمل بها حالياً. الهانم ستجد ألف رجل يتقدمون لها. فاتنة المقابر: مهندسة مشروع جديد. سيكون من شروط هذا المشروع الجديد. ان تسلم العائلة اربع شقق

في دور واحد من عمارة جديدة. الشقق الأربع ستفتح على بعضها. حتى لا تشكل الجدران عوائق بينهم. وستصبح هذه المساحة الواسعة بيت العائلة. المعونة التي ستصرف لهم. لن تقل عن ألف من الجنيهات.

وهي الجزء العاجل من المعونة. المرتبات التي سيحصلون عليها. لن تقل عن السبعمائة جنيه في الشهر الواحد. انهم سيلعبون بالنقود لعب. وسينظرون الى فترة المقابر هذه على أنها من الفترات الكئيبة في حياتهم. ويتكلمون عنها كماض انتهى ولا يجب ان يعود أبداً.

طرح السؤال عليهم من جديد. لا بد وان الكل سيوافق على عملية البيع الصورية اذن. فوجىء الكل بفاتنة المقابر تقف في هدوء وتخطو خطوة الى المكان الذي يجلس فيه الاستاذ والعبقري وتقول بصوت واضح الملامح:

ـ أرفض مهما كانت الاغراءات..

فتح المليونير فمه بدهشة. لم يتكلم. قرر ان ينهي الاجتماع، قبل ان يزداد عدد الرافضين. من يدري قد يضطر للذهاب الى ميدان التحرير بمفرده. وما قيمة ذهابه بمفرده؟ انهى الاجتماع.

كتب الاستاذ في مفكرته. طرح المليونير فكرة انتحارية وكانت النتيجة كالتالي: واحد لم يدل برأيه لأنه في السجن. ثلاثة رفضوا بعد ان قمت بجر الباشا الى المناقشة رغم أنفه. هذه المناقشة كسبت لي اثنين. الواحد منهما يساوي عشرة من الذين مع المليونير. الذين قالوا نعم. قالوها بتبعية ودون تفكير وعلى طريقة القطيع.

أما الذين قالوا لا، فلأنهم استخدموا اذهانهم وقلبوا الأمر على وجوهه المختلفة. أحد عشر وافقوا كالقطيع. السؤال الذي اطرحه على عائلتنا هو: الى أين تقودنا أفكار المليونير. الذي بدأ السير في طريق لا

نعرف الى اين يؤدي بنا. والمشكلة اننا لا نعرف الآن من أين بدأت المأساة في ذهنه. ولا متى نبتت. المليونير معذور، إنه جزء من عصره. نحن نعيش عصر المزادات العلنية واحدى البضاعات المطروحة الآن هي الانسان. فما هي الغرابة ان يتصرف المليونير بهذه الطريقة. ولكني أدرك انه مجرد أداة توجد قوة ما تحركه وتدفعه وترسل له التعليمات. انه ليس فاعلاً أصلياً. إنه أداة. في مقابل ماذا، رشوة؟ عمولة؟ الله أعلم..

توقف المؤلف عن القراءة. بدا مجهداً متعباً. رفعت رباب يدها. تركتها في الهواء الذي يفصلهما. لم يدر. هل رفعت يدها لتطلب منه السكوت والتوقف أم تعبيراً عن الاستحسان والاعجاب. قالت بعد ان سكت:

ـ لي اختلاف جوهري معك.

تساءل:

ـ اختلاف معي أم مع الرواية؟

أوضحت فكرتها:

ـ مع نقطة الاساس في الرواية كلها. انت تبدأ من لحظة وصول ابطال روايتك.

قاطعها هو هذه المرة:

ـ أرجو تحديد مفردات لغتك. أنا لا أزعم أن في روايتي أبطالاً. ليس في الرواية بطل واحد. الذين في روايتي يمكن ان نسميهم: الذين ليسوا ابطالاً.

التقطت منه خيط الحديث، وهتفت قائلة:

ـ الذين ليسوا أبطالاً، ربما كان ذلك عنواناً أكثر صلاحية للرواية من شكاوى المصري الفصيح. ولكن ذلك موضوع آخر. أكمل حديثي.

أنت تبدأ الرواية من لحظة وصول الذين ليسوا ابطالاً في روايتك الى لحظة حاسمة. توقف فيها الزمن. أي أنك تضعهم خارج اطار الزمان العادي وتخلق لهم زمانهم الخاص بهم وتقول: لا بد من حسم الأمور التي تدهورت. وهنا لي أكثر من اعتراض.

ـ نبدأ بالاعتراض الأول.

ـ ان وقف الزمان بهذه الصورة افتعال فني. ثانياً اننا نعيش في عصر سيدخل التاريخ على أنه عصر اللاحسم. ان جيلنا يعيش منذ حوالي ربع قرن ومع هذا لم ولن يشهد حسم قضية ما من قضايا العصر. الروائي هو صوت عصره. وعصرنا هو عصر عدم الحسم. أكمل باقي الاعتراضات.

قاطعها المؤلف بصوت عال:

ـ اذا حاسبتيني بروح العصر الذي نعيشه. سأقول لك بنفس الطريقة، إنه ليس من حقك الاعتراض. لأننا نعيش زمن الانكسار. في عصرنا وفي بلدنا لا يعترض أحد. الشعارات جاهزة: اطيعوا أولي الأمر منكم هم على حق دائماً. والحاكم مسئول عن الرعية أمام الله فقط وليس أمام الرعية نفسها. انه زمن التسليم والإذعان والموافقة.

ـ لنسم ما أقوله بأي تسمية أخرى. ملاحظات أو ايضاحات أو تساؤلات.

أصبح صوت المؤلف أكثر علواً.

ـ تلك هي مأساتنا.

ـ أية مأساة؟

ـ لغة سخية بغير حدود ضبابية. لديها القدرة على منحنا كل ما نريد وجميع ما نطلب.

قالت رباب بحزن:

ـ يبدو اننا لن نجد مساحة صغيرة من الأرض المشتركة نقف عليها معاً.

تساءل المؤلف ساخراً:

ـ وهل يجد أحد في بلدنا هذه المساحة. أنت واهمة.

حاولت أن تضحك قائلة:

ـ ولكن الأمور ليست بهذه الدرجة من السوء. أعطني الرواية ولا تعقد الأمور. سنجد ما هو أكثر من مساحة الأرض.

٦

من الذي قال للمؤلف: اذهب ونمٍ يا ابن الـ. . . أرح واسترح، فلا جدوى أبدا. .

أخذت رباب الرواية وحقيبة يدها وقامت. لوحت له بيدها وبسرعة اختفت من أمامه. نظر في حلقات الهواء الوهمية التي خلفها مشيها المفاجىء. وجدها مثقلة بعلامات الاستفهام الحائرة. تساءل: هل يمشي؟ يقوم؟ يبقى كما هو؟ ان أسهل الحلول هو البقاء هكذا ساكتاً بلا حراك. ينظر ويتأمل. قال لنفسه: ليكن التأمل هو متعة الجزء الباقي من هذا اليوم المر المذاق. شعر بفراغ فنفخ الهواء. مد قدميه عن آخرهما. استراح في جلسته واسترخت اعصابه المشدودة وهدأت دقات قلبه المتعب. نظر طويلاً في الفراغ الذي تركته رباب مكانها. تتبع خط سيرها وهي خارجة حتى ذابت في زحام الشارع أمام المقهى. دفع الحساب. جلس قليلاً بمفرده. لم يكن لديه ما يفعله. قام ومشى بين الموائد متثاقلاً كمن يستعرض ما أمامه. وصل إلى الباب الخارجي، وقف. ربع يديه فوق صدره.

عاد ووضع يده اليمنى في جيب سرواله الأيمن ويده اليسرى في جيب سرواله الأيسر. راح ينظر إلى الشارع المزدحم. سأل نفسه: لماذا يقف بهذه الصورة. خطوة واحدة ووجد نفسه مدفوعاً بنهر الزحام البشري المتدفق في بطء. سار. لم يكن له هدف واضح يسير اليه. انه

السير لمجرد الرغبة في السير. ومع هدهدة قدميه. هجمت عليه ذكرى ما حدث ليلة الأمس . . . لحظة عودته الى منزله.

في الواحدة من بعد منتصف الليل. ورغم انه يسكن في أطراف مدينة القاهرة. تعجب في سيره من هذه الحقيقة. ما من مرة سكن فيها الا وكان المنزل آخر المباني. مرة يكون المنزل محاطاً بالخضرة وأخرى بالرمال. ولكنه في كل الأحوال. يكون في آخر العالم.

بعده الفراغ الموحش المخيف. لحظة عودته حاول ان يسمع الصمت مثل كل مرة يعود فيها. في مثل هذه اللحظة من الليل. ولكنه في ليلة الأمس. وبمجرد ان ظهر في الشارع الرملي. والذي لم يرصف بعد. . نبتت من أركان الشارع. ومن أبواب البيوت ومن فراغ الصحراء وجوه مخلوقات بشرية لم يرها من قبل.

اقتربت منه ببطء شديد. كونت حلقة أو دائرة. صور الأمر لنفسه على أنه حلم من النوع القاسي. تذكر انه ليس نائماً. وأنه لم يتناول عشاء دسماً. وهل هناك ما يمكن وصفه بالدسامة في أيامنا؟ تنوعت الوجوه ولكن الحلقة أصبحت تحيط به. ضاقت ضاقت، ضاقت. تصنع الشجاعة واستمر في سيره. خاف من الفضيحة. نظر الى أعلى. توقف عند الابواب والشرفات والنوافذ لم يجد أحداً يطل عليه. قال له صوت لا يعرف ان كان قد خرج من الدائرة المحيطة به. أم صدر من مكان آخر. كل ما كان متأكداً منه ان الصوت كان عالياً. قال له:

ـ اذهب ونم يا ابن الـ . . .

ردد الصوت كلمات سافلة وصف بها ام المؤلف..لا يستطيع ان يثبتها هنا. مجرد كتابتها جريمة يحاسب عليها القانون الجنائي.

اكمل صوت آخر:

ـ أرح واسترح لا جدوى من كل ما تفعله أبداً.

ورغم جهامة الموقف وجدية الصوت الصادر من الدائرة. إلا أن صوتاً مهرجاً قال:

ـ الصوت الروائي الجديد. ها. ها. ها.

لم يكن ما أعقب الصوت ضحكاً. ولكنه كان انفجاراً. غير الموقف كله. انفرجت الدائرة. انفرط العقد المحكم الذي كان يحيط بالمؤلف. وبدأ عقله يجمع ما يقال من التعليقات:

ـ الالتزام شكل من أشكال العمل. . ها. . ها. .

ـ الكلمة المكتوبة ليست أداة تعبير. بل وسيلة تغيير.

كان ختام الضحكات ان وقف واحد منهم. رآه المؤلف جيدا قلد المؤلف في حركته. وطريقة سيره وحديثه:

ـ انني اتحدث عن ملايين الجياع. ان قلمي هو صوت من لا صوت لهم. انه هتاف الصامتين في بر مصر.

هذه المرة. وبعد الضحك والسخرية والشتائم. تفرقوا. اتسعت الدائرة. ضاعت الوجوه واختفت. نظر اليهم. بحث عنهم سأل نفسه: هل ابتلعتهم الأرض. لا يدري. صعد الى شقته. كانت كما هي. نظر الى الشارع. ها هو الصمت المستتب الاركان الذي يؤكد له ان ما حدث كان حلما. كابوساً. حالة من الخوف عبرت عن نفسها بوحشية. في المنزل، تسربت الافكار وراء بعضها مثل سحب الشتاء وغيومه. ماذا يفعل هو بالتحديد. رنت في ذهنه الكلمات: ملايين الجياع، هتاف الصامتين. القى نظره على حياته. الشبع والامتلاء. بل والرفاهية. تشكل واقعه اليومي. رنت في ذهنه جمل: الأدب الموقف. الكلمة الفعل. المسافة بين ما يكتب والسلوك اليومي للكاتب. ضحك في سخرية من نفسه. منذ فترة، كان يقول ان مصر لم تجد بعد الصوت الروائي الجديد الذي تعيد اكتشاف ذاتها من خلاله. كل من يكتبون

ليسوا هم هذا الصوت. وكان يقول لنفسه في خجل. انه مجرد مشروع لأن يكون هذا الصوت. وكان يهمس لنفسه في صمت الليل. وهو يكتب روايته الأخيرة.

انه سيصدرها بالجملة الآتية. ايها الحكام ويا سكان المدن والقرى. يا أيها المظلومون والظالمون اقرأوا هذه الشكاوى من أولها إلى آخرها.

وهي شكاوى صادقة لا تكتفي بتصوير الأوضاع القائمة في بلادنا فقط. ولكنها تحاول ان تحلم معكم بغد لا أستطيع القول انه افضل. ولكنه غد فقط.

وقف المؤلف امام المقهى. شعر بشوق جارف لذلك الصمت. الأخضر الوارف في قريته البعيدة. الذي يغري الانسان حتى ليكاد ينسى الركض اليومي. أحس بلهفة للناس هناك. وكيف تسيل الحياة من بين اصابعهم بطيئة مشعة بالرضى. هناك يقول كل منهم لنفسه: لا شيء يساوي متعة الاطمئنان.

في وقفته هذه. شعر انه يطل على ميدان قتال، وان الحاصل أمامه الأن بقايا معركة رهيبة. قال في نفسه: لو كان المصري الفصيح مثقفاً. نال قسطاً من التعليم. لقلت على لسانه في الشكاوى: نحن لم نأت الى هذا العالم الا لكي يعذب بعضنا البعض.

ويصفي كل منا حساباته مع الآخر. ولكن المشكلة اننا لم نتعود ابدا تسمية الاشياء بأسمائها الفعلية. لا نقول عن الرجل رجلاً والشارع شارعاً. هذا العالم لم يعد يعرف صدق الكلمة. ولا ما يعنيه الحرف من تحديد صارم. لدقيقة بقي الشارع أمامه مساحة من الطوب والحديد والأسمنت.

اشياء كانت لها في الزمان القديم تطلعات انسانية. ولكنها الآن

اصبحت مجرد طوب واسمنت وحديد واخشاب. قال لنفسه وهو يتحرك: هيا. امنح نفسك لمدينة بها عشرة ملايين من البشر.

استدارت في ذهنه مفردات الكلمات. وحاولت عينه ان تجد لها مستقراً. لم تجد سوى البشر. بشر بشر بشر. وجوه. وجوه. وجوه. ان الاضواء والظلال تتداخل. انها تتذبذب في الهواء الطلق. لا أحد يعرف أين يبدأ وأين ينتهي اللون. حاول اثناء سيره البطيء اكتشاف اشياء لم يعن نفسه باكتشافها من قبل. الهواء. الضوء. الحياة. الناس. الهواء في وسط المدينة ليس راكداً. رغم المباني الاسمنتية الضخمة. ان لها قدراً من الحيوية المتألقة. لا توجد رائحة عفونة أو عطن كما أنه لا توجد فضلات بشرية هنا.

عاودته ذكرى ليلة الأمس. وما سمعه من الناس وهو في طريقه الى بيته والشتائم وجدوى الكتابة. همس لنفسه.

ـ أنا انسان يائس.

قد تكون الكتابة نوعاً من الهروب اليومي المستمر. ولكن الى متى تستمر اللعبة. انه يائس بالفعل. لم يعرف العشق ولا الارتواء. لم يسمع كلمة حب صادقة. لها رائحة انسانية. لم يتمدد في احضان طرية. لم تنم يده المتعبة في أكف دافئة. لم يسند رأسه المرهق لليونة صدر انثوي.

كم من المعاني احترقت على شفتيه الظامئتين الى القول. وكم من الاماني والاحلام التي لن تتحقق أبداً. والتي حنطت وستدفن معه يوم وفاته. تساءل: ما سبب حالته؟

كان يشعر بالنفور من أولئك الذين كان يطلق عليهم. المتعاركون مع سقف العالم.

قال عن نفسه يوماً. انه يتعارك ولكن مع قاع الدنيا. وكان ينوي كتابة عمل عن الذين يتعاركون مع السقف. وهل لسقف العالم من حدود؟ في منزله اتجه إلى كتبه جمع أوراق الكتابات السابقة للرواية. الكتابة الأولى، الثانية، الثالثة.

وضعها في مظروف كبير. وضعها بجوار كتابات الرواية التي قبلها. الفترة القادمة هي مرحلة التسكع بين هذا العمل.. وعمل آخر قادم. فترة من الوقت قد تطول وقد تقصر. فترة من الزمن الميت الذي لا طعم له. انه يراجع نفسه في هذه الفترات. وغالباً ما يكون لهذه المراجعات فوائد عظيمة. وهو يضع أوراق الكتابة الثالثة من الرواية. دفعه حب استطلاع لا يدري سببه. لأن يلقي نظرة على الاوراق.

استوقفته صفحة فيها جدول أو رسم بياني. لا يفصله عن الليلة التي قضاها في رسم وتنفيذ هذا الجدول سوى فترة زمنية قصيرة جداً.

ومع هذا لا يتذكر أمر الجدول. بصعوبة ادرك الأمر. انها شجرة عائلة الرجل الذي خرج على المألوف. واستحق ان تدور أحداث الرواية من حوله. المصري الذي نسب لنفسه حق الفصاحة والافصاح والقول نيابة عن الآخرين. عاد الى أول الفصل. كانت الطريقة الثانية لبدء الرواية. جلس على الكرسي. وبدا كأنه ينظر في عمل كتبه روائي آخر غيره.

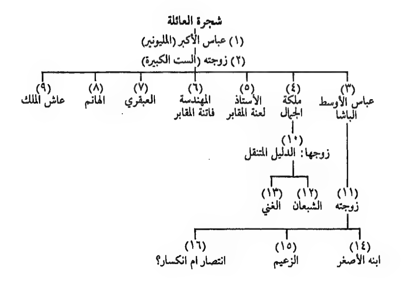
٧

وجوه من رحلة التعب

الطريقة الثانية لبدء الرواية:

عنوانها طويل. تقول كلماته:

افق يا قارئي العزيز من خدر البلاغة الكاذبة. فأنا أحدثك عن عصرنا. هذه الايام العصيبة في بر مصر وتبدأ هكذا..



١ ـ عباس الأكبر (المليونير):

يقـول لأولاده عن نفسه في الليـالي المنطفئـة، الطويلة الـوجه. عـلى سبيل التسلية وقضاء الوقت. وابعاد شبح التفكير في الحال والعفـاريت والارواح. التي تملأ هواء المقابر. انه حضر الى مصر هارباً من ثأر. انه مطلوب وهو تعبـير صعيدي يؤكـد انه لا بـد من قتلـه. وهناك في هـذه اللحـظة في دروب مصر وانحائهـا. سبعة رجـال من بلدتـه. يبحثـون عنه. مع كل منهم بندقية. واعيرة نـارية. هـدفهم الوحيـد. العودة الى البلد الأصـلي بـرأسـه. يقـول لهم. ان البلدة اسمهـا سـاحـل سليم. تتوسط البداري وأسيـوط. وسبب الثار انـه قتل ابن عمـه. دفاعـاً عن الأرض.. التي آلت اليـه بعد وفـاة ابيه. خمسـة آلاف فدان من أجـود الأراضي الـزراعيـة. بمـا فـوقهـا من زراعـة وبشر ومبانٍ ومـواشٍ ومشروعات عظيمة. خير لا يجد من ينتفع به.

القتل لا يجر سوى القتل في الصعيد. خاصة عندمـا يكون بحثاً عن الـرزق. الذي ضـاقت سبله. استمـر نهر الـدمـاء ينـزف. وأتى عليـه الدور. قتل من أسرة عمه عدداً لا يذكره الآن. وقتلت عائلة عمه كـل أخوته. الـرجال قبـل النساء. ولم يبق سـوى هو. الـدور عليه. وأولاد عمـه لن يتسطيعـوا الحياة في أمـان طالمـا أنه عـلى قيد الحيـاة. رقبتـه لا تسـاوي الخمسة آلاف فـدان فقط بل تسـاوي اليوم والغـد والسنـوات القادمة بالنسبة لعائلة عمه كلها.

اسمـه ليس عبـاس ولن يقـولـه لأحـد من أفـراد الأسرة. ولا حتى لـزوجته. اسمـه الحقيقي سره. وقد علمـه أبـوه ان السر ان خـرج من صدر الانسان لم يعد سراً. وطـالما بقي حبيس صـدرك فهو سـلاحك. لحظة خروجه من الصدر يصبـح سلاحـاً للآخـرين ضدك. معـه سبع بطاقات ما بين عائلية وشخصية. وكلها بأسماء أشخـاص ليس من بينها

بطاقة واحدة تحمل اسمه الحقيقي ملامح وجهه تغيرت. ملابسه. عمله.

كل ما في حياته تغير. وفي العتمة الليلية. والليل يخفي حقائق الاشياء. ينسى عباس ان لهجته ليست صعيدية. وتنسال بداخله قطرات حكايته الحقيقية. وتسير متوازية مع ما يحكيه لاولاده. الميلاد في احدى قرى الوجه البحري. الحياة في وسط عائلة فقيرة. تعيش على حافة الجوع. العائلة كلها تعمل أجرية عند الآخرين. ذات صباح. وكان شاباً. راحت نفسه على أصبع موز. في شجرة يملكها الذين كان يعمل عندهم. سال لعابه. ولعبت مصارينه في بطنه. ومد يده. أكل الاصبع الأول بقشره. ولكنه أدرك ان الموز يتم تقشيره بعد الاصبع الخامس. وعندما تبين ان الطعم مختلف بين القشرة والثمرة نفسها. الاصبع السادس الذي أكله بدون قشر كان مذاقه حلواً لدرجة أنه هجم على الشجرة. ولم يكن يعرف انها هشة ولا تحتمل حتى هبات الريح. انكسر الفرع الذي كانت معلقة به سباطة موز ضخمة.

وقع المحظور ولا مكان للتراجع الآن. الاستمرار في الأمر هو الحل الوحيد. تذكر أهله وناسه وأنه تركهم هذا الصباح بدون افطار. فحمل سباطة الموز فوق كتفه. اختار الطرق الخلفية لحديقة أصحاب الأرض التي يعمل فيها. فهي امان على كل حال.

كان يجري. والجري له صوت في صمت الصباح الريفي. ولكنه شاهد منظراً كان من الممكن ان يمر الأمر كله لولا شهقة عالية صدرت منه نبهت ابن صاحب الأرض. الذي اختلى بزوجة الخفير. منظر عادي ويحدث كل يوم. فصاحب الأرض لا يملك الأرض وحدها. ولكن من عليها أيضاً. حتى الاعراض ملك له. صدرت منه شهقة والشهقة العالية كانت السبب استدار له ابن صاحب الأرض. اشار له بيده أن

يبقى كما هو وتوارت هي داخل حديقة الموز. أخذه ابن صاحب الأرض الى دار أبيه ضربوه. أهانوه. أركبوه حماراً ووجهه إلى الوراء. وقفاه الى الأمام. دار به الحمار في البلد. ويده مثبتة على سباطة الموز.

قال لنفسه: بعد الزفة سيعود بسباطة الموز الى بيته. تفرج عليه الناس. بصق عليه الاغنياء. وتبرأ منه الجياع. ورماه الصبية بالطوب ورشت عليه المرأة ترابا. بعد انزاله من فوق الحمار الاحدب الذي لف به داير الناحية. هجم عليه الذين كانوا في الموكب أو الزفة وأخذوا سباطة الموز. على باب بيتهم كان أبوه يقف في انتظاره. حاول الدخول. يد أبيه منعته من الدخول. ثلاث كلمات فقط قال له:

ـ لا مكان لك بيننا.

تراجع الى الخلف خطوتين. نظر الى أبيه بدهشة. قالت عيناه كل ما كان يود قوله. وقرأ والده نظراته وفهم الرسالة جيداً. طوح بيده الى الفضاء الواسع وقال له:

ـ أرض الله واسعة.

اسمه الأول عباس. أما الاسم الثاني فهو عبارة عن القاب يطلقها على نفسه حسب العادة.

في يوم يقول عباس المليونير. وآخر الغني. وثالث الشبعان ورابع القوي. لدرجة انهم تعودوا كل صباح أن يسألوه عن اسمه هذا اليوم. فيفكر قليلاً ويحدد الصفة التي سينادى بها في هذا اليوم. وهي كلها صفات تصف عكس حاله. فرغم جوعه وعريه وجهله وانكساره. فكل الصفات تتحدث عن الغنى الذي بلا حدود. والشبع لحد التخمة. وكثرة النقود لدرجة أنه لا يعرف عددها.

المسألة ليست محاولة للتعويض. أو شكلاً أكثر تطوراً للقدرة على

الحلم. انها أكبر من هذا. ولهذا تعدت كبيرهم الى أفراد العائلة كل واحد منهم له لقب غير الاسم الأصلي. ولأن اللقب أكثر تداولاً من الاسم. نسي الكل الاسماء الأصلية. مع مرور الوقت. ولم يبق لهم سوى الالقاب. عباس المليونير ليس له عمل محدد يخرج من منزله صباحاً. وهو لا يعرف العمل الذي سيقوم به. وعندما يسألونه في الصباح عن عمل اليوم يقول:

ـ حسب التساهيل.

ما من عمل في المدينة الضخمة. التي لا ترحم أحداً لم يمارسه. وعند العودة يقول، يحكي ما قابله في يومه. وعمله الجديد وما تعلمه منه عمل واحد كان يلجأ اليه. اذا سدت كل الطرق في وجهه ولا يمكن ان يتحدث عنه أبداً. وهو التسول. ورغم الصمت. ومحاولة اخفاء الحقائق الا أنهم كانوا يعرفون على الفور لحظة عودته انه كان يتسول. ثمة انكسار في مشيته. ظهره محني وملامح وجهه متهدلة.

وهكذا يعرفون الأمر دونما كلمات. الأيام التي لا يصل فيها الأمر لحد التسول. يكون لديه الكثير من الاعمال. حارس موقف سيارات. خفير من الباطن. سمسار مقابر. وسيط في طوابير الجمعية. يشتري ثم يبيع ويشتري. يحضر تاكسياً لمن يبحث عن التاكسي ولا يريد ان يتعب نفسه. يساعد أحد باعة الجرائد فترة الصباح. يقف بالقرب من الاستاذ يبيع التذاكر لمن لم يشترها. يقف امام دور السينما في وسط المدينة وبيده عدد من التذاكر. أو بجوار أكشاك بيع تذاكر الحفلات. لكبار المطربين. حمال في محطة مصر.

في أوقات الأزمة في بعض المواد التموينية. يبيع الكبريت والسجائر والملح حسب الحال. أعمال كلها.. العائد منها قروش قليلة.

ولكنه يؤكد ان القرش بجوار القرش يكونان مبلغاً كبيراً. وان بحر

النهـار لا أول لـه ولا آخـر. ذرات لا نهائيـة من الثـواني والـدقـائق والساعات، تكفي لأن يجمع أكبر قدر من النقود. المهم أن تحصل على الرزق الحلال. لأن القرش الحرام يدخل البيت لكي يقضي على القرش الحلال الموجود فيه. يقول لأولاده في الليل. انه لا يعنيه في الدنيا كلهـا سـوى الخيط الرفيـع الذي يفصـل الحلال عن الحـرام. هذا هـو الحـد الفاصل الوحيد في دنيـاه. الخاليـة من كل الخـطوط المرسـومة والحـدود الموضوعة.

٢ ـ الست الكبيرة:

رغم ن عباس المليونـير له رأي واضـح. وهو أن المـرأة خلقت لكي تبقى في البيت تحفة تستخدم في السرير. وتعمل في المطبخ فقط. الا ان الست الكبيرة خرجت على هذا الرأي منذ فترة. بموافقة عباس أيضاً.

اسمهـا الأول: أصيلة. وهي ايضاً ليست قـاهريـة. تقول انها من قبائل البدو الرحل. ويقول هو عنهـا. في لحظات العـراك الحاسمـة. انها من جماعات الغجر الذين لا أصل لهم. طافت جماعتها حول القاهـرة. منذ سنوات بعيـدة. معهم الخيام والماعز والنسـاء اللاتي لا يبـدو منهن سوى العينين. تعرف عليها. طوال الايام التي مكثتها جماعتهـا. كانت حرباً صامتة. يسميها الرجل حرباً أصيلة. ويحدد المدة بأربعين يومـاً. على الجهة الأخرى جمال أصيلة. والهدف ان يرحل مع الجماعة. رأسماله رجولته. والثمن وعد بالامان والحياة تحت سقف لا تعبث بـه الريـاح. وفـوق ارض ثـابتـة. ولأن عبـاس لم يخلق الا لكي ينتصر. فقـد بقيت أصيلة. ولم يرحل هو. تغير كل ما فيها.

ولكن بقي شيء واحـد من أيـام الـرحيـل المستمـر. والسفـر الى لامكـان. وهو مـلابسها القـديمة. السـوداء المزينة بنقـوش من الـوان غامقة. خضراء وحمراء. ولكنها غامقة. الشيء الآخر. هو اغاني الرعاة

والغجر والتي لا يفهم احد منها كلمة واحدة. ولهجة تلجأ اليها في بعض الأحيان. ونظرة تهيم مع اتساع ورحابة الأفق. ومرض قديم يعاودها كالوجع او الضنى اسمه الرغبة في السفر.

انتصار عباس تمثل في تثبيت أقدامها بالأرض. وشدها اليه بسلسلة الأولاد الذين اتوا الى العالم. واحداً بعد الآخر. لا يفصل بين الطفلين سوى عام واحد. أما العمل الذي منعها عباس المليونير من القيام به فهو ضرب الودع وقراءة الغيب. عمل بقي معها منذ أيام الرحيل والتجوال. تعلمته من أمها. كانوا يتوقفون بالقرب من القرى. والكفور والمدن الصغيرة. ينصبون الخيام بعيداً عن البيوت. وتذهب الأم الى هناك. تنادي. تقرأ الغيب وتطل على الأيام النائمة في رحم الغد. وتضع اصابعها على سكك السفر ومحطات الوصول في حياة الانسان. أغلب الزبائن كن من النساء المحبوسات خلف الجدران والأبواب المغلقة والنوافذ الموصدة دون العالم الخارجي. عباس المليونير منع أصيلة من ممارسة عملها المحبب الى نفسها. والذي تعلمته من أمها. ولكنها احتفظت ولسنوات طويلة بعدة الشغل. طرحة سوداء. أتى الجرب على لونها الاسود الغامق وقليل من الرمل.

تقول إنها من أبعد نقطة في بحر الرمال. التي أبحروا خلالها. في قلب الصحارى البعيدة. وسبع قطع من حبات الودع اكبرها قطعة ذكر وقطعة انثى. والباقيات تقف في صف يبدأ بالكبيرة وينتهي بأصغر قطعة.

تقول انه محار رمته أمواج البحار التي بلا شاطىء آخر. احضرته الامواج من ديار العشق والمحبة وحملته ورمته في نهاية الرحلة. على الشاطىء الصحراوي. وانها قضت سبعة أيام في انتظار الودع واختياره. واحياناً تحلق في سماء الحكاية وضباب العصارى فتقول إنها

اختارت في البداية الذكر والأنثى فقط. وانهما توالدا وتكاثرا وانجبا هذا العدد من قطع الودع. ثم اصابتهما الشيخوخة القاتلة. ومع الشيخوخة اتى العقم. وحبات الودع هي أسرتها التي توشوش لها في صمت الليالي وصحوة النهارات بكل ما حدث للأسرة بعد هذا.

في السنوات الأخيرة. خفت قبضة عباس المليونير على الاسرة. بدأت زوجته تمارس عملها في السر. تلبس زيها القديم وتأخذ الصرة وتدور في دروب مدينة الموتى. ويرتفع صوتها القديم. تحاول ان تتعرف فيه على ذاتها المدفونة تحت ركام الحياة مع احد ابناء الأرض الثابتة. التي تمسك بأقدام من يتحركون فوقها. تنادي، يسمعها الأحياء. وفي لحظات الشجن والأسى وانبعاث الكائن القديم بداخلها. كان يخيل اليها ان سكان المدينة الحقيقيين، الموتى. ينظرون اليها من خلال أبواب المقابر، ولكن هل لديهم ما يستحق كشف المستور.

اكتشف عباس الأمر بنفسه. كان عائداً ووجدها خارجة من احد المقابر. ثورته كانت أقل مما توقعت. بعد الأخذ والعطاء. والسؤال والجواب. والكلام والاستماع. سمح لها بمزاولة عملها القديم. ولكن بشروطه هو:

ان لا تخرج من دائرة مدينة المقابر ابداً. ولا تذهب لسكان البيوت الذين يعيشون في الناحية الأخرى من العالم. إنهم لا يستحقون ان يبصرهم أحد بما هم فيه من ضلال وانانية وعدم انسانية.

الشرط الثاني: ان لا يعرف أبناؤها حكاية ضرب الودع. وان تظل سرها الخاص. حتى أقرب الابناء اليها. لو عرف الأمر لفسد حال الأسرة.

الشرط الثالث: ان دخلها من عملها لها وحدها. لن يدخل البيت مليم واحد منه. وحتى ان فرضت عليه الظروف القاسية والصعبة ان

يأخذ من مالها. فسيكون ذلك على سبيل القرض والسلف. وسيعيد لها ما أخذه منها فوراً. ذلك عهد يأخذه على نفسه من الآن. وأصبحت الست العربية أو البدوية أو الغجرية أشهر من في مدينة الموق بعد ذلك ولكنها من البداية حرصت على ان لا يعرف أحد مكان المقبرة التي تعيش فيها. ليس خوفاً من عباس المليونير ولا تنفيذاً لشروطه. بقدر ما كان ادراكاً منها لما في تحذيره لها من العقل والحكمة خاصة فيما يتصل بالابناء. من يومها وهي تتعامل مع احلام سكان مدينة الموق. يسمونها في البيت الست المديرة. وهي تطوي الجناح على يوم تعاود فيه السفر والترحال من جديد. حيث الصحارى والأرض والسماء المفتوحة. والأفق البعيد خط دائم الهروب والجري والابتعاد كلما اقترب انسان منه. تزوجت وانجبت ولها الآن أسرة ومع ذلك فهي غير سعيدة.

٣ ـ عباس الأوسط:

اسمه الذي ينادونه به الباشا. ولقبه الذي لا يقال الا همساً. (زوج للايجار) هو الابن البكر للمليونير. كبير العائلة من بعده. يحكون في الأسرة أنه هو الذي اختار لنفسه لقب الباشا. كان البكري والمليونير نفسه. قضى طفولة معذبة خالية من البهجة. ، لهذا قرر ان يدلل عباس الأوسط. وان تجاب كل طلباته وان يعامل معاملة البشوات. اصرار أبيه على كلمة الأوسط التي تضاف الى اسمه كان غريباً.

قرر ان يكون في كل جيل من العائلة شخص يحمل اسم عباس. وعلى الابن الاكبر في كل جيل ان ينجب طفلاً ذكراً ليحمل لقب واسم عباس. لهذا سمي الابن الذي سينجبه الباشا. قبل ان يأتي الى عالمنا. قال ان اسمه سيكون عباس الثالث وهو مطلوب منه انجاب عباس الرابع. والرابع عليه انجاب الخامس وهكذا. الى نهاية العالم. كان تصميمه غريباً.

في البدء خشي الباشا ان لا يستطيع تحقيق امنية والده. . من يدري. قد تأتي الخلفة كلها من البنات. وهذا جائز ويحدث كثيراً . ومع مرور أيام عمره. ظلت حكاية عباس الثالث تؤرقه. الى أن حدث وأتى عباس الثالث الى العالم. واستراح كثيراً. وبدأ يؤمن بأن والده يفهم من أمور العالم أكثر منه. ومن أي شخص آخر وأنه يدرك الأمور الصعبة بالفطرة وحدها. دون سواها.

عباس الأوسط رجل ملو هدومه. طول وعرض. مثل عود السرو يقول والده عنه إنه ولد وتربى ونشأ في أيام الرخاء. طويل وخشبه عريض. ملامح وجهه. فيها رجولة نادرة. لديه جلباب بلدي. لا أحد يعرف من أين أتى به. وان كان يبدو فيه كتاجر من كبار تجار العصور الوسطى. كل صباح. يخرج مبكراً. يلبس الجلباب البلدي الفاخر. يضع على رأسه طاقية وحولها لاسة بيضاء لامعة. يطل من فتحة الجلباب. من فوق صدره صديري شاهي أبيض. شكله جميل. وتخرج من جيبيه سلسلة بها ساعة جيب قديمة. يقول انها ساعة أثرية. ولو بيعت في مزاد علني. لوصل ثمنها الى عشرة آلاف جنيه. ولكنه لن يبيعها في قدميه بلغة سوقي بيضاء. تكمل منظره العام. كتاجر رست سفنه وقوافله في الليلة الماضية.

أتى من بلاد السند والهند معه الجوز والطيب والبخور والصندل. يتجه إلى مكان عمله في ميدان التحرير. بالتحديد. أمام مبنى المجمع الحكومي. يمشي في حواري المقابر. ما زالت رائحة الليل تفرض نفسها على المكان. نداوة وطراوة تصل اليه. اكثر سكان مدينة الموتى لم يقوموا بعد من نومهم. يقطع الحواري والأزقة والممرات. حتى يصل الى طريق صلاح سالم. الوقت مبكر ولهذا تمر السيارات في سرعة الصوت يقف حتى يتمكن من عبور الطريق الى الناحية الأخرى.

في وقفته هذه كل صباح قد تمر سيارة تقودها امرأة. الزجاج أزرق بلون السماء. يغطى داخل السيارة بطبقة من الغموض والسحر. نظارة المرأة بنية والشعر أصفر واللحم أبيض ولون السيارة أحمر زاعق. منظر يثيره كل صباح. لديه نظرية لا يسمح بمناقشتها مع أحد ترقى لحد اليقين الثابت.

وهي أنه متفوق جنسياً على أصحاب الشقق الفاخرة وركاب السيارات. الرجل داخل الشقة مجفف وضعيف وعاجز والرجل خلف مقود السيارة توجد قوة ما تسلبه رجولته. وكل امرأة تمسك بدركسيون السيارة انما تتلوى من الكبت الجنسي. قيادة السيارة نوع من الهروب. أو تعويض النداء الجنسي الصادر من أعماقها. تحاول ان تعوضه بالامساك بما في السيارة من آلات طويلة. ان قيادتها السيارة تشبهاً بالرجال. محاولة منها للتخلي عن دور وانوثة المرأة. والتحول في النهاية الى رجل لا علاقة له بالمرأة.

كل صباح في وقفته هذه. التي تطول أو تقصر حسب تدفق السيارات القادمة من أحياء الاغنياء والسادة. وفي كل صباح. ثمة حلم. يداعبه. ولا يموت الحلم أبداً بمرور الايام. انه يستيقظ ويصل الى منتهاه في وقفته على الطريق. يحلم منذ سنوات العمر الأولى. ان تتوقف سيارة. لا بد وان يكون التوقف مفاجئاً ويحدث صوتاً رهيباً. ومن شدة السرعة. ومفاجأة التوقف. تدور السيارة حول نفسها دورة كاملة. تستدير وتصبح مقدمتها في مواجهته. يحدث اضطراب عام على الطريق كله. ينفرط عقد السيارات المتحرك في سرعة نحو المدينة. وترتفع أصوات السيارات وكلمات الاحتجاج وحالات العراك. وفي هذا الجو الصاخب. تنزل الحسناء وتتجه اليه تكلمه. تطلب منه التفضل والركوب معها.

ستوصله إلى المكان الذاهب إليه حتى لو كان وراء الشمس أو فوق سطح القمر. للباشا مواصفات معينة لهذه الأنثى التي ستقف له. وتركبه معها. لا بد وان تكون من أصحاب السيارات. وان تقود السيارة بنفسها. لو كان معها سائق خاص أو حارس سيرفض الركوب معها. يجب ان يتحقق من حدوث الخلوة التامة من لحظة التعارف الأولى. من يدري؟

قد يحول الكنبة الخلفية في السيارة الى سرير في الدقيقة الأولى للركوب معها.

المرأة نفسها له شروط بخصوصها. طويلة وعريضة. في بياض الحليب. وليونة القشدة. لن يتأكد من البياض الا بعد تعريتها في غرفة مظلمة. ان انعكس اشعاع بياضها على حدقتي عينيه. كانت هي. وان كان البياض منطفئاً فليست هي أبداً. اما الليونة فلها شرط واحد. ان يخلو جسدها من قطعة عظام واحدة. ويده مدربة في كشف نوع المرأة. الشعر أصفر. موجات من الذهب الفائر في الهواء. العينان في خضرة البرسيم في حقول أبيه الواسعة التي يسمع عنها الحكايات منه. كل مساء لا يدري الباشا كم صباحاً مر عليه وهو يحلم نفس الحلم. ولكنه كل صباح يعيش حلمه من جديد.

وبمجرد ان تقترب منه سيارة حمراء. نفس اللون الذي ارتبط في ذهنه بمعبودته الساحرة. التي سيشرب معها كئوس النعيم الذي بلا حدود حتى تسرع دقات القلب. لدرجة ان تؤلم قفص صدره. ويجري الدم في عروقه حاراً ملتهباً. وتنبت حبات عرق دافئة في أكثر من مكان من جسمه. ويجف ريقه. ولكن السيارات تمضي. سيارات، سيارات، سيارات. يبدو من خلف زجاجها رجال ونساء. واطفال وشيوخ. يتحدثون ويضحكون. وهو واقف في مكانه يرقب الآخرين. ويتسع الحلم بداخله.

ويتحـول الى مرض يعـاوده كل صبـاح . وتـطول وقفتـه كـل يـوم . وعنـدما يتسرب اليـأس الى نفسه . يقـرر العبور. ينـظر ناحيـة اليسـار وناحية اليمين . ثم يعبر الـطريق بسرعة خـاطفة . وبمجـرد ان يصبح في الناحية الأخرى. يتبخر الحلم . وتصبـح كل احـلامه هي الحفـاظ على عدة الشغل . الجلبـاب والصديـري والطاقيـة والبلغة . أمـامه اتـوبيس وحيـد يوصله من الـدراسة الى التحـرير. مشهـور بزحـامه الشـديـد . ومـلابسه التي يـرتديهـا ليست مجرد مـلابس . انها عدة شغـل . وسيلتـه الوحيدة لكسب عيشه ، من طريق حلال ، لهذا يخاف أن يمزقها الزحـام الرهيب . داخل علب السردين المسـماة بالاتـوبيسات خـطأ . قد يقـطع الجلباب ، أو ربما يدوس أحد على البلغة البيضاء فيلطخ وجهها وتحتـاج الى تلميع . ولأن لونها نـادر. فلمعتها تكلفـه سبعة قـروش هو في أمس الحاجة إليها .

يخشى ان تسرق الساعة الأثـرية والتي يخـرجها من جيبـه وينظر فيهـا وقت العمل . فيترك ذلك أثراً لدى الزبـائن . يرعبـه ان يتلوث الجلباب بشيء يحمله راكب . حليب . زيت . كيروسين .

ان أكـثر ساعـات يومـه معانـاة هي لحـظات ركـوبـه الاتـوبيس من الدراسة حتى ميدان التحرير. ومن التحرير حتى الدراسـة . في الزمـان البعيـد . كانت المـدينة خـالية . البشر قلة . وكـل شيء متاح . كم يبـدو الحديث عن تلك المدينة بعيداً . مـع ان السنوات التي تفصله عنهـا . لا تصـل الى العشر فقط . باءت محـاولاتـه بـالفشـل . مهـما حـــاول فـي الأتوبيس فلا بد وان يخرج من المعركة ببعض الخسـائر. التي قـد تكون ضخمة . والتي قد تكون بسيطة الى ان هداه تفكيره الى حل سهل .

في الصباح يمشي على قدميه حتى ميـدان الحسين ، ومن هنـاك يركب الاتوبيس القادم من التحرير. يعـود به الى الـدراسة وفي هـذه المسافـة

يضمن العثور على مقعد يجلس فيه وان فشل في هذا. فعلى الأقل يضمن الوقوف بجوار منفذ هواء. بعيداً عن الروائح الخانقة التي تملأ علب السردين المتحركة. وان يكون بعيداً عن محاولات العدوان على جلبابه وبلغته وهي أشياء أهم حتى من حياته نفسها. وفي العودة يمشي من التحرير حتى باب اللوق ويركب الاتوبيس المتجه الى التحرير. ويعود به. المشي صعب. ولحظات الانتظار طويلة. وقاسية. يقضيها وهوواقف أوجالس في ظروف غير انسانية. ولكن عدة الشغل غالية. ولا يستطيع ان يشتري غيرها. اشتراها في أيام الرخاء التي مضت ولن تعود.

مع انه اشتراها منذ حوالي خمسة أعوام فقط. لقد تحملت اكثر من البشر. ويصل الباشا الى عمله. وهذا يوصلنا الى أحد مواقف الرواية أيضاً. ماذا يعمل الباشا؟ الجواب على السؤال بكلمات قليلة. الباشا يعمل زوجاً للايجار. ولهذا العمل قصة نوردها على سبيل التسلية عندما ضاق الوطن بأبنائه. وفتحت الأبواب على مصراعيها. وكان شعار حكام البلاد لأول مرة. كل من يود السفر مع ألف سلامة.

وقدمت تسهيلات لا حصر لها. لكل من يفكر في السفر. واسهبت الصحف في الحديث عن نعيم السفر الى خارج البلاد. المرتبات الضخمة وتسهيلات التحويل الى مصر. ونشرت حكايات وحكايات عمن سافروا. وعادوا بعد سنوات قليلة ومعهم آلاف الجنيهات. فكر الباشا في السفر. لا يذكر الافكار التي هدرت بداخله. ولا حجم الاماني والاحلام. ولكنه يتذكر ادراكه ان السفر أصبح في فترة من فترات حياته هو المخرج الوحيد من أزمته. خرج من القبر ذات صباح. لا يدري ان كان ذلك الصباح حسناً أو سيئاً. ذهب الى مجمع المصالح الحكومية في ميدان التحرير. حيث توجد ادارة الجوازات والهجرة

والجنسية. وهي المكان الوحيد الذي يمكن السفر من خلاله. وقف أمام أول موظف قابله.

تــزاحمت الكلمات وهـدرت من فمــه. دارت حـول معنى واحد. السفـر، الاوراق المطلوبـة وكم تكلفـه ومن أين يستخـرجهـا؟ غـربـل الرجل الجالس في برود وهدوء أعصاب كلامه. وقال له كلمات كثـيرة. لم يفهم الباشا أغلبها. وان كانت الأرقام المالية قـد بدت كبيرة. كلمات أخـرى رنت في أذنيه. عن استـمارة ثمنها ستـة جنيهات كـاملة. وجهة مالية تضمنه. أو أن يدفع ضماناً مالياً ضخماً.

الغـرض من السفـر. المكـان الـذاهب اليـه. المدة. المـوقف من التجنيـد. لم يكن قد بحث كـل هذه الأمـور في ذهنه قبـل الحضـور الى هنـا. تـراجـع ليفسـح مكـانـاً لـلآخـرين. سيـل من البشر من كـل الاصناف. وجوه وصلت لما بعد الضيق وترغب في السفر الى أي مكـان وبـأي شروط. وقف على الـرصيف المقابـل يفكـر. كيف يـدبـر المبلغ المطلوب وهو كبـير. رفع يـده اليمنى. تحسس بها وجهـه. سلى نفسـه بقضم أظـافره بـين أسنانـه. لا يدري كم استغـرق ذلك من الـوقت. ولكن الذي أخرجه من أفكاره هذه. اقتراب افندي محترم منه. وسؤاله بصورة هامسة:

ـ تحب تتزوج يا شاب.

خاف. نظر الى الافندي. ملابسـه أنيقة. واحـد من السادة. بيـده حقيبة ضخمة على عينيه نظارة. وشكله يوحي بالنعمة. تلعثم البـاشا. ولم يرد فوراً. مرت فترة. قبل ان يرد بصوت خافت أقرب الى الهمس.

ـ متزوج والحمد لله.

ضحك الرجل. اقترب منه أكثر:

ـ لا أقصد زواجاً رسمياً. .

علت الدهشة وجه الباشا. تحولت ملامح الوجه الى علامة استفهام كبرى. وقبل ان يفتح فمه ليتكلم. سبقه الافندي. مد يده. أمسك بها يد الباشا شبك أصابعه مع أصابع الباشا. كأنهما صديقان منذ سنوات مضت. مشى الافندي مبتعداً عن المبنى ومشى معه الباشا.

كأنه أصابه خدر. لا يستطيع معه أن يقاوم الاستمرار في السير. اثناء السير بدأ الأفندي يشرح حكاية الزواج التي يعرضها على الباشا. استمر السير والحديث حتى أصبحا أمام مبنى المطافي الموجود خلف مجمع المصالح الحكومية مباشرة. عرفها الباشا جيداً. من منظر الجنود والسيارات الحمراء. وهبت نسمة هواء طرية من تأثير كميات الماء المرشوشة حول المكان. كان حديث الافندي طويلاً. وبدت بعض الفقرات فيه مملة. ولكن ذهن الباشا ادرك كل كلمة قالها له الافندي بدأ حديثه عن صعوبة الحياة في مصر في هذه الايام بالذات. وقال ان الناس في مصر نوعان. أولاد الحلال وأولاد الحرام.

المفروض ان يكون أولاد الحلال هم الكل في الكل. وان تكون مصر بلدهم. ذلك منطق الاشياء. والأمر الطبيعي ولكن لأسباب كثيرة يطول شرحها. ليس ذلك وقت الكلام فيها. فان أولاد الحرام لم يتركوا لاولاد الحلال شيئاً. أخذوا البلد بكل ما فيها لحسابهم الخاص. أصبحت مصر بلدهم وحدهم. دون غيرهم من عباد الله المخلصين. وهكذا لم يعد أمام أولاد الحلال. مثل الافندي ومثل الباشا سوى البحث المضني عن لقمة العيش في وسط الصراع اليومي أو الرحيل. وحتى في الرحيل عن مصر. أولاد الحرام لهم اليد الطولى والأولوية المطلقة. لأنهم يعرفون جيداً كل الأبواب المغلقة والدروب الصعبة. والشوارع الخلفية. ويقدرون في كل وقت على تمشية الأمور. ان القوانين التي توضع لها طريقان. طريق يراه كل الناس ويعرفونه جيداً.

وهذا هو طريق أولاد الحلال. وتحت هذا الطريق نفق مظلم لا يراه أحد. ولا يعرف مكانه انسان. وفي هذا النفق المظلم كل ما يريده الانسان لأن القرش هو الشيء الوحيد القادر على اضاءة مثل هذا الطريق. والغريب ان الانفاق كثيرة. ولا يعرفها ولا يهتدي لها الا أولاد الحرام. تلك قاعدة محيرة. وتحتاج الى مزيد من التفكير. المهم. ان هناك الكثير من أولاد الحلال. أملهم الوحيد هو الهروب من السفينة التي تغرق. الصعاب أمامهم كثيرة. خاصة وانْ هروب واحد من أولاد الحرام يسد الطريق أمام عشرة من أولاد الحلال. هؤلاء المساكين في حاجة إلى مساعدة للخروج من هنا. ولا بد وان قلب الأخ. وهنا. توقف الافندي لأول مرة ليسأل:

- نسيت. لم اتشرف بمعرفة اسم المحترم؟

خرج الباشا من صمته وذهوله:

- الباشا.

- نعم؟

- ينادونني في البيت بالباشا.

- لا. أقصد اسم البطاقة.

خجل من ان يقول له. إنه لا بطاقة معه. وفي هذه اللحظة لا توجد معه ورقة واحدة تدل عليه. قال له في اختصار:

- عباس عباس عباس.

ضحك وأكمل في خجل:

- الباشا اسم تدليل فقط.

الافندي الآخر قدم له نفسه. يعمل مديراً للعلاقات العامة في المكتب المصري الحديث للسفريات للدول العربية وكافة انحاء العالم.

همس الباشا في نفسه. ان اليوم كان يوم سعد وهو لا يدري. ها هو

يضع يديه بالصدفة وحدها على الرجل الوحيد في العالم كله. القادر على تحقيق حلمه في السفر الى الخارج. عاد الافندي المحترم للحديث من جديد قال: ان هناك الكثير من أولاد الحلال. أملهم الوحيد في السفر. ويحتاجون لخدمات بسيطة وتافهة لكي يتمكنوا من السفر. ويمكن للباشا مساعدتهم في ذلك. دون أي تعب. تعجب الباشا. يبدو ان يومه هذا هو يوم الغرائب والعجائب. بعاطفية شديدة ومفاجئة قال الافندي:

انه يطلب من الباشا ان يتصور ان اللاتي يطلبن السفر نساء. مخلوقات مكسورة الجناح والخاطر، قليلة الحيلة في امس الحاجة الى شهامة رجل مثل الباشا. واضح انه ينحدر من أصول ريفية تقدر معنى الشهامة. سيراهن الباشا. أرامل. يتامى. مطلقات. آنسات بدون حماية أو رجل أو منزل. أو مورد رزق شريف يعشن منه وكلمة شريف هذه أهم ما في الجملة. ولا بد من وضع ألف خط تحتها. الأمور أصبحت واضحة الآن. عندما لا تجد المرأة من يعولها. اما ان تبيع نفسها أو ان تموت من الجوع. ولما كانت الحرة تفضل الموت جوعاً على أن تأكل من جسدها. فقد فضلن السفر الى الدنيا الواسعة يجربن الرزق الحلال في أماكن أخرى من هذا العالم. خاصة أنه من الثابت أن في السفر سبع فوائد واضحة.

لهذا يحاول المساكين من أمثالهن. السفر. ولكن القيود تمنعهن من تحقيق هذه الأمنية العزيزة المنال. لماذا؟ لأن المرأة عندما تسافر ان كانت متزوجة لا بد وان يوافق زوجها على هذا السفر كتابة وأمام الموظف المسئول في الجوازات. وان لم تكن متزوجة لا بد من حضور ولي أمرها. حتى هنا. ليوقع أنه مسئول وموافق على سفرها. الى الخارج. أما اللاتي يعملن تكفي موافقة جهة العمل. وهؤلاء لا يوجد لديهن احتياج

فعلي للسفر للخارج. كيف نساعد المسكينات الاخريات اذن؟ ان الشهامة العربية تفرض على أي رجل كريم. ان يكون زوج من لا زوج لها. حتى يعطيها جواز المرور الى الدنيا الواسعة. وحتى هذا القيد. السبب فيه أولاد الحرام من النساء اللاتي يسافرن ويلطخن وجه مصر بالطين امام العالم الخارجي. أولئك النسوة سيئات السمعة. الرقيق الأبيض. هؤلاء سدوا الأبواب أمام الشرفاء من النساء الاخريات.

ولهذا فالمطلوب ان يقبل القيام بدور الزوج لبعض الشريفات من بنات بلده. لكي يعطيهن فرصة الانعتاق من الضيق هنا. لن تكلفه المسألة أي شيء. المأذون جاهز ومكتبه قريب وستحضر المحترمة التي ترغب في السفر. يذهب بها الى المكتب يعقد القران في دقيقة واحدة. لأن أهل الخير والرجال ذوي الشهامة يملأون الوادي العظيم. بعد عقد القران يذهب معها الى مكتب الجوازات ليوقع بنفسه الأوراق الخاصة بسفرها بصفته زوجها. وفي لحظة الخروج من مكتب الجوازات. تنقطع الصلة بينه وبين المحترمة الشريفة التي تريد الهروب.

ومن الممكن فسخ العقد واعتباره باطلاً وتمزيق الوثيقة. او اجراء الطلاق بالطريقة القانونية. فالمأذون جزء من مكتب السفريات بالتأكيد لدى الباشا تساؤل: وهو كيف يدخل في اليوم الواحد مكتب الجوازات أكثر من مرة. وفي كل مرة مع امرأة غريبة عنه على أنها زوجته ولا ينكشف أمره. تلك مسألة سهلة. الموظف المسئول عن أخذ الاقرار عليه. في الجوازات يتعاون مع المكتب لوجه الله تعالى. وخدمة للنساء المسكينات. ان المجموعة كلها تعمل لوجه الله. فالمكتب مهمته فقط تسهيل السفر نفسه. من ناحية خطوط الطيران ومكاتب الملاحة وشركات السفريات البرية بالسيارات. ومواعيد الحجز واثمان التذاكر.

وان كانت هناك امكانية لتخفيض ثمن التـذكرة. لأي سبب كـان. اما حكاية الزواج والجوازات فالمكتب يقوم بها كنوع من الخدمة. بدون أي مقابل ولكن الأمر سيختلف بالنسبة للباشا. لا بد من حصوله عـلى مقابل لأن العمل سيعطله وسيـأخذ كـل وقته. لهـذا يجب الاتفاق الآن على الاتعاب. وكل أمر أوله شرط آخره نور. هنا جـرى التوقف الثـاني في حديث الافندي المحترم.

ـ نسيت. ماذا يعمل الأخ؟

كان رد الباشا أسرع هذه المرة من المرة السابقة.

ـ معلم في سوق الخضار.

لا يـدري لم اختار هـذا العمل بـالذات. نـظر الافندي إليـه جيـداً وتسرب اليه شك في صدق ما قاله الباشا. لم يكن مـظهره العـام يوحي بحكاية المعلم وسوق الخضار. لا بـأس هنا من وصف البـاشا في ذلـك اليوم. قبل ان يشتري عدة الشغل. التي اشتهر بها بعد ذلك وأصبحت جزءاً من شخصيته. كان يلبس حذاء قديماً. اشتراه مستعملاً من رجل يبيع الملابس المستعملة في موقف اتوبيس الدراسة. كـان الحذاء بـدون شراب تحته. السروال لونـه كاكي من مخلفـات الجيش وبه أربـع رقع. اثنتان عند مفصلي الركبتين. واثنتان من الخلف. في مـواجهة مؤخـرته. الصديري الشاهي الابيض كان أحسن ما عليه في ذلـك اليوم. اشـتراه مستعملاً ولكن حالته كانت جيدة. وفوقـه سترة ضـابط مستعملة. كان يفكـر في شراء رتب ونياشـين لها. يستعملهـا ليـلاً في حـواري وممـرات المقابر. ولكنه أجل الأمر ليوم يكون فيه نقود معه. فـوق الرأس طـاقية يبدو الشعر من تحتها غير منظم ومنكوشاً. وذقنه لم تكن قـد حلقت منذ فترة. الافندي المحترم. عاينه بنظرة طويلة.

وسر في أعـماقـه عنـدمـا اكتشف ان الشـاب الجـالس أمـامـه فـوق

الـدرابزين يكـذب. المسـافـة أصبحت قصـيرة بينهـما. والاتفـاق عـلى الابواب. وسيكون العمل أكثر من أي فترة مضت. قال الافندي:

ـ نتفق على الاتعاب.

قال الباشا ضاحكاً:

ـ اشاور المليونير أولاً.

صيحة الفزع التي خرجت من الافندي أدهشت الباشا أوضح:

ـ المليونير اسم الوالد.

الافندي المحترم لم يكن سبب فزعه كلمـة المليونـير. ولكن من مجرد علم أي طـرف آخر بـالأمر. قـال له ان القـاعدة الأسـاسية في عملهم هذا. هي افتراض ان كل الناس. واشـار الافندي الى الشـارع والمباني والاتوبيسات والبشر اشار في كل مكان. وقال له لنفترض ان كل الناس أولاد حـرام. واننـا نحن فقط أولاد الحـلال. السريـة مـطلب لا يمكن مناقشته حتى مع زوجته أو مع والده. سأله الباشا.

ـ وحصولي على المال. كيف أفسره..؟

قال له الافندي انه لو صبر قليلاً لعرف الأمر في حينه. مسـألة المـال أمرها سهل. سيوقع الاسبوع القـادم عقد عمـل مع المكتب في وظيفـة محترمة. مكتب استعلامات أو مكتب اتصال مع الجهات الأخرى. نظير مرتب ثابت. وهو في الواقع لن يزاول العمل. الذي سيـدون في العقد وانما سيكون عمله فقط.

ـ زوج للا...

لم يكمل الباشا. لأن الافندي المحـترم مد يـده. اغلق بها فمـه دون أن يعـرف باقي الكـلام الذي كـان سينطق بـه. قال لـه الافندي. ان العمل الذي سيقوم به. مفخرة لأي شاب. وهو نفسه. الافندي الذي

يجلس امامه. كان يقوم بـه. لولا أن أولاد الحـرام الذين لا يحبـون ترك أولاد الحـلال في حـالهم. قـدمـوا فيـه الشكـاوى حتى انكشف أمـره. ففضل ترك هذا الميدان لوجه جديد بـدلاً منه. ثم ان العمـل فضلاً عن كونه خدمة انسانية من النوع الرفيع والنادر الا أن فـوائده لا تحصى ولا تعد.

أولاً: سيحصل على مبلغ مالي محترم. نظير كل ورقة يـوقعها لامـرأة مسكينة.

ثانياً: هناك التعارف. ان النسـاء اللاتي سيلجـأن اليه ابنـاء بيوتـات كبيرة وعائـلات محـترمـة. ظلمهن الـزمـان. ولهـذا فهن أولاد أصـول وحسب ونسب ولا يمكن ان تنسى واحدة منهن هذا الجميل الذي قـدمه لها الباشـا في موقف المحنـة. لقد فضـل ان لا يحدثـه عن الهدايـا التي سترسل اليه من الدول العربية.

ان الهدايا تصـل الى السيارات والعـمارات في بعض الاحيان. هـذا غير الأموال التي ستسيل بين يديه. وهناك جانب انساني نظيف في الأمر. وهو الحب. ان الافندي متأكد ان زبـائن المكتب وهن من نساء الـطبقة الراقية كن يشعرن بالضيق منه لأنه افندي. أقسـم له ان احدى ربات الصون والعفاف تمنت أن يكون زوجها في هذه المرحلة العابرة معلماً من سوق الخضار. ثم ان الافندي يذكر الباشا بأمر هام. وهو ان المرأة التي يسهل سفرها تعد حلاله. يـربطه بهـا عقد شرعي امـرأته عـلى سنة الله ورسوله.

وان زاغت عينه هنا أو هناك. والرجل المتزوج قـد يحب الخروج من ملل الحياة الزوجية. فالمكتب تحت أمـره. وسيدبـر له الأمـر كله. حتى هنا. لم يسمع الباشا الكلام الباقي الذي قاله الافندي المحترم. تاه مـع حلمه القديم. المرأة الغنية الباحثة عن شخص أقل منها. تفوقه الجنسي

مسألة مؤكدة. الباقي من حديث الافندي قابله الباشا بموافقـة مطلقـة. بل ان الباشا بدا متلهفاً على بدء العمل.

وقال له في لحظة حماس نادرة. انه يفضل ان يكون البـدء من الآن. رفع الافندي المحترم رمش عينه اليسرى في دهشة. وقال ان ثمة برنامجاً يجب ان يتم تدريبه عليه قبل البـدء. والبرنـامج قـد يطول حتى يكـون النجاح في المهمة امراً مؤكداً. وبعـد التدريب والنجـاح. سيبحث معه مسألة الأجر والعمولة.

وأما الهدايا فتلك مسألـة متروكـة لموقف المعجبـات ومدى كـرمهن. لحظة سؤاله عن عنـوان منـزلـه ارتبـك. رفض اعـطاء العنـوان. لأن الاتصال به في منزله وهو من أسرة محافظة سيثير تساؤلات في البيت ومن الأفضل ان يكون الاتصال من جانب الباشا فقط. سعد الافندي كثيراً بتفكير الباشا. وافقه على ما قاله وأعطاه كارتاً مطبـوعاً فيـه عنوان المكتب ورقم تليفونه وطريقة الاتصال به. وأنسب المواعيد بالاتصال. حـدد له موعداً. في نفس الوقت والمكان اللذين التقيـا فيهما صـدفة اليـوم. ونبه عليه بضرورة الحضور غداً. وشرح له قاعدة أساسية في الاتصـال وهي ان كان بينهما موعد ولم يحضر احدهما لأي سبب كان يكرر نفس المـوعد بزمانه ومكانه ولكن في اليوم التالي.

ومن الممكن تكرار هذا أكثر من مرة. عاد الباشا الى منزله. وقد تمـدد بداخله احساس جديد. انها المـرة الأولى التي يكتشف فيها البـاشا انـه أصبحت له أسراره الخاصة به. ولا بد من الحفاظ على هذا السر. اليوم يجد نفسه مجبراً على السرية.

مسألة صعبة لم يتعود عليها من قبل. تضايق من حكاية السرية. فكـر في أن يحكي لأحد ما. ما حدث بـالضبط. ولكنه خشي ان يؤدي ذلـك الى فشل المشروع كله. فقرر ان لا يحكي الأمر لأحد أبـداً. في المساء.

وقت العشاء قال الباشا للمليونير بشكل عرضي. اثناء الحديث العام. انه حصل على وعد بوظيفة ذات مرتب شهري ثابت في مكتب للسفريات. سأله والده عن نوع الوظيفة والمرتب ومكان الشركة. تلعثم ولم يرد باجابات محددة. ضحك المليونير وقال له: ان العائلة كلها لا تصلح لحكاية الوظائف الثابتة.

ان حصول العبقري على وظيفة ثابتة وحفاظه عليها واستمراره فيها. لا يعني صلاحية العائلة للوظائف الثابتة. ان العبقري شيء مختلف عن كل أفراد العائلة.

يعد المؤلف القارىء بأن يخصص جزءاً من هذا الفصل. في مكان قادم للحديث عن العبقري وحكاية الوظيفة الثابتة.

سمع الباشا كلام المليونير ولم يعلق بكلمة واحدة.

٤ ـ فاتنة المقابر:

هي الوحيدة التي تعيش حياتها بمفردها. لم تدخل مع أحد منهم في علاقة انسانية منذ ان حدثت مأساتها التي نسيها أفراد العائلة في الايام الأخيرة. هي اسم على مسمى. الوحيدة من أفراد العائلة التي أتت الى العالم وبها قدر ضخم من الجمال. احتار الكل في سر جمالها. هل هو من جهة الأب أو من جهة الأم؟.

كاد ان ينشب عراك بسبب هذا الجمال. الأم والأب كلاهما زعم ان هذا الجمال يعود إليه. سعدت العائلة كلها بها. فكرت العائلة في أيامها الأولى. في نقل لقب ملكة الجمال من الأخت الكبرى الى الصغيرة الجميلة قولاً وفعلاً. ولكنهم خشوا ان يكون نقل الاسماء واقعة خطيرة تتبعها محاولات أخرى لنقل الاسماء مما يوصل العائلة الى حالة من الفوضى التي لا يتصور أحد كيف يتم وقفها عند حد مين. لهذا قرروا ان تظل الالقاب كما هي. وان يطلق على الفتاة الجديدة. والتي فاقت

الكل جمالاً. لقب فاتنة المقابر. بالفعل كان جمالها غريباً على العائلة كلها وعلى الحياة وسط المقابر.

كان بود والدها ان يعلمها. واستمرت في التعليم حتى وصلت الى المرحلة الثانوية. وبدأت الألقاب تنهال عليها لأن العائلة سخية في منح الاسماء. وهكذا مرت في مراحل التعليم المختلفة في سرعة البرق وتنقلت بينها وكأنها تركب قطاراً لا يتوقف في كل المحطات. تحدثوا عنها في العائلة عندما وصلت الى اللحظة التي يقال فيها ان خراط البنات خرطها. اي وضعها في قالب انثوي فاتن وجميل.

وقد يكون من الصعب تقديم وصف كامل لجمالها هنا. كانت جميلة وكفى. نوع نادر من الجمال يقف في منتصف المسافة بين الواقع والحلم تقريباً. يقربها من أن تكون طيفاً. حصلت على الثانوية العامة. كان المجموع كبيراً. ودخلت كلية الهندسة. وهنا استقرت العائلة على لقب حضرة المهندسة. فتاة جميلة منطلقة. لا يوجد في حياتها ما تخفيه. ويبدو أفراد العائلة حتى وان اختلفوا في أمور حياتهم الأخرى. الا أنهم يجمعون على حب المهندسة حالياً. فاتنة المقابر سابقاً. اليوم الأول لذهابها الى الجامعة كان حفلاً بكل معاني الكلمة. صحيح انها ليست أول من يذهب الى الجامعة من العائلة. سبقها الاستاذ. طالب كلية الحقوق.

(سنفرد للحديث عنه فصلاً كاملاً بعد هذا) لم يتم الاحتفال بذهابه الى الجامعة بهذه الصورة. وفي الجامعة التي كان الذهاب اليها حلم حياتها وجدت المتاعب. وأولها كان من مسجل الكلية. الذي طلب منها كتابة عنوان اقامتها بالتفصيل وعمل ولي أمرها. دهش عندما طلبت منه ان يمهلها للغد.

قال الرجل لنفسه: وهل يجهل أحد عنوان منزله؟ هي لم تكن قد

عرفت الكذب بعد. ولهذا لم تسعفهـا الذاكـرة بكذبـة تنقذ بها الموقف. وفضلت الصمت.

نـاقشت الأمر مـع والدهـا. كان رأيهـا ان تثبت عنـوانهم الفعـلي في أوراق الكلية وليكن ما يكون.

والدها هو الذي منعها من ذلك. قال لها إنه سيحضر لها عنوان احد اصدقائه. لكي تكتبه في أوراق الكلية وبالفعـل احضر لها عنـوان أحد سكان البيوت في البلد.

اما عن عمل الوالد. فقـالت في الأوراق انه من الأعيـان. حاليـاً لا عمـل لـه. ولكنهم يعيشـون من ريع أرض لهم في الصعيـد الجـواني يصلهم كـل شهـر. وبسبب تعليمهم وحبهم للحيـاة في القـاهـرة. فوالدهم يعيش هنا. بعيداً عن أرضه ومصالحه الفعلية في صعيد مصر. مرت الأزمة.

بعد ذلك كـان طبيعياً ان تصـادق بعض زميلاتهـا. تلك مسألـة من الصعب الغاؤها. زارت منزل صديقة لها.

دخلت بيـوت الناس. رأت ما لا عين رأت من قبـل. عادت تكلم نفسهـا عما رأتـه وسمعته. ومـا أكلتـه ومـا شربتـه. وفي البيت أكملت الحكايات التي لا نهاية لها. السجاجيد مثل الماء يغوص فيها القدم. ولا يبدو منه شيء. الأضـواء الخافتـة والتي تجعل الحجـرة مثل الحلم المعبق بالبخور والعطور. آلات لا حصر لها. زميلتها كانت لهـا حجرة خـاصة بها لا يدخلها أحد الا بعد استئذانها. صديقتها لم تطلب زيارتها. وهي من نفسها لم تعرض عليها. وتكررت الزيارات. وفي احداها. تعـرفت على شقيق صديقتها. بحار وسيم.

ربما كان أول شاب تحتك به في حياتها وتصل خيوطها بخيـوطه. من

قبل كان ثمة شاب من دنياها. أحد سكان القبور. يلاحقها. لم يجرؤ في يوم ما. على الحديث معها. ولكنه كان يقول بعض الكلمات في الهواء.

كان يقول وهو يتنهد: معبودة الوحل. أو يقول: فاتنة من الغبار. كرهته لحد الرغبة في ضربه. ولكن البحار كان شيئاً آخر. المسافر دائماً الى لا مكان. التنقل بين الشواطيء البعيدة. تلويحات الأيدي المتعبة. المناديل البيضاء التي تدور في الأفق البعيد.. تقول وداعاً.. الشواطىء التي تتحرك ببطء مستدبرة مبتعدة. بمن تحبهم القلوب. الحياة فوق سطح دائم التأرجح. الماء اللامحدود. البحار بدون شاطىء آخر. الحنين للعودة آخر الأمر الى اليابسة. الموانى. تلك البلدان المبنية بالحنين على شكل يدين مفرودتين للوداع واللقاء.

في النهاية لا بد من العودة. الأرض كرة. تلك ليست حقيقة علمية ولكن دليل رحلات.

أي نقطة تبدأ منها. أي خط تسير فيه لا بد وأن ينتهي الى نقطة البدء. من قبل كان مضرباً عن الزواج. ولكنه أعاد النظر في اضرابه امام صمتها. وبهت أمام خجلها. والمعاني المعلقة في ملامح وجهها. تطلب فرصة البوح والقول والكلام. لقد نسجا معاً من اللحظات المختلسة أشياء مشتركة. قدمت حكايتها له.

عرف لسانها طعم الكذب لأول مرة. لسعتها الأحرف والكلمات وهي تنزلق عليه. قالت انها من الريف. أسرة غنية من الفلاحين. وهي تعيش في مصر ما بين منزل للطالبات المغتربات وبيت احدى قريباتها في الدراسة. ظروفها لا تمكنها من استقباله لا في بيت الطالبات ولا عند قريبتها. وهو لا يستطيع الذهاب الى أهلها في الريف. شعرت بخوف وجزع من الجري وراء فخاخ الأكاذيب ولكنها استراحت للمسألة واستمرت في اللعبة. وبنت بالكلمات عالماً يخلو من المشاكل.

صدقها من كل قلبه. كان يحدثها عن طيبة قلبها وصدقها وبراءتها. كان يحب استخدام كلمة البكارة. انها بكر وهذا يكفي. ردت عليه بأن كل فتاة بكر. رفض تفسيرها اكثر من مرة. قال ان البكارة التي يقصدها بكارة الروح لا الجسد. من السهل علاج بكارة الجسد ان فقدت ولكن عندما تفقد الروح والنفس بكارتهما يصبح من المستحيل اصلاح ما فسد. سافر وعاد. ذاقت طعم الفراق وحلاوة اللقاء.

وتجرعت مرارة الوحدة. . حملها الشاب الوسيم في عينيه وسافر ثم عاد. ما من مكان الا وذهبت معه اليه. اشترت له ملابسه. أكل من يدها. شربت من يديه ووصلت لحافة الحب بلا حدود. فعلاً هذه هي الكلمة الوحيدة التي تصف حالة الفاتنة جيداً. في المرة الأخيرة التي عاد فيها. أصبح كثير الالحاح على مسألة أهلها ومنزلهم. وضرورة تعرفه على الأهل. والتمهيد للخطوات القادمة والتي لا بد منها.

في احدى المرات قالت عرضاً انها من أسرة فقيرة. فقال على الفور. . ومن قال ان الفقر عيب. . لا تعرف متى تسلل اليه الشك في أمرها.

عندما كانت تخرج معه. كان يصر على توصيلها. كانت تقول له انها تأخرت ولهذا يستحسن أن تعود الى بيت أقربائها في الدراسة.

وفي ميدان الحسين كانت تصر على ان يتركها ويعود هو. . ثم تكمل المسافة من الميدان حتى المقابر بمفردها. في احدى المرات قرر هو أن يتبعها. لم يك ذلك شكاً منه فيما قالته ولكنه فكر في معرفة بيت أقربائها. والذهاب اليهم بمفرده ودون علمها. ليتفق معهم على الخطوات القادمة ليتم الزواج.

انتظر حتى سارت. وسار هو وراءها من بعيد. لم تره لأنها لم تنظر خلفها. واستمرهو يقيس المسافة التي تفصل بينهما .حتى لا يقترب منها

اكثر وتراه وتفشل خطته. استمر في سيره وراءها حتى بداية القبور.

عندما ابتلعها الظلام الليلي جرى وراءها وقد تصور انها جنت. قال ان في حياتها سراً ما. انها ذاهبة لزيارة موتى أعزاء في هذا الوقت. خاف عليها من الظلام والصمت. صرخت. اصابها فزع مفاجىء. وحتى بعد أن قالت له الحقيقة رفض هو تصديق أن هناك بشراً يعيشون في القبور. . ابن أسرة غنية فعلاً. لا يعرف الكثير عن هذا العالم وعما فيه.

بعد أن صدق أن في مدينة الموتى أحياء. شاهد بنفسه العائدين الى منازلهم بعد يوم من العمل والتعب. نزل فجأة من دنيا الخيال والعواطف والحب بلا حدود الى قسوة أرض الواقع. قال كلاماً أقرب الى الهذيان المحموم. تحدث عن أسرته ووالده الذي قد يموت فجأة. ان عرف الأمر. العائلات، المستوى وكلام الناس.

اسرته وحياته. كيف يواجه الناس ومعه زوجة كانت تعيش في مقبرة. صعب. بل أمر مستحيل. غضب لأنها كذبت عليه. أكد ان الشرور في هذا العالم تأتي من الناس الذين يعيشون تحت. الذين يقول عنهم والده انهم يعيشون في قعر الدنيا. أو قاع العالم.

والآن هو سعيد. أسعد انسان في العالم. لأن المستور انكشف قبل ان يتورط في الأمر ويبلغ أهله. ويتقدم رسمياً لخطبتها. سار. ابتعد. أما هي فقد مشت بظهرها. ظلت عيناها عليه حتى ابتعد وأصبح نقطة صغيرة من الصعب رؤيتها.

في البيت جاشت أعماقها بمشاعر متناقضة. شعرت بسخط على العالم كله. لم تعرف جهة معينة توجه السخط اليها.

ودت لو تجد من تكلمه. تحكي له. تقول وتتكلم وتتناوب الكلمات

مع قطرات الدمع . حتى تستريح . لكنها خافت من الضحكات والسخرية وربما الشماتة .

في اليوم التالي فكرت في الأمر جيداً . رأته بعين جديدة . وسألت نفسها : هل تذهب الى الكلية . ألا يحتمل أن يكون البحار الوسيم قد حكى لأخته . وأخته جعلت الحكاية مادة هذا الصباح بين المدرجات والمعامل والكافيتريا .

قررت ألا تذهب ولكن الى متى؟ بعد قليل خشيت ان جلست هي في البيت أن يفكر هو في الحضور اليها . إما على عنوان صديق والدها . أو هنا . بعد ان عرف الحبيب حقيقة المكان . مجرد حضور زميلتها أو الخطيب . الى هنا أو هناك سيصبح فضيحة . ربما تغلق أبواب الكلية في وجهها من الآن والى الأبد . شعرت بخوف على مستقبلها . قامت فزعة . ارتدت ملابسها .

ذهبت الى الكلية . شقيقة الحبيب بدت وكأنها لا تعرف عن الأمر شيئاً . كلمتها بشكل عادي ومضى اليوم ولكنه كان نقطة البدء في رحلتها نحو الداخل . سافرت . وتباعدت المسافة بينها وبين العالم الخارجي .

في البيت وفي الكلية سألوها عن سر التحول وسبب ما حدث . . وفي أكثر من مرة حاولت الحديث . . ولكن تزاحم الكلمات على الشفتين . . كان يجعل من الصعب العثور على نقطة البدء . . حتى صديقتها . . الثغرة البسيطة التي حدثت في جدار حياة سكان البيوت . . سدت من جديد . لا هي ذهبت اليها . ولا الصديقة عرضت عليها الحضور . أصبحت علاقتها اقرب الى العلاقات الرسمية . مما جعلها تشعر ان هناك مؤامرة ضدها . حتى عاشق المقابر انسحب من حياتها . رأته مرة أو مرتين . ولكنه دخل الصمت المطبق . كانت مستعدة ان تعطيه

فرصة الاطلاع على ما في بئرها الخاص. ولكنه سكت وأصبح لا يتكلم.

ومن يومها والفاتنة قررت الصمت. ترد فقط على ما يقال لها. وحتى الردود تأتي مختصرة وباهتة. لا تخرج عن كلمة أو كلمتين. والعائلة نفسها من نوع خاص. الجري وراء لقمة العيش. والخوف من الغد. أمور تشغلهم حتى عن أنفسهم.

وهكذا أبحرت الفاتنة في عالم له مفردات أخرى. الصمت. الحزن. الانطواء. وحدها عاشت في هذا العالم. أما الباقون من الأسرة فلم يلتفت اليها أحد. سألها والدها مرة أو مرتين عن حالها. وما جرى لها. وقالت له: انها متعبة أو منهكة. وانتهى الأمر عند هذا الحد. . الرجل نفسه لا يدري ماذا قالت ابنته ولا يعرف بالتحديد ماذا جرى للفاتنة في هذه الأيام الغريبة.

٧ ـ العبقري:

عبقري آخر الزمان، هذا هو اسمه بالكامل. وهو الوحيد في العائلة الذي يعد موظفاً وعلى درجة. رغم انه لم يضع قدمه في المدرسة أبداً. كانت البداية وظيفة عينه فيها والده. بعد تفكير طويل في مستقبله. وعمله الذي سيعيش منه بعد أن يكبر ويصبح مسؤولاً عن نفسه وأسرته التي سيكونها فيما بعد. . اشترى له والده أوراق تمغة وطوابع بريد. واستمارات رسمية. ونماذج. وأجلسه أمام احدى المصالح الحكومية في العباسية، يبيعها لمن يحتاجها. بسعر أعلى من أسعار مكتب البريد. قال المليونير انه اختار هذا المكان بالذات بعد دراسة. فقد اكتشف المليونير أن أول مكتب بريد. أو بمعنى أصح أقرب مكتب بريد انما يقع في ميدان عبده باشا. المواصلات صعبة والمسافة طويلة والتاكسي نادر والزبون مستعد لدفع قروش قليلة زيادة في السعر بدلاً

من الذهاب الى عبده باشا والعودة منه .

ان الطوابع والاستمارات ووجودها أمام باب المصلحة خدمة ضخمة لا تقدر بمال. واذا قورنت هذه القروش القليلة . بأجرة المواصلات . فهي أقل. خاصة ان ثمن تذكرة الاتوبيس تضاعف اكثر من مرة . وأصبح كل أتوبيس له أجر خاص. وأجر التاكسي تضاعف أكثر من مرة . والوقت الضائع . بل ان بعض المصالح قد تؤجل قضاء الطلب يوماً كاملاً بسبب رحلة البحث عن التمغة والاستمارات . مما يعطل مصالح وحياة الناس. ولهذا فوجود العبقري في مكانه خدمة . والفارق البسيط الذي يحصل عليه لا يساوي هذه الخدمة . وهكذا جلس الصبي أمام المصلحة . كان هذا عندما بدأ عمله منذ فترة طويلة . كان يذهب صباحاً . ويعود وقت الظهر. بعد انتهاء عمل المصلحة التي يجلس امامها .وساعة الأصيل كان يتجه الى ميدان العتبة . لكي يشتري المونة التي سيبيعها في الغدمن مكتب البريد الرئيسي والوحيد الذي يعمل بعد الظهر. ثم يعود في الليل لينام في مكان يخصه لا يعرفه أحد ومن بكة الشمس يتجه الى ميدان العباسية . لم يكن يربطه بالعائلة كلها أمر ما .

منذ أن عمل في هذه الوظيفة الهامة . لحظة الحساب فقط هي التي كان يتعامل فيها مع والده . اشترى بكذا وباع بكذا والمكسب كذا . صرف هو الآتي: انتقالاته . الذهاب الى المصلحة . العودة الى القبر. الذهاب الى العتبة . الحضور الى القبر. شرب شاياً في مكان عمله . طعام الغداء . برطل العسكري المعين في المنطقة بكذا . أسكت المسئول عن أمن المبنى الذي يقف أمامه بكذا . يصبح الباقي هو الربح الصافي. يقدمه للمليونير. ويرجوه من كل قلبه أن ينفق جزءاً من الربح على الأسرة . وان يدخر له جزءاً آخر. يستعمله قريباً في توسيع عمله . والوصول الى مستوى أحسن .

كأن يفتح لنفسه كشكاً بدلاً من جلوسه على الأرض وأمامه فرشة صغيرة. وجبات الطعام التي كان يتناولها في المنزل. كان يتناولها بمفرده. في الصباح يفطر أمام المصلحة «في مكان العمل» كما يجب هو أن يقول. ووقت الظهر يشتري طعامه ويأكله هناك أيضاً. وفي كثير من الأماسي كان يتعشى في رحلته الليلية لشراء الطوابع والنماذج والاستمارات من العتبة. كان من النادر ان يشاهد مع العائلة.

لم يكن له يوم عطلة. فحتى يوم الجمعة وأيام العطلات الرسمية. كان يقول انه يؤدي بعض الخدمات لمن يتعامل معهم في المصلحة الحكومية التي يجلس أمامها. وكان يبدو سعيداً بأداء مثل هذه الخدمات. فهي تقربه منهم وتحل مشاكله معهم. وتفرش له الطريق ليوسع دائرة عمله وتجارته. لتشمل ميادين جديدة لم يطرقها من قبل.

مع مرور الأيام. اشترى حقيبة يد جميلة اللون. وفصل لها في أوقات الفراغ. ومن الملابس القديمة. غطاء بنفس حجمها يضعها فيه. بعد عودته الى البيت. خوفاً من عبث أحد من أولاد العائلة بها. وفي هذه الحقيبة كان يضع كل الطوابع والأوراق والطلبات التي عليه احضارها للغد. هذه الوظيفة فصلته عن باقي العائلة. أصبحت له همومه الخاصة. ومشاركته العائلة في أمورها اليومية أصبحت قليلة.

فكر طويلاً في عمل كشك صغير أمام المصلحة بدلاً من الجلوس على الأرض. ولكن التكاليف كا نت مرتفعة والكشك يحتاج لرخصة. والرخصة تحتاج لرسم ضخم. ورشوة وواسطة.. مبالغ.

بعد فترة تذمر من الجلوس على الأرض. طلب من والده أن يدخر له من مكسبه اليومي ثمن مشمع يفرشه على الأرض ويجلس عليه. سخر بعض أفراد العائلة من طلب العبقري. والده وحده هو الذي وقف في صفه.

وبعد أسبوع واحد فقط كان الوالد قد أحضر المشمع الكبير. واشترى قفصاً مستعملاً ولوحاً من الكرتون الثقيل لكي يضعه فوق القفص. أمام المصلحة بحث عن أربعة قوالب طوب ليضعها فوق أركان المشمع الأربعة حتى لا يطيره الهواء.

في الصباح يذهب ومعه المشمع.. القفص وقوالب الطوب لم تكن معه. كان يخبئها في مكان خلف المصلحة. وعند العودة كان يحمل المشمع والحقيبة. يضحك ويقول انها عدة الشغل. ولأن العبقري جزء من العائلة، فقد كانت له أحلامه أيضاً. كان يتحدث عن هذه الأحلام مع نفسه. أمامه اكثر من طريق واحد لتحسين وضعه. إما أن يتعلم القراءة والكتابة ويعمل عرضحالجيا بجانب بيع الطوابع. وفي هذه الحالة فانه لاينقصه سوى الحصول على منضدة وكرسي واقلام وورق أبيض ودواية حبر صغيرة. أو أن ينفذ مشروع الكشك حيث يبيع فيه السجاير والمثلجات والطوابع. أما البقاء هكذا فلن يستمر أبداً.

كانوا يضحكون منه عندما يشاهدونه وهو يحدث نفسه. وكان الضحك له أكثر من سبب. فالعبقري هو الوحيد في العائلة الذي أتى الى هذا العالم. وشكله الخارجي يبدو مضحكاً جداً. كان قصيراً لدرجة تقربه من حجم الاقزام. قصير ودقيق الأطراف جداً. أكبر ما فيه كان رأسه. في صباه دخل معركة اطلاق الأسماء. أصر البعض على تسميته أبو الرؤوس. وهو الذي رفض هذا الاسم. وبعد أخذ وعطاء ومناقشات استقر الأمر على اسم العبقري. وذلك بسبب كبر رأسه واتساع جبهته الملفت للنظر. كان شكله الخارجي أشبه الى شكل الهرم المقلوب. يبدأ من أعلى برأس ضخم. وهيكل خشبي عريض. ثم ينتهي عند قدمين رفيعين. لا يتصور أحد كيف يحملان هذا الجسم. لم يكن يستطيع القيام بباقي الأعمال التي يقوم بها غيره. وكان هذا سبب

اختيار والده لحكاية بيع الطوابع . وفي البداية تصور الكل انها مجرد حكاية تشغله بعيداً عن البيت. بدلاً من البقاء معهم ومعايرته بشكله وضخامة رأسه .

وقت الحساب كان والده يبدو سعيداً. ولكن العبقري كان يبدو غير سعيد. البيع قليل والمكسب شحيح . احياناً تمر عليه اكثر من ساعة ولا يحضر له من يشتري طابعاً واحداً أو استمارة. والطوابع بالذات يصيبها التلف بعد فترة من الوقت. لأنه ليس لديه كشك يحفظ فيه أشياءه. يحملها معه في الذهاب والعودة. وطول النهار تظل الطوابع معرضة للهواء والغبار. وهذا يفقد الطابع صمغه. ويبدو وجه الطابع وكأنه مستعمل وأعد للاستعمال من جديد.

حزن العبقري وقال ان عينا أصابته وخاصة عندما وصل مكسبه الى جنيه واحد في اليوم صافي بعد المصاريف وخلافه. في الأيام الأخيرة كان مكسبه لا يغطي طعامه وشايه وانتقالاته. من يدري قد يستمر التدهور مع مرور الوقت. والعمل لا مستقبل له. والده وعده ببحث الأمر.

قال له: ربما كان هناك موظف داخل المصلحة يبيع الطوابع للمترددين عليها. طلب منه والده أن يسأل وان يتحرى الأمر. ولأول مرة يتخطى العبقري باب المصلحة الخارجي. ويدخل. وهناك عرف أن الساعي الخاص بمكتب مدير المصلحة حول البوفيه الخاص بعمل الشاي والقهوة الى مكتب لبيع الطوابع المستعملة في المصلحة. وان الثمن كله للمدير. أما الساعي فيكفيه دخل البوفيه. خاصة وانه غير مؤجر له من المصلحة. لأن المصلحة ممنوع أن يدخلها أحد من الجمهور نظراً لسرية أعمالها وظروف عمل الموظفين تمنعهم من تناول أي مشروبات خلال أوقات العمل الرسمية.

أحس العبقري بدبيب الخوف وتسلل اليه قلق لم يعرفه من قبل.

قال لوالده ما عرفه. ضحك الوالد وضحكت العائلة كلها.

قال له والده لا تخف. ان ضاعت هذه الشغلانة فالدنيا واسعة. وطرق أبو زيد كلها مسالك. رفض العبقري هذا المنطق. بيع الطوابع ليس عملاً. وليس وسيلة للحصول على لقمة العيش. انها حياته. وطريقته الوحيدة في التعامل مع العالم. لو حرم من الذهاب الى مكتب بريد العتبة والجلوس أمام المصلحة فوق المشمع لمات فوراً. العمل يبعده عن جو القبور المقبض ويقيم فاصلاً بينه وبين العائلة التي لا يحب البقاء وسطها. بسبب كثرة الضحك عليه والتندر على شكله.

كان هو الوحيد في العائلة الذي تمسك بعمل ما. الكل له أكثر من عمل. وأكثر من وسيلة للربح وجلب الرزق. هو الوحيد الذي قال في وضوح تام.. اما بيع الطوابع أو الموت هو البديل الوحيد. هددهم بالانتحار.. ضحكوا.

قال انه سيدخل أحد القبور ويغلقه على نفسه.. ازداد الضحك.

قال له الاستاذ: أنت تحيا منذ الآن في قبر. كل الفارق هو اغلاق القبر عليك وتلك مسألة سهلة. اقتنع العبقري بأنه وحيد.. وبأنه عليه وحده التوصل الى حل لأزمته ولا يجب الاعتماد على الآخرين. الكل ضده. الساعي ومدير المصلحة والزبائن ووالده وأمه واخوته. والعسكري الواقف في الشارع الأمامي للمصلحة. فكر بمفرده. أخذته بحور الفكر بعيداً وأعادته الى القبر.

اهتدى الى حل. لماذا لا يعمل مع مدير المصلحة مباشرة. انه أكثر أماناً من الساعي. واستمرار الساعي في العمل خطر عليهما معاً. بالنسبة للمدير قد يؤدي الى انكشاف أمره وفضحه والتحقيق معه.

وبالنسبة له قد يؤدي الى طرده من أمام المصلحة. فهو يجلس فوق الرصيف وقوانين مصر المحروسة تقول بوضوح قاطع ان الأرصفة مخصصة لسير المشاة فقط. . وان أي استعمال آخر لها له أسماء كثيرة في قواميس العقوبات اسمها اشغال طريق وتعدي على أرض الدولة. والاستيلاء على أرصفة الدولة بدوت ترخيص وبدون وجه حق.

وقد يقال انه متآمر على المشاة. الذين لن يجدوا أرصفة للسير عليها. مما يدفعهم للنزول الى أرض الشارع. فيصبحون تحت رحمة أصحاب السيارات. من يضمن لهم النجاة من السيارات المزدحمة والسريعة. الى هذا قد يودي بحياة من لا يملكون سوى اقدامهم.

وقد يؤدي هذا الى صدام بينهم وبين ذوي الأربع فرد كاوتش. وبالنسبة للمدير فشعار هذه الأيام معروف. اسرق كما تشاء. ولكن لا تقع تحت طائلة القانون. ان وقعت لا قدر الله لن يقف معك أحد من الآخرين الذين يسرقون. سيطالبون بأقصى قدر من العقوبة لك. لا حل لهما معاً. سوى ان يتقرب هو من المدير. سأل عنه. عرف كل صغيرة وكبيرة عن حياته. اسمه. مرتبه. درجته المالية. سكنه. أصله وفصله. عدد أولاده. موقفهم من التعليم. حتى اسم الست زوجته عرفه. المعلومات التي جمعها وضعت يده على ثقوب كثيرة وثغرات لا حصر لها في حياة المدير. المرتب الذي يحصل عليه لا يكفي ثمن البدل التي يرتديها. الكل يسرق اذن. كان الاكتشاف مذهلاً بالنسبة للعبقري. فمدير المصلحة هو أكبر موظف رآه العبقري بعينه في حياته كلها.

ولم يكن يتصور انه يعاني من أي احتياج في حياته. . يحضر في سيارة ويذهب الى منزله في سيارة. لا يمد يده حتى لكي يفتح الباب. سواء باب السيارة أو باب المصلحة الخارجي أو باب مكتبه. حقيبة يده يوجد

من يحملها له. اشارة من يده تكفي لعمل المستحيلات.

كان مواطناً بدرجة كن فيكون في نظر العبقري ولكن الحقيقة المذهلة أن المدير الكبير يبدو محتاجاً. وانه يمد يده بالفعل. قرر العبقري أن يبدأ بلفت نظره اليه. مشكلة العبقري كانت في الطريقة التي يلفت بها نظره.

الرجل يحضر الى المصلحة في التاسعة صباحاً. وفي الثانية بعد الظهر ينزل. مواعيده محددة لدرجة أنك يمكنك أن تضبط عليها ساعتك. لم يحدث أن تغير هذا النظام لأي سبب من الأسباب. ولحظة حضوره معروفة للعبقري. تتوقف سيارة قديمة. سوداء اللون وضخمة الحجم ونوافذها عليها ستائر زرقاء غامقة. ينزل سائقها بسرعة يدور حول السيارة بصورة خاطفة يفتح الباب وينحني للمدير. ينزل رجل ضخم. عملاق. قدمه في الأرض ورأسه تلامس السماء. هكذا يراه العبقري في جلسته على الرصيف وأمامه الطوابع.

العبقري متأكد من أمر واحد. المدير لم يره أبداً. بمجرد أن يضع المدير قدمه فوق الرصيف حتى يكون باب المصلحة مفتوحاً أمامه. يتحرك الرجل بكبرياء واضح والسائق يحمل الحقيبة ويمشي خلفه. وقت الانصراف معروف. تقف السيارة أمام باب المصلحة. في موازاة العبقري. من الساعة الواحدة والنصف يجلس السائق بداخلها حتى يحضر المدير.

ما كان يدهش العبقري هو حالة النظام السائدة في المصلحة. البلد كلها في حالة فوضى. لم تحدث في أي زمن مضى. حتى هنا وتتوقف الفوضى. حالة من النظام الفريد. عقل العبقري كان يتعامل مع أسطح الأشياء فقط. لم يحاول تفهم ما تحت السطح فالانتظام في الحضور والانصراف وطقوس فتح الأبواب والأيادي التي ترتفع

بالتحية. كل هذا كان طبقة رقيقة تحاول تغطية الوجه الكريه للمصلحة كلها. قشرة تخفي تحتها عالماً بأكمله من الفوضى المنظمة. لماذا نجري أسرع من أحداث الرواية نفسها؟

تعمد العبقري القيام من جلسته عند مرور المدير في الصباح ووقت الظهر. بعد القيام يرفع يده بالتحية مثلما يفعل السائق وموظف الاستعلامات الواقف بجوار الباب ورجل الأمن السري المخصص لحماية أمن المدير الشخصي. لم يره المدير أكثر من مرة. ومع مرور الوقت رآه. وأصبحت هذه التحية عادة يومية.

تجرأ العبقري بعد أيام وقدم هدية بسيطة لسعادة المدير. اشترى الجرائد والمجلات وقدمها للمدير لحظة عبوره الرصيف. قال له بسرعة ان جرائد اليوم بها أخبار هامة وخطيرة، وقد نفدت من الأسواق مبكراً. ولهذا حجزها لسعادته. هدية منه. والنبي قبل الهدية. توقف المدير لأول مرة. نظر اليه نظرة طويلة ممزوجة بالدهشة. النظرة كانت أقرب الى السؤال. ماذا وراء هذه الهدية المفاجئة؟

قال المدير في نفسه: اتق شر كل من اقترب من الأرض. اخذها وشكره. وسار في طريقه. تتابعت الهدايا. وعندما قلل العبقري من هداياه كان المدير يتكرم ويطلبها بنفسه.

امتدت حبال الهدايا والمودة. وزادت حركة البيع بصورة لم تحدث من قبل. المترددون على المصلحة كانوا يحضرون الى العبقري خصيصاً. يقولون له ان الموظف المختص طلب منهم الحصول على الطوابع والاستمارات منه هو بالتحديد والا فلن تقبل. تجرأ العبقري وأرسل بعض الهدايا الى منزل المدير.

وشكره المدير في اليوم التالي.. وقال له ان الست الهانم لها بعض

الطلبات ويستحسن ان يشرفها بالـزيارة . . ذهب الى البيت وأصبح من حقه التردد عليه .

شعار العبقري كان واضحاً. المـدير يسهـل له أمـوره. ومن حقه أن يأخذ نصيبه. وفي بيت المدير تمت الصفقة. عرض العبقري على الست الهانم بيع الـطوابع المستعملة. والست سهلت الـطريق الى عقل وقلب المديـر. في الجلسـة التي تمت بينهما دهش الـرجـلان. العبقـري لأنـه اكتشف جهـل المديـر بالفكـرة. وما سمعـه عنه كـان مجرد شـائعات لا أساس لها من الصحة. والمدير لأنه وجد أمامه قزماً له عقـل يفوق كـل العقول التي تعمل معه في المصلحة. الفكرة عظيمة. ولكن كيف تنفـذ. انصرف العبقري أما المـدير فلم يعـرف النوم طـريقاً الى عينيـه. طوال الليل وهو يفكر. هداه تفكيره الى حل عملي.

لماذا لا يعين العبقري في العمل معه.

ان الأوراق التي تـوجـد عليهـا الـطوابـع تحفظ في الأرشيف. والاستمارات والنماذج التي تقدم تحفظ هناك أيضاً.

مـا المانـع من تعيين العبقـري مسئـولاً عن الحفظ في المصلحة. وهو يتصرف في البـاقي . . ان سار الحـال جيداً فيها . . وان انكشف الأمـر فالرجل لا علاقة له بالموظف الجديد.

المشكلة الـوحيـدة أن العبقـري لا يحمـل أي شهـادات ولا يعـرف القراءة والكتابة.

تصرف المدير. . عيّنه على درجـة عماليـة في وظيفة سـاعي. وسلمه الأرشيف نـظراً لكفـاءتـه. ورقي الموظف المسئول عن الأرشيف الى وظيفة أعلى. وأخذ تعهداً على العبقري أن يتعلم القراءة والكتابة خلال ستة أشهر من التعيين. واعتبر أن هـذا الاقرار مصـدر صمت العبقري ان انكشف الأمر.

في البداية اكتفى العبقري بالطوابع ولكن العمل توسع ووصل لحد الاستمارات. طلب العبقري من المدير أن يصدر تعليماته أن يكون ملء الاستمارات بالحبر وأن تكون كل التوقيعات عليها بالحبر.

لم يفهم العاملون سر التعليمات الجديدة. فسرها البعض بأنها وسيلة لمحاربة الغش والتلاعب في ملء الاستمارات. لم يفهموا الهدف الفعلي. الحبر من السهل جداً محوه بمزيل الحبر. وفي هذه الحالة من السهل إعادة استخدام الاستمارة من جديد. . بقيت مشكلة.

من يجلس أمام المصلحة لبيع الطوابع والاستمارات المستعملة. عرض العبقري فكرة الاستعانة بأحد من إخوته. رفض المدير ذلك. .

أحضر هو شخصاً من طرفه حتى تتعادل الأمور. الشخص لم يكن سوى ساعي مكتب المدير.

حصل على اجازة بدون مرتب لمدة عام. وعمل في بيع الطوابع والاستمارات. وحصل على قرار بفتح بوفيه في الدور الإرضي من المصلحة. ويقال ان البوفيه فتح باسم زوجته.

وهكذا تحول العبقري من كائن لا مستقبل له الى أول موظف يعين على درجة ثابتة في تاريخ العائلة.

ضحكوا عليه من جديد عندما كان يذهب الى فصول محو الأمية. ساعدوه جميعاً. وخلال العام الأول تعلم القراءة والكتابة، ووصل به الأمر الى قراءة الصحف والمجلات والأوراق الهامة. واستبدل الجلباب القديم ببذلة فاخرة. وأصبح يطلب منهم في البيت مناداته بكلمة الأستاذ أو الافندي. حتى تليق الألقاب بوضعه الجديد. الحياة لا تخلو من الهموم. ولهذا ما زالت له بعض الامنيات التي لم تتحقق بعد. انه يريد أن يستقل بغرفة خاصة به في العمل. صحيح أنه له مخزن لحفظ

الأوراق. معـه مفتاحـه. ولا يدخله أحـد سواه. ويمـارس فيـه أعـمالـه الخاصة بإزالة المدون في الاستمارات ونزع الطوابع. ولكن ما كان يحزنه أن مكتبه كان مشتركاً مع الآخرين. الطموح البشري لا يعـرف الحدود ولهذا تقدم بطلب رسمي ليحصل على غرفة خاصة به.

وأشر عليـه المديـر بخط يده. يعـرض على اللجنـة الخاصـة بتنسيق المبنى. لتدبير مكتب لمقدم الطلب فـوراً. وذلك نـظراً لطبيعـة عمله في الأرشيف. الأمـر الثـاني الـذي كـان يحزن العبقـري كثيـراً. رغبتـه في الاستقلال بغرفـة خاصـة به في القـبر. العين بصيـرة واليد قصيـرة ومن الصعب تنفيذ طلبه.

ومع هذا فان اليأس لم يعـرف الطريق الى نفسـه أبداً. فكـر طويـلاً وهداه تفكيره الى أن الحل هو بناء حائط صغير في آخر القـبر يعزلـه عن الآخرين ويستخدم الجزء الباقي بعده كغرفـة خاصـة به الى أن يفـرجها الكريم. وينتقل من هنا ويصبح من أصحاب البيوت الذين يعيشون في الناحية الأخرى من العالم.

٨ ـ الهانم:

تزوجت وهي صغيرة. تزوجت حتى قبل اختها ملكة الجمال. ولكن العريس رحل. حتى الآن لا تعرف بالضبط ان كانت زوجة أو مطلقة. لا يعرفون جميعاً اين هو. لم يحدثها في الليالي الطويلة بـأنه ينـوي السفر الى الخارج. على الورق هي زوجته. ولكنهـا في الواقـع. فتاة معلقـة. من النـوع الذي رقص عـلى السلم. لا الـذي فوق رآهـا. ولا الـذي تحت شاهدها.

كان الزوج من مهجري بور سعيد. وكان يصرف له راتب شهري. وكان يطلب أن تكون لديه الشجاعـة ليصرف هذا الـراتب من أكثر من مكان. مثل غيره من المهجرين.

وكان يحدثها عن بور سعيد والتجارة والسمك والبحر وحياة البمبوطية. حدثها طويلاً عن العودة الى بور سعيد كمخرج وحيد من أزمة الحياة هنا. ليس له أب ولا أم ولا أخوة.

كانت أمه تملك محل كوافير محترم. وكان والده صاحب سيارة أجرة تعمل بين بور سعيد والقاهرة. لم ينج من الدمار سواه وأخته التي تعيش في ميناء بيريه اليوناني مع زوجها. رحلا. هناك يعمل الزوج بصناعة الشباك. شباك الصيد وهي تساعده. شقيقه الآخر كان ضابطاً. استشهد في آخر الحروب. والمؤسف انه على ما يبدو ليست هناك حروب أخرى. حتى يجد من يأخذ له بثأره. عندما كان يحكي حكاياته المثقلة بالدموع.

كان المليونير يسأله: ولماذا لم يحاول الحصول على شقة انه مهجر. شقيقه شهيد. وأمه استشهدت في احدى الغارات. ووالده ذهب ولم يعد.

وكل هذه الظروف تعطيه الأحقية الكاملة في الحصول على أكثر من شقة. كان يرد ويقول انه لم يعد في هذا العالم ما يستحق الجري وراءه. فشلت كل المحاولات التي بذلتها العائلة ليتحرك. يقوم، يجري وراء حقوقه الضائعة. ويحصل عليها ويفتح بيتاً خاصاً به. يكون اول بيت في حياة العائلة كلها. لم يكن له عمل يذهب اليه.

ومع هذا كان ينزل كل يوم في موعد محدد. يتجه إلى موقف تاكسي بور سعيد. لم يعرف أحد ماذا كان يعمل هناك. منادي؟ سائق؟ مشرف؟ الله أعلم. ولكنه كان يذهب كل صباح ويعود كل مساء. ومعه رزق اليوم. يعطيه لهم. يأكل وينام. لم يكن دائم الشجار مثلهم ولا المناقشة ولا المشاحنة. في بعض الأيام فقط كان يتجرأ ويطلب من الست الكبيرة أكلة سواحلية. هكذا كان يسمي السمك المشوي أو المقلي والرز المفلفل المطبوخ بالزيت. سألته مرة. لماذا لا يفكر في السفر الى اخته في البلد التي يسميها بيريه.

انتفض كالملسوع وقال لها انه لا يفكر في السفر أبداً . . خاصة بعد زواجه منها . كل ما يريده هو العودة الى بور سعيد . ثم توقف صرف مرتب التهجير وأصبح مطلوباً منه العودة الى بور سعيد . ولكنه راح يؤجل العودة يوماً بعد آخر .

قال لزوجته ان بلدته قد انتهت . الغرباء هجموا عليها . البلد الذي كان يحبه من كل قلبه لم يعد له وجود أبداً . ولهذا لا يحب العودة اليه الآن . أين هي بور سعيد من كل ما يجري هناك . . البضائع والتجارة والسفن الراسية المحملة بالملابس والبضائع المستعملة من قبل . المدينة أصبحت مثل القفص . إما أن تكون داخلاً اليها أو خارجاً منها . لها باب يغلق ويفتح . وعلى الباب موظفون يفتشون الحقائب والجيوب والعقول . وكل أماكن الجسم البشري . حتى البحر هجرها . لم يعد بينه وبينها ذلك الوصال والعشق بلا حدود . لا يأتيها ولا تأتيه . ولا يرمي تحت أقدامها على رمال شواطئها كنزه وأسراره وهدايا العاشق للحبيب .

ولم يعد في الليل المنتهك والمباح بين البحر وبين المدينة تلك الوشوشة التي لا تنتهي . والاسرار التي لم يعرفها أحد من قبل . كان يقول تاهت مدينتي . مرة بالقنابل والضرب . وأخرى بالغزو السلمي واحتلالها بالغرباء وبضائعهم . في كل الأحوال كان يقول إن بور سعيد لم يعد لها وجود على الخريطة ولا في قلبه وقال انه لن يعود لها أبداً .

لقد حرمت عليه حتى يوم وفاته . الى أن كان يوم . خرج ولم يعد . ذهبوا الى الموقف . وجدوهم هناك يضربون كفا بكف . ويقولون انهم يسألون عنه أيضاً بنفس الطريقة . خاصة وان اختفاءه اتى مفاجئاً . ولم يتكلم هو عنه مع أنه انسان .

عندما عرفوا حكايتها معه . طلبوا منها أن تحمد الله لأنه تركها

بمفردها. لم تنجب منه أطفالاً يعطلون امكانية زواجها من جديد. الزواج من جديد؟! الحياة مع رجل آخر؟ لم تصدق هي ذلك. وما تصورته ممكن الحدوث. وعندما تقدم لها شاب من سكان القبور. اكتشف والدها أن مسألة زواجها ليست سهلة أبداً. أمامهم اجراءات طويلة ومعقدة حتى تحصل على حكم بالطلاق. اجراءات وأوراق ومحامون وشهود وذهاب الى المحاكم. وأموال مطلوب انفاقها وجلوس في صالات الانتظار الرطبة. وقد يحضر الزوج في اللحظة الأخيرة. فيلغي كل هذه الاجراءات. . وسكان القبور ليسوا مثل سكان البيوت الثابتة. انهم يخشون الحكومة. ويترددون كثيراً قبل الذهاب الى جهة حكومية ما. حتى وان كانوا أصحاب حق واضح. ولهذا كان قرار المليونير ان الصبر طيب. لم تقل هي: ولكن الى متى تطول حبال الصبر؟ وبمرور الأيام أصبحت لها معاملة خاصة.

كانوا جماعة من مكسوري القلوب والأجنحة. ولكن الهانم كانت أكثرهم وضوحاً. فعطفوا عليها.

ولهذا عندما شعروا ببعض التغيرات في حياتها لم يسببوا لها أي مضايقات أبداً. بعد فترة من سفر أو هروب زوجها تعرفت على فتاة من الناحية الأخرى. من سكان البيوت. ابنة عائلة لها بيت وعائلها موظف وان كان غير ميسور الحال. زارت بيتها. وحضرت الفتاة الى قبرهم المتواضع.

وأصبحت بين الفتاتين صداقة. وكانت الهانم تستأذن احياناً للخروج. ذاهبة الى بيت صديقتها. ما اثار انتباه العائلة ان مرات الخروج كثرت. وكلها في وقت واحد. وقت الغروب الذي تزدحم فيه المدينة بكل من هب ودب. لاحظوا أيضاً اعتناءها بنفسها وبملابسها الذي فاق كل حدود المعقول. ولكن أحداً لم يكلمها. والدها لم يكن

مستريحاً للصديقة الجديدة ولا للخروج ولا للملابس والتأنق والكحل والأحمر والأبيض. لكن الهانم كانت سريعة التأثر ودموعها جاهزة وتحت الطلب. وما إن يحدثها أحد حتى تتكلم عن ميلة البخت والحظ العاثر والظروف القاسية، ، وتقول انها لو كان لها رجل. ما حدث لها هذا.

بدأت العائلة تتحدث همساً عن الهانم عندما كثر الجديد من الملابس. خاصة وأن أثمانها كانت مرتفعة. قالت لهم: انها ملابس صديقتها. أعارتها اياها، كي تلبسها مرة أو مرتين، ولكن الملابس ظلت مدداً طويلة. واتضح أنها ملكها وليست ملك صديقتها.

مع مرور الوقت أصبحت تعطي ملابسها المستعملة لكل بنات ونساء العائلة. فتحت أمها حقيبتها خلسة مرة. فوجدت بها نقوداً كثيرة. وفي صمت ودونما كلمات أدركت المرأة الكبيرة ان ابنتها ابتعدت عنهم كثيراً. وانها سارت بالفعل في طريق موحش ووحيد. يخصها وحدها. نفس المعنى استقر في نفوس الباقين من أفراد العائلة. ولم يعترضها أحد. وحافظت هي على المظاهر الخارجية بكل دقة.

وقت الغروب تخرج وتعود قبل العاشرة مساء بقليل. . وعندما كانت تقضي الليل في الخارج كانت تستأذن والدها قبل ذلك. بحجة أنها مدعوة للمبيت عند صديقتها. تكرر ذلك كثيراً. لدرجة ان مبيتها في بيت أو قبر العائلة أصبح قليلاً جداً. ومع هذا لم يثر أحد. كانوا يدركون جميعاً حكايتها. وان لم يجرح أحد احساسها بكلمة واحدة. في الأيام الأخيرة وصل الأمر بها لدرجة أنها كانت تحضر الى العائلة أحياناً. وتعطي للمليونير بعض النقود أمام كل أفراد العائلة. ودهش الكل عندما وجدوا المليونير يقبل هذه النقود. دون إثارة اية مشاكل من جانبه. الاستاذ وحده هو الذي تكلم معلقاً على ما يشاهده. قال كلاماً لم يفهمه

أحد من أفراد الأسرة. قال أولا: الهوان المباح. ثم قال: الدخول الى دائرة الانحناء. وخيل اليهم أنه يتحدث عن أمر آخر لا صلة له بموضوع الهانم.

٩ ـ عاش الملك:

يحيط نفسه وعمله بهالة من الغموض وبطبقة من عدم التحدد. في بعض الأيام يحضر له أفندي. ويعطيه بعض الملابس وينصرف. يقول عن نفسه إنه يعمل في جهة خطيرة. بل أخطر جهة في البلد كلها.

وعندما يحضر هذا الأفندي فانه يختلي به بعض الوقت. وينصرف. لاحظ أفراد الأسرة أن زيارات هذا الأفندي الغريب تكون في الأيام التي تقام فيها المواكب الرسمية أو الشعبية والاستقبالات وحالات التصفيق والمسيرات. حاصروه بالأسئلة وكشفوا له ماتوصلوا اليه. تنازل وقال انه يلعب دوراً هاماً في تنظيم هذه الاستقبالات. خاصة عندما يكون الضيف من كبار الزوار.

ضحكوا في سخرية منه. ولكنه كظم غيظه ونفخ وقال ان السرية المطلقة في عمله هي التي تمنعه من الافصاح عما يقوم به وبعد أن يذهب الافندي الغريب. يتحرك عاش الملك. من القبر. وهو في الطريق الى مكتب الضابط الغامض الذي لا يعرف حتى اسمه. تنثال في داخله حكايته الفعلية من أولها الى آخرها. تلك الحكاية التي لا بد وان تبقى سره الخاص. لا يمكن ان يتكلم عنها. الا مع نفسه. نقطة البدء واضحة في ذهنه مثل ضوء الشمس. يوم ان نزل الى وسط المدينة كي يجرب حظه.

صاح فيه والده يومها. قال له انه كبر ولا يجب ان يبقى هكذا عالة عليه. تكفيه البنات والصغار أما كل من كبر فلن يبقى بدون عمل. لف ودار. لم يستطع العثور على عمل بسهولة. تذكر كلمة والده. انه

لن يستطيع أخذ القرش من الأيادي الأخرى برضاها. ادرك الآن كم يبدو صعباً ان تحصل على مليم من الآخرين. عضه الجوع. ولكنه قرر ان لا يضع قدمه في القبر. قبل الحصول على عمل. أو حتى وعد بعمل ما. سار.

شارع يسلمه لآخر. عطفة تدفع به الى حارة. وحارة تعود به الى الشوارع الضخمة. مطاعم. مقاهي. محلات كشري. مسامط. بارات. اكشاك. سيارات أطعمة. أمكنة كثيرة تفوح منها جميعاً رائحة الطعام. يدخلها أناس همهم الأول. هو الحصول على الطعام. في الصباح خجل ان يطلب نقوداً من والده خاصة بعد الدرس الذي سمعه منه عن ضرورة حصوله على عمل. في يوم السعد هذا. كما يسميه هو. لف ودار. وقرر البقاء في منطقة الحسين. فهي منطقة مبروكة. قد تصيبه عدوى البركة. قرر ان لا يترك المسجد الى أي مكان آخر. اليوم هو يوم جمعة والمجاذيب يحيطون بالمسجد من كل ناحية. يشكلون دائرة محكمة حول المسجد.

فكر في بيع الأشياء. أجل ذلك. وجلس يشاهد ما حوله. فجأة حضر سيادة الفريق. هكذا يسميه الدراويش. رجل كبير في السن. على حافة الجنون. يهذي. ذقنه ضخم. احس عاش الملك انه ذقن ملزوق ومن الممكن ان يقع في أي وقت. يرتدي سروالاً قديماً. وجاكيت ضابط مستعملاً. وعلى الكتفين رتبة الفريق. موضوعة بصورة تجعل من السهل نزعها. وعلى الصدر غابة من الأوسمة والنياشين تخفي صدره كله. نظر الى عاش الملك نظرة فاحصة. وجه جديد يطل عليه لأول مرة. يندس بينهم فما هي حكايته؟ سأله أولا عن الاقامة في رحاب سيد الشهداء عابرة أم مؤقتة؟

دهش عندما قال له إنه لا ينوي الاقامة هنا. لديه بيت يعيش فيه.

وله أسرة وليس مقطوعاً من شجرة. اذن ما الحكاية؟ ضاقت السبل وحضر الى هنا بحثاً عن الرزق فقط. وسيمشي بعد هذا قال له الفريق انه هو المسئول عن المنطقة كلها. والرزق ضاق على كل الناس. وهم أول من ضاقت بهم الحياة. أياً كانت ظروفه الصعبة والقاسية سيسمح له بالحصول على الرزق مرة واحدة فقط.

ويمضي في طريقه. وسيدله على وسيلة لا يعرفها كل الناس. وسيقول له الآن سراً رهيباً بشرط ان يعطيه ١٠٪ مما سيحصل عليه. ويدفع له الآن جزءاً مقدماً من هذه النسبة. أخذه بعيداً. نظر حوله في كل الاتجاهات. وقال له. ان التسول من المصريين لا يعود بشيء. لا يحضر الى هنا سوى الفقراء. وان اعطوا حسنة فهي لا تزيد على الملاليم أبداً. التسول في أماكن أخرى أحسن وأكثر ربحاً. بالنسبة له هو وجماعته. فهم مرتبطون عاطفياً ونفسياً بهذه المنطقة. اما هو فيمكنه التسول أمام البنوك الجديدة التي لا تتعامل بالجنيه المصري. والشقق المفروشة وعلى أبواب الكافتريات والمطاعم وفنادق الدرجة الأولى وملاهي شارع الهرم. وحول الاهرامات.

أقسم له أنه تم القبض على متسول لم يكن يقف الا أمام الهيلتون. وجد معه خمسة آلاف جنيه وعدداً لا يحصى ولا يعد من العملات الأجنبية. والشيكات السياحية. وعند تفتيش منزله وجد لديه تليفوناً وثلاجة وغسالة وسخاناً هذا بخلاف العفش الذي وجد في منزله. نبهه الفريق الى ان احتراف التسول في هذه الأماكن يتطلب منه الالمام ببعض اللغات الأجنبية فقط. هذا هو المؤهل الاساسي المطلوب. بعد الشرح والدرس والتحليل.

طلب منه الفريق مقدم اتعابه. نظير السر الخطير الذي سيبوح به له. أقسم عاش الملك انه لا يحتكم على مليم واحد معه. ولو كان معه

هذا المليم ما حضر الى هنا. وعده باعطائه أكثر من العشرة في المائة التي طلبها بعد التنفيذ. دهش عندما أعطاه الفريق ثمن الغداء والعشاء. بشرط ان يتناول طعامه هنا. اشار الى عربة كشري وعربة فول.

عرف عاش الملك فيما بعد ان العربات التي تبيع الطعام في الميدان ملك للفريق.

وبعد تناول الطعام. حكى له الفريق السر الرهيب: في صلاة فجر الغد. سيحضر الى الحسين أحد الأثرياء العرب لزيارة سيد الشهداء. هدف الزيارة هو الصلاة في المسجد. والتصدق على بعض المحتاجين خاصة الذين يحضرون لصلاة الفجر من المحتاجين قال له الفريق ان بعض الأثرياء العرب يوزع أوراقاً مالية. والبعض الآخر ربما يفضل الشيكات. آخر ثري وزع ورقاً من فئة العشرين جنيهاً الجديدة.

وكانت الأوراق خضراء ومسنونة مثل السكاكين. تفوح منها رائحة البنوك. البعض الآخر يقدم أوراقاً من فئة العشرة جنيهات. والبعض يقدم أوراقاً من فئة الخمسة جنيهات. المهم ان الأوراق التي توزع على المصلين لا تقل عن الجنيه بأي حال من الأحوال. وقت الفجر يكون الميدان خالياً. وبعض الاشقاء العرب لم يكونوا يجدون من يعطونه الاموال. فكانوا ينثرونها على الأرض. ولكن بعد ان شاعت الحكاية. وأصبحت من عادات ساعة الفجر. حتى أصبحت لدى الميدان قدرة فريدة على ولادة أناس يخرجون من الزوايا والاركان. لا تعرف ان كانت السماء قد أمطرتهم. أو أن الأرض انشقت وأخرجتهم. لا يوجد بيت واحد يطل على الميدان. ومع هذا وبمجرد حضورهم. يخرج الناس من كل مكان. يهجمون على السيارة والثرى. ما يحزن الفريق ان الذين يحصلون على المال ليسوا من ابناء المهنة أو الحرفة أغلبهم موظفون لهم مرتبات ثابتة.

ومع هذا لا يريدون ترك المتسولين يحصلون على الرزق المقسوم لهم. لهذا فكر الفريق في عمل تنظيم ما. يمنع غير ابناء المهنة من الحصول على الرزق الذي يقسم لهم. منعه من عمل التنظيم. ان التسول نفسه ممنوع. والقانون المصري يعتبره جريمة لها عقوبات منصوص عليها فيه. ولهذا لم يبق له ولرجاله سوى التكتيك. لمنع موظفي هذا الزمان من سرقتهم علناً وفي وضح النهار. وقد هداهم التفكير الى عمل دراسات على الميدان. ومحاولة معرفة الاتجاه أو الجانب الذي يحضر منه الأثرياء العرب أغلبهم يحضرون من ناحية الزمالك أو الدقي. ومن مناطق وسط البلد بشكل عام. وحضورهم يكون من العتبة. قلة شديدة منهم تحضر من ناحية مصر الجديدة. وفي كل الحالات فهم يحضرون من ناحية الدراسة لأنه حتى القادمين من ميدان العتبة تفرض عليهم قواعد المرور الصعود الى الدراسة والدوران من هناك.

والفريق يرى ان تعقيدات المرور هذه قد سهلت مهمتهم في مراقبة السيارات. لقد وضع نظاماً صارماً.

تبدأ المراقبة من أمام مسجد الأزهر. والسيارت صاعدة الى الدراسة ويعطي اشارته لمن يليه في المراقبة وهو الواقف خلف مبنى الأزهر. حيث يوجد موقف سيارات الأثرياء العرب. فهم لا يوقفون سياراتهم في الموقف العمومي. ولكنهم يتجهون مباشرة الى مكان خلف ادارة الأزهر. مكتوب عليه ممنوع الوقوف ولكن السيارة تعبره بسرعة وتتوقف أمام باب مسجد الحسين مباشرة. وينزل السائق ليفتح الباب الخلفي من الناحية اليسرى ولا ينزل الثري العربي فوراً. ولكنه يخرج رجله اليسرى ويضعها على الأرض وينظر حوله. أحياناً يبدأ التوزيع على الفور. والنقود تكون موضوعة في صندوق بجواره. وأحياناً يوزع

بعد الصلاة. واثناء خروج المصلين من باب المسجد. أول من يصل الى باب العربة لا يأخذ نصيبه ويمضي. ولكنه يقف مكانه ويعطي نفسه الأحقية في الأخذ من الثري والتوزيع على كل من يأتي بعده.

وهو لا يفعل هذا من باب الشهامة والخدمة. ولكنه يأخذ بعض الأوراق المالية له في زحام عملية التوزيع. خاصة وان بعض الحوادث تقع عندما يتصادف التوزيع مع مولد الشهيد أو في ليالي شهر رمضان. بعض الصغار والعجائز ماتوا تحت الأقدام. لأن بعض الأثرياء تصادف حضوره في ليلة القدر. وكان الزحام شديداً في الميدان. المهم. انه بمجرد وصول الاشارة المتفق عليها من رجال الفريق حتى يحيط رجاله بالسيارة من جميع جوانبها بعض الناس يتصورون انهم من رجال الأمن السري. المعين لحراسة تحركات الثري العربي. وابتعدوا عنهم وحتى لا ينكشف الأمر. لم يكن لدى الفريق مانع من ترك بعض الناس تحصل على شيء ما. تبقى مسألة معرفة السيارات. أولاً كل سيارات الاشقاء العرب ضخمة. سفينة متحركة فوق الأرض سوداء اللون. وزجاجها يخفي ما وراءه.

هناك علامات أخرى إن أرقام السيارة إما أن تكون جمرك تغطي أرقام البلد الأصلي. أو هيئة سياسية ورغم الزجاج الملون الا أن العين اليقظة يمكنها مشاهدة بعض العلامات الداخلية مثل العقال الابيض أو الكوفية البيضاء أو الحبرة السوداء. عادة لا يقود هؤلاء الناس سياراتهم بأنفسهم. لا بد من وجود سائق. يركب في المقعد الأمامي. تلك هي العلامات الأولى. وبعد الحديث طلب الفريق من عاش الملك الانصراف الآن والحضور الى الميدان بعد انتصاف الليل وتسليم نفسه للموجود والمعين في الموقع الأخير. وهو الذي يقف أمام باب المسجد مباشرة وكلمة السر هي: ليلة القدر تتكلم عربي. ان لم يقل له هذه

الكلمة لن يسمح له بالوقوف انصرف عاش الملك شاكراً للفريق فضله .

وأكد له انه سيدفع أكثر من العشرة في المائة ولن يستطيع أبداً ان يرد هذا الجميل للفريق. ان عاش الملك مختلف تماماً عن أي متسول آخر. سار عاش الملك الى الناحية الأخرى من الميدان كان مستريحاً لكل ما قاله الفريق الا حكاية الانتظار حتى الفجر من يدري.

لعب الفأر في عبه. من يضمن له ان لا يحضر الثري العربي قبل الفجر. ربما حضر وقت صلاة العصر أو المغرب أو العشاء. ماذا يمنعه من هذا؟ ان الفريق ضلله. رمى له طعماً ضخماً. ولكنه لا يقل ذكاء عن الفريق لن يترك الميدان مهما كانت الظروف. سيظل هنا. ولكن عليه ان يتخفى عن رجال الفريق. عبر الميدان إلى الناحية الأخرى. وجد جماعة من الناس. رمى عليهم السلام وجلس بالقرب منهم وحيداً. واحد منهم هو الذي بدأ الحديث. سأله عن سبب جلوسه في هذا المكان. ان الرصيف مخصص لمتسولي الجيزة. وهم يخافون من العبور الى الرصيف المقابل والملاصق لمسجد سيد الشهداء. خوفاً من الفريق ورجاله. لأنه ليس من حقهم الحضور الى الميدان. ولكن الليلة ستكون ليلة خاصة. لا تحدث في العمر كله الا مرة واحدة ولهذا كسروا الاتفاق وحضروا.

الرجل الذي حدثه كان يشك انه من رجال الفريق. حضر للتجسس عليهم. روى له عاش الملك حكايته من أولها. حتى لحظة جلوسه معهم. صدقوا حكايته. نصحوه بعدم المشي. لأن مخابراتهم. وكل مجموعة منهم لها مخابراتها الخاصة بها. أكدت لهم أن ثريا عربياً كبيراً من دولة بترولية. سيزور سيدنا الحسين بين صلاة العشاء. وصلاة الفجر. لم تحدد هذه المخابرات هل هو ملك أم سلطان. أم

أمـير أم خليفة ولكنـه حاكم كبـير وسيوزع حـوالي مليون جنيـه. وأمام ضخامة المبلغ من حق كل متسولي مصر الحضور ولهذا حضروا.

وما دام الخبر قـد تسرب فهم يتوقعـون حضور بعض المتسـولين من الاماكن الأخرى. رفض عـاش الملك ان يتحرك من مكـانه ولـو لحـظة واحدة. تكاثر عدد المتسـولين كلما تقـدم النهار نحـو نهايته. جلسـوا في أماكن مختلفة من الميـدان. حضر بعض المتسولـين من خارج القـاهرة. أكدوا ان بعض الاذاعات ذكرت وصول السلطان. وتوزيع الامـوال في ميـدان الحسين مسـاء. قرر البقـاء في مكانـه حتى آخر الـزمان. تكـاثر العدد مع مرور الوقت.

حضر اشخاص من كل أركان مصر البعيدة والمنسية. الحكايـة التي يقـولـونها واحـدة. احتلوا أكـثر من رصيف. وحـولهم اجتمـع المـارة العـابرون من بـاب الفرجـة والتسليـة والسؤال عن الحكـايـة. سـدت الشـوراع وتخبط المـرور وارتفعت ابـواق السيـارات محتجـة وحـدثت مصـادمـات وخنـاقـات. ضـابط المـرور خشي ان يكـون وراء حضـور المتسولين بهذه الصورة مؤامرة ضد الدولة. من يدري.

قد تكون حيلة من الحيل الجديدة والتي لم تجرب من قبل. بمجرد ان تفتق ذهنه عن هذا الاكتشـاف الذي جعله يتصـور نفسه أحـد عباقـرة رجـال الشرطـة حتى أصبحت كـل مهمتـه هي الاتصـال بـأحـد كبـار الضباط.

كان ذلك صعباً. خاصة ان الوقت كان وقت الظهـر الذي تحلو فيـه الراحة والنوم. حزن لأنه كان ينتظر ترقية سريعة تقفـز به أكـثر من رتبة من وراء هذه العملية. لهذا اتصل مباشرة بقوات الأمن المركزي. وقال في التليفون ان غرباء قد احتلوا ميدان سيد الشهـداء في غفلة من رجال الأمن الذين لم يكونوا يتوقعون هذا الغزو الداخلي.

سأله الصوت الآخر: هل معهم دبابات أو سيارات مصفحة هل نزلوا من طائرات وماذا تحمل هذه الطائرات من شارات خارجية هل هي شارات دولة أجنبية أو إحدى منظمات التخريب.

قال له الضابط وقد ازعجه ان اللعبة دخلت في طور مخيف. انهم أتوا على اقدامهم. قبل ان يكمل قال الصوت الآخر: ما دام الغزاة قد حضروا زحفاً على الاقدام. تكفي حملة من السيارات العادية والجنود يقتصر تسليحهم على العصي والهراوات والدروع كبداية. في دقائق قليلة تمت الموافقة. وبدأت الحملة. وانتصرت الحملة في الموقعة. ليس في اجلاء الغزاة فقط. ولكن في القبض عليهم جميعاً. لم يتمكن واحد من الغزاة من الهرب. وتم الفصل بينهم وبين الجمهور المتفرج الذي فرقته الحملة خوفاً من التجمهر والاثارة. التي قد تكون مقدمة لاندساس بعض العناصر المخربة وسط المواطنين الشرفاء من جماهير المتفرجين.

قال المتسولون لأنفسهم. ان قوة أكبر منهم طمعت فيما سيقدمه السلطان. وقررت الحصول على ما معه لنفسها. وحرمتهم من حقهم الطبيعي في التسول. وهذا سر القبض عليهم بهذه الصورة في الحجز بدأت قصة عاش الملك. ضابط المباحث اكتشفه بعد ان عرف عنوان سكنه أجرى معه مناقشات مطولة. عن الحياة في المقابر. دهش عاش الملك عندما وجد الضابط يسأله عن الاتجاهات السياسية لسكان القبور لم يسمع من قبل هذه الكلمات حاول ان يتكلم مع الضابط. ومن يومها وهو يعمل معه في جملة وظائف. يلاحظ الأمور في المقابر. يحاول معرفة ما يفكر فيه الناس. ما يقولونه بعد الاحداث الهامة في حياة الوطن. يرصد تململ سكان القبور من الحياة وسط الموتى. تطلعهم الى التساوي مع سكان البيوت.

توسعت علاقة عاش الملك بالضابط. أصبح يثق فيه أكثر وصى عليه ذوي الشأن في حياة المقابر. عرفه على المخبرين المعينين على درجات ثابتة عرف عاش الملك الحياة السرية في مدينة الموتى. اكتشف ان هناك عالماً بأكمله يعيش ويتحرك تحت السطح الخارجي. الذي كان وجهاً خادعاً. ولأن مدينة الموتى. منطقة بؤس وجوع. اعتمد عليه الضابط في احضار من يهتفون ويصفقون ويهللون في المواكب والاستقبالات الرسمية. دهش عندما استدعاه الضابط ذات يوم وسأله.

ـ رجالك جاهزون..؟

رد بفخر:

ـ تحت الأمر.

قال الضابط بعصبية:

ـ كم عددهم؟

قال عاش الملك:

ـ العدد أنتم الذين تحددونه.

سأله الضابط بخشونة:

ـ هل يمكن تجهيز خمسمائة.

ـ ليست مشكلة.

انفرجت أسارير الضابط لأول مرة. أشار بيده لعاش الملك أن يجلس. جلس بعد ان استعاد هدوءه. سأل عاش الملك الضابط:

ـ استقبال أم وداع؟

ـ لا هذا ولا ذاك.

ضحك عاش الملك:

ـ ابتكار جديد اذن.

وأشار له الضابط اشارة من يده اسكتته وجففت مقدمات الضحكة

التي انتشرت على شفتيه. وشرح الضابط المهمة المطلوبة التي فاقت كل القصص والحكايات السابقة. مطلوب من عاش الملك هو ورجاله القيام بمظاهرة معادية للحكومة تهتف ضد الدولة وتحاول اثارة الجماهير. على ان تسير المظاهرة على شكل مربع. اضلاعه الخارجية الأربعة تكون مثل الجدران العالية.

وهذا لضمان عدم تسرب عناصر خارجية الى المظاهرة. وان نجح أحد الى التسرب اليهم فيجب معرفته ووضعه تحت المراقبة خوفاً من احتمال خروجه على الخط الوطني الذي ستخرج المظاهرة من أجله. وان استلزم الأمر القبض عليه. من حق عاش الملك ان يفعل هذا. سيعطيه الضابط ورقة بها الهتافات التي يجب ترديدها وخريطة بالمسار الذي ستسلكه المظاهرة من لحظة البداية وحتى النهاية التي يجب ان تكون في الفناء الخارجي لمجلس الشعب ولمن ينفضوا قبل ان يصل اليهم رسول من الضابط. معه علامة محددة وهي خاتم في خنصر يده اليمنى. مرسوم عليه علم مصر قبل تغييره. العلم الاخضر ذا الهلال الابيض والنجوم. العلم الذي يعد رمزاً حقيقياً لمصر قبل ان يتم تزييف كل ما فيها. وقبل حرمانها حتى من اسم مصر. وبمجرد ان يريهم الخاتم عن طريق رفع يده بتحية هتلرية. ثم يطلب منهم الإنصراف فوراً. لأن ما يقومون به ضد الدولة مطلوب منهم مناقشته.

وبعد المناقشة يبدو عليهم أنهم اقتنعوا بالوعود التي بذلت لهم. ثم ينصرفون. المكافآت هذه المرة ستفوق أي مرة سابقة. ولن تصرف في المرات القادمة. هذه المرة ستكون استثناء نظراً لطبيعة الاخطار الكامنة في العملية. جنيهان مقدم تصرف الآن لعاش الملك ويوزعها هو بنفسه. وثلاثة جنيهات تصرف بعد تمام العملية. فرك عاش الملك اذنيه لم يصدق. خاف أن يكون الضابط قد أصابه مس من كثرة العمل والإرهاق.

طلب منه شرح المسألة. كيف تخرج مظاهرة ضد الدولة استراح الضابط في جلسته.

قال له ان المظاهرات الحقيقية كثرت في البلد في الفترة الاخيرة. لديهم تقارير تؤكد ان مظاهرات فعلية وحقيقية كثيرة أخرى في الطريق الى البلد بعضها ممول من الخارج والبعض الآخر بسبب متاعب الجماهير التي فشلنا في حلها. كل ما نجحنا فيه هو زيادة المتاعب. نظريات الأمن الغربية والنصائح الامريكية أوصتنا بضرورة خلق قضايا جانبية تشغل الرأي العام. وتصرفه عن مشاكله الحقيقية. وتحول نظره عن القضايا الأساسية الى قضايا جانبية وفضائح شخصية وبالفعل افتعلنا الكثير من المعارك التي شغلت الناس فعلاً. ولكن لأوقات محددة جداً. يعود الناس بعدها الى المشاكل الفعلية. تلك آخر وصية من وصايا الاصدقاء الامريكيين العشر لابقاء الوضع بالقرب من الحافة. والحفاظ عليه في هذا الوضع. ستلعب المظاهرات المصنوعة دور المظاهرات الفعلية. وستقوم بتفريغ طاقة الناس والتنفيس عن الظلم الواقع عليهم.

أكد له الضابط ان الشرح خاص به وحده. وكان الضابط مطمئناً الى أن عاش الملك لن يفهم الأمر كله. وبالخلفيات الكثيرة. التي تحيط به. أخذ عاش الملك مقدم الاتعاب. مثل كل مرة. أخذ مظروفاً مغلقاً بداخله المبلغ. لم يوقع بالاستلام. المبلغ من المصروفات السرية. بعد خروجه رفع الضابط سماعة التليفون. اتصل بالجهات العليا. رقق صوته وقال:

ـ كله تمام يا أفندم.

وفي الخارج توجه عاش الملك الى المقابر وهو يشعر بثقل في صدره. خاف ان يكون الضابط قد قرر التخلص منه ومن رجاله لأنه أصبح

يعرف أكثر من اللازم عن العالم السري والخفي. فكر في الرجوع الى الضابط. وتسليمه المبلغ والاعتذار عن المهمة.

كان المبلغ كبيراً هذه المرة. ود لو أخذ جنيهاً واحداً من كل هتيف. اذن لحصل لنفسه على مبلغ ضخم. بعد ان توقف أكثر من مرة قرر ان يستمر في طريقه وليكن ما يكون. من الصعب الغدر به. ليس من باب الوفاء والعرفان بالجميل. ولكن لسبب آخر بسيط وهو ان الأمور تزداد سوءاً في البلاد يوماً بعد يوم. واليوم الذي يمضي لا يأتي يوم آخر مثله أبداً. عند وصوله الى هذه النقطة في تفكيره. أسرع في سيره الى مدينة الموق. وهو يحسب في ذهنه المبلغ الذي سيحصل عليه. وكم سيحتفظ به. وكم سيعطيه لوالده.

١٠ ـ الدليل المتحرك:

اسم على مسمى. عمله الرسمي. أو لنقل الاعمال التي يقوم بها كثيرة . من الصعب تقديم احصاء بهذه الأعمال. وحتى لو أحصيت هذه الأعمال سيكون ذلك على سبيل التسلية فقط. في مرة يقدم لك ورقة من النوع المقوى. مكتوب على الكارت: ان الحاج الفلكي قادر على معرفة ما سيحدث لك فوراً. وبدون مقابل. يدور على المقاهي الكازينوهات وأماكن العشاق في الحدائق العامة وعلى الأرصفة. أمام دور السينما. بمجرد أن يشاهد اثنين رجلاً وامرأة. حتى يقترب منهما بكل أدب وبحركة مسرحية. يقف على بعد وينحني. وبعد ان يثبت قدميه في الأرض. فان الانحناءة تزداد أو تقل حسب المسافة بينه وبين العشاق. يقدم الورقة ويقف منتظراً. وفي لحظة الانتظار هذه كان يكتشف الكثير من أمور العالم. أحياناً كان يأخذ الورقة منه من لا يعرف القراءة او الكتابة كان يعرف هذا من الطريقة التي يمسك بها الورقة.

البعض يسـأله عـما في الورقـة والبعض الآخر يغـطي موقفـه بـطرده فوراً. وبدون مناقشة.

أحياناً كان يشاهد رجلاً وامرأة يحاول قراءة ملامح الوجهين، فيخيل اليه ان ثمة قصة حب ملتهبة بينهما. وانه سيقرأ لهما كل عواطف عشـاق هذا العالم. ولكنه بعد تقديم الورقة. يفاجأ بالرجل الجـالس يضحك. ويشير الى المرأة التي معه. قائـلاً إنها أمه. ينـظر في وجه المـرأة. يكاد لا يصدق ما يقال له. ولكنـه لا يملك سوى الانصراف. بـاحثاً عن صيـد جديد.

كـان موظفـاً في أحد فنـادق الدرجـة الأولى. وفصـل من عمله لأن إحدى النزيلات راودته عن نفسها. وطلبته أكثر من مرة ورفض لأنه لا يخلط بين العمل والرغبات الجنسية فتسببت في طرده من العمـل. فقرر أن يحـترف هذه الـوظيفة يسـاعده عـلى القيام بهـا مـلابس العمـل التي احتفظ بها منذ ان كان في الفندق. عباءة مغربيـة ولباس رأس هنـدي. وسروال من إيرا ن وبلغة من المغـرب وعقال سعـودي كان يسمي كـل الملابس التي معه عدة الشغل.

عندما كان يحكي قصة المرأة التي رغبته لحد الجنون. يضحكـون منه في سرهم. ويتصـورون أنه يكـذب. معـرفتـه بـأكـثر من لغـة ورطنـة باللسان. والملابس التي احضرها معه. أكدت بالفعل أنه كان يعمل في فنـدق ما. حضر الى مـدينة المـوتى بعد طـرده من العمـل مبـاشرة فقـد الوظيفة والسكن في يوم واحد. فقد كان يسكن في حجـرة فوق أسـطح الفندق ويخصم أجرها من مرتبه. ضاقت الدنيا في وجهه. فشد الرحال الى عـالم الموتى. سلمـه سمسار لحـانوتي. لحـارس مـدفن الى أن وجـد حجرة في مقبرة صغيرة رقيقة الحال. استأجرها من الحارس.

كـانت بالقـرب من سكن عائلة المليـونير. كـان حضوره غـريباً أول

ساكن يطرق دنيا الموتى. ولا يوجد معه عفش أو أثاث وليس لديه قصة بيت سقط فجأة أو منزل أزيل في التنظيم. لفت نظرهم انه وحيد. لا زوجة ولا ولد. أفندي أنيق ابن ناس قسا عليه الدهر. وأنهكه الزمان.. قال المليونير ان وراءه سراً ما.. ما من أحد يحضر الى مدينة الموتى الا ووراءه قصة ما. ما من أحد يحضر الى هنا برغبته. المجانين وحدهم هم الذين يحضرون بمفردهم.. ربما كان هارباً من قضية ثأر من الصعيد.

الاستاذ أكد ان الجار الجديد مدرس آثار أو باحث تاريخي أو عالم اجتماع أو ربما كان مستشرقاً يعد دراسة عن الحياة وسط مدينة الموتى.. كيف يتحول الانسان الى ميت وقلبه ينبض في صدره.

كيف يوصل اليأس والاحباط الانسان الى حالة فقدان الرغبة في مواصلة الحياة. العبقري أكد انه مندوب من المحافظة. مطلوب منه عمل احصاء عن سكان القبور. عددهم وسبب وجودهم هنا. وذلك تمهيداً لتدبير مساكن لهم لترحيلهم من هنا.

قال العبقري انه عرف ذلك بوسائله الخاصة.. ذلك ان مستثمراً أجنبياً تقدم الى الحكومة بطلب رسمي لشراء منطقة المقابر كلها. ستقام مكانها مدينة ملاهي على أحدث طراز.. بجوارها منطقة حرة. وسيتم نقل مدينة الموتى الى مساكن جديدة تدبرها الدولة. أما عظام الموتى فستنقل الى مقابر أخرى تقام في مدينة نصر. في الصحارى الواسعة. الهانم أكدت انه مخرج سينمائي. تعرفه هي. شاهدت صورته من قبل. انه يحضر لعمل فيلم عن حياة الذين يعيشون هنا. وخوفاً من الضجة فضل أن يحضر بهذه الصورة المتنكرة. عاش الملك أقسم لهم انه ضابط مباحث متخفي حضر لمحاربة بيوت الدعارة وأوكار القمار ومراكز توزيع المخدرات ومكاتب بيع عظام الموتى المنتشرة داخل المدينة.

أوصاهم بالحذر منه لأبعد الحدود. لا أحد في العائلة يفعل ما يعاقب عليه القانون. ولكن الاحتياط واجب.

عندما تعرف عليه المليونير. طارت في الهواء كل الأساطير التي نسجوها حول الغريب. نقل المليونير الحكاية للعائلة واستراحت أنفسهم. الرجل بدون عمل. ولا دخل له. ومعه مبلغ مدخر ينفق منه لحين العثور على عمل جديد.

في الأيام التالية راقبوا التغييرات التي طرأت عليه. لدى الانسان قدرة فريدة على التكيف مع أي واقع جديد. تسللت الى حياة الغريب الأعزب تغييرات جديدة.

في يوم حضوره لأول مرة كان يبدو ابن باشا. جلد الوجه مشدود وناعم. الشعر أسود فاحم يبدو لامعاً. على العينين نظارة غامقة اللون. الملابس مكوية. يشرب من فوقها العصفور. الأيام أدخلته دائرة الموتى الأحياء من السكان. طالت ذقنه. وتكرمشت ملابسه. وضاع التأنق الذي حضر به. فقد احساسه بالوقت.

ساعده المليونير فقبل كل المساعدات شاكراً. ضاق المكان بينه وبين المليونير. زحف قاطعاً المسافة بين القبر والقبر في حوالي ثلاثة أشهر. لا يعرف أحد هل هو الذي طلب الزواج من ملكة الجمال. أم أن المليونير هو الذي طلبها له. الاستاذ قال معلقاً على الزواج.

ان الرجل الغريب وقع وثيقة استسلامه الأخير أمام دنيا المقابر. وان وثيقة زواجه هي شهادة الوفاة الخاصة به.

لن يخرج من هنا أبداً. سكان البيوت ينتظرون الخروج الأخير في رحلتهم من البيت الى القبر. أما هنا. في مدينة الموتى. فالرحلة فركة كعب من الغرفة الى أي مكان في الأزقة والحواري يمكن تحويله الى قبر لمن لا قبر له. لا تتعدى خطوات محدودة. المفارقات في مدينة الموتى

كثيرة وبلا حدود. من حق الأحياء السكان الاقامة في الغرف الملحقة بالمقابر طوال حياتهم. بعد الموت يصبح من الصعب الانتقال من الغرف الى القبور. لأن للقبور أصحابها وفيها موتاهم. الحراس والحانوتية وجدوا حلاً للمشكلة. في الحواري والشوارع والأزقة. توجد مساحات فراغ. يبدو أن المدينة نشأت في أيام الرخاء. هذه المساحات تقام فيها مقابر مؤقتة لمن يموت من سكان المدينة الصامتة. تزوج الغريب من ملكة الجمال.

كان من المفروض ان يعيش في قبره الصغير المقابل لقبر المليونير. ولكن الحياة أصبحت صعبة. كل شيء أصبح غالي الثمن الا الانسان.. اشتد الاقبال على المدينة.. وتسللت الى دنيا المقابر لعنات آتية من الناحية الأخرى من العالم. من سكان البيوت الثابتة. سمع الناس مفردات الخلو والمقدم ورفع الايجار أكثر من مرة. فكر المليونير في الغرفة المقابلة له. والتي يقيم فيها الأفندي الغريب. الذي أصبح زوجاً لابنته.. لماذا لا يؤجر ويستفيد من الخلو والمقدم.. والفارق بين ايجارها الذي يدفعه حالياً.. والايجار الذي سيحصل عليه من السكان.

انتقلت الأسرة الجديدة وأصبحت جزءاً من الأسرة القديمة.. بعد الزواج تعود الأفندي الجديد النزول.. له أكثر من عمل.. معه دليل قاهري خاص به.. مكتوب بخط يده.. فيه بيان بكل الشقق التي تؤجر مفروشة.. فنادق القاهرة من كل الدرجات. وحتى اللوكاندات التي تؤجر بالساعة. العائلات الغنية التي تؤجر سياراتها الفاخرة لاغنياء السياح. أصحاب الفيللات والقصور الذين يتنازلون عنها للسياح العرب مقابل هدايا رمزية. عناوين شغالات. فتيات يعملن سكرتيرات للسياح ومرافقات للاشقاء العرب. تليفونات أصحاب

شاليهات في الضواحي. معه كل ما يهم السائح. ليس أي سائح. ولكن السائح الذي يجلس فوق تل من المال. بيانات كثيرة معه. يحملها معه أينما اتجه وحيثما ذهب. وعندما تخف حركة السياحة. يعمل في قراءة الغيب. يلف ويدور على المقاهي. ويذهب الى الحدائق العامة يقرأ الغيب لك مقابل ما معك. ينزل في السابعة صباحاً. ولا يعود الا في منتصف الليل. لا يعرف في الصباح ما ينتظره طوال اليوم من مفاجآت. يسلم نفسه للمدينة القاسية. لتفعل به ما تشاء.

يقول وهو خارج. انه لا يدري الى أين يقوده رزقه ويناديه نصيبه. قد يذهب الى المطار. . يسافر الى الاسكندرية. . يطير الى اسوان. البلد كلها فرصة سانحة للرزق وشعار هذه المرحلة معروف. من يريد أن يحصل على مليون جنيه في اليوم. لن يعترض أحد عليه. لن يسأله أحد عن مصدر المال. ما دامت الغاية هي المكسب. أنت حر. افعل ما تشاء. ومن ينظر اليك حاقد ومن يتكلم عنك موتور. ومن ينتقدك جائع. المصريون أحرار حرية مطلقة. في البداية لم يسترح أفراد العائلة لهذا التعدد في الوظائف. غضب المليونير من حكاية عناوين النساء. وتليفونات البعض منهن. غضب الأفندي. وقال انه عمله وهو حر فيه.

لقد تزوج وملكة الجمال حامل. وفي الطريق اليه طفل. ومن الآن يجب الاتفاق على انه حر في حياته. أسموه دليل القاهرة المتحرك. سعد جداً باللقب الجديد. وفتح قلبه لهم. أخذ ملكة الجمال وسافر الى أهله. عمال في المحلة الكبرى. عاد ومعه هدايا لا تحصى ولا تعد. أصبح مصدر فخر للعائلة كلها. دخله ضخم ولسانه يرطن بالكثير من لغات الدنيا. وان كان أحداً لا يجرؤ على النطق باسم وظيفته.

ورغم المضايقات لم يفكر هو في ترك البيت. ربما وصلت امكانياته في

بعض الأحيان لدرجة القدرة على تأجير بيت خاص به في إحدى الضواحي البعيدة عن العمران. . الألفة التي تكونت بينه وبين العائلة منعته من التفكير في ذلك. نادراً ما كان يمكث في البيت. لا يستريح من العمل. ويعود آخر الليل محملاً بكل ما يستطيع الحصول عليه. له ولزوجته ولكل أفراد العائلة.

وأهم ما كان يحمله حكايات لا أول لها ولا آخر تؤكد لهم كل ليلة أن الدنيا تحت تتغير. بلد جديد يخرج من الغيب وتتضح معالمه في كل وقت. بلد غريب على كل منهم. وعندما يسمعون حكايات الشقق المفروشة والسياح والأثرياء العرب. وقائع مصر الأخرى. مصر السابحة في النور. الراقدة فوق بحار الذهب. الممتلئة بالشبع. اللاهية لحافة الفجور. كانوا ينظرون الى صمت القبور وظلامها. يتذكرون أن بعض سكان القبور ينامون بدون طعام. يقولون ان ساكن القبر الثالث بعدهم ينبش في صفيحة زبالتهم. وأخرج من يومين ثلاثة أرغفة تغطيها طبقة من العفن. سخنها على النار وأكلها هو وأولاده. لأن الجوع جعل النوم مستحيلاً بالنسبة لهم.

ان حكايات الدليل المتحرك تجعلهم ينظرون بتحديد أكثر لأطفالهم الصغار. ويصيبهم فزع حقيقي. رعب. خوف. مشاعر متضاربة كثيرة في هدأة الليل.

يتساءل المليونير: هل سيتعلم هؤلاء الأطفال. . كيف؟ وفي أي زمن؟ لقد وجد المليونير قبراً يعيش فيه. في زمن هؤلاء لن يوجد هذا القبر لمن يموت. يتدخل الاستاذ في اللحظات الحارة والحزينة من النقاش ويتساءل.

ـ الى أين تسير مصر؟

يطلبون منه السكوت. من رأى بلاوي الناس تهون عليه مصيبته.

يحاول شرح فكرته لهم. يسكتونه بالقوة. وفي آخر الليل يقترب الأستاذ من الدليل المتحرك يكرر الحديث عن مشروعهما المشترك. الاستاذ لديه رغبة في تدوين مذكرات ويوميات ومشاهدات الدليل المتحرك. سيكون كتاباً له أكبر قدر من الاثارة في الربع الأخير من القرن العشرين. كتاب ضخم عنوانه: «مدينة مصر. . عشرة ملايين وجه لمدينة واحدة». . يشرح فكرته.

انه يرى ان القاهرة هي مصر كلها ولا يوجد خارج القاهرة شيء آخر اسمه مصر. وان مدينة مصر. والتي تسمى خطأ بالقاهرة. لها عشرة ملايين وجه. بعدد البشر الذين يسكنون هذه المدينة. والكتاب سيكون على شكل رحلة. تبدأ من القبر. تتحرك الدليل في الصباح. وينتهي الى القبر أيضاً. في الصباح ينزل الدليل من فوق جبال الدراسة. باحثاً عن الرزق. وفي الوقت نفسه يتحرك جثمان أحد الأثرياء الذين ماتوا في الزمالك. متجهاً الى الدراسة. الطريق واحد. وهو شارع فؤاد باشا المسمى سراً بـ ٢٦ يوليو. ساكن الزمالك مات لأنه ضاجع في ليلة الأمس ألف امرأة. وقرر أن يضاجعهن مرة واحدة وفي ليلة واحدة. أكل حتى وقف على أظافره. وشرب حتى حلق في سماوات الوهم والجمال والأسطورة.

وأخذ المنشطات الجنسية والحبوب المخدرة والدهون. دلك جسمه بالطيب. وقبل أن يبدأ رحلته مع الجريمة. تاقت نفسه لمشاهدة مضاجعة أمامه. أرسل في طلب صديق له يفعل هذه الحكاية أمامه كثيراً. وقبل أن يحضر الصديق كان الثري قد مات. يلتقي الدليل المتحرك مع الجثمان في منتصف الطريق. في ميدان الاسعاف. . اسعاف من؟ يقول الاستاذ انه سيفرد هنا فصلاً عنوانه: اسعاف من؟ الثري الذي ترك ألف امرأة في انتظار المضاجعة المجنونة التي لن تتم.

أم الـدليل البشري المتحـرك المستعد لعمـل كل مـا يطلب منـه مقابـل القرش.

يؤكد الأستاذ انـه سيلحق بالـرواية فصـلاً أخيراً عبـارة عن قامـوس العصر. فيه المفردات الجديدة التي أصبحت تطير في سماء مديـنة مصر. ولهـا طنـين مثـل طنـين النحـل. سيكتب: عقـد الستينيـات اللعـين. الأحداث التالية جرت في زمن الهزيمة. وراء الشمس. أخلاق القريـة. أخلاق مصر. الحب. المحبة. العائلة المصرية. شقة للايجار بالسـاعة. العمـل المكثف. رجـل لـلايجـار بـأي ثمن. سكـان القبــور. سكـان القصور. عودة اسم مصر وعلم مصر. القناعة كنز لا يفنى.

ان الرجل الذي يمشي على قـدميه. لـديه كـبرياء سبعـة آلاف عام. وراكب السيارة لا كبرياء لديه.

ان أسوأ خطأ يقع فيه الفقير أن يحاول أن يكـون غنياً. دعـوا الناس تكسب بـلا حدود. صـالح الفـرد وصالـح المجتمع. دعـونـا نسرق في هـدوء.. دعونـا نسرق في هدوء. دعـونا نسرق في هـدوء. دعـونـا نسرق في هدوء. العيب. القيم. مصر مصرية لا شرقية ولا غربية. لن نسمح بأي عائق يمنع تدفق السياح الى بلادنا.

القاعدة هي الانفتاح.. وأي استثناء يعد خروجـاً عليها.. الـرخاء قـادم. بعـد عـامـين فقط من الآن. الحــريـة. الحــريـة. الحــريـة. الديمقراطية. الرخاء. العدل التـام. السلطة الأولى. الثانيـة. الثالثـة. الـرابعة. الخـامسة. السـادسة. اكسب كـما تحب وبـأي وسيلة تـرى. ولكن لا تقع تحت سيادة القانون. سـأفتح حـواراً شعبياً لكـل الناس. ولأنه حوار شعبي ستمنـع الفئات الآتيـة من الاشتراك في الحـوار. حتى يثبتوا مصريتهم. باحضار شهادات جنسية مصرية.. طلب من الدليل المتحرك الصبر والتريث. كل يوم يحمل معه الجديد. وكل جـديد يلغي

ما قبله. ان جعبة الحاوي المصري وجرابه ما زالت مليئة بكل الغرائب والعجائب. الانتظار مطلوب. ولكن الاستاذ يخشى أن ينقضي العمر كله قبل تدوين هذا الكتاب الهام. يطمئنه الدليل المتحرك. ولكن الاستاذ يصل معه الى اقتراح هام.

ان الدليل لديه جهاز تسجيل صغير جداً. يمكن اخفاؤه في أحد جيوبه الداخلية. ويفتحه طول النهار.. يدور الشريط في المواقف التي تستحق التسجيل فقط. أما المواقف العادية. فلا داعي للتسجيل. كل نصف ساعة يقلب الشريط. وبعد انتهائه يبدله. آخر كل يوم سيقوم الاستاذ بتفريغ هذه الشرائط. انها مادة وثائقية شديدة الخطورة بالنسبة لمدينة مصر في هذه الأيام. العجيبة. فرح الدليل المتحرك للعبة وتساءل:

ـ لماذا تسمى الأيام عجيبة وغريبة ولم تحدث من قبل.. لست وحدك الذي تقول هذا. ولكني أسمع هذه الكلمات من كل الناس.

سعد الاستاذ لأنه وجد هذه الفرصة ليتكلم. قال.

ـ أنا صغير السن نسبياً. جيلك عاصر ثلاثة عهود. الملك والثورة وهذه الأيام. من السهل الحديث عن العهد الأول والثاني. كانت الأمور واضحة والمسائل محددة. ودوائر الصراع مرسومة بخيوط يراها الكل. أما في هذه الأيام. فأنا أطلب منك النزول.. أن تلف أركان مصر الأربعة.. تبحث عمن يفهم حدود الصراع الدائر. انك لن تجد هذا الشخص. وان عثرت عليه. سيكون ذلك احدى المعجزات.

من جديد يقول الدليل المتحرك انه نفسه لا يفهم ما يجري. ومن الصعب ان يقول انه مع هذه الجهة أو ضد تلك. ولكنه يعد الاستاذ بالبحث عن هذا الشخص. يختم الاستاذ حديثه:

ـ انه ليس شخصاً عادياً. انه نبي.

وحتى عندما ستجده من يحل مشاكل من؟ من يحل اللغز القديم. الذي عمره سبعة آلاف عام من عمر الزمان. لن يستطيع أحد حل هذا اللغز أبداً. مهما كانت الظروف.

الوجوه الشاحبة:

من الناحية الاحصائية البحتة.. في الرواية ست عشرة شخصية.. وهذا معناه. انه لا يزال باق أمامنا بعض الأشخاص لم نتكلم عنهم بعد. والعدل يتطلب منا المرور ولو بشكل عابر على باقي الذين ليسوا أبطالاً. ولكن ما العمل والحياة نفسها لا تساوي بين بني البشر. ان المساواة بشكل مطلق بين بني البشر وهم قد يبدو مضحكاً في بعض الأحيان لا بد من التفرقة بين شخص وآخر بصرف النظر عن الحياة نفسها وظروفها. وعن الظلم والعدل. سيكون المقياس هنا ما يخدم غرض الروائي. والفارق بين شخص وآخر هو ما يقدمه للروائي من خدمات. ليكن هذا الفارق هو الحيوية والقدرة على التألق الداخلي هما الفيصل.

وسيقسم الكاتب شخوص روايته الى درجات. تبدأ من الحيوية والتألق الداخلي تجاه الواقع وتنتهي عند بلادة الذهن والخمول والتوهان ازاء الأحداث اليومية.

من الصعب تصنيف البشر في خانات خاصة بهم. وثمة استحالة في وضع فردين في خانة واحدة. ولكن المؤلف قسم الناس درجات. ولهذا فهو يستأذن القارىء في أن يتوقف عند هذا الحد في تقديمه لمعرض الوجوه البشرية التعسة في الأسرة. بعض الوجوه الأخرى سيقدمها بسرعة. لأنه مطلوب الانتهاء من الأمر كله على وجه السرعة خوفاً من انصراف القارىء عن الرواية. ما من شيء قادر على جذب انتباه أحد واخراجه من الاغراق اللامحدود في بحار الاستهلاك اليومي سوى المثير

من الأمور والفضائح والحكايات. لنقدم الباقين الآن.

وقبل التقديم. فإن المؤلف يقول ان هناك شخصاً واحداً يطلب استثناءه لأنه سيخصص له فصلاً كاملاً فيما بعد وهو الاستاذ، هو الذي يحمل رقم (٥) في شجرة العائلة. . تبقى كلمة حول الباقين. وقبل تقديمهم لا بد من الاجابة على سؤال: لماذا ظلموا في طريقة تقديمهم؟ الواقع أنه لا ظلم هناك. حياتهم شاحبة. وقائع الحياة بالنسبة لهم جملة واحدة ممطوطة وممتدة بلا نهاية. تخلو من الحوادث الهامة والمفاجآت الخطرة والحكايات المفجعة أو المضحكة. الحديث عنهم ثرثرة لا تعرف نقطة البدء أو لحظة الإنتهاء. قد نلتقي بهذه الشخصيات من جديد. وفي أماكن أخرى من الرواية. وهذه الشخصيات هي:

ملكة الجمال: وتحمل رقم (٤) في شجرة العائلة. زوجة الدليل المتحرك. عندما ولدت لم يكن بها أي أثر للجمال. ويبدو أن هذا هو سبب اصرار والدها على أن يسميها ملكة الجمال. . وبمجرد أن طلب منه اختيار اسم رسمي لها قال: «جل الخالق» وأكد في حزن مفاجىء انه اسم والدته. التي لم يرها أحد منهم. لم تذهب ملكة الجمال الى المدرسة وظلت في البيت الى أن تزوجت من الدليل المتحرك. وكان يحزنها ان أحداً لم يكن يناديها بالاسم الذي تحبه وهو جل الخالق. وأصروا على مناداتها بالاسم الذي يذكرها بأزمتها الخاصة.

وريثة العرش: زوجة عباس الأوسط. تحمل رقم (١١) في شجرة العائلة. والعرش الذي سترثه هو عرش الست الكبيرة. وهذا لن يحدث الا بعد حصول عباس الأوسط (الباشا) على لقب عباس الأكبر (المليونير). ويصبح هو المسئول عن العائلة كلها. الزمن الباقي لا يزال طويلاً. ولن يكون هو المسئول الا بعد وفاة المليونير أو اعتزاله العمل. برغبته الكاملة.

فريق المجمعات:

لدينا في الرواية أطفال. وهم ليسوا من الوجوه الشاحبة. إنه لأمر طريف أن نتحدث عن تفتح الحياة وسط الموت. وانبثاقها من بين طيات العدم. لا أحد يتصور معنى أن تكون أول مفردات الحياة هي الموت نفسه. أن يكون أول ما يسمعه الطفل هو البكاء والصراخ والعويل. وأول ما يفتح عليه عينيه هو الأجساد الملفوفة في القماش الأبيض. تنزل من صناديق سوداء. وتخرج الصناديق من قلب سيارات سوداء. ثم تنحدر الأجساد إلى قلب فتحة سوداء في باطن الأرض. تبتلعها في صمت مخيف.

وتظل فاتحة فمها تطلب المزيد. وأن تكون أول الروائح التي تصل إلى أنف الطفل مع تباشير الحياة هي رائحة العفن الناتجة عن تحلل الجسم البشري. وأن يلعب الطفل فتعثر أصابعه الطرية على جزء من جمجمة أو قطعة من أصبع بشري. وأن تكون المقابر لهم بالنهار فقط. وفي الليل لها سكانها من الأرواح والجن والعفاريت، وأن يسمع الطفل عن سرقات من نوع آخر. لص يسرق طاقم أسنان ذهبية من متوفى دفن الأسبوع الماضي. لص سرق هيكلاً عظمياً من المقبرة القريبة. ضبط تاجر يبيع جمجمة وعموداً فقرياً لطالب طب. حكايات. عالم غريب. إن مجرد بدء الحياة فيه، أمر يدعو لرفض الحياة نفسها. بكل ما فيها.

الدليل المتنقل وملكة الجمال لهما طفلان. الأكبر رقمه (١٢) في شجرة العائلة ولقبه الشبعان. والأصغر ورقمه (١٣) ولقبه الغني.

عباس الأوسط (الباشا) أنجب من زوجته ريشة العرش طفلين. الأول ورقمه (١٤) ولقبه عباس الأصغر. وقد تنازل المليونير ومنحه لقب البليونير. الذي ولد بعده كان ولداً. سماه عباس الأكبر الزعيم. ورقمه في أفراد العائلة (١٥).

وقد قصد عباس الأكبر من هذا أن يفرق بين المهام المطلوبة في العائلة. حتى لا تحدث خلافات بينهم في المستقبل. ولهذا فإن واحداً خاصاً بالمال والآخر له السيادة والحكم على العائلة في المستقبل البعيد بإذن الله. حتى هؤلاء لهم وظائف. وإن تكن غير هامة إلا أن المليونير عينهم فيها. لأن لديه شعاراً يقول: أن اليد البطالة لا يطهرها سوى العمل. ليس مهما أي عمل. لأن تلك من شعارات العصر. المهم أن يعمل فقط.

الوظيفة التي عين المليونير الأطفال فيها لا تخص شخصاً واحداً في العائلة. ولكنها تعد العمل الدائم لكل الأطفال والصبية. كان تفكير المليونير في البداية أن يذهبوا إلى المدارس ويتعلموا ولكن تجربته مع الأستاذ أكدت له أنه كلما زاد تعليم الإبن. حتى زاد ابتعاده عنهم. العلم حاجز يفصل بين الأصل والفروع. بين الجذر الأساسي والسيقان التي تنبت منه. وهكذا اقتنع المليونير وعندما خرج إلى الحياة الجيل الثالث من العائلة. فكر طويلاً. في عمل يسنده لأبناء هذا الجيل يضمن ولاءهم للعائلة. فكر طويلاً. لا يمكن ترك أربعة أفواه في العائلة تأكل دون أن تقدم دخلاً للبيت. والرجل يخشى الفراغ على الجيل الجديد. الذي سيضمن له استمرار العائلة مستقبلاً. قلب الأمر في ذهنه. ولكنه لم يصل إلى نتيجة حاسمة.

ذات مرة وهو يمر أمام جمعية. كان الطابور طويلاً. ترى العين نقطة البداية. أما نهايته فلا تستطيع عين أن ترى آخره.

وقف الرجل. الهدف من وقفته كان مشاهدة نهاية الطابور. ضيق عينيه وحاول الرؤية. عيناه لم تسعفاه. قال لنفسه في حسرة: إنه الزمن الذي يفعل الأعاجيب بالناس.

قبل أن يستدير ويمضي في طريقه لفت نظره وجود جزء كبير في

منتصف الطابور منخفض جداً. قريب من الأرض. أطفال لم يتعدوا العاشرة من العمر. تفرس في وجوههم. هل أرسلهم أهلهم. الملامح قريبة من بعضها. تقول إنها ملامح أخوة من بيت واحد.

لا يدري كيف تبلورت الفكرة في ذهنه. صحيح أنها لم تنبثق في الذهن مرة واحدة. ولكنها استدارت وأخذت شكلها الكامل ببطء شديد.

الرجل يتذكر جيداً أنه كان بحاجة إلى أربعة أيام حتى تأخذ الفكرة شكلها النهائي. فما المانع من وقوف الغني والشبعان في طوابير الجمعيات القريبة منهم من الصباح وحتى المساء. في البداية يكون الوقوف في الجمعيات القريبة جداً. ثم تتوسع المسألة إلى الضواحي. من الثابت وجود ثلاثة مجمعات إستهلاكية في منطقة الدراسة وسيارة واقفة. ولكن لا أحد يعرف عدد الجمعيات في المناطق المحيطة بهم. في العتبة والعباسية.

شرح للأطفال الأربعة المطلوب منهم. المطلوب هو الذهاب إلى الجمعيات. مع بعضهم البعض. ممنوع العمل منفرداً مهما كانت الظروف. ربما حدثت معركة. ربما اكتشف مدير الجمعية أمرهم. فأبلغ عنهم مباحث التموين. وفي هذه الحالة يعود الباقي منهم ليبلغ المليونير حتى يعمل اللازم فوراً.

الحياة ضاقت بالناس وفي هذه الأيام. في كل مكان مشاكله الخاصة. . والجماعية في الحركة هي الحل الوحيد. . كان هناك سبب آخر لإصرار المليونير أن يعمل الأربعة مع بعضهم. وهو أن يشكلوا رقابة على أنفسهم. لأن الأموال ستجري في أيدي الأولاد. وهي أول مرة يتعاملون فيها مع النقود. وربما وقع البعض منهم في شراك الشوارع المليئة بالبضائع. . ففكر في شراء شيء لنفسه.

وهنا تكون بداية انفصاله عن العائلة. وسيكون عالماً خاصاً به. الرقابة الجماعية هي الحل الوحيد. كل واحد سيكون رقيباً على الثلاثة الآخرين. وقد طلب المليونير من كل واحد أن يكون رقيباً على الثلاثة الآخرين. وأكد له أن ذلك سر هام وخطير بينهما وأنه لا يجب أن يقوله للآخرين مهما كانت الظروف.

وهكذا انطلق الأطفال الأربعة ذات صباح ومعهم المليونير إلى أقرب مجمع. اليوم الأول كان الهدف منه هو التدريب العملي.

شرح لهم المطلوب منهم في العمل فقط. أما العمل نفسه فسيكون ابتداء من الغد.

كل طفل كان لديه إحساس بأنه أهم من الثلاثة الآخرين وأنه مؤتمن على سر خاص. لم يحظ بمثله الثلاثة الآخرون.. التعليمات كانت كالتالي: يذهب أي طفل ويقف بالقرب من الجمعية. أحياناً يحضر إلى الجمعية موظف ليس لديه وقت.. يعرف الطفل ذلك من كثرة نظره في ساعته. وقلقه في وقفته.

في هذه الحالة يتقدم منه الطفل بأدب شديد. ويعرض عليه أن يقوم بشراء اللازم له من الجمعية. في وقت أقصر. يفهمه أنه يعرف العاملين في الجمعية. وبعد أن يأخذ منه النقود. يخبره أنه سيحصل على ٢٥٪ من الثمن. أي أن كل بضاعة يصل ثمنها إلى جنيه سيأخذ هو ربع جنيه له نظير إحضارها. ويجب أن يحصل على هذه النسبة أولاً.

وهذا ليس معناه أن هذه النسبة قرآن منزل. إن صادف موظفاً بخيلاً أو آخر ممسكاً. أو ثالثاً من النوع الذي يبكي على الدنيا لا مانع من الحصول على مبلغ أقل. والمسألة في النهاية حسب قواعد العرض والطلب. هناك نوع ثان من الأفندية. يتأففون من الوقوف في الطوابير. وهؤلاء يرتدون ملابس نظيفة جداً.. ومعتنى بها إلى أبعد

الحدود. وإحساسهم بأنفسهم متضخم جداً. ويتصورون أنفسهم أحسن من باقي خلق الله. . ومن الممكن زيادة المبلغ معهم. . لأن الدفع بالنسبة لهم مظهر يحرصون عليه. . والبعض منهم قد يدفع مائة في المائة. بمعنى أنه ليس لديه مانع أن يشتري من الجمعية بجنيه ويترك لك الجنيه الآخر. يليهم نوع ثالث. وهم الذين يفضلون الشراء من الجمعية وهم جلوس في سياراتهم. وهؤلاء يمكن الزيادة عليهم في السعر بلا حدود. لأنهم يعتبرون أن شراء حاجاتهم وهم في داخل السيارة امتياز لا يحصل عليه كل الناس.

أما ربات البيوت فهن أنواع. . ربة البيت الموظفة أولهن. . لأنها تشتري ما تريد إما وهي في طريقها إلى العمل. أو العودة منه. أو تزوغ من العمل عشر دقائق بحجة الذهاب إلى دورة المياه وتشتري ما تريده خلال هذا الوقت. وهي لهذا تحتاج لمن يشتري لها.

الزوجة الخائنة في حاجة إلى من يشتري لها. لأنها تنزل من البيت بحجة الذهاب إلى الجمعية وتعود بعد خمس ساعات ولديها العذر الكافي. كانت واقفة طوال هذا الوقت في الطوابير. وهي تريد الحصول على ما تريده في نصف دقيقة. حتى تقضي الساعات الخمس مع العشيق. ومن الممكن معرفتها من تخفيها ومن اضطرابها ونظراتها الخائفة الموزعة في كل اتجاه. وعدم استقرارها في وقفتها وملابسها المعتنى بها بشكل ملفت للنظر. يلي كل هؤلاء التجار وأصحاب محلات البقالة والدلالات.

وهؤلاء من السهل معرفتهم. وإن كان التعامل معهم خطراً لأنهم عادة يكونون مراقبين من قبل مباحث التموين. تبقى أهم القضايا وهي كيفية الصرف بسرعة وسط الزحام الشديد في الجمعيات. هناك أكثر من طريقة. وكل عقدة لها حلال. إما أن يندس وسط أقدام

الواقفين ويدعي أنه كان واقفاً هنا. وفي هذه الحالة يختار أقرب مكان إلى المسئول عن الصرف ويتعارك من أجل البقاء في مكانه المتقدم.

الطريقة الثانية هي عقد صداقات مع العاملين في الجمعية كأن يقول لأحدهم مثلاً. أمي بتسلم عليك وترجوك أن تسهل لي الحصول على كذا. لن يسأله العامل عن أمه. قد يتصور أن في الأمر حالة إعجاب طارئة وحباً عابراً. أو أن يبكي ويقول إنه يتيم الأب والأم وإخوته الصغار يقيمون في القبر في انتظار عودته إليهم.

وفي هذه الحالة سترق قلوبهم له ويجد أكثر من شخص مستعداً لتقديم الخدمات إليه. تلك كلها تنفذ في حالة وجود المشتري وأمواله. وإذا لم يوجد على الأطفال شراء بعض البضاعة من الجمعية. وسيعطيهم المليونير أموالاً معهم من أجل هذا. ثم يقفون بالقرب من الجمعية وذلك لبيعها بأغلى من الأثمان لمن يذهبون إلى الجمعية وإن ضبطه واحد من مباحث التموين يبكي ويقول إن أمه أرسلته في طلب. ولكنه تعب من الوقوف في طابور الجمعية وعندما أتى الدور عليه أخطأ واشترى شيئاً غير الذي أرسلته أمه في طلبه. وإن عاد إلى البيت ومعه بضاعة غير التي حضر لشرائها. لا يعرف إلا الله ما يمكن أن يحدث له. ستضربه أمه وسيضربه أبوه. ولهذا وقف ليبيع ما معه.

كانت تعليمات المليونير واضحة جداً. يشتري أي شيء من الجمعية. ويحاول بيعه بالقرب من الجمعية وإن فشل في بيعه يعود به إلى مدينة الموتى والمليونير قادر على بيعه فيها.

أزمة التموين جعلت بيع أي تموين مسألة سهلة جداً.. الجمعيات تفتح أبوابها في التاسعة صباحاً. ولهذا يجب أن يكونوا أمام بابها من الثامنة والنصف. ثم تغلق أبوابها في الثالثة وتفتح مرة أخرى في الخامسة والنصف وحتى الثامنة مساء.. ولكنهم يجب عليهم البقاء

أمامها من لحظة الذهاب صباحاً حتى إغلاق الباب مساءً. ومن الممكن أن يعرفوا نوعية البضاعة النادرة التي تعرض في الجمعيات فقط. وفي هذه الحالة يشترون أكبر قدر منها.

وسيقوم المليونير بإبلاغهم قبل ذلك بيوم. فالبضائع الهامة والنادرة معروفة. عموها هناك مواد فيها أزمات استراتيجية. أي طوال أيام العام هي: الأرز والكبريت والسكر والزيت والدجاج الرخيص المدعم. أما الدجاج الأمريكاني ودجاج الإسماعيلية إياه فهو غالي الثمن ولن يشتريه أحد. السمك الرخيص المدعم والذي يباع بـ ١٢ قرشاً للكيلو هام جداً. والإقبال عليه مسألة مؤكدة. المهم أن كل المواد التموينية التي أصبح ممنوعاً على البقال العادي بيعها تعد من المواد الهامة. حذرهم من النشالين والمحتالين. قال لهم: إن ربع الذين يقفون أمام الجمعيات من النشالين والمحتالين. أما الثلاثة أرباع الأخرى فمن التجار والسماسرة.

١٦ ـ انتصار أم انكسار:

لا يمكن القول إنها آخر العنقود. فالأسرة ما زال أمامها أيام مليئة بالإنجاب. والذين تزوجوا من الأسرة قلة. والكثرة هي التي لم تتزوج بعد. ولكن الطفلة التي نتحدث عنها ولدت قبل الحكم في القضية التي رفعها على الأسرة صاحب المقبرة التي تعيش فيها. كانت القضية قد حجزت لتقديم مذكرات خلال أسبوع. . والحكم خلال أسبوعين. الأسرة وكلت محامياً وذلك بالإضافة إلى محاميها الخاص.

صحيح أنه ما زال طالباً في كلية الحقوق ورموش عينيه تآكلت من كثرة القراءة ويضع على عينيه نظارة طبية وليس من حقه حضور الجلسات ولكن من حقه تقديم مذكرة للمحكمة. داخل حافظة عليها إسم المحامي الأصلي. صاحب المقبرة كان قد وكل مجموعة من المحامين

يصعب عـدهم أو حصرهم. صباح يـوم الجلسة التي خصصت للنـطق بالحكم ولدت زوجة الباشـا. كان لـدى الباشـا طفلان وهـذه هي المرة الثالثة التي تلد فيها. الباشا كان يتمنى أن تكون بنتاً.

ولكن المليونير لم يكن يحب كـثرة البنات في العـائلة.. وتمنى في نفسه أن يكون ولداً. على باب القبر سألتـه الست الكبيرة عن إسم المـولودة، كـاد أن يرد عـلى الفور. ويبـدو أنه فكـر في إسم. ولكنه وقف وفكـر. وطال به التفكير. ثم قال لزوجته:

ـ انتظري حتى نعود من المحكمة.

وضـع يده عـلى كتف الأستـاذ وسـار. قـال لـه إن كسبـوا القضيـة سيسميها انتصار.. وإن خسروها.. أكمل الأستاذ:

هزيمة..

لم تعجب الكلمة المليونـير. بحث الأستاذ عن كلمـة أخرى في ذهنه، وقال:

ـ لا.. انكسار.. لتكون على وزن انتصار.. ما دامت هي المقابـل للكلمة.

ذهبا إلى المحكمة.. وهناك جرى كلام كثير.. فهمه الأستاذ فقط. وكـان يحاول في بعض الأحيـان نقل مفهـوم الكلمات إلى الـوالـد.. ثم رفعت الجلسـة للمداولة. وبعد المداولة. صـدر الحكم. وعنـدمـا عـاد المليونير.. سألته الست المديرة بلهفة.. نظر لها وقال:

ـ انكسار.

ففهمت العائلة كلها الأمر دونما كلمات.

٨

استطراد أخير

يعد المؤلف قارئه أن يكون هذا الإستطراد هو الأخير فعلاً تليه الطريقة الثالثة والأخيرة لبدء هذه الرواية. وبعدها ننطلق جميعاً إلى الرواية. التي يسعد المؤلف لأبعد الحدود. أن يكون القارىء قد طال شوقه إليها.

يقول روائي، إن الرواية تشبه طائرة من الورق تصعد وتطير وتندفع إلى الأمام عندما يمسك الروائي بالخيط مشدوداً وتتحطم وتقع وتنهد اللعبة كلها عندما يرخي الروائي الخيط. والمؤلف لا يذكر الروائي صاحب هذه الكلمة بالتحديد. وهو يأسف لهذا فعلاً. ولكنه يتذكرها في هذه اللحظة وهو يخط هذا الفصل بالذات. لإحساسه بمقدمات خطر ما. خاصة وأن عدد الصفحات التي دونها من روايته أصبح ضخماً. ومع هذا لم يدخل في صلب الرواية حتى الآن.

والمؤلف يعترف في هذا الإستطراد بواقعة هامة حدثت له أثناء الكتابة وهي أنه توقف عن الإستمرار في كتابة هذه الرواية ثلاث مرات. لن يحدد المؤلف بالطبع الأماكن التي توقف عندها في هذه المرات الثلاث كي لا تستخدم من قبل القارىء كفواصل فنية في الرواية. في بعض الأحيان تعدى التوقف عدداً غير قليل من الأشهر وكان السبب مرور الوطن بأحداث كبرى.

أحداث هزت المؤلف من الأعماق. سواء كان ما يحدث انتصاراً أو هزيمة. فالأوطان حتى وهي تسقط وتتهاوى. فإن مآسيها لها رائحة الفجيعة المؤلمة. لن يذكر المؤلف هذه الأحداث لأنها لها طابع سياسي ومأساوي.

وهو يخشى الربط بين الأحداث في الرواية وهذه المآسي التي جرت للوطن. حتى لا تتم عمليات الإسقاط والرمز والغمز. لأنه بالفعل لم يقصد هذا. لا بد من كلمة هنا. لأن القارىء عند السطر السابق سيرفع اصبعه بدهشة. ويقول انه ضبط المؤلف في حالة خوف. ومن يخاف ليس من حقه الحديث عن هموم الوطن.

والمؤلف يرد على هذا بقوله. ان الأحداث الجسيمة التي مرت بالوطن شبيهة بما يجري في هذه الرواية. ولأنه بدأ في كتابة روايته قبل هبوب رياح المأساة بفترة. فعندما أتت المأساة نفسها أدهش المؤلف اكتشافه الغريب. ولم يكن توقفه عن العمل بسبب هذا التوافق الذي سبب له سعادة فنية لا توصف. لأنه تصور أن لديه قدرة على التنبؤ. وقال يومها ان الفنان الصادق نبي بصورة ما. وان العلاقة الحميمة بالحاضر تجعل المستقبل يسلم نفسه لك بدون عناء.

إن توقف المؤلف في هذه المرات الثلاث عن العمل كان بسبب فقدانه لتوازنه الداخلي وتماسكه النفسي تحت هذه الضربات التي أصابت الوطن في الصميم.

الحديث عن هذه الضربات الثلاث يتطلب كتابة رواية جديدة من النوع السياسي المباشر والحاد. يعد المؤلف قراءه الذين لا وجود لهم. بأن هذه الضربات ستكون موضع روايته القادمة. وانه سيكتبها لا لشيء إلا ليخرج لسانه للناقد إياه. الذي يقف فوق أرض متحركة وعلى قدمين مترنحتين في شوارع القاهرة الخالية ليلاً. سيخرج المؤلف

لسانة لذلك الناقد الذي قال ذات مساء وهو يدري ما يقـول من السكر ان الأدب اما أن يكون أدباً أو لا يكون أدباً على الاطـلاق. وان دخلت السياسة من النافذة خرج الأدب من الباب.

في المرات الثلاث. كان المؤلف يحاول أن يكتب. ولكن عندما كـان يحدث ذلك الاهتزاز الرهيب فـان الصمت يصبح المخـرج الوحيـد. لا بد من كلمة حول العودة للعمل. في كل مرة كان يجلس الى مكتبه. انه متعب رغم انه ما يزال في الصفحات الأولى من الرواية.

انه ما يزال أمام البداية الثـالثة. ومـع هذا كم يبـدو مجهداً ومتعبـاً. فكـر فيها لم يكتبـه من الروايـة بعد. فـاكتشف ان ما انتهى منـه قليل. الباقي كثير. رغم التعب والضنى ليس امامه سـوى الاستمرار. تعجب من حاله وتساءل: ما جرى له؟

من قبـل كـان يجلس. يكتب في الجلسـة الـواحـدة ما لا يقـل عن العشرين صفحة. مرة أخرى يتساءل: ماذا جرى له؟

السؤال هكـذا فيه خـطأ ما. طـرحه بهـذه الصـورة لن يـوصـل الى نتيجة. السؤال الفعلي هو: ماذا جرى للبلد؟

ثمة حالـة من الاحباط واليـأس والخوف من الغـد تسيطر حتى عـلى جدران البيوت وإسفلت الشـوارع. الأشجار القليلة المتبقيـة عليها هم قديم. وعلى وجوه الناس احساس بالانكسار والهزيمة.

ان المؤلف جزء من هذا الكل الضخم. يشعر كـل صباح ان اعـماقه بركة راكدة. ان البرك عندما تسد مسالكها. ويصبح مـا فيها مـاء راكداً فان ما يطفو على سطح البركة هو أسوأ ما فيهـا السمـك الميت والجيف العفنة والطحالب الضارة والنباتات السـامة. وهكـذا لا يفرز الانسـان الا أسواء ما فيه. وهذا يسلم العصر كله لحالة من الانحطاط والتفاهة.

قال لنفسه: انه يجب تحويل هذه التفاهة الى أدب. والمطلوب قدر من العزيمة. والمبادرة الفردية. ولكنه وجد عزيمته خائرة وقدرته مسلوبة. توقف عند هذا الحد من الرواية. لا يعرف كم من الأيام مر. شهر. شهران. ثلاثة أشهر.

أوقف كل قراءاته. كان يدرس اللغة الإنجليزية في أحد المعاهد الليلية فأوقف الدراسة. نقل الاوراق الخاصة بعمله الى مكتبه. لم يبق في البيت سوى هو في مواجهة أوراق الرواية. ومع هذا بدا عاجزاً عن مواصلة العمل. حاول أن يغير عادات الكتابة. ترك مكتبه. نقل الأوراق إلى السفرة. غير أنواع الأقلام.

كان يكتب صباحاً. من الخامسة وحتى العاشرة قبل نزوله الى ساحة المعارك اليومية التي يعود منها مهزوماً مجروحاً ينزف أعز ما فيه. لكنه رغم هذا لم يستطع الاستمرار. ماذا أصابه.

أين التدفق القديم. وانسياب الكلمات وتداعي الصور والجمل؟

غريب وعجيب أمره. ان اليوم الذي يمضي يفر الى البعيد هارباً. ولا يتكرر بعد هذا أبداً. فاليوم التالي له مباشرة يصبح أسوأ منه عادة.

الصمت النهائي يعني موت المؤلف. لهذا فلا بد من العودة الى العمل مهما كانت الظروف. الحديث كله يبدو ناقصاً ما لم يكن هناك حديث عن العودة الى العمل مرة أخرى. ان ذلك هو أصعب ما في الرواية كلها. في البداية قرأ المؤلف ما سبق أن كتبه ليعيش في الجو العام. وليكن من السهل عليه الاستمرار. بعد القراءة لم يستطع كتابة كلمة واحدة. اعاد قراءة ما كتبه بصوت عال. كان المضي أصعب من الاول. لا مفر اذن من أصعب الحلول كلها.

وهو ان يعيد كتابة كل ما سبق ان كتبه مهما كان حجمه. والمؤلف لا

يسعده شيء مثل لحظات الكتابة الثانية والثالثة. ولكن ظروفه الصعبة جعلت هذا الحل أحد أعباء عمره. فالمؤلف جزء من كل. فظروفه هي نفسها ظروف كل من يكتبون في واقعنا المتخلف فهو موظف أولاً. ولديه اهتماماته وحمايته وأدبه. المعادلة ليست سهلة. ولقمة العيش قد تأتي أولاً في بعض الأحيان قبل الكلمة المكتوبة.

هناك اعتراف آخر يجب قوله. مما زاد من صعوبة اعادة الكتابة ان المؤلف عندما جلس يكتب هذه الرواية. لم يبدأ من نقطة البداية. التي توصله الى نقطة النهاية. عبر سلسلة من الفصول معروف ترتيبها سلفاً. تحمل هذه الفصول أرقام ١، ٢، ٣، ٤، وهكذا. بالعكس. كان المؤلف قد كتب بعض الفصول المتقدمة. وخطط شكل النهاية.

وانتهى من بعض المواقف. وهذا ما جعل اعادة الكتابة نوعاً من الضنى والتعب الذي بلا حدود. يخشى المؤلف ان يتصور قارئه أنه تعود على كتابة عمله مرة واحدة. ومنه إلى المطبعة مباشرة. مثلما يفعل الذين لا يفرقون بين النص الأدبي والسيناريو والاعداد السينمائي أو الذين يغازلون السينما والاذاعة والتليفزيون حتى وهم يكتبون نصوصهم الادبية. ان بعض فصول هذه الرواية كتبها المؤلف حوالي عشر مرات.

كان بود المؤلف ان يجعل لهذا الفصل ملحقاً خاصاً. يثبت فيه المقالات والتحقيقات والمقابلات التي اجراها وكتبها في فترات التوقف عن كتابة الرواية. فهو كاتب هذا صحيح. ولكن من يتصور انه يكتب الرواية والقصة القصيرة فقط خاطىء. القلم عنده في بعض الاحيان مجرد مورد ثابت للرزق. لكي يكمل المرتب الشهري الصغير. الى الحد الأدنى المطلوب حتى يكفي حياته اليومية كم من ليلة قضاها المؤلف فعلاً في الكتابة. ولكن أي كتابة ؟

مقالات. تحقيقات. عروض كتب. خواطر. مقابلات. وفي كل

مرة كان يقول لنفسه ان البحث عن الرزق هو السبب.

وكان يقول ان هذا المقال هـو الاخير. ولن يفعلهـا بعد هـذا ابداً. ولكن العودة الى الرواية كانت تبدو أكثر صعوبة من المرة السابقة.

ولهذا تساءل المؤلف:

هل يضم هذه الكتابات إلى الرواية. وان ضمها ألا يبدو ذلك نوعـاً من الخلط بين أمرين لا عـلاقة بينهـا. عمومـاً كثير من الأمـور في هذه الرواية تبـدو مختلطة. والكثير من قضـاياهـا لم يحسم بعد. لن نتحـدث عن الحسم. لأن العصر كله هو عصر الفرص الضائعة. العصر الـذي لم يحسم معـركة أو قضيـة واحدة في حيـاة جيـل كـامـل. ثم من الـذي يحسم. أي المؤلفين. الخارجي أم الداخلي.

حتى هذه القضية ستظل معلقة في سماء الرواية. هل هما مؤلفان. أم أنهما وجهـان لعملة واحدة. ثم مـا قيمة وضـع هـذه المقـالات في آخـر الرواية.

ان المقالات توضح كم من سنوات العمر ضاعت. في تلك الأعـمال التي قام بها المؤلف بحثاً عن لقمة العيش.

آه لـو كان لنـا الحق في اختيار شكـل حياتنـا قبـل أن نـأتي الى هـذا العالم.

لو كانت امكانية الاختيار مطروحة لتغير كل ما في حيـاتنا. لفـاضلنا واخترنا وقررنا وقبلنا. لقلنا ان هذا أحسن من ذلك. وتلك أفضـل من هذه، ولكن هذا لم يكن مطروحاً من الأساس. وكل ما يمكننا القيـام به الآن هو فقط الاستمرار في حياة لم نختر شكلها ولم يكن لنا رأي فيها.

ربمـا قال القـارىء هنا. ليتـوقف المؤلف كما يشـاء. وكما شـاءت له ظروفه الخاصة. وربما مد القارىء يده وقلب صفحـات هذا الفصـل.

وصولا الى الفصل القادم وهو ايضاً من مقدمات الرواية وليس جزءاً من الرواية ذاتها.

والمؤلف لا يثير ما سيقوله القارىء أو ما سيفعله لتكون فرصة للرد عليه. فالرد لا يشغل ذهنه بصورة أو بأخرى ولكنه يود ان ينبه قارئه الى حقيقة هامة.

وهي أنه بشر قبل أي اعتبار آخر. ولأنه بشر فهو يتأثر بظروفه الخاصة والعامة. إنه ليس شخصاً يعيش في غرفة مغلقة بعيداً عن الكل. وعملية الكتابة ليست وحياً ينزل عليه من السماء. انها مسألة تخضع للظروف العامة والخاصة. ولأن المؤلف كتب روايته في مرحلة من مراحل الإضطراب الضخم في حياة الوطن بل في مرحلة قفز فيها الوطن كله نحو المجهول. فان هذا الاضطراب لا بد وان يتعدى الحياة الخاصة الى حياة المؤلف العامة أيضاً.

الطريقة الثالثة والأخيرة لبدء الرواية وعنوانها على شكل سؤال محبب وحاد يقول:

٩

هل تخشى ألـم التفاصيل؟!

وهي تبدأ هكذا. . .

«قسم شرطة قصر النيل».

جاءنا من الدورية اللاسلكية بميدان التحرير ما يلي:

أبلغنا الشرطي عبدالله عبد المقصود انه أثناء مروره بميدان التحرير وهو في وقت راحته. لاحظ ان مجموعة من الخلق قد احتلوا مكان التمثال الخالي وسط الميدان وقد تجمع حولهم عدد كبير من العامة بصورة غير عادية.

نقوم حالياً بعمل اللازم. ولكن يبدو ان السيطرة على الموقف عملية صعبة خاصة مع ازدياد عدد الناس المستمر. الوقت ليس في صالحنا. نطلب ارسال أكبر عدد ممكن من التعزيزات. ربما تحول الأمر الى نوع من الفوضى والتذمر وحتى الآن لم تصل الى الميدان العناصر المندسة اياها. وهو ما يجعل الأمر يبدو عادياً في صورته الإجمالية. قد يتطلب الأمر محاصرة الميدان من جميع النواحي.

نحن نحمل المسئولين مسئولية هذه البرقية الخطيرة!!

عند هذا الحد توقف المؤلف. سأل نفسه:

بداية مثيرة فعلاً؟ ولكنها بوليسية أكثر من اللازم. وستفرض هذا الجو على الرواية من الألف الى الياء.

ان بدأ الرواية هكذا ليس أمامه سوى مواصلة هذا الطريق حتى نهايته بنفس الصورة. ولم يكن هذا ما يقصده بالتحديد. طوال الفترة الماضية وهو يحلم بكتابة عمل واقعي يكتسب الفعل والقول والحركة فيه رائحة الواقع وحضوره العفوي العظيم. وهذا يتطلب منه ان يتكلم فيه الناس بأنفسهم.

ان المطلوب الآن من المؤلف اما أن يكتفي بالبدايتين السابقتين وهذا يكفي جداً. أو أن تكون لديه بداية ثالثة فعلاً لبدء هذه الرواية لا غريب فيها ولا بوليسية وتتمشى مع الجو العام للرواية نفسها أما افتعال عدد ضخم من المقدمات للرواية فذلك مرفوض من الآن. قال المؤلف لنفسه:

ربما كانت هناك صعوبة فعلاً في كتابة ثلاث مقدمات مختلفة لعمل أدبي واحد، المؤلف في هذه الحالة يتحرك بين تطرفين: اما افتعال التجديد أو الوقوع في هوة التكرار الممل.

ومع ادراك المؤلف لصعوبة المشي بين التطرفين. فإنه مصر على المضي في طريقه حتى النهاية. ان التراجع معناه الوحيد ان يهد اللعبة من أساسها. وان يلعب من جديد وعلى أسس جديدة. وتلك مسألة صعبة للغاية سيقدم الكاتب طريقة ثالثة لبدء الرواية.

وكان المؤلف يريد أن يكون عنوانها «الواقع وحده يكفي».

وان كان قد عدل عن العنوان في اللحظة الأخيرة الى التفاصيل والألم الذي تسببه لقارىء هذه الايام. والمؤلف يقول كلمة حول الواقع الذي تعيشه بلادنا في هذه الأيام.

لقد أصبح هذا الواقع صارخاً مليئاً بكل التناقضات لدرجة أنه يقدم كل المطلوب. منذ فترة طويلة والمؤلف يحلم بكتابة رواية واقعية. من الواقع بكل ما فيه. لا يكون له سوى فضل كتابتها فقط. وكان يتساءل: كيف يقدم الواقع فقط غير مضاف اليه أي شيء حتى مشاعره الشخصية. فعلاً انها مسألة تسعده ان يحاول تقديم هذا الواقع.

الواقع وحده يكفي. قالها المؤلف لنفسه وهو سعيد. ها هي نشوة الزمان القديم تعود إليه. ضربات القلب تشتد. الدماء تجري في العروق. حاملة الأمل الذي مات. الحلق يجف. والعين تتوه نظراتها. حالة من النشوة لم تحدث له من قبل لفترة طويلة مضت. قبل أن يدخل دائرة الانحناء والانكسار. جرى. بحث عن أوراق يدون فيها فكرته قبل ان تتخلى عنه. كتب بسرعة وبخط مائل: مقابلات تجري بين المؤلف والمسئولين. مسئولي الاسكان والأمن والصحة والتربية والتعليم والثقافة اطباء يتحدثون عن سكان المقابر. حجم المشكلة. متى بدأت وأين؟

التكييف القانوني للحياة في المقابر. محاولة الحصول على أي دراسات علمية حول سكان مدينة الموتى. زيارة المنطقة. عمل دراسات واجراء مقابلات مع السكان أنفسهم. واثباتها كما هي بالحرف الواحد. حالة الأمن والمخالفات الموجودة في دنيا مدينة الموتى. الليل والنهار بين الأموات. قال لنفسه بعد ان دون أفكاره:

انها قد تكون أحسن البدايات للرواية. واقعية وجديدة. صحيح أنها أقرب الى البحث الميداني. وربما كانت بعيدة عن جو الرواية. وقد تكون مملة. يهرب منها قارىء الرواية البوليسية. والذي يقرأ بهدف التسلية والترفيه وقتل الوقت.

ورغم هذا يشعر المؤلف انه يقول من خلال هذه البداية ما يرضيه.

ويعوضه عن التراجعات التي حدثت له في الفترة الأخيرة لعله يتمكن من وقف حالة التدهور المستمرة.

ان القدرة على تعريف عالم ما، هي منتصف الطريق لامتلاكه. جملة ليست من ابداع المؤلف. قرأها. وان كان لا يذكر متى ولا أين هذا. وان كانت ما تزال عالقة بذهنه. في هذه اللحظة شعر المؤلف بقدرة الكلمة على تلخيص الموقف كله.

ان هذه المقدمة ستجعل الكاتب والقارىء معاً يمتلكان عالم الرواية. أو على الأقل في الطريق الى امتلاكه.

ان الامتلاك خطوة أبعد من مجرد التعبير عن هذا الواقع. راح يعد الدقائق والساعات التي تفصله عن ساعة اللقاء مع المسئولين. تساءل: هل يدون مقابلاته معهم في أوراق أم يسجل هذه اللقاءات بأصواتهم الحية.

استبعد فكرة التسجيل لأن أي مسئول يصيبه الخوف بمجرد رؤية جهاز تسجيل أمامه. لأنه من الصعب تكذيب ما يقوله إن كان مسجلاً بصوته. الكل يفضل الحديث الحر. حتى بدون كتابة لأن ذلك يفتح أمامهم أبواب التراجع إن حدثت بعض المشاكل بعد النشر.

احتار بمن يبدأ بالطبع المسئول عن الإسكان أولاً. ليعطيه تصوراً رقمياً للمشكلة حتى لا يتوه في الجزئيات الصغيرة توقف عن الكتابة، سعادته التي لا توصف لم يعشها منذ سنوات جديدة على حياته تماماً. في الصباح الباكر سيترك منزله. سيتوجه الى المنطقة نفسها الى سكان المقابر. يسمع منهم. يدون ملاحظاتهم. يكتب كل ما سيقولونه. ثم يذهب الى أي مكان به أي قدر من المعلومات عن حياة سكان القبور. كل هذا سيخرجه من القديم والمألوف لبداية الروايات بالفعل.

في الصباح، خرج، المحافظة كانت هي النقطة الأولى في رحلته. له صديق يعمل فيها. ذهب إليه. سلم عليه. لم يكن قد زاره منذ عامين مضيا. عمله الأصلي مخرجاً. ولكنه نقل الى هنا. حيث يعمل في وظيفة ادارية. لا يذكر سبب نقله الآن. مع ان قضيته كانت من أهم القضايا في فترة مضت. ولكن النسيان يمحو أكثر الاشياء صدقاً من الذهن البشري.

شرح لصديقه فكرته وطلب منه مساعدته. فهو يريد الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن سكان القبور. فهو يعمل حالياً في رواية عنهم. تراجع صديقه للخلف وسأله.

ـ أين ستنشرها؟

شعر المؤلف بحيرة فعلية. لم يكن قد فكر في مسألة النشر حتى هذه اللحظة قال:

ـ هنا، في مصر.

ضحك صديقه وتساءل:

ـ وهل هذا ممكن؟

وقبل ان يجيب المؤلف تكلم الصديق. قال ان نشر رواية حول هذا الموضوع في مصر أمر ليس صعباً فقط. بل يصل إلى حد الاستحالة. ذلك ان الناس تعبت من كثرة الحريات. هكذا تقول أجهزة الاعلام. قال الصديق ذلك موضحاً كجملة اعتراضية ـ كل صباح وظهر ومساء وبمناسبة وبدون مناسبة.

الجو الديمقراطي الصرف كاد ان يفسد اذواق الناس. مما دفع الحكومة الى التفكير في إيجاد بعض الضوابط للممارسة الديمقراطية. حتى نتعود عليها. لأنها جديدة تماماً على الشعب. بسبب سنوات القهر

والحرمان تحت حكم الطاغوت في عقد الستينيات اللعين. العقد الذي انتهى بالهزيمة المؤكدة.

هكذا أيضاً تقول اجهزة الاعلام وحيث انها حرة تماماً. وتشكل سلطة رابعة. فهذا الرأي الذي تقوله ليس رأي الدولة بأي حال. في ظل الضمانات أي الانتكاسة التي حدثت مؤخراً. لا مفر أمامه من نشر عمله في بغداد أو دمشق أو بيروت. أي خارج مصر بصورة عامة.

ليست هذه هي الصعوبة الوحيدة.

أمامه صعوبة أو استحالة الحصول على المعلومات. ان قال رواية سيقابل بالرفض. وان قال اذاعة أو تليفزيون سيكون الرفض مضاعفاً. من ناحيته هو. سيعطيه كل ما لديه. وان كان قليلاً جداً. في الفترة الأخيرة. كل مسئول في مصلحة من المصالح أصدر تعليمات شفهية ومكتوبة. لكل العاملين معه. بضرورة عدم الاتصال بأجهزة الاعلام الا من خلال جهاز مخصص لذلك هو جهاز العلاقات العامة. وكل من يتصل من العاملين بأي اجهزة اعلام. أيا كان سبب الاتصال، يعرض نفسه للعقوبة فوراً.

ثم أصدر كل مسئول قراراً قال فيه: ان مهمة جهاز العلاقات العامة هي تنظيم اتصال أجهزة الاعلام بالمسئول نفسه. وتحديد المواعيد وحضور هذه المقابلات. أما الحديث الى الاعلام فهو من حق المسئول وحده فقط، دون خلق الله في المصلحة كلها.

ان المهم من المعلومات الخاصة بسكان مدينة الموتى هو ما لدى الآخرين. ولهذا لا بد من التحايل. وصولاً الى حجم المشكلة الفعلي.

قد يفكر المؤلف في القول إنه يطلب هذه المعلومات من أجل العمل الصحفي. وحتى ان قال صحافة. سيكون الرد أي صحافة؟ قومية أم

حزبية؟ عربية أم محلية؟ معادية أم صديقة؟

ان المسائل اختلطت. وحتى ان قلت انها صحافة قومية. فان المسئول يتساءل: ومن يضمن له ان لا تتسرب الى جريدة حزبية معارضة. خاصة من تلك التي لا تعارض المعارضة المتفق عليها مسبقاً. ومن يضمن له ان لا تتسرب المعلومات الى أحد المراسلين الأجانب.

ولو فرض ان المادة لصحيفة قومية فعلاً. من يضمن لحساب من يعمل رئيس التحرير وضد من؟ هل لحساب النظام ككل؟ أم لحسابه الخاص؟ أم لحساب جهة داخلية؟ أم خارجية؟

الحال وصل الى حدود الفوضى الكاملة. أمامه حل وحيد قامت به منذ فترة جهة امريكية. فتحت لها كل الأبواب المغلقة فوراً. وهو أن يحصل على خطاب رسمي من جهة علمية ما.

يقول بوضوح، إنه أي المؤلف. يقوم بعمل بحث علمي. لهذه الهيئة العلمية أو تلك. لن تذاع نتائجه بأي حال. قبل الرجوع الى المسئولين عن سكان قبور مصر.

ان الخطاب الذي سيكون مزوراً سيسهل حل المشكلة. لأنه من ناحية الابحاث العلمية لا خطر منها. سواء اذيعت النتائج ام بقيت سراً. ومن يهتم في بلادنا بالبحث العلمي ونتائجه ومن يوليه أقل قدر من الاهتمام؟

خرج من مكتب صديقه. على أمل العودة اليه قريباً. توقف في الشارع الواسع. شارع الاستعراضات والمواكب. مواكب الحروب البديلة، والمظاهرات المدبرة وغير المدبرة. سدت كل الطرق في وجهه. فكر في الطرق البديلة. الرشوة. الحيلة.

قال لندع الرشوة جانباً لأنه لا يملك المبلغ المطلوب. فكل شيء ارتفع ثمنه حتى الرشوة.

سيحاول اقناع المسئول في المجلة التي يعمل بها، بأنه يرغب في عمل تحقيق صحفي عن حياة سكان القبور. وبهذه الطريقة سيعرف كل ما يريده.

فكر في الطريقة التي يعرض بها فكرته ويضمن ان لا ترفض من البداية.

هل يعرضها في اجتماع التحرير الاسبوعي. ام في مكتب مدير التحرير.

وهل يكون ذلك في حضور أحد أم على انفراد.

وهل يتولى شرحها شفوياً أم يدونها في ورقة ويضعها أمام مدير التحرير في صمت منتظراً النتيجة. فعلاً. الطريقة الأخيرة هي أحسن الطرق. ولكي يضمن الموافقة. سيكذب كذبة صغيرة بيضاء. يفعلها كل زملائه من أجل الحصول على الموافقة لعمل موضوع ما. سيكتب في الورقة. تقوم حالياً جهة علمية ما. يفضل أن تكون معهداً أو كلية. أو أن تكون جهة أجنبية لها علاقات حسنة بالدولة.

آه وجدها.

سيكتب في الورقة تقوم الجامعة الامريكية بالقاهرة حالياً بعمل دراسة ميدانية عن سكان القبور. وهو يقترح مرافقة الدارسين وتغطية الدراسة وحياة سكان القبور خاصة وان الموضوع ستكون فيه صور جيدة. الفتيات الامريكيات وسط القبور. الشعر الأصفر واللحم الابيض المشرب بحمرة. والعيون التي هي زرقة السماء وقت الصيف بين القبور الداكنة. وسكانها الذين كونت الاتربة طبقة من التراب والوسخ فوق أجسامهم. وهو يتعهد من الآن ان يقدم الحلول الفعلية للمشكلة في نهاية تقديمها. فالجهة التي تقوم بعمل الدراسة يمكنها ان تقدم الحل فوراً. سيكتب أسفل الورقة ملحوظتين.

الأولى ان الموضوع لن يصرف له بدل سفر أو نفقات انتقالات داخلية.

والثانية انه يتعهد بتصوير الموضوع بنفسه ولن يأخذ معه مصوراً. بهذه الطريقة لن يجد مدير التحرير ثغرة لكي يرفض منها الموضوع. وسيرحب به ويستعجله لتنفيذه. وربما حجز له مساحة مناسبة من الآن. فالكل يغازل أمريكا ودراسات امريكا ومساعدات أمريكا واتوبيسات امريكا وكليات أمريكا.

في الصباح كان هو أول من يدخل مكتب مدير التحرير استقبله بابتسامة واسعة. فاستبشر خيراً. سأله عن عمله وموضوعاته فقدم له الورقة. استغرق مدير التحرير وقتا في قراءتها. اعاد القراءة. وضع خطا بقلمه الأحمر تحت كلمتي «سكان القبور» ثم وضع خطا آخر تحت «الجامعة الامريكية» حسب الحسبة في ذهنه وقال له:

ـ لا

تساءل المؤلف بدهشة:

ـ لماذا والموضوع سبق صحفي بكل معاني الكلمة..

قال له مدير التحرير:

ـ ما دامت هناك دراسة لننتظر لحين الانتهاء منها. ثم تعرض نتائجها مع صور لسكان القبور. ان ما تقوم به الجامعة الامريكية الآن مجرد مشروع لدراسة. لم تصل الى النتائج العامة بعد.

قال المؤلف محذراً:

ـ وان سبقنا احد.

ـ العالم لم يقفل عند هذا الموضوع. فكر في غيره.

حاول المؤلف من جديد:

ـ انها فكرة جيدة ان نغطي الدراسة اثناء العمل الميداني. ثم انها صورة جيدة وجديدة في الوقت نفسه.

رد عليه:

ـ القضية ليست الصورة أولا. ما هو الكلام الذي سيكتب مع الصورة. أفضل الانتظار.

حاول المؤلف استفزاز مدير التحرير:

ـ أم ان هناك تعليمات تمنع الكتابة في هذا الموضوع حالياً.

كان رد الفعل عكسياً:

ـ ليست لدى أي تعليمات. نحن أحرار لأول مرة في حياتنا ولكني استعمل حقي في رفض موضوع لا أوافق عليه لاسباب فنية بحتة. لا توجد جهة رسمية تعطي تعليمات لي. الم تسمع ان الصحافة أصبحت سلطة رابعة..

قال له المؤلف بمرارة:

ـ لو كان هذا صحيحاً لما رجعت اليك لأنفذ الموضوع.

خرج المؤلف من المكتب ولديه يقين ان الخوف هو السبب الوحيد لرفض مدير التحرير لتنفيذ الموضوع.

في مكتبه رنت كلمات الحب والحرية والسلطة في ذهنه. قال لنفسه: يضحكون على من بهذه الكلمات. مدير التحرير على خلاف مع رئيس التحرير. والكل يبحث للآخر عن أي خطأ يقع فيه. والاثنان ينتظران حركة تعديل واسعة في المناصب. وكل منهما يتصور أنه أحق بمقعد رئيس مجلس الادارة. والطريق الوحيد الى هذا المقعد. هو ان ترضى عنه اليد التي توقع قرار التعيين. كما أن البطانة التي تحيط بهذه اليد يجب ان تكون راضية عنه. بمعنى انه لايعمل لحساب بطانة أخرى. ان هذا

يجعل العمل اليومي أقرب للسير فوق الالغام أو وسط منطقة مليئة بالاسلاك الشائكة. وقواعد المرور لا تضمن السلامة لأحد.

في اليوم التالي كان قرار المؤلف واضحاً لا حل سوى الرشوة ولأن الراشي والمرتشي سيان أمام القضاء. فالمؤلف لن يكتب هنا الطريقة التي حصل بها على الخطاب. من جهة علمية تؤكد انه يقوم ببحث علمي سري للغاية عن اتجاهات الرأي العام بين سكان القبور وبحث آخر اقتصادي عن العلاقات الايجارية بين سكان القبور في منطقة الدراسة. إنه لأمر محزن ان يقول المؤلف انه دفع رشوة للحصول على خطاب بهذه الأهمية. والاكثر حزناً انه لن يستطيع ذكر من الذي اخذ المبلغ ومن الذين اشتركوا معه. لو ذكر هذا. لقيل في اليوم التالي ان الرشوة ملأت الوادي. وهي قد ملأته بالفعل. والمثل الشعبي يقول: ارشو تشفو. ولكن كون الرشوة موجودة فذلك أمر أما الكتابة عنها . فذلك أمر آخر تماماً. مخاطرة كثيرة وبلا حدود.

بعد حصول المؤلف على الخطاب. توجه الى المحافظة بيده سلاحه ولن يستطيع احد منعه أبداً. في الطريق قابل صديقاً له.

كان يعمل في الزمان القديم بالاخراج السينمائي يوم ان كانت في مصر سينما. ولكن بعد ان جرى ما جرى في البلاد، توقف عن الاخراج السينمائي. ولأنه بشر ويريد ان يعيش. فهو يعمل في مكتب انتاج ضخم كمستشار فني ويعاني من هم الرغبة في الخلق التي تعاوده كالمرض القديم.

وقفا معاً. حكى له همه. وقال له القصة من أولها. حتى اللحظة التي يقفان فيها. اي حتى لحظة حصوله على الخطاب الهام والخطير الذي يحمله معه.

قال له رجل السينما السابق، انه ـ أي المؤلف ـ قد خلق مشكلة لا

وجود لها أصلاً. وضخمها جداً. فقد كان يمكنه اعطاءه خطاباً. بعد لحظة من الآن من شركة الانتاج السينمائي التي يعمل بها. بأن الشركة تنوي عمل فيلم كوميدي راقص عن سكان القبور.

الخطاب واحد ومكتوب عليه «الى من يهمه الأمر» وتقول ديباجته: ان الشركة تنوي جمع المعلومات عن حياة سكان القبور لعمل فيلم سينمائي. سيكون العمود الفقري فيه. محاولة عصابة من النساء والشبان الصغار سرقة التحف الثمينة والنادرة من مقبرة الخديوي اسماعيل. ومطاردة الشرطة لهم وضبطتهم في النهاية وهم يستعدون لتهريب هذه التحف التي لا تقدر بمال خارج البلاد. وقد حصلت الشركة على موافقة مبدئية من الجهات المعنية. رقابياً وسياسياً وأمنياً. والسيناريو سيعرض قبل التنفيذ على الرقابة على المصنفات الفنية ولن يتم التنفيذ قبل موافقتها كتابة على كل ما في الفيلم. وستحصل الشركة من الجهات المختصة على تراخيص بالتصوير كل في حينه.

قال له المخرج السابق، إنه سيضع له خطاً بالأحمر تحت كل الجمل التي تبدأ بكلمة وقد حصلت الشركة على، لأنها تبعث الاطمئنان في نفس كل مسئول فيتكلم بحرية تامة. ما دامت هناك جهة قد صرحت بما يقال وبما لا يقال. اذن فالرفد والتوقف عن العمل والتحويل الى التحقيق. أمور غير واردة أصلاً قال له المخرج: ان خطاباً مثل هذا سيفتح أمامه كل الأبواب المغلقة. قال المؤلف لنفسه: ان هذا الحل يأتي بعد فوات الأوان. معه خطاب تعب جداً في الحصول عليه ولكن برق في ذهنه خاطر.

لماذا لا يكون معه اكثر من خطاب؟

غير اتجاه سيره. عاد مع المخرج الى مكتبه. واخذ منه الخطاب. أصبح معه خطابان.

وكان يقدم أحدهما حسب الظروف. اكتشف ان خطاب السينما يسهل له الطريق أكثر، وان كل المعلومات والبيانات تقدم له فوراً بعد اخراجه.

وخلال اللقاءات كان يسأله الموظفون الكبار والصغار عن اخبار سعاد حسني وفريد شوقي. موظفون كبار كانوا يسألونه هل خبر زواج نجاة الصغيرة من طبيب عيون صحيح؟

وهل يوجد في شقة سهير رمزي عين سحرية تجعلها ترى القادم اليها من لحظة صعوده على السلم وهي في أي مكان من الشقة؟ وهل كلفت فيفي عبده ديكورات شقتها مليون جنيه. ناقشه أحد المسئولين في موضوع النقوط في ملاهي شارع الهرم.

قال انه سمع بالأمس ان ثريا عربياً وضع عقداً من الدولارات حول رقبة أحمد عدوية. وان العقد من الورق فئة المائة دولار. وان العقد به مائتي ألف دولار؟

آخر أثار معه نفس الموضوع: قال له إنه سمع ان النقوط يدفع في شارع الهرم حالياً بالشيكات، لأن عدد النقود والمبالغ ضخمة جداً. أصبح من المسائل الصعبة. وهل فكرت بعض بنوك الانفتاح الجديدة في فتح فروع لها في ملاهي شارع الهرم. لكي يكون السحب فورياً. ولكي يحضر مندوب البنك ساعة الرقص والغناء، وبمجرد كتابة الشيك، يقوم هو بالدفع فوراً. أمام جماهير المشاهدين.

سأله موظف أرشيف: وهو يقدم له الملف المطلوب: هل صحيح ان زبوناً من أثرياء مصر في هذه الأيام اشعل سيجارة نادية فؤاد بمجموعة من الأوراق النقدية، تصل قيمتها الى الألف جنيه.

لم يناقشه أحد في حكاية الموق. كل مسئول كان يقابله بابتسامة

رسمت جيدا. وانحناءة صناعية من لزوم العمل في هذه الأيام المتحضرة. وكان المؤلف ينظر بدهشة. وجوه ناعمة حليقة. ملابس فاخرة. الكل يقول لك: مستوردة والله العظيم. لم يدخل البلاد منها سوى بذلته فقط.

وبعد قراءة الخطاب السينمائي الذي معه كان المسئول يضغط على زر صغير أمامه. وسط غابة من الأزرار. ويطلب الملف الذي لا اسم له. ملف الشؤم. أولاد النحس. سكان القبور. واعطائه للأخ المخرج السينمائي المحترم. في حجرة الزوار. لكي يأخذ منه ما يشاء وبعد خروج السكرتير. يطلب المسئول شاياً للضيف ولنفسه ، ويشعل سيجاره الضخم. ويبدأ مع الضيف حواراً انسانياً.

وهذا الحوار لا يدور الا حول اخبار الفنانات.

المؤلف لم يكن يعرف الكثير عن هذا العالم ولم يكن يتصور من قبل. ما لهذا العالم من تأثير سحري على هؤلاء المسئولين. ولهذا كان يختلق آلاف الحكايات التي يصدقونها فوراً. ويعدون انفسهم سعداء بمعرفة مثل هذه الحكايات. التي تدور حول أمرين: العلاقات العاطفية. والغنى الفاحش لأهل الفن. قال المؤلف لنفسه: انه لو كان يعرف هذا التأثير غير المحدود اذن لأحضر معه بعض الممثلات. ولكنه تساءل. وهل كان يستطيع هذا؟ واحد فقط من الذين قابلهم المؤلف كان مختلفاً عن الآخرين. لم يتكلم عن الممثلات وحكاياتهن ولكنه ناقش المؤلف في صناعة السينما.

قال ان عنده مبلغاً بسيطاً في البنك. والوظيفة الحكومية لا تشفع ولا تنفع. ورغم أنه يحصل على فائدة قدرها أحد عشر ونصف في المائة سنوياً. نظراً لأنه يضع المبلغ الخاص به بالجنيه الاسترليني كوديعة. وهو يحصل على فائدة أعلى من البنوك المصرية حالياً. الا أنه سمع من بعض

رجال الأعمال اصدقائه المقربين اليه. وإن نسبة الربح فيه وصلت الى ٣٠٠٪ وان دورة رأس المال تعود بعد حوالي سنة، ولهذا فان الألف جنيه ربما وصلت الى أربعة آلاف جنيه خلال سنة واحدة. في حين ان الألف جنيه في البنك تكسب حوالي ١١١ جنيهاً فقط. ان الفارق ضخم ومنذ ان عرف من صديقه هذه المعلومات عن صناعة السينما وهو لا يستطيع أن ينام. أو يتناول وجبة واحدة أو يركز في أي أمر من أمور المصلحة التي يرأسها. انه حالياً يعمل دراسات موسعةحول انتاج فيلم سينمائي. يدين حكم عبد الناصر ومراكز القوى.

وقد اختار هذا الموضوع. لأن صديقه رجل الأعمال همس في اذنه: ان هذه الأفلام تنتج تحت عنوان السينما الوطنية. ولهذا فهي تحصل على أولوية مطلقة من الدولة في السلف والخامات والعرض. فكل دولة تشجع الانتاج الوطني وتعطيه أولوية تامة. وقد أعطى ادارة العلاقات العامة في المصلحة اجازة مفتوحة. لكي يقوموا بعمل الدراسات اللازمة لانتاج الفيلم. ويجروا الاتصالات الضرورية مع الجهات المعنية. ومع أهل الفن السينمائي.

واليوم يعد من أسعد أيام عمل السيد المدير. لأن الله ساقه (أي المؤلف) اليه. في الوقت المناسب.

وهذا فأل خير يؤكد نجاح المشروع من الآن. والآن: كم يستغرق انتاج فيلم حتى يكون جاهزاً للعرض، وكم يتكلف؟ ومن هم الفنانون الجاهزون بمثل هذا الموضوع بالتحديد؟ وكم يأخذون. وكم وكم وكم..

احتار المؤلف. فهو ليست له دراية بمثل هذه الأمور. ولكي يخرج نفسه من الورطة قال إنه مؤلف سينمائي: والعصر الذي نعيشه هو عصر التخصص الصارم. وليس من حق أحد الكلام في موضوع ليس

من صميم تخصصه. طالما ان هناك من يستطيع الحديث في هذا التخصص.

لهذا سيقوم المؤلف باحضار صديق له يعمل في ميدان الانتاج السينمائي. وله خبرة طويلة في هذا الميدان. لكي يقدم الاجابات الشافية والوافية. الرجل لا يعرف الصبر. جلس من جديد وقال للمؤلف انه أحبه من أول نظرة،لهذا سيفتح له قلبه. ويقول له الحكاية على بلاطة. وهو يقولها لصديقه. وعندما يحضر يكون معه الجواب الشافي.

قال المدير: ان كل ما لديه حالياً خمسمائة الف جنيه. وطلب من المؤلف ان يكون ذلك سراً ثلاثياً. بينهم. لأن المبلغ صغير. ويعد ملاليم وفكة في عصر أصحاب الملايين الذي نعيشه. وبعد ان اكتشف ضحك البنوك عليه.

فكر جدياً في استثماره. ولكي يضع المؤلف الطيب القلب وصديقه الأكثر طيبة في الصورة الكاملة. يقول انه فكر في اكثر من مشروع واحد. عليه ان يفاضل بينها سريعاً. ويتخذ قراره بعد المفاضلة. هل يبني عمارة. أم يشتري تاكسيات تعمل في القاهرة. أم يقيم مزرعة دواجن. أم يبني شاليهات في صحارى الاهرامات. خاصة بعد الغاء مشروع هضبة الاهرام.

وهذه الشاليهات تؤجر بالساعة وايجارها يصل في بعض الاحيان، الى عشرة جنيهات في الساعة الواحدة. أم ينتج فيلماً سينمائياً. ام يكون مجموعة من الشطار يشتري لهم المراكب ليهربوا البضائع من بور سعيد. عبر بحيرة المنزل ويكون هو مسئولاً عن الشطار وأمنهم وحماية ظهرهم. تلك هي المشروعات التي يفكر فيها. والمفاضلة مسألة صعبة. ولكن لا بد من حسم الأمر.

ان قلبه مفتوح للأخ السينمائي لأنه ليس من رجال الأعمال. لذلك فلن تكون هناك منافسة أو غيرة أو حسد.

صحيح ان المبلغ الذي معه حصل عليه بضربة واحدة. كانت نظيفة مائة في المائة. وخرج منها مثل الشعرة من العجين من خلال خطة جيدة وممتازة ومحكمة. ويقدر ان يحصل على مثله. ولكنه أقسم ان تكون هذه الضربة. ضربة الخمسين ألف جنيه الأولى وهي أيضاً الأخيرة. ولكن القضية التي تؤرقه الآن هي كيف يستثمرها. تلك هي القضية التي يفكر فيها. في هذه الأيام. وعده المؤلف بأنه سيحضر صديقه وسيقومان معاً بعمل كل الدراسات المطلوبة وسيتصل به خلال اسبوع ليبلغه نتيجة هذه الدراسات الهامة.

جمع المؤلف كل المادة التي وصلت اليه. وقد واجهته بعد ذلك صعوبة تقديم هذا الكم الضخم من المادة التي حصل عليها. ولكن المؤلف قرر ان يبدأ بالتحديد الجغرافي الذي وجد فيه المؤلف أول اكتشافاته. فمدينة الموتى لا تحتل مكاناً واحداً. انها تنتشر في أكثر من مكان واحد بالقاهرة. صحيح ان اكبر تجمع منها هو الموجود في منطقة الدراسة. ولكن في مواجهة ذلك توجد اكثر من مدينة للموتى.

باب النصر بالقرب من باب الشعرية وسوق الليمون. باب الوزير. السيدة نفيسة. الامام. القلعة. بالقرب من المقطم حتى مجرى العيون. الدراسة. المجاورين، مقابر الخفير بجوار طريق صلاح سالم حتى بدايات مدينة نصر وحتى المقطم وعزبة الصفيح التي تربى فيها الخنازير البساتين من المعادي وحتى الامام.

التحديد السابق ليس معناه ان هذه الاماكن كلها بها سكان يعيشون في القبور. ان هذه الاماكن بها قبور. وقد حدث زحف عليها من السكان الذين لا سكن لهم. وبعض القبور قد سكنت بالاحياء. ولكن

كثافة السكن تختلف من مكان لآخر. وبشكل عام فان الدراسة هي أكثر الاماكن ازدحاماً بسكان القبور. وربما أصبحت الآن أقرب الى مدينة من الاحياء. فهي ليست بعيدة ومواصلاتها لا تعد مشكلة. الدراسة هي المنطقة الأولى التي يعيش فيها احياء.

والآن نصل الى المعلومات. ورغم الخطابات التي كان المؤلف يحملها معه. فهو لن يقول اسماء ولا مناصب الذين اخذها منهم. ولكن سيذكر الجهات فقط. تلافياً لأي مشاكل قد تحدث بعد النشر مباشرة.

نقطة البدء من المحافظة:

ورغم انها الجهة المختصة. فلا يوجد في أوراق المحافظة، رقم رسمي مدون يؤكد عدد سكان القبور. البعض يقول بشكل شفوي انهم ٣٠ ألف ساكن. وحتى الآن لا يعرف بالتحديدمن هو الرائد لفكرة الاقامة في القبور. من ذلك الشخص الجسور وغير العادي الذي اخترق بفكره وخياله. المسافة الوهمية بين عالم الاحياء ودنيا الموتى. ثم تبعه بعد ذلك الآلاف. التربية والخفراء والقائمون على أمر مدينة الموتى يختلفون في أمر أول من أقدم على التجربة لكنه رائد مجهول على أي حال.

وهو رائد. لأن القوانين المصرية تحرم المبيت في المقابر وتمنع البقاء فيها بعد غروب الشمس. صحيح ان القانون لم ينص على عقوبة محددة للمخالف. ولكنه اعتبر ان مجرد البقاء في المقابر بعد غروب الشمس مخالفة. هذا القانون رقمه ٥ لعام ١٩٦٦. وهو لم ينفذ من يوم صدوره. وحتى هذه اللحظة. عالم المقابر له غرابته يسيطر عليه التربية. وعددهم ضخم ١٢٠٠ تربي و ٢٤٠٠ مساعد. و٨٠ الفاً من المجاورين. أما عدد السكان فمسألة فيها خلاف. أوراق الحكومة التي لم يقرأها أحد تؤكد انهم ٣٠ ألفاً.

والصحافة الاجنبية قالت ان العدد ما بين ٢ و٣ ملايين مواطن. واتهمت في اليوم التالي أنها معادية. وعميلة وتعمل لحساب جهات معادية. والصحفي الذي قال هذا الكلام طرد من البلاد شر طردة. وضع في طائرة عسكرية خاصة وطارت به وانزلته في مطار لارناكا في قبرص. وارسلت الخطابات الى الجريدة التي يعمل بها طلبت فصله من العمل فوراً. في تقدير للجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء. يقول ان الذين يقيمون في القبور عددهم ٢٠ الفا من المواطنين.

لا يستطيع احد الجزم بالرقم الفعلي لسكان القبور وذلك لسبب فعلي وهو أن الرقم في تغير مستمر. كل يوم تأتي الى المقابر وجوه جديدة. الحكايات التي تقف وراء حضورها واحدة تقريباً. انهار البيت الذي يعيشون فيه ولا توجد مساكن خالية. وان وجدت فالخلوات أصبحت ارقامها خيالية. وعندما تحضر عائلة من العائلات تضع بقايا أثاثها المكسر. وكل ما تملك في احدى الحارات الصغيرة بين المقابر. ثم تبحث عن حراس المقابر فحارس المقبرة هو المالك الفعلي لها. يتكلم ويساوم ويؤجر. وصاحب المقبرة الفعلي هو آخر من يعلم. وسبب ظاهرة السكن في المقابر لا تعود الى هذه الأيام فقط. والى أزمة الاسكان. بقدر ما تعود الى الترف والبذخ والاسراف الذي مارسه اصحاب المقابر في الزمان القديم.

بعض مقابر الاعيان مساحتها تصل الى عشرة آلاف متر. أقل مقبرة لا تقل عن المائة متر. مقبرة الخديوي توفيق مساحتها ١٥ ألف متر. لها حديقة للزهور. واستراحتان فيها رفات توفيق واسماعيل وعباس حلمي، المقابر مصنوعة من العاج المطعم بالذهب والابنوس والزبرجد. أطقم الكراسي والمكتبات الموجودة مصنوعة من الابنوس والماس المحلى بالذهب.

في المقبرة اندر انواع التحف في العالم. البوفيهات بها عدد للشاي والقهوة. وملحق بها مخزن مهمات. من المقابر مقبرة ابراهيم باشا وفؤاد الأول. وكل مقبرة لها بوابة خشبية خشب لا وجود له في أيامنا محلى بالنقوش الشرقية القديمة.

تقودك هذه البداية الى الداخل يقابلك حوش كبير. جزء منه مقبرة مخصصة لدفن الموتى. فوقه لوحة من الرخام تختلف النقوش والرسومات والكتابات حسب الأسرة. ثم الاستراحات التي قد تصل مساحتها الى خمس غرف. بعضها للمعيشة وصالونات وغرف للجلوس وأخرى للنوم. كل هذا يحدث في الوقت الذي يحرم فيه الشرع البذخ والتباهي في اقامة القبور. ان الشرع يقول، ان ارتفاع القبر يجب ان يكون شبراً فقط وان يطلى بالطين. واللون الأبيض مكروه. ومكروه أيضاً بناء قبة فوق القبر. والاسوار العالية غير مستحبة. لأن كل هذه المباني يكون الهدف الوحيد منها الزينة والتفاخر الاجتماعي.

المؤلف له تصور شخصي هنا، خاصة عندما حضر الى منطقة المقابر. لقد تساءل: عجيب أمر هذا الانسان. الا تكفيه الفروق الاجتماعية وسلم الطبقات في الجانب الآخر. في الدنيا. دنيا الاحياء. الا يكفي الانسان ان البعض يموت بسبب الجوع. والبعض الآخر يموت بسبب التخمة. حتى تطارد هذه الفروق الانسان الى القبر أيضاً. فيجد الانسان مقبرة مساحتها ١٥ الف متر. فيها ثلاثة أفراد فقط موتى. أحدهم خائن بحكم التاريخ. انتهى حكمه باحتلال اجنبي مؤكد. وبالقرب منه قبر متر في متر. فيها أجيال من البشر. مسألة غريبة. لا يمكن ان يكون الخلود أو الايمان بالبعث والحياة الأخرى بعد الموت هو السبب فيها أبداً. لا يمكن للكلمات وحدها. ان تصف المسافة بين البذخ والبؤس حتى هنا وسط القبور.

موقف الدولة غريب من حكاية السكن وسط القبور. على الورق ومن الناحية الرسمية لا أحد يعترف بهذا الوجود. بل انه خروج على القانون. والوجه الآخر للمسألة مختلف. في ترب الخفير في شارع واحد يوجد ١٢ تليفوناً تم توصيلها بموافقة الدولة. وقام بتركيبها عمال مصلحة التليفونات بالقرب منها وفي المقابر توجد ٦ مدارس. وشبكة مياه وشبكة انارة. توجد صيدلية وان كان صاحبها يستغل سكان مدينة الموتى في أسعار الأدوية. المياه النقية موجودة فعلاً في كل شارع وحارة. ويوجد خط اتوبيس لخدمة ابناء المنطقة. ويوجد في المنطقة سيارتان لاطفاء الحريق في مدينة الموتى.

وكل منطقة معين لحراستها شرطيين. لا أحد يعرف كيف يقومان بالحراسة في ظل ظروف مدينة الموتى. والظلام الليلي. وما يقال كل ليلة عن الجن والعفاريت وظهورها في حواري وشوارع مدينة الموتى. وبالنهار يوجد خفراء هم المسئولون عن حنفيات المياه العمومية التي ركبتها لجنة حضرت سنة ١٩٧٥ وقد ركبت في المنطقة اربع حنفيات كبيرة عمومية. لمن لا تصل المياه النقية الى القبر الذي يعيش فيه. في المحافظة الكثير من الأوراق الخاصة بهم.

يسمون في هذه الأوراق الذين تعدوا على المقابر واقاموا بها بدون وجه حق. في ملفات الشرطة تقارير عن حالة الأمن في مدينة الموتى. والجرائم المرتبطة بحياة سكان القبور والتي لا يرتكبها سوى من يعيشون وسط القبور فقط.

عندما ذهب المؤلف الى المقابر نفسها. دهش عندما قالوا له ان الجامعة الامريكية بالقاهرة قامت بعمل دراسة عن حياتهم فعلاً. قال له سكان القبور:

ما هي علاقة الجامعة الامريكية بسكان القبور. وعندما لم يجدوا

اجابة ما على هذا السؤال. اكتفوا بالقول ان هذه الايام من اعجب الأيام التي عاشها بر مصر في كل تاريخه.

إثلاث فتيات جمالهن خارق وأربعة شبان انتشروا في الدروب والحارات بعد أن قدم لهم المسئولون كل التسهيلات المطلوبة.

اختارت واحدة منهن ٥٠ أسرة متوسط عدد أفرادها خمسة افراد. ومتوسط الدخل الشهري من ٣ الى تسعة جنيهات بالنسبة للفرد الواحد. وجهت الى هذه العائلات كلها سؤالاً واحداً: لماذا قبلتم السكنى في القبور؟_

وكانت الردود كالتالي:

٢٩ أسرة قالت ان السبب الوحيد هو ارتفاع أجرة السكن. أجرة الشقة ـ ان وجدت. وان كانت هناك قدرة على دفع خلو الرجل ومقدم الايجار ـ هذا الايجار يبدأ من عشرين جنيهاً. وليس له حد اعلى أبداً. خاصة بعد ان أعلنت الدولة توقفها عن بناء المساكن الشعبية أو الاقتصادية أو المتوسطة واكتفاء الدولة ببناء مساكن التمليك لأن التمليك يجعل دورة المال سريعة.

١٩ أسرة قالت ان السبب في إقامتها هنا. وسط القبور. عدم وجود شقق للايجار نهائياً. وكل الذي يبنى حالياً بهدف التمليك. وأرخص شقة معروضة للتمليك في مصر كلها. تعرضها احدى شركات القطاع العام. قطاع كل الشعب. أو قطاع الفئات الفقيرة من الشعب. هذه الشقة عبارة عن غرفتين وصالة في مدينة نصر. وثمنها عشرة آلاف جنيه. ويقولون لك هناك. انه عبارة عن التكلفة الفعلية فقط. بدون أرباح. مضافاً اليه ثمن الأرض التي اقيم فوقها البناء.

أسرتان قالتا ان السبب الحقيقي هو الزهد في هذا العالم. وتتساءل

الاسرتان: وهل في بلدنا في هذه الأيام ما يجعل الانسان يكون لديه أقل قدر من الحرص على الحياة التي لم تعد تطاق بكل المقاييس.

أسرة واحدة قالت ان سبب الاقامة الوحيد. هو قرب القبور الشديد من مكان العمل. وهذه الأسرة ثبت أنها أسرة تربي يعمل في المقابر نفسها.

السؤال الثاني كان عن سنة القدوم الى القبور:

٩٥٪ من العائلات نزحت الى القبور في سنة ١٩٧١. ضحكت الباحثة الفاتنة وقالت ان الزحف المقدس نحو مدينة الموتى. بدأ في السنة الأولى من عقد السبعينيات. عقد الازدهار والحرية. بعد عقد الستينيات اللعين. وقالت: أليست مفارقة غريبة. دونت هذه الجملة. في صفحتها ودونت تحتها أكثر من خط. وقررت ان تكون هذه الجملة احد العناوين الرئيسية في بحثها. تجول الباحثون وسط القبور. قال سكان مدينة الموتى. ان منظر الموت يشاهدونه يومياً. ما بين ٤، ٨ مرات، وان الحياة لا تطاق وسط المقابر في أيام الاعياد فقط. لأن القاهرة كلها تكون هنا. موتاها واحياؤها. وسكان القبور أيضاً. وفي أيام الاعياد يفضل سكان القبور تركها.

السكان تضايقهم رائحة الفورمالين وهي تكون شديدة بالنسبة للقادم الجديد فقط. اما بعد فترة من الوقت فان الساكن يتعودها. والمقابر التي تدفن فيها جثث جديدة تنبعث منها رائحة عفونة ونتانة شديدة. وتنتشر هذه الروائح في الشوارع والحارات القريبة من القبر الذي دفنت فيه هذه الجثث.

الجانب النفسي من بحثهم أكد ان (انسان الموت) وهذا اختصار لجملة الانسان الذي يعيش في مدينة الموتى، يغلب عليه الانطواء والخجل ويعاني من الحقد الدفين بسبب الاقامة الدائمة بجوار الموتى

والموت. وهو متمسك بالدين بصورة مبالغ فيها. وهو أكثر استقراراً من ساكن البيوت، لأنه لا يوجد في حياته ما يخاف على فقده. ويخشى ضياعه. ويبدو أنه وصل الى الحافة الأخرى من العالم. والمسافة بين القبر الذي يعيش فيه. والقبر الذي سيدفن فيه لا تشغل باله. انسان الموت لا يخاف من الموت.

وهو أكثر واقعية من ساكن البيت في التعامل مع الموت. وأكثر ايماناً بالله. وأغلبهم وصل لحالة من الزهد من الدنيا. وان كانت الاجيال الطالعة تعاني من احساس حاد بالدونية وبأنهم أقل من سكان البيوت. ويعانون من حالة ازدواجية في الشخصية ولا يحبون ذكر أنهم من سكان القبور أمام الغرباء والآخرين. الحلم الذي يداعب كلا منهم يدور حول معنى واحد. وهو السكنى ذات يوم داخل شقة.

أكدت الدراسة ان انسان الموت يحب الحياة في الظلام.. ويتصور ان الصمت والظلام بالنسبة له. مثل الماء بالنسبة للسمك. وان خرج منها يتعرض لمضايقات قد تؤدي الى تنغيص حياته عليه. العفاريت والجن والاشباح تصيب الاطفال بالعقد النفسية. وكل شباب القبور لديهم عقدة من نوع خاص. هي الرغبة في الذهاب الى الجامعة والانتظام في الدراسة بها حتى لو لم يكن هدفهم هو الحصول على شهادة جامعية.

المهم هو الذهاب الى الجامعة والعودة منها وكفى. الجريمة في مدينة الموتى. خاصة جداً. بعضها لا يمكن ان يقع سوى في هذه المنطقة من العالم. وهي مرتبطة بالمكان ارتباطاً تاماً.

ويبدو ان الواقع نفسه يحدد شكل سلوك الناس هنا. فعندما تنقطع المياه أكثر من يوم لا يشكو أحد ذلك. ولا يتصور انه وضع غريب أو شاذ، وعندما يعيشون أكثر من يوم بدون بوتاجاز. لا يتذمرون وحتى

عندما تحضر انبوبة البوتاجاز يدفع ثمنها جنيهاً كاملاً. مع ان الثمن الرسمي لا يتعدى ٦٥ قرشاً. يبيع لهم الصيدلي الوحيد في المدينة الدواء بسعر يزيد على السعر المكتوب على الادوية بحوالي ٢٠٪. قد ينقطع الاتوبيس الوحيد عن الحضور الى هنا عدة أسابيع. ومع هذا ينظرون الى عدم حضوره على أنه أمر طبيعي لا يستحق حتى مجرد الشكوى. الشجار نادر بين سكان مدينة الموتى ولا أحد يعرف سبب هذه الظاهرة. هل هي نتيجة الزهد في الدنيا أم نتيجة الاحساس الشديد بالقرب من الموت.

اثبتت الدراسات ان المنطقة مليئة بالفارين من وجه العدالة (ينسى الناس السؤال عدالة من. وعدالة لصالح من ضد من) كل من يريد الهروب لفترة طويلة أو قصيرة يحضر الى المنطقة ليلاً يسلم نفسه لأحد الحراس أو التربية الذي يدله على مكان لا يعرفه أحد. الأجر في هذه الحالة يكون ضخماً ويتناسب مع ظروف الهارب. وعدد هؤلاء الفارين من وجه العدالة ضخم.

والبعض منهم يدفع مبالغ خيالية نظير الاختباء هنا. أكد بعض الحراس ان محمود أمين سليمان السفاح المعروف. اختبأ في المقابر فترة من الوقت. وانه كان يدفع خمسة جنيهات عن كل ليلة تمر. أكد البعض أنه استشهد، أصر على كلمة استشهد وسط القبور. وان آخر رصاصة انطلقت من فوهة مسدسه. كانت بجوار قبر لا يزال موجوداً حتى هذه اللحظة.

التجارة الرائجة في مدينة الموتى. وهي يحرمها القانون. التجارة في الموتى أنفسهم، وفي أشياء الموتى. لها تجار وسماسرة ولها أيضاً أسعارها المتعارف عليها في هذا العالم الغريب. الكفن له ثمن. والأشياء التي

توجد مع المتوفى لها ثمن. وعظام الموتى لها ثمن. في أواخر سنة ١٩٧٦. كانت الاسعار كالتالي:

١٥ جنيهاً ثمن الجمجمة الكاملة.

٤ جنيهات ثمن عظام الذراع.

٥ جنيهات ثمن الكفن.

والذين يشترون عظام الموتى هم فقط طلبة الطب وهؤلاء يحضرون عن طريق زملائهم القدامى. لسماسرة يتفقون معهم على التسليم والتسلم والاثمان. مواعيد تسليم البضاعة غالباً ما يتم تغييرها أكثر من مرة. خوفاً من عمل كمين لضبط البائع والمشتري معاً. نبش القبور يتم بحثاً عن الكفن. واذا وجد الكفن في حالة جيدة يتم غسله وكيه ويعاد لبسه من جديد بعد تفصيله. وقد يؤدي البحث عن الكفن الى العثور على طقم أسنان من الذهب أو خاتم. أو دبلة زواج.

مدينة الموتى ترى في الليل جرائم لا يتصورها أحد. وقد تكلم الناس بحرية وبدون خوف لأن الأمر يتم بهدف علمي. ولا يوجد أحد من رجال الشرطة أو من المحافظة. قال الناس: ان الجرائم تتم ليلاً. وهي عالم غريب وخليط من الجرائم. في القبور تذبح المواشي التي لا يمكن ذبحها في السلخانات. إما لأنها مريضة أو يحرم القانون ذبحها. بعض الحيوانات التي لا تذبح أساساً مثل الكلاب والقطط تذبح وسط القبور. ويوجد مكان مخصص لذلك نظير مبلغ من المال يدفع لأحد الحراس نظير ذلك. الحيوانات تدخل على أقدامها. وتخرج على شكل ذبائح سلخانة. مدينة الموتى عبارة عن حوش صغير معزول عن المقبرة التي كان ملحقا بها. محاط بسور مرتفع من النواحي الاربع، وله باب صغير ويستخدم ليلاً فقط. خفراء المقابر يفكرون في أقصر الطرق الموصلة الى الربح. أحدهم أجر المقبرة الخاصة به. لحلاق صحة يقوم

بعمليات الاجهاض فيها لمن يرغبن في ذلك من الزبائن. سواء من سكان مدينة الموتى. أو من سكان البيوت من الناحية الأخرى. من العالم. كل ما في الحياة يتغير. لا شيء يقف في مكانه كما هو.

والعالم السري لمدينة الموتى يعرف الكثير من الأمور التي لم يكن يعرفها من قبل. تجار مخدرات يقومون بحفظ ما لديهم من بضاعة في القبور. طريقة جديدة ومبتكرة ولا تخطر على بال أحد ممن يكافحون المخدرات. وعندما يكتشف الأمر من الممكن التفكير في وسيلة أخرى جديدة.

بدأت المسألة ببساطة ولم تكن تحتاج الى جهد. يقوم الخفير بفتح مقبرة. من مكان معروف. ويمد يده. يضع البضاعة بالداخل في مكان آمن وتظل المخدرات في مكانها. . إلى آخر الزمان ظل الحال هكذا. الى أن فكر بعض التجار في زيادة الكميات الموضوعة. وصلت الى آلاف الجنيهات. مما جعل بعض التجار يعين حراساً خاصين به حول هذه القبور. تنوعت الحراسات حسب تنوع التجار. وحدثت بعض المناوشات والاحتكاكات. . وبرزت أسلحة وخرجت الى النور المدافع الرشاشة. ودخلت الى مدينة الموتى مفردات جديدة لم تكن موجودة من قبل مثل العصابات والحرب بينها. التهريب. ومع مرور الوقت قسمت مدينة الموتى بين العصابات المختلفة.

وأصبحت لكل عصابة منطقة خاصة بها. تضع فيها ما تملكه من المخدرات. وعندما قسمت المدينة أصبح الأمر لا يقتصر على وضع المخدرات فقط. بل تعداه الى التجارة فيها. وتوزيعها واستقبال الارساليات الواردة من خارج البلاد في آخر المقابر. أثثت غرف بشكل جيد. قال من دخلوها إنها لا تقل عن غرف الزمالك وجاردن سيتي. بناها الحاج صالح كبير التربية في المنطقة كلها. . بعد فترة عرف الناس

ان الغرف ستؤجر مفروشة. وسيكون الايجار بالساعة. لم يتصور أحد أن هناك من يؤجر سكناً بالساعة. ولكنهم في يوم ما. شاهدوا مجموعة من الافندية. تركوا سياراتهم في طريق صلاح سالم. أكد البعض ان السبب هو إستحالة دخولها وسط القبور. السيارة الواحدة طولها عشرة أمتار وثمنها لا يقل عن الخمسين ألف جنيه.

دخلوا احدى الغرف قيل إنهم دفعوا ايجاراً قدره عشرة جنيهات في الساعة الواحدة. وقيل إنهم حضروا بغرض لعب القمار في هذه الغرفة. بعض الذين تسللوا ونظروا من النوافذ. قالوا ان ملايين الجنيهات كانت موضوعة على المنضدة أمامهم. وان حارساً وقف على رأس الشارع. لكي ينبههم ان قدم أحد من رجال البوليس وقت اللعب. امرأة بدينة زوجة رجل من الأثرياء. أجرت غرفة واقامت فيها حفل زار. امتد حتى الصباح من غروب الشمس وحتى طلوع شمس اليوم التالي. خرجت من الحجرة أصوات هادرة هزت الأرض من تحت القبور. وخرجت مدينة الموتى بسكانها تشاهد حفل الزار. مرة حضر رجل وأجر غرفة وقال منذ البداية وبوضوح تام إنه سيقضي فيها ليلة حمراء قضى ثلاثة أيام بعد المكان، ودفع ايجاره عن هذه المدة كلها. أحضر المأكولات والمشروبات. وجهاز تسجيل وأشرطة وجهاز تليفزيون وملابس داخلية لرجل وامرأة.

اشترى لمبة نورها أحمر صارخ وركبها في حجرة النوم. . انتظر الكل لحظة حضوره واعتبروه رجلا عظيماً لأنه لا يحب اللف والدوران. وكان صريحاً وواضحاً في الليلة الموعودة حضر الرجل وقت الغروب. وكانت دهشة الجميع مذهلة عندما حضر ومعه رجل آخر. قال البعض انها حيلة. اثنان اشتركا في الايجار والتكاليف بدلاً من واحد وستحضر بعدهما امرأتان. انتظروا لكن أحداً لم يحضر. الحارس بالحجرة أقسم انه دخل

في صباح اليوم التالي فوجدهما معاً.

واحد يرتدي ملابس الرجال والثاني يرتدي ملابس امرأة. وكانا نائمين في حالة عناق من ليلة الأمس. بعدها لم يستغرب أحد ما يجري في مدينة الموتى. مرة حضرت امرأة وجهها غابة من التجاعيد. متقدمة في السن بصورة غريبة. أجرت غرفة لمدة ساعة واحدة وكانت معها فتاة بكر في سن حفيدتها فهم الحارس الأمر دونما كلمات. وعندما كانت تحضر بمفردها كان الحارس يحضر لها الفتاة المناسبة حتى قبل ان تشرح له الأمر. أكد الناس ان أكثر حالات الدعارة تتم في مقابر الخفير. خاصة من ناحية الدراسة. وان مدينة الموتى عرفت في الفترة الأخيرة تطوراً اعتبره البعض من التطورات الخطيرة في حياة المدينة. وهو الجنس الجماعي.

بدأته جماعة من السيدات. ست سيدات في أعمار متقاربة جمالهن خارق. حضرن جميعاً وأجرن غرفة واحدة بسرير واحد لمدة ثلاث ساعات دفعن في الساعة الواحدة ثلاثة جنيهات وأعطين الحارس جنيهاً على سبيل البقشيش. بعد خروجهن أكد الحارس انهن مارسن أمورهن فوق سرير واحد، وفي وقت واحد تقريباً اتسعت الاعمال وتشابكت. ان ما يجري الكلام عنه غريب. والقراء الذين ستصل اليهم هذه الكلمات أغلبهم من سكان البيوت، ولا يعرفون أي معلومات عن سكان مدينة الموتى. لا بأس من تقديم بعض المعلومات. هنا في منطقة المقابر. ثمن المتر عشرة قروش. ولكنه يباع في السوق السوداء بخمسة جنيهات. . والمفروض ان يحصل الشخص على ترخيص لكي يبنى له مقبرة.

ورغم ان المحافظة أوقفت في الفترة الأخيرة منح هذه التراخيص الا ان حركة بناء المقابر أكبر من أي وقت مضى. العاملون هنا لهم

درجات. التربي الفني وهو الذي يشرف على أكثر من مقبرة. الخفير الحارس المخصص لأكثر من حوش واحد. المعلم الكبير وهو الذي ينظم عمل مجموعة من التربية ويشرف عليهم وأهم عمل للتربي هو فتح المقبرة لحظة وصول الميت وأجرة فتح المقبرة ثلاثة جنيهات. وفي حالات الضغط يصل المبلغ الى خمسة. والتربية والخفراء لم يكونوا يخضعون لأي قانون من قبل. ولكن قانون سنة ١٩٢٤ وقانون سنة ١٩٦٤ المعدل. أصبح التربي يخضع بموجبها للدولة. والمفروض في التربي أن يكون ملماً بالقراءة والكتابة ويجيد الأشياء الشرعية لدفن الميت. وان يكون خالياً من الأمراض. المقابر مقسمة الى مناطق. وكل منطقة لها تربي وهو يعين بموجب اعلان ينشر في الصحف. ويجري تعيينه. ويفضل ان يكون من أقارب التربي المتوفى والذي خلا مكانه لوفاته. وتعينه لجنة الجبانات وهي مكونة من ممثلي وزارات العدل والصحة والادارة المحلية والاسكان. ويفصل التربي من عمله اذا تصرف في أي مقبرة أو تجرأ وباع المقابر. وتوجد عائلة ضخمة كل أفرادها من التربية. وهي تسيطر وحدها على ستة آلاف حوش ودخلها الشهري لا يقل عن خمسمائة جنيه.

في الوقت الذي كانت تتم فيه هذه الدراسة. وصلت الى المقابر دفعة جديدة من السكان أقصد سكان البيوت السابقين والذين يبحثون حالياً عن سكنى وسط القبور كان الملفت للنظر في أمر هذه المجموعة هو وصولها بشكل جماعي. وبعدها بقليل وصلت دفعة أخرى.

الدفعة الأولى. عبارة عن سكان عمارة وقعت فجر يوم وصولهم الى القبور.

أما الدفعة الثانية فهم سكان عمارة سقطت منذ أسبوع ولهم حكاية أخرى لا بأس من قولها هنا ولو على سبيل التسلية والفكاهة في وسط

هذا الجو المقبض والمحزن. بعد وصول العدد الجديد من السكان، بدأ سكان مدينة الموتى يخافون على أنفسهم من مضايقة الوافدين الجدد. همس البعض منهم ان محافظة القاهرة بها تقرير سري يقول ان ٨٥٪ من بيوت القاهرة انقضى عمرها الافتراضي وهي الآن آيلة للسقوط ويجب اخلاؤها من السكان وهدمها قبل أن تسقط على من يسكنها وتسبب الكوارث للناس. هذا معناه ان كل يوم جديد، سيأتي ومعه أعداد جديدة من سكان البيوت الذين تحولهم الظروف القاسية الى سكان قبور. من يدري قد لا يوجد قبر للحياة فيه بعد اليوم. ربما أوصل هذا الحال الى الخلوات ومقدم الايجار بالنسبة للقبور. وقد تؤجر بعض القبور مفروشة.

الكل لا يدري ويتساءل: الى أين تسير البلاد بأهلها. وعندما تصل مجموعة جديدة من السكان يقولون إنهم جزء من الذين انهارت بيوتهم. فيسألهم سكان القبور عن الجزء الباقي فيقولون ان المسئولين قسموهم على النحو التالي:

١ ـ جزء من السعداء سكنوا في المساجد الموجودة في المنطقة التي يوجد فيها المنزل الذي انهار. تحول صحن الجامع المخصص للصلاة الى حجرات بطريقة مبتكرة بأن وضعت الملاءات في كل غرفة تقيم عائلة بأكملها. وعليها ان تقضي حياتها في هذه الغرفة حتى تحل المشكلة بصورة أو بأخرى. البعض يقول عن هذه الفئة إنهم سعداء. وفي هذا القول قدر من التجاوز. ولكن السبب في أن سكان القبور، يطلقون هذه التسمية على سكان المساجد. إنهم نما الى علمهم ان إمام مسجد في حي باب الشعرية. قد لجأ الى القضاء طالباً طرد عدد من الأسر التي أقامت في مسجد. بدعوى ان المسجد مخصص للعبادة فقط وأي استخدام آخر له. مخالف للشرع والدين والقانون. فاق اهتمام سكان القبور

بالخبر. كل خبر آخر خاصة وان الحظر ممكن ان يلحق بهم. قد يقال ان المقابر مخصصة لدفن الموتى فقط. وان اقامة سكان في المنطقة منافية للقوانين. تابع الكل القضية. وان كانت لم تصل الى ساحة القضاء. رئيس النيابة الذي عرضت عليه شكوى الامام. قرر أحقية الناس في السكنى بالمساجد. نظراً لأزمة الاسكان الرهيبة. الحكم عظيم. وان كانت الحيثيات لم تحمل الاطمئنان لسكان القبور. لأنه قال، ان كل مكان طاهر يصلح للصلاة فيه. وليست المساجد فقط. للمؤمن ان يصلي في أي مكان تتوافر فيه الطهارة. وهذه الحالة لا تنطبق بحذافيرها على سكان القبور.

٢ ـ الجزء الثاني تقام لهم الخيام في الأماكن الخالية في المنطقة بعيداً عن الميادين العامة وأماكن زحام الناس. خاصة وان بعض الخيام التي أقيمت في البداية. في الميادين العامة وكانت تقع تحت أعين الناس. مما جعل الناس تتكلم في بعض الأحيان ولهذا صدرت التعليمات باقامة مثل هذه الخيام بعيداً عن الأعين وفي المناطق المهجورة. وهذا يجعل مراقبة الأمور أسهل ويبعدهم عن الخواجات والسياح والأجانب الذين يجب حصر حركتهم في الاحياء الراقية والشوارع النظيفة والميادين الرئيسية. تلك الأمكنة التي أصبحت بمثابة القشرة الورقية الهشة التي تغطي الوجه الكئيب والقبيح لحياتنا.

أصحاب الخيام لا تخلو حياتهم من المتاعب والمضايقات. فقد حدث مؤخراً ان احدى الأسر التي تهدم منزلها. أقامت في خيمة. أخذتها من المحافظة بضمان مرتب عائل هذه الأسرة. وكان في الأسرة فتاة صارخة الجمال. من ذلك النوع الذي يدير الرؤوس اينما سارت. أحبها شاب بائس ومسكين وعندما انتقلت الأسرة الى الخيمة بعد تهدم منزلها. استمرت مطاردة الشاب للفتاة الجميلة. تصور البعض انه وفاء

واخلاص نادران من الشاب لحبه. ولكن ما حسبه النـاس وفاء في زمن أصبح الوفاء فيه عملة نادرة. كان مؤامرة بكل معاني الكلمة.

اطـال الفتى الوقـوف بـالقـرب من الخيمـة. تحـادث مـع الاطفـال الصغار. ورسم خريطة للخيمة من الداخل. ولم يعرف احد ماذا ينوي ان يفعل. ولكنه في ليلة دسمة السواد. اقترب من الخيمة وشقها بمطواة كـانت معه بـالقرب من المكـان الذي كانت تنام فيه الفتـاة الجميلـة. اغتصبهـا وهرب. لم يعـثر عليه أحـد. ذهب والد الفتـاة الى المسئولين يشكـو وكـانت مفـاجـأتـه لا تـوصف. عنـدمـا وجـد ان كـل مـا يعني المسئولـين. هو معـرفة جهـة مـرتب الـوالـد ومفـردات مـرتبـه وكميـة الخصـومات التي تخصم منـه. وذلك لعمـل الـلازم نحـو تحصيـل ثمن الخيمة التي قطعت من مرتبه. لأنها عهدة رسمية. وبعد قطعها اصبحت عجزاً في العهدة. من الصعب تسويته.

اما حكاية الفتاة التي اغتصبت فأمرهـا له جهـة أخرى تبحثـه وهي جهـات الأمن. وان كان المسئول يـرى ان والد الفتـاة لن يحصل عـلى شيء. لسبب بسيط وهـو ان الفتـاة وقـع لهـا الاغتصـاب وهي تنـام في خيمة واحدة مع الأسرة وهذا معناه إنها لم تقاوم. وهذا لا يجعل المسـألة اغتصاباً. بـل تمت بالـرضاء الكـامل للفتـاة. إنها لم تقاوم ولم تستغث. وقال البعض الآخر ان الاغتصاب تم بعلم الأب أيضاً. وتلك مؤامرة منه لكي يصرف تعويضاً ضخماً من المحـافظة بـاعتبارهـا المسئول الأول عن اقامته في الخيمـة بعد انهيـار منزلـه. ولهذا قررت المحافظة المسارعة باتخاذ اجراء ضد الأب قبل ان يرفع هو قضيـة. وقررت خصم الخيمـة من مرتبه.

٣ ـ سكـان الأكشـاك وهي عبـارة عن علب من الخشب الإبلكـاش تقام على شكل صف طويل. فيه حوالي مائة كشك في آخرها دورة ميـاه

واحـدة ومطبـخ واحد للعـائلات المـائة إسم هـذه الأكشاك في الأوراق والـدفاتـر الرسميـة. مسـاكن الإيـواء المؤقت. وكلمـة المؤقت تعني أن الإقـامة لن تستمـر سوى أسبـوع. أو شهر. الحـاصل أن هـذا الشهـر انتهى والأشهـر تراكمت فـوق بعضهـا. والعـام الأول انتهى، والعـام الثاني اقترب من انتصـافه. ومـا زالت مساكن الإيـواء المؤقت مليئة بمن فيها من السكان. ويبدو أن الخطة المـوضوعـة ليست نقل السكـان من الاكشاك إلى شقق بل التوسع في إنشاء هذه الاكشـاك. التي تحولت إلى مساكن دائمة.

٤ ـ المجموعة الرابعة هم الذين يقيمون في القبـور. ورغم أن كلمة القبور تخيف من يسمعها إلا أنها بالمقارنة بكل هـذه الحالات يبـدو القبر هو المكان الوحيد الثابت. وهو أقرب إلى البيت. إذا ما قـورن بالخيمـة وصحن الجـامع والكشـك الخشبي والإقامـة في العراء. كـثرة السكـان الجـدد، تجعل الإنسـان يتساءل: هـل تكفي القبور في مصر لكـل هذه الأعداد الباحثة عن سكن ؟

القبر صنع للموتى فقط. الخطر الأكبر هو أن المدافن القديمـة، والتي أقيمت في زمن خـال. توشـك أن تنقرض. من يقيم مقـبرة في أيـامنـا هـذه. يكتفي ببناء القـبر فقط. ليس لديـه مال ولا جهـد ولا وقت ولا حالة نفسية تجعله يفكر في إقامة حـوش أو حجرة جلوس. مقـابر هـذه الأيـام بخيلة. شحيحة مثـل الأيـام التي نعيشهـا ولا يعـرف أحـد أين ستقيم الأجيال القادمة من الذين بلا سكن.

ولأن الزمن يتطور. وكل ما في الحيـاة يتقدم. تلك قـاعدة عـامة في العالم كله. إلا عندنا. في بلادنا تتغير الأمور وفق منطقهـا الخاص بهـا. فبـدلاً من بناء المسـاكن. وحل المشكلة من جـذورها. يفـاجـأ سكـان القبور. ذات صباح. بحديث صحفي مضحك ومبك في وقت واحد.

أن أحد المسئولين قد توصل إلى طريقة عبقرية وفريدة في حل مشكلة إيواء من تهدمت مساكنهم.

وهذا الحل لن يكلف الدولة كثيراً. وهو تحويل الأتوبيسات المستعملة. والتي تحولت إلى كهنة كبيوت لإقامة هذه الأسر فيها وكل أسرة تقيم في أتوبيس واحد. ويبدو أن الأمر فيه مؤامرة ما. من أصحاب البيوت. على من لا بيوت لهم. لكي يبقوا في هذا الحال إلى الأبد رصيف أو خيمة أو جزء من صحن مسجد أو قبر أو أتوبيس. ولكن لا أحد يفكر أبداً في أن تتحول هذه الأشكال المؤقتة إلى سكن دائم. هذا هو الحل الوحيد الذي يهرب منه الجميع.

آخر دفعة وصلت إلى القبور. كانت مكونة من مائة أسرة. وصلت في اليوم الذي تهدمت فيه منازلهم. سمعوا في الصباح الباكر مسئولاً كبيراً يتحدث في الراديو. كان يحاول طمأنة السادة المستمعين. كان يقول إن البلاد دخلت عصر ناطحات السحاب. وإنه تقرر إقامة أول ناطحة سحاب في الشرق الأوسط والوطن العربي والعالم الثالث وأفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية. وهذه الناطحة ستقام في مصر الجديدة وستتكون من ٨٤ دوراً.

(حدث خلاف حول عدد الطوابق. البعض قال إن المسئول الكبير أكد أن عدد الأدوار ١٨٤ طابقاً. والبعض الآخر أقسم وأكد أن عددها ١٨٤٠ طابقاً. ولم تحسم هذه المشكلة حتى الآن). ووجه المسئول، الذي كانت تفوح من صوته رائحة الدسامة والإمتلاء والشبع. وجه الدعوة للناس لمشاهدة العمل في إنشاء ناطحة السحاب التي سيتم تركيبها بالمعدات والأوناش المستوردة من أمريكا. حتى العمال مستوردين من كوريا أيضاً. وأن الناطحة ستنطح السحاب بإذن الله. بعد أسبوع واحد من الآن. تحدث بعده مسئول أقل. وقال إنه تقرر

إنشاء أربع مدن جديدة مرة واحدة. وإن هذه المدن ستكون جاهزة بالفعل للسكنى فيها بعد سنة واحدة من الآن. وفي نفس هذا اليوم سقطت العمارات التي تسكن فيها العائلات المائة.

لن يذكر المؤلف أسماء أفراد العائلات ولا عناوينهم السابقة أو الحالية. لأنه سيقبض عليهم فوراً. لأن ما قالوه يشهر بالوطن والأم الحبيبة مصر. ويهدد السلام الإجتماعي والوحدة الوطنية بين ساكن القصر وساكن القبر. وحتمية الحل الإشتراكي وما داموا قد ارتكبوا كل هذه الجرائم. فالسيف الذي صنعته الناس لنفسها جاهز والمشنقة التي أقروا أن تلتف حول أعناقهم في استفتاء عام موجودة. بدأت الحكاية بوجود قطعة أرض خالية في الشارع الذي كانوا يسكنون فيه. وليكن إسم هذا الشارع «س». أراد صاحب هذه الأرض أن يبني فيها بيتاً. من المفروض أن يذهب إلى الجهة المسئولة ويحصل على ترخيص بالبناء في هذه المساحة. وإن لم يحصل على الترخيص يزال ما يبنيه بالقوة فوراً. الرجل يعرف جيداً أن المسألة ليست بهذه الدرجة من الصعوبة، الحصول على الترخيص سهل جداً. حتى بعد البناء بدونه. وكل المطلوب هو دفع غرامة رسمية. وغرامة أخرى غير رسمية. وكل ما يمكن شراؤه رخيص ما دامت الأموال موجودة.

بدأ الرجل في دق الأساسات. ولأنه لم يحاول الحصول على ترخيص. فإنه لم يستشر مهندساً مختصاً. تسبب دق الأساسات على عمق ضخم في انهيار المنزل المجاور. لقي ١٦ شخصاً مصرعهم تحت الأنقاض. غير المفقود من العمال الذين كانوا يدقون الأساسات. والأطفال الذين كانوا يلعبون بالقرب من البيت نجا حوالي ٥٠ شخصاً من سكان البيت وذلك لعدم وجودهم في البيت في ذلك الوقت. ووجدت الصحف مادة جيدة لمدة ثلاثة أيام عبارة عن حكايات الذين

ماتوا. والذين لم يموتوا لأن الصدفة تدخلت وجعلتهم خارج المنزل في هذا الوقت بالذات وطبعاً لم تتعرض هذه الصحف لحكاية الترخيص وعدم الحصول عليه.

ومع اهتمام الصحف بالقصص ذات الطابع الرومانسي عن الأم التي ماتت لأنها حمت ابنتها الرضيع بصدرها. وحولت جسمها إلى سقف يحمي الطفلة. وبالفعل لم تمت الطفلة. والأب الذي خرج للصلاة في المسجد القريب فوقع البيت بعد خروجه بأربع ثوان فقط. حضر المسئولون، وزراء. خبراء. ومهندسون. لجان المعاينة اكتشفت عدم صلاحية ثمانية منازل أخرى للسكنى في نفس الشارع بسبب دق الأساسات، فأمرت بإخلائها إجبارياً. ونفذ رجال الأمن الأمر بالقوة. وهكذا انضمت ٩٠ أسرة أخرى إلى الأسر العشر التي نجت من المنزل الذي انهار. وأصبحت المائة عائلة من هذه اللحظة يطلق عليها لقب، الباحثون عن مأوى. عندما حضروا إلى القبور. حضر المؤلف لقاء باحثة من الذين كانوا يعدون الدراسة مع هذه الأسر.

عامل بشركة، رب عائلة، أجبرت على ترك منزلها، الذي لم يعد صالحاً للسكنى. قال: إن الضابط الذي أخرجه من مسكنه أكد له أن من سيخرج سيسلم شقة فوراً، وأن الشقق جاهزة للتسليم. رب أسرة آخر أكد أنه قرأ بنفسه في الجرائد، أنه يسكن في شقة فعلاً. وعنوان الشقة مكتوب في الجريدة. وأنه عندما ذهب إلى العنوان، لم يجد فيه شقة ولا بيتاً من الأساس. صرفت معونات عاجلة. وبعض الملابس القديمة. كل أسرة حصلت على جنيه واحد في الأسبوع. مع أن متوسط عدد أفراد الأسرة من سبعة الى عشرة أفراد.

قال آخر، إن بعض الجثث ظلت تحت الأنقاض حتى انطلقت رائحة تعفنها في الجو. وإن هذه الجثث نهبت قبل إخراجها وجردت

حتى من ملابسها. ربة أسرة دخلها سبعة جنيهات في الشهر ومعها أربع بنات وطفل. ودخلها عبارة عن معاش زوجها الذي كان عاملاً بسيطاً في مصنع تقول، انها سمعت أحد المسئولين يتحدث في الراديو. ويقول ان كل عائلة تركت مسكنها. سيخصص لها بطانية وعلبة سمن صناعي ثمنها ٢٨٥ قرشاً. وانهما سيصرفان بالمجان. وحتى هذه اللحظة، لم يتسلموا لا السمن ولا البطانية. سائق بهيئة حكومية كان يسكن في حجرة فوق الاسطح بايجار قدره ٢٠٠ قرش في الشهر بعد تهدم البيت. عاش في أحد الجوامع فترة من الوقت. ولكن زوجته أصيبت بروماتيزم من أرضية المسجد. وتقوم بعمل جلسات كهربائية وكان لا بد من ترك المسجد بسبب الرطوبة المنبعثة من أرضيته. رب أسرة مشلول كان يعمل في وحدة لتربية الدواجن. معاشه الشهري ١٥ جنيهاً. وله أسرة شردت الآن. مكوجي في الستين من العمر. مصاب بعجز كلي. ولديه سبعة أولاد منهم أربعة في المدارس. ويصرف له ضمان اجتماعي قدره ستة جنيهات في الشهر. عامل نسيج يقول انه بعد أن قضى ٤ أشهر في الشارع. على أمل الحصول على شقة. حضر اليه مندوب من البلدية. وقال له ان السكن في الشوارع ممنوع. لأن الشوارع خصصت للمشي فقط.

فحضر الى المقابر ومعه ستة أولاد. أرملة مكوجي مات منذ عام ليس له معاش. لأنه كان يعمل باليومية. معها ثلاثة أولاد في المدارس. والمعونة التي تصرف لها من الشئون الاجتماعية قدرها خمسة جنيهات شهرياً. وهي تقول، انها حتى لو وجدت شقة. مع استحالة هذا. فسترفض السكن فيها لسبب بسيط. انه لا يوجد معها الايجار المطلوب. وأنها حضرت لتقيم في حوش مقبرة. على أن لا يزيد الايجار الشهري عن خمسين قرشاً بأي حال.

مشكلة من نوع غريب على عالم مدينة الموتى. يقدمها صاحبها:

يقول: نجوت بأعجوبة من البيت الذي كنت اسكن فيه مع أسرتي. والذي سقط فوق كل سكانه وليتني ما نجوت. فقد وجدت نفسي مضطراً للاقامة فوق عظام أبي وأمي وأجدادي في مدافن أسرتي.

والحب كما ينشأ بين قلبين في بستان يانع مليء بالبلابل والزهور. فانه ينشأ أيضاً بين قلبين في أحزمة البؤس حول مدينة النور والسعادة. أي وسط المقابر الموحشة الموحشة. وفي جو مليء بالبكاء والدموع. وفي المدفن المقابل لي تقيم أسرة مكونة من زوجين وابنة واحدة. ربط الحب بين قلبينا وروحينا. فتقدمت الى والديها طالبا يدها. وتم عقد القران في مكتب المأذون. وحددنا، موعد الزفاف ثم بدأت المتاعب. عروستي وحبيبتي. تريدني ان اقيم حفلة في مدفنهم. تحييه طائفة من فناني شارع محمد علي. من المطربين والراقصات. وقد سبق ان استنكرنا حفلاً اقيم في مناسبة مماثلة، في مدفن قريب منا. وكانت هي أشدنا اعراباً عن سخطها على اقامة الافراح والليالي الملاح بين القبور.

وذات ليلة طال النقاش بيننا حول هذا الموضوع. انا من جانبي لا أرى داعياً لانفاق مليم واحد على مثل هذه المظاهر. ولا أرى من اللائق ان نقيم حفلة ابتهاج بالزفاف في مدفننا أو مدفنهم. واتصور أنه لو حدث هذا. لخرج أمواتنا من قبورهم. ليبصقوا علينا مهنئين. انني إذا لم أوافق على اقامة الحفل فلن يتم الزفاف.

في اليوم الأخير. قابل المؤلف الأسرة الوحيدة التي حضرت لتقيم في المقابر. دون ان يتهدم منزلها. تركت المنزل. وحضرت الى القبور باختيارها. وقد عدها سكان القبور من الاعاجيب الغريبة. التي تحدث في حياتهم. وقال البعض انها من العلامات السيئة وقد يكون في الأمر مؤامرة من سكان البيوت. بالزحف عليهم بهدف اخراجهم من القبور توجه المؤلف إلى رب العائلة الغريبة. والتي تناقل سكان القبور

اخبـارها. وجـرى بين المؤلف والعـائلة الغريبـة حوار، قـرر المؤلف ان يكتبه في الرواية كاملاً:

س: هل لي ان أتعرف بكم؟

جـ: دعبس عبد الكريم عبد السيد.

س: العنوان؟

جـ: العنوان السابق، ٩ حـارة سعيد. المتفـرعة من شـارع النزهـة بحي السكاكيني.

س: العمل؟

جـ: عامل بمحل لبيع الألبان في ميدان العباسية.

س: والسن؟

جـ: ٥٦ عاماً.

س: عدد أفراد الأسرة؟

جـ: تقصد سيادتك الأسرة أم القبيلة.

س: ما الفرق؟

جـ: تفرق كثيراً. القبيلة مكـونة من ١٨ ولـداً وبنتاً. وأنـا وزوجتي يصبح المجموع ٢٠ فرداً.

س: ما هي حكايتك بالضبط؟

جـ: بدأت حكايتي منذ ٣٢ عاماً مضت. عندما أخطأت وتزوجت. زوجتي الأولى انجبت ٨ أبنـاء. أكبرهم في الثـلاثين من عمـره حاليـاً. وأصغـرهم عمره ١٦ سنـة ثم توفيت زوجتي بسبب حـالة ضعف عـام وفقر دم. الناتج عن سوء **التغذية**. وليس عن عسر الهضم. أو أمـراض المعدة. تزوجت من زوجتي الثانية. بهدف العثور على انسانة تخدمني أنا والأولاد الثمانية. وليس لأي هدف آخـر. ولأنني أعمل في النهـار فقط. وفشلت في العثور على عمل بعد الظهر. ولا توجد لأمثـالنا أي وسـائل

لهو أو تسلية. وأنام من المغرب فالجلوس في الحدائق العامة التي لم يعد لها وجود أصلاً أصبح مكلفاً.

حاولت منع زوجتي من الحمل. الحبوب سببت لها حالة من الصداع الدائم. ونصح الأطباء باللولب. ولكن جاء الولد الأول. وجرينا الى الأطباء فقالوا ان اللولب لا يناسبها. ولا حل سوى ربط الرحم وتلك عملية جراحية تتكلف الكثير. وهكذا استمر الحال. دون ان ندري انجبت زوجتي الثانية، عشرة أولاد. أكبرهم عنده ١٣ سنة. وأصغرهم أكمل العامين. ان الأولاد العشرة أتوا الى هذا العالم رغم كل محاولاتنا المستميتة لمنع الحمل.

س: كم تنفق على القبيلة في اليوم الواحد؟

جـ: الطعام فقط يصل الى ثلاثة جنيهات بدون لحوم.

س: كم يكلفك شراء الخبز؟

جـ: بعد اختفاء الرغيف الذي ثمنه خمسة مليمات. يصل ثمن الخبز الى ١٢٠ قرشاً في اليوم.

س: وباقي المصروفات؟

جـ: المدارس. والمصروفات الدراسية. والأدوات الكتابية ٢٥ جنيهاً كل شهر خلال أشهر الدراسة.

س: والإيجار الذي كنت تدفعه؟

جـ: أربعة جنيهات.

س: ومرتبك الشهري؟

جـ: أعمل باليومية. وآخذ أجري آخر النهار. وتلك محاولة من صاحب المحل حتى لا يدفع لي تأمينات. وحتى لا أحصل على اجازات. وفي آخر كل يوم أحصل على ١٥٠ قرشاً.

س: والفارق بين المرتب والمصروفات؟

جـ: يعمل الأولاد.

س: في أي الأعمال؟

جـ: أعمال كثيرة ومتنوعة. حسب التساهيل. إنها ليست عملاً محدداً. وليست من الأعمال التي تشرف الانسان.

س: وسكنك السابق؟

حجرة واحدة. متران في متر وكم سنتي.

س: لماذا تركتها فجأة؟

جـ: الأولاد الذين وصلوا الى سن البلوغ كثر عددهم في العائلة. وهؤلاء ينامون متلاصقين. الشاب بجوار الفتاة. صحيح أنها أخته. ولكني لاحظت تدهور العلاقات الأخوية بينهم. وعندما سألت أحد زملائي في العمل عن هذه الحكاية. قال لي إن نومهم متلاصقين بصور غير انسانية هو السبب الوحيد. في حالة التدهور التي أصابت علاقاتهم. ولوقف حالة التدهور هذه قررت ترك الحجرة.

س: منذ متى؟

جـ: منذ سنة ١٩٧٤.

س: وماذا فعلت؟

جـ: طبعاً مستحيل السكن في عمارات القطاع الخاص. لم يكن أمامي سوى الحكومة لجأت الى المحافظة أخذت إجازة من عملي وذهبت الى كاتب شكاوي في ميدان العتبة. كتب لي شكوى الى رئيس الجمهورية ونائب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء. ورئيس مجلس الشعب. ورئيس ديوان المظالم. ونواب دائرتنا في مجلس الشعب. وبعد أكثر من سنة نجحت في تحرير عقد إيجار. بعد صدور القرار الخاص بمنحي شقة. كان القرار رقمه ٢٣٦ لسنة ١٩٧٦. وقيل لي يومها ان هذه الشقة ستكون من ثلاث حجرات وصالة وإيجارها الشهري ست جنيهات ونصف. وإنه سيتم تسليم هذه الشقة لي، بمجرد الإنتهاء من

تشطيب المساكن التي يجري العمل فيها حالياً.

أخذت العقد وتحفظت عليه كأغلى ورقة في الوجود كله. وعندما ذهبت في الاسبوع الماضي للسؤال. قيل لي. ان العقد الذي معي لاغٍ وكأنه لم يكن. لأنه تحرر في ظروف لم تعد قائمة. لأن الدولة غيرت سياستها العامة في مسألة الاسكان. وهذا يسلب العقد أي قوة قانونية. فقد تقرر حالياً ان تملك المساكن وانتهت سياسة التأجير الى غير رجعة. من حق كل مواطن ان يمتلك بيتاً في الدنيا وقبراً في الآخرة. ذلك حق للجميع. ولكن تغيير السياسة ليس معناه الخروج من المولد بدون حمص. هذا العقد يعطيني أولوية في شقق التمليك. حالياً توجد شقق غرفتين وصالة. ثمنها الرسمي: ١٢ ألف جنيه مصري. أو ما يعادلها بالدولار. ويستحسن أن يكون الدفع بالدولار الأمريكي لأن هذا يعطيني أولوية مطلقة في الاستلام... المقدم بسيط لأن الدولة هي التي تملك. المقدم ١٠٪ من الثمن أي ١٢٠٠ جنيه. والباقي يقسط على عشرين عاماً. أي أن القسط لن يقل عن الخمسين جنيهاً في الشهر بأي حال. المبلغ غير موجود معي. والقسط أكبر من مرتبي. وحتى لو وجد فإن لعنة الاقامة في مكان صغير. والنوم الجماعي ستظل ورائي. في هذه الفترة حضر للعمل معي زميل جديد. بعد تسلمه العمل سألته عن عنوانه فأخبرني أنه يعيش في القبور. حيث الهواء الطلق والبراح والمكان الواسع جداً. والحجرات الكثيرة والإيجار الذي لا يتعدى الاربعة جنيهات.

اختمرت الفكرة في ذهني. وقررت الحضور الى منطقة المقابر لعلني أجد هنا مكاناً يأوينا وننهي لعنة الحياة في حجرة واحدة ثم ما الفارق بين الحياة السابقة والجديدة. كنا من قبل نعيش عشرين فرداً في حجرة واحدة كالقبر الصغير. نحن الآن في قبور واسعة. ان الاقامة هنا

تعكس بعد نظر. وحالة من التفكير الجدي في الغد. الذين يعيشون هنا. لن تكون أمامهم مشكلة انتقال من دار الفناء الى دار البقاء. بعد الموت. المسافة لن تزيد على فركة كعب رحلة بسيطة وقد يموت الانسان أثناء نومه في قبر حقيقي. فلا يزيد الأمر على إغلاق الباب عليه فقط. ألا تقول النصيحة: إعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، لقد نفذناها أخيراً.

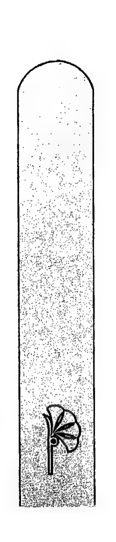




القسم الثاني

المـزاد





فقر المرء في وطنه غربة



١

سحر البرجوازية الخفي

خرجت رباب من المقهى مسرعة، كادت أن تصطدم بالكراسي والمناضد والناس. نظرت وراءها. رأت المؤلف تائهاً حائراً. كان ما يهمها هو أن لا يخرج معها، ويوصلها إلى المكان الذي تقف فيه سيارتها الفاخرة، والتي اشتراها لها زوجها في عيد زواجهما السابع. وقدمها لها هدية بهذه المناسبة. لو سار معها المؤلف إلى مكان السيارة. ووقف بجوارها حتى تركبها، لتساءل في نفسه، وبصوت لا يسمعه أحد: كيف تجمع رباب بين أموال اليمين ووجاهة اليسار الفكرية في مركب واحد؟ وصلت الموقف. أخرجت مفتاح السيارة من حقيبتها. امتدت يدها. فتحت الباب، جلست. وضعت الحقيبة والرواية على المقعد الخلفي. أدارت محرك السيارة. استدارت، أخذت الرواية. وضعتها على المقعد المجاور لها. حركت غلافها البسيط. طالعها عنوان الرواية المكتوب بخط المؤلف. تحركت السيارة ببطء مدت يدها. أخذت نقوداً من علبة تضعها أمامها. أعطتها لعامل الموقف. تحركت السيارة. أدارت الراديو. وانبعث منه صوت موسيقى هادئة. وجدت نفسها تسير دون إرادة وسط أمواج السيارات المندفعة في سرعة. كانت لديها رغبة في أن تسير ببطء. راحت تشرب المرئيات أمامها، البيوت، واجهات

المحال، السيل البشري المتدفق، الاعلانات. عجبت من نفسها هل تشاهد هذا كله لأول مرة؟ ثمة دهشة ما. إحساس بأنها لم تشاهد هذا كله من قبل. بحثت عن الإلفة القديمة مع واقع القاهرة. الاستكانة لنمط الحياة اليومي. من الذي أوصلها إلى هذا؟ زوجها الغني الذي أغرقها في سحر الترف اليومي الخفي. وجعلها مطمئنة وسعيدة للترف الذي احتل كل حواسها، واستقر فيها. قفز إلى ذهنها سؤال آخر: من الذي بدد هذه القدرة على الاستمتاع بحياتها؟ المؤلف الشاب؟ روايته؟ تلك الأوراق النائمة بجوارها في السيارة الفاخرة، الأنين الموجع والشكاوى؟، النظرة الحائرة في عينيه وتقطيبة وجهه وجديته الصارمة وحبات العرق على جبهته وملابسه غير المرتبة؟، التي ينقصها الكثير لكي تصبح ملابس أنيقة. سخرت من نفسها. انها تعلم أن المخطوط النائم بجوارها على المقعد رواية. عالم بأكمله خلقه ذهن كاتب شاب. خيال ارتدى ثياب الواقع. ليست المرة الأولى التي تقرأ فيها رواية. ولن تكون الأخيرة. عالم من خلق بشر آخرين. مهما أثر فيها. وأخذها من واقعها اليومي. فهو في النهاية ليس بديلاً لواقع كل يوم. امسكت مقود السيارة بيسراها. ووجهت عينيها على المخطوط. وأصبحت جزءاً من عنقود سيارات متحركة. يتوقف فيأخذ شكل العنقود. ويتحرك فينفرط العقد قليلاً. ثم يعود إلى شكله الأصلي مرة أخرى.

لحظة سقوط الليل على المدينة، نزول قطرات الظلام التي تبددها الأضواء الباهرة. المتألقة في الشوارع. بيتها في أحد الأحياء القريبة من وسط القاهرة. ومع هذا استغرقت وقتاً طويلاً في المسافة من المقهى وحتى البيت. أمام العمارة الشاهقة. جرى لها البواب. وقف بجوار السيارة. مد يده وفتح الباب كعادته. أخذ الحقيبة والمخطوط. أعطته مفتاح السيارة ليدخلها الجراج الضخم تحت العمارة. حاولت أخذ الحقيبة والمخطوط. ولكنه رفض وسبقها إلى السلم الرخامي. الذي

تشيع فيه الرطوبة دائماً. الزهور على جانبي المدخل حية. مروية منذ لحظات. فتح باب المصعد المعطر. دخلت. صعد معها إلى شقتها. خلف الباب كان جيش العاملين في الشقق التي تعيش فيها. في الانتظار. استأجر زوجها ثلاث شقق تشكل دوراً كاملاً وفتحها على بعضها. فأصبحت عالماً بأكمله.

يعمل عندها. سفرجي وطباخ وخادم ومربية للأطفال الذين لم يحضروا بعد. ويبدو أنهم لن يحضروا أبداً. سارت من حجرة إلى أخرى. دهش العاملون. عندما وجدوها تتفحص محتويات البيت وكأنها تشاهدها لأول مرة. قدم لها الخادم ورقة ممن سألوا عليها تليفونياً. أحد الاتصالات كان بشأن السهرة. تركت لها إحدى الصديقات ثلاثة اقتراحات لتختار منها ما يحلو لها. إما أن تذهب الشلة إلى إحدى القرى السياحية في الهرم. أو أن تذهب لمشاهدة مسرحية بها كمية هائلة من الغمز واللمز والكلمات الجنسية ثم يتعشون في أحد مطاعم الدرجة الأولى. أو يقضون السهرة في أحد الملاهي الليلية. ثم يتعشون في حي شعبي.

زوجها لا يزال نائماً. منذ خروجها وهو نائم. يصحو بعد العاشرة مساءً. ويظل يقظاً حتى صباح اليوم التالي. أحست بضيق عندما وقف الطباخ بين يديها. يسألها ان كانت هي والبيك سيتناولان طعام العشاء في المنزل أم في الخارج. وهل هناك ضيوف. سألتها الضيفة ان كانت ستخرج وأي الملابس سترتدي عند خروجها، حتى تعدها من الآن. رن جرس الباب. ورن جرس وضعه زوجها بجوار سريره. يستخدمه عادة ان احتاج أي شيء في فترة الكسل اللذيذة. التي تعقب الصحو من النوم مباشرة. وسمعت رنين التليفون. وأحضر لها السفرجي شاياً لم تكن قد طلبته. شعرت انها أوغلت في البعد عن هذا كله. أصبحت غريبة عن الحياة في قصرها الفاخر.

قالت لنفسها: ما جدوى هذا كله إذن؟ تزوجت زوجها عن حب حقيقي. شعرت به بصدق فريد. هو ابن عائلة اقطاعية قديمة. اسمها ثابت في تاريخ الاقطاع المصري. القديم والحديث. يكبرها بعشر سنوات. سمعت عنه قبل ان تراه كثيراً. اقطاعي وتقدمي؛ سألت نفسها، كيف هذا؟ عندما قابلته أدركت ان ذلك قد يكون صحيحاً، بشكل أو بآخر. قالت لنفسها بعد اللقاء الأول. انه يقوم برحلة للبحث عن النغمة الصحيحة في حياته. وانها تتمنى ان تكون ربان سفينة. قالت لنفهسا: قد يكون لها دور في اخراجه من ازدواجية حياته. إما هذا وإما ذاك. المسألة لا تحتمل محاولات الجمع بين الإثنين معاً.

كانت فقيرة. قادمة من حي متوسط. والدها موظف عادي. أنجب جيشاً من الأطفال. البيت عبارة عن مجموعة من الأفواه التي تطلب الطعام. والأيادي التي تبحث عن العمل. بدا لها الزواج أماناً مؤقتاً لحين نجاحها. في استعادة هذا الزوج إلى دنياها الخاصة. والزوج وافقها على كل ما قالته. وطلب منها ان تساعده على الاقتراب من عالمها. اكتشفت بعد الزواج، انه مشدود لعالمه الخاص. وانه من الصعب عليه التخلص من مكونات هذا العالم.

تعرفت عليه في بداية عملها بالصحافة. هو أيضاً يعمل في نفس المجال. وان كان قد سبقها بسنوات. في بداية التعارف لم يكن تقليدياً في علاقته بها. اختصر كل المسافات. وقال ما يريده بوضوح تام. طلب يدها للزواج. دهشت وطلبت منه مهلة للتفكير. القرار خطير ولا بد من التريث. الإنسان يتزوج مرة واحدة في العمر كله. هكذا قالت ضاحكة. وان كان قد بدا من حديثها انها وافقت.

انتقلت من الشقة المزدحمة التي كانت تسميها الكوميونة. إلى مجمع

الشقق الثلاث الواسعة. اشعرها الانتقال بالضآلة وسط هذا الفراغ. بعد تسرب الأيام والليالي. شعرت كم هو بعيد عنها. زاده مرور الأيام بعداً. في مساءاليوم الأول، اكتشفت انها لا يمكنها تناول عشائها إلا في حجرة السفرة. منضدة ضخمة لا تدري عدد الكراسي الموزعة حولها. يجلس هو في ناحية. وتجلس هي في الناحية الأخرى. بينها مسافات لا نهائية. يحضر السفرجي. مقدماً الأصناف يقف بالقرب منها. لحين الانتهاء من الصنف الذي قدمه. حتى يقدم غيره.

شعرت بالضيق من هذا النظام الجامد. كادت ان ترفضه. ولكن الوصيفة افهمتها أن الذهاب إلى حجرة الطعام ضروري. وانها لا يمكنها تناول الطعام سوى في الحجرة المخصصة لذلك. وانها حتى لا يمكنها الذهاب إليها بملابس غرفة النوم. ان الصالون وحجرة المكتب وحجرة الطعام. تعد من الأماكن العامة. وفي حجرة تناول الطعام. لا بد من الشوكة والسكين والملعقة. والفوطة التي توضع على الصدر. والسفرجي الذي يحرك الكرسي قبل الجلوس عليه.

أفهمتها الوصيفة انها لا يجب ان تحرك الكرسي بنفسها. فذلك يظهرها انها لم تكن من بيت راقٍ من قبل. وان عائلتها السابقة لم يكن لها سفرجي ولا غرفة طعام ولا تقاليد عائلية راقية.

وفي كل مرة كانت تذهب إلى غرفة الطعام. كان السؤال الذي يفرض نفسه عليها: لماذا كل هذا؟ المسألة لا تستحق. حاولت ان تخفف من وطأة هذا الجو. وزوجها كان يحبها. وكان مستعداً لتقديم بعض التنازلات. ولكن بحدود معينة. تعلمت منه كثيراً. وفتح لها ثغرة في الجدار العالي الذي يعزل طبقته عن الدنيا. لكي ترى وتسمع ما لم تشاهده عين. وما لم تسمعه أذن. قدمها للمجتمع الذي ينتمي إليه. لعبت دور المراقب في البداية. وحاولت بعد هذا ان تصبح جزءاً

منه. فشلت أحياناً ونجحت في أحيان أخرى. ولكن بقيت لها قلعتها الحصينة في وسط القصر. وكانت غرفتها الخاصة.

استأذنت زوجها في البداية ان تكون لها غرفة خاصة بها سرير ومكتبة ودولاب كتب وأباجورة. تستعملها للنوم والقراءة والكتابة. ناقشها طويلاً. قبل ان يوافق على مضض. قال لها. انه من المفروض ان تكون لها غرفة نوم مستقلة. وفي الوقت نفسه غرفة مكتب هذه واحدة وتلك أخرى. خاصة وانهم لا يعانون من نقص في عدد الغرف. ولديهم الكثير جداً من الحجرات. ناقشته وتكلمت معه واقتنع أخيراً. بهذا الاستثناء. بشرط ان لا تستقبل أحداً في هذه الغرفة وافقت وحافظت على الوعد.

في هذا المساء. جلست في الصالون. نظرت إلى الحائط المغطى بالورق. وتحت الورق تغطي الجدار طبقة من الزيت. فكرت في حالها. قررت ان تقف مع نفسها تحاول ان تدرك ماذا سجلت من انتصارات في معركتها مع نفسها ومع زوجها. اقترب هو منها بالفعل. ولكنها أوشكت على الغرق في بحر ذهبه الذي بلا حدود.

سخرت من نفسها. مجرد مقابلة سريعة مع كاتب شاب تفوح منه رائحة العرق الممزوج بالتراب تفعل بها كل هذا. كم تبدو حياتها ورقية وهشة. عجيب أمر التوافق الوهمي مع الحياة الذي غرق أمام أول محاولة للاختبار. من قبل حاولت تغيير نمط الحياة اليومي. قررت ان تعمل. سيكون العمل عصمتها الوحيدة. ومحاولتها للخروج من هذا النمط من الحياة. خطت في أوراقها الكثير بل الآلاف من المشروعات التي لا بد من تنفيذها. أفكار مقالات. مشروعات كتب محاولات ترجمة من الآداب العالمية إلى الأدب العربي. المشروعات كلها بقيت قيد الأحلام. لم تنفذ أبداً.

يأتي اليوم وفي صباحه، وهي في السرير الاسفنجي الناعم. تقرر ان يشهد هذا اليوم تغيير نمط الحياة. جدية وعمل وإنتاج. وقليل من السهر والترف. وتأتي لحظات اليوم الطويل. يتسرب في داخلها تصميمها الصباحي. وقت المساء، تجد نفسها متلهفة على السهر والجري والشرب ومراقبة زوجها وهو يلعب. تقول لنفسها. ان هذه الليلة ستكون آخر ليلة تلهو فيها. وفي الصباح الباكر. ومع دقات ساعات الصباح ستعمل. ستحضر ورقاً وقلماً. وتدون المشروعات التي ستنفذ. المقالات والكتب والأبحاث والترجمات. والدور الثقافي الذي تحلم بالقيام به. ويتسرب اليوم. ومع تسربه البطيء. يتبخر في داخلها التصميم الصباحي الذي بدأت به يومها.

ومع تكرار لعبة كل يوم. وجدت نفسها تعيش حالة من الخصام مع النفس. ان من بداخلها شخص آخر سواها. والمستمتع بسحر الحياة الخفي. شخص آخر. وهي رباب الحائرة بين الإثنين. ولا بد من حسم هذه الحيرة. ولن تقدر على الحسم. تتساءل: ومن هو القادر على الحسم في زمننا هذا؟

قامت، غيرت ملابسها. غسلت وجهها. طلبت شاياً. وطلبت من الخادم ان يخبر زوجها، انها تفضل قضاء سهرتها في المنزل الليلة لأن لديها الكثير من الأعمال. أخذت الرواية واتجهت إلى المكتب. وضعتها أمامها. أضاءت الأباجورة الفاخرة. تصفحت أوراقها. وبين الكلمات والأسطر سمعت أصوات الصمت في المنزل الكبير الخالي. تخيلته، الطفل الصغير الذي يحبو في الغرف الواسعة. حزنت لأنه لم يأتِ. لا تعرف من السبب هي أم هو. لسبب بسيط، انها لم تناقشه في الأمر. قالت: ان النقاش يجب ان يأتي منه هو. ولكنه فضل الصمت. وكان من المفروض ان يكسر الأهل والصحاب هذا الصمت. بيد ان أحداً منهم لم يتطرق إلى الموضوع.

وقررت رباب ان تفعل مثلهم. هكذا لم يبق لها سوى العمل. بحر ضخم تغرق فيه وجودها نفسه. وليكن ما يكون. العمل؛ ضحكت وهي تقرأ. رغم ان ما تقرأه لا يبعث على الضحك أبداً. العمل؟ ستكون كاذبة ان قالت ان عملها فرصة لتحقيق ذاتها. لتجر الأيام والليالي وراءها. هذا ما تبقى لها. في النهاية حاولت طرد الأفكار. وحاولت التركيز في قراءة الصفحات التي أمامها. وجدت صعوبة في ذلك رغم انها وصلت الى إحدى النقاط الحاسمة في الرواية.

٢

من الذي أوصل العائلة للمقبرة وماذا أوصلها للمزاد العلني؟

إنتهت المقدمات منذ فترة. عدد الصفحات الذي يفصلنا عن المقدمة الثالثة والأخيرة، ليس صغيراً. كل المقدمات كانت تلف وتدور حول العائلة وقرار كبيرها ببيع العائلة في ميدان عام. ثم توقفت الأحداث بعد هذا القرار. ويعترف المؤلف انه لم يتقدم بعده خطوة واحدة. وتلك مسألة يريد المؤلف ان يعالجها الآن. فالمؤلف يدرك. وبعد نتاجه الأدبي. الذي نشره قبل هذه الرواية. ان الرواية تقص حدثاً ما. وهذا الحدث يعني حركة. والحركة هي الفعل البشري. الرواية تعتمد على بشر. يبدعون فعلاً ما. وأي فعل لا مبرر له يصبح نوعاً من العبث. ان تصوير الفعل البشري يجعل المؤلف ليس امامه خيار في الوقوف أمام الدوافع. والمؤلف يقول ان روايته. مثل كل الروايات. تقدم بشراً يفعلون ويتحركون. وأفعالهم هذه لا تقع في الهواء الطلق. ولا في عالم من المجردات. وانما في زمان ومكان محددين.

من قبل قلت ان الدوافع هامة. والآن يؤكد المؤلف ان تجسيد العلاقة بين الفعل والزمان والمكان، مسألة أكثر أهمية. فالمؤلف يرى ان العلاقة بين الزمان والمكان. وبين أفعال البشر التي تحدث في هذا الزمان والمكان، علاقة تفاعل. الزمان والمكان ليسا غلافاً هوائياً. أو

مجرد إطار خارجي. ولكنها جزء من العمل نفسه. بل انها ـ الزمان والمكان ـ يشكلان وعن الأفراد تجاه هذا الواقع.

في هذه الرواية، المكان هو القاهرة، بكل رحابتها واتساعها. القاهرة القصر. والقاهرة العشة والقبر. مروراً بالفيلا والشاليه والبيت والشقة والحجرة فوق الاسطح والبدروم ومدن الصفيح أحزمة البؤس التي تحيط بالقاهرة من كل جانب. أما الزمان. فرغم ان المؤلف رفض ذكر الأحداث الضخمة التي مرت بالوطن. وتصادفت مع أحداث الرواية. إلا انه يعد القراء. انه في فصل قادم سيحدد تاريخاً. يجري فيه الحدث الرئيسي للرواية. وهو يوم الزحف إلى ميدان التحرير. حيث تدور الأحداث كلها من حوله. وتحديد هذا اليوم بتاريخ معين، لن يبعد كثيراً. فهو بعد صفحات قليلة.

المؤلف يريد ان ينتهي من كل هذا. ليتقدم خطوة جديدة في الرواية. وها هو يفعل هذا. الخطوة الجديدة تتحدد بسؤال. ماذا أوصل العائلة إلى درجة بيع نفسها في ميدان عام؟ سؤال هام والاجابة عليه حان وقتها. لنعد إلى ذلك الصباح الذي عقد فيه الاجتماع الهام. وأعلن فيه المليونير قراره الخطير. لنتكلم عنه مرة أخرى. لنمارس الامساك بتلك اللحظة المكثفة في الحياة. التي تتجمع فيها أوراق الحياة المبعثرة. ونعيد صياغتها وخلقها. لتصل بنا إلى الجوهر. وعند الجوهر ينصهر الواقع في شكل جديد يجيب على السؤال: ماذا أوصل العائلة إلى المزاد العلني؟

وربما توقف قارىء من الذين لم يخفضوا رؤوسهم بعد. رغم ان الرأس المرفوع يشقي صاحبه فعلاً. وقال ان سؤال المؤلف فيه قفز فوق الواقع. وقبله لا بد من طرح سؤال آخر: ماذا أوصل أفراد العائلة إلى القبر وهم أحياء؟ ان وجود أحياء في القبور وضع غير طبيعي. وان كان

الناس الذين يعاصرون هذا الوضع. حدثت لهم حالة من تبلد الحواس، حتى تعاملوا معه على انه وضع طبيعي. فذلك خطأ. والمأساة الفعلية تكمن في النظر إلى كثير من الأوضاع غير الطبيعية على انها من الأمور الطبيعية.

سيحاول المؤلف الإجابة على السؤال الأول. ماذا أوصل العائلة إلى القبر. في أوراق الاستاذ. ابن العائلة الذي دخل كلية الحقوق. ورقة تعد نقطة بدء للإجابة على السؤال الأول. الورقة عبارة عن خطاب رسمي. به قرار إزالة. للمنزل الذي كانت العائلة كلها تسكن في حجرة فوق سطحه. بأحد حواري حي عابدين.

قبل وصول الخطاب إلى العائلة. حضر المهندسون. عاينوا وخططوا ودرسوا. ورسموا بعض الخطوط على الأرض. قيل للناس في المنطقة ان الحكومة تفكر في شق طريق ضخم. شارع من النوع الواسع جداً. سيلتهم هذه الحارة وبعض الحارات الأخرى. لم يهتم المليونير بالأمر. لأنه يسكن في حجرة بدون منافع فوق السطوح. القضية تهم اصحاب الشقق في أدوار البيت الخمسة أولاً. تحرك أصحاب الشقق ذهبوا إلى المسؤولين. دخلوا مكاتب. جلسوا في حجرات انتظار. وقفوا أمام السكرتيرات المشغولات بمضغ اللبان واشغال الكانفاه. وأمام الموظفين الذين لا عمل لهم سوى حل الكلمات المتقاطعة. وداخل مكتب أولي الأمر.

كان ما قيل لهم واحداً: الشارع الجديد والذي سيقام مكان الحارة. والحارات والشوارع الصغيرة المحيطة بها. سيخصص للمواكب الرسمية وحفلات استقبال ضيوف الوطن. وستمر فيه مواكب أسرى الأعداء الذين سنهزمهم في المعارك القادمة. وفيه سيجتمع الخلق لسماع الخطب الحماسية في الاحتفال بالمناسبات الوطنية الهامة. ومهاجمة أعداء

الـوطن الحاليـين. وما يستجـد من اعداء في الغـد. وسيكـون الهجوم عليهم بصـوت مثل زئـير الأسـد. تعقبـه هبة جمـاهيريـة مؤيدة حسب الحال. وفيه سنهـدد برمي الأعـداء في الصحارى. ونصفهم بـالتخلف والجهل والسوقية وعدم القدرة على اللحاق بالعصر. وسنحـول الأعداء إلى أصـدقاء. والأصـدقاء إلى أعـداء. حسب ما يـروق لنا. أو حسب التسـاهيل. أي انـه شارع مـرتبط بالمصـالح العليـا للبلاد. لهـذا فقرار الازالة سليم من الناحية القانونية والدستورية ولا يجب المساءلة فيه.

مسئـول مهم قال لهم؛ ماذا يزعجكم؟ الخطابـات الموجـودة معكـم. ستحصلون بموجبها على شقق جديدة من المحافظة وفوراً. كل المطلوب منكم. هو التوجـه إلى ادارة الاسكان. وهنـاك ستجدون عقـود الايجار جاهزة وفي انتظار التوقيع عليها.

في المحـافـظة. حصـل البعض منهم عـلى شقق. وأجـل البعض الآخـر. المليونـير لم يحصل عـلى شقة. ولم يؤجـل حصولـه. طلبوا منـه خطاب الازالة وعقدايجار العين التي كان يشغلها. وعلى ضـوئها يعطونه السكن الجديد. غرفة صغيرة ضائعـة فوق السـطوح لم يحرر بهـا عقد. قال وشرح وتكلم ولكن أحداً لم يسمعه. تاه صوته في المحافظة. خـرج وراءه موظف قصير. قريب من الأرض. طوله مثل عرضه. وطلب منه مبلغـاً من المال. وهـو يجعـل المسئـول يتجـاوز عن شرط عقـد الايجـار المطلوب منه.

لا يمكن القول ان المليونـير رفض دفع الـرشوة المـطلوبة. لأنه لم يكن يملك المبلغ الـذي طلبه المـوظف القـريب من الأرض. سكـان الشقق أصحاب العقود. والذين حصلوا على شقق جديدة. بدأوا في الرحيل. إلى مـدينـة نصر وكـوبـري القبـة والمعـادي. حسب طلبـاتهـم. إلا المليونير. ظل في البيت. إلى ان تم ترحيله بـالقوة. وبـواسطة الشرطـة

وهكذا وجد المليونير نفسه بدون مأوى. كان رأي الاستاذ هو البقاء في البيت وسط أعمال الهدم والبناء. وانتظار مرور أول موكب من مواكب الزمن السعيد. الذي ستعيشه البلاد. وفي زحمة المواكب والفرح. سيمكن تدبير مساكن لهم. خاصة وان هذه المواكب تقام من أجل التصوير والتصدير لخارج البلاد. ولن يرضى أصحاب هذه المواكب بوجود عائلة في الشارع بدون بيت.

الشرطة لا تعرف الظروف الخاصة. والتعليمات هي التعليمات. ولا بد من تنفيذها. رحلتهم بالقوة ولكن إلى أين؟ صديق للمليونير أشار عليه بالذهاب إلى القبور. تلك كلها أحداث مضت. والوقوف أمامها ربما يعطل سياق الرواية. ولكن تجربة ذهاب إنسان حي. تنبض فيه العروق ويعمل القلب. أقول ان تجربة ذهاب مثل هذا الإنسان إلى القبر لكي يعيش فيه. من التجارب الإنسانية التي يجب الوقوف أمامها طويلاً. ولكن المؤلف يحكي كل هذا وصولاً إلى لحظة محددة. هي لحظة المزاد العلني في ميدان التحرير.

في الوقت الذي كان الشارع الجديد يرصف فيه. كانت العائلة في طريقها إلى مدينة الموتى. وهناك اكتشفوا عالماً من السماسرة والتجار. وسمعوا عن الخلوات ومقدم الإيجار. أخيراً حصلوا على مقبرة فخمة. تخص عائلة أممت ممتلكاتها وفرضت عليها الحراسة. منذ حوالي إثني عشر عاماً مضت. لم يهتموا بحكاية الحراسة والتأميم ولا السنوات التي مرت بعد فرضها.

لنقلب بعض الصفحات حتى نصل الى السؤال الثاني: ومن الذي أوصل العائلة إلى المزاد العلني في ميدان التحرير،

[يود المؤلف ان يتساءل هنا: تحرير من؟ ولكنه سيؤجل السؤال إلى الفصل الخاص بالمزاد]. صفيت الحراسات وعادت للأسرة صاحبة

المقبرة كل ممتلكاتها. وتفتحت شهية الأسرة للحياة من جديد. وقررت الأسرة زيارة القبر. ليقولوا لكبير عائلتهم. والذي مات من القهر والكمد والحسرة. يوم فرضت الحراسة عليهم. انها رفعت أخيراً. وان أملاكهم ردت إليهم. وإن الزمن دار دورة كاملة. في عدد قليل من السنوات. عادت الأمور افضل مما كانت من قبل. زمنهم قادم في الطريق إليهم. المسألة ليست مجرد رفع حراسة. ولكن البلد كلها ستقدم إليهم فوق طبق من الفضة.

ان تعاقب الأحداث يبدو مثل الأحلام. من كان يصدق؟ تأميم وحراسات وثورة. والغاء تأميم وتصفية حراسات. وادانة نفس الثورة في أقل من ربع قرن. من صفى الحراسات يدين من فرضها. والجوقة التي أحرقت البخور في مجامر من فرض الحراسة. هي نفسها التي تحرق البخور في مجامر من صفاها. كل الفارق انهم يديرون الأسطوانة المحفوظة بالعكس. من قبل كانت تدار من اليسار ناحية اليمين. والآن نفس الأسطوانة. يديرها كذابو الزفة. من اليمين ناحية اليسار. ياه. ما زالت وستبقى مصر بلد العجائب والغرائب. التي لم يحوها كتاب من قبل أبداً.

يوم الزيارة فوجئوا بوجود العائلة تسكن في القبر. حاولوا طردها بالتهديد والوعيد والمناقشات. ضاعت هذه الجهود. حراسة مفروضة على الآخرة ولكنها حراسة من نوع جديد ويمكن استصدار قرار بطرد هذه العائلة من القبر. وذلك عن طريق المحاكم هذه المرة، ان ما قامت به العائلة الفقيرة. هو اغتصاب ممتلكات الأسرة. وان كانت هذه الممتلكات مجرد قبر.

رفعوا قضية طالبوا فيها بترحيل هذه الأسرة فوراً. ونظرت القضية أمام المحاكم. لم يحضر أحد من الأسرة صاحبة القبر. حضر محام بيده

توكيل من العائلة. ترافع وتكلم عن حرمة الموتى. وعن الظلم الذي وقع على العائلة صاحبة القبر. الظلم وقع هذه المرة على الأموات. ومن قبل وقع على الأحياء. ونفس الظلم ينتظرهم في الآخرة. ان عظام موتى العائلة غير مستريحة في مقرها الأخير.

تأجلت الجلسات أكثر من مرة. وذهب المليونير إلى المحكمة بنفسه قال انه لا حل أمامه سوى ما فعله. ولو طرد من مقبرة السادة المظلومين المساكين. فلن يكون أمامه سوى الإقامة في مقبرة أخرى. لسبب بسيط وهو انه حرم نهائياً وإلى الأبد من الإقامة في سكن مثل كل الناس وأصبح من أهل مدينة الموتى. من الآن. وحتى بعد وفاته.

كانت دهشة الكل بالغة. عندما أصدر القاضي حكمه ببقاء أسرة المليونير في المقبرة. في حيثيات الحكم كلام عن عدم إثارة التوتر الاجتماعي. والفوارق التي تضخمت بين الطبقات. وان الحي ابقى من الميت. وربما كانت الظروف العامة هي السبب في مشكلة الأسرة التي سكنت القبور. وتضمن الحكم انه مطلوب من الأسرة التي تسكن في القبر الحفاظ عليه، وان تعد الإقامة نوعاً من الحراسة.

قبلت الأسرة صاحبة المقبرة الحكم. وكان لهم طلب واحد. وهو أخذ تعهد على المليونير بمعرفة قسم الشرطة بأنه مسئول عن حراسة المقبرة. وان كل ما فيها عهدة شخصية. مسلمة له بموجب هذا التعهد، ذهب المليونير إلى القسم ووقع الأوراق كلها. كان سعيداً. وكان يتصور انه انتصر في معركة هامة. وان الإقرار يعطيه الحق في الإقامة بالمقبرة حياً وميتاً. هو وأفراد أسرته كلهم.

كان ملحقاً بالمقبرة أكثر من غرفة. يقيم فيها من يحضر من العائلة لزيارة موتاهم في المناسبات العامة. وبها دورة مياه ومطبخ. وغرفة وحيدة منعزلة بها مقتنيات الموتى الذين دفنوا في المقبرة منذ انشائها. أوراق

وأشياء ثمينة وملابس وأدوات شخصية. غرفة الآثار والمقتنيات هذه. كان مفتاحها مع الأسرة الأصلية. فكانوا يفتحونها كلما حضروا لزيارة الموتى. يتأكدون من وجود ما بها من آثار هامة. خاصة ما يتصل بتاريخ الأسرة العظيمة.

بعد الحكم كثرت زيارات الأسرة صاحبة المقبرة. علاقتهم بعائلة المليونير كانت مائعة وغير محددة. لم يعرف أحد من العائلتين أين ينتهي العداء وأين تبدأ الصداقة بينهم. لفت نظر المليونير كثرة الزيارات. وانها ليست زيارات للموتى. ولا لعائلة المليونير. ولكن لغرفة الآثار. همس في أذنه أحد الخفراء القدامى في المنطقة، بأنه يوجد اسفل الحجرة كنز ضخم. خبأته الأسرة وقت ان فرضت عليها الحراسة. وهم يحضرون كثيراً هذه الأيام. للتأكد من وجوده والاستعداد لنقله من المنطقة دون ان يشعر أحد. وسيحاولون تهريبه خارج البلاد. ويهربون معه من مصر كلها.

يجب ان يكون المليونير يقظاً لهذه الحكاية. لأنهم يحضرون كثيراً بالليل. وغرفة الآثار لها أكثر من باب. وبعض الأبواب يفتح على خارج المقبرة مباشرة. دون المرور بالباب الرئيسي الذي يسكن المليونير بجواره. أكد له الخفير القديم ان السرية المطلقة في حكاية الكنز شرط وحيد للحصول على الكنز. لأن الحكومة لو علمت بوجود الكنز ستستولي عليه. ويحرم هو والعائلة الأصلية منه. وربما حولت المقبرة إلى هيئة الآثار. وطرد منها.

لم يحدث المليونير أحداً من أفراد الأسرة بالأمر. وفكر في حفر نفق يوصله إلى حفرة الآثار بعيداً عن الأعين. وقد تم هذا بمساعدة الخفير الذي أصبح شريكاً له في العملية. ليالٍ كثيرة قضاها المليونير في الحفر. حتى وصل إلى غرفة الآثار. وصل الحفر إلى أحد الجدران.

أمور كثيرة تعلمها المليونير من الخفير المدرب على مثل هذه الأمور. كان الخفير لديه يقين لا يقبل النقاش بأن مدينة الموتى عبارة عن مجموعة من البؤساء الذين يعيشون فوق جزيرة من الذهب الخالص والتحف الثمينة والآثار النادرة. وان جزيرة الذهب حق طبيعي للجياع الذين يعيشون فوقها.

بعد فتح الثغرة في جدار الحجرة. وجدوا بها مخلفات الموتى. سيوف، دروع، كتب، خطابات توصية، فرمانات من خديوي مصر خاصة بالعائلة. ملابس نسائية مفصلة على الطراز التركي. طرابيش. شيشة قال الخفير انها من الذهب الخالص. بعض قطع المصاغ الذهبية كانت محتويات الحجرة ثمينة إلى حد ما. ولكن الخفير رفض ان يعيرها اي اهتمام. وقال انها وضعت هنا للتمويه. والكنز الحقيقي تحتها. ويجب الاستعداد للحفر من الآن. قبل ان تبدأ الأسرة الأصلية في عمليات الحفر.

المليونير لم يكن متحمساً لفكرة الحفر. قال ان الموجود في القاعة يكفي. ويجب ان يؤجل باقي الحفر حتى تقل زيارات الأسرة إلى المقبرة. قال له الخفير ان الخلاف في الرأي خطير بينهما. ولهذا لا مانع من السير في الخطين معاً. خاصة وانهما يؤديان الى نفس النتيجة. الحفر وإجراء عمليات نقل محتويات الغرفة وبيعها. والخفير خبير في عمليات بيع هذه الآثار. بعد إجراء عمليات تمويه بها. وبيعها من خلال أكثر من وسيط. حتى لا ينكشف أمرهم.

دون ان يدري المليونير وجد نفسه مستمراً في عملية الحفر كل ليلة. وخلال بعض الأزمات المالية التي مرت بالعائلة. باع بعض الآثار الخاصة بالأسرة والموجودة في الغرفة. تدفق الأموال أثار بعض التساؤلات في الأسرة. وان كانت هذه التساؤلات لم تصل إلى حد

الاتهام. وعموماً فـإن عمليات البيع ليست خطيرة. ولا تصل لمستوى ما جرى للمقبرة. من عمليات للحفر. فالمقبرة عبارة عن بناء فوق وجه الأرض. تحته شبكة من القبور. كلها تحت مستوى سطح الأرض.

استمر الحفر لدرجة ان هذه الشبكة وصلت إلى بعضهـا. وأصبحت أشبـه بالفتحـة الكبيرة الـواسعة. وقـد منع انهيـار السطح ونـزولـه إلى القاع. بعض المساحات الصغيرة المسلحة بالخرسانـة. وان كـان اتصال الحفر. قد جعل المساحة التي توجد فيها الغرف المبنية فوق القبور. تئن وتتحرك عند أقل حركة.

لم يـدرك أفراد العـائلة أبعاد مـا جـرى. نـظروا إلى حـركـة الأرض تحتهم. عـلى انها بسبب النشع. وان تـوقف فيضانـات نهر النيل. بعـد بناء السد العالي. جعلت الأرض في مصر تطبل. هكذا قيل لهم. ادرك البعض منهم ان سقف القبور الذي يعيشون فوقها سينهار يوماً مـا. وان هذا اليوم قريب جداً. وان انهيار هذا السقف سيخلط الموتى بالأحياء. وقـد تصيبهم حـالـة من الكسـل فيفضلون البقـاء حيث هم. إلى أن تتساوى الأمور والأحوال.

أصحاب المقبرة زاروها بعد هـذه التطورات واكتشفـوا اختفاء بعض المقتنيـات الخاصـة بـالأسرة. جـروا. أبلغـوا الشرطـة. عملوا محضـراً بالواقعة. ورفعوا قضية أمام المحاكم. وانتدبت المحكمة خبيراً. وكـان الخبـير هو الـذي اكتشف الباب السري للغـرفة ووضـع يده عـلى كـل حـالات الحفر حـول الحجرة. والتي امتـدت ووصلت إلى بعض عظام الموتى.

كـان مطلب الأسرة في الـدعوى التي رفعـوها اعـطاءهم الأحقية في تعيين خفير يحافظ على الحجرة الأثريـة. وأخذ تعهـد جديـد على الخفـير بالمحافظة على المقـبرة. والخفير طـالب بطرد عـائلة المليونـير من المقبرة.

لأنها خالفت شروط التعهد السابق. أمام جدية الأمر لجأ المليونير إلى المحامين. لأول مرة يتردد على مكاتبهم. وكل محامياً عنه. درس القضية. وقال للمليونير ان موقفه فيها ضعيف جداً. ومن الممكن طرده بالفعل، المسألة لم تعد طرداً من سكن لا بديل له. ولكن الحفاظ على مقتنيات أسرة تطالب بالحفاظ عليها. فقد أصبح من الثابت على المليونير انه تصرف في بعض الآثار من ناحية. وأحضر شخصاً غريباً على المقبرة وأشركه في عمليات تحتها دون إذن من أصحابها الفعليين. ولا حتى إذن من السلطات المختصة. ووصلت الحفريات لدرجة تهديد المقبرة نفسها بانهيار تام لها. وهو ما يصل إلى تهديد حرمة الموتى.

محاكم أول درجة حكمت بطرده فوراً. استأنف ومر بكل مراحل القضاء. وأصرت المحاكم على طرده حفاظاً على المقبرة والمخلفات القديمة. وحماية للمقبرة من الانهيار التام. تحت معاول الحفر الذي يقوم به المليونير والرجل شريكه. اليوم الذي عقدت فيه الجلسة الأخيرة. ولدت زوجة الباشا. أتاها المخاض في الفجر، عندما أخبروه. لم ينطق بالاسم الذي يراه مناسباً للمولود الجديد.

في المحكمة. عندما نطق القاضي بالحكم. وكان حكماً لا يجوز استئنافه ولا نقضه ويجب تنفيذه فوراً. وقال في حيثيات الحكم انه أصدره لحماية المقبرة من ساكن المقبرة نفسه. والحكم يصدر لصالح كل موتى البلاد. فماذا يحدث لو ان كل ساكن من سكان القبور. قرر تصفية حساباته مع الميت المدفون في هذه المقبرة. ان هذا معناه بدء عمليات حفر لا نهاية لها. الكل سيحفر تحت المقبرة. وفي النهاية تختلط عظام الموتى بتراب الحفر والطوب وربما ببعض المياه الجوفية. وهذا يوصل الأمر إلى حالة من الفوضى التي لا يمكن السيطرة عليها. ان حرمة الموتى فوق كل صراعات الأحياء أياً كانت هذه الصراعات. لأن الكل سيموت وتلك حقيقة مؤكدة.

في طريق العودة. قال الاستاذ لوالده المليونير. انه باقٍ أمامه حوالي شهر. لكي يتركوا المقبرة من تلقاء أنفسهم قبل الطرد بالقوة. أسبوع أو اكثر حتى ينتهي القاضي من كتابة الحكم وحيثياته. ثم يمر الحكم في أروقة ومكاتب المحاكم. ويحصل الخصم على نسخة منه. ويقدمها للشرطة للتنفيذ. وهنا تصل الأمور إلى الطرد. أما إلى أين فلا يعلم إلا الله.

عض المليونير على شفتيه. وهو يسمع كلام ابنه. لو كان موقفه. قوياً لرفض ترك المقبرة. مهما كانت الأسباب. لمات هو وأبناؤه دفاعاً عنها. ولكنه أخطأ بالفعل. وكل أفراد أسرته يدركون هذا. حتى وان لم يقولوه بشكل واضح. قال المليونير لابنه إنه يشك في طردهم فعلاً. لدى البوليس آلاف الأحكام بالطرد وكلها صادرة من القضاء. ولكن الشرطة خوفاً من التذمر بين سكان القبور. فإنها لا تنفذ هذه الأحكام. ولن يطردوا من المقبرة. أكمل الباشا في صوت هامس:

ـ وان نفذ الحكم فالمقابر كثيرة. وحركة بناء القبور زادت في هذه الأيام.

شعر الأستاذ بإشفاق على والده. حاول التخفيف عنه. قال له مطمئناً:

ـ المجمدات في مصر ثلاثة: اللحوم والأسماك وأحكام القضاء.

من يومها، بدأ المليونير في التفكير الجاد. في مسألة محددة. يجب ترك المقبرة قبل الطرد منها. المسألة مسألة كرامة أولاً وأخيراً.

ويبقى السؤال: هل كان حكم القضاء هو الذي أوصلهم إلى اللحظة الفاصلة؟. الأستاذ لا يعتقد هذا. في أوراقه أسباب أخرى كثيرة. كلمات عن سوء الحال والخوف من الغد. وطبيعة تركيب الأسرة. ثم جاءت حكاية لحم الحمير والتي تمت في الأسبوع السابق

على قرار البيع في ميدان عام. لتصبح فعلاً القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقولون. أوراق الأستاذ لا تضيف جديداً عند الحديث عن سوء الحال. ولا يدري المؤلف ماذا يقصد الاستاذ بالحديث عن سوء الحال. كل من في البلد يشكو من هذه الحالة فعلاً. أصحاب البيوت وسكان القبور. ركاب الأتوبيس والمشاة. والذين يجلسون داخل السيارات المكيفة. الموتى الذين يدفنون في القبور. يشكو أهلهم من سوء الحال. سواء أكان سبب موت الميت هو التخمة أم الجوع.

ربما قصد الأستاذ بكلمة سوء الحال معاني أخرى تخص هذه الأسرة بالذات. وقد يكون السبب إقامتهم في القبر بالصورة التي يعيشون بها. والحياة داخل مقبرة. وما يترك ذلك من آثار على من يعيش بجوار الموتى. الخوف من الغد عنوان آخر وضعه الأستاذ في أوراقه.

سنلتقي في مكان آخر من الرواية بالأوراق الكاملة للأستاذ بنفس نصها. والمؤلف يكتفي هنا بالوقوف أمام ما يجيب على السؤال المطروح: ماذا أوصل العائلة إلى ميدان المزادات فقط، أما باقي الأوراق فمكانها قادم في الرواية.

في الأوراق يتكلم الأستاذ عن الغد. يؤكد ان الغد بالنسبة للآخرين مستودع الأحلام. الغد يرتبط في الأذهان بكل الأحلام التي لم تتحقق بعد. وهذه الأحلام تكون أجمل ألف مرة من الواقع المعاش. بالنسبة للعائلة يعني الغد الخوف. والخوف درجات وأنواع وأولها الخوف الغريزي على لقمة العيش دخل العائلة ضخم، المليونير يكسب والباشا يكسب والدليل المتحرك يكسب والعبقري يكسب والهانم تكسب. ولكن العائلة تعاني من مشكلتين: الأولى ان من يكسب لا يقدم للعائلة كل ما يحصل عليه. يخفي جزءاً لنفسه. ويقدم القليل للعائلة. وقد يكون سبب الإخفاء الفعلي. الخوف من التأويلات السيئة لمصدر المال.

ورفع سلاح الحلال والحرام في وجهه. رغم انه لا يوجد من يراعي هذه الأمور بينه وبين نفسه.

المبالغ التي يقدمها الأفراد للعائلة تصرف أولاً بأول. قد يصرفون عشرة جنيهات في يوم واحد. وهذا الرقم قد يصل إلى الضعف في بعض الأحيان. وفي اليوم التالي. قد لا يكون في القبر مليم واحد. ولهذا فكثيراً ما يكون السؤال في اليوم الذي تنفق فيه عشرة جنيهات. هل يجدون في الغد عشرة قروش.

أصبحت صورة الغد قاتمة. يشوبها سؤال واحد: هل يأتي الغد ومعه رزقه. أم يأتي هذا الغد بدون رزق. وان حدث هذا فما هو مبرر مجيء هذا الغد. أسرة لها ماض فقط، لا مستقبل لها. تقف وجهها إلى الوراء. أجمل الأيام في حياتها هي تلك التي مضت وانقضت بشكل أو بآخر. الغد بئر مجهول المحتويات، أهم ما فيه المخاوف والإحباطات والحذر والرعب من شبح الجوع والعري.

عن تركيب الأسرة يقول الأستاذ ان الأسرة مرت بمرحلتين، مرحلة القطيع ومرحلة الفرد. في الغرفة التي كانوا يعيشون فيها بعابدين، فوق اسطح إحدى العمارات. كانت العائلة كلها تعيش في غرفة واحدة. الأب والأم والأولاد. والابن الكبير المتزوج وأولاده. وهذه الغرفة كانت كل حدود حياتهم. فيها يصرفون شئون الحياة. الأكل والشراب وإعداد الطعام وهمسات الحب والجنس ولحظات الأحلام. دورة المياه كانت مشتركة. مع باقي سكان الغرف المتناثرة فوق أسطح العمارة. وهذا جعلهم يعيشون بعقلية القطيع. جسم واحد يتحرك من خلال أكثر من شخص، قطيع من الناس في التفكير والرؤية، ولو استمروا في الغرفة الواحدة. لتشاركوا في الجنس وهمسات الحب.

أتت التطورات التي أوصلتهم للمقابر. وفي المقبرة. وجدوا أكثر من

غرفة. وزعت الغرف عليهم. المليونير والست المديرة في غرفة، الباشا وزوجته وأولادهما في غرفة. ملكة الجمال والدليل المتنقل في غرفة. الهائم في غرفة. العبقري في غرفة، فاتنة المقابر في غرفة. الأستاذ في غرفة. وهكذا تحولوا من القطيع إلى نفسيات معزولة عن بعضها. الجدران التي تحدد الغرف، أصبحت جدراناً بين نفسياتهم. وفي المقبرة. كل فرد يعود بالليل. فإنه يخفي الجزء الأكبر من حصيلته. وقد يكون معه بعض الطعام أو الهدايا. فإنه يخفيها عن الآخرين.

لم يعد يربط بين الأفراد سوى المكان. المقبرة. والزمان. تلك اللحظات المتسربة من العمر. في أوراق الأستاذ. يؤكد ان الأسرة انتهت. ولم يعد لها وجود. وانها تخوض بعض المعارك التراجعية وهي تعود بظهرها إلى مرحلة الذبول والتلاشي. لا يتصور الاستاذ ان الانتقال وحده من الغرفة الواحدة إلى القبر الواسع كان السبب الوحيد. بل يؤكد ان المجتمع الخارجي. تعرض في الفترة التي عاصرت الانتقال من عابدين إلى مدينة الموتى لبعض الهزات الأساسية التي حولت كل الناس إلى عيدان معلقة في الفراغ. بلا جذور في الأرض أبداً. إنسحب مجتمع قديم. بكل قيمه وعاداته ومثله. ولم يتم احلال المجتمع البديل بعد ذلك. فوجد الناس أنفسهم هكذا يسبحون في الفراغ. وطن معلق في الهواء. ليست له جذور. ومشكلته هي البحث عن هذه الجذور. التي كانت معه وتخلى عنها. وخلال البحث ضاع منه الكثير. وحتى المجتمع الجديد. من الصعب التآلف معه. مجتمع أساسه الأول، الكسب بلا حدود. الحصول على المال هدف. لا يهم كيف نحققه، الشعار الآن: قل لي ماذا تستهلك أقل لك من انت؟ اجعل مظهرك الخارجي جيداً والباقي لا يهم. ان نظر الفقير لما بيد الغني فهو جزء من جبل الحقد. وكذا لم يعد أمام الفقير سوى مضغ

فقره. وبالطبع ليس أمام الغني سوى تنمية غناه.

وحتى هذا لم يقدم واقعاً بديلاً للذي كان موجوداً. يقول الأستاذ. وهكذا ضاعت الأسرة ـ أسرته هو ـ بين تطرفين: الواقع القديم الذي تمت التضحية به. والواقع الجديد الذي لا يجد الشجاعة ليعلن عن نفسه بوضوح. ما زال يتخفى ويأخذ من شعارات المرحلة الماضية أغطية له. تغطي وجهه القبيح.

يتساءل الأستاذ: أخشى ان يقول عنا المؤرخون في كتبهم بعد مئات السنين. اننا الجيل الذي ضحى بالممكن طلباً للمستحيل. وان تدفعنا هذه الحالة إلى بيع كل ما لدينا. حتى انفسنا. حماية لنا من السقوط في البئر العميقة التي تفصل بين المستحيلات والممكنات في عالمنا. كان ما بيع ضخماً وقد بيع للأغراب. الذين هجموا على البلاد. حضروا من ديار الثلج والضباب. بعد مائة سنة من هجمتهم السابقة.

[من قال ان التاريخ يعيد نفسه. يحدث مرتين بنفس الأسلوب والأشخاص والأحداث. الفارق الوحيد انه يحدث في المرة الأولى كمأساة. ولكن في المرة الثانية تكون المهزلة. لا يذكر الأستاذ ولا المؤلف من قائل العبارة. وان كانا يؤكدان انه من المؤرخين الكبار. تلك جملة خارجة على سياق الرواية. والكلام خارج القوسين ـ ما قبلها وما بعدهما ـ متصل ومستمر بدون انقطاع]، نفس الأفراد، ويبدو ان القرن من الزمان فركه كعب قصيرة المدى في عمر الدنيا. منذ قرن، حضروا. وقالوا سنجعل هذا الوطن قطعة من بلادنا. وهذه المرة حضروا. وقالوا نحن نحب بلادكم. سننقل لكم كل ما لدينا. المال والعلم والإيمان والتطور. حباً في سواد أعينكم. فنحن متيمون بحبكم. ولم نكن ننام من كثرة هذا الحب. هجرنا الحياة والعمل والعشق الدينوي وحضرنا لكم في لحظة غيبوبة صوفية. الحب أصابنا

بحالة تخدير. ونحن مخدرون. سحبوا الأرض من تحت أقدامنا وعندما سنفيق، ولا يدري أحد بعد كم من السنين يفيق شعب. سنجد اننا كلنا معلقون في الهواء.

كلام جاف. ودخيل على سياق الرواية. ان المؤلف يكتفي بهذا الجزء من أوراق الأستاذ. ويصل بنا إلى حادثة طريفة ينقذ بها الموقف. يقول الاستاذ انها كانت من الحوادث الفاصلة. والتي أدت إلى قرار البيع. يسمي هذه الحادثة حكاية لحم الحمير. وفي صلب الحكاية يصف اللحم بأنه لحم الكلاب مرة ولحم الحمير مرة أخرى ولحم القطط مرة ثالثة. ولحم الآدميين مرة رابعة. وقد وقعت الحادثة في الفترة الواقعة بين صدور حكم المحكمة. والوقوف في ميدان التحرير. القصة طويلة. وحكايتها بكل حذافيرها. ستوقف الرواية طويلاً أمام إحدى النقاط الفرعية. ولهذا سيختصرها المؤلف. صحيح انها حادثة فرعية. ولكنها كانت من المسببات الهامة لحادث مصيري في تاريخ الأسرة كلها.

ذات مساء. بعد حكم المحكمة بيومين. حضر إلى القبر عاش الملك ومعه كمية لحم ضخمة. فخذ بأكمله. ربما كانت المرة الأولى التي يدخل القبر فيها جزء من اللحم ما زال يحتفظ بشكله الأساسي. قبل ان تعبث به يد الجزار وسكينه. كالعادة في الأسرة لم يسأله أحد عن مصدر اللحم. ولا عن ثمنه. تراهنوا على وزنه. إختلفوا نظراً لضخامة الفخذ. ذهبت التخمينات إلى ان الوزن ما بين العشرة والعشرين كيلو. أما نوع الذبيحة التي أخذ منها الفخذ فلم يصل أحد لتحديده لم يكن في الفخذ ما يدل على النوع. ولم يكن به أي ختم للسلخانة التي ذبح فيها.

اللحم ضيف غريب على الأسرة ونادر التواجد فيها. ولا أحد فيهم

يذكر متى كانت آخر مرة ذاقوا فيها اللحم. ضحكوا. هللوا، صاحوا. وأعلنت الضجة المفاجئة، لكل من حولهم. ولكل من يعيش بالقرب منهم. ولكل من مر في الحارة الأمامية للمقبرة. أعلنت الضجة لكل هؤلاء ان حدثاً هاماً يجري في الداخل.

خرجت العائلة كلها من الحالة النفسية التي سببها لها حكم الطرد. ومن صدمة التفكير في غد بلا مكان للحياة فيه. حتى لو كان هذا المكان قبراً. كان اللحم هو الفرحة الأولى بعد حكم الطرد. في الداخل نشبت أكثر من معركة حول طريقة الطهي. خيل للبعض منهم انها المرة الأولى التي يأكلون فيها اللحم. وإن الأكلة ستكون نهاية العالم بالنسبة لهم. وبمجرد ان تم الاتفاق على طرق الطهي المختلفة. حتى وقف الأطفال على باب المقبرة. يقولون للعائدين من أفراد الأسرة الخبر السار. في القبر كميات من اللحم تسد عين الشمس.

وتطايرت في الأجواء القائمة الروائح القديمة. رائحة السمن المحروق والتقلية. وخرج البخار الأبيض من الأواني والحلل. وترك قطرات صغيرة ودقيقة من الندى. فوق كل ما في البيت، خرج الأطفال إلى الجيران من السكان. في طلب ما يحتاجه الطهي. ملح، فلفل، شطة، ملاعق، أطباق. أواني. كبريت، سمن، بصل، ثوم. استفسار عن طريقة عمل الشوربة بلسان العصفور. كيفية شي اللحم على الفحم. لم تكن الأسئلة تمثل رغبة فعلية في المعرفة. بقدر ما كانت فرصة للإعلان عما عندهم في ذلك اليوم.

مائدة الطعام. وصفها الأستاذ بأنها كانت حالة اجتماع الشمل بعد فترة من الفرقة والتشتت طالت كثيراً. الطبلية الموجودة لم تكن تكفي لكي يجلس الجميع حولها. فكروا في حل للمشكلة. وجدوه أخيراً. عند الباب الأمامي للمقبرة مصطبة طويلة. مخصصة لنوم الخفير.

ولانتظار من يحضرون مع الموتى للدفن. كانت المصطبة خارج القبر. في الحارة. مما دفع البعض للإعتراض. فالطعام أكبر مادة تتعرض للحسد من الآخرين. انقسموا من جديد. اختلفوا لحد العراك. قال فريق ان الطعام من نوع نادر لا يحصل عليه سكان القبور إلا نادراً. والستر مطلوب ان كان الطعام يدعو إلى الخجل. أما اللحم وبهذه الكميات. مم الخجل إذن؟ انتصر هذا الرأي في النهاية.

جلسوا في الشارع. وطوال الجلسة كان المليونير يعزم بصوت عالٍ وبحركات مبالغ فيها على كل من يمر عليهم. وفي بعض الأحيان كان يقوم من مكانه ويمسك بالمارين ويحاول إجبارهم على تناول الطعام معهم. كانت الجلسة تبدو هكذا. على رأس المصطبة من الناحية اليمنى جلس المليونير. وحول المصطبة جلس الآخرون. وزع المليونير اللحم على العائلة كلها. مع اطباق الطعام الأخرى، تذكر المليونير تعبيراً كان يسمعه من الأغنياء. خاصاً بأكل اللحم. كانوا يقولون ان فلاناً يمشي فوق أظافره بعد أكلة لحم. تساءل: ما معنى المشي فوق الأظافر. وهل تتحمل اظافر الإنسان ان يمشي فوقها. قرر ان يجرب المشي فوق الأظافر بعد الانتهاء من الطعام. لكي يختبر صدق كلام الأغنياء. النساء المتزوجات منين النفس بليلة مترعة بالوصال الجنسي. سمعن من النساء ان هناك علاقة حميمة بين أكل اللحم والقدرة الجنسية. وإن كمية اللحم كلما كبرت. . زاد عدد مرات الجماع. العزاب من شبان الأسرة حسدوا المتزوجين على الأحضان الدافئة. بعد هذه الأكلة التي لم تحدث من قبل في تاريخ العائلة كله. قبل الانتهاء من الطعام. تساءل العبقري:

ـ ألم يكن من الأفضل تقسيم اللحم على ثلاثة أيام؟

ردت فاتنة المقابر:

ـ ليتنا فكرنا في هذا.

قال عاش الملك معلقاً:

ـ لحم لثلاثة أيام أفضل من لحم ليوم واحد.

ضحك الأستاذ قائلاً:

ـ اليوم لحم وغداً أمر. كلوا كلوا.

اليوم التالي وقت الظهر. حضر الأستاذ المسمى لعنة المقابر وبيده جريدة مفتوحة على صفحة الحوادث. وضعها أمامه وجلس وهو يعاني من حالة انهيار حقيقية. كان يمسك ببطنه. نظراته زائغة وشفتاه محمرتان. ويبدو انه انزل كل ما في بطنه. سألوه ما الخبر، أشار للجريدة. نظروا إليها ولم يفهموا شيئاً. حضر الآخرون. وبدأ الأستاذ يقرأ ما في الجريدة.

العناوين ضخمة. مكتوبة باللون الأحمر، قرأ: العباسية تحت الحصار. ليلة لن تنساها العباسية أبداً. نظروا لبعضهم في دهشة. قالوا ان الأستاذ أصيب بلوثة في عقله. ما علاقتهم بما كتبته الجرائد عن العباسية والليلة التي قضتها تحت الحصار؟. على الأقل العباسية كل من فيها يسكن البيوت. ولهذا فهم أحسن درجة منهم.

أكمل الأستاذ: الأسد عنتر واللبوة نعيمة يهربان من القفص تحت تأثير الجوع. ويهددان العباسية ليلة أمس. وحتى مثول الجريدة للطبع لم يتم القبض على الأسد. واللبوة. وبالتالي لا يمكن حصر الخسائر في الأرواح. والجريدة تعد القارىء الكريم. بتقديم قوائم الخسائر والضحايا والشهداء. بكل دقة وأمانة في العدد القادم.

لم يفهموا الأمر. ولكنه عندما قال: المسئول عن فقد لحم الخيل المخصص لعنترة ونعيمة. يتكلم عن مأساته من قفص الاتهام. أمسكوا ببطونهم، فزعوا. نظروا لبعضهم. لم يجرؤ واحد منهم على الكلام. اكمل الأستاذ مدير السيرك يصرح: اللحم المسروق لحم حمير أو خيل:

الله أعلم. كان الموضوع المنشور كبيراً وعلى صفحة كاملة.

الحيوانات أصبحت أكثر قيمة من الإنسان. على أرض مصر. هذا ما اكتشفه مسعود عبدالله. الذي يعمل ساعياً في السيرك القومي بالعجوزة. اتاه الاكتشاف ذات صباح. لا يستطيع ان ينسى لحظة الاكتشاف. كان راكباً محشوراً في الأتوبيس. وفي حشرته غير الإنسانية. ضاعت منه أشياء كثيرة. كان قد اعدها من الأمس. لمعة حذائه. الذي ضيع وقتاً طويلاً في تلميعه بالليل. قميصه المكوي. بذلته الوحيدة التي لا يرتديها إلا في المناسبات. في لحظة قصيرة مرت بجوار الأتوبيس سيارة نقل سريعة. كان يقف في صندوقها الخلفي عشر أبقار بنظام وعناية. في مقدمة الصندوق ملاحظ وفي مؤخرته ملاحظ آخر. يبدو ان عملهما الأساسي هو العناية بالأبقار.

تعجب مسعود من ذلك. وقال لنفسه: يبدو ان الحيوان أصبح أكثر قيمة من الإنسان في بلدنا وليس أدل على هذا من المهمة التي يقوم بها مسعود نفسه الآن. فمنذ تقرر افتتاح فرع للسيرك القومي في ميدان العباسية، عقدت اجتماعات وعملت دراسات لكل جوانب الموضوع. وكانت المشكلة الهامة التي واجهت اللجان. هي راحة الحيوانات التي ستنقل إلى العباسية وطعامها وإقامتها. كانت هناك فكرة ان تنقل الحيوانات يومياً من مقر السيرك الرئيسي إلى العباسية وتعاد بعد تقديم البرنامج رفضت الفكرة لأسباب مادية. لهذا تقرر ان تقيم الحيوانات في العباسية على ان تنقل لها وجباتها من اللحوم يومياً. عن طريق ساعٍ يخصص لهذا العمل فقط. كل يوم.

وقع الاختيار على مسعود. عليه أخذ اللحم. وان يركب المواصلات العامة. كنوع من التسهيل ونسف الروتين. كل المطلوب منه هو تسليم التذاكر التي ركب بها. مرفقة بالاستمارة المخصصة أول كل شهر.

وسيصرف له المبلغ فوراً. وان لا يقوم بأي عمل آخر. وسينتدب من عمله الأساسي لهذه المهمة.

فرح مسعود. وقرر ان يركب أحد الأتوبيسات السياحية موحدة الدرجة. وان يجلس واضعاً قدماً على قدم. ثم يقدم التذاكر آخر الشهر وفي كل يوم كان يذهب مسعود بكمية اللحم. التي لا تقل عن عشرة كيلو جرامات ولا تزيد على ضعف الكمية. وعادة تكون من لحم الحمير أو الخيل.

في يوم الحادث ركب مسعود. وركب معه شخص آخر كان ينظر له بصورة لفتت نظره. وقد قال مسعود في نفسه ان هذا الشخص ربما كان معجباً به. فوجىء مسعود بعدم وجود مكان خالٍ. غضب وحزن على جلسته المفضلة بجوار النافذة. وفرجته اليومية على البيوت والمحلات والنساء طول الطريق.

وقف الشخص الغريب الذي يتابعه منذ خروجه من المسرح. وبيده قطعة القماش التي تنز منها قطرات الدم. حضر المحصِّل. أعطاه مسعود خمسة قروش. وأخذ التذكرة. قال مسعود أيام غريبة. تذكرة بعشرة قروش واخرى بخمسة وثالثة بعشرين قرشاً. ترحم على أيام التذكرة التي كان ثمنها قرشاً واحداً ويلف بها مصر كلها. نظر مسعود إلى التذكرة. فوجىء بأنها صغيرة جداً. ويبدو ان المحصِّل أثناء قطعها من الدفتر قد جار عليها كثيراً.

بهدوء شديد ناقشه مسعود. أفهمه انه موظف في جهة حكومية. وانه يقوم الآن بمهمة رسمية في العمل. وسيقدم التذكرة كمستند مالي. لصرف المبلغ الذي دفعه له. وكدليل انه قام بالمهمة على الوجه المطلوب منه. وتقضي اللوائح المالية في وزارته ان يكون ثلاثة أرباع التذكرة سليماً. وعليه تأشيرة المحصِّل والمفتش الموجود في آخر الخط.

وان ترفق الاستمارة الخاصة بالصرف بالجزء الباقي من التذكرة. وان قلت مساحة التذكرة عن ثلاثة الأرباع هذه تعد لاغية. وقد يجري معه تحقيق بشأنها بتهمة التزوير في أوراق رسمية.

رفض المحصِّل سماع كلامه. وتحولت حكاية التذكرة إلى مسألة عامة. بعض الركاب مع مسعود. والبعض الآخر مع المحصِّل. أصر كل منهما على موقفه. وكالعادة. المناقشة أصبحت صراخاً والصراخ عراكاً. ولأن هناك أكثر من طرف. فالعراك تحول إلى معركة ضخمة. لم ينهها سوى اكتشاف مسعود ضياع قطعة القماش التي بداخلها اللحم. والتي كان يضعها على الأرض بين قدميه.

توقف الأتوبيس. وتغير الموقف فجأة ولكي يشعرهم مسعود بخطورة ما ضاع. قال انها قماشة بداخلها عشرون كيلو من أجود أنواع اللحوم. وطلب تحويل الأتوبيس إلى أقرب قسم شرطة لعمل محضر رسمي بضياع هذه الكمية من اللحم. لأنها مهمة رسمية وكانت مهمته هي توصيلها.

تحسر ركاب الأتوبيس. وفتشوه جيداً. ولكنهم لم يعثروا على شيء. مسعود وحده هو الذي اكتشف اختفاء الشخص الغريب الذي تبعه من المسرح حتى قيام المعركة بينه وبين المحصِّل. بعد عمل المحضر في القسم وسماع أقوال الشهود. ذهب مسعود إلى فرع السيرك بالعباسية. وأبلغهم بما حدث. وأطلعهم على الورقة المدون بها رقم وساعة وتاريخ المحضر الذي حرره بواقعة فقد اللحم. ولكنه سمع تهديدات موجهة له. لأنه قد يتسبب في حدوث كارثة بسبب فقد اللحم. ان حيوانات السيرك لم تتعود على الجوع. ولا تستطيع قضاء يوم واحد بدون لحم. وهذا لم يحدث من قبل.

تساءل مسعود في حسرة، الا يعرف هؤلاء ان في هذا الوطن بشراً لا

يأكلون اللحم. سوى مرة واحدة في العام. وان كميات اللحم تكون قليلة. ولكن المصيبة التي كان يمر بها. لم تعطه الفرصة لكي يفكر في الأمر جيداً. كان هناك حل وحيد. وهو النزول الآن وشراء لحم من الجزار وتقديمه للحيوانات. ولكن هذا الحل صعب. لا بد من الحصول على موافقة مسبقة من الشئون المالية قبل الاقدام على هذه الخطوة. وقد لا يصرف المبلغ وذلك نظراً لوجود متعهد يشتري منه السيرك. من يدري ربما ثارت بعض الشبهات حول التصرف.

مدرب الوحوش طلب من مدير السيرك الفرعي إثبات تحذيراته. قال إنه لا يضمن عدم خروج الأسد عنتر واللبوة نعيمة إلى العباسية. قد يحتلان مبنى وزارة العدل وهيئة الآثار. أو قد يعتصمان في فناء كلية الشرطة. قد يصعدان في الأتوبيسات. يحطمان السيارات ويصعدان في البيوت الآمنة. وربما عزلا حي العباسية عن القاهرة كلها. الوضع خطير للغاية ويجب التنبه لذلك من الآن، وقبل وقوع الخطر.

وتنهي الصحيفة تحقيقها قائلة: أما المواطن الذي أخذ اللحم خطأ. متصوراً انه لحم صالح للطعام. ربما كانت أزمة اللحوم في بلادنا هي السبب في تصرفه هذا. ونحن نتمنى ان تكون لديه ثلاجة وضع فيها هذا اللحم. ولم يأكله. لأن اللحم في حقيقة الأمر لحم خيل. وليس لحماً صالحاً ليأكله البشر. ولم يذبح حسب الشريعة الاسلامية. وقد صرح المتعهد ان الحصان الذي أخذ منه اللحم في هذا اليوم. ربما كان مريضاً، وهذا المرض لا يؤثر في الحيوانات ان أكلت من اللحم. ولكنه شر أكيد ان أكل منه الإنسان. ولهذا نتوجه بالنداء الى المواطن الذي استعار اللحم بطريق الخطأ. ان لا يأكله. وانما يعدمه. أو ان يقدمه لإدارة السيرك القومي وقد أعذر من أنذر.

ظل الأستاذ جالساً وسط المقبرة. يخبر كل من يعود من الخارج

بالأمر. بدون رحمة، وبمجرد سماع أي فرد بالمسألة. حتى يحدث له ما حدث لغيره. يصاب بمغص حاد. يمسك ببطنه. يعيد كل ما فيها. آخر من وصل هذا اليوم. كان المليونير. بعد أن أنزل كل ما في بطنه، جلس وقال:

ـ لا بد من حل.

ويؤكدون في العائلة أنها المرة الأولى. التي يتحدث فيها عن الحل والمخرج.

وجه اللوم إلى عاش الملك. قال لهم إن ما حدث سببه، أنه خرج على دستور العائلة. الذي يقيم خطاً فاصلاً وواضحاً بين الحلال والحرام. وأنهم يدفعون ثمن خطأ ارتكبه عاش الملك. فالجوع لا يمكن أن يكون مبرراً للسرقة. أيام قليلة مرت بعد حادث لحم الخيل والحمير. اختلى فيها المليونير بنفسه. ثم فاجأهم بقرار البيع. وإن كان لم يناقش أحداً من العائلة في قراره. ما زالت الحيرة تعبث بالأستاذ، لحم الحمير أو حكم المحكمة؟ أيهما كان السبب في القرار؟ لا يدري الأستاذ وإن كان من الصعب الفصل بين الأمرين. فالمسائل تبدو متشابكة لدرجة التعقيد التام.

٣

رباب تتكلم، والمؤلف يستمع

ها هي رباب أمامه من جديد، نفس المقهى والمقاعد والجدران وملامح الوجوه الذين يقضون أغلب أيام العمر في القاهرة. الجديد في هذه المرة. توتر خفيف يلمحه على وجه رباب. أمامها مخطوط الرواية. وبجانب المخطوط نوتة صغيرة، وقلم من الأنواع الفاخرة. لدى المؤلف هواية أساسية. هي البحث عن الأنواع النادرة من الأقلام. في كل مرة تكون لديه الرغبة في الاحتفاظ بهذه الأقلام. ولكن اليد قصيرة والعين بصيرة. أصبح يكتفي بإلقاء نظرة. وطرح سؤال أو سؤالين عن نوع القلم ومكان صناعته وثمنه. ثم يتحسر بسبب الفقر.

راح يقرأ ملامح وجهها. تفرس في الخطوط الوهمية الموجودة فوق الوجه. تعب؟ اجهاد؟ غضب؟ رد فعل لقراءة الرواية؟ متاعب عائلية؟ لا يدري. منذ ان كتب روايته الأولى. والتسلل إلى أسرار الآخرين هوايته. كل إنسان يقابله. يحاول ان يحدث ثغرة في الجدران العالية التي تحيط بحياته. يقول لنفسه ان مهمته الأساسية هي اختراق ضمائر الغير. ينظر للناس في الشوارع يجدهم يبتسمون. يسمع ضحكاتهم. يهمس لنفسه: الإنسان حزمة تعسة من الأسرار. يشاهدهم خلف

زجاج المقاهي ووراء زجاج السيارات. فيقول لنفسه: واجهات، فترينات للعرض على الآخرين. ولكن خلف الفترينة دائماً يوجد البؤس.

كان يقرأ ملامح الوجوه. يفك رموزها وطلاسمها. يبحث عن أوجه التشابه بين وجه وآخر. هذا زوج هذه. المرأة الكبيرة أم الفتاة التي بجوارها. وتنساب الحكايات بداخله. الزوج يشعر بضيق لأنه يسير مع زوجته. مساحة الهواء الفارغة فوق رأسه تحتلها صورة صديقته البعيدة عنه. وتتوالد الأحداث من بعضها. حتى تكتمل الحكاية. تضبط الزوجة زوجها مع عشيقته. وقد يكون الطلاق هو الحل الأخير.

رتبت رباب أوراقها. نقرت بأصابعها على يده. قالت:

ـ نحن هنا.

سرت في يده رجفة مفاجئة عند نقرتها. قالت له انها قرأت روايته في يومين. أخذتها الرواية من مشاغلها وهمومها وأحزانها، همس لنفسه عندما لفظت كلمتي الهموم والأحزان. في بلدنا، كل الاشجار تثمر الحنظل. هذا عنوان لفصل قادم. لكل إنسان همومه الخاصة. ابتداء من القاع وحتى قمة الهرم. هرم الناس الذين يعيشون في هذا الوطن. ما يقوله الناس أحياناً عن الحب والسعادة وتحقيق الذات قشرة ودهان قديم فوق بقايا تآكلت وتفتتت. بناء وصل إلى ما قبل الانهيار. لا يفصله عن النهاية سوى لحظات الانتظار. التي قد تطول وقد تقصر. الانهيار التام مؤكد في النهاية.

قال لنفسه: ربما كان هذا هو المعنى الذي يحسه ولم يتجسد بعد في كلمات. الكل في حالة إحباط. عجز كامل عن تحقيق أي شيء. يجب ان يكون دقيقاً ليس الكل. مشكلته هي عدم التحديد مع ان الخريطة في البلد محددة بشكل صارم. المعدمون. المسحوقون. الذين يكملون

عشاءهم نوماً. الممنوعون من تحقيق ذاتهم بالعمل. هؤلاء جميعاً يشعرون بالإحباط. ان الجملة السابقة والتي تقول ان الأشجار كلها تثمر الحنظل. لا تصلح عنواناً لهذا الفصل ان بعض الأشجار فقط هي التي تثمر الحنظل. الحديث بطريقة مطلقة خطأ.

عادت رباب تنبهه، عاد لها من تهويماته الخاصة. سألته عن السبب في حالته. قال لها إنه عندما يسعد يطير مبتعداً عن الواقع اليومي بكل احباطاته وهو سعيد فعلاً. لأنها قرأت روايته. وبهذه السرعة العجيبة والأوراق التي أمامها. تؤكد ان ملاحظاتها كثيرة. قالت له. انها تفضل البدء فوراً في الحديث، فردت مخطوط الرواية. وأوراق الملاحظات. وخريطة لمدينة القاهرة. أحضرتها معها. قالت انها خريطة خاصة بها. اشترتها لتساعدها على العيش في جو الرواية. وبدأت الحديث، أمسك المؤلف بورقة وقلم. واستعد للتدوين. ليرد على هذه الملاحظات بعد الانتهاء من حديثها.

في روايتك ـ قالت رباب بصوت أقرب إلى الهمس ـ مما جعله يقترب منها أكثر. وهذا جعل خيوط النظرات تصبح حادة مدببة ـ في روايتك قالت رباب ـ مؤلفان. المؤلف الأصلي والمؤلف الداخلي. انها رواية من داخل رواية. وهي تحاول تقديم رواية الرواية. أو قصة القصة كما يقولون المستوى الأول كتبه المؤلف الأصلي. والمستوى الثاني: أو القصة الداخلية. كتبها المؤلف المصنوع. المؤلف الأصلي اسمه موجود على الغلاف الخارجي. المؤلف الآخر ليس له اسم. وان كانت ملامحه محددة بدقة متناهية. يذكر طوال الرواية مشاراً إليه بكلمة المؤلف فقط. وهذا ليس تجريداً له. بمعنى ان الهدف من ذلك. ليس القول انه يمثل كل المؤلفين في الوطن. انه مؤلف ما. ومن الممكن لأي مؤلف ان يتصور انه هو. لا.

ان المؤلف الأصلي أزال الجدار الفاصل بين المؤلف المصنوع وبينه. قد تكون محاولة لكسر حاجز الإيهام الروائي. انها تذكرني في كل خطوة اخطوها وبعد كل كلمة. انني أقرأ رواية مكتوبة. وان الأحداث التي اقرأها لم تقع في الحياة وانها من خلق مؤلف ما. تغريب أو كسر لحاجز الإيهام. لا تعنيني الأسماء ولكنها تبقى مجرد محاولة. قد تنجح وقد تفشل. ومقياس النجاح أو الفشل هو المسافة التي تقيمها بيني وبين العلم ولا تجعلني أندمج فيه بشكل عاطفي. حكاية العلاقة بين المؤلفين. تثير لدي تصوراً خاصاً. أصيغه على شكل سؤال: من من المؤلفين لم يكتب عن نفسه بحرية؟ من لم يوزع ذاته على ذوات الآخرين بالتساوي؟ من الصعب القول ان المؤلف الأصلي لم يعبر عن ذاته من خلال المؤلف المصنوع. ولهذا أترك حكاية الاسم معلقة. ولكي نتجنب الخلط بين الإثنين. سنقول المؤلف الأول عند الحديث عن المؤلف المسمى والمؤلف الثاني عند الحديث عن المؤلف المخلوق. حتى لا يحدث لبس أو خلط بين المؤلفين.

نصل إلى الرواية ذاتها. شكاوى المصري الفصيح. من الصعب ترتيب الأفكار. ولكني أبدأ بالحدث الرئيسي في الرواية. انها تقدم الشيء الفريد الذي لا يتكرر. وقد يكون أقرب الى الخوارق والأساطير في الحكايات الشعبية القديمة. ولو أدركنا، ان العمل الفني يلتقط جوهر الواقع. وان الرواية كون خاص. عالم متكامل. فالمفروض ان تكون هناك نقطة ارتكاب أساسية في هذا العالم. وهي التي تحدد رؤية الكاتب. الرؤية غير الرأي. الرواية تبدأ بلحظة محددة. لحظة اتخاذ قرار مصيري وهام. والإنسان يكشف عن نفسه في لحظة اتخاذ القرار.

ولكن المسألة الهامة التي تثيرها الرواية هي فهم الواقعية. لا شك ان فهم الواقعية مطلوب ان يعاد النظر فيه. أصبح مرفوضاً ان يتحول

الحوار إلى جزء من الثرثرة اليومية الفارغة. كما ان وجود الكاميرا، وشريط التسجيل يجعلنا نفكر أي واقعية نقدم. ان الواقع لا نهائي. والتعبير عنه يجب ان يكون هكذا. وهذا يرفض ضيق الأفق. لقد صورت الرواية عالمها. وقدمت كونها. ولكن هناك فارقاً ضخماً بين صورة الواقع وحركته. في حالة الاكتفاء بتصوير الواقع. ربما تكفي مجرد صورته. ولكن حركة الواقع أمر آخر. وحركة الواقع تتطلب منا الانحياز. الانحياز لمن؟ تلك هي المسألة.

الرواية تقطر الحياة. تقدم المتوسط الحياتي. تزاوج بين الجوهري والعارض في الحياة. وخلال هذا. تحاول المادة تفسير الحياة. لكي تضع أيدينا على اكتشاف إيقاع الواقع الداخلي. ان السطح الخارجي لعالم الرواية يجب ان يكشف عن الجوهر. في هذه الرواية تشاؤم عجز عن تقديم البديل. كما انها مكتوبة بقدر ضخم من الجدية والتجهم. مع أنه كان يجب ان تقدم بشكل هزلي. لماذا الصرامة في تصوير عالم سفلي يكشف عن العالم المقابل له. ؟ ثم ما الحل. ؟ سؤال غير مطلوب من الروائي الاجابة عليه. ولكن الرواية تطرحه في كل صفحة من صفحاتها. ثم اني توقفت طويلاً أمام سكان القبور الذين يتكلمون اللغة الفصحى. حكاية العامية والفصحى ليستا من القضايا الفنية والأدبية أبداً. قد تكون مشكلة قومية أو سياسية. خاصة بالوطن العربي وقضاياه. على المستوى الفني. قد تكون الفصحى لغة شعبية. وقد تصبح العامية من أصعب اللغات وأكثرها افتعالاً. اللغة المناسبة هي التي تقدم عالمها بسهولة ودون افتعال.

الإشخاص حكاية أخرى. من الواضح انه يوجد اهتمام بالشخصية الإنسانية. غير ان هذه الشخصيات لا تدخل في علاقات مع الواقع والأشياء والحياة. انهم غارقون في علاقات مع انفسهم. الأسرة نفسها

لا تدخل في علاقات حميمة مع من حولها. عالم الرواية يبدأ وينتهي عند حدود العائلة نفسها. مع ان الرواية تكون محصلة علاقات أخرى. مع عائلات وأسر أخرى. وهذه العلاقات تنسحب على الحب والمصالح والعمل والاحتياجات اليومية. انها في تشابكها تصبح مثل أفرع الشجر. والروائي الجيد هو الذي يضع يده على خريطة التداخل والتشابك. بل ربما التعقيد في العلاقات بين الناس. أسرة الرجل التي بيعت في ميدان عام ليست آخر العالم. ولا يمكنها الحياة بمفردها، معزولة عن الآخرين. مقطوعة الجذور. معلقة في الهواء.

العالم الذي تقدمه الرواية، عالم ثنائي. الثنائية هي العنوان الأكبر. في هذا العالم فقراء وأغنياء. مشاة وأصحاب سيارات. من يسكنون البيوت ومن يسكنون في المقابر. أبناء الأحياء الشعبية وأبناء الأحياء الراقية. أهل الريف وسكان المدن. المصريون والغرباء الدخلاء، الذين هجموا على الوطن في الفترة الأخيرة. وقد تكون هذه التقسيمات سليمة. ولكن بأي معنى هي سليمة. القول بسلامتها يعد تبسيطاً للأمور. لنقل أغنياء مصر وفقراء مصر. كأساس لثنائية. ألست معي بأنه بداخل كلمة الغني آلاف الدرجات من الغنى وان كلمة الفقير تستخدم لوصف حالات كثيرة من العذر والاحتياج؟ وهي تبدأ من حالات الجياع والعراة والمتسولين. وتصل إلى بعض من يحصلون على مرتبات ثابتة.

لا يوجد في الحياة لون أبيض فقط. ولون أسود فقط. اللون الأسود بداخله ألف درجة من الأسود. عموماً أنا لا أحب عوالم الثنائيات. والحياة نفسها أكثر تعدداً من كل الثنائيات. وحكاية الثنائية توصلنا إلى الوعي. من المعروف عن كتابنا ان الوعي الطبقي في أعمالهم لا وجود له. وان وجد فإنه يكون ساذجاً. ويتم على حساب الصدق الفنيِّ

وجمال العمل نفسه. بمعنى ان يقال ان الأغنياء متحللون أخلاقياً ونفسياً. مع ان البشر في الحياة ليسوا قوالب طوب ربما وجد وسط الأغنياء أشخاصاً أقوياء. والفقراء. ان الكاتب يتعامل معهم دائماً على انهم نماذج مناضلة ومكافحة. وهذا ـ على الرغم من كونه عيباً في بعض الأحيان ـ غير موجود في الرواية.

ان الشخصية في الرواية تطرح سؤالاً آخر. في هذه الرواية نجد السمسار والعاهرة والقواد. كثير من المنحرفين. ولكن السؤال هو: بجانب هؤلاء كم شخصية سوية نلتقي بها؟ ان القاعدة هي الشخصيات الإيجابية. والمفروض ان يكون الاستثناء هو الشخصيات المريضة. تعال إلى الشكاوى وقل لي. أين هي الشخصيات السوية وأين هي المريضة؟ ان المؤلف الداخلي. الذي تقول انه وجه من أوجه المؤلف لم تنج من التشويه والسلبية. أذكر انك قلت لي. انك لم تعرف في الحياة اليومية هذا النوع من الشخصيات. هذا سليم.

السؤال هو: هل عدم معرفتك بالشخصية الانسانية الايجابية تعني ان الحياة تخلو من هذه النماذج الايجابية والمشرقة. ان تقديم الشخصيات السلبية فقط. معناه ان حركة الواقع داخل الرواية. محكوم عليها سلفاً بأنها ستكون حركة نتاجها سلبياً. وهي معروفة النتائج قبل ان تتحرك الحوادث.

في الرواية مؤلفان. وهذا يدفعنا إلى تساؤل: ما هي الاستخدامات التي خرج بها االمؤلف الأصلي. من استخدامه لمؤلف آخر سواه في الرواية. الأدب شكل من أشكال العمل. الفنان الروائي لا يعد مراقباً محايداً يرصد نتائج معركة. المشاركة مطلوبة من الروائي. الكلمة المكتوبة يجب ان تكون أبعد من مجرد أداة تعبير. المؤلف الثاني ليس له دور سوى حكاية القصة. ولم يدخل في علاقة حميمة مع الواقع. ولم

يشارك في تغيير هـذا الواقـع نحو الأفضـل. ولكنه رأى وراقب وشهـد وسمـع ثم قدم لنـا تقريـره الختامي عن نتـائج المعـركة التي دارت. في البداية. تصورت ان يلعب المؤلف الثاني دوراً هاماً. ان يدخل في قلب الأحداث. ان ينفعل ويتفاعل. ولكنه أصبح صـورة مكررة من المؤلف الأول. ولم أشعر بفارق بين الإثنين. وقد سألت نفسي. أكـثر من مرة. خلال قراءة الرواية: هل لو كان لهذه الرواية مؤلف واحد. هل كان قد تغير شيء؟. وهـذا معنـاه ان حكـايـة المؤلفـين لم تكن مـبررة فنيـاً في الرواية.

الـرواية تقـدم أبطالاً. آسفـة. تقـدم الـذين ليسـوا أبـطالاً. لنقـل أشخاصاً. يسكنون المقابر وهي حالة عرضية، وخاصة بنا. وتصـوري هو: بعد مائة سنة قادمة. ماذا يبقى من حالة الاقامة في المقابر الأمـر لا نعرفه من الآن جيداً. قد تصبح الاقامـة في المقابـر هي القاعدة ويكون الاستثناء هو الإقامة والسكنى في البيوت.

شعرت ان الرواية طويلة. رغم انها تقدم صوتـاً واحداً. أقـرب إلى القصـة القصيرة. منـه إلى الروايـة. إننا نبـدأ وتنتهي عند هـذا الحدث الواحد. رجل ضاقت به الحال فعرض أسرته للبيع في ميدان عـام. وما جرى حول هذا الحادث من أمور. المؤلف حول هذا الحادث إلى روايـة ضخمة. ومن أجل التضخيم لجأ إلى التكنيك الـذي يخيل إلي في بعض الأحيان انه مطلق. طموح جمالي صرف لم يرتبط ببنية الرواية نفسها.

أعـود إلى حكايـة الأشخاص. لا أعـرف من صـاحب هـذا القـول الشهـير: عندمـا يعجز الفنـان عن ملاحـظة الإنسان العـادي في الحياة اليـومية. فـإنه يخلقـه. البشر في الروايـة. أشعـر انها مخلوقـات المؤلف الجميلة القبيحـة. ولكن لدي إحسـاس ـ تقول ربـاب ـ انها ليست من الواقع الحي. انها تبدو وكأنها تقوم بعمل أفعال سبق وان قامت بهـا من

قبل. أكثر من مرة. وما تفعله أمامنا ليس سوى تكرار لما سبق لها القيام به. الشخصية في الرواية تدفع لسؤال: أين التلقائية في هـذه الروايـة؟ الشخصية تبدو فاقدة للتطور والنمو. والانتقال من حالة لأخرى. وهذا يفقدها قدرتها على اثارتنا وادهاشنـا واثارة تعـاطفنا أو رفضنـا. الروايـة كلها تجعلني أصرخ: هل الواقع بكل هذا القدر من البشاعـة فعلاً؟ أم أن تشاؤم المؤلف ورفضه دفعاه لتضخيم الأحوال والأمور في بلادنا؟

الزمن حيرني في الرواية. ما هو الزمن الذي يقدمه المؤلف: هـل هو الزمان في سريانة التقليدي العادي. كما يقع في الحيـاة اليوميـة. أم أنه الزمن النفسي الخاص بالأفراد. تبقى مسـألة الحـديث عن هموم مصر. في تصـوري ان نقطة الإرتكـاز في الحديث عن همـوم مصر، انـه وطن محتل. ان هذا هو الأساس. وغيره هامشي. ان احتلال مساحة ما. من أرض وطن. دون وجود إرادة قتالية لتحرير الأرض المحتلة. واستبدال فوهة البندقية وطلقـات الرصـاص بالكلمات. والجلوس خلف المنـاضد اللامعة في الغرف المكيفة. لتحل الكلمة مكان الفعل. والمساومة بـدلاً من النضال. وان يصبح استجداء الانسحاب بديلاً عن تفجير طاقـات الوطن. الذي يستجدي ما يسمى بـالحل السلمي. هنـاك فارق ضخم بين الطلقة والكلمة. ان تحرير الأرض هو تحرير للإنسان نفسه. وهـذه الرواية لا تقدم لي الإنسان المصري المحتل احتلالاً داخليـاً. ذلك مـا لم تفعله الرواية. ستقول انك قدمت الكثير من هموم الوطن. وارد عليك بأن كل ما قدم هامشي.

ان الحديث عن الأغنياء والفقراء. يحول الـرواية لأن تصبـح صوت من لا صوت لهم .ولكنك قدمت العارض واهملت الجوهري. اعرف ان واحداً من أشخاص الرواية يرفض الاشتراك في عملية البيع بحجـة ان القضيـة الأساسيـة هنـاك. في سينـاء المحتلة. ويقـرر ان دوره هنـاك.

أعجبني هذا. ولكنه لا يكفي. لأنه يعرض لرد فعل شخص واحد تجاه هذا الاحتلال. في الوقت الذي لم يتكلم فيه عن الاحتلال نفسه.

هناك نقطة ضعف أخيرة. وهي نقطة الإرتكاز في الرواية. ما هو مصير الذين رفضوا البيع في ميدان عام. من ناحية الكم. فإن عددهم قليل. ومن الصعب أن يكون من يرفض إن يباع بهذه القلة. وأن توافق الأغلبية. هذا لا يمكن وهو تزييف لصورة الواقع. من يقبل أن يباع من؟ في روايتك ستة عشر فرداً. سأقول أن عباس المليونير رب الأسرة ولن أطلب رأيه لأنه حكم بين الأفراد كما يقال. تبقى لدينا خمسة عشر فرداً. منهم خمسة أطفال. يبقى عشرة. النسبة إذن سبعة في مقابل ثلاثة. وهؤلاء الثلاثة الذين رفضوا الغريب أن مصيرهم. أو حركتهم في الرواية لم تقدم البديل لفكرة البيع. وبهذا قدموا خدمة عظيمة للبيع على أنه المخرج الوحيد. لقد قدمت البيع على أنه فعل وما عداه ردود أفعال أرفض أن يكون السلب فعلاً والإيجاب هو رد الفعل. وأن نطلق على من يعرضون أنفسهم للبيع أصحاب أفعال. مع أن العرض في حد ذاته فعل سلبي. وأن نطلق على من رفضوا البيع ردود أفعال. الرفض في حد ذاته موقف سلبي. ولا بد من أن يتبعه تقديم البديل. حتى يصبح الرفض موقفاً مقبولاً.

كما أن أحداث الرواية لا تندفع إلى الأمام بالسرعة المطلوبة. صدقني شعرت في كثير من الصفحات أن المؤلف يلف ويدور. إن هذه الحركة الدائرية قد لا تناسب الرواية. والمطلوب لها حركة إلى الأمام. تبدأ من نقطة وتستمر في سيرها. ربما كانت طبيعة الرواية هي التي فرضت هذا. باعتبارها رواية من داخل رواية. ولكن العيب كامن في أنه منذ لحظة اتخاذ قرار البيع. والحدث يلف ويدور حول نفسه. إن أكثر من مائة صفحة تأتي بعد هذه المقدمة. حتى تصل إلى أول حدث.

وهو تقسيم أفراد العائلة إلى الرحلات الثلاث. التي يسميها المؤلف يوم الزحف. ثم الميدان العام وما جرى فيه. والبيع والتحقيق والنهايات الثلاث للرواية.

في كثير من الأحيان كنت أضيق ذرعاً بالتفاصيل. أحد فصول الرواية عنوانه: هل تخشى ألم التفاصيل؟ وهذا السؤال موجه إلى القارىء. ولا أكذب عندما أقول إن الإجابة الفورية التي كانت لدي. هي هزة من الرأس بالإيجاب عندما قرأت السؤال. إن الألم الذي تسببه هذه التفاصيل. ليس له حدود أبداً. ولا تنس أنك تقدم هذه التفاصيل الكثيرة. إلى قارىء من نوع خاص. هو قارىء مستعجل. لا يعرف فن الصبر. ولا القدرة على التأني. أخذته أجهزة الأعلام بعيداً. إنها تقدم له كل المطلوب بدون تعب أو عناء.

إن قبضة المؤلف تحتاج إلى حديث جديد. في الرواية مؤلف يفرض قبضته على كل سطر وحدث وشخص. وهذا حرم الرواية من التدفق والحيوية والبساطة. إن هذه القبضة أخضعت عالم الرواية لوجهة نظر المؤلف من السطر الأول. وحتى السطر الأخير. حتى وجهات نظر الأشخاص في الرواية. أتت قريبة من وجهة نظر المؤلف نفسه. فأين هي التلقائية إذن؟ الرواية تقدم ألف دليل على قضية واحدة. لا تحتاج إلى هذا القدر من الأدلة.

في هذه الرواية حصار. سوداوية. أنت تعاقب البشر على أفعالهم. أو حتى على أقدارهم. إنني أتساءل: ألا توجد ابتسامة واحدة في هذا العالم الذي تقدمه في الرواية. في الرواية. أخطاء لغوية. وعيوب في صياغة الجمل. وهي ليست مشكلة كاتب معين. إنها قضية جيل كامل. من الروائيين وكتاب القصة. مع أن اللغة هي الوسيلة الأولى. والوحيدة لتوصيل أفكار هؤلاء الكتاب إلى الآخرين. ويجب العناية باللغة في الأعمال الأخرى القادمة.

كانت رباب قد تعبت من كثرة الكلام. الذي قالته بدون توقف. وكانت سعادة المؤلف قد أوصلته لحد النشوة. لا يدري هو سبب هذه النشوة. ربما كان اكتشافه أن كلماته تصل إلى الآخرين. وأنها تقيم جسراً يوصله بهم. في جلسته أمام رباب كانت أمامه ورقة وبيده قلم. دون رؤوس عناوين الموضوعات. لكن يرد بعد هذا على كل ما قالته.

بعد أن انتهت من شرح وجهة نظرها. لم يجد في نفسه رغبة في الرد والنقاش. قال لنفسه: إن كل ما لدي وضعته هنا. وهو موجود في صفحات الرواية. وأي كلام بعد هذا شرح لا مبرر له. هوامش حول العمل نفسه. ولن تقدم ولن تؤخر. لم يجد لديه رغبة في الحديث والنقاش والجدل.

استراح في جلسته. طلب لنفسه شاياً. وطلب لها قهوة مضبوطة. أشعلت رباب سيجارة. شعر برغبة مفاجئة في التدخين. فأخذ منها سيجارة. تكلم. قال لها: إنه يود أن تفكر معه بصوت عالٍ في البحث عن طريقة لنشر الرواية. هنا في مصر. كيف يتم هذا؟. وقبل البحث عن طريقة النشر. قال لها إن لديه سؤالاً يريد طرحه عليها:

ـ من أقرب أشخاص الرواية إليك؟

ضحكت قائلة:

ـ الأستاذ. لعنة المقابر. الأبوكاتو. بالع الراديو.

ضحكت أكثر. لأن الألقاب الأربعة كانت لشخص واحد.

سألها من جديد.

ـ تحبينه لأنه أول الرافضين لعملية البيع.

قالت:

ـ لا. القلب ليست له أسبابه الواضحة. أحبه لسبب أو لآخر.

ليس من بينها أنه الرافض الوحيد لعملية البيع .

ـ وأحب فصول الرواية؟

قالت له رباب :

ـ لا أحب كثيراً استخدام أفعل تفضيل. إنه أحد الأساليب التي ضيعت علينا الكثير. وهو من عيوب اللغة العربية . كنت أفضل القول. إن الأستاذ من أحسن الأشخاص. ولكن أفعل تفضيل يبدو حالة من المطلق الغريبة على الواقع. بالنسبة للفصول القريبة إلى نفسي. أقول إنها البداية الثالثة للرواية. والفصل الخاص بأوراق الأستاذ لأنهما يقدمان جذور ما جرى وما حدث. ولو كنت كاتبة هذه الرواية. لبدأت الرواية بأحدهما. .

ـ ونشر الرواية؟

ـ تلك هي المعركة الأساسية. لا أثق أنك ستنجح فيها. لي معرفة ببعض دور النشر سأبعثك إليها. كن صبوراً. إذهب إليهم بالترتيب الذي سأطلبه منك. من يدري قد توفق في نشرها.

ـ وإن فشلت؟

ـ ليس أمامك سوى نشرها خارج مصر. وإن كان صعباً فهو ليس مستحيلاً. مدت يدها أخذت الرواية. قلبت صفحاتها. وتوقفت أمام فصل «أوراق الأستاذ».

٤

أوراق الأستاذ

في فصل سابق. [الطريقة الثانية لبدء الرواية بالتحديد]. والذي قدم فيه المؤلف. أشخاص روايته. تلك الوجوه المتعبة. التي تشكل أحزمة من البؤس تحيط ببهجة المدينة وتحاصرها. في هذا الفصل أغفل المؤلف الحديث عن شخص من أشخاص الرواية، وهو الأستاذ. إن المؤلف يؤكد أنه لم ينس هذا الشخص. ولم يسقط سهواً. ولكنه أغفله بشكل متعمد. وهذا الإغفال ليس سببه أن هذا الشخص غير هام. أو ثانوي. أو كائن من الدرجة الثانية. بالعكس. كانت الأهمية الفائقة لهذا الشخص هي سبب تأجيل تقديمه الوحيد.

لقد وقف المؤلف أمام هؤلاء الأشخاص ووجد أن الأستاذ يحتاج لفصل كامل. لكي يقدمه ولكي يعطيه الفرصة. ليتكلم بنفسه. للقارىء، دون وجود مؤلف وسيط بين الأستاذ والقارىء.

من المفروض أن يكون المؤلف قد كتب هذا الإيضاح. في الفصل الذي قدم فيه الأشخاص. ولكنه غير متأكد الآن. إن كان قد فعل هذا أو أغفله أيضاً. وخوفاً من ناقد من نقاد هذا الزمان. [وهل بقي في زماننا نقاد؟ يشك المؤلف في هذا كثيراً]. هذا الناقد. سيقرأ الرواية بهدف البحث عن خطأ هنا. وعيب هناك.

الـرواية لا تمجـد الوضـع القائم. لهـذا فالهجـوم عليهـا بـالحق أو الباطل. عمل مطلوب. هذا الناقد سيحول حكـاية نسيـان الأستاذ إلى عيب فني كـانت له ظـلالـه الفكـريـة عـلى المـوقف السيـاسي العـام في الـرواية. إن المؤلف يسلب هـذا العـرضحـالجي فـرصـة الهجـوم عـلى روايته. ويفرد فصلاً للأستاذ. تبقى حكاية النسيان. التي يتحدث عنها المؤلف كثيـراً. وهو يـطلب هنا فـرصـة الـدفـاع عنهـا. أو عـلى الأقـل إيضاحها.

من حق طبـاخ الصبر أن يتـذوقه. والمؤلف وهـو يتحدث كثيـراً عن الآخرين. من حقه أن يتكلم ولـو مرة واحـدة. أو أكثر عن نفسـه وعن همـومه لماذا ينسى المؤلف؟ فضلاً عن أنـه من البشر الفـانـين والنسيـان يحدث للكل إلا أن شرقنا العربي لم يعرف بعد الروائي. الذي لا عمـل له في الحياة سوى أن يكون روائياً. الكل ينـزل في الصباح. ذاهبـاً إلى عمله اليـومي. العمل الأسـاسي الذي يحصـل منه عـلى لقمة العيش. وهناك يطحنه العمل. يسلبه إنسانيته. الحرص اليومي على هذا العمل طعـام سام لأي مـوهبة. والخضـوع والرضـوخ لإطـار خـارجي يجفف ينابيع الإبداع. الخلق درجة من الجنون. ولكن الروتين اليومي والنظام الصارم. سدود تقف في وجـه موجـات الجنون المتـدفقة. وحتى عنـدما يجلس الكـاتب الموظف للعمـل. فإن قبضتـه تحاول السيـطرة على كـل تصرف. وكـل شخص. وعلى النقـاط والفواصـل والهمزات. وهكـذا يـأتي العمل نفسـه. نتيجة لهندسية عقليـة صارمـة، تؤمم الصراعـات وتحبس تدفق الحياة اليومية. وتجفف ذلك الحضور اللانهائي للواقع.

المبدع الحقيقي نصف عاقل ونصف مجنون. ولا يفسر مظاهر الحيـاة اليـومية. ولا القضـايا السيـاسية سـوى بـالفن وحـده. هـذا الكـاتب المشغول، كثيراً ما يترك العمل الفني ثم يعود إليه. إن الإنقطاع مشكلة

والعودة مشكلة أكبر. وفي فترة الإنقطاع هذه. يحاول الكاتب في الأماسي المرهقة. والليالي الممطوطة الوجه أن يكتب. أن يعود إلى ذاته الحقيقية. ومن يستطيع من خلال فترات عمل متقطعة بناء عالم روائي. كلام كثير يقال عن هموم الكاتب في بلادنا. وستجد كلاماً آخر. في بعض أجزاء أخرى من الرواية حول هذا الموضوع. ولكن الأستاذ يطرق أبواب الصفحات الآن ويطلب الإذن بالدخول:

هو الوحيد الذي تعلم في العائلة الغريبة. ولا فضل لأحد في العائلة في ذلك. منذ طفولته وصباه. ونفسه تهفو لأن يتعلم. ولأن يحصل على شهادة. له أكثر من لقب في العائلة. لعنة المقابر. وهذا اللقب يقال عنه في غيابه فقط. أحياناً يقال له الأستاذ. وهذا أحب الألقاب إلى نفسه. بعد لقب متر. وإن كان يقول لهم إن هذا اللقب لن يطلق عليه إلا بعد ربع قرن من الزمان. عندما ينجح ويفتح مكتباً.

لن يكون هذا المكتب في أطراف المدينة. ولكن في وسط البلد. منتصف المدينة تماماً. يعمل فيه حوالي عشرة من المحامين الشبان. هذا غير السكرتيرة الخاصة. فتاة حسناء. في الثامنة عشرة من عمرها. سيضع على باب المكتب لافتة تقول. المقابلة بموعد سابق فقط. سيكون في مكتبه كتبه. وآلة كاتبة. وموظفون يدورون على المحاكم لمتابعة القضايا. وسيذهب المحامون الشبان. لمتابعة كافة مراحل القضايا. أما هو فلن يذهب إلا في جلسة المرافعة فقط. حيث يأتي دوره كأستاذ. كل المراحل التمهيدية الأخرى. على تلاميذه الصغار حضورها. والقيام بعمل اللازم فيها.

لقب متر لم يثر في المقابر سوى الضحكات. تصوروا أنه يطلق على الإنسان القصير. أما أن يكون لقب للضخامة. فتلك مسألة أخرى. كانت له ألقاب أخرى تطلق عليه في غيابه. يقولون عنه الأبوكاتو. والبعض

يقول، بالع راديو. وهنا أيضاً كانوا يختلفون في عدد الراديوهات التي بلعها. البعض يقول إنها خمسة. والآخرون يصرون على أنها عشرة. بلعها في أوقات متباعدة. وضاعت بداخله. الألقاب كثيرة. ننتقل منها إلى الأستاذ نفسه. هو الوحيد في الأسرة الذي لا يشعر بخجل من حياته في المقبرة. وإن كان لم يسمح من قبل لأحد زيارته فيها. كان يقول إن بيت الإنسان مخصص لتناول الطعام والنوم والمذاكرة. أما استقبال الأصدقاء. مهما كانت درجة اقترابهم من الإنسان فله أماكن أخرى. كل زملائه يعرفون أنه يعيش في مقبرة. خاصة الفتيات منهم. أما من حضر إلى المقبرة. وشاهدها بنفسه. فإن ذلك لم يحدث أبداً.

كان كثير الحديث عن المقابر والحياة فيها. لدرجة أن البعض قال إنه يتاجر بآلامه في الكلية. من الممكن القول إنه شاب له ميول أدبية. يكثر من كتابة الملاحظات عن حياته. وقد سأله أبوه ذات مرة. عن اهتمامه بتدوين بعض الملاحظات. عن الحياة في دنيا الموتى. وهنا أتاه الرد. كان غاية في الإثارة. قال له إن مهنة المحاماة. أقرب المهن إلى الكتابة. والتأليف. بل إنها في حد ذاتها نوع من الخلق والإبداع. والإقامة هنا. لها خبرة هامة. إنها تضع الإنسان في موقف محدد. أسفل السلم الإجتماعي والطبقي في بلده. وهذا يعطيه فرصة لرؤية واضحة ومحددة. ولهذا سيحول وجوده هنا. إلى محاولة لتدوين كل ما تقع عليه العين.

سيبدأ من إنسان الموت. باعتباره في أدنى السلم. يتصور أن تتحول هذه الملاحظات إلى كتاب فيما بعد. من ناحية الشكل الفني يرجو الأستاذ أن يكون بداية لطريقة جديدة في الإبداع. يريد لهذا الكتاب أن يكون لعنة تطارد ضمير كل من يعيش في البيوت. الصنف الأول من البشر الذين يعيشون بدون مشاكل. لم يفهم والده الكثير من

الكلمات التي قالها. وعندما بدأ الحديث عن العالم المتقدم. والمؤسسات التي تقوم بمثل هذه الدراسات والعقول الآلية. التي تقدم لها المعلومات. لكي تعطي النتائج الهامة. عند هذا الحد. لم يعد الباشا يفهم أي حرف مما يقوله الإبن.

في الأيام التالية. تكلم عنه الجيران. قالوا إنه شاب مجنون. لهذا عندما رفض حكاية البيع. وكان أول صوت يقف ضد المليونير في العائلة كلها. لم يعره المليونير أي اهتمام أبداً. قال الأستاذ إن حكاية البيع لا يمكن أن تكون المخرج أبداً. في الأسرة كثر الحديث حول العلاقات النسائية للأستاذ. يقولون إنه ليست له صديقة واحدة. لم يعانِ من حكايات حب. كان يتحدث دائماً عن العلم. على أنه قوة. وبمجرد أن يتسلل إلى حياة الإنسان حتى يبدأ التغيير الحقيقي في حياته.

عالمه يتكون من ثنائية معروفة. النور والظلام. إن تبدد الظلام وساد النور حلت كل المشاكل في بلده. تلك كانت مسلمة عمره. كان يقول إن المعرفة قوة. وهي القوة الحقيقية في حياة الإنسان وعندما وضع يده على هذه الحقيقة بدأت مشاكله مع العائلة. انفصل عنهم. ودخل عالمه الخاص به. إهتزت أوتار علاقته بهم والخيوط التي كانت تربطه بأفراد العائلة أصبحت معرضة للقصف. تكلم الأستاذ كثيراً عن الدراسة كأساس لفهم الحياة. وركز على الدراسات العلمية. والأرقام والإحصائيات والنسب المئوية. وقال إن الدول التي تخلو من المؤسسات التي تقوم بمثل هذا الدور ستظل دولاً متخلفة من الآن وإلى الأبد. وإنه يقدم جهده المتواضع في هذا المجال. بالدراسة التي سيقدمها عن سكان القبور وموقفهم على الخريطة الطبقية لسكان البلاد.

لا بد من كلمات أخرى عن الأستاذ قبل أن نطل في أوراقه الخطيرة والهامة. الأستاذ مجموعة من المتناقضات. فهو أقرب إلى الحزن

والعزلة. يقول عنه أفراد العائلة. إن أكثر أحاديثه. وأطولها. تلك التي يجريها مع نفسه. بعيداً عن الآخرين. يخاف الغد. ويخشى مجرد محاولة تصوره. لصورة المستقبل. لديه اقتناع أكيد. أن الأيام التي مضت هي الأيام الجميلة حقاً. التي ولت ولن تعود. يتحدث دائماً عن العلم والفهم العلمي للعالم. والنظريات الحديثة في علم النفس والسلوك المتخلف. ومع هذا. فهو من ناحية السلوك. يبدو مشدوداً إلى عالم رومانسي لا وجود له في الحياة اليومية. وما زالت أغاني الأربعينات قادرة على إسعاده. وتحمل له أكبر قدر من الشجن والحزن.

معتز بنفسه إلى درجة الحساسية المفرطة. ولديه إحساس كبير في الوقت نفسه بالدونية. وبقدرية التواجد على خريطة السلم الإجتماعي. وإن من أتوا إلى الدنيا وهم في أسفل السلم الإجتماعي. سيظل شيء فيهم يشدهم إلى هذه الدرجة. وإن الصعود في مجتمع طبقي قضية خاسرة. حتى قبل التفكير فيها والإقدام عليها. لا يبدي حباً خاصاً للمال. ولا توجد لديه رغبة أكيدة في الحصول عليه. ومع هذا. فالجنيه هو الورقة الوحيدة القادرة على إسعاده.

لديه قدرة فريدة على إعطاء الآخرين صوراً مختلفة عن نفسه لحد التناقض. يتحدث كثيراً عن صورته لدى الآخرين من البشر. وقدرته على إعطاء صور مختلفة عن نفسه لهم. لهذا تجد من يتحدث عنه كقديس. ومن يقول إنه فاجر. ومن يقول إنه محنط. ومن يؤكد أنه عاش حياته بالطول والعرض والعمق والإرتفاع. وعندما يسمع كل هذه الأوصاف. يقول، إن الآخرين ما هم إلا مرايا. تبدو فيها شخصية الإنسان. وقد انعكست لدى الآخرين فعلاً. هو نفسه يخاف ما بداخله. لأن الذات التي يعايشها في لحظات الحديث مع النفس. والإنطواء والبعد عن الآخرين. تبدو له مختلفة عن الذات الأخرى. التي تتعامل مع الناس في الحياة اليومية.

كـانت له همـومه اليـومية المتجـددة، الخوف من الغـد. والخوف من اللحظة. والجوع للجنس. والجوع للطعام. والـرغبة في الحصـول على المال والجاه والسلطان. ورغم وقوفه أسفل السلم الطبقي. ورغم قـوله ان الصعود في هذا المجتمع قضية خاسرة. في أكثر المرات. كان يتصـور نفسه رئيساً للدولة. يقود انقلاباً وينجح. وبعين الخيال يشاهد نفسه. وهو يخطب في الجماهير. ويركب السيارة المكشوفة ويحيي الملايين بيديه. وكم من مرة رأى بعين الخيـال. زيارتــه لمنطقـة المقابـر وهو رئيس للدولـة. ووقفتـه أمام المصـورين. والـبريق الصـادر من آلات التصـويـر. وهـو ينعكس عليه يقف في أوضاع مختلفة حسب طلبات المصورين والناس. ويلبي أي طلب من شـدة التـواضـع. نصـل الآن إلى أوراق الأستــاذ نفسـه. والمسألـة التي تعـذب المؤلف في حكـايـة الأوراق. انها كثـيرة. ومتناثرة. وتتناول الكثير من الأمور اليومية التي تحدث للعائلة.

لا جـدوى من إثبات كـل ما جـاء فيها. انها تكـاد ان تكون روايـة أخرى. فيها نثر الواقع اليومي الذي لم يتحول بعد إلى أدب، لا بد من الانتقاء والاختيار. وبعد الإختيار. فإن باقي الأوراق لدى المؤلف. من يـريد ان يـدون التاريـخ الاجتماعي المـروي شفاهـة. لسكان القبـور. والذي لم يدون بعـد. سيجده في أوراق الأستـاذ. والأجزاء التي نقلهـا المؤلف من هـذه الأوراق هي أجزاء من مـوضوعـات أخرى لم تكتمل. المؤلف هوالذي قام بعمليات الاختصار هذه. وهو وحده المسئـول عنها. لذا ربما بدت في الأوراق بعض القفزات من مـوضوع لآخـر وربما كتب بعض النقاد. ان هذه الأوراق تفتقـر إلى التسلسل المـنطقي. وان الخط الـواحد لا وجـود له. والمؤلف لا يـدعي من الآن ان ذلـك كـان أمـراً متصـوراً، لأسباب فنيـة أو لغيرهـا. ولكنـه حـاول الانتقـاء من أوراق الأستاذ بقدر الامكان.

آه يـا قاهـرة. كم تغيرت في سنوات قليلة. كم أصبحت بركة لكل المتناقضات. كم أصبحت قاسية وحنـونة. منكسرة ومنتصرة. منفتحـة ومغلقة. جائعة ومتخمة. رحبة وضيقة. مبتـذلة وخجـولة. أين قـاهرة الستينـات أين. ؟ أين؟ قاهـرتي مدينـة تـطلب الـترف والمتعـة واللذة. الصدور عارية حتى منابت الثديين. فتحات الظهر أو الجانبين تصل الى الأفخاذ المثقلة بالعطور. رغم هذا. تبدو الحياة قلقة. يسودها الرعب. وهذا الرعب يدفع القادر إلى بحار اللذات.

مـدينة رهيبـة. معصرة بشرية. لا يخـرج من بين أضراسهـا إلا فقير لحد الموت من الجوع. وغني لدرجـة الموت من التخمـة. كلاهمـا يموت ويصـــل إلـى مـدينة الموتى التي أعيش فيهـا. والغريب ان مـدينة المـوتى المنطقة الوحيدة التي يوجد فيها أكبر عـدد من القباب والمـآذن. من قبل عندما كانت مدينة للموتى. يبدو مفهوماً الحكمة من هذا العدد. ولكن بعد السكن فيها. المسألة لم تعد غريبة. يبدو أن الـذين جعلوها مـدينة للموتى. كانوا يدركون في ذلك الزمان البعيد. ان المدينة ستخصص في وقت مـا قادم لسكن الأحيـاء. أو انه لن يكـون هناك فـارق يذكـر بين الأحياء والموتى من بني الإنسان.

المـآذن والقباب كثـيرة وبدون حـد. تقول ان من يعيشـون هنـا هم فقـراء الـوطن. الجـزء التعيس منه. وهؤلاء مـطلوب منهم الضراعـة والشكـوى والأنين في كـل وقت يمر عليهم. أوراقي هـذه ينقصها شيء اسمه الجمال.

لا جمال في كل ما أقوله هنا. أتحـدث عن كتلة من المباني. كلهـا من طابق واحد في الغالب. يوحي منظرها الخـارجي بالصمت والسكـوت والأبـديـة. قبـل هجـومنـا عـلى المكـان. كـان يمكنني سـماع أصـوات الصمت:

هنـا. لا تستطيـع العين ان تـدرك. أين يبدأ اللون وأين ينتهي. ان سلمنا بوجود الألوان أسـاسـاً. وكـل الألوان غـير المحددة. تنـطلق من الأصفـر غير المحـدد. صفراء بـاهتة تـوحي بالعـدم والغبار يصعـد من الأرض. فتبـدو الأشياء المتحـركـة من البشر. وكـأنهم قـد صنعـوا من الغبار صيفاً والوحل شتاء.

ومدينة الموتى. حتى بعد ان سكنهـا الأحياء. تبـدو خاليـة دائماً من الأضـواء والظلال. انهما يتـداخلان ويتـذبذبـان في الهواء الراكد الميت المكتـوم. والأحداث التي تصلنـا من عالم أصحـاب البيوت. غـالبـاً مـا تكون عندما يحضر أهل المتوفى معه. عدد قليل من الناس يبدو كأنه قـد غسل يديه وحياته من الشخص المتوفى الذي مات. ومن أيامه وذكرياته ويبدو البعض الآخر. وكأن الحزن على الميت قد امتص كل حياتـه. انه يبدو كأنه أضعف من القدرة حتى على الكلام.

غـريب أمـر الإنســان. ان بعض الأرامـل يحضرون. تبـدو الأرملة منهن وكأن كل حيـاتها. كـانت مشبعة بـالزوج الـذي مات. إنها تبتلع الأحرف ووجهها عبارة عن غلالات من الشحوب. وشبابها يقول لـك انـه تآكـل في ليلة واحدة. وليـل ملابسهـا السـوداء يحيـطهـا بجـو من الإنطفاء والقتامة. انفاسها مخنوقة من الـدهشة أو الـرجفة أو الخـوف. والصدر، انه مكان منخفض. ليس لها ثديان. بـداية الخنـدقَ المحفور بينهما. توحي بشكل قريب إلى النهر. هذا ما نراه من سكان البيوت.

أما نحن شعوب الليل. عودتنا الحياة وسط المقـابر عـلى القيام بـأمر واحد. قدرتنا على أن نشرب القاهرة المرتمية تحت أقدام مقابرنا بحواسنا الخمس ليلاً. قلت القاهرة من جديد. تلك المدينـة التي أحبها لـدرجة تقبيل شوارعها. وأكرهها لحد الرغبة في تدميرها.

في الصباح تصحو المدينة للحظة خاطفة. لتواصل النوم بعـد قليل.

فوق المكاتب. وفي الكازينوهات والشقق المفروشة وفي المؤسسات التي تفتح أبوابها لتبتلع جيشاً من العاطلين والمتسكعين والذين بدون عمل.

ويأتي الليل. ينزل الظل والندى ولكنه لا يغسل مدينة الموتى. لأن الأتربة والغبار لا يمكن غسلها بقليل من الندى. انها تبقى كما هي بدون تغيير. وفي الليل. عندنا في الصيف الرهيب. يغرق كل منا في عرقه الخاص به. لأننا نعيش تحت الأرض. في قاع هذه الدنيا. حجرات بلا نوافذ أعدت للحظات ضيق في حياة الإنسان. عندما يحضر لزيارة موتاه. لحظة يود ان تمضي بسرعة لكي يعود من حيث أتى.

لأتحدث عن الفصول الأربعة مرة واحدة. ليست مهمتي وصف تتابع الفصول والأيام والساعات وسط المقابر. ذلك كله كان له زمان مضى وانقضى ولن يعود. زمن الأجداد الذي كانت الساعة العاشرة فيه تأتي بعد التاسعة. والليل بعد النهار ووقت الشبع بعد أيام الجوع.

عندنا. وقت الظهر. في الصيف. ينسج حولنا الطقس الحار الذي يشيع في دنيانا كفناً من الخمول القاتل. وعندما تأتي نسمة هواء بسيطة. فإن حفيفها يمر بتكاسل. أشعر ساعتها ان النسمة لا تحب المرور بنا. وان مرورها جاء صدفة. في الشتاء تغتسل القبور في مياه الأمطار. ويقول التربية. ان الموتى من الفقراء. لا تصل قطرة مياه واحدة إلى عظامهم في أعماق القبور. وان جثث الأغنياء. أو عظامهم بمعنى أصح. تعوم في مياه المطر. مع طفح مياه الجوف. لتكون بركة في القبر. ويتساءلون: ألم يقضِ حياته. في الناحية الأخرى. سعيداً. ان المسألة ليست أكثر من توزيع أدوار. عليه ان يقضي هنا مماتاً مقلقاً.

في الشتاء تبدو القبور والجدران مغسولة. ولكن الوحل في الحارات والدروب يجعل كل ما في المنطقة مشدوداً إلى الأرض. ما أن يأتي الصيف. حتى يأتي ومعه الذباب والتراب والغبار. سحابات صيفية

متحركة من الذباب. تتحرك على شكل قطيع. تغطي ظلاله الأرض. أما التراب فيغطي القبور بطبقة جديدة لا تزيلها سوى أمطار الشتاء التالي.

الأحواش في مقدمات المقابر وهي تطل على الحارات. تخفي واجهاتها خلف أهدابها. التي أكلتها الأمطار. والرياح والتراب والحرارة. وفي الحارات. يتكلم الناس. ولكن من يسمع هذه الأصوات. بعد حضوره إلى دنيا القبور لأول مرة. يشعر ان الأصوات مغلقة بطبقة من الغبار والتراب. يمكن وصفها بالأصوات المغبرة. والقبور المغبرة والهواء المغبر. والحارات المرهقة بالغبار.

كان بودي ان أكون قصاصاً. وان تكون ملاحظاتي عن مدينة الموتى. على شكل قصة. القصة يكون عنوانها. على شكل سؤال، السؤال يقول: كيف يصبح الألم اليومي فناً؟ وأضيف إلى السؤال أسئلة أخرى جديدة. لاعود إلى حياتنا: نهارنا مجرد امتداد بين ليلتين. مساحة بسيطة من الضوء المعتم. بين ظلام وظلام. وهذه الليالي الطويلة نقضيها في غرف مسكونة بالصراصير والحشرات الأخرى.

وفي ليالي الصيف. تمتلىء الملابس الداخلية. ومنابت الشعر بدماء البق. وفي الحارات تقابلك شرائط من الذباب ملتصقة بشفاه الأطفال وأعينهم. وفي الحارات. المياه المدلوقة، رغاوي الصابون التى اسودت من كثرة الوسخ. فضلات الحياة اليومية بجوار الحيطان. البول والبراز. وفوق الحيطان بقايا عرق. يخيل إليك انه عرق إنساني. التصق هنا.

ان كل الحيطان تساقط البياض من فوقها. وتبدو مقشرة. وتنحني أمام نظرك فكأنها سكرى ومتعبة. وفي الجو تصعد الروائح. طبقات في الهواء. حلقة فوق حلقة من الروائح. متشابكة ومعقدة. روائح عرق.

فضلات. تنفس قبور دفنت فيها جثث حديثاً. وتبدو هذه الطبقات كثيفة. لدرجة انه يخيل إليك ان الأصوات لا تصلك. تبدو الأصوات معلقة كشعرة في الهواء. ورغم هذا الجو يخيل إليّ أحياناً. ان الفجر يطل علينا بنداه الكثيف في بعض الأوقات.

وأيام الزيارات يحضر بعض أهالي الموتى. فيهم نساء. من اللاتي يتركن وراءهن تلك الرائحة. الحادة والمثيرة. والتي تتحرك معهن كغيمة فوقهن. وتبدو تلك الروائح واضحة جداً. وسط حياتنا الغريبة. وتأتي الليالي. وتنغمس مدينتنا في الظلام والسكينة بسرعة مخيفة. كأن الأرض انفتحت في لحظة خاطفة وابتلعت كل هذه المساحات الهائلة بما فيها من الأحياء والموتى معاً. هبطوا إلى سابع أرض. ولا يخرجهم من هذه الأرض سوى صوت المؤذن. مع لحظات الفجر الندية.

لا أحب أن يستغرقني الحديث عن القبور ومن فيها. فيتصور البعض أني غارق في هذه المسألة. وأنني لا أفرق بين الجزئيات والكليات. وأن هذه الجزئية الصغيرة تحرمني من النظرة الشاملة. لست ضحية الجزئيات وقبل ان تصل حياتنا لحدود الأزمة. التي لا حل لها. كانت لديّ رغبة في الحديث عن الوطن الأم، عن مصر. كنت أنوي عمل دراسة اسمها: سماء مصر المقسمة. والفكرة، التي قلت عنها يوماً ما. انها قضية العمر كله. كانت تلح علي هكذا. ما دامت أرض مصر مقسمة. وهذا التقسيم يزداد حدة ووضوحاً هنا في القاهرة. التي يسميها العامة مصر. والتسمية صحيحة لأبعد حد. فهنا يتركز كل ما في مصر نفسها.

أعود لأقول انه ما دامت أرضها مقسمة. بين الفقراء الذين يزدادون فقراً. والأغنياء الذين فاق غناهم كل الحدود. فلماذا تظل هناك سماء

واحدة تظلل الكل. ان هذا تضليل لا حد له. وخطأ في الوقت نفسه. وقبل أن يأتي اليوم الذي يطلب فيه كل طرف. ان تكون له سماؤه الخاصة به. بعيداً عن الآخرين: فتكون لدينا ثلاث سموات. سماء تظلل الفقراء. وسماء تظلل الأغنياء. وسماء تظلل هذا النوع الغريب من البشر الذين هم ليسوا أغنياء. وليسوا فقراء. يعيشون على الحافة وسط الغنى والفقر. ويتجهون مع الرياح. وليس لهم موقف واحد أبداً.

سأقوم بهذه المحاولة. سأقسم سماء القاهرة فقط. فكل الأمور واضحة هنا. وتقسيم سماء القاهرة. سيكون المقدمة لتقسيم سماء مصر كلها. حتى يصبح لكل منا سماؤه الخاصة به. ان المشكلة التي واجهتني في دراساتي هي: على أي أساس يتم هذا التقسيم؟ هناك سماء الفقراء وسماء الأغنياء. تلك هل التقسيمة الخالدة. ولكن هناك أيضاً الذين ليسوا فقراء. وما زالوا في رحلة، الصعود. ولم يصلوا إلى شيء بعد. ان عصرنا فرض تقسيمات من نوع جديد. وهذا من حقه شرعاً وقانوناً. ما دام عصراً. فلا بد وان يطالب بحقه في التساوي مع كل العصور الأخرى. ولا يوجد عصر أحسن من عصر آخر أبداً. ستكون لعصرنا تقسيماته الخاصة. والعصر الذي لا يعجبه يشرب من البحر. وبحار العالم تكفي كل عصور التاريخ. وكفى الله العصور شر القتال.

هناك من يسكن تحت سقف وبين جدران أربعة. ومن يسكن في الهواء الطلق. بالمناسبة نحن من النوع الأول. رغم ان الجدران والسقف لقبر وليست لمنزل. هناك أوضاع لا أعرف تحت أي بند توضع. سكان الخيام وسكان الأتوبيسات القديمة. أين يوضعون. وسكان المساجد. فوقهم سقف وحولهم جدران. ولكن هذه الجدران من الملاءات والبطاطين التي تفصل العائلة عن الأخرى. وحتى هؤلاء

لهم مشكلة. بعض المستدينين منهم يقولون. هل الجماع حلال أم حرام وسط حرمة المسجد؟ وهل يؤذي الغير أم لا؟ خاصة وان التأوهات تصل إلى الآخرين فوراً. لعدم وجود حاجز بين أسرة وأخرى.

عموماً. تلك مسألة أخرى. والهام الآن هو الحديث عن التقسيمات بين السكان. هناك أيضاً سكان الأرصفة والأكشاك الخشبية المؤقتة. والذين يعيشون في الشوارع وفوق تلال الزبالة. وهناك مدن الصفيح الكاملة. التقسيم صعب. لا بد من الإعتراف بذلك. ان الكثير يعيش في أرض لا يعرف من هو مالكها. مثل عزبة الصفيح. وهي قريبة جداً. من هنا. أناس بنوا عزبة بالكامل. من الصفيح ومن بقايا السيارات القديمة وبقايا الخشب المحترق وعاشوا فيها. ولا يعرف أحد. أرض من التي يعيشون فيها؟ بل إن موقفهم أمام القانون واضح. وهو أنهم قد تعدوا على أرض الدولة.

لكي لا يتوه معي القارىء. سأعتبر الذين يعيشون في الهواء. يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء. كما قال أدباء الثلاثينات. نوعاً. وكل من يغلق عليه باب. حتى لو كان باب دورة مياه. نوعاً آخر. قد يعترض واحد هنا. ويقول: نافخاً عروق رقبته. ويصرخ: أي باب هذا يا صاح؟ هذا تضليل وتضليل وتضليل.

وأنا أقول. انه فعلاً تضليل. هل الباب باب فيللا أو قصر أو استراحة مقامة على مائة فدان. أم باب شقة يفتح على شقة. تفتح على شقة. إلى ما لا نهاية. والشقة الواحدة عشر غرف بالطول والعرض. غير الصالات والطرق والفراندات والبلكونات. أم باب خرابة مفتوحة للسماء. أم باب سيارة أتوبيس خربة تحولت إلى سكن لثلاث أسرات. أو باب دورة مياه تنام فيها أسرة في أوقات لا يستعملها فيها أحد. أو باب غرفة في الشيراتون أو المريديان.

أي باب تتكلم عنه. والأبـواب أنواع والمسـاحات التي تفتـح عليها الأبـواب أشكال. وخشب الأبـواب أنواع. ومقـابض الأبواب أنـواع. هل هي مقابض من الذهب الخالص. أم مقبض عليه طبقة من الصـدأ والبول والبراز. حتى الـذين يعيشون تحت الأسقف مشكلة من الصعب تصنيفهم. انني عنـدمـا أحتـار أقف وأتسـاءل عـلى الفـور. وطن من هذا؟أين كـان هذا الوطن؟ ومتى خرج لنا بكل ما فيه؟.

النـاس أنوع. هنـاك من يأكـل ويـأكـل ويـأكـل. ويشرب ويشرب ويشرب حتى يمـوت من التخمة. ومن يجـوع ويجوع ويجـوع حتى يموت من الجوع. وتلك تقسيمة واضحة. صحيح انه في الوسط فئات تأكـل ما يكفيها فقط. وليس في المسألة موقف. لا من الأكل ولا من الجـوع. ولكن هذه الفئة تظل هكذا دائماً. لا هي هنا. ولا هي هنـاك. الحفاة ومن يلبسون الأحذية. المشاة وذوو الأربع فرد كـاوتش. وبينهما سكـان علب السردين المتحركة المسماة بالأتـوبيس.

وحتى سكان علب السردين. هناك فوارق بينهم، هيئة النقل العام. قررت ان لا توحد أجرة الأتوبيس. من قبل كان ثمن التذكرة معروفاً كحـد السيف. قرش في الـدرجة الثـانيـة. وقـرشـان في الأولى. هـذه الأتوبيسات انقرضت. ولم يعد لهـا وجود. انت تجد الآن أتـوبيسات موحدة الدرجة. وأتوبيسات موحدة المسـافة. وأتوبيسات سيـاحية. وأتـوبيسات خـاصة بمنـطقة وسط البلد. اختلفت ألـوان الأتوبيسات وأحجامها. بطبيعة العـاملين فيها. في العصر الـذي مضى. انتهى منذ خمسة أعوام. كانت الأتوبيسات في القاهـرة حمراء اللون فقط وكـانت مصنعة في بلادي. كلهـا لها شكـل واحد وحجم واحـد. الآن أمامـك الأحمر القديم. والأبيض والأخضر والأزرق. والأحجام مختلفة. صغـير لوسط البلد. وطويل للأطراف. ومفصلي لـلأحياء الشعبيـة. ومحصلـو

الخطوط السياحية يتكلمون كل لغات العالم. وهناك محصلون يتكلمون بالعصي والضرب. لأنهم يخدمون في أحياء شعبية. حيث السوقة والعامة. والرعاع. الذين خلقهم الله بعد أن اكتفى. ومقاعد الأتوبيسات . بعض منها لين ووثير لأنه متجه إلى الزمالك.

[ترى من يركبه من سكان الزمالك. يقولون ان عدد السيارات في الزمالك يزيد على عدد السكان بنسبة، ٥ : ١ أي أن كل خمس سيارات يقابلها مالك واحد فقط].

وأتوبيس بدون مقاعد أصلاً . لأنه ذاهب إلى الوايلي. وما أدراك ما الوايلي. ان السيارة تتأثر بالحي الذي تمشي فيه. وقد قيل وجعلناكم فوق بعض درجات. وقيل أيضاً وهل تعلو العين على الحاجب؟ ويقولون لك. انها إرادة خالق الارض ورافع السماء. بدون عمد. ومقسم الأرزاق بين العباد.

وها نحن نقسم السماء أيضاً. ان قاع أجرة الركوب أصبح ثلاثة قروش. وسقفها عشرون. وقد سمعنا مؤخراً انها قد تصل إلى جنيه. في خط سيقام قريباً لربط ميدان التحرير بالمطار. وهذه المسألة أقامت نوعاً جديداً من التقسيم بين زبائن علب السردين المتحرك. الذين لم يكن هناك ما يفرقهم أبداً. ان قلت ركاب الأتوبيس. يقال لك على الفور أي أتوبيس يا حضرة. حدد بدلا من التعميم. التحديد مطلوب ما دام القاع ثلاثة قروش والسقف جنيه. فالسلم في هذه الحالة به ٩٧ درجة.

التقسيمات لا تنتهي في مدينة الثلاثة ملايين وجه. من ينام على الأرض. ومن ينام فوق ريش النعام. من يحلم برغيف خبز بخمسة مليمات بدون طابور. على ان يجد المليمات الخمسة أولاً. ومن يحلم بفطور في المريديان. مع عشيقته. حيث ان هناك نوعاً آخر من الخبز.

يقال: والله أعلم ورسوله والمؤمنين ان ثمن الرغيف الواحد يصل إلى جنيه كامل. وان الاقبال على هذا الرغيف ضخم. والزبائن يأكلونه في الفندق. والبعض يحمله إلى المنزل. لدرجة انه تقرر ان يوزع بالحجز.

وهذا الفطور الذي يحلم به العاشق إياه. مع العاشقة إياها. يكون في الثالثة صباحاً. وكما علمنا نحن سكان القبور. من مطالعتنا لجريمة جرت في أحد هذه الفنادق فإن الفطور يقدم للعشيقين. بعد ان يكونا أمضيا ليلة مترعة بالجنس والوصال في شاليهات صحارى سيتي المسماة بهضبة الأهرام في كتب التاريخ القديم. وانه بعد ان جامعها خمس مرات. وظل الجماع في كل مرة. ساعة ونصف. لأن العقاقير والأدوية. كان مفعولها مذهلاً. حضرا إلى المريديان ليفطرا.

الفطور كأسان من الويسكي. بدون ثلج أو صودا وبدون مقبلات ومشهيات ومزة وسجائر. ولكن فقط رغيف خبز من إياه. الذي ثمنه جنيه كامل. وقهوة سادة تقدم في الخامسة صباحاً بالدقيقة والثانية. أما الجريمة التي جعلتنا نتلصص على حياة علية قوم زماننا. فهي ان العشيقة إياها. طلبت من العشيق إياه. بعد ان شربت كأس الويسكي الدبل رقم ٦. طلبت من العشيق ان يقوم معها. وان يعودا إلى الشاليه في صحارى سيتي (هضبة الأهرام سابقاً). ليعيدا الكرة. سبع مضاجعات تنتهي في مثل هذا الوقت من الغد.

ضحك العشيق. وقال انه متعب. ويخشى ان تموت وهي تحته. أو أن يموت وهو فوقها. وتكون الفضيحة. تعلم زوجته. ويعلم زوجها ويعرف بالخبر ابناؤه. وتصل الفضيحة الى بناتها. فتكون فضيحة الموسم. وكل موسم. ولأنهما كانا يجلسان في شرفة المريديان. التي تطل على ذلك النهر العظيم. المسافر في الزمان أبداً؛ والذي كان يسمى من قبل نهر النيل العظيم. وتوجد عنه مؤلفات وقصص وأغان وموسيقات.

ولأنهما كانا يجلسان وقت الفجر الندي. ولأن الإضاءة سحرية. والأنوار شاحبة. والمنظر كله يبدو كحلم من الأحلام. في هذه اللحظة وصل الجرسون. الذي يسمى في هذه الأماكن «متر». ولأن الشبه كبير بين الجرسون والعشيق. وويسكي الخامسة صباحاً. ادار رأس العشيقة. فقد خلطت بين الإثنين. وقامت من مكانها. واقتربت من الجرسون. وصاحت فيه:

ـ إنت عشيقي، قل نعم.

فقال الجرسون نعم من الدهشة.

ـ إذن تجرد من ملابسك. كما ولدتك أمك. وسأتجرد من ملابسي كما ولدتني أمي. وسننزل إلى هذا النهر. الذي نسيت اسمه. وتحت الماء. ستضاجعني. من الآن وحتى مثل هذا الوقت من الغد. ٢٤ ساعة كاملة بالتمام والكمال. هيا.

بدأت في فك أزرار ملابسها. ودون ان يدري الجرسون. الذي أصبح عشيقاً لواحدة من حريم علية القوم. في أقل من ثانية. وتصور ان طاقة ليلة القدر فتحت له وهو لا يدري. وفي أقل من دقيقة كانت اللينة البيضاء، الطرية الخالية من العظام. عارية تماماً. البطن عريض. والصدر هائل وشعر العانة طويل. ساحة سوداء مربعة بين الفخذين.

تركته كما هو. لأن الزوج لا العشيق. يحب ان تظل هكذا. وانه يسعده في لحظات الجماع ان يحتك بخشونة الشعر وذلك أفضل من ليونة اللحم. والشاب العشيق (الجرسون سابقاً). أسمر داكن. الشعر يغطي كل مكان في جسمه. اقترب منها. واقتربت منه. وسارا الى النهر. وهنا فقط عندما التحم اللحم الأبيض باللحم الأسمر. فاق العشيق من سكره. وأخرج مسدسه. من مكان سري في المنضدة. كان

مركباً بجواره جهاز تسجيل. ركبه لها زوجها ورئيسها في العمل. ليستخدم ما سيقال ضدها. في الوقت المناسب. عندما ينفصلان.

أخرج المسدس وجرى وراءها. وعندما كانا يستعدان للهبوط إلى النهر. وقد التحم جسداهما تماماً. أطلق ثلاث طلقات. واحدة في مؤخرة الفتى. وأخرى في مقدمة العشيقة التي كانت قد استدارت لترى ما الأمر. والطلقة الثالثة كانت في الهواء. لإرهاب رجال الشرطة الذين يصلون في هذا الوقت عادة للقبض على المجرم الآثم. وتغطية الضحايا بالملاءات البيضاء. رمز الطهر والنقاء.

هكذا شاهد العشيق الأمر في السينما آلاف المرات. وتمنى ان يكون القاتل. الذي ينبت له في الحال جناحان من الريش. تحت ذراعيه. يطير بهما في الجو وينجو من العقاب.

لولا الجريمة ولولا ما كتب عنها. ما عرفنا نحن سكان القبور. ذلك الحادث الذي قيل انه حادث مروع. وقد وصف في الجرائد بصورة أخرى. قيل ان ربة الصون والعفاف. سليلة الحسب والشرف والنسب كانت تجلس في الخامسة بعد الظهر. في جلسة عائلية محتشمة ومحترمة وفي لحظة تفرق الجالسون. واحد ذهب يتكلم في التليفون. والآخر يطل على سيارته الجديدة والتي دفع خمسين ألف جنيه ثمناً لها. ويذهب لإلقاء نظرة عليها كل ٥ دقائق. خوفاً من سرقتها. أو من زحام الذين يتوقفون للفرجة عليها. والثالث يتفرج على النهر الذي كان اسمه النيل. والخامس يتفرج على السماء التي كانت واحدة ولم تقسم بعد.

بقي الرجل الطيب مع ربة الصون والعفاف. وهنا حضر الجرسون. لا بد وانه من حثالة القوم. الرعاع والسوقة والدهماء. من سكان القبور. أو حي شعبي فقير. وكان هذا الخطأ الأول. لأنه يجب

على علية القوم ان يكون خدمهم منهم. خاصة الذين مال عليهم الزمان. أما الرعاع. فهم جبال من الحقد والكراهية.

الجرسون حضر. زاغت عيناه على اللحم الأبيض. ويبدو انه لم يأكل لحماً منذ قرن مضى. كانت المسألة رغبة في الأكل وليس الجنس. مجرد اشتهائه لها. يعد إنقاصاً من وزنها. خطفها الجرسون. حملها على كتفه. وجهه للأمام. ووجهها للخلف. وجرى نحو ذلك النهر المسمى النيل. وهنا سارع الرجل طيب القلب. وأخرج مسدسه من جيبه. الذي يحمله معه لحماية نفسه من جبال الحقد وقت اللزوم. وضرب ثلاث طلقات واحدة في مؤخرة المجرم. لأنه كان متجهاً إلى النهر. والثانية في مقدمة الضحية لأن وجهها كان معاكساً لوجه المجرم. والثالثة في الهواء ليطلب النجدة من أبناء جنسه. من علية القوم.

ربما كان هذا الجرسون عضواً في تنظيم سري. أما حكاية العري والملابس المكومة في شرفة الكافتيريا. فسيقال لك بشأنها فوِّت. قليل من التفويت لن يضر أحداً. ويجعل الحكاية مقبولة من كل الأطراف.

حكاية طويلة ومملة ودخيلة على سياق الكلام. ما صلتها بحكاية تقسيم السماء. أقسم لكم انني ما أحب تقسيم سماء البلاد. أو البلاد نفسها على أساس عرقي أو جنسي أو لوني. ومن الممكن ان أشطبها من نسختي ويشطبها كل قارىء من نسخته. ونخلص من موضوعها مرة واحدة. لأن يقيني انها لا تقول كل المطلوب في ذهني.

ما علينا. لنعد إلى حكاية التقسيمات. والسؤال الذي يطل برأسه. أي سماء تلك التي ستقسم. ان المطلوب منا في هذه الأيام العصيبة. ان نبحث عن معان جديدة لكلمات الفقر والغنى. الشبع والجوع. العري والملابس المستورة. الحفاء والأحذية التي تباع بالقسط المريح حيث يصل سعر الحذاء إلى عشرين جنيهاً، جنيهان في البداية. والباقي

يقسط جنيه ونصف في الشهر. على مدى سنة.

ان التقسيمات القديمة. الغنى والفقر قد وضعت في زمن لا وجود له الآن. مضى وانقضى. وها هو زمن جديد يفرض نفسه علينا. التقسيم إذن مسألة صعبة. ويحتاج إلى دراسة والدراسة تحتاج إلى لجنة. واللجنة تحتاج إلى قرار بتشكيلها. والقرار في حاجة الى مسئول كبير يصدره. وهكذا أعود من جديد إلى تقسيم السماء. ومن قسمها بقرارات لا وجود لها. على الورق وحتى خرائط سماء القاهرة المقسمة موجودة في خزائن سرية. لن يطلع عليها أحد سواهم. المستفيدون من الحال.

وهكذا أعلن عن عجزي عن تقسيم سماء هذه المدينة. ولا أحب ان يكون العجز مبرراً للشماتة بي. وها أنذا أعترف بأن كل التقسيمات المقترحة غير محددة وليست نهائية. نحن نقول الفقراء. مع انه في بلادنا آلاف الدرجات من الفقر. ونقول الأغنياء. مع ان درجاتهم لا تحصى ولا تعد. وكلامي هذا ليس هروباً. ولكن تعالوا إلى الواقع نفسه. منذ أيام ضبط مسئول منهما بتقاضي رشوة قدرها نصف مليون دولار.

[حتى عملتنا تنازلنا عنها. وكل شيء له قيمة. يسحب بالدولار الأمريكي. انه السيد المطلق الجديد].

وقف الرجل ليقول: نعم حصلت على المبلغ. ولكنه عمولة وليست رشوة. والعمولة مبدأ معترف به رسمياً في كل دول العالم. ولكن المسألة ليست العمولة بقدر ما هي ان ما حصلت عليه. يعد أقل مبلغ بالنسبة للآخرين. وكلهم حصلوا على مبالغ مضاعفة لما حصلت. وان كنا نريد قلب المنضدة.

[تعبير مأخوذ من صالات القمار. وهو يؤكد ان سيادته مقامر عظيم. والمؤلف ليس صاحب الكلمة. حتى لا يقال انه حقود على السادة] وقلب المنضدة يعني كشف المستور وتعرية الغطاء. وليكن ما يكون.

هذا أبلغ دليل انـه حتى في أوساط السماسرة والمرتشين من الصعب ان تكون هناك تقسيمة واحدة واضحة. وأنا هنا لا أقدم مبرراً للفشل. فمن المؤكد ان ما لم يقم به جيلي. ستقوم به الأجيال القادمة في المستقبل القريب. والبعيد وربما لن تكون هناك حاجة للتقسيم في المستقبل. سواء كان تقسيم الأرض أو السماء.

عموماً. سأحاول القيام بدراسة أخرى. عن سقف مصر وقاع مصر. معذرة ان كنت أنتقل من موضوع إلى آخر بسرعة غريبة. فتوجد حالة من عدم الاستقرار نعاني منها كلنا. ومن الصعب والحال هكذا. التوقف أمام فكرة معينة. الحد الأعلى والحد الأدنى. ان هذا يعكس ما وصل إليه الحال في بلادي. هذه المرة. لن يكون القبر والقصر أساس المقارنة فقط. قلت سقف الوطن وقاعه وأخشى ان أفشل هذه المرة أيضاً. وطن له قاع محدد ومعروف. ولكن ليس له سقف. ان سقفه أعلى مما قد يتصور أي إنسان.

أعترف انني بحثت كثيراً حكاية السقف. ولكني اكتشفت انه سقف بلا حدود. قالت لي أوراق عصرنا. انه منذ فترة قريبة (حوالي خمس سنوات فقط أو أكثر) كان الفارق بين السقف والقاع ٤٤ ضعفاً. والمفروض بعد ان تتحقق الأحلام. ان يكون الفارق ١٤ ضعفاً فقط. ولكن الأحلام أجهضت كلها. أيامها كان الحد الأدنى للدخل سبعة جنيهات ونصف. اليوم أصبح الحد الأدنى ١٢ جنيهاً. الحد الأدنى ليس مشكلة أبداً. لو لم يكن هناك حد أدنى لقلنا انه صفر. آخر القاع من تحت. أما السقف. فتلك هي حكاية العصر كله.

منذ أيام استمعت وأنا أسير في الشارع. صوت الراديو يقول: دعوا الناس تكسب كما تشاء. دعوهم يكسبوا بلا حدود. لقد انتهت دولة الحقد والكراهية ونحن الآن في دولة الحب. قلت لنفسي: ان الصوت

الـذي ينطق لا يتكلم بلغتنـا نحن، ان الترجمـة الحـديثـة لهـذا الكـلام تقـول: دعـونـا نسرق بهـدوء. ومن سيتكلم عـما نسرقـه. سنعـده من الحاقدين الموتورين. الذين ورثناهم عن دولة الحقد والكراهية. وهؤلاء ببساطة لا مكان لهم بيننا.

قاع البلاد معروف. ومفرداته لا تحتاج إلى كـلام. والحديث عنـه لا يبدو جديداً بالمرة. انه الجوع، العري، الحيـاة في الشوارع. أمـا السقف فهـو المشكلة. أي سقف. انـه سقف متحـرك. يـرتفـع حسب المكـان الذي يوجد فيه. وأخشى ان أضرب الأمثلة هنا. فلا أقـدر. أخاف ان تأتي الأيام القادمة بالكثير الذي يفاجىء الإنسان.

سأقول مـا عندي. ولكن أتصـور ان الذين يعيشـون فـوق السقف سيضحكون في سخرية مني. ويقولـون انني مغفل. ولكني أقـول حسماً للمشكلة. ان لكل منا سقفه الخاص به. لكل منا سقفه عنـوان جديـد لدراسة جديدة. مصدري في كل ما سأقوله صحـافة بـلادي القوميـة. وبالتحديد الإعلانات. وأبواب الاجتماعيات. والصفحات الأولى قمت بنقل كل هذا. ولم أكن أعرف يومها. ماذا سأفعل به بالتحديد.

أقول لكم من الآن. ان الفارق بـين السقف والقاع. ستجـدونه في كـل شيء. السقف نـاعم وأنيق. نـظيف الـطلاء. وان كـان وجهـه الحقيقي يبدو قبيحاً. وهـذا الوجـه القبيح من الصعب التـوصل إليـه. والمطلوب اخفاؤه تحت ستـار من النبل. وحقيقـة فإن القلوب في صفـاء لحظة الفجر الندية. وفي بياض الحليب.

محزنة حكاية السقف والقاع. سأقدم الوجوه والأصوات في كليهـما. السقف الأنيق والقـاع القبيح والـدميم. لكل منهـما سكانـه ووجـوهـه وأصواته وحكاياته وأرقامه ودلالاته. لست باحثاً اجتماعياً ولا انتمي إلى أي مؤسسة. وصدقوني ان دليلي في كل هذا. ما تقوله صحافتنا. وليس

هـذا بغريب. مـا دامت المسافـة بـين السقف والقـاع قـد وصلت لحـد التمزق. وما دام القاع فقط هو المعـروف. أما السقف فـلا حدود لـه. فلكل منا سقفه الخاص به. ان الصفر معروف. ولكن من يعرف آخـر أرقام الكون الحسابية؟ ذلك هو الفارق فعلاً. والآن لم يعد لـدي سوى تقديم ما في هذه الأوراق:

****

٤ مصريـين يـدفعـون ٤٤٤ ألف جنيـه في مـزاد تمليـك ٤ شقق بالزمالك.

دفع ٤ من رجال المال والأعمال المصريين ٤٤٤ ألف جنيه ثمناً لأربع شقق في حي الزمالـك طرحت هـذه الشقق. شركة القـاهرة لـلإسكان والتعمير.

إحـدى الشركات التي كـانت تتبع قـطاعاً. كـان يسمى في الـزمـان البعيـد بالقـطاع العام. وقـد أقيم هـذا القـطاع من أجـل الكـادحين والفقراء. طرحت هذه الشقق للبيع في مزاد علني.

فاز بالشقة الأولى المهندس الكيميـائي محمود مـدحت حسني. ودفع ١٢٦ ألف جنيه والشقة تضم ٧ حجرات وصالة ومساحتها ٢٤٠ متراً. وقـد أعلن سيادتـه ان الشقة ستخصص لأعـمال التصديـر والاستيراد. الخاصة بالمنتجات الكيماوية.

فاز بالشقة الثانية أنور توفيق حليقة ودفع ١١١ ألف جنيه. وتضم أيضاً ٧ حجرات وصالة ومساحتها ٢٤٠ متراً مربعاً. ولكنها لا تطل على شارع عمومي. وبسبب هذا الفارق قل الثمن ١٥ ألف جنيه عن نفس الشقة المناظرة لها.

وفاز بالشقـة الثالثـة الدكتـور صيدلي شكـري الطماوي. ودفـع فيها ١٠١ ألف جنيـه. وتضم ٦ حجـرات وصـالـة ومسـاحتهـا ٢٠٢ متـراً

مـربعاً. وستحـول هذه الشقـة إلى مكتب توكيـلات تجـاريـة لشركـات الأدوية العالمية وقد شاركته زوجته فى المزاد.

وفاز بالشقة الرابعـة رجل أعـمال رفض ذكر اسمـه. ودفع ٩٦ ألف جنيه وتضم ٦ حجرات وسيحولها إلى مكتب توكيل تجـاري ولكن باسم زوجته.

شقة أخرى بيعت بـ ١٨٠ ألف جنيـه في عمارة الايمـوبيليا. والشقـة مكونة من أربع غرف فقط. والسؤال هو: من أين هذا المبلغ؟ لـو كنت أحد المسئـولين عن البلاد لسألت نفسي سؤالين: ان كان هـذا المبلغ قد تم كسبـه هنا في الـداخل. فهـل حصلت عنه الضرائب المـطلوبـة. في عصر العدالة الضريبية؟ وان كان المبلغ قد وصل إلى البـلاد من الخارج فهل حول بالطريق الرسمي عن طريق البنوك. أم في السوق الســوداء؟ فكلا السؤالين. لهما عند من اشترى أربع غرف بـ ١٨٠ ألف جنيه. رد واحد: ما دخلك انت في شؤون الغـير. هل أتيت إلى هـذا العالم لتغـير نـظام الكون وتعيـد ترتيب الأشيـاء. أنت جبـل من جبـال الحقـد التي ورثتهـا البلاد من فـترة القهر والكبت المـاضية. وقـانـا الله شرك. وشر أمثـالك الـذين يخرجـون عن الخط العام. ويحـاولـون تعكـير المسـيرة. القائمة على الحب والتراحم.

***

ثلاث فيللات معروضة للبيع حالياً بشارع العروبة بمصر الجديـدة، الأولى بمليـون جنيه و٦٥٠ ألف جنيـه ومساحتهـا ٥٠٠٠ متر. الثـانيـة بمليون جنيه ومساحتها ١٨٠٠ متر. والثالثة بمليون جنيه أيضاً ومساحتها ٢١٥٠ متراً. وهناك فيللا رابعـة بشارع محمـد فريـد مساحتهـا ١٣٥٠ متراً. للبيع. ومطلوب فيها ٤٠٠ ألف جنيه فقط.

على السقف أعاجيب كثيرة. لا تقف عند حدود السكن وحكايـاته.

في البلاد كلها ٤ تجار لاستيراد قطع غيار السيارات والسمك. [هل يستطيع أحد تقديم العلاقة بينهما] و٥ تجار فقط للكابلات و٩ تجار للورق والخردة و١١ تاجراً للمواسير المحلية و١٨ تاجراً للكيماويات و٢٠ تاجراً للحوم و٣٣ تاجراً للمرطبات والمياه الغازية و٤ تجار فقط للجبال و٥٧ تاجراً للأحذية و٣٥ للبقالة. هذه الأعداد تعمل على مستوى البلاد كلها. وكل واحد منهم. يكاد ان يكون مؤسسة كاملة في حد ذاته. والبعض منهم مليونيرات فعلاً.

* * *

عامل بشركة قطاع عام. العمر ٣٤ سنة. متزوج وله ٣ أولاد. المرتب الأصلي ١٦ جنيهاً و٤٥٠ مليماً. المنصرف ١٠ جنيهات و٩٠٠ مليم.

عندما أصرف مرتبي أول الشهر وعندما أصل إلى المنزل لا يكون معي مليم واحد. لأنني أكون قد اقترضت من زملائي ما هو أكثر من المرتب. لا بد من إعادة أموالهم لهم. القبض يكون يوم ٢٤. ولا بد من التسديد. لأنني أعود للاستدانة بعد ثلاثة أيام فقط. حتى يوم القبض لا تدخل الفواكه إلى البيت. وأقصى أملي ان تكون الأولاد مبسوطة. بمعنى ان تجد العشاء.

عندما يقول لي ابني انه يريد برتقالاً. أقول له حاضر. وهي كلمة أقولها له. منذ ان أتى إلى هذا العالم. رغم ان عمره ثمانية أعوام الآن. لدرجة انه أصبح يقول انه لا يريد ان يسمع حتى كلمة حاضر هذه. القماش اشتريه من التاجر بالقسط. وهو يجعلني أوقع على ايصال امانة أول الشهر أدفع جنيهاً و٢٠٠ مليم اجرة السكن. وباشرب من خمس لعشر سجاير كل يوم. يبقى معي أربعة جنيهات. تأخذهم مراتي للانفاق على البيت، تحضر خضار كل يوم بدون لحمة. آكل في البيت

وجبة واحدة. وهي وجبة الفطور. لقمة وأشرب الشاي. وبالليل أتعشى بعد الرجوع للبيت.

بالنسبة للأولاد. في الفطار يحضرون بقرشين فول. هذا كان زمان. يعني منذ عامين. هذه الأيام بائع الفول لا يبيع بأقل من خمسة قروش. وقرشان خبز. وهذا يكفيهم بالكاد. في الغداء يشترون بطاطس يسلقونها في المياه. ومعها خبز بأربعة قروش. بالليل. أقل وجبة تتكلف ١٥ قرشاً وهذا معناه ان المبلغ لا يكفي. ولا بد من حدوث عجز. وليس أمامي سوى بيع أثاث البيت. ومنذ فترة أبيع جزءاً كل شهر. لكي أعيش على حد الكفاف بدون سلف وبدون بيع لأثاث البيت.

أتمنى ان يكون مرتبي ٣٠ جنيهاً في الشهر. لدي طفل مريض. ذهبت به إلى الحكيم. فقرر عمل عملية له. ومطلوب لها ٢٥ جنيهاً وأنا لا أملك ٢٥ تعريفة. والولد لازم يعمل العملية. والبيت له مطالب. من الصعب إحضار طلباتي من الجمعية التعاونية. فأنا أخرج من البيت في السادسة صباحاً. وأرجع من العمل في الخامسة مساءً. وطوابير الجمعية طويلة. وليس أمامي غير السوق السوداء. والحل ان الصابون والزيت والسكر والأرز. أشتريها بسعر غالٍ عن سعر الجمعية.

يوم الجمعة أروح السوق، كيلو البطاطس بعشرة قروش. والطماطم مجنونة. سعرها ليس له حال. لو اشتريت بصلاً وكموناً وفلفلاً. توصل المسألة إلى ٣٠ قرشاً. وبخمسة قروش سمن هولندي. وخبز بسبعة قروش. وربع كيلو سكر بـ ٧,٥ قروش. واقترضت من جاري الشاي. يصبح المصروف ٥٣ قرشاً بدون لحم. وهذا معناه ان المبلغ أكبر من أجر اليوم.

بالنسبة للحم آكله مرة واحدة في العام. وخلال العام اشتري بدلاً منه المواسير. كنا نأخذها زمان بدون مقابل. اليوم كيلو مواسير العظام بعشرين قرشاً. وكيلو الكرشة بستين قرشاً. وكيلو المصارين بعشرين قرشاً. لحمة الرأس كانت رخيصة. الآن وصل سعر الكيلو إلى جنيه. أول أحلام العمر هي اللحم. أتمنى ان تكون رخيصة. أمنية العمر الوحيدة. ان يكون الكيلو بستة عشر قرشاً. وفي هذه الحالة يمكن الإنسان ان يقول انه يأكل اللحم مثل غيره من الناس. بالنسبة للخضار. أتمنى ان يكون كيلو الطماطم ثمنه قرش صاغ.

والمواصلات أسمع انه في بلاد العالم الأخرى. تكون بدون مقابل والسكن أكبر همومي وان كنت أرى ان كل هذا بدون حل. وقد قال سعد زغلول من قبل: ما فيش فايدة. ابني الأكبر أرسلته إلى الفلاحين. إلى أقرباء لي هناك. يعمل معهم بطعامه. وحتى بعد سفره. فلا شيء يكفي أبداً.

* * *

عصامي من الشعب: منذ عامين فقط. كان عبدالله مصطفى موظفاً صغيراً. تخرج في أحد المعاهد المتوسطة والتحق بأحد الأعمال سنة ١٩٧٣. ولكنه بعد التحاقه بالعمل بعام واحد. تحول من مجرد موظف صغير إلى تاجر سيارات. وبالصدفة كان تحوله. أرسل له شقيقاه اللذان يعملان في بلد أوروبي سيارتي مرسيدس. باعهما: فتذوق طعم الربح. ولم يمض عام حتى اتسعت تجارته كثيراً.

كان يستفيد من تسهيلات ائتمانية. منحت له من أحد البنوك ووصلت قيمتها إلى أكثر من مليون جنيه. ومع نهاية العام. كان هذا الموظف الصغير. الذي تحول إلى تاجر كبير قد حقق ثروة بلغت مليون جنيه بعد ان سدد كل ديونه. وقد وصلت أرباحه إلى حوالي ١٥٠٠



١٩٠ جنيهاً لبند السيارات. فلي سيارتي الخاصة. وللأولاد سيارة لها سائق. وللمدام سيارة تقودها بنفسها. وكان يمكن شطب هذا البند لو ان جهة عملي بها سيارات. إذن لخصصت لنفسي أربع سيارات بسائقيهم وكل مستلزماتهم. ولكن للأسف. بند السيارات غير وارد وهذا السبب يعود إلى رئيس سابق لعملنا. أدعو عليه كل صباح. وكل مساء. كان قد رفع سياسة تقشف في المصلحة. في الزمن القاسي الذي مضى ولن يعود. وعلى الرغم من ان كل المصالح الغت هذه الإجراءات. الا ان مصلحتنا لم تلغها بعد. وها أنذا أدفع مرتب سائق. وأجرة جراج لثلاث سيارات. وصيانة وبنزين خاصة وان الزوجة أصرت ان تكون السيارات الثلاث من الأنواع الأمريكاني الضخمة. وكل منها تحتاج الى محطة بنزين تلحق بها.

«١٠٠» جنيه لشراء أساسيات البيت في اليوم الأول من الشهر. زوجتي تسميه خزين البيت. ورغم شراء هذا الخزين في اليوم الأول من الشهر. إلا أننا نظل في حالة شراء دائمة طوال الشهر. ولا أدري السبب في هذا. ١٠٠ جنيه تظل في البيت دائماً. تقول زوجتى انها تخصص لشراء الأشياء التي تشترى طازجة مثل الخضار والفاكهة واللحم. ولأي طارىء يحدث. ومع هذا. فإن المبلغ لا يصمد أبداً لعشرة الأيام الأولى من الشهر.

٦٠ جنيهاً لمصروفي الخاص. ولنفقات المكتب والسجائر وخلافه.

٥٠ جنيهاً كل شهر. تعد اشتراكات ثابتة في النوادي. ومبالغ الدروس الخصوصية للأولاد. واشتراكات المدارس الأجنبية التي يتعلمون فيها صحيح ان هذه المبالغ تدفع مرتين في العام كله. ولكن قسمتها على أشهر العام. تؤكد ان كل شهر ينفق فيه حوالي الخمسين جنيهاً.

هـذا بخلاف البـواب والشغالـة. والطبـاخ والسفرجي. والأقـارب والزيارات والفسح والذهـاب إلى السينما والمسرح. وتنـاول الطعـام في الخارج أحياناً. ورحلات يوم الجمعة خارج مدينة القاهرة. والمضيف. الـذي يصل بـالنسبة لـزوجتي إلى أربعة أشهـر كـل عـام. والمـلابس. والكوافير. وتغيير أثاث المنزل. كل فترة من الوقت.

ألم أقـل لكم. رغم المبـالـغ الضخمـة التي أحصـل عليهـا. فـإنني أستـدين كل شهـر. وحتى الآن. لم أمد يـدي للحرام. سـوى الهدايـا فقط. والنبي نفسـه (صلاة الله عليـه وسـلامـه قبـل الهـديـة). ولكنني أخشى الغواية. خاصة وان ابنتي التي دخلت الجامعة هذا العام. تطلب مصروفها جنيهاً في اليوم الواحد. وعندما ناقشتهـا في ذلك. قـالت ان المبلغ لا يكفيها. وان الجنيه لم يعد يساوي عشرة قـروش. وان فلانـة. بنت فلان. [لا داعي لذكر الأسماء هنا] تأخـذ خمسة جنيهـات مصروفاً في اليوم الواحد. وان فلانة بنت فلان. تـأخذ عشرة جنيهـات مصروفاً في اليـوم الواحـد. وان فلانـة المنحرفـة. [زميلة لها في الجـامعـة] والتي تذهب يومياً للشقق المفروشة. تنفق مائة جنيه في اليـوم الواحـد. الحق أقـول لكم بعد ان استمعت إلى كـلام ابنتي. قلت لنفسي: ومن يشعـر بالسعادة في هذه الأيام العصيبة؟

***

المرأة والعشاق السبعة والزوج القـاتل: ريـا أصبحت رجلاً. ولكن أين زميلتهـا سكينة ريا أيا منا تقتـل ثمانيـة أشخاص في لحـظة واحدة. كيف فعلها بمفرده هذا الزوج الغريب ان كثرة الخضـوع لا تولـد سوى الانفجار. لم يكن مع الزوج مساعـد ولا شريك. فعلهـا بمفرده فعـلاً. كانت الزوجة تعشق الرجال. لا يمضي يوم إلا وهي في أحضان رجل. دائماً لها سبعة من العشاق.

أقواهم جنسياً ليوم السبت. حتى تستقبل الأسبوع بعمل جنسي يجدد الخلايا. وهكذا. الرجل الذي يلي الأقوى من الناحية الجنسية ليوم الأحد. والذي يليه ليوم الإثنين. ومنذ ان أصبحت إمرأة كل الرجال وزوجها لا يقترب منها. منذ سبعة أعوام مضت. وفي كل عام كانت تعرف رجلاً وما ان يضعف حتى تحيله إلى المعاش وتعرف غيره. والجديد له الحظوة التامة.

وفي يوم الجمعة من كل أسبوع. كانت تجمع كل العشاق معاً. الرجل القوي. صاحب الحظوة يجلس في مواجهتها تماماً. الثلاثة المتعبون يجلسون على اليمين. والثلاثة الأكثر قوة يجلسون على اليسار. والذي يجلس في المواجهة. هو رجل يوم السبت القوي. والزوج عمله الأساسي هو تقديم الوسكي والسجائر والطعام للضيوف. شعاره الذي فرضته عليه الزوجة ان لا يسمع وان لا يرى. وان لا يتكلم. وان لا يحاول ان يجعل من نفسه طرفاً. فيما يجري أمامه في كل وقت يمر.

إلى ان كانت ليلة. قتل الكل. كل فرد قتل وهو جالس في مكانه. ووجد الزوج في حالة من السكر الرهيب وهو يبكي. كان جالساً فوق المنضدة. أمامه زوجته. ووراءه رجل يوم السبت القوي. وعلى يمينه الرجال الأقوى جنسياً وعلى يساره الرجال الأقوى من الناحية الجنسية.

س: لماذا فعلت هذا؟

إسألوا هذه المنضدة التي أجلس فوقها حتى تتكلم هي نيابة عني أيها السادة العظام وهي ستقول لكم كل المطلوب.

***

السن ٣٧ سنة.
العمل: تومرجية في إحدى مستشفيات القاهرة.
المرتب الشهري: ٤٧٥ قرشاً.

الحالة الاجتماعية: متزوجة: ولها ٨ أولاد.
عمل الزوج: مكوجي [عامل وليس صاحب محل].

الولد الكبير عمره ١٦ سنة. والصغير ٣ أشهر. وزوجي دخله ٤٥ قرشاً في اليوم يصرف منهم ٢٠ قرشاً على نفسه في العمل. ويعطيني ٢٥ قرشاً كل يوم. أسكن في غرفة من شقة مشتركة. مع أناس آخرين في نفس الشقة. الحجرة إيجارها ٧٥ قرشاً في الشهر. كل يوم أشتري خبزاً بـ ١٥ قرشاً رجوع. من الخبز البايت لأنه أرخص من الخبز الصابح. كل ٣ أرغفة بقرش.

وأحضر الخضار من السوق. ملوخية أو خبيزة. أو بطاطس. وأطبخ هذا كله بالمياه. وإن كانت هناك تقلية. فإنها تكون بالزيت. السمن لا يدخل البيت واللحمة لا أعرفها. في المرات القليلة. التي أشتري فيها اللحم أذهب إلى المذبح. وأشتري حوايج فاضلة من الذبيحة. تباع هناك بالكوم. والكوم الواحد ثمنه ١٢ قرشاً. أجيب كم كوم. الثمن لا يتعدى ١٨ قرشاً بأي حال. وكل الأكوام التي أحضرها. من الحوائج لا تزيد على نصف كيلو. كل واحد يأخذ حتة واحدة. انها رائحة لحمة وليست لحمة فعلية. في الصبح. نأكل بقرشين فول مع العيش. والظهر قليلاً من الطبيخ بالمياه بدون لحم. وفي الليل فإن الكل ينتظر عودتي من المستشفى لأنني يكون معي. أي شيء من طعام المرضى. الفاكهة تدخل البيت بالصدفة وخاصة من المرضى الذين في المستشفى.

كل يوم أخرج من البيت الساعة الخامسة صباحاً. وأرجع إليه في العاشرة مساء بالليل، صحيح ان عملي ينتهي في الثالثة بعد الظهر. لكن هناك بعض زملائي يطلبون مني القيام بالعمل المطلوب منهم نظير عشرة قروش. وأنا سعيدة بهذا. لأنه مبلغ جديد يضاف إلى دخلي.

في بعض الأيام التي أخرج فيها من المستشفى في موعدي المحدد.

أذهب إلى منزل دكتورة أو حكيمة أوموظف. أغسل وأكنس وأمسح. وآخذ مقابل هذا ٢٥ قرشاً. وكما يقولون ان طوبة صغيرة تسند الزير.

البيت الذي نسكن فيه لا تدخله الكهرباء. ابني يذاكر على نور لمبة جاز. ملابسنا كلها اشتريها من سوق الخميس. وهي ملابس مستعملة الجلباب بعشرين قرشاً. والحذاء بثلاثين. وكل البيت يلبس من هناك أغلى الأشياء في هذا العالم: اللحم، الزيت. والكهرباء. لا يوجد شيء رخيص أبداً. وأغني شخص في نظري هو من يملك خمسين جنيهاً. ولا بد وان يكون ضابطاً كبيراً.

* * *

ضبط رجل من أثرياء المنطقة الحرة ببور سعيد. يكسب في اليوم الواحد ٥٠٠ جنيه كاملة. لأنه يهرب البضائع الخاصة بالمدينة الحرة عن طريق بحيرة المنزلة. وله أسطول كامل. من القوارب والسفن. ضبط هذا الثري وهو يضاجع جثة صبي ميت. الرجل لا يضاجع سوى الجثث فقط. وبعد التأكد من وفاتها.

زوجته أكدت في أقوالها انه ان لم يجد ميتاً. فإنه يقتل إنساناً. وينتظر حتى تفارقه حرارة الحياة ثم يضاجع الجثة بلذة فائقة. وانه يصطحب الضحايا إلى منطقة المقابر. حتى لا يتحمل عناء نقلها الى القبور. وبهذا يضاجع ثم يدفن فوراً. وينتهي الأمر. ويكون من الصعب اكتشاف الأمر بعد ذلك. وقد أكدت زوجته. أنها رغم مرور أكثر من عشرين سنة على زواجها منه. فإنه لم يقربها. وأكد لها أكثر من مرة أنه سينالها من الخلف ليلة وفاتها. وقبل هذا لن تحدث مضاجعة أبداً.

* * *

ولأن الدولة قررت مداهمة الشقق المفروشة بصورة دورية. في الفترة الأخيرة. وذلك خوفاً من ظهور شكري مصطفى جديد. من الناحية

الرسمية. الشقق المفروشة تتبع بوليس الآداب. والخوف من ظهور شكري مصطفى له إدارة اسمها مباحث أمن الدولة. تمَّ التنسيق بين الإدارتين.

وفي الكبسة الأولى، وجدوا حجرتين. مستقلتين سمعوا كركبة واهتزاز أسرة. وهمهمات وكلمات خوف. وصرخات ذعر. وعندما فتحوا الأبواب. ظهر على الباب رجلان. الرجلان في الملابس الداخلية. ومعهما إمرأتان في الملابس الداخلية أيضاً. بعد الدهشة الأولى. شاهد الواقفون أنفسهم جيداً. وكانت المأساة. المرأة التي ضبطت في الغرفة الأولى. زوجة الرجل الذي كان في الغرفة الثانية. ونفس الرجل كان زوج المرأة الأخرى.

الرجلان شريكان في عمل تجاري واحد. ومن أعز الأصدقاء. أما المرأتان فشقيقتان. وكان الرجلان قد قررا الزواج منهما معاً. لأنهما من بيت أدب وأصول وعراقة. وان الفتاتين لم تذهبا إلى الجامعة. ولم تختلطا بالسيىء من بنات هذه الأيام. ولم يشاهدا عريسيهما سوى في ليلة الدخلة فقط. لأن التقاليد تمنع هذا.

يؤكد الضابط حقيقة هامة في محضر الضبط. ان الزوجين والزوجتين لم يفاجآ كثيراً بالعملية. وان كانوا قد اكدوا في التحقيق ان العملية لا تتم بعلم كل الأطراف المشتركة فيها. وان كان هناك ما يشبه الاتفاق الضمني حول ذلك. لم تقم خلاله أية كلمات. في التحقيق قالت الأختان. كلاماً واحداً. وان كان التحقيق قد جرى مع كل منهما على انفراد:

ماذا فعلنا. اننا أجرينا مجرد تبادل أزواج. في محاولة لقتل الملل الناجم عن الحياة الزوجية التي لا تطاق. ألسنا أحراراً؟ ان الحرية هي عنوان هذه المرحلة. كل منا حر أن يفعل ما يشاء. في حدود القانون.

ونحن وزوجينا. لدينا اتفاق ضمني بالخروج من أزمة الملل اليومي. ثم اننا. نتجه الآن نحو الغرب. ونـدير الظهر للعرب المتخلفين. وفي فرنسا توجد نظرية كاملة تنظم ما قمنا نحن به. هي نظرية الخطوط المتقاطعة في الحياة الزوجية. كل ما حدث الآن. ان الخجل الشرقي. يمنعنا من الحديث عما نقوم به في السر. هذا هو كل ما في الأمر..

* * *

متفرقات:

* ضاع كلبي مني. وهو عزيز على نفسي، من الصعب علي مواصلة الحياة بدونه. ألف جنيه منحة لمن يعيد الكلب الغالي العزيز إليّ، وأسفل هذا الكلام رقم التليفون والتليكس. ويمكن الاتصال في أي وقت من أوقات الليل أو النهار.

* إجتمع الأصدقاء في منزل أحدهم. لكي يقضوا سهرة. تبدأ من لحظة انتصاف الليل. وحتى السابعة صباحاً. وبعد فتح زجاجة الويسكي الضخمة. طلب الضيوف المزة. فأحضرت صاحبة البيت. نوعاً جديداً من الجبنة البيضاء. أعلنت أنه لا يباع إلا عند بقال واحد. له محل واحد. وليس أي فرع آخر. المحل في الزمالك. وثمن الكيلو ثلاثة جنيهات فقط.

بعد تذوق نوع الجبنة النادر. أعلن البعض ان لديه أنواعاً أخرى. أحلى منها. وليست أرخص في السعر. تقرر ان تقام مباراة بين أنواع الجبنة. وتم استدعاء خبير الجبنة البيضاء الرسمي. وتحركت السيارات إلى منازل الضيوف. لكي يحضر كل منهم. من عنده جبنته الخاصة به. تمهيداً لإجراء المباراة. وحتى كتابة هذه الأسطر. ما تزال المباراة مستمرة. دون الوصول إلى نتيجة محددة.

* الآن. بعد ان أصبح قضاء الصيف في الإسكندرية نوعاً من

التخلف. وأصبحت تسافر إلى الإسكندرية نوعيات من العامة والغوغاء والسوقة. وبعد ان اقتربت أوروبا منا ها هي: على فركة كعب من هنا. ومصر جزء منها. وهي جزء من مصر. يسرنا ان نعلن عن: للبيع فيللا في السويد. المساحة ١٢٣ متراً مربعاً. عدد الغرف: ٧ غرف + ٣ صالات + ٦ بلكونات + حديقة أمامية وحديقة خلفية.

الثمن: ٤٥٠ ألف دولار فقط.

* وجدت إدارة المرور لدى المواطن ك. ع. م. ست رخص لسيارات ملاكي. وقع إقراراً بأنه يستخدمها كلها. وإنها غير مؤجرة ولا تستخدم في أعمال غير مشروعة. وعندما طلب منه تحديد الأعمال التي تستخدم فيها هذه السيارات. أفاد بالتالي:

* سيارة للمواصلات.
* سيارة لمشاوير وسط البلد. يراعى فيها ان تكون صغيرة.
* سيارة للمدام يراعى فيها ان تكون أنثوية.
* سيارة لشراء الخضار. يستعملها الخدم والسعاة في البيت.
* سيارة خاصة بالعزبة.
* سيارة احتياطي تستخدم في حالة تعطيل أي واحدة من السيارات السابقة.

ملحوظة:

هذه السيارات بخلاف السيارات الحكومية التي تخصص لصاحب البيت والزوجة من عملها. وبخلاف سيارات الأولاد. والسيارات التي تؤجر للمصالح والشركات.

* أفاد مواطن من الذين يحقدون على الآخرين. والذين لا عمل لهم. سوى النظر لما مع الآخرين بالآتي: انه عند ذهابه لزيارة ابنه الذي يعمل حديثاً في مطار القاهرة الدولي. فوجىء بممر محجوز.

وممنوع الاقتراب منه. وعند سؤاله ابنه عن سبب حجز الممر وعدم الاقتراب منه. مع أن الممر تقف عليه طائرة ضخمة. أو ليست هذه الطائرة مخصصة للمسافرين والعائدين؟.

قال له الابن ان الإنسان لا يجب ان يسأل عن كل شيء. لأن ذلك قد يحمل الضرر للإنسان في طياته. وهو سيقول له. حكاية هذه الطائرة وأمره لله. وان كان يحذره من الآن. من الحديث في هذا الأمر. مع أي مخلوق على ظهر الأرض. لأن ذلك قد يضر الأب. ويتسبب في فصل الابن من عمله. الذي حصل عليه بعد وساطة ورشوة. والذي منه.

هذه الطائرة. ملك واحد من الناس. غني لدرجة انه يملك طائرة ملاكي. والقانون لا يمنع إمتلاك الأفراد للطائرات. ولأن رحلات هذا الشخص قليلة. فالطائرة تقف هنا. ولأن الرجل صاحب حيثية فهي لا تدفع مليماً واحداً. إيجار وقوفها في المطار. والأمر له من قبل ومن بعد.

* سؤال: ما هي آخر صيحة في عالم رجال المال والأعمال؟

جواب: آخر صيحة حتى الآن هي تليفون السيارة. وهذا التليفون رخيص. وهو ومن أساسيات الحياة اليومية في مصر. ولم يعد من الكماليات. والمشترك يدفع مقابل تليفون السيارة كاشتراك سنوي مبلغ ألف جنيه. ويدفع ألفي جنيه كتأمين على أجهزته. و ٣٥٠ جنيهاً نفقات تركيب.

ان طلبات تركيب هذا التليفون تزداد يوماً بعد يوم. ومن المتوقع ان يصل عدد السيارات التي يوجد بها تليفون في مدينة القاهرة. خلال فترة قليلة جداً. إلى ألف سيارة. بها ألف خط تليفوني.

المسئول عن تليفونات السيارات. قال ان الإشتراك قليل. وأحد

الـذين حصلوا على تليفـون في سيارتـه . طلب زيـادة الإشتـراك . ألف جنيه أخرى . حتى لا يستعمله بعد فترة من الـوقت كل من هب ودب . ويفقد هذا التليفون خصوصيته . ونوعية من يستخدمـونه من عبـاد الله المحترمين .

ويقـول هذا المشـترك . ان أعمالـه مـوزعـة بـين القـاهـرة والمـزرعـة النمـوذجية الألكـترونية التي يملكهـا في الجيزة . وقصره الكـائن في مصر الجديدة . والاستراحة ويقول إن القرية التي توجد فيها المـزرعة يسكنهـا عشرة آلاف من الكائنات البشريـة . الا ان البلدة لا يوجـد بها تليفـون واحد . ولم ير أهلها في حياتهم سوى التليفون المركب في سيارته . عندمـا يذهب بها .

ويتساءل : كيف تعيش هذه المخلوقـات بدون تليفـون . انها مسألـة محيرة . ولكن ما له وهذه الأفكار المزعجة .

ويقـول ان تليفون السيـارة يلعب دوراً هامـاً بالنسبة له ولمزرعته . ويضرب لذلك مثلاً . فقد حـدث مرة ان انقـطع التيار الكهـربائي عن مزرعته . وقد تسبب الاتصال في الوقت المناسب بالمسئولين . ان وصـل التيار فوراً . ان التيـار كان يغـذي أحد العنـابر . التي يـربى فيها دجـاج البيض . ولو تعذر هذا الاتصال . لنفقـت عشرة آلاف دجاجة وخسرت المزرعة مبلغاً كبيراً من المال . لولا التليفون الذي أنقذ الموقف في الوقت المناسب .

مشترك آخر يقـول ان أهم مشكلة تواجـه تليفون السيـارة في مصر . هـو تداخـل الخـطوط مـع بعضهـا البعض . وحيث ان هـذا التليفـون مخصص لعلية القوم . ولهذا فإن المكالمات تحوي الكثير جداً من الأسرار المـالية الخـطيرة . وربما الأسرار السيـاسية . وتـداخل الخـطوط ربما يضر مصالح رجال الأعمال . ويجعـل أسرارهم الخاصـة في متناول الجميـع .

ولهذا لا بد من علاج حاسم لهذه المشكلة.

مشترك آخر يقول ان المشروع لا يزال ينقصه الكثير. وأهم ما ينقص التجربة هو الجزء الهام والمكمل لها. وهو جهاز تليفون آخر داخل الحقيبة. حقيبة اليد التي يحملها رجل المال. في أي مكان يذهب إليه. وهو أشبه بخط داخلي. يسمح له بالرد على التليفون في أي مكان. وليس في السيارة فقط. وهذا يلعب دوراً في إنجاز المزيد من الأعمال. وهذا النظام مطبق حالياً في السويد. والكثير من دول العالم المتقدم ويتساءل: لماذا تأخر تطبيقه في مصر كل هذه الفترة. نحن لسنا أقل من غيرنا. وعدم تطبيقه حتى الآن تخلف لا يقبله عقل متحضر أبداً.

مشترك آخر يقول: انه يقترح السماح لشركات القطاع الخاص. بالعمل في تركيب وتشغيل تليفونات السيارات. وفي هذه الحالة فهو مستعد لتأسيس شركة من الغد. تطرح فوراً ٦٠ ألف خط مرة واحدة. ويقول ان المنافسة الشريفة. وكلمة الشريفة تحتها عشرة خطوط باللون الأخضر. ستحسن الخدمة. سواء في القطاع العام. أو القطاع الخاص. وفي هذا خدمة للبلاد.

* من أعاجيب العصر:

دفع ٦ أطفال ٥٦,٧ ألف جنيه لشراء ٣ شقق بالمعمورة. كما دفع ٣٤ مواطناً آخرين ٦٩٣,٣٠ ألف جنيه لشراء ٣٧ شقة أخرى. وذلك في القرعة العلنية التي عقدتها شركة المعمورة للإسكان والتعمير. جميع الشقق من غرفتين وصالة. هذا وقد دفع كل فائز ثمن الشقة التي حصل عليها فوراً. والأطفال الستة دفع كل منهم في الشقة المكونة من غرفتين وصالة مبلغاً يتراوح ما بين ١٨، ٢٠ ألف جنيه. في هذه الشقة الصغيرة، ورغم ارتفاع أثمان الشقق بصورة غير عادية. إلا ان القرعة

اشترك فيها ٧٣٥ مواطناً. أغلبهم من الأطفال. بمناسبة العام الدولي للطفولة وكانوا من جميع أنحاء الدولة.

* * *

عامل بهيئة النقل العام.
٤٠ سنة.
متزوج وله خمسة أولاد.

لو ان وزير المالية نفسه. وضعت أمامه ميزانية بيتنا. وأعطيته في اليوم الأول من الشهر مرتبي وطلبت منه ان يصرف علينا منه. لا بد وانه سيقف عاجزاً. ومن يستطيع عمل شيء حيال ميزانية بيتي. أنا مثلاً لا أقدر على شراء الفاكهة. وفي الوقت نفسه من الصعب حرمان الأطفال الصغار منها. الحل معروف. ان نشتري فاكهة معطبة ومفعصة. ولو ان واحداً من زملائي شاهدني وأنا أشتريها. أقول انني أشتريها من أجل الفراخ والكتاكيت. ولو ان واحداً من الأعيان شاهدني. سيقول انني أشتريها لأعملها مربى.

في البيت. أصل ومعي البرتقال المعطب. طبعاً أخجل لو ان أولادي رأوه بهذه الصورة. والبيت حجرة واحدة. لهذا أطلب منهم النزول إلى الشارع. إلى ان تنتهي أمهم من إعداد الطعام. وبعد نزولهم. أنظف البرتقال من العطب الموجود فيه. وكل هذا لكي أقدمه لهم بصورة كريمة. يقبلها البني آدم.

أما اللحمة فصعب جداً عمل أي شيء بالنسبة لها. أنا أعد نفسي سعيداً جداً. لو اني أكلت اللحمة مرتين في السنة. كانت أمنيتي ان تربي زوجتي فراخاً. ولكن السكن ضيق. البيض والسمك من الأشياء التي لا يستطيع الإنسان ان يحلم بها. مجرد حلم.

هذا هو حالي. والكلام فيه لن يأتي بأي جديد. ان السؤال الذي أطرحه على نفسي. لمصلحة من يستمر هذا الوضع؟ لمصلحة من تبقى كل الناس مطحونة؟ وذلك لمصلحة مجموعة صغيرة من الأغنياء. عشرون في المائة سعداء. والباقون في قاع المجتمع. انهم يمتصون دماءنا والغريب ان الأغلبية الجياع هم الذين ينتجون. والقلة الغنية هي التي تمتص دماءنا.

المسألة غريبة. وأنا أسأل: السلطة التي تحكم هي سلطة من؟ انها ليست سلطتي أنا. بل سلطة الأغنياء فقط. ولهذا فالبلد أصبحت بلدهم هم. أشعر في كل لحظة بغربة حقيقية. العامل مثلي يصنع سيارة تحمل اسم مصر. ولكن من الذي يركبها؟ من يومين ذهبت إلى ميدان التحرير. طلعت فوق الكبري العلوي. والذي عملته الدولة من أجل أزمة المرور. ومن فوق الكبري. شاهدت منظر السيارات، الشارع يبدو مثل الترعة عندما تمشي فيها المياه لا تنقطع أبداً. هل وجود كل هذه الكمية من السيارات في البلد. يدل انه يوجد فقر؟

عندما أتحدث عن ظروفي الصعبة. وحياتي القاسية. يكون الرد علي ان بلدنا اقتصادها تعبان. وانها نزفت مواردها في الحروب. وعندما تحدثه عن السيارة التي يركبها. يقول لك هذا حقد وكراهية وحسد. ويؤكد لك ان السيارة في هذه الأيام أصبحت من الأساسيات.

وأرد. ان الناس يعيشون في القبور وهم أحياء. يعود من جديد الى حكاية الاقتصاد المتعب. ما من مسئول قادر على أخذ الموقف الصحيح. كل يوم اسمع كلاماً عن كرامة الإنسان التي عادت إليه. ويقولون انه ما دامت لا توجد معتقلات. إذن فالكرامة موجودة والحمد لله. وكلهم يتصورون ان الكرامة تهدر داخل المعتقل فقط. مع انها

تهدر في الأتوبيس وطابور الجمعية. ومكان العمل والسكن خاصة عندما يكون هذا السكن رصيفاً أو قبراً.

وبعد الكلام عن الكرامة التي عادت يبقى الكلام عن الديمقراطية وأنا رجل لا أحب الكلام في السياسة. ولكن الديمقراطية لها جانب سياسي والثاني اجتماعي. الجانب الاجتماعي أهم في نظري من الجانب السياسي. لأن المطلوب ان الجائع عندما يبحث عن الطعام يجده. ويجده بالسعر الذي يستطيع دفعه ان كان مطلوباً من المواطن ان يقول رأيه في أمور بلده. لا بد وان يجد ما يأكله أولاً. كرباج الرغيف والسكن يمنع الإنسان من القدرة على التفكير السليم. والكلام.

وعموماً الكلام الذي يقال عاجز عن التقليل ما بين الغني والفقير. صحيح انه من يوم ان وجدت الدنيا هناك الغني وهناك الفقير. المفروض اننا ولدنا أولاد تسعة. والمفروض ان نكمل حياتنا على هذا الأساس. الميلاد والموت لا يمكن ان يفرقا بين إنسان وآخر. بطن الأم والقبر. من يوم ما عرفنا الغني والفقير. وأصبح الغني حاكماً والفقير مظلوماً. المظلوم يحاول أخذ حقه. ويوقف الظالم عند حده. وهذه هي الحرب الأساسية المستمرة. الأغنياء قلة والفقراء لا حصر لهم ولكن الغني الواحد لديه من الإمكانيات ما يفوق ما مع ألف فقير، والحكاية محزنة لأبعد الحدود.

* * *

متفرقات مرة أخرى:

فرد واحد يمتلك ١٣ شركة ونصف. هذه الشركات خاصة بالدواجن. تسمين العجول النقل، الآلات الزراعية.

* إيجار الشاليه في منطقة الأهرامات قدره عشر جنيهات في الساعة. وهو يؤجر بالساعة فقط.

* ابني الطالب في كلية الطب يحصل على مصروف قدره عشرة جنيهات في اليوم الواحد. وأنا أعطيه هذه الجنيهات العشرة في اليوم. ليس لأن أموالنا كثيرة لا نعرف كيف ننفقها ولكن لأنه رسب ثلاث مرات في السنة الأولى. التي يقولون عنها اعدادي الطب. وقال لي أساتذته الأجلاء انه معقد نفسياً. وعلاجه يتوقف على أمرين فقط: أولهما الانفاق بدون حدود. والثاني الدروس الخصوصية. لذلك رفعت له المصروف اليومي خلال خمسة أيام من جنيهين إلى عشرة جنيهات. وأصبح عدد المدرسين الخصوصيين ضعف عدد المواد المقررة عليه. لأنني أحضرت له في كل مادة مدرسين. واحد يشرح له الدرس بالأنجليزية. والآخر بالعربية وذلك إعتزازاً منا بلغتنا العربية الأصيلة.

* حذاء بالقسط المريح:
ثمن الحذاء ٣٢ جنيهاً.
يدفع منها ١٢ جنيهاً كمقدم.
ويقسط الباقي على ١٢ شهراً.

بواقع جنيهين في الشهر حيث يضاف إلى العشرين الباقية أربعة جنيهات فوائد.

* أطعمة: طبق الشركسية بـ ٥٨٥ قرشاً. يضاف اليها ١٪ خدمة.
محشي ورق العنب ٢٠٠ قرش.
الكوارع الضاني: ٢٦٠ قرشاً.
الفيليه البقري: ٣٥٠ قرشاً.
الدجاج مع صلصة الكاري والأرز ٣٥٦ قرشاً.
سعر طبق المخلل البلدي: ٤٠ قرشاً.

* تقرر إنشاء دار سينما للسيارات تتسع لحوالي من ٥٠٠ إلى ٦٥٠ مشاهداً حيث يتفرج المشاهد على السينما وهو جالس في سيارته

مستريحاً. بدلاً من متاعب ترك السيارة ودخول السينما.

* طبق الفول باللحم المفروم: ١٢٥ قرشاً.

* ١٥ صنفاً من الفول يتراوح الثمن ما بين ١٦، ٣٠ قرشاً.

* بابا غنوج، السمان المشوي الطبق بـ ٤٦٠ قرشاً. ٢٠ نوعاً من الطعمية في فنادق الدرجة الأولى الحد الأدنى لأسعار الطلبات ٥٠ قرشاً وذلك حتى السابعة مساءً. يرتفع هذا الحد الأدنى إلى ١٢٠ قرشاً من السابعة مساءً وحتى صباح اليوم التالي.

* إشترت مذيعة بالتليفزيون جهازاً لعمل القهوة في الاستديو بمبلغ ٣٨ جنيهاً.

* قارئة فنجان يصل دخلها اليومي إلى ١٢٠ جنيهاً.

* نوع جديد من الخبز ثمن الرغيف الواحد فيه جنيهاً مصرياً كاملاً. هذا النوع من الخبز يباع في أحد فنادق الدرجة الأولى.

* صنف جديد من الجبن ربما تسمع عنه لأول مرة. سيتم استيراده إلى مصر. سعر الكيلو من هذا الصنف الغريب ٢٥ جنيهاً. الجبنة الجديدة اسمها كماميير. وجبنة الكماميير ستدخل إلى مصر إلى جانب ١٠ أصناف أخرى تضمنها ترخيص صدر مؤخراً. وقيمة الترخيص ٤٩ ألف مارك وسيتم الاستيراد من النمسا. ويقول صاحب الترخيص إن هذا النوع الجديد سيكون مناسباً جداً للمستهلك المصري.

* فستان السهرة وصل ثمنه إلى ١٥٠٠ جنيه. زجاجة برفان ثمنها ٥٠ جنيهاً. قماش مشغول بالترتر والماس الصناعي. إنتاج يدوي. والمتر منه سعره ٦٥ جنيهاً وعرضه ٩٠ سنتيمتراً. صاحب المحلات. التي تبيع هذا النوع من القماش يقول ان الطلب عليه كان ضخماً.

البذل الرجالي أسعارها متواضعة. البذلة ثمنها ٢٠٠ جنيه.

مزاد التحف:

* تحفة كمثرية الشكل ٨٠٠ جنيه،
شمعدان من السيفر ٣ آلاف جنيه
عامود من الرخام ٢٠٠ جنيه.
فترينة لعرض التحف ٦٥٠ جنيهاً.
أمليت للحائط ١٥٠ جنيهاً.
تحفة كريستال ١٠٠ جنيه.
فازة جالية طولها ٤٠ سنتيمتراً ٥٠٠ جنيه.
فوتيه كبير ٤٥٠ جنيهاً.
ترابيزة مستديرة بالرخام ٢٥٠ جنيهاً.
لوحة زيتية متوسطة الحجم ٤٣٠ جنيهاً.
كنبة عربي ٢٨٠ جنيهاً.
سرير خشب فرنسي: ٣٠٠ جنيه.
دولاب خشب فرنسي ٤٧٠.
فازة سيفر كبيرة ٤٥٠ جنيهاً.

* صدر أمر إخلاء إداري للعقار الذي أسكن فيه. وبعد عدة أشهر من تشردي أنا وأسرتي أصبح كل أملنا هو الحصول على خيمة تأويني أنا وأطفالي. ترددت عشرات المرات على مكاتب الإسكان بالمحافظة. وقدمت عشرات الالتماسات وأخيراً. وبعد الواسطة والذي منه. وافق السيد السكرتير العام للمحافظة على صرف خيمة إيواء لي. وكتب مدير الإسكان خطاباً بذلك إلى رئيس حي غرب وذلك للتنفيذ. وقد تصورت ان حلمي تحقق. وان المحافظة اعترفت أخيراً بآدميتي وحقي وحق أسرتي في ان نعيش تحت سقف ما. حتى لو كان هذا السقف من القماش. ولكن الذي حدث ان كل أحلامي تبددت أمام مكاتب موظفي الحي الذين يرفضون التنفيذ بحجة عدم وجود خيمة. ويقولون

ان طابور الحاجزين للخيام طويـل. وانني يجب عليّ الانتـظار حتى يأتي دوري.

العنوان: رصيف المنزل رقم ١٧.
عطفة الشامي ـ درب الشيخ فراج ـ بولاق الدكرور.

* إنتحـر رجل كهـل بان أشعـل النار في نفسـه في الـطريق العـام. بسبب طرده من سكنه بعد الحجز على منقولاته الموجودة في هذه الشقة. وفاء للإيجار المطلوب عليه. الرجل المنتحر اسمـه أحمد هـريدي وعمـره ٦٢ عاماً. وابنه الوحيـد يعمل حـالياً في دولـة عربيـة والرجـل معاشـه صغير. ولأن الجيران تصوروا ان الرجـل يقوم بعمـل تمثيلية مـا حتى لا يـطرد من مسكنـه ابتعـدوا عنه. ولم تحـاول اللجنـة التي استـولت عـلى المنقـولات منعه من حـرق نفسه. فلـم يكن يعني اللجنـة سـوى تسلم المنقولات التي ستباع في مزاد علني يحدد موعده بعـد أسبوع. وبعـد ان بدأت النار تسري في ملابسه القديمة والتي استجابت للنار بسهولة صاح رئيس اللجنة:

ـ الرجل قلب الحكاية مأساة.

لم يحـاول أحـد إطفـاء النـار. وبعـد قليـل وصـل إلى مـأمـور قسم المعادي. بلاغ يقول ان المواطن الفـلاني. عثر عليـه في الطريق العـام. وقد احترقت جثته وكانت ملقـاة في الطريق العام. أمام منزله، أو بمعنى أصح الذي كان منزله من قبل بناحية طرة. انتقل رجال الأمن وبمعاينـة الجثة وجد أنها في حالة احـتراق. وتبين أن الشخص المنتحـر، الذي لا يـوجد لـه أهل، سـوى ابنه الـذي يعمل خـارج البلاد. وأن صـاحب البيت كان قد طلب منه إخلاء الشقة وذلك لعدم وفائه بدفع إيجارهـا. وأنه سيبيع منقولات الشقة وفاءً للإيجار المتأخـر عليه. ويقـال ان رجال الأمن من ذوي الرتب الصغيرة الذين نقلوا الجثة تعـاطفوا مـع الرجـل

المنتحر. فمنعهم المأمور من ذلك التعاطف. وأصدر لهم تعليماته بعدم التعاطف. لأن الوفاة تمت بطريقة مستوردة من خارج البلاد. ولهذا فإن المنتحر لا يستحق من الوطنيين أبناء مصر، مصر وحدها. مصر مصر مصر. لا شرقية ولا غربية، لا قبلية ولا بحرية لا شمالية ولا جنوبية. لا يستحق من الوطنيين حتى مجرد التعاطف.

* * *

يوم ان سافرت إلى المملكة العربية السعودية. أنا وزوجتي. كان هدفنا الوحيد. هو الحصول على الخلو المطلوب لشقة نعيش فيها. ويومها كانت ألف جنيه تكفي. سافرنا بحجة عمل عمرة وهناك حصلنا على العمل. ولكنهم أعادونا إلى مصر لأننا لم نحصل على تأشيرة الدخول اللازمة. حصلنا على التأشيرة وعدنا.

عملنا عامين. وفرنا خلالها ثلاثة آلاف جنيه. وعدنا وفي تصورنا ان كل مشاكل العالم قد حلت دفعة واحدة. سنحصل على الشقة في اليوم الأول. وسنفاصل ونختار. ولكننا فوجئنا ان الفترة التي أقمناها خارج البلاد قفزت بأرقام الخلوات. وضعت أصفاراً جديدة أمام أي رقم سابق وان المبلغ الذي عدنا به. بعد عامين من العمل لا يكفي.

العودة من جديد إلى السعودية والعثور على عمل أمر صعب. والحصول على سكن مستحيل. ولأن الأمل من الأمور التي يصعب إخضاعها لأي مقياس خفنا ان نخدش المبلغ وقررنا ان أقيم أنا عند أهلي في أمبابه وان تقيم زوجتي عند أهلها في مصر الجديدة. وحمدنا الله اننا لم ننجب أي أطفال. لأننا لو أنجبنا كان هذا الحل سيكون صعباً وربما مستحيلاً. وقررنا ان نلتقي في بعض الأوقات في وسط البلد. وان نداوم البحث عن الشقة خلال ذلك بكل إمكانياتنا. والباقي من الحكاية لا أستطيع قوله. لأن الأمر يخص زوجتي أم أولادي. وقد أكمل الحكاية فيما بعد.

نجاح فض الاشتباك في حجرة النوم، والأمل عمل فض اشتباك آخر في الشرفة.

استولى صاحب البيت على غرفة من شقة المستأجر الملاصقة لشقته. بعد ان حطم جدرانها مستعيناً بمجموعة من الفتوات. وحدث بين صاحب البيت والمستأجر أغرب نزاع تحققه نيابة النزهة الآن. وتبدأ الحكاية عندما فوجىء سكان الشقة رقم ٩ بالعقار ٢٦١ بشارع الحجاز بمصر الجديدة بمجموعة من الفتوات تهدم جدار غرفة نومهم. وكذلك الحاجز الذي يقسم شرفتهم المشتركة مع صاحب البيت. ثم يندفعون إلى داخل الغرفة ويلقون بمحتوياتها من الشرفة إلى الطريق العام. وإدخال عفش جديد إلى الغرفة ثم يعتدون بالضرب على محمد رزق مستأجر الشقة الذي حاول منعهم من احتلال الغرفة إلى أن جاء امناء الشرطة وانقذوه من أيديهم.

انتقلت أجهزة الأمن إلى العمارة. وقد أمر مأمور قسم النزهة فوراً بتعيين أحد أمناء الشرطة داخل غرفة النوم حتى تنتهي النيابة من التحقيق. الذي استمر أشهراً. ثم قررت النيابة تمكين المستأجر من الغرفة المعتدى عليها. ولكنها لم توافق على إغلاق الحاجز الذي كان موجوداً في الشرفة. فبقي النزاع قائماً. ولا يزال هناك أمين شرطة معيناً في الشرفة محل النزاع خوفاً من اشتباك فتوات صاحب البيت. إلى ان يقول المحامي العام كلمته. بعد ان تقدم المستأجر بطلب رسمي بحمايته وذلك بإغلاق الشرفة أيضاً.

* * *

كنا قد تصورنا، أنا وزوجتي اننا سعداء. وان الثلاثة آلاف جنيه. ستجعلنا نحصل على شقة. ان عاجلاً أم آجلاً. فعاش كل منا في مكان. ولكننا بشر. اكتشفنا بعد فترة انه لا بد من وجود مكان نختلي

فيه. فنداء الجنس عضنا بأنيابه. خاصة واننا أزواج سابقون.

قررنا ان نلتقي مرة في بيت أهلي. ومرة في بيت أهلها. تجاهلنا الغمزات واللمزات والضحكات. اللقاء كان يتم ظهراً. ندخل إحدى الغرف والكل جلوس في الصالة. ونغلقها علينا ونتجرد من ملابسنا بسرعة فائقة. ونمارس الجنس ونراعي ان لا نصدر أي أصوات تصل إلى الصالة. ولكن أعين الذين في الصالة كانت تطاردنا في خلوتنا. من لحظة البدء وحتى لحظة الانتهاء. رغم اننا نمارس في تكتم شديد وبسرعة فائقة.

كانت تشكو من الجحيم الذي اسمه أعين الآخرين. وكنت أخفف من الأمر مع انني كنت أعاني مثلها وأكثر من سياط النظرات. وكنت أذكرها بالثلاثة آلاف جنيه والحل القادم. مهما بعدت به الأيام.

ولكن حتى هذا الوضع لم يستمر. أهلي تذمروا أولاً. قالوا ان البيت فيه شبان وفتيات في عمر المراهقة الخطر. وهذا الوضع يؤثر على حالتهم النفسية ويدفعهم إلى الانحراف. تساءل الشبان عن حكاية دخولنا الغرف وإغلاقها من الداخل وقت الظهر والخروج منها إلى الحمام مباشرة.

قررنا ان نقتصر على اللقاء في منزلها. حتى أسوي الأمور في منزلنا. يبدو ان العائلتين كانتا على اتفاق فيما بينهما. في الأسبوع التالي قالت عائلتها نفس الكلام. وبنفس الألفاظ تقريباً. فهمنا ان المتاح لنا هو الإقامة فقط. أنا في منزل أهلي. وهي في منزل أهلها. لوكاندة للنوم. والإقامة فردية. أهلي منعوني من استقبال زوجتي في منزلنا. وأهلها منعوها من استقبالي في بيتهم.

وهكذا لم يبق لنا سوى الأماكن العامة فقط. اشتدت الأزمة عليّ وعليها. ملت على زميل لي في العمل. وسألته عن مخرج من الأزمة.

فقال لي ليس أمامنا سوى الفنادق الرخيصة. أو الشقق المفروشة أو الشاليهات التي تؤجر بالساعة. أو دور السينما حيث يتم الأمر وقت العرض. أو استئجار سيارة تاكسي تلف بنا في أحد الشوارع المظلمة جربت كل هذه الوسائل. وهي غالية ومخجلة بصورة لا تطاق.

إيجار الشاليه عشرة جنيهات في الساعة. والطعام إجباري وغالي الثمن. والشاليه في مكان لا بد من الذهاب إليه بتاكسي. يأخذ منا أجر الذهاب والعودة لأن المنطقة مقطوعة ويعود بدون ركاب. وعندعودتنا نمشي على أقدامنا حتى نعثر على سيارة بالصدفة. تبدد المبلغ أو كاد. لأننا نفعل هذا كل أسبوعين مرة.

جربنا سيارة تاكسي. بعد ان أعطاني صديقي رقم تليفون صاحب تاكسي يؤجره لهذا الغرض. صديقي طلب مني ان ترتدي زوجتي فستاناً على اللحم. وان أفعل أنا نفس الشيء. حتى يكون من السهل التجرد من الملابس بسرعة. قابلنا صاحب التاكسي. صعد بنا إلى المقطم. قال لنا انه سيبدو كمن يحاول تصليح السيارة حتى ننتهي من الأمر. أمامنا من ربع إلى نصف ساعة. وعندما تجردنا من ملابسنا فوجئت بالسائق يحاول اختراق زجاج السيارة بعينيه. وهو يطل علينا.

شاهدته يستعد للتجرد من ملابسه فخفت على زوجتي. ارتدينا ملابسنا بسرعة وأمرته بالعودة نظر إليها وقال لها، انه مستعد ان يدفع لها مثلي. لأن جسدها أعجبه. صفعته على وجهه وكدنا ان نتعارك.

قررنا ان نجرب دور السينما. وعندما ضبطنا ملاحظ الصالة عرض علينا دورة المياه الخاصة بالعاملين في الدار. أو غرفة المخزن وعندما رفضت وأفهمته والخجل يعصف بي ان التي معي هي زوجتي. غمز لها بعينيه وسألها. مع من تعمل؟ ومن الذي دلها على العمل في مكان يتمتع بحمايته دون إذن منه؟ وكم أخذت مني؟

عند هذا الحد انهارت زوجتي. مرت بفترة مرض عصبية. وبعد ان تماثلت للشفاء. اتجهت إلى المحاكم حيث رفعت عليّ دعوى تطلب فيها الحكم لها بالطلاق. وعندما ذهبت أوكل محامياً للدفاع عني. قال ان موقف زوجتي قوي. وان موقفي ضعيف جداً في القضية.

* * *

أعود إلى السؤال الكبير: والذي يمد ظلاله على حياتي كلها: ماذا أوصلنا إلى هذا الحال؟ في مكان سابق من الرواية، عنوانه على شكل سؤالين: ماذا أوصلنا من عابدين إلى القبر. ومن القبر إلى المزاد العلني. وفي آخر فصل من الرواية أجابه على السؤال، وهي إجابة المؤلف. الذي قدم القضية على شكل سؤال مركب من سؤالين.

أنا هنا لا أقدم إجابات ما. بقدر ما أحاول تقديم تصوري. كواحد من أبطال المأساة. من اللحظة الأولى. وحتى النهاية. ان كانت هناك نهايات ولكني قبل تقديم تصوري. أطرح سؤالاً آخر: ماذا أوصل الوطن إلى هذا الحال. الأمور مرتبطة ببعضها ولا يمكن فصلها.

عندما قرر المليونير أن نباع في ميدان عام لم يكن لديه طريق آخر سوى هذا. ان البحث عن صحة هذا الطريق أو عدمها كمخرج من الأزمة أمر مضحك. مأساة عائلتنا تبدأ من اللحظة التي اكتشفنا فيها انه لم يعد أمامنا سوى طريق واحد للخروج من الأزمة. ما من أزمة إلا ومن المفروض ان يكون لها أكثر من مخرج. اللحظات السابقة على حدوث الأزمة هي التي أحرقنا فيها كل سفن النجاة. لم يبق لدينا سوى سفينة واحدة. وهي البيع في ميدان عام.

وفي اللحظة التي ستبدأ فيها العائلة. الخطوة الأولى في هذا الطريق. لن يكون أمامها سوى الاستمرار. ليس هناك بديل واحد عن الاستمرار من الآن وإلى ما بعد النهاية. كان بودي الحديث عن نفسي.

وتقديم العائلة كلها من خلال تجربتي. ولكن لدي ما هو أهم. ما أريد الحديث عنه. ماذا أوصلنا إلى هذا الطريق الوحيد والذي لا يوجد أمامنا سواه؟. كيف بددنا كل الطرق الأخرى ولم يعد سوى البيع في مزاد ميدان التحرير أمامنا والرمي في الشارع وراءنا؟.

في تصوري ان هناك عاملين أساسيين أوصلا العائلة للبيع في ميدان عام. الأول: ظروفنا وما حدث من والدي. أما الثاني: فهو وجود قاعدة التمثال الخالية في ميدان التحرير: ان ترك هذه الكعكة الحجرية كان يدفعني إلى تساؤل: هل خلا تاريخ وحاضر هذا الوطن من الذي يضع تمثاله فوق الكعكة. أم انه يوجد من يستحق. ولأسباب ليس هنا مجال الحديث عنها. فلن يقام له تمثال في هذا المكان الخالي.

ان وجود هذه المساحة خالية وسط أكبر ميادين بلادي. سيشكل دافعاً لكل من يريد الخروج من أزمته ان يبدأ من هنا. من الكعكة الحجرية. قاعدة التمثال والتي يبدو أنها ستبقى خالية فترة طويلة من الوقت.

يتدخل المؤلف هنا. ويقلب الكثير من أوراق الأستاذ. فهو مجرد شخص من أشخاص الرواية. وقد أخذ أكثر من حقه. ويصل المؤلف إلى جزء هام من أوراق الأستاذ. وهو الجزء الخاص بالمخرج من الأزمة. كان الأستاذ أول من رفض البيع في ميدان عام. فماذا يقول عن المخرج؟:

نحن في مصر. وبلدنا جزء من الشرق. حيث يلعب الأفراد الدور الأساسي في حركة الواقع. عائلتنا تقدس كبيرها. وهو المسئول عن تصريف كافة أمورها. المليونير كان يملك أن يجعل حال الأسرة أحسن. وهو الذي أوصلها إلى المزاد العلني. وهذا الكلام لا يقلل من دور باقي الأفراد. ولكن المليونير يلعب الدور الرئيسي.

المليونير لم يحافظ على القبر. وكان من الصعب ان نقف في وجهه. خلال مراحل التدهور المستمرة. جرى المليونير وراء أحلام الكنوز والآثار. أضاع الممكن طلباً للمستحيل. نحن نعيش في مجتمع أبوي. من حق الأب أن يخطىء. وهو ليس مسئولاً أمامنا عن هذه الأخطاء. دور الأبناء يأتي في لحظة دفع ثمن هذه الأخطاء. بمجرد ان وصلنا إلى ما بعد الأزمة. كان على الأسرة ان تواجه الموقف. كان لا بد من مخرج. المأزوم لا يصلح للبحث عن مخرج. وهكذا كان البيع في ميدان عام مخرجاً وحيداً. والسكنى في الشارع كانت البديل الوحيد أيضاً.

يقولون: إن الذين بدون سكن في مدينة القاهرة وحدها يصل عددهم إلى مليوني مواطن. ولو رفضوا جميعاً الحلول الوسط. وأصروا على حل جذري. لما كان هناك مواطن واحد بدون سكن. والحل الجماعي هو المخرج الوحيد. وهو البديل للبيع في ميدان عام. إما ان نبقى في الشوارع. حتى يتم قلب الهرم. أو أن يستولي كل منا على أول سكن خالٍ يقابله. والمساكن الخالية عددها ضخم جداً. يفوق عدد الذين بدون سكن.

المأساة أن المليونير لم يطرح الأمرين للإختيار. لم يجمعنا بهدف المناقشة وأخذ الرأي. ولكن لتنفيذ ما توصل هو إليه. المليونير هو المسئول. وضع كل البيض في سلة واحدة. وهذا خطأ. لم يستطع أحد منا الوقوف في وجهه. والذين رفضوا. كان رفضهم لوناً من النجاة الفردية. وليس محاولة لاصلاح حال الأسرة. تركناه يتدهور. تحولنا إلى عوالم في مواجهته. تعمل بمفردها. لم نحاول احتواءه. تركناه يبحر بعيداً. طريق التدهور نعرف نقطة البدء فيه فقط. الاستمرار في التدهور عملية آلية صرفة. البقاء على الحال لن يفيد الآن.

والغريب انني وغيري من الذين رفضوا البيع. لم نتحدث عن

البديل. رفضنا فقط. فكأن الرفض موقف مطلوب في حد ذاته. أما المخرج الآخر فأين هو؟ لا أحب كلمة لو. كأن نقول الآن، لو فعلنا كذا لما حدثت المأساة من الأساس. لقد أصبحنا بلا جذور. عائلة معلقة في الهواء. تركنا الأرض التى كنا نقف عليها. دون ان نحاول العثور على أرض بديلة. جذورنا في الهواء. سيصبح هذا القبر أملاً في فترة قادمة. بل قد يصبح أحد الأحلام.

عندما رفضت فكرة البيع في ميدان عام. كان القرار فردياً. لم أفكر في حل بديل ولكن الأمر تغير عندما رفض بعض الأخوة. شعرت بعبء المسئولية وثقلها، تناقشنا في سلبية الموقف الذي اتخذناه. قررنا ان نفعل أي شيء بدلاً من هذا الموقف السلبي. لكي نقدم للعائلة موقفاً محدداً. نموذجاً للتصرف السليم. ناقشنا الأمر. قلنا ان فكرة احتلال شقة في الناحية الأخرى والحياة فيها ليست مأمونة العواقب. أصحاب هذه الشقة لن يسكتوا. سيدفعون مبلغاً من المال لعصابة من المجرمين تتولى الأمر.

كانت الجرائد قد نشرت حادثة أسرة. بدون سكن. أقامت فترة من الوقت في الشارع. ثم استولت على شقة في المنزل الذي كانت الأسرة تقيم على الرصيف المقابل له. وكان صاحب الشقة لا يسكن فيها. وانما يأتي إليها أربع مرات في الشهر. معه فتاة في عمر أولاده يمكث فيها كل مرة ثلاث ساعات ثم ينصرف. تصورت الأسرة. انها في حالة احتلال الشقة. سيكون موقف الرجل ضعيفاً. وستكون الشرطة في جانبهم. وكذلك أهل الحي وصاحب البيت. وبالفعل رصدوا أيام حضوره. وبمجرد ذهابه في إحدى المرات. أدركوا انه باقٍ ستة أيام على حضوره في المرة القادمة. فاحتلوا الشقة. لحظة فتحها وجدوها خالية سرير صغير. وثلاث كراسي ولمبة حمراء. على الأرض عوازل طبية

بعضهـا مستعمل والآخـر في ورقة. جـوزة وبعض الفحم وكميات من المعسل. زجاجات خمر بيرة فارغة. مشط. قميص نوم حريمي. بيجامـة قديمة. شبشب أمام الحمام. صور جنسية كثيرة. هذا كل ما وجدوه.

بعد دخولهم الشقة حضر صاحبها. بمفرده هـذه المرة. يبـدو ان أحد السكان اتصل به. طلب منهم الخروج بالتي هي أحسن. هددوه بإبلاغ زوجته وأولاده. كان مجرد تهديـد منهم لا يعرفـون حتى اسمه. تـركهم ونزل. حضرت بعد قليل فرقـة من البلطجية. أخـذت الوالـد بهدوء. علقوه في الشرفة. كانت الشقة تقع في الدور الثامن. وقالوا لباقي أفراد العائلة. ليس أمامهم سوى الاختيار بين أمرين. إما ترك الشقة أو قطع الحبل المعلق فيه الوالد. والمصير معروف. جرى بعض أفراد الأسرة إلى قسم الشرطة. قال إن الشقـة تستخدم للدعارة وهم بدون سكن يبدو ان من في القسم كان على علم مسبق بالموضـوع. ضربه علقـة ساخنـة وطلب منه ترك الشقة فوراً. وإلا سيلقى القبض عليـه وعلى كـل أفراد أسرته بتهمة سرقة مائة ألف جنيه كانت في الشقة وقت اقتحامها. عـاد لينقـذ والده. في اللحـظة قبل الأخـيرة. من الموت. ونشرت الجـرائـد الحادثة لتكون عبرة لمن تسول له نفسه الإستيلاء على سكن الغير فالدنيا ليست فوضى.

يكمل الأستاذ: كان الحادثة تحذيراً لنا. ولهـذا لم نفكر في الإستيـلاء على أي شقق. أما البقاء في الشارع. فلن يكون له تأثير لصغـر العدد. ولأننا لا نشكل أسرة بالمعنى المعروف للأسرة. فلا يوجد أطفـال أو أب أو أم. لم يبق أمـامنا سـوى احتلال مقـبرة أخرى نعيش فيهـا. وتصبح أمـلا أخـيراً لهم. ان فشلت رحلتهم إلى ميـدان التحـريـر. انتهى بنـا التفكـير إلى احتلال مقـبرة الخـديـوي تـوفيق. مقـبرة فخمـة وضخمـة وواسعة. وبها من الحجرات ما يكفي لحياة سعيدة. فيها نور ومياه وكل ما تطلبه النفس.

بدأنا المفاوضات مع أحد الحراس. المكلفين بحراسة هذه المقبرة. فوجئت برفضه المناقشة قال انه رأى في المنام ان الخديوي توفيق سيحكم مصر قريباً. بعد ست سنوات من الآن وفي هذه الحالة. سيكون أول ما يفعله من فوق العرش. هو الإنتقام مني ومن أسرتي لأنني لم أحترم حرمة الموتى. وأزعجته وهو ميت. دهشت من كلام الحارس. ولم أصدق وقلت له:

ـ ولكن الخديوي توفيق ميت؟

ـ نعم.

ـ ومدفون هنا؟

ـ نعم.

ـ فيكف يحكم إذن؟

ـ سيخرج في موكب ضخم. يبدأ من هنا وينتهي عند قصر عابدين.

ـ ومتى يحدث هذا؟

ـ في النصف الثاني من عام ١٩٨٢.

ـ في حماية من هذه المرة؟

ـ المحتلون الجدد.

ـ ومن هم؟

ـ الوضع اختلف في أيامنا. المحتل هذه المرة مزدوج. هناك محتل فعلي بعيد. تفصله عنا المحيطات. وهو المحتل الأصلي. وهناك محتل شريك. يقف على حدودنا. وهو مجرد شريك في الإحتلال. وسيكون لهما ممثلان في موكب العودة.

ـ أمر غريب.

ـ ستعزف الموسيقى النشيد الخديوي. وسيليه في الحكم أبناؤه

وأحفـاده حتى الملك فـاروق الأول ملك مصر والسـودان. ثم يقـوم العسكريون بثورة ويطردون الملك فاروق من البلاد.

ـ هل التاريخ يعيد نفسه إذن؟

ـ سمِّه ما شئت ولكنه سيحدث.

ـ ولكنه يحدث في المرة الأولى كمأساة. وفي الثانيـة يصبح مهـزلة. اسمع. إذن أمامنا ست سنوات حتى يحدث هذا. سكني اليوم واطردني غداً.

ـ لا.

ـ لم؟.

ـ ستبدأ مواكب النفاق من الغد.

ـ لمن؟

ـ البعض للخديوي. والآخر للمحتل الأصلي. أكبر قـوة في الكون والثالث لشريك الإحتلال. جيراننا الذي نسيناهم ثلاثون عامـاً. ومن يسبح ضد التيار مصيره معروف.

وهكذا لم ننفذ فكرة احتلال مقـبرة الخديـوي توفيق. بعض الأخـوة قالوا ان الحارس مجنون ويجب ان لا نصدق كلامه. ولكن كان بـداخلي ما يجعلني أميل إلى تصديقه.

لا بد من كلمة عن الوطن الذي نسيه الجميع في هذه الأيام. مـا من أحد إلا وحديثه عن نفسه. عن همومه الخـاصة ومشـاكله العائليـة. أما الوطن فلا أعرف من يتحدث عنه. ولكني لا أحب المشاركة في نسيانه. قال لي واحد من الذين حولوا الوضع الراهن إلى فائدة يومية. وكل أمله هو استمرار الحال. قال لي: ان اصلاح حال مصر يعني تـدميرهـا تماماً والأمل الوحيد هو استمرار الوضـع على مـا هو عليـه. وقد عجبت من منطقه الغريب.

في تصوري ان استمرار الحال هكذا أمر مستحيل. لا بد من تغيير. والـذي سيتولى هـذا التغيير لن يكـون قوة تخـرج من باطن الأرض. أو تنـزل من السماء السـابعـة. ولكنـه من أعـماق هـذا الشعب المستبـاح. صحيـح ان الوطن يمـر بحالـة من الإغماء المـذهل. هـاجر من هـاجـر وتراجع من تراجع وآثر السلامة من آثر السلامة وسجن من سجن وغير جلده من استطاع ان يدهنه بلون جديد.

وعاد الوطن من جديد يتنفس بصعوبة ويحترق بالغضب الصـامت. وان كان يبدو لمن ينـظر من بعيد انـه عاد للنـوم. أو دخل كهفـه أو قرر الاستسـلام. وفي بعض الأحيـان يلتفت الـوطن. يبحث عن ابنـائـه الشجعـان فـلا يسمـع أصـواتهم إلا من خلف أسـوار السجـون أو من المنفى البعيد. البعيد. البعيد. وان كان الفـارق ضخماً بـين المسجون أو المنفي الهارب من ميدان المعركة الفعلي.

الكلمات الأخيرة قد تكون كلمات مجنونة. خاليـة من التماسـك. انها الكلمات التي وردت على الذهن. وصل الوطن في هذه الأيام إلى مفترق طرق. الوطن لا يزال محتلاً. مساحة منه مستباحة لأقدام الأعداء تدب عليها صباح مساء. ان الوطن عندما يحتل جزء منه. فإن هـذا ينعكس عـلى كـل إنسـان يعيش داخـل هـذا الـوطن. لن أكمـل الحـديث عن الأرض التي طال احتلالهـا. وطال اشتيـاقها لمن يحـررها. سـأظل أدور معلقاً بين المعاني مثل الثور المعصوب العينين. والذي يـدور في الساقيـة بدون نقطة بدء ولا محطة وصول.

سـأنهي الحديث عن الثنـائية التي بـدأت بها، السماء المقسمـة بـين الأغنيـاء والفقراء. من جـديد أتحـدث عنها. أمـا شبعت من كـثرة مـا قلت؟ ما الحل؟ من يوقف الغني عند الحد الذي وصل إليه؟ ومن يمكن الفقير من الشبع من يـومه؟ هـذا مستحيل وليس أمـامهم سوى فـرض

حـالة قشريـة من الاستقرار عن طـريق القوة القمعيـة التي سرعـان مـا تصبح دمويـة الطابـع . وتلك الدمـوية ستضـع الناس عـلى أول طريق العنف الذي لم تشهده البلاد سوى في الأربعينات .

الفارق ان العنف في الزمان القديم كان العدو فيـه معروفـاً . الآن . كل الدلائل تشير إلى ان الجذر الإجتماعي يكشف عن وجه المعركة بكل وضـوح . الفقراء . والأغنيـاء . تلك هي التقسيمـة الأسـاسيـة . وتحت مظاهر الحياة الهادئة . المواكب والهتافات والتأييد المطلق . من تحت هذه العبـاءة نفسهـا سيخـرج الـرفض العنيف . ليست هـذه نبـوءة شخص حاقد . ألم تحدث معظم الانتفاضات في يناير؟ اليوم الأول فيه يـأتي بعد ليلة . تعـبر فيها الأوضـاع عن نفسهـا بصـورة صـارخـة . في ليلة رأس السنة . يقول لك الكل . ها أنذا . ويكـون الشعار . قـل لي أين قضيت لحظة إطفاء الأضواء؟ اللحظة الفاصلة بين عـام وآخر . وكم دفعت من المال . أقل لك من أنت . تخرج من هـذه اللحظة المـترعة بـالحرمـان بلا حدود . والبذخ بلا حدود مقدمات العنف القـديم . ولكن بوجـه طبقي واضـح . مع أن الحـل معروف . مثـل الشمس . ولكن من يعنيـه هـذا الحل . ومن يستطيع حتى مجرد التفكير فيه . تلك هي المأساة .

* * *

مسك الختام .

يبحث قسم التشريـع بمجلس الدولـة حاليـاً مشروع قانـون خاص بـإلغاء النص الخـاص بعدم زيـادة الدخـل السنوي عن ٥ آلاف جنيـه لكبار العاملين في الهيئات والشركات أو المؤسسات . ويسري ذلك عـلى آية مبالغ سواء تصرف كمكافأة أو رواتب أو بدلات حضور أو تمثيـل أو بأي صورة من الصور . حتى لا تتجمد مرتبات العاملين الممتازين .

ويهـدف المشروع إلى مسـايـرة الـظروف الإقتصـاديـة والاجتمـاعيـة

الجديدة بعد إعلان سياسة الانفتاح الاقتصادي وصدور قانون استثمار المال العربي والأجنبي والمناطق الحرة. وقد سبق ان صدرت قرارات برفع القيد عن الحد الأقصى للمرتبات في شركات الاستثمار واستمر القيد على غيرها من الشركات مما أدى إلى هجرة الكفاءات إلى شركات الاستثمار. إلى جانب الإحجام عند إنشاء الشركات المساهمة مما يؤثر على سوق المال.

* * *

من المفروض ان يشتمل هذا الفصل على حديث عن مصير الأستاذ وأشقائه بعد حكاية رفض البيع وتفصيل ما جري لهم. ولأن هذا الفصل طال أكثر من اللازم فالمؤلف سيخصص فصلاً قادماً. للحديث في هذا الموضوع بالتفصيل. قد يكون هذا الجزء من الرواية أو الجزء الثالث منها.

٥

الحذاء قبل الكتاب أحياناً

من يرجع إلى الصفحة الأولى، من الجزء الأول. من الرواية. يجدها تبدأ في اللحظة التي انتهى فيها المؤلف من كتابة الرواية. وهي تبدأ بالضيق والتبرم والرفض. وأول ما يرفضه المؤلف هو عملية الكتابة نفسها. والمؤلف لا يزال يذكر لحظة الانتهاء من الكتابة الثالثة لروايته. التي كبرت أثناء الكتابة أكثر من مرة. ولأن المؤلف لا يزال يتأرجح بين القصة القصيرة والرواية. مع أنه يرى ان كلاً منهما فن قائم بذاته، له مفرداته وعالمه المستقل عن الآخر تماماً. ان هذه الرواية عندما طرقت ذهنه في البداية. كانت على شكل قصة قصيرة. العائلة التي ستباع في مزاد علني. وإظهار التناقض الصارخ بين حالها وحال الآخرين. سقف الوطن وقاعة المسافة بينهما.

أثناء التحضير والعمل. وفترات الإنقطاع والعودة إلى العمل. طالت القصة قال لنفسه، لتكن إذن رواية قصيرة أو قصة طويلة. ان المؤلف متأكد الآن. ان ما حول الأمر إلى رواية بهذا الحجم. لم يكن العالم الداخلي للرواية. ولا تطورها الخاص. ولا رغبة المؤلف في التطويل. فالتركيز والاختصار من الأمور الصعبة. والقدرة عليها دليل تمكن فني يحب المؤلف تجربتها دائماً. والعمل الصغير أسهل في النشر من العمل الضخم.

ان ما ضخم العمل أصلاً هو حالة الانهيار العامة التي أصابت الأوضاع من حوله. كان المؤلف في تلك الأيام التي تسارعت فيها الأمور. وبدأت تنحدر بقوة دفع ذاتية لا يعرف من أين أتت. كان يذهب إلى بيته لينام ليلاً. في الساعات القليلة التي ينامها. يصحو في اليوم التالي مباشرة ليجد واقعاً آخر. مختلفاً عن الواقع الذي تركه ونام. وهو في الطريق إلى عمله، كان يتساءل من جديد: وطن من هذا؟ هل هو الوطن الذي تركه قبل ساعات النوم القليلة؟. محال ان يكون هو نفس الوطن.

وهكذا أضافت كل لحظة. واقعاً جديداً إلى الرواية ولكن سرعة وقوع الأحداث وتلامسها مع واقع الرواية وواقع المؤلف جعله يخرج من دائرة الشخص المحايد. الذي يكتب عما يجري في وطنه بحياد. يقدم تقريراً عن معركة جرت يقول ان فلاناً انتصر وفلان هزم. وانه مجرد شاهد إثبات أو شاهد نفي، حسب ما تقتضيه الأحوال.

أصبح جزءاً من الكل. الذي يكتب عنه في الرواية ومن كثرة تداخل الأدوار. نبت لدى المؤلف إحساس ان الدور سيأتي عليه في يوم ما. ليقف في نفس موقف العائلة. سيعرض نفسه وروايته. المصير واحد وان اختلف توقيت الأدوار.

يكفي هذا. فالمؤلف يخشى ان يقال انه ضخم من متاعبه وهمومه. التي لا وجود لها أصلاً على حساب العمل الأدبي. ولهذا فهو ينهي هذا الحديث. ويبدأ في فصل جديد حول عملية النشر. نشر الرواية. والتي أصبحت أكثر صعوبة من كتابة الرواية.

كانت رباب قد اعطته بعض عناوين دور النشر وأوصته ان يطرق أبوابها. لعل وعسى. محاولة منها لإخراجه من حالة اليأس التي سيطرت عليه. قالت له ان شر ما يصيب الإنسان هو اليأس. وهو الآفة الخطيرة

التي تأكل روح الأنسان من الداخل. وتدمره. قال لها ان النشر معركة مخيفة. والغريب انه يخوض المعركة من الصفر مع كل عمل جديد. من ينشرون الأعمال الأدبية في وطننا لا ذاكرة لهم. كل عمل جديد مغامرة تبدأ من الفراغ. لا يشفع للكاتب. ان له أعمالاً سابقة نشرت ووزعت. لسبب بسيط، هو انه لا يوجد من يقرأ.

مع كل عمل جديد. عليك أن تحمله وأن تدور على دور النشر. وفي كل مرة تنطق بإسمك الذي لم يسمع به أحد من قبل. وتذكر عناوين مؤلفاتك. التي لم يقرأها أحد. واحداً بعد الآخر. لا تجد أي أثر لدى السامع سواء لذكر إسمك أو ذكر مؤلفاتك.

وطننا هو البلد الوحيد على الأرض الذي تتطور فيه الأمور متجهة إلى الخلف. حكى لها. أنه عندما نشر إنتاجه مع إبناء جيله في منتصف الستينات. لم تكن هناك مشكلة تذكر: سواء في النشر في المجلات أو على شكل كتب مستقلة. بالتأكيد واجه بعض العناء. ولكن الواقع البعيد الذي بدأ فيه. لا يجرؤ الآن على مجرد الحلم به. تغيرت الأوضاع. ولكن للأسوأ.

قسّم الوطن أبناءه إلى عصاة ومطيعين. المطيعون جماعة مفلسة لا تملك سوى الطاعة. وفمها لا يجرؤ سوى على قول كلمة نعم. وكل مخزونهم من المفردات اللغوية يدور في حلقة الإستسلام والإذعان والقبول. وأقوى ما يخرج من حناجرهم هما كلمتا: يحيا ويعيش. وأيديهم لا تصلح سوى للتصفيق في المناسبات. بتلك الأشياء التي يكتبونها. النفايات التي يسمونها الفن والأدب.

سماهم أحد المتابعين ذات مرة: جامعو أعقاب السجائر. يقولون لك: قدسية الأدب وشرف الكلمة. ومصر التي ليست شرقية ولا غربية ولا قبلية ولا بحرية. وغدر العرب ومؤامرة تجويع مصر. وهي مؤامرة

عربية. وخيانة السوفييت. وفي بعض المواقف تجدهم مستعدين للإغماء عليهم من شدة التأييد المطلق.

المحزن أنهم جميعاً خرجوا من معطف الستينات إياه. الذي يلعنونه الآن. يومها لهجت ألسنتهم بالحديث عن الإنتصارات. وكانوا من اليسار المتطرف.

دائماً التطرف يوصل إلى الناحية الأخرى. كانوا أصدقاء للسوفييت. وكان يقول الفرد منهم: إن الحديث عن عروبة مصر. في هذه الفترة بالذات: خطأ. إن السؤال هو، لماذا تأخرت مصر في اكتشاف عروبتها. ثلاثة عشر قرناً من الزمان؟. فيا عروبتاه ويا حزناه.

أغلق الوطن كل إمكانياته على هذه الجماعة المفلسة. التي لا يمكن أن تسمى حتى باليمين. والباقون اتخذت بحقهم قرارات تحرمهم حتى من التنفس. ليس أمامهم سوى الرحيل إلى الوطن العربي. فهو يمنحهم حالة فريدة لا تتكرر كثيراً. إن حدثت إنتكاسة في مكان منه. من الممكن التنفس في مكان آخر. إلى أن يرفع الله كربه عن المكان الذي انتكس.

هو لا يفضل هذا الحل الهروبي. لأنه يدرك أن معركته الأساسية هنا. وإن الكلمة التي تنشر في الخارج. تصل إلى هنا بصعوبة. كان رأيه أن يترك روايته في أحد الأدراج وينتظر. اختلفت رباب معه. قالت له إن عدم نشر الرواية انهزامية. لا بد وأن يكمل إنتاجه بالإصرار على نشره. وضرورة وصوله للناس. الكلمة التي لا تجد من يقرأها تظل أحرفاً ميتة تبحث عن فرصة الحياة ولا تمنحها هذه الحياة إلا العين التي تقع عليها.

قال لنفسه وصوتها يصله. من يتكلم غير من يفعل. ما أسهل

الكلمات. وما أكثر الراحة التي تمنحها لمن اختار العوم في بحار الكلمات فقط. آه لو تدرك مدى ما عاناه، من اللحظة التي بدأ فيها الكتابة وحتى الآن. هل يحكي لها ما جرى له في مكتب الآلة الكاتبة؟. إنه مجرد فصل بسيط. ولكن أول الطريق دائماً يشير إلى طبيعة المشوار.

إنه لا يمتلك آلة كاتبة. وكان قد تعود على كتابة أعماله لدى أحد العاملين معه في المؤسسة التي يعمل بها. ولكن الإنفتاح أتى. وأصبح دخل الرجل من مرتبه وعمله على الآلة الكاتبة في أوقات الفراغ لا يكفي. وفكر في تحسين دخله. فذهب وحضر دورة تدريبية على آلة جديدة إسمها «التلكس». وبعد هذه الدورة. بحث عن عمل آخر ووجده في شركة استثمارية. المرتب بالدولار. العملة المحترمة قولاً وفعلاً. والرقم مذهل.

حاول أن يجمع بين العملين. ولكن الإغراء الجديد قضى على العمل القديم. ثم سرعان ما سافر الموظف إلى فرع الشركة في باريس. ليعمل على التلكس هناك. في هذه الأثناء كان المؤلف قد انتهى من روايته. وبدأ البحث عن مكتب للآلة الكاتبة. واهتدى إليه. أولى الحقائق كانت ارتفاع أسعار الكتابة كل أسبوع. ولكنه ترك أجزاء من الرواية ومضى.

وعندما ذهب يسأل عنها في الموعد المحدد. لم يجد أصول الرواية. قالوا له إن السيدة التي تكتبها تعمل في منزلها. بسبب غيرة زوجها عليها. وفي المرة الثانية قالوا إنه رجل. وإنه سافر وسيعود بعد شهر. وعليه فقط أن يترك عنوان البيت والعمل وسيرسلون إليه الرواية حال الإنتهاء من الكتابة. جلس بهدوء على أحد المقاعد. وقد لعب الفأر في عبه. تساءل همساً: ما هي الحكاية بالضبط؟ رفض إعطاءهم العنوان.

عاد بعد عشرة أيام. أجلسه صاحب المكتب قبالته وسأله عما في

الرواية؟ لمصلحة من هذا الهدم؟ أين تنشر الرواية؟ وهل يمكن نشر مثل هذا العمل؟ ها هو الأمر على بلاطه إذن. بدون لف أو دوران. بعد قليل حضر مخبر من القسم. أخذ كشفاً بما يتم كتابته في المكتب لهذا اليوم. سأل المؤلف صاحب المكتب عن حكاية المخبر. فقال له: إن ذلك يتم يومياً وبصفة دورية. وإن هذا النظام حدث مؤخراً. منذ عام أو أكثر. وقد تنبه عليه بعدم كتابة ما لا تجوز كتابته. وإن تقدم إليه أحد ومعه ما لا يجوز هذا. ما عليه سوى أخذ عنوان منزله وعنوان عمله. والتوجه إلى الضابط المختص بمباحث الطباعة ليقوم بعمل اللازم. أكمل الرجل. إنه في الفترة التي مضت لم يقم بكتابة الرواية. ولم يرسلها إلى الضابط المختص. صحيح أنه فكر في هذا خوفاً من جواسيس الضابط الذين يعملون في المكتب. ولكنه أعجب بالرواية. لأنها تتحدث عن سوء الأحوال والأوضاع في البلاد بصورة لم يقرأها من قبل. وهو يعاني من هذه الأوضاع مثل المؤلف وأكثر.

أعطاه الرواية ونصحه بكتابتها بعيداً عن المكاتب. لدى أي فرد يكتب في منزله. لأنه بهذا قد يكون بعيداً عن أعين مباحث الطباعة والنشر. أخذ الرواية. شكر الرجل. وخرج. سأل نفسه: من يصدق كل هذا؟

قالت له رباب إنها تدرك كل هذه المتاعب، ومن أجل هذا لا بد من الإصرار. إن المتاعب ليس معناها أن يجلس وينام. وأن يخاف الكل ولكن معناها أن يفكر في عمل مقابل لكل تلك الإجراءات. أخذ من رباب العناوين الكثيرة. قرأها، قال لها: إنه كان يفضل الذهاب إلى جهة واحدة. تكون لديه الثقة في نشر عمله عندها. بضمان منها. حتى يستريح من عناء البحث والجري والتجول اليومي.

ضحكت رباب من سذاجته. قالت إنه يستخدم مفردات لا تمت

إلى عصرنا بصلة ما. ثقة؟ لا أحد يثق حتى في نفسه. عليه أن يكافح ويجاهد ويطرق كل الأبواب. قديماً قالوا إن السياسة هي فن الممكن. واليوم يمكن أن يقال إن الحياة اليومية أصبحت هي فن الممكن. إن طموح الإنسان أصبح لا يتعدى كسرة خبز. مساحة قبر يعيش فيها. العثور على نافذة أتوبيس يقف بجوارها. توجد معه أكثر من نسخة من الرواية. ما المانع من تقديمها لأكثر من جهة. وبمجرد أن يتم حسم الأمر في أي من هذه الدور يبلغ الدور الأخرى.

قال لها إنه يخشى صدور الرواية من أربع دور نشر في وقت واحد. وهذه واقعة نصب لا خلاف فيها. وهو لا يحب أن يتهم بالنصب. قالت له. أنت تتفاءل بلا حدود. المهم الآن أن يقدم نسخة من الرواية لدار النشر الرسمية. وبالنسبة لهذه الدار عليه الإنتظار فترة طويلة حتى يتقرر مصير الرواية فيها. وخلال هذه الفترة. يكون قد وصل لقرار بشأن الرواية وإن نشرت خلال هذه الفترة. فما عليه سوى إبلاغ هذه الدار بنشر عمله. استراح المؤلف للإقتراح.

قالت له: إن رحلة البحث عن ناشر تجربة جيدة في حد ذاتها. لماذا لا يجرب. في داخله كان التردد وعدم وجود الرغبة في فعل شيء ما. وحالة قديمة من التصميم على نشر عمله. ولكنه في اليوم التالي. قرر أن يخوض التجربة حتى النهاية. لم يفكر في بدء رحلته بدار النشر الرسمية. المعانة من قبل الدولة. لأنه يعرف خطوات العمل فيها سلفاً. عليه أن يقدم الرواية ويتركها. ويعود بعد عام. ليعرف قرار لجنة القراءة. ثم يعود بعد عام آخر ليعرف إن كانت هناك نية إدراجها في خطة النشر للعام الذي يليه أم لا. العمل سعيد الحظ أمامه خمس سنوات حتى يرى النور. وقد تكون المدة أكثر من هذه السنوات الخمس.

بعض دور النشر الكبرى لم يفكر في طرق بابها. إما لأنها لا تنشر الأدب أصلاً أو أنها أغلقت بابها على إسم أو إسمين من الجيل الذي بدأ ينشر في الأربعينات واستمرت تنشر له وحده. هذه الدار لنشر أعمال فلان. والأخرى لعلان. أدباء كبار السن. يعيشون على أمجاد عصر انتهى. ويكتبون عن واقع لا وجود له سوى في أذهانهم.

جلس في أحد المقاهي. أخرج ورقة رباب. راجع الموقف بكل دقة. وفي لحظة اتخاذ القرارات التي لن تنفذ أبداً. قال: لتكن تجربة النشر عذاباً متجولاً من نوع جديد. سأطرق كل الأبواب. الرسمي وغير الرسمي. دور الكبار ودور الصغار. العمالقة والأقزام. وتساءل: وهل يوجد عمالقة؟ رد على نفسه: أشك في هذا كثيراً.

بدأ الرحلة. حاول أن يتذكر كم مرة حمل أحد أعماله. وبدأ رحلة البحث هذه. قال لنفسه للمرة الألف: في بلدنا لا أحد يكبر أبداً. الكل يدور حول نفسه كالنحلة حتى يدوخ من كثرة الدوران. ويقع في النهاية. في كل أعماله السابقة. واجه نفس المشكلة. البحث عمن ينشر له. في الرواية الأولى. الثانية. الثالثة. وسيظل الحال هكذا إلى الرواية المائة.

بلد يأكل أبناءه بدون رحمة مثل القطط. وطن: جزء صغير منه متخم. على حساب جزء ضخم آخر من أبنائه. أخرج ورقة العناوين. سأل عن مكان أول دار أعطته رباب عنوانها. اختارها لأن عنوانها كان في وسط البلد. لن يركب مواصلات لكي يذهب إليها. فسحة في شارع رئيسي. أصبح في الفترة الأخيرة نهراً يومياً متجدداً من اللحم الأبيض. والعيون التي يطل منها الشبق. والصدور المترجرجة والأرداف المهتزة. نهر البنطلونات الجينز. والملابس. المستوردة من كل أنحاء العالم.

سأل عن العنوان. وهنا كانت المفاجأة الأولى. العنوان موجود. ولكنه ليس لدار نشر. دله شخص عليه. محل أحذية قبيح المدخل غليظ الألوان. تلال من الأحذية في فاترينة ضخمة وعالية. وبالداخل شخص مهذب يمسك بقدم بيضاء شحيمة لحيمة. يحاول وضعها داخل حذاء بين قدميه. وتل اللحم الأبيض يبدو أنه استراح لمسكة الأفندي بالقدم.

تأكد المؤلف مرة أخرى من العنوان. وجده صحيحاً. دخل يسأل. ربما غيرت دار النشر مكانها. إلى عنوان آخر. لام رباب في سره لأنها وضعته في هذا الموقف. داخل المحل خف إليه أكثر من شخص. يسألونه عن طلبه. حذاء أم صندل أم حقيبة يد لرفيقته الجديدة. أم حزام من جلد التمساح. أم ماذا يريد بالضبط؛ أوضح لهم الموقف. إنه يسأل عن دار النشر التي كانت هنا.

سريعاً انطفأ بريق الحماس التجاري. وتشوهت الإبتسامات الصناعية. التي رسموها على الشفاه. عادوا إلى جلستهم يراقبون تل اللحم الأبيض. ولما اكتشفوا أن الغريب ما يزال واقفاً في انتظار الإجابة. قال له واحد منهم بتثاقل وبصوت منطفىء: إن المكتبة صفت أعمالها. وتحولت دار النشر إلى محل للأحذية. أخذ صاحب المكتبة خلو رجل محترم. خمسين ألفاً من الجنيهات المصرية. كل جنيه ينطح الآخر. وصفى أعماله. وهكذا تحول المكان إلى محل يفيد الناس. بدلاً من إفساد عقولهم بما في الكتب.

ـ أليس الحذاء أفضل من الكتاب؟

قالها الرجل ضاحكاً. لم يعرف المؤلف بما يرد. غمغم بصوت منخفض:

ـ على الأقل. في أيامنا هذه. كل شيء أحسن من الكتاب.

أوقفه الرجل الذي شعر بالإهانة. وراح يعدد له مزايا الحذاء والمشاكل التي تعود على الناس من الكتب. قال له الرجل. الذي اكتشف المؤلف بعد هذا أنه صاحب المحل. إن الحذاء يلبسه الإنسان ثلاثة أرباع عمره. ما عدا أوقات النوم. وهو مفيد لأنه يحافظ على قدم الإنسان ويحدد له قيمته الإجتماعية. وفي دراسة نفسية منشورة في بلاد النور. أوروبا الغربية وأمريكا. حيث حضارة العلم والتطور. وأرقى ما وصل إليه الإنسان في العصر الحديث. وفي كل عصر. قالت هذه الدراسة. إن أول ما تقع عليه عينا المرأة. في الرجل هو الحذاء. وهذه الدراسة مبنية على استطلاع رأي. بين كل نساء أوروبا المتحضرات. أصحاب العيون الزرق والشعر الذي في لون حقول القمح وقت الحصاد.

أما الكتاب ماذا يجد الإنسان فيه سوى المتاعب والمشاكل. والحكام القدامى حسموا هذه المشكلة منذ زمن بعيد. عندما قالوا بوضوح. إن المواطن الجاهل أسلس قياداً من المواطن المتعلم. والمتعلم أخف ضرراً من المثقف. وهذا المثل ما يزال مفعوله سارياً حتى هذه الأيام. إن صاحب المكتبة التي كانت هنا. عندما باعها وتحولت إلى محل لبيع الأحذية. لاقى من التأييد والتشجيع والإعجاب من الناس الكثير.

شكره المؤلف وخرج. عرض عليه الرجل إن كان في حاجة إلى زوج جديد من الأحذية. خاصة وأن حذاءه قديم. قال هذا وأشار إلى حذائه الذي ظهرت عليه أعراض القدم. من جديد شكره المؤلف وانصرف حزيناً يفكر في أحوال هذه الأيام الغريبة في بلادنا.
ـ الحذاء أو الكتاب.

قالها لنفسه وهو يستبشع ما آل إليه الحال. من كان يتصور أن تصل المفارقات إلى هذا الحد. عندما نزل من بيته. كان حماسه محدوداً. شبه

حماس فقط. ولكنه بعد مقابلته لصاحب محل الأحذية. اكتشف أن المسألة بها قدر لا بأس به من الإثارة. قرر أن يكمل رحلة البحث حتى النهاية. وليكن ما يكون. بسرعة أخرج العنوان الثاني. وجرى بعينيه على العناوين الأخرى الباقية. سيكمل اليوم. عنواناً آخر فقط. وفي الأيام القادمة. ستكون تسليته الوحيدة هي إكمال رحلة البحث. التي لم يكن يتصور أن بها كل هذه المفاجآت.

حمد الله أن المكتبة كما هي هذه المرة. في الطريق كان يتصور المحل الذي أصبح مكانها قال لنفسه: مطعم؟ بار؟ استديو؟ مكتب تصدير واستيراد؟ وكيل تجاري؟ وكيل سياحي؟ سمسار؟ بازار؟ لا إنه لم يشرب روح العصر الجديد بعد. لا بد وأن المحل سيكون «بوتيك». لا يعرف أحد أصل الكلمة. ولكنها منتشرة بصورة مخيفة. مما يؤكد أنها دليل على شيء جديد ما. أتى مع رياح الأيام الأخيرة.

في الستينات كان يقرأ كلمة بازار على واجهة الكثير من المحال. وعندما سأل اكتشف أنها كلمة شرقية وتعني متجراً. أما البوتيك هذه. فهي من المفردات المستوردة. تعجب من السماح باستيراد المفردات وأسماء المحلات. مع أنهم لا حديث لهم سوى عن خطر الأفكار المستوردة لا مانع لديهم من استيراد كل شيء. الأكل والملبس والبشر والمنشطات الجنسية والأفلام العارية. كل ما تريد استيراده ممكن ما عدا الأفكار. الخطر الوحيد عليهم. ولهذا فهم يتحدثون كثيراً عن الأفكار وخطر استيرادها. في هذه الأيام، الشعار معروف: فلنغرق البلاد في كل المستوردات. ما عدا الأفكار. فهي الخطر الحقيقي.

آخر المفردات المستوردة. هي كلمة البوتيك. أنواع شائعة من المحلات. تبيع كل ما في الحياة. وأول ما تبيع هو الإنسان نفسه، ما من مرة دخل هذه المحلات: التي يقولون عنها البوتيكات إلا وقابلته في

البداية ابتسامة فاجرة. بعدها يطل عليه نهدان متفجران وجسد أنثوي تبرز الملابس الضيقة كل أوقية من اللحم فيه. يصله الصوت المغناج المثقل ببحة الجنس. وتتحرك الفتاة داخل البوتيك الضيق. متر في متر. وتنظر إليه. كل ما فيها يقول له: خذني أنا أولاً.

وفي كل بوتيك سلم. يفضي إما إلى أسفل أو أعلى. لديه إحساس خفي ان السلم ينتهي إلى سرير صغير. بجواره مرآة قديمة. فوقها فوطة مستعملة. وعلى رأس السرير لمبة حمراء قانية. لا يدري من أين وصلت هذه الصورة إلى ذهنه. انها يقين لا يقبل المناقشة.

وصل إلى المكتبة. قرأ العنوان. وتأكد ان الدار كما هي. قال في نفسه. انه كان متشائماً أكثر من اللازم. عندما تصور انه لن يجد المكتبة في مكانها. همس لنفسه بثقة جديدة: ان الكتاب سيظل مطلباً أساسياً للإنسان في كل عصر وفي كل زمان.

طلب مقابلة صاحب الدار. دخل عليه. سلم وجلس. حلقة من الرجال تجلس حوله. أصوات مرتفعة، أرقام، كلمات غريبة. تسللت أذنه إلى الحديث الدائر. صفقة ورق طباعة. يبيعها صاحب الدار للجالسين حوله. عرضوا عليه سعراً رخيصاً. ورفض هو. قالوا له انه أخذ الصفقة بالسعر الرسمي. لطبع كتب لن ترى النور. فأقسم لهم ان الرشاوى التي دفعها تجعل سعر الورق يتعدى سعر السوق السوداء. فالطريق من المكتب الذي يصدر إذن الحصول على الورق حتى المخزن الموجود فيه الورق. مثقل بالأيادي الممدودة.

ومن يقبل مبدأ الرش ليسلك الطرق الوعرة. لا بد وان يكمل الدورة حتى نهايتها. وهو يأخذ ثمن هذا الورق يشتري به ورق دشت يطبع عليه كتبه. ولا يستفيد سوى بالفارق بين السعرين وهم يعلمون - أكمل الرجل - ان السبب في لجوئه لهذه العملية. انه منذ العام

الماضي. وبعد ان تحول إلى نشر الكتب المدرسية. اكتشف انه مهما كان نوع الورق. والطباعة. فالتلميذ لا بد. وان يحصل على الكتاب. وبالثمن الذي يحدده الناشر. لا داعي إذن لورق فاخر ولا لغلاف مصقول. ما دام البيع مسألة مضمونة ولهذا فهو يقول ان الإنسان الجيد من نفع واستنفع.

انه حزين ـ قال صاحب الدار ـ كان ينشر الأدب والفكر والثقافة. وكان يجلس كل مساء. مع المثقفين إياهم. أولئك البشر. ممصوصو الوجوه. شاحبو النظرات. المرضى دائماً بفقر الدم. ولين العظام وضعف النظر. الذين لا يعمل منهم سوى أذهانهم فقط وأياديهم اليمنى. كان يقول أيامها انه صاحب قضية. ويسمع منهم الكلمات الجميلة الرنانة. ولكنه اكتشف ان هذه الكلمات غير قادرة على شراء رغيف خبز بعشرين مليماً.

لأن الرغيف الذي ثمنه خمسة مليمات. اختفى وانقرض في بر مصر كله ومن يريد مشاهدته عليه التوجه إلى قسم الخبز في المتحف الزراعي بالدقي.

كانت تسكره الكلمات. ولكنها تصبح عاجزة أمام أول محل في الأسواق. فكر وفكر وفكر. واهتدى إلى الحل. ليكمل الرسالة. ولكن في ميدان آخر. ان الثقافة بدون تعليم لا قيمة لها. العلم هو الأرضية الأولى للمثقف. سينشر الكتاب المدرسي. غير انه اكتشف احتكار الدولة لطبع الكتب المدرسية. قال لنفسه: ليطبع إذن الكتب المساعدة. التي يؤلفها المدرسون والمفتشون والموجهون. ويفرضونها فرضاً على التلاميذ. وبهذه الطريقة يضمن أكبر قدر من الأرباح. ومع تراكم هذه الأرباح. سيعود إلى نشر الكتاب الثقافي وقد تسلح بالمال من أجل الاستمرار في مهمته الجديدة. ان توقفه طارىء. وبيعه للورق الفاخر

مؤقت. وكل هذا يتم بصورة سرية لا يعرفها أحد من أصحاب القضية إياها. لسعت الكلمات المؤلف. وصلته كالإبر والسياط. لام ربـاب في سره من جديد. انتبه في جلسته ونظر حولـه. إلى أغلفة الكتب المعلقـة خلف الرجل وبجواره. الممتاز في النحـو. الوسيط في الكيميـاء. مائـة سؤال حول قصة أنا الشعب.

كانت المساومة مستمرة. وتعجب المؤلف في سره. قـال في نفسه. في بلدنـا يتحقق فرضـان كلاهمـا مستحيل في وقت واحـد. الفرض الأول يقول كل شيء مستحيل. والآخر يؤكد ان كل شيء ممكن. الكل يفعل ما يريد في وضح النهـار، ليست هناك حـاجة لإخفـاء الأمر. الشعـار المرفـوع. دعـوا الكـل يكسب بـلا حـدود. ليس مهـما كيف ولا عـلى حساب من. وبهذا زادت جرأة النهب والسرقة. هـا هو الـرجل يسـاوم عـلى حصة من الـورق صرفت له لـطبـع الكتب. يبيعهـا علنـاً. أمـام المؤلف والآخرين. بدون حياء أو خجل أو خوف. شعر المؤلف بـالندم بسبب حضوره. ولعن في سره هذه الأيام.

فكر في الإنصراف. سيقول انه حضر إلى هذا المكان بطريق الخطأ. ولكنه لم يجد في نفسه القدرة على القيام. استسلم لحالة غريبة من اليأس وهـو يستمـع للجـدل والحـوار والفصـال والأخـذ والعـطاء. طـالت المحـادثات. وانتهت أخيـراً إلى حـل يـرضي الـطرفـين معـاً. يعـطيهم صـاحب دار النشر الـورق الأبيض. ويـأخـذ منهم الـورق الـدشت. ويدفعون له فارق السعر بين الورقين. سعدوا بالـوصول إلى الاتفـاق. قـرأوا الفـاتحـة. ودفعـوا العـربـون. وأجلوا الحـديث عن الفارق بين الأسعـار لحين معـاينة نـوعي الورق عـلى الطبيعـة وحسب الـظروف. ظـروف السـوق متغـيرة. لأن الأسعـار متقلبـة وغـير ثـابتـة. انصرف التجار. بعد التوصل إلى الاتفاق. ووجد صـاحب الدار نفسـه. وجهاً

لوجه أمام المؤلف. استدار له وتساءل:
ـ أفندم؟

كلمة واحدة. حاسمة. خالية حتى من إنسانية الناطق بها. تلعثم المؤلف. وبحث في ذهنه عن أي كلام آخر يقوله. غير حكاية الرواية. ولكنه دون ان يدري مديره بالرواية وقال:
ـ رواية؟!.

تساءل صاحب المكتبة عن الأمر. بعد قليل فهم المطلوب:
ـ نشر؟!
وقبل ان يجيب المؤلف. أكمل صاحب المكتبة:
ـ إنت رجل لا تعيش أيامنا.

اعتدل في جلسته. ويبدو ان الصفقة التي انتهى منها. قد حققت له مكاسب ضخمة. لأنه بدا سعيداً مستريحاً. وكانت لديه رغبة في الكلام. قال للمؤلف: من يقرأ رواية في هذه الأيام؟ وقبل ان يجيبه المؤلف قال له: انه تحول من نشر الأدب إلى الكتب المدرسية لأنها مضمونة العائد. وأرقام توزيعها تتعدى الخمسين ألفاً من النسخ من الكتاب الواحد. ان كانت للناشر علاقات حسنة مع المدرسين والمفتشين في المدارس.

الكتاب المدرسي عائده يصل إلى الجيب بعد شهر أو شهرين. أما الكتاب الأدبي فعائده يصل إلى الجيب بعد خمس سنوات على الأقل. وفي بلدنا الآن. الجنيه الذي لا يربح جنيهاً مثله في الستة أشهر. يجب حرقه فوراً. رؤوس الأموال التي توظف في مجالات أخرى. يأتي عائدها بعد يوم واحد. من ينتظر خمس سنوات إذن؟

خبرته كناشر أدبي سابق تؤكد له ان الأدب لا يقرأ إلا في فترات الاستقرار والاطمئنان وروقان البال. ومن يجرؤ على القول ان هذه

العناصر متوفرة الآن؟. شعار هذه الأيام: إكسب بسرعة وأجر بسرعة وانتقل بسرعة من ميدان إلى آخر. خذ قطعة واحدة من كل ميدان وابحث عن غيره فوراً. وقد وجد الناشر ان هذا الكلام سليم. سأل صاحب المكتبة المؤلف فجأة:

ـ ماذا تعمل؟

لم يجبه المؤلف. مديره بالرواية. فنحاها صاحب المكتبة جانباً وقال له:

ـ الوظيفة. هل انت مدرس؟

قال له المؤلف:

ـ لا

ـ يا خسارة.

قالها الناشر بحسرة. أكد له انه لو كان مدرساً أو موجهاً لاتفقا على خطة جديدة لعمل كتب مدرسية تعود بالآلاف عليهم. تململ المؤلف من حديث الناشر. وتحرك يريد الانصراف. طلب منه الناشر البقاء قليلاً. قرب كرسيه منه. نظر في كل الاتجاهات كمن يقدم على قول سر خطير وهام.

قال له انه سيدله على طريقة مذهلة للكسب السريع والمضمون. بعيداً عن كل المخاطر التي قد يتصورها أحد. ان يجمع بعض القصص والروايات المقررة على تلاميذ المدارس. ويقرأها. ويقوم بكتابة قصة فيها كل مقاييس هذه القصص. ويمكن ان تقررها الوزارة. أي يفصل القصة حسب المواصفات والمقاسات ويذهب بها بعد طبعها إلى اللجنة المختصة في الوزارة. وان قررتها الوزارة. يأتي دور الناشر. سيطبعها له بالملايين. ولحساب الوزارة. وهو الذي سيتولى كل المسائل الباقية. وسيعطي المؤلف ما يريده شيكاً على بياض. يكتب المؤلف الرقم الذي

يطلبه. قبل الطبع. المهم ان يقرر الكتاب على الوزارة.

حاول المؤلف القيام. ولكن الناشر استوقفه. قال له ان الفكرة يبدو انها لم تعجبه. لأنه ليست لديه خبرة بالسوق. سيقول له فكرة أحسن.

ـ هل لك علاقات بالسفارات؟

رد المؤلف في دهشة:

ـ السفارات؟

أوضح الناشر:

ـ سفارات الدول العربية أو الأجنبية الموجودة في القاهرة.

هز المؤلف رأسه علامة النفي. وان لم يمنع النفي الناشر من شرح فكرته الجديدة. وقد بدأت الفكرة بكلمة لو. قال له. لو ان المؤلف له علاقة بسفارة دولة غنية لتوجه إليها. وعرض عليها ان يقوم المؤلف بكتابة مؤلف ضخم عن هذه الدولة أو رئيسها. أو أي شيء ترى هي الكتابة عنه. وستقدم السفارة المادة المكتوبة. ولن يفعل المؤلف سوى وضع اسمه الكريم عليها. وستراجع السفارة المادة قبل الطبع. ولن يقوم المؤلف بعمل أي شيء في كل هذه الخطوات. ويتولى الناشر طبع الكتاب. بتمويل السفارة الكامل. أو دعمها إما على شكل دفع تكاليف النشر أو شراء عشرة آلاف نسخة من الكتاب قبل طبعه بالسعر الذي يحدده الناشر. وفي هذه الحالة فهو يضمن للمؤلف مكافأة تأليف الكتاب ونسبة من سعر الغلاف. بالنسبة للكمية التي ستدفع السفارة ثمنها. وبهذا ربما وصلت أرباحه ـ أي المؤلف ـ من هذه العملية إلى حوالي خمسة آلاف جنيه كاملة.

ـ وهل العملية نظيفة؟

تساءل المؤلف.

قال الناشر ان المسألة تحتاج إلى شرح وتحليل. العمليات في مصر

نوعان. عمليات نظيفة مائة في المائة. وعمليات ليست نظيفة. والنوع الأخير ليس قذراً ولا يلوث يدي من يقوم به بالدم. ولكن المقصود بعدم النظافة ان هناك من يلعب في المساحة المسموح باللعب فيها والمحددة بخطوط واضحة. وهناك من يخرج عن دائرة المسموح به.

سيضرب لذلك مثلاً. في مباريات الملاكمة الضرب حتى الموت ليس ممنوعاً. ولكن الذكاء هو تحديد: أين يتم الضرب. تحت الحزام أم فوقه. تلك هي المسألة كلها. الذكي هو من يعرف أين يضرب. ثم يضرب ويضرب ويضرب حتى يقضي على حياة خصمه. ويجعله ذكرى.

نعود إلى النظيف وغير النظيف من الأعمال. البلد كلها شعارها واضح. إفعل ما تشاء. ولكن لا تقع تحت طائلة القانون. كل شيء ممكن. وكل شيء مستحيل. في الوقت نفسه. ليست المسألة فزورة تطلب حلاً. ولا لغزاً من الألغاز. ولكنها محلولة ببساطة متناهية. كل شيء ممكن حدوثه إذا لم يقع تحت طائلة القانون. وكل شيء مستحيل إذا وصلت أمورك إلى القضاء.

في الشام يقولون. دبر حالك. وفي بر مصر يرددون: مشي المراكب ولو على البر. المهم ان لا يراك أحد. وان لا يسمع بك أحد. وان تكون لك القدرة على اللعب منفرداً. دون تدخل أحد من الناس. وان لا تترك وراءك أي شيء يمكن ان يصبح شاهد إثبات. ان كان لا بد من ترك أي شيء. فتعمد واترك ما يمكن ان يكون شاهد نفي. شيء يؤكد انك لم تقع في الخطأ.

لا تنس أمراً. الكل يسرق من الكل. ولأن الكل يسرق. فالذي يطب يكون ضحية الكل. السارق والمسروق والمراقب. وشهود النفي. وشهود الإثبات. في هذه الحالة لا بد من التنكيل بالضحية. لأنه لم

يحافظ على أصول اللعبة. والتنكيل به يعطي الآخرين الإحساس بأن الأمور تمام والحال جيدة. وهي توفر للمسروقين إحساساً بالشماتة وبوجود العدل وتطمئنهم ولو بصورة مؤقتة نوعاً ما.

أما بالنسبة للسارقين فهي رسالة تحذير تطلب منهم في صمت. التخفي لأبعد حد. وهي تقلل من حالات تأنيب الضمير. التي تحدث للبعض منهم أحياناً. وبالنسبة للمجتمع ككل. فهي تشغل الناس في بعض القضايا الجانبية التي تصرف أنظارهم عن القضايا الأساسية والمصيرية. وهذا يؤجل الاضرابات والصراعات.

إذن الشعار معروف. ليلعب كل منكم. ولكن اللعب من النوع النظيف. ومن يمد يده في لعبة غير نظيفة دون ان يؤمن تراجعه. عليه ان يدفع الثمن مهما كان غالياً. هل فهمتني يا أستاذ؟ لا بد وان يكون في ذهنك الآن سؤال هام: من أين عرفت أنا كل هذه المعلومات؟ وهذا السؤال لا يمكن الإجابة عليه. كل هذا عرفته من تجاربي. بالفهلوة وصراعات السوق الدموية. لقد تأخرنا كثيراً في دخول هذه الصراعات. ولكننا دخلناها أخيراً والحمد لله. وعما قريب سيصل إلينا كل جديد في هذا المجال حتى ندخل عصر المافيا بإذن الله. وليس هذا ببعيد أبداً.

بالنسبة للسفارة وتأليف كتاب عن دولة أجنبية. لا يوجد في الأمر ما يقع تحت طائلة القانون. ولا ما يعاقب عليه العرف العام. لأن المقصود بالعملية هو الربح ومن يكون هدفه من أي عملية الربح لا يحاسبه أحد. خشي المؤلف ان يحاول القيام فيجلسه الرجل من جديد. عارضاً فكرة جديدة عليه. ولا ينتهي الأمر أبداً.

قال انه بعد دراسة الأفكار العظيمة التي عرضها عليه. سيعود إليه بعد أسبوع ولديه كل إمكانيات تنفيذ إحدى هذه الأفكار العظيمة.

ولكي يطمئن الناشر أكثر. أخذ المؤلف عنوان الناشر ورقم تليفونه ووعده بالحضور إليه أو الاتصال به. انطفأ الحماس في وجه الناشر. وقدم له يداً فاترة. وودعه بكلمات ميتة. ويبدو انه كان يود الوصول إلى اتفاق نهائي. قبل قيام المؤلف من مكانه.

في الخارج شعر المؤلف برغبة في البكاء. ولكن أيام الدموع ولت ولن تعود. لا يوجد أمامه سوى الإحساس بالقهر. وكبت هذا الإحساس بداخله. حتى تحين لحظة البكاء. الانفجار البكائي. ولكن متى تأتي هذه اللحظة. لا يعلم المؤلف.

شعر المؤلف برغبة في التمشي قليلاً. والعودة إلى منزله. ليناقش مسألة إكمال الرحلة أم يتوقف عند هذا الحد. في الشارع قابل صديقاً قديماً له. كان يكتب القصص في سنوات الرومانسية الشاحبة. كما يقول الصديق عن نفسه. وعندما وعى حقائق العصر القاسية. وأدرك ان الكتابة نفاية من نفايات البشرية. تخلص من كتبه وكسر أقلامه. وبحث عن عمل مجز. لدى جهة تدفع مرتبات العاملين فيها بالعملة الصعبة. وتضمن له السفر إلى الخارج مرتين في العام الواحد على الأقل.

أصبح ،مسئولاً عن العلاقات العامة في إحدى الشركات الجديدة. التي هجمت على مصر مؤخراً. شركات كثيرة أتت من مختلف أنحاء العالم. قالت يومها. ان حب مصر هو السبب الوحيد في حضورها إلى هنا. كل الشركات حضرت لحبها لوادي النيل. ولأنها لا يمكنها الاستغناء عن مياه النيل العظيم. وقد حرمت من الحضور في عقد الستينات اللعين. حيث كان التأميم والمصادرة والإجراءات الاستثنائية.

الآن. الباب مفتوح على مصراعيه أمام الكل. ولهذا حضروا جميعاً

إلى هنا. كل المؤهلات المطلوبة للعمل الجديد كانت سيارة من أحدث طراز. وان يسكن في حي راقٍ. وان يكون لديه مائة بذلة مفصلة حسب آخر صيحات الموضة. ووجه وسيم وابتسامة دائمة. ونظرة متفائلة للحياة. وإجادة لغتين. ليس مهماً ان تكون اللغة العربية احداهما. فتلك ليست لغة العصر. لقد اندثرت وانقرضت وانطوت مع صفحات التاريخ. وأهم من هذا كله ان ينحدر من إحدى العائلات الراقية. البيوتات الغنية التي لمعت في سماء البلاد قديماً. وان تكون له زوجة حسناء تساعده بطريقة غير مباشرة في عمله.

عند البحث والدراسة والاختيار وجدت كل هذه الصفات متوفرة فيه. فحصل على الوظيفة. قابل المؤلف هذا الصديق في لحظة ضيق. ولأن الصديق من الطبقة السعيدة المبتسمة الراضية. فقد شعر بحالة الضيق التي يعاني منها المؤلف سأله:

ـ ما بك؟

أشار المؤلف للرواية. أخذ الصديق المخطوط. قلب بعض صفحاته. اتسعت عيناه من الدهشة قال للمؤلف. انه لأمر غريب ان يظل مخلصاً لعملية الكتابة. الدنيا تغيرت. وانت لا تزال ممسكاً بالورق والقلم. ان ذلك تصميم أحمق. ومحاولة للسباحة ضد التيار في أوروبا حيث النور القادم. وأمريكا حلم كل عاقل. أدركوا سر العصر. نسي الكل عادة القراءة والكتابة. أنا لا أفعل بالجريدة اليومية سوى الدخول بها لدورة المياه صباحاً. لأنني لا أستطيع التخلص من فضلاتي إلا وأنا أقرأ الجريدة. عادة لعينة من الزمان البخيل الذي مضى. ولم أستطع التخلص منها للآن.

تساءل الصديق:

ـ ولكن ماذا يحيرك؟

أشار المؤلف للرواية.

ـ نشرها.

قال الصديق ضاحكاً:

ـ آه فهمت.

دعاه لشراب فنجان شاي في مكتبه القريب. وهناك يتحدثان عن الرواية ونشرها. المبنى من الخارج قديم متهدم. والواجهة تقول انه بني في عصر سلاطين المماليك. ولكن باب الشقة. التي هي المكتب. يقول لك انه تم تركيبه منذ لحظات. مكتوب على الباب الخارجي انه مكتب للعلاقات العامة. ويطلب من البشر الاتصال بالمكتب لتسهيل أعمالهم. دون أن يحدد هذه الأعمال.

فتح الصديق باب الشقة بمفتاح معه. فأضاءت الأنوار بمجرد ان فتح. وضع قدمه على الأرض. فدق جرس عالي الصوت. خطا خطوة قصيرة وداس على جزء مرتفع من أرض الصالة. ففتح باب في مواجهته. كان الباب لحجرة مكتب. دخلاها. فأغلق الباب من تلقاء نفسه دون ان تمتد له يد. نظر الصديق مبتسماً للمؤلف. الذي حيرته الدهشة. قال الصديق للمؤلف:

ـ تكنولوجيا العصر نقلت إلى مصر في أيام معدودة. تصور يا صديقي حجم المعجزة.

حجرة المكتب مكيفة. والإضاءة السحرية فيها تنبعث من كل مكان. والمكتب على شكل وردة. يجلسان بين أوراقها. فتح الصديق دولاباً في الحائط. فوجىء المؤلف بأن الدولاب عبارة عن مكان يصنع فيه الشاي والقهوة. قال الصديق:

ـ هذا هو المعنى الفعلي للتقدم.

قدم له الشاي الذي أعده في دقائق وهو جالس في مكانه يتحدثان في

بعض الأمور العامة. شعر المؤلف انه يجلس مع شخص آخر غير الصديق القديم كل ما فيه بحساب. القميص. ربطة العنق. الجاكت. شعر رأسه. لمعان جلد وجهه. الطريقة التي يحرك بها يديه.

خشي ان يكون الجالس أمامه إنساناً آلياً. مكلفاً بأن يلعب دور صديقه القديم في الحياة اليومية. انه الصديق القديم فعلاً ولكن بعد إعادة صبه في قوالب لا يستطيع التحرك إلا في إطارها. الكلمات التي ينطق بها الصديق القديم. النادر منها باللغة العربية. وكل الكلمات الأخرى خليط عجيب من كل مفردات العالم اليوم. كلمات كثيرة لم يفهمها المؤلف. ولم يحاول استيضاح معناها.

الغربة تعدت الصديق إلى المكان. كان لدى المؤلف إحساس انه جالس في فترينة عرض. في أحد المحلات. وانه وضع هنا لكي يتفرج عليه الآخرون: إنغرس داخله إحساس ان آلاف الأعين تراه وهو في جلسته هذه. وان كل حركة وهمسة يقوم بها محسوبة عليه. نظر حوله. الحيطان. الدواليب. السقف. الإضاءة. المكتب. كل هذا لا علاقة له ببلده ولا بذوقه. أشياء. أشياء. أشياء. أتت من وراء المحيط. لا يعرف لم أحضرها بالضبط. ولا ما هو دورها في الواقع المحيط به.

تساءل. هل تصلح هذه الأشياء وجه المدينة القبيح. هل تخفي برك المجاري والحفر والبالوعات وجبال التراب اليومي الذي يتساقط على المدينة ويتسلل إلى الصدور. هل يمكن إخفاء سكان القبور والعراء. ومدن الصفيح بقليل من الديكورات المستوردة؟ ان هذا صعب ان لم يكن مستحيلاً. وهما يشربان الشاي. عرف منه الحكاية. قال له الصديق:

ـ مشكلتك لها أكثر من حل.

وبالفعل قدم له أكثر من حل. وأول الحلول ان تعد الرواية وهي

مجرد مخطوط كمسلسل تليفزيوني يصور وينفذ في إحدى الدول العربية. وعائد المسلسل يستخدم في نشر العمل الأدبي. أو ان تحول الرواية إلى فيلم سينمائي. اقترح عليه رسم شخصية قريبة من نمط الشخصيات التي يمثلها محمود ياسين وسهير رمزي. وشخصية راقصة. واحد نجوم الكوميديا ليضمن موافقة أي نجم على العمل. وان أخرجت كفيلم سينمائي. سيجري وراءه أكثر من ناشر لينشر الرواية في نفس وقت عرض الفيلم في دور السينما. وبالفعل ان عرض عشرة آلاف نسخة من الرواية في الأسواق مع عرض الفيلم فهو يضمن له ان تنفد فوراً.

ـ ما رأيك؟

لم يجد المؤلف من الكلمات ما يرد به عليه. فأكمل الصديق ان هناك حلاً آخر. يقوم على تغيير خاتمة الرواية. بأن توضع لها خاتمة سعيدة. بعد المعاناة والتعب والضنى وبعد وقوف العائلة كلها في ميدان عام. يرفض واحد فقط من الذين وصلوا إلى الميدان فكرة البيع. ويكون البديل هو سفر العائلة كلها إلى دولة أخرى. وبمجرد الوصول إلى الاقتراح يمكن لسفارة هذه الدولة ان تتولى نشر الرواية. ويمكن اختيار هذه الدولة من الآن بالتنسيق مع سفارتها. وان وافق المؤلف فالصديق مستعد للقيام بهذا الاتصال. إما بصفته الشخصية. أو من خلال المكتب الذي يعمل فيه وذلك بهدف الحصول على أحسن الشروط للمؤلف. وسيحصل الصديق على نسبة مئوية من الصفقة له.

قال الصديق انه كان يود القيام بهذه الخدمة وفاء للصداقة القديمة بينهما. ولكن ظروف العمل تفرض عليه الحصول على عمولة عن كل جهد يقوم به. سيحصل على عشرة في المائة له شخصياً. وعلى خمسة عشر في المائة للمكتب الذي يعمل به. وسيضاف إلى هذا المبلغ بعض أثمان الهدايا والرشاوى وعمولات بعض المشاركين الذين سيسهلون

العملية. الحسبة كلها لن تتعدى خمسين في المائة. من عائد العملية. المبلغ ليس كبيراً بأي حال. وهو يؤكد لصديقه العزيز. الذي تربطه به أوثق الصلات والروابط. انه لن يتنازل عن مليم واحد. لأن الأمر ليس أمر النقود فهي زائلة. ولن يبقى سوى الحب والود بين البشر مهما تقدم العلم.

قال المؤلف لنفسه: بدأ ابن الكلاب في الكذب ونحن لم نتفق على هذا منذ البداية. اكمل الصديق. إن مكانة المكتب في البداية تحددها قدرته على فرض شروطه. والا يتنازل عن هذه الشروط. لأنه لو تنازل مرة. سيتنازل على طول الخط.

هنا فقط تحول وجه الصديق إلى ابتسامة. ووجد الموضوع الذي يمكنه الحديث فيه باستفاضة. قال إنه لن يستغرب أحد من النهاية السعيدة. لأن الحياة من حولهم تعيش إحدى هذه النهايات السعيدة. ألا تعد هذه الجلسة. في هذا المكتب نتيجة كفاح شاق خاضه الصديق؟ تساءل المؤلف: أي كفاح شاق خاضه ذلك الصديق؟ أكمل لنفسه: ربما كان كفاحه في تحطيم الأقلام وسكب الحبر وحرق الأوراق والتخلص من الكتب التي كانت لديه.

أكمل الصديق: ان النهايات السعيدة لا تعد تزييفاً للواقع. فالكل يعيش إحدى هذه النهايات السعيدة. لينزل المؤلف إلى الشارع. وليحاول رؤية الأمور بموضوعية وبعين مصرية خالصة ليست شرقية. تصاعدت أبخرة الغضب في رأس المؤلف. تولد لديه إحساس بأن شعر رأسه كاد ان يشتعل. فكر في مناقشة الصديق. ولكنه أدرك انه لا جدوى من النقاش. ففضل السكوت.

قال في نفسه. انها مرة لن تتكرر وفجأة قام المؤلف. انتفض واقفاً. شكر الصديق على الشاي المعد بطريقة عصرية. أكمل الصديق. انه

شاي من اليابان. معطر ومعد بطريقة خاصة. طلب مهلة من الوقت لكي يفكر في الأمر. في الشارع قال لنفسه:

ـ كم تغيرت يا مصر.

في اليوم التالي. خرج المؤلف في الصباح. لكي يكمل المرور على دور النشر الباقية وينتهي من الأمر. كانت رباب قد ميزت له ثلاثة عناوين. لأصحاب دور نشر. واحد قالت انه يساري. والآخر يميني. والثالث من أبناء البلد. قرر ان يكمل الرحلة لدى هؤلاء الثلاثة فقط. والرحلة لديهم هي موضوع الفصل بعد القادم.

٦

يوم الزحف المقدس أم القفزة نحو المجهول

يعترف المؤلف هنا. ان اختيار اليوم. الذي قامت فيه العائلة برحلتها من القبر إلى ميدان المزاد كان من القضايا الهامة والأساسية التي صادفته في الرواية كلها. المكان والزمان هما الوعاء الذي تصب فيه الأحداث وتتحرك من خلاله الشخصيات. وأهميتهما لا تقل عن أهمية الحدث والشخصية. المكان معروف سلفاً. ولكن تحديد اليوم أصبح المشكلة. ورغم ان الرواية كانت وما زالت مجرد مشروع أدبي. ومن حق القارىء على المؤلف معرفة سر اختياراته كلها. إلا أن المؤلف مستعد للبوح بكل أسراره ما عدا سر واحد. يرغب في الاحتفاظ به لنفسه وهو اختيار اليوم.

كان المؤلف يود ان تتم الرحلة مساء يوم خميس. أي ليلة جمعة. وهو الوقت الذي تصل فيه المدينة كلها إلى حالة من الشبق المعذب. شبق جنسي. جوع للبضائع. رغبة لا تعرف الانتهاء للطعام. عطش لا ترويه انهار العالم. شره للتدخين. رغبة قاتلة في البحث عن كل ما هو ممنوع أو محظور. عداء للقرش الذي اصبح بلا قيمة والرغبة في التخلص منه هي الأساس. ميل غير عادي للاستعراض حيث تتحول المحلات والشوارع والأرصفة والنواصي إلى مسارح. يقدم كل إنسان

عرضاً عليها. يقدمه بهدف ان يراه الآخرون. الجري في الشوارع حتى الصباح. بدون هدف محدد.

ولكن المؤلف خشي ان يبتلع الزحام قضيته. وقضية وطنه. هو شخصياً لا يحب الزحام. بعد دراسات كثيرة. واعتبارات لا تحدها حدود. أصبحت بيانات يوم الزحف كالتالي.

الزمان: يوم ١٩/١١/١٩٧٦.

المكان: مدينة مصر المسماة رسمياً بمدينة القاهرة. كل الشوارع المتدفقة كالأنهار. والتي تبدأ من أركان القاهرة لتصب في قلبها.

الوقت: ست‌عشرة ساعة. من السادسة صباحاً. وحتى العاشرة من مساء نفس اليوم. حيث تصل الأحداث إلى ذروة الختام.

ولأهمية هذا الفصل بالنسبة للرواية كلها، كان المؤلف يود ان يرفق بالفصل خريطة لمدينة القاهرة.

يستطيع الناشر ان يفعل هذا. ولن يمانع المؤلف. بل سيكون سعيداً به. في هذه الخريطة. كان المؤلف يريد ان يضع أسهماً وإشارات في الطرق الثلاث. التي سار فيها أفراد العائلة من القبر إلى ميدان المزاد. ولكنه خشي القول. إن إرفاق الخريطة كان نوعاً من الحذلقة وافتعال التجديد. والخروج على نعومة جو الرواية. خاصة وان هذا التجديد غير مسبوق بمحاولة من روائي أمريكي [كل ما يستحب القيام به لا بد وان يكون قادماً من أمريكا. وتلك ملحوظة هامة للاشقاء المصريين الذين يعيشون خارج البلاد].

عموماً. المؤلف يطلب من القارىء. عند قراءته لهذا الفصل. ان يحضر خريطة لمدينة القاهرة. وان يستعين بها لدى قراءته للفصل [ربما كان ذلك خطراً لأن إجراءات الأمن المتشددة قد تشك في هذا التصرف

ويقدم من بحوزته الخريطة لمحكمة أمن الدولة العليا العسكرية وغيرالعادية والمخصوصة. بتهمة إحراز خريطة للمدينة وربما اتهم انه يعد لغزو البلاد].

لا داعي للخريطة تجنباً للمتاعب وإيثاراً للسلامة وتنفيذاً لمطلب المشي بجوار الحائط. حتى يرضى عنه من بيده كل ما في البلاد. هناك فكرة أخرى. يمكن القارىء أن يذهب إلى ميدان التحرير. أو ميدان باب الحديد. هناك سيجد خريطة للمدينة. الخريطة خضراء اللون. وتكون مضاءة ليلاً. وعلى الخريطة سيجد انه من السهل متابعة الرحلة. على أرض الواقع.

هناك نصيحة أخيرة من المؤلف. ان لا يأخذ معه نسخة من الرواية. وان يتفرج بهدوء وان ينسحب من المكان في صمت. وان لا يتكلم مع أحد في قضايا أو مسائل عامة. وان تكلم فلا يزيد عدد الذين سيتكلم معهم على فردين فقط. حتى لا يخرج من الدار إلى النار. فالقانون لا يرحم أي خارج عليه. ومن يدريه إلى أين يقوده الكلام الطبيعي حتى لو كان عن طبيعة الجو مثلاً.

صباح هذا اليوم. كان صباحاً هاماً. ربما كان أهم الأصباح في حياة العائلة كلها. منذ ان أتت إلى هذا العالم. بعد الصباح الأول الذي حسم فيه المليونير الأمر. هذا الصباح خاص بالفعل. والمؤلف يسميه في روايته: يوم الزحف المقدس أو المهمة المقدسة.

ولكن الأستاذ وهو أول من رفض البيع في ميدان عام. يسمي العملية كلها في مذكراته «القفزة الأخيرة نحو المجهول». والأستاذ لديه اقتناع أكيد ان القبر وحياته وكل ما يمثله كان هو المعلوم الوحيد في حياة الأسرة. ولأن الأسرة كلها وصلت إلى وضع فريد. الاستمرار مستحيل. وليس لديهم بديل محدد ومعروف. وأي تحرك لا بد وان يتم

خارج إطار القبر وحياته . لهذا فهو قفزة نحو المجهول .

مع بداية هذا الفصل يشعر المؤلف بحالة من السعادة الشخصية . وسبب هذه السعادة انه يلتقط الخيط من بعد لحظة البدء مباشرة . في الأسطر الأولى من الرواية قال ان العائلة وصلت لقرار البيع . ثم تاه المؤلف مع القارىء . كل هذا العدد من الصفحات دون ان يتقدم خطوة واحدة . [بعض النقاد الكسالى والذين لا يقرأون أصلاً . يمكنهم استخدام الجملة السابقة مباشرة . بنصها في الهجوم على الرواية واعتبارها من حيثيات الحكم على الرواية] .

وهنا يقول المؤلف : انه لا بد من البدء من جلسة العائلة التي أبلغت فيها بقرار البيع . وردود الفعل التي حدثت بعد معرفة حكاية البيع ان إكمال المسألة واستمرار خيط الحكاية مشدوداً . يتطلب البدء من هذه اللحظة . هناك من قال نعم . وهناك من قال لا . وكالعادة . في وطننا الذي يسمى ديار نعم . فإن كل من يقول نعم يبدو طيعاً ووديعاً ووطنياً . وكل من يقول لا . عميل وجاسوس وخائن ويتلقى الأوامر من خارج البلاد ويتردد على السفارات الأجنبية . ثم انه مريض بمرض من أخطر أمراض العصر . وهو مأساة تلقي الأفكار المستوردة من خارج حدود الوطن .

الذين قالوا نعم كانوا الأغلبية كالعادة . ما الجديد في الأمر إذن؟ يبدو ان أول كلمة يتعلمها الطفل في ديارنا هي كلمة نعم . انه ينشأ كفرد من شعب نعم . الأغلبية قالت نعم . كتلة صماء قالت نعم . والأقلية في هذه العائلة العجيبة قالت لا . ولكي يكون هناك توازن يجب الوقوف أمام من قالوا لا . لأنهم الاستثناء لقاعدة كبيرة . هذا التوقف لن يطول .

وهذا وعد من المؤلف . لأن غرائب وعجائب الرحلة تجعلنا نجري

إليها. فهي صفحات تخرج بنا من جو المقابر المقبض وتنقلنا إلى عالم المدينة. حيث الشوارع والشوارع والشوارع. والبيوت وسكان البيوت. والشقق المكدسة فوق بعضها كالعلب في المخازن الكبرى. والأرض الناعمة. والأرض التي تلمع. والأرض التي لم ترصف بعد. وأرض الوهاد والمرتفعات. والأرض التي هي جزء من مخازن الفضلات. والمحلات. والأكشاك. والفاترينات. حالة من الازدهار البائس. معصرة كبرى رهيبة. آلة جهنمية اسمها القاهرة. لم تقهر سوى ساكنيها فقط. من يوم ان بنيت وحتى الآن.

قبل الحديث عن الذين قالوا لا. يرغب المؤلف في ربط خيط الحكاية انه يعود بكم إلى العائلة في ذلك الصباح. ان الذين رفضوا البيع اختلفت مصائرهم عن مصير العائلة. أصبحت لهم مصائر أخرى. وحكايات أخرى تجري في أمكنة لا صلة لها بباقي أفراد العائلة. ويجب الفصل بين أبناء نعم. الذين لا تستطيع أفواههم النطق سوى بكلمات الإذعان والموافقة ولا ينطقون سوى بنعم.

في العائلة صحوا مبكرين على غير العادة. في الحركات والوجوه وطريقة التصرف توتر ما. لم يكن موجوداً من قبل. خوف مبهم. ترقب. حذر من اللحظة الأولى جلسوا على شكل مجموعتين مجموعة تتكون من الذين سيذهبون إلى ميدان التحرير. والمجموعة الأخرى. لن تذهب إلى ميدان التحرير ولن تبقى في القبر. كانوا يجلسون في انتظار حضور المليونير. وهو الوحيد في العائلة الذي لم يشعر بتوتر ما. إحساسه بالخطر لا وجود له. ومتعته الشخصية فوق كل اعتبار. يقول عنه الأستاذ ان لديه قدراً كبيراً من بلادة الحس. ناتجة عن جهله وتخلفه وعدم إلمامه بقواعد الواقع الموضوعية المحيطة به.

المليونير يرى ان المسألة في النهاية هي مسألة أعصاب. إيمانه بالنفس

لحد الغرور. والذي لا ينطلق من أي موقف موضـوعي. يجعله يقابـل أي موقف صعب بابتسـامة أقـرب الى السذاجـة منها إلى صفـاء النفس وهدوئها. المليونير من ناحيته يرى ان الذين يفكرون في مواجهة المواقف العمليـة. ويكثرون من استخـدام أذهانهم. يخـافون كثيـراً. التفكير لا يـوصل إلا الى الخـوف. أما التصرف التلقـائي. الضربـة النـابعـة من الإحساس فقط. فهي التي تعرف الطريق السليم.

ان التفكـير يحرق الـدم. ويقضي على الإنسـان قبـل الأوان. ولكن المليونير خلق ليعيش. لم يخلق ليموت. سيعيش حياته بالطول والعرض والعمق والارتفـاع. لذلـك فهو يتنـاول أخطر وأسهـل الأمور ببسـاطة مذهلة. ويتخذ أخطر القرارات في حياة العائلة بدون أي تفكير مسبق. الكل في انتظاره بعد حضوره سيتحـرك الكل. لن يبقى في القـبر سوى الست الكبـيرة. ستبقى لحين الانتهـاء من الـرحلة والبيـع. لم يكن لهم أمـل في البقاء ولا العـودة إلى القبر. حكم المحكمـة واضح وصريـح. ولكنهـا ستبقى كحـارس لأشيـائهم فقط. لحـين عثـورهم عـلى أرض أخرى. أو مكان آخر ينقلون إليه أشياءهم البسيطة.

وكان المليونير قد قسم الذين وافقوا على البيع إلى مجموعات صغيرة. تسير كل مجموعة بمفردها من القبر إلى الميدان. كانت الفكرة التي دفعت المليونير إلى هذا هي خوفه من سير العائلة كلها مـرة واحدة. في طـريق واحـد. الأمور غـير مستقرة. والأوضـاع مخيفة. ومجـرد تحرك أكـثر من شخصين معاً يثـير ريبة الكـل. ويدفـع إلى الذهن آلاف التسـاؤلات. لهذا قرر ان تتحرك العائلة على شكل مجموعات تسير كل منهـا في طريق خاص بها. مغاير للطريق الذي يسلكه الآخرون.

كان الكل جاهزاً للسير إلى الميدان خصوصاً بعـد ان ضرب المليونـير ضربتـه مساء الأمس. عنـدما أخـبر الذين قـرروا السير معـه حتى نهاية

الطريق. انه قرر الاقدام على هذه الخطوة. لأن من بيدهم الحل والربط والمنح والمنع وكافة الأوراق لمحوا له ان يقوم بهذا العمل. سأله الذين وافقوا: هل قيل له ذلك بوضوح أم أنه استنتج ذلك. قال انه سمع الكلام تلميحاً طلب منهم حل مشكلته المزمنة. مطوا الشفاه وتساءلوا. كيف تنتظر منا ان نحل لك مشكلة ضخمة وصعبة لهذا الحد. وانت لم تتقدم أي خطوة في طريق الحل. وفر لنا على الأقل أرضية بسيطة تقف عليها ونحن نحل المشكلة. مساحة معنوية نضغط بها على الآخرين. ضغط معنوي صرف. حتى نمنح لك الشقة.

قال المليونير ان كل المطلوب من العائلة. ان تتحرك من القبر إلى الميدان ثم تتوقف هناك. بهذا ينتهي دور العائلة في اللحظة التي تنجح فيها في احتلال منتصف الميدان. سيتحرك الكل. بعد هذه اللحظة. أو الخطوة. الدنيا كلها ستسعى إلى العائلة. تأتي إلى حيث تقف العائلة. تقول للمليونير: شبيك لبيك نحن عبيدك وبين يديك. أؤمر تطع قل يجب قولك فوراً. وفي لمح البصر.

قال المليونير: ان معه وعداً من جهات لا يمكن الإعلان عنها. انه بعد ان ينفذ الجانب المطلوب منه. من العملية. ستقوم هذه الجهات بتنفيذ الجزء الخاص بها. وهو حل المشكلة. قال الأستاذ عندما علم بهذا الكلام ان الأمر كله حركة محسوبة. لا يقوم بها إلا متآمر متواطىء يعجز عن المواجهة. ولكن السؤال الذي طرحه الأستاذ هو: هل يؤدي ذلك إلى أي نتيجة؟

نعود إلى الصباح الذي حسم أمراً واحداً فقط: انه قسم العائلة لأول مرة إلى قسمين. قسم قبل التحرك إلى الميدان. وقسم آخر رفض المسألة من أولها إلى آخرها. هل نقول انه كان صباحاً جميلاً؟ الجمال نفسه مقياس غريب على هذا الجو. هل كان صباحاً حاسماً؟ حسم

الاختلاف والاتفاق بين أفراد العائلة. قال الأستاذ في أوراقه: ان المليونير حتى هذا الصباح. لم يكن قد ناقش الأمر مع أحد من العائلة. ان كانت قد جرت له أي مناقشة فهي قد جرت بينه وبين نفسه. نوع من النجوى وحديث النفس الذي لم يشترك فيه أي فرد آخر. وهكذا حسمت أهم قضية في حياة العائلة كلها.

أخيراً يطل المليونير في أوراقنا. حضر. لا يعرف أحد من أين. ولكنه أتى. أشرف على تقسيم الذين سيبدأون الزحف إلى ثلاث مجموعات كالتالي:

المجموعة الأولى: وهي التي تقود المجموعتين الأخريين. ويتولى قيادتها وقيادة الحملة كلها المليونير نفسه. وتسلك الطريق الأول. وتضم الهانم. [بيان الطرق بعد عدد قليل جداً من الصفحات].

المجموعة الثانية: يقودها عباس الأوسط. وهي عبارة عن زوجته وأولادهما عباس الأصغر. البليونير. الزعيم. والابنة الصغرى انكسار. وتسلك الطريق الثاني.

المجموعة الثالثة: يقودها الدليل المتنقل. وهي تتكون من زوجته وملكة الجمال وابناهما الشبعان والغني وتسلك الطريق الثالث.

الأسرة التي التقينا بها في أول هذه الرواية كانت مكونة من ستة عشر فرداً. وحيث ان المثل الذي يقول ان عمر الشقي بقي. مهما كانت رغبته صادقة في الموت أحياناً. فإن الموت لم يزر هذه العائلة أبداً. كل منهم يمشي في الحياة ومعه مرضه الذي ينخر جسمه مثل السوس. ولكن الأمور لم تصل بعد لحد الموت. لأنهم يعيشون في مدينة الموتى. وفي عالم ميت بأكمله. ان الموت لم يفكر في زيارة أحد منهم.

يبقى أمامنا البحث عن مصائر باقي أفراد العائلة. تسلمناهم في

أول الـرواية ستـة عشر شخصاً ولا بـد من تركهم وهم بنفس الـرقم. المجمـوعة الأولى مكـونة من شخصـين والثانيـة من خمسة والثـالثـة من أربعة. وبقيت في البيت الست الكبيرة. يبقى أربعة هم الذين رفضـوا البيـع. وهذه المجمـوعة يقـودها لعنـة المقـابـر أو الأستـاذ وفيهـا إثنـان مصمـمان على هـذا الموقف. أمـا الثالث. عـاش الملك. فله قصـة. لا بأس من روايتها هنا. قبل الدخول في تفاصيل الرحلة العجيبة.

عاش الملك رجل ليست لـه مواقف. بـالمعنى المعروف لهـذه الكلمة والمتداول في أوساط المثقفين. انه شخص تصدر له التعليمات بالهتاف في اتجـاه معين. فينفـذ على الفـور. وان لم تصـدر لـه تعليـمات واضحـة. فشعاره معروف: الطريق الذي تسـير فيه مصلحتي أجـري وراءه بدون مناقشة. هذه المرة لم يكن يدري أين الصواب وأين الخـطأ. ومن الذي سيكسب في النهـاية. بمجـرد ان سمعهم يتحدثـون عن حكايـة ميـدان التحرير والتحرك إليه. قال في نفسه: ان ما يحدث إما ان يكون مظاهرة أو مسيرة.

سـأل المليونـير: ان كانـوا سيسيرون في صمت. أو سـيرددون بعض الكلمات. قال المليونير ان الكل سيسير في صمت. دونما كلمـة واحدة. قال عاش الملك. ستكـون مسيرة صـامتة وليس مـظاهرة تقـال خلالهـا بعض الكلمات والجمل العدائيـة. لعب الفأر في عبـه. تكلم مع أفـراد الأسرة. سألهم: ان كانوا قد اتصلوا بحضرة الضابط. بداعليهم انهم لم يسمعوا عن هذا الضـابط. لم يطمئن عـاش الملك. قال في نفسـه: ان قواعد اللعبة هي السرية التامة. كان الضابط يطلبها منه. في كل عملية تتم. بـالتأكيـد طلب منهم نفس الطلب. وأوصـاهم ان تكون السريـة مضاعفة بالنسبة لعاش الملك. قبل أي إنسان آخر.

فكر في الذهاب إلى الضابط وليكن ما يكون. في اليـوم السابق عـلى

الزحف المقدس. أو القفزة الأخيرة نحو المجهول، خطف رجله وذهب إلى مكتب الضابط. قابله. قال له انه، أي عاش الملك، عاتب عليه. لماذا يتخلون عنه بهذه السرعة. ويعتمدون على بديل له. مع انه لم يخطىء في عمله وينفذ كل التعليمات التي تصدر له بدقة. ويتفانى في عمله. ويأخذه بروح الهواية والحب.

طلب منه الضابط الجلوس. نادى على الساعي. وأمره بإحضار شاي له. قدم له سيجارة مستوردة. شعر عاش الملك في هذه اللحظة بندم. تأكد ان الضابط لم يكن يعرف شيئاً عن حكاية العائلة. لهذا اهتم وأخذ خيط الحديث من أوله. وبحركة بدت عادية وسريعة أخرج ورقة صغيرة وقلماً وحاول ان يبدو انه غير مهتم. وانه يرسم سهماً وقلباً. مع انه يستعد لتدوين أي كلمة تخرج من فمه. لفتح ملف وعمل اللازم.

عض عاش الملك شفتيه. فات أوان التراجع. في هذه اللحظة ليس أمامه سوى المضي في الطريق. وإخبار الضابط بالأمر. لو حاول اللف والدوران سيوضع تحت المراقبة. وهؤلاء الناس الذين يتعامل معهم لديهم قدرة فريدة على الشك في أي أمر. ان خسر عمله معهم ليس له مصدر رزق آخر. ولن يتركوه ينعم بحياته في هدوء بعيداً عنهم. عرف أسرارهم ولهذا من الصعب تركه وحده. من الأفضل ان يبلغ هو بدلاً من المتاعب القادمة في الطريق. ما كان يتصور ان تدور الدائرة. وان يبلغ عن كل الناس. وفي لحظة غريبة وطارئة وقاسية. يبلغ عن عائلته. عن نفسه وأهله وناسه.

لعب كثيراً. قال لنفسه ما دام يتكلم عن الآخرين. ويؤذي أناساً لا يعرفهم فما المانع من الاستمرار. ها هو الأذى يطرق أبواب بيته وحياته الخاصة. حاول المراوغة. ولكنه فشل. حاصره الضابط بالأسئلة إلى ان

انهار ويكى وحكى الحكاية من طقطق لسلامو عليكو. العائلة وظروفها الصعبة والسكنى في القبور. والقضية التي رفعها صاحب القبر. وما جرى لهم من هموم بسبب الاقامة في قبر. كل هذا يعرفه الضابط جيداً. ولكن ماذا عن التحرك إلى ميدان التحرير تساءل الضابط:

ـ احتجاج أم ثورة؟

أقسم عاش الملك ان المسألة لا هذا ولا ذاك. بدليل ان الضابط لو وفر لهم مسكناً الليلة لوقف الأمر عند هذا الحد. ولحضرت العائلة في الغد تشكره. بدلاً من المسيرات التي لا يعلم الله إلى أين تقودهم. عاد الضابط يسأله عن موضوع جديد:

ـ من هم الأغراب الذين اتصلوا بالعائلة؟.

ـ أغراب؟

ـ الاصدقاء مثلاً؟.

أكد له انه لا يوجد أي شخص غريب له علاقة بالموضوع من الألف إلى الياء وان المليونير هو الذي فكر. وهو الذي توصل إلى القرار وأخبرهم به. وكان عليه التنفيذ ما عدا الذين رفضوا.

ـ الرافضون؟!

سأل عنهم. تحركت يده ببطء تدون الأسماء والأعمال وسبب الرفض. قال عاش الملك: ان الذين رفضوا يعانون مثل الذين وافقوا. وان الكل في أعماقه يقف في معسكر المليونير. والكل موافق على الحل الذي توصل له. ولكن المشكلة هي ان البعض له ظروف اجتماعية تمنعه من المشاركة في هذه المسيرة. لأنه يخشى الفضيحة. لديهم ما يخافون عليه. ولهذا من الصعب عليهم الوقوف في ميدان عام.

الذين سيتحركون للبيع ليس لديهم أو في حياتهم ما يخافون عليه. الفضيحة بالنسبة لهم خبز يومي لا جديد فيها. أثناء الاستجواب الذي

حاول الضابط ان يعطيه شكل الدردشة. قال عاش الملك لنفسه. ان التعامل مع هؤلاء الناس صعب. ودخول القسم ليس مثل الخروج منه. تمنى ان يخرج من هنا بأي خسائر. بأي كوارث جديدة.

في الطريق إلى العائلة. أدرك ان التعامل معهم لم تكن لـه قيمة في نظرهم. كانوا يقولون له انـه واحد منهم. جـزء من جهاز عـظيم. وها هـو يتحول اليـوم إلى مجرد مـوضوع في دقـائق قليلة. يفتـح لـه ملف. ويعمل في موضوعه آخـرون. كان يتصـور ان ما بينـه وبينهم أقوى من الزمالة وأبقى من الصداقة. كان خاطئاً. انها آلة جهنمية تأكل بـداخل كل المعاني الإنسانية. ان وجدت هذه المعاني أصلاً.

حاول الاستئذان. عرض على الضابط ان يذهب إلى العائلة ويوقف الأمر. مهما كان مصيرهم فهو يتعهد بإيقاف الزحف المقدس غـداً. قال له الضابط ان إيقاف الزحف المقدس، يعد تدخلاً في حريات النـاس. الكل أحرار في هذه الأيام. والضابط لا يمكن ان يسمح بـأي حال. ان يكبت المواطن في عصر الحريات العظيم الـذي تعيشه مصر. لا تـوجد قوة على الأرض. توقف زحف صاحب مشكلة هدفه حلها.

خرج الضابط من المكتب. جلس عاش الملك متسمراً. لا بد وأنهم يراقبونه من مكان ما. نظر، ان العيون تخترق لحمه. من جهة لا يعرفها. في الخارج همس الضابط في أذن المخبر الواقف أمام الباب. والذي يقوم بدور الساعي أحياناً. تحرك الضابط في اتجـاه مكاتب الـرؤساء، عـاش الملك يعرف ما سيتم الآن. لأنه جرى أمامه آلاف المرات. في حالات كان يعمل فيها. سيذهب الضابط إلى الرؤساء. القضية خطيرة توصـل إليها بجهوده الخاصة ومصادره التي يحتفظ بها لنفسه. انه الآن في انتظار صدور التعليمات.

الكلام الذي همس به الضابط للمخبر. أمر بتشـديد الحـراسة عـلى

عاش الملك. من قبل كـان منا أمـا الآن فهو ضـدنا. أصبـح حالـة من الحالات التي نتعامل معها كـل يوم. تسللت إليـه الجرثـومة التي تفسـد حياة المواطن المطيع الطيب. وتحوله بقدرة قادر إلى إنسان شرير. يطلب الضابط من المخبر عدم إعطاء عاش الملك فرصـة مغادرة المكتب. مـع عدم إفهامه انه مقبوض عليه.

ان عـاش الملك يفهم اللعبة. كم من مـرة مارسهـا مـع الآخـرين. خاف على عمله فأوقع العائلة كلها في مأزق لا يعرف كيف يتم الخروج منه. ذهب الضابط إلى الرؤساء وهو سعيد. ضخم من حجم المسألة. قال إنها تشكل خطراً فعلياً على أمن وسلامة البلاد. وانه عرف بهـا لأن له اهتماماً خاصاً بسكان القبور وله شبكة من العلاقات بين من يعيشون فيها. حانت الفـرصة لتـوجيه ضربـة من النوع القـوي تحذر الآخـرين جميعاً.

قال الضابط ربمـا كانت هنـاك مؤامرة. سيكـون التحرك إلى ميدان التحرير بدايتها المتفق عليها بين المتآمرين. رؤساء الضابط كان موقفهم أكثر اعتدالاً. عقـدت اجتماعـات ودرست المسألـة من كافـة الوجـوه. جـرت مناقشـات. واستعـراض لتصـورات الضـابط وتقييم كـل منهم للموقف ومحاولة معرفة الاحتمالات. اتخـذوا الكثير من القـرارات تحول الاجتماع إلى مباراة في الاستراتيجية. حاولوا رصد ردود الفعل عنـد كل الأطراف ما هو موقف العـائلة؟ ما هـو موقف الجماهير؟ مـا هو مـوقف الرؤساء والقيادات؟.

كانت قراراتهم ترك العائلة تكمل المسيرة. ما دامت المسألة أصبحت بـين أيـديهم وتحت أعينهم من الآن. مـع وضـع العــائلة تحت أقصى درجات الرقابة. وتصعيد الأمر للقيادات لأعلى مستوى ممكن. لأنه قـد تنتج عن الأمر مضاعفات. وفي هذه الحالة يصبح عدم التصعيد إهمـالاً أو تستراً أو مشاركة ضمنية.

الأيام عصيبة. وهي تأكل في سيرها البطيء كل ما تجده أمامها. لا بد لكل شخص من حماية نفسه. التهم تملأ الشوارع مثل هبات الريح. وأسهل قرار يمكن اتخاذه في هذا الزمن السعيد ان يحال الضابط فلان على الاستيداع لأنه أهمل في عمله. حاول كل ضابط تحويل مسئولية المتابعة إلى ضابط آخر. مما أشعر الضابط الشاب بخيبة أمل، تساءل وهو جالس: من يدافع عن الدولة والحكومة ونظام الحكم؟ إذا كان خط الدفاع الثاني قد تسللت إليه هذه الحالة من الخراب والفوضى؟ هل تحولوا إلى موظفين أخيراً. لا يجيدون سوى الجلوس على المكاتب. والسؤال في الجمعية الاقتصادية عن آخر أخبار الدجاج واللحم والسمن والجبن وقراءة الصحف والحديث في التليفونات. منذ متى كان الحرص هو الدافع الأول؟ والخوف من العقاب شعار؟ وتحويل المسئولية من شخص لآخر ذكاء.

اقترح عليهم. القاء القبض على العائلة الليلة حتى يستريحوا من الأمر. من السهل الحصول على إذن من النيابة. بناء على مذكرة يعدونها الآن. وسيمر وقت ليس بالقصير قبل الإفراج عن العائلة. وقد يصلون إلى الأمر خلال التحقيقات. بدا الانزعاج على الضابط. لأنهم كانوا قد تجاوزوا الأمر بأذهانهم. وبدأ كل منهم يفكر في أمر آخر من أمور هذا العالم. قالوا له انه صغير وعديم الخبرة. من يدريه. ان الأمر بالحجم الذي بلغ له به. ربما كان مؤامرة تهدد نظام الحكم. وفي هذه الحالة. من يدري ان كان أفراد هذه العائلة فاعلين أصليين أم مجرد مشاركين في الأمر من قريب أو بعيد ربما لم يكن هناك تحرك أساساً. وهذا الرجل حضر كنوع من الابتزاز لك ولنا. ولا يوجد في الواقع نصف ما قاله. وهو يهوش بهدف الحصول على شقة. الحل الوحيد هو ترك الأمور تمشي في طريقها الطبيعي. الخطوة الأولى تمت. وضعنا أيدينا على الأمر. ما يجري من الآن وحتى مساء الغد. العائلة وكل من يتصل بها تحت

أعيننا. لن نتعب. مجموعة من الجنود السريين عليهم مراقبة كل ما يجري. وغداً ستعرف الأمر. ان كان محاولة للابتزاز من الشخص الذي أبلغك. أم مجرد حيلة للحصول على شقة. أم عائلة وصل بها ضيق الحال لهذا الحد. أم عملية أكبر. وبعدها سنحدد الموقف من العملية. ومن الشخص الذي كان مصدراً لك فيها.

كان القرار نهائياً. ولهذا هبطت المسئوليات والاختصاصات والأدوار من الرتب العليا إلى الأقل فالأقل حتى وصلت إلى الجنود السريين. الصغار جداً. كلفوا بمراقبة العائلة من الآن وحتى وقت التحرك إلى الميدان وآخرون تكون مهمتهم الرحلة من القبر إلى الميدان. ومجموعة ثالثة تتولى الأمور في الميدان من لحظة الوصول وحتى نهاية الأمر. الذي لا يعرف أحد كيف سينتهي.

عاد عاش الملك من مكتب الضابط. ولديه تعليمات. ان يكون معهم. وان لا يكون معهم في الوقت نفسه. ان يكون معهم ليبلغ الضابط أولاً بأول بما يجري داخل العائلة نفسها لأنه جزء من الصورة. ونجاحه في هذه المهمة سيحسم مستقبله في العمل معهم. وكل إمكانيات نمو التعامل في الغد مترتبة على هذه المهمة. وحتى إمكانيات تعيينه بمرتب ثابت مرهونة بهذه المهمة بالذات.

أما مسألة ان لا يكون معهم. فتلك تبدأ عند التحرك نحو الميدان. بمجرد ان يبدأ التحرك. فالضابط يطلب منه ان يبتعد عنهم. وان كان مطلوباً ان يظل في نفس الدائرة التي يتحركون فيها. عليه اختيار اهم مجموعة ويبقى بالقرب منها. هنا توقف الضابط وقال له. انه بمجرد تعيينه على درجة سيتسلم جهاز لاسلكي صغير لكي يستخدمه في مثل هذه الحالات. وانه لو كان تحت يده جهاز لسلمه له. حتى يبلغه بسهولة في حالة وقوع أي حادث.

تساءل عاش الملك:

ـ حادث؟ أي حادث؟ هل؟!

تراجع الضابط. قال انه لا توجد نية عمل أي شيء ضد العائلة ما دام الهدف هو الحصول على سكن. بل انهم سيساعدونهم في ذلك بكل الطرق. ولكنه يقصد بالحادث أي أمور تحدث من الناس الذين سيحاولون الاندساس خلال المسيرة.

خرج عاش الملك من مكتب الضابط. وقلبه غير مطمئن. لما قيل له. عند أول الشارع توقف. بدا كمن يحاول ربط حذائه. ونظر خلفه بحركة سريعة فوجد مخبرين يتبعانه كظله. تحققت ظنونه بأسرع مما تصور. قال لنفسه: غدروا بك. وضعوك في قائمة الأعداء والخطرين. وأصبحت تحت المراقبة.

فكر في إبلاغ العائلة كنوع من التكفير عن الذنب الذي ارتكبه. ولكنها عائلة مجنونة. من يتصور رد فعلهم. قد يكون عنيفاً بصورة تجعله يخسر الضابط والعائلة في وقت واحد. الأعداء خلفه والذين أمامه لا يمكن أن يعد نفسه واحداً منهم. وخيانة العائلة مرة المذاق والطعم. ليس أمامه سوى الاستمرار. ذلك هو الحل الوحيد.

بعد توزيع العائلة إلى مجموعات. وتوزيع المهام على قادة هذه المجموعات. كانت أكثر الأسئلة هي التي انطلقت من أفواه الأطفال. ما هي الحكاية بالضبط؟ وإلى أين نذهب نحن الآن؟ تم الضحك عليهم. الكذب أسهل في هذه المواقف من الصراحة ومواجهة الأمور. الصدق صعب. تصرف المليونير. قال لهم ان اليوم إجازة. عطلة لن يعملوا في أي عمل. واليوم كله سيقضونه في الترفيه.

ـ ترفيه؟!

كان نطق الكلمة غريباً. وكان وقعها في حياة الأسرة يتم للمرة

الأولى. لم تذكر هذه الكلمة من قبل. لهذا فرح الأطفال. ارتدى كل منهم ملابسه. أجمل ما لديه وهي ملابس العيدين. إستعدوا لرحلة يوم الترفيه. عرفوا نقطة البدء. من هنا. من القبر. أما إلى أين؟ قال المليونير ان الترفيه سيتم بطريقة مبتكرة ولم تحدث من قبل. سيتم تقسيم العائلة إلى ثلاث مجموعات. لكل مجموعة قائد يقودها. وأركان حرب يساعده وينوب عنه في القيادة ان حدث له أمر ما. كل مجموعة ستسير. من طريق مختلف عن الطريقين الآخرين ثم يلتقون في النهاية. في مكان يتفقون عليه. والحكمة من وراء هذه الطريقة انهم بعد اللقاء. ستحكي كل مجموعة ما شاهدته. والمجموعتان الأخريان تسمعان ما يقال. وبهذه الطريقة يشاهد كل منهم ما شاهده الآخرون. أي ان كل فرد سيشاهد المدينة بست أعين. عيناه وعيني من سار في الطريقين الآخرين.

ساعتها. تصور الأطفال. ان المليونير فكر في صالح الكل. وانه فكر في كيفية إسعاد العائلة، انه يرفه عنهم فمتاعب الحياة قاسية. سأل بعض الأطفال. هل ستكون الرحلة الأخيرة أم ستكون هناك رحلات أخرى. وبشكل دوري. كل أسبوع أو كل شهر مثلاً. وقبل الإجابة قالوا لأنفسهم ان أيام العذاب. والتعب والحياة وسط القبور قد انتهت وها هم قادمون على أيام سعيدة لأول مرة.

تعديل وحيد جرى على الخطة في اللحظة الأخيرة. وهو ان المليونير طلب منهم التحرك وفضل البقاء في البيت قبل التحرك.

ـ التحرك من هنا واللقاء في ميدان التحرير.

تلك كانت تعليمات المليونير الأخيرة. وبمجرد الوصول إلى ميدان التحرير. يبقى من يصل على رأس أحد الشوارع المؤدية إلى الميدان ولا يتحرك إلى المكان الخالي. حيث منتصف الميدان إلا بعد وصول

المليونير. ووقوفه في مكان التمثال. والمليونير من ناحيته لن يصل إلى قاعدة التمثال إلا بعد تأكده من وصول كل المجموعات إلى أماكنها المحددة.

وهناك إشارة ما ان تحدث. حتى يتحرك الجميع إلى مكان التمثال الخالي هذه الإشارة لم يصرح بها المليونير من قبل. ولكن اللحظة حانت ولا بد من قولها. الإشارة. ان يقف المليونير مكان التمثال الخالي. ويرفع صوته بنداء. من يسمعه يقول انه نداء لله تعالى. ولهذا لن يثير شكوك أحد. ولكن في الوقت نفسه. فهذا النداء هو كلمة السر لهم لكي يتحركوا فوراً. ويقفوا بجواره. التحرك يجب ان يكون بسرعة خاطفة. لا تعطي لأحد فرصة منعهم من الوصول إلى قاعدة التمثال. سيرفع الباشا يده. كما يفعل المؤذن. ويتجه ببصره إلى السماء وينادي بصوت عالٍ:

ـ رب طال الكرب فهل من فرج قريب؟

المفروض ان يصلوا إلى جواره. قبل ان يصل إلى كلمة قريب. المفاجأة عنصر أساسي وهام وحاسم. في مثل هذه المواقف. وان ضاع عنصرها. يمكن ان تفشل الخطة من أولها إلى آخرها. والنداء سيلفت الأنظار. من ينادي في هذا المكان. وتلك الظروف. يثير الريبة. لهذا لا بد من سرعة التحرك الحاسمة.

ما زلنا عند نقطة البدء ذلك الصباح المتوتر، الذي تقرر فيه الرحيل. تأهب القطيع للرحيل. تحولوا في لحظة خاطفة، لحظة الوداع الإنسانية إلى بشر من لحم ودم. إحساسات ومشاعر غريبة تغزو حياتهم لأول مرة. حب؟ كراهية؟ فراق؟ لوعة؟ رغم ترقرق الدموع في المآقي. أشياء لها طعم غريب. في الصدور مشاعر لم يشعروا بها من قبل.

ياه. بعد فوات الأوان اكتشفوا إنسانيتهم المهدرة. اكتشف كل منهم انه له صدر. وان في تجويف الصدر قلب. والقلب ينبض بالعواطف مثل الآخرين. لكن أهم الاكتشافات تأتي بعد فوات الأوان.

شعروا بحنين غامض لحياة القبر. ما كان أحد منهم يتصور انه سيأتي يوم يشعر فيه بالأسف والندم والحزن لأنه سيترك القبر. منذ ان حضروا إلى هنا. وأمنية كل منهم هي مجيء اليوم. الذي يترك فيه القبر. ما تصوروا ان الإقامة هنا يمكن ان تطول أو تستمر. قالوا إقامة عابرة ومؤقتة مثل الكابوس. ما من لحظة إلا وتمنوا الرحيل. لحظة الرحيل أتت. ولكنهم شعروا بأشواق دافئة للحظات الحياة هنا. لمفردات الحياة اليومية وسط الموتى. أليس غريباً أمر الإنسان؟

يجد الكاتب نفسه مضطراً للمرور بشكل عابر على الرحيل. لأن التوسع في الكلام عنه يفسد الكثير من الأمور. فهو كلام عاطفي في رواية لها قضية محددة. الروائي لم يكن مهيئاً لمقابلة مثل هذه المواقف العاطفية والإنسانية في ثنايا الرواية. لهذا يكتفي بالقول:

ـ لقد رحلوا.

كلمتان يهرب بهما المؤلف من الموقف. ما له وللعواطف والبكاء والحزن والأسى. عندما لا يجد الناس ما يأكلونه. ويعيش الإنسان العادي. في الربع الأخير من القرن العشرين فوق الأرصفة. وفي باحات المساجد. عندما ينام فوق عظام آبائه وأجداده. يصبح الحديث عن الحب خيانة. والتوقف أمام العواطف البشرية تضليل. المعدة الفارغة غير مستعد صاحبها لأي حديث سوى عن شبعه وطعامه. والذين بلا سكن لا أمل لهم سوى العثور على هذا السكن. ولا يتعجل المشي سوى في الطريق الذي يوصله إلى السكن.

ـ لقد رحلوا.

يقولها المؤلف وينتهي من الأمر. أو
ـ لقد قفزوا نحو المجهول.

يقولها الأستاذ في ذهنه واصفاً الحدث. عموماً يبدو كلام المؤلف أفضل من كلام الأستاذ لأنه أكثر اختصاراً من كلامه. بعد الرحيل بقي في القبر المليونير والست الكبيرة. المليونير لكي يفطر والست الكبيرة لأنها مسمار جحا الذي سيبقى هنا. لحين استقرارهم. لعل وعسى.

طلب المليونير من الست الكبيرة ان تعد له إفطاراً ضخماً يناسب ضخامة وهول اليوم. رغم انه المذنب الأول. وهو الذي أوصل العائلة إلى الحال الذي وصلت إليه. إلا انه كان يبدو هادئاً لا مبالياً. لا يعاني من قلق أو اضطراب. ملامح وجهه تنطق بالهدوء والسعادة والرضى التام.

تعجبت الست الكبيرة من حاله. قال لها ان أعصابه من حديد وإنه تعود أن يواجه أقسى المواقف بهذه الصورة. سألته. الا يشغل باله أي أمر من الأمور. قال لها: كيف لا يشغل باله أي أمر. هناك من الأمور ما يشغله في هذه اللحظة. يشغله الآن الملابس التي سيرتديها وهو في طريقه إلى الميدان. والطريقة التي سيتحرك ويتصرف بها في الميدان. وهل يمسك العصا القديمة في يده. وهل يمسكها من منتصفها. أم لا يمسك بأي عصا معه.
ان اخراج الطريقة أمر هام. وهو الآن يفكر في ذلك الأمر الهام. صحيح انه يشغله طعام الإفطار. ولكن أمر الطريقة التي سيتصرف بها يشغله أيضاً وبنفس الدرجة. ليس مهماً عنده نوع التصرف. ولكن الهم هو شكله وطريقته.

ليستعد القارىء من الآن. نحن على أبواب الفعل الرئيسي. وهذا

الفعل يدور في زمان ومكان. الفعل بعد الفعل. أي التتابع. وتلك هي الحركة في الزمن. والشيء بجوار الشيء. أي التجاور. وتلك هي الحركة في المكان. ان المؤلف قادم على إكمال. فصل صعب. وعندما يواجه بعض المواقف الصعبة يشعر باليتم. التجارب السابقة سارت في الدروب المطروقة. والطرق العادية. ولكنها لم تحاول اختراق المجهول.

الرحلة إلى الميدان. الفعل الكبير الذي يتألف من الأفعال الصغرى. بعضها يمهد له. والآخر يدور حوله. وهناك ما يأتي بعده. وقيمة الفعل الكبير الذي يتعدى مجرد الوقوف عند تصوير الواقع فقط؟ ماذا يعني لدى القارىء الحديث عن البؤس والفقر والعري والجوع. ان الأغلبية تعيش هذا كل يوم. والحياة اليومية أكثر حضوراً من أي كلام يقال. مهما كانت بلاغة من يقول. ان تصوير الواقع عندما يصبح هدفاً وغاية. يصبح قاصراً. لا شيء يبقى في مكانه كما هو. لا بد من حركة في أي اتجاه. وفي تلك الحركة. تكمن وجهة النظر والرؤيا. التي تولد لدى القارىء القدرة التحريضية التي يمنحها الأدب.

بعد هذا الكلام الذي قد يكون معاداً يصل القارىء إلى أصعب جزء واجه المؤلف في الرواية. وهذه الصعوبة نتجت عن مسألة التمايز بين الرحلات الثلاث. ان الاختلاف بين كل رحلة وأخرى مسألة هامة. وإلا ما هو المبرر لوجود أكثر من رحلة. ان التكرار في التجربة يجلب الملل. والملل هو المقدمة الطبيعية لانصراف القارىء عن العمل. حيث تموت الرواية. ولا تصل للقارىء الذي كتبت عنه وله ومن أجله.

ما كان أسهل على المؤلف ان يقسم البشر إلى نوعين من الناس. الذي رحلوا إلى الميدان. جماهير وشعب نعم. رحلة واحدة من القبر إلى الميدان يصفها بعناية. بقدرة فوتوغرافية والذين رفضوا. أبطال لا.

ولكن التقسيم كان سيبدو مختزلاً للتجارب. فقد وجد المؤلف نفسه أمام عدد من الرحلات. وكانت الصعوبة هي تقديم هذا العدد من الرحلات. والمؤلف لا يقول ان هذا الجزء من الرواية كان سهلاً. فعدد المرات التي كتب فيها هذا القسم لا يذكره المؤلف من كثرته. وهو يحتفظ لديه بعدد هذه الكتابات لنفسه. وبين كل كتابة وأخرى كان المؤلف ينصرف عن العمل. فترة من الوقت. وفي هذه الفترات. كان شبح الفشل يهدد كيانه الإنساني.

ان وقوف كاتب ما على حافة الفشل يصيبه بالإحساس، باللاجدوى والتعب والفتور تجاه العالم. ولا يذكر المؤلف كيف كان يخرج من هذه الحالات. ولا يعرف أيضاً لماذا يحكي هذا قبل الدخول إلى الجزء الذي عذبه. هل يريد تعذيب القارىء معه؟ لكي تحدث المشاركة بينهما؟ أم أنه يستعرض عضلاته؟.

لا هذا ولا ذاك. كل من مارس ذلك الشيء العظيم. كل من كتب. يعرف عذوبة تلك اللحظات. ما يجري فيها. وتألق الحديث عنها وبريقه الإبداعي المدهش. والمؤلف يذكر كل هذا لأنه يريد من القارىء ان يولي الفصل القادم إهتمامه رغم انه قد لا يكون أجمل فصول الرواية. ولكنه كان بالنسبة للمؤلف الرواية كلها من كلمة البدء وحتى كلمة الختام.

الجماعة الأولى:

يقودها: المليونير.

الجماعة مكونة من: عاش الملك. الهانم.

الطريق:

الدراسة، شارع الأزهر، الحسين، الموسكي، العتبة، شارع فؤاد [المسمى سراً بشارع ٢٦ يوليو]، شارع شريف، باب اللوق، شارع

التحرير. التوقف عند آخر شارع التحرير. بالتحديد عند نقطة التقاء الشارع بالميدان. وكلاهما يحمل اسم التحرير. في انتظار الإشارة.

من المفروض ان يكون قائد هذا الجماعة هو المليونير. وبالتالي فإن الجماعة تقود الجماعتين الآخرتين. ولكن الذي حدث ان المليونير لم يتحرك مع الجماعة. فضل البقاء بعد تحرك الجماعة بعض الوقت قال لهم انه سيبقى مع الست الكبيرة. لأنه لا يعرف متى تلتقي الوجوه مرة أخرى. وفي الحقيقة فقد بقي ليفطر بهدوء بمفرده. بعد ان خلا القبر لأول مرة من كل ساكنيه.

المليونير لا يطيق الإنفراد بالست الكبيرة. ولهذا تناول الإفطار الذي قدمته له بسرعة. وخرج هارباً من مجرد البقاء معها. بمفردها. في هدوء وصمت لم يعرفها القبر من قبل. طوال الوقت الذي استغرقه في الإفطار. كانت عينا الست الكبيرة. يطل منهما استفهام جارح: لم جرى ما جرى لنا؟ قال له الصمت ان الست الكبيرة تدرك انه المسئول عما وصل إليه الحال في الأسرة ولكنها لم تتكلم. أصابتها حالة من اليأس. لا جدوى من الكلام مع مثل هذا الرجل. لن ترى الأسرة أي خير من ورائه أبداً. منذ فترة وهي تدرك ان الأمور في ظل وجود المليونير تمشي من سيىء إلى أسوأ.

اللحظة الراهنة أفضل من اللحظة القادمة. الفارق في سوء الحال يحسب باللحظة والبرهة والثانية. وليس باليوم أو الأسبوع أو الساعة. الست الكبيرة لا تكره المليونير. وهي لا تستطيع نسيان أيام وليالٍ قضتها وهي تحبه. ولكن ما كان يشغل ذهنها أمر آخر. وهو كيف يقود المليونير العائلة حتى هذه الهاوية. ويصبح عاجزاً في الوقت نفسه عن إنقاذها؟

التدهور سهل. يكفي ترك الأمور تتدهور. تندفع بقوة الدفع

الذاتي. أما الصعب فهو إصلاح حال تدهور. المليونير قادر على دفع الأمر نحو الهاوية ولكن الإصلاح صعب. بل مستحيل. لا يملكه المليونير. ولا يقدر عليه أفراد العائلة الغريبة.

هرب المليونير من البيت. وان كانت لديه رغبة لا تقاوم في ان يتكلم ان يجد من يسمعه. يقول ويحكي ويخفف عن نفسه بالكلمات. قال لنفسه: انه بعد الميدان ستكون هناك أكثر من فرصة للكلام. سواء انتهى الأمر بمنحهم شقة. أو في قسم الشرطة. فالكلام سيكون البضاعة الوحيدة المتداولة بينه وبين الآخرين.

ان طريقه من القبر إلى الميدان يخلو من الأحداث الهامة. كل ما يلفت النظر في رحلته. هو مروره بالأماكن التي يعمل فيها أحياناً. موقف الأتوبيس حيث كان يقيم نصبه لعمل الشاي. ميدان الأزهر. وهنا عمل أكثر من مرة منادياً وصاحب موقف. ورجلاً يستطيع ان يحضر تاكسياً لمن يبحث عن تاكسي. أعمال لا حصر لها. قام بها في أوقات مختلفة. وقد تسول في بعض الأيام وحصل على الكثير. وشاهد كميات من الأموال تتدفق في أيادي الناس. لا يعرف من أين يحضرونها. وتعجب عندما وجد الكل يشكو من معه ومن ليس معه.

قال لنفسه: يبدو أن أموالنا لم تعد مثل أموال الزمان القديم. الكل معه مال. صحيح. الكميات ليست متساوية. ولكن الكل يشكو. من يخلو جيبه. من مليم واحد يشكو. ومن يوجد معه ما يعجز الجيب عن حمله يشكو. وكل إنسان لديه أسبابه الخاصة التي تدفعه للشكوى.

خرج المليونير ومعه ٨٢ قرشاً ونصف. هي ما أخذه من القسمة التي جرت للأموال التي كانت مع الأسرة. يوم سعيد. معه كل هذا المبلغ لإنفاقه الشخصي. لا مطالب لديه سوى ان يأكل ويشرب. ويفعل ما لم يفعله من قبل. لا يوجد في حياته أصدقاء حتى يمر عليهم. جزء من

الجماعة سار قبله وها هو يسير بمفرده. اليوم يوم جمعة. وهو اليوم الذي تخلو فيه الشوارع.

المجموعة الأولى لم يبق منها سوى الهانم. وهي لها قصة سيقرأها القارىء في مكان آخر من هذا الفصل تحت عنوان «الذين فقدوا خلال الرحلة» ولأن المؤلف لا يحب ان يكشف أوراقه مرة واحدة. فاللعبة لها أصولها التي يجب مراعاتها.

من المفروض ان لا تصل الهانم إلى ميدان التحرير. وان تجد في الطريق ما تتصور انه حل لمشكلتها المزمنة. ولهذا فالرحلة بالنسبة لها تبدو ناقصة.

الوحيد الذي سيصل من البداية إلى النهاية هو المليونير. ان المجموعة الأولى تشكل ثلاث رحلات مستقلة سارت الهانم ضائعة ومتعبة ثم سار المليونير بعد فترة طويلة. عاش الملك كان مختبئاً في مكان بالقرب من القبر. سار وراء المليونير بمسافة ثابتة. وكان وراء عاش الملك شخص رابع قام بالرحلة أيضاً من القبر إلى الميدان. وان لم يكن من الأسرة. انه يقوم بمهمة مراقبة عاش الملك. الذي يراقب الأسرة بدوره.

لم يكن شخصاً واحداً. عدد الأشخاص تغير أثناء الطريق. الشخص الأول انتهت مهمته عند موقف أتوبيس الدراسة. سلم المراقبة لشخص آخر. والثاني يتبع عاش الملك حتى ميدان الأزهر. كان عاش الملك يضحك في نفسه وهو يشاهد عمليات التسليم والتسلم كل حوالي ثلاثمائة متر. قال ان العملية كانت مكلفة وغالية بالنسبة لهم. وكان من السهل على الضابط ان يعرف، منه المطلوب ويريح نفسه من هذا العناء.

هذا العدد من المخبرين جعل عاش الملك يدرك خطورة الأمر ولهذا

قرر ان يتولاه بكل دقة وعناية. كل حادثة ستصل الضابط منه ومن المخبر الآخر وصدقه سيكون مبرر استمراره بعد هذا. في هذه اللحظة أدرك عاش الملك طبيعة المشكلة التي تواجهه. ولا بد من حلها. كيف يغطي الرحلات الثلاث في وقت واحد؟ انه جزء من رحلة واحدة. وهي أفقر رحلة من بين الرحلات الثلاث. كان يتصور ان المشي مع والده سيضع يده على الكثير. ولكن الوالد خلا به في اللحظة الأخيرة. قال انه يود الإنفراد بالست الكبيرة. وهذا كلام لا يدخل دماغ أحد في البيت. فهم جميعاً يعلمون مدى الكراهية بين الست الكبيرة والمليونير.

بقاء المليونير في القبر بعد رحيل الكل. أثار الشكوك على نفس عاش الملك، انه من مجموعة عاش الملك ويجب ان يسير معه. رجله على رجله كما يقولون. يلازمه في كل خطوة. وعندما وجد المليونير يفضل المشي بمفرده. لم يشأ ان يحول الأمر إلى حكاية من الحكايات. حتى لا تشير إليه أصابع الإتهام بعد ذلك. قرر ان يتظاهر بالمشي. ثم يبقى في مكان ما حتى يتحرك المليونير ثم يراقبه من بعيد. سيلبد في هذا المكان الذي يخفيه. ويستطيع منه مراقبة مدخل قبرهم. حتى يتحرك المليونير.

ان مهمته الأولى هي مراقبة القائد الأساسي في العملية. لأنه لو كان هناك تآمر ما. فسيكون من خلال المليونير. سيسير خلفه. المسافة يجب ان تكون قصيرة. حتى يسمع همسات الرجل لنفسه. ويعرف من سيقابلهم. وان استدار المليونير فجأة. فهذا معناه انه متآمر. وفي هذه الحالة سيقول انه قرر الا يسير إلا خلف القائد. وان من يسير عن القيادة يصبح موقفه خطأ. ومن السهل ان يعجب المليونير من هذا الكلام. ويرى فيه دليل محبة منه. وقد يكافئه عليه.

كان عاش الملك يتمنى لو غطى الرحلات الثلاث أو حتى يسمع من أفراد الرحلتين الآخرتين ما جرى لهم. وما قابلوه ما سمعوه خلال

الرحلتين. ان السماع يتطلب منه الدخول إلى الميدان. حيث المكان النهائي. وهو يخشى ان تنقلب المسألة إلى جد. من السهل دخول الميدان ان استمرت لعباً في لعب. وهناك فارق بين الجد واللعب. صحيح انه مكلف بمهمة من الضابط. ولكن الضابط كان واضحاً. قال انه سيكون معهم. ولن يكون معهم في الوقت نفسه. ثم من يضمن الضابط. ؟

نظر وراءه فجأة. وجد ان المخبر تغير. شخص لا يعرفه ويراه لأول مرة انهم يلعبون معه لعبة جديدة. انتدبوا مخبراً من قسم آخر. حتى لا يكون معروفاً لعاش المالك. نسوا انه يعرف المخبر بأكثر من علامة. لأنه هو نفسه يلعب هذه اللعبة. تمنى لو ذهب إلى المخبر وتحدث معه. لو قال له لا داعي لكل هذا العناء. أصعب ما في اللعبة. ان تقول للآخر انك تعلم اللعبة التي يمارسها معك. هذا هو الخطر الفعلي. سيتصرف الآخر وكأنه غير مقصود بالكلام.

مشى قليلاً. تخطى المليونير من حارة جانبية. وصل إلى طريق صلاح سالم. حيث معبر الموت. كما يسميه الناس. اكتشف عاش الملك ان المكان مناسب للبقاء فيه. حتى يأتي المليونير ومتابعته حتى ميدان التحرير. والمتابعة سهلة لوجود الناس والشوارع والبيوت والمحلات. وتلال البضائع المكومة فوق الأرصفة وآلاف السيارات.

وقف بالقرب من سور ثكنات الأمن المركزي. بجوار باب خلفي مهمل. يستخدمه الجنود في الدخول والخروج وعلى الناحية الأخرى من الباب وقف المخبر الآخر ضحك في سره. عاش الملك يراقب والده. وهذا المخبر يراقب عاش الملك. وبالتأكيد هناك من يراقب العملية كلها من مكان ما. أمر غريب هذه المسألة لم تشغل باله طويلاً. لأن الاكتشافات التي وجدها طوال رحلة يومه. جعلته ينسى الأمر الأساسي

وينظر بدهشة لا توصف لعالم الأب الذي لم يكن يتصوره.

قبل الحسين: دخل مستشفى الحسين الجامعي. سأل عن أحد السعاة. وعندما وجده ووقف معه. دار بينهما حديث فهم منه عاش الملك ان المليونير واسطة بين مجموعة من التربية. وطلاب كلية الطب. المليونير هو مندوب التربية وحراس المدافن. والساعي مندوب طلاب الطب. والعملية التي يتكلمون فيها هي تسليم أجزاء من الموتى للدراسة عليها.

يذهب الطلاب في سياراتهم. يحصلون على ما يريدون. وينصرفون. ويحضر المليونير إلى الساعي. ليتم الحساب. الطالب يدفع للساعي. المبلغ المتفق عليه. والساعي يخصم منه لنفسه. ويدفع الباقي للمليونير الذي يخصم نسبته من المبلغ. وفي النهاية يصل المتبقى لمجموعة التربية والخفراء لكي يقسموا المبلغ فيما بينهم.

هذا الصباح. لم يكن هناك تسليم أو تسلم. ولهذا دهش الساعي من حضور «مندوب جهنم» هكذا يسميه الساعي. اكمل الساعي ان كثرة حضور المندوب تلفت الأنظار إليهما وإلى العملية. وانهما لم يتفقا على هذا. وان انكشف الأمر. سيكر الباقون مثل الخيط من فوق البكرة. حتى تصل الحكومة إلى آخرها. ولا يعلم إلا الله أين سيكون هذا الأخير.

قال المليونير أو مندوب جهنم إنه حضر لأن العملية ستتوقف مؤقتاً. بان الإنزعاج والإهتمام على وجه الساعي. سأل عن السبب. هل هناك متاعب. هل توجد مشاكل من أحد التربية أو الخفراء.؟

ابتسم المليونير. اطمأنت نفسه. فالإحتياج له قائم وعلى أشده. والأيام القادمة لن تعرف التوقف. قال لكي يطمئن الساعي إن رقصة الأسعار المجنونة هي السبب [قال عاش الملك في نفسه إن كلمة رقصة

الأسعار هذه من كلمات الأستاذ. لعنه في سره. فقد أشاع حالة غريبة في العائلة كلها]. سأل الساعي عن المطلوب، قال المليونير.

ـ زيادة الأسعار.

ـ كم؟

ـ نتكلم في هذا بعد الغد.

سكت الساعي وحك ذقنه الطويلة بيده. سكوته كان دليل الموافقة على الكلام في الأسعار بعد يومين. عرج المليونير على حارة صغيرة ومسدودة خلف المستشفى ناحية الجبل. الحارة ليست بين جدار وجدار. ولكنها بين جبل وجبل. إمرأة ضخمة مترهلة. ملابسها في لون التراب. تجلس أمام نصبة شاي. وبجوارها أكثر من جوزة وكوالح والعة.

جلس المليونير. قرصها في فخذها. صنعت له الشاي ورصت المعسل. شرب وشربت. قرصها في الفخذ الآخر وقبلها أمام الآخرين الذين يجلسون حولها. قبلها في خدها الذي بلون الوحل. وقبلها في الخد الآخر. رفع الجلباب وشاهد فخذيها. ثم أخذها ودخل كوة في بطن الجبل وخرج بسرعة وهو يعدل ملابسه. إستأذن من الجالسين ومشى. لم تخرج المرأة وراءه. ولكن دخل إلى الكوة رجل آخر. بمجرد خروج المليونير.

دخل حارة مواجهة لشارع المستشفى. ومتفرعة من الشارع الرئيسي. دخل باباً صغيراً. إنحنى حتى يتمكن من الدخول. كانت بوظة من مخلفات الزمان القديم. زمن الفتوات والبال الرائق والأسعار الرخيصة والدنيا التي بلا زحام والحكومة التي لا يعمل نصف رجالها في التجسس على الناس.

قال عاش الملك لنفسه: لماذا تبقى البوظة ويولي زمنها هارباً منا.

أسمع أن أيامها كان رطل اللحم بثلاث مليمات. والمضاجعة بقرش ونصف وقرش الحشيش بنصف جنيه. وكانت البيوت لا تجد من يسكنها والشوارع تنادي من يمشي فيها. والحناطير يدفع سائقوها الأجرة لمن يتكرم بالركوب معهم، كانت المشربيات والملابس الحشمة تزيد فتنة المرأة. وكان هناك حب. وكان الجائع يدخل أي بيت مفتوح فيجد طعامه وشرابه ومكان نومه حتى يمشي من نفسه وكانت مصر لنا جميعاً. مكان جمل وضعها المؤلف ولم يستطع الإسترسال فيها. فاكتفى بوضع النقط لأنه ضد رومانسية البكاء على أطلال الماضي. ويرى أن مواجهة الحاضر ومحاولة استخراج الماضي من أحشائه. أهم من البكاء على الماضي. ومع هذا فهو يترك لكل قارىء. أن يملأ الفراغ بتصوراته هو عن هذا الماضي الجميل. الذي ولّى ولن يعود. أما المؤلف فيقول إن فداحة المأساة الحاضرة تجعل النظر إلى الماضي خيانة للحاضر. ومحاولة لسد الباب أمام المستقبل.

تناول عاش الملك أفطاره في شارع الأزهر. عربة من عربات الفول المدمس. التي تملأ شوارع الأحياء الشعبية في الصباح. هناك من يفطر عليها. ومن تمنعه ظروفه من الإفطار عليها. وقف. طلب طبقاً من الفول بالزيت الحار والبصل الأخضر. أعطاه الرجل أربع بصلات صغيرة.

طلب فلفلاً حامياً. فقدم له صاحب العربة خمسة قرون خضراء. ومن الخبز ثلاثة أرغفة. مع الملح والدقة. أكل ما وضعه صاحب العربة أمامه. كان المكان فوق العربة مزدحماً. ولم يستطع الوقوف. فوقع على الأرض. ووضع الطعام فوق حجرة كبيرة. تشبه المنضدة أو الطبلية. أكل ما أمامه. بدا الطبق كأنه مغسول من كثرة حكه بلقم الخبز.

الثمن كان أثني عشر قرشاً ونصف. شرب من زير يوجد بالقرب من العربة. الزحام حول العربة كان شديداً وبعض الزبائن كانوا يغسلون الأطباق بأنفسهم. وهي لا تغسل توضع في صفيحة كبيرة. موجودة بجوار العربة. حتى تنقل الفضلات من الأطباق إلى الصفيحة. ثم تستعمل مرة أخرى. مياه الصفيحة تبقى نظيفة في الدقائق العشر الأولى بعد السادسة صباحاً من كل يوم. وطوال اليوم تلوثها الفضلات. وآخر اليوم تتحول المياه في الصفيحة إلى سائل سميك. من الصعب تحريكه.

توقف في ميدان الحسين. نظر حوله. شاهد مساحة واسعة من السماء. تبدو أكبر رقعة يمكن الإنسان أن يراها من السماء. شاهد عاش الملك المليونير. وقف بالقرب منه دون أن يراه. تطلع المليونير إلى الخيمة الزرقاء الهادئة التي تغطي الميدان. طال استغراقه في النظر. تنبهت حواس عاش الملك. بدأ العمل إذن. الرجل متآمر وهذه الوقفة والتأمل في منظر السماء. هي العلامة المتفق عليها. متى كان المليونير ينظر إلى السماء؟. ومتى كانت تعنيه مثل هذه الأمور؟.

ما جعل المليونير ينظر إلى السماء وينسى نفسه. أن سحابة أتت من ناحية وسط البلد. حيث البيوت والمحلات والأغنياء. من الناس. اقتربت السحابة التي كانت بيضاء اللون. ذكرته بالقطن المندوف بعد حلجه والقطن ولونه وشكله حمله إلى القرية التي حرم منها. منذ زمان بعيد. أدرك في وقفته هذه استحالة العودة إلى نبع الحنان مرة أخرى. مهما فعل سيظل حاملاً ثقل العائلة فوق كتفيه. جاراً وراءه القبر المعلوم والغد المجهول. قرر أن ينظر إليها حتى تبتعد.

اقتربت السحابة أكثر. دخلت المساحة التي تغطي الميدان. أخذت شكل بطة تعوم في المياه «البط» تذكر الترعة في القرية. والبط يعوم

فيهـا. فيحرك الـطين في قـاعهـا. عنـدمـا كـانت البـطة تضرب الميـاه بقدميها. فتنثر قطرات المياه فوق ريشها. لم ينس أنه كانت توجد منطقة لا يعلق بها الماء. كانوا يقولون إنها المنـطقة التي يتجمـع فيها الـدسم. يسمونها الحموزة. ويقولون إن من يـأكلها بـدون غموس تـطيل عمـره عاماً.

«البط» منـذ متى لم يأكله. زمن بعيـد بعيـد. منـذ أن غـادر القـريـة البعيدة. وهو يشاهده فقط في الأقفاص في الأسواق الشعبية أو مذبـوحاً ومنظفاً ومـوضوعـاً في أكياس بـلاستيك في محـلات الجزارة في الأحيـاء الراقية.

البط والمرق الذي يطفو فوقه الدسم مكونـاً طبقة تـترجرج. وبخـار المـاء الخارج منـه. وهـو يمسـك بـالملعقـة التي صنعهـا لهم النجـار من الخشب. يحاول أن يجمع فيها أكبر كميـة من الدسم. ينفـخ المرق بفمه حتى يبرد. يكثر من النفخ حتى يشرب بسرعة.

فتتطاير نقاط المرق إلى أخيـه الجالس بجـواره فيصيـح فيـه. يشرب. يقول لوالده إن المرق بدون ملح. يطلب والده من أمه قليلاً من الملح. تحضره أمـه. ملح خشن فيه حصـوات من التراب لأنـه موضـوع فـوق الفرن. يصيح أخوته. يقولون إن الملح كثير والمرق لا يحتـاج إلى ملح. أبوه. أمه. أخوته. البط. المرق.

ينظر للسحابة وينادي:

ـ منك لله.

قال عاش الملك. إنها كلمة السر. الرجـل يبدو أنـه يكلم السحابـة التي تمر ببطء فوق الميدان. ولكن هذا الكلام ينطلي على من. بعد قليل تحدث الكلمة مفعولها. ويظهر الجانب الآخر من المؤامـرة. حفظ عاش الملك الكلمة التي نطق بها والده. لكي يدونها في تقريـره الذي سـيرفعه إلى حضرة الضابط.

أما الأب. فقد كـان يعيش لحظة نـادرة. السحابـة فتحت طاقـة في جدار ذكريات عمره. ذكرته بكل ما حاول نسيانه. كل هـذه السنوات من العمـر. واجتاحت نفسـه مشـاعـر لاذعـة. هبت عليـه كـالـريـاح الساخنة. من قال إنـه نسي. من قـال هـذا؟

عـواطف ومشاعـر وإحسـاسـات. عمقت لـه الفـارق بـين الـزمن الأخضر البعيد. والزمن العـويل والأيـام الصعبة والليـالي التي تخلو من كل ما يحبه الإنسان، فرح المليونـير. ما زال القلب ينبض. مثـل البشر الآخرين. سار في طريقه ببطء، عاش الملك فسر سيره بأن المليونـير ربما أحس به فحاول التغطية والتمويه. أو أن الطرف الآخر لم يحضر. وربما حضر وفضل التريث والإنتظار لعل وعسى.

هذه الوقفـة الغريبـة جعلت عاش الملك أكـثر تصميماً عـلى متابعـة المليونير. لأن الأمر فيه سر ما. في الصاغـة. دخل المليـونير حمـاماً. من الحمامات الشعبية القديمة. صيحات الترحيب به أكدت أنه زبـون قديم ومعـروف. وإن كانت الكلمات يفهم منهـا. أنـه لم يحضر إلى هنـا منـذ فترة.

دخل المليونير. وبعده بقليـل عاش الملك. الحـمام من الداخـل كبير ومن الممكن ألا يـراه الوالـد. في الداخـل قابلوا عـاش الملك بـدهشـة واستغراب وتساؤل. بعد أن خلع ملابسـه. وأصبح عـارياً. خـاف أن يشـاهده والـده. في المغطس كـان الضبـاب والبخـار يحجب الـرؤيـة. فاستراحت نفسه. تبعه المدلك. استراح للجو القريب من الأجواء التي يشاهدها في الأحلام.

تمنى أن ينـام هنا إلى الأبـد. وأن يصحو عـلى عالم يخلو من الضـابط والمظاهرات. والتجسس على الناس. كادت الدموع أن تطفر إلى مآقيـه عنـدما أدرك أنـه هنـا. لأنـه يتجسس عـلى والـده. زمن عصيب فعـل

بالناس ما لم يحدث من قبل. ضاق بحياته. تناهى إليه صوت المدلك يسأله:

ـ فاعل أم مفعول به؟

لم يفهم الكلمة، فتصور أنها تقال لشخص آخر غيره. رغم أنها قيلت همساً. وعندما لم يرد. استطرد المدلك:

ـ تصبح فوقه أم تحته؟.

هذه الجملة أيضاً بدت مثل اللغز. فاستفهم من الرجل. الذي تساءل وبنفس الهمس. وهو يقترب من عاش الملك:

ـ خمسة، عجله. أم كوز ذرة لم يفرط حبه بعد. بخيره.

المعنى الذي استدار في ذهن عاش الملك كان مرعباً. كان عاش الملك يتمتع بصحة قوية. جسم طويل وعريض. وبدا أمام المدلك أنه غشيم. هذه هي المرة الأولى التي يحضر فيها. قال للمدلك إنه بدون عمل. ويعول أسرة. قال له. إنه فهم الأمر. سيصبح فاعلاً. أي أن يكون فوق. ويستخدم كوز الذرة الخاص به. وما دام بدون عمل فسيكون هذا عمله. سيعمل بأجر معين. طمأنه، الأفنديات الذين يحضرون. يدفعون بكرم وسخاء. وأكد له أن الكثيرين يفعلون هذا وأن الرجل «الطلوقة» ـ هكذا قال المدلك بالحرف الواحد ـ الذي دخل قبله يفعل هذا. كان يفعله قبل أن يولى شبابه. كان يحضر في الصباح. ويظل تحت الطلب حتى المساء. ولكن الزمن لا يرحم أحداً. أخذ من الرجل شبابه ولم يعد يصلح لشيء. غير أن عشاقه القدامى ما زالوا يدفعون له. كنوع من الوفاء لذكرى الأيام البعيدة التي ولت ولن تعود.

«الطلوقة» إسم جديد للمليونير. وكم سيجد له من الأسماء. رحلة مليئة بالغرائب والعجائب، التي لا يتصورها عقل. من الصعب القول إنها المرة الأولى التي يستحم فيها عاش الملك بهذه الصورة. أخرج له

المدلك كمية من الوسخ والقاذورات من فوق جسمه. كانت تملأ كفي المدلك. وهو يحتفظ بها لكي يريها للزبون تدليلاً على أنه قام بعمله على خير وجه.

التدليك والبخار والماء الدافىء والإكتشافات المذهلة. والعرض الذي لم يرفضه عاش الملك بينه وبين نفسه. قال لماذا لا يحضر هنا ليجرب ولو مرة واحدة. والجو القريب من الأحلام جعله يتمنى لو يغرق نفسه في بحر ليس له شاطىء آخر. بحر ليس له قرار. يغرق فيه حتى القاع البعيد. يغسل الهموم والأحزان. شعر باشتياق للإستحمام في بحر واسع. وأن يكون بمفرده. أفاق من الحلم على صوت المدلك يسأله:

ـ ماذا قلت؟

ـ هيه.

ـ طاقة القدر فتحت لك.

ـ القدر؟

ـ لدينا كاتب. يقول إنه مغرم بالآثار والمساجد الشعبية والأحياء القديمة. أبيض مثل الحليب. لين مثل القشدة. عندما يتكلم يبدو أنه يرقص. بياضه مشوب بالحمرة. ناعم. يبحث عن رجل مثلك.

ـ سأرد عليك.

ـ لن يكتفي بالدفع. أو عزومات الطعام. ولكنه سيكتب عنك قصة تمثل في السينما في اليوم التالي. وقد يرشحك لبطولتها. فتتحول إلى نجم سينمائي.

ـ سأفكر في الأمر.

ـ وافق الآن. معي تليفونه. أرجوك. في الأمر منفعة لي ولك.

ـ فيما بعد. فيما بعد.

قرر عاش الملك. أنه بعد الخروج من هذه الأزمة. لا بد وأن يبحث عن أقرب بحر. ويقضي فيه أسبوعاً بأكمله. لا عمل له خلال هذا الأسبوع سوى العوم في المياه. على باب الحمام. كان هناك رجل أمامه قفص عليه خبز ولحمة رأس وفتة. وضع له لحم الرأس في رغيف. وبعد أن انتهى منه طلب رغيفاً آخر التهمه تمنى أن يطلب مرة أخرى. لولا ضيق اليد والأيام القادمة التي لا يعرف كيف سيكون شكلها. لاستمر يأكل حتى آخر اليوم

* * *

الجماعة الثانية:

قائد الجماعة: عباس الأوسط.

نائب القائد: زوجته.

الجماعة: أولادهما: عباس الأصغر (المليونير). والزعيم والإبنة الصغرى (انكسار).

الطريق:

طريق صلاح سالم [الوحيد من أعضاء مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو، الذي خلده هذا الطريق. وما كان أحد يتصور هذا].

القلعة ـ شارع القلعة ـ ميدان باب الخلق ـ شارع العوالم المسمى سراً بشارع محمد علي. مؤسس مصر الحديثة. البؤرة البائسة والحزينة التي تصنع أفراح مصر ـ ميدان العتبة شارع عبد الخالق ثروت. شارع طلعت حرب المسمى جماهيرياً بشارع سليمان باشا الفرنساوي.

التوقف عند التقاء الشارع بميدان التحرير. أمام محلات عمر أفندي ويمكن قضاء الوقت في الفرجة على السلم الكهربائي المتحرك داخل عمر أفندي والذي يصعد بك من تلقاء نفسه. لحين وصول المليونير وإحداث الإشارة المتفق عليها.

من قال إنها مدينة واحدة من يتصور ذلك خاطىء. إنها مجموعة من المدن. متلاصقة ومكدسة فوق بعضها. أجزاؤها مرتبطة بطريقة القص واللصق. لا يوجد عنصر الإستمرار فيها. الرحلة من القاع وحتى القمة [زمننا يخلو من القمم. ولكن القمة بمعنى زيادة عدد أمتار الإرتفاع]. تجعلك تسير في رحلة من عالم إلى عالم آخر. إبدأ من أي نقطة في الأطراف وحاول الوصول إلى قلب المدينة. تكتشف أن كل ما تمر به يتغير كلما اقتربت من القلب [وليس من القمة].

إتساع الشارع. يبدأ من الضيق. حارة أو زقاق لا يكفي لسير إنسان واحد. لو قابله آخر. لاصطدم به. نوعية الأرضية تبدأ من التراب. ان كانت الأرض زراعية. واعتدي عليها وبني فوقها. أو من الرمل ان كانت الأرض صحراوية. ويكون فيها زلط وحجارة وكثبان رملية. كميات الحفر والمطبات. ان كان الشارع مرصوفاً. نسبة الأعطال في المجاري. التي تؤدي إلى الطفح إياه. والذي ينشر رائحة يسميها الناس كنوع من الفكاهة المرة «روائح الربيع الدائم» الأرصفة ومن عليها. الحارات لا توجد لها أرصفة. وإن وجدت الأرصفة بعد مرحلة الحارات الضيقة. تستخدم للسكنى.

يتطور الأمر إلى ان تصبح معارض البضائع المضاءة بالنيون. نوعية البضائع تختلف. كلما اقتربت من قلب المدينة. كثر المستورد من كافة أنحاء العالم. واختفى ما يكتب عليه «صنع في مصر». هذه الكلمة. تصبح في أماكن المستورد جريمة يعاقب عليها قانون غير مدون في أوراق زماننا. وان كان الكل يلتزم به. الناموس والذباب والصراصير. في أحزمة البؤس التي تحيط بالمدينة.

الأحياء مقسمة بين هذه الحشرات. هذا حي يكثر فيه الناموس الناس لا تتوقف أمام هذه الظواهر. ولهذا يقولون لك. ان سبب كثرة

الناموس ان المنطقة تقع بالقرب من أرض زراعية. وانه يمر بالقرب من هنا. ترعة كانت تعمل من قبل. ثم ألغيت وأصبحت مكاناً لكافة الفضلات.

ويستريح الناس لهذا التفسير. ولا يعرفون ان الحشرات عقدت إتفاقيات توزيع مناطق البشر فيما بينها. الوايلي للذباب. المطرية للناموس. عزبة القصيرين للصراصير. الزاوية الحمراء للبق. مساكن الشرابية للزواحف. وهم يفعلون ما لا يفعله البشر. يحترمون هذه التعهدات. ولا يوجد من يخرق أي معاهدة. وفي هذه المناطق تبدو الشوارع مكسوة ببيوت غريبة. تاهت ألوانها الأصلية. تحت كميات التراب. بين المطب والمطب مطب.

في الأطراف يتغير شكل المحلات. تجد المطعم تحويطة من الطوب النيء. في أي مكان يكفي لعشرة رجال. داخل التحويطة مصطبة دائرية. والحائط الخارجي يشكل المسند لمن يجلس. أمام المصطبة مناضد مبنية من الطين. وفي مدخل التحويطة.صينية لا لون لها. لأن درجة سوادها تخرجها عن اللون الأسود في تقسيمة الألوان. تحتها وابور جاز. وفي الصينية يتم قلي الطعمية ولحمة الرأس وأي شيء قابل للقلي.

وعلى الباب جزء من برميل. كان يستخدم في خلط مواد البناء للعمارة القريبة. أخذه صاحب المطعم وملأه بالماء. وبجواره كوز ومن يريد ان يشرب. عليه ملء الكوز والشرب منه. أما غسل الأيادي. فذلك ترف لا يعرفه من يدخل هذا المطعم وزبائنه من عمال البناء وجامعي القمامة. وسكان التعديات وهو تعبير معروف في هذه المناطق.

سكان التعديات، أناس رحلوا من الريف بحثاً عن فرص عمل أحسن. وفي المدينة. لم يجدوا العمل. ولم يجدوا السكن. والريف الذي

شكـل منطقـة طرد لهم. لم يـترك معهم ما يعيشـون منه. والمـدينة التي كانت بؤرة الأحلام والأماني. لم تمد لهم يد العون. أدارت لهم ظهرها. ولأنهم ليسـوا من أبناء المـدن. ولا يعرفـون ألاعيب سكان البنـادر. في التحايل والعلم والحصول على القرش والحصول على المسكن. يبحثون عن أي بيت تم هـدمه حـديثاً. ويحملون مـا تبقى منه. ويصنعـون منه أربعة جدران. «أي جدران وبأي شكل».

الباب عبارة عن جلبـاب قديم. ستـارة وليس بابـاً. معلق من فوق بمسـار أو مسـارين ومثبت من نـاحيـة الأرض بقـالب من الـطوب. والسقف جزء من لوح خشب. أخـذوه من عربـة كارو مهملة. وقليـل من عفش عيدان القصب من أقرب محل عصير قصب. يحمـل هذا كله عامود من الحديد. مأخوذ من أقرب مخزن للسكة الحديـد. خليط بالـغ الغـرابة يكـونون منـه السقف. الـذي يبقى صـامـداً. حتى تـأتي أيـام الشتاء. وخلالها يكتشفون انه ليس سقفاً.

ثم تبدأ متاعب الحياة اليوميـة. في الصبـاح يكتشفون انـه لا توجـد دورة ميـاه لـديهم. يسـألـون عن دورة ميـاه عمـوميـة. فيكتشفـون انقـراضها. لا تـوجد الآن سـوى في ميـداني التحـريـر والعتبـة. وحتى الـدخول إليهـا يتم بموجب مبلغ يـدفع رشـوة للمسئول عن نظافتهـا. يقضـون حاجتهم في الشـوارع. وتصعد الـروائح إلى سكـان البيـوت يطلون من النوافذ والشرفات. يشاهدون منظراً غريباً.

ـ انهم سكان التعديات.

هكذا يقولون في حسرة. وفي الأسفل يبحث سكـان التعديـات عن الماء فلا يجدونه. يطرقون أبواب سكان البيوت. وقد يأتي طرق الأبواب في أوقـات غير منـاسبة. نـوم أو مضاجعـة أو سكر. فيتـأفف أصحاب البيوت وينفخون في الهواء المعطر:

ـ سكان التعديات . .

وان فتحوا الأبواب ورقت قلوبهم. في لحظة حضور إنساني نادر. وسمحوا لهم بالدخول إلى دورة المياه لملء الصفائح. فإن أقدامهم الحافية والملوثة. تلوث البلاط أو القنالتكس أو السجاجيد العجمي المستوردة. وعندما يصرخ أصحاب البيوت. ويحاول سكان التعديات تنظيف ما أفسدوه. فإن التنظيف يفسد أكثر فيصرخون من جديد:

ـ سكان التعديات.

ويتصاعد الغضب. ويتبلور الأمر. على شكل شكوى كبيرة تقدم إلى المحافظة، خوفاً على مال الدولة وهيبة الدولة وموارد الدولة وحفظاً للآداب العامة. والحرمات العامة. وإبقاء على التماسك الأسري والترابط العائلي وتجنيباً للمجتمع من حالة التطاحن والحرب الطبقية. ومنعاً للفلاحين القادمين من ديار الطين والوحل والمياه العكرة. لا بد من اتخاذ اللازم حيالهم.

وتقرأ الشكوى عين تراها من خلال نظارة مستوردة من باريس. وتمتد اليد في جو مكيف وتحت نور سحري لتمسك بقلم سنه من الذهب الخالص. ربما كان رشوة، تمتد اليد لتكتب سطراً واحداً باللون الأحمر «المسئول لعمل اللازم لإزالة التعديات فوراً. والافادة».

والمسئول ضابط عمله: رئيس شرطة المرافق. ومعه قوة من العسكر ولديه بولدوزر يمكنه مسح حي بأكمله في ثوان معدودة. ذات صباح يحضر الضابط على رأس قوة والبولدوزر آلة جهنمية لا تعرف التفاهم. يجلس فوقها سائق يبدو مثل النملة فوق الفيل.

وبدون تفاهم. يبدأ البولدوزر عمله. سكان البيوت يطلون من النوافذ والشرفات. يحضرون أطفالهم الصغار. لكي يتسلوا بمشاهدة المنظر الفريد. والذي قد لا يتكرر. ويشيرون لهم. ويرفع أحد الأطفال يديه يقول بها: باي باي لسائق البولدوزر. ولأن الطفل

جميل. فلا بد وان أمه أكثر جمالاً فالسائق ينشغل في الرد عليه. وفي لحظة الانشغال هذه. قد يرفع آدمياً. فوق اسنان البولدوزر إلى عنان السماء. وقد يموت هذا الآدمي من الرعب والخوف. ويسعد سكان البيوت. ويضحكون. يشيرون بأكبر قدر من السعادة لهذا المنظر السلبي.

وينزلون صواني الشاي والمثلجات لفرقة البلدية. وينزل واحد من السكان. يلبس بيجاما من الحرير الخالص. وفوقها روب من النوع النادر. ويسأل: بعد الإزالة ما هو الموقف من هؤلاء. ويشير إلى مكان التعديات. فيبتسم الضابط ويقول له: ان مهمته هي إزالة التعديات. تلك هي التأشيرة. أما التصرف مع هذه الكائنات:

- تقصد ترحيلهم من هنا؟
- بالضبط.

يشرح الضابط الأمر. وهو يشرب المشروبات المثلجة. والمشروبات الساخنة. ان الأمر الباقي. لا بد ان تقوم به جهات أخرى. في الداخلية. مهمتها القيام بحملات كل فترة من الوقت لجمع المشردين والذين بدون عمل. والذين لا سكن لهم. وترحيلهم إلى بلادهم. لأن الذي بدون سكن وبدون عمل خطر على الأمن العام. وكل المطلوب من السادة سكان البيوت إحاطة القسم علماً بذلك وهو يصعد الأمر. ويقترب شاب من سكان البيوت. شاحب وممصوص الوجه ويسأل الضابط:

- من أنتم؟
وبخيلاء يرد الضابط:
- نحن شرطة المرافق.
ويدور بينهما حوار:

ـ أي مرافق؟

ـ مرافق الدولة.

ومن قبلهما. قال الشاعر العظيم. وتغني الشيخ الذي سيخلد العصر ذكراه. ورددت الملايينْ:

ـ دولة مين؟

ـ دولة مصر . .

ـ مصر العش واللا القصر؟

ولن يبقى السؤال طويلاً بدون إجابة. ويتساءل الشاب الحزين: أي معجزة تنتج عنها حالة الاستمرار المستحيلة هذه؟ وسؤاله الثاني أيضاً لن يبقى بدون إجابة فترة طويلة.

تهنا كثيراً. لنعد إلى الرحلة الثانية. قائد الرحلة عباس الأوسط. قسم الرحلة في ذهنه إلى قسمين. القسم الأول من القبر إلى القلعة. وهو قسم الصعود. لأن الطريق يصعد فيه باستمرار، وهو قسم كئيب وصعب ويجب السير فيه بسرعة حتى ينتهي منه في غمضة عين.

والقسم الثاني عندما يبدأ الهبوط ابتداء من القلعة. وحتى ميدان التحرير. البيوت والمحلات والشارع القديم. حيث البواكي التي شهدت أفراحاً لا حصر لها. بدأ الرحلة وهو يتمنى ان تسفر عن اللقاء بإحدى من ساعدهن في السفر إلى الخارج. منذ ان عمل في شغلانته الغريبة. وهو يتمنى ان يتم اللقاء.

ساعدهن في وقت الشدة. وكان كريماً معهن وعندما يتم اللقاء بعد زوال الشدة مفروض ان يحدث ما يحلم به. الحب والغرام والهيام وكلمات الغزل. ولكن هذا لم يحدث. إنه يتفرس في الوجوه التي يقابلها ويحاول ان يتذكر أي وجه يشاهده. ولكنه لم يلتق بإحداهن. كان يقول

لنفسه يبدو ان من يسافر من هـذه البلاد لا يعـود إليها. صبـاح اليوم. استيقظ الأمل في نفسه. وهو يستعد للرحلة فقال: لعل وعسى.

عباس الأوسط كان يسـير في الشارع وهـو يدرك ان مـا يقوم بـه ربما كان أهم ما في عمره. قد تخرجه الرحلة من أزمة العمل الذي يخاف من الاستمرار فيه. كان يسأل نفسه في الطريق: هل يدرك الناس أهمية مـا يقـوم بـه؟ هـل يعـرفـون رحلة المصير التي تنقله من القبر إلى ميـدان التحرير؟.

نظر إلى العدد القليـل من الناس الـذي صادفـه في الطريق. لم يبـد عليهم الاهتمام بأمره. نظر إلى السماء. وجد يداً ممدودة وعليهـا منديـل في لون القطن الأبيض. أجمل بياض رآه في حيـاته حتى هـذه اللحظة. وقف مكانه. ووقف الركب الذي كان يسير معـه لتوقفـه. نظر إلى اليـد المعلقة في الهواء تبحث عن اليد الأخرى. والمنديل الذي يغطيها. تذكر عمله. حـاول ان يحصي: كم مرة امتـدت يده وأمسكت بيـد من هـذه الأيادي؟

فترة طويلة مرت وهو في هذا العمل. كل علاقتـه مع النسـاء اللاتي يساعدهن لا تتعدى تلامس الأيادي. حاول تذكر رد فعـل اليد البضـة والخـاليـة من العـظم. كيف كـان يصله الإحسـاس بنعـومـة الجسـد. أصـابعه تحـاول العثور عـلى بعض منابت الشعـر في ظهر اليـد. ولكن اللحظة لم تكن تطول. ولا تسمـح له بمـزيد من التحسس والبحث عن أماكن الليونة ومنابت الشعر في هذه الأيادي. بعض الأيادي كـانت من شدة نعومتها تدفعه إلى تساؤل غريب: إذا كانت اليد بهذه النعومة. فما هي درجة النعومة في الأجزاء الأخرى من الجسم.

إستمر في وقفته ينظر. اكتشف ان اليد الممـدودة المغطاة. هي جـزء من سحابة تتحرك في بطء في سماء القاهرة الخريفية الصافية. السحـابة

قادمة من ديار الغنى والشبع وتتحرك في بطء. ناحية المنطقة التي تركوها. شعر بشيء من التشاؤم. تساءل: لماذا يحدث العكس في اتجاه المسير. لماذا لم تسر السحابة البيضاء في نفس الاتجاه الذي يسيرون فيه.

فكر في الرجوع والسير في نفس الاتجاه. مع السحابة البيضاء. شعر انها تناديه إلى العمل. تطلب منه العودة. تنازعه موقفان. هل يكمل المسيرة. أم يعود ويتخلى عن حلم الاستقرار والشقة المستقلة له هو وزوجته وأولاده. حيث يعيشون بصورة آدمية لأول مرة في حياتهم.

لقد صبر. استمر مع هذه العائلة طوال فترة العذاب والحياة في القبر؟ أما الآن. حيث يبدو الكل على مشارف الأمل. هل يتركهم؟ وراء سحابة لا يعرف صدفة ظهورها في سماء رحلته؟ قال لنفسه: انها مجرد ظنون وأوهام لا أساس لها. ازداد تردده عندما عجز عن حسم الأمر وجد ان الزوجة تحركت إلى الأمام فسار معها. وان كان نظره لا يزال معلقاً بهذه السحابة.

وصل إلى ميدان العتبة. أكمل في خاطره «العتبة الخضراء» بحثت عيناه عن اللون الأخضر فلم يجده. توجد أشجار ولكن أوراقها رصاصية اللون. تقترب من اللون الرمادي. لا خضرة فيه. تبدو مغطاة بطبقة من التراب والغبار والدخان الأسود. وفي محاولة للتقليل من مهابة اللون الرمادي. طليت جذوع الأشجار بلون أبيض جيري. يبدو مثل الجرب.

في الناحية الأخرى يطل اللون الأحمر من مبنى المطافي الضخم. في الأرض يتلوى الحديد في كافة الاتجاهات. الشوارع اسفلتية وكميات من الدخان والغبار تبدو معلقة في الجو ساكنة. تسد الفراغات والمساحات بين كل مبنى وآخر. وبينْ كل شخص وآخر.

شعر بأن المرئيات التي أمامه تسبب له حالة من الألم. وان لم يدرك

السبب في الألم. ضغط الأشياء. طبيعة الألوان ما يصل إلى أنفه من الأتربة. الجوع الذي يبدأ يعضه. سار سيلف مع استدارة الميدان حتى الناحية الأخرى.

شعر برغبة في التبول. ها هو الخريف وبعده الشتاء. وتطارده في الشوارع الرغبة الحارقة في التبول. يشعر انه على وشك الانفجار الداخلي. تذكر انه يوجد مرحاض عمومي هنا. في ميدان العتبة. لم تتم إزالته مثل باقي المراحيض العمومية التي خلت منها العاصمة. وان وجدت فهي مستودعات لتخمر البول والبراز البشري التي تولد روائح لا يطيقها الإنسان.

على باب المراحيض وجد شخصاً يلبس الملابس الكاكي من مخلفات الجيش حجمه وملابسه ووقفته تعطيك انطباعاً انه فتوة وليس عامل نظافة أو حارساً لدورة مياه عمومية. يقف ويده تسد الباب. يد غليظة مثل العصا. وقف عباس الأوسط أمام اليد التي كانت تبدو في مواجهة وجهه. اقترب أكثر من اليد. ولكن اليد لم ترفع. همس بصوت منخفض:

ـ تسمح حضرتك.

اليد لم تتحرك. طلب منه الرجل ان يدفع قبل الدخول. ضحك في سره. حتى التبول تدفع له الرسوم. ضغط البول عليه جعله يمد يده في جيبه. القروش كانت قليلة. وقد لا تكفي الطعام وكوب شاي وسيجارة واحدة. ليتصرف في الأمر بطريقة أو بأخرى.

لديه إحساس ان إحدى من ساعدهن وقت الضيق. ستقابله في شارع عبد الخالق ثروت. وستعزمه مع الأولاد في جروبي، الأكل والشرب والكاتوهات والسجائر المستوردة والكبريت المستورد سيسد عين الشمس.

فكر في توفير المبلغ الذي يطلبه الفتوة ولكن المنطقة تخلو من الأرض الخلاء. أو الخرابات المهجورة. بالقرب موقف سيارات. يمكنه ان يتخلص من بوله خلف إحداها. نظر بعينيه للداخل. رأى أربعة مراحيض. وأمام كل مرحاض طابور من البشر. كل واحد يقف على أتم استعداد للحظة التبول. حتى يأتي دوره. وقد هيأ نفسه وفك ملابسه.

شعر بحنين لخلاء القبور. الذي كان يبدو أنظف وأكثر إنسانية من المراحيض القذرة. تساءل: كيف يتبول الناس في هذه الظروف غير الإنسانية؟ هبت عليه في وقفته رائحة اختمار البول فوصلته قوية. الطابور خلفه طال وكلمات التذمر انطلقت من الواقفين. وبدا الموقف غير محتمل. ولا بد من تصرف.

قبل ان تمتد له يد الفتوة لتحمله بعيداً عن الطابور. أتاه صوت ميكرفون يؤذن للصلاة. أنقذ الموقف في اللحظة الأخيرة. ميكرفون وآذان للصلاة. إذن هنا مسجد قريب. يمكنه دخول المسجد من الباب الخلفي المخصص للميضة. وهناك يتبول ويذهب إلى مكان الوضوء. لكي يغتسل ثم يخرج. لن يلاحظ أحد خروجه بدون صلاة.

ترك الطابور وشيعه الفتوة ببصقة ضخمة وصل رذاذها إلى قفاه وشعر به. سمع كلمات سخرية واستهزاء من الواقفين في الطابور. رجل طول بعرض ولا يوجد معه خمسة قروش يدفعها ليدخل. وقف بالقرب من الطابور في انتظار ان ينطلق صوت الميكرفون من جديد. حتى يعرف مكانه ويتجه إليه. لم يطل الانتظار. وانطلق الصوت فعرف مصدره. تمنى في سره ان يكون للمسجد باب خلفي لا يقف عليه شخص آخر يطلب منه مبلغاً نظير الدخول. ومبلغاً نظير حفظ الحذاء عنده.

عند المسجد وجد الباب ولم يجد من يقف به ففـرح. بعد عـودته من المسجد بدا خفيفاً ونظيفـاً وسعيداً. ذهب إلى المكـان الذي أجلس فيـه العائلة. بعد ان أوصى زوجته ان لا يغيب عن نظرهـا أي من الأولاد. حتى لا يتوه أحد وسبب التحذير انه بدخـول الرحلة الثـانية إلى ميـدان العتبـة. تكون الـرحلة قد دخلت إلى الازدحـام. الذي يسـاوي زحام الأيام العادية.

انتهى السير في الشوارع الخالية. رغم ان اليوم جمعة. إلا ان الزحام يصـل إلى ذروته. العتبـة هي المدخـل الطبيعي للمـوسكي. الكـل في إجازة. ويحضر لشراء ما يريده بأرخص الأسعار، عندما شـاهد عبـاس الأوسط حـالة الـزحام. خشي ان يتـوه أحد الأولاد. ربمـا كـانت المرة الأولى التي يتواجد الأطفال فيها في زحام بشري بهذه الصورة.

الأولاد كائنات شقية. ولو تـاه أحد منهم هنـا. لضاع معنى الـرحلة والعمر كله. الزوجة كانت تجلس وحولها الأولاد. أحصاهم بعينيه تـأكد ان الكل موجود استراحت نفسه. بعد الراحة أتى تعب من نوع جديد. تدبير الطعام لهؤلاء. الباقي من الرحلة. جـزء يسكن فيه الأغنيـاء. لا يصلح سـوى للفرجـة ان لم يتناولـوا طعام الغـداء هنا. فلن يـأكلوا في يـومهم. ربما أجـل الأمر إلى مـا بعـد الميـدان. ومن يـدري حتى ينتهي الأمر.

اتجه تفكيره للبحث عن أرخص طعام. يملأ البطن أكبر مـدة ممكنة. طعام يدفعهم بعد تناوله لشراب أكبر كمية من المياه. تجعلهم لا يطلبون طعاماً آخر لفترة طويلة. يتمنى ان تستمر حتى صباح الغد.

الحديث عن الطعـام في مدينـة وزمن القرش أولاً. والقـرش ثانيـاً. والقرش ثالثاً وأخيراً يدفع المؤلف للحـديث عن أمر كـان من المفروض ان يتحدث عنه في بداية الرحلة. وهو الموقف المالي للرحلة.

سيترك المؤلف عباس الأوسط في وقفته في ميدان العتبة. في محطة الأتوبيسات. الأولاد والزوجة حوله. وهو يفكر في الطعام. ويقارن بين طعام وآخر. الاعتبارات التي تحكم مقارناته ليست جودة نوع وعدم جودة آخر. ولكن ما يحكمه رخص الأسعار والشبع والانتظار بعد الأكل أكبر وقت ممكن. وسيعود المؤلف إليه بعد قليل.

يحدد المؤلف نفسه، يقصد بالموقف المالي. ما جرى يوم الرحلة. والمؤلف قبل الدخول في هذا الموضوع يعترف انه كان يجب رصده في الرحلة الأولى.

في صباح اليوم. وبعد رسم خطة سير كل جماعة والمسئولين عنها. وطريقة السير نزل على الكل صمت غريب. بدأ الكل يجد حرجاً في الحديث في أكثر الموضوعات حرجاً وهو الأموال. فكر البعض في تقسيم كل ما مع العائلة. من يضمن ان تلتقي الوجوه؟ الخجل منعهم من قول هذا الكلام بصراحته القاسية. والمليونير فاجأهم بقرار ان الست الكبيرة ستبقى في البيت. اذن ضاعت فكرة التقسيم ولن يوزع المليونير سوى تكاليف يوم الرحلة. الإفطار والغداء والعشاء. والنثريات: ومبلغ احتياطي لمواجهة أي موقف طارىء لم يحسبوا له حساباً.

أخذ المليونير الست الكبيرة إلى الداخل. فتحا صحارة صغيرة. الكلام بينهما كان همساً. تعجب الآخرون. منذ متى توجد أسرار في هذا البيت؟ الصندوق فيه تحويشة العمر. التي لا يعرف مقدارها ولا مكان حفظها أحد.

أثناء وجود المليونير والست الكبيرة في الداخل. كانت عينا المليونير على مدخل الغرفة. خوفاً من دخول أحد عليهما ومعرفة المستور من أمور العائلة. خرج. وفي يده صرة. قال انه أحضر مدخرات العائلة. المبلغ الذي اجتهد السنوات السابقة في ادخاره لمواجهة هذه اللحظة

الحرجة من يدري؟ ربما كان في مستقبل العائلة مواقف أكثر صعوبة. في الأيام القادمة.

كان يجب ترك المبلغ لمثل هذه المواقف. ولكنه سيدفع لهم. حتى لا يكون هناك مبرر لأحد. في عدم الوصول إلى ميدان التحرير. كان المليونير يفكر ان يكلف كل واحد بالاستمرار في الرحلة. مع محاولة الحصول على مصاريفها بعمل أو آخر يقوم به خلال الرحلة. ولكنه يخشى ان يتحول العمل الاضافي إلى شماعة يعلقون عليها فشلهم في الوصول إلى الميدان قبل الوقت المحدد. وليكن معلوماً للكل. انه لا يوجد مليم واحد من المدخرات في البيت بعد اليوم. قال أكثر من واحد في سره:

ـ العب غيرها يا زعيم العائلة.

تساءل الأستاذ. منذ متى والصدق عملة متداولة في حياتنا اليومية؟ الشعار المعروف في حياة العائلة: الكذب. غذاء كل يوم. الكل يكذب على الكل. وما دام الزعيم أمهر وأكبر الكذابين. فلا لوم على أحد. ينافس المليونير في الكذب «إمرأة العزيز» أو الست الكبيرة. أسهل الأمور هنا هي الكذب.

وزع المليونير الأموال، على الأسرة بالصورة التالية:
التوزيع:

٨٢٠ [فقط ثمانمائة وعشرون مليماً].

للمليونير. [لم يصدق أحد في العائلة ان المليونير أخذ هذا المبلغ الصغير. وقال البعض ان المطلوب هو وضع واحد على يمين الرقم. ولكن البعض الآخر قال انه متواضع. والمطلوب وضع صفر على شمال الرقم. والبعض الآخر قال أكثر من صفر واحد].

٦,٣٢٥ [ستة جنيهات وثلاثمائة وخمسة وعشرون مليماً].
للست الكبيرة.

لم يصدق أحد أيضاً. واعترض البعض. وقال انه لا يجب انفاق المبلغ كله. ذلك خطأ لا بد من وجود مبلغ للغد المجهول رد البعض بأن المدخر موجود. والأوراق الخضراء ذات الرائحة المحببة تملأ الصندوق. ولكن ما يقال لزوم التمثيل. وإيهام الكل ان العائلة على شفا الإفلاس. وتمنى الأستاذ ان يكون الكلام سلبياً.

١,١١٨ [جنيه واحد ومائة وثمانية عشر مليماً].
للجماعة الأولى بدون المليونير. وطالب كل منهما بتقسيم المبلغ بينهما. لأن لكل منهما ظروفه الخاصة التي لا تتفق مع الآخر. ولهذا لن يسيرا معاً. وتم تنفيذ ذلك.

١,٩٨٠ [جنيه واحد وتسعمائة وثمانين مليماً].
للجماعة الثانية وتسلم للقائد وهو الذي ينفق على الرحلة. عباس الأوسط أخذ النقود ولكن زوجته لم تكن مستريحة ولم يبد عليها الاطمئنان لمثل هذا التصرف وكانت تخشى تبديد المبلغ في أمور أخرى. ولكنها آثرت السلامة ولم تنطق.

١,٧٥٠ [جنيه واحد وسبعمائة وخمسون مليماً].
الجماعة الثالثة والأخيرة. وأخذت المبلغ ملكة الجمال. بناء على تنازل الدليل المتنقل عن هذا لزوجته.

تساءل الأستاذ ساخراً: هل معنى هذا انها هي التي ستقود الرحلة، بدلاً من الزوج. وتعجب من أحوال هذا الزمان.

* * *

تكلم المليونير. قال انه بالنسبة لمن رفضوا السير معه. كان

المفروض ان يأخذ منهم موقفا عنيفاً. لأن عدم سفرهم معه في هذه الرحلة. يعد أول انشقاق في حياة العائلة. وهو أكبر شؤم يدخل حياة العائلة. البعض منهم يقول ان القرار فردي. ولم يعلم به أحد من قبل. وقرار مصيري مثل هذا كان يجب مناقشته قبل اتخاذه وليس مجرد العلم به. القرار يمس صميم حياة العائلة الشخصية. وان كان من الصعب العلم به ومناقشته مع كل أفراد العائلة. فلا أقل من معرفة ٧٠٪ منهم.

والمليونير يرد على هذا الكلام التافه والجاهل والأحمق. يقول انه لو استشار أحداً. لما وصلوا إلى أي قرار. من قال ان العائلة سبق واتفقت في أمر؟ هل حدث هذا من قبل؟ هل اتفقوا في أتفه الأمور؟ توجه بالسؤال إلى إمرأة العزيز: هل تأخذ رأي أحد منهم في الطبخة اليومية؟ أجابت بالنفي.

قال ان السبب هو تأكدها من عدم الاتفاق. لقد جنبهم الحرج والإحساس بالمسئولية. وقال ان دوره كرب للعائلة ان يتخذ القرار. وان يتحمل مسئولية الفشل والنجاح معاً. ضحى بنفسه وبسعادته وراحته من أجل المجموع، وضع حياته على كفه و أخذ القرار. انه شمعة تحترق لكي تضيء للآخرين. ومع هذا فهو يقول. ان فشلت المهمة فهو المسئول عن الفشل. أما النجاح فيطلب حسابه للكل. وذلك أكبر قدر من انكار الذات. الذي يمارسه المليونير مع العائلة منذ ان أتت إلى الدنيا.

يعود في حديثه إلى الذين رفضوا السير معه. لقد فكر في الموقف منهم. الآن وفي الغد القريب والغد البعيد. فهو يتناول أمور الحياة بأسلوب علمي. على الرغم من انهم رفضوا بدون تفكير. قبل ان يناقشوا الخطة ويحاولوا رؤية الغد بعد هذه الرحلة وهو يفهم السبب في

هذا. ان رفضهم إنما تم تنفيذاً لتعليمات صادرة لهم من الخارج. انهم عملاء. ورغم العمالة فهم أبناؤه. ولهذا لن يناقش الأمر بطريقتهم.

يقول انه فكر وعكف على دراسة الوضع ووصل إلى قرارات. توصل إليها لأنه ملهم بطبعه. وما يصل إليه لا بد وان يكون صواباً وهذه هي قراراته.

أولاً: لن يعطي الأبناء نقوداً للصرف لأنهم لن يقوموا بالرحلة معهم. وهذا ليس معناه الحرمان من ميزة ما. ولكن معناه ان من ضحى من أجل مستقبل الأسرة من حقه الحصول على مقابل لتلك التضحية. أما هم. فالمنزل تحت أمرهم وإلى ما بعد الرحلة يعودون إليه في أي وقت. وقد طلب من الست الكبيرة ان تعدهم أبناء الأسرة رغم الموقف. العارض الذي جرى منهم. من حقهم الوجود في البيت. وسيظل هذا الحق لهم لحين وصول العائلة إلى بر الأمان.

وبعد الوصول. من يريد ان ينضم إلى العائلة في عصر الراحة والرخاء. والحب القادم. سيكون الباب مفتوحاً. يعود إلى صوابه في أي وقت يشاء. سواء في القبر أو في المستقبل المشرق وسيكون ضمن مطالبه من المسئولين بعد نجاح العملية. ان يخصص لكل منهم سكن خاص. وسيكون للذين رفضوا قبل الذين قرروا السير معه. رغم انه ليس من حقه الكلام باسم من رفضوا السير معه. ولكنه سيتغاضى عن هذه النقطة. لأن ما يهمه هو الجوهر وليس الشكل. الذين يهتمون بالشكل هم جهلاء هذا العصر. وهو رجل يعيش روح العصر. ويضع بين يديه آخر إنجازات العصر.

بعد الخطبة. نظر المليونير إلى معسكر الرافضين للرحلة. انه مستعد بعد ما جرى ان يسمع أي كلام منهم. وسيرد على الكلام وعندما وجد ان الصمت هو الإجابة الوحيدة. قرر ان الأمر انتهى ولن يكون فيه

كلام آخر سوى بعد الوصول إلى بر الأمان.

يعود المؤلف إلى عباس الأوسط في ميدان العتبة. وحيرة التفكير في أمر الغداء. الوجبة التي من المفروض ان تحل مكان الوجبات الثلاث: الإفطار. والغداء والعشاء. مع الانتظار لحين الخروج من الأزمة. استبعد عباس الأوسط بعض الأغذية الشعبية: مثل لحمة الرأس. الفتة. والكوارع، الخضار بدون لحم. فكر في الفول والطعمية. صحيح انهما مسمار البطن. ويبقيان أكبر فترة من الوقت. ولكنه استبعدهما. والسبب ان أسعارهما زادت في الفترة الأخيرة.

المحلات لا تبيع الفول في أصغر طبق ممكن بأقل من خمسة قروش. لو ذهبت لأي محل فول وطلبت منه بأربعة قروش لصرفك البائع. كل سلعة لها حدها الأدنى. والحد الأدنى للفول خمسة قروش.

قرص الطعمية الذي كان ثمنه خمسة مليمات في العام الماضي. نفس القرص ثمنه عشرة مليمات هذا العام. وطعمية هذه الأيام لها ميزة واحدة. انها لا تصنع من الفول. ولكن من بقايا الخبز والبصل والكرات وقليل من الفول المسوس. الخبز المصنوعة منه الطعمية بمجرد ان يستريح داخل البطن ويشرب الإنسان قليلاً من الماء عليه حتى ينفش ويتمدد ويحتل أكبر مساحة من البطن. وهذا هو المطلوب ولكن ارتفاع أسعار الطعمية جعله يستبعدها.

هناك مشكلة أخرى. وهي عدم وجود الأطباق. من المستحيل دخول أحد المطاعم. لأن ما يقدم فيها عينات. والأسعار بداخلها أغلى. ولن يسمح له صاحب المطعم بأخذ الأطباق إلى خارج المطعم. لأن هذا يؤثر على مستوى المطعم. ويجعل الإقبال على الأكل في المطعم محدوداً.

نظر إلى الميدان. عربة أكل في آخر شارع فؤاد من ناحية العتبة.

وأمام باب مسرح العرائس. انقذت الموقف. اندفع نحوها. فوقها خبز شمسي. مخبوز على طريقة صعيد مصر. وجبن قريش وجبنة قديمة ومش وطماطم وفلفل أخضر وبصل أخضر. وجرى خلفه الأولاد وزوجته. ولكنه توقف. عندما اقترب من العربة شاهد بيضاً مسلوقاً. يزين الحوافي. لو شاهد الأولاد البيض لتحول اليوم إلى نكد مستمر. البيضة المسلوقة ثمنها عشرة قروش. يعني لو أخذ هو بيضة وكل طفل نصف بيضة. لما وجد من المال ما يكفي لهذا الترف. الحل ان يبقى الأولاد بعيداً ويذهب هو إلى العربة بمفرده. وبهذا يضمن ان لا يشاهد أحد البيض.

جلست الزوجة والأولاد على الرصيف. وذهب هو إلى العربة. أفهم البائع ان معه الجماعة. وأشار إلى زوجته. التي تجلس على مسافة من العربة. وطلب أنجراً كبيراً فيه خلطة تكفي العائلة. فيها جبنة قريش وجبن قديم ومش وطحينة وطماطم مقطعة. ويأخذ معه الخبز والبصل الأخضر والفلفل الأخضر. وكوب كبير فيه ماء. رفض البائع ان يعطيه الأطباق. ليحضروا إلى هنا ويأكلوا على حوافي العربة.

بعد أخذ وعطاء وكلام كثير. وافق بشرط ان يحصل على رهن الأطباق والكوب. خوفاً من عدم إعادتها. أولاد الحرام عملوها فيه أكثر من مرة وكل أسبوع يشتري بدلاً من الأكواب والأطباق التي سرقت منه. عرض عليه عباس الأوسط بطاقته كرهن. ضحك البائع. وقال ان لديه آلاف البطاقات رهناً. ولكن ماذا يفعل بها؟ وهل تنفعه؟ يبدو ان كل من يقدمون البطاقات كرهن. لا تكون البطاقات خاصة بهم. بل سرقوها. لمهمة الضحك عليه. وبعد الضحك عليه. هل يعقل ان يجري وراء طبق أو كوب شهراً. وقد تكون البطاقة مسروقة.

الـحل رهن مالي. أعطاه عباس الأوسط الجنيه. وطلب الأكل.

وقال ان الحساب في النهاية. حمل الأنجر وذهب إلى مكان زوجته. وعاد وأخذ الخبز والمياه. حاول أحد الأطفال مشاركته في الحمل. بدلاً من الذهاب إلى مكان العربة والعودة أكثر من مرة. كان رفض عباس الأوسط حاسماً. خوفاً من رؤية البيض. وان كان يتصور ان الأطفال لا يعرفون شكله لندرة مشاهدتهم للبيض في حياتهم.

رغم تفاهة الطعام. إلا ان مذاقه كان حلواً. أتى بعد جوع وهناك تغيير في نوعه. وفي المكان. الذي أدهش عباس الأوسط بصورة مفزعة. كان الثمن. أخذ صاحب العربة الأطباق التي لم يغسلها. لأنها كانت تلمع من كثرة لحس ما فيها بالخبز والأيادي والألسنة. أعطاه الباقي. كان نصف جنيه. حاول ان يخفض ثمن الأكل. ذلك كان مستحيلاً. كاد الأمر أن يصل إلى معركة. الواقفون حول العربة أكدوا ان عباس أخطأ. لأنه كان يجب عليه الاتفاق أولاً. على الثمن. أما الكلام في الأسعار بعد الأكل فهو نوع من الرزالة المعروفة.

أحضر صاحب العربة طبقاً نظيفاً. وضع فيه النصف جنيه. وقدمه لعباس الأوسط على الطبق. مثلما يفعل الجرسونات في المحلات الراقية. مد عباس الأوسط يـــده. أخذ نصف الجنيه. كان ملوثاً بالزيت والجبن والمش. فكر في الاعتراض على أخذه لأنه ملون. وملوث. والجنيه الذي دفعه كان نظيفاً. ولكنه خشي عواقب الرفض. خاف ان تقوم معركة تسرق خلالها القروش الباقية معه. كل الواقفين حول العربة زبائن دائمون للرجل. وسيقفون معه. انه الآن في أرض ليست أرضه. واللعب فوق ملاعب غريبة بدون جمهور يصبح نوعاً من استكشاف المجهول في وقت غير مناسب.

أخذ النقود. وبعد ان استراح. واستراحت الأكلة في البطون استأنف سيره.

الجماعة الثالثة.
يقودها: الدليل المتنقل.
نائب القائد: ملكة الجمال زوجته.
باقي الجماعة: إبناهما: الشبعان والغني.
الطريق:

صلاح سالم. [طريق أصحاب السيارات ومقبرة المشاة] السيدة عائشة. زينهم. المقابر. مجرى العيون. المدبح. الدخول عن طريق شارع قصر العيني. آخر الطريق بجوار مسجد عمر مكرم. مكان سرادقات العزاء. وان كان هناك عزاء يصبح الوقوف مكان انتظار السيارات. ويمكن الوقوف فيه لأن اليوم يوم جمعة. والوقوف يقل عن الأيام الأخرى.

* * *

هذه أطول رحلة بين الرحلات. وجزء كبير من الرحلة يتم في الخلاء. ولهذا شعر قائد الرحلة بالضيق. كان يود ان تكون الرحلة في المنطقة التي يسميها وسط البلد. يقول انه سمك ووسط البلد هو البحر الذي يعيش فيه. وان خرج منه مات. الأوقات التي يقضيها بعيداً عن وسط البلد يعيشها بتنفس صناعي. اعترض على الطريق المخصص له. طلب إجراء تعديل. أو تبديل بينه وبين أي مجموعة أخرى. ولأن الطلب جاء متأخراً والمليونير لا يحب التراجع في قرار اتخذه. طلب منه السير في الإتجاه المقرر حتى قصر العيني. وبعده من حقه إجراء بعض التعديلات على طريقه. بشرط ان تؤدي إلى ميدان التحرير.

وهكذا قرر الدليل المتنقل ان يمشي في طريقه المرسوم له حتى قصر العيني. ثم يدخل إلى السيدة زينب فميدان لاظوغلي. عابدين. باب اللوق. شارع البستان. حتى نقطة التقاء البستان بالتحرير وافق

المليونير على التعديل. لأنه ما دام الطريق يؤدي إلى ميدان التحرير. ليس مهماً إجراء تعديل بسيط. ما كان أحد يتصور ان هذا التعديل. سيؤدي لخسارة للعائلة مثل ضياع الدليل المتنقل. ولكن هذا ما حدث وانتهى الأمر. بدأت الرحلة بجزء خلوي. طريق واسع وعريض. لا توجد بيوت حوله. من الجانبين سيارات. سيارات. سيارات. تجري في الناحيتين، يهبط الطريق ويصعد.

الدليل المتنقل تحمل الأمر ما دام قد أجرى تعديلاً في الرحلة. لم يفتح جهاز التسجيل الذي كان معه. والذي وضعه في جزء خفي من ملابسه. قال ان الشريط سيدور على الفاضي في هذه المساحات الواسعة من الصمت. الرحلة طويلة وقد تحتاج لهذا الشريط أكثر مما يتصور. لن يديره سوى في الأماكن الهامة. اقترب الوفد من السيدة عائشة لم يكن الكبري العلوي قد بني بعد. الميدان يبدو بشكله القديم. في اللحظة التي وصل فيها الوفد إلى الميدان كان أذان صلاة الجمعة يملأ الأجواء. منبعثاً من أكثر من ميكرفون.

فكر الدليل المتنقل: لماذا لا يصلي اليوم؟ انه لا يذكر آخر مرة دخل فيها مسجداً. وتلك حكاية غريبة في حياته. لماذا لا يخرج على هذه القاعدة ويصلي اليوم. نظر إلى باقي أفراد الرحلة. وطلب منهم الجلوس بجوار كشك لبيع السمك. حتى يذهب إلى المسجد ويصلي الجمعة حاضرة ويعود.

سعدت ملكة الجمال بهذا التطور في حياة الدليل المتنقل. تفاءلت خيراً. مجرد تفكيره في الصلاة أمر حسن. قالت: اللهم اجعله خيراً وعلامة السعد لنا جميعاً. جلسوا. نظر الدليل المتنقل حوله. ليعرف علامات المكان. حتى لا يتوه أثناء العودة لهم. حفظ العلامات في ذهنه.

كانت أوضح علامة هي كشك بيع السمك. كشك صغير مطلي باللون الأزرق. بالقرب من الأرض أزرق غامق. وكلما ارتفع الكشك. قل اللون الأزرق. ليصبح فاتحاً قريباً من لون السماء.

السمك والسماء. هكذا فكر الدليل المتنقل. هل هي صدفة: أم ان الأمر مقصود.؟ هل يريد من كلامه بهذا الشكل ان يربط بين السمك والسماء؟ الكشك صغير. ومع هذا فالطوابير أمامه تسد المكان كله. طابور للنساء وطابور للرجال وطابور ثالث للصبية والأطفال. بدلاً من اندساسهم في هذا الطابور أو ذاك. والتسبب في مزيد من المشاكل.

لحظة مروره أمام الكشك. كانت هناك بقايا معركة بين البائع والطوابير الثلاثة. التي لا يرى الإنسان سوى مقدماتها. أما النهايات فتلك مسألة لا يعلمها إلا الله. لا تستطيع العين رؤية آخر الطابور. لأن الواقفين يحافظون على شكل الطابور في المسافة القريبة من الكشك. وبعد هذه المسافة فإنه يتلوى ويتعرج بصورة تجعل متابعته أمراً صعباً. البائع يقول انه سيغلق الكشك ليصلي. ثم يعود لاستئناف البيع. ولن يبيع بعد عودته إلا إذا استمرت الطوابير الثلاثة في الانتظام الموجودة عليه الآن.

نظر إلى الطوابير الثلاثة. وقال انه يحاول تذكر بعض العلامات فيها. حتى يدرك أي حالة من عدم الانتظام أو الفوضى قد تحدث في غيابه. وقد أعذر من أنذر. ارتفع صوت من الطابور. يقول ان العمل عبادة. هكذا قال الإسلام والبائع يمكنه صلاة الجمعة ظهراً في أي مكان وفي أي وقت. والمهم ان يبيع لهم. لأنهم أمامهم وقت طويل. حتى يذهب كل منهم إلى بيته. وينظف السمك. ويبحث عن الزيت عند أحد الجيران. كوب سلف حتى أول الشهر. أو حتى ظهور الزيت في أقرب جمعية أي التاريخين أقرب. وقد يجد الزيت في طريق عودته.

في جمعية أخرى. لأن الزيت لا يباع سوى في الجمعيات. وهذا معناه طابور جديد. ووقوف. وإهانات وشتائم. ونظام يضعه البائع هناك. وبعد الزيت تبقى مشكلة الدقيق. كل منهم لا يوجد في بيته دقيق. ونفس الحل الذي اتبع مع الزيت يحدث أيضاً في حالة الدقيق. إما أن يدور على البيوت لسلف قليلاً منه. أو أن يبحث عنه. وللأسف فإن الدقيق لا يباع سوى في الجمعيات أيضاً. والعلم عند الله أين يوجد ومتى يظهر وفي أي جمعية. وان وجد لا يعرف أحد مدى طول الطابور في الجميعة.

رد البائع على المتكلم. وقال ان حديثه كله كفر. من يساوي بين صلاة الجمعة حاضرة وصلاة الظهر كافر. يضاف إلى هذا انه من حقه الحصول على راحة وقت الظهر لتناول الغداء. المهم ان يعمل ثماني ساعات في اليوم. ليس مهماً ان تكون متصلة أو منفصلة أو على مراحل وحلقات. وهو مستعد للحساب. ولو حاسبهم بالواحدة سيكتشف انه من حقه أغلاق الكشك من الآن وحتى الصباح.

لقد ذهب إلى الادارة في السادسة صباحاً. وتسلم السمك وحضر به ونحن الآن في الثانية عشرة ظهراً. أي انه باقي ساعتان ويغلق الكشك. ومع هذا فهو لا يتعامل مع الناس بالصورة التي يستحقونها. إنه ذاهب الآن للصلاة. وبعد عبادة الله. سيتناول طعام الغداء إنه بشر، بالقرب من الكشك توجد ابنة عمه. من لحمه ودمه. سيتغدى عندها. ويشرب الشاي. لأن بيته بعيد. يركب له ثلاث مواصلات في الذهاب. وثلاث مواصلات في العودة.

بعد الأكل من المفروض ان يأخذ تعسيله سريعة. فهي ابنة عمه. وقد رضع عليها ورضعت عليه. فهما محرمان على بعضهما. وزوجها يعرف ذلك. ولكنه إشفاقاً على الجماهير. وتيسيراً على الجماهير. وخدمة

للجماهير. لن ينام. سيعود بعد ساعتين من الآن. أي في الثانية بعد الظهر. وبحساب الساعات مفروض ان يعمل من الثانية حتى الرابعة بعد الظهر. ولكنه لن يغلق الكشك إلا بعد الانتهاء من بيع آخر سمكة من الموجود في الكشك خدمة للجماهير الكادحة. فمن حق كل مواطن في هذا البلد الحصول على سمكة. وذلك ابسط حقوق المواطنين.

هاج الواقفون. وانطلقت الجمل منهم. البائع لم يهتم بأي كلام قالوه. خرج من الكشك. وأغلقه بهدوء قاتل ومشى. تراهن الواقفون ان كان البائع ذاهباً إلى المسجد. والحكاية ببساطة ان الجزء الأكبر من السمك. الذي أحضره إلى الجمعية في العاشرة صباحاً. تم تسريبه من باب خلفي في الكشك. لحظة التسريب. كان الكل يقف في الطوابير الثلاثة. البائع كان قد نبه لضرورة الوقوف. وأغلب الواقفين خشي ان ترك مكانه. ان يعود ليجده قد اختفى.

بدأ الهمس عن الباب الخلفي. وتهريب السمك. كل من سمع الكلام تصور ان الأمر خدعة. الهدف منها ابعاده عن مكانه المميز في الطابور. خاصة وان الكلام قيل من شخص يقف في آخر الطابور. وليس أمامه.

يكمل الصوت: ان السمك اشتراه تاجر السمك. صاحب المحل القريب. سيغسله ويبيعه على انه سمك بلدي أخذ كيلو البلطي بـ ١٨ قرشاً. وبعد الغسيل ووضع الثلج عليه يبيعه بـ ٨٠ قرشاً للكيلو. والبائع ذاهب لاقتسام المكاسب مع التاجر.. ومثل هذا البائع لا يستطيع دخول بيت الله.

قال آخر ان ابنة العم المزعومة. ليست سوى عشيقة هذه الأيام. البائع. يغير العشيقة كلما نقل إلى كشك في منطقة جديدة. حضرت

إليه في الصباح. أخذت كميات السمك المطلوبة. لعمل وجبة الغداء لها وللبائع. وعمل وجبة أخرى للعشاء لزوجها ولأولادها. والأقارب والأهل والجيران. يذهب البائع ظهراً لتناول الغداء. والذي منه. والزوج والأولاد ذهبوا لصلاة الجمعة. بناء على طلب الزوجة. وإلحاح على الزوج بضرورة ان يذهب الكل إلى الصلاة. حتى تحل البركة في البيت.

وبعد صلاة الجمعة يذهبون إلى السوق الكبير لشراء الشطة والكمون والبصل الأخضر والجرجير الأخضر والليمون والطرشي البلدي ودقته الحمراء التي تسمى «ويسكي الفقراء». مع انهم سكارى بدون خمر. والبحث عن الطحينة التي لم يعد لها وجود. التحويجة لزوم أكلة السمك.

لن يعودوا إلى البيت إلا بعد ان يكون البائع المحترم قد أكل وشبع وشرب الشاي ودخن سيجارة ما بعد أكلة السمك. والذي منه.

قال آخر: ان السمك الذي تأخذه العشيقة يوفره البائع من الميزان طوال اليوم. لا يكلفه مليماً. اقترح الواقفون. ان يذهب واحد منهم ليتأكد من حكاية الصلاة. خاف كل واحد على مكانه. وتصور ان الأمر مكيدة للحصول على مكانه المميز. اقترب منهم الدليل المتنقل. الذي سمع كل ما قيل. وسأل سؤالاً.

ـ وهل ما في الكشك من السمك. يكفي كل الواقفين. حتى لو كان الكشك ممتلئاً عن آخره بالسمك؟.

كان السؤال وجيهاً ومعقولاً من كافة النواحي. حجم الكشك الخارجي معروف. ومع افتراض انه مليء بالسمك. فهل يكفي الواقفين؟. دب اليأس في نفوس الواقفين في آخر الطابور. فكر البعض في الانصراف والبحث عن مجمع آخر. يشترون منه السمك. حاول ان

يتذكر أقرب مجمع. اكتشفوا انهم يعيشون في حي شعبي. وهذا معناه ندرة المجمعات الاستهلاكية. مع ان الذين يعيشون في الأحياء الراقية وهم لا يحتاجون إلى مجمعات. يوجد لديهم بين المجمع والمجمع مجمع آخر. ثم ان أغلبهم ترك أسرته ونزل. والأسرة منذ لحظة خروجه في انتظار السمك. وربما عزمت الزوجة بعض الأقارب للمشاركة في أكلة السمك. ما يشتريه اليوم يؤكل في نفس اليوم. من ناحية لأنه لا توجد ثلاجة. ومن ناحية أخرى لأنهم لم يعرفوا بعد ترف حفظ الأغذية ليوم آخر.

تحرك الدليل المتنقل. مع انه كان يود الوقوف ليرى كيف تتم الأمور. ولكن ليذهب إلى المسجد. وليلاحظ هل ذهب البائع إلى الصلاة. أم إلى منزل عشيقة الحي. فاتنة الخليفة. التي أخذت السمك منذ الصباح. تساءل الدليل المتنقل: وهل هناك ما يمنع من ذهاب البائع إلى المسجد أولاً. وخروجه منه إلى منزل الفاتنة؟ ان الواقفين في الطابور ينقصهم الذكاء. سيجمع البائع بين هذا وذاك. يطلب المغفرة قبل أن يرتكب المعصية. يريد ان يكون له لا عليه.

على باب المسجد. كان هناك زحام شديد. شبان وأفندية وأولاد بلد. وذقون غسلها بياض المشيب. الكل يخلع حذاءه. خاف الدليل المتنقل ان دخل بالحذاء معه ان يتوه في الأحذية الأخرى. ولأنه في حي فقير فحذاؤه أحسن حالاً من كثير من الأحذية، أو ان يسرق منه. وتلك حكاية تحدث كل يوم. سمع الكثير عن حكايات سرقة أحذية في الفترة الأخيرة.

اكتشف وجود شخص على الباب. يأخذ الأحذية معه. نظر إلى الأمر فوجد ان كل من يعطيه الحذاء يدس في يده شيئاً معه. ثم يأخذ منه ورقة بها الرقم الذي يأخذ به الحذاء وهو خارج. حاول رؤية ما

يعطيه الداخل للرجل الجالس على الباب. من كثرة تكرار الأيدي لاحظ انها عملة: هل هي الأجر؟ ان الرجل يعمل وله مرتب نظير ذلك حاول معرفة المبلغ الذي يدفعه الداخل. فشل. قطعة معدنية مستديرة. قد تكون مليماً. [تذكر ان المليم لا وجود له الآن بعد غلاء الأسعار]. قد تكون قرشاً. أو خمسة قروش أو عشرة. ان كانت قرشاً يمكنه الدخول. أما ان كانت خمسة أو عشرة قروش فذلك أمر صعب.

فكر في المغامرة. والاقتراب من الرجل. ووضع قرشاً في يده. مع الحذاء خشي ان يرفض الرجل. قرر ان يسأل شخصاً من أهل الحي. تفرس في الوجوه. حتى وجد شخصاً تصور انه إنسان طيب، اقترب منه وتنحنح.

ـ تسمح.

انتفض الرجل في وقفته، نظر له بذعر. ربما رعب، وعيناه يخرج منهما استفهام جارح. كأنه يقول له: ماذا تريد مني؟ قبل ان ينطق الدليل المتنقل كان الرجل قد ابتعد عن المسجد مهرولاً. لبس حذاءه بسرعة وهو يقول:

ـ لم أتكلم. لم أسمع حرفاً واحداً. لم أفعل أي أمر يكدر الأمن العام. منذ ان صحوت من نومي. في هذا اليوم الجميل. وأنا أفكر في حال الدنيا. أنا قلت حال الدنيا؟ لا. مالي وحال الدنيا. إنه ممتاز والحمد لله.

فكرت في الآخرة. ليس كنهاية تحرمنا من حياتنا السعيدة. ولكن فكرت بالتحديد في بناء مقبرة للعائلة. الذي يفهم أمور الدنيا جيداً يقول ان الذكي هو من يبني في دار البقاء أولاً. وهذا ليس معناه ان حياتنا السعيدة هي دار الفناء.

فكرت على النحو التالي. ما دامت الدولة تبني لنا بيوتاً سهلة

ومريحة. وبدون خلو ولكن بمقدم حجز يصل إلى العشرة آلاف جنيه. وإيجار يقل عن المرتب خمسة جنيهات.

نعم قلت مقدماً ومرتباً وإيجاراً. مع انني لا أقصد هذا كله. قلت لنفسي. الدولة حلت مشكلة الإسكان مشكورة. نحن نعيش على أبواب زمن الرخاء. أربعة أعوام تفصل بيننا وبين الرخاء. والأعوام الأربعة غمضة عين في عمر الشعوب. إذن لماذا لا نبني نحن بيوت الآخرة. الأموال متوفرة والحال عال وألاشيا معدن والنقود لا تجد من ينفقها والسعادة وصلت لأبعد حدودها.

ان الأرقام التي اخترعتها البشرية لا تصلح لعد ما لدينا من أموال. يجب التوصل إلى أرقام جديدة. أكثر من المليار. ما لدينا يفوق هذا بكثير ذهبت إلى صحراء مدينة نصر. بحثاً عن أرض. وجدت الأسعار غالية. وحتى في دنيا القبور هناك خلو ومقدم. ثمن متر الأرض تعدى الثمانين جنيهاً. وهذا معناه ان المقبرة متر في ثلاثة أمتار تكلف أكثر من ألف جنيه. هذا مجرد كلام. حتى الآخرة يضيق علينا الوجود فيها. ماذا قلت؟ لقد نسيت. لم يحدث مرة واحدة في حياتي ان كنت ضد أو قلت لا أو فكرت في الرفض.

لم يستطع الدليل المتنقل متابعة كلام الرجل. لأنه اختفى بعيداً عنه. وان كان المنظر قد لفت انتباه الآخرين. اقترب منه شخص آخر. يبدو انه موظف يرتدي بيجاما. أخذها من فوق حبل الغسيل قبل ارتدائها مباشرة. وشكلها يقول انها لم تغسل جيداً. ولم تجف بعد. لأن بها مواضع مبلولة. وأخرى جافة وحوافها مكرمشة.

في قدميه قبقاب من الخشب. حجم القبقاب ضخم. جعل الدليل المتنقل يدرك ان القباقيب اختفت من حياتنا. ويفكر في هذه الظاهرة التي لم يهتم بها من قبل. قرر ان ينصح والده بفتح مصنع للقباقيب

الخشبية. ما دام الكل نسي هذا الأمر الهام. الدليل المتنقل لم ينس لأن عقله أكثر ذكاء من الآخرين. ما يعيب الفكرة ان الأسواق مليئة بشباشب مستوردة. لينة وطرية وناعمة الملمس تلبس في المنزل. وما يعيب القبقاب الخشب انه صناعة مصرية. وهي غير مطلوبة في هذه الأيام.

الحل سهل. توضع القباقيب في علب من البلاستيك. ويكتب على كل قبقاب انه مستورد من الخارج. الكل يفعل هذا. التقليد أمر سهل. التزوير أسهل. اقترب منه الرجل. كان يضع على عينيه نظارة سوداء. قاتمة السواد. كلها من البلاستيك. خمن الدليل المتنقل ان النظارة لبست من قبل. وهذا الرجل أخذها من ميت كان على وشك الدفن. سأله عن طلبه. شرح له الدليل المتنقل الأمر. يريد معرفة كم يدفع للرجل الجالس هناك. انه يقصد المتوسط. لا أكبر رقم ولا أصغر رقم:

ـ ولماذا تسأل؟

ـ لأني أريد. الدخول.

ـ هل انت من المباحث؟

ـ لا.

ـ من الضرائب؟

ـ أبداً.

ـ من الرقابة الإدارية؟.

ـ إطلاقاً.

ـ من جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ـ انتصر المنكر على المعروف وانتهى الأمر.

ـ من رابطة تكدير الأمن العام؟

ـ تكدير ماذا؟

ـ من جبال الحقد الأسود؟
ـ وأين هي؟ ان كان الحقد مرضاً. الا انهم دفعونا إليه؟
ـ من شرطة السياحة؟
ـ وهل المسجد مكان للسياح؟
ـ من شرطة الآثار؟
ـ من قال ان المسجد أثر؟
ـ هل انت من شرطة منع التسول؟
ـ الجالس هناك لا يتسول.
ـ إذن انت من الجماعات الدينية إياها. لا. انت شيوعي متخفٍ، تندس وسط الجماعات الدينية. لأنك بدون ذقن؟
ـ لم يكن لدي وقت للانضمام لا إلى هذه ولا إلى تلك.
ـ انت من الجهاز المركزي للمحاسبات؟
ـ يا ليت.
ـ من الحزب الحاكم؟
ـ لم أسمع حتى اسمه.
ـ من احزاب المعارضة؟
ـ أين هي، وهل تهتم بي؟ انها تتعارك حول أمور لا أفهمها. وتنصرف عما أفهمه.
ـ من مباحث أمن الدولة العليا؟
ـ نعم؟ عليا؟ دولة؟
ـ من المخابرات العامة؟
ـ كانت تفتح لي الأبواب لو كنت منها!.
ـ لا تحلم ولت وولت أيامها. من المخابرات العسكرية؟
ـ كنت صرفت بدل انتقال وبدل ملابس وبدل تخفي.
ـ من دولة عدوة تحاول معرفة عيوبنا.

ـمن هو العدو. ومن هو الصديق؟ هل تعرف؟ انها مسألة محيرة. عدو اليوم. يصبح صديق الغد. وصديق الأمس يصبح عدو اليوم. ومن كان شقيقي مطلوب مني قتله. وعدوي التقليدي. ان ضربني على خدي الأيمن يجب ان أدير له الأيسر. ولا أعرف على أي أساس يتم هذا. ولكن لا تجرني للحديث في مثل هذه الأمور.

ـ هل انت من مباحث رئاسة الجمهورية؟

ـ لا.

ـ من رقابة أبناء الحي التي شكلها المجلس المحلي؟

ـ لا.

ـ من فرقة تطهير العاصمة من الخطرين؟

ـ لا.

ـ من لجنة التفتيش على المساجد المشكلة من وزارة الأوقاف؟

ـ لا.

ـ من إدارة النشاط الديني في مباحث أمن الدولة؟

ـ لا.

ـ من مكتب مباحث قسم الخليفة؟

ـ لا.

ـ من مديرية أمن القاهرة؟

ـ لا.

ـ من جهاز قياس الرأي العام؟؟

ـ لا.

ـ لي سؤال أخير: من أين أنت إذن؟

ـ قبل الرد لي سؤال، أهم من كل أسئلتك. هل في بلدنا كل هذه الجهات؟

ـ وأكثر.

ـ أكثر؟

ـ ان ما يظهر للعين يكون الأقل. وفي كل زمان فإن ما يخفى يكـون هو الأعظم.

قال الرجل بعد ان تعب من الأسئلة:

ـ إذن أقسم لي؟

تساءل الدليل المتنقل:

ـ على ماذا؟

ـ ان غرضك شريف. وهو الدفع مثلنا فقط.

ـ مستعد

ـ إذن قل ورائي.

ـ أقسم بالله العظيم. ان غرضي شريف. وهو الدفع مثلكم ودخول المسجد.

بعد القسم. قال له الرجل. إذن أعطيني فرصة لأفكـر وأقلب الأمر على وجوهه الأربعة. ثم أقرر ما يجب أن أفعله. والتصرف عـلى أساس القـرار. وقبل ان ينـطق الدليـل المتنقل. كـان الـرجـل قـد اختفى من أمامه. كأنه فص ملح ذاب في الماء.

فكر الدليل المتنقل في سؤال شخص ثالث. لم يجد في نفسه الحماس. فوقف. لمح عينين تتابعانه بدقة. تكـررت المتابعـة. همس لنفسه: حتى المساجد يقف على أبوابها المخبرون. تلك آخر عجائب هذه الأيام. من قبل شاهدهم حول الشقق المفروشة وقال انه أمر طبيعي. ربما يـراقبون العرب من ناحية. وبنات الليل من ناحية أخرى.

وجدهم أمام الملاهي الليلية. وقال انه طبيعي أيضاً. وجدهم حول الـوزارات والمصالـح ومحطات النـور. وأماكن تكـرير الميـاه والمخابـز. والمطاعم والمستشفيات. وأحزاب المعارضـة ومحطات البنـزين. ومخازن

البوتاجاز. ومكاتب البريد. والمدارس. والسفارات الأجنبية والجامعات. قال لنفسه. ربما كان الهدف من هذا كله هو الصالح العام.

أما هذا البيت. يسمع منذ وعيه. من يدخله فهو آمن. لا بد وان المخبر يقف على الباب فقط في الداخل لا يجرؤ أحد على متابعته. تساءل: هل يسأل شخصاً آخر؟ من يضمن له نتيجة السؤال، وخطورة سماع الإجابة. سيتوجه إلى الرجل الجالس على الباب. ولير الأمر بنفسه.

اكتشف ان الرجل تغير في الوقت الذي ضاع في السؤال والإجابة. من قبل كان يجلس رجل تعدى التسعين من العمر. كفيف يبدو انه غسل يديه من الدنيا، الذي يجلس رجل ضخم. غليظ الجثة. عروقه نافرة ومنفوخة عن آخرها. تبدو وكأنها توشك على الانفجار. اقترب منه مد يده بالحذاء. واليد الأخرى كانت فارغة. قرر ان يسأل الرجل نفسه عن المطلوب.

ما ان شاهد الرجل اليد الأخرى فارغة. حتى رمى له الحذاء على الأرض. ودفعه بيده. الدفعة كانت قوية لدرجة انها خلقت حالة من الفوضى على السلم. لم يتمكن الدليل المتنقل حتى من إيضاح الأمر. لأن مشكلته الوحيدة. أصبحت هي الحصول على الحذاء. عثر على فردة منه. كانت الفردة اليمنى. رفع صوته:

ـ أين الفردة الشمال؟ أين الفردة الشمال؟

قال واحد من الواقفين ضاحكاً:

ـ اليسار. اليسار.

أحدثت الكلمة حالة من الهياج على باب المسجد. وأصبح الدليل المتنقل تحت الأقدام. ووجد الفردة الأخرى. أخذها في هدوء. وانسل

زاحفاً تحت الأرض. بينما الكل يبحث عن هذا الغريب الذي يتكلم عن اليسار على باب المسجد. وصل الدليل المتنقل إلى جدار المسجد. زحف بجواره حتى ابتعد. الواقفون على الباب ضربوا كفاً بكف. قال أحدهم انها من علامات الساعة. ان يصل الملاحدة بدعواهم حتى أبواب المساجد. وقال آخر ان الشخص كان مدرباً بعناية. بدليل اختفائه كأن الأرض انشقت وبلعته.

طلبوا من الشخص الجالس ملاحظة الخارجين والداخلين. وان يمنع الوقوف بالقرب من الباب. ربما عثر على هذا الشخص المندس. لكي يتصرفوا معه. الدليل المتنقل بعد ان نجا بجلده بأعجوبة لا تحدث في العمر مرتين. عرف ان المبلغ الذي يدفع لا يقل عن عشرة قروش وان كان يزيد في بعض الأحيان. كنوع من التفاخر الاجتماعي.

قال في نفسه. عشرة قروش. انها تصل لنصف ثمن الغذاء. النية نصف الفعل. وهو نوى ولكن ظروف بلدنا. ماذا يفعل إزاءها. تلفت وراءه حتى تأكد انه لا يوجد من يتابعه. واصل سيره. متجهاً إلى الزوجة والأولاد. أمام الكشك كانت الطوابير الثلاثة كما هي. حالة من الصمت والسكون والمحافظة على النظام تفرض نفسها على الكل.

بدت الطوابير كأنها تماثيل معبد فرعوني منسي منذ آلاف السنين. نظر الدليل المتنقل إلى شقق الحي وتساءل. من أي النوافذ يطل. علينا البائع وهو يركب فوق فاتنة الحي؟ ان لذته بمشاهدة الطوابير الثلاثة وحالة الهدوء تفوق لذته من المرأة التي تنام تحته. فاتحة فخذيها مبدية أكبر قدر من الغنج والآهات والاستحسان طالبة منه المزيد من الدعك فالسمك عمل مفعوله.

يوم الجمعة من الأيام الهادئة. يوم له طابع خاص في الأحياء الشعبية. تبدأ حياة الرجال فيه عقب الخروج من صلاة الجمعة. حيث

تتحول الشوارع والحارات والساحات. والأرض الخلاء المحيطة بالمساجد إلى أسواق مؤقتة. تقام وتنفض في نفس اليوم. عندما عاد الدليل المتنقل إلى الأسرة. فكر في تناول الغداء. بسبب رخص الأسعار. في قصر العيني وجاردن سيتي. الأسعار مصابة بحالة من الجنون هنا أيضاً جنون أسعار ولكن الفارق في نوع ما يؤكل والسعر.

قال لنفسه. إنه لمواجهة كافة الاحتمالات. سيتناول الغداء تشاوروا في الأمر. قرروا شراء أكلة متفرقة كل جزء فيها من دكان فهذا يكون أرخص. من الفرن يشتري خبزاً من الخبز البايت. أو الباقي بعد البيع. وهو الخبز الذي تكون فيه بعض العيوب. السبب إنه أرخص. ثلاثة أرغفة بقرش. توفر كثيراً. ويشتري طعمية وطماطم. وفلفل أخضر وبصل أخضر ومخلل.

ذهب الدليل المتنقل لإحضار الطعام الذي اتفقوا عليه. وأخذ معه ابنه الشبعان ليساعده في حمل الطعام. تمنى لو وفر ثمن كوب شاي وسيجارة يحبس بها بعد الأكلة. وتمنى لو وجد مكاناً ينام فيه قليلاً. حتى يستقبل الجزء الباقي من الرحلة ومزاجه في أحسن حالاته. في السوق وقف يتفرج. سوق شعبي غير نظيف والأسعار ليست رخيصة كما يوحي اسم السوق الشعبي.

لا شيء رخيص في هذا البلد سوى الإنسان. هو الوحيد الذي لو عرض للبيع لن يجد من يشتريه. وان وجد من يشتريه فسيدفع ابخس الأثمان. الأرض عليها فضلات السوق. تجمعت وبقيت هنا منذ مدة. البضائع مختلطة بالتراب والفضلات. الناس جزء من المنظر العام. تبدو عليهم حالة من الإلفة مع التراب والمكان، رغم هذا فالبيع على أشده. الشهر أوشك على الانتهاء. ونحن الآن في الحالة التي يقول عنها الفقراء «الحالة جيم» أو الأيام الشراقي من الشهر. الكل مقبل على

الأيـام العشرة العجوز. وهي أيـام السلف والاقتصاد والاقتصـار عـلى وجبتين كل يوم. هي الإفطار والغداء. والنوم بدون عشاء.

حركة البيع والشراء شديـدة. نقود تخـرج من الجيب. أوراق ماليـة تبدو غريبة وسط الكآبـة التي تحيط بالكـل. وألوان الجـديد منهـا تظهـر كـابتسامـات تومض بسرعـة فائقـة وسط الجو الكـابي للسوق. الـدليل المتنقل وصل إلى السوق بعد صلاة الجمعة. كـان المكان مـزدحماً. كـل الخـارجين من المسجـد يحضرون إلى السوق. قـرر الدليـل المتنقل رغم الزحام ان يلف السوق أولاً. يرصـده من بدايتـه وحتى نهايته. يـلاحظ الموجود من نـاحية رخص الأسعـار وجودة الصنف. المعـادلة المستحيلة التي لم يعد لها وجود في كافة الأسواق.

كل المعرض سعره غال. وجد التجار شعاراً قديماً يضحكون بـه على المشترين: «الغالي ثمنه فيه» حيلة للحصـول على مـا في الجيب. لاحظ الدليل المتنقل تفاوتاً في الأسعار. الـطماطم بجوار الـطماطم نفس المكان ونفس اللحظة من الزمـان. والفارق في السعـر يصل إلى خمسـة قروش للكيلو الواحد. وأصغر سعر سمعه أزيد من التسعـيرة الرسميـة بسبعة قروش رغم ان هذه التسعيرة تذاع وتنشر كل صباح.

كـل ما نقـرره وما نعلنـه لا ينفذ. وان نفـذ فتكـون حـالات نـادرة ولأوقات محدودة. استثنـاء لا يحدث إلا قليـلاً. والقاعـدة ان كل بـائع لديه تسعيرته الخاصة به.

في منتصف السوق وجد جمعاً من الناس. خنـاقة؟ طـابور؟ زيت أو سكر يباع؟ لحم مدعم. تحسس جيبه ليتأكد من وجـود المبلغ معه. من أدراه قد تكون لعبـة للسرقة، تحـدث شوشرة وضرب وخنـاق وكل من يقـترب لفض العراك أو الفـرجة يكـون مصيره معـروفاً، يسرق بـدون رحمة. السارق لن يعرف ان ما مع الدليل المتنقل هو آخر مـا لديـه، لا يهمه هذا.

علمته الأيام ان يستريب حتى من الضحكة والابتسامة والنظرة الودودة. لا شيء إنساني في هذه الأيام أبداً. كل ما نراه وما نسمعه. يخفي وراءه أسوأ ما في العالم. اقترب من الزحام. سيارة نصف نقل واقفة. لا يعرف أحد كيف تمكنت من الدخول إلى هذا المكان. يبدو انها أنزلت من السماء. حولها رجال كثيرون. رجل يلبس جلباباً بلدياً. وعلى رأسه طاقية. وفوقها لاسة. وقف الرجل يبكي بحرقة. دموعه غزيرة في وقت عزت فيه الدموع وجفت المآقي. أصحاب المآسي لا يجدون هذه الدموع في الأوقات الصعبة والعصيبة. وما أكثر تلك الأوقات. في هذه الأيام.

أمام الرجال الباكي أفندي محترم. يضع نظارة ذهبية الإطار على عينيه. شعره مرتب بعناية. وجلد ذقنه اللامع يؤكد لك ان الموس رفعت من فوق جلده الناعم منذ لحظة. حوله أربعة من أمناء الشرطة وسائق السيارة والحمال. حولهم أعداد ضخمة من البشر. كل منهم في يده نقود. السيارة محملة بعلب. نظر الدليل المتنقل في العلب. اكتشف انها علب سمن من التي توزع في الجمعيات الاستهلاكية بأسعار رخيصة في الأعياد الرسمية والمواسم. والأوقات التي يكون مطلوباً فيها الهاء الناس عن أحوالهم. كذلك توزع عند اتخاذ القرارات المصيرية. وقبل أيام المواكب الرسمية. وهتافات الاستقبال. وجماهير «بالروح بالدم». وهل بقي لدى أحد روح أو دم؟!

من الحوار الدائر عرف الدليل المتنقل الحكاية، السيارة النصف نقل والتي ليست من نوع أمريكاني ولا ياباني. حتى لا ندخل في الحوار الإعلاني الدائر بين شركات دولية. العربة محملة بسمن بلدي مستورد. يملكه هذا التاجر. وحيث ان السمن لا يباع سوى في المجمعات فالتاجر حصل عليه بطريقة غير مشروعة. لأن هذا النوع

من السمن لا يستورده سوى القطاع العام. ولا يباع سوى في الجمعيات الاستهلاكية. وتباع للجمهور بمائة وثمانين قرشاً. أي عشرة في المائة من الثمن الحقيقي. والتسعين في المائة الباقية تدفعها الدولة. كل علبة سمن يحصل عليها مواطن يدفع فيها ١٨٠ قرشاً. وتدفع الدولة ١٦٢٠ قرشاً. ولأن مبلغ الدعم في كل علبة واحدة ضخم بهذه الصورة. فلا بد من ضمان وصولها إلى المستهلك والضرب على أيدي التجار والسماسرة والوسطاء. ولهذا يتقرر علبة واحدة لكل مواطن. فمن أين حصل هذا الرجل على هذا العدد الضخم من العلب؟

تلك جريمة. والرجل مصر على الجريمة إلى آخر مدى. لم يكفه الحصول على حمولة سيارة من السمن المدعوم. ولكنه حضر إلى السوق لكي يبيعها بخمسة جنيهات للعلبة الواحدة.

الدولة لا تنام. ليل نهار تعمل لصالح الجماهير ومحدودي الدخل. الأسواق مراقبة من قبل الدولة. حتى دون ان يشعر أحد. وهكذا تم ضبط التاجر الشره. هذا الأفندي المحترم من قوة مباحث التموين. انه لا يسكن هنا. واليوم مفروض انه عطلة رسمية ولكنه يمر على الأسواق متخفياً. حضر إلى الحي وقت صلاة الجمعة. دخل المسجد وصلى. الكل مؤمن. وهذا هو عصر الإيمان العظيم. وبعد ان أدى فريضة الرب. مع ان مجرد حضوره إلى هنا يوم راحته يعد اسمى أشكال العبادة. ولكنه لا يكتفي بهذه الصورة من صور العبادة. قرر الحضور إلى السوق، انه يكمل العبادة الأولى بعبادة أخرى. من يتصور ان رجال الشرطة يحصلون على الراحة التي يحصل عليها باقي الناس؟ انها مهنة المتاعب. وراحته الوحيدة ان يجد كل مواطن مستريحاً وسعيداً وآمناً على يومه وغده القريب ومستقبله البعيد.

عندما شاهد العربة والسمن اكتشف انه بمفرده. وقد تكون مع

التاجر عصابة. نحن نعود إلى عصر الفتوات القديم. وان كان هذا يتم من خلال عصابات مرتزقة. الفتوات القدامى كانت لهم قيم لا وجود لها اليوم. لهذا أحضر الضابط أمين شرطة. وفاجأ التاجر وهو يستعد للبيع. كان من المفروض ان يظل الضابط مختبئاً حتى يبيع التاجر أول صفيحة. وهنا يضبطه متلبساً. ولكن ما ذنب المواطن الذي سيدفع ثمن الصفيحة الأولى. المهم هو روح القانون وليس نصه الجامد. قبض على الرجل. واعترف بجريمته. لأنه انهار من عنف الصدمة.

ولأننا نعيش عصر الثورة الإدارية. قرر الضابط نسف الروتين سيتعامل مع الواقفين بأسلوب عصري. المفروض ان يأخذ البضاعة والرجل وتتم الإجراءات القانونية التي تصادر بعدها المواد المضبوطة ويقدم الرجل للمحاكمة. ولكن ماذا يستفيد الناس البسطاء والفقراء الكادحين أبناء هذا الشعب الطيب الوفي من مثل هذه الإجراءات؟ ستظل المعاناة كما هي. ان قيمة القانون ان يضع حداً لمعاناة الجماهير. ولهذا قرر الضابط ان يوزع السمن على الناس بالسعر الرسمي. ويؤجل تصرفه مع التاجر. لأن معاقبة شخص خاطىء. لا يمكن ان يؤجل حصول ألف مواطن صالح على علبة سمن. في زمن عز فيه السمن والجبن واللبن.

سيوزع حمولة العربة. ويطلب ثلاثة أشخاص يشهدون معه في المحكمة. وهنا ارتفعت أصوات أكثر من مائة رجل. يعلن أصحابها استعدادهم للشهادة. وتنادي ببعض الهتافات. التي تهتف بحياة الضابط الذي نسف الروتين ونفذ الثورة الإدارية وضرب المثل وربط القول بالفعل. كل شخص مطلوب منه ١٨٠ قرشاً فكة. لن يكون هناك وقت لعد الباقي. يقدم المبلغ ويحصل على العلبة ويضعها في ورقة أو صفيحة أكبر ويجري بها إلى المنزل لأن الكمية قليلة. ولن تكفي حتى

للموجودين في السوق. فما بالك بسكان الحي.

الكل يعرف أن حصول البعض على هذه السلعة الاستراتيجية وحرمان البعض الآخر منها. يؤثر على السلام الاجتماعي وتماسك الجبهة الداخلية ويكدر الأمن العام. ثم ان الضابط يطلب السرعة في الدفع والسرعة في الأخذ والسرعة في الجري إلى المنزل والسرعة في اخفاء السلعة داخل البيت لسبب آخر. إن الإجراء الذي يقوم حالياً خاطىء ومخالف لنص القانون. وإن ضبط وهو يقوم به. قد يعاقب. لأنه توجد أكثر من جهة تقوم بحملات على الأسواق. وأكثر من مسئول هام يرتدي الملابس المدنية ويخفي ملامح وجهه ينتشرون في الأسواق في حملات مستمرة. من يضمن له ان لا يمر بعد ربع دقيقة مسئول كبير أو أكبر ويرى أن التصرف مخالف لسيادة القانون ويتخذ ضده إجراء قد يضره ابلغ الضرر. لا بد من السرعة التامة في كافة المراحل.

من جديد هتف الواقفون لحضرة الضابط العادل. قالوا ان العدل أساس الملك. وها هم يشهدون من يسهر على مصالح الرعية. ان هذا الضابط العظيم. الذي ترك أسرته الصغيرة. من أجل العائلة الكبيرة ضابط يستحق وساماً. إنحنى الضابط وقال ان وسامه رضاء الجماهير وسعادتها ورفع الظلم عنها وإنهاء معاناتها اليومية. الرخاء قريب. والزمن الباقي على موعدنا مع الرخاء. قليل. لا يتعدى السنوات الثلاث. أي ستة وثلاثين شهراً. بسيطة.

اقترب من الضابط شاب. وسأله في أدب عن اسمه ورتبته ومكان عمله. لكي يشكره الأهالي في إعلان بالجرائد الثلاث في مكان بارز وفوق الشكر صورة الضابط بالملابس الرسمية فهذا حقه عليهم. بعد الخدمة التي قدمها لهم. انتفض الضابط وقال انه لا يفعل ما يقوم به. من أجل شكر أحد له. انه يفعل هذا من أجل صاحب الخيمة

الزرقاء. سبحانه وتعالى. وأشار إلى السماء. فاغرورقت بعض الأعين المحيطة به بالدموع.

وبدأ التوزيع. حدث تزاحم رهيب. الكل أحضر الـ ١٨٠ قرشاً فكة وسلمها وأخذ العلبة. وجرى إلى البيت وهو يخفي العلبة. الدليل المتنقل لم يأخذ علبة. لأن المبلغ الذي معه لم يكن يكفي لثمن علبة وهو مقبل على مستقبل لا يعرف شكله. بقي واقفاً مكانه لأن حالة من عدم التصديق سيطرت عليه. هل معقول ان يحدث هذا؟ انه عصر الأعاجيب. انصرف عندما أصبح المكان مسرحاً لمعركة سقط فيها الضعفاء تحت الأقدام. لأن الكل كان يريد الحصول على علبة السمن بأي ثمن وبأي خسائر ممكنة.

انصرف لكي يشتري طعام الغداء في طريق عودته فكر في تجنب مكان العربة خوفاً من الزحام. ولكنه اكتشف أن الطريق الذي يقسم السوق وحيد. سار فيه. قال انه عندما يقترب من مكان زحام العربة سيحاول العبور بدون مشاكل حتى لا يفقد ما معه من طعام. أو ان يضيع منه ابنه. فوجىء ان المكان خالٍ. لا العربة ولا الضابط العادل ولا أمناء الشرطة ولا التاجر الذي كان يبكي. نظر إلى الأرض ليرى إلى أين سارت العربة. لم يجد أي أثر لعجلاتها. أطلت الفكرة في رأسه تصور ان السيارة حملت إلى أعلى. أعاد النظر في المكان. فوجد انه عاد إلى شكله الأول. واصل السير.

وقال في نفسه ان حكاية السمن تعد من الأمور الغريبة التي سيحكيها لباقي العائلة بعد الوصول إلى الميدان. حتى لا يفقد الآخرون ثقتهم في الدنيا سيؤكد لهم ان العالم به بعض الخير رغم سوء حال العائلة. قبل ان يتحرك فوجىء بأول مواطن يحصل على علبة سمن قادماً يجري بعد ان استبدل ملابس الخروج ببيجاما. كان يجري

صامتا وفي يده صفيحة السمن مفتوحة. لم يجد الرجل العربة ولا الذين كانوا حولها. نظر في الأركان حدق في الأرض. تطلع بعينه نحو السماء. تابع بنظره الشارع حتى آخره. تصور الدليل المتنقل ان الرجل ضاع منه مبلغ من المال. وحضر ليبحث عنه. وحمد الله انه أمن أمواله من السرقة لأن مثل هذه الحالات. تحدث فيها السرقة.

فوجىء بالرجل يجلس على الأرض. ويضع العلبة بجواره. ينظف دائرة من الأرض من القاذورات. تأكد الدليل المتنقل ان الرجل نشل فعلاً بعد قليل أفرغ الرجل العلبة من محتوياتها. نزل منها زلط وطوب ورمل. لم يفهم الدليل المتنقل الأمر. حضر الآخرون وتجمعوا حول الرجل. وتصور البعض منهم. ان الرجل أصابه مس. أشفقوا عليه. قالوا ان السمن البلدي الرخيص ذهب بعقل الرجل. ربما لم يشم رائحته منذ سنوات. الرجل معذور. جن بسبب رائحة السمن البلدي. لم يتكلم الرجل. جلس يعبث بيديه في الزلط والرمل والطوب. وينظر للآخرين ويضحك.

المواطن الثاني الذي حصل على ثاني علبة سمن وخرج من الزحام منتصراً مظفراً. ينظر للآخرين. يقرأ إعجابهم به. تمنى لو كان هنا مصور ليأخذ له صورة تذكارية مع علبة السمن وخلفه الزحام الرهيب. حتى يريها لزوجته. مؤكداً لها رجولته وبطولته. عاد الرجل ومعه العلبة مفتوحة. شاهد الزلط والطوب والرمل على الأرض. أفرغ ما في علبته. فوق ما أفرغه الرجل السابق. وجد الواقفون ان المحتويات كانت واحدة.

الدهشة وعدم التصديق سيطرت على الحاضرين. بعد توافد الباقين تحول الزلط والرمل إلى هرم كبير. فهمت اللعبة. الصفائح لم يكن بها سمن. ولكن الطوب والرمل والزلط. الهرم الذي تكون من الرمل

والزلط. وصل إلى هامات الرجال. كان هو محتويات علب السمن. التي كانت خالية من السمن. تساءلوا: من الذي فعلها؟ هل هو التاجر؟ لا. الضابط؟ كان مشتركاً. لأنه كان يتكلم عن الجري والسرعة. وأمناء الشرطة؟ من يعجز عن الحصول على ملابس أمين شرطة. المسألة كانت تمثيلية محكمة الصنع. دخلت على الواقفين.

تحول موقف الذين كانوا يعانون حسرة ومرارة لأنهم لم يشتروا علب السمن. فرحوا لعدم الشراء والابطال الذين اشتروا. شعروا بالخديعة الدليل المتنقل شعر بحالة من الراحة. وصلت الحكاية إلى ذهنه بمعناها السليم. من كان يصدق ما جرى من قبل. شكل الضحايا وفداً اتجه إلى القسم. ليقدم شكوى فيما جرى. واحد منهم قال لهم: ان القانون لا يحمي المغفلين. وسواء كان الذي وزع عليهم السمن ضابطاً أم شخصاً من عصابة. فالقانون لن يفعل لهم أي شيء.

البعض أصر على الذهاب إلى القسم ليحمي الآخرين في الأحياء الشعبية الأخرى. من الوقوع ضحايا للعبة الخطيرة. واحد من الواقفين قال. ان هذا النوع من الجرائم. التي يتم الاعداد لها. قبل حدوثها بفترات طويلة. ويتطلب امكانيات. ويشترك فيها أكثر من شخص وأكثر من جهة. ويتطلب سيارة وملابس وتمثيلاً خارقاً. مثل هذا النوع من الجرائم. لم تعرفه بلادنا من قبل. انه غريب ومستورد من الخارج. النصب عندنا من قبل كان وليد اللحظة. رد عليه واحد من الواقفين قائلاً:

ـ ان من يعيش. سيرى ما هو أكثر.

انصرف الدليل المتنقل وهو يتصور باقي رحلة هؤلاء الفقراء. الذين تصوروا في لحظة خاطفة انه من حقهم الحصول على السمن البلدي. تصور رحلتهم في أقسام الشرطة. السؤال والجواب والتحريات. قال

لنفسه. انهم لن يخرجوا من الأمر سوى بالبقاء في القسم أكبر فترة ممكنة. وربما احتجز البعض منهم لأكثر من يوم. وفي النهاية لن يعاد لهم مليم واحد. من ثمن السمن الذي دفعوه وأخذوا بدلاً منه الطوب والرمل والزلط. من يدري قد تكون هذه العصابة مسنودة بصورة أو بأخرى. وهكذا تصدر التعليمات العليا بإغلاق التحقيق. حتى بعد الوصول إلى الفاعل الأصلي. والشركاء من الدرجة الأولى والثانية والثالثة. ويضيع الملف وينقل من يقوم بالتحقيق. انها أمور تحدث كل يوم.

توجه الدليل المتنقل إلى الأسرة ومعه ابنه وهما يحملان الطعام الذي اشترياه فرشوا ورقة جريدة قديمة على الأرض وضعوا عليها الطعام وأكلوا. لم يضايقهم أثناء الأكل سوى نظرات الفضول والجوع التي انغرست فيهم. من الواقفين في طوابير كشك السمك الثلاثة. كون الدليل المتنقل من أجسامهم سوراً وجداراً يحجب الطعام عن هذه النظرات النهمة التي يطل منها الجوع. كان بالقرب منه طفل. سال لعابه وبدا لمعانه واضحاً على ذقنه. فكر الدليل المتنقل في إعطائه لقمة. ولكنه لم يفعل. لأن الطعام قليل. وعدد الأطفال في الطوابير ضخم. بل ان لهم طابوراً خاصاً بهم. بعد الأكل. نام الدليل المتنقل قليلاً. وبعد الصحو من النوم. استأنفوا السير إلى ميدان التحرير. في الجزء الباقي من الرحلة. حدثت بعض الأمور الأخرى. ولكن ليس مكانها هذا الجزء من الرحلة.

رحلة الأستاذ:

بداية الصباح، الصفحات الأولى، الصفحات الداخلية. هذا اليوم الفريد في حياة العائلة. اهتمامي باليوم يفوق اهتمامي بالرحلة. سواء أكانت رحلتي أم الرحلة العامة. التي قامت بها الأسرة كمخرج من أزمة

تصور المليونير انها لا حل لها. سوى بهذه الرحلة الغريبة. في الصباح. شغلني هذا العالم المترامي الأطراف. سألت نفسي: ماذا يجري في هذا العالم البعيد. ابتداء من الدائرة التي يعيش فيها الشخص منا. هذه الدائرة التي تبدأ صغيرة. وتتسع وتتسع وتتسع حتى تصبح لا نهائية لا تعرف الحدود.

بداية اليوم. شمس النهار تتسرب إلى الكلمات. ابتداء من هذا اليوم أصبحت الأمور واضحة في العائلة. أخطأ المليونير. ولكن الكل سيستفيد من هذا الخطأ. جعل الرحلة جزءاً من بنية الأسرة. ومن علاقات الأفراد ببعضهم. وهكذا وضعنا أيدينا على تقسيم جديد. الذين مع الرحلة والذين ضدها. وهناك درجات كثيرة بين هذين الموقفين الواضحين. وأنا أعذر أصحاب المواقف الوسط. لم يسبق في حياة العائلة. ان كان المطلوب هو موقف واضح. ابتداء من هذا اليوم. سنتعامل على أسس جديدة.

هناك من قبل مهانة الرحلة وعارها. وهناك من رفضوا. وان كان بعض من رفضوا لم يكن لديهم تصور واضح عما سيفعلونه. ولكني اعتبر رفضهم بذرة جيدة. خامة يمكن تحويلها لما هو أكثر. رغم ان كل رافض في العائلة له أسبابه الخاصة والتي قد لا تتفق مع أسباب الآخرين. المهم انني سعدت. لأنه كان في العائلة من قال لا. والأهم انه كان هناك غيري قالوا لا. أسبابهم كانت مختلفة عن أسبابي. نحن الآن في معسكر واحد بصرف النظر عن حكاية الأسباب.

أمامي يوم طويل. دعونا من الرحلة والرفض. ذلك موضوع. سنغوص فيه طوال يومنا. فكرت في الإفطار. ما معي قليل. ومع هذا لدي إحساس. ان اليوم يوم خاص. يوم لا يتكرر في العمر كثيراً. تمنيت لو أفطرت إفطاراً لا أتناوله كل يوم. مبتكر وجديد وغريب.

أدخل محل لبان من المحلات الأثرية القديمة في ميدان الأزهر. [وهل أبقوا على شيء أثري وقديم. في القاهرة. كل ما في المدينة يمسخ باسم التجديد والتطوير والأحلال]. في ميدان الأزهر الشريف توجد نكهة القاهرة الإسلامية القديمة التي تولي هاربة. مخلية المكان لقاهرة أخرى. غريبة وشاذة ومشوهة. تزحف. آكلة في جوفها كل الأشياء الجميلة.

القاهرة التي عاصرت تقلبات المماليك وصلف العثمانيين ونهب آل محمد علي. المؤسس العظيم لمصر الحديثة. وإذلال الإنجليز. والفارق الضخم بين طموح ضابط الجيش الذي لامس السماء السابعة وتراجعهم الذي نزل تحت الأرض السابعة.

في هذا المحل. أطلب كوب حليب به كمية كبيرة من السكر. وفوقه قطعة من الزبد. بدأت في الذوبان وكونت طبقة صفراء معزولة فوق الحليب. وبقسماط تنزل منه حبات السمسم خلال الأكل فوق الملابس. ثم طبق زبادي بالقشدة أو المربى أو عسل النحل.

آكل هذا كله. دفعة واحدة. حتى يبقى الكوب والطبق لامعين بعد الطعام. أنادي على الجرسون. أطلب منه فاتورة الحساب [هذه المحلات لا تقدم فاتورة حساب للعلم. ولكن الفاتورة مطلوبة لزوم إخراج المشهد المهيب] سأضيف للحساب ١٠٪ نظير الخدمة الجيدة. وأترك باقي الورقة المالية بقشيشاً لكل العاملين في المحل.

سأقول لصاحب المحل. لحظة خروجي. إن المحل أعجبني. ولذلك سأكتب عنه في كتابي الضخم «مدينة مصر». والذي أعمل فيه هذه الأيام بهمة ونشاط. بدأت بالحديث عن اليوم. وأحداثه ومكانه في العالم الواسع ابتداء من الشخص وحتى آخر الدائرة. مع أن هذا تصور خاطىء.

كان من المفروض البدء بالشخص. بنفسي. وكان المفروض أن

يكون كلامي في هذا الفصل مكملاً للفصل السابق الذي تحدثت فيه عن نفسي ولكن هذا الفصل يبدو بعيداً عني الآن. بل ربما كان في جزء سابق من هذه الرواية. الضخمة. أنتم تعرفون أن لدي بعض الميول. الأدبية التي لم تتحقق بعد. وما دام المؤلف يتشدق أمامكم أنه منحنا الحرية التامة في القول والفعل. وأقول يتشدق. لأن ما يقوله شيء. وما يفعله شيء آخر. الكل يفعل هذا. ما دام ينظر للحرية على أنها منحة وليست حقاً. الفارق ضخم بين الحرية الحق والحرية المنحة.

المؤلف يتصور أنه منحنا الحرية. لذلك لا بد من استخدامها في إطار يرسمه لي. وإن خرجت عليه. يوقف المنحة في الحال. إنه معذور لأن حريته كمؤلف منحت له من جهة أعلى منه وهكذا. إنه يفعل معي ما يتم معه. ولا غرابة في ذلك. سأحاول استغلال وعد الحرية الممنوح لي منه ولا أعرف إن كان سيشطب مما سأكتبه أم لا. لن أعرف هذا إلا بعد نشر الرواية. وقراءتها بعد النشر.

سأبدأ من نفسي. أنا. من أنا من هذه الرواية؟ حرمنا المؤلف من الأسماء الطبيعية ومنحنا صفات أكثر منها أسماء. أنا شخصياً أرفض كافة الصفات التي يطلقها عليّ. خاصة الإسم الذي يقول إنني لعنة. إن المعرفة قوة وليست لعنة. والمعرفة تتعدى حدود عالمي. وتصل إلى دنيا الذين أرفضهم. مفروض معرفة مفردات اللغة في عالمهم لكي أصوغ رفضاً بنفس لغتهم بنفس قاموس العالم الآخر. عالم البيوت والشقق والعمارات والسيارات.

إيماني الذي لا يتزعزع إن كل ثروة تكونت نتيجة جريمة. وفي عالمي. عالم الذين ينامون فوق أجدادهم وآبائهم وأمهاتهم. أقول إن كل معرفة قوة. تقرب اليوم. الذي تتساوى فيه الأمور. لقب واحد يقولونه عني وأحبه. لقب الأستاذ. إنه الحلم المستحيل التحقيق.

الحلم الذي يهرب حتى من حدقات العيـون. وأعجز عن رؤيتـه. حتى لو كانت رؤيته بعين الخيال.

أنا الوحيد الذي أعطاه المؤلف فرصة الكلام عن نفسه أكثر من مـرة في هذه الروايـة العجيبة. وهـو لم يعطني هـذه الفرصـة من أجل سـواد عيني. ولكنه وهو يعاني متاعب خلقي اكتشف أن لدي بعض القدرات الأدبية. لا تصدقوا أن الروائي يبدع أو يخلق الأشخاص من خياله. أو أنه يقابلهم في الحياة. ثم يعيد خلقهم من خلال الخبرة اليومية.

إنه يوزع ذاته على الأشخاص الذين يخلقهم في روايته. ولا يتحدث عن نفسـه بصراحـة ووضـوح إلا عنـدمـا يكـون الحـديث من خـلال الآخرين. أما أن يجلس لكي يتكلم عن نفسـه في كتاب يكـون عنوانـه مثلاً: أنا كما لا يعرفني النـاس. أو أشهد أني عشت. فـإنه يكـذب من الصفحة الأولى وحتى الصفحة الأخيرة. لأنه يتحـدث عن نفسه بـدون وسيط. بدون اللجوء إلى معادل موضوعي يتكلم من خلاله.

لا أقول إنني المؤلف. هناك فوارق بيني وبينه. إنه يسكن بين أربعـة جـدران وتحت سقف. ويغلق عليه بـاب له مفتـاح. وفي البـاب عـين سحرية. حتى يرى الطارق على الباب دون أن يـراه. يقال إن وضعهـا سببه أمني. مع أنها أداة للكذب الإجتماعي. وأنا في القبر. كما تعـرفون من قبل. أتعمد تكرار حقيقة وجودي في القبر. لكي لا ينسـاها أحـد. كان بودي وضع هذه الكلمة. على رأس كل صفحة. لـولا الخوف من التكرار. المؤلف يعمل وأنا بدون عمل. أنا من فصائل ذوي القدمين. وهـو من ذوي الأربع فـرد كاوتش. هـو أجاد اللعبـة. لعبة نعم ولا في الوقت نفسه. الهتاف للحياة والموت بصوت واحد. السبـاحة مـع التيار وضده. تعلم كيف ينعم بمال اليمين وكيف يلبس قناع اليسار. عندمـا تقتضي ذلك الأحوال. فهذا القناع يعطي وجاهة لا تمنحها كـافة أمـوال اليمين.

وأنا ما زلت على الحوافي الخارجية للواقع. هو يلعب بالقرب من القمة. مستعد للقيام بدور البديل لمن يقفون في واجهة المسرح. ولعبي في القاع. مدينة الموتى البعيدة عن الأضواء. فروق كثيرة بيني وبينه. ومع هذا أشعر في الكثير من تحركاتي. إنني لست أنا. لست طالب الحقوق الذي يسكن في مدينة القبور. وإن كنت لا أشعر أنه ترك الكثير في داخلي منه. ربما أتكلم في بعض المواقف لغته هو. وأرى الحياة كما يراها هو. وهذا حق لكل من يكتب الرواية. أن تتحول الشخصيات إلى أبواق يتكلم المؤلف من خلالها. وإلى شماعات يعلق عليها أفكاره.

تجربتي مع المؤلف أكدت لي. أن أكبر قدر من الحرية يحصل عليه مؤلف ما. عند الحديث عن نفسه. لا يكون إلا في الوقت الذي يتحدث فيه عن أشخاص روايته. يقول المؤلف إن رحلتي كانت من أهم الرحلات. وهل هناك ما يمكن وصفه أنه هام؟ إن الوعي الذي لا يكون مقدمة لعقل يترجم هذا الوعي. نوع من الترف. نحن نعيش في زمن غير ثوري وشعاره الأول: على كل منا أن يرعى شؤونه الخاصة.

لست متشائماً. أعرف أن الرواية كان يجب أن يكون فيها شخص إيجابي حتى تتعادل الأمور. أقول لكم إن المشكلة في بلادنا الآن لا تواجه نظام الحكم ولكنها تواجه القوى التي تعارضه. والمعادلة الصعبة هي: أن من يفهمون الوضع على حقيقته ومن لديهم قدرة على التحليل والرؤية السليمة. عاجزون عن الفعل. يشكلون مكلمات. حناجر وميكرفونات. ظواهر صوتية. يتكلمون ويتكلمون ويتكلمون. وهم عندما يعومون في بحار الكلمات الرنانة. إنما ينطلقون من موقف المتفرج. وعندما تجرفهم الكلمات. إلى موقف ما. فإنهم يتحولون من المتفرج إلى المبرر. يبررون امتناعهم أو عجزهم عن الفعل. واكتفاءهم بالكلام.

وفي الوقت نفسه فإن القادرين على الفعل. على قلب الهرم السائد. وجعل القاعدة في القمة. والقمة في القاع. هؤلاء لا يفهمون الوضع. يعيشون في بحار الأميات المختلفة. أمية اللغة والأمية السياسية. وعدم القدرة على التفكير. وهؤلاء يشكلون أرضاً صالحة لكل من هب ودب. كل من يستطيع ركوب أحصنة إعلام السلطة لكي يقول لهم ما عنده.

المشكلة لا تواجه الحكم، ولكن التركيبة التي تؤخر الفجر وتبعده طويلاً. تتمثل في معادلة مستحيلة ولا أقول صعبة. أن يحدث تبادل مواقع. أن يفهم القادرون على الفعل. وأن يتحول المثقفون من جريمة الزنا باللغة. والطلب إلى الأحرف أن تقوم بالمطلوب بدلاً منهم. هل يحدث هذا؟ ومتى؟

مشكلة مؤلف هذه الرواية. سواء المؤلف الداخلي أم الخارجي. إنه مثقف. ولهذا ركز كثيراً عليَّ أنا. مع أنني أخوض أغلب معاركي في ذهني. أعود فأقول. إن هذه الرواية ينقصها شخص إيجابي يفعل أكثر مما يفكر. التفكير عنده يقوده إلى الفعل. التفكير مقدمة للفعل. وليس سباحة في بحار مجهولة لا منبع ولا مصب لها. أعتقد أن الجزء الخاص بي في القفزة نحو المجهول قد يكون آخر الفرص لي. للكلام عن نفسي. أو الكلام على لساني إن شئنا الدقة. فلأقل كل ما لدي. هذه المرة. ما دام لا كلام بعد هذا الكلام.

أنا من الذين رفضوا القفزة نحو المجهول. قلت إن المعلوم مهما كان سيئاً أفضل من مجهول لا نعرفه. ومع هذا تحركت مع العائلة من القبر إلى الميدان، أدرك أن يوم القفزة نحو المجهول، من الأيام الحاسمة في تاريخ العائلة [هل شهد جيلنا لحظة حاسمة واحدة؟ المؤلف، هو الذي كبت لفظ الحسم وليس أنا] طلبت من العبقري أن يأتي معي، ولكنه

رفض لذا قمت بالرحلة بمفردي. لنبدأ القفزة نحو المجهول. وإن كان ذلك من أرضيه أخرى. غير التي بدأت منها الأسرة. هم بدأوا من أرض الأدمان والموافقة. من كلمة نعم التي أحنت الرؤوس كثيراً. وأنا أبدأ من الرفض. هيا نهرب من قبضة واقعية الزمان والمكان اللذين يغش أسري لهما.

[الثامنة صباحاً ـ الدراسة:]

لامست عيناي الشوارع والقبور، ثم البيوت والناس، دهشت، هل تغيرت مصر؟ أم أن ذاكرتي لا تحتفظ بصورة الأمس لبلادي. إن لوحات الأمس لا تبقى عل جوار ذاكرة الإنسان، إنها تصبح لوناً من الخواطر القديمة. لم أتعرف على المدينة عندما رأيتها هذا الصباح. وجدت صعوبة في التعامل مع مرئيات كل يوم. حاولت الإقتراب من الناس والتحدث معهم، حاولت إقامة علاقة من نوع ما. تاهت الكلمات. بدت لي أكثر الكلمات إنسانية عاجزة عن إيصال الإنسان بأحد.

قلت في نفسي، هذا يكفي، وقفت في ميدان الدراسة، أفكر في حالة الإنحدار التي وصلنا إليها. الحياة اليومية لا توصف سوى بكلمة المناجاة اللانهائية. لا يعرف أحد متى بدأت ولا إلى متى تستمر. لكن المآسي، حتى أخطرها لا تخلو من قلب رحيم أحياناً. إنها تهب سبلاً للإنقاذ رجل يبحث في بطن المأساة. عن جذورها. ويقتلعها ويخلص الوطن منها. لن أقول أين هذا الرجل ولكنه موجود. كل جزء منه ركب في ركن من أركان وادي النيل. فينا نحن. على كل منا أن يستخرج هذه الأجزاء وبمجرد أن توضع بجوار بعضها البعض. حتى تعود إليه الحياة. ويتحرك لكي يقوم بمهمته المقدسة.

كل مسلمات الحياة لا بد من تغييرها. منذ أن وضع الخليل بن أحمد

أول معاجم اللغة العربية. وتعريفات الفقر والغنى. القدرة والعجز. الجوع والإمتلاء، الثورة والتمرد، البذخ اللا محدود الذي يستحل خبز الفقير. وسن محراث الفلاح. وعرق العامل. وفدائية الجندي. وذهن المثقف لإشباع أقلية لم تعرف معنى الجوع. كل هذه التعريفات تحتاج منا إلى أن نعيد صياغتها وتركيبها. حتى تصبح ملكنا نحن. وبالتالي يصبح من حقنا إستخدامها.

نظرت إلى الناس، مجموعات من البشر لا يملكون سوى تعاستهم، الأغلبية منهم أميون وهذه الحقيقة تعطي الأذن قيمة تفوق قيمة العين. التي تشكل الأداة الرئيسية لتلقي المعرفة. إن الأذن هي التي تتلقى الأخبار والتعليقات. ولكن هذا التلقي غالباً ما يكون سلبياً. وعندما تسود الأحوال. يتكلم الإنسان عن شخص آخر غيره، يصلح الحال المايل.

يقولون إن الجواد موجود. ولكن بدون فارس. إطار تملأه آية صورة. المهم أنه ينتظر الخلاص من خارجة. الجماهير غير الواعية هي التي تفرز الزعامات المنحرفة. حقيقة مؤكدة لا أعرف لم أقولها هنا. الخلل الذي يعانيه وطننا يبدأ من هناك. في وطننا ١٨ مليون فلاح و٦ مليون فدان صالحة للزراعة. أي إن كل فلاح يقابله ثلث فدان. من يملك فداناً واحداً يحرم ثلاثة آخرين من أن يمتلكوا. من يملك عشرة أفدنة. يحرم ثلاثين فلاحاً من أن يمتلكوا أي قطعة من الأرض. ومن يمتلك مائة فدان (والقانون يسمح له بذلك) يحرم ثلاثمائة آخرين من الإمتلاك. ما يبنى على خلل لا يوصل إلا إلى خلل جسيم.

لأعد إلى رحلتي ومع بدايتها أتساءل. من الذي يسيِّر الأمور من عائلتنا الغريبة. ومن الذي يدفع أفراد العائلة لتنفيذ ما يطلبه المليونير؟ أشك في وجود أحد يقود. لدي يقين أن الأمور تسير بقوة الدفع

الذاتي. تسير هكذا من نفسها. من يرَ المليونير عن قرب. يدرك أنه لا يقود أحداً. إنه يترك الأمور تسير. تجري من سيىء إلى أسوأ. وإن أصابت يكون هو القائد والزعيم الملهم والمفكر. وإن خابت تلقى التبعة على شخص آخر غيره. يقال إنه تسبب في الفشل. ومن السهل العثور على كبش فداء يتحمل المسئولية. تلك هي القاعدة في عائلتنا الغريبة والعجيبة.

[- التاسعة صباحاً - شارع الموسكي:]

أحب الشوارع المزدحمة. من يظن أن كلمة الإزدحام تعني الكثير من البشر؟ كان هذا في زمان مضى وانقضى. الزحام في أيامنا يعني. تلال البضائع. أهرامات ليست من الحجارة. ولكن من الحقائب والملابس الجاهزة والمعلبات وعلب البسكويت والأدوية والعقاقير ولعب الأطفال وملابس النساء الداخلية. والمأكولات الواردة من كافة بلاد العالم.

زحام. في كل مكان محلات. وأمام المحلات أرصفة. وعلى الأرصفة بضائع تحاصر الإنسان. أينما اتجه. بالنسبة لي. تصبح الفرجة نوعاً من الهروب من التأجج الداخلي. من التفكير غير المحدود. حيث أقطع المسافات. أحدق بصورة آلية في البضائع. والجياع الذين تلهبهم هذه البضائع بسياط الرغبة القاتلة في الإمتلاك. ليس مهماً أن تكون هذه البضائع هامة أو تافهة أن يكون هناك احتياج لها. أم أنها زائدة عن الحاجة. إنها الرغبة في أن تمتلك ولا شيء أكثر من هذا. تسلية وحيدة بالنسبة لي إسمها الفرجة.

سأكون كاذباً إن قلت إن الهدف منها هو الفرجة على البضائع وعلى من يتفرجون على البضائع وعلى خطوط النظرات التي تسيل منها الرغبة الحارقة في الإمتلاك. هناك أمور أخرى. الأرداف اللينة. والعيون التي يطل منها فحيح الجنس. والصدور التي توشك على الوقوع من كثرة

الإهتزاز. تتوه النظرات في أبخرة لحظات الجنس الطاغية.

من قبل كان الجمال في نظري يرتبط بالحشمة. أكثر النساء جمالاً هي ما تخفي معظم ما لديها تحت ملابسها. جمال أيامنا فيه فجور ورغبة في الإستعراض. جمال شهواني ومثير وأخاذ. ولكنه يخلو من الجانب الإنساني. كل امرأة تسير بجوار رجل. يبدو أنه زوجها. وهي تمشي في حالة استعراض مثير. كأنها عارضة أزياء أو ممثلة. أو إحدى بنات الليل. تؤكد لك أنها في حالة ظمأ لرجل يطفىء رغبتها. ويطل السؤال: والرجل الذي يسير بجوارها؟ يزداد الغنج والحركات. وتقول لك ارتجافة الشهوة في تحركات جسدها. إن الرجل عاجز وعندما تنظر إليه. إلى انطفاء الحياة في عينيه. وإلى حلته المكرمشة والتي لم تنظف أو تكو منذ فترة طويلة. وحالة الترهل وعدم التناسق في جسمه. تدرك سر المأساة. الفاتنة التي بجواره حولته. إلى آلة. توصلها لمستوى اجتماعي معين.

وبعد الوصول إلى هذا المستوى. كانت هناك مأساة الحفاظ عليه. يتحول الرجل إلى آلة. وتسلب منه الرجولة والمستوى الاجتماعي الذي وصلت إليه الأنثى. يتطلب وجود رجل في فراشها كل ليلة. تعود إلى رجلها. فتجد انه تبخر. كائن لا وجود له. حيوان يدور في ساقية. وان كان غير معصوب العينين. فيدوخ من كثرة اللف والدوران. ولا تتوقف الأنثى. لا تقول لنفسها. انها استبدلت رجل الفراش بآلة جمع النقود. لا بد من المال والفراش معاً. ما قيمة الملابس والمسكن ان أصبح الفراش كالقبر خالياً من الرجل. وما دام الرجل تخلى عنها في منتصف الطريق. ليكن هناك رجل آخر. واحد للشقة وآخر للفراش. وتوزيع الأدوار بينهما أمر سهل. رجل الأسرة تجلس معه. وتستعرض جمالها في الشارع بجواره. وكلما ازدادت حالة البهدلة التي تطل منه. أظهر ذلك مدى جمالها.

ورجل الفراش لا تعرف حتى اسمه. طول بعرض. وأصغر منها بعشر سنوات. وقادر على اعتلائها في أي وقت تشاء. تستمتع هي بامتصاص رحيق شبابه وبريق رجولته. ليس مهما هو.

كنت أتوه وأنا أنظر إلى أي إمرأة مع زوجها. ثم تقودني الأفكار إلى هذا الحد. كنت أنظر إلى نفسي في مرآة. فأجد انني لا أختلف كثيراً عن الزوج الذي انطفأت الإنسانية في ملامحه. كهل قبل الأوان. من الصعب ان ترضى بي إحدى هؤلاء. وان كان طريقي إليها فراش الزوجية وليس فراش العاشق.

الشوارع مليئة بشباب. طول بعرض وبدون عمل أو أمل في المستقبل. ومفهوم الأخلاقيات اتسع في هذا الزمان. من يتكلم عن الخيانة الزوجية رومانسي. من يعلق أهمية على الوفاء محنط. ومن يقول ان هذا شرعي. وذاك حرام. خارج لتوه من الكهف الذي عاش فيه قروناً وقروناً. مشكلتي معقدة. لا أواجهها سوى في لحظتين. اللحظة القاتلة التي تسبق النوم كل ليلة. حيث الأرق الذي يدق عظام الرأس. أو لحظة المشي بلا هدف في الشوارع المزدحمة.

أقول لنفسي. عندما يعجز الإنسان عن تحقيق ذاته. يلعب الخيال الدور الأكبر في هذا. وبعين الخيال أفعل كل ما أتمنى فعله وأعجز عنه. الإحساس بالحرمان يصل إلى درجة ان لا يصبح حالة تنتهي بالأرتواء. بالنسبة لي الحرمان جزء من طبيعتي. حتى لو ارتويت لو فعلت كل ما أتمناه. سيصبح الحرمان جزءاً من هذه الطبيعة.

يوم الجمعة يصل الزحام إلى ذروته في هذا الشارع. زحام له طبيعة خاصة. الليلة السابقة هي ليلة الخميس. ليلة قاسية بالنسبة لي. أسهر في الخارج. ترفيه الفقراء. أجلس على مقهى. أتمشى. أحاول الذهاب إلى السينما. يمنعني ارتفاع أسعار التذاكر. أجري مفاضلة بين ثمن

التذكرة. وتكاليف وجبة العشاء في أي مطعم شعبي رخيص.

ليست لي موارد مالية خاصة. وأتساءل: أيهما أكثر أهمية. غذاء العقل أم البطن؟ الرد واضح غذاء البطن أولاً. الملايين في بلادي يعيشون بدون عقل أصلاً. ومع هذا تستمر الحياة بالنسبة لهم. ليلة الجمعة. اسمع عنها في المقابر انها ليلة مفترجة. يقولون مساء الخميس يكثر القفز والترفيص. ليلة الآهات والتأوهات والسباحة. سباحة الأجساد في بحار العرق الجنسي. غيبوبة يهربون بها من خواء البطن وفراغ العقل وجدب الواقع وغموض المستقبل لدرجة الابهام.

كنت أتصور ان الجنس نوع من الصلاة. لمبدع الأنثى. ولكن سماع التأوهات والحركات العنيفة والبكاء في المقابر المغلقة. جعلني أدرك أنه هروب وعجز. لا أدري لم أسمع البكاء في لحظات الجنس في دنيا المقابر؟ لديَّ عادة سيئة وهي التنصت على لحظات الجنس. بعد التأوهات والقبلات يأتي البكاء. ويكون من الرجل. يقال إنه من كثرة اللذة. ولكنه بكاء خشن. فيه قسوة. ولا يمت للحزن بأي صلة. ليلة الجمعة أمشي كثيراً. حتى تؤلمني قدماي. وأنا لا أمشي لأنني مولع برياضة المشي. ولا لأنني أعاني من حالة سمنة. علاجها المشي. ولكني أمشي حتى أتعب. أضمن ان أنام فور وصولي إلى القبر.

نجحت الفكرة أحياناً. ولكن هناك شعرة صغيرة تفصل بين التعب الذي يؤدي إلى النوم. والتعب الذي يوصلني إلى حالة من الأرق القاتل. أحياناً أمشي حتى تتورم قدماي. والتعب في هذه الحالة لا يعلن عن نفسه. إلا بعد الوصول إلى البيت والنوم. حيث يبدأ الألم خبطة في قاع القدمين وعظام الساقين. ألم منظم ورتيب يسلمني لأرق قاتل. ليلة الجمعة أعود في لحظة انتصاف الليل. أحب هذه اللحظة لأنها الوحيدة التي أشعر فيها بألفة مع القاهرة. المدينة الخالية. الشوارع المغسولة

بالصمت والوحدة. أنظر إلى البيوت المضاءة والمسدل عليها ستائر حمراء. أقول لنفسي الكل ينام ما عدا هذه الغرف. انها لحظات الجنس. الغرف عالية ولن أسمع التأوهات ولا الغنج.

أتساءل: في الأحياء الراقية كيف يمارس سكانها الجنس؟ بأي الطرق يفعلون هذا؟ هل تجري الأمور مثلما تجري عندنا. وهل يبكي الرجال في لحظة الشبق على صدور نسائهن. أتخيل المشهد الخالد. إمرأة عارية تماماً. نائمة على ظهرها. ترفع فخذيها مفتوحين. بياضهما مثل الحليب. وثمة رجل. أسمر. جسمه مليء بالشعر الخشن. يأتي من خلف السرير يدخل بين فخذيها. ثم يبدأ في الحركة. عقب اتصال اللحم باللحم. الحركة تبدأ رتيبة يهتز معها السرير ببطء. ثم يتحول البطء إلى سرعة وفق نظام معين. حتى لحظة ما. بسبب العنف في الحركة. يقع السرير على الأرض. تحدث كركبة وضجة. أتصور في هذه اللحظة ان يصحوا الأبناء من النوم على صوت الحادث المثير. أحصى الغرف المضاءة في شارع واحد. مائة غرفة. أقول هنا مائة رجل ومائة إمرأة في وقت الوصال. وهذا معناه مائة مخلوق تعس جديد في الطريق إلى الدنيا.

لا يهمني ان كانوا أزواجاً أم عشاقاً. يصل عدد الغرف المضاءة أحياناً إلى أكثر من ألف. أفكر في التجول ببعض الشوارع الأخرى. ولكني أستعجل طريقي نحو القبور. ففي القبور ميزة وحيدة. انها من دور واحد. يمكن التنصت فيها بسهولة. وفي الصباح. أحاول رؤية المرأة التي سمعت تأوهاتها في الليل. أطابق الصورة التي رسمتها بخيالي لها في الليل. كانت سريعة الحركة إذن فهي رشيقة. كانت بطيئة الحركة إذن فهي إما بدينة أو مريضة أو تحب رجلاً آخر. وتنام تحت زوجها كجزء من واجباتها كزوجة له.

واحدة كانت كثيرة التقبيل. إذن شفتا زوجها دسمتان. وفي الصباح اكتشف ان معظم تخميناتي لا أساس لها من الصحة. من حقي الحديث عن مشكلتي الأزلية. حتى وان كان الحديث يبدو غريباً عن موضوع الرواية. الجنس هو مشكلتي الأولى. من ير التطور المخرب الذي أصاب المجتمع. يقل: إن الجنس متاح للكل. وهذا صحيح. ولكنه أصبح غالي الثمن. مرة تمكنت من الحديث مع امرأة متوسطة الجمال ومتقدمة في العمر. بائسة مثلي. ولهذا قبلت ان تحدثني. وبعد ان تكلمت عن الجو وزحام الشوارع وارتفاع الأسعار المهول، والأرصفة المثقلة بالبضائع. والمشنات البلاستيك المستوردة. والمقشات البلاستيك التي أتت من بلاد الخارج. والتي ثبت بالدليل القاطع انها تكنس أفضل من المقشات البلدي القديمة وتساءلت: أليس من الأفضل ان تكون لنا بيوت أولاً حتى نبحث عن المقشات التي نكنسها بها؟

نظرت إلى المرأة. فاكتشفت ان لها عيناً زجاجية ثابتة لا تستطيع تحريكها. عدت أتكلم عن النظارات السوداء كمحاولة لتغطية مثل هذه الأعين. وفكرت: كم تبدو هذه المرأة مزعجة في الفراش. خاصة وانها في لحظة الشبق ستحرك عيناً. ولكن العين الأخرى لن تتحرك أبداً. فتبدو وكأنها عين شخص آخر يشاهدنا معاً.

نظرت إلى المرآة. فقالت باختصار: هل لديك مكان نتكلم فيه بدلاً من الشارع؟ فرحت. قلت ان المرأة تريدني. أول مرة أجدني مرغوباً من أنثى. ليس مهماً هل هي أنثى أم لا. المهم انها من نفس الفصيلة. المكان يعني الخلوة. والخلوة فيها سرير والسرير صنع من أجل المضاجعة.

قلت لها. ليس لدي مكان. قالت لي انها تعرف الكثير من الأمكنة. ولكنها تتطلب نقوداً قلت موافق. قالت: هل تحب ان يكون المكان شقة

أم استديو أم حجرة في فندق. توقفت أمام الاستديو وقلت لها اننا لن نذهب من أجل التصوير ضحكت. وضربتني في صدري. وقالت انني خام. بانت أسنانها الذهبية المغطاة بطبقة من الدخان فاكتملت الصورة في ذهني.

قالت اننا لن نذهب من أجل التصوير ولكن من أجل الركوب. فوق الكنبة في غرفة التحميض فوق الأستديو. سألتها عن الأسعار. قالت: ان الشقة بخمسة جنيهات في الساعة. والغرفة في الفندق بجنيهين في الساعة. ولكنها تتطلب ان تكون معك بطاقة عائلية خوفاً من شرطة الآداب. وكنبة الأستديو بثلاثة جنيهات. ولا بد من تصويرنا حتى يكون هناك مبرر للبقاء في انتظار تحميض الصورة. وان كان صاحب الأستديو يحصل على مبلغ التصوير ولا يصور وانما يكتفي بإخراج إيصال بالمبلغ. ويقول انه المسئول بعد هذا.

حسبت ما في جيبي فوجدته لا يصل إلى عشر أصغر العروض. استأذنت منها. وقلت انني مرتبط بموعد هام. فانطلقت تشتمني بألفاظ لم اسمعها من قبل في حياتي. من يومها وأنا أقول ان البحث عن المرأة يبدو قفزاً فوق الواقع. الصواب هو البحث عن المكان أولاً. المرأة ليست مشكلة. سمعت ان بعض القبور تؤجر بالساعة. ولا بد وان إيجارها أرخص قررت معرفة الأسعار وأماكن هذه القبور. لعل وعسى. انها مشكلة لا أعاني منها وحدي كل من أقابلهم من الشبان. بعد التعارف والأخذ والعطاء. في الحديث. يكون السؤال الأول. واحد ينطلق منا نحن الأثنين في صوت واحد:

ـ ماذا تفعل في مشكلة الجنس؟

وأخجل هنا من نقل الإجابات التي أسمعها رداً على هذا السؤال.

العاشرة والنصف ـ ميدان العتبة:

نظرت إلى سماء الخريف. حيث تتناثر فيها السحب الكـاذبـة. لا تحمل المطر ولا الخير ولكنها تشغلنا بعبورها. دققت النظر في السحابة. فوجدتها تدور وتأخذ شكل البومـة. فحدثت لي حـالة من التشـاؤم. لو كان الأمر بيـدي لأرجعت العائلة. ولـطلبت منهم القيام بالقفزة الأخيرة نحو المجهول في يوم آخر. ولكني رفضت السـير معهم. وهذا الـرفض لا يجعل أي واحد منهم يأخذ كلامي مأخذ الجد ولا حتى بحسن نية.

سيقـولون إنها مؤامـرة مني. مشيت في طريقي وقلت: اللهم اجعله خيـراً. في ميدان العتبـة. وقفت أمام محـل لبيع الأحـذية. تـذكرت ان حـذائي الذي ألبسـه كان مستعمـلاً. لـم يحدث من قبـل ان اشـتريت حذاءً جديداً. الظروف لا تسمح. كلنا نلبس أحذية مستعملة يشـتريها لنا المليونـير. يحضر معه أي زوج من الأحـذية. ويقيسـه على مقـاسنا. واحـداً بعد الآخـر. حتى يعرف من الـذي أتى الحـذاء عـلى مقـاسـه. فيأخذه.

أحياناً يأتي الحذاء على قياس إثنـين منا. واحـد يكون متسعـاً قليلاً. والآخر ضيقاً قليـلاً فيلبسه الإثنـان بالتنـاوب. واحد يضـع ورقة عنـد اللبس فيضيق الحذاء والآخر يخرج الورقـة ويبلله بقليل من الميـاه فيبدو متسعـاً. كلنا نفعـل هـذا. دون ان نفكـر في الأمـر. وأمـام محـل بيـع الأحذية فكرت في الأمر. فبدا لي بشعاً. تساءلت: من الذي استعمـل هـذا الحـذاء قبـلي؟ ربمـا كـان مـريضـاً. ربمـا مـات وهـذا الحـذاء من المخلفات. بما كـان مسروقاً. كـان هناك شخص يقف بجـانبي. ونظر لحذائي. النظرة طالت لم يحول عينيه عن الحذاء.

سألت نفسي: من يدري. قـد يكون هـو صاحب الحـذاء الأصلي. الذي سرق منه. كل الأمور جـائزة في هـذه الأيام. تصـورت باقي مـا

سيحدث يمسك الرجل بخناقيْ. ويطلب مني الذهاب معه إلى القسم. وتكون فضيحة تمنعني من متابعة القفزة نحو المجهول. لم استرح إلا بعدما مشى الرجل. فكرت في شراء حذاء. أليس غريباً ان تكون كل الأحذية مستعملة؟ قلت لأدخل المحل. مرة في العمر. ليس مهماً ان اشتري ولكن لكي أقول انني دخلت محلاً للأحذية في العتبة. على الأقل لأخذ فكرة عن الأسعار.

باب المحل زجاج لونه بني غامق. في منتصفه لافتة بيضاء. مكتوب عليها: المحل مكيف. لم يكن مطلوباً مني إغلاق الباب بعد الدخول من فضلي لأن الباب يغلق تلقائياً بعد دخول الزبون. شاهدت هذا على الذي دخل قبلي فقلت انها فرصة أيضاً للتعامل مع الأبواب التلقائية. دخلت المحل متهيباً.

عندما داست قدماي على الأرض غاصتا داخل طبقة طرية. تصورت أنني أخطأت الطريق. نظرت فوجدت سجادة لا تبدو منها قدماي. سعدت فالسجادة ستخفي حقيقة الحذاء الذي غاص فيها. اسرعت دقات القلب. ونبتت حبات عرق في أكثر من مكان. بلعت ريقي. واقتربت من البائع. الذي بدا لامعاً مصقولاً. قلت انني دخلت المحل من أجل الاستفهام. أما الشراء فسيكون غداً. ماتت البسمة على وجه البائع. سألته عن الأسعار. وبدلاً من الرد عليّ سألني البائع بدوره:

ـ فوري أم بالتقسيط؟

ـ تقسيط؟

ـ طبعاً.

انطلق الرجل في حديث طويل. المحل عبارة عن شركة استثمارية. رأسمالها مصري وعربي وأجنبي. انها محاولة لحل مشاكل المواطن

العـادي . والشركة تعلن الحـرب على الحـرمـان وتـطارد الغـلاء . لهـذا قررت البيع بالتقسيط المريـح . ما ذنب المـواطن العادي الـذي لا يملك ثمن الحذاء مرة واحدة . لماذا يحرم من امتـلاك حذاء؟ ان ثمن الحـذاء ١٨ جنيهاً [ثمانية عشر جنيهاً مصرياً لا غير مكتـوبة بـالحروف والأرقـام خـوفاً من الخلط في القـراءة] . البيع بـالتقسيط للعـاملين في الـدولـة أو القطاع العام أو القـطاع الخاص . ويمكن النـظر في طلبات العـاملين في شركات الاستثمار الجديدة . وان كان هؤلاء لا يشترون الحـذاء بالقسط لأنهم يملكون ثمنه الفوري .

المـطلوب من العامل هـو إحضـار شهـادة من جهـة العمـل انها عـلى استعداد لأن تخصم من مرتبه المبلغ المطلوب وتورده لحساب الشركة في البنـك . وهو أيضـاً بنك من البنـوك الاستثمـاريـة الجديـدة . التي تـودع أموالها خارج البلاد . يدفع الموظف ستة جنيهـات لحظة الحصـول على الحذاء ويقسط الباقي على عام . بواقع جنيهاً واحداً لكل شهر .

المفروض ان يكون الـدفع بـالعملة الصعبة . لـوائح المحـل تفرض هذا . ولكن المحل . من أجـل التسهيل عـلى الجماهـير قرر التنـازل عن هـذا الشرط . رغم انه بـذلك يخرق شرطاً في قـانـونـه . المـطلوب هـو التسهيل على المواطن الصغير . وهكـذا تقرر القبـول بأن يكـون الدفـع بـالجنيه المصري . ولكن ذلـك لفترة زمنيـة صغيرة . انها فـرصة متـاحـة للكل . ولن تستمر سوى أيام قلائل . وبعدها سيكون الدفـع بالـدولار أو الإسترليني .

أخرج البائع اللامـع آلة حـاسبة صغـيرة لم أرَ أصغر منهـا من قبل . وأجـرى حسبـة سريعـة . وقـال لي : ان ثمن الحـذاء سيكـون في هـذه الحالة . ١٥ [خمسة عشر] جنيهاً إسترلينياً و ٢٢ [إثنان وعشرون] دولاراً أمريكياً و ٨٠ [ثمانون] سنتـاً . وان اشتريت ـ قـال البائـع اللامـع لي ـ

بالدولار. كيف سأجد الثمانين سنتاً هذه؟ وان اشتريت بالتقسيط. لا بد من ان تدفع الأقساط بالدولار. وان قبلت بأي الأسعار تسدد. هل بالسعر التشجيعي أم بالسعر الرسمي أم بسعر السوق السوداء. وهو أقوى الأسعار.

قال لي بعد ان ضرب جبهته ووضع الآلة الحاسبة في جيبه. انه نسي شرح حكاية الشهادة التي يحضرها الموظف من جهة عمله. هذه الشهادة فيها طبيعة العمل. والدرجة المالية. والمؤهل الدراسي الحاصل عليه. أحذية المحل لا يرتديها كل من هب ودب. لا بد من وجود حد أدنى لمستوى من يلبس الأحذية. وان تتعهد جهة العمل ان لا تمنحه إجازة عادية او اعتيادية أو حتى مرضية أو بدون مرتب وان لا توافق على سفره إلى خارج البلاد. قبل الإنتهاء من تسديد الأقساط. وبعد ان يكتب لها المحل ذلك في خطاب رسمي.

وهناك إقرار أخير يؤخذ على المواطن سعيد الحظ الذي يحصل على الحذاء. بأن يرعاه ويلمعه بعناية وأن يعلن عنه بكافة الصور وفي المناسبات الهامة أن الحذاء من هذا المحل. وإن لم يفعل هذا سيعرف المحل. لأن له جهازاً يراقب كل من يتشرف بالشراء منه. في حياته اليومية طوال العمر الإفتراضي للحذاء وهو شهر واحد فقط. بعده يصبح من الضروري إحالة الحذاء إلى المعاش. وشراء آخر بدلاً منه لأن لبسه بعد هذا العمر يسيء إلى المحل وصناعته. خاصة وأنه حذاء مستورد. والحذاء المستورد يتعرض لمنافسة غير مشروعة من المصنوعات المحلية المتخلفة.

قبل ان ينهي الرجل كلامه. كنت قد خرجت من المحل. عندما كنت أعبر الباب. القدم الأولى على الرصيف والأخرى على السجادة الطرية. والباب يريد ان ينغلق وصراع الهواء المكيف والهواء الملوث

الخـارجي بأنفـاس عباد الله يصـل إلى لحظة الـذروة. في هذه اللحـظة هتفت بأعلى صوتي:

ـ مدد يا عصر الدولار ورد.

الثانية عشرة ـ منطقة وسط المدينة.

في الخارج واصلت طريقي. تذكرت مهمة كنت قد قررت القيام بها بمجرد الوصول إلى منطقة وسط المدينة سأنقل كل مـا تقع عليـه العين. مهـما كانت درجـة أهميته وسأثبته في أول كتـاب عن يـوم القفـزة نحـو المجهـول. وستكون هـذه الطريقـة أكثر إثـارة من طريقـة المؤلف الذي تنقصه حرارة الالتصاق بالواقع وصدقه. وهو ما يتوافر في كتابي أنا.

وصلت إلى بـداية المكـان الذي سـأدون منه عجـائب هذا الـزمان. أخرجت الورق والأقلام وبدأت الكتابة. حمدت الله ان اليوم يـوم جمعة. لا يـوجد عـدد ضخم من المارة. وإلا كـانوا قـد نـظروا إليّ بـاعتبـاري مجنوناً. ومن يدري إلى أي مدى كان يمكن للأمور ان تتطور.

قبـل البدء في الكتـابة. قفـزت بذهني إلى آخـر الرحلة. فكـرت في مكان أستطيع منه مراقبة الأمر كله. احترت. مطلوب ان يتوفـر في هذا المكان شرطان: الأول ان يكون مرتفعاً يمكن مراقبة كل ما يجري منـه. حتى أتمكن من التسجيل بأمانة. خـاصة وان هـذا التسجيل لن يكـون من أجل الجيل الحالي. ولكنه تسجيل للأجيال القادمـة. مهمة مقـدسة أقوم بها.

مـا يجري اليـوم بدايـة سقوط مـدمر وطـويل في تـاريخ الأسرة. لن تستطيع الأسرة القيام بسهولة من هذه السقطة قبل مرور وقت طـويل. السقوط لم يبدأ من اللحظة. التي اتخذ فيها قرار الـرحلة. بدأ السقـوط من قبل. أرفض القول بأن قرار الـرحلة كان انقـلاباً في حيـاة الأسرة.

انه استمرار. البذور موجودة حتى قبل ان يكون للمليونير الدور الأساسي في إدارة أمور العائلة. واستمر الأمر إلى أن وصل إلى تعبيره المأساوي في الرحلة. من القبر إلى المزاد.

لا أحد يعرف متى بدأت الأمور في التدهور. ولكن تصوري انها ربما بدأت قبل حضورنا نحن إلى هذا العالم. فكرت في المكان الذي سأجلس فيه في ميدان التحرير. قلت إن الشرط الأول هوأن يمكنني من الرؤية الجيدة. والثاني ان يكون الجلوس فيه بدون مقابل. لأنني لا أملك ما أدفعه مقابل الجلوس ومشاهدة ما يجري تحتي. طوال الرحلة والمشكلة تؤرقني. ولكني عندما وصلت إلى الميدان وجدت الكوبري العلوي الجديد. سأجلس عليه ومن فوقه يكون رصد ما يجري.

اخترت أقرب مكان لقاعدة التمثال الحالية. وجلست أخرجت القلم والأوراق بيدي. قلت انني سأدون كل ما يجري أمامي فور حدوثه. عدت للتفكير في أمور عائلتنا الغريبة. عندما وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه. قررت ترك العائلة. من الممكن محاولة السكن في المدينة الجامعية. الأمر قد يبدو صعباً لأنني من أبناء القاهرة. وقوائم انتظار الطلاب القادمين من الريف بلا حدود. أعرف هذا. ولكن بلدنا له وضع خاص. الواسطة خلقت من أجل ان لا يكون هناك كلمة ممكن وكلمة مستحيل. انها تدوس أية قواعد موضوعة. حتى وان كان الهدف من القواعد هو الصالح العام. يضاف إلى هذا ان ظروفي صارخة. ومن السهل استثنائي. كنت أفكر بهذه الصورة.وكنت كلما اقتربت من القرار ازددت تردداً. ثم أتت حكاية البيع في ميدان عام. ما كان الأمر مفاجأة. المليونير أوصل العائلة إلى وضع يمكن ان يحدث فيه أي شيء. ولن يستغرب أحد الوضع.

ما أثار حزني هو موقف العائلة من قرار البيع. تصورت انه سيكون

هنـاك رفض. وان مشكلة المليونـير هي اقناع العائلة بـالقرار. صمت الكل. لن أقول ان الصمت عـلامة المـوافقة. ولكن في الوقت نفسه لم يكن هنـاك من كان رفضـه فوريـاً. لم يفكـر أحـد في قـول لا. نـظرت إليهم. قلت في نفسي. كيف عشت مـع هؤلاء القوم كـل هـذا العمـر الـذي مضى. دون ان أدرك أي نوع من النـاس هم. تسـاءلت: كيف أحببتهم وارتبطت بهم. ؟ هل صحيح ان الدم الـذي يجري في عـروقي هو من نفس الدم الذي يجري في عروقهم؟.

قطعة من الرخام أصبحت تفصل بيني وبينهم. محال أن يكون هؤلاء أهلي. لا يمكن أن تكون الموافقة بل والإذعان بهذه الصـورة. لا أكذب عندما أقول انني بدأت في الدخول. في علاقات جـديدة معهـم. لا تمت إلى العلاقات القـديمة بـأية صلة. يـومها أعـدت النظر في قـراري بترك العـائلة. بدأت حـالة السقـوط ولا يجب التخلي عنهم. المسـألـة ليست البحث عن الخلاص الفردي. ما يهمني هو خـلاص العائلة. ولهـذا لا يجب تركها. الكـلام يوصلنـا إلى قرار الـرفض. هناك من يقـول ان في الأمـر تناقضـاً. رفض الخلاص الفـردي كـان يتـطلب أن أكـون مـع العـائلة. ولكني أرد أن هذا منـطق غـير سليم. لقـد رفضت الخـلاص الفردي ارتباطاً بالعـائلة. ولكن هذا ليس معنـاه السير في نفس الإتجـاه الخـاطىء. الذي يسـير فيه الكـل بروح وإحسـاس القطيـع. معناه أن أتلمس الطريق السليم وأسير فيه.

لا أقـول انني أصبحت قدوة. ولكني أقـدم شكلاً عمليـاً لرفض مـا ينوي المليونير الإقدام عليـه. أحب الكلام عن الـرفض. الكلام يـدور حول سؤال: ماذا فعلنـا بهذا الـرفض؟ ان الرفض في حـد ذاته مـوقف سلبي. والمأساة اننا رفضنا فقط. دون ان نقدم بديـلاً للمأسـاة. وعدم تقـديم الحل. حـولنا من أصحـاب الفعـل. إلى من يبـدأ دورهم بعـد

انتهاء أفعال الآخرين أي مجرد ردود أفعال. ربما كان الحديث عن البديل سخافة. أي بديل. وقد تحولت العائلة كلها. الكتلة البشرية إلى سلعة. البديل معناه ان يكون هناك أكثر من طريق والبديل يضعف أمام الاختيار والتفضيل بين طرف وآخر. ولكن المليونير دفعنا إلى موقف صعب. إما نحن وإما هو.

مساحة من الأرض الموجودة لا تكفي سواه. وحده. الرحلة أولاً ويجب الكلام بعد هذا. والمؤسف ان المليونير ارتكب خطأ جسيماً لم يقدم الرحلة كمخرج من الأزمة وكفى. يمكن الموافقة عليها أو رفضها. دون ان يتحول الرفض أو القبول. إلى أساس لموقف العائلة من الأفراد. أو موقف الأفراد من العائلة. لقد حول الرحلة إلى جزء من العائلة. من مسلماتها. هي العلاقة الوحيدة المسموح بقيامها بين أفراد العائلة. وهذا خطر على العائلة وعلى الرحلة معاً. الغريب ان السقوط أصبح هو الفعل. في الوقت الذي تحولنا فيه إلى رد فعل. هل يتصور أحد ذلك. نحن نجلس وننتظر حتى يفعل المليونير ما يشاء. ثم نفكر في الرد عليه. وهكذا يصبح المليونير هو الأصل ونحن الفروع.

المليونير ضحك علينا. بالطريقة التي تناول بها الأمر. في البداية قال انه يطرح الفكرة للتنفيذ وليس من أجل المناقشة. وهكذا أصبح أمل كل منا ان نناقش الأمر. لأن المليونير منع هذا النقاش. وتلك حيلة خبيثة. جعلتنا بدلاً من رفض الفكرة ناقشناها. وتصور البعض ان بهذه المناقشة ينعم بحرية منحها له المليونير بأريحية لم يعد لها وجود في هذا الزمن الرديء.

لا بد من طرح سؤال محدد: ما هو الحل؟ لا أقول الحل لأسرتنا ولكن لآلاف الأسر. لأكن واقعياً. لملايين الأسر التي تعاني نفس مأساتنا. الغريب ان كل أسرة تناقش الأمر على انه مشكلتها وحدها:

مـع ان المشكلة ليست فرديـة . انها مشكلة عامـة . يعـاني منهـا الكـل . أرفض القـول انها إحدى مشـاكـل عـالم اليـوم . مـا لنـا نحن والبلدان الأخرى . هنال الدخول مرتفعة . وهنـاك لا تسمح الـدولة بـأن يصبح المجتمع بحيرة سمك . يأكل الكبير فيها الصغير .

من قال اننا نعاني من أزمة إسكان؟ تضليل أرفضـه . أعطني عشرين ألف جنيـه وسـأسكن في نفس اليـوم . في شقـة تـرى النيـل جـاهـزة للتسليم . أو على المفتاح كما يقولون . لندع حكاية العشرين ألف جنيه . لأن من يملكها لا بد وان يكون مهرباً أو مرتشيـاً أو عمولاتي . وهـو من يحصل على أكبر قدر من العمولات .

تعالوا نحصي الشقق المغلقـة بدون سكن في القـاهرة . والشقق التي تستخـدم كجارسـونيرات لنجـوم المجتمع والشقق الإحتيـاطية . وهـذا العدد الهائل من الشقق المفروشة . لو أنشىء في الغد سجل عينـي لكل عقود الإيجار في القـاهرة لاكتشفنـا العجب . أؤكد لكم ان عـدد الشقق المـوجودة حـالياً والخـالية يحـل المشكلة من أساسهـا . لكن المشكلة لهـا أبعـادها . ولهـا أيضاً تـاريخ . من قبـل كانت الـدولة ، ممثلة في محـافظة القاهرة تبني الشقق . مقسمة حسب التقسيمة الخالدة في مصر . مساكن شعبية ومساكن اقتصادية وإسكان متوسط [دائماً حكاية الوسـطية حتى في المساكن] . شقق إسكان متوسط متميز وإسكان فاخر .

هذه الشقق كانت تؤجر وفق نظام معين . كل نظام له استثناء . ومع مرور الوقت تنـزوي القاعـدة وتصبح هي الاستثنـاء والاستثناء يصبـح القاعدة . سأقول ان الشقق كانت توزع بدون قواعـد سأفـترض انه من بين كل عشرة يحصلون على شقق . يوجد أثنان يستحقان . وثمانية دخلوا من أبواب الاستثناءات التي أصبحت قاعدة . ألا يعد هذا حلاً .

منـذ فترة تـوقفت المحافـظة عن البنـاء للتـأجـير . استبـدلت كلمـة

الإيجار. بكلمة أخرى هي: للتمليك. الشعار جميل. من حق كل مواطن ان يمتلك شقة. ويرضي الرغبة في التملك الموجودة لدى كل إنسان. انها شهوة التملك التي تعيش داخل كل منا. ولكن ان كان الحد الأدنى لأسعار الشقق هو عشرة آلاف جنيه. فكيف يقال انه من حق كل مواطن ان يمتلك شقة. الأصح هو ان نقول: انه من حق كل مواطن فئة العشرة آلاف جنيه فما فوق ان يمتلك شقة.

سمعنا الكثير عن مبررات التمليك. وانتهاء عصر الإيجار. كلام عن دورة رأس المال والربح وموارد الدولة والقدرة على البناء بسرعة. لأن الأموال ستعود بنفس السرعة ولم نعد نسمع عن التأجير. قالوا: كيف نبني عمارة تتكلف مائة ألف جنيه. ويكون عائدها الشهري مائة جنيه. الجنيهات المائة لن تمكننا من بناء عمارة أخرى قبل مرور سنوات، الغريب اننا نجزىء الواقع إلى جزئيات. ونصر على التعامل مع كل جزئية على حدة. المسألة ليست الإسكان. كل ما جرى في هذا الميدان كان جزءاً من كل.

أعود إلى السؤال. ما الحل إذن؟ في ميدان التحرير سيقدم المليونير ما يتصور انه الحل. وأنا هنا. الذهن يلف ويدور حول الحل. أقول. ان الحل يكمن في وضع الهرم المصري الشهير. لا بديل عن الإمساك بالهرم وقلبه. قاعدة الهرم حالياً تكونت من الذين لا يملكون الطعام أو المسكن أو الملبس. وما يحرم منه الملايين في القاعدة الضخمة. يملكه شخص واحد في القمة الضيقة. كان لا بد وأن نفهم نحن سكان القاع. ان أساس أي ملكية هو السرقة. ومن في يده جنيه واحد زائد عن حاجته سرقه مني. ليس مهماً كيف تمت السرقة. ولا متى ولا أين. المهم. ان هذا الجنيه لي. انتقل إليه بصورة غير سليمة. ولو أخذته منه. لا يمكن وصفي بالسارق أو المغتصب. ان ما أقوم به لإستعادة

الجنيه الخاص لي. له اسم آخر. انه إعادة ترتيب وتنظيم للثروة.

قمة الهرم هم المستفيدون من الوضع الحالي. الفئة السائدة. لا أقول الطبقة. انهم ليسوا طبقة. لا توجد لهم ملامح الطبقات بمعناها الإجتماعي أو الاقتصادي، هم فئة أو عصابة. هذه العصابة أصبح شعارها واضحاً: دعونا نسرق في هدوء. وعندما تتكلم عن الأمن والأمان والسعادة والرفاهية والرخاء. فإنها تعني أمنها هي في ان تفعل ما تشاء. دون ان يعترضها أحد. ولهذا عند الحديث عن الرفاهية والرخاء والأمان: فإن من يعيش في القاع. تحدث له حيرة. يلتفت حوله ويتساءل: أين هو الرخاء؟ ان تساؤله يعكس سذاجة. تقول انه لم يفهم الأمر. ذهنه لا يرى سوى أسطح الأمور. ولكنه لا ينفذ إلى ما تحت السطح. انهم يتكلمون عن سعادتهم هم. والأمن في مفهومهم هو حماية ابن القمة من المواطن الذي يعيش في القاع.

الأخلاق السائدة هي أخلاق الطبقة السائدة. الطبقة أو العصابة التي تقود هي التي تفصل وتشرع لحماية نفسها. وليس مهماً ان كان هذا يوافق من في القاع. لا حل سوى الإمساك بهذا الهرم وقلبه. ليعطي الجياع والعراة وساكني الهواء الطلق الفرصة لأن يمسكوا بمصيرهم بين أيديهم لأول مرة. ولكن من يقلب هذا الهرم تلك هي المسألة.

اليوم تسير في الشوارع. كل مواطن يمشي له مأساته الخاصة. يواجهها بشكل فردي لا علاقة له بالآخرين. وعندما يفكر في حل. فإن هذا يتم بصورة شديدة الفردية. من يقلب الهرم إذن؟

قمة المأساة في بلدنا. ان الكل في حالة انتظار. لا أحد يفعل، لا أحد يبدأ بنفسه. الكل في الانتظار. البعض يقول لك ستحدث معجزة ما. والبعض الآخر يقول ان القوى الكبرى لن ترضى عن استمرار

الوضع. هذا معناه انه لا أحد يريد ان يتصدى للمهمة. يريد الكل ان يصحوا من النوم. ذات يوم. يجد أن الآخرين. قاموا بالمهمة نيابة عنه.

الكل في الإنتظار. لتهبط المعجزة من السماء. لتخرج من جوف الأرض. ليقوم بها شخص خارق. لتلعب القوى الكبرى الدور الأساسي فيها. ولكن لا أحد مستعد لأن يفعل.

في بلدنا توجد تلك الحالة الغريبة. كافة التأملات النظرية. ودراسات الوضع الاجتماعي تقول ان الهرم لا بد وان يقلب. وان استمرار الوضع هكذا مستحيل وضد طبيعة الأشياء وفي الوقت نفسه. فإن استقراء الواقع. ومحاولة معرفة قوانينه ورؤية ظروفه. تؤكد صعوبة قلب الهرم. توجد حالة قشرية من الاستقرار. استقرار ناتج من فوهة البندقية وجبال القوانين المقيدة للحريات. وترسانات العقوبات التي تردع حتى من يفكر بصورة مستقلة.

لا يبقى لي سوى طرح عدد من الأسئلة لا أملك غير طرحها. ولا أجرؤ على الإجابة عليها. في جلستي أخذت أقلب الأوراق. وجدت فيها الكثير من المعلومات عن هذا اليوم. رحت أرتبها قلت انني سأصدر كتاباً. سيكون هذا اليوم العجيب هو نقطة البدء. ان معلوماتي عن اليوم قد تبدو مشوشة. لأن مصدري فيها كان كل ما وقعت عليه العين في ذلك اليوم العجيب: إعلانات الشوارع، الجرائد، الإذاعات، وأيضاً ما يقوله الناس:

واحد مش من هنا:

قصة واقعية حدثت. أبطالها موجودون في المسرح نفسه. إنها تتكلم عن الحب واختفائه من حياتنا اليومية والبحث عنه والحنين إليه في واقع يرفض الحب.

إلى رجال الأعمال:

خير هدية للعام الجديد. الذي يطل علينا بعد فترة من الوقت. نتيجة حائط ثمنها ٤٠ جنيهاً تعلقها في يوم ١٩٧٧/١/١. العام الذي سيعم فيه الخير والرخاء في البلاد. والذي ستحدث فيه الأعاجيب.

نادي روتاري القاهرة. يحتفل بعيد ميلاده الخامس. وفي عالم اليوم ١٨ ألف نادي روتاري موزعة في ١٥٤ دولة. أعضاؤها أكثر من مليون إنسان يعملون في الخدمة العامة بدون مقابل. وبعد أن فتحت مصر أبوابها على العالم. عقب فترة الإنغلاق. تم افتتاح نوادي روتاري.

العيد لم يعد مشكلة. القطاع الخاص الذي منح فرصة العمل الحر بعد سنوات الكبت والحرمان. وأصبح الشعار الرسمي في هذه الأيام المفترجة: دعوا الناس تكسب بلا حدود. هذا القطاع الخاص يوفر لك خروف العيد بالقسط المريح. إدفع خمسة جنيهات واحصل على الخروف. يؤنس وحشة شقتك. ويعرف الجيران من أنت. وينقلك إلى طبقة من يذبحون الضحية في العيد. وادفع الباقي على أقساط.

في الشارع كان هناك من يقول إن جنازة الليثي عبد الناصر ستشيع ظهر اليوم في الإسكندرية.

وقفت أقرأ:

للقادرين من الناس وأيضاً للفقراء:

بنك ناصر الإجتماعي يقدم سيارة كرايزلر:

الثمن ١٤،٠٠٠ [أربعة عشر ألف جنيه].

المقدم. ٢،٧٠٠ جنيه.

القسط الشهري: ٣٥٠ جنيهاً.

تدفع خلال أربع سنوات.

إذا تأخرت في السداد تباع السيارة في المزاد العلني.

اشتراكيتنا تمليك لا تجريد .
ساعات رادو دياستار. إنها صناعة سويسرية .
تبدأ الأسعار من المائة جنيه وتصل إلى عشرة آلاف .
وبالوالدين إحساناً .

الفيلم الذي حصل مخرجه على جائزة الدولة. في عيد الفن بعد أن أصبح للفن عيد في بلادنا. يتألق فيه: سمير صبري وسهير رمزي .

قفزة واحدة وسوف تلاقي نفسك فوق الطموح البشري بلا حدود. في عصر الحريات العظيمة. علي بيك مظهر. محمد صبحي على مسرح الزمالك .

قصر فرساي. مكتب الهواء. مطعم فرنسي. مطعم شرقي . أشهى الأطعمة الشرقية وأشهرها. عجائب إيطالية . أوركسترا رقص شرقي .

التعداد العام لمصر. البيانات أساس التخطيط السليم والقرار الصحيح .

محلات لوليتا: تقيم عرض أزيائها الأول. بفندق شيراتون. قاعة صلاح الدين البرنامج : حفل شاي. العرض عشاء فاخر.
الإشتراك: ٥٠ جنيهاً للفرد.

المكافأة: طمبولا على تذكرة سفر إلى أمريكا والعودة والإستضافة لمدة شهر.

ورق الحائط يعود إلى مصر بعد سنوات الإنغلاق. كافة الألوان المتر ٦٧٥ قرشاً بخلاف التركيب.
القطيفة الحريمي :

٢٠ جنيهاً للمتر الواحد. صناعة ألمانيا الغربية. التي حرمنا من صناعتها فترة طويلة القطيفة ماركة: شتالا .

٢٠ فرخة وديكاً. عشرون إمرأة ورجل واحد. هل هو الرجل الأخير على الأرض؟ مباراة من نوع فريد بين ٢٠ حواء وآدم واحد فقط.

مكتب ديكور عصري:

تحت الطلب. المكتب تديره إحدى أميرات الأسرة المالكة السابقة. التي عادت إلى مصر مع عودة الأيام الجميلة.

مارلبورو: تعال إلى حيث النكهة.

بنك أجنبي يعطيك ربحاً صافياً قدره $\frac{1}{2}$ ١١٪. البنك في أمريكا ولا توجد ضرائب ولا يمكن أن تكون هناك مصادرة أو تأميم. ولا مكان للإضطرابات الإجتماعية الخطيرة. يستحسن أن تكون العملة المدفوعة ليست بالجنيه المصري. ولكن بأي عملة صعبة عالمية. الأولوية للدولار الأمريكي ثم الجنيه الإسترليني. يمكن إيداع سبائك الذهب أيضاً.

دكتور زيفاجو: الفيلم الممنوع عرضه في الإتحاد السوفييتي حتى الآن. النجم المصري الذي أصبح عالمياً وتشاهده على علب السجائر وبجوار زجاجات البيرة: عمر الشريف وجير الدين شابلن.

المرأة التي حكمت مصر، والكاتب الذي عاد له وعيه مؤخراً يخرجان معاً من العش الهادىء. برلنتي عبد الحميد وتوفيق الحكيم في الفيلم العظيم: العش الهادىء. محمود ياسين:جيفارا الستينات والنجم الأوحد في السبعينات تشاهدونه في العش الهادىء.

فوز جيمي كارتر: هل تتغير السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط؟ الصعيدي الأمريكي القادم من الجنوب. بائع الفول السوداني. هل هو مصري.؟ إن جيمي إسم الدلع لجمال وكارتر إسم الدلع لكركر وهو وادي في جنوب الصعيد فهل هو صعيدي دون أن ندري؟ يجب دراسة الأمر. وتشكل لجنة للتنقيب في تاريخ مصر القديم

والوسيط والحديث. وتقف اللجنة أمام الهجرات التي تمت في كل العصور ما بين صعيد مصر وجنوب أمريكا. ياه الفرج يأتي أخيراً. وكما توقعنا فإنه لا يأتي إلا من أمريكا وحدها.

جوي. جان بالتو. أغلى العطور في العالم كله. متوفرة في مصر الآن سعر الزجاجة يبدأ من ٥٠٠، ١٣٢ جنيه.

فندق المريديان ينظم رحلة على النيل. مراكب شراعية ولنشات بالموتور ليلاً ونهاراً. الرحلة تنظم بما في ذلك الطعام والشراب. بعض اللنشات فيها عروض سينمائية حسب الطلب.

مفاجأة الموسم: حفل الزار. الحفلة التنكرية. الحضور بالجلباب البلدي شرط الدخول. أوركسترا ذي ريكوس العالمي. مسابقة لاختيار ملكة جمال الخريف. المفاجأة: العريس سيكون من المدعوين وهو من أسرة راقية. لأن كل المدعوين أبناء البيوتات العريقة. العريس سيكون في انتظار انتخاب الملكة. الزفاف فوراً. المأذون حاضر ومعه أوراقه وأقلامه. غرفة النوم جاهزة وتحت الطلب. جمال الطبيعة الساحرة والحدائق الغناء.

معرض زهور الخريف. يقام في حدائق القناطر.

ساعة ثمنها ١٠٠٠ جنيه. تقرأ لك الوقت في الظلام الحالك. خلال الليل. تضيء ساعتك بكبسة زر. إنها الساعة الرقمية. إنها الساعة التي تعكس شخصيتك ورجولتك. الإنتخابات التكميلية لمجلس الشعب: حيث جرت أول انتخابات نظيفة في تاريخ البلاد تتم الإنتخابات التكميلية يوم الخميس القادم بإذن الله.

كوسيجين رئيس وزراء جمهوريات الإتحاد السوفييتي يهنىء ممدوح سالم بانتخابه وتعيينه رئيساً لوزراء مصر.

مسابقة للجولف مساء اليوم.

مرحباً بديمقراطية بلادي. المذنبون. الفيلم المصري الذي يعري كل ما في الواقع من انحرافات قصة الكاتب الكبير نجيب محفوظ. حسين فهمي. سهير رمزي. زبيدة ثروت. عماد حمدي. أذنبوا فوقعوا أمام القضاء العادل. وهذا هو مصيرهم،

العيال على المسرح المصري. نلتقي بهم في مسرحيتين في وقت واحد. إحداهما هي: العيال كبرت والآخر «العيال الطيبين». صورة صادقة ونادرة للتطور الإجتماعي الذي حدث للأسرة المصرية في الفترة الأخيرة. كمحاولة للحاق بالعصر الحديث وابتعاداً عن التخلف.

الأميرة شاهينار بهلوي. كريمة ملك الملوك. أمبراطور إيران العظيم. جلالة الشاهنشاه. أيريا مهر محمد رضا بهلوي. أمبراطور إيران. تصل إلى الإسكندرية. لزيارة والدتها الأميرة فوزية. شقيقة الملك السابق فاروق الأول ملك مصر والسودان. والتي كانت زوجة ملك الملوك ثم طلقت منه. الزيارة تستمر أسبوعاً كاملاً حافلاً بالحفلات والمآدب والبرنامج الضخم.

جنازة الليثي عبد الناصر.

تتحرك الجنازة من السرادق المقام أمام وابور النور. الإسكندرية.

تلغرافيا: ٥ شارع حافظ إبراهيم. الإسكندرية.

اشتراكيتنا تمليك لا تجريد. بنك ناصر الإجتماعي.

بدء وصول الثلاجات الأمريكية إلى البلاد.

نظراً للتطور في حفلات الزفاف. وتمشياً مع آخر موضات العالم المتحضر. ومحاولة منا لإسعاد الملايين. ولأن المال أخذ يتدفق من جديد بين أيدينا. قمنا بتكوين فرقة لزفة العروسة. بالقرب واللبس البلدي والمزمار الصعيدي. والطبل البلدي على الدربكة واحدة ونص والشموع.

زفة العروس: ١١٦ جنيهاً خلال ١٥ دقيقة.
تليفون: ٨١٢١٣٠
تلغرافيا: زف عروس.
تلكس ١١٨.

أصدر المؤتمر العام لليونسكو اليوم قراراً يدين فيه انتهاكات إسرائيل لحقوق سكان الأراضي المحتلة في التعليم الوطني والثقافة الوطنية. صدر القرار بأغلبية ٧٣ صوتاً ضد ١٦ صوتاً وامتناع ٣٠ دولة عن التصويت.

كابرال في مصر: لويس كابرال رئيس غينيا بيساو يزور مصر.
وضع إستراتيجية عربية كاملة لمواجهة التضخم النقدي العالمي.
تشطيب ٢٥٤٠ وحدة سكنية جديدة حتى آخر ديسمبر.
الإحتفال بالعيد الخمسين لتأسيس الجيش الإيراني.
في ذمة الله.
انتقل إلى رحمة الله تعالى.
الليثي عبد الناصر.
شقيق جمال عبد الناصر. الزعيم الراحل.
لن نترك وسيلة لإنجاح سياسة الإنفتاح الإقتصادي.

لا بد من وجود مبادرة عربية تعبر عن الحد الأدنى المتفق عليه بين مختلف الدولة العربية. وسواء أكان رئيس أمريكا هو كارتر أم غيره. فإن العامل المشترك هو الموقف العربي. وليست مواقف الدول الأخرى من خارج المنطقة فالسوفييت لن يساعدونا إلا لو ساعدنا أنفسنا.

مربى أديفود من جميع أصناف الفواكه للرجيم الغذائي ولمرضى السكر.

سيدة مصر الأولى.

تفتتح معرض زهور الخريف في حدائق الري بالقناطر الخيرية.

أوركسترا الوتريات الجديد. سيقدم حفلاً بعد غد في القاعة الشرقية في الجامعة الأمريكية.

أعدت مجموعة دول عدم الإنحياز في الأمم المتحدة مشروع قرار يقضي بتأييد حقوق الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم. ومن المقرر أن يتم التصويت عليه يوم الإثنين القادم.

مسابقة كبرى للجولف:

يومي ٢٥، ٢٦ نوفمبر ١٩٧٦ ينظمها دانلوب وبان أمريكان بمينا هاوس. أوبري. وتقام على أرض جولف مصر الجديد.

وصلت إلى الميدان. صعدت الكبري العلوي. أخذت اقترب من مكان قاعدة التمثال الخالي. من هنا يمكنني رؤية ومتابعة كل ما يجري تحتي.

حانت اللحظة الحاسمة. يبدو أن المليونير قد وصل. وقام بعمل الإشارة المتفق عليها وصلوا إلى قاعدة التمثال. إنهم يعدون بعضهم. كلام عن البعض ضاع منهم. أسأل نفسي من موقفي. هل يعقل أن يضيع أحد؟! أشك في هذا. البعض استغل القفزة نحو المجهول للفكاك من حياة العائلة. قبل هذه القفزة. كان البعض يفكر في هذا. ولكن الوقت المناسب للتنفيذ لم يكن قد جاء بعد. لم يكن هناك ما يربط بين أفراد العائلة سوى حصار المكان. كان الكل يعيش في انتظار هذه اللحظة.

ربما أصدق أن الأطفال ضاعوا. ولكن الهانم والدليل المتنقل. ما هي حكاية ضياعهما. قد أصدق ضياع الهانم. ولكن من يصدق أن الدليل المتنقل ضاع. هل يتوه واحد مثله؟ مستحيل. إنه جزء من

منطقة وسط البلد. كان ينوي ترك العائلة. ووجد الفرصة المناسبة في القفزة نحو المجهول.

الذين ضاعوا:

وصلنا إلى الميدان. الأمانة تفرض علينا التوقف قليلاً. لفحص الأفراد الذين تحركوا معنا من المقابر سواء الذين كان هدفهم الميدان. أو من كانوا بين بين وفشلوا ولم يستطيعوا حسم الموقف، المؤلف يشعر أن هؤلاء الأفراد عهدة لديه. هو المسئول عنهم من لحظة تسلمه لهم حتى لحظة النهاية.

بالنسبة لمن رفضوا سيجد القارىء في غير هذه الصفحات كلاماً مسهباً عنهم. وبالنسبة لعاش الملك مصيره قادم أيضاً. الأم ظلت في القبر. يبقى الذين تحركوا. في لحظة التحرك هناك سؤال يجب طرحه. ولكن المؤلف قصد في ذلك. السؤال يقول: هل وجدوا خلاصهم في الرحلة. أم أن لكل واحد فيهم خلاص الذي يختلف عن خلاص الآخرين؟ هل وجدوا خلاصهم في الطريق من القبر إلى الميدان؟

من الصعب القول إن العائلة كان لها خلاص واحد. منهم أفراد ولا يجمع بينهم سوى المكان. أما الذين ضاعوا خلال الرحلة. البعض منهم تاه. والبعض حل مشكلته. والبعض لم يخرج أصلاً لكي يصل. لخص ما لدينا من شخصيات. كان لدينا في الصفحات الأولى من الرواية ست عشرة شخصية. في القبر إثنتان. وثلاثة رفضوا. وواحد كان مع الكل وضد الكل. والذين تحركوا نحو الميدان كانوا عشرة أفراد.

بعد الوصول إلى الميدان والقفز إلى الناحية الأخرى. حيث قاعدة التمثال الخالية. حسب الأمور المتفق عليها فيما بينهم. قام الباشا بعمل التمام. عد الرؤوس فاكتشف ضياع ثلاثة أفراد خلال الرحلة. حدث

هرج ومرج وبكاء. قيل إن أحداً لم يضع ولكنهم تأخروا في الـوصول. المليـونير أكـد انها مؤامرة ضـده. الهدف منهـا إبراز الاحتجـاج أقل من حجمه. سبعة أفراد أقل من أحد عشر. وأحد عشر ليس لهم تأثير ستة عشر. انهم يعملون مع جهات أجنبية عن العائلة. يهمها تدمـير صورة العائلة. والقضاء على أي إنجاز تحصل عليه العائلة.

وجه المليونير اللوم إلى قادة المسيرات الثلاث. قال انه كـان المطلوب منـه ان يقطع نفسـه إلى خمس قطع. ثـلاث للمسـيرات وأخـرى للقـبر والخـامسـة لمن رفضـوا السير معـه. انهم رفضـوا. ولكنهم مـا زالـوا يتحركون تحت مظلته وهو مسئـول عنهم. حتى وهم في الناحية الأخرى من مـوقفه. رمى قـادة المسيرات الأمـر على المليونير. قـالوا ان البعض منهم. ما كان موافقاً على فكرة المسيرة من الأساس. ولأن المليونيريعامل العائلة كأنها قطيع لا رأي له. لقد ساروا معه وان كان الاقتناع الداخلي ليس كاملاً.

غضب المليـونير وقـال انه لم يجـبر أحداً عـلى السير معـه. الأمر كـان متروكاً للنقـاش. بكل حـرية الـرأي والديمقـراطية. ولم يمنـع أحداً من إبـداء رأيـه. حتى الـذين رفضـوا الـرحلة. لم يقف ضـدهم. اكتشف البعض ان الكلام لا فائدة منه. ماذا ستقولون له الآن؟ الفـأس وقعت في الرأس. والكل مواجه بموقف جديد.

على قاعدة التمثال الخالية سبعة رجال وامرأتان وثـلاثة أطفـال. أما الـذين تاهـوا فكانـوا طفلاً ورجـلاً وامرأة. وريث العـرش «البليونـير» والدليل المتنقل والهانم. الطرح والجمع والأرقام الصماء تقول ان الذين ضاعوا كانوا أربعة. مع ان الواقع يقول غير هــذا. يؤكد انهم ثلاثـة. لأن عاش الملك لم يضع. كان حاضراً غائباً. معهم وليس معهم.

وصل إلى ميدان التحـرير. ولكنـه لم يقفز فـوق الكعكة الحجـرية.

أخرج عدة الشغل. جريدة قديمة. ونظارة قاتمة. ووضع غطاء فوق رأسه. أسند ظهره لعامود النور. وبدا منهمكاً في القراءة. رغم ان صفحة الجريدة التي كانت مفرودة امام العينين. كانت بها ثقوب في أكثر من مكان. أحياناً كان يقوم بهذا العمل بدلاً من الهتاف.

قصة عاش الملك معروفة.

الغريب والجديد هو قصة اختفاء الثلاثة الآخرين. وقصص الاختفاء لا بد من روايتها. قبل الدخول في الميدان وأحداثه. ان إهمال قصص الذين ضاعوا في الطريق خطأ لا يحب المؤلف الوقوع فيه. رغم انه قد يؤخر لبعض الوقت الانطلاق إلى أحداث الميدان وما جرى فيه.

وريث العرش:

يبدأ به المؤلف لأنه كان الأمل في استمرار العائلة. المليونير ثم الباشا وأخيراً البليونير. من خلاله تستمر العائلة في الوجود. تخيله الكل. عندما يصبح كبيراً للعائلة بعد عدد من السنين. كان الحزن على فقده أضعاف الحزن على الآخرين. رأوا في فقده دليل شؤم. وقالوا ان الغد أصبح قاتماً. قاسياً ومرعباً. وربما أصحبت العائلة بدون غد. لأن الطفل يبدو رمزاً لهذا الغد.

كان حزنهم عليه أكثر من حزنهم على الآخرين لتأكدهم انه لم يلعب أي دور لكي يختفي الاختفاء لا يعني التخلص من العائلة. أو البحث عن الخلاص الفردي. ضاع لأنه لم يكن يعرف الطريق. لن يتوقف المؤلف أمام حزن الأب ودموع الأم ولوعة الجد. لأن تلك أمور خاصة. وقد وصلنا في الرواية إلى الوقت الذي يجب التعامل فيه مع القضية الأساسية. قبل أي أمر آخر.

وريث العرش كان الإحساس بفقده نهائياً. لا أمل في وصوله إليهم لأنه لا يعرف الطريق. قد يصل الآخرون منهم كبار. ولكنه لن يصل

حتى لو حصلت معجزة. ووريث العرش عندما دخلوا به منطقة وسط البلد. كانت المرة الأولى التي يشاهد فيها. هذه الشوارع المنظمة الواسعة. والعمارات العالية والسيارات التي لا حصر لها. كان اليوم يوم جمعة. وهذا يعطي الشوارع قدراً من الاتساع لا يتوفر لها في الأيام الأخرى.

بدت له أرضية الشوارع. لامعة ملساء. ولا أقول نظيفة. بدت له أجمل من أرض البيت الذي يعيشون فيه. وقف أمام الفترينات الزجاجية التي تعرض البضائع تصور ان البضائع معروضة في الطريق العام. وان كل شخص يمكنه أن يمد يده ليحصل على ما يشاء. ولا يدفع الثمن. ولكن يحمل ما يريد ويمضي.

مد يده ووجهه فاصطدم بحائط لم يره لحظة وقوفه. كان من الزجاج الشفاف. ليست المرة الأولى التي يشاهد فيها الزجاج. وانما هي المرة الأولى التي يشاهده فيها بهذه النظافة. لدرجة انه لم يبد لعينيه. قال لنفسه. ما دام زجاجاً إذن فهو مرآة. ولا يعرف من الذي وضع هذا اليقين في نفسه حاول رؤية وجهه معكوساً على الزجاج. اكتشف من كثرة التحديق انه زجاج وليس مرايا عاكسة.

اقتربوا من المحل الضخم الذي ضاع فيه. وهو محل شهير له ثلاثة أفرع. واحد يطل على شارع عبد الخالق ثروت وعدلي. والثاني يطل على ميدان سليمان باشا. أمام كشك ومكتبة مدبولي الشهيرة. والثالث في مصر الجديدة، والمؤلف يخشى ذكر اسم المحل. خوفاً من ان ترفع إدارة المحل قضية ضده. لأنه شهر بالمحل. وهدد السلام الاجتماعي. هل معقول ان يدخل واحد من سكان القبور هذا المحل؟

من السهل الإشارة إليه بكلمة المحل. مع ان المؤلف يحب التخصيص ويرفض التعميم. لقد ذكر من المعلومات ما يؤكد ان المحل

ربما كان محل جروبي وهو يذكر هذا على سبيل المثـال. ويذكّـر أصحاب المحـل. ان فكروا في اتخـاذ إجراء مـا ضده. فسيـطالب المؤلف المحـل وأصحابه بدفع نفقات الدعاية والإعـلان والشهرة التي حققهـا لهم ذكر اسم المحل. في روايته.

عندما اقترتب الجماعة من المحل. كان هناك طابور أمام باب المحل. كان الطابور مزدوجاً. شخص يقف في الطابور الأول. وفي يده سلسلة فضيـة لامعـة. وفي آخـر السلسلة كلب نـظيف. والكـلاب الـنظيفـة اللامعة. التي هي أنظف من الإنسان. تقف على شكل طابور منـظم. مـوازٍ للطابور الآخـر. وبـين الـطابـورين تـتـولى الـسـلاسـل من أنـواع وأحجام مختلفة. بعضها أصفر. والآخر أبيض.

تساءل: هل معقول ان تكون بعض السلاسل من الـذهب؟ طابـور وفـي هـذه المنطقة الراقية من الدنيـا. استيقظت في نفسـه صنعته التي عينه فيها المليونير. طابور ولا يتحرك. ذلك مستحيل. انه يخون الأمانة التي وضعها المليونير في عنقه. التعليـمات الصادرة لـه واضحة. طـابور يعني ان يقف فيه. وينتظر حتى يأتي دوره وخلال الوقت الذي تستغـرقه حتى تصـل إلى الخزينـة. أو الموظف الـذي يقطع البـونات. تكـون قد عرفت ما يباع وما يشترى منه.

قـال وريث العرش في نفسـه. ما من طـابور في هـذا البلد. الـذي أصبح كله مجموعة من الطوابـير. إلا ويؤدي في آخره إلى مكـان يحصل فيـه الإنسان على ما يريده. الطوابير في نواحيه. حيث القبور والدراسة تؤدي إلى جمعيات استهلاكيـة. أما هنـا. فلا يعـرف إلى أين تؤدي الطوابـير. المكان جميل. مبنى أبيض نظيف. وهم يقفون تحت شـمسية خضراء عليها كتابـة لم يقرأها. لأنه لا يعرف القـراءة أو الكتابـة. تذكـر ان الجمعيات كلهـا لونها أزرق. اللون ليس أزرق. ولكن هـذا المبنى جمعية بـالتأكيـد. وهي جمعيـة راقية لأن الحي هنا أرقى.

لـم يكن معـه نقود ولكنـه وقف. بعد قليـل يسأل عنـه والـده وأمـه ويحضرون إليه. ما دام في المنطقة طـابور فسيكـون فيه. تلك حقيقـة. وعند حضور باقي الوفد. سيشكرونـه لأنه حجـز لهم هذا المكـان المهم والمتقدم في الطابور. وسيباهي أبوه بهذه الواقعة فيها بعد.

وقف وبدأ يحاول معرفة ما تبيعه الجمعيـة. نظر إلى الـواقف أمامـه. فوجده أفندياً محترماً. خاف ان يسألـه. الواقف وراءه كـان أفندياً أكثر احـتراماً. فخـاف أكثر من تـوجيه السؤال لـه. نظر نـاحيـة الكـلاب. فـوجدهـا أنظف منـه. وتقف مغرورة. فخـاف منها، كـان لكـل كلب اسم. يناديه به صاحبه. وكان جسمها يقول لك انها خرجت لتـوها من الحمام. وانها كانت نائمة على أسرة. ومغطاة بأغطيـة لم يرّ مثلهـا. رغم انه لم يعرف الحكاية إلا انه ظل في الطابور.

قال انه عندما يصل إلى نهايته سيطلب بوناً. وبالتأكيد هنا نظام أكـثر من دنيا القبور. فالبون في مكان والدفع في مكان آخـر. وعليه الانتهـاء من مسألة البـون أولاً. وان لم يعثر على النقود يمكنه بيع البـون. وثمنه يتوقف على نوعية السلعـة لا يمكن ان يتساوى بـون العدس بـالزيت أو اللحم أو الصابون. ربما كـان البون هنا ببضـائع لم يسمـع عنـها من قبل. ليحصل عـلى البون. ان حضرت الجماعة أخـذ النقـود واشترى الصنـاعة وبـاعها والمكسب لـه. في هذا اليـوم السعيد. ان لم يكن مـع الجماعة نقود. يبيع البـون ويكسب أيضاً. المبلغ الـذي سيحصل عليـه من هذه المغامرة الجريئـة لن يحاسبـه عليه أحـد في العالم كله لأنـه كسبه بنفسـه ودون معاونـة من أحـد وفي يـوم مخصص للترفيـه عن العـائلة. وسيصرفه على ما يشتهيه. بدون رقابة من أحد.

وصـل إلى مكان الـطابـور شخص مهم. بيـده كلب مهم. وخلف الكلب طفل. يبدو انه حارس الكلب وقف الرجل خارج الطابـور لأنه

مهم. فجاءت وقفة الطفل الذي يخدم الكلب بجوار وريث العرش. ولأن الفقير يحن للفقير. في هذه الأماكن الغنية. فالتعاسة والبؤس تختصر المسافات بينهما. جرى حوار سريع بين الطفلين. وخلال الحوار كان الطابور يتقدم ببطء. وفي آخره. في اللحظة التي انتهى فيها. وجد وريث العرش نفسه. أمام صاحب الخزينة وجهاً لوجه.

المؤلف هو الذي سيحكي قصة طابور الكلاب لأن حكايتها لو تركت لوريث العرش. لن تصل. وأصل الحكاية أيها السادة القراء. ان أبناء البيوتات الراقية. أبناء الناس. أغنياء زماننا. أصبحت لديهم هواية تربية الكلاب. ليس بهدف حراستهم من اللصوص الفقراء الحاقدين. فالدولة تكفلت بهم. ووجدت ان مهمتها الوحيدة أصبحت حماية نوم الأغنياء من أرق هؤلاء الفقراء وما دامت تحمي النوم. فهي تحمي اليقظة والعمل والمال. والثروات.

تربية الكلاب ليست للحراسة بقدر ما هي مسألة اجتماعية. في الفترة الأخيرة انتشرت هذه الحكاية. وأصبحت للكلاب أنواع وأسماء وأسواق بيع وشراء وإعلانات في الجرائد عن كلب وولف لونه بني محروق [اللون البني لا الكلب هو المحروق] يدفع في الإعلان أحياناً خمسون جنيهاً. وأصبحت للكلاب في هذه البيوت غرف خاصة. وأصبحت تقرأ في المجلات الصحية عن كيفية عمل حمام للكلب ووجبة غذاء الكلب. وبعض الأطباء البيطريين تخصصوا في علم نفس الحيوان. ليعالجوا الكلاب من أمراض الاكتئاب النفسي والحزن غير المحدود. ويمنعونه من التفكير في الانتحار.

فالكلب غالٍ. وبعض العائلات أصبحت تصادق بعضها. لأن كلب هذه العائلة. قد استلطف كلبة تلك العائلة. وأوصى الطبيب البيطري النفسي بأن مشكلة الكلب جنسية. ولأن الكلاب تعرف

الخجل فإن العائلتين تتفقان على أن يلتقيا كل أسبوع في شقة أحدهما. وتبدو الأمور طبيعية حتى يختلي الكلب بالكلبة في مكان ما من الشقة ويمارسان الجنس بدون خجل أو رقابة. وكلما طال وقت الجماع. أيقنت العائلتان أن مشاكل الكلب النفسية ومشاكل الكلبة الجنسية قد حلت.

وقد يحدث أثناء المضاجعة. التي ربما طالت أكثر من يومين ان تتصل أسرة صديقة بالأسرتين. فتعرف الخبر. انحلت أخيراً عقدة الكلب. وها هو يفعل ما لا يستطيع رجال هذا الزمان فعله. فتطلب هذه الأسرة الثالثة ان يكون وليد لحظة الجنس من نصيبها. لأن الكلب والكلبة من سلالة عظيمة. أليسا من أمريكا؟ اذن عز الطلب.

وربما تطور الأمر إلى دعوة هذه الأسرة الثالثة للحضور. للتأكد من الوعد. وهو حصولهم على الكلب الذي يتم صنعه في هذه اللحظة. ولأن عدد الكلاب أصبح كبيراً. نشأت مشكلة طعام الكلاب. اتصل أصحاب الكلاب ببعضهم وشكلوا اتحاداً. وقالوا أليس للسيارات نادٍ؟ ولحماية الأشجار نادٍ ؟ لماذا لا يكون هناك اتحاد ونادٍ للكلاب؟ ان الكلب ليس أقل من السيارة ولا أقل من الشجرة. ويكفي وفاء الكلب. تلك الصفة التي لم يعد لها وجود لدى إنسان هذه الأيام.

في الاجتماع الأول الذي عقده أصحاب الكلاب على شكل جمعية عمومية. تحت التأسيس قالوا لنؤجل حل أزمة النادي. بسبب أزمة المساكن والظروف العامة. ولكن كانت هناك مشكلة. طلبت الأغلبية ان تناقش على وجه السرعة وهي مشكلة عدم وجود طعام كافٍ للكلاب. وهنا قيل ان سبب المشكلة هو ان كل عائلة تقرر حل المشكلة بصورة فردية. وكحالة خاصة منفصلة عن عداها من الحالات الأخرى. وهذا خطأ. يجب الاتحاد. وفي هذه الحالة يقدم الحل الجماعي للمشكلة.

قـرروا الاتحاد. لأنـه في الاتحاد قـوة. وهذا العصر عصر الكيـانات الكبرى. وبعد الاتحاد تم الاتصال بالمحلات الكبرى. وجرت محاولات وعقـدت جلسات وأقيمت منـاقصة كـبرى. قدمت فيهـا العـروض في مـظاريف مغلقة. وكـان للجنة قبـول العـروض أو رفضهـا دون إبـداء الأسباب كالعادة. وكانت المناقصة تـطلب من المحلات الكـبرى تقديم وجبة موحدة للكلاب. وجبة يومية. فيها من المواد الغذائيـة. ما يكفي حاجة الكلب يوماً وليلة. دون ان يعاني من أية مشـاكل سـوء تغذيـة. ويقال إن الأطباء البيطريين حـاولوا منـع اتمام الاتفـاق. لأن ذلك يؤثـر على عملهم. ويجعل الإقبال عليهم معدوماً. أو نادراً. ولكنهم فشلوا.

تسـابقت المحـلات الكـبرى. وكـانت فلسفـة اللجنـة والمحـلات الكبرى. أنه بعـد ان حلت مشكلة إطعام البشر وإسعـادهم. لا يجب ان تكون هناك أنانية من هؤلاء البشر. مـا دام الإنسان قـد شبع لا بـد من التفكير في الحيوان. ان الرفق بالحيـوان. بعد ان كـان شعاراً بـدون مضمون في الزمن الماضي. يجب ان يصبح لـه مضمون في هـذا الزمـان العـظيم. ان الكـلاب لا يجب ان تبقى بـدون طعـام في هـذه الأيـام العظيمة. خاصة كلاب السادة. في عالم يجد فيه الإنسان طعـامه بكـثرة وبأسعار رخيصة.

رسـا العطاء عـلى المحل. ولنفـترض انه جـروبي. وتقـرر ان تقـدم وجبتان للكلاب في اليوم. وجبة للغداء وأخرى للعشاء. [هل لا تفـطر الكلاب. تلك مسألة لا بد من بحثها ودراستها]. وذلـك نظير اشـتراك شهري قدره ستون جنيهاً في الشهر. ثمن الوجبة الواحدة جنيهاً. أدرج المحـل في آخر الاتفـاق سطراً تحتـه عشرة خطوط بـالأحمر. يقـول: ان الأسعار ليست نهائية. ويجب إعادة النظر فيها. لأن الأسعار في بلدنـا. مثـل مدى النـظر كلما اقتربت منـه. ابتعد هـو عنك. ولا يضمن أحـد

المدى الذي يمكن أن تصل إليه الأسعار خلال شهر من توقيع الاتفاق. لذلك تركت الأسعار مفتوحة.

في بعض الأحيان يوجد طابوران. طابور على الأقدام. وبعض الكلاب التي تصل بالسيارات. ويوجد كارت فيه اسم ورقم الكلب. الكارت توجد منه ثلاث صور واحدة مع صاحب الكلب. وأخرى مع المحل. والثالثة معلقة في رقبة الكلب. كانت تطل من نافذة كل سيارة رأس كلب. لا توجد فوارق بين الكلاب. كل أصحاب الكلاب لديهم سيارات. من يملك كلباً يدفع له جنيهين في اليوم الواحد ثمن أكله لا بد وان تكون لديه سيارة. كل المسألة ان الكلاب التي يحضر أصحابها على الأقدام بعضهم بيوتهم قريبة من المحل. والبعض الآخر يمارس المشي كعلاج. وصفه له الأطباء. إما من أجل صحة الكلب أو من أجل صحة صاحب الكلب.

والمحل لا يسمح بوقوف أحد في الطابور إلا ان كان كلباً أو صاحب كلب مشترك في نظام الطعام. وزيادة في الاحتياط تم تخصيص باب للكلاب وأصحاب الكلاب كل من يقف فيه. لا بد وان يكون معه كلب. والكلب في رقبته كارت. وصاحبه معه كارت. وهكذا تتم حماية أصحاب الكلاب من الجياع الذين يحومون حول الطابور.

المحل اشترط حضور الكلب مع صاحبه ليتأكد من وصول الوجبة إلى صاحبها الفعلي. وهو الكلب. ان الوجبة تتكلف خمسة جنيهات. يدفعها المحل. ولا يحصل إلا على جنيهين فقط. كل هذا يحدث انطلاقاً من انه ما دام الإنسان قد حلت مشاكله. وطعامه موجود وبوفرة. فلا بد من وصول هذا الطعام إلى الحيوان. ان الإنسان معروف عنه الطمع. ولهذا يجب وجود الكلب بنفسه. ومعه الكارت.

أنشأ المحل ملفاً لكل كلب. خاص بتسديد المبالغ. وحالة الكلب

الصحية. ومدى إقباله على الطعام. هناك بعض الوجبات الخاصة التي تتم التوصية بعملها لكلاب معينة. وبشكل عام الوجبة مكونة من شرائح لحم الخنزير والبسطرمة واللانشون والخبز الخاص المعد من أجل الكلاب. وهناك موعد ثابت لتسليم الوجبة. يبدأ في الحادية عشرة ظهراً. وينتهي في الثالثة بعد الظهر. هذا بالنسبة لوجبة الغداء. والوجبة الأخرى من السادسة حتى التاسعة مساء. وينص العقد على تعيين مشرف أغذية وطبيب بيطري للإشراف على الوجبات.

كان هناك مطلب من أصحاب الكلاب ان يخصص المحل مكاناً لتقديم الوجبات. ولكن لضيق الأمكنة. ولأن المشروع نفذ بسرعة. فقد اتفق على تأجيل مسألة المكان إلى وقت آخر. ويقال ان وجبة الكلاب تحضر من الخارج ويقول البعض من أصحاب الكلاب. على سبيل التفاخر. ان هناك طائرة خاصة تحضر الوجبة من فرنسا وأكد آخر ان مطعم مكسيم هو الذي يعد الوجبة من الباطن للمحل الذي رست عليه الصفقة.

فجأة وجد وريث العرش نفسه أمام موظف أنيق. لا علاقة له. بالذين رآهم في الجمعيات التعاونية عند القبور. نظر وريث العرش للموظف بدهشة. ومد يده يطلب البون. لم يتكلم. لأنه احتار ماذا سيقول. وماذا سيطلب؟ هل يطلب وجبة؟ ولكن من أين له بالجنيه. يحتمل ان يكون هناك كلب غائب. أو كلب معزوم على الغداء في مكان آخر أو كلب شهيته ليست مفتوحة. فيحصل هو على الوجبة بدلاً منه. الموظف الأنيق نظر إلى وريث العرش باستنكار. قاسته نظرة الموظف من رأسه إلى قدميه. سأله:

ـ أين الكلب الذي معك؟

ـ أي كلب؟

ـ عند من تعمل. أي عائلة من العائلات الراقية؟
ـ لا أعمل عند أحد.
ـ في أي فيللا.
ـ قلت لا أعمل.
ـ إذن ما سبب وقوفك هنا؟
ـ ....
ـ ماذا تفعل هنا؟
ـ ....

لم يستطع الرد لأنه فوجىء بالموقف. ولم يعرف كيف يتصرف. وقبل ان يتصرف الموظف أتاه صوت أحد أصحاب الكلاب.
ـ عنصر مندس.

ردد الواقفون الكلمة بفزع. كان خوفهم من بداية التجربة من العناصر المندسة. أخرجه الموظف من الطابور. ودفعة لكي يمشي في حاله. أصحاب الكلاب احتجوا. قالوا انهم جمعية عمومية منعقدة بشكل مستمر. بسبب الأوضاع الراهنة في البلد. وهم ضد تركه. لا بد من معرفة من وراءه، من الذي أرسله. ما هي الجهة التي قررت العمل ضدهم؟ ربما كان محلاً منافساً. ربما كانوا أصحاب الكلاب الأقل درجة.

ان الطبقة الوسطى. وسكان الأحياء الشعبية والموظفين الذين يحصلون على مرتبات أقل من مائة جنيه في الشهر. لديهم كلاب أيضاً. صحيح انها من فصائل أخرى وتخصص للحراسة. ولكن ماذا يمنع من تحويلها من كلاب للحراسة إلى كلاب للزينة والترفيه. لا بد من التحقيق مع الطفل أولاً. توقف الصرف وسرت حالة من الاهتمام.

إستدعى الموظف الأنيق رئيس قسم تغذية كلاب السادة وأبلغه

الأمر مادام بهذا القدر من الخطورة. ورئيس قسم تغذية كلاب السادة. أبلغ نائب مدير المحل. والنائب أبلغ المدير بشخصه. ووصل التسلسل إلى أعلاه عندما علم رئيس مجلس الإدارة شخصياً بالأمر في حينه. ولأن أصحاب الكلاب من السادة. والموضوع يدر على المحل دخلاً ضخماً ومنظماً. فقد نزل رئيس مجلس الإدارة في زيارة ميدانية. ويؤكد بنزوله اهتمام المحل بالأمر. سأل الصبي:

ـ ما اسمك؟

ـ المليونير.

ـ نعم؟

ـ البليونير.

ـ نقصد الاسم؟

ـ وريث العرش.

ـ هنا فقط احتاط المحل للأمر. قال رئيس مجلس الإدارة. ثلاث كلمات فقط:

ـ المسألة وراءها ما وراءها.

قالها وصعد إلى مكتبه تاركاً الأمر لباقي الموظفين الذين تشاوروا في الأمر وقرروا القبض على الصبي. وإبلاغ الأمر للشرطة. لمعرفة كل ما لدى الصبي. الصبي اندس في طابور الكلاب. وهو ليس من السادة أصحاب الكلاب ولا يعمل عند أحدهم. وعند سؤاله عن نفسه رد ردوداً تسبق عمره. وتفوح منها رائحة المؤامرة. ولهذا لا بد من التحفظ عليه.

الصبي اندس هنا بهدف واحد من ثلاثة إما لسرقة كلب وتلك جريمة والكلب يصل ثمنه إلى الألف جنيه. أو سرقة صاحب كلب أو خادم كلب وتلك أيضاً جريمة. الاستيلاء على طعام كلب. أو انتظار

فضلات كلب. والجريمة الأخيرة تسأل عنها البشرية كلها. لأنها موجهة ضد حيوان لا يملك الدفاع عن نفسه. من إنسان قوي معه أسلحة.

هناك احتمال أخير. ان يكون الصبي جاسوساً. يعمل لمحل آخر. سينافس هذا المحل في تقديم وجبة للكلاب. أكثر من هذه الوجبة من ناحية الكمية. وأرخص من حيث الثمن. ثم يذهب بعد مشاهدته الموقف كله. ويقدم تقريراً عن الحال. من يدري. ربما كانت معه آلة تصوير مخبأة في مكان ما معه. ليقدم صورة عما يجري. وربما كان قادماً من طرف جماعة أقل في سبيلها لتكوين جمعية أخرى لأصحاب الكلاب. بدأت تتجسس عليهم لمعرفة الكثير من التفاصيل عن هذه الجمعية. خصوصاً وان الجمعية تعتبر ان أي أمر من أمورها من الأسرار التي لا يجوز افشاؤها.

ألقي القبض على الصبي. وكلف موظف به. كانت مهمته معاملة الصبي بإنسانية. ومحاولة استدراجه في الكلام. والأطفال لا أسرار لهم. ومعرفة الأمر منه. بهدوء وبدون مشاكل. سمح للموظف ان يتحرك مع الصبي في أكثر من مكان وان يقدم له بعض ما يريده وليس كله حتى يتكلم. وان يعده بتقديم كل ما يطلبه. إن تكلم.

الصبي من ناحيته لم يطلب شيئاً. لأن عدم فهم ما يجري حوله. جعله يزهد الأكل. فكر وريث العرش ان يطلب من هذا الرجل. البحث عن أهله. وإيصاله إليهم. ولكن الرجل دخل به المحل. حيث الأنوار الهادئة والهواء المعطر. والناس الذين يجلسون على الكراسي. وأمامهم المناضد وهم يشربون ويأكلون.

الموقف قريب من الحلم. والذين يحملون الطلبات يلبسون الملابس البيضاء وعلى الرؤوس طرابيش حمراء. ينقصهم الحصان الأبيض ويبدو كل منهم مثل الملاك بمجرد دخول الصبي مع الموظف. حدثت خناقة

ضخمة. تمكن الصبي من الهروب خلالها. ولكن إلى أين؟ تلك حكاية أخرى.

الخناقة كانت بين شخص ذهب إلى المحل ومعه أسرته كان هذا الشخص موظفاً. وقد قرر الخروج مع الأسرة. في يوم يغيرون فيه من البقاء في البيت، صحب العائلة إلى المحل. جلسوا. وطلبوا مشروباً مثلجاً واشترط ان يكون مغلقاً وليس معداً في المحل. واكد للأسرة ان حصافته هذه سببها خبرته. وقال انه يطلب المشروب مغلقاً كضمان للنظافة وجودة الصنف.

وان كان الموظف قد طلب المشروب المثلج المغلق لأنه يعرف ان المشروب المثلج لن يكون سوى مياه غازية وهي أرخص من المشروبات التي تعد في المحل.

بعد الشراب جلست العائلة في حديقة واسعة. منها للسماء بدون سقف. وشاهدوا نافورة المياه السحرية. والحصى والزلط في أرض الحديقة المنتقى بعناية من كافة صحارى العالم. كان الزلط ملوناً. وقال رب الأسرة لأفرادها. ان تنوع الزلط راجع إلى اختلاف الصحارى التي جلب منها. قررت العائلة ان تجلس هنا حتى آخر النهار. ولكن الجرسون حضر بعد قليل. وفي أدب جم. وبعد ان انحنى انحناءة أسعدت رب الأسرة. وقال في نفسه: حتى يدرك أفراد الأسرة قيمته، قدم له الجرسون فاتورة الحساب. قبل تقديمها اعتذر ان موعد تسليمه حان. ولهذا فهو يعتذر عن هذا التصرف غير اللائق. هون الموظف عليه. وقال له: كلنا أخوة.

وأخذ فاتورة الحساب. ومد يده في جيبه ليأخذ المحفظة المصنوعة من جلد الثعبان شخصياً. ولكن الذي حدث ان يد الموظف توقفت. عندما وقعت عيناه على الرقم المدون في الفاتورة. كان إثني عشر جنيهاً

وخمسة وأربعين قرشاً. قرأ الفاتورة أكثر من مرة. قال في نفسه ان المسألة فيها خطأ. بالتأكيد فاتورة شخص آخر. عزم عشرة أفراد على طعام الغداء والشاي والقهوة. صحيح انهم ثلاثة عشر فرداً. ولكنهم لم يشربوا سوى المياه الغازية. ولا يمكن ان يزيد ثمن الزجاجة الواحدة على عشرة قروش. كما انها لم تكن مثلجة بالصورة المطلوبة. لأن زجاج الأكواب لم يكن مغبشاً من الخارج.

هو مستعد للتغاضي عن مسألة الثلج. عادت يده إلى وضعها. ولم يسحب المحفظة المصنوعة من جلد الثعبان شخصياً. وقال لنتفاهم مع الجرسون أولاً. لأنه ما قيمة إخراج المحفظة. كل ما فيها خمسة جنيهات. من المفروض ان يدفع منها الحساب وان يركبوا الأتوبيس في طريق العودة. وان يشتري طعام العشاء. ومازالت أمامه مشكلة التوفيق بين الرغبات المتناقضة في مسألة العشاء. هناك من أعلن انه لن يتعشى فولاً وطعمية. الإفطار والعشاء لسنوات طويلة مضت مكون من الفول. ولا يجب ان يختموا هذا اليوم العظيم بالفول والطعمية. هناك من طلب جبنة رومي. ومن قال ان الجبنة الروكفور أفضل. وغضب الرجل من تسلل هذه الأسماء إلى العائلة عن طريق غير طريقه. خصوصاً وانه استعاد نطق الاسم من ابنته ونطقته سليماً. أنجرة الغضب أضاعت من نفسه الإحساس بالمكان والحديقة والزلط المستورد من كافة صحارى العالم. عندما طلب أحد الأبناء ان يكون العشاء بسطرمة بالبيض يقليان بالسمن البلدي. سأل ذلك الولد المتطلع.

ـ هل تعرف ثمن كيلو البسطرمة؟

رد الولد بشكل عادي:

ـ ثلاثة جنيهات.

ـ وثمن البيضة البلدي بكم؟

ـ خمسة قروش فقط .
ـ وكيلو الزبدة؟
ـ جنيهان .

كاد الرجل ان يضرب الولد . ما دام يعرف كل هذه المعلومات . لماذا يصر على طلبه . زوجته خشيت ان تتحول مسألة الاختيار إلى عراك . فتفقد الأسرة مظهرها . كعائلة محترمة تجلس في ذلك المحل الأكثر احتراماً . فقالت ان المشكلة ستحسم بعد الخروج من المحل . لأن ما سيشترونه لا يوجد في المحل . الابن المشاكس قال ان ما طلبه موجود في المحل . وانه عرف الأسعار أثناء دخول المحل .

نظر الموظف إلى الجرسون . وقد ضايقته حالة الصمت التي فرضت نفسها على الموقف . وانتباه أفراد العائلة لكل كلمة ستقال من الآن . قال للجرسون انه أخطأ . فرد الجرسون انه لم يخطىء . وطلب منه قراءة الأرقام المدونة في الفاتورة . وهي نفسها الأرقام الموضوعة فوق المناضد الثلاث التي تحتلها العائلة . وجد الرجل الأرقام . هي نفسها . هنا كان لا بد من السؤال الذي تحاشاه الموظف . قال له : هل من المعقول ان يكون ثمن ثلاث عشرة زجاجة مياه غازية . هذا المبلغ الضخم؟ أخذ الموظف زمام المبادرة . ووضع ساقاً فوق ساق . وطلب من الجرسون الجري الى الموظف الذي أعد الفاتورة . وإحضاره حتى يتناقش معه . هجم عليه الجرسون . وأمسكه من ياقة الجاكيت . خاف الرجل على الجاكيت فقام معه . كان المنظر محزناً فهجم عليه باقي أفراد العائلة . وحدثت معركة . تدخل فيها باقي العاملين في المحل وبعض الذين كانوا يجلسون في الحديقة السحرية الملونة . وهكذا ضاع سحر الحديقة . وتناثر الزلط المستورد من كافة صحارى العالم . وتمكن الموظف من التسلل هو وأفراد العائلة . وضاع وريث العرش من

الموظف الذي كان مكلفاً بإبقائه معه. ليعلم منه الأمر.

في الشارع كان ما يحزن الموظف ان الأمر جرى في حضور الأولاد. تساءل: هل سيستخدمونه للتقليل من شأنه؟ وزوجته: كيف تعامله؟ انه يتوقع ان يعايروه بما جرى في حديقة المحل. ضاعت الهيبة ولم يبق أي أثر للسهرة الجميلة. ولن يكملها في البيت. حيث كان ينوي ممارسة الجنس مع زوجته بعد انقطاع وصل إلى العام. وان يلهب خيال زوجته. بالكثير من الحركات التي يسمعها من زملائه وزميلاته في العمل. هذا ان كانت لديها بقية من خيال.

في الشارع. حاول ان يتكلم. كان يكلم نفسه. لأنه لم يرَ أي رد فعل لديهم لما قاله. قال ان الترف في حياة موظف يحصل على سبعين جنيهاً في الشهر ويعول ثلاثة عشر فرداً. مسألة نادرة الحدوث. ربما استدار العام. قبل حدوث هذا الترف مرة أخرى. انه يعيش في حي شعبي. وهذا يجعل الترف مطلباً هاماً. [ملحوظة: يرجو المؤلف القراء. ان لا يقولوا ان هذا الحادث خارج عن الرواية. وانهم يريدون متابعة رحلة الرجل الى الميدان. هموم الوطن هي موضوع الرواية. والمؤلف يحاول تقديم بانوراما لبعض وليس لكل هذه الهموم. ولأن المؤلف يتصور ان البعض ربما أثار حكاية الموظف. وعدم وجود علاقة بينها وبين الراوية. لهذا أوجد أكثر من علاقة بين الأمرين. من الخناقة الضخمة التي جرت ضاع وريث العرش. ويمكن أن يزيد هذه العلاقة وأن يعمقها بأن يقول إن وريث العرش سار مع العائلة. وان العائلة فكرت في طرده. خوفاً من أن يكون واحداً من جواسيس المحل. يحاول معرفة عنوان العائلة. وبعد أخذ ورد قررت العائلة الابقاء عليه].

بدأت الزوجة الحديث. ألقت اللوم على من كان السبب في

الرحلة. وكانت تقصد الزوج. لأنه هو الذي حدثه زميل له عن المحل. ووصفه له. وأكد له أنه قطعه من الجنة. ومن كثرة الحديث في المكتب. قرر ان يدخر خمسة جنيهات من أجل السهرة. قال الأب انه سيصفي حسابه مع زميله غداً. وان في الأمر مؤامرة من جانب هذا الزميل لأنه لم يتكلم عن الأسعار وبسبب الحالة النفسية التي خلقتها الخناقة. ألغى الأب بعض الفقرات من برنامج السهرة. كان من المفروض ان يتم تصوير العائلة. فرادى وجماعة مع تمثال إبراهيم باشا في ميدان الأوبرا.

عند اختيار طعام العشاء لم يجرؤ أحد على الكلام. اشترى الرجل جبنة بيضاء وبسطرمة فقط بدون بيض أو زبدة وخبز وجرجير وعادوا إلى البيت. بنفس الطريقة التي حضروا بها. ركبوا الأتوبيس على شكل مجموعات. منفصلة. حتى يتمكنوا من الركوب في الدرجة الثانية. وان يجدوا أماكن للجلوس.

في صباح اليوم التالي. أخذ زميله الذي حدثه عن المحل إلى مكان خاص. وسأله عن الأسعار. فحذره من السفن آب. سأله الموظف عن السبب. فقال انه شراب مستحدث دخل البلاد مؤخراً. بعد فترة من الحرمان لهذا لا يخضع لأي تسعيرة. وسعر الزجاجة الواحدة في مثل هذه المحلات يصل إلى ٨٠ قرشاً. يضاف إليها ١٠ ٪ خدمة.

ومثل هذه الإجراءات الانفتاحية الهدف منها تشجيع السلع الأجنبية الأساسية مثل السفن آب على دخول البلاد. فهم الموظف الأمر. وأدرك انه أخطأ. وفكر للحظة في العودة إلى المحل أول الشهر. ودفع الفاتورة. وان كان متأكداً انه لن يفعل هذا. وقرر تأجيل الحديث عن الرحلة والسهرة حتى الأسبوع القادم. حتى لا يقول الزميل المحترم انه يكذب. أما بخصوص وريث العرش فقد خرج مع العائلة وسار معها.

الدليل المتنقل:

هـو الوحيـد في العائلة الـذي لا يعد السيـر في منـطقـة وسط البلد جـديداً بـالنسبة لـه. يحفظ الشوارع والميـادين. يعرف ألـوان البيـوت والمحلات الجديـدة. رافق وسط البلد وهـو يغيـر جلده، يخلع شكله الخارجي ببطء، ويرتدي زياً جديداً. مـا ان يشاهـد محلاً جـديداً حتى يقـول لك: انـه كان يـوجد مكـانـه المحل الفـلاني. تسلل إلى الشقق المفروشة الموجودة في هذه الشوارع. عرف آلاف الحكايـات. يعلّم هذه الشقق بعلامات من الخارج يستطيع ان يؤكد وهو يمشي في الشارع. ان كانت الشقق فيها سكان أم خالية وإن كان السكـان على شكـل عائلة. أم أفراد حضروا بهدف الترفيه.

لـه الكثير من الصـداقات. يحـدد منطقـة نفـوذه. تبـدأ من غمـرة. الظاهر حتى رمسيس وتنتهي عند حديقة الحيوان في النـاحية الأخـرى. هذه المنطقـة تشمل المهنـدسين والـدقي والعجوزة. حتى ميـدان العتبة الخضراء. ذلك هو المجال الأوسع لدائرة نفوذه.

هنـاك دائرة ضيقـة. يتركـز فيها النفـوذ أكثر. يحـدها ميـداني العتبة والتحـرير وشـوارع: رمسيس وفؤاد والجمهوريـة. هنا يـركز العمـل. القـول بأن الـدليل المتنقـل تاه. يبـدو مضحكاً. يمكن ان يتـوه الدليـل المتنقـل. في أي مكان سـوى هذا المـربـع الضيق. الـذي يمـارس فيـه عمله. وإذا كان الدليـل المتنقل لم يصـل إلى الميدان. فـما الذي حـدث إذن؟ لن يظلمه المؤلف ويقول إنه هـرب. ولكن الذي حـدث لا يمكن تسميته بالضياع، والمؤلف يقدم قصة اختفائـه. بعد البحث والتحـري اللذين أجراهما.

أثناء سيره في شارع شريف. شاهد طابوراً. دائماً الطوابير. المسألة غيـر مقصودة. وهي صـدفة يعـد المؤلف بعدم تكـرارها في الصفحـات

القادمة. كان الطابور عبارة عن رجال ونساء. البعض بملابسه الكاملة. والبعض الآخر ملفوف بملاءات أسرة. كان الطابور يسير على أحد الأرصفة. أمامه وخلفه وحوله عدد من الضباط والجنود وأمناء الشرطة. أكثرهم يرتدي الملابس المدنية. والقليل منهم هو الذي يرتدي الملابس الرسمية. جاءت وقفته وهو يشاهد الطابور العجيب بين رجل وامرأة. سألها عن الخبر. رد الرجل قائلاً:

ـ طابور الأسرى.

ـ وضحكت المرأة:

ـ لا انه معرض الغنائم.

للحظة تصور ان الطابور عبارة عن إعلان مبتكر وجديد. لم يحدث من قبل تنظمه إحدى الشركات الجديدة. /التي تدخل ميدان انتاج ملاءات الأسرَّة. وان هذه الطريقة الغرض منها لفت الأنظار للصناعة الجديدة. نظر إلى الرجل الذي على يمينه. والمرأة التي على يساره. وشعر برثاء لهما. انهما لا يعرفان حقيقة الموضوع. ومع ذلك يفتيان في الأمر.

اقترب منه شخص. وهمس في أذنه ان الذين يمشون هكذا ممثلون. وانه يجري تصوير فيلم ضخم. انتاج عالمي. لكن اخفاء الأمر لا بد منه خوفاً من زحام الناس حول المخرج والمصورين. نظر الدليل المتنقل حوله. فلم يجد أحداً. الرجل أكد له. ان الكاميرا. والمخرج والمصورين يطلون على الشارع من مكان ما. وانهم في هذه الوقفة يتم تصويرهم. وربما وجدا صورة لهما في الفيلم بعد طبعه وتحميضه.

بدت الفكرة معقولة. أثناء الحديث لمح الدليل المتنقل وجهاً. لم ينسه لحظة واحدة من أيام مضت. وجه إمرأة قابلها في إحدى الشقق المفروشة وسط البلد. شكلها وملابسها يقول لك انها بنت ناس. وانها

تحضر إلى الشقق من أجل المتعة. ويقول البعض عنها انها لا تحصل على مليم. نظير مضاجعة الرجال. وان الرجل الذي يعجبها. ويدخل في مزاجها. تعطيه هي الأموال. بدلاً من ان تأخذ منه.

اقترب منها الدليل المتنقل وكان يقول في نفسه. لعل وعسى. كان أمله ان يعجبها. فتنفق عليه. وينتهي من عذاب التجوال اليومي. قال له أحد البوابين انها تفضل ان يكون الزبائن من الغرباء. لأن ما تفعله معهم علاقات عابرة لا تدوم. ولذلك فهي تفضل ان لا يكونوا من أبناء البلد. البواب قال له. انها إمرأة واصلة ولها علاقات مع أناس كبار وطيبة القلب. ويمكنه طلب أي خدمة منها. وستقدم له ما يطلبه مهما كان عزيز المنال.

استيقظت في نفس الدليل المتنقل الرغبة القديمة. ان يعمل في وظيفة ثابتة ذات يوم. ان يعين في عمل معين يضمن له الحصول على أجر ثابت أول كل شهر. ويعفي نفسه من صراع الحصول على قوت أسرته في هذه المدينة.

كل صباح. يقف في الدراسة. وينظر إلى المدينة أمامه. ويقول في نفسه: كيف أخرج من حواري وشوارع وشقق هذه المدينة جنيهين أعود بهما إلى البيت آخر الليل؟ كيف يخرج لي بشر آخرون برغبتهم هذا المبلغ؟ وعندما يأتي الليل ويقرر العودة إلى القبر. يقول في نفسه: آن الأوان ان ينتهي اليوم الرهيب. يوم آخر ينقضي من العمر. أيام متشابهة الشكل. الجديد انه يعود إلى البيت ومعه المبلغ المطلوب لكي يواصلوا الاستمرار اليومي. حتى الغد قيل له من أكثر من مصدر ان المرأة تملك ان توظفه وان ذلك سهل. وكل المطلوب منه ان يكلمها. قال لنفسه لأقلب الأسطوانة. ان وجه الأسطوانة الذي يقول كلمات العشق والغرام والحب والرغبة لن يفيد. ليس أمامه الآن سوى ان

يتكلم عن الحاجة والظروف الصعبة والأسرة التي بدون بيت وبدون دخل ثابت. في الحالة الأولى كان لا ينوي ان يعرفها انه متزوج. وله أسرة وأولاد. ولكن في الحالة الثانية. سيكون الزواج والأسرة والأولاد هو جواز مرور إلى عالم هذه المرأة.

كلمها. اختار لحظة سعادة. كانت مع أحد الشبان. ومكثت معه طويلاً. وتناهى إلى سمعه كركرة ضحكة. وشت بحالة من الحبور لم تحدث لها من قبل. قال ان الفرصة التي ينتظرها حانت ولا بد من استغلالها. لبس القناع الجديد. قناع المحتاج إلى الوظيفة. كم من مرة حكى فيها الدليل المتنقل القصة لكل من أبدى رغبة في سماعه. طول عمره يبحث عن الوظيفة الثابتة. حلم لم يتخل عنه يوماً.

عندما شاهد الطابور ورأى وجه المرأة صاحبة الوعد تساءل: الوظيفة أم البيت؟ هل يتبعها ويترك الرحلة. أم يبقى؟ كلاهما هام بالنسبة له. هناك فارق. الوظيفة مضمونة ولكن السكن مجرد حلم. أحدهما ممكن والآخر ربما كان مستحيلاً. عصفور في اليد خير من ألف على الشجرة. ثم انه قد يجمع بين الإثنين. يسير مع هذه المرأة. حتى يحصل على الوظيفة ثم يعود ويلحق بالجالسين في الميدان. سينتظرون حتى آخر اليوم. والوقت أمامه طويل. تساءل: هل تتحقق الأحلام كلها في يوم واحد؟

نعود إلى اليوم الذي كلمها فيه. اقترب منها. وطلب الخدمة. ضحكت في بساطة. وقالت له انها ستوظفه في وظيفة محترمة تدر عليه مائة جنيه في الشهر. استيقظت في نفسه كافة أحلام الأيام التي مضت. مائة جنيه في الشهر؟ هذا أكثر حتى من الأحلام. مائة جنيه في الشهر؟ الأمر جد إذن. كان يتصور انه لو حصل على مرتب ثابت يصل الى العشرين جنيهاً. فإن ذلك أكثر من المطلوب. أما مائة جنيه؟ قرص

نفسه. لأنه تصور انه يحلم. وان ما يجري ليس حقيقياً. شكرها. انحنى على يدها يحاول تقبيلها. فسحبتها. وطبطبت باليد الأخرى على ظهره تمنى ان يبكي حتى تبدو اللحظة كلها مقنعة. ولكن الدموع عزت عليه. وتخلت عنه في ذلك الموقف العصيب.

طلب منها معرفة اسمها وعنوانها ورقم تليفونها وطريقة الاتصال بها. حتى يطمئن. انه يثق في وعدها. ولكنه يخشى ان تنسى. فمشاغلها كثيرة. قالت له انها ستعيِّنه في الوظيفة. بل هي تعرف من الآن نوع الوظيفة والعمل والدرجة المالية التي سيعين عليها. ولكنها لا تحب الوعود الطيارى. الاتصال بها مستحيل. انها من عائلة راقية. وما تفعله هنا. لا يمكن ان يصل صداه إلى العائلة. ولهذا فهي تفصل بين هذا وذاك مطلوب منه التأكد من أمر واحد. ان موضوعه سيحل وهي من ناحيتها لا يمكنها الاستغناء عن الحضور إلى هنا. لمدة تزيد على الأسبوع.

ستحضر. تلك حقيقة مؤكدة. وستقول على الوظيفة. وستذكر له اسم المسئول الكبير الذي سيذهب لمقابلته وربما أبلغته بكل هذه التفاصيل الأسبوع القادم. انها تحضر إلى هذه الشقة يوم الأحد من كل أسبوع. وان لم تحضر يوم الأحد. فإنها تحضر يوم الجمعة الذي يليه. وهي تختار هذين اليومين لسبب جوهري [يقسم المؤلف انها هي التي قالت كلمة جوهري] السبب هو ان شوارع منطقة وسط البلد. تكون خالية وهي تركب سيارة طولها عشرة أمتار وعرضها متران ونصف وركنها من الصعب. وفي يومي الأحد والجمعة يكون من السهل ركن السيارة.

قالت ان لديها سائقين. واحد أساسي والآخر احتياطي. ولكن في مثل هذه المشاوير الخاصة. لا يمكنها الحضور. ومعها أي من

السائقين. ذلك خطر عليها. قالت له: اعتبر ان موعدنا القادم هـو يوم الأحد. وان لم يكن يصبح الجمعة تلقائياً. وبدون تحديد موعد جديد. من يومها لم تحضر. انتظرها. مـر أكثر من أسبـوع وهو لا عمـل له. في يومي الأحد والجمعة سوى انتظارها.

شـاهدهـا في الطابـور. وبمجرد ان وقـع نظره عليهـا حتى قرر ان لا يتركها. ليكن عرضاً للإعلانات ليكن فيلماً يتم تصويـره. ليكن طابـور أسري. أو معرض غنائم. كل هذا لا يعنيه. المهم لديـه انه لن يـدعها تفلت منه هذه المرة. دخل في الطابور وراءها. فكر في بدء الحوار معهـا من الآن. ولكنـه قال ان هـذا ربما بـدا تصرفاً غـير لائق. لينتـظر حتى يصلوا إلى مكان ما. ثم يكلمها.

اكتشف في سـيره انها إمرأة جميلة. المـلاءة تعكس بعض مـلامـح الجسد الجميل. تعجب من أحوال الناس. وتساءل: ما الـذي يدفعهـا إلى مثل هذه التصرفات؟ في القسم اكتشف الأمر كله. وكان الاكتشاف مذهلاً. الطابور كـان عبارة عن فتيـات ليل. خـدم شقق مفروشـة من الـرجال والنسـاء. بـواب عـمارة. سمسـار مسـاكن مفـروشـة. سـائق تاكسي. بائع بيرة. عامل «أسانسير».

تساءل: كيف لم أعرف هـذه الوجـوه؟ رأى البعض منها معـه قبل. قال في نفسه. المهنة يعمل فيها الكثيرون. والطابور جعله لم يتعرف على الملامح بدقة. والحكـاية. ان بـوليس الآداب قام بعمـل كبسة مفـاجئة على عمارة بها ٥٤ شقة مفروشة. الكبسة تمت صباحاً. في الوقت الـذي لا ينتظر فيه أحد مثل هذه الكبسات. تمت بنـاء على معلومـات تلقاهـا الضابط فلان وعـرضها عـلى الضابط عـلان. الذي أمـر بكذا وكـذا. ووضع الخطة سيـادة الحكمدار. ونفـذها المـدير بكـل دقة. ونجحت. بدليل وصول هذا العدد من المجرمين.

وضعوهم في الحجز. كانوا مجموعة واحدة. وكان بداخل الحجرة شخص واحد غريب له ذقن كثيفة. ما ان علم بالأمر حتى رفض ان يتكلم معهم. وبدا يهمهم لنفسه بكلمتين إثنتين فقط. ينظر إليهم ويقول:

ـ صباح الجمعة؟

كررها أكثر من مرة. وعندما طلب منه أحدهم ان يغير الكلام. أضاف كلمة يا كفرة. بعد كلمتي: صباح الجمعة. وبعد ان كررها أكثر من مرة وملها من تلقاء نفسه. بدلاً من ان يطلب منه أحد تغييرها. قال بصوت أقرب إلى البكاء:

ـ وقبل الصلاة؟

قال له واحد منهم ضاحكاً:

ـ من هذه الناحية لا تحمل هماً. الوقت كان متسعاً. حتى يحين موعد الصلاة. يمكن الاستحمام. وربما الوضوء.

ظل الرجل يبكي. على ما صار إليه الحال في البلاد. أشار للمجموعة. وقال ان كافة مشاكل البلاد تنبع من هنا. ثم أخذ يضرب الباب بكل قوته طالباً من الضابط ان ينقله إلى مكان آخر يحجز فيه بعيداً عن هذا الرجس. وعندما أكدوا له من الخارج انه لا يوجد مكان آخر للحجز. هدأ وقال انه مجبر على البقاء معهم.

بدأ التحقيق سريعاً. وطوال الوقت والدليل المتنقل يفكر كيف يخرج من هذه الورطة. لم يكلم المرأة المهمة عن الوظيفة. وهي من ناحيتها تظاهرت بأنها لا تعرفه. أول من استدعي للتحقيق. كانت المرأة التي وعدته بالوظيفة. أو المرأة التي تعرف الكبار كما قيل للدليل المتنقل. اكتشف ان اسمها نور الصباح. هكذا ناداها الجندي. وسألها عن اسمها الحقيقي. فأصرت انه نور الصباح. طلب منها الأوراق التي

تثبت الاسم فقالت انها لم تكن تتوقع ان تكون النهاية هنا. ولهذا لا توجد معها أية أوراق تثبت شخصيتها.

قبل طلبها كانت تجلس بجوار بواب العمارة. كان يناديها بيا ابنتي وكانت ترد عليه بيا والدي. وكان الكلام أقرب إلى الهمس. وضعت رأسها على فخذه. وكان خطان من الدموع ينحدران على خديها وكانت الكلمات تتناوب مع الدموع.

أتى دور الدليل المتنقل. دخل على المحقق. سأله عن الاسم والعمل. فقال له: دليل متنقل. الاسم والعمل معاً. أبدى المحقق دهشته. طلب منه قول الصدق. وإلا سيحجز هنا فترة طويلة. ضحك في سره. تساءل: ماذا يقول لهم؟ هل يقول انه يعرف كل الشقق المفروشة في وسط البلد. وانه معه عناوين سيدات فاضلات. يحضرن إلى هذه الشقق بهدف الترويح عن النفس. يعرف كافة مخازن البيرة وتجار الويسكي المستورد من منازلهم يغيّر العملات الصعبة ويستبدلها بعملات سهلة في ثوان معدودة. يجيد الحساب بصورة أدق من كافة أجهزة الحسابات الالكترونية. يصرف البضائع المهربة. ويعرف بشكل شخصي من يبيعون أدوية السكر والجنون والمقويات الجنسية في الأكشاك المخصصة لبيع الكتب والمجلات والصحف وغيرها من أدوات المعرفة. يحضر الآلاف من المجلات الجنسية. وصور مضاجعات حدوثها يعد نوعاً من المعجزات. يعرف عناوين الغلمان الذين يرتدون قمصان النوم الأنثوية المثيرة الألوان. يحضرهم في ثوان معدودة.

ـ اسمك يا أخ؟

ـ الدليل المتنقل.

ـ عملك؟

ـ الدليل المتنقل

ـ عنوان الإقامة؟

ـ قبر ليس له اسم.

همس المحقق لرجل بجواره. كان الهمس يدور حول احتمال ان يكون الرجل مجنوناً. وفي هذه الأثناء دخل ضابط. وقال ان عدد المتهمين زاد واحداً من العمارة حتى القسم ضحك المحقق:

ـ ربما ولدت واحدة.

هنا صاح الدليل:

ـ أنا الذي زدت.

أقسم لهم إنه اندس وسط الذين كانوا يسيرون في الطرق.

ـ وهل هذا معقول؟

ـ انه الذي حدث يا سيدي.

تأكد لديهم أنه مجنون. سأله المحقق:

ـ هل انت مجنون؟

ـ لا يا سيدي. في كامل قواي العقلية.

ـ إذن في أي الأيام نحن؟

ـ الجمعة.

ـ وغداً؟

ـ السبت.

ـ وبعد غد؟

ـ الأحد.

ـ وأمس؟

ـ كان الخميس.

ـ وأمس الأول؟

ـ الأربعاء

ـ أين نحن الآن؟

ـ في مؤسسة منع المتعة عن الناس.

ضحك المحقق وقال:

ـ هنا فقط فرقت المسألة معك. نحن في نيابة الآداب.

احتار المحقق والضابط. هل يضمانه للقضية ويتم عمل مذكرة منفصلة بأمره أم يرسل إلى مستشفى المجاذيب. الدليل المتنقل من الذين ضاعوا في الطريق من القبر إلى الميدان.

الهانم:

كان تسير تائهة. حيرى لا تعرف إلى أين يوصلها الأمر. تساءلت: مالي وكل هذا الذي يجري حولي. رحلت. لأن الانتقال من القبر إلى الميدان فرصة للخلاص من العائلة. وجودها وسط العائلة لم يعد مبرراً. ولا خروجها وقت العصارى وعودتها قرب انتصاف الليل تقابلها علامات الاستفهام التي تشق ملامح الوجوه بحثاً عن إجابة.

في بعض الأحيان تعود في الصباح. وتقول بعض التبريرات المملة والمعادة. والتي لا تدري ان كانت كذباً أو صدقاً. أحياناً. يسألها واحد من العائلة عن سبب التأخير والمكان الذي كانت فيه. لم تعد ترد على الأسئلة. تعبت من عذاب الكلمات. كانت تتصور انهم فهموا الأمر في صمت. تسأل نفسها: هذه العائلة تحب الكلام وتهرب من الصمت. مع ان الصمت ربما يكون فرصة لفهم ما لا تقوله الكلمات.

وخلال الليالي المرهقة. وفي الحجرات الغريبة المؤجرة بالساعات. وفي مواجهة أفراد لا تعرف حتى أسماءهم. كانت تشعر بالرغبة في البكاء. وعندما كان يعكر الحزن صفو اللحظة المدفوعة الثمن. كانت تحاول الكلام عن ظروف الأسرة القاسية. واحد من الزبائن مط شفتيه. وأدار وجهه وقال: ومن منا ينعم بحياته. شخص آخر قال لها:

ان مأساتها هي الرقص على السلم فلا هي زوجة ولا هي آنسة. وحياتها وسط أسرة مثل أي صبية صغيرة. قاسية على النفس.

آه من عذاب أرملة أو مطلقة تعود للحياة وسط العائلة القديمة. دون ان تكون لها حتى حجرة مستقلة. وتحاول مد جسور العلاقات بعد فوات الأوان. وضع يده على الجرح النازف. دون أن يدري. مأساتها انها لم تعد آنسة. تركت أرض العذرية والحب وسهر الليالي. ولم تضع قدمها على أرض الزوجية. ليست مطلقة ولم تمنح بعد لقب الأرملة: فأي ضنى هذا.

خلال تنقلها بين الغرف المفروشة والقوادين وبوابي العمارات. تعرفت على فتاة استراح لها قلبها المتعب. كانت تعيش بمفردها. عرضت عليها الانتقال والإقامة معها. ألحت عليها كثيراً. لا تعرف لم أجلت الانتقال للإقامة مع هذه الصديقة. في الطريق ألحت عليها الفكرة. لم لا تذهب إلى الصديقة. الطريق واحد. ولن يكون هناك عذاب التبريرات ولا محاكمة النظرات الصامتة. ولن تمتد الأيادي لتحصل على ما معها. يرفضون سيرتها وعملها. ولكنهم يجرون وراء مالها.

في اللحظة التي كان قرار الهروب يستدير في داخلها. شاهدت شاباً رأته على انه الزوج الهارب أو الغائب أو الضائع أو الذي مات. هي نفسها لا تدري مصيره حتى الآن. أغمضت عينيها وفتحتهما. فوجدت نفس الملامح. قالت في نفسها. انه يحضر ولكن بعد فوات الأوان. انشرخ الطبق ولا يمكن إصلاحه. ومهما أصلح لن يعود كما كان من قبل.

احتارت في الأمر. كان شاباً ملامحه هي ملامح الزوج. وان كان يرتدي ملابس عربية. الجلباب أبيض يشرب من فوقه العصفور.

أبيض مثل الحليب. تذكرت منذ متى لم تشرب الحليب الذي يذكرها بالنقاء المستحيل. جاكيت لونه أقرب إلى الشاي بالحليب. على الرأس كوفية خطوطها الحمراء القانية والتي تتعانق مع اللونين الأبيض الزاهي والأسود الغامق. ذكرتها بدم البكارة. الذي يبدو مثل الحلم والأمنية. خطوط العقال الذي يدور حول الرأس صفراء دائرية. وفي القدمين حذاء. يبدو مثل المرآة من كثرة لمعانه.

تساءلت: هل يعود الذين غابوا؟ من قال هذا؟ انه مجرد الشبه بين هذا الشاب والزوج الذي ضاع. نظرت إلى الشاب طويلاً. هل عاد الزوج متنكراً في هذا الزي حتى لا يعرفه أحد؟ جائز. هذا زمن العجائب التي تعدت السبع في عددها. طالت نظراتها التي ركزتها على الشاب. لن تسأله من هو. تحرك الشاب تحت وطأة النظرات. فاكتشفت ان الملابس الجميلة والأنيقة والغالية أقرب إلى الديكور الذي يخفي القبح الذي تحته.

كان يبدو بائساً، القدم مكسور. يبدو أن في مكانه قدماً صناعياً. يحمل عصاً يتوكأ عليها. يقف على ناصية شارع رئيسي مع شارع فرعي. هبت نسمة هواء. فالتفت الجلابية حول قدميه. خيل إليها انها قدم صناعية. بدت واضحة تحت الجلباب. نظر الشاب إليها. استراحت نظراته عليها. حزين ومكسور. فرحت، القلوب الكسيرة تقترب من بعضها. هي كسر وهو بقايا. ولن يقف بجوارها سوى إنسان مكسور. سيدرك مأساتها من الألف إلى الياء. من يدري. ربما كان الشاب المكسور الجناح في أمس الحاجة إليها.

طوال حياتها. كانت تحتاج إلى الآخرين. ولم تشعر ان هناك من يحتاجها أو يطلبها. أو يمد يده لها. قد تجد هذا الإحساس لدى الشاب ذي القدم الصناعية المشكلة انه خجول. وقد لا يقوم هو بالخطوة

الأولى أبداً. ليس الأمر مشكلة بهذه الصورة. ستقوم هي بالخطوة الأولى. ماذا يمنع. المهم ان يلتقيا. وليس مهماً من الذي يبدأ. فكرت في بدء الكلام. الكلمة الأولى هي المشكلة وبعدها ينفك عقد الكلمات وتشتعل من بعضها.

نظرت حولها. رفعت عينيها إلى السماء. حاولت العثور على الكلمة المناسبة. نظرت إلى السماء. والنظر إلى السماء عادة تكونت عند العائلة منذ زمان بعيد. أيام ان كانوا يعيشون فوق الأسطح. في منزل عابدين. قال الأستاذ انهم بدون سقف يحميهم. والسقف الوحيد الذي يعيشون تحته هو سقف الخيمة الزرقاء. وهو السقف الذي لن يأخذه أحد منهم. وصاحب الخيمة الزرقاء هو الله القادر والمسيّر لهذا الكون الفسيح المترامي الأطراف.

في الصباح. عندما يصحون من النوم. في الحجرة الواحدة الصغيرة. كان الجو في الحجرة لا يطاق. الأنفاس والغازات والعرق وتخمر بول الأطفال وبقايا طعام الأمس. ما ان تفتح عينيها. حتى تفتح الباب. لحظة فتح الباب يدخل نسيم طازج. هواء لم يتلوث بعد. على باب الحجرة تبدو الخيمة الزرقاء الصافية، يجلسون فوق السطوح. ان من يخرج ويتنفس هواء الصباح النقي. يدرك ان إحساسه بما في الداخل سيزداد ان دخل الحجرة.

تصحو العائلة. وتفتح النافذة الوحيدة في الغرفة. ويظل الباب مفتوحاً طوال النهار. ومع هذا تظل الحجرة حتى المساء وكأنها تحتفظ بما فيها من هواء. وفي الليل تغلق الغرفة. فكر البعض منهم في النوم فوق السطوح. بدلاً من السباحة في بحار العرق. ولكن صاحب البيت منعهم. خوفاً من ان يكون النوم في الهواء مقدمة للإستيلاء على باقي السطوح. ماذا يمنعهم من بناء غرف فوق السطوح والإستيلاء عليها؟

بعد الانتقال إلى القبر كانت الخيمة الزرقاء معهم .لم يكن هناك سطح .
ظلت عادة النظر إلى السماء .

نعود إلى الهانم. تطلعت في سماء الخريف الشاحبة. سحابة قادمة من وسط البلد. من فوق الذين بلا مشاكل أو هموم. نظرت إليها. أخذته السحابة شكل السرير ليست الأسرة التي شاهدتها في بعض البيوت. ولكنه السرير الذي تسمع عنه. السرير القديم. المصنوع من النحاس الأصفر. الذي ينبعث منه بريق حتى في عتمة لحظات الجماع.

أعمدته تبدأ من أرض الغرفة ولا تنتهي إلا عند السقف. وعندما يصل الجماع إلى ما قبل لحظة الذورة. حيث العنف. توجد خلاخيل في أعمدته الأربعة. تنبعث منها خشخشة محببة. ألذ أصوات العالم تؤكد للرجل ذكورته وفتوته. وتؤكد للأنثى حلاوة ان تكون مرغوبة وان يركب فوقها رجل.

هامت. غابت المرئيات أمام عينيها تذكرت ما يجري لها في الحجرات التي تؤجر بالساعة. اشتاقت إلى بعض من قابلوها في الحجرات. منهم شبان صغار ورجال تعدوا الخمسين من العمر. يبدو انهم يحضرون بحثاً عن حنان لم يجدوه في حياتهم العائلية. يطلبون منها حنانها وحبها. تصاب بحالة من اليأس والإحباط. تقول في نفسها: ان فاقد الشيء لا يعطيه. أصبحت في مواجهة الشاب. الذي توقف ولم يعبر الشارع. تاهت منها الكلمات. الوجه في الوجه وخفقات القلوب يسمعها الآخرون. ولكن أين الكلمات؟ جف الحلق وكادت ان تصرخ.

وقعت العصا من يده. أصبح معلقاً في الهواء. أوشك على الوقوع. اقترب منها. أسندته بيد. والتقطت العصا من الأرض باليد الأخرى. تم الأمر بسرعة. أخذ العصا. استند عليها بيد ووضع اليد الأخرى

على كتفها. أحست بدفقات دافئة من الحنان والحب لم تشعر بها من قبل. توكأ وسار معها. رفعت يدها. وعبرت معه الشارع إلى الناحية الأخرى. همست لنفسها: تحقق الحلم فأسعفيني يا دموع العين.

وقف، سألته عن طريقه. فقال لها: ليس له طريق معين نزل ليتمشى. ومستعد للذهاب معها حتى آخر العالم. أخرج نظارة سوداء قاتمة وارتداها. طلبت مه الذهاب إلى شقته. وهناك يتكلمان. رفض فكرة الذهاب إلى الشقة. أخذها إلى مكان يطل على النيل. جلسا بالقرب من المياه. تمكنت من الجلوس في مكان تلتقي فيه المياه بالشاطىء. جلست وغمست القدمين في مياه النيل. كان من الصعب الاستمرار في الجلسة. لأنه لا يستطيع الجلوس مثلها.

قامت. جلست على كرسي وأمامها منضدة وعلى المنضدة مفرش. وحضر جرسون مهذب يرتدي. ملابس أنيقة. انحنى للعقال العربي. وكادت جبهته ان تصطدم بالمنضدة. وخلفه جيش من السعاة والخدم والسفرجية. قيلت كلمات الاحترام والتبجيل. وسأل ان كان المطلوب عشاء أم مجرد مشروبات. كان صاحب العقال صامتاً. ترك لها الأمر. وصفها بأنها القائد، كان يرغب في الصمت. حاولت ان تتكلم فمد يده. طالباً منها هي الأخرى الصمت. احتارت. تساءلت: هل هو أبكم؟ لماذا يكره الكلام؟ يبدو انه لا يحب إفساد هذه اللحظة بالكلمات. وجدت ان موقفه سليم. لماذا يفسدان اللحظة بالكلمات. ليعيشا اللحظة فهذا أفضل من كل الكلمات.

جلست صامتة وإن كانت حزينة. كانت تود أن ترتوي من ماء الكلمات. أن تجلس بالقرب منه. تحت قدميه. تضع رأسه على صدرها. وتقول وتتكلم بحرية. تقول حكايتها بدون كذب. شعرت أن هذا الشخص لن يكون عابراً في حياتها. لديها إحساس أن مصيرها

ارتبط. بمصيره على نحو غامض لم تدركه.

من الآن وحتى النهاية. ستكون بجواره. قاما من مكانهما. أعطاها النقود لكي تحاسب. حاسبت وكانت سخية وهي تدفع البقشيش. سارت معه. في البيت. اكتشفت أنه يؤجر شقة مفروشة. حجرة وصالة تائهة فوق عمارة ضخمة. خلع ملابسه وخلعت ملابسها. لم يكن راغباً فيها. طلب منها الجلوس. وأطفأ الأنوار. جلست على الفراش وأحضر كرسياً في منتصف المسافة بين السرير والشرفة البحرية.

كانت أضواء المدينة تنعكس على وجهه. ألوان طيف. أحمر وأبيض وأخضر وأصفر. أضواء إعلانات تتغير بنظام. معين. قدم نفسه لها. ذكر اسمه. كان يتكلم ببطء. ويبدو انه يجد صعوبة في العثور على الكلمات. توقف وسألها عن اسمها. قالت له إحدى الصفتين اللتين تنادى بهما.

حكايته بسيطة. إثر حادث أليم بترت ساقه اليمنى. سافر إلى أوروبا. عاد ومعه العصا. ولديه القدم الصناعية. يعاني من مرض نفسي. يشعر انه أقل من الآخرين. عرض نفسه على أطباء أمراض نفسية. في أوروبا وأمريكا. لم يوصله العلاج إلى نتيجة. حضر إلى هنا ليعرض نفسه على الأطباء. وليحاول تجريب الطب الشعبي. فتح الكتاب وتحضير الأرواح والسباحة في بحار البخور. وحضور جلسات الزار.

حضر منذ أسبوع وابتداء من الغد. سيذهب إلى فلكي ومنوم مغناطيسي. وشيخ يقال انه متزوج من جنية. وانها تحقق له كافة المستحيلات. ستكون هذه التجربة هي الأخيرة لن يعود إلى بلاده بفشله. سيظل هنا حتى يعالج.

بدأت قصتها من لحظة النهاية. من ناصية الشارع والرحلة من القبر إلى الميدان. كلمته عن أمور لم يسمع عنها من قبل. دهش عندما عرف انهم يعيشون في قبر. واستبشع فكرة البيع في ميدان عام. قال لها انه مستعد للذهاب إلى الميدان الآن. وحل مشكلة العائلة، العثور على سكن أمر سهل. والبحث عن عمل لأفراد العائلة. هنا أو في بلده. لن يكون صعباً. رجته ان يعطيها فرصة للتفكير في الأمر حتى الغد.

كانت في قرارة نفسها لا تحب ان يلتقي الشاب بأسرتها. راحت تتخيل عندما يلتقي الشاب بالأسرة. والصراع الجديد. الذي ربما حرمها منه. أتى وقت النوم. سوت السرير وارتدت أجمل ملابس النوم. قالت انها ليلة الزفاف. ولكنه رفض حتى ان يناقش الأمر.

أخذ مرتبة احتياطية من فوق السرير. وفرشها على الأرض. وقال إنه سينام هنا. عجزت الكلمات عن إجراء تفاهم بينهما. تركته وحاولت ان تنام. جافاها النوم. يقظة حارقة هجمت عليها. كانت ترغبه. أنفاس الرجل ورائحته تثيرها. تقلبت. فكرت في النزول إليه. خافت ان يكون مرضه قد أثر على قدراته كرجل. خشيت ان تفقده ان دفعته إلى لحظة المواجهة. انها بشر. وتحتاج رجلاً. ولكنها تخشى فقده.

قالت لنفسها. حتى بر الأمان الذي تتصور انها وصلت إليه يبدو مهتزاً. أكدت انها قليلة البخت. تصورت ان الشاب لم يحضرها معه سوى من أجل المضاجعة. وقالت لنفسها. انه لو ذاقها مرة لن يتركها أبداً. فهي تجيد الكثير من الفنون التي تسعده. وها هو يطلب منها الكلام والاستماع إليه. ويرفض المضاجعة. قررت الصبر حتى تفهم الأمر. خاطر أخير تسلل إليها. قبل النوم. ربما كان الشاب متديناً. يريد الزواج على سنة الله ورسوله. قالت ان هذا جيد. في الصباح ستعرف الأمر كله. وكانت سعيدة.

الذين رفضوا:

كانوا أربعة. كل منهم كانت له أسبابه الخاصة. أحدهم عشنا من قبل مع رحلته من القبر إلى الميدان. بالعمليات الحسابية يبقى معنا ثلاثة: العبقري وفاتنة المقابر وعاش الملك. لكل منهم رحلته، أحدهم بدأ من القبر ووصل إلى الميدان. والإثنان الآخران بدآ من القبر وان لم يصلا إلى الميدان. عاش الملك لرحلته. وجه بوليسي.

لا يبقى لدينا سوى إثنين من الأربعة الرافضين.

فاتنة المقابر:

من الصعب القول إنها كانت مع التحرك من القبر إلى الميدان أو ضده. كانت في حالة يأس من الصعب وصفها بالكلمات. وكان رأيها انها أهينت في الفترة الأخيرة بما فيه الكفاية. ولا داعي لمزيد من الإهانات في المستقبل. نما إلى علمها ان الرحلة من أولها إلى آخرها. انما هي تمثيلية متفق عليها. بين والدها وبين من بيدهم الأمر. مع انها تتصور ان من بيدهم الأمر من الأعداء الذين يجب خوض الحرب ضدهم بدلاً من التحالف. معهم. كانت تود القيام بالرحلة مع الأستاذ لتكون قريبة من العائلة. قد يحتاجون إليها. العائلة ستواجه أموراً صعبة وخطيرة في الفترة القادمة. ولكنها أصبحت إنسانة متعبة.

همست لنفسها. لو نجحت في الارتباط بالشاب الذي عبر رحياتها مثل الحلم. آه لو نملك تحويل أمنياتنا إلى واقع. لما قاسينا في هذا العالم الغريب. عندما تحدث المليونير عن الفكرة. تصورت ان أجهزة الإعلام ستحضر إلى ميدان التحرير. تليفزيون وإذاعة وصحافة. فرصة لشغل الرأي العام. بتلك القضية الجانبية. أمر يصرف الناس عن الأمور الجوهرية. ان وقفت معهم في الميدان. ستكون جزءاً من البضاعة البائسة التي ستعرض على الناس في ذلك المساء. تمهيداً

لحضور المخلص ووضع حد للمشكلة وسط تصفيق الحاضرين من الجماهير التي لا تفهم ما يجري أمامها.

خشيت من الوقوف في الميدان. ربما ضاع مستقبلها بسبب هذه الوقفة. الحبيب جزء من الجمهور الذي يتسلى بآلام الآخرين قد يشاهدها مع الأسرة. ويسمع ما سيقال. الاعترافات ووصف الحال. ربما يكون مبالغاً فيه. وهكذا يضيع الحبيب إلى الأبد. تمنت لو انها وجدت مكاناً في بيت للمغتربات. نفس الكذبة التي قالتها للحبيب. حتى الأكاذيب لا تملك القدرة على تحويلها إلى واقع. الإقامة في مدينة جامعية تبدو حلماً. وبيت المغتربات الجنة أقرب إليها منه.

ليلة الأمس. ذهبت إلى الأستاذ. طرحت عليه تصورها. لماذا لا تتفق هي والأستاذ. والعبقري في محاولة للعثور على حل جماعي لهم. انهم في معسكر واحد. مشكلتهم ليست الحياة في القبر. ولا ضياع القبر ولا رفض المسيرة من القبر وحتى الميدان. ولكن المشكلة هي تحويل الرفض إلى محاولة العثور على حل واقعي. وجماعية البحث عن حل. أفضل من المواجهة الفردية للمشكلة.

فكر الأستاذ في الأمر ولكن العبقري رفض المشاركة في التفكير. قال انه لا يطلب من أي منهم مساعدة. على كل إنسان الاهتمام بنفسه. حزن الأستاذ بسبب رفض العبقري. حاول إفهامه أهمية ان يجد الإنسان من يقف بجواره في الظرف الصعب الذي يمرون به. ازداد العبقري تشبثاً بالرفض قال الأستاذ لفاتنة المقابر. ان الوحيد من الثلاثة الذي يملك مورداً مالياً ثابتاً هو العبقري. وهو يرفض أي حل جماعي لتصوره انه هو الذي سينفق على الآخرين.

الحديث عن السكن سابق لأوانه. قفز على الواقع. الحل الأول هو العثور على مورد مالي ثابت. وهذا المورد لن يكون إلا من عمل ثابت.

من الغد يجب عليهما البحث عن عمل بعد الظهر. وليكن التعليم صباحاً. العمل سيحصلان منه على النقود، وبها يمكن حل مشكلة الإسكان. استمعت له فاتنة المقابر. تساءلت: انه يقول. من الغد نبحث عن عمل. ولكنه نسي. أين أبيت ليلتي؟ حتى يصل هذا الغد. انه رجل وأنا فتاة. والفارق بيننا ليس درجة في النوع. ولكنه فارق ضخم. انه يقفز على الواقع.

كان الأستاذ مستمراً في الحديث. وكان ما يقوله حول أهمية الموارد المالية. لأنها تحرر الإنسان من ضرورة الإرتباط بالعائلة. الاستقلال عن الأسرة لن يتم إلا بعد الاستقلال المالي أولاً. العمل قبل الدراسة. من العمل يبدأ طريق الحل البديل. العمل يخرجهما من دائرة القطيع. إلى حياة فردية. يحترم كل منهما نفسه فيها.

خرجت وهو مستمر في الكلام. آخر الكلمات التي علقت في ذهنها كانت حول العمل والاستقلال المالي والفردية. تساءلت من جديد: حتى هذا العمل هل من السهل العثور عليه؟ لم يأخذ أحد خروجها مأخذ الجد. أمها نادت عليها. أخبرتها. انها ـ أي الأم ـ ستبقى في القبر. وان الباب سيبقى مفتوحاً لها. ويمكنها العودة في أي وقت. نظرت وراءها. بدا لها ان ما يفصلها عنهم ضخم. مساحة طويلة من الأرض والزمن والشعور قالت لأمها ببطء:

ـ لن أعود أبداً.

لدينا يقين ان القبر هو سبب مأساتها. لولا القبر ما كان هذا هو حالها. ولكن السؤال: أي تذهب؟ هل تذهب إلى إحدى زميلاتها. وتقيم عندها حتى تجد حلاً؟ مأساتها تجعل أي إنسان يقف بجوارها. حتى لو كان نصف إنسان. ومع هذا لن تحاول استثمارها. سترفض. لا يمكن ان تقبل الإقامة عالة على إحدى زميلاتها. لو فعلت. لن تحترم

نفسها. انها تعرف الكثير من الزميلات وكلهن يعشن في ظروف اجتماعية ميسرة ولكن ما قيمة استبدال التبعية للعائلة بتبعية أخرى أقسى وأمر؟

انها المرة الأولى في حياتها التي تتخذ فيها قراراً ويجب إكمال الأمر إلى نهايته. حتى تحترم نفسها في الأيام القادمة. ستذهب إليه. تقول له الحقيقة دون كذب. تساءلت: هل يعود إلى القلوب الدفء القديم؟ سترفض الإقامة في منزل أهله. ان وفقت في العثور على نقطة بدء. أو مساحة صغيرة من الأرض يقفان عليها. ستكون هذه هي البداية.

سارت. في الطريق إلى مصر الجديدة. الصحارى الواسعة. المعسكرات. المعاكسات. السيارات. لم تكن تدري ما حولها. لأنها شرعت تكتب له رسالة في خاطرها قالت لنفسها: ان الرسالة ستدور حول معنى واحد. الكذب. الدرس الأول في الأسرة المصرية. والدرس الأخير في المجتمع المصري. ستطلب منه ان يسامحها لرداءة الخط. وستقول له كل ما لديهامرةواحدة. وستستريح على صدره إلى الأبد.

العبقري:

مصائب قوم عند قوم فوائد. ما من أحد كان سعيداً بما جرى سوى العبقري. وجدها فرصة للفكاك من العائلة. التي كادت ان تقضي على الإنتصارات التي حققها. كان يقول لنفسه: انه لن يسمح لأحد بتبديد ما دفع العمر في سبيله. وان كان يدرك ان مجرد وجود هذه الأسرة. يهدد كل ما بناه. لترحل الأسرة. سيطلب لها السلامة. ولكنه سيرفض الرحيل. وهذا الرفض يعطيه حرية في الحركة كان يتمناها من قبل.

الأسرة سفينة أوشكت على الغرق. وعندما يتركها. لن يكون أول من يقفز من السفينة الغارقة. استقلال الأبناء بحياتهم مسألة مشروعة.

صحيح انه لم يتزوج حتى يكون هذا الإستقلال مبرراً. خاصة وان الذين تزوجوا من أبناء وبنات الأسرة ظلوا يعيشون في نفس القبر. هكذا ظل الرحيل حلماً معلقاً إلى ان أتت حكاية الميدان وقرر ان لا يضيع الفرصة التي أتت إليه. دون ان يلعب أي دور لحضورها.

كان الرحيل أمراً منتهياً. ولكن بقي السؤال: إلى أين يذهب؟ كان من السهل اللجوء إلى قبر آخر، قال لنفسه: فليكن الرحيل هو آخر عهده بالقبور. من حقه الإقامة في الناحية الأخرى. مثل باقي البشر. فكر في جملة حلول. الأول: ان يطلب من رئيسه في العمل ان يسمح له بالمبيت في المصلحة على شكل نوبتجية. مستمرة. تمنى لو ان نظام الدفاع المدني ما يزال معمولاً به في المصالح الحكومية. إذن لتطوع للدفاع عن المصلحة مدى العمر كله. كان لديه اقتناع ان المدير لن يرفض طلبه. لن يكلفه الأمر أكثر من بطانية ومرتبة ومخدة. يفرشهم في أي مكان ليلاً. ويقوم من نومه في الخامسة صباحاً. قبل حضور أي موظف أو عامل إلى المصلحة.

قلب الفكرة. ووجد انها غير مريحة. وليست في صالحه. مشكلته في المصلحة ان الكل ينظر إليه على انه ساع اختصر المسافة إلى عالم الموظفين. وهذه الفكرة ستؤكد انه ساعٍ. وتلصق الصفة به إلى الأبد. وستصبح أقصى أمانيه ان يقال عنه انه خفير ليلي. الناس في المصلحة ما ان تؤمن بفكرة حتى يصبح من الصعب تغييرها. ان كان الحل هو الإقامة في المصلحة ليلاً. فهذا يهدد ما بناه. مثل الإقامة في القبر. لن يستبدل خطراً بخطر. سيسكن في منزل مثل الآخرين. لن يعجز. ويمكنه قبول حلول مؤقتة. في سبيل الوصول إلى حل نهائي. حتى لو بات لياليه في قطارات السكة الحديد أو على الأرصفة أو في باحات المساجد. المهم انه لن يعود إلى القبر:

ـ شقة المدير.

لا يذكر العبقري متى فكر في الأمر لأول مرة. لو كان صريحاً معنا لقال ان التفكير بدأ في ذلك اليوم البعيد الذي استدعاه فيه المدير. وأجلسه في المكتب وطلب له الشاي. وتحدث مطولاً عن متاعب الحياة. قال العبقري ان كل إنسان له متاعب. والإنسان الذي بدون متاعب لم يوجد بعد.

لكل منا متاعبه. لكن المهم هو كيف نواجه هذه المتاعب؟.

هكذا تساءل المدير وهو ينظر في عيني العبقري بنظرة أودع فيها من الحب والحنان ما لم يره العبقري في عيني المدير من قبل، مشكلة المدير انه متزوج زواجاً ورقياً في وثيقة المأذون. وهو بهذا يعد نوعاً من اليأس اليومي المستمر. لم يحب في يوم ما. تلك التي تسمى زوجته. والعبقري نفسه سيجرب هذا عندما يتزوج. الزواج يقتل الحب. حتى لو كان الحب موجوداً قبله. تلك قاعدة لا تقبل المناقشة. خاصة وان كان الزواج فيه مصلحة. وهذا ما حدث في حالة المدير. من قبل كان يحتمل هذا الوضع باعتباره قدراً. أما الآن. تغير الوضع. زاد الدخل. واصبحت الأموال مثل حبات الأرز. والفضل في هذا يعود إلى العبقري. فهو الذي فتح الباب أمام الرزق بشجاعته وإقدامه وعدم خوفه.

الخير يأتي مع بعضه. وهو يطلب من العبقري خدمة بسيطة. لن تكلفه أكثر من توقيعه على ورقة. ذهل العبقري. ما كان يتصور ان يركب قرنين. انه يسرق ويزور. أما ان يتزوج إمرأة. لكي يعاشرها سيادة المدير. فذلك ما لن يحدث. تعكر وجهه. فأدرك المدير ان العبقري فهم الأمر خطأ. سيوقع على عقد من ورقة واحدة. صمت العبقري. جاء وقت تسديد الحسابات القديمة. المدير يرغب في

الحصول على حسابه بكل الصور. أموال وتوقيعات. سيكون العبقري حذراً. لن يسمح لأحد ان يسخر منه.

قرر الانصات حتى النهاية. سيعطي المدير الفرصة لأكبر قدر من الكلام. وخلال الإنصات سيكتشف الأمر. نوبة خجل أصابت المدير من صمت العبقري وسرحانه. قال انه نسي الموضوع الذي كانا يتكلمان فيه. ذكره العبقري انه يتصل بالزواج. قال المدير: الزواج. انه يأس لا نهاية له بموجب وثيقة رسمية. اكتشف المدير انه قال هذا الكلام من قبل. فانتقل الى الحديث عن المراهقة الثانية. والتي تبدأ بعد الأربعين وتزداد مع تقدم العمر. وتدفن مع الرجل. وقال انه يمر بهذه المرحلة حالياً. ثم تحدث عن الملل من رتابة الحياة اليومية خاصة بالنسبة لموظف مثله. حياته مضبوطة بمعرفة جهة غيره. بمواعيد محددة لا تتقدم ولا تتأخر ثانية. يؤديها بشكل آلي. لدرجة انه يخيل إليه في بعض الأحيان انه عاش نفس الحياة من قبل. وانه يؤديها للمرة الثانية لسبب لا يدريه.

وانتقل الحديث إلى التكلفة المرتفعة للفسحة. في هذه الأيام الغريبة. مجرد الجلوس في حديقة عامة أصبح مكلفاً. الوقوف تحت شجرة في شارع عمومي له ثمن. هذا ان وجدت الشجرة أصلاً. فضلاً عن انه مدير. ومنصبه لا يسمح له بالجلوس في حديقة عامة أو الوقوف تحت شجرة والأماكن الأخرى من يستطيع دخولها. إحدى الحفلات التي أقيمت مؤخرا. على حافة حمام السباحة. كان حجز المنضدة. خمسة آلاف دولار. ولا بد من العملة الصعبة.

فكر المدير وفكر. انه يريد ان يروح عن نفسه بالشكل البريء ولكن أين؟ لا العمل ولا المنزل ظروفهما تسمح. والأماكن العامة غالية. والحل الوحيد ان يكون له مكانه الخاص. شقة صغيرة. بالقرب من

العمل في العباسية. حجرة وصالة على سطوح إحدى العمارات. أمامها سطح فسيح يزرع فيه شجرة. وتحت الشجرة زير ماء. [قال العبقري في نفسه. الرجل يريد ان يصبح زير نساء. انه توارد الخواطر] أكمل المدير انه يود ان يستريح هناك. حتى هذه الحجرة فإن ظروف عمله ومركزه لا تسمح له بأن يؤجرها.

المبلغ جاهز. والشقة متوفرة. في الفترة الأخيرة تدفقت الأموال بصورة جيدة من الأبواب الخلفية ولكنه لا يمكنه ان يوقع عقداً لإيجار شقة غير الشقة التي تعيش فيها العائلة. المسألة خطيرة. وهو طوال عمره رجل حذر ويحب الأصول. [تساءل العبقري: الأموال التي نقسمها. هل هي من الأصول. والحصول عليها. هل يتم بدافع الحذر نفسه وتعجب؟]. أكمل المدير. انه عثر على شقة. ودبر كل أمورها. ولم يبق سوى العقد. انه يطلب من العبقري التوقيع على العقد بصفته مستأجر الشقة. هذا على الورق. أما في الواقع. فلن يعرف حتى طريقها. ولن يكون مسئولاً عن مليم واحد. وهذه الخدمة تجعله أقرب إنسان في الوجود إلى عقل وقلب وروح المدير.

كان الصمت مستتباً. وكان المدير ينطق بالكلمات ثم يسمع رنين صوته. بعد الانتهاء من النطق. كان يتصور ان شخصاً آخر هو الذي يتكلم. وبعد ان انتهى من كلامه زاد الصمت استتباباً. جلس المدير في انتظار ان ينطق العبقري. في لحظة الصمت. أدرك العبقري ان فرصة العمر قد أتت. سيوقع العقد. لأنه سيكون يد المدير الموجوعة التي يمسكه منها متى أراد. وسيلة ضغط نادرة على المدير.

تكلم المدير. لأن ثقل الصمت بدا قاسياً. قال انه يعطي للعبقري فرصة للتفكير بهدوء. ويبلغه قراره في الوقت المناسب. ولا يجبره على الموافقة الآن. فاجأ العبقري المدير بأن انتفض واقفاً قال بصوت

خطابي. انه لا يفكر في أمر يطلبه منه مديره العظيم. انه يوافق من الآن. وتحت أمر المدير. بالشكل الذي يناسبه. وصلت فرحة المدير إلى أبعد مدى يتصوره الإنسان فتهلل وجهه وقال له:

ـ إذن أذهب الآن.

أعطاه العنوان والمبلغ. المطلوب وهو تسليم المبلغ والتوقيع على العقد وإحضار صورة منه. في شارع رمسيس بالقرب من مستشفى الدمرداش. توجد الشقة، الصغيرة كما وصفها المدير. ضحك العبقري في سره. لم يكذب الرجل. قابل صاحب البيت. تمالك نفسه. حتى لا تفسد الدهشة الموقف. الرجل يحضر إلى المدير كثيراً في الفترة الأخيرة. وسمع العبقري في المصلحة همساً. ان الحكاية التي يحضر بسببها هذا الرجل. ربما كانت ضربة العمر بالنسبة للمدير. أما ان تصعد به إلى عنان السماء. أو تنزله إلى القبر. يومها ضحك أحد العاملين. وقال انه حتى لو صعد بهذه الضربة. فسيكون الصعود بدون مصعد.

قال العبقري. ان المدير يضع كل أمر في خانته. تساءل: لماذا لم يشركني في الأمر؟ من علمك التخفي يا حضرة المدير؟ هل هناك غيري يعمل معك؟ ربما تكون قد قررت توسيع دائرة الأعمال. وفي هذه الحالة أصبح أنا مجرد فرع صغير في شجرة الأعمال الضخمة. من يدري ربما استغنى عني. سيوازن الدخل مع المخاطر. وان لم يحدث التوازن المطلوب. ماذا يمنعه من الاستغناء عني.

ذلك هو عيب المديرين في بلادنا. تعلمه أول خطوات السرقة. يبدو كالتلميذ أمامك. يتعلم منك ولكنه بعد الوجبة الأولى. يكتشف ان هناك مسروقات كبرى تناسب المقام. فيبدأ في العمل منفرداً. وان لجأ إليك. فسيكون ذلك في جزء صغير وتافه من العملية. أما العملية الأصلية فلا شأن لك بها. انهم مديرون حتى في السرقة.

وسبحان ميسر الأحوال والأمور في وطننا هـذا. أيها المـدير. لا تنس انني أنـا الذي قـدت خطواتـك في هذا الـطريق. ولولاي. مـا تدفقت الأمـوال بـين يـديـك. ولا عـرفت الأبـواب الخلفيـة التي تتـدفق منهـا الأموال. والآن تحاول استخـدامي في جزء صغـير من العملية. وتحتفظ لنفسك بالباقي بدون علمي. اعلمه الرماية كل يوم، الجـزء الأول من البيت صحيح. وينطبق على حالة المدير. أما الجزء الثاني. فلم يحـدث كله. لم يحاول المدير ان يرميني. ولكنـه يحاول انجـاز إحدى العمليـات النظيفة لحسابه الخاص. ومعه حق في هذه النقطة، في يوم ما. سأعمل لحسابي الخاص. بعيداً عن المدير. والبادي أظلم.

يـومها كـان العبقري سعيـداً. قال لنفسـه. عندمـا يموت المـديـر. ستصبح هذه الشقة لي. عائلة المدير لا تعرف بأمر الشقة. وكـل من في العمـل لا يعرف حكـايتها. نحن شعب اذكـروا محاسن مـوتاكم. يـوم وفاته سيصبح الرجل التقي الورع الصالح. ورجل البر والإحسان ومن يسألني: وأين شقة شارع رمسيس؟ سأضربـه بالنـار. أقول لـه: احترم ذكـرى الرجـل الذي لم تجف دمـاؤه في القبر بعـد. هـذا التقي الـطيب كانت له شقة خاصة؟ انها مؤامرة لتلويث سمعة الرجل.

تسـاءل العبقري: لمـاذا يؤجر المـدير شقـة خاصـة؟ هـل من أجـل العمليات إياها؟ أم من أجل الحريم؟ لو كانت من أجل الحريم لأصبح المـوضوع لا يخصـه. وان كانت لـلأعمال من إيـاها. فستكـون فرصتـه للخلاص من مشاركة المدير له.

ما ضايق العبقري وهو في طريقه. ان هذه الشقق لها اسم حـديث. مستورد ضمن مستوردات هذه الأيام. يبـدأ بحرف الجيم. وفيـه يكرر حرف الراء مرتين وحرفا النون والسين. ولكنه لا يحاول نطقه خـوفاً من انكشـاف جهله به. قبـل الوصـول إلى المصلحـة. ذهب العبقـري إلى

استديو وصور العقد. أخذ صورة منه للاحتياط لأن المدير سيحصل على العقد. ولن يكون معه ما يثبت انه أجر الشقة من صاحب البيت.

ثبت في ذهنه ملامح الشارع الذي توجد فيه العمارة. العلامات المميزة لها. من كل ناحية. قرر الاحتفاظ بالعقد في مكان أمين لا تمتد إليه يد إنسان. في يوم قريب سيحتاج العقد. صنع لنفسه نسخة من المفتاح. قال ان مفتاح الشقة لا يقل أهمية عن عقد الإيجار.

من يومها. وهو ينظر كل صباح إلى وجه المدير عن قرب. يحاول قراءة دبيب الموت في وجهه. ما أحزنه. ان شباب الرجل تجدد. إقباله على العمل والحياة ازداد. جرى الدم في عروقه. قال العبقري. انها صحوة ما قبل الموت. ولكن الرجل عاش. يبدو انه هو الذي سيدفن العبقري.

في لحظات الضيق. كان العبقري يفكر في أمر آخر. ما دام المدير يرفض الموت. ويبدو متشبثاً بالحياة. لماذا لا يذهب إليه. ويعرض عليه استغلال الغرفة في غير أوقات الفسحة والراحة بالنسبة للمدير. ويخليها له في الوقت الذي يطلب منه فيه ذلك؟ اقتراح جيد ولكن العبقري خشي رفض المدير. الرفض سيضعه في موقف صعب. ستصاب العلاقة بأول شروخها. ولا يعرف. إلى أي مدى تصل الشروخ.

ليلة الرحلة من القبر الى الميدان. نظر إلى الموضوع من زاوية أخرى.

ـ سأحتل الغرفة ظهر الغد.

تساءل: لماذا لا يذهب ويفتح الشقة ويضع فيها أشياءه؟ الحظ معه في التوقيت. اليوم يوم جمعة. وهو اليوم الذي لا يستطيع فيه المدير مغادرة المنزل. سوى وقت الصلاة. من البيت إلى الجامع. ومعه أولاده كجزء من تربيته الدينية لهم. بعد الجامع يعودون إلى البيت معاً. لا

توجد قوة تبعده عن البيت يوم الجمعة. إلا مع أفراد الأسرة. فرصة عظيمة. سيحتل الغرفة بدون متاعب. قد تأتي المتاعب بعد هذا. ولكن ما قيمتها ان أتت بعد نجاح عملية الاحتلال؟ لم يكن يخشى ان تؤثر عملية الاحتلال على بيع الطوابع والاستمارات. لأن ذلك سهل. هناك أكثر من جهة تشترى. والإقبال على الطوابع والاستمارات المستعملة يتزايد مع الوقت. لم يكن العبقري في موقف يجعله يفاضل بين اقتراح وآخر. لم يكن أمامه سوى الاستمرار. لأن احتلال غرفة المدير كان المخرج الوحيد أمامه . أحضر أدوات الاحتلال. وهي عقد الإيجار والمفتاح وبعض الأشياء الخاصة به.

في المنطقة التي تقع فيها الغرفة. تعرف على الشارع والعمارة بسهولة سعد لأنه لم يسأل أحداً. لم ينس علامات المنطقة المطبوعة في ذهنه. في مواجهة البيت مسجد مقام حديثاً. عندما حضر لتوقيع العقد. كان البناء عبارة عن كميات من الطوب والزلط والإسمنت مكومة في فضاء واسع. تحولت الأشياء إلى مسجد أنيق مبني على أحدث طراز. فوقه أربعة ميكروفونات. موجهة في الجهات الأربع من الدنيا. لحظة وصوله إلى البيت. كان آذان الصلاة يجلجل في المكان.

فكر: لماذا لا يدخل ويصلي؟ لقد وفق من صباح اليوم وحتى الآن. يجب ان يكون آخر عمل يقوم به قبل الدخول إلى الحجرة «سكن» العمر هو الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى. ترك أشياءه على باب المسجد. ودخل. على الباب كانت تقف مجموعة من الشباب. صغيري السن. يبدو انهم يدرسون في الجامعة. كل منهم يحمل صندوقاً بيده. فيه فتحة في أعلاه. الكل يطلب تبرعاً لبناء مسجد. البعض الآخر كان يحمل ايصالات بيده وله نفس الطلب.

ـ تبرع يا مؤمن. إعمل لآخرتك كما تعمل لدنياك.

قال العبقري. ما أكثر المساجد التي تبنى في هذه الأيام. كثرت حركة بنائها. تساءل: لماذا لا يبنون مساجد وفوقها بيوت لسكنى الذين بلا سكن أمثاله؟ ان أي بقعة طاهرة في الأرض تصلح للصلاة. ولكن أي مكان في الأرض لا يصلح مسكناً. لماذا لا يشغل هؤلاء الناس أنفسهم ببناء البيوت؟ ثم تبنى المساجد بعد هذا. حتى نصل إلى ان يكون لدينا مسجد لكل مسلم. المهم ان لا يكون هناك من البشر من يعيش في المقابر أو الخيام أو على الأرصفة ونتركهم هكذا لمصيرهم. وتصبح المهمة الأساسية هي المزيد من بناء المساجد.

وضع غريب، نظر بعينيه. فوجد سبعة صناديق وثلاثة دفاتر ايصالات. قال لنفسه: عشرة مساجد في وقت واحد؟ تذكر ان آخر مرة دخل فيها مسجداً. كان الشيخ الذي يعطي درس العصر يقول: ان الدين كما انه ينظم العلاقة بين الخالق والمخلوق. هو تنظيم لأمور الحياة الدنيا. وان الإسلام معني بتنظيم أمور الحياة اليومية بين البشر أنفسهم. من حقه ان يفكر بهذه الصورة.

لم يكن معه ما يدفعه فدخل. فكر في مناقشة أحد الواقفين. خصوصاً وان منهم شباناً في مقتبل العمر. ولكنه خشي ان يسوء فهم كلامه. وان يؤخذ على انه يعادي فكرة بناء المساجد. تذكر مثلاً تقوله امه دائماً. ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع. انه ليس متأكداً من صدقه. وان كان يؤدي نفس المعنى الذي يدور في ذهنه. البيت. المسكن أولاً. لا يجب نسيان ان البيت. مكان صالح للعبادة. من يرد الصلاة فأرض الله واسعة. جلس في أقرب مكان صادفه.

لا يمكن القول ان هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها مسجداً. العبقري يكثر من التردد على المساجد أوقات الصلاة. ويحضر بعض الدروس. ولكنه ليس مواظباً. بمعنى انه لا يحضر في كافة المواعيد.

وهـو لا يواظب عـلى الصلوات الخمس في نفس مواعيـدها. سـوى في شهر رمضان. وبعده تصبح الصلاة تخاطيف وبحسب الظروف.

خـطبة الجمعـة كانت طـويلة. وكانت تتحـدث عن الرضى بـالقدر والقناعة بـالمقسوم. والسعـادة بالقضـاء والقدر. وان هنـاك حكمة من كـون النـاس درجـات. والحكمـة ان الفقـير في الـدنيـا ينتـظره الغنى والسعـادة في الآخرة. حيث جنـات العسل والحـور والملائكـة. وذلـك بشرط ان لا ينـظر لما بيـد الغني في الحياة الـدنيا. لأن النـظر إلى ما بيـد الغني يفسـد عفّة الفقـير. فالفقـر مع العفـة هو الغنى الكـامـل. ثم ان الدنيا تعطي بيد وتأخذ بـاليد الأخـرى. الفقير صحتـه جيدة. وحـالته النفسيـة عظيمـة. وان مرض. فتكـون أمـراضـاً بسيطة لا تحتـاج إلى علاج.

أنظر إلى الغني. ان الأمراض تلاحقه. وهي أمراض ليس لها عـلاج في مصر. ولكن في أوروبا وأمريكا. حيث يصل ثمن الحقنة الواحدة إلى مئات الجنيهات. بل الألوف. ان الصحـة تاج فـوق رؤوس الفقراء لا يراه سوى الأغنياء المرضى. وهم يتحسرون عـلى حالتهم عنـدما يـرون هذا التاج.

قـال الخـطيب بصـوت عـالٍ: ان الأغنيـاء مستعـدون للبـدل، ان يتنـازلوا عن كـل مـا لـديهم من الأمـوال لقـاء حصـولهم عـلى الصحـة المفقودة. فالصحة هي الكنز الذي لا ينقص رصيده.

استطرد الخطيب في كلامه. طلب من الحاضرين ان يطلوا على حال رجلين في صباح هذا اليوم. فقير حـالته الصحيـة جيدة. وغني عليـل. ماذا انظرا؟

الغني يقـوم من النوم متعبـاً. لأنه أصيب بحـالة من الأرق في الليلة السابقة. ونام نومـاً اصطنـاعياً. [سرت همهمـة فأوضـح الخطيب] انـه

أخذ بعض الحبوب المنومة حتى يأتيه النـوم. ومثل هـذا النوم ينتـج عنه صداع وقلق طوال اليوم. صحا الغني من النوم. أصفر الـوجه. محمـر العينـين منتفخ الجفنـين. وكأنـه خارج من علقـة ساخنـة. أمامـه بعـد الاستيقـاظ هموم أسعـار البـورصـة. وسـوق النقـد العـالمي. وأسعـار الذهب. والارتفاع والانخفاض في أسعار الدولار. أهم عمله في الدنيا وأيضاً في الآخرة. ولا يعرف إلا الله سبحانه وتعالى مـاذا تحمل لـه هذه الأخبار من المخاوف أو الأفراح. أو الظنون.

يبـدأ الإفطار. وقبله يـأخذ عشرة أصنـاف من الدواء. بعضهـا على شكـل أقراص. وأخـرى سوائـل وثالثة حقن. أجسام صلبـة. حـادة ومدببة تنغرس في الجسم فتخرج بالدم. وبعـد علقة الـدواء. ينظر إلى الإفطار الذي أمامه. مربى من لندن. تشبـع المعدة. ولا تحمـل الجسم أية كمية من الشحم واللحم. وهي مصنوعة خصيصاً من أجل هـذا. عصـير فواكـه من أمريكـا. زبدة من هـولندا. جبن فـرنسي وخبـز من إيطاليا والزبادي من سويسرا.

ينظر إلى هذه التوليفة. ولكن نفسه لا ترغب الطعام. ان بحار هموم الأعالي. تأخذه بعيداً. حتى كـوب الشاي. لا يستـطيع شرابـه. وعلى الفور يطلب كوب قهوة سادة. نصف لتر أيها السادة. من القهوة السادة يتجرعه المسكـين مع سيجـار. غليظ طويـل مستورد من كـوبا. ممنـوع تدخينه في كوبا نفسها. ولكنه يصدر إلينا هنا كجزء من مؤامرة شيوعيـة واسعة النطاق.

ويخرج المسكين يـا حبة ـ عيني عليـه ـ على لحم بـطنه كـما يقولـون. [قـال العبقري لنفسـه. ان تعبير عـلى لحم البطن. من تعبـيرات فقـراء الأحيـاء الشعبية. فكيف اقتبسـه الخطيب في وصف حـالة رجـل بهـذا القـدر من الغنى. ان مجـرد النـظر إلى مـا أمـامـه من أطعمـة يشبـع الإنسان].

أكمل الخطيب. وانتقل إلى مواطن فقير. صحته جيدة. انه نام ليلة الأمس مثل الفسيخة. لأنه كان متعباً من كثرة العمل. وهذه فائدة التعب. لمن لا يدرك الحكمة من وراء التعب من العمل. والتعب في المواصلات. والتعب في طوابير الجمعية التعاونية والتعب أمام المخابز والتعب أمام محلات الفول والطعمية. والتعب أمام طوابير سجائر الكيلوباترا. والتعب في الجري وراء موزع أنابيب البوتاجاز.

نام متعباً. ولهذا كان النوم عميقاً. صحا في الفجر. حالته جيدة. خرج فصلى الفجر حاضراً. وعاد إلى المنزل شهيته مفتوحة. وعنده رغبة ان يأكل الحديد. يأخذ طبقين وكوباً وصينية من البلاستيك. يحضر في الطبق الأول الفول المدمس. وعليه الدقة التي هي خليط مائي من الكمون والفلفل والشطة. وفي الطبق الثاني البليلة. أما الكوب فيحضر فيه الزيت الحار. وفي الحقيبة يشتري البصل الأخضر والجرجير الأخضر والخبز المحمص. والليمون البانزهير. وثلاث سجائر «فرط». ان بقيت معه أموال. ويعود إلى المنزل. ليجد ان العائلة قد استيقظت ولأنه يعيش في شقة من غرفة واحدة. تستخدم في كافة الأغراض. فهي لا تصلح في هذه الساعة المبكرة لتناول الطعام.

يضع الطبلية في الحارة. أمام الباب. ويلتف هو وأولاده حول الطبلية. وبالقرب منهم قلة. تنز منها المياه الباردة. ويستمر تناول الطعام ساعة أو ساعتين. ويحبس الرجل بعده بالشاي والسجائر وتحبس النساء باللبان.

قال مطرب الجيلين من قبل: ما أحلاها عيشة الفلاح. ونحن نقول اليوم: لا. ما أحلاها عيشة الفقير. فالصحة هي الكنز الذي لا يفنى.

قال الخطيب: ان من ليس معه في الدنيا عليه ان يبشر. لأن هذا معناه انه سيكون معه في الآخرة. ولكن بدون حساب. حيث لا توجد

ضرائب ولا جمارك. ولا جهات رقابية. ولا حساب الإيراد العام. وإذا أدركنا ان الدنيا هي دار الفناء. والآخرة هي دار البقاء. إذن فإن أغنياء هذه الدنيا. هم أغنياء فانون وهم فقراء دار الخلود في الآخرة. ولكن فقراء هذه الدنيا. هم فقراء مؤقتون فقط لأنهم سيصبحون أغنياء دائمين في دار الخلود.

وعلا صوت الخطيب وهو يقول: ان الله لا يحب من عباده سوى الفقراء. تلك حقيقة مؤكدة. هنيئاً لكل فقير. لأن النعيم ينتظره. في الدار الآخرة. حيث النعيم الأبدي. ان أكبر خطأ يرتكبه الفقير. ان ينظر لما بيدي الغني. والخطأ القاتل. ان يفكر الفقير. مجرد التفكير. في ان يكون غنياً. ولأن الفقير ينتظره هذا النعيم. فيجب ان ينظر إلى هذه الحياة الدنيا. نظرة متصوف مترفع يرفض هذا الغنى الدنيوي. حتى لو سعى إليه. فهو ليس محروماً. ولكنه رافض لعرض هذه الدنيا الزائل. في انتظار المجد والخلود والنعيم في الآخرة. ونعم ما ينتظره هناك.

ولكي تكتمل المثوبة عليه إطاعة أولي الأمر في هذا الدنيا. ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ طاعة الحاكم من طاعة الله. سبحانه وتعالى. والحاكم إن كان مسئولاً فهو مسئول ولكن أمام الله وليس أمام البشر. والأفضل بالنسبة للفقراء. أن لا يهتموا بهذه الأمور التي لا تخصهم. انهم عابرون. والعابر لا تعنيه الكثير من الأمور التي لا تعني سوى الشخص المقيم فقط.

يبقى أمامنا الكثير لكي نقوله في قصة العبقري مع غرفة المدير. كيف وجدها؟ وهل أقام فيها؟ وكيف جرت الأمور بينه وبين المدير وصاحب البيت؟ وهي قصة طريفة تخرج بنا عن جو المقابر القاتل. ولكن حكايتها الآن ستبعدنا عن اللحظة الفاصلة. لحظة البيع في الميدان العام.

والمؤلف يعد قارئه. بأنه سيقدم لـه كافـة هذه التفصيـلات في الجزء الثالث والأخير من الرواية. ولأن المؤلف لم يكتب هذا الجزء بعـد. فهو لا يدري موقعه من الرواية. ولا حتى عنوانـه حتى يدل القـارىء عليه. ويقسم المؤلف انـه لم يفعل هـذا من بـاب التشـويق والإثـارة. ولكنهـا ظروف كتابة الرواية هي التي فرضت عليه هذا.

أحشاء اليوم:

ضاع الدليـل المتنقل خـلال الرحلة. ولكن ولأسبـاب فنية لم يضـع جهاز التسجيل الذي كان يحمله. والمؤلف يعرف انه قد تقوم هنا بعض التساؤلات مثل: كيف وصل إليه الجهـاز؟ إذا كان من يحمله قـد فقد؟ وهو يطلب التغاضي عن هذه النقطة الشكلية لأن إثـارتها لن تقـدم ولن تؤخر. بعد عثور المؤلف على الجهاز قام بتفريغه. كـل ما فيـه لا يصلح للنشر. بعض ما فيه هو الذي يصلح.

لهذا فهو يقول انه اختصر ما كان مسجلاً لخروجه على العـرف العام ولإدراكه انه ـ أي المؤلف ـ قد دخل مع القارىء منطقة السباق. فالكل يريد طي هذه الصفحات كلها دون قراءتهـا. أو حتى مجرد النـظر فيها. لأنه يريد الوصـول إلى الحدث الـرئيسي في الروايـة كلها. والـذي تعد الصفحات السابقة وما أكثرها مجرد مقدمـات له. وهـو حادث البيـع في ميدان عام. اقتربنا معاً من لحظة الوصول إليه.

لن يفصلنا عن هذه اللحظة سوى تفريغ التسجيل. وفصل آخر عن المؤلف ومتاعب نشر الرواية. التسجيل تم بمعرفة الـدليل المتحـرك بناء على الاتفاق الذي أجراه معه الأستاذ.

المؤلـف ينصـح: التسجيلات كـانت جزءاً من عـالم بدون نهايـات. فيها انصاف معلومات. وأجزاء من جمل مبتورة. التقط الجهاز أكبر قدر من الكلمات المبتـورة الـطائـرة في هـواء المـدينـة. الفكـرة تجـر الفكـرة

والإحساس الواحد يجلب إحساسات جديدة:

يا إخواني.

ظهرت حتى الآن علامات ست، من علامات النهاية. تبقى العلامة السابعة والأخيرة. لن أقولها لكم حتى لا تصابوا بحالة من الفزع والخوف. هذه العلامة تظهر. وبعدها تأتي النهاية. منكم أنتم يا إخواني.

أصوات من مكان متسع. همهمات. تحيات. صوت مقرىء، يثير الشجن ويذكر الإنسان بالأيام الحلوة التي ولت ولن تعود.

«وإذا أردنا ان نهلك قرية.

أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها. فحق عليها القول. فدمرناها تدميراً».

الله، الله، أعد يا مولانا. صلي على النبي.

القتال في بيروت مستمر. وان كانت الليلة الماضية قد مرت بهدوء. فالقتلى لا يتعدون المائة فقط. أما الجرحى فلم يعرف عددهم بعد.

وبعد حربنا الخالدة، صدرنا اليأس والتمزق والضياع إلى مجتمع العدو الإسرائيلي.

الله أكبر الله أكبر.

الله أكبر فوق كيد المعتدي.

ـ أنا التي أرسلتني المدام لأقضي الليلة معك..

ـ يا هلا. يا مرحبا. عجيب شوها الجمال، نتكلم في المصاري. من شان ما نختلف بكير.

ـ الليلة حتى الصباح بخمسين جنيهاً.

ـ ونصف الليلة؟

ـ حتى الثانية عشرة مساء. بخمسة وعشرين جنيهاً.

ـ والمرة الواحدة؟

ـ بعشرة جنيهات .

ـ ومن الرجل الذي ينتظرك في الغرفة الأخرى .

ـ انه زوجي .

ـ هيه مو معقول .

ـ ولم؟

ـ هل بيعرف؟

ـ انه حضر لأخذ المبلغ لأن ابنتنا مريضة في المنزل .

ـ وكيف يوافق؟

ـ قلت انه حضر لأخذ المبلغ .

فترة صمت . خشخشة أوراق نقود يبدو انها جديدة . صرفت من البنك منذ قليل .

ـ هذه حجرة النوم . وتلك دورة المياه . استعدي لا تشعلي النور من فضلك .

ان الذين يهاجمون بيع الأراضي المصرية للأجانب يقفون ضد حركة التاريخ . انهم مندسون وعملاء . ويعملون لحساب جهات أجنبية أخرى . ستحضر بعد فترة من الوقت لشراء مصر كلها . ثم من قال ان مصر مصرية . لقد أممها عبد الناصر وأخذها بالقوة من أصحابها الحقيقيين . من عمر أفندي وداود عدس وبنزايون ان من بنى الإهرامات هم اليهود .

ولكن من هم الذين يعيشون هنا الآن؟

ـ انهم غزاة . أحفاد قوات الجيش التي أحضرها عمرو بن العاص . عندما احتل مصر بقوة السلاح . ولا يمكن لأي غزو ان يدوم . وستعود مصر في يوم ما من الأيام إلى أصحابها الفعليين .

صوت آخر :

ـ من النيل إلى الفرات .

عودة إلى التسجيل :

ـ عفواً يا مستر. نأسف للمقاطعة. وسكان مصر، ما هو الموقف بالنسبة لهم؟

ـ نقصد الـ ٣٨ مليون نسمة. الذين يعيشون فيها؟

ـ بالطبع.

ـ ليس من الصعب العثور على مكان آخر لهم. ان ذلك في غاية السهولة صدقني. من السهل بيعهم في مزاد علني عالمي. وهم سعداء الحظ. لأن عالم اليوم يحتاج إلى المزيد من العمال والخدم والحشم. والمزاد بهذا سيصبح فريداً من نوعه. ولم يحدث من قبل في تاريخ البشرية. مزاد يباع فيه شعب بأكمله وبهذا سنضع فاصلاً في التاريخ. فالمزادات كانت فردية. وحتى الجماعي منها لم يصل فيه العدد إلى هذه الملايين.

ـ من الفرات إلى النيل.

في خلفية الصورة. أغنية تقول:

هذه أرضي أنا.

وأبي قال لنا.

مزقوا أعداءنا.

مع الاعتذار للمناسبة الوطنية التي قيلت فيها الأغنية.

الصوت من جديد:

ـ ولكن ما هو العمل مع الإهرامات والنيل وأبي الهول وسيد درويش ونشيد والله زمان يا سلاحي؟

ـ في المزاد متسع لكل هذا؟ ـ وأم كلثوم وباب النصر وكتاب الموتى وخضرة الريف وصمت الصحارى وخصوبة الأرض وجمال النساء. وحجر رشيد وثورات القاهرة وسعد زغلول وجامع عبد الناصر وازدحام المدن لحظة الغروب؟

ـ سنجد له مشترين .

ـ ماذا عن التذكارات القديمة . وبطولات الجنود ودم الشهداء . ونصب الجندي المجهول . والأطفال في ظهور الرجال . والأجنة في الأرحام؟

ـ يباع .

ـ ورحلة سنوحي وكتاب ابن أياس والجبرتي ومذكرات أحمد عرابي والمتحف الإسلامي . والألف مئذنة وكنائس مصر القديمة .

ـ لكل سلعة شاريها .

ـ والأديرة في الصحاري . والطلاب في الجامعات . وكلمات العشاق وأصوات الباعة وغناء شاعر . الربابة . والتهاب كلمات أدهم الشرقاوي . وصبر أيوب وإخلاص ناعسة وانتقام متولي من شفيقة وحب حسن لنعيمة والسد العالي . والقناطر الخيرية . ومدافن باب النصر وقرافة المجاورين . وخان الخليلي وزحام شارع الموسكي .

ـ في متاحف العالم متسع لكل هذا وأكثر منه ألف مرة .

صوت سيناء . مارشات ضخمة .

ـ وطلب الأغنية أشقاء لنا من قطر وعمان والعراق والأردن وسوريا والسودان .

ـ أمجاد يا عرب أمجاد .

في بلادنا كرام أسياد .

أمجاد يا عرب أمجاد .

ـ إذاعة الشرق الأوسط من القاهرة . موسيقى .

ليكن الوطن محلاً للسعادة المشتركة نبنيه معاً بالفكر والمصنع . رفاعة رافع الطهطاوي . ونحن نقدم قصة حياته في هذا المسلسل اليومي .

ـ يا أمة محمد. إن ما يجري لنا. سببه أننا ابتعدنا عن الدين. ولم نعد نحكم بالقرآن الكريم.

ـ تعالي قرب. بضاعة مهربة من المنطقة الحرة. أرخص من بور سعيد. من يفتح المزاد؟ حقيبة سمسونايت. بدأنا المزاد. عشرة جنيهات. نظارة بيرسول بداية المزاد جنيهان. كل ما لدينا مستورد راديو ترانزستور على شكل تليفون بداية المزاد جنيه واحد. نحن لا نتعامل سوى في الستورد. علبة أناناس بداية المزاد ربع جنيه. يحيا عصر المستورد. علبة سفن أب بداية المزاد عشرون قرشاً. لا تحرق قلبك بمياهنا الغازية المليئة بالصراصير الميتة. علبة بيبسي كولا. البداية ثمانية عشر قرشاً والعلبة الفارغة لك. بدلاً من عذاب الرهن لزجاجة البيبسي كولا. المليئة بالسكر وقليلة الصودا التي تباع هنا. أبو فرة الواحدة بعشرة قروش. من يفتح المزاد. من يتكلم. لنبدأ المزاد بعلب السفن أب.

ـ عليّ بخمسة وثلاثين.

ـ من يزيد. خمسة وثلاثين. سفن أب.

ـ ستة وثلاثين.

ـ من يتكلم. ستة وثلاثين. سفن أب.

ـ أربعون قرشاً للعلبة.

ـ ها ها. أربعون قرشاً. ها ها.

همهمة وحركة بين الناس.

ـ عليّ بخمسة وخمسين قرشاً للعلبة.

ـظهر أخيراً من يفهمون في هذه البضائع العظيمة والتي تباع برخص التراب. أسعارنا أرخص من السوق الحرة في مطار القاهرة الدولي. بضائعنا مهربة. عبر بحيرة المنزلة. انتهزوا الفرصة قبل تجفيف مياه

البحيرة. لا تنزعجوا. طريق أبو زيد كله مسالك. سنجد وسيلة أخرى للعمل. بعد التجفيف. علبة سفن أب بخمسة وخمسين قرشاً. من يزيد. هيا. تكلموا يا عالم؟

صمت وهدوء مفاجىء:

ـ لله يا محسنين.

ـ أولادي بدون مأوى.

ـ منذ أسبوع لم نأكل.

ـ الشتاء قادم لا طعام ولا منزل ولا ملبس.

صوت سيارات تتوقف. أقدام ثقيلة تخبط الأرض. أنين وشكوى يتلاشى تحت صوت الأقدام الغليظة والصفعات والركلات والضرب. يمتص الهواء صوت الأنين. صوت يشي بالشبع والأمتلاء.

ـ هيا بنا.

أقدام جماعة يتسكعون:

ـ مادا جرى يا أفندم.

ـ رغم أنه ليس لك في السؤال. ولكننا أحرار. أحرار في أن نسأل. وأحرار في أن نجيب. قرارنا بأيدينا. وليس لأحد حق التدخل في أمورنا. قانون بلادنا يمنع التسول. وهو جريمة منصوص عليها في قانون العقوبات وعندما نجد مواطناً يتسول ولا نقبض عليه نعد مقصرين. رجل الشرطة عمله مطاردة كل ما فيه خروج على العرف والتقاليد والأعراف في أي مكان من هذا العالم. وسيادة القانون معناها. إن كل مخالف لسيادته يقدم للمحاكمة. وبعد المحاكمة. يبعد المتسول عن العاصمة. حتى لا يشوه وجهها الجميل، إن هذه البثور والدمامل. يجب إزالتها. من وجه مدينتنا العظيمة القاهرة. القاهرة. القاهرة.

لقطة مؤثرة. نداء إنساني من برنامج على الناصية.

ـ وعلى الناصية قابلت المواطن. إسم حضرتك.؟

ـ لا أستطيع ذكر إسمي ولا عنواني أتركهما عند حضرتك.

ـ ومشكلتك؟

ـ صوت بكاء.

ـ مشكلتك يا سيدي. نحن نعيش في حرية وديمقراطية. يمكنك الحديث دون خوف من أحد. إن مراكز القوى في السجن الآن. ولن نسمح بقيام مراكز قوى جديدة. حركة التاريخ لا يمكن أن تعود إلى الوراء.

ـ مشكلتي لا علاقة لها بكل هذا.

ـ إذن تكلم. الميكروفون معك. إعتبرني غير موجودة.

تظهر في الخلفية أصوات سيارات ونداءات الباعة لإيهام المستمع أن المقابلة تمت في الهواء الطلق.

ـ ليست مشكلتي. إنها مشكلة الخيمة.

ـ الخيمة.؟

ـ العهدة.

ـ العهدة؟

ـ مشكلة عرض.

ـ عرض الخيمة أو طولها.

ـ العرض الذي هو الشرف.

ـ آه. الشرف. تلك هي الحرية. الكل يتكلم. الكل حر في أن يقول ما يشاء. نحن على الهواء الطلق. في شارع كورنيش النيل. لسنا أمام الإذاعة. ولا يوجد جنود يدونون ما نقول. ولا مخبرون سريون يمنعون الآخرين من الإقتراب منا. وهذا الكلام لم يعد من قبل. ولم يعرض على الرقابة. لأنه لا توجد رقابة أصلاً.

نحن في الكورنيش. والكورنيش يمتد من المعادي وحتى القناطر

الخيرية. نحن في مكان ما على طريق الكورنيش. لن نقول هذا المكان. لأن هذا ربما يؤثر على عملية الإنتاج في بلادنا. وتحدث حالة من الزحام عندنا. نعود إلى المواطن الحر الذي استشعر الأمان فحضر إلينا. أكمل.

ـ إنه نداء إنساني.

ـ لمن. نحن نعيش في العصر الذهبي للإنسانية. لقد أعيد بناء الإنسان بعد أن خربته السنوات الماضية. لمن النداء؟ قل ولا تخف. لمن من المسئولين؟ قل ولا تخف. آن الأوان لأن يستعيد الإنسان المصري كرامته.

ـ إنه نداء لشاب.

ـ شاب معين: إسمه وعمله وعنوانه.

ـ أي شاب.

ـ ليكن أي شاب، أي أنه ليس مسئولاً وهذا معناه أن المسئولين قاموا بعمل المطلوب منهم ولا يوجد مواطن لديه مشكلة مطلوب من مسئول حلها. ولكن المطلوب شاب.

ـ أعزب.

ـ مسألة زواج إذن. إنها سهلة. الدولة في سبيلها لحل مشكلة الإسكان مصانع المساكن الجاهزة في الطريق من أمريكا وألمانيا الغربية واليابان وإيران أشرف الشركاء في عصرنا الراهن. وكل العصور. ويوم أن تصل هذه المصانع. وهي هدية بدون مقابل. ستعود لافتة للإيجار في كل الشوارع. ولكي نسهل للجميع. ستطبع لافتة للإيجار بالعربية والإنجليزية واليابانية والألمانية الغربية فقط والفارسية. ويومها سيكثر العرض عن الطلب. ولهذا ستخفض الإيجارات وسيتم حوالي مليون زيجة في اليوم الواحد.

ـ إنه ليس زواجاً.

ـ ماذا إذن؟ تكلم يا رجل. الميكروفون معك. ولن أقف هنا. ربما كان وجودي يضايقك. سأختبىء خلف هذه الشجرة. [صوت ابتعاد أقدام مأخوذ من إحدى التمثيليات].

ـ المطلوب من هذا الشاب أن ينقذ فتاة اغتصبت. هذه الفتاة ابنتي. والحكاية أيها المستمعون الكرام. إن منزلي وقع نتيجة مؤامرة من مقاول مسنود. ظهره، مركون، على واحد كبير في الحكومة. هدم المنزل وطردنا لأنه يريد استغلال الأرض في مشروع. عندما طردنا قالوا لنا في المحافظة ليس أمامكم سوى الرصيف. لأنه لا تنطبق عليكم حالات الهدم أو الإزالة أو الإخلاء الإداري.

ولكن لأن الذي هدم بيتكم رجل واصل. سنعطيكم خياماً. الخيمة ستكون عهدة تنصب في مكان بعيد عن الأعين. لا يراه أحد. عندنا بنت جميلة. فيها كل الجمال الذي يقابل حالة البؤس التي نعيش فيها. حضر الأشقياء وعرفوا المكان الذي نعيش فيه. كانت تنام في آخر الخيمة. بعيداً عن أخوتها الذكور. خوفاً من الشيطان ومن جمالها الصارخ. حضر الأشقياء ومعهم موسى. وقطعوا الخيمة. واغتصبوا البنت خمس مرات. لأنهم كانوا خمسة أفراد. عندما ذهبت أشكو ما جرى للبنت. قبضوا عليّ لأن الخيمة عهدة حكومية. ومطلوب مني تقديم غيرها. لأن إصلاحها مستحيل. أما عرض البنت فذلك أمر آخر. إن كان يهمني ليس أمامي سوى شرطة الآداب. المطلوب لي. شاب يتزوج البنت. ومواطن يتبرع لي بخيمة. وإن كان يسمعني الآن واحد من الخمسة الذين اغتصبوها. فأنا أعطيه الأمان. عليه الحضور مسرعاً. ليتزوجها. وأنا متأكد أن البنت قد أعجبته.

ـ ماذا تقول يا رجل؟

هجوم. وضرب وأخذ الميكروفون. أصوات بعيدة.

ـ كيف تنشر غسيلنا القذر على الأعداء. نحن محاطون بالأعداء من كل جانب.

صوت آخر:

ـ لا بد من إصلاح الأمر.

صوت المذيعة:

ـ يا أحرار العالم. اتحدوا. إسمعوني. قفوا بجواري. حتى تحموني من قرار الفصل من العمل. [قطع ثم صوت جديد]. معذرة. حدث خطأ فني. الشريط الذي كان يذاع رقمه ٣١٢٧ من الأرشيف. منوعات / ناحية / تاريخ / مسجل في ٥ يوليو سنة ١٩٦٦. في عهد الكبت والإرهاب والإغتصاب. أذيع خطأ. وسيتم عمل اللازم. وسيجري تحقيق في الأمر تعلن نتائجه لأنه ليس لدينا ما نخفيه.

القصة التي سمعتموها حدثت من قبل. ويكفي أن يسأل أي معكم نفسه: هل توجد منازل تقع في هذه الأيام؟ هل يوجد شخص مسنود على أية قوة؟ هل يعيش مصري واحد في خيمة. في وقت ينتقل فيه الشعب داخل القاهرة. بالطائرات. هل يوجد شخص يقبل اغتصاب فتاة. أو أن يخطف إمرأة؟ هل يوجد مصري مظلوم؟ إن كل هذه الشواهد. والتي لا وجود لها في أيامنا الجميلة هذه. تؤكد أن الحلقة إنما تعود إلى عقد أسود لعين. عقد الهزيمة. والآن. لكي نخفف عنكم. ونعود إلى عصرنا من الكهف المظلم. الذي وقعنا فيه خطأ. ليخرج إلى نور الحرية. وعلى ناصية أخرى قابلت السيدة. ضحكة أنثوية ممطوطة.

ومن علامات الساعة ما أراه الآن. في تلك الصورة. سيارة اليو إن. على يمين أبي الهول. ويا لهول ما أرى. على يساره جنود يضعون

البيريهات الخضراء يسلون وقت الفراغ بمداعبة وجهه. ويتحسسون الندوب القديمة التي أحدثتها مدافع بونابرت. ترى هل يفكرون في ترك بصمة على الوجه. على شكل ندبة يحدثها مدفع في الناحية الأخرى منه؟

حلمت أني أباع في سوق العبيد. كنت أقف على مكان مرتفع. عارياً كما ولدتني أمي. وحولي يقف المشترون. واحد بملابس رعاة البقر. والثاني أعور والثالث يضع طاقية سوداء في مؤخرة الرأس. وعندما بدأوا الفصال وعملية البيع والشراء. لم أفهم سوى كلمات قليلة. كانت لغاتهم أجنبية.

لماذا يقال إن السجن بعيد؟ السجن يبدأ من الشارع. في الشوارع كميات من الحديد تملأ حتى الشوارع نفسها. تلك المناطق التي من المفروض أن تكون رحبة وفسيحة.

صوت أنثوي هادىء:

ـ كلمتني عن الماضي. وماذا عن الغد.

صوت مرهق.

ـ الغد لا يحتاج إلى كلام يا حياتي. إنني أعد الأيام والليالي حتى أحصل على الليسانس. وبعد الحصول عليه توجد عقبتان.

ـ عقبات. عقبات. عقبات.

ـ صبرك يا نور العين. العقبة الأولى هي قانون الخدمة العامة. وسأتصرف فيها. والعقبة الثانية هي التجنيد. والتصرف فيها ممكن أيضاً ما دامت معنا الأموال. ووالدك مستعد للدفع. ثم نسافر. أنا وأنت لدولة عربية. نمكث فيها أربع سنوات. نجمع خلالها مبلغاً محترماً من المال. ننطلق به إلى أمريكا. حيث نبدأ حياتنا الفعلية. هناك سنحصل على «الفيللا» والسيارة والحديقة. ولن ننسى قبر الأسرة. وسيكون بالتقسيط أيضاً.

ـ القبر؟

ـ طبعاً يا روحي.

ـ لماذا؟

ـ لأننا لن نعود من هناك.

ـ ومصر.

ـ كانت مرحلة في عمرنا وانتهت المرحلة والحمد لله.

تصمت الفتاة ولا ترد.

ومن حوادث ذلك اليوم. أن ألقت قوات الأمن القبض على إنسان اللافتات. وإنسان اللافتات شاب سيقال إنه مجنون. ومصيره هو مستشفى الأمراض العقلية. وهو شاب تعود في الفترة الأخيرة. أن يعلق بعض اللافتات على ملابسه ويتمشى في شوارع منطقة وسط البلد. لم يثر الظاهرة أحد في البداية. لأن اللافتات كانت تتحدث عن مكارم الأخلاق والربح الحلال والتآخي. ولكن حدث في الفترة الأخيرة أن بدأت الناس تهتم بالشاب. واللافتات بدأت تنحرف يساراً. لهذا تم عمل أكثر من كمين له. في كافة مناطق القاهرة. وأعلنت حالة الطوارىء الشاملة. لدى أجهزة الأمن. وتم وقف الإجازات واستدعيت القوات غير الموجودة. واستعيرت بعض القوات من المحافظات الأخرى. المجاورة التي يستتب فيها الأمن. وعندما ظهر الشاب النحيل في أول شارع سليمان باشا من ناحية ميدان التحرير. كانت القاهرة تشبه الثكنة العسكرية. وفي هذا اليوم. كانت اللافتات كثيرة. حتى أنه كان يعلق البعض منها في يده. وكانت اللافتات تقول:

لقد انتهت حرب وبدأت حروب أخرى.

أساس أي ملكية في العالم هو السرقة.

كل ملكية ضخمة نتيجة لسرقة بنفس الضخامة.

يا كنانة الله صبراً على الأذى. حتى يأذن الله بالفرج.

اشتدي يا أزمة تنفرجي .
ان متخماً وجائعاً لا يمشيان معاً .
ان من يأكل لحم الفقير يخفق بعظامه .
إذا كانت العصا في يدي فإن الحق في فمي .
الأقوى هو الذي يسود .
لقد انتهت حرب وبدأت حروب أخرى .

ويقال ان الشاب الذي لم يبد أية مقاومة . سار معهم بهدوء . وكان ينظر إلى السماء وعندما اعترض الضابط على النظر إلى السماء وطلب منه النظر إلى الأرض . قال الشاب : ان الفجر القادم يأتي من هناك وأشار ناحية الفضاء وأكد أن من ينظر إلى الأرض لن يشرق فجره .

طالت المناقشة . وصمم إنسان اللافتات على عدم النظر إلى الأرض حتى لا يشعر فجره انه خانه . ويؤخر قدومه إليه . وقيل ان الشاب عميل لدولة أجنبية . وقيل انه متآمر وانه جزء من مؤامرة تهدف لقلب نظام الحكم .

ولكن الذي لم يقله أحد . انه واحد من مقاتلي ومضة حرب أكتوبر وانه خلال ومضة الحرب القصيرة الأمد . اكتشف حقيقة عصره . الأعداء من الخلف ومن الأمام . والبندقية التي توجه نحو سيناء السليبة . لا بد وان تكون هناك بندقية أخرى . مثلها توجه نحو الوطن المحتل بالجهل والأمية والاستغلال .

فصل من الخدمة لأنه من الذين اكتشفوا الحقيقة في ومضة الحرب الخاطفة . ومن يومها وهو يمر باللافتات في الشوارع .

وبعد القبض عليه بأيام . قالت الجرائد الصباحية والمجلات الأسبوعية والنصف شهرية والشهرية . والجريدة المسائية الوحيدة . قالوا

جميعاً في نفس واحد وصوت واحد. ان الشاب مصاب بمرض اسمه الحياة في زمنين في وقت واحد. وتحدث طبيب نفسي شهير. وقال انه يعيش في زماننا العظيم. وقبل هذا الزمان بعشر سنوات كاملة. في نفس الوقت. وعلاجه قد يطول حتى نخرجه من عصر إلى عصر.

صوت من إحدى حفلات العشاء. رنين كؤوس. ضحكات. همسات. موسيقى ناعمة. ملاعق. شوك كعوب أحذية تصطدم بأرض خشبية. تلاصق أجسام.

ـ اسمع. تلك هي فرصتنا الأخيرة.

ـ ماذا تقصد؟

ـ ان من لن يصبح مليونيراً. في هذه الأيام. لن يفعل هذا أبداً. الفرصة مهيأة. وفي عمر الشعوب فإن هذا لا يحدث إلا مرة واحدة كل عدة قرون. تقدم ولا تخف بشرطين.

ـ ما هما. قل لي؟

ـ الأول ان لا تفعل ما يوقفك أمام القانون.

ـ والثاني؟

ـ ان لا تودع مليماً واحداً هنا. مطلوب ان تكون العملة بالدولار. وكل مائة ألف دولار تحول على الخارج فوراً. من يضمن لنا الغد.

ـ بل من يضمن اليوم.

ـ لقد فهمت لغة العصر. إخطف وحول إلى الخارج بشرط ان يكون اللعب من النوع الذي لا يترك وراءه أية آثار تدل عليه.

ـ ولا يسيل قطرة دم واحدة.

ـ فعلاً.

ـ [ضحكات مشبعة].

ـ في صحتك.

ـ في صحتك..

ـ في صحة العصر.

يا إخواني:

لقد ظهرت حتى الآن علامات ست من علامات النهاية. تبقى العلامة السابعة والأخيرة. لن أقولها لكم. حتى لا تصابوا بحالة من الفزع والخوف. فهذه العلامة تظهر وبعدها تأتي النهاية..

٧

المؤلف يقول:
من المؤسف أن جيلي عاش حتى رأى بعض ما في هذه الرواية

خرج المؤلف من منزله صباحاً. لكي يمر على باقي دور النشر وينتهي من الأمر. كانت رباب قد حددت له دور النشر وأعطته عناوينها. وكان يعرف بعضها. بحكم علاقاته. ولكنه جعل ورقة رباب دليلة في رحلته. قالت له رباب. عندما سلمته الورقة. ان إحدى دور النشر يسارية. والأخرى يمينية والثالث يملكها ابن بلد. يتحلى بالصفات الجيدة التي توارثها أبناء البلد.

قالت ان ابن البلد يعتمد على الفطرة. ولديه قدرة خاصة على التعامل مع العالم. وهو واضح وصريح. ولم يعرف بعد التواءات المثقفين. علاوة على هذه الدور الثلاثة. أعطته عناوين دور أخرى. قالت انها لا تعرف الكثير عن انتماءاتها واتجاهاتها. ومن قبل هذا وبعده الدار الرسمية للنشر المملوكة للدولة. ذهب المؤلف إلى بعض هذه الدور بالأمس. وتفاصيل الزيارة موجودة في الفصل قبل السابق. ولأن الفصل السابق طويل. فالمؤلف ينصح قارئه بالعودة إلى الفصل الذي يكمل هنا رحلة المؤلف فيه.

تقع الدار الأولى في وسط البلد. الباب واضح وعليه كتابات كثيرة.

وقف المؤلف قبل الدخول. شاهد في الناحية الأخرى أربعة رجال. يقفون. إثنان يحدقان في المارة وإثنان يقرآن في جريدة يقول شكلها إنها صدرت منذ عشر سنوات مضت. هاله الأمر. هل من المعقول ان يخصص هذا العدد من المخبرين لمراقبة دار نشر سلاحها الكلمة المكتوبة.

أطال وقفته نظر باتجاه الرجال الأربعة. نظر فيهم. قال ان هذه الوقفة ستسبب حالة من البلبلة لمخبري هذا الزمان. وقبل ان تطول الوقفة شاهد في يد أحد الرجال سكيناً براقاً. قرر ان يتحرك ما دامت الأمور في وطنه قد وصلت إلى مستوى المبخر حامل السكين. بعد ان استدار ليدخل الدار. قال في نفسه: هل يمكن الاستدلال عليه من الخلف. لا يدرك ان كان قفا الإنسان يمكن ان يميزه. انهم يستخدمون التكنولوجيا في التجسس على حياة الإنسان اليومية. وقد وصلت خبرات كثيرة من الدول الكبيرة الصديقة إياها. والتي تحاول حمايتهم من المصير المجهول الذي ينتظرهم.

في دا النشر التقدمية فتح باب زجاجي. واجهته صالة واسعة. أعلام وكتب وشعارات. مكتب أنيق تجلس إليه فتاة جميلة. شاهدها من قبل، ولكن أين؟ لم يتذكر. توقف لحظة راح خلالها يتذكر أين شاهد هذا الوجه من قبل؛ آه. في الندوات التي كانت تقام في زمن المناقشات الذي مضى؟ جائز. في المحاضرات التي كانت تلقى أيام ان كان مسموحاً بقدر من الحرية؟ جائز. في المظاهرات عندما كانت في البلاد سلطة يناضل الإنسان ضدها؟ كانت الأمور واضحة. ولم تكن قد وصلت إلى هذه الحالة من العبث واللامعقول. التي جعلت كل الأمور تختلط ببعضها. وجه مألوف. في اليد سيجارة. الملابس جادة ومحتشمة. أغلفة الكتب التي أصدرتها الدار معلقة فوق الجدران.

وصور للمقالات المنشورة عن الدار. كلها منشورة خارج الوطن. فمن يتكلم عن مثل هذه الدار في ظل جو غير عاقل كالحاصل حالياً في البلاد.

قابله مدير الدار. سلم عليه. لفتت نظره حالة من التقشف. قال لنفسه. ربما يعانون حالة من الضيق المالي وربما يتعمدون الظهور بهذا الشكل الفقير. رداً على ما يقال عن الأموال التي تتدفق عليهم بلا حساب من الدول الأجنبية. لم يسترح للتقشف ان كان المقصود منه إثبات البراءة من تهمه لا وجود لها. الأرض بلاطها يلمع من كثرة التنظيف. الحيطان تساقط الجير الأبيض من فوقها. الإضاءة عادية. والأبواب ينبعث منها صوت عند الفتح والإغلاق. المكاتب متسخة. كل شخص يقوم بأكثر من عمل. فتاة الاستعلامات على يمينها جهاز تليفون وعلى يسارها آلة كاتبة وأمامها أوراق تعمل فيها. وراءها كتب الدار وبالقرب منها خزينة. ويبدو انها تبيع مطبوعات الدار. الفتاة التي تصور انها تعمل سكرتيرة لدى صاحب الدار اكتشف انها مراجعة ومصممة بروفات الكتب التي تطبع. الملابس بسيطة. والابتسامات صادقة والترحيب حقيقي.

ـ دار نشر أم كوميونة هذه؟

ابتسم في اللحظة التي ألح عليه فيها السؤال. تمنى لو كان عمله هنا. آه لو عمل في هذا المكان. وابتعد عن المكان الذي يعمل فيه. تناهى إلى سمعه صوت موسيقى حالمة. تملأ جو الدار المتعب والجاد. شهرزاد ريمسكي كورساكوف. حملته إلى الزمن القديم. تغيرت الموسيقى. بعد ان انتهت شهرزاد من حكاياتها. ارتعش هواء الدار فرحاً مع موسيقى خاتشا دوريان عن السد العالي. وتجربة بنائه الفريدة أيام البناء. قال المؤلف: أين هي الآن تلك الأيام؟ كتب في كل مكان.

مجـلات، صنوف من المعرفة. أدب، فن، سياسة، اقتصـاد، دراسات اجتـماعية. شغلتـه روايته عن القـراءة. لم يعطهـا من وقته مـا تعـود ان يفعله. أيام قليلة ويعود من جديـد. إلى دفء أحضان الكتـاب. يسبح فـوق الأحرف. يفـك رموز الكلمات. تعـطيه مـا بداخلهـا من المعـاني ببساطة. تقوم بينه وبـين الكلمة المكتـوبة. تـلك العلاقـة النادرة. التي تعـوضـه كـافـة إحبـاطـات اليـوم. يعتصم بـالكلمات من الـطعنـات والضربات.

يعود في آخر اليوم. بعد المعارك والسباحـة في دماء الآخـرين. يفتح الكتاب. يقول. هنـا مأواي وبيتي وعشي وحيـاتي. كان عليـه ان يقدم نفسه له. جلس. روايتـه أقرب مـا تكون إلى مـا تصدره الـدار. ولكن كيف السبيل؟. عامله الرجل بحـذر وبرود بـدا له وكـأنه يقيم في عـالم آخر. عجزت اللغة عن اجراء أي اتصـال إنساني بينهـما. أدرك المؤلف انه ضحية هذا الزمن الموحش. الذي أصبح الإنسان يشك فيه حتى في أصابع يديه. انها تعمل لحساب جهة خفية.

في أزمنـة الرعب وأيـام الخوف. لا يستـطيع الإنسـان إقامـة علاقـة سليمـة حتى مع حـواسه الخمس. لا أحـد يشعر بـدفء الأمان الـذي تمنحـه الأوطـان لأبنـائهـا. مـا من مـرة سمـع المؤلف كبـار المسئـولين يتحدثون عن الأمن والأمان. حتى أدرك انه مراقب. ربما في نفس لحظة الكـلام. كان يـدرك انهم يتحدثـون عن أمانهم الشخصي. أمـان القلة المحدودة الجالسة فوق التل. شعر بحزن غريب.

قـام من مكـانـه. اللقـاء جـاف وغـير إنسـاني وخـير مـا يفعله هـو الانصراف. كل منهما ـ المؤلف وصاحب الدار ـ معـذور في موقفـه. انه الزمن الرديء. في الوطن الآن آلة رهيبـة تسلب الإنسان أعـز ما فيـه. ولا تترك له سوى الفضلات. شعر المديـر بالجـو غير الإنسـاني. فطلب

من المؤلف الجلوس. حاول ان يمد حبال الكلام هروباً من لحظة الصمت التي فرضت نفسها عليها. سأله:

ـ الأخ مستقل أو منتمٍ حزبياً؟

ها هو الرجل، في محاولته تبديد الصمت والخروج من دائرته يفتح الملف المحزن إياه. في بلادنا توجد شرعية واحدة هي شرعية الرجل الواحد. لست منكم حتى الآن. عندما قامت المنابر وتحولت إلى أحزاب كان اليساريون أقربهم إلي. لا. أنا واحد منهم. وان لم أنتم. فضلت عدم الذهاب، أتعرف لم؟ رفضت الطريقة التي قام بها الحزب، صدقني ما من حزب مناضل يقوم بقرار من السلطة التي يناضل ضدها. التاريخ هو الذي علمنا هذا. ما من نظام حكم قبل ان يربي. ضمن ما يربيه في أيامه القوى السياسية التي ستعمل على هدمه. وإسقاطه. أنا لا أقول ان الحزب ديكور وانه يعمل مع السلطة، لا. مواقف الحزب اليومية أثبتت العكس بدأ بقرار من السلطة. لأنها هي التي تملك إصدار هذا القرار ولكنه يعمل الآن على أرضه الخاصة به تحت سماء فكره ورؤيته. وليس من تحت مظلة النظام. الممارسة أثبتت انه أفضل القوى السياسية في الساحة. على الأقل بالنسبة لي. ولكن اعذرني فأنا فنان وأرى الحياة وأتعامل مع السياسة من منطلق الفن والأدب وأعيشها بهذه الروح. لم أشعر في أعماقي حتى الآن بالرغبة في الذهاب إلى مبنى الحزب وطلب استمارة عضوية. ذلك هو الشكل الوحيد الذي ينقصني. عموماً التجربة ما زالت في البداية. ونحن الآن في شهر عسل لن يدوم طويلاً. ان الصدام بين الحزب والسلطة واقع لا محالة. وهناك ألف سبب لوقوعه. ومن أبسط هذه الأسباب الفارق بين اللعب والجد إسمح لي بحكاية هذه القصة أو ضرب هذا المثل. عندما تلعب مجموعة من الناس في الملعب. وهي لا تعلم ان اللعب موجه

لقوة خارج الملعب تستمتع بمشاهدة اللعب. وهذه المتعة هي الأساس. وخلال اللعب. تكون هناك بعض الأطراف التي تتعامل مع الأمر باعتباره مسألة جادة. ان من يأخذون الأمر بهذه الجدية. يصطدمون بالطرف الآخر وهو يضع للعبة حدودها. أو يهدمها من الأساس. هذا ان يسمح له الجمهور المتفرج بذلك. انظر إلى الساحة من هذا المنطلق. وقد يكون منطقاً خاطئاً. ولكني أحاول تبين الخيط الرفيع. والذي لا يراه أحد. الفاصل بين الجد واللعب. وموقف المفرجين من الأمر لو منح حبنا. استعمل نون الجماعة رغم انني لست عضواً فيه. ولم أدخله بقدمي منذ إعلانه، أقول لو منح حزبنا فرصة العمل. أنا حزين لاستعمال فعل المنح. الذي تمنحه قوة خارجية. ولكن تلك هي التركيبة الحاصلة. لن استعمل فعل المنح. لو كانت هناك فرصة عمل فعلية. سيعيد هذا الحزب خلق الحياة في البلاد. لا أحب تعبير الوصول إلى السلطة بالطريق الديمقراطي. فحبي للحزب يجعلني أخاف عليه من خمر السلطة. لتكن هذه العلاقة جريدة أو ندوة أو عمل جماهيري. كل هذا سيضرب ولن يسمح له بالاستمرار. الاستمرار الوحيد سيكون في لعبة الضرب حتى يصل الحزب بكل قواه. وبكل تعاطف هذا الشعب الفقير معه إلى حارة مسدودة. لها مدخل واحد. ولكن باقي المنافذ مسدودة ويطلب منه الكمون والانتظار في هذه الحارة وعلى هذا الوضع. له ان يفعل ما يشاء ولكن في حدود الحارة. حيث يقف على بابها الوحيد الحراس والجنود. وحيث تتدلى في سمائها آلات التنصت وأجهزة التسجيل وكاميرات التصوير. هنا ينتقل دور الحزب من الفعل إلى رد الفعل. ينتظر أن يحدث أمر ما. ويعلق عليه. بيانات عظيمة مصاغة بأساليب جيدة. ولكنها موجهة إلى ذاكرة التاريخ. أكثر من توجهها إلى جماهير اللحظة. كلمة ميكروفون. عمل حنجري وورقي. وهنا يكون الكل قد وصل إلى اتفاق غير مكتوب. بين

الطرفين. بعد حسابات الربح والخسارة. النظام يباهي في كل لحظة ويقول: تحيا ديمقراطية بلادي. أول مرة في التاريخ القديم والحديث يسمح فيها بقيام حزب يساري في البلاد. تمت في هذه الأيام. والحزب يحاول ويحاول ولا يبقى له سوى شرف المحاولة. لو سميت هذه المحاولات لقلت انها محاولة الكتابة فوق سطح المياه أو قراءة وجه الريح. ان السؤال هو. ما فائدة منشور عظيم في وسط شعب تتعدى الأمية فيه الـ ٨٠٪ وحتى النسبة الضئيلة المتعلمة. فإن هذا المنشور لا يصل إليها. وان وصل فمن خلال منافذ تحت أعين النظام. وتحت سمع وبصر ترسانة القوانين المقيدة لكافة الحريات. حتى حرية التفكير والاعتقاد. كل هذا ليس مبرراً لأي موقف اتخذه. ولكنه الحال. أعود إلى مسألة قلتها من قبل وتحتاج إلى مزيد من الإيضاحات. لم أهضم الطريقة التي قام بها الحزب. معلوم انه لم تكن في الساحة السياسية وقت قيام المنابر قوى سياسية واعية. تجبر النظام على الرضوخ والموافقة على مطالبها. ولهذا جاء الأمر في شكل منحة. ولأنه منحة سألت نفسي: مقابل أي شيء تمت هذه المنحة. في السياسة لا يوجد أي فعل لا مقابل له. قلت لنفسي ذات مساء. ان المقابل معروف. النظام في أزمة. النظام السابق كان أقوى، كان يعرف حلفاءه وخصومه والقوى المحايدة في الساحة. وكل هذا مسجل في أوراقه الرسمية. ولكن السنوات مضت. وخرج إلى الوجود نظام آخر. دول أخرى. وحكم آخر. لا علاقة له بما كان موجوداً من قبل. وهذا معناه أنه لا بد من عملية خلط للأوراق. قلب منضدة اللعب. وإعادة وضعها من جديد. أعداء الأمس أصبحوا حلفاء اليوم. رجال الأمس تركوا كراسي الحكم إلى السجن والمنفى والشارع ورعب كل لحظة تمر. وهذا معناه ان تكون هناك أسماء جديدة. وتصنيفات لم تكن موجودة. وهكذا نظرت بحذر إلى قيام المنابر. يسار مرتبط بأعماق التربة، يمين معلق في الهواء.

لا جذور له. له أكثر من اسم. وقد يتبدل الاسم أكثر من مرة خلال الفترات المقبلة. ولكنه تركيبة لم تأخذ حتى من اليمين شكله المحافظ ولا رسوخه واستمراريته. قلت لنفسي: لا يمكن ان تكون هذه هي الديمقراطية. في الأمر شيء ما.

طبعاً المؤلف لم يقل كل هذا الكلام رداً على سؤال المدير. ولكنه حديث دار في خاطر المؤلف. لا يعرف للمرة الكم. دار من قبل آلاف المرات. سأله الرجل من جديد:

ـ وما موقفك إذن؟

تسألني عن موقفي. وهذا جميل «يساري بشكل عام» وكلمة بشكل عام هذه هي سبب البلاوي. كلمة اليسار أقرب إلى العنوان العام. تحته تندرج الكثير من التفريعات ومشكلتي انني لست جزءاً من هذه التفريعات. من قبل كانت كلمة اليسار لها معنى شديد التحديد. الآن. الكلمة تمثل جبهة. والجبهة لها أقصى اليمين وأقصى اليسار. وفي ظل هذه الجبهة الواسعة. يصبح التحديد مطلباً لا يمكن مناقشته. وهذا ما لم أفعله حتى الآن. لا تنس أننا مثقفون. حيث نفكر ونتخذ القرار بصعوبة. ثم نعدل عن القرار. ونعدل عن العدول. وهكذا يضيع العمر بين فكر وفكر. وبين مشروع قرار ومشروع عدول.

طوال الحديث كان المدير يكتفي بالصمت والاستماع لم يناقش المؤلف فيما قاله. تصور المؤلف انه استجواب وليس حواراً. تساءل المؤلف: وهل لهذا الاستجواب علاقة بطبع الرواية. بعد ان انتهى المؤلف من حديثه. بدا له ان الرجل لم يقتنع بالتوليفة التي جاءت في حديثه. قال المؤلف. ان مشكلته انه فنان وعندما يتناول حتى أعقد المشاكل والأمور السياسية. فإنه لا يراها سوى بالفن وحده. ولا توجد لديه أية وسيلة أخرى. لا يعرف كثيراً ما يسمونه بالتحليل السياسي ولا الطريقة العلمية في رؤية الأشياء.

ـ نعود إلى موضع الرواية.

قالها المدير. وكأنه ينهي الحديث. سعد المؤلف. حضر من أجل الرواية. وها هو الرجل يفتح الموضوع. قال مدير الدار. توجد لديهم أكثر من رواية في المطبعة ولا يوجد للنشر في بلادنا عائد سريع. انهم يقولون اليسار يمول من الخارج وانه يحصل على دعم ومساعدات من الدول التقدمية. ولكن ـ ها أنت ترى بنفسك ـ قال مدير الدار. لا توجد في الدار مرتبات العاملين. بل ان البعض منهم لم يحصل على مرتبات الشهر الماضي. دق الرجل جرساً بجواره. حضرت سكرتيرته. سألها ماذا طلبت منه في الصباح؟ قالت الفتاة ببساطة:

ـ مرتب الشهر الماضي.

قال مدير الدار. انهم يعانون من مشكلةالسيولة النقدية. وذلك راجع إلى نوعية الكتب التي تنشرها الدار. هناك التزام فيما ننشره والدار ترفض. النزول إلى مستوى الإثارة. التي تلجأ إليها بعض دور النشر الأخرى. نوعية الكتب بطيئة التوزيع. والدار لا تملك مطبعة. ولا بد من توفر مال يدفع مقدماً لصاحب المطبعة. خاصة وان أصحاب المطابع وهم أصحاب رؤوس الأموال ومشروعاتهم تجارية. فهم يطلبون النقود أولاً. قال له الرجل انهم يعملون وفق تخطيط. لديهم خطة للنشر. تعد في يناير. مفروض ان يكون هناك قدر من الالتزام بها. صحيح انها ليست نهائية. وليست قيداً على حركة الدار ويمكن ان تجري عمليات حذف وإضافة لها. ولكن ذلك يتم في أضيق الحدود. ولاعتبارات استثنائية.

من أجل نشر هذه الرواية. سيقرأها خبير تعهد إليه الدار بها. وسيقدم تقريراً عنها. ان تقرر نشرها. ينتظر خطة العام القادم. وحتى خطة العام القادم. الذي لم يبدأ بعد. هناك بعض الكتب التي تعد شبه

موضوعة فيها. فهم المؤلف. الرجل صاحب الدار. الـذي يقابله لأول مرة. عامله بشك، وربما بحذر. الكل يخشى الـوجه الـذي يقابله لأول مرة. رغم ان المؤلف قال له انه قادم من طرف ربـاب. كان يتصـور ان مجرد ذكر اسمها يحل المشكلة ويحول الشك والريبة إلى يقين.

لم يغضب المؤلف من صاحب الدار. وجـد له العـذر في هذه الأيـام بـين المخبر والمخـبر مخبر. مـا من يوم يمـر دون ان تدفـع بعض العناصر بهدف محاولة اختراق هذه الدار. ومن حق العاملين فيهاان يكون لديهم شك في كل وجه جديد يطرق بابها. الدولة لديها حسـاسية غـريبة تجـاه الدار. الحساسيـة ليست سياسيـة. لو كـانت هكذا لهـان الأمر. ولكن الحساسية وصلت إلى القصص. تسـاءل المؤلف: لم يفعلون هذا؟ هـل بسبب قوة تأثير الكلمة المكتوبة؟ أم هي قوة استجابة الواقـع لما تصـدره الدار؟

لا. ليست هي الأسباب. ولكنها أزمة النظام. حالة من الخـوف من كافة الأشياء. الرجل معذور والمؤلف معذور ولكن من المذنب؟ يتصور المؤلف انها الـظروف العامـة. التي دفعت الكل إلى المـأزق، الـظروف العامة ـ فكـر المؤلف ـ ليست وليدة اللحـظة، لم تنشأ وتتكـون بين يـوم وليلة. ما يجري اليوم. بدأ منذ سنوات.

أتت نهاية اللقاء. كل ما قيل لم يقرب بينهـما. لم يطلب منـه الرجـل ترك الرواية. قال له. ان كانت أمامه فرصة أخرى لنشرها. فإنه يطلب منه عدم تفويتها. وان انتظرت الرواية بدون نشر لمدة عام. فـإنه يتمنى لو يمر عليه. وسيكون سعيـداً لو نشر الـرواية. مـد له يـده. ومع اليـد ابتسامة هي الأولى التي يراها على وجه الرجل منذ دخولـه. لم يعرف ان كانت الابتسامة للترحيب به. أو لتعجل بانصرافـه من عنده. صـافحه ومضى. وان كان لم يفهم موقفه.

على باب الدار. اكتشف ان عدد المخبرين زاد. أصبحوا ستة. لا بد وانهم اتصلوا بالجهات العليا وأعلنوا حالة الطوارىء. شخص غريب الشكل. لم يروه من قبل. أتى ودخل الدار. يحضر لأول مرة. وقبل دخوله قام بعملية تمويه لرجال الأمن. ولكن اليقظة الأمنية فوتت عليه الفرصة. وعند تصويره استطاع في الثانية الأخيرة ان يستدير ويعطيهم ظهره. وهذا معناه انه كادر مدرب. أتى للقيام بمهمة ليست سهلة. حصل على دروس متقدمة في فن التمويه والاختفاء.

بعد خروجه قرر ان يواصل اللعبة معهم. وقف. أخرج ورقة العناوين قرأ عنوان الدار الأخرى. وجد انها. في شارع متفرع من الشارع الذي يقف فيه. قاس المسافة بعينيه. فاكتشف انها لا تزيد على مائة متر. عندما أعطته رباب العنوان. قالت له انها لا تحترم صاحب الدار وان كان عدم الاحترام ليس مبرراً لعدم النشر فيها ان تمكن من هذا. فسيكون انتصاراً. لأنه سيستخدم أموال اليمين في إيصال كلمته الى جمهوره. هذا قمة الذكاء. قالت انها تشك في إمكانية نشر الرواية هناك. ولكن من يدري. ربما كان الرجل في حاجة إلى نشر عمل أدبي يدافع به عن نفسه تهمة العمالة للنظام. التي أصبحت في وضوح الشمس.

دار جديدة. حصلت على مقر في أهم شوارع العاصمة. ولها مطابع. وتصدر كتباً ضخمة مجلدة بشكل فاخر. وتباع بأسعار رخيصة. الدار تفوح منها رائحة الشبهات. خاصة من يتابع نوعية ما تنشره الدار من كتب. قال لنفسه: أنا ذاهب إلى دارهم. لأحول المسألة إلى سخرية منهم. وضع الورقة في جيبه ونظر في اتجاه المخبرين الستة. كان في يد أحدهم جهاز لاسلكي. فتحه وتحدث فيه. أدرك المؤلف ان الرجل يرسل بالشفرة رسالة حول آخر أبعاد الموقف.

عندما انتبه إلى الإثنتي عشرة عيناً التي تتابعه. أشار لهم برأسه باتجاه الشارع الذي توجد فيه الدار الأخرى. مد يده وأشار بها. ثم انتقل إلى الرصيف الذي يقفون فوقه. وتحرك في الاتجاه الذي أشار إليه. تحرك الموكب. كان المنظر ظريفاً. بدا مثل التشريفة. أمامه مخبران. على يمينه مخبر. وعلى يساره مخبر. وخلفه مخبران. حامل جهاز اللاسلكي كان في المقدمة. فتح جهاز اللاسلكي. وتكلم. بدون شفرة:

ـ أنا العريف السري من قوة.

قدم في الجهاز وصفاً دقيقاً للمشهد. قال انهم متجهون مع الشخص الغامض. الذي لا يعرف إلا الله من أين أتى لهم. سار الموكب حتى الدار الأخرى. على بابها كان يقف جنديان يرتديان الزي الرسمي. أحدهما يتدلى من وسطه مسدس. والآخر بيده مدفع رشاش. وباليد الأخرى كمية من الطلقات. يتوسطهما شخص ثالث يرتدي الملابس المدنية. ويقرأ في جريدة قديمة. مثقوبة من المنتصف. يبدو انه رئيسهما في العمل. احتار المؤلف لماذا تعين هذه الحراسة على دار تعمل للدولة؟ هذا الموقف ليس له سوى تفسير واحد. انهم يخافون عليها. ممن؟ من الناس؟ الخوف يدفعهم إلى عمل الحراسة.

عند وصول الموكب إلى باب الدار. اكتشف ان الذين في موكبه رغم ارتدائهم الملابس المدنية. على معرفة بالواقفين أمام الدار رغم اختلاف المهمة. ابتسموا لبعضهم. وقف المؤلف. فوقف الموكب. تشاغل بالنظر إلى باب الدار. والكتب المعروضة في الفاترينة الخارجية. تشاغل أفراد الموكب بالنظر إلى المحلات. اتجه المؤلف إلى باب الدار. اعترضه الجندي الواقف وطلب تفتيش الحقيبة التي كانت معه. فتحها له. لم يجد بداخلها سوى أوراق وجرائد وكتب وأقلام ونظارة احتياطية. سمح له بالدخول.

ضحك المخبرون الستة ورجال الأمن الثلاثة من الحكاية. ما دام الشخص الغريب دخل هنا. فلا بد وإنه كان يقوم بخدمة ما لصالح الدولة هناك. ولهذا كان يتحرك واثقاً من نفسه ولم تبد عليه أي محاولة للهروب. يبدو ان محاولة التمويه عند الدار الأخرى. كانت رسالة موجهة إليهم. ان يتولوا حمايته وهو في الداخل. لأنه يعمل لحسابهم. المخبر حامل جهاز اللاسلكي فتحه:

ـ مباحث أمن الدولة.. أفندم..

قال ان الشخص الغريب الذي خرج من الدار المعادية. اتجه إلى دار صديقة. بل دارنا. حقيبته لم يكن بها سوى أوراق وأقلام ونظارة. نحن في انتظار خروجه. يبدو انه على موعد مع صاحب هذه الدار.

وجلس الكل في الانتظار، المخبرون الستة ورجال الأمن الثلاثة. ودار الحديث حول مهام مراقبة دور النشر والطرائف اليومية في هذا العمل الممل.

في المدخل تذكر المؤلف جملة رباب.

ـ لا بد وان هذه الدار ممولة.

قالتها رباب باختصار. طلبت منه ان يحاول الربط بين ما تنشره الدار وسيعرف من يقف وراءها. في منزله. أدرك ان ما نشرته الدار منذ إنشائها هجوم على ثورة يوليو وتجريح لعبد الناصر. وصل إلى آخر مداه. الأعداء القدامى. أقزام الأمس. غدوا أبطال أيام الانكسار. الديدان خرجت من جوف الأرض تقول: أنا هنا. تحاول نبش الأرض تحت أقدام الهرم الرابع.

ليلة الأمس خاض معركة مع نفسه تساءل: هل يبدأ رحلة الازدواجية؟ كيف يفعل هذا وهو شاب. التنازل طعام سام. والتبرير

فرشة جيدة لطريق لا نهاية له. والطرق التي لا نهاية لها. تقود من يمشي فيها إلى حيث لا يعرف. ولكن الرواية ما ذنبها. انه لم يقم بكتابة رواية خاصة لهذا الناشر. ليكن ممولاً من أكثر الجهات رجعية. أليس النشر بهذه الأموال مكسباً عظيماً؟ كان متردداً. ومع هذا ذهب.

مكتب فاخر في منتصف المدينة. الشارع هام. كيف ومتى تم هذا؟ لا يدري. مكتب من دورين. في الدور الأرضي معرض الكتب والباعة. سأل عنه. رائحة هواء مكيف تناهت إليه. دلوه على السكرتيرة. سبقها إليه صوتها الأنثوي. أدرك انها حسناء. لأن في صوتها نداء لم يستطع تصنيفه.

ابتسمت السكرتيرة الجميلة له. تحركت عوالم ألوان قوس قزح التي تزين وجهها. منبت النهدين يبدو واضحاً. الملابس تقول لك. انها مستوردة وما تحت الملابس مستورد. ويبدو ان الجلد مستورد. قامت ترحب به بود مصطنع فاكتشف ان ملابسها ترتفع كثيراً على فخذيها. تساءل: في حجرة نوم أم في مكتب نحن؟ سألته هل حصل على موعد من معالي الباشا:

- نعم؟
- معالي الباشا.

قالتها بهدوء. نفرت ملامح وجهها من دهشته. قال انه لم يحصل على موعد. سألته عن سبب المقابلة. هل حصل على مذكرات أحد من السياسيين القدامى. هل لديه معلومات مجهولة. لم تنشر من قبل، عن الانقلاب.

- أي انقلاب؟
- انقلاب يوليو إياه.

هز رأسه:

- هو انقلاب إذن وأنا لا أدري؟

قالها لنفسه في دهشة. ويبدو ان لدى السكرتيرة الحسناء أجهزة تنصت مركبة في أذنيها. لأنها سألته:

- هل لسيادتك رأي آخر؟

لم يزد ولكنه قال لها:

- معي رواية.

قالت له. انهم ينتظرون شاباً. اتصل بهم أمس تليفونياً. وقال ان معه مذكرات ناريمان. آخر ملكة حكمت مصر. وإنهم في انتظار حضوره. لأنها ستكون ضربة العصر. لديهم مذكرات حلاق فاروق، والمسئول عن رعاية كلب فاروق. ومذكرات وصيفة ناريمان. ولا يبقى سوى مذكرات ناريمان حتى تكتمل لديهم خبطة العصر. قال المؤلف لنفسه: كل هذا لن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء. قال بصوت سمعته:

- خبطة لكل العصور.

صفقت بيديها:

- فهمتني.

قالت انه رجل متجاوب. ولهذا ستفعل المستحيل للحصول على لقاء له مع معالي الباشا. واللقاء سيتم بعد عشر دقائق. كانت أنظاره متعلقة بها. وان لم يتحرك بداخله شوقه الدائم لجنس النساء. بدت له نوعاً من البضاعة المعروضة للكل. لا خصوصية فيها. أي رجل وأي إمرأة في سرير.

دخلت مكتب معالي الباشا.. تناهت إليه همسات ووشوشات. وأصوات قبل. خرجت متعبة. قالت وهي تسوي شعرها. ان معالي

الباشا عندما يكون باله رائقاً. يصبح أمتع من شاب مراهق. أخبرت المؤلف ان معالي الباشا سيقابله بعد سبع دقائق ونصف. تساءل: عن الحكمة في نصف الدقيقة. وعندما لم يفهم الحكمة. قال يبدو انها كلمة مستوردة.

جلس في انتظار المقابلة الهامة. قبل الموعد بنصف دقيقة. فتح الباب من تلقاء نفسه. الناشر الذي قابله كان شخصاً سميناً. فظاً لا يتناسب مظهره مع فخامة المكتب وعري السكرتيرة. في ملابسه وحركات يديه شيء سوقي يلفت النظر إليه «محدث نعمة» قالها المؤلف. وهو يبحث عن وصف ينطبق على الجالس أمامه. واحد من الطبقة الجديدة. شخص أتاه الغنى فجأة. هبطت عليه ثروة. ولم يعرف الطريقة التي يتصرف بها فيها.

كل شيء جائز في هذه الأيام. نحن في زمن العبث واللامعقول. لا تحاول فهم ما يجري. لأن الفهم ربما كان طريق الجنون. محاولة الفهم لن تقودك إلا إلى مستشفى المجاذيب. لا يملك إلا ان يحاول الفهم. ربما كانت هناك جهة. معها أموال وتريد الجوكر الذي سيلعب الدور على المسرح. أمام المشاهدين. لأن الذين معهم الأموال. لا يمكنهم لعب الدور. وعندما وجدوا الشخص. أدركوا من النظرة الأولى. انه لا يصلح. ربما كان آخر شخص في العالم يصلح للقيام بالمهمة. ولكنهم لم يجدوا سواه.

كان شخصاً طويلاً. سميناً. أطرافه غير دقيقة. السكرتيرة هي التي أشارت له فاتجه نحوه. انبعثت منه رائحة دخان لم يستطع المؤلف تمييزها. سجائر أو سيجار أو شيشة. أمامه كمية ضخمة من الأقلام. شكلها يوحي بأنها لم تستعمل. قال المؤلف: مثل هذا الإنسان لا يمكن ان يستخدم القلم. جلس المؤلف. استطال الصمت. وشعر المؤلف

بغربة، نـظر إلى كتلة الشحم الضخمة وإلى أجـزاء جسمه المفـرطحة. وإلى قطع اللحم التي تبدو واضحـة في جسمه. أحس بعبء نفسي من مجرد الجلوس أمامه. تساءل: متى ينتهي اللقاء بينهما؟

تشاغل بالنظر إلى المكتب. فخم وضخم ومكيف. الهدايا والأعـلام والصور التي تزين المكتب. تبـدو كعلامـات صارخـة لشركات طـيران ومؤسسات ومصانع وأعلام دول أجنبية. يذكـر منها المؤلف: الـولايات المتحـدة الأمريكيـة. المملكة العـربية السعـوديـة. السـودان. إيـران. سلطنة عمان. أخـذ الرجـل نفساً من سيجـار ضخم ونفث الدخـان في وجه المؤلف بشكل مبتذل ورخيص. ضرب جرساً وطلب رفع المعـدل الذي يعمل بـه جهاز التكييـف. سـأل المؤلف عن الكتاب الـذي يريـد نشره.

ـ رواية.

تساءل الرجل.

ـ رواية سياسية؟

قال المؤلف:

ـ لم أفهم قصدك بالتحديد.

ـ قال الرجل. وقد أغضبته رغبة المؤلف في النقاش.

ـ ستفهم بعد قليل. أخبرني باختصار.

منذ ان جلس الرجل إلى المكتب وهو لا يزعجه سوى هؤلاء المثقفين الـذين يكتبـون الكتب. كلهم لـديهم حب غـريب للحـوار. والحـوار بالنسبة له فخ منصوب. لا يمكن ان يقوده سـوى لانكشاف أمـره. من يحـاوره في أمر. سيـدرك انـه قـد يصلح لأي عمـل. سـوى ان يكـون صاحب دار نشر.

والـرجل لم يكن يحب القيـام بهذا العمـل. انه غـريب عنه. كتب.

أوراق. مكتوبة. مثقفون كلمات غليظة لا يفهم معناها. عليه ان يتناقش فيها يومياً. وكي يتفادى المشاكل. وصل إلى حل. وهو الإيجاز في المناقشات. مكتبة يجب ان يصبح قاعة امتحان ومناقشات لا تزيد على الأخذ والعطاء. صيغة السؤال والجواب وان طالت الإجابة يوقفها.

قال انه عصر السرعة. كل أمور الحياة لا بد وان تتم بسرعة. وقال لنفسه. انها محاولة لتغطية العجز نظر إلى الجالس أمامه. الذين يحضرون إليه من المؤلفين نوعان. رجال تسبقهم روائح عطرية مستوردة يشمها الناشر. لأنها تذكره بالنساء اللاتي يسهر معهن كل ليلة. وينفق عليهن ببذخ أسطوري. تتحدث عنه الأوساط.

وهذا النوع من المؤلفين مثله. لا يعنيهم من حكاية التأليف أي شيء. يبدو البعض منهم عابر سبيل. خاب أمله في أعمال أخرى. فلجأ إلى هذا العمل السهل. وكل هؤلاء بدأوا. الكتابة قريباً وكتبهم لها اتجاهات واحدة. وملامحهم أيضاً واحدة البذلة أنيقة. المنديل الذي يتدلى من الجاكيت، الذقن حليق والوجه مستدير، سواد العينين يبدو لامعاً. الشعر مكوي ومدهون بكريم مستورد. ربما كانت الباروكة هي التي تغطي الرأس الخاوي من أي فكرة.

كلهم قادمون من طرف جهة ما. يقدمون أنفسهم ولا يتكلمون سوى في أخبار السهرات وأسعار العملة وآخر أنواع المستورد من الملابس أو الأطعمة أو المنشطات الجنسية في الأسواق. يوجهون له الدعوات لحضور حفلات تقام في شاليهات على أطراف المدينة أو في أحد المصايف أو المشاتي حيث لا يكتبون أعمالهم إلا هناك. يتفاخرون بانتسابهم إلى عائلات تركية قديمة. وانهم ليسوا فلاحين أو صعايدة أو عربان باختصار ليسوا مصاروة.

والكلمات المترادفة تأتي وراء بعضها. فكلمة المصاروة تجر وراءها

كلمة المصاري . وهنا يبدأ الحديث الحقيقي ، يدخلون في منطقة الفصال والأخذ والعطاء . ذهن الناشر لا يتعب من الحديث في الأمور المالية . وان كان يتم حسم موضوع النقود بسرعة لأنه لا يدفع من جيبه . وبعد المساومة تقال آخر نكتة وبعض التعبيرات الجنسية وآخر فضائح المجتمع .

يخرجون من حقائبهم مجلات جنسية يتركونها له . لكي يتسلى بها في وقت يتحسر فيه القدرة على الفعل . التي ولت ولن تعود . واحد من هؤلاء المؤلفين . قال للناشر انه يوجد حالياً في أمريكا . عضو رجل من البلاستيك الطري . يعمل بالحجارة . يمكنه تركيبه والممارسة به . وعده بإحضار واحد له . وقال ان ثمنه بسيط . ثلاثمائة دولار . ذهب ولم يعد من يومها . يستريح الناشر لهذا النوع من المؤلفين . انهم مثقفو عصر الانفتاح السعيد ، جزء من العصر الذي يعيشه ، من حق هذا العصر ان يكون له مؤلفوه . مثل كافة العصور التي مضت . أما هذا الجالس أمامه :

ـ أعوذ بالله .

قالها الناشر لنفسه نظر للمؤلف ، متعب ومجهد ويبدو رأسه مثل خلية نحل . من الذين يحبون النقاش . لن يمر الأمر بدون نقاش . الحسم مطلوب ، استعان بالله على الجالس أمامه . وقرر ان يخوض معركة النقاش معه بكل الأسلحة التي يمتلكها . حتى ينتهي من اللقاء . أسند خده السمين على كفه الضخم غاص اللحم في اللحم . وقال بكلمات نصف نائمة :

ـ أوجز لي موضوع الرواية في عشر كلمات .

ـ عشر كلمات؟

ـ الإيجاز معجزة العصر ، وفن العصر القادم . لم يعد لدى الناس وقت .

ـ ومصير الأدب؟

ـ لن تكون هناك مشكلة. كل عصر قادر على خلق الأدب الخاص به. أوجز الرواية.

ـ الرواية عن أسرة ضاق بها الحال، فعرضت نفسها للبيع في ميدان عام.

ضحك الرجل واهتز كرشه. وكتل اللحم المتناثرة على جسده غيرت مواقعها. قال لنفسه ان هذا الكاتب سهل. إنزاح كابوس النقاش عن صدره. لن يكون هناك نقاش فلسفي. بل حديث فكاهي عن الأسرة التي ضاق بها الحال. وهل يضيق الحال بأحد في بلادنا؟ مجنون من يضيق به الحال. انه لم يعرف الطريق الصحيح. البلد مفتوح الأبواب. وهو يقول لك. إفعل ما تشاء في الحدود العامة. والحدود العامة تعني انه لا حدود. لكل منا حدوده. التي يرسمها بنفسه ويوسعها بذكائه. ويدخل فيها أكبر عدد من الآخرين. عملاً بشعار يا بخت من نفع واستنفع علاوة على ان وجود الآخرين. يعني أكبر قدر من الونسة والإحساس بدفء الآخرين. ولكن من يضمن وجودهم. وقت الشدة والضيق؟.

عجيب أمر البلد. حتى في أيام الرخاء يوجد من يضيق بهم الحال. يبدو ان صلته بالبلد قد قطعت، انه يعيش في الدائرة الخارجية للبلد. المكتب. الفندق. الملهى الليلي. شقة وسط البلد. من قال دائرة مصر؟. انه سعيد ويتحرك في إطار مجموعة من السعداء. ماله وشخص ضاق به الحال. ذلك من غبائه. وضيق أفقه. ولن يسمح له بأن يعكر صفو سعادته. اكتشف الناشر ان الصمت طال. فقرر ان يتكلم.

ـ أولاً نجحت في امتحان الاختصار. ثانياً: يعنيني أمر واحد. هو ماذا أوصل الأسرة إلى سوء الحال؟

ـ ظروف كثيرة.

ـ لا يا صديقي. لا بد من التحديد. لا يعنيني المخرج من الأزمة. لأن هذا مرتبط باللحظة الراهنة. والغد. وهما مشرقان. ولكن الذي أوصل العائلة إلى ما وصلت إليه. فهذا مرتبط بالماضي البغيض. عقد الستينات اللعين. الحديث عما أوصل الأسرة إلى هذا الحال يضع أيدينا على الدروس المستفادة وهي مسألة هامة. حتى لا يتكرر ما حدث في مصر. مرة أخرى.

الرجل الجالس أمامه. مؤلف من النوع إياه. فكر وكتب وسهر الليالي. أصابه الضنى. مرحلة ما بعد التعب الجسماني. أكثر من متعب. ولهذا فهو فرصة سانحة. لكي يجرب فيه الناشر كل أسلحته في النقاش. ليبدأ هجومه، الكاتب مثقف والمثقف متردد. يقف في المسافة بين الكلمة والأخرى. ربما سيتوه بين أحرف الكلمة الواحدة. يعمل ذهنه قبل النطق بكلمة جديدة. تبقى المعاني في ذهنه. قبل تحويلها إلى أحرف كلمات.

يعرف الناشر هذا النوع من الكتاب. لا يجيد المواجهة وليست لديه ردود فعل جاهزة تجاه الواقع. مواقفه لا تعبر عن نفسها سوى عندما يجلس إلى مكتبه. ويبدأ في الكتابة. حيث يملك موقفه الحقيقي. وتكون لديه قدرة على التعبير عنه. المؤلف متعب ولا يتصور انه توجد هنا أحد ميادين معركته. لتكن بروفة يجربها الناشر في إدارة المناقشات. التي لا يعرف كيف يديرها ليرفع صوته وليستمع للأصوات التي ستخرج منه وليجرب كل الأسلحة في الجالس أمامه.

تساءل:

ـ ماذا أوصل الأسرة إلى هذا الحال.؟

ـ قال المؤلف:

ـ عندما كتبت هذه الرواية. لم تكن هذه المسألة هي الأساس.

ـ ورأيك الشخصي. ماذا أوصل القليل منا لما هم فيه الآن؟

ـ عوامل كثيرة.

قال الناشر بغضب، رغم سعادته التي لا توصف بالقدرة على النقاش:

ـ أرفض الكلام غير المحدد يا أستاذ. حدد من المسئول.

ـ السياسات المتبعة في إدارة البلاد.

ـ جميل. ولكن في أي الأوقات؟

ـ حالياً.

ـ نعم؟

ـ في الزمن الراهن.

ـ اسمعني.

ـ الآن.

ـ هذا غير صحيح. هذه السياسات هي التي ستخرج البلاد من الأزمة. أما المسئول. فدعني أسأل. أليس عبد الناصر هو الذي أوصل العائلة إلى البيع في ميدان عام؟

ـ عبد الناصر؟ مستحيل.

ـ أليس الانقلاب العسكري الذي سمي خطأ بثورة يوليو. هو الذي قاد خطى العائلة إلى سوق النخاسة؟

ـ ثورة يوليو أم انقلاب مايو؟

سعادة الناشر بنفسه جعلته يفكر في القيام من مكانه. وتقبيل الجالس أمامه. هذا الولد سيكون فاتحة خير. لم يحدث للناشر ان تحدث بهذه الطلاقة. وتكلم بتلك الصورة النادرة. لماذا يكره الجالس أمامه. ما بينهما ليس عداءً. المؤلف مقتنع بما يقوله. نجح الناشر في القيام

بأصعب المهام. التي كان مطلوباً منه القيام بها.

ستكون لديه القدرة على النقاش. ما أدهش الناشر هو سهولة الحكاية. من السهل ان تناقش. ولكن ما قلل من سعادته إحساسه ان الجالس أمامه غير راغب في دخول المعركة. بدا ان اقتناع الناشر بنفسه أكبر من المعركة. فقلل من إحساس الناشر بالسعادة. فقرر إنهاء النقاش.

- إكتب روايتك من جديد. أعطها البعد السياسي والنكهة الفكرية. قل ان عبد الناصر ويوليو هما السبب فيما جرى للرجل. وفي هذه الحالة أنشرها لك. بل ان هناك بعض النسخ مضمونة التوزيع. وبعض السفارات التي يعنيها وضع مصر الحالي. ستشتري كميات من هذه النسخ وهناك بعض الجرائد التي تتعاطف مع هذه الفكرة ستجري معك مقابلات صحفية وستجري لك عملية تلميع لتصبح نجماً. هيا. فكر في الصياغة الجديدة من الممكن إضافة فصل أو فصلين للرواية عن الآثار التي تركتها العسكرية المصرية في الحياة بعد يوليو وليكن من أهم هذه الآثار خروج العائلة بهذه الصورة.

- ولكن الكلمة أمانة وأنا لا أتفق معك في الرأي. فكيف أجري التعديل؟

- ليست مشكلة ما دمت قد وافقت على الدخول في النقاش. ان كنت موافقاً على المبدأ. لن أطلب منك القيام بإجراء التعديل بنفسك لديّ من يقوم بالتعديل في ليلة واحدة. أعطني الرواية.

- لا.

قالها المؤلف. بكل قوته. محاولاً الخروج من فخ الاستمرار في النقاش.

- لا تغضب. بكم تبيع لي فكرة روايتك. ولديّ من يكتبها؟

ـ أرفض.

ـ لم؟

ـ التجارة بالكلمة والزنى بالكلمات والأفكار. يساوي التجارة بشرف وعرض الإنسان.

ـ يوه. خطب وكلمات الأخوة إياهم. انت ضحية لهم. فكر جيداً وعد إليّ. ولا بد وانك ستعود. لأنه لا يوجد من يقبل نشر روايتك بهذه الصورة. انها تهاجم نظام الحكم. ومن لا يقف مع النظام فهو ضده. حتى لو كان الهجوم بسيطاً. ومن يقف ضد النظام لا مستقبل له على أرض الوطن. فالنظام هو الوطن. والوقوف معه يعني تأييده بالحق والباطل معاً. والهجوم على سلفه والتركيز على سلبيات يوليو. هو المدخل السليم للنظام الحالي: إذا لم نتفق بشأن هذه الرواية. فكر في عمل جديد نتفق عليه قبل كتابته. أنشره لك في كتاب. وسيكون بداية التعاون معي.

خرج من المكتب. وجد فرق المخبرين والحراس في انتظاره. البعض جلس والبعض انتقل إلى مقهى في الناحية الأخرى وجلس يدخن المعسل ويشرب الشاي. بمجرد ظهوره عادوا، كان اهتمامهم أقل. الفترة الطويلة التي قضاها في الداخل جعلتهم يثقون به. لم يفعلوا أكثر من معرفة الشارع الذي سار فيه. وساعة خروجه وهيئته لحظة الخروج ولكنهم لم يسيروا وراءه. لأن التعليمات التي صدرت لهم. ان دخوله هذه الدار يسهل الأمر. سيصل الضابط تقرير مفصل من صاحب الدار. خلال ساعات. عن الشخص وسبب حضوره. لهذه الدار. وربما الدار الأولى. صاحب الدار ليس متعاوناً فقط. ولكنه يعمل معهم. ودخول الشخص الغريب الدار. وبقاؤه فيها كل الوقت الذي مضى. يجعله تحت أيديهم. ولا خطر منه.

مشى المؤلف في الشارع الرئيسي. سخر من غبائهم. قال لنفسه. انه لم يكن يحب عبد الناصر في حياته. زعيم عظيم المجد والأخطاء. بدأ الحب يتسلل إلى نفسه عقب وفاته. وكان السبب غباء من قادوا الحملة ضده. وما فعلوا بالبلاد من بعده. الزعيم على حق ما دام هؤلاء هم من يعادونه. وكلما تقدمت الأيام بدا عبد الناصر مثل الحلم المستحيل التحقيق. ومضة الأمل النادرة بين ظلامين. ظلام مضى وعرف أمره. وظلام قادم من رحم الليالي القادمة. لا يعرف أحد حجمه وتأثيره.

في بعض الأحيان. كان الرجل يبدو مثل النور الفاصل بين الظلام الذي مضى. والظلام الآتي. معركتهم ضده ليست من قبيل تصفية الحسابات مع الماضي. بقدر ما هي دفاع عن وجودهم. الجباه العالية لا تمضي أبداً. إنه يهددهم في كل لحظة حتى وهو في القبر. والمعركة ضده. حرب دفاعية. وجودة المضيء في مواجهة الليل القادم.

عند هذا الحد. كان المؤلف. قد وصل إلى حي شعبي كان يقف بالتحديد أمام مقلة. المحل قديم. وتوجد فاترينة زجاجية مليئة بالفول السوداني. وبين الفول والزجاج كانت صورة عبد الناصر مائلة قليلاً. قال المؤلف لنفسه هذا ما يزعجهم. إن البطل تسلل إلى حياة البسطاء. وحملتهم عليه. لن تزيد الناس سوى تمسك به.

في طريق العودة. اكتشف المؤلف. أن البقاء وسط الناس أفضل من وجوده في منزله بمفرده. تسكع في الشوارع. مشى حتى تورمت قدماه من كثرة المشي. حتى الناس تخلت عنه. بدأت الشوارع تخلو من دفء الآخرين. من التماع الأعين في الليل. وصوت التنفس وقطرات العرق. وهمسات العشاق ومناقشات الشوارع. الزحام وطوابير البشر المتحركة. والأقدام التي تدوس فوق الأقدام إن توقف أحد. الشبق

المتدلي من الأعين أمام واجهات عرض تلال البضائع. في عصر البضائع أين هذا كله؟ ما تصور المؤلف أن يعيش حالة من الحنين لهذا الزحام. إنه يهرب منه.

كان المؤلف ثملاً بالحزن والحيرة ومحاولة العثور على الطريق. سار المؤلف وهو يكلم نفسه. بدأ الأمر بالهمس. والكلمات التي لا يسمعها ثم علا الصوت. وسمعه المؤلف. وحمد الله لعدم وجود آخرين حتى لا يتهم بالجنون.

قال لنفسه: إن حديث النفس من الظواهر الملفتة للنظر في الفترة الأخيرة. كثير من الناس يكلمون أنفسهم في الشوارع. قرر أن يكلم طبيباً نفسياً من أصدقائه حتى يدرسا معاً. هذه الظاهرة. من كثرة التعب. وقف المؤلف. جاءت وقفته في أحد الميادين العامة. في مواجهته تمثال ضخم. لزعيم من عصر مضى.

قال المؤلف: أين نحن من الأيام العظيمة التي عاصرها الزعيم العملاق. حتى أيام الإنجليز والسراي والملك وفساد الحياة العامة نتحسر عليها. على الأقل كان فيها رجال قالوا لا. وكانت صادرة من أعماقهم. لذا وصلت للآخرين بسرعة. أغلب رجال زماننا يطلق عليهم رجال نعم. وبلادنا هي ديار نعم.

وقف المؤلف يخطب. من يقل نعم يكسب من الداخل. ومن يقل لا يكسب من الخارج. ومن يفضل الصمت. ويرفض التحديد الصارم لكلا من نعم ولا. ويجيد القدرة على الإمساك بالعصا من منتصفها يكسب من الجميع. الكل يكسب من القضية. والشعب صاحب القضية. جائع لا يجد اللقمة والسكن. خلق ليجوع وليخاف وليعاني. العمر كله رحلة معاناة ليست لها بداية ولا نهاية. كل منا يواجه المأساة بشكل فردي.

يقول البعض بعد السكر. والخمرة قادرة على فك عقدة الألسن. في الصحو واليقظة. ما لنا وللقضية. نحن لم نأتِ في زماننا العصيب لنحل مشاكل عمرها أكثر من عشرين قرناً من الزمان. وعندما تضيق حلقة النقاش. وحصار السؤال والجواب. يهرب منك. يقول أنا رجل أرى الدنيا من منظار الفن. ولست سياسياً. وحتى عندما أحاول فهمها فإن ذلك يتم بالفن وحده.

أمام باب البيت مخبر وأمام باب العمل مخبر والزميل أصبح مخبراً. وحبيبة القلب مخبرة. في عمق السرير تسألني عن رأيي في الوضع العام. متصورة أن عريها ينسيني المخبرة التي في أعماقها. حتى لحظة الجنس يبدو أنها مكلفة بالقيام بها. في حبة القلب مخبر وفي تجويف الصدر مخبر. وتحت رموش الأعين مخبر. والرئيس لا يمل الحديث عن الأمن والأمان والحرية والحياة الجديدة. ويهاجم كافة الرؤساء المحيطين به. لأنه لا أمان عندهم. وينتقد الرئيس السابق انتفى الأمان في زمانه والأمان لدي. والحرية في عهدي. والأمان الذي يتحدث عنه ينسحب إلى المستقبل والزمن البعيد القادم. ويتعهد بأمان الأحفاد وباب العمل. وجدار البيت والقلب والعين.

وأتساءل: أين الأمان وفي كل مكان مخبر والشوارع تبدو مرعوشة تنادي الأمان، الأمان، الأمان. وأسير في الشوارع المرعوشة على يساري مخبر وعلى يميني مخبر. أمامي مخبر وورائي مخبر وفوقي مخبر وتحتي مخبر. وأمام العين لافتات تغطي الشوارع تتكلم عن الحريات والديمقراطية والأمان. ومطلوب مني رغم هذا أن أكتب. أن أكون صوت من لا صوت لهم. وهم يتحدثون. عن الأمان ولكن السؤال هو: أمان من؟ أمان القلة الجالسة فوق القمة العالية.

قابلت الناقد المكلف بكتابة دراسة عن أعمالي الأدبية لمجلة أدبية

تفوح منها رائحة البترول ووعدته المجلة بخمسمائة دولار. تدفع بالعملة الصعبة. فور تسليم مخطوط المقال. نظر إليّ الناقد. الذي لا يفيق من السكر. يشرب حتى يتكوم في البارات. قضى شبابه في مطاردة الفتيات والصبيان. بشرط أن يكـون العمر أقل من عشرين عاماً. سألني سؤالاً هاماً ومصيرياً وحاسماً. قال إن السؤال يتوقف عليه الكثير. قال لي: هل أنت عامل؟. قلت لا. فلاح؟. قلت لا. ابن عامل؟ قلت لا. ابن فلاح؟. قلت لا. إذن ما هو عمل الوالد؟ قلت تاجر. وعملك أنت؟. موظف. قال إنه دليل جديد على التأرجح وعدم الحسم. وترك كافة المواقف وسطية ومعلقة وغير منحازة. من قرية أصلاً؟ قلت نعم. وتعيش حالياً في مدينة؟ قلت نعم. معلق بين خشونة الحياة اليومية في مدينة لا ترحم. والحنين لماضي الحياة في قرية هادئة. ووداعة. لست من البروليتاريا ولا من الفلاحين. أنت من البرجوازية الصغرى. تلك الفئة التي تعبد الملكية. في بلدنا هرم ضخم. ليس الهرم الشهير في الجيزة. والذي كان معروضاً للبيع. من يجلسون على قمة الهرم. يموتون من التخمة. ومن في القاع يموتون من الجوع.

يا سادتي العظام. نحن نعيش فترة ركود. وفي أزمنة العفن والعطب والركود. لا يطفو على السطح سوى الجثث الميتة. ذلك قانون الأشياء. يا سادتي نحن نلعب في سوق كبير. وكالعادة. فإن البضاعة الرديئة تطرد البضاعة الجيدة من الأسواق. إنها قطع الغيار الأدبية. الجيل البديل. أقزام الكلمة. مهرجو سيرك الكلمات. تطهير. قوائم رفت. إحالة إلى المعاش. كل صباح نسمع عن تهديد جديد، ووعيد جديد. وبعد أيام يأتي العفو والصفح من القادر على كل شيء. وهكذا تشكره لأنه لم يفصلك ولم يشردك. ويصبح كل أملك أنك لم تفصل. عملية

تنازل عن الهدف الكبير. ومحاولة الإمساك بهدف وهمي. خلقه هو لك. حتى أحلامك يتولى هو تحديدها.

خلق الإنسان ليراقب. تلك هي القاعدة. وأي وضع آخر من قبيل الإستثناء. من المؤسف لجيلي إننا عشنا هذه الأيام. وعاصرناها بأنفسنا. إن مواصلة الحياة حتى نطرح السؤال على أنفسنا: أيهما أكثر فائدة للإنسان الحذاء أم الكتاب؟ أمر مؤسف. أتحدى أياً منكم أن يقوم برحلة في الزمان والمكان. ليحاول العثور على إجابة لسؤال بسيط. هل جرى ما يجري لنا في أي زمان ومكان آخرين؟

أتحدى من الآن. لأنني متأكد أن ما جرى لم يحدث أبداً. وإن كان قد حدث شبيه له. فلا يمكن أن يكون بهذا القدر من المأساوية. إني أسأل: ماذا يربطني بهذا الوطن؟ لا أطلب فيللا ولا سيارة ولا جهاز تكييف ولا شقة صغيرة لعشيقات زماننا الشرهات. كل ما أطلبه من الوطن أن أمنح الفرصة لتحقيق ذاتي. وذاتي لن تتحقق سوى بالعمل. العمل يخلق الإنسان من داخله ويعطيه مبرر وجوده. وكون الإنسان بدون عمل وبدون دور فهذا يجعله يتآكل من الداخل. وتضيع روحه. وينكسر الإنسان في النهاية. إنني أقاوم هذا الإنكسار القادم في الطريق.

الوطن ليس الخريطة. الوطن مكان ارتبط به. وأحقق ذاتي على أرضه. وعندما يسحب الوطن. آسف أقصد الذين اغتصبوا الوطن مني. لا منا جميعاً. عندما يسجنون هذا الحق الطبيعي. ويفرقون بين أبناء الوطن. يمنحون ويمنعون. أياً كان الأساس الذي يفرقون بين الأبناء انطلاقاً منه. عندما يحدث هذا. لا بد من الصدام مع مغتصبي وطني. وهذا مربط الفرس كما يقولون.

أتحدث أولاً عن الشرعية التي تعطيهم هذا الحق المطلق. وتلك

ليست مشكلتي بقدر ما هي مشكلتهم. الشرعية؟ إنهم يدركون أنها أكبر نقطة ضعف تهدد وجودهم. ولهذا يظل أي عمل يقومون به. الهدف منه إثبات الشرعية أولاً. هم أكثر مني وجوداً في حالة الدفاع عن النفس. ومهمتهم إثبات هذه الشرعية. وتأخذ العلاقة شكل المعركة اليومية. ولكن التاريخ قال لنا إن المستقبل للمحكوم. كل يوم يمضي يطرح من عمر مغتصب الوطن ويضاف إلى جهد وعرق المحكوم ويقربه من اليوم العظيم.

بالأمس عندما دخلت المطبخ وفتحت الحنفية لم تنزل منها المياه. قلت وما الجديد في ذلك. أمر يومي عادي. ولكني فوجئت، بشخص ينزل منها. بيده ميكروفون، ويقول كمن أصابه مس: حرية، ديمقراطية، أمن، أمان، استقرار، رخاء، سعادة، حرية ديمقراطية. وعندما فتحت البوتاجاز لأعمل لنفسي شاياً، بدون ماء. خرج من الشعلة بدلاً من اللهب أراجوز يقول: حرية، ديمقراطية، أمن، أمان. قررت أن لا أشرب الشاي. فتحت التليفزيون، فوجدت نفس الشخص، وإن كان على هيئة حاوي بيده جراب. يمد يده فيه، فتخرج ورقة مكتوب عليها حرية. وأخرى عليها ديمقراطية وثالثة أمن ورابعة أمان. أغلقته.

حاصرني الحديث الحر. والكلمات الديمقراطية وحالة الأمن والأمان المستحيلة. لم أصدق حرفاً مما يقولونه. ولست حزيناً. صدقوني فأنا سعيد. فحبس الكلمات، ومصادرة الفكر. واصطياد الخواطر معناه أن الطوفان قريب. وإنه سيكون طوفاناً. ولكن لن تكون فيه سفينة نوح.

أخشى أن يقال بعد الطوفان، إنه كانت توجد هنا أرض ومياه أنهار ودخان مصانع وتنفس أطفال وهمسات عشاق. وعندما اغتصب. انتظر أبناء الوطن حتى أتى الطوفان. ولم يتحركوا لوقفه. شغلتهم لقمة العيش عن استعادة الوطن المغتصب وتحرير الأرض المحتلة. ومع أن

النظام الطبيعي للأشياء. أن الإنسان وجد قبل أن توجد لقمة العيش. وفكر في الطريقة التي يعبر بها عن نفسه والآن. ليس المطلوب له لقمة عيش مغمسة بالهوان والمذلة وأقدام الصهاينة والأمريكان التي تدوس أرض الوادي ليل نهار. المطلوب طريقة يعبر بها عن نفسه، ميكروفون وورقة وقلم. ومكان عالٍ يتكلم فيه بكل حرية وأشخاص يتحاورون معه. تلك هي أدوات التنفس الطبيعي. وإلا فالإنفجار هو الحل الذي لا بديل له. وما دام انفجاراً. فالدم هو لونه. ذلك هو الدرس الذي لم يفهمه أحد.

أنا فرد. نقطة ضائعة في بحار البشر الذين يتحركون كل يوم. ولكني مكمم الفم. وهناك آخرون تم تكميم أفواههم. والفم إحدى الفتحات الطبيعية في الإنسان. يدخل منه الطعام ويخرج منه ما يعبر عن الإنسان. وهذا التعبير يريح الإنسان. والقدر إن كتمته لحظة الغليان انفجر. والإنفجار قادم. الإنفجار قادم. الإنفجار قادم.

مأساتنا يا سيدي إننا قبلنا الحرية المنحة. ونحن جلوس في منازلنا. وصلت إلينا على شكل قرار علوي. من خلال أجهزة الأعلام. وما دامت منحة. فإن من منحها يملك أن يمنعها. وما دامت له حرية اختيار توقيت المنح. فله أيضاً أن يختار توقيت المنع. وهو الذي يضع القيم والمعايير. مأساتنا إننا قبلنا الحرية المنحة. ولم نناضل من أجل الحرية الحق. هللنا وفرحنا للديمقراطية المنحة. ولم نتعب أنفسنا في نحت الديمقراطية الحق. وشاركنا بالصمت والفرحة الكاذبة والفرجة في إقامة ديكور كاذب هش لا وجود له في أرض الواقع. ولكننا نحن أيضاً سندفع ثمن اللعبة. التي شاركنا فيها باللامبالاة والرفض السلبي.

غرقت سفينتنا. الشاطىء وهم. وكل أمل في النجاة سراب، والرسول القادم بالأمل اكتشفنا كذبه. لم يقدم لنا سوى بحار الكلمات.

الكرب شديد. والمصيبة ضخمة والتركة ثقيلة والمستقبل مخيف. لدرجة أن الوطن أصبح بلا غد. ومن يجرؤ على التفكير في الأيام القادمة؟! بعد أن يتم الإنكسار. يحتاج إلى قوة استثنائية لكي يبدأ من جديد.

البعض يقول: وراء العتمة يكمن الفجر الآتي. وأنا أقول عن نفسي. لقد نفد صبري. وفقدت الأمل. فلينتظروا هم هذا الفجر الكاذب الذي لن يكون بالنسبة لنا سوى الساعة الخامسة والعشرين.

ليلة الأمس قابلت واحداً من المرتدين الذين دخلوا تحت مظلة النظام. وإن كان لا يزال يرطن بلغة زمن المد العظيم. شكوت له سوء الحال فابتسم وقال لي:

ـ أرضهم ما دمت في أرضهم.

قلت له مستحيل. ليست أرضهم. اغتصبوا بلادي ووطني ولا بد من تحرير الأرض وإعادة الوطن المغتصب.

ويبدو أنه لم يسمع كلامي. لأنه قال مكملاً جملته السابقة:

ـ دارهم ما دمت في دارهم.

أكملت حديثي: إن لم نعد الوطن المغتصب. فما هو مبرر أن يوجد جيلي أصلاً. ما هو مبرر أن يحتل هذه المسافة في تاريخ البلاد.

وللمرة الثالثة. يقول المرتد وهو يكلم نفسه:

ـ وجارهم ما دمت بجوارهم.

تركت المرتد. لأنه عندما اكتشف أنه يكلمني. أصابته حالة من الرعب وجرى وتركني.

ورفعت صوتي عالياً:

يحكى أنه حدث في قديم الزمان. وسالف العصر والأوان. أن حكم ديار مصر كافور الأخشيدي، والخديوي توفيق. ويحكى أن أفندينا إسماعيل عندما باع بر مصر أن.. .. ..

٨

المؤلف يسأل القارىء:
أي العنوانين يعبر عن الفصل:
١ ـ الحافة الأخرى لليأس أو
٢ ـ اشتدي يا أزمة تنفرجي؟!

يستطيع من لا يريد ان يكمل قراءة الرواية. ان يتوقف عند هذا الحد. ويمضي في طريقه. في كل رواية محطات أساسية. من الممكن عدم إكمال القراءة. بعدها. ونحن الآن عند إحدى المحطات. إنه الموقف الأساسي الذي تدور من حوله الرواية. من الألف إلى الياء. تلك نصيحة أساسية. يقدمها المؤلف لقارئه. قبل الدخول. إلى الموقف. ويعتقد المؤلف، ان ترك الرواية وعدم إكمالها. مسألة سهلة وبسيطة. يغلق الكتاب وينتهي الأمر.

الذين لن يفعلوا هذا. وسيكملون الرواية. قد وصلوا إلى الموقف الأساسي. في كل عمل أدبي نقطة ارتكاز تدور من حولها. مفردات ومكونات العمل والعثور على هذه النقطة. يجعل من السهل، انتظام العمل فيما بعد.

نصل الآن إلى هذه النقطة بالنسبة للرواية. كل ما مضى من الأحداث. كان يمهد لهذا الفصل. وكل المواقف تصب في هذا الموقف الضخم. وكل الشخصيات تدور في محوره. ومن حوله وفي فلكه. وكل ما سيأتي. ينطلق من الموقف. سواء ما يجري للعائلة. أو ما

سيجري للمؤلف. والمؤلف تصيبه حيرة عندما يقترب من الفصل الخاص بالميدان. والحيرة تمسك بخناقه عندما يفكر في الطريقة التي يقدم بها فصل الميدان.

المؤلف يريد تقديم الفصل بطريقة تتناسب مع أهميته. ولأن الحيرة طالت به. وفكر كثيراً. وكتب الفصل أكثر من مرة. والمؤلف يحاول الوصول إلى أنسب طريقة يقدم بها الفصل العصيب. سيكون المؤلف ديمقراطياً. تمشياً مع عصر الحريات والديمقراطية العظيمة في البلاد كلها. وسيشرك معه القراء. وأبطال الرواية في الطريقة التي يقدم بها المشهد.

تعالوا نفكر معاً. وبصوت عالٍ. في الطريقة التي نقدم بها الفصل. إنه الفصل الأساسي في الرواية. ولا يكفي ان يكون الفصل عظيماً. ولا المشهد مؤثراً. ولا الرواية ضخمة. بل لا بد وان يقدم بطريقة ترقى إلى مستوى الفصل. الموقف بسيط. ومن السهل تقديمه بنفس البساطة. رغم أهميته. فيه يلتقي كل من في الرواية. والمؤلف يلتقي فيه أيضاً بأشخاص روايته. ولولا هذا اللقاء ما كانت الرواية. يلتقي أشخاص الرواية بالناس العاديين وبالحكومة. وسيترتب على اللقاء ما يحدث.

والموقف قمة الأحداث بالنسبة لمن وافقوا على البيع. ومن رفضوا البيع. إنه الذروة التي تفصل عالمين كاملين. من أحداث الرواية. قبل الفصل. كان هناك عالم يسوده النظام. وما بعد الفصل. سنقابل عالماً من الفوضى واللانظام. وهذه الحالة. تعد مخاض ألم ولادة. للحدث الضخم الذي يأتي فيأخذ في وجهه الكل. الصالح والطالح، الصواب والخطأ. فحالات الفوضى لا تنتهي.

الفصل الحالي له عنوانان. يعترف المؤلف انه كان يود ان يكون عنوان الفصل: الحافة الأخرى لليأس. ولكنه وجد ان الكلمات الثلاث

لهذا العنوان. انما تجسد حالة الخوف والعزلة واليأس. دون ان يكون هناك بصيص من الأمل. كلما ازداد ضيق الحال. كان مقدمة للانفراج. وهكذا وجد المؤلف ان لديه عنواناً آخر: اشتدي يا أزمة تنفرجي. تردد بين العنوانين. ولم يستطع الحسم. وفي النهاية قرر ان يضعهما معاً. في صدر الفصل. ويترك للقارىء ان يقرر أيهما أكثر مناسبة. لما في الفصل من أحداث.

لنعد إلى الموقف، الذي جرى في ميدان التحرير. ولن نطرح السؤال السابق. تحرير من؟ التقى المليونير مع أبنائه وبناته.

اليوم هو يوم الجمعة. ورغم ان المدينة تبدو شبه خالية من البشر إلا ان وسط المدينة كان مزدحماً على غير العادة. في البداية كان الميدان خالياً. ولكن العائلة بعد وصولها إليه. وبدأت في نشر اللافتات. وجلس كل منهم في المكان المخصص له. حتى وصل المليونير. وقام بإجراء عملية التمام على المجموعة. وتأكد من وصولها. وقام بعمل الإشارة المتفق عليها. انتقلت العائلة بهدوء إلى قاعدة التمثال. خرج الناس من تحت الأرض. انشقت الشوارع وأخرجتهم من جوفها. لا يدري أحد. كيف حدث هذا؟

في الميدان كان المنظر يبدو هكذا. في المنتصف الأسرة. معروضة للبيع. تحيط بها دائرة من البشر. متفرجون وبدون عمل ومتسكعون. الكل يحاول رؤية ما يحدث. وحولهم. الميدان والشوارع التي تصب في الميدان. أنواع من رجال الشرطة. سريين وعلنيين. مسلحين وغير مسلحين. في البحر والجو وفوق أسطح العمارات والبحر. وان كان البحر يبدو بعيداً عن الميدان.

دور الشرطة سنلتقي به فيما بعد. في هذا الفصل. والذي يصل إلى ذروته في هجوم قوات الأمن المركزي. والتي تسمى بالاحتياطي

المركزي. على الميدان. والذي أرخ له. بموقعه ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٦. أو موقعه ميدان التحرير. وهذا سنصل إليه في حينه. أما الآن. فلنواصل وصفنا للمشهد من البداية. بدا كل أفراد العائلة لحظة الوصول إلى الميدان متعباً. ليس مهماً الحديث عمن أول من وصل إلى الميدان. وآخر من وصل. فالمعروف حسب الخطة. ان المليونير هو أول من سيصل إلى الميدان. وتلك مسألة لم تتم صدفة. لقد تصور المليونير. انه من الممكن منعهم من الوصول إلى قلب الميدان. لو لم يكن موجوداً. وبالتالي عدم التمكن من احتلال قاعدة التمثال الخالية. لهذا وصل أولاً. تسلله إلى قاعدة التمثال هام. حتى ينجح الأمر. ولا يوجد في العائلة من يصلح للتسلل دون لفت الأنظار إليه.

وصل الآخرون إلى الميدان. [ما عدا الذين ضاعوا في الطريق]. يبدو الكل متعباً. خاصة بعد ان وصلت الأحداث إلى لحظة الوقوف في الميدان. المؤلف نفسه متعب من كثرة ما كتب. ان ما يقرأه القارىء بمجرد مرور عينيه على الأسطر وهو جالس. بطريقة مريحة. كتبه المؤلف، أكثر من مرة. وشطب وعدل. والذين ليسوا أبطالاً. كانت الرحلة بالنسبة لهم أمراً مضنياً ومتعباً. الكل سار على قدميه. في ظل ظروف صعبة. وجيوب خاوية وطعام قليل. ربما يحب القارىء التوقف هنا. بعد وصول الأحداث إلى الذروة. لا يعرف أحد إلى أين تتحرك الأحداث بعدها. ان المنظر الذي يبدو الآن يحتاج إلى آلة تصوير. لكي تلتقط له صورة تذكارية نادرة. ولأن المؤلف لم يقم بالتقاط هذه الصورة. لأنه لم تكن معه كاميرا. فهو سيحاول في الصفحات ان يرسمها بالقلم. ولكن من قال ان القلم يمكن ان يلعب الدور الذي تقوم به الكاميرا.

المهم، وصل الآخرون. واحتلوا قاعدة التمثال الخالية. والوصول

إلى تلك القاعدة يشكل نهاية الجزء الثاني من الـرواية. والأحـداث التي تليه. يجدها القارىء. في الجزء الثالث والأخير من الرواية. ولكن ماذا جرى في الميدان؟ أول من وصل من الرافضين كان الأستاذ. ويبدو انـه الـوحيد الـذي وصل إلى الميـدان منهم. جلس فوق الكـبري العلوي. لولاه ما وجد مكاناً للجلوس فيه. الكبري بقدر ما كان خدمة لـه. فهو خدمة بالنسبة للمشاة. انهم يصعدون فوقه. فيصبح الوضع معكوساً. أصحاب السيارات. أسفل. تعطلهم إشـارات المرور والمشـاة. فوق لا يعـطلهم أي أمر. وضـع مؤقت يبدو مثـل الحلم. لكـل من يمشي عـلى قدميه. خدعة تؤخر التذمر سنوات قد تطول. ليكن هذا الموقع خدعـة بالنسبة للمشاة. ولكنه بالنسبة لـلأستاذ. مـوقع هـام لرصـد ما يجـري تحت.

جلس في أقـرب مكان إلى العـائلة. قال لنفسـه: قليـل من الـوقت ويزدحم الميدان. نظر حوله. هيئة الآثـار، المجد القـديم الذي يصرخ فينا كل لحـظة. يقول لنـا: أين أنتم من مجد الـزمن الغابـر؟ إلى متى لا يصبح لكم عمل سـوى المفاخـرة بما قمنـا به في زمن مضى ولن يعـود؟ الأكتفـاء بـالحديث عن المـاضي. يبـدو مثيراً للحـزن والأسى. ان لم يصاحبه عمـل في الوقت الحـاضر تذكـر انه لم يضـع قدميـه في المتحف القريب. ودهش من الاكتشاف. وقرر بعد ان تنجلي الغمة. ان يكـون أول عمل يقوم به. زيارة المتحف. يحاول الحصول على الجهد والعـزيمة من الماضي المشرق. لكي يواجه ظلام اللحظة وعتمة الغد.

مبنى الاتحـاد الاشتراكي العـربي. كم شهد المبنى الصـامت. الـذي يبدو مهجوراً من اجتماعات وخطب. وقرارات مصيرية. يبـدو خاليـاً. تصفر فيه الرياح. ومن يدري ماذا يحمل الغد له. لا يعرف أحد: ماذا سيجري فيه العام القادم. أو الأعوام التي لم تخرج إلى الوجود بعد؟

مبنى فنـدق هليتون. الـذي يطل عـلى النيـل، وهيلتـون لـه دور في أحداث هذا الفصل. سنعرفه بعد قليل.

جامعة الدول العربية. أي الأسرار توجـد في الأوراق والملفات؟ أي الخـطب ألقيت؟. أي القـرارات اتخـذت؟ في المسافـة بـين الفنـدق والجامعة. كان يبنى السلم المعلق. الممر الموصل بين أماكن راحة الملوك والـرؤساء العـرب وأماكن الاجتـماعات الهـامـة. أي الأصـوات رنت؟ تكلمت بـأعلى طبقـات الصوت معلنـة عن زمن الكبريـاء العربي؟ راح يتذكر آخر مرة التقى فيها زعماء الوطن العربي وتساءل: هل يلتقون مرة أخرى؟ هل يحضرون إلى مصر من جـديد؟ أي الأحـلام خـرجت إلى الوجود مع بناء هذا المبنى؟. سمع ان قاعة الاجتماعات في الجامعة. من أفخم القاعات عـلى مستوى العـالم، شاهـدها في التليفـزيون أكـثر من مرة. لحظة انسحاب رجال الصحـافة والأعـلام. والإعلان عن سريـة الجلسات. جلسات الجباه العالية. منذ متى جرى هذا؟ مر وقت طويل بالفعل.

مسجد عمر مكرم. طبقية الموت. كـم تكلف الجنازة وليلة المـأتم. تذكر جنازة عبد المنعم رياض. الزئير، الهتاف، المطالبة بـالانتقام من العدو الصهيوني. أين أنت يا زمن الكبرياء حتى لو كان بمجرد الهتاف.

الجامعة الأمريكية. المكان المنزوي في الستينات. المتألق في زمـاننا. طلاء الواجهة مجرد تعبير عن العودة إلى مـركز الصـدارة. من الحريق في الستينات وتعيينات قوات الحراسة المشددة. إلى حلم السبعينات. ما من حاصل على الثانوية العامة إلا وضمن أحـلامه. ان يـدخل هنـا. لكي يقول في كل مكـان انه طـالب في الجامعـة الأمريكيـة. درجة اجتـماعية يحرص عليها الكل.

كيف نسي مبنى المطافي. مـوسم الحـرائق الـذي يسبق أيـام الجـرد

السنوي. أمر يعرفه الجميع. العسكر والحرامية. الأشهر الثلاثة الأخيرة من العام. تبدأ الحرائق. ومعها يزداد العمل في المطافي يومياً. ثم يأتي الجرد ليقول ان كل الأمور تمام يا أفندم. لا يذكر الأستاذ أين قرأ الإحصائية التي تقول انه يشب في القاهرة ثلاثون حريقاً في اليوم. عدد ضخم. ولكنه زمن له طبيعة خاصة ومن أهم ملامحه الحرائق اليومية.

نظر إلى العائلة. قال لنفسه: من ترك الكعكة الحجرية خالية بدون تمثال؟ ان من تركوها خالية لم يتصوروا انها ستظل دعوة خفية لكل من يريد ان يقول لا. ليأتي إليها. كم من اقتراح قدم. بإقامة تمثال في المكان الخالي. آخر اقتراح كان من رجل مشهور بالبخل. وقدرة فاقت الحرباء في التلون. فتح التبرع ودفع مبلغاً من المال. لكي يقام تمثال لعبد الناصر العظيم. وفي اليوم التالي استرد مبلغه. وفي اليوم الثالث كان أول من فتح النار على عبد الناصر. بخل أو تلوّن؟ لا يدري الأستاذ. وان كان يشعر ان هذا الرجل. لا عمل له في السنوات الأخيرة. سوى تلمس اتجاه الريح. لكي يجري فيه. كم عاصر من العهود واستمر. كم قابل من الحكام. وكانت له صلة طيبة بالكل. لا يهم ان كان الحاكم ملكاً أو رئيس الجمهورية الذي ثار على الملك. المهم انه هو الجالس في المكان الذي يملك فيه ان يمنح وان يمنع. وكم سيقابل من رؤساء في الزمن القادم من يدري. كم مرة سيمدح وكم مرة سيهاجم؟ مسألة بالغة الغرابة. رجل آلي. يملك ان يمنح وعيه إجازة. بمرتب أو بدونه. وان يسترده في الوقت المناسب. لعبة جديدة. يجيدها الرجل في كل زمان ومكان.

قال الأستاذ عجيب يا زمن الكاتب الأداة. ما دمنا قد ودعنا الكاتب الموقف. فكل الأمور سواء. لا غريب في الأمر. ان حالة التدهور أفقدت الإنسان حتى القدرة على الاندهاش. وطن كل كتابه موظفون

في ديوان انشاء السلطان. يمسكون الأقلام. إذا صدرت الأوامر. ويدبجون المقالات حسب تعليمات الساعة التاسعة كل يوم. ويتوقفون عندما تصدر التعليمات بالتوقف ويحولون الاتجاه أسرع من الريح.

أجال الأستاذ النظر. مبنى مجمع المصالح الحكومية المكان المفضل لكل من يريد الأنتحار. دعوة مفتوحة وسهلة لمن يرغب في وداع الحياة النوافذ المغلقة. والصمت الذي يخيم على المكان في مثل هذا الوقت.

لنعد إلى اللحظة الحاسمة في الرواية. احتلت العائلة قاعدة التمثال الخالي. الوصف الخارجي من السهل قوله. وصلت الجماعات إلى نهايات الشوارع التي تصب في ميدان التحرير. وقفوا في أماكنهم المحددة حتى يسمعوا الإشارة المتفق عليها من المليونير. انتظر المليونير حتى وصلت الجماعات من الطرق المختلفة. وعند الإشارة في الوقت المحدد هجموا على قاعدة التمثال الخالية. بسرعة ودون صوت. وقبل ان يلاحظ أحد الأمر. أصبحوا فوق الكعكة الحجرية.

في هذه اللحظة. كانت المفاجأة الأولى. في زمن المفاجآت. كانت مع المليونير اللافتات. القماش المكتوب عليه. العبارات التي سنقرأها بعد قليل. والعصي التي سترفع اللافتات. عليها.

ـ أنظر.

ـ ما الخبر؟

ـ ما هي الحكاية بالضبط؟

في القاهرة. مدينة مصر. وضع غريب. تختص به وحدها. في لحظة. تجد الشوارع خالية. لا أحد يمشي أو يقف. لدرجة انك قد تشعر بالوحدة والخوف. وتخشى لو هاجمك لص. لما وجدت من يقف بجوارك. ويحدث ان يقع حادث. أو ان تحضر سيارة جمعية متنقلة بها دجاج مدعم. وفي أقل من الثانية. يزدحم المكان بآلاف من البشر. لا

تعرف أبداً من أين خرجوا. وأين كان هذا العدد الضخم من البشر؟

في الميدان. نبت الناس من الأركان والزوايا. والشوارع التي تصب في الميدان. حضر عدد من الذين يقفون على محطة الأتوبيس. توقف عدد من السيارات. التي تصادف مرورها بالميدان. وارتفعت أصوات أبواق السيارات. تحتج على التوقف المفاجىء. حدثت حالة من الاهتمام أخرجت الناس من الوضع الراكد الذي كانوا يمرون به.

أمر جديد، يحدث لأول مرة منذ أربع سنوات. لم يفكر أحد في اعتلاء الكعكة. في المرة السابقة. حدثت أمور وأمور. وجرى هجوم عليها. وكتب شاعر كبير يملك قلمه. ويملك ان يقول ما يريد قصيدة شجاعة. تحول الحاضرون إلى نهر من البشر يتحرك بصعوبة. وتناثرت في الجو تعليقات. قال البعض انها فرقة مسرحية جوالة أو جماعة من القوالين. يستعدون لتقديم عروضهم. ولكن استمرار صمت الجماعة. جعل الواقفين يحاولون الخروج بتفسيرات جديدة للموقف.

هذا هو الموقف الرئيسي وكل ما عداه حواشي، تدور من حوله. مواقف جانبية. والمؤلف يحتار للمرة الألف. كيف يصف المشهد. وهو عندما يحاول وصفه يلتقي بنوع من الحضور المفعم الذي لا تعبر عنه الكلمات. حاول المؤلف وصف ملامح وجه المليونير. فوجد ان الوجه لا يعبر عن جيشان العواطف بداخله. ولكنه ينسدل عليها. السؤال عذب المؤلف: كيف التعبير عن الموقف؟ ان التعبير عن العواطف بالكلمات ضعف إنساني يجب الوقوف في وجهه. والبكاء ليونة. والأسى من عواطف الأيام القديمة. عواطف عجوز يجب التخلص منها. بدأ المليونير في رفع اللوحات. عنوان كبير بالأحمر. على أرضية بيضاء. وفي داخل إطار أسود مكتوب فيه:

أطفال للبيع.

كان الخط كبيراً. ولكن تحته وبخط أصغر كتب:

أنظروا، ان أطفالنا صغار، شكلهم جميل. من يشتري؟ الأسعار رخيصة، انه الأوكازيون في غير أوانه.

نظر الأستاذ من فوق. اكتشف اختفاء وريث العرش. شعر بتشاؤم قال ان العائلة ماتت. انتهى تاريخها ليبدأ الوجه الآخر. يحدث التاريخ مرتين ـ قال الأستاذ لنفسه ـ مرة كمأساة وأخرى كمهزلة. والجانب الهزلي هو الذي يبدأ الآن في حياة العائلة. وعندما يستمر. ستخوض العائلة الكثير من المعارك التراجعية. المعارك التي تخوضها وهي تتراجع إلى الخلف بظهرها. ها هي النهاية. ووريث العرش. كان هو الامتداد الطبيعي للعائلة.

اللوحة الثانية.

كانت أبياتاً من الشعر العامي:

وزعقت من عزم ما بي.

وقلت يا أيوب.

أنا ان اشتكيت ربع ما بي

للحديد ليدوب.

المصري الفصيح.

وقف الناس يتفرجون. حالة من اللامبالاة وعدم الاكتراث. في تصرفات الواقفين. ولم لا نقول حالة من الخوف. يبدو ان قدراً من الألم موجود في بهجة المدينة. النكات التي تقال هروباً من الصمت. وكلمات الأغاني الباهتة. التي لا تحرك ما في داخل الإنسان همسات العشاق. تشف عن قدر من الحزن والبؤس ينام بين أحرف الكلمة الواحدة. نظر الأستاذ إلى الواقفين. قال ان البحث عما وراء الوجوه التي تحولت في الفترة الأخيرة إلى أقنعة أو واجهات. سيوصلنا إلى الجنون القديم.

سيقول لك ان الفترينات التي تطل على العائلة. وهي تخفي الدهشة. تخفي عالماً من التلفيق. عالماً يـدفن في أعماقـه الفجيعة القـادمة. ولكن إلى متى نتمكن من إخفائها؟

كانت المدينة. في ذلك المساء، تشع وكأنها بيت يحتفل فيه بعروس. حتى يمكن القول ان الناس نسوا الفقر والجوع وصعوبات المواصـلات. وحتى الذين يعيشون في القبور نسيتهم القاهـرة. وسكانها. ربما فقدت المدينة صوابها. وربما نسيت ملء ساعتها. أو لم تنزع أوراق التقويم منذ فترة. كان الغضب والقلق يتحـركان وراء طبقـة سميكة من الصمت، الذي قد لا يراه الآخرون.

رفعت لوحة جديدة:

الدم في الشوارع.

مسرحيـة تقدم الليلة. في ميـدان التحريـر بنجـاح كبـير. الفـرجـة بالمجان والأبطال والذين ليسوا أبطالاً من الواقع نفسه.

الناس تقف متجاورة. نوع من التجاور في المكان. فلا أحـد يشرف الواقف بجواره ولو بنظرة إنسانية. ها هم فقراء الأبواب الخلفية لقاهرة الـزمن السعيـد. فـإذا نـظرت في الشـوارع الكبـيرة. لن تـرى بيـوت الفقراء. وهذا شيء يتم في كافة المدن الكبرى بهدف الخداع.

والسؤال القديم. لماذا يقوم الأغنياء بحبس الفقراء في مناطق بعيـدة عن الأنظار؟ الكل يقف ملاصقاً للآخر. ولكن ثمـة حالـة من الغربـة والـوحدة رغم زينـة الواجهـات والفترينـات الكهربـائية. تنـظر بطرف عينيك. ثمة رجل ينظر إليك، وحيد مثلك. كشف كل منكما الآخـر. لا بد من الهروب. وتهرب انت منه. ويهرب هو منك.

وقفـة الناس الصـامتـة. تقـول كـل مـا في العمـر هبـاء. الأمـومـة والصـداقـة والأخـوة والحب والعـداء. كـل هـذا يمكن شراؤه في هـذا

الزمان. فما جدوى ان تدق القلوب ويجري الدم في العروق. وتجول الدموع في المآقي. وصل الزحام في الميدان إلى منتهاه. لا يعرف أحد: من أين أتت الناس؟ أصبحت الزحمة متعبة ومضنية والمشي عملية عذاب. وأصبح لدى كل فرد واقف. قرار ضمني بالحفاظ على المكان الذي يقف فيه. غدا الميدان جزءاً من مدينة حجرية قاسية. وأصبح البحث عن شارع هادىء. مظلم وساكن يستريح فيه الإنسان من تعب الوقوف، مسألة مستحيلة.

نحن في زمن الخريف الذي لا طعم له. بدا الواقع في حالة ركود. قال الأستاذ لنفسه: عندما يسقط المساء. تتوهج المدينة ثم تحترق. ولكن هذا لن يحدث إلا بعد شهر. وتساءل: أين نسمات أول الليل؟ أين رقة الأضواء؟ أين كلمات العشاق والأحبة؟ أين الأكف النائمة في الأكف؟ ضاع كل هذا. تسيطر على الشوارع حالة من تعانق الذكورة والأنوثة. غابات السيقان البيضاء. أسراب الرجال والنساء. في مباراة جنسية حتى في الشوارع.

للمرة الثالثة، يحتار المؤلف. هل يقف أمام العائلة في الداخل وما جرى بينها؟ والدهشة التي حدثت عندما اكتشفوا ضياع من ضاع. والحزن والبكاء. [هل بقي في المآقي دمع؟. جفت الحياة. ودموع العين لا تسفف حزين هذا الزمان ولا تجود عليه ولو بدمعة]. وحالة الانتظار الفريدة التي عاشتها الأسرة. لعل الغائب يصل إلى الميدان. حتى اللحظة الأخيرة. كان هناك أمل. ولكن من غابوا لم يصلوا.

أم يتكلم عن لقاء المؤلف مع الأسرة. ومن المفروض أنه التقى بها في الميدان. وفي هذه اللحظة؟ أم يتكلم عن الناس الذين تجمعوا ليشاهدوا ما يجري؟ وكيف فهموا الأمر؟ وما قالوه تعليقاً على ما

يحدث. أم عن الأستاذ الجالس فوق الكبري لمشاهدة ما يجري. ويدون للتاريخ ما حدث للأسرة العجيبة.

أم عن قوات الأمن. حيث بدأ الأمر بمجرد ملاحظة من العسكري المعين في الميدان. وانتهى بالهجوم على العائلة. والذي سمي في سجلات الأمن بثلاثة أسماء. وترك للتاريخ ان يختار الاسم المناسب. الاسم الأول: موقعة ميدان التحرير. والاسم الثاني: حركة التاسع عشر من نوفمبر. والاسم الثالث: معركة الكعكة الحجرية.

أم يتكلم عن أجهزة الإعلام التي حضرت. كاميرات وميكروفونات وأقلام وورق. و أجهزة الكترونية وأقمار صناعية. يختار المؤلف عن أي الأمور يتكلم. وعن أيها يصمت. ولأن الحيرة طالت. وكان الحسم مستحيلاً فهو سيتكلم عن هذا كله.

وفي وسط الكعكة الحجرية. رفع المليونير اللافتة الرابعة، وكان مكتوباً عليها:

لقد فات أوان الحلول السلمية في مصر.
وعلى الوجه الآخر وبنفس اللون الأحمر. كان مكتوباً:

قليل من العنف يشفي معدة المجتمع المصري. ولن يسبب له أضراراً نظم المليونير وقوف العائلة. الخط الخارجي من الدائرة عبارة عمن بقي من الصبية والأطفال يليه أكبرهم. والعائلة في المنتصف وفوق أعلى مكان في نقطة انتصاف الدائرة. كان المليونير يقف. يطل على ما في الميدان. وفي يده أصغر لافتة:

جوع كلبك يتبعك.
هذا ما فعلوه بنا.
النساء كن في الداخل. لا يرى المشاهد منهن سوى الرؤوس.

في هذه اللحظة التقى المؤلف بعائلة المليونير:
ـ ما الخبر؟

سأل المؤلف أقرب الواقفين إليه بلهفة. لم يسمع رداً. مط الذي سأله شفتيه ولم يتكلم. أشار بعينيه للمشهد. وقف المؤلف على أطراف أصابعه شب محاولاً رؤية المشهد الهائل. دس نفسه بين الناس أكثر:
ـ ما الحكاية؟

كان صبر المؤلف قد نفد. وخرجت شحنة من الهواء الدافىء مع سؤاله القصير. نظر له الواقف بجواره بدهشة. استنكر هذا الاهتمام. قال له انه لا يوجد ما يستحق الاهتمام. ان الذين ما زالوا يحتفظون بقدرتهم على الاندهاش أبطال بشكل ما. أشار لعائلة المليونير التي تتوسط حزام بريق الأعين المحيطة بها:
ـ قد تكون تمثيلية متفق عليها.
صاح فيه المؤلف:
ـ أية تمثيلية، هذا تشكيك في موقف إنساني. الصدق أهم ما فيه!.
ضحك الواقف وتساءل بدوره:
ـ الصدق؟! انه أندر عملة في أيامنا.

حول المؤلف نظره إلى العائلة. لم تخرج من الأفواه كلمة. كل الأسئلة التي وجهت إلى العائلة من الواقفين. أشاروا بأن المليونير هو الذي يرد. والمليونير اكتفى بالإشارة إلى اللافتات المعلقة. خصوصاً اللافتة التي تقول أطفال للبيع. حاول المؤلف ان يكلم المليونير. رفع صوته. نادى عليه. صاح عالياً. تاه صوته في الزحام. فشل في ان يلفت نظره إليه. حاول ان يتقدم الصفوف لم يتمكن من الوصول إلى الصفوف الأولى.

قبل وصول المؤلف إلى الميدان. كان يتمشى في الشوارع. بدون

هدف محدد. سيكتب ابتداء من الأسبوع القادم. رواية جديدة. قال هذا لنفسه رغم انه يعرف. انه ليس لديه ما يكتبه في هذه الأيام. قال إنه يتصرف مثل الدول الضعيفة. التي تتحدث عما لا يمكنها فعله. حتى يصبح الكلام المباح والسهل. بديلاً للفعل المستحيل. ليلوح بالاتهام في وجه ذاته المتعبة. لعل وعسى. بدلاً من مواجهة اللحظة. لا يقتل الكاتب سوى العجز عن الفعل. والقتل الأساسي لأي كاتب هو انعدام القدرة على الفعل. وفعله اليومي هو الإبداع والقدرة على الكتابة.

كان المؤلف يعيش أيام التلكؤ والتردد والدوران حول لحظة الكتابة. وتفادي ان يقابلها وجهاً لوجه.

في الأسبوع الماضي. اشترى الورق. من أحجام وأشكال مختلفة. اشترى بعض الأقلام الجديدة. من أنواع طرحت في الأسواق مؤخراً. سوى مكتبه. جمع الكتب المتناثرة عليه. وضعها في الدولاب. أوقف كل قراءاته جلس إلى مكتبه. وحاول الكتابة. كان الأمر مستحيلاً. كان يود القول عما يجري في بلاده. في الأيام الراهنة. وكان يرغب في نشر ما يقوله هنا في الداخل.

المعادلة مستحيلة. ان تكلم عما يحدث في البلاد. لن تنشر كلماته. لا بد من طريقة يقول بها ما لديه ويضمن نشره. كيف هذا؟ معادلة صعبة، لا بل مستحيلة. أدار ظهره للواقع. صم أذنيه وأغمض عينيه عما يحدث كل يوم. سيكتب عنه في زمن قادم. حاول ان يكتب قصة حب. يقول من خلالها بعضاً مما عنده. حتى في قصة الحب يمكن ان تتسلل بعض المعاني. رصَّ الكلمات بجوار بعضها. قرأها بصوت عالٍ. كما يفعل كل مرة. سأل نفسه كيف تتحول الكلمات المرصوصة كقوالب الطوب إلى إبداع. كل إنسان يستطيع رص الكلمات. ولكن

من يحول هذه الكلمات المرصوصة إلى إبداع قلة شديدة.

قال لنفسه: ما دمت غير قادر على القول. فالصمت أفضل. لن تهرب من الواقع وما يجري فيه. في مواجهة هذا الواقع. إما ان تواجه بالكلمة أو لتصمت. الحديث عن الحب خيانة والجري وراء هموم فردية هروب. تصور ان الصمت هو الحل المريح. صمت. ولكن مرور الأيام. أكد له الرغبة في القول. في الإمساك بالقلم وتحريكه على الورق الأبيض ومحاولة سماع صريره. مبرر وجوده الوحيد. وان الرغبة في ان يجلس ويكتب أصبح الحنين لها. مثل الضنى أو الوجع الذي ليست له بداية أو نهاية. مرض من نوع غريب. ليست له أعراض. يكفيه حديثه مع الناس عنها.

وفي الأماسي. في تلك اللحظات التي يسقط فيها الليل. قطرات من الظلام البطيء. كان المؤلف لا يطيق البقاء في البيت. ولهذا كان يخرج. يهيم على وجهه في الشوارع. وفي إحدى هذه المرات التقى بعائلة المليونير. وفي لحظة الذروة. في الميدان. وهو يشاهد المليونير يعرض عائلته للبيع. ترددت في ذهنه جملة: أطفال من الغبار والوحل. من يشتري الغبار والوحل. في أيامنا؟

هدف هذا الرجل ليس البيع. وإلا كان قد فعله في صمت. وبعيداً عن أعين الآخرين. فالستر بالنسبة لنا أمر هام وحيوي. بالتأكيد الرجل له هدف آخر. دفعه للحضور.

وقف المؤلف في الميدان. حتى انتهت الأحداث. كما سنراها خلال الفصل. وأمر الرجل يسيطر عليه. قال لنفسه. سأنتظر حتى الغد. وفي الصباح، لن يكون هناك حديث للجرائد سوى هذا الحادث الفريد. والذي لم يحدث في تاريخ مصر من قبل.

في أعماق الليل. حاول ان يتذكر أين قرأ هذا الحادث. حاول التذكر

المصريـون المحدثـون: عاداتهم وشمائلهم. من تـأليف: ادوارد لـين. كتـاب يتحدث عن مصر منـذ قـرن مضى. ومـع هـذا جـرت الحـادثـة بحذافيرها فيه. رجل ضاق به الحال. وأوصله لدرجة ان عـرض أولاده للبيع في ميدان عـام. غريب أمـر هذا الشعب. الـذي يعبر عن نفسـه بطريقة واحدة. حدث يتكرر مرتين خلال قرن من الزمان.

بالتأكيد حدث هذا أكثر من مـرة. ولكن أين يجد الـدليل عليـه؟ في زمن المماليك؟ هذا جائـز. ربما حـدث في كل الأوقـات التي مرت فيهـا مصر بمجاعات وأوبئة وأزمنة قحط وجفاف. ربماحدثت في وقت غضب فيـه النيل ورفض ان يفيض عـلى أرض الوادي. لـدى المؤلف يقين ان هـذا الحادث تكـرر أكثر. التـاريخ الـذي لم يـدون في الكتب أضعـاف اللحظات القصيرة التي دونت وفي الجزء الذي لم يدون آلاف الحكايات عن أسر عرضت أولادها للبيع في ميادين عامة.

في الصباح. كانت لهفة المؤلف لقراءة الصحف اليومية الثـلاث. أو الـطبعات الثـلاث من جريـدة واحدة. لم يعش هـذه اللهفة منـذ فـترة طويلة يقرأها بالصدفة. وقد لا يقرأها أصلاً. يبدو الوضع مختلفاً اليـوم لم يتمكن من قراءتها لأنه ألقي القبض عليه. وعـرف بعد خـروجه انها تجاهلت الحادث.

بعد خروجـه وهو يتصفـح جريـدة المساء. وجـد خبراً صغيـراً. في صفحـة الحوادث. لا يـزيد عـلى أربعة أسـطر تصف ما جرى. أربعة أسـطر لا تقدم ولا تؤخـر. كان فيهـا. أهم ما كـان يبحث عنـه. اسم قسم الشرطة الذي حولت إليه العائلة. في القسم تعب واحتار. وحوله مكتب إلى آخـر. قيـل ان التحقيق حفظ في الـواقعـة. وانــه لا يمكنـه الاطلاع عليه.

قوبل بجفاء وسئل عن علاقته بالأمر وسبب اهتمامه به. والهدف من

وراء جريه. جملة واحدة التقطها خلال حواره. اعتبرهـا بدايـة الخيط. العـائلة كـانت تسكن في قبـور الـدراسـة. ومن قبـل كـانت تقيم في عـابدين. هـذا كل مـا خرج بـه المؤلف من زيارتـه للقسم. المعلومات قيلت عرضاً. ولم تكن موجهـة إليه. كان يتناقلهـا العاملون في القسم. خلال ثرثرتهم عن الحادث الذي تم التحقيق فيه. بدا له مصـير العائلة غامضاً. لأن أحداً لم يتكلم عنه.

بدأ المؤلف رحلة بحث عن العائلة. وكلما تقدم. كان يقول لنفسه: مصائب قوم، عند بعض المؤلفين فوائد. لا يتصور المؤلف مصيره لـو لم يلتق بالحادث. رحلة البحث أخرجته من حـالة الاحبـاط التي كان يمـر بها. كل يوم كان يعود إلى منزله وحالة التأهب لديه من الصعب التعبـير عنها بالكلمات. عندما كان يجلس إلى مكتبه يدرك ضخامة ما وضع يده عليه. كان يتوقف. يقول لنفسـه: ان أصعب الأمور هي الـدخول إلى جحيم الكتابة من خلال اللغة العـربية. لا يعـرف المؤلف أسباب هـذه الحقيقة. التي تبدو أقرب إلى البديهيـات. ولكنه شعـر. انها ـ أي اللغة العربية ـ مثل الأرض الزلقة. الكلمات فخاخ. والجمل متاهـات. ومن السهل ان تأخذ الكاتب إلى عوالم لم يكن يقصدها.

المؤلف يجمع مادة الرواية. ويدون بعض مشاهدها. ابتداء من شهر نوفمبر سنة ١٩٧٦. وفي مدينة مصر. القاهرة. فهل يحتمل الموقف أيـة زخرفات لغوية. كل من عاصر هذه الأيام في مصر لا بـد وان يدرك ان الواقع لم يكن يحتمل مثل هذه الزخـارف. توقف! راح يفكـر في موقفـه الصعب. جمع قدراً ضخماً من مادة الرواية. والمـوضوع بـداخله أصبح واضحـاً. ولا بد من البـدء في عمليـة الكتـابـة. ان لم يبـدأ الليلة. لن يستطيع البدء. ولكن كيف يبدأ؟

كانت مشكلته هي محاولة تحرير نفسه من تشويهات الواقـع الموروثـة

في اللغة. الكلمة مادة خام. ان استخدمها مثل الآخرين لن تمنحه ما بداخلها من طاقة. لا بد وان تطارد الكلمة الكلمة الأخرى. وفي لهاث المطاردة. يضع يده. ويضع القارىء يده معه. على ما بعد الواقع. في الجلسة. كان المؤلف يتصور انه يعرف عالمه جيداً. انه يتعامل مع هذا العالم كل يوم. والحقيقة انه لم يكن يعرف سوى الكلمات التي تتسمى بها الأشياء. كل ما في شرقنا العربي. كل الحروب، كل الثورات، كل تجارب الحياة اليومية. كل الأحباطات والاتفاقات والأحلام التي لن تتحقق، تدور في حقول الأبجدية. تسكن بيوتاً من الكلمات. ما يفعله المؤلف هو البحث عن نوع جديد من الكلمات. الكلمة المطابقة لخبرة حقيقية أصلية بالواقع. الكلمة التي تسمي الأشياء باسمائها. لكي يصبح من الممكن التعرف عليها. الكلمة التي تفتح السبيل للإحاطة بالواقع الذي تشير إليه.

المسافة طويلة ـ قال المؤلف لنفسه ـ حتى يستريح إلى الكلمة التي يعبر بها. اللغة. انها الأحرف التي يكمن فيها خطر التضليل. تضليل الإنسان والهائه عن واقعه. عندما نبدأ بتحليل الأشياء. وتحليل عالم اللغة لنحول هذا العالم إلى جزئيات صغيرة. لنقم بفحصها وإعادة صياغتها وصهرها. على نحو يجعل منها أدوات في أيدينا. بعد ان ظللنا لفترات طويلة. ونحن أدوات في أيديها.

قال المؤلف لنفسه: ان اللغة التي استعملناها من قبل. لم تمكنني من الإحاطة بالواقع إلا بشروط. لأحطم كل صور العالم التي تلوح للعين نهائية ومكتملة. ان الكلمة في الحياة اليومية. قد تكون أداة خشنة. ولكن بعد ان تنزع من الكلمة دلالاتها التقليدية. قد يصل إلى براءتها الأصلية.

قال لنفسه في مرارة. ان ما قدمته من قبل. كان صوراً شوهاء

رسمتها يد مشلولة عاجزة عن التحليق. في عمله الجديد سيتحرك المؤلف في أفق متغير باستمرار. المطلوب هو الإفلات من كل تحديد نهائي، العالم هو الحركة المستمرة. والتحرك اللانهائي. ولا بد من لغة تجعل الإنسان يسيطر على هذا العالم. لتصبح الكلمة نهراً جارفاً يحتضن في طريقه عالمنا. بكل تناقضاته أو تجانسه. الكلمة نتيجة لموقف. ولا يمكن ان تصبح سابقة عليه.

وبدأ المؤلف يكتب.

ابتعدنا عن الموقف الأساسي. ولكنه ابتعاد فرضته الظروف. سيعود المؤلف إلى الموقف العام. ولن يبتعد عنه بعد ذلك وهو يعترف. انه من ضمن العيوب التي تعاني منها الرواية. هي الاستطرادات. وترك بعض المواقف جرياً وراء أخرى. ومع إدراك المؤلف لهذا العيب. ومدى خطورته. فقد تكرر. وان كان يحاول عدم تكراره في الصفحات الباقية من الرواية.

تركنا المؤلف وسط الجماهير. التي وقفت محيطة بالعائلة في الميدان. وها نحن نعود إلى نفس الموقف، الحديث عن الناس التي وقفت في الميدان. يبدأ من سؤال. من يخرج في هذا الوقت من اليوم من منزله. ويتحرك في الشوارع؟ أنواع من البشر. لكل منهم أسبابه الخاصة. في منطقة وسط المدينة يتحول هذا الوقت من اليوم بالنسبة لمن يسكنون في الأحياء الشعبية الفقيرة. إلى نزهة من نوع نادر. إنهم يعيشون في شقق تبدو مثل علب الكبريت. لا هواء ولا ضوء ولا مكان حتى للجلوس فيه.

الحارات والشوارع مقالب زبالة. الشوارع مستنقعات للمجاري. يحضر سكان هذه الأحياء إلى منطقة جميلة مثل ميدان التحرير للتنفس والفسحة. هناك المتسكعون وهم أنواع. من يتسكع لكي يقضي وقتاً

فـائضاً لـديه. من يمشي بهـدف اصطيـاد امرأة يقضي معهـا الليل. من يرغب في شراء شيء من شوارع وسط المدينة. هناك أبناء الريف. الذين يزورون الميدان كجـزء من فرجتهم عـلى العاصمـة. والموظفـون الذين قضوا يوم العطلة في البيت وفي آخره يـودون الخروج من البيت بصـورة مغايرة لخروج كل يوم.

في مصر قـاعدة غـريبة. عنـدما يكـثر الحـديث عن الأمن والأمـان والاستقرار. يتوجس الناس خيفة. يـأخذون الكـلام على محمله الفعلي وليس الظاهري. فهو إما يقدم كمقدمة لضربة كبيرة. تعد في الخفـاء. فلا توجد جهة تعمق الديمقراطية. في بلادنا. مثل مبـاحث أمن الدولـة أو ان الحـديث عن الأمن والأمان. يعني أمن وأمـان القلة الجالسـة على قمة الهرم.

التوجس والشك والريبة. ذلـك هو الانـطباع الأول. الذي كان في نفوس الواقفـين في الميدان. الحـذر واجب. هكذا قـال أكثر من واحـد منهم لنفسـه. لم يكن الحذر واجباً في أي فـترة من الفـترات مثـل هـذه الأيام. من يدري. من الـذي يقف وراء هذه الحـركة؟ قـال واحد من الواقفين. لماذا تحدث هذه الواقعة ويناير يقف على أبـواب مصر. يدق الأبواب طالباً الأذن بالدخول. أما انها مقدمة له. أو تمثيليـة من الدولـة لإجهاض مولود كل عام. وموعدنا معه يناير.

من قبل كان يوليو هو شهر الثورات. عندما كانت هذه الثورات تتم ضد محتل أو مغتصب. هل لأنه شهر الصيف. حيث تنقل الحكومة إلى المصيف. والملك والباشوات إلى الاستراحات المبنيـة داخل ميـاه البحر؟ ربما. بعد أن أصبحت السلطة تضع على الوجه قنـاعاً تقـول إنه وطني. أصبح يناير شهر الثـورات. هل هنـاك قانـون يحكم الأمر؟ لا بـد وان هناك حكمة وراء التغيير في موعد الثورات.

صفة واحدة تجمع بين الشهرين. يوليو في الصيف. أقصى الشمال. وينـاير في المشتى. أقصى الجنـوب. حيث دفء الشمس الـذي تفتقـده القاهرة. المهم. أين يقف نوفمبر. لا هو يوليو ولا هو يناير. هل غيرت الثـورة زمانها. الثـوار الحقيقيـون هم الـذين يفـرضـون زمـان ومكـان ثوراتهم. وهم الذين يفاجئونه بالحـدث. في المفاجـأة نصف إمكانيـات النصر.

- يناير المصري يطلب الإذن بالدخول.

كانت التعليقات وردود الفعل في الميدان كثيرة.

شخص يبدو انه من أصل ريفي. ابتعد عن المكان بعد لحظات من وقوفه. قال انه فهم اللعبة كلها. وهو لا يحب ان يضحك عليـه سكان البندر إياهم. العائلة جزء من عصابة نشـل. بحثت عن أفضل السبـل للنشـل من الناس دون ان يـدروا. الـواقفـون وسط الميـدان جـزء من العصابة. وهـو الجزء الـظاهر. امـا الجزء الأسـاسي فهو الذي سيندس وسط الناس. وعندما يشتد الـزحام. تبـدأ عملية النشـل. قال انـه تم نشله ،بعد حضوره من الريف بطريقـة بالغـة الغرابـة. افتعل إثنـان من الخلق خناقة في الشارع. اندفـع ليخلصهما. وفي الحـال، اندس إثنـان آخران وبصعوبة بالغة. تمكن من فض النزاع. واحد من اللذين اندسا معـه. طلب منه ان ينصرف بحـال سبيله. من يضمن له عـدم تجدد العراك. مشى. وبعد قليل اكتشف ضياع كل ما معـه. من يومهـا وهو يخاف أي مكان مزدحم ويتصور انـه مصيدة. الهـدف منها نشـل الذين يستهويهم الزحام.

لم تكن هناك خناقة. ولكنه أكد وجود عدد آخر يعمل مع الجمـاعة. سينـطلق بعـد وصـول الـزحـام إلى أقصى مـداه. لكي يسرق وينهب الواقفين ولكي يدل الرجل على اقتنـاعه بمـا يقولـه. انصرف من مكانـه

وهو يتحسس جيوبه . ويحاول التأكد من ان شيئاً لم يسرق منه .

عـاطل وابنـه اقتربـا من المكـان أكلت الشـوارع منهـما راقـا . الابن حاف ، والرجل يرتـدي ملابس لا أحـد يعرف مـاذا يجمع بينهـا . وقفا وأطلا . تصور الأب ان هناك عملاً . يمكنهما الحصول عليه . سألا أقرب الواقفين . حكى لهما الحكاية . جزء منها عرفه من الواقف بجواره . لعب الفأر في عب الوالد . مال على ابنه وقال له انـه غير مستريح للوقـوف . يخشى ان تكون الشرطة هي التي دبـرت الحكايـة . في هذه الأيـام ينشط الكلام عن العناصر الغـريبة عن المـدينة . ويسمـع بين الحين والآخر . تفكـير في ترحيـل من ليس له عمـل ولا وظيفة . وربمـا كانت مصيـدة . المعروف ان الذي يتسكع . هو من لا عمل ولا مسكن له .

شخص ثالث سمع الأب الذي يكلم ابنه . قـرر ان يمشي . متخلف عن التجنيد . لعله يهتدي إلى وسيلة تعفيه منه . حتى يتمكن من السفـر إلى خارج البلاد . أيامه ولياليه يقضيهـا في انتظار حدوث المعجـزة . ان يعثر على منفذ يمكنه من السفر . ربما حضرت الشرطة العسكرية وطلبت من الواقفين تحديد موقفهم من التجنيد . ومن لا يحدد الموقف يأخذونـه معهم . حتى يعرفوا حكايته .

رجل متعب . ابنه مقبوض عليه في يناير الماضي . وابنه الذي يليه في انتظار يناير القادم . حتى ينال شرف اللحاق بأخيه . تساءل الرجل . أي شرف؟ ولكنها أجيال جديدة لا أحد يعرف كيف تفكـر . حاجـز ضخم بين الرجل وابنائه . مع انهما يعيشان في عصر واحد . كـل ما يعـرفه عن الابن المقبوض عليه انه محبوس . وانه منذ القبض عليـه تعقد لـه جلسة كـل ٤٥ يومـاً . يتظلّم فيهـا من قرار الحبس . ويـرفض التـظلم ويجـدد الحبس . سيحدث هذا ست مرات . هكذا قـال له المحـامي . وفي المرة السابعة مفروض ان يصدر القرار بقبول التـظلم . ولكنه لن يخـرج بعد

خمسة وأربعين يوماً أخرى. قد تعترض إحدى جهات الأمن على قرار الإفراج. وان لم تعترض يتم الإفراج عنه.

الرجل ذهنه متعب من كثرة عدد الأيام والليالي. ومعرفة مرات التظلم. ومواعيدها. حتى يصل إلى المرة السادسة. وهي لن تكون الأخيرة. فليس من المؤكد خروجه. كان الرجل يفكر في يناير القادم. الابن الآخر يتفوه بالكثير من الكلمات المخيفة. فكر الرجل في منعه من الذهاب إلى الجامعة. ولكن الحلين أحلاهما أكثر مرارة من الآخر. كان يمني نفسه بهدوء الحال في يناير القادم. الرجل متعب وظروفه قاسية وحياته مرت كالخط المستقيم الذي هو أقرب مسافة بين نقطتين. ولا يحب هذه الهزات العنيفة.

في أعماقه إعجاب خفي بالأولاد. صوت يخرج بين الحين والآخر. يهمس له. لقد فعل الأولاد ما لم يفعله، كان الرجل يسكت هذه الأصوات. لا يعطيها فرصة التعبير عن نفسها. اليوم وهو يتمشى شاهد الأمر. أدرك الأمر. دون ان يسأل أحداً. قال ان المتاعب بدأت. الموسم السنوي. الجامعات فتحت. ويناير المصري على الأبواب يدق أبواب الزمن المصري. يقتحم البيت. يأخذ دوره العادي وسط أشهر السنة. يناير شهر عادي.

قال الرجل لنفسه. لا ذنب له فيما وقع فيه. ولا ذنب له فيما قد يقع مستقبلاً. تساءل الرجل. هل لأنه أول شهر بعد الميزانية؟ ربما. أم لأنه اليوم الأول بعد ليلة رأس السنة التي تعلن الطبقات فيها عن نفسها بوضوح لا يقبل المناقشة. تلك الليلة التي تصل فيها الأمور إلى منتهاها. ثم يبدأ الفعل من اليوم التالي؟ ربما.

كان لدى الرجل قدر من الاطمئنان. سببه انه جرت في الشهر الماضي محاولة. ربما أخافت شهر يناير. تقدم رجل هام. ومعروف. في

برلمان البلاد. يطالب بتغيير اسم شهر أكتوبر ليحل مكانه اسم حقق إحدى المعجزات فيه. منذ سنوات. ان الشهر يحمل اسم أحد القادة الرومان، قال العضو في حماسة بالغة. وقد تجمعت بعض نقاط العرق على جبهته وتساءل: لماذا نستعير اسم بطل من مكان آخر؟ هل أجدبت مصر؟ هل عرف العقم طريقه إليها؟ ان هذا خطأ. يجب استبدال الاسم. لا يوجد قانون يقول ان أكتوبر يجب ان يظل اكتوبر. هناك الكثير من الأبطال. ولن يبقى اسم هذا الشهر كما هو. وقيل ان الرجل قدم اقتراحاً رسمياً بذلك. في إطار محاولة لتغيير كافة الأسماء في البلاد. سواء كانت أسماء أيام أو أشهر أو أماكن.

قال الرجل في نفسه. أشهر العام بدأت تخاف. من موجة تغيير الأسماء. كل شهر يأتي وهو يقول: اللهم مرر أيامي على خير. ستمشي الأشهر بجوار الحائط. خوفاً من موجة التغيير. الليلة طار الاطمئنان من نفسه. قال انها المقدمات التي لا تخطىء موعدها. تحدث كل عام. في نفس الزمان وبنفس الطريقة. طالت وقفة الرجل. تأمل الحال. انبثقت في ذهنه فكرة بدأت مبهمة. ثم أخذت تتضح. مادام الحال قد وصل إلى هذه الدرجة من السوء. ما دام الإنسان يباع في مزاد علني. فليفعل الابن الآخر ما يريد، انه على صواب. والرجل رغم جبل الهموم الذي يحمله فوق كتفيه. والذي يجعل حركته بطيئة. فإنه مستعد ان يقف بجوار الولدين. ليس باعتباره أباً فقط. ولكن باعتباره مؤمناً بما يفعلانه. ومعجباً به.

قرر الرجل الوقوف حتى يرى النتيجة. من قبل كان يفكر في المشي خوفاً من ان يأخذوه معهم عندما يحضر التتار وبيدهم السلاح. وفي وجوههم علامات عدم الفهم وعدم الرغبة في التواصل الإنساني.

وقفت بجواره فتاة، واحدة من بنات الليل. الأن يبدأ العمل

اليـومي. نزلت وهي نصف متحمسـة. اليوم جمعـة. والشـوارع تبـدو خالية والإقبال عليها يشتد في أوقات الزحام. شاهدت الميـدان. فقالت انه يوم جيـد. وستعود آخـر الليل ومعهـا ما يكفيهـا ليومـين قادمـين. وقفت. بمجرد ان تقرأ الإعجـاب في نظرات أحـد الواقفـين. حتى يبدأ العمل. ستبقى حتى تلتقي خيوط النظرات. وتحدث مقدمات التفـاهم الصامت. والذي يتم دونما كلمات. نظرات الرجل تعاين البضاعـة من الخارج وتستعرض المفاتن. وهي واقفة في الإنتـظار. ان يتحرك بعيـداً عن الزحام. حتى يصلا إلى شارع هادىء ومظلم. ويتكلمان. تسأله ان كان لديه مكان. وان لم يكن لديه تتولى الأمر. ان لم يتحرك. فهي التي تتحرك. وهي متأكدة انه سيسير وراءها. طـالت وقفتها. دون ان يهتم بها أحد. رغم العلامات الظاهرة والصارخة. التي تبـدو على وجههـا. والتي يعرفها الإنسان من النظرة الأولى. قـررت ترك المكـان والذهـاب إلى أمكنة أخرى. قد تكون ظروفها أفضـل. مثل أبـواب دور السينما. ومداخل المقاهي والمطاعم وفترينات المحلات المتوهجة بالضوء.

قالت ان الذي أوصـل الأسرة إلى ما هي فيـه. انها تخلو من إنسانـة جميلة مثلها. وإلا كانت قد حلت مشاكل العائلة. ولم توصلها إلى هـذا الوضع المهين. حيث يباع الإنسان.

شاب نحيل القـوام ممصوص الـوجه. غـائر الصـدغين. يضـع على العينـين نظارة ورغم صغـر سنه. إلا أن الصلع بـدأ زحفه ووصـل إلى منتصف رأسه. دس نفسه بين الواقفين. كان يبـدو انه خـارج لتوه من بين صفحات كتاب مجفف وبعيد عن الواقع. فصدم بما يراه. لأنها المرة الأولى. التي يشاهد فيها هذا الأمر على الـطبيعة. كثيراً ما يقـرأ عنها. ولكنها ظاهرة جديدة تحدث في البلاد للمرة الأولى. قـال لنفسه: كيف حدث هذا؟ وإلام يصل الأمر. قرر التوقف. ودراسة الحكاية.

قـال لنفسه: ان هـذه الأسرة تفتقد الحس الثـوري. وصلت الأسرة إلى نقطة اللاعودة. ولكن المشكلة في شكل النضـال. ان النضال ضـد النـظام القائم يتـطلب تحديـد موقف مبـدئي. وهـو هـل يتم ذلـك من داخل النظام أو من على أرض خارجه؟ ان كان النضـال لسبب جزئي. وهو الرغبة في الحصول. على سكن. فمن المعروف ان هذا المسكن يتم الحصـول عليه من داخـل النظام. في هـذه الحالـة يصبح النضـال من الداخل أمراً طبيعياً. وهو ما تحاوله الأسرة. انها في ظل بقاء النظام. كما هـو تطلب منـه ان يتفضـل ويمنحهـا مسكنـاً. مـع ان المشكلة ليست فردية. انها مشكلة عـامة. وتتـطلب من الأسرة. ومن غيرهـا الذين لا يملكـون سكناً. ان يقفـوا على أرض في مـواجهة الـدولة ثم يبـدأون في النضال مع الآخرين. من أجل حل المشكلة.

ان ما يجري يجب وضعه في مكانـه الصحيح. محـاولة فـردية الـطابع لـلإحتجاج المـرضي. الذي لم يصـل لدرجـة الثورة. من أجـل هـدف برجوازي. انـه اللعب داخل الحلبـة. ومحاولـة توجيـه بعض الضربات تحت الحزام كما يقولون في لغة الملاكمة. نوع من المـداعبة بـين الرجـل والنظام. لهذا تصـور في بعض الأوقات ان هنـاك قدراً من الاتفـاق بين الرجل والنـظام. ربما لا يكـون اتفاقـاً بالمعنى الحـرفي. ولكنه شعـر ان هناك ضوءاً أخضر. لو فعل هذا. لن تحدث أية متاعب. وهذا في حد ذاته يعد درجة من درجات الاتفاق مع النظام.

رجل متقدم في العمر. وقف متأملاً الوضـع. وقال ان رب الأسرة. ارتكب عدداً من الأخطاء التي أثرت على حـركته. الخـطأ الأول. انه لم يحضر معـه أثاث بيتـه. ويضعه فـوق الكعكة. كـان من المفـروض ان يحضر معه الكراسي والأسرة والدواليب والبوتـوجاز والأواني. ويضعهـا في الميدان. ثم يمارس حياته اليـومية. إلى ان يتم تـدبير مسكن منـاسب

له. ان وجود أثـاث بيته معه. وممارستـه لحياتـه اليومية تحت الأعين. يخـرج أحشاء الـوطن أمام الكـل. ويفتح البـاب على الشـوارع الخلفية للمدينة ويستبدل الوجه بالقفا. يجعل الكل يرى كيف يعيش الـذين في الـوحل والـتراب والغبـار. هؤلاء الـذين لا تسـترهم جـدران. هنـاك جدران من نوع آخر اخترعتها المدينة لتخفي عوراتها، انه بحياته هنـا. يكون قد نزع ورقة التوت. التي تخفي وراءها ما يراد اخفاؤه.

الخطأ الثاني: انه بمجرد وقوفه في الميـدان. فوق الكعكـة الحجريـة. ذلك المكان الذي لا نعرف له صاحباً. ولم نتفق بعد على صاحب تمثال نضعه فيه. وكـأن البلاد قـد خلت ممن يستحق ان نضع لـه تمثالاً فيـه. المفـروض على رب الأسرة. بعـد الوقـوف. ان يذهب إلى قسم شرطـة قصر النيـل. وان يطلب تحرير محضر إثبـات حالـة بوجـوده. والمحضر يعطيه الأحقية في الإقامة. وعلى المتضرر من إقامته ان يلجـأ إلى القضاء لاستصدار حكم بطرده. وسيمر عام قبـل البت في طلب الطرد. عـدم تحرير المحضر. يضعه في خانـة التعديـات على أرض الغـير بدون وجـه حق. ومحضر إثبات الحالة نوع من تقرير الأمر الواقع.

الخطأ الثالث: كان لا بد من حصوله على السلاح. حتى يـدافع عن نفسه. إذا لجأت الدولة إلى القوة. في محاولـة منها لإجبـاره على مغـادرة المكـان. الحق وحده في بـلادنا لا يكفي. الحق بـدون قوة تحميـه أكـثر ضعفـاً حتى من الباطـل. نحن في زمن القوة وحـدها تكفي. حتى وان كانت بدون حق معها. وأول أشكال القوة. هو المال. القادر على شراء حتى البشر أنفسهم.

الرجل لا يوجد معه ثمن وجبة. كـان من المفروض ان تكـون هناك قوة السلاح. واعتقد انه ليس عزيز المنال مثل الأموال.

الخـطأ الرابـع: لماذا أقـدم على تصرفـه منفرداً. بـالتأكيـد ليس هـو

الوحيد الـذي يعاني من مشكلة الإسكـان. على الأقـل لديـه قبر يعيش فيه. ولكن يوجد آلاف غيره لا يجدون القبر. بـل قد لا يجـد الآخرون القبر الذي سيدفنون فيه بعد الوفاة.لماذالم يتصل بالآخرين.ان الآخـرين يوجدون حالة من الونس. ويعطونه قدرة على الثبات. يبدو ان حركتـه عفـوية. لم تسبقهـا الدراسـات الـلازمـة. وقـد تخلو الأسرة من عقليـة متطورة. كانت تضع هذه الإعتبارات أمام نظرها. أو يبدو ان التحضير قد تم في سرية خوفاً من تسرب أية معلومات إلى أجهزة الأمن. مما قـد يؤدي إلى منع العائلة من دخول الميدان العام.

رأسمالي ضخم الجثة. يركب سيارة سدت الشارع. يقـال ان الكنبة الخلفيـة فيها. تتحـول إلى سرير في غمضـة عين. وان زجـاج الأبـواب يصبح معتماً. بعد ان يضغط على زر لديه. وهكذا تتحول السيـارة إلى مخـدع. مأمـون. والقانـون قال مؤخـراً. ان السيارة مكـان خاص. لا يجب الهجـوم عليها واقتحـامها. إلا بـإذن مسبق من النيابـة. يثبت فيه مكان تواجد السيارة. وحيث ان العربة جسم متحـرك. ومجرد تحـركها من مكانها يبطل أمر التفتيش. فهذا يجعل مضايقته مستحيلة.

وقفت السيارة وكان الميدان قد انسد بالمتفرجين عـلى العائلة. أنـزل زجـاج النافـذة. دخل هـواء الشـارع السيـارة فـأفسـد جـو التكييف. وهبطت حالة التوتـر الجنسي. التي وصل إليهـا الثري بفعـل المنشطات والـدهونـات والمثيرات. والجـو الـدافىء. والعشيقـة التي كـانت تجلس بجـواره في حالـة استعداد للجـماع، حتى آخر الليـل. كان متجهـاً إلى صحاري سيتي. لقضاء ليلة لن تحسب من العمر.

سـأل العسكري عن سبب تعـطل المـرور. عسكـري المـرور يخشى أصحاب السيارات الخاصة. بـالذات السيـارات كبيرة الحجم وفخمـة الشكـل. تلك التي تسد الشـوارع لا أحـد يعـرف من الـذي يجلس في

السيارة. حكى له العسكري الأمر، قال الرجل للعسكري انه لو اهتمت أجهزة الأعلام بقضية الرجل. وأفاضت في الحديث عنه وعن معاناة أسرته. سيمنحه شقة في إحدى العمارات التي يبنيها. بدون مقدم وبدون خلو رجل. بشرط ان تصوره الصحف اليومية الثلاث. وتقول انه تبرع بشقة مشاركة منه في حل أزمة الإسكان. والعقد سيكون إيجار شقة مفروشة. حتى يتضح الموقف بالنسبة لهذا الساكن. قد يكون مشاغباً. القانون يعطي المالك الحق في طرد من يسكن شقة مفروشة.

كرر الرجل كلامه. ان كانت تريد الصحافة المساهمة في حل مشكلة وطنية. كل المطلوب هو الحضور إليه في محله. وتصويره وهو واقف أمام المحل. حيث تظهر في الصورة ملامح المحل. الأسم والعنوان ورقم التليفون وجزء من الفاترينة الأمامية والسكرتيرة الحسناء. التي تعمل معه. وهي نفس الفاتنة التي تجلس بجواره. وسيعطي المصور مبلغاً من المال. لكي يهتم. بالصورة، الصفقة رابحة. ولن تكلفه أي شيء وهو مستعد. كلمة الشرف التي أعطاها. تساوي ألف عقد. هذا اسمه وعنوانه ورقم تليفون المكتب والمنزل والشاليه. وسيكون في الانتظار من الغد.

واستدار بعربته. وسار في طريقه. في الميدان. خلال الوقت الذي سبق وصول الشرطة تناثرت في الجو تعليقات كثيرة.

ـ لا أعرف القاهرة، تبدو مدينة مصر غريبة الليلة.
ـ وهل عرفها أحد من قبل. ؟
ـ من استطاع ان يعرف القاهرة؟
ـ كيف يعيش الناس؟
ـ من قال انهم يعيشون. انهم يبحثون عن الاستمرار. ليس مهماً

ان يكـون استمرار الـديدان. في قـاع الجراح الغـائرة. أم هـو استمرار الطيور المحلقة في الفضاء الذي كان زاهياً في الزمان الجميل.

ـ هل وصل الحال في بلادنـا لهذا الحـد؟ رجل يبيـع لحمه في ميـدان عام. خروجاً من أزمته؟

ـ ليس هـذا بغـريب. نحن نعيش في مـرحلة البيـع. الكـل يبـاع. ولكن من يشتري.

ـ يا عم الصمت أفضل. بر أمان أكيد. كل هـذا تمثيليـة من إخراج وزارة الداخلية. حتى تستخدم كغطاء للقبض على عدد من الناس.

ـ لعبة من الصحافة. قضية تشغل بها الرأي العام فترة من الوقت.

ـ لا. انها لعبة من اليسار.

ـ انـه غضب من الله ينزل عـلى سكـان وادي النيـل. عـلى الشكـل الذي يجري أمامنا.

ـ هل بهذه الطريقة المسرحية تحل المشاكل. ان هـذا لعب مسرحي. قد يصبح الـرجل نجمـاً أو ممثلاً. وقـد ينجح في التمثيـل حتى يرشـح لـلأوسكار. ولكن كـل هذا لن يحـل مشكلته. عنـدما تختلط الناس بين خشبـة المسرح وأرض الواقـع. تبدأ المـآسي والمهازل. وهـذا ما يجـري أمامنا.

عندما مرت ساعتان على بدء وصول العائلة إلى قلب الميدان. لم يكن هنـاك حـديث سـوى عن الأهرة. حضرت إلى المكـان. بعض أجهـزة الأعـلام. ومعها أجهـزة الأمن. ومندوبون عن التنظيم السيـاسي [منبر الوسط الذي أصبح حزب الـوسط. والذي كـان شعاره: «وجعلنـاكم أمة وسطاً». وتم تحويل إحدى سيارت الشرطة التي تحمل أرقاماً مدنية إلى غرفة عمليات. تنقل صورة الموقف أولاً بأول.

اتصل رجال الداخلية بمندوبيهم في الصحف والمجلات. فهم أكثر أماناً من الذين حضروا. لأنهم يكتبون ما يطلب منهم كتابته بدون زيادة أو نقصان. كان من الصعب العثور على هؤلاء الصحفيين. لأن اليوم. يوم جمعة، وهو عطلة رسمية. الضابط المسئول تصور ان الموقف لن يكون في صالحه. لا بد من حضور ولو صحفي واحد. ربما كانت هناك تعليمات بنشر شيء في صحف الغد أو بعد الغد. فماذا يكون الموقف. في هذه الحالة سيجمع مندوبي الصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون لدى الوزارة ويشرح لهم الموقف. وهم يتولون الكتابة. ولن يتأخر أحد.

مطلوب ان يكون في الميدان ولو صحفي واحد. ماذا لو حضر الوزير فجأة إلى الميدان؟ مطلوب ان تلمع آلات التصوير لحظة وصوله. فيعدل هو الجاكتة. ويبدأ في إصدار التعليمات الفورية. حتى تصدر الصحف. وفيها صور لسيادته. مكتوب تحتها: السيد الوزير. وقد انتقل بنفس سيارته إلى مكان الحادث. وأخذ يتابع تطورات الموقف أولاً بأول. الآن يصل إلى الميدان مندوبو بعض وكالات الأنباء والصحف الأجنبية. هؤلاء من الصعب ان تطلب منهم شيئاً. لأن الديمقراطية في تصورهم. مفروض ان تكون حقيقية.

نبتت في ذهن الضابط فكرة. لماذا لا يستدعي الصحفي إياه؟ الذي سهل له في الأسبوع الماضي الحصول على شقة في مصر الجديدة. لم يدفع فيها مليماً كمقدم أو خلو، سهل له الأمر. رغم معرفة الضابط. ان الصحفي له شقة. يعيش فيها منذ سنوات مع زوجته وأولاده. ولكن الرجل كان يواجه بعض المتاعب مع أسرته. وطلب هذه الشقة لكي يريح فيها أعصابه المتعبة.

قال الضابط: ان الصحفي يعمل معنا. ما من عمل طلبناه منه

وفكر قبل التنفيذ. انه فوري في العمل. ينفذ بدون مناقشة. وهذه الشقة ستكون تحت أمر الوزارة. كانت المعلومات المتوفرة لديهم. ان سبب هذه المشاكل العائلية ان الصحفي إياه. له علاقة عاطفية. بمقدمة برنامج تليفزيوني. هو الذي يعد البرنامج لها. وكانت المعلومات المتوفرة تقول. ان العلاقة ما زالت في حدود الأماكن العامة. وانها لم تتعد النظرات والكلمات والعواطف. وكانت الوزارة في حاجة لتعاون مقدمة البرنامج معهم. في بعض المهام التي لا يستطيع الصحفي القيام بها. وربما كانوا في حاجة إلى قيامها ببعض الأعمال دون مشاركة الحبيب.

كان ذلك من دوافع تسهيل حصول الصحفي على الشقة. رغم ان الطلب جاء في وقت أزمة إسكان لم تحدث. . تذكر الضابط. ان الخطاب الوارد لهم من المحافظة. والمدون عليه «سري للغاية» كان به عنوان الشقة. أحضر الخطاب من الوزارة. وأعطاه لأحد الضباط العاملين معه وطلب منه إحضار الصحفي من هذا العنوان وإحضار صديقته مقدمة البرنامج فهي معه الآن في الشقة. ويكون هنا بعد نصف ساعة.

في الشقة. اكتشف الضابط الصغير انهما معاً، الصحفي ومقدمة البرنامج. وانهما كانا في لحظة جنس لأن وقتاً طويلاً مر قبل فتح الباب. ولم يفتح الباب قبل التأكد من شخصية الطارق. والصحفي كان يبدو بملابس النوم. أما هي فقد استغرقت وقتاً أطول حتى برزت من حجرة النوم. قال الصحفي للضابط. انها كانت تتفرج على الشقة الجديدة. وانه كان يأخذ رأيها في الأثاث والديكور كصديقة. كان الضابط في غاية الإحراج. لأنه يبدو انهما كانا لا يزالان في حالة الإثارة التي تسبق الاتصال الجنسي.

في دقائق كانا في السيارة. لم يتكلم الضابط. لأن الصحفي الذي

كان يجلس معه من أكثر الناس تعاوناً مع الوزارة حتى قبل أن يلتحق الضابط بالخدمة. انه يعمل مع كافة المكاتب والإدارات. لدرجة انه كان مطلوباً ان يكون هناك قدر من التنسيق بين هذه الإدارات في التعامل معه. في السيارة فكرت الصديقة. لا بد وان الضابط سيحكي الواقعة لرؤسائه. وستكون موضع نظر. نقطة ضعف تستخدم ضدها. من يدري؟ ربما صوروها وهي في الفراش مع الصحفي. الذي أحبته بسبب علاقاته القوية بالحكومة تصورت ان العلاقة ربما ساعدتها في رحلة الصعود في عملها.

الصحفي بان الضيق على وجهه رغم محاولاته لأخفاء الضيق. لأن موضوع صديقته دخل في الجد. وهو يخشى ان يفعلوا معه. مثلما فعلوا مع الآخرين. يخاف ان يستدعيه الضابط الكبير. ويطلب منه الزواج منها. زواج عمل. من أجل المصلحة العليا للبلاد. الفتاة لم تكن عذراء. واتضح له اليوم. وهي في الفراش. انها لا يربطه بها شيء. وان كل حديثها. كان عن إمكانيات تصعيدها في العمل. من خلال الوزارة. التليفون الظريف. والاتصالات الشفهية السرية. ويصبح طريقها إلى وكالة الوزارة ممهداً. خطوات معلومة. ربما تولت رئاسة الجهاز.

قال في نفسه. ان طموح الفتاة مدمر. يجب إبعادها عن الرجال الذين يعمل معهم في الداخلية. وإلا قضت عليه. مشكلتهم عدم وجود العدد الكافي من العناصر النسائية التي تعمل معهم. الرجال عددهم كثير. أما النساء هناك شكوى. ان عملت معهم. لا يستبعد ان يكون من ضحاياها.

قطار الطموح مدمر وان انطلق من مكانه من يوقفه؟ وقعت الفأس في الرأس وعرفوها. في لحظة تجعلها ضعيفة أمامهم. وهي مستعدة لأن

تبدو بهذا الضعف. تحسر على زوجته التي تحبه بصدق. والتي تعيش بعيدة عن هذه الأجواء. وشعر بندم لأنه خلط بين العمل وأمور الحب. كان يحلم بعلاقة عاطفية رومانسية. بعيدة عن قيود الزواج. وكان يتمنى ان تتزوج الصديقة من زوج مغفل. ويبقى هو الحبيب ولا يفرق بينهما سوى الموت.

حاول الخروج من لحظة الصمت. سأل الضابط بلهفة مصطنعة عن الطريقة التي سيقدمون بها الحدث للجماهير. قال له الضابط بجفاف. انه لم يتقرر بعد تقديم الحدث للجماهير. وإحضاره والهانم وأشار للآنسة التي كانت مشغولة بإصلاح آثار المداعبات في الوجه والشفتين. يبدو انه عضها في أحد خديها. وآثار أسنانه كانت واضحة. كانت تصلح آثار العضة من خلال مرآة كانت معها.

قال الصحفي لنفسه: ما دام الضابط يتكلم بجفاف. إذن سيبلغ الأمر، لا جدوى من الكلام معه. وبعد مرور الحادث. سيعرف ماذا سيطلبون منه. وان كان من المؤكد انه سينضم إلى طابور من تزوجوا بمعرفة أجهزة الوزارة. وقد سبقه إلى ذلك عدد لا بأس به من زملائه. وهناك من تزوجوا بناء على تعليمات صادرة من أجهزة أخرى. وصل الضيق إلى مداه في نفس الصحفي.

قال لنفسه. ان الرجل الذي وقف في الميدان مع أسرته هو السبب. انه متآمر عليه. نظر إلى الصديقة. قال. ربما كان الحادث من تدبيرها. ماذا يمنع ان يكون الواقف في الميدان والدها أو عمها؟ تطمع في الزواج منه. ومنه تنطلق إلى طموحها. تبدو على وجهها الطيبة وربما السذاجة والبلاهة. ولكن ما يدريه. ماذا تخفي تحت ملامح الوجه. سأل: لو لم يفكر ذلك الرجل. الذي لا يعرف اسمه في ذلك التصرف الأحمق. ما سألوا عنه. لا يعرف السبب الذي دفعه لترك الخطاب الخاص بالشقة. آه لو

أخـذه معه. ولكن من يضمن لـه. انهم لا يعرفـون حتى عـدد قـوالب الطوب الذي بنيت به الشقة. أخلص الرجال لهم تحت الرقابة أحيانـاً. قال لنفسه هذا جهاز جهنمي. شعاره المؤكد. ان كل الناس خونة حتى يثبت العكس. في الميدان. وجد ان هناك كردوناً ضرب حول المكـان. أبعد عن مكان العائلة وتجمع الناس. مندوبو وكالات الأنبـاء العالميـة. والصحف والمجلات والإذاعات الأجنبية.

لم يسمح سوى له ولمقدمة البرنـامج بـالدخـول. شعر بخجـل. قال لنفسه. الكل سيتأكد انه يعمل معهم. تسهيل دخوله. بهدف الحصول على تقرير منه عما يجري في الداخل. وليس بهدف إفساح المجـال لعمل صحفي. اتجه إلى الضابط. وشرح له فكرته. طلب منه إحضـار بعض المراسلين كتغطية لدخوله ومقدمة الـبرنامـج، حتى يبدو الأمـر طبيعياً. كذلك ان اشتكى أحد من المراسلين الأجانب. وقال انه منع من ممارسة عمله. وكيف يحدث هذا في ظل الديمقراطية؟ يكون الرد عليـه سهلاً. يقـال له. انـه قد حضر منـدوبو وكـالات الأنباء وسمـح لهم بـدخـول الحلبة.

سأله الضـابط عن النوعيـات. التي يسمح لهـا بالحضـور ولا يسبب متاعب. بعد عمليـة حصر للواقفين. قـرروا السماح. لمندوبي وكالات الأنبـاء. من الأصـدقـاء الأعـزاء. المـراسـل الأمـريكي، الـرومـاني، الإيـراني، السعودي، المغـربي، الصيني. قرر عـدم السماح للمنـدوب السوفييتي. والدول الاشتراكية. أو الدول العربية التي تسير في فلكهـا. سـأل الصحفي: والمندوب الـبريطاني؟ قـال الضابط: هـذا الولـد أمره غريب. جلالة ملكة بريطانيا تحب مصر. ومع هذا فهو لا يفهم أصول الصداقة بين الكبار. فهو لا يرسل عن مصر سوى الأخبـار السيئة. ولا يرسل أي خبر مشرف. لن يدخله الحلبـة. وسيكتب إلى وزارة الأعلام

يقول، ان الشخص غير مرغوب فيه. ولا يجب بقاؤه في البلاد. بعد ان ثبت انه معاد:

ـ والفرنسي؟

ـ الولد جرى لعقله شيء ما. يجري وراء العملاء. من لا يتصل بالدولة مخطىء. العملاء يعزمونه في بيوتهم. سنكلم الرئيس ديستان شخصياً في أمر هذا الولد. لأنه ما دامت علاقاتنا حسنة بحكومات الدول. فلا بد وان يكون مراسلوها معنا. قلباً وقالباً.

ـ بالحق والباطل.

ـ سليم. والمطلوب ان يكونوا معنا في الباطل أكثر من الحق. المفروض ان يرجع إلينا هؤلاء الأولاد قبل كتابة أي حرف عن مصر. وان يضعوا بين أيدينا مقالاتهم قبل إرسالها. أليست هذه المقالات عنا؟ مراجعتها حق لنا. وهذا الحق لا يجب مناقشته. ومع هذا فالعيب فينا نحن. ومطلوب ترحيل أي صحفي من هؤلاء فور نشره أي مقال لا نرضى عنه.

سأله الضابط عن الصحفيين المحليين. قال له الصحفي، انه سيلقي نظرة من بعيد. ومن يسلم عليه يدخله. أما من لن يسلم عليه. لن يدخل. فهو من العناصر المعادية والتي لا تقف مع النظام بقلوبها وعقولها. اقترب الصحفي، الذي عين مساعداً لرئيس التحرير. بعد هذا اليوم. من سور الكردون. شاهد وجوهاً لا يعرفها. سأل نفسه: متى تسلل كل هؤلاء الى الصحافة؟ رحم الله الزمان الذي كان فيه كل أبناء المهنة يعرفون بعضهم بصورة شخصية. الآن كبر العدد. أصبح ضخماً مثل أية مهنة أخرى.

شاهد صحفياً يعرفه، يعمل في مجلة أسبوعية. اهتمامها بالصورة. قبل الكلام. صور ملزوقة بجوار بعضها لا يعرف الإنسان ما هي

العلاقة بينها. صحفي غامض لا يعرف أحد مع من يعمل. ولصالح من يتحرك تشاهده في كل الحفلات التي تقدم فيها الأطعمة والخمور. يحرص على الحضور قبل الموعد. ولا ينصرف إلا بعد الموعد. ومعه زوجته. وبعض أقربائه. ولديه قدرة فريدة على تناول أكبر كمية من الطعام. وشرب كميات ضخمة من الخمور. ولا يفهم سوى في الأكلات الوطنية لبعض السفارات. وليست له أية علاقة بما يجري في البلد.

يقول لك: ان الأمر الذي لا يؤثر في حياته الشخصية. ليست له أية علاقة به. سيحضره استكمالاً للديكور الديمقراطي إياه. نادى عليه وصافحه بحرارة فاتجه إليه الضابط لكي يدخله. ما تردد الصحفي في الدخول. ولكنه أشار ناحية فندق هيلتون وقال ان لديه موعد عمل. سحبه الضابط بالقوة. قال له ما دام الأستاذ قد صافحك فلا بد. من الدخول. لعن. المصافحة والأستاذ، دخل. كرر انه كان ذاهباً إلى الهيلتون. سأله الصحفي:

ـ استقبال أم عشاء؟

شعر بالسخرية في طيات السؤال رد عليه:

ـ لا هذا ولا ذاك.

ـ ماذا إذن؟

ـ عشاء جالس واستقبال واقف. ولكن المهم انني أقوم بعملية تغطية صحفية ضخمة للحفل الأول من نوعه.

انطلق يشرح. لعل الأستاذ يكلم الضابط فيتركانه يذهب إلى الهيلتون. يقيم فندق الهيلتون الليلة. حفلاً سنوياً. هو الأول من نوعه في تاريخ مصر وربما في تاريخ العالم. لكل العرسان والعرائس الذين أقاموا حفل الزفاف وقضوا شهر العسل فيه. في العام الأخير. عددهم

[٧٠٠ «سبعمائة» عريس وعروسة] عدد ضخم. ولكن الواقع الجديد. واقع الزمن السعيد. جعل لدى الناس حالة من الإقبال على الحياة. لم تحدث في مصر في أي زمن ولا في ظل أي نظام حكم. سابق أو لاحق.

العرسان موعدون لقضاء الليلة في الفندق. وينزلون في نفس الغرف التي نزلوا فيها. انها محاولة لاستعادة مذاق ليلة الدخلة. لكل الظلال الرومانسية والعاطفية التي تلون هذه الليلة. في بداية الاحتفال. سيجلسون، ليس مهماً ان يكون كل عريس بجوار عروسته. ممكن ان يحدث نوع من التبديل. كمحاولة للخروج من ملل العلاقة الزوجية القاتلة. ستقدم تورتة من ١٢ «إثني عشر» طابقاً. ومع كل واحد سكيناً. تخيل عندما تمسك ٧٠٠ يد بـ ٧٠٠ سكين مرة واحدة. وفي لحظة واحدة. تقطع التورتة.

التورتة على شكل تفاحة ارتفاعها ١٢ متراً. وفي داخل التفاحة سيكون هناك عريس وعروسة. بنفس صورة آدم وحواء. عرايا تماماً. إلا من ورقة التوت التاريخية الشهيرة. والتي تعبت إدارة الفندق شهراً كاملاً حتى حصلت على ورقة توت قديمة من النوع الذي عاصر آدم عليه السلام تكفي لتغطية العضو كله. سواء كان عضو العريس أو العروس اللذين سيكونان داخل التفاحة. وهذان العروسان اللذان دفعا أكبر مبلغ من أجل قضاء شهر العسل في الفندق.

ويعتقد الآخرون ان المبلغ تعدى الخمسين ألف جنيه. نظير الفرح وليلة الدخلة وأسبوع العسل. لأنهما قضيا بقية الشهر في أوروبا. أخرج المحرر ورقة من جيبه. وبدأ في القراءة. المفروض في هذا الحفل ان يظهر الزواج القديم. باعتباره كان أحلى مذاقاً أما الآن. فالزواج لا طعم له. لأنه لا جديد فيه. كافة الأزواج كانت تربطهم علاقات قبل الزواج. لأن الحرية التي تعيشها البلاد. تعطي الإنسان الفرصة التامة

لأن يفعل ما يشاء. في حدود القانون وسيادة القانون.

مطلوب الحديث عن السنة الأولى في الزواج. السنة التي يتعرى فيها الزوجان من الزيف الاجتماعي. سيكون هناك حديث عن أزمة الشغالات. زوج أحضر لزوجته آلة تغسل الأطباق بشكل ميكانيكي. وسيدفع المحل الذي يبيع الآلة مبلغاً ضخماً كإعلان. يقسم مناصفة بين الأسرة والمجلة. ولكن مع هذا. لا تزال الزوجة في احتياج شديد للشغالة. لأنه لا شيء يعوض الإنسان عن خدمات أخيه الإنسان. حتى لو كان الشيء آلة حديثة الصنع. لم تدخل البلاد منها. سوى آلة واحدة.

واحدة أخرى. ستقول انها ترسل الأطباق والأواني والشوك والسكاكين إلى والدتها لغسلها. لأنها لا تخرج من السرير إلا من أجل الفسح وقضاء الوقت الجميل. المشكلة التي تواجه الأسر هي ضيق البيت الحديث. متوسط عدد غرف الشقق أربع غرف. مع ان الحد الأدنى المفروض لأي شقة من المفروض ان يكون سبع غرف. غرفة نوم للزوج؛ غرفة نوم للزوجة. حيث لا يجتمعان إلا بناء على طلب أحدهما من أجل ممارسة الجنس. ثم ينام كل منهما في حجرة مستقلة. غرفة نوم للأولاد الذين سيأتون بعد فترة من الوقت. وغرفة للضيوف وأخرى للطعام. وغرفة معيشة فيها التليفزيون والراديو.

واحدة شقتها في الزمالك لا ترى النيل. وذلك عيب خطير في الشقة. جعلها لا تفعل سوى البحث عن شقة أخرى بدلاً منها. خصوصاً ان كل صديقاتها يعشن في شقق ترى النيل. قالت انها لن تشعر بطعم الزواج ما لم ترَ النيل وهي في شقتها. الأخرى تقول ان المشكلة هي العثور على شغالة تجيد أكثر من لغة أجنبية. الانجليزية بشكل أساسي. وأخرى احتياطية. لأن كافة الضيوف من الأجانب. وتكون هناك مشكلة التفاهم بين الشغالة والضيوف.

أخرى تبدو حاملاً. مع ان الزواج لم يمر عليه سوى شهرين. قالت ان الحمل تم قبل الزواج. لأنها تعرف زوجها منذ الطفولة ولا داعي للتقيد بمثل هذه الأمور القديمة. والتي عفا عليها الزمان. زوجة لا تزال تعيش في نفس الفندق. لأن شقتها لا تزال تحت رحمة الصنايعية. ولا يزال أمامهم عام حتى الانتهاء من أعمال التشطيب في الشقة. ثم ان الإقامة في الفندق ليست متعبة. انها تحل مشكلة الطعام. يكفي رفع سماعة التليفون وطلب أي شيء يكون موجوداً بعد عدة دقائق.

زميلة تكمل: هذا الوضع ليس في الفنادق. كثير من المطاعم الجديدة. تعتمد على نظام توصيل الطلبات إلى المنازل. يكفي رفع سماعة التليفون. زميلة ثالثة أكدت أنه يوجد بعض العائلات التي تعاني من ظروف مالية صعبة. تتولى عملية الطبخ في منزلها. وتحضر لك الطعام جاهزاً. الرابعة قالت ان حماتها ترسل لها الطعام وجبة بوجبة. الأربع قلن ان الزواج لا يوجد فيه شيء غير متوقع. لأن كل ما فيه فعلنه من قبل.

٨٠٪ من الزوجات حاصلات على مؤهلات عالية. ولا يعملن رغم حصولهن على المؤهلات. زوجة حصلت على إجازة بدون مرتب وبقيت في البيت. لأن المرتب لا يكفي المصاريف التي تدفعها في انتقالها من البيت إلى العمل في الذهاب والعودة. بعض الأسر الجديدة ظهرت لديها مشاكل في اليوم الأول. أسرة كانت مشكلتها إنه توجد لديها سيارة واحدة. سكاي لارك موديل هذا العام. خاصة بالزوج والزوجة. ولأن مشاوير كل منهما مختلفة عن مشاوير الآخر. ظهرت مشاكل. طلبت الزوجة شراء سيارة لها. أو فك السيارة الغالية إلى سيارتين. رفض الطلب. لأن قيادة السيارة تصيب المرأة بحالة من الخشونة. وتخصيص سائق لها. لا يضمن عدم قيام علاقة بينهما. وبين السائق. فهو مشغول عنها. ومثل هذا النوع من العلاقات شائع.

مشكلة أسرة أخرى. الزوجة تريد الإحتفاظ بصديقها القديم. الفراق صعب. ولكن الزوج رفض. لأنها لم تنم معه في سرير واحد منذ زواجهما. أعمال الأزواج: وسيط، سمسار، وكيل تجاري. شركة سياحية. بنك أجنبي. عاطل. وريث. إجازة بدون مرتب من جهة عمله. [ولا يعرف أحد ماذا يعمل ولا من أين يعيش.] موظفون في شركات جديدة لا يسمع عنها أحد.

صاحب سيارات تاكسي. مالك لشهادات استثمار. يعيش من وديعة في بنك أجنبي بالعملة الصعبة. الموظف التقليدي لا وجود له. أماكن الجلوس في الحفل. ونوعية الطعام الذي يقدم. تتحدد حسب المدة التي قضاها الأزواج في الفندق ٢٠٠ مميزون لأنهم قضوا شهر العسل و ٣٠٠ قضوا ٢٠ يوماً و ١٠٠ قضوا ١٥ يوماً و ١٠٠ أسبوع.

كل هذا كان يجري وقت وقوف المليونير وأسرته في ميدان التحرير. قال الصحفي للأستاذ. تصور. لحظة انتصاف الليل ٣٥٠ رجلاً و ٣٥٠ إمرأة في حالة مضاجعة جنسية في وقت واحد. صحيح إن كلاً منهم في حجرة خاصة. ولكن وحدة الوقت تعطي الممارسة الجنسية طعماً خاصاً.

ـ هذا إن كانوا قادرين على الفعل كلهم.

تنبه الأستاذ مندوب الوزارة.

ـ ولكن الموضوع مكتوب قبل الذهاب إلى الفندق.

قال له الصحفي:

ـ لقد اتفقت على الموضوع مع إدارة الفندق. وحصلت على المعلومات المطلوبة. وكنت ذاهباً للتصوير فقط.

ـ والعشاء؟

ـ ليس هذا مهماً.

ـ ومن الذي سيقبض ثمن نشر الموضوع؟

ـ يقبض؟

ـ يحصل الفاتورة.

لأول مرة يغضب الصحفي الذي لم يغضب من قبل. ويقول إنه لا ينفعل.

وقفا معاً. ينتظران تطور الأحداث. وكل منهما يفكر في الطريقة التي سيكتب بها الموضوع. واحد عن العرسان. نهر الجنس الجماعي. والآخر عن الأسرة التي ضاق بها الحال ففكرت في عرض نفسها للبيع. كل منهما يعد طبخته التي يقدمها للقراء. والطبخة معروفة سلفاً. مكوناتها من اللحم النتن والأخبار المحرفة وصلصة من الأكاذيب. وإطار من التعليقات التي لا يمكن تمييز بعضها عن البعض الآخر. داخل كعكة الإعلانات الجذابة. لا بد وأن يكون طاهياً ساحراً من ينتج من هذه العناصر طبقاً صحفياً مقبولاً بدون مشاكل. وكل ما ينبغي إضافته للطعام غير الحريف. الذي تقدمه صحافة الشعب بفلفل من الجنس وملح من الجريمة ويكتمل الأمر كله.

بعدنا عن الموضوع الأساسي للفصل وهو ماذا جرى للواقفين في الميدان. هذه المرة لن يعد الكاتب. بأنه لن يبتعد مرة أخرى عن الميدان. من يضمن له عدم الإبتعاد والأمور متشعبة ومتداخلة بصورة غريبة. لنعد إلى الميدان.

ماذا كان موقف الأمن من العائلة ومن الذين تجمعوا في الميدان من خلق الله؟ نعود إلى البدايات الأولى. لاحظ شرطي المرور الواقف في ميدان التحرير بطء حركة السيارات المتجهة إلى ميدان سليمان باشا والعتبة. شاهد جمعاً من الناس حول سرة الميدان. لم يهتم بالأمر. قال في نفسه. إن الأسباب التي تجعل الناس يجتمعون في مكان واحد كثيرة.

ربما مواد تموينية. قد تكون حادثة. أو خناقة بين إثنين. الناس ضاق بها الحال جداً. ولدى كل منهم رغبة في الفرجة على الآخرين.

إنه رجل مرور. وكل هذه الأسباب لا تدخل ضمن تخصصه. إن كان السبب حادث تصادم سيارتين. سيبحثون عنه ويحضرون إليه من أجل عمل اللازم. أما هو فلن يبحث عن المتاعب. ومن يرده يحضر إليه. تغاضى عن الأمر. اليوم جمعة. ولن تحدث اختناقات. ولن يمر أحد من رؤسائه في يوم العطلة. بعد قليل. حدث الإختناق الذي لم يتوقعه العسكري. تحرك من مكانه الذي كان يقف فيه. اتجه إلى مكان الزحام. ضخامته جعلته يدرك أن الأمر أكبر من مجرد حادث تصادم. أو خناقة بين إثنين. حاول معرفة الموضوع. مع أن التعليمات الثابتة لديه. إنه في حالة تجمع عدد من الناس. يكون أول عمل يقوم به تفريق الناس. ليذهب كل إلى حال سبيله أولاً. ثم يفهم الأمر. أكبر خطر أن يتجمع الناس في مكان واحد. ويجب فضهم أولاً وبكل قوة.

قال في نفسه. ربما كان حادثاً كبيراً. شعر بضيق مما ينتظره. إشارة للإسعاف. ولنقطة الشرطة. وإجراءات قد تصل إلى ما بعد منتصف الليل. لا أحد يتوقع ما يجري في قاهرة هذه الأيام. وهو في الطريق. تذكر التعليمات المستديمة. فض الناس أولاً. أي تجمع قد يكون نواة تجمهر ومظاهرات وهتافات عدائية. يجب فض الناس ومعرفة ما يجري بعد ذلك.

وصل إلى المكان. وجد تجمعاً بشرياً لم ير مثله من قبل. سأل الواقفين عن الأمر. اعتاد من قبل معرفة الأمر. كلمة واحدة تقال تلخص له الحكاية. كأن يقال: تصادم. نشل. خناقة. معاكسة. والنتيجة كانت تقال بنفس الطريقة. جريح. الحالة ليست خطرة. قتيل. جروح بسيطة. هذه المرة خاف العسكري. وصل الخوف إلى

أصابع قدميه فارتعشت داخل الحذاء الميري الضخم الذي يرتديه. والشراب الذي أصبح في سمك الجلد من عدم غسيله. جملة سمعها من أحد الواقفين هي التي سببت له المخاوف كلها:

ـ المسألة لها بعد سياسي.

مصيبة وحلت عليه. في الوزارة لا يصيبهم الرعب ألا من هذه الكلمة. سياسة. كل شيء يمكن التصرف فيه، الحوادث، المخدرات، السرقة، الدعارة، الإختلاس، النهب، الحرائق العمد، القتل. كل هذه الأمور يحققون فيها ويعرضونها على النيابة وهم يضحكون ويشربون الشاي ويدخنون ويتصلون بالتليفونات. أما السياسة. فإنها تصيب الضباط بحالة من التوتر. حتى جدران المكاتب تهتز. وتقال في أرجاء الوزارة كلها كلمة تخيف الكل:

ـ حالة طوارىء.

ما له هو والسياسة. لماذا أتت إليه في ورديته؟ كان ما سمعه العسكري في الميدان. يبدو أقرب إلى الألغاز. أسرة معروضة للبيع. عشنا ورأينا قالها العسكري. من يعش سوف يرى ما هو أكثر غرابة. الأمر جديد ولا يقع تحت أي بند من البنود المعروفة للعسكري. أسرة تعرض نفسها للبيع؟ كيف ولماذا؟ متى حدث هذا؟ هذا هو السؤال الذي سيوجه إليه. ربما قيل له. إنه ترك الأمر حتى وصل إلى هذه الصورة. وبالتالي يوقع عليه الجزاء.

راح يحاول تذكر بدايات الأمر. فاكتشف صعوبة هذا. أوشك العسكري أن يصل إلى نهاية ورديته اليوم. كان من المفروض أن يسلم ويذهب إلى بيته. وفي كل يوم. في الساعات الأخيرة من الوردية. تكون القضية التي تشغل ذهنه هي الجوع. يشعر بحالة جوع تؤثر على المفاصل وعلى قدرته على تحريك أطرافه. يجري اللعاب في فمه. فيبلع

ريقه كل ثانية. يمد لسانه. لكي يبل بـه ريقه. ينفـخ هواء فمـه. ويمد يده لكي يتلقاه ويحـاول شم رائحته. تبـدو له الـرائحة كـريهة. فيقـول لنفسه: إنها آخر أبخرة الطعام الذي أكله في الصباح.

نهار بأكمله يفصله عن اللحظة التي أكل فيها. السـاعة الأخـيرة من النوبتجية يقضيها العسكري وهو يدير في ذهنه معادلة صعبة: هل يأكل هنا. أم ينتظر لحـين العودة إلى المنـزل؟ لديـه رغبة في تنـاول الطعـام. ولكنـه لا يستطيـع الأكل في المطاعم. كل الأسعـار أصبحت في حالـة سباق مع بعضها. ربما كان الطعـام أرخص لو اشـترى الخبز من مكـان والغموس من مكان والأفضل أن يشتري هذا وذاك من الباعة الجائلين. إنهم أكثر الباعة خوفاً منه فهو يلبس ملابس الحكومة. وهذه الملابس لا تخيف سوى هذا النوع من الباعة. أما أصحـاب المحلات فينـظرون له باحتقار. يعرفون البشر وغطاه. وتـربطهم عـلاقات حسنـة برؤسـائه. ويدركون إنه يقف في أسفل السلم. في دنيا الشرطة. ولا قيمة له.

يحسبهـا في ذهنه. مـا معه لا يكفي. وتنـاولـه الـطعـام في البيت لا يكلف، سيـأكل مـع الأولاد. المرتب تـأخذه زوجتـه أول الشهـر. ولا يصل بالعائلة حتى منتصف الشهر. ومصاريفه الشخصيـة. ومصاريف البيت. في النصف الثاني من الشهر يحصل عليها من الإيراد اليومي. ما يـأخذه من أصحـاب السيارات التي تـرتكب بعض المخالفـات. وحتى هذا الإيراد قل في الفترة الأخيرة. كان العسكري يسأل: لمـاذا لا يخاف منه الناس مثلما كان يحدث في الزمان القديم؟

عندما كان يتوجـه إلى إحدى العـربات. كـان يقرأ الـرعب في عيني الـراكب. كانت لـه هيبة لا يعـرف مصدرهـا. أفندية محترمـون كانـوا يقـولون لـه حضرتك ترتجف أياديهم وهم يقـدمون لـه علبة السجـائر. فيشخط قائلاً إنه لا يدخن. فتخـرج الأموال. حتى الأمـوال كانت لهـا

قيمـة. رغم ضآلتهـا. العشرة قروش كـان يشتري بهـا العشاء وهـو في طريقه إلى البيت. الجنيـه الآن لا يكفي لشيء. وهو لا يحصـل عليه إلا نادراً.

اليوم ينظرون له باستعلاء. ضاعت الهيبـة. ولم يعد لـه نفوذ سـوى عـلى أصحاب العـربات الكـارو التي تصل إلى الميـدان بطريق الخـطأ. [وحتى هذه العربـات تنقرض]. أو سيـارات أجرة الأقـاليم. وإن دفع هؤلاء. فـالمبلغ لا يصل إليـه كامـلاً. أخرجت لـه هذه الأيـام السوداء الإختراع العجيب الذي إسمه أمناء الشرطة. أولاد في عمر أبنائه. ومع ذلـك هم رؤساؤه. كـان يتصور أنهم عـزاب لا يـوجـد لـدى أي منهم مسئوليات. تجعله يشاركه ما يحصل عليه. إنهم متعلمون. كـانوا عـلى أبواب الجامعة لولا المجمـوع لما دخلوا هـذا المعهد. هكـذا قالـوا له في الأيام الأولى للعمل معه. ولكنهم بعد هذا قاسموه ما يحصـل عليه. ثم أخذوا أكثر من النصف. لدرجة أنه بدا زاهداً في أخذ ما يحصل عليـه. ما دام لا يصل إلى جيبه. حتى النصف.

السـاعة الأخـيرة من الورديـة تبدو أكـثر صعـوبـة من العمـر. تغيم الرؤية. لا يرى الأشياء بسهولة. تتداخل المرئيات وتسري الـرعشة إلى قدميه. الجوع قاتل. يقولها لنفسه كل مساء. من قالوا إن الجوع كافر لم يجربوه من قبل. إنه قاتل وليس كافراً يفقد القدرة على الحركـة. تصيبه حالة من الفتور. ويفقد حماسه للحياة. يكثر من شرب الميـاه، يتمنى لو أن معه فائضاً من المال. حتى يشتري قطعة لبانة. يحرك بهـا فمه. حتى تنتهي الوردية. أمامه وقت طـويل حتى يصـل إلى البيت. ساعتـان من التنقـل في المواصـلات. حتى يجد أمـامه طعـامه الجـاف والذي يـدفعه الجوع إلى أكله. دون أن يفكر فيه. رغم حالته.

أصابته حالة من اليقظة عندما وجد نفسه أمام هـذا الوضـع. احتار

كيف يتصرف. ليس أمامه سوى ترك الميدان والذهاب إلى أقرب نقطة شرطة وهي نقطة التحرير. المسافة التي تفصله عنها ليست قصيرة. لا توجد معه آلة للإتصال. اللاسلكي يوجد مع أمناء الشرطة وهم يحصلون على راحة أسبوعية يوم الجمعة من كل أسبوع.

منذ ساعات لم تمر عليه. عربة المرور. لأن اليوم يوم جمعة. فلن تمر عليه. ولن يقف حتى يصل غياره. لأنه في بعض الأحيان لا يصل الغيار يوم الجمعة. حركة المرور تكون أقل. ويترك المرور بدون عسكري. اتجه العسكري إلى الضابط في النقطة. وهذا يجعلنا نعود إلى الأسرة في الميدان. حتى يصل هو إلى الضابط ويعرض الأمر عليه. سنلتقي مرة أخرى بالضابط والعسكري. في نقطة شرطة التحرير. التي تقع في شارع جانبي متفرع من شارع سليمان باشا. بعد الميدان. والآن نعود إلى الأسرة نفسها.

لفت الرواية بنا ودارت. من خلال كل الذين وقفوا حول الكعكة الحجرية. وكان المفروض أن نتكلم عن الذين يقفون بالداخل. العائلة وما جرى لها. من المتوقع القول. إن العائلة وقفت. البعض حمل اللافتات. والبعض بدون لافتات. البعض جلس من التعب. والبعض الآخر ظل واقفاً. من قبل كانوا يتصورون الأمر غاية في السهولة. الوقوف في هذا المكان فترة من الوقت. ثم تحل المشكلة يحضر إليهم من قبل الدولة من يبحث مشكلتهم. ثم يقدم لهم الحلول. ويرجوهم الإنصراف والعودة إلى البيوت التي سيحصلون عليها. ويشكرهم إنهم انصرفوا. كل ما طلبه منهم المليونير أن يبدو عليهم قدر من الحزن والإنكسار والأسى. إنهم أصحاب مشكلة لا مخرج لها سوى هذه الوقفة.

قال لهم إن الصمت التام في مواجهة أية تساؤلات أو استفسارات أو

استفزازات مهم. ولا كلمة واحدة تخرج من الفم. وإن حضر مندوب الحكومة لن يتكلم معه سوى المليونير. الإتحاد هام، إن تكلم مع أحد منهم. بدلاً من الرد عليه. يشير ناحية المليونير ويفهمه أن أي كلام يجب أن يكون مع المليونير هو القائد ورب العائلة والمسئول الأول فيها.

بعد الوقفة وترتيب الأماكن. شعر المليونير بغضب. نظر إلى العائلة بدهشة. نقصت العائلة كثيراً في هذه الحركة. الإنتقال من القبر إلى الميدان جعل العائلة تصل إلى ما هو أقل من النصف، هناك من رفض التحرك. ومن بقي في البيت. من ضاع في الطريق. ولا يعرف إن كان يعود من ضاع. أم أن ضياعه إلى الأبد. انكمشت العائلة. قل الأطفال. ضاعوا في الطريق. والشباب رفضوا المجيء. مع إنهما معاً ـ الأطفال والشباب ـ كانوا أقرب العائلة إلى نفسه. كان يقول إنهم الغد الذي ينتظره. أيامه ولت وأيامهم هي القادمة. ما يفعله من أجلهم. وجودهم هام. لأن القضية قضيتهم.

نظر إلى أفراد العائلة. مرت دقائق قبل تجمع الناس. أفراد قلائل في البداية. ثم زاد العدد مع مرور الوقت. لم يكن يتصور وصول هذا العدد الضخم من الناس. في وقت قليل. انه وقت قياسي بالنسبة لهذا العدد. نظر إلى العائلة. قال ان الفكرة نجحت والناس وصلت. والمطلوب قليل من الصبر حتى تصل الحكومة. ويحل الأمر. ما أدهشه ان بعض أفراد العائلة. بدأ يختبىء من نظرات الواقفين. كان الخجل ضيفاً غريباً على العائلة. شعُور لم يطرق حياتهم. يبدو انهم لم يتعودوا هذا العدد من الناس. ينظر إليهم. خشي ان ينصرف بعض أبناء العائلة. ان حدث هذا ضاعت خطته. ولن تصل إلى أي نتيجة. سيقف بحزم أمام أي محاولة للانصراف حتى لو وصل الأمر إلى الصدام. أخطأ عندما ترك الذين رفضوا التحرك إلى الميدان. كان يجب إحضارهم ولو

بالقوة. تركهم فبدت العائلة هزيلة. تبدو أمام الناس عائلة لها ماضٍ. ولكنها بدون حاضر ولا غد لها. سيمنع من يحاول الانصراف. ربما فشلت الحركة بسبب خلافاتهم مع بعض. ولكن ليس أمامه سوى هذا التصرف:

ـ لماذا ينظر الناس لنا بهذه الصورة؟

سؤال تردد في خاطر الواقفين. بمن فيهم المليونير صاحب الفكرة.

ـ هل حضرنا للفرجة؟

أتى السؤال متأخراً. مع انهم كان من المفروض ان يدركوا أن الحركة مسرحية. يقفون في الميدان. ويحضر الناس للفرجة. ثم تأتي الحكومة لتفض الأمر. وهنا تكون المساومة. لن نمشي إلا بعد الحصول على مسكن. ان كان موقف الحكومة ضعيفاً سنطلب علاوة على السكن وظائف وأعمالاً. وربما طلبت العائلة بعض الطلبات الأخرى من الحكومة. كل هذا يتوقف على تطورات الأمور. استقرت النظرات في النفوس. وصلت للعظام واللحم وقطرات الدماء.

ـ الأمر مهين.

نطق بها واحد من العائلة. قال ـ همساً ـ انه لم يكن يتصور انه سيعرض للبيع. مهما كان الهدف. صحيح انه يعرف ان الأمر لن يصل إلى البيع. ولكن الشيء المؤكد في الوقفة انه معروض للبيع.

ـ المهانة.

قالها أكثر من واحد لنفسه. وتصور المليونير ان اللعبة تهدد بالانتهاء. مطلوب ان يكون كل واحد من الواقفين مقتنعاً بما يحدث. وبما يقومون به. عدم الاقتناع ظاهرة خطيرة فكر المليونير في الحديث. ولكن الموقف كان دقيقاً. هو الآن يقف في أدق لحظة في اللعبة. الجماهير من الأمام.

والعائلة في الظهر. ان أعطى ظهره للجماهير قد تنصرف وقد تهجم عليه وتفتك به. وان ترك العائلة انصرفت وتركته. وانضمت للجماهير الواقفة. وبقي هو وحيداً. دون ان يقف معه أحد.

تحمل يا رجل دقائق وتصل إلى بر الأمان. قالها المليونير لنفسه. وفكر ان يقولها للآخرين من حوله. ولكن الحديث في هذا الموقف الصعب. سلاح ذو حدين. لا مفر من الصمت. مع محاولة السيطرة على الموقف. لاحظ المليونير على أفراد العائلة. علامات نفاد صبر. خشي ان تتحول إلى ضيق وتوتر وثورة. وهذا يحول الأمر إلى اتجاه آخر غير الذي كان يقصده. اعترف بإهماله لدراسة تطورات الموقف في الميدان. ودراسة احتمالات الجماهير وموقف الدولة. المهم كان دراسة موقف العائلة عندما تصل إلى لحظة الوقوف في الميدان تحت رحمة نظرات الآخرين من كل جانب. ها هي اللحظة الخطرة في الرحلة. ومطلوب وقوف العائلة وراءه كصف واحد. قوي ومتماسك وإلا ضاعت المسألة.

حكى العسكري الحكاية للضابط. الذي استمع إليها وهو ينفخ من الغضب. قال الضابط كلمتين فقط:

ـ الكعكة الحجرية.

لم يفهم العسكري. ما دخل الكعك بما جرى الليلة؟ نحن على أبواب عيد. ولكنه عيد اللحم. لأن عيد الكعك فات. قال الضابط كلمتين أخريين:

ـ خروف الضحية.

العسكري لا يشاهد الأمرين. سواء كعك العيد أو خروف الضحية منذ سنوات بعيدة، وقف الضابط وتكلم بصوت عالٍ. قال ان السبب

فيما جرى الليلة هم المسئولون عن البلد. قرر العسكري الخروج ما دام الموضوع قد غاص في بحر السياسة العميق. ما له وهذا الكلام الكبير. عظم الضابط وخرج. وقف أمام المكتب. في انتظار التعليمات. التي ستصدر له من الضابط. الذي كان يحدث نفسه. ما دام مكان التمثال خالياً. سيظل يغري كل خارج على القانون. لاستغلاله. لماذا لا يريحوننا ويقيمون عليه تمثالاً. وتوضع على التمثال حراسة طوال الأربع والعشرين ساعة.

تساءل الضابط: لماذا الخوف من إقامة تمثال في هذا المكان؟ لا بد وان هناك من له مصلحة في بقاء مكان التمثال خالياً. ربما سيقيم لنفسه تمثالاً في نفس المكان أو سيؤجره لأحد. مهما كانت الأسباب. لا بد من عدم ترك المكان خالياً. ان مرت هذه الحكاية على خير. لن يكون له عمل سوى كتابة تقارير. حتى لا يترك المكان خالياً.

قام الضابط من مكانه. قرر الذهاب إلى الميدان. ثم يجري الاتصال بالمسئولين بعد معاينة الموقف على الطبيعة، لم يتصل من المكتب بأحد من الكبار. خوفاً من إزعاجهم بدون مبرر. ربما كانت هناك بعض المبالغات من العسكري. سيتصل من الميدان. أو يعود ليتصل من المكتب. ان تمكن من فض الحاضرين سيتصل أيضاً. ليدرك المسئولون انه قام بعمل عظيم للدولة.

على باب النقطة فكر في الذهاب بسيارة الشرطة. ولكنه خشي عليها من تجمهر الناس. الوصول بالسيارة في بعض الأحيان. له الكثير من الفوائد. لأنه يدخل حالة من الرهبة في نفوس الناس. ولكن ماذا لو تحطمت السيارة؟ انها غير هامة. ولكنها رمز للدولة. وصل إلى حل وسط. سيأخذ السيارة ويتركها قبل الوصول إلى الميدان. ثم يكمل المسافة سيراً على قدميه. وصل الضابط إلى الميدان. شعر بندم انه لم

يبلغ من المكتب. الموقف أخطر مما حكاه له العسكري. ولا بد من التصرف بأقصى سرعة ممكنة.

بعد وصول الضابط الصغير إلى الميدان. حاول إبعاد الناس عن المكان الذي تقف فيه العائلة. اكتشف صعوبة هذا. جرب إجراء حديث مع العائلة. قوبل بالصمت ورفض إجراء أي حوار معه من قبل أفراد العائلة. أشاروا لشخص ما. في العائلة. قائلين انه هو الذي سيتكلم باسم الجميع. ضاعت محاولة الضابط إجراء حوار معه. بسبب الضوضاء. والأصوات الصادرة من الواقفين في الميدان.

فكر الضابط في الانتقال إلى الكعكة الحجرية نفسها. والوقوف وسط العائلة. وإجراء التفاهم المطلوب معها. ولكنه خشي ان يفسر ذلك بصورة خاطئة. قد يلتقط أحد صورة له وسط العائلة. ويقال. ان له صلة بهؤلاء المتمردين ضد العهد. لا. من الأفضل له الكلام من بعيد. طلب من جندي المرور إحضار الميكروفون الصغير الذي يستخدم وقت أزمات المرور. لكي يستخدمه في التفاهم مع العائلة.

تساءل الجندي: وهل سيعطي الرجل الواقف فوق الكعكة الحجرية ميكروفوناً؟ نهره الضابط وأمره بإحضار الميكروفون. انصرف الجندي. اليوم هو يوم الجمعة. والميكروفون لا يستخدم لعدم وجود أزمات في المرور. ولأنه لا يوجد لدى الجندي مكان. فالميكروفون يوضع في أحد أكشاك السجائر. ذهب وأحضر الميكروفون. وأحضر كرسي لكي يقف فوقه الضابط. فيبدو وسط الناس. أمسك الضابط بالميكروفون. عندما ارتفع صوته يطلب الهدوء من الواقفين. خفت الأصوات وأصبح من الممكن سماع صوته.

احتار بماذا ينادي الرجل الواقف في الميدان ماذا يقول له: هل يقول الأخ المواطن الواقف في الميدان؟ لا. هذا خطأ. لأنه ليس مواطناً. ما

دام قد خرج على العرف العام. والقانـون. فالمـواطن من المفروض ان يكون صالحـاً. وهذا التصرف يسحب منه الصلاحيـة والمواطنـة. هل يقول: انتم يا ممن أخطأتـم بذلك التصرف الغريب؟ لا هذا لا يصح. النداء سيوجد حالة من العداء. وينهي إمكانية قيام حوار.

ـ أنتم يا من هناك.

حل وسط نطق به الضابط الصغير. وفرح بالعثور على هذه الصيغـة في النداء. فهي تحل المشاكل وتجعل إمكانية الحوار سهلة.

ـ أطلب منكم إخلاء الميدان فوراً.

إستتب الصمت في الميدان. تحولت النـظرات نحو العـائلة. وبدت لحظات الصمت طويلة. مستطيلة الوجه. تحتل مساحات لا نهايـة لها. من الوقت. لم يرد الرجل فأكمل الضابط:

ـ إخلاء الميدان بالتي هي أحسن.

لم يرد الرجل. بحث الضابط عن كلمات أخرى. لأن الصمت معناه انه فشل في مهمة الاتصال. بالعائلة.

قال الضابط:

ـ ربما كانت هناك بعض الظروف. دفعتكم إلى هذا. في حالة إخلاء الميدان بسهولة وبدون متاعب. ستحل هذه الظروف.

لأول مرة يتكلم المليونير. ورغم انه لم يكن يحمـل ميكروفـوناً. فـإن صوته كان عالياً. وصل إلى الضابط. وإلى الواقفين:

ـ لنا مطالب. ولن نتحرك قبل تحقيقها.

فـرح الضابط. مـا كان يتصـور ان الأمر بهـذه السهـولـة. سيكتب تقـريراً. بعـد إلقاء القبض عـلى العـائلة. ويفيض في وصـف الميـدان. ومـدى زحام النـاس وخطورة المـوقف. وقدرتـه عـلى التصرف والحسم

ومواجهة الموقف دون إزعاج الرؤساء الكبار في يوم العطلة. ان نجحت المسألة فالترقية مؤكدة والمكافأةورفع المرتب. تحدث الضابط. وكانت في صوته رنة فرح وثقة:

ـ أعدك بشرفي بتحقيق كافة مطالبك. ان كانت عادلة.

رد المليونير كان سريعاً، لم ينتظر فترة من الوقت. حتى يتكلم. قال:

ـ شبعنا وعوداً. منذ سنوات ونحن نحيا في عالم من الوعود والأحلام، التي لم ولن تتحقق. مطالبنا واضحة. وان لم تتحقق لن نتحرك من الميدان.

تبددت أحلام الضابط في حل الأمر. الرجل عنيد ويعرف ما يريد. ومن الصعب ارضاؤه بكلمة في هذا الموقف الصعب. الضابط يعرف طلبات الرجل. سكن، قد يكون مطلبه هو الحصول على عقد الإيجار في نفس وقفته. والضابط لا يملك ان يحرر له العقد. ثم ان التراجع في حضور هذا العدد من خلق الله. سيفتح الباب أمام الكل ليتصرف بنفس الطريقة مستقبلاً.

ربما وجهوا له اللوم. لأنه تساهل. وقدم التنازلات باسم الدولة. وقد يجازى بدلاً من الترقية والرتبة والمكافأة. التي ينتظرها. والرجل لم يحدد المطالب. مسألة صعبة. والموقف دقيق ولا بد من التصرف. إما ان يواصل الحوار مع الرجل. أو ان ينهيه وينزل ليبلغ الأمر لكبار المسئولين. فقد فعل ما استطاع القيام به ولم يصل إلى نتيجة.

ـ قلت أعدك بشرفي. كل المطالب مجابة والشرف قيمة هامة في هذه الأيام. التي نعود فيها إلى نبع الأخلاق.

لم يتحدث عن عدالة المطالب. كما فعل من قبل.

ـ شرفك؟!

كان تساؤل المليونير واضحاً، فرح الضابط ورد:

ـ نعم شرفي.

تساءل المليونير:

ـ الشرف العام أم الخاص الذي تتكلم باسمه؟

استفهم منه الضابط:

ـ وضح السؤال.

ـ أقصد شرفك الشخصي أم شرف الوظيفة. شرف الفرد الذي هو أنت. أم شرف الدولة التي جئت لتمثلها؟

احتار الضابط، هل يتكلم كفرد. أم كمسئول يقوم بعمله الرسمي؟ يخشى ان يقول انه يتحدث باسم الشرف العام. فيكون قد أخطأ. وان يقول انه يتكلم باسم شرفه الشخصي فيحاسب لم يتوقف أمام الخاص والعام في مثل هذه الأمور. لا بد من التصرف. لم يواجه الضابط بموقف كهذا من قبل. ولم يفكر في الموضوع.

ـ الحقيقة ان الموضوع شائك وصعب. من الصعب فصل الخاص عن العام. هل تعرف ان التداخل بين الأمرين. قائم وان الحكاية من أولها حتى آخرها؟

قال المليونير الرجل يستعد للكذب. كلهم يتصرفون بهذه الطريقة. ما ان تجيء لحظات الكذب حتى تصيبهم حالة من التوهان. وتتوه الكلمات من الأفواه. هذا لا يحدث لأنهم صادقون. لا يعرفون فن الكذب. ولكن لأنهم لم يتدربوا بعد على الكذب اليومي.

ـ يا حضرة الضابط. ستكذب. ولن أسمعك. فاهم. أحضر لي ضابطاً يعرف بأي أنواع الشرف يعد الجياع الذين بدون سكن. من الأفضل لك ان لا تعد ما دمت لا تعرف باسم من تقدم الوعود.

سكت الضابط. بدا المليونير وكأنه كسب الجولة. قال الضابط

لنفسه: لا بد من إبلاغ القيادات. بعد القبض على العائلة. سيريها عين الحكومة الحمراء. الضرب يسكت الألسنة. يجعلها توجه الكلام إلى الداخل بدلاً من الخارج. نزل الضابط من فوق الكرسي. تراجع ووقف فوق الكرسي. لا يمكن ترك الموقف معلقاً. لا بد من كلمة. يحدد بها الموقف حتى لا تحدث مضاعفات للموقف لحين عودته.

قال:

ـ إسمع يا أخي. سأحمل مطالبك إلى الرؤساء الكبار. وسيكون الرد عندك بعد دقائق.

تساءل المليونير:

ـ مطالب؟

رد الضابط:

ـ نعم مطالبك كلها وبالحرف الواحد.

ـ وهل عرفتها؟

ـ نعم، لي وسائلي الخاصة في معرفة الأمور. حتى وان لم تقلها.

نزل الضابط من فوق الكرسي. أعطى الميكروفون لأقرب جندي له. مسح وجهه من العرق الذي كان قد تصبب عليه. وفي الناحية الأخرى قال المليونير انهم يعدون الآن المكيدة. مطلوب ان يكون هناك قدر أكبر من الحذر. الواقفون في الميدان ازدادوا تشبثاً بالوقوف. كان الحوار بين الضابط والرجل من الأمور التي لم يشاهدها أحد من قبل. شاهدوها كثيراً في السينما. تذكر كل منهم مشهداً مشابهاً. يجري بين الضابط والمجرم الذي يختبيء في مكان أمين. أو الشخص الذي أقدم على الانتحار. وليس هناك من أمل سوى إقناعه بعدم الانتحار. لا بد من معرفة كيف انتهى الأمر بين الضابط والعائلة.

انسحب الضابط إلى مكان بالقرب من الميدان. أخرج جهازاً صغيراً

كـان معه. سحب منـه سلكاً ومـده في الهواء. وعبثت أصـابعـه ببعض أزراره. تنـاهت إلى سمعه خـروشة آتيـة من بعيد. يعبث بهـا الهـواء. اقترب بفمه من الجهـاز وتكلم. لم يسمع أقـرب الواقفـين له مـا قالـه. طال الأخذ والعطاء.

والتعليـمات التي صدرت لـه كانت واضحـة. عليه البقـاء ليحـاول تأمين الموقف. عدم احداث أية مضاعفات وعدم الاحتكاك بالجماهـير. عليه إلا يحاول إجـلاء العائلة عن الميـدان بالقـوة. لأن ظروفـه لا تمكنه من هـذا. ستصله القوات في ظـرف سـاعـة. القيـادات ستصـل قبـل القوات المطلوب منه السيـطرة على المـوقف. إبقاء الأمـر على مـا وصل إليه. مع اتخاذ الإجراءات الروتينية التي تتخذ في مثل هذه الحالات.

سـاعة أخـرى من الزمـان سيقضيها في المـوقف العصيب. السيطرة على الموقف هي المطلوبة مع عدم الاحتكـاك بأحـد من الناس. مـوقف درسه من قبل. ولكن الـدراسة الـنظرية شيء ومـواجهة المـواقف شيء آخر. ساعة. ستون دقيقة. مطلـوب منه عدم الوقوف كـالمتفرج. عليـه شغل الناس والعائلة حتى تصل القيادات والتعزيـزات. مع انـه ما تمنى وصـول أحد من هـذه القيادات. كـان يريـد التصرف بنفسه. ولم يكن يريد سوى وصول التعزيزات ويتصرف هو بها. حتى يصفي حسـاباتـه مع من يقفون فوق الكعكة الحجرية. ومع السادة المتفرجين.

بمجـرد وصول القيـادات سيـترك لهم الأمـر. وينتهي دوره. يصبـح مجرد منفذ مثل أي جندي من الجنود الذين يتحركون معه. تحرك لعمل الإجـراءات الوقـائيـة. تصلب جسمـه. ونـادى عـلى جنـدي المـرور. والجندي الذي حضر معه من نقطة شرطة التحرير. وأصدر التعليمات. منع المرور في شـوارع: سليمان بـاشا، قصر النيـل، صبري أبـو علم، كوبري قصر النيل، كورنيش النيل. رمسيس ابتداء من ميـدان الشهيد

عبد المنعم رياض. إغلاق المحلات التي تشرف على الميدان. وكافة المحلات التي تقع في الدائرة التي تحيط بالميدان. وضع حراسة سرية على بعض الأماكن العامة والتي قد يسبب إغلاقها متاعب. مثل مقاهي: استرا، علي بابا، إيزافيتش. ريش. جروبي، لاباس. مكتبة مدبولي. والبنوك الواقعة في نفس الدائرة.

تم الاتصال بإدارة كهرباء حي غرب القاهرة. الذي يقع الميدان في زمامه. ربما تطلب الأمر قطع النور عن الميدان. في محاولة لتفريق الوضع اتصلوا بالمطافي والأسعاف. طلب الضابط حضور بعض السيارات بالقرب من المكان. على ان تقف في بعض الحواري والشوارع الجانبية الهادئة. بشرط ان لا يراها أحد. من الذين يقفون في الميدان. حتى لا يشتعل الغضب في النفوس.

اتصل الضابط. لتصله الأمور التي طلبها. حتى يسيطر على الموقف. الجهة التي اتصل بها. كانت شرطة النجدة. ولأن الضابط لم يكن حاضراً. وأمين الشرطة الذي يعمل معه. لا يعرف أين هو. وليس من الواجب كشف غيابه أمام القيادات. تصرف الأمين. حمل الرسالة التي وصلته من ميدان التحرير إلى مديرية أمن القاهرة. وهناك يتم التصرف. وأمام طبيعة الرسالة. وما فيها. لن يتوقف أحد للسؤال عن الضابط ولا أين هو.

أبلغ الأمين الرسالة كما وصلته. شعر الأمين بسعادة وهو يسمع حالة من الاضطراب لدى الضابط النوبتجي في مديرية الأمن. قال لنفسه ان الأمر بهذه الصورة. قد حمل على أكتاف الآخرين. وصل إلى مديرية الأمن. وهي قيادة رئيسية بالنسبة له ولغيره. كان المهم بالنسبة له انه غطى على غياب الضابط رئيسه في الوقت المخيف.

توقف أمين الشرطة أمام حالة الرجل. بدون مسكن فوقف في

ميدان التحرير. شجاع هذا الرجل. الأمين بدون سكن. يقبض أول الشهر خمسة وعشرين جنيهاً. يدفع منها إثني عشر. إيجار غرفة مفروشة في الضواحي البعيدة . لولا انه يركب المواصلات بدون مقابل لجاع من اليوم الأول في الشهر. الباقي من المرتب لا يكفيه إلا الأيام الخمسة. لولا الإيراد اليومي لما استطاع مواصلة الحياة. شعر بحسد لهذا الرجل الذي وقف في الميدان. تمنى لو وقف معه. وتمنى له ان ينتصر. ستكون واقعة تدفع الدولة لحل مشكلة كل الذين بدون سكن في المدينة.

أعلنت حالة طوارىء في مديرية الأمن. ولأن الموقف خطير. أبلغت الوزارة بهدف إبلاغ السيد الوزير شخصياً بالأمر. أياً كان المكان الذي يوجد فيه. مع ان المديرية ستقوم بعمل اللازم. أبلغت كافة الضباط. في جميع التخصصات والفروع بالحضور إلى ميدان التحرير. خرجت السيارات لتحضر المخبرين من البيوت. طلبت سيارات مطافي وإسعاف كاحتياطي من المحافظات. فتحت المكاتب. أخرجت كشوف السياسيين الذين يتم القبض عليهم بشكل روتيني. في مثل هذه الحالات. كشوف تحوي المعارضين للنظام من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. يسمى القبض عليهم مجرد إجراء وقائي. حتى تمر المتاعب. فيتم الإفراج عنهم. صدرت التعليمات بتشديد الرقابة على بعض السفارات الأجنبية. التي لا تربطها علاقات حسنة بالبلاد. ومعرفة من يخرج من هذه السفارات ومن يدخل إليها. وتشديد الرقابة على كافة المكالمات التليفونية. وإقامة رقابة على مداخل القاهرة والجيزة. ومحاولة معرفة. كافة السيارات التي تدخل المدينة وتخرج منها. حتى انتهاء الأزمة في ميدان التحرير.

صدرت التعليمات بإخراج ملفات التحريات السياسية التي تتم حالياً وتصنيف باقي الملفات. وإحضار أي معلومات عن سكان القبور

وان لم تكن المعلومات موجودة. يتم إحضار أي أفراد من رجال الشرطة سكنوا هناك. أو تكون لهم علاقات حسنة بمن يسكنون هناك. الأمر الهام كان إحضار قوات الأمن المركزي من المعسكرات في سيارات مجهزة بإجراءات. في انتظار صدور التعليمات. بالعمل الذي ستقوم به. ان كانت هناك حاجة لها.

انطلق فريق من الضباط إلى ميدان التحرير. تحت قيادة الضابط الكبير. والضابط الصغير كان في انتظارهم. وقف ناحية الشارع الذي سيحضرون منه. درس الشوارع المؤدية من مديرية الأمن إلى الميدان. وقف في شارع البستان. سيدخلون الميدان منه. كان في انتظارهم. ولكن كيف يعرف الضابط الكبير الذي سيقود العملية. سيكون أعلى رتبة في الحاضرين. تساءل: هل يحضر لواء أو عقيد أو عميد؟ لا بد وان الذي سيحضر سيكون سيادة اللواء بنفسه. ويجب عليه التوجه له بمجرد مشاهدته. ويصافحه ويقدم له نفسه. ويقول له. انه الضابط الذي اكتشف الأمر. وهو يقف هنا منذ لحظة الاكتشاف وحتى الآن. واتخذ كافة الإجراءات الوقائية ضد الحكاية. وبهذا يأخذ القطفة الأولى من الشكر.

بمجرد ان وصل فريق الضباط إلى الميدان. وعرض الضابط الصغير عليهم ما اتخذه من الإجراءات. وبدلاً من قطفة الشكر الأولى. فإن الضابط الكبير قال ان الإجراءات أكبر من الحادث. انه حادث فردي. ولا يتطلب المواجهة التي تبدو وكأنهم يواجهون دولة أجنبية وليست مجرد عائلة عزلاء من السلاح.

أصيب الضابط الصغير بحالة من الإحباط. وهو الذي كان يتصور ان الضابط الكبير بمجرد وصوله إلى الميدان سيفرح بالإجراءات ويثني على من اتخذها. ويمد يده الناعمة التي تحمل سبحة من النوع النادر.

يسبح بها اسم الله سبحانه وتعالى. ويشكره على النعمة التي هو فيها. ويربت على كتف الضابط شاكراً. وربما يأخذه معه مديراً لمكتبه. وتكون الخطوة الأولى في الصعود إلى أعلى. ولا يعود إلى النقطة التي كان يعمل بها.

كان يتصور ان الضابط الكبير سيقول له. انه مطمئن لأن وراءه رجالاً يعملون بأكبر قدر من اليقظة ولكن ها هو الضابط يحضر. وبدلاً من توجيه الشكر إليه. يلومه على ما قام به من الأعمال، أليس ذلك غريباً؟ قرر الضابط الصغير ان لا يسكت. فرصة العمر التي لن تتكرر. السكوت معناه التسليم بأنه اخطأ. وتلك مصيبة. لا بد من التصرف. سيتصرف مثل رؤسائه الكبار من الضباط. سيقول الكلام الذي يسمعه منهم في مثل هذه المناسبات من الراديو والتليفزيون.

يبدو ان الضابط الكبير متعب بسبب الحضور في يوم الراحة. ولهذا هاجم الإجراءات التي اتخذها. صمت الضابط الصغير سيبدد ما قام به من أعمال عظيمة، قال الضابط الصغير وهو يسير بجوار الضابط الكبير متجهين إلى مكان تجمع الناس. المسألة يا سيدي ليست سهلة. ربما كان وراء العمل محاولة لقلب نظام الحكم. من يدري قد يكون التجمع في ميدان التحرير. لمح نظرة غاضبة على وجه الضابط الكبير. تساءل: هل أخطأ؟ هل قال كلمة أغضبت الضابط الكبير؟ وقبل ان يعرف. صاح الضابط الكبير غاضباً.

- التجمع، التجمع. دائماً تقولون التجمع. سأطلب حذف هذه الكلمة من مفردات اللغة العربية.

أدرك الضابط الصغير. الخطأ الذي وقع فيه. قال كلمة التجمع. لعن ذاكرته لأنها لم تسعفه بحذف هذه الكلمة من مفردات حياته. قال انه لا يقصد التجمع إياه. ولكن يقصد اجتماع الناس مع بعضهم في

هذا المكان. ربما كان هذا التجمع. لم يكمل الضابط نطق الكلمة. بلع باقي أحرفها داخل فمه. قال. انه ربما كان اجتماع الناس بداية مظاهرات. عدائية صاخبة. ان الوضع الموجود أمامهم مثل البيضة قبل الفقس. لا يعرف أحد ان كان ما بداخلها فرخة أم ديك.

تساءل الضابط الكبير:

ـ الديك أم الفرخة؟

فرح الضابط الصغير. تهلل وهو يقول:

ـ لا يعرف أحد ان كان المولود سيخرج إلى الوجود وهو يقول كاكا. أم؟

تمنى ان يكمل الفكرة قبل ان تطير من ذهنه. قال ان الوضع في ميدان التحرير. مثل بطن الحامل. في اليوم الواحد والثلاثين من شهر الحمل التاسع. ولا يعرف أحد. ان كان المولود سيكون ثائراً أو من الذين يمشون جنب الحيطان.

ردد الضابط:

ـ ثائراً أو من الذين يمشون جنب الحيطان.

ازداد فرح الضابط وقال:

ـ ان الشعارات التي يرفعها الرجل. وطريقة الإخراج التي تمت تبدو أقرب إلى اليسار. إنها مؤامرة. تهدد هذا البلد الإسلامي. هذا يا سيدي تصوري المبدئي.

ردد الضابط الكبير ببطء:

ـ أقرب إلى اليسار.

وصل فرح الضابط الصغير إلى منتهاه. ها هو يشرح ويحلل ويقدم التفسيرات. والضابط الكبير يردد وراءه. كل ما قاله الضابط الكبير منذ حضوره إلى الميدان. هو الترديد. لن يتركه الضابط الكبير. سيأخذه

معه. ولكنه في هذه الحالة سيكون مستشاره لشرح وفهم وتحليل ظـواهر الشغب في الشوارع والميادين العامة. سيكون ذلك هو منطوق الـوظيفة الجديدة التي سيحصل عليها. يبدو ان القفزة إلى أعلى ستكون أبعـد مما كان يتصور.

الضابط الصغير يشعر بالامتنـان للرجل الـواقف في الميدان وأولاده. لولاهم ما فتح الله عليه بكل هذه الانتصارات. لكن الذي حدث. انه والضابط الصغير في قمة فرحـه. توقف الضـابط الكبير. قـال للضابط الذي يليه وهو يشير ناحية الضابط الصغير:

ـ ابعـدوا هذا الـولد من هنـا. إنه يهـذي. أنصحـه ان يـذهب إلى طبيب. لقد أصابه الوقوف هنا بحالة غير صحية. واستمرار وجوده هنا خطر علينا.

دون ضجة. تم إبعاد الضابط الصغير من المكان. والغريب انه تولد لديه إحساس أنه مريض. وانه لم يكن يدري بأمر مرضه، بدأت تـظهر عليـه أعـراض المـرض والهـذيـان. وعنـدمـا أركبـوه إحـدى سيـارات الإسعـاف. الواقفـة في أحد الشـوارع الجانبيـة. والتي أحضرهـا لنقـل الجرحى والمصابين. وأصبح فوق السرير. وفوقه. السقف القـريب من انفه وفمه مما أشعره بضيق في التنفس أغمض عينيه. وقال في هدوء:

ـ فعلاً. أنا مريض ولم أكن أدري.

اقترب الضابط الكبير والموكب الذي كان معه من أقرب نقطة آمنة في الميدان. وقف لدراسة الموقف على الطبيعـة. أشار عليـه بعض الضباط بالتقدم أكثر. ولكن الضابط أفهمه انهم يمثلون الدولة. وهيبته من هيبة الـدولة ولا يجب التقـدم أكثر. وافق الكـل على رأي الضـابط الكبـير. الذي أكمل انهم هنا. على الطبيعة. سيدرسون الموقف بصورة مبدئية. ثم يتجهون إلى مكان قريب. يجعلونه غرفة عمليات. كل المـطلوب ان

يكون في هذا المكان تليفون. حتى يسهل الاتصال بالجهات العليا.

نظر الضابط في الميدان. قالوا ان الأماكن التي تصلح لذلك. إما مجمع المصالح الحكومية. أو مبنى جامعة الدول العربية. أو فندق هيلتون. أو مبنى الاتحاد الاشتراكي العربي أو متحف الآثار. درسوا الأماكن بعناية. وقرر الضابط الكبير. ان يكون المكان هو أكثر بعداً عن تصورات الناس. ولهذا قرر ان يكون فندق هيلتون. يتخذونه غرفة عمليات.

الناس تتوقع ان تكون غرفة العمليات. في أمكنة الدولة. قد يتجه هجوم الجماهير إليها. أما مبنى جامعة الدول العربية. فالذي يحدث أمر داخلي. ولا داعي لجعل العرب طرفاً فيه. وان جعلناهم طرفاً. ستطول ألسنتهم ويقولون. اننا ندفع. ولكن المشكلة ان ما ندفعه لا يصل إلى الجماهير الفقيرة والمحتاجة.

هيلتون أكثر الأماكن أماناً. رد ضابط معروف بروح الفكاهة في مثل هذه المواقف. قال انه يفضل ان يكون الجناح الذي سيتحول إلى غرفة العمليات مطلاً على النيل. رد الضابط الكبير. انه كان يتمنى هذا لو ان التجم. لم يكمل الضابط الكبير نطق الكلمة التي لام الضابط الصغير لأنه نطقها. قال إنه لو أن اجتماع الناس هناك. لكان الجناح مطلاً على النيل. ولكن لا بد من ان يكون مطلاً على ميدان التحرير. وأمرهم جميعاً لله. لن يروا سوى خلق الله المشاغبين الذين يسدون عين الشمس والأتوبيسات والبيوت القديمة. التي تطل على الميدان من الناحية الأخرى. ما باليد حيلة. أبدى بعض الضباط اعجابهم بقدرة الضابط الكبير على القيادة والسيطرة. في مثل هذه المواقف الصعبة. شكر الضابط الكبير هذه الملاحظة. وقال انها خبرة السنوات الطويلة في ميدان العمل اليومي. الذي يعد أكبر مدرسة يتعلم فيها الإنسان.

وبدأت دراسة الأمر على الطبيعة.

عدد هائل من الخلق. يملأ الميدان. لو قمت برش الملح لما وصل إلى الأرض من كثرة البشر الذين يقفون عليها. يحيطون بالعائلة من كل جانب. كلما مر الوقت ازداد عدد الواقفين. بدأت علاقة بين العائلة والناس. وانتقل الناس من الفرجة السلبية إلى المشاركة التي يخشى ان تتحول إلى فرجة إيجابية. وان حدث هذا. سيكون من الصعب التنبؤ باحتمالات تطور الموقف.

بعد المعاينة. انتقل الضابط الكبير. والضباط الذين معه إلى غرفة العمليات المؤقتة. جناح في فندق هيلتون. مروا على حفل العرائس سريعاً. لعن بعضهم الوظيفة ومتاعبها. وتحسر الذين وصلوا إلى سن العجز الجنسي على شبابهم الذي ولى ولن يعود. أما الضباط الصغار. الذين لم يتزوجوا بعد. فقد تساءل كل منهم: هل يقدر على إقامة ليلة الفرح هنا؟ وقضاء شهر العسل في أحد الأجنحة الهيلتونية؟ ان كان من المرتب. فإن ذلك مستحيل. ولن يحدث إلا إذا كانت العروس غنية ولها ميراث.

اكتشف الضابط الكبير. والضباط الذين معه. صعوبة القبض على العائلة وحدها. واستحالة فصلها عن الجماهير الواقفة في الميدان. فكر البعض في وسائل لفض الجماهير. هل تستخدم القنابل المسيلة للدموع. رفض الضابط الكبير الاقتراح لعدة أسباب. أولاً العائلة ستتوه وسط هذا العدد الضخم من الحاضرين. والقبض على هذه العائلة حية أمر هام. لا بد من الحرص على حياتها. لو فقدت العائلة. أو مات بعض أفرادها. لن يعرفوا حقيقة ما جرى.

ثانياً: القنابل المسيلة للدموع أو الغازات الخانقة ستحدث حالة من الهرج والمرج. يهرب فيها الناس من الشوارع الجانبية. وهو يفكر

بصوت مسموع معهم. ان المطلوب. هو إلقاء القبض على كل من يقفون في الميدان. سواء أكان من العائلة التي هي السبب أم يقف متفرجاً. أم عنصراً مندساً. أم مهيجاً لمشاعر الجماهير. أقبض على كل من شارك في الأمر.

وفي التحقيق. ستعرف كل شيء. ان الذي لن يفيدك في التحقيق. لن يسبب لك أية أضرار. ومن يدري. ربما عرفت الحقيقة من واحد مندس. أو مجرد متفرج. ثم ان أرشفة كل هذا العدد الضخم من البشر لها فائدة. انهم الرصيد لكافة العناصر التي تعمل ضد الدولة. في الخفاء. ان تعرف من يعمل ضدك. أفضل من الانتظار. حتى يتحرك. ويعمل ضدك. ثم تعرفه. أعرفه من الآن وضعه في خاناته الطبيعية من الأرشيف. بدلاً من انتظار حدوث المفاجآت. تملكه قبل ان يمتلكك.

المفاجأة نصف الطريق إلى النصر. من يلق بسلاح المفاجأة يكن قد تخلى عنه لصالح العدو. نحن في حالة حرب مع هؤلاء الناس. ومن ستكون له اليد العليا في الأمر سينتصر وما دون ذلك كلام فارغ. وافق الكل على خطة الضابط الكبير. اقترح بعض الضباط الصغار ان يطلق اسم الضابط الكبير. ككلمة سر لتنفيذ العملية. رفض الضابط الكبير ذلك. واعتبر انه دليل شؤم. لأن من يطلق اسمه على موقعة. هي التي إستشهد فيها. وهو لن يستشهد. لأنه لن يكون هناك طوال العملية. ولن يتمكن الرعاع من اقتحام الفندق. وإلا قل على الدنيا السلامة.

اقترح أحد الضباط. ان تكون كلمة السر هي موقعة ١٩ نوفمبر ١٩٧٦. ورفض الاقتراح لأنه سيفهم منه نية الغدر. ان تسرب لأحد من الواقفين. اقترح آخر ان يكون «معركة التحرير» ضحك الضابط الكبير وقال: معركة تحرير ميدان التحرير. واعتبر تعليق الضابط الكبير

بمثابة رفض للاقتراح قال ثالث: المزاد. توقف الضابط الكبير أمام الكلمة. قال انه من حسناتها انها مختصرة. ولكنها تبدو محايدة. أضيفت لها كلمة أخرى. فأصبحت: «فض المزاد» وهكذا أصبحت الكلمة التي بمجرد ان تقال. حتى يقبض على كل الحاضرين في الميدان. ضابط آخر إقترح ان تكون جملة: من ترك الكعكة خالية؟ كلمة سر. ولكن الضابط قال انها عظيمة. ولكن الجملة طويلة.

تم التصديق على الخطة. التي وافق عليها الكل. يلقى القبض على كل من في الميدان. مهما كان سبب وقوفه. وبعد القبض عليهم تبدأ عملية الفرز. ومن تفرج عنه النيابة كان بها. ومن يدخل في القضية. تستكمل معه الإجراءات. خلال عرض الأمر على النيابة. تكون الشرطة قد وضعت يدها على الأمر. الأشخاص ومن يرتبط بهم. كان التصرف بهذه الطريقة يتطلب وجود قوات الأمن المركزي. حتى يتمكنوا من إلقاء القبض على الكل وتنفذ الخطة.

تحضر قوات الأمن المركزي. تحتل الشوارع المؤدية إلى ميدان التحرير. تسد الشوارع. تستعد للهجوم على الميدان. وإلقاء القبض على كل من يقف في الميدان. من يصعد في أحد البيوت يتم إحضاره منها. حتى لو كان من سكانها. وهذا يتطلب توزيع حراسة من المخبرين على البيوت والمحلات والمقاهي ودورة المياه العمومية المصالح والمباني التي تطل على الميدان. مثل مجمع المصالح الحكومية. جامع عمر مكرم. الجامعة الأمريكية. وزارة الخارجية. جامعة الدول العربية. فندق هيلتون. مع تشديد الحراسة على الفندق. لوجود أكبر عدد من السياح فيه. ولوجود غرفة العمليات في أحد أجنحته. كان مطلوباً معرفة من سيدخل هذه المباني وإحضاره ضمن المقبوض عليهم.

ما ان تصل قوات الأمن المركزي إلى مداخل الشوارع وتنتهي من

إجراءات إحكام السيطرة عليها وتصبح جاهزة ومستعدة للهجوم. حتى يدخل ضابط لبق. معروف عنه القدرة على الحديث في موضوع ما. ساعة على الأقل، دون ان يقول شيئاً، يشغل الناس ويشد الحاضرين ويثير انتباههم. يجري حواراً مع العائلة. ويستمر في الحوار حتى لا ينتبه أحد إلى بدء الهجوم من جوانب الميدان المختلفة. كان في الخطة بند يتضمن استخدام قنابل مسيلة للدموع ان دعت الضرورة. وطبعاً كانت قوات الأمن المركزي مسلحة. وان كان مبدأ العنف غير وارد لأنه من المتوقع ان يكون رد فعل الجماهير وقت الهجوم هو محاولة الفرار من الميدان. ولن تكون الحركة بهدف عمل مواجهة مع قوات الأمن.

تشعبت الأطراف في الميدان. ولم يكن المؤلف يتصور. ان يحدث هذا القدر من التشعب. حتى على مستوى المكان. خاصة وان الأحداث وصلت إلى أماكن أخرى بعيدة إلى معسكرات الأمن المركزي في مدينة نصر. ولكن لكي تظل الأمور واضحة في ذهن المتلقي. ولا تحدث حالة من الخلط لديه. يتوقف المؤلف. ليحدد أطراف الصراع.

هناك العائلة وما جرى لها. وجماهير المشاهدين. الذين تحولوا كما قال الضابط الذي مرض فجأة من مشاهدين سلبيين. إلى مشاركين إيجابيين. لديهم إحساس ان المصير واحد. وقوات الأمن التي بدأت في التأهب في المعسكرات البعيدة التي توجد على حدود مدينة نصر. والقيادات التي تحتل غرفة العمليات في فندق هيلتون.

هكذا تبدو أطراف الصراع. وهي في اللحظات السابقة على البدء. من المفروض ان تتحرك. وتدخل في الصراع المتوقع. وهذا ما سيجري في الصفحات المتبقية من الفصل. ولكن قبل الدخول في هذه الصراع. ألا يجب إلقاء نظرة على الطرف الجديد. الذي يدخل ميدان الرواية لأول مرة وان كان يدخل ميدان التحرير للمرة الأولى بعد الألف.

ودخول هذه القوات إلى صفحات الرواية. يتطلب ترك الميدان مؤقتاً على ما هو عليه. والانتقال إلى الحيين. السابع والسادس من مدينة نصر.

مساء الجمعة. في معسكرات الأمن المركزي النائية. هي الأوقات التي لا طعم لها. طوال الأسبوع. من حصل على إجازة ٢٤ ساعة يكن وقت عودته إلى المعسكر قد حان. وهو وقت تهجم على النفس فيه حالة من الحزن. بسبب العودة إلى المعسكرات من البلاد البعيدة. بعد إجازة صغيرة. بين الأهل والأصدقاء والأحباب. الجنود الذين لم يحصلوا على إجازة. بسبب عقوبة موقعة أو نوبتجية مطلوب القيام بها. يكون الملل قد وصل إلى منتهاه في نفوسهم. ورغم الملل فهذه لحظات سعيدة. لأنها تسبق يوم السبت. أول الأسبوع. والمفروض ان يرتدي كل منهم الشدة الكاملة. ثم يركبون السيارات وينزلون سواء أكانت هناك تشريفة أم متاعب. في بعض الأحيان ينزل رتل السيارات ولا يكون هناك عمل لهم. يلفون في الشوارع الرئيسية ويصلون إلى آخر مكان يمكن الوصول إليه في المدينة. ثم يعودون. دون ان يفعلوا أي شيء.

عندهم يصبح السؤال محرماً. والتفكير مثل قطعة الأفيون. ولكن كلاً منهم. ومن منطلق فردي. يحاول فهم. لماذا نزلوا؟ ولا تصل الأذهان إلى المعنى وراء النزول واللف في الشوارع. ان هذا يوفر حالة من الهيبة للدولة. يقول ان الحراس ها هم. مسلحون وموجودون وعلى أهبة الاستعداد ومن تسول له نفسه التفكير في أمر من الأمور معروف مصيره.

في اللحظات الأخيرة من يوم الجمعة. يفكر الجندي عن عبد العاطي في أي عمل يقضي به الجزء الباقي من اليوم. وتكون التسلية الوحيدة. هي الخروج من المعسكر. والجلوس على مقهى بالقرب منه.

وشرب الشاي وتدخين المعسل. وان سمحت الظروف المالية. يمكنه تناول بعض الأطعمة المدنية المختلفة عن الطعام العسكري. الذي لا يوجد سواه داخل المعسكرات. من لا يملكون المال. لا يكون أمامهم سوى التسكع في الشوارع. والفرجة على أرداف النساء. وصدورهن الناهدة. والأعين التي يطل منها نداء الجنس. حرمان الجندي وطبيعة الحياة الخشنة والقاسية التي يعيشها داخل المعسكر. تولد لديه الإحساس بأنه متفوق جنسياً. وانه مرغوب فيه من كافة نساء الحي.

يكثر من المشي حتى يضمن النوم بمجرد العودة إلى المعسكر. فراغ لا طعم له. يظل فارضاً نفسه حتى يصبح النوم بديله الوحيد. لا أحد يتوقع العمل في هذا الوقت. ولهذا عندما وصلت التعليمات بحشد كافة القوات الموجودة. بعد ارتدائها الشدة الواقية من الطوب. مع وضع كافة الاحتياطات على زجاج السيارات. دهش الكل. تصوروا انهم لن يتحركوا سوى الفجر. وان الهدف من التعليمات ان يكونوا مستعدين من الآن. ولكن الحركة التي دبت ناحية الحملة. وموتورات السيارات التي ارتفع صوتها. والأضواء التي بدأ السائقون في تجربتها. جعلتهم يتأكدون من جدية المسألة.

الذين عادوا من الاجازات. والذين كانوا في حالة بين النوم واليقظة في العنابر والذين كانوا في المقاهي. ومن يتفرجون على الصدور المترجرجةوالأرداف الثقيلة. كل هؤلاء تم جمعهم. وفي دقائق. كان الكل يرتدي الملابس الرسمية. والحقيقة قيلت لهم على مراحل. قيل لهم انهم ذاهبون إلى ميدان التحرير. ولأن الأغلبية العظمى من الجنود من الريف. ولا يعرفون القاهرة. ووعيهم وإدراكهم ليس يقظاً بالصورة التامة. فلم يعرفوا أين يوجد ميدان التحرير؟ وتناقشوا حول الميدان. وطبيعة العمل الذي سيقومون به فيه.

في الطريق وهم في السيارات. قيل لهم كلام عن الغوغاء. والرعاع والمشاغبين ومحاولتهم إحراق وتدمير البلد. انهم مدفوعون من أعداء البلد في الخارج. وحماية لأهلنا. للأب والأم والزوجة. والبيوت. وما فيها من البشر. يجب تأديب هؤلاء الغوغاء. لن يتعدى الأمر مجرد التأديب. كلام يقال في كل مرة. صورة عامة ليس فيها تخصيص. انهم ذاهبون من أجل حماية البيت السعيد. والزوجة. وحماية المستقبل من هؤلاء المشاغبين. البيت والزوجة والمستقبل. ما أبعد هذه الأمور عنهم الآن. لا يعرفون عن العمل الذي يقومون به سوى انه صدام. فض مظاهرات. وتفريق تجمعات. لا يقال عمن يصطدمون بهم سوى انهم من الغوغاء. كاد الأمر ان يخلو من الإثارة ومن حب الاستطلاع. لا أحد يقتنع بذلك الكلام الغامض عن الرعاع والسوقة والغوغاء ومع هذا لا بد من الذهاب لأن عدم تنفيذ الأوامر معناه المحاكمة. والسجن.

في ميدان التحرير. الضابط الكبير. والضباط الذين معه. كانوا في الانتظار. وكلما مر الوقت. شعروا أن ذلك في صالحهم وليس ضدهم. فيجب ان تتم المعركة الأساسية قرب الفجر لأن هذا معناه ان البعض يكون قد وصل تعبه إلى مداه ولن يكون هناك شهود عيان لعملية الضربة الأخيرة. وإلقاء القبض. التي تحدث وتكذب في اليوم التالي. في الصحف والمجلات.

بعد قليل لم يكن هناك ما يفعله الضابط الكبير. والضباط الذين معه. بين الحين والحين. كان هناك من يحمله آخر التقارير عن الموقف في الميدان. أصبحت التقارير باهتة تخلو من المثيرات. شعر البعض منهم بالجوع. ولكنهم انتظروا حتى يشعر الضابط الكبير بذلك. وعندما شعر نادى على ضابط الإدارة وسأله ان كانت معه مصروفات سرية من أجل العملية. وعندما أجاب الضابط. بأنه توجد مصروفات سرية.

طلب العشاء الفاخر لكل القيادات سواء الموجود منهم في الميدان. أو الذين بقوا معه في غرفة العمليات. وكذلك لقادة قوات الأمن المركزي. الذين سيحضرون. فلا أحد يعرف إلى متى يبقون في الميدان. ولا إلى متى تستمر المعركة؟

اقترح عليهم أحد الضباط الانتقال من غرفة العمليات إلى بهو صغير. يطل على فرجة من النوع النادر. حيث يوجد عدد ضخم من العرسان والعرائس. وهي فرجة لم تحدث لهم من قبل. انتقلوا. وقال بعضهم ان تناول الطعام أثناء الفرجة. على هذا الكم من اللحم الأبيض. مسألة ممتعة. كان الطعام فاخراً. أكثر جودة مما تصوروا. وكانت مساحات اللحم الأبيض تحتهم. مثيرة وشهية. وتشير بأصابع اتهام إلى عجز رجولة الرجال عن إشباع نداء النساء الجنسي.

في الميدان، كان الأستاذ لا يزال في جلسته. وان لم يمكن بمفرده. ازدحم المكان الذي يجلس فيه. هناك غيره. تنبه إلى ضرورة الوقوف في مكان مرتفع حتى يرى المشهد اشتد الزحام فوق الكبري. خشي البعض ان يقع الكبري بهم. ولأن المكان تحت الكبري لا يبدو من كثرة الخلق. فقد خشي البعض من حدوث كارثة ان وقع الكبري. لا يزال الأستاذ محتفظاً بمكان مميز. يتيح له أكبر قدر من الرؤية. لم يجد لديه الرغبة في تدوين ما يراه. بسبب حالة الزحام. وان كان ذهنه يسجل ما يجري أمامه. من أجل الكتابة في اللحظة التي سيخلو فيها إلى نفسه.

استمرار الموقف دون حل. جعله يشك في حقيقة ان والده. متفق مع الدولة. قبل القيام بالعملية. يبدو انه ظلمه. وان الرجل لم يتفق مع أحد. أهم الاكتشافات التي سجلها الأستاذ في جلسته. مدى عزلته وبعده عن الناس. لم يكن يدري مدى دفء العلاقة مع الآخرين.

«عاش الملك» كان يقف في أحد الشوارع المؤدية إلى ميدان

التحرير. قال لنفسه. انه ما كان يتصور ان الأمر قد يصل إلى هذا الحد. من قبل كان يقول ان الأمر لن يتعدى حدود اللعبة الصغيرة المحدودة. وانت لن تضر أي طرف من الأطراف المشاركة فيها. لن يشارك في أي لعب من هذا النوع بعد ذلك. من يلعب مع الأسد لن يسلم من خربشة منه. وخربشة الأسد ربما كان ثمنها ان يدفع الأنسان حياته. العائلة وصلت لحافة اليأس. ساعات مرت وهم في نفس المكان. ومع هذا لم يجر أحد نحوهم. ويقدم لهم الحل على طبق من الفضة.

نظرات الآخرين أصبحت جحيماً. لا يطاق. تمنت العائلة الهروب منه والمليونير كانت محاولته هي مواجهة هذا اليأس الذي وصل مع مرور الوقت إلى مداه. ساعده على مواجهة الموقف. تشجيع الواقفين في الميدان له. وإعجابهم بالحل الذي وصلت إليه العائلة. ما من واحد من الواقفين إلا ويعاني من مشكلة سكن. تحدث كل واحد عن مشكلته الخاصة. وقال البعض ما دام ان ما فعلته العائلة هو المخرج الوحيد. ربما فعل مثله. خصوصاً ان نجحت فكرة العائلة. ووصلت إلى حل سليم للمشكلة. فكر البعض في الوقوف مع العائلة. ولكن المليونير رفض دخول الآخرين. لأن المكان لا يتسع. ولأنه يريدها ان تبقى مشكلتهم. دون تدخلات. ما أغضب المليونير. هو ان دفء المشاركة هذا. لم يغير من أفراد العائلة. تسلل اليأس إلى النفوس وأدرك البعض منهم عدم جدوى ما قاموا به.

ثم تطورت الأمور سريعاً.

وصلت قوات الأمن المركزي. احتلت مداخل الشوارع المؤدية إلى ميدان التحرير وصل أقدم الضباط الذين قادوا القوات إلى غرفة العمليات في الفندق الفاخر. أعطى التمام بعدد القوات التي معه.

ونـوعية التسليـح الذي كـانت مسلحة بـه. وبعـد دراسـة المـوقف من جوانبه. صدر الأمر بالهجوم الشامل. المهمـة كانت محـددة. جمع هـذا العدد من الناس. وتعبئتهم في العربات ونقلهم. إلى أماكن ستحدد فيما بعـد. مع إعـطاء أهمية خـاصة لكـافـة المضبـوطـات من أوراق وآلات وقنابل وأجهزة اتصال. وتحريز الأدوات وحفظها في مكان أمين. وعمل محاضر بضبط أي منها مع جمع شهود الإثبات عـلى وجود هـذه الأدوات في نفس المكان.

طلب الضابط الكبير. إحضار مندوب من الشؤون العامة. لالتقـاط صور تاريخية لهم. وهم يقودون على الطبيعة العملية الهامة والحـاسمة. وأخـذ البيانـات المطلوبـة عن الهجوم وإجـراءات وطبيعة الخـطة. ومن وضعها ومن درسها. ومن أشرف على تنفيذها. فذلك حق طبيعي لكل صاحب جهد.

وصـدر الأمـر بـالهجـوم. وارتفـع صـوت المغني. العـظيم. أيـوب عصرنا. أيها الواقفون على حافة المذبحة.

أشهروا الأسلحة.
سقط الموت وانفرط القلب كالمسبحة.
والدم انساب فوق الوشاح.

نـزلت القوات وهجمت عـلى الميدان. من كـافة الجهـات. حـدثت حالة من الذعر والفوضى. بين الواقفين. استعملت الجـماهير أسلحتهـا الشعبيـة المعروفـة. الحصى والطوب والـزلط. وان كان وجـودهـا ليس متـوفراً في الميـدان. لا توجـد حركـة بناء. ولا عـمارات متهـدمـة. ولا عمليات رصف في الطرق. ومع هذا وجدت الجماهـير كميات منـه. لا يعرف أحد من أين كان مصدرها.

ارتفعت العصي من جانب القوات المهاجمة. كان الوقت فجراً. وهو

الوقت الذي يصل السكون فيه إلى منتهاه. في المدينة. وكان الزمن هـو الأيام الأخيرة من الخريف. وتباشير الشتاء. الذي بدأ يـدق الأبواب. ومع هذا لم ينزل الندى ولا الطل. وتبخر بـرد هذه اللحظات. بسبب حرارة وجود الجماهير وقت الهجوم. لم يهتز أحد في المدينة. النيام نيـام. والذين استيقظوا من النوم من أجل صلاة الفجر عادوا إلى النوم وحمدوا الله. بعض الشرفات أضيئت الأنوار فيها. وأطل البعض على الميدان.

من الصعب الإحـاطة بمـا جرى في الميدان الواسـع. منذ الغـروب وحتى الفجر. وهو الوقت الذي مكثته العائلة. منـذ حضورهـا. وحتى إلقـاء القبض عليهـا. من الصعب الإحـاطـة بـالكلمات التي قيلت والنظرات التي دارت في مـآقي العيـون. الأحـاسيس التي تجـولت في الصدور. لكل من وقف في الميدان أسبابه الخاصة. هناك من قرر البقاء لـيرى الأمـر حتى نهايتـه. وهنـاك من حـوصر في الميـدان ولم يستـطع الفكاك. ومن وقف حتى النهاية لأن آخر المواصلات فاتته. ولم تعد لديه أيـة وسيلة للعـودة إلى البيت. سـوى عن طـريق المشي عـلى الأقـدام. فالتاكسي أصبح ترفاً لا يقدر عليه الكثيرون. ظـل الناس في أمـاكنهم. وبعض من تعبوا من الوقوف جلسوا. شاهدوا المنظر أكثر من مـرة، لم يـطرأ عليه أي تعـديل. سيجلس لأن قـدميه تعبتـا من كثرة الـوقوف. وعندما يحدث أي جديد سيقف.

في العائلة جلس البعض فوق الكعكة الحجريـة. وبقي من يحملون الـلافتات وقـوفاً. وان كانت الأقـدام قـد تصلبت. وسرى شعـور ان الدم لا يجري بشكله الـطبيعي في العروق. وكف القـدم أصابـه تنميل يفقد الإنسان الإحساس به يحرك قدميه. يقف على قـدم واحدة ويحـرك الأخـرى التي أصبحت حـرة. حتى يصيب التنميـل القـدم التي يقف عليهـا من ثقل الجسم فـوقها. فيبـدل الوضـع. البعض نام. والبعض الذي بقي يقظاً. كان في الانتظار.

آخر اتصال تم بـالعائلة. هـو ما قـام به الضـابط. الذي تكلم عن شرفه وقال، انه ذاهب للرؤساء، ومعه مطالب العائلة التي لا بد وأن تتحقق. ذهب ولم يعـد. قال المليـونير لنفسـه. عنـدمـا تسرب الـوقت بطيئاً. والضابط لم يعد: الجو مريب. ثمة رائحة مؤامرة. تطبـخ الآن. فكـر في ان يقوم بعمـل. ولكنه كـان في الوقت الـذي لا يستطيع فيـه التحـرك: هل يمشي؟ وإلى أين؟ يتصـل بمن؟ يتكلم مـع هـذه الحشـود الضخمـة من الجمـاهـير التي تحيط بـه. يخشى ان ينقـل لهم إحسـاسـه بالفشل. فينصرف عنـه الكل. ويبقى وحيـداً. هذا العـدد من الناس يـوفر لـه حالـة من الدفء الأنسـاني. إذن ستبقى حالـة الحصـار. ولن تنتهي إلا بطلوع النهار. لن تسمح الدولة بالاستمرار في احتلال الميدان في الصباح. لأن هذا معناه ان تتعطل الحياة في المدينة.

غداً هو يوم السبت. أول أيام الأسبوع. في الساعات القليلة المتبقية لا بـد من تصرف. كـل مـا عليهم هـو الانـتـظار لحين حـدوث هـذا التصرف. وصـل التعب إلى منتهاه. حـالـة من السكـون تلف الميـدان خدشت حالة السكون هذه أصوات الميكروفونـات التي انطلقت بـآذان الفجر. خروشة وبعدهـا ينطلق صـوت المؤذن. تنبه بعض من نـاموا. فكـر البعض في البحث عن أقرب مسجـد للصلاة. اكتشفـوا ان أقرب المساجد. هو مسجد عمر مكرم. تساءلوا: وهـل تقام فيـه الصلوات؟ أم أنه خاص بالجنازات والصلاة. على المـوتى؟ كان الخـروج من داخل الميدان صعباً. بعد ان نام البعض.

استيقظ الأستاذ فزعاً. دهش لأنه نام. مع ان يقظته في أول الليـل. كانت تؤكد ان النوم لن يعرف طريقه إلى جفنيـه. ولا بعد عـام. حزن عندما شـاهد المـوقف في الميدان. قـال لنفسه: لم حضر هؤلاء النـاس؟ للنوم هنا بدلاً من بيوتهم؟ أمر محزن. ان صـاحب الحق. المظلوم. من

المفـروض ان لا يعرف النـوم طريقـاً إلى نفسه . مـا دام الظلم لم يـرفع عنه .

تساءل الأستاذ: ماهوالموقف ان حضرت قوات الأمن الآن؟ ستجد هذا العدد من النـاس. لن يكون أمـامها سـوى تعبئتهم في السيارات . ونقلهم إلى أقـرب سجن. وحتى ان لم يحضر أحد. المـواجهة مـوعدهـا الصباح . مع أول قطرات الضوء . والكل متعب من الليلة التي مضت . ومن النوم غير الإنسـاني. والتوتر والقلق والخوف. المتعب لا يستـطيع مواجهة أحد. المسألة خطأ. شعـر بإشفـاق على الكـل. إشفاقـه الأكثر كان على الذين توقفوا في الميدان بغرض الفرجة أو تضييع الوقت.

على الجانب الآخر، كان المـوقف مهيأ، عـرف الكل واجبـه. سعد جنود الأمن المركزي لن تكون هنـاك مواجهـة. البعض نيام . والبعض يجلس في هدوء، لا مظاهرات، والناس عـزل من السلاح . لـدرجة ان أكثر من جندي سأل نفسه: ماذا فعل النـاس حتى يتم القبض عليهم؟ المهمة كانت سهلة . إلقـاء القبض على هـذا العدد الضخم من النـاس وشحنـه في سيـارات النقـل القـريبـة من الميـدان. وان لم تكف هـذه السيارات. تنقل سيارات الأمن المركزي العدد الباقي .

مهمة بسيطة . أصعب ما فيها كان الانتظار كل هذا الوقت بالقـرب من الميـدان. الفجـر أذن. وهـذا معنـاه. انهم سينتهـون من المهمـة صباحاً. لن يعـودوا إلى المعسكرات لأن يـوم السبت سيكون قـد بدأ. لهم مهام يقومون بها كـل يوم . حتى لـو كانت هـذه المهام هي اللف في الشـوارع لإرهـاب النـاس العـاديـين. عمـل متصـل لأكـثر من أربـع وعشرين سـاعة، شعـروا بالضيق . ولكن اللقـاء مـع النـاس والقبض عليهم سيخفف من حـالة الكـآبة والضيق والجـوع الـذي بـدأ يعـرف طريقه إلى معداتهم. بعد السهر الطويل.

كانت هناك فرق خاصة من قوات الأمن المركزي. فيها أقوى الجنود. يقودها ضابط معروف بخلو قلبه من الرحمة. وقوته الهائلة. هذه الفرقة كلفت بأخطر المهام المطلوبة وهي التسلل إلى قلب الميدان. والوصول إلى الكعكة الحجرية. وإلقاء القبض على العائلة. قبل ان تختلط بالآخرين. وحملها بعيداً عن الناس. ونقلها إلى مكان أمين. على أن يتم هذا في الموجة الأولى للهجوم. ليس مطلوباً من الفرقة الخاصة. الدخول في معارك مع أحد من الناس. مهما حدث لها من استفزازات. المهمة محددة. إلقاء القبض على العائلة وعزلها عن الكل. والحصول على ما معها من أدوات ولافتات وأسلحة [ان وجدت] ونقلها بعيداً قبل حدوث حالة الهرج والمرج التي ستعم الميدان.

فكر أحد الضباط. في ان ترتدي الفرقة الخاصة ملابس عادية. كنوع من التنكر. أعجب الكل بالفكرة. وان كان التنفيذ في الوقت القليل المتبقي. يبدو صعباً ان لم يكن مستحيلاً. لعدم وجود الملابس. قال الضابط انه يمكن القبض على عدد من الذين في الميدان وأخذ ملابسهم منهم. واستعمالها في التخفي. ولكن الآخرين خشوا من ان عملية القبض. قد تفتح المعركة في الوقت غير المناسب.

قبل انطلاق القنبلة الأولى. ومعها عدد من الطلقات النارية في الهواء. وكان الهدف إثارة حالة من الذعر والارتباك لدى ساكني أو محتلي الميدان. كانت الفرقة الخاصة قد تسللت إلى مكان العائلة. قنبلة ورصاص وهجوم مسلح على الميدان. ها هي ساعة الجد تصل إلى الناس. تدق وجودهم المتعب. القنبلة الثانية كانت مسيلة للدموع لمواجهة بعض الجيوب التي لم تتعب من الناس. والتي لا تزال لديها قدرة على المناوشة والاشتباك. انفجرت القنبلة. وانتشر ضباب خفيف في المكان، ضابط شاب كان يقف في نفس مكان انفجارها. هي المرة

الأولى التي يشاهد فيها الموقف بصورة عملية في أرض الواقع. راح ينظر إلى وجوه الناس من حوله. سيشاهد الدموع في المآقي. مقدمة إنسانية قد توصلهم إلى حوار إنساني. بدلاً من ان تكون العلامة بالطلقات والقنابل.

دهش الضابط. فالدموع لم تنزل من المآقي. قال الضابط الشاب: إما ان القنبلة فسدت ولم تنفجر. أو ان الدمع جف في المآقي. لم يدر أين قرأ من قبل. انه عندما يجف الدمع في المآقي. ويجف صدر الرضيع من الحليب. انها من العلامات السبع لقيام القيامة. شعر بتشاؤم يتسلل إلى نفسه. وبدأ ينفذ المهام المطلوبة منه. وبالقرب منه ارتفعت يد بالعصى ونزلت فوق رأس رجل أصلع. فغاصت في تجويف الجمجمة. انطلق الدم مختلطاً باللحم ومعهما أجزاء من المخ. التصق الخليط بالعصا. فمسحها الجندي في ملابس صاحب الجمجمة الذي تسبب في تلوث العصا.

مفاجأة الهجوم وقعت. الجندي عبد العاطي بدلاً من مشاركته في ضرب الآخرين. مشى بهدوء. من آخر نقطة في الميدان. حتى وصل إلى الكعكة الحجرية. لم يتعرض لأحد من الناس. وكان الناس من ناحيتهم ينظرون له بدهشة واستغراب وعدم تصديق، عندما وصل إلى الكعكة الحجرية. وكانت العائلة لا تزال في مكانها. خلع ملابسه بهدوء وبطء لم يعرف أحد ماذا سيفعل بها. ولكنه لفها ووضع فوقها سلاحه والذخيرة التي كانت معه. ثم انضم إلى الناس في الميدان. ألقي القبض عليه وكانت التعليمات ضمه إلى العائلة المشاغبة. جريمته تساوي جريمتها.

حميت المعركة. رغم التعب والنوم والإرهاق قاوم الناس بعنف غريب. علاوة على عدم وجود سلاح معهم. ولهذا تمكنت قوات الأمن

من القبض على عدد كبير منهم. وإن كان الميدان لا يزال ممتلئاً بالناس وفي وسط الضجيج. ومن غبار المعركة. غير المتكافئة الأطراف. ارتفع صوت يغني. كلمات يقولها أحد الثوار في الميدان. كان الكل ينصت إليه. شد الصوت عزيمة الأهالي. وقلل من همة رجال الأمن. الصوت شجي والكلمات تنغرس في اللحم. تصل للقلب مباشرة تتكلم عن المنازل الأضرحة. والصباح الذي أصبح شعاراً للثأر. وعيون المحقق التي تفجر من جلد المناضل الدم والأجوبة. وعندما تصبح مدن الألف عام. مدناً للخيام. وأنين بلادي بلادي. وأحاديث الراديو البالية عن دعاة الشغب. والصوت الذي يكتسح العتمة الخابية يتغنى بغنوة ميلاد مصر الجديدة.

يطلب الثائر من أمه أن تذكره فقد لوثته العناوين في الصحف الخائنة. كان الصوت يملأ رحابة الميدان. تضايق الضابط الكبير من الصوت. أرسل بضباط صغار. لكي يقبضوا على صاحب الصوت الغريب وإحضاره إليه. لكي يقلع حنجرته بيديه. مشطوا الميدان. أوقفوا كل إنسان. سمعوا كافة الأصوات. ولكنهم لم يعثروا على صاحب الصوت القوي. ومع هذا كان الغناء مستمراً:

ـ وتسقط في الأرض حنجرة مخرسة.
معها يسقط إسمك يا مصر في الأرض.
لا يتبقى سوى الجسر المهشم..
والفرحات على الساحة الدامسة.
دقة الساعة الخامسة.

حاصرهم الغناء. ولم يعثروا على صاحب الصوت. عادوا إلى الضابط الكبير. قالوا له إن الصوت لجني. أتى من أغوار الزمن القديم. مع مرور الوقت. كان الصوت يزداد علواً. يصل إلى الكل

رغم الصخب والضجيج والصراخ. يصل في وضوح تام. يتسلل تحت الجلد. يدخل في الدم. فشل كل الضباط في العثور على صاحب الصوت.

والمغنون في الكعكة الحجرية ينقبضون وينفرجون.
كقبضة قلب.
يشعلون الحناجر، يستدفئون من البرد والظلم القاسية.
يرفعون الأناشيد في أوجه الحرس المقترب.
يشبكون أياديهم الغضبة البائسة.
لتصير سياجاً يصد الرصاص.
الرصاص «وآه» يغنون:
«نحن فداؤك يا مصر، نحن...».

كلما كان الصوت يرتفع. كانوا ينظرون في السماء. يفتشون في الحناجر. يمشطون الأرض. ولكنهم لم يعثروا عليه. ما أدهش الضابط الكبير. أن مصادر الصوت تعددت. أتت من أكثر من اتجاه واحد. صاح في ضباطه. قال إنه يوجد أكثر من صوت. ذلك لأنهم فشلوا في العثور على صاحب الصوت الواحد. فخرج لهم أكثر من صوت. من يدري ربما غنى كل من في الميدان. وفي هذه الحالة لن يعرف أحد كيف يتصرف إزاء حصار الأصوات هذا..

أذكريني إذا نسيتني شهود العيان.
ومضبطة البرلمان.
وقائمة التهم المعلنة.
والوداع.
الوداع.
دقت الساعة الخامسة.
ظهر الجنود دائرة من دروع وخوذات حرب.

ها هم الآن. يقتربون رويداً رويداً.
يجيئون من كل صوب.

وفي نادٍ ليلي، قريب من الميدان. وقف أحد السكارى. وقال إنه من رجال العصر. وبعد أن وضع ورقة بألف دولار. [كانت تعليمات النادي أن تكون النقطة بالدولار فقد ولى عصر الجنيه المصري] في بطن الراقصة. قيل إنه غرسها في سرتها. وإن جزءاً كبيراً من الورقة دخل في تجويف اللحم حول السرة. ثم «دلق» زجاجة ويسكي تحت قدميها. وقرر أن يخطب في الحاضرين. وقف في منتصف الدائرة الضيقة. في المكان الذي تسلط عليه الأضواء الحمراء الفاتنة وأمسك بالميكروفون المتحرك. وقال وكانت الراقصة تهتز على أنغام كلماته. قال.

ـ عصابة السادة تناديكم، عصابة السادة تناديكم، عصابة السادة تناديكم، دعونا نسرق في هدوء، دعونا نسرق في هدوء، دعونا نسرق في هدوء.

وفي ميدان التحرير. سقط شهيد. رفض ركوب سيارة الشرطة. اقتادوه حتى السيارة. وكان يقف في أول طابور طويل. عند السلم رفض الركوب. لو تركوه لن يركب أحد. والطابور طويل. آخره في الميدان. دفعه الجندي برأس البندقية الخشبي في رأسه. ما كان يتصور أن الدفعة قاتلة، نزل الدم من فم الشاب. تمايل وسقط. أنزله تحت السلم الخلفي للسيارة. وتحرك الذي بعده صاعداً السيارة. وقال الجندي لنفسه. إن الأوامر التي صدرت له هي السبب. لو فشل في جعله يركب السيارة لحول إلى محكمة عسكرية. سالت بركة الدماء. ولفت حذاءي الجندي من كل ناحية. تضايق الجندي لأن الدم جف سريعاً. رفع قدماً. فوجد مكانه خالياً وسط الدماء. قال في نفسه.
ـ لعنة الله على الأوامر، وعلى من يصدرونها.

رفع القدم الأخرى. فوجد نفس العلامات. قال:

ـ إلى متى أقوم بمهمة الجلاد والجزار لأهلي؟

وفي أحد بارات فنادق الدرجة الأولى. التي تعمل طول الليل. موظف سابق ارتشى وفصل من عمله. وفتح مكتباً للتصدير والإستيراد. اقترب من مسئول كبير يضرب بتواضعه الأمثال. يقول إنه يذهب إلى الأماكن العامة ليعرف رأي الناس. إنه يتخفى مثلما كان يفعل هارون الرشيد في بغداد.

اقترب الموظف الذي يحمل وسام مرتش سابق من الطبقة الأولى من المسئول الكبير وقال:

ـ لدي مشكلة يا سيدي.

انبسطت أسارير الموظف الكبير. الرزق يدق الأبواب:

ـ قلها وسأحلها لك. لا عمل لنا سوى حل مشاكل الجماهير في هذا الزمان.

ـ استوردت رسالة من التفاح الذي حرمت منه البلاد ربع قرن من الزمان.

ـ عظيم. من الظلم حرمان الشعب من التفاح. من حقه أن يأكل التفاح.

ـ ولكن في الجمارك قالوا إن الرسالة فاسدة.

ـ لم؟

ـ عند الكشف عليها وجد أن.

ـ القرار طبعاً خاطىء.

ـ ظلم. إنهم متآمرون على البلاد. إن إعدام الرسالة يعد ضربة لسياسة الإنفتاح الإقتصادي. أنا أخشى على سمعة البلاد. إن الرسالة

عبارة عن أربعة آلاف طن من التفاح الأمريكاني. الذي كان ممنوعاً ومحرماً في مصر. وهذا معناه أنها تكفي ٤ ملايين مواطن من الغذاء الكامل لمدة ٢٤ ساعة لا يأكلون شيئاً سوى التفاح. إعدام الرسالة مؤامرة على ٤ ملايين مصري. يمكنهم العيش على التفاح لمدة يوم كامل. تصور مدى الحرمان الذي سيحدث في هذه الحالة. إن الظلم ليس موجهاً ضدي. ولكنه ضد أربعة الملايين شخص الذين سيحرمون من التفاح. ربما يكون فيهم مريض لن يشفيه سوى التفاح. وربما إمرأة حامل تتوحم على تفاحة.

ـ ولماذا لم تتصرف معهم؟

ـ لا أعرف أحداً فيهم. موظفون جدد. جادون يتكلمون كثيراً عن صحة الشعب.

ـ كم كلفك الكيلو؟

ـ ثمانين قرشاً.

ـ إذن بع الرسالة لي.

ـ تحت أمرك يا سيدي المسئول الكبير.

ـ بكم تبيع الكيلو؟

ـ أوامر سيادتكم مطاعة.

ـ سأشتري الكيلو بأربعين قرشاً.

ـ ولكني أخسر كثيراً.

ـ أنت حر. أنا أحاول حل مشكلتك.

ـ إذن وافقت.

ـ لن أدفع لك مليماً واحداً.

ـ موافق.

ـ بعد حل مشكلة الجمارك والإفراج عن الرسالة. ستشتريها أنت مني.

ـ بكم؟

ـ بعد النفقات التي سأدفعها للإفراج عن الرسالة. خاصة بعد أن عقدت أنت المشكلة. سأبيع لك الكيلو بجنيه.

ـ وبكم أبيعها؟

ـ هل ستلعب عليّ؟ التفاح غير مسعر. بعها بجنيه ونصف الكيلو.

ـ موافق.

ـ إذهب وتسلم الرسالة. ما إن تذهب إلى الجمارك حتى تكون التعليمات هناك.

ـ والرسائل القادمة؟

ـ سأصدر تعليماتي. إن الكشف على المواد التموينية المستوردة سيتم في عرض البحر. فوق البواخر. لأن التصرف يكون أسهل. وحتى إن فشلت محاولات التصرف معهم. فإن الأمر يكون قد تم خارج حدود البلاد. وفوق سفينة أجنبية لا نملك حق اقتحامها ولا ضبط ما يجري فوقها. حتى وإن كانت محاولة للرشوة فالأخلاق الدولية تحرم هذا. وبذلك ترشو ولكن بعيداً عن أرض مصر الطاهرة.

ـ برافو. برافو. برافو.

ولأن المسئول حصل على رزق الليلة. قام وانصرف من المكان. وقال لنفسه: من كان يتصور أن هذه الأيام رزقها بهذه الضخامة؟

وفي هذا الوقت، يستيقظ الذين ناموا وهم جياع على لحم البطن. يقولون إنهم يكملون عشاءهم نوماً. وهم الجياع الدائم. وما إن تصل الساعة إلى الرابعة صباحاً. حتى يستيقظوا من النوم. ليس لأنهم شبعوا منه. فالجائع لا يعرف النوم. ولكن لأن قرصة الجوع. تصبح مؤلمة لدرجة استحالة النوم معها. الإستيقاظ يتم في وقت لعين. الدنيا

نائمة. والبيت خالٍ من الطعام. وحتى يشرق النهار وتفتح المحلات أبوابها. يدورون في البيت يبحثون عن قطعة خبز جافة يبست من كثرة نسيانها. أو بقايا طعام. وفي بعض الأحيان. يفتحون الأبواب. ويحضرون صفائح الزبالة. التي أخرجوها أمام الشقق. يجدونها مقلوبة وكل ما فيها ـ إن كان فيها شيء ـ مبعثر من عبث القطط والكلاب بما فيها طوال الليل. مع إنهم خرجوا بهدف العثور على أي طعام في هذه الصفائح. وضعوه خطأ فيها. لا يجدون فيها طعاماً. لأنها كانت فارغة. أو أن ما فيها أكلته القطط والكلاب الضالة.

وفي شارع الهرم. وقف واحد من المقاولين. أعجبته راقصة جديدة. كانت تعمل وصيفة لراقصة قديمة. أعجب بها. فقرر أن يقدم لها نقوطاً لم يحدث من قبل. سأل عن آخر تقليعات النقوط. فقيل له. إن ثرياً عربياً قدم النقوط بالأمس على شكل شيك مصرفي مسحوب على بنك انفتاحي جديد. يعمل لمدة ٢٤ ساعة في اليوم. وقالوا له. إن مندوب البنك كان يقف في الصالة فصرف له الشيك فوراً. وإن البنك المذكور ينوي فتح فرع له في كل ملهى ليلي. حتى يستفيد من هذه الطريقة في تقديم النقوط صاح المقاول إن ذلك لن يحدث لأنه سيضع الآن تقليداً أكثر حداثة في تقديم النقوط. سيصنع عقداً من النقود الورق. من كافة عملات العالم. ويتوج به الراقصة بعد الإنتهاء من رقصتها.

وفي حي الشرابية. قال سكان الحي إنهم عند العودة من صلاة الفجر. وقع العقار رقم ٢١٩ في شارع الالايلي. وإنهم شاهدوا البيت وهو يقع. ولم يمكنهم إنقاذ أحد من السكان. والساكن الوحيد الذي نجا من الموت. كان صاحب البيت. وهو صاحب مكتب سفريات سياحي. وقد نجا. لأنه كان يقضي الليلة. عند زوجته الثالثة وهي

تسكن في باب الشعرية. وقد ذهب إليهـا، رغم إنه كـان من المفروض أن يقضي هذه الليلة في الشرابية. وهكذا. حتى البيوت القـديمة تجـامل الأغنياء.

وفي ميـدان التحريـر. كانت المعـركة مستمـرة. القبض على الـذين كانوا في الميدان مستمر. هرب من هرب. ومن ألقي عليه القبض وضع في سيـارات الأمن المركـزي. الجرحى حملتهم سيـارات الإسعـاف إلى المستشفيـات. ووضعوا تحت الحـراسة فيهـا. والشهداء من الـطرفين. نقلوا إلى مشرحة زينهم. ووضعت جثثهم تحت حراسة مشددة.

وبعد تحميل من كانوا في الميدان في السيارات. امتـلأت السيارات. ثم استغلت سيـارات الأمن المركـزي التي امتلأت. ولم يبق فيهـا مكان لجندي واحد. وبقي السؤال: كيف تعود القوات إلى المعسكرات؟ كان هناك اقتراح ان تذهب السيارات بمن فيهـا. إلى المكان الـذي سيذهب الذين قبض عليهم إليه. ثم تعـود لحمل الجنـود. رفض الاقتراح. لأن المكان بعيد والصباح على الأبواب والمفروض ان لا يشـاهد أحـد قوات الأمن المركزي هنا. لأنها شاهد الإثبات الوحيد عـلى ما جـرى. لم تكن هنـاك سيارات تكفي لكي تحضر لأخـذ الجنود. وكـان الحـل ان تعـود القـوات على الأقـدام حتى المعسكرات سـواء في الدراسـة أو في مـدينـة نصر. بشرط ان تتم الرحلة على شكل مجموعات وتحت قيادات مسئـولة ولا تقل هذه القيادات عن رتبة ضابط. في الطريق، قال جندي:

ـ آخر خدمة الغز علقة.

رد عليه آخر:

ـ آخر علق الغز، علقة ومشوار.

لم يهتم بهما أحد. والضـابط الذي بقي مـع الجنود الـذين سيعودون إلى الميدان مشياً عـلى الأقدام. كـان الهدف من بقـائه هـو التحفظ على

الجنود لحين العودة إلى المعسكرات. وهكذا تمت رحلة عكسية من وسط المدينة وحتى أطرافها. رحلة مليئة بالغرائب. كان المؤلف يريد ان يثبتها. ولكنه لن يتمكن من ذلك. لأن هذا الفصل طال أكثر من اللازم. ولأن القارىء يريد متابعة أحداث العائلة التي وقفت في الميدان. تعرض نفسها للبيع. لن يقول أكثر من ان قوات الأمن عادت وقت الضحى. لتستعد لعمل يوم جديد.

وفي ميدان الحسين. وقف الجياع بعد صلاة الفجر في انتظار ان يخرج من المسجد ثري عربي. على الرأس عقال وعلى الجسد جلباب أبيض. وفي الانتظار سيارة طولها عشرة أمتار. يخرج الأموال من الجيوب الكثيرة. يرميها لهم. انتظروه ألف ليلة وليلة ولكنه لم يخرج. وفي هذه الليلة. ظلوا في أماكنهم حتى أغلق المسجد أبوابه. وأطفئت الأنوار ولكنه لم يخرج. فقرروا الانتظار حتى الليلة القادمة.

وفي أحد المساجد القديمة. قام واحد من النيام على صوت حركة غير عادية بجواره. فاكتشف ان الرجل الذي بجواره يضاجع زوجته. ملاءة السرير التي تفصل بينهما كانت قديمة وبها ثقوب كثيرة. شاهد مؤخرة الرجل العارية وفخذي المرأة المرتفعين من ثقوب الملاءة. فاستعاذ بالله. وقال لنفسه: هل نسي الرجل اننا في مسجد؟ وان المكان طاهر؟ ولكنه له عذره. أين سيفعل هذا؟. ولكن الرجل لم يستطع العودة إلى النوم. لأن حركة الجسدين أثارته.

في الناحية الأخرى من صحن المسجد. كان هناك عدد من أبناء الحي يصلون الفجر، لفت نظر الإمام. أنه لا يوجد بين المصلين واحد من سكان الناحية الأخرى من صحن الجامع قال في نفسه انها ظاهرة غريبة. قرر محادثة سكان المسجد في الأمر. المفروض انهم أول من يصلي. تساءل عن السبب في هذا. هل هو سوء الحال؟ وقعت بيوتهم

ولم يجدوا ملجأ سوى هنا، أم ان هناك سبباً آخر لذلك.

ألقي القبض على العائلة بسهولة. أخذت إلى مكان خاص. عوملت بحذر. ولكن بعد اكتشاف حقيقة حالها. تحولت المعاملة إلى العنف. السجن كان انفرادياً. كل واحد منهم في مكان بمفرده. قال المليونير لنفسه:

ـ من القبر إلى الزنزانة، مصير غريب.

بدأوا الحديث مع بعضهم عبر الزنزانات. بالدق على الجدران وضرب الأقدام في الأرض. والكلمات المتطايرة في الهواء. ما أدهش المليونير كان الصلابة التي تجلت في كلماتهم. قال لنفسه: انها صلابة تأتي بعد فوات الأوان. شك في أنه كان يعرف أفراد عائلته. كان سعيداً بالتطور الذي حصل لهم. قبل دقائق كان يخاف مما سيقال في التحقيق. ولكنه الآن مطمئن. لن يتمكن أحد من الضحك عليهم. في الوقت المناسب تحرك معدنهم الأصيل. من الآن سيتعامل الكل مع عائلة جديدة ولكنه فكر:

ـ هل كانت الخطوة صواباً؟

فكر في أمر الذين رفضوا الحضور معه. ألم يكن موقفهم هم الأصح من موقفه هو؟ فعلاً. ليس بمثل هذه الحركات المسرحية تحل المشاكل وتصفى الهموم. اخطأ. وهو الآن يدفع ثمن الخطأ. ومن يدري احتمالات المستقبل لقد فتح على نفسه باباً من المستحيل سده. من الآن لن تكون له سيطرة على الأحداث. ستصبح حياته ردود فعل. لن يحصل على سكن أو خلافه طالما انه فصل عن دفء الآخرين. راح ذهنه يبحث عن الخطأ الذي وقع فيه. حتى وصل إلى هنا. تعب ذهنه من التفكير. وان لم يصل إلى الخطأ.

قال لنفسه: قبل هذه الحركة. كانت العائلة. لها قوام العائلات

المعروف. الآن. فهي لا تمت إلى العائلات بأي صلة. ضاع من ضاع. وانفصل عن العائلة من رفض الحضور. وحتى الذين حضروا معه. انتهت علاقتهم به، بمجرد وضعهم في هذه الزنازين الغريبة. من يحترمه منهم بعد الآن. من يسمع كلامه. من يتصور انه على صواب. واجه نفسه. انه لا يصلح لقيادة العائلة. انه نوع من الظلم ان يكون هو القائد. هو ليس أكثر من إنسان ينفذ ما يطرأ على ذهنه دون التفكير. ان كان صواباً أو خطأ.

ألقي القبض على الأستاذ. ظل في مكانه حتى صعدت إليه القوات. ركله واحد من الجنود بقدمه. وقف ونظر في وجه الجندي. فوجده خالياً من التعبير. بدا له انه أسدل على الوجه ستار يخفي حتى خفق القلوب في الصدور. أخذه العسكري معه، لم يعرف انه واحد من العائلة. وصل إلى الحجز. أصبح بمفرده، أخرج القلم والأوراق. دون بعض ما شاهده. وجد نفسه يكتب: لا أحد يعرف ماذا سيجري في هذا اليوم نفسه بعد عام من الآن ان ما جرى من الأحداث العجيبة والوقائع الغريبة. في مدينة القاهرة. في التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٩٧٦. ميلادية. يجعل الإنسان يحاول الإطلال ولو بنظرة. على هذا اليوم بعد عام. أؤكد انه لا يعرف أحدٌ. ما قد يجري في هذا اليوم. الذي يبدو الآن نائماً في رحم المجهول. البعيد.

أتى الصباح، وكان ميدان المعركة حزيناً، طوب وزجاج وأخشاب. دماء بشرية. وقطع من ملابس ممزقة. بقايا بشرية. بول وبراز وسور من الحديد. ملوي من العنف الذي جرى بالليل. وفوق الكعكة الحجرية. ملابس جندي من قوات الأمن المركزي. الحذاء تحت. فوقه الملابس. وخوذة الرأس الحديدية. وبجوار الملابس عصا قصيرة من الكاوتش. وبندقية وكمية من الذخيرة.

أخذوا الأشياء باعتبارها من المضبوطات التي كانت مع العائلة. مما يؤكد نية العنف لدى العائلة المشاغبة وعدت من أهم المضبوطات التي كانت في الميدان. جلس الضابط الكبير يكتب تقريره عن الليلة الرهيبة. بادئاً من السلاح الذي وجد فوق الكعكة الحجرية. هذا السلاح - كتب الضابط - يقدم الرد الشافي والدليل الوافي على كل تساؤل. همس في أذنه ضابط صغير بكلمة.

أمر الضابط الكبير. بإحضار السلاح وإرساله إلى العائلة في الحجز. بهدف إجراء معاينة للتعرف عليه. كانت التعليمات هي: جعل أفراد العائلة. يلمسون هذا السلاح بأيديهم. حتى تطبع بصماتهم عليه دليل ملكيتهم للسلاح. وحيازتهم له. أكثر من ضابط. قالوا انه سلاح أميري من ممتلكات الوزارة. فكيف حصلت عليه العائلة. رد الضابط الكبير: ان ذلك هو المطلوب. لأنه يجعل من جريمة العائلة جريمتين. سرقة السلاح من المعسكرات واستخدامه ضد الدولة. ومن السهل عمل محضر بفقده من المعسكرات. بتاريخ سابق على يوم الموقعة.

قال الضابط الكبير لمن حوله:

- الآن تكتمل كافة أركان الجريمة.

قال واحد منهم:

- انها قضية لا تخر نقطة مياه واحدة. من يد الضابط الكبير إلى نيابة أمن الدولة.

ضحك الباقون:

- والفضل لسيادة الضابط الكبير. بعد توفيق الله سبحانه وتعالى.

وجلس الضابط الكبير يكتب تقريره.

٩

في زماننا ـ كل الأشجار تثمر الحنظل

كان من المفروض ان تتصدر حكاية المؤلف مع دار النشر الرسمية. ما قيل عن النشر وهمومه ومتاعبه. ولكن لأن العجائب والغرائب السابقة. كانت أكثر إثارة للدهشة. ولأننا نعيش أحد عصور الإثارة بلا حدود. فقد فضل المؤلف البدء بالأشياء البراقة واللامعة. والتي تضمن له متابعة القراء. وهذا ليس معناه ان المثيرات انتهت. بالعكس. هذا الفصل الذي نحن بصدده مليء بالتوابل والبهارات والتي تضمن متابعة القارىء الذي أصبح التواطؤ معه أحد هموم كل من يكتب الكلمة الجادة في حياتنا.

توجه المؤلف إلى دار النشر الرسمية. توقف عند الباب. الاستعلامات. إبراز البطاقة وتسجيل الاسم. والتاريخ وساعة الدخول. والغرض من الزيارة. كتب تقويم مخطوط عمل أدبي للنشر. حبه لعمله جعله يفكر في كتابه: تقديم مخطوط رواية شكاوى المصري الفصيح للنشر. ولكنه خشي الأعين المعلقة بالقلم الذي في يده لرجال الأمن، والاستعلامات، والتي كانت تتابع ما يكتبه. تفتيش الحقيبة التي معه، أطلت عينا رجل الأمن، فشاهدت الكتب والأوراق. فبدت عليه حالة من الاشمئزاز، فأغلق الحقيبة كما كانت.

مبنى ضخم. طرقات لا يرى البصر آخرها، سيدات يجلسن إلى المكاتب، وأيديهن تعمل في التريكو والكنفاة، سعاة، مكاتب، لافتات، أسانسيرات، أسهم تشير إلى اتجاهات مختلفة. جدران، حوائط، أسقف، مخازن مكدسة، لوحات تغطي الحوائط، كتب ملقاة على الأرض. أوراق هامة، سلال مهملات، دواليب حفظ، بها قرارات رفض نشر أعمال أدبية. كشاكيل، لا بد وانها نصوص أدبية، قيل لمؤلفيها انها فقدت خلال عملية الفحص والقراءة.

سأل عن إدارة النشر. وبعد جهد وتوهان وسط المكاتب، وصعود ونزول أدوار كثيرة وصل إلى سكرتارية إدارة النشر. من خلال كلمات كثيرة وأسئلة وأجوبة لا مبرر لها. عرض على الموظف المختص مخطوط الرواية. ونظر له الموظف. وهو شخص لا يمكن ان تكون له علاقة بالأدب. رجل مهذب جداً، يتحرك بموجب تعليمات بروتوكولية صرفة. وقف، مدّ يديه بطريقة معينة، صافحه ووجهه ينطق بالبشر والترحاب. بمجرد ان عرف الهدف من الزيارة. حتى انطفأت في اليد والوجه أشكال الترحيب. التي كانت موجودة منذ أقل من ثانية.

جلس إلى مكتبه. وضع ساقاً على ساق. وقال له ان زمن الفوضى قد ولى، ولن يعود. ان معالي الباشا ـ هكذا قال ـ الشاعر فلان، مدير إدارة النشر قد أصدر تعليماته. بأن فوضى الأدباء والفنانين ان ظلت تسود العمل. فلن تتمكن المؤسسة من العمل. الخلق والإبداع شيء، والعمل المكتبي اليومي أمر آخر. ولا يجب الخلط بين الأمرين.

ان كان المؤلف يريد نشر الرواية، وهو يريد نشرها فعلاً، وإلا ما كان قد حضر إلى هنا. عليه البدء من الأرشيف في الدور الأرضي، في الغرفة رقم ٦١٣ مكرر. أما نهاية الرحلة فهي هنا. لدى سكرتير عام لجنة النشر. الذي يتشرف الشخص المتحدث إليه بالقيام بعمله الآن.

وان كان يأمل، ترك هذا المنصب قريباً، لسبب بسيط، وهو ان درجته المالية الرابعة. بينما درجة سكرتير اللجنة هي السابعة، وهذا وضع مهين له. وقد تقدم بأكثر من طلب إلى معالي الباشا الشاعر فلان [ذكر الموظف للمؤلف اسماً، لم يسمع عنه من قبل، ولم يقرأ له، ولا قصيدة واحدة. قال المؤلف في نفسه: ربما كان شاعراً سرياً. لم ينشر حرفاً من شعره. أو انه نشر في زمان مضى، وتوقف عن النشر. أو انه سينشر في الزمن الآتي. أو ربما كان تعريف الشاعر أمراً مختلفاً]. رئيس لجنة النشر. لكي يصحح هذا الوضع ووعده بذلك.

شكره المؤلف وخرج. وهو يتساءل عن علاقة أمره بحكاية الدرجة، ومعالي الباشا الشاعر، اتجه إلى الأرشيف. عندما خرج. بدا له ان الموظف قد أصابه هم مفاجىء. يبدو انه كان يود الاستمرار في الحديث، أكبر وقت ممكن، وانه لا يجد من يحدثه عن نفسه، وعن أحلامه. وحتى من وجده. لم يكن لديه وقت كافٍ للاستماع إليه.

عندمنا أصبح في الطرقة. نظر خلفه فوجد ان الموظف، سكرتير عام لجنة النشر. قد عاد إلى حالة الفراغ، وحلق من جديد في أجواء التفاهة. وغدا أقرب إلى شخص آخر. لا يعيش في دنيا الواقع.

أخيراً، عثر المؤلف على الغرفة رقم ٦٣١ مكرر. كان الرقم مكتوباً على الباب الخارجي. وفوق الباب لافتة ضخمة مكتوب عليها: الأرشيف العام، وبخط أصغر قليلاً: قسم الوارد. كان الباب مغلقاً. وقبل ان يطرق المؤلف الباب. اكتشف ورقة صغيرة في منتصف الباب. مثبتة بدبوس، ومكتوب عليها: أنا في المسجد أؤدي فريضة الله سبحانه وتعالى. وموقع عليها بإمضاء بالقلم الأحمر. وقف أمام الباب. استمر في وقفته طويلاً. حتى حضر موظف أبرز ما فيه سبحة يحملها. السبحة طويلة وتكاد ان تصل إلى الأرض. ولأن الطرقة كانت قريبة إلى

الظلام. بدت حبات المسبحة وكأنها توشك ان تنير بلون أخضر. أحبه المؤلف لحد العشق. وزبيبة في منتصف الجبهة. كان الرجل يمرر حبات السبحة بين أصابعه وهو قادم في الطرقة. وكانت شفتاه تتحركان بصورة مستمرة.

أفسح المؤلف الطريق للموظف القادم من المسجد. والذي أدى فرض الله. وقف الموظف ببطء. لمّ السبحة، وضعها في جيبه، وأخرج المفتاح، وفتح به باب المكتب. نفض قدميه فوق دواسة أمام الباب. ثم دخل. دار حول المكتب. وجلس إليه. انتظر المؤلف. ثم دخل. فاتحه في أمر الرواية. وقدم له المخطوط. فما كان من الموظف إلا ان صاح فيه بصوت غاضب. محذراً من الخطأين العظيمين اللذين ارتكبهما المؤلف في حقه وفي حق الإسلام. أولاً: المؤلف لم يلقِ على الموظف بتحية الإسلام. عند دخوله. ثانياً: لم يقل له حرماً مع انه يعرف جيداً. انه كان يصلي. وكلاهما تحية الإسلام. وكلمة مرحبا. من الواجب على المسلم قولها. فلماذا هذا الإهمال؟.

وقبل ان ينطق المؤلف بحرف. كان الموظف قد حسم الأمر. قال له: ان الساعة الآن هي الدقيقة الخامسة عشرة، بعد الثانية عشرة ظهراً ـ هكذا نطقها الرجل بلغة فصحى ـ وهذا هو موعد تناول طعامه. الذي يحرص عليه بالدقيقة والثانية. عليه التكرم بالانتظار. وأشار بيده إلى الطرقة. حتى يفرغ من تناول طعامه. وجد المؤلف ان أقصر الطرق هي ان يفعل ما يطلبه منه هذا الموظف. وإلا ما هو البديل؟

هذا الرجل أفضل من غيره، رغم ما حدث منه. على الأقل يتعامل مع المؤلف مباشرة، وليس من خلال سكرتيرة. كل رئيس من رؤسائه له مكتب فخم ومكيف. وجيش من السكرتارية التي لا عمل لها.

ومقابلته ولو لدقيقة واحدة. ان يكون لديه موعد سابق تم تحديده من قبل. مع ان هؤلاء الرؤساء يجلسون بالداخل ولا عمل لهم. سوى حل الكلمات المتقاطعة. في انتظار ان يحين موعد الانصراف.

تساءل المؤلف: ما علاقة كل هؤلاء بالأدب ونشره وإيصاله للآخرين؟ لا يدري. خرج المؤلف. لم يجد مكاناً يجلس فيه. الطريق طويلة. تمشى فيها إلى ان وجد مكاناً. يتمكن فيه من مشاهدة الموظف وهو يأكل. قال فلتكن تلك هي تسليته. في الوقت الذي سيستغرقه الموظف في تناول طعامه. كان المؤلف يتصور ان الرجل، سيفتح حقيبة ويخرج منها سندويتشات يأكلها بسرعة. ولكنه فوجىء بالموظف يجمع الأوراق والدوسيهات والأقلام وطفايات السجائر والنتيجة من فوق مكتبه. ويخرج من الدرج مشمعاً، يفرشه على المكتب ويسويه بعناية. وبنفس البطء يخرج أوانياً وحللاً واطباقاً وكميات خبز وزجاجة بها ماء. وكوب وترمس. يبدو ان به شاياً. وسلة صغيرة فيها فاكهة.

الطعام كان سمكاً مقلياً وأرزاً. ويبدو انه بقايا طعام تناوله في المنزل أمس أو أمس الأول. استراح الرجل في جلسته. واستمر في تناول الطعام. انتهى من الطعام فغسل يديه. وأكل الفاكهة، ثم شرب الشاي. ساعة كاملة استغرقها الرجل. كان يتصرف ببطء بدا للمؤلف متعمداً. وكأن لديه فائضاً من الوقت. لا يعرف كيف يتصرف فيه، من الآن وحتى ساعة الانصراف من العمل.

انتهى الرجل مما يقوم به. وقبل يديه. ظهرها وباطنها، وتكرع أكثر من مرة. وأشعل سيجارة. وصفق بيديه. نادى على المؤلف. الذي كان قد أوشك على النوم وهو واقف مكانه. قال له موظف الأرشيف. ان التعليمات لديه، تقضي بأن لا يتسلم منه الرواية. إلا بموجب طلب على عرضحال تمغة باسم رئيس الهيئة الجديد، لأنه رجل إداري أولاً.

وليس كـاتباً من إياهـم. الـذين لا يجيدون إدارة الأعـمال. قال المؤلف يبدو ان هناك حالة من العداء بين الناس وبين كل من يستخدم ذهنـه. وهـذا العداء تقليـدي وقديم. ولكنـه يستيقظ ويعبر عن نفسـه بقوة في أزمنة الجهالة وغياب العقل وسيادة قوانين الغابة. لماذا يتحامـل الناس على كل شخص مفكر؟ مسألة غريبة. يجب بحثها.

قـرر المؤلف أن يبحث الأمـر فيـها بعـد. عـلى المؤلف أن يعثر عـلى عرضحال تمغة يكتب فيه طلباً باسم رئيس الهيئة. يقول فيـه إنه يتشرف بتقـديم روايتـه. آمـلاً بصـدور قـرار رئيس الهيئـة بعـرضهـا ـ أي الـرواية ـ عـلى لجنة القـراءة. لنشرها. ان كـانت صالحـة للنشر. بما لا يشكل للمؤلف أي حق قبل المؤسسة يترتب على قبول الطلب والرواية.

احتار المؤلف. قال انه موافق على كتابـة الطلب. ولكن المشكلة هي في ورقـة التمغة. المكـان بعيد. ولا يـوجد من يبيـع مثل هـذه الأوراق هنـا. فتلك مؤسسة للنشر وليست مصلحـة لقضاء المصـالح اليـوميـة. حتى يقف أمامها من يبيع التمغة. يكمل المؤلف بيأس. انه سيحضر في يوم آخر. يكون معه فيه ورقة التمغة المطلوبة. والطلب مكتوب.

للمرة الأولى. منذ حضور المؤلف. تحول وجـه موظف الأرشيف إلى ابتسامة ضخمة. وقال له. ان معه ورقة تمغة. كـان قد أحضرهـا. من أجل طلب إجازة خاصة به ولحسن حظ المؤلف. لم يقم بالإجازة. وإلا كـان العمل قـد تعطل لحين عـودتـه. ومـراعـاة منـه لـظروف المؤلف الصعبـة. وحتى يكسب المؤلف وقتاً هـو في أمس الحاجـة إليه سيعـطيه ورقة التمغة. أي سيفضله عـلى نفسه. لأن الحب هـو الشعار الحقيقي في هذه الأيام. وأول أشكال هذا الحب. ان يؤثـر المواطن غـيره عليه. وقبـل ان يوافق المؤلف. أخـرج الرجـل علبة دخـان قديمـة من جيبـه. فتحها وبدون ان يرفع غـطاءها. دس أصـابعه. وأخـرج ورقة تمغـة لا

يشك المؤلف لحظة واحدة انها مستعملة من قبل. أكثر من مرة. دفع الثمن. رفض موظف الأرشيف وتمنع. ثم أخذ ثلاثين قرشاً ثمن الورقة. وأقسم بأغلظ الإيمان انه اشتراها من السوق السوداء. قال المؤلف وهو يداري غيظه:

ـ وأي الأشياء لا نشتريها من السوق السوداء الآن؟

ضحك موظف الأرشيف:

ـ وأين هي السوق البيضاء؟!

نظر المؤلف إلى الموظف بتركيز وقال في نفسه:

ـ أنت نفسك يا مولانا سوق سوداء متنقلة. والقرار الذي أصدره رئيس مجلس الإدارة. بتقديم طلب مع العمل. صدر لصالحك أنت وبالاتفاق معك.

أخذ ورقة التمغة. وأحضر له الموظف بعد ان تسلم المبلغ ورقة بيضاء. وقدم له كرسياً مربوطاً بحبل في المكتب. وقدم له قلماً. مربوطاً هو الآخر في المكتب. تسبقهما ابتسامة عذبة لا يدري المؤلف أين كانت. وقبل ان يكتب المؤلف طلبه. أفهمه الموظف ان لديه صيغة جاهزة. أعدها رئيس المؤسسة الجديد. الهام والمنظم، على نموذج مخصص لذلك. هو النموذج [١٣ ط.ن]. أي ١٣ طلبات نشر. ولأن الهيئة لا توجد بها نماذج مطبوعة. سيمليه الصيغة. وتلك أيضاً خدمة يقدمها لوجه الله تعالى. وكان من الممكن ان يقول له الجملة التقليدية المشهورة. مر علينا غداً. ويظل يقولها له، لحين وجود النموذج المطلوب. وحيث ان هذا النموذج لن يوجد. ليس لأن المطابع لا تطبعه. ولكن لأن الذين يعملون في المخازن يبيعونه بالكيلو. للرجل الواقف خلف المؤسسة. لكي يبيع لهم فيه سندويتشات الفول والطعمية. والكل يعلم هذا. ضابط الأمن يأكل سندويتشاته فيه.

ومدير المؤسسة ورئيس قسم الشكاوى. ومدير العلاقات العامة. ولا أحد يتكلم. ولماذا يتكلم أحد؟

كان المؤلف يريد ان يمشي بأقصى سرعة. خاصة بعد ان تأكد ان الموظف يريد ان يحكي له حتى يحين موعد الانصراف من العمل. كتب الطلب والرجل يتكلم عن كل الذين يعملون في المؤسسة. بمعنى واحد. الكل لص ما عدا هو. بعد ان كتب الطلب. أخذه الرجل ووضعه في الدفتر الذي سيسلم به الطلب ومخطوط الرواية. طلب منه المؤلف إيصالاً. فرفض الرجل الضخم. الذي كان يتجشأ باستمرار من كثرة الطعام. الذي أكله. بحجة انه لم تصدر تعليمات بشأن حكاية الإيصالات. وان الدنيا بخير. وروايته لن تضيع. وان أحداً لم يطلب مثل هذا الإيصال من قبل. لأنه ـ أي الموظف ـ أمين. ويراعي الله وضميره في عمله.

قال المؤلف في نفسه: هذا يبدو واضحاً مثل الشمس. سأله المؤلف عن الوقت الذي يسأله خلاله عن الرواية. فقال له. مر علينا بعد حوالي شهر نقل لك رأينا. قال له موظف الأرشيف، انه عندما يعود بعد شهر عليه التوجه إلى سكرتارية لجنة النشر في غرفة ١٩٠٠٠، في الدور الثالث. وهي الجهة المختصة من الآن فصاعداً بموضوع الرواية.

مر الشهر الأول. سأل المؤلف. الرواية حولت بالأمس إلى الفاحص. انتظرنا لنحولها إلى فاحص محايد. لدينا الكثير من الذين يفحصون الأعمال الأدبية المقدمة. ولكن البعض منهم تعاقدت المؤسسة معهم. في ظل عقد الستينات اللعين. وهؤلاء لا نثق فيهم. انهم يعطلون مسيرتنا الجديدة. ولهذا تم تعيين آخرين مكانهم.

الشهر الثاني، سأل، قيل له ان الفاحص لم يقدم تقريره بعد. لأنه رجل دقيق. من رجالات ما قبل يوليو. ذلك الزمان القديم الحلو.

يعتني بعمله بدقة ويستغرق أصغر كتاب لديه حوالي ستة أشهر. لأنه يقرأه كلمة كلمة وأحياناً يصحح الأخطاء النحوية. ولأنه كاتب سابق. لم يتمكن في صدر شبابه من نشر انتاجه الأدبي. فهو أحياناً يعيد صياغة بعض الجمل والمقاطع والصفحات.

الشهر الثالث: سأل. لم يقدم الفاحص الرواية أو التقرير. سأل عن الفاحص. قال له سكرتير لجنة النشر. انه توخيا للعدالة المطلقة في عمليات الفحص. وهو يعرف ان العدالة معصوبة العينين كما يقولون. ولكي تظل معصوبة العينين لا يجب ان يعرف أحد الفاحص. ان لوائح المؤسسة تعد اسم الفاحص وتقديره من أهم درجات السرية في العمل. والتي تتساوى مع قضايا الأمن القومي. الاستعجال ليس من صالح المؤلف. لأن الفاحص كلما أخذ وقتاً أطول في فحص الرواية. حصل على مكافأة أكبر. علاوة على مرتبه الثابت، والذي يصرف له كل شهر. والتأخير في عملية الفحص معناه ان العمل كان عملاً مضخماً. وأخذ كل هذا الوقت في الفحص. والدراسة.

لا يذكر المؤلف عدد المرات التي ذهب فيها. ولكن المؤلف يذكر انه في المرة قبل الأخيرة. كان سكرتير اللجنة رائق البال. فأحضر له كرسياً. وطلب كوب شاي. وبدأ يحدثه دون مقدمات. كان صوت سكرتير اللجنة إنسانياً أكثر من أي مرة سبقت. قال له. ان خطة هذا العام للنشر. وضعت من العام الماضي. وستنفذ حتى شهر ديسمبر من هذا العام. وفي الغالب فإن الخطة لا تنفذ كلها. وتبقى بعض الأعمال التي ترحل إلى العام الذي يليه. ويأخذ عادة شهرين أو ثلاثة من العام الجديد. هذه الخطة ملزمة. والدولة كلها تعتمد على الخطة والتخطيط. ومن لا يعتمد على التخطيط في هذه الأيام؟

الرواية الآن موجودة لدى خبير. قال له المؤلف.. انها لدى فاحص

حتى الزيارة السابقة. رد عليه السكرتير. ان الرواية لدى نفس الشخص. ولكن المؤسسة اتخذت قراراً بتغيير اسمه في الأسبوع الماضي. وذلك لدواعي العمل. فالفحص لا يتم سوى مع الأشياء فقط. من الممكن ان يفحص لحم، طماطم، بطاطس. وكان استخدام نفس التعبير مع الأدب مهيناً له. ولأن الأدب خبرة أساساً. فقد أصبح الاسم خبيراً. لأن الأمر يتطلب أكبر قدر من الخبرة. ولهذا صدر القرار رقم ١٣ لتعديل الاسم. وكان ذلك ضرورياً. ان الخبير يقرأ الرواية. ويضع تقريره عنها. ان كان التقرير سلبياً. سيسلم الرواية للمؤلف بموجب الإجراءات القانونية المتبعة في مثل هذه الحالات. وان كان ايجابياً سينظر في وضع الرواية في خطة العام القادم.

سأل المؤلف:

ـ أليس هناك أمل في وضعها في خطة هذا العام؟

ضحك الرجل عالياً. وقال. ليس من حق أحد التعديل في الخطة ولا حتى الوزير. وان جرى هذا التعديل. يكون بموجب قرار يصدر من سلطة أعلى. ولا يجب ان يتم، إلا إذا كان لنشر عمل يخدم المصالح العليا للوطن. هل هذه الرواية عن ثورة مايو الخالدة؟ هل هي عن حرب أكتوبر العظيمة؟ هل هي عن فك الاشتباك الأول؟ هل هي عن عظمة المفاوض تحت خيمة الكيلو ١٠١؟ هل هي عن فضائح مراكز القوى في عقد الستينات؟ هل هي عن تجربة أسرة عادت إليها أرضها أو مصانعها بعد التأميم؟ هل هي عن طرد الخبراء السوفييت من مصر؟ هل هي عن غزو الصحراء؟ هل عن الأمن الغذائي؟ هل هي رواية عن تجربة زراعة مليون شجرة زيتون في أسوان في يوم وليلة؟ هل هي عن تجربة المباني الجاهزة والتي ينفذها المقاولون العرب في مصر الجديدة؟

السؤال هو: هل الرواية عن أي إنجاز مذهل للحكومة الحالية. ان كانت عن هذه الانجازات. فاكتب طلباً لي. وفي هذه الحالة نستثني الرواية من كافة القوانين الموضوعة. وتعامل معاملة استثنائية. في كل يوم تحدث معجزات. مشروعات استثمارية تتم الموافقة عليها. سلع كانت ممنوعة تدخل البلاد. لتعوض الحرمان القديم.هل الرواية عن المدن الجديدة؟ لأول مرة منذ الفتح الإسلامي. تقام مدينة جديدة في مصر. لا. ثلاث مدن مرة واحدة. ان لم تكن الرواية عن هذه الانجازات في الرواية. أو حتى في عنوانها.

دعني اقترح عليك. هناك عودة الملاحة في قناة السويس. وعودة المهجرين إلى بلادهم بعد النفي الذي تعرضوا له في زمن النهرية. هل هي عن تحويل بور سعيد إلى مدينة حرة؟ أو عودة الكوكا كولا إلى مصر. وشركة فورد إلى أرض الوطن بعد النفي الإجباري ولكن عنوان الرواية يؤكد عكس هذا. أول كلمة في العنوان هي: شكاوى. من الذي يشكو في مصر الآن. وان شكا فمن أي شيء؟ وان كانت هناك شكوى فهل من المصلحة نشرها في العلن؟

السؤال المحير والمعذب هو: لماذا لا ننشر سوى غسيلنا القذر على الرأي العام. في حياتنا من الانجازات ما يفوق بناء السد العالي. وإليك بعض الأمثلة: سعر متر الأرض في ميدان التحرير وصل إلى ألف جنيه هلا فكرت في كتابة رواية عن هذا الانجاز؟ هل تعرف معناه ومدلوله؟ ان مصر أصبح لها سعراً عالمياً. يجري الكل وراءه. ويسيل لعابهم عليه. ان ما أوصلنا إلى هذا الحال السعيد يحتاج إلى رواية. خلو الرجل لشقة مكونة من أربع غرف وصل إلى ١٨٠ ألف جنيه. دفع هذا المبلغ علناً. دفعه مصري. شعر بالأمان فأخرج الأموال من تحت البلاطة. حيث اختزنها منذ عقد الستينات. المهم انه دفع المبلغ ولم

يعترض أحد. لم تطارد الضرائب دافع المبلغ. لم يسأله أحد إن كان قد كسب المبلغ هنا. وهل دفع عنه الضرائب المطلوبة أم تهرب من الدفع. أم هل حول له المبلغ من الخارج. وان كان قد حول من العملة الصعبة إلى الجنيه المصري عن طريق البنوك أم من خلال السوق السوداء.

حكاية هذه الشقة رواية في حد ذاتها. البعض يكسب ألف جنيه في اليوم الواحد. ألا يعد ذلك إنجازاً يستحق الكتابة عنه؟ تدير ظهرك لكل هذا. وتكتب عن الشكاوى. استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم. عموماً سنتصل بك بعد الوصول إلى قرار بشأن الرواية.

تركه المؤلف ومشى. كان المؤلف يتساءل وهو في الطريق. ألا يعد هذا الإنسان مواطناً لا يعاني من مشاكل؟ حتى يتحدث عن الرواية بهذا البرود. قال المؤلف في نفسه: ان كان هذا الإنسان صادقاً فيما يقوله. أما انني أفتعل مشاكل وهموم لا وجود لها. أو ان هذا الموظف بالذات لا يعاني. أو انه يعاني ويخشى التعبير عن معاناته، ماذا جرى لنا؟ الخطر الأكبر هو الموجه لشخصية الإنسان العادي. أخشى عليها من القهر والكبت والازدواجية. لا أحد يعرف نوعية الحطام الذي ستسفر عنه المعركة الدائرة بعنف وضراوة.

فكر في العودة إلى الموظف ومناقشته. ولكن الرجل كان يبدو مسلوب الوعي. يردد الكلام بشكل آلي. يخلو حتى من النبرة الإنسانية. تنزلق الكلمات من فمه وكأنها تدحرجت من قمة جبل إلى أسفله. تخرج وهي لا تحمل حتى رائحة بخار فمه. آلة أم إنسان من كان يكلمه؟ أم أنه إنسان ولكن سلب وعيه. فلم يعد له ما يبرر إنسانيته. ان لقب إنسان يضحى نوعاً من التزويق لواقع كئيب. يقال مخلوق آدمي. كلا. لا بد من حذف كلمة آدمي. تقول مخلوق. لا تعرف أين تنتهي الإنسانية وأين تبدأ الآلية في أعماقه.

مخلوق يفعل لأنه طلب منه الفعل. ويتكلم لأنه أعطي الأذن بالكلام ويصمت عندما لا يجد الرضى في وجه من يتحدث إليه. لا يجيد سوى الانحناء والتصفيق والهتاف. انه إنسان نعم وكفى. لا يوجد في قاموس مفرداته سوى. نعم، فعلاً، وهو كذلك، ليس في الإمكان أبدع مما كان، إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون. انها عجول التسمين. كائنات الفرزيان التي تتم تربيتها. والغريب انهم جميعاً يبدون غلاظ الأجسام يرتدون ملابس جديدة. ووجوههم يسيل منها الرضى. وحالتهم حسنة. وأمامهم مفاتيح سيارات. وفي أصابعهم خواتم زواج. مستقرون، مستريحون لا يرون ما هو أبعد من انفهم.

عاد المؤلف للسكرتير ليسأله عن طريقة اتصال غير الحضور والعودة. الحضور من البيت إلى هنا. يعد سفراً. قال له الموظف انه مشفق عليه من كثرة الحضور. والمواصلات أصبحت صعبة. تساءل المؤلف: ومتى كانت سهلة؟ ولهذا فهو يطلب منه رقم تليفونه. وسيتصل به بمجرد انتهاء الخبير من فحص الرواية. قال له المؤلف: وهل في بلادنا شيء اسمه التليفون. أصبح ديكوراً. شيء يوضع في المكاتب والمنازل والمحلات العامة للزينة. ثم انه ليس لديه تليفون. قال له الموظف، إذن أترك لي عنوانك وسأكتبه. وأرسل لك خطاباً قال المؤلف: إسمع ليس لي عنوان منزل ولا عنوان عمل. ولا حتى عنوان قريب. سأحضر إليك مرة أخرى. مشى. وكان يدرك ان حكاية التليفون والعنوان هذه ليست سوى محاولة. ان يطلب منه عدم الحضور بطريقة مهذبة.

ذهب بعد ان اكتمل نصف عام على وجود الرواية في المؤسسة سأله سكرتير لجنة النشر.

ـ هل انت مؤلف الرواية فعلاً، أم؟

رد باستغراب:
ـ طبعاً، وهل في ذلك شك؟ ثم ماذا تقصد بأم هذه؟

قال له السكرتير، انه من ضمن الأمور التي تحدث في الحياة الأدبية مؤخراً. موضة شراء الأعمال الأدبية. عندما يريد الإنسان ان يصبح أديباً. وهو لا يمتلك الموهبة. فليس أمامه بديل عن شراء عمل أدبي. وهناك من يقبل بيع عمله. وتمشياً مع التطور الذي حدث في الحياة المصرية. مؤخراً. فإنه قد تم افتتاح مكاتب. لتفصيل الروايات والقصص القصيرة والسيناريوهات الإذاعية والتليفزيونية والسينمائية والمسرحيات. لمن يريد شراء هذه الأعمال بدلاً من تعب نفسه في عملية الكتابة. وهي عملية متعبة ومضنية.

سأله الموظف ان كان هو مؤلف الرواية أكد المؤلفُ انه صاحب الرواية. فقال له الموظف. ما دمت مؤلف الرواية. فهذا معناه أنك تعرف ما فيها. كل حرف المفروض انك كاتبه. وما دمت كاتباً، فانت تدرك وتقدر الأمور؟ هل من الممكن نشر عمل مثل هذه الرواية. ومن مؤسسة النشر الرسمية. والتي تمول بأموال الدولة؟. هل تصورت انك من الممكن ان تكسر سيف السلطان مستعملاً ذهبه؛ هل حدث ذلك من قبل في التاريخ.

ان استخدم كاتب إمكانيات نظام حكم ما، للهجوم عليه؟ انه أمر غريب وعجيب. وانت تحاول القيام به متصوراً ان الناس هنا لا تقرأ. وان الرواية ستصل إلى المطبعة بطريقة التمرير. كان يمكن ان يحدث هذا لو لم يكن هنا أناس يهمهم مصلحة ومستقبل الوطن. ألست مصرياً؟ أشك في هذا. من الواضح ان الرواية مستحيل نشرها في مصر. فلماذا قدمتها وشغلت الناس بأمرها؟ شغلت الموظفين والأرشيف ولجان القراءة. والفاحصين وإدارة النشر. ضيعت الوقت

والجهد أزعجت السلطات بدون مبرر. والغريب انك تعرف سلفاً ان الرواية لن تنشر في الداخل. وان نشرت لا يمكن ان يتم هذا في المؤسسة بالذات و. .

قاطعه المؤلف:

ـ قدمت الرواية. لأنني أنام وأصحو. وأتغدى وأتعشى وأفطر على كلام لا ينتهي عن الحرية والديمقراطية والرأي الآخر.

قاطعه الموظف:

ـ وهل الحرية هي الفوضى؟

ـ ان الحديث عن الحرية والديمقراطية. وصل لدرجة ان الغريب. المتابع لما يجري في بلادنا. ربما تصور ان المصريين تعبوا من كثرة الحرية.

ـ والضوابط؟ أين هي؟ الحرية بدون ضوابط مثل النار تأكل نفسها بدون رحمة.

قال المؤلف، ولكن لنفسه: الحرية، الحرية، الحرية. زهقت من هذه الحرية غير الموجودة، والتي لا نجد سوى الحديث عنها.

عندما وصل الحوار إلى الطريق المسدود، كانت مشكلة المؤلف هي الحصول على نسخة روايته التي سلمها لهم. طلب النسخة من الموظف. ولكنه فوجىء بالموظف يقول له، ان عودة الرواية إليه لا بد وان تسبقها إجراءات. وقبل هذه الإجراءات. فإن الموظف. يقدم نصيحة شخصية للمؤلف كابن له. ان لا يحاول نشر الرواية في الخارج. من يقبل نشر هذه الصورة عن بلاده في الخارج؟

من الممكن ان نقول كل ما لدينا في الداخل. فلماذا اللجوء إلى الخارج؟ ان الأمر يصل إلى حد الخيانة الوطنية. حب الوطن من حب

الله تعالى. وإنكار هذا الحب هو الخطوة الأولى نحو الإلحاد. الوطن يقدم لك الأرض التي تمشي عليها. والسماء الصافية التي تظللك. والهواء العذب الذي تستنشقه [من الممكن تعبئة هذا الهواء في زجاجات وبيعه لمن يعيشون في قيظ الصحارى. أو جليد الشمال].

الوطن يقدم لك الماء والكهرباء والخبز واللحم والمواصلات والسكن بأسعار مدعومة. ثم تكون النتيجة هي التنكر لهذا الوطن. لِمَ ننسى الشاعر الذي قال: حب الوطن فرض.

صاح فيه المؤلف طالباً منه السكوت قال انه يحفظ هذا الكلام من كثرة ترديده. كل يوم. ولكن هذا الكلام ينطلق من مغالطة أساسية وهي مفهوم الوطن. عاد الموظف إلى مسألة الرواية. طلب منه ان يكتب طلباً باستعادتها سيعرضه على مدير النشر. ومدير النشر سيعرضه على المدير العام. الذي يعرض الأمر بدوره على رئيس مجلس إدارة المؤسسة شخصياً. الذي يملك الحق في إصدار قرار إعادة العمل إليه. والسبب في صعوبة عودة المخطوط إليه. ان يتم الأمر بأكبر قدر من الانضباط. لأننا لا نضمن ان تخرج. وتقدم الرواية لأعدائنا. وتقول: ان الحرية اغتيلت في مصر. وان الفكر صودر فيها. ولهذا لن تأخذ المخطوط إلا بعد ان تكتب إقراراً بخط يدك انك أنت الذي سحبت الرواية بإرادتك. لأنك تنوي إجراء تعديلات فيها. وستعيد تقديمها إلينا من جديد. بعد إجراء التعديلات المطلوبة.

تساءل المؤلف:

ـ كل هذا؟

قال له السكرتير. ان هذه الإجراءات إستنت لصالح المؤلف. أليس من الجائز ان يعترض أحد هؤلاء على قرار رفض نشر الرواية. وفي هذه الحالة تحال لفاحص آخر. لعل وعسى، ثم أليس من الجائز ان يجري

تحقيق حول رفض نشر الرواية، إنها إجراءات.

ـ وكم تأخذ من الوقت؟

ـ شهراً على الأقل.

خرج المؤلف من المكتب وهو يردد بصوت عالٍ، وبطريقة لفتت نظر الكل:

ـ حرية الرأي والعقيدة مكفولة. اتعهد ان لا يكبت رأي أو فكر. ان جو الحرية الموجود في هذه الأيام في مصر لم يحدث من قبل. أخيراً تحقق البند السادس من بنود أهداف ثورة يوليو. الخاص بإقامة حياة ديمقراطية سليمة في البلاد وهو البند الذي تأخر تحقيقه ربع قرن من الزمان. لأن الذين حكموا البلاد من قبل، كانوا يخافون الرأي الآخر. ولكننا لا نخاف هذا الرأي الآخر. هذه السنوات ستدخل التاريخ باعتبارها العصر الذهبي للديمقراطية والحرية في كل تاريخ مصر الحديث والوسيط والقديم.

خرج الموظف وراء الشاب الذي كان يكلم نفسه في الطريق. قال الموظف بصوت أكثر علواً من صوت الشاب:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. الشاب أصابه مس.

وبعد فترة أكمل:

ـ يستحق ما جرى له. ان مصر نار تحرق كل من يعتدي عليها. وهذا الشاب اعتدى عليها بفكره.

ذهب المؤلف إلى الناشر ابن البلد. لم يطلب تحديد موعد معه. لم يسأل عن رقم تليفونه ويتصل بسكرتيرته الحسناء. ويحاول الحصول على موعد للقاء. قادته قدماه ذات صباح إلى الميدان الذي يقف فيه. الوقت كان مبكراً. والساعة الضخمة التي تطل على الميدان. والتي ركبتها

إحدى الشركات. كإعلان مبتكر عنها في زمن السباق الإعلاني، الـذي لم تـره البلاد من قبـل. رن صوت مـذيعة كـانت متألقـة في زمن التألق الذي مضى. وبعد ان عادت للعمل في زمن الانكسـار والهزيمـة. وصل بها الأمـر إلى العمل في الإعلانات.

صوتها كان يقول. الساعة هي السـابعة صبـاحاً. الـوقت مبكر وان كـان شكل النـاشر الواقف في حـالـة نشـاط يقـول انـه يقف هنـا منـذ سـاعتـين. كـان يلبس جلبابـاً بلديـاً وبلغـة سـوقي. يبيـع الكتب والمجلات. ويتعامل مع الكلمـة المطبـوعة بقـدر كبير من الحب. سـأله عن صاحب المكتبة. فوجيء بأنـه هو. صـافحه بحب واحـترام. وقف مرتبكاً. تعرت ثقافتـه أمام بسـاطة ابن البلد. ووضـوحه في التعـامل. ابتسم ابن البلد. وسأله عن حاجته.

قال له:

ـ لدي كتاب أريد نشره.

تساءل:

ـ وموضوع الكتاب؟

قدم له المخطوط. أشار بيده. مكرراً سؤاله عن موضوع الكتاب.

ـ رواية.

قالها المؤلف باختصار. تحرك الناشر من منتصف الميدان. حيث كان يقف يكنس ويـرش أرض الميدان. أخـذ المؤلف من يـده. ووقفـا معـاً بجوار الكشك، طلب له كوب شاي من رجل تصادف مروره. أخـرج علبـة سجـائـره وقـدم للمؤلف سيجـارة بنفس البسـاطـة التي أذهلت المؤلف. قال له الرجل: إنه لا توجد لديـه لجان قـراءة. لا خطة نشر. ولهذا لن يأخذ منه مخطوط الروايـة. لأنه لن ينشر هـذه الروايـة لا الآن ولا في المستقبل القريب. ربمـا تمكن من نشرها في المستقبـل البعيد. لـو

وقعت المعجزة وتحسنت الأمور في البلاد إلى الأحسن. وحيث ان ذلك مستحيل. فإنه يطلب من المؤلف ان يبحث عن ناشر آخر.

شعر المؤلف بخيبة أمل. إحتار ماذا يقول؟ هل يسلم ويمشي؟ أم يتكلم؟ وان تكلم فماذا يقول؟ الموقف صعب وهو لا يعرف كيف يكون المخرج منه. ولكن الناشر لم يكن قد أكمل حديثه. قال: ان سوق نشر الكتاب قد فسدت. انه من خلال وقفته هنا. يستطيع ان يعرف أكثر الكتب رواجاً. لا يوجد لديه جهاز إحصاء ولا هيئة دراسات علمية. ولكنه يعرف ذلك من خلال التعامل اليومي مع قارىء الكتاب. انها طريقة بدائية وقديمة.. في عصر العلم. ولكنها جزء من ظروفنا المتخلفة.

أكثر الكتب رواجاً. هي الكتب الجنسية وحتى في الكتب الجنسية. فإن العلمي والمحترم منها. يعاني من الكساد وأكثرها هبوطاً وبدائية وسوقية هي أكثرها توزيعاً. مثل الكتب التي تتحدث عن ليلة الزفاف والاتصال الجنسي السعيد، والمشكلات الجنسية. ومذكرات المراهقات. ان أول كتاب في التوزيع هذه الأيام. عنوانه ١٥٠ سؤالاً في الجنس. والإجابة الصريحة الوافية عنها. أو كتاب عنوانه: المومس في الرواية المعاصرة. وعلى الغلاف: ساق امرأة جميل تمد يدها. تخلع الجورب. والباقي معروف. وهذه الكتب لا تقدم سوى بضاعة وحيدة وهي الجنس. والعناوين هامة في كتب الجنس. مثل عنوان: إمرأة تطلب من يطفىء نارها. أما الكتب التي تتحدث عن الجنس كجزء من قضية المجتمع. فإن الإقبال عليها قليل ونادر.

بعد هذا النوع من الكتب. تأتي كتب الدين. وأكثرها رواجاً التي تتحدث عن القوى الخفية والسحر والشياطين وتحضير الأرواح وكيفية كتابة الأحجبة والقضاء على الأعمال. في الفترة الأخيرة راجت الكتب

التي تتحدث عن الحظ والأبراج مثل صدور كتاب عن مواليد برج ما. من قبل كانت هذه الكتب تروج في يناير من كل عام. ولكنها الآن تروج على مدى العام كله. ونسبة توزيعها مرتفعة على الرغم من ارتفاع أسعارها.

وهناك بعض الكتب الخاصة التي تشرح القوانين الجمركية مثلاً. وهي في حقيقة الأمر تشرح كيفية التهرب من الجمارك. وكذلك الكتب التي تتحدث عن قوانين شؤون العاملين. وكتب قوانين الإيجارات والمساكن. هذه الكتب أصبحت مثل الكتب المدرسية. رديئة الطباعة. سيئة الإخراج. غالية الأسعار. ومع هذا فالتوزيع مضمون. وأحياناً تنفد فور صدورها. رغم انها تخاطب أعداداً محدودة من الناس.

ثم كتب التسالي والرحلات إلى أوروبا وأمريكا، وكتب الصحة التي تتحدث عن الشفاء من أمراض معينة. خاصة الأمراض التي لا علاج لها، مثل السكر والسرطان. ومن الكتب الرائجة أيضاً عبد الناصر وثورة يوليو. وهذه الكتب نوعان. الأكثر توزيعاً وإقبالاً هي الكتب التي تدافع عن عبد الناصر. وثوار يوليو. تليها الكتب التي تهاجم عبد الناصر. أصبح عبد الناصر تجارة رائجة في ميدان نشر الكتب. كل كتاب عن عبد الناصر له قراؤه. ليس مهماً من هو كاتب الكتاب. ولكن لأن الكتاب عن عبد الناصر.

في آخر القائمة تأتي كتب الأدب. وحتى الرائج منها. هي الكتب ذات القضايا المثيرة. الأدب أصابته السياسة. ولهذا فإن أكثر أشكال الأدب رواجاً هو الأدب السياسي. أما الأدب الخالص. الذي لا يتعرض للسياسة. فرواجه عادي. بل أقل من العادي. لأن الكتب الأخرى. أخذت منه قارئه الحقيقي.

أكثر كتب الأدب توزيعاً هي الرواية. ثم ديوان الشعر، ومجموعة القصص القصيرة. وأخيراً كتاب النقد الأدبي. وفي ظل هذا الوضع من يقدم على نشر رواية؟ ولكاتب غير معروف؟ صحيح ان المؤلف سبق وان نشر أكثر من عمل. ولكن هل نسي المؤلف اننا نعيش في الشرق. ذي النجم الواحد. في الغناء مطرب واحد. في التمثيل ممثل واحد. نفس الشيء. الروائي الأوحد. والصحفي الأوحد. والمذيع الأوحد. من يجد القارىء من الروائيين بجانب الروائي الأوحد. ثم ان الأدب في مصر لم يعد يحرك أحداً. لأنه لا أحد يعتقد ان الأدب يوجد من يكتبه. الوطن يمر بظروف صعبة. ولكن الظروف الصعبة وحدها لا تكفي لخلق الأدب العظيم. فالأدب العظيم لا تكتبه الأيادي المترددة. والنفوس الضعيفة.

لن أنشر لك هذه الرواية. لأن نشر الرواية خسارة. ولكني أعدك ان استطعت كتابة رواية جديدة. ترسم لنا المخرج من أزمتنا الراهنة، سأنشرها لك. حتى ولو نشرتها بآخر مليم معي. ألا يلوح أمل؟ ألا يوجد مخرج. ان عثرت على هذا المخرج. فاجعله موضوع روايتك القادمة. وننشره معاً.

عندما مد يده ليصافح الناشر، اكتشف ان ثمة حرارة سرت إليه من ابن البلد. حرارة إنسانية نادرة. تركه المؤلف ومشى. رغم انه لم يحصل على ما يريده. إلا انه مشى وهو سعيد. كان حديثه سهلاً وبسيطاً خالياً من تعقيدات المثقفين. أدرك ان رحلة البحث عن ناشر لم تكن خسارة كلها. ها هو يلتقي وسط الزيف. بإنسان يحبه ويستريح له. ويقترب منه. يتحدث بلسان يقول الصدق. تساءل: هل سيكتب العمل الذي ينتظره منه ابن البلد؟

فكر: روايته فيها ما يتكلم عنه. انها تصور سوء الحال الذي أوصل

العائلة لدرجة البيع في ميدان عام. ولكن هل يعد البيع مخرجاً. كان ما يدهش المؤلف انه وسط الحطام. الذي يملأ الوطن، بقايا البشر. الذين كانوا هنا منذ فترة. وجد إنساناً لا يزال ينبض. قبل ان يمشي من عند الناشر ابن البلد. إستأذن منه. وعندما عاد وجد معه بعض الكتب الأخيرة التي أصدرها، قدمها هدية له. لكي يقرأها. ويقول له رأيه فيها. قال الناشر. ان الانسان المثقف عملة نادرة. طلب من المؤلف ان يمر عليه بعد فترة. ربما يكون قد كتب الرواية الجديدة. وربما تكون ظروف الناشر أفضل فيمكنه طبع الرواية.

مشى المؤلف وهو يفكر في حكاية المخرج من الورطة. تساءل: لماذا يخلط الناس بين شخص يجلس فوق مقعد الحكم. وكاتب لا يملك سوى قلمه؟ انه يحلم من أجل هؤلاء الناس. يدفعهم إلى تغيير حالهم. نحو واقع أفضل. أما المخرج... فهو ليس مسئولاً عن البلاد. ولم يوصلها إلى الأزمة. حتى يكون مطلوباً منه البحث عن مخرج. قال المؤلف: قبل ان تسأل ما هو المخرج. لا بد من سؤال آخر. ماذا أوصلنا إلى هذا الحال؟.

هنا يصل المؤلف إلى نقطة فاصلة في مسألة طبع الرواية. إما ان يضعها في درج مكتبه وينسى هذا الأمر. أو ان يرسلها إلى خارج البلاد. ووضع الوطن العربي فريد وحيد من هذه الناحية. توجد أكثر من دولة متجاورة. تتكلم لغة عربية واحدة. وهذا الدول. فترات الخلاف بينها تفوق فترات الوفاق. وبالتالي يمكن نشر العمل المصادر هنا في بيروت. انه وضع فريد نابع من ظروفنا الخاصة. ولكن ما قيمة نشرها هناك. ستظل في ذلك المنفى الجميل إلى الأبد. من سيقرأها. إلى من تصل أحرفها. وضع محزن.

لم يبق أمام المؤلف سوى آخر هذه الحلول. هو ان ينشر الرواية على

نفقته الخاصة. الرواية كبيرة. والأسعار تمر بحالة من الاشتعال المستمر. والتغير في الأسعار مخيف: فما هو الحل إذن؟ عند هذه النقطة يقدم المؤلف حلين. ولا يحب التأكيد على أي منهما. حل يقول على افتراض انه نشر الرواية هنا في مصر. والثاني على انها نشرت في بيروت. ويعد المؤلف قارئه ان يصارحه بالحل الذي نفذ في أرض الواقع، والحل الذي كان مجرد افتراض ذهني. والآن نبدأ قصة أحد الحلين.

لم يعد أمام المؤلف من مخرج سوى طبع الرواية على حسابه الخاص. تلك هي النهاية المنطقية لما سبق. ولا يحب المؤلف المرور على قرار طبع الرواية على حسابه بسرعة فهذا القرار كان هاماً وخطيراً. وقد تردد المؤلف أمامه طويلاً. دخله صغير ومحدود وطبع عمل على حسابه مسألة ليست سهلة. دخله يكفيه. وهناك مبلغ صغير يدخره كل شهر. وهو حريص على الادخار. بسبب خوفه الشديد من الغد.

من قبل كان الغد يقترن في الذهن بالبشرى والأماني والأحلام والآمال. فالغد هو اليوم الذي لم نعشه بعد. وهو مخزن لكل ما لم نحققه. كان الشاعر يقول. ان أحلى الأيام هو ما لم نعشه بعد. أما الآن. فالغد هو بؤرة المخاوف. ان الخوف من المجهول هو عنوان العلاقة بالغد. وفي هذا العالم. الذي لا يوجد فيه ما هو مؤكد. فإن ما يمنح المؤلف الإحساس بالأمان ان يكون له مدخر من ماله الخاص. معك قرش إذن انت تساوي قرشاً. أما الإنسان فما هو إلا ذرة تراب صغيرة. ثم من يكفيه دخله من عمله الأساسي؟ لا أحد.

اصطدم المؤلف بكلمة لا بد. وآه من كلمة لا بد. لا بد من وصول كلمته إلى الآخرين. فالكتابة ليست شهرة ولا بحثاً عن منصب ولا جرياً وراء مال. بقدر ما هي مبرر بقائه الوحيد في العالم. وان فقدت

هذا المبرر. فالموت هو الخلاص. الكتابة دفاعه ضد التآكل الداخلي. ضد الفناء. ضد الإحساس السرطاني في داخله بالعبث واللاجدوى. لا بد من الكتابة. ولا بد من وصول كلماته إلى الآخرين. فالكلمة التي يكتبها وتبقى لديه حبيسة مكتبة هي بذرة لم توضع في أرضها حتى تنبت وتزهر. ليس أمامه من مفر سوى طبع الرواية على حسابه.

المشكلة هي كيف يعثر على صاحب مطبعة يطبعها له. ويحصل على ماله بالتقسيط. والمشكلة الثانية هي التوزيع. هل توزع الرواية بسرعة؟ أم تتلكأ لدى باعة الكتب خمس سنوات من يدري؟ ربما ضرب الحظ ضربته مع الرواية. ونفدت خلال أيام. وعادت إليه أمواله. وأصدر منها عشر طبعات أخرى. وقد يتولى ناشر إصدار هذه الطبعات من الرواية.

ولكن المؤلف عندما أدرك حالة الأمية المنتشرة في البلاد. أدرك سخف أحلامه.

نزل المؤلف من بيته ذات صباح. قال في نفسه، انه سيصف هذا اليوم في مذكراته باستفاضة. وسيتكلم عنه في فصل كامل. وتساءل: هل سيتكلم عن مغامرة النشر عند الكتابة عن الرواية؟ ان مغامرة النشر لا تقل إثارة أو أهمية عن كتابة الرواية نفسها.

أكثر من مطبعة ذهب إليها، لاحظ ان المطابع الضخمة والموجودة في أماكن هامة من المدينة تقدم له أسعاراً مرتفعة. ويبدو انها تحمله نفقات ديكوراتها وإيجار مكانها وعمالتها الزائدة. ترك الأماكن الفخمة. وذهب إلى الأحياء الشعبية. مطابعها فقيرة وصغيرة وبسيطة. المطبعة عبارة عن دكان. له باب من ضلفة واحدة وبداخله آلة طبع واحدة. عمل مقايسات لطبع الرواية تأرجح الرقم ولف ودار حول الألف جنيه. البعض قال له ان التكلفة ربما وصلت إلى ألف ومائتي جنيه. وان كانت

قد هبطت في حالات أخرى إلى تسعمائة جنيه. وبين الرقمين دارت كل المقايسات.

البعض طلب الحصول على الأتعاب مقدماً. والبعض الآخر اكتفى بطلب نصف هذه الأتعاب قبل البدء في الجمع. ألف جنيه؟ ربما مضى العمر كله دون ان يمسك بيده ألف جنيه مرة واحدة. قرر تأجيل فكرة الطبع ما دام المبلغ ضخماً. ولكن الرواية ظلت مثل الوجع الخاص الذي يعانيه في كل لحظات العمر. بعد أيام تأكد المؤلف انه ما لم ينشر هذه الرواية. لن يشعر براحة. بل لن يجد لديه القدرة على كتابة رواية أخرى.

عذاب ما بعده عذاب آخر. ظل يشكو لكل من يقابله. اكتشف ان الناس فقدت القدرة على الإنصات للآخرين. الرغبة في التواصل الإنساني لم يعد لها وجود. يبدأ في الحديث. يفرح ان هناك من يسمعه. إذن بشرية بالقرب من فمه. المسافة بين الأذن والفم ليست طويلة. والكلمات تصل ما بينهما في فرح. ولكنه بعد كلمة أو كلمتين. يكتشف ان من يسمعه. قد انصرف إلى أمر آخر. وانه يكلم نفسه دون ان يدري.

أخيراً دله شخص لم يسمعه جيداً. ولكنه استمع إلى بعض الكلمات التي قالها. وفهم الموضوع. دله على صاحب مطبعة من الممكن ان يقسط تكاليف الطباعة ويعطيه تيسيرات في الدفع. أخذ العنوان وجرى إليه.العنوان في حي شعبي. عطفة متفرعة من حارة. والحارة متفرعة من شارع رئيسي. في السيدة زينب. حجرة صغيرة. خلف مخزن لحفظ أوراق إحدى الشركات. وجد صاحب المطبعة والعمال. كانوا يعملون في أكياس مصانع. وفواتير صيدلية ومحل لحام. وكروت شخصية وبطاقات زواج. رحب به الرجل. وقدم له نفسه:

ـ أنا متولي.

لم يكمل باقي اسمه. وحتى العمال الذين في المطبعة لا يعرفون باقي الاسم. مهندس أو دكتور أو عامل. لا يدري أحد. كانت له ألقاب كثيرة. وهو يقدم نفسه هكذا. مختلف مع الدولة. نظام الحكم كله. والحركة النقابية. ولأن الجو غير نقي. فقد فصل من كل أعماله. دفع ثمن شرف مواقفه غالياً. وافتتح هذا المشروع لكي يعيش منه. وهو لم ينس النضال ولم يتنكر له. فالعمل هنا أيضاً نوع من النضال. عرف من المؤلف حكاية الرواية. فقال ان سعادته زادت. فالرواية ستعطيه الفرصة العظيمة ليتأكد انه لم يبتعد عن العمل ضد النظام. الذي رماه في الشارع.

هاجم متولي الدولة بكافة أجهزتها. ونقاباتها ومؤسساتها. لدرجة ان المؤلف. شعر انه يعيش على أرض خارج حدود الوطن. قال متولي انه سينشر الرواية مهما كانت الصعوبات. لم يكن المؤلف مستريحاً لحالة الرفض المطلق عند متولي. الرفض المطلق لا يوصل إلى أي شيء. متولي يقول. انه مطارد من المخبرين في كل مكان، جلس على مقهى فاكتشف ان الذي يقدم له الشاي مخبر معروف. ذهب إلى السينما. فكان الذي قدم له التذكرة وأرشده إلى مكانه من المباحث. ذهب إلى الكازينو. فوجد الجالس إلى المنضدة التي بجواره. والذي كان يغطي وجهه بجريدة قديمة. من المخبرين. أمام الجمعية الاستهلاكية. كان الذي ينظم صفوف الطوابير مخبراً. في محل الكشري يقدم الأطباق للزبائن في الصيف. كان على البلاج. يؤجر الكراسي والشماسي للمصطافين.

الرجل مطارد، حتى في سرير نومه. في لحظات العشق والمحبة. وهو يزور قبر والده. في كل هذه الأماكن يقول متولي إن وراءه مخبر. تعجب

المؤلف من اهتمام إدارة المخبرين بصاحب المطبعة إلى هذا الحد. وقال لنفسه: قد يكون الرجل خطراً على الدولة. أو ربما كان يعمل معهم. ومطلوب منه التحدث بهذه الصورة حتى لا يشك أحد فيه. وربما كان يعمل مع جهة أخرى. غير الداخلية تتجسس على الناس ومن الطبيعي. وفي ظل الصراع بين الأجهزة، أن تكون هناك حالة من الحصار. حوله. توقف تفكير المؤلف عند هذا الحد. وقال لنفسه: إن الشكوك في الآخرين وصلت لحد التدمير. الرجل يقول إنه مناضل وكفى. يجب الإكتفاء بهذا الكلام حتى يثبت العكس.

قال له متولي. إنه لن يحصل منه على مليم واحد طوال فترة الجمع. سيتحمل العبء كله. ولكنه ومع بداية الطبع. سيطلب منه بعض المال. والمبلغ المطلوب لن يكون سوى ثمن الورق الذي سيطبع عليه الرواية. ومتولي سيطلبه لأنه لن يتمكن من تدبير الورق بوسيلة أخرى. ولا يوجد معه ثمن الورق. وإلا كان قد دفعه وحاسبه عليه بعد ذلك.

سعد المؤلف. كانت سعادته حقيقية. أحدثت حالة لم تحدث له منذ فترة طويلة. لأول مرة منذ أن حمل الرواية. وبدأ رحلة البحث عمن ينشرها. كان سبب السعادة. أنه ترك مخطوط الرواية. لدى صاحب مطبعة دون أن يدفع مليماً. بل أن متولي. ما إن أخذ مخطوط الرواية من المؤلف. حتى نادى على أحد العمال. وطلب منه البدء في جمع الرواية. حتى يأخذ المؤلف أول بروفة على الملزمتين. الأولى والثانية. بعد غد على الأكثر.

قال المؤلف إنه لم يكن يحلم بهذه المعاملة. قبل أن يتحرك من المطبعة. سأله متولي: كيف سيدبر المبلغ الذي قد يطلبه قريباً؟ وجد المؤلف في السؤال نبرة مصارحة من الصعب أن يجدها لدى الآخرين.

قال المؤلف إنه يجب عليه التعامل مع متولي بنفس القدر من الصراحة. قال له: إنه لا يوجد معه سوى مائة وخمسين جنيهاً. وإنها لن تكفي ثمن الورق. ولكنه سيحاول. تدبير باقي المبلغ. سواء بالإستدانة أو بأي طريقة أخرى.

قال له متولي. ولماذا الإستدانة من الآخرين. سيدله على طريقة عملية وسهلة ويعفيه من مهانة الإستدانة وهمّ الدين. إنها طريقة سهلة. سيطبع له إيصالات. يوزعها على الآخرين. ويحصل منهم على أثمان نسخ من الرواية مقدماً، وبعد الطبع يحصل صاحب الإيصال على نسخته من الرواية مقابل الإيصال. الخدمة لن تكون سوى دفع الثمن مقدماً. يمكنه توزيع هذه الإيصالات على أصدقائه وزملائه ومحبيه. يجمع أكبر قدر ممكن من المال ويعطيه له. وبعد الطبع يعطي كل صاحب إيصال نسخة.

قال متولي. بهذه الطريقة لن يدفع المؤلف مليماً في طبع الرواية. وثانياً سيضمن القراءة مقدماً. لأن من يدفع ثمن الرواية قبل رؤيتها. قارىء مضمون. سيقرأ الرواية كلمة كلمة. لأنه دفع الثمن مقدماً. والقارىء هنا يشعر أنه لعب دوراً في إصدار العمل. إنه جزء منه وليس مجرد قارىء سلبي. إشترى الرواية لأنه وجدها لدى باعة الكتب والجرائد. وهذا يقيم علاقة مسبقة بين القارىء والعمل الأدبي.

قال المؤلف لنفسه: إن متولي يخزن أفكار نادرة. لا يدري هو أي شيء عنها. لقد أساء الظن بالرجل. وهو لا يعمل سوى لمصلحة المؤلف. وافق المؤلف على فكرة الإيصالات. قرر متولي طبع الإيصالات. حتى يكسبا مزيداً من الوقت. طلب من المؤلف الجلوس وتصميم الإيصال الذي يريد طبعه. حتى يكون جاهزاً مساء اليوم. ويبدأ المؤلف في التوزيع من الغد صباحاً. صمم المؤلف إيصالاً. ولكن

متولي رده له. قال إنه من المفروض أن يكون للإيصال كعب يحتفظ بـه المؤلف معه. حتى يعرف الذين دفعوا له. ويبادر هـو بإعـطائهم النسخ بمجرد صدور الرواية ولا ينتظر حتى يبرزوا الإيصالات له. ويطلبوا منه النسخ الخاصة بهم.

اعترض على حكـاية الكعب استيقـظت المخاوف في نفسـه. قال إن الرجل يريد معرفة من الذي سيدفع مقدماً. ويبلغ الأسماء. آه. ذلـك هو سبب الفكرة. ربما كان موحي إليه بها من جهة ما. وهكذا يدبرون له قضيـة. سيقال إن العمـل كان مـدعومـاً. وإن الدعم كـان قادمـاً من خارج البلاد وليس من داخلهـا. من إحدى الـدول العربيـة. قال إنـه سيحضر معه دفتراً. يثبت فيه أسماء من دفعوا له. ثم إنه يتمتع بـذاكرة قـوية. أقـوى مما قـد يتصور الإنسـان. ولن ينسى شخصـاً واحـداً من الذين سيدفعون له.

سـأله متـولي. عن عدد الإيصـالات التي سيطبعهـا. فكـر المؤلف. احتـار في العدد. تسـاءل: ألفان، ثـلاثة آلاف. يتصـور الإنسـان إنـه يعرف نصف سكان العالم بصفة شخصية. طلب من متولي أن يطبع لـه خمسة آلاف إيصال. اتفقـا أن يكون أول جـزء من الإيصالات جـاهزاً ابتداء من الغد.

وفي الليل جلس المؤلف في منزله. أحضر ورقة وقلماً وبدأ في تدوين أسماء من سيبيع لهم الإيصالات. وكان الإكتشاف الأول المثير. أن رقم الأسماء لم يصل إلى مائة إسم. هون الأمر عـلى نفسه. قـال إن الحركـة اليـومية ستـدله عـلى أسماء لا يـذكرهـا الآن. قال إن في الـواقع أسـماء كثيرة. ولكنها الذاكرة المتعبـة. حول كشف الأسـماء إلى كشوف مختلفـة حسب الأعمال والمهن وأماكن التواجد. ارتفع الرقم قليـلاً. ولكنه بقي أقل من أي تصور جال بخاطره.

وفي الأيام التالية تم الأمر بقدر من البطء لم يتصوره المؤلف. كان البطء قاتلاً. الإيصالات التي بيعت كانت قليلة. في كل مرة كان المؤلف يقابل من يتصور أنه صديق. يقف معه في أزمته. يصافحه. يأخذه جانباً. يقول له المؤلف. إنه يطلب منه أمراً خاصاً. وبخجل يحكي له حكاية الرواية ومتاعب النشر. البعض القليل كان يدفع. والبعض الآخر كان يحدد له موعداً آخر. للحديث في هذا الأمر. لأنه لا يحب الحديث في الأمور الهامة. وهم وقوف في الشارع.

وسائل التهرب كانت كثيرة. ومتنوعة ومثيرة للأسى. قابل مرة صديقاً. كان سبب اعتذاره. شعوره أن المؤلف قابله بالصدفة. ولم يكن ينوي مفاتحته في الأمر. وإلا كان قد سعى إلى لقائه خاصة وإنه يعرفه ويعرف عنوانه. سواء في العمل أو في المنزل. ورقم تليفونه. قال إنه شعر بإهانة. لإدراكه أن سبب المفاتحة في الأمر هو صدفة اللقاء. كان المؤلف يدرك أن افتعال الأزمة حول السعي للقاء وصدفة حدوثه مجرد محاولة للهروب منه. ومع ذلك وعده بالذهاب له خصيصاً. إلى مكان عمله مرة. وإلى مسكنه. مرة أخرى. من أجل الحديث في موضوع طبع الرواية.

البعض دفع النقود قبل أن يكمل المؤلف كلامه. بشرط أن لا يحصلوا على أية إيصالات. لأن العلاقة أكبر من أية إيصالات. ربما كانت ضخامة المبلغ. وقد قال المؤلف إنه سعيد بهذه الثقة. رغم أنه يعرف أن السبب في عدم الرغبة في الحصول على إيصالات هو الخوف من أن تكون أسماء أصحاب الإيصالات مدونة لدى المؤلف. وما قد يترتب على هذا من متاعب مع جهات الأمن.

الإيصال مستند رسمي بأنهم شاركوا في عمل لا ترضى عنه الدولة. وهذا قد يضر مصالحهم مع النظام. بل إن البعض منهم قال إنه لا

يرغب في الحصول على نسخه من الرواية عند ظهورهـا. ومضغ المؤلف الإحساس بالمهانة. لأن الأمر بدا له أنه نوع من الإحسان. كان المؤلف يكتفي بأخذ المبلغ دون تحرير إيصـالات. كما يـطلب منه دافـع المبلغ. السؤال الذي تردد في أغلب الأحيان. كان عن سبب رفض الرواية:

ـ الجنس أم الدين أم السياسة؟

سؤال كان يقواه الكل. وفي كل مرة. كان يقول باختصار:

ـ السبب الثالث.

وكان المؤلف يلمح حالة من خيبة الأمل. على وجه محدثه. ربمـا كان يتصـور أن الأمـر بسبب الجنس. كـان العمـل سيكـون مثيراً. أمـا السياسة. فـذلك أمـر خطير. ولكي يمتص المؤلف حـالة خيبـة الأمل. كان يتكلم عن الرواية وموضوعها. ومـا يجري فيهـا. فيكتشف عزوف المستمع عن الـرغبة في مـواصلة الإستماع. البعض كـان يبدو أنـه يقف معه صامتاً. وإن كان المؤلف يبدو متأكداً أن الآخر لا يسمعه.

للمؤلف كاتب صديق. معـروف عنه البخـل. ومعروف عنـه أيضاً مـواقفه الـنظيفـة والشريفـة. ذهب إليـه المؤلف. سلم وجلس وحكى حكاية الرواية. وطلب منه المساعـدة. فوجىء بـالرجـل يقول لـه. إنه ينـوي شراء سيارة. ولهـذا يخصص كل دخله من أجـل هـذا الهـدف. أمسـك الرجـل بشعر رأسـه الأبيض. وقـال إنـه تعـدى الخمسـين من عمره. ومن حقه أن تكون لديه سيارة. حتى يستريح في شيخـوخته من تعب المواصلات.

قال إنه أكمـل في البنك ألف جنيـه لا يمكن أن يجرحهـا. بأخـذ أي مبلغ منهـا. لأنه ينـوي رفع المبلغ إلى ثـلاثة آلاف جنيـه. والألف تظل ألفاً طالمـا إنـه لم ينفق منها جنيـه واحد. أمـا إن أنفق منها أي جـزء من الجنيه. فلم تعد ألفاً.

أصحاب السيارات قالوا له. إن ميزانيتهم لا يوجد فيها بند شراء رواية. هذا الشهر. وطلبوا منه الحضور مع بداية الشهر القادم. حتى تكون ميزانية الشهر القادم قد بدأ العمل بها. أصحاب مشاريع ضخمة كانوا يقولون له إن ثمن الرواية غالٍ. وإن المطلوب هو إجراء تخفيض قدره عشرة في المائة. لأنهم سيدفعون مقدماً. وتلك ميزة مالية عظيمة. كان المؤلف يجري الخصم المطلوب رغم أن ثمن الرواية كان نصف جنيه فقط.

البعض سأله عن موعد صدور الرواية. وكان المؤلف يقول إنها ستصدر بعد حوالي شهر. وهنا كان يقول له. ومن يضمن صدور الرواية بعد شهر؟ وهل هناك من يضمن أي شيء في بلادنا؟ إذا كانت الناس تقول إن يوم الحكومة بسنة. والحكومة بكافة إمكانياتها. لا تضمن إتمام أي عمل في موعده. فما بالك بإمكانيات المؤلف. من المؤكد أن الرواية ستتأخر. ربما وصل التأخير إلى العام. والمبلغ الذي سيدفعه له. سيكون خلال العام مجمداً. مع إنه من الممكن أن يربح ٣٠٪ من قيمته خلال هذا العام. وربما أكثر. والحل أن يدفع ثمن رواية واحدة. على أن يحصل على ثلاث نسخ من الرواية بعد صدورها. كانت الرحلة مليئة بالإكتشافات المثيرة. من لحظة البدء وحتى لحظة الإنتهاء من طبع الرواية.

كان المؤلف يحصل على المبالغ التي يبيع بها الإيصالات. ويذهب ويعطيها لمتولي. حتى يشتري الورق بمعرفته. لأن المؤلف لا يدري الكثير عن هذا العالم الغريب، وكان متولي يضيف إلى المبلغ من عنده. وكان المؤلف محتاراً. وكان السؤال الذي يدق عظام رأس المؤلف هو: لماذا يقدم له متولي كل هذه التسهيلات؟ ولأن المؤلف كان يعجز عن العثور على إجابة لسؤاله. كان يطرد الأسئلة بسرعة حتى لا تفسد عليه عملية طبع الرواية.

المفاجأة لم تكن بعيدة. في إحدى زيارته للمطبعة. كان من المفروض أن يأخذ المؤلف بروفة على الملزمتين الأولى والثانية. لكي يراجعهما. في الطريق. قال المؤلف لنفسه: اليوم سأحصل على بروفة. وراح يتذكر آخر مرة راجع فيها بروفات إحدى رواياته. واكتشف أنه نسي رغم أهمية هذا العمل بالنسبة له. الذاكرة صندوق به ثقب سري في مكان ما منه. لقد نسي رغم قرب اللحظة منه. في المطبعة كانت تنتظره المفاجأة. بمجرد وصوله إلى المطبعة. سأله متولي:

ـ ما هو رأي الرقابة في الرواية؟

دهش المؤلف من السؤال. قال إنه لا توجد رقابة على الكتب في البلاد. إن الذي أعلن القرار هو رئيس الوزراء شخصياً. وقف في مجلس الشعب. وقال إن الرقابة على الكتب قد ألغيت. أو رفعت. لا يذكر المؤلف التعبير الذي استخدم بالضبط. وحيث أن الرقابة على الصحف قد ألغيت أو رفعت من قبل. فإن الحرية قد أصبحت موفورة لكل الناس.

ذكره بالتهليل. والهتاف والتصفيق الذي قابل به أعضاء مجلس الشعب القرار الذي قيل وقتها إنه قرار تاريخي. وأتى في وقته. والدوي الأعلامي الذي تلا إصدار القرار. حيث قيل إن مصر أول دولة في العالم الثالث والوطن العربي والشرق الأوسط. ترفع فيها الرقابة على الكتب. وتحدث الصحف أن يصدر قرار مثل هذا في إحدى الدول الإشتراكية. وإن بعض الصحف أسهبت في نشر تاريخ فرض الرقابة على الكتب. وإنه كان قراراً استثنائياً. في وقت الحرب العالمية. لا يذكر إن كانت الأولى أو الثانية وإن استمرار وجود الرقابة. يعد عدواناً على الحرية. وإن ثورة يوليو قصرت منذ قيامها لعدم إلغاء وجوه الرقابة.

أثناء اندفاع المؤلف في الحديث. كان متولي يضحك. وكان صوت الضحكات يرتفع لدرجة انه غطى على صوت المؤلف. قال متولي. بعد ان توقف المؤلف عن الحديث. ان المؤلف قرأ جزءاً من القرار في الصحف. ولكن الأهم هو الجزء الذي لم يقرأه. وهو الذي يقول ان الرقابة على الكتب ترفع. وعلى وزارة الإعلام إعداد مشروع قانون جديد للمطبوعات. على ان يتم ذلك على وجه السرعة. وحيث ان الوزارة لم تعد ذلك القانون. ولن تعده قبل فترة. فالذي نمر به الآن. يسمى من الناحية القانونية. مرحلة انتقالية. بين قانون الرقابة على الكتب الملغى. وبين قانون المطبوعات الجديد والذي لم يعد بعد. وفي حالة الفراغ هذه. تنشأ بعض الأجهزة. تقوم بالعمل المطلوب في غياب القانون. الذي ألغي.

في حالتنا. يوجد جهازان. الجهاز الأول. هو جهاز الرقابة القديم. الذي أصبح على شكل هيئة وطنية استشارية تقدم المشورة لمن يطلبها. أي لمن يذهب إليها ومعه عمل أدبي. يطلب فيه الرأي والمشورة. هل يصلح للنشر أم لا. وهي في الظاهر هيئة استشارية فقط. بمعنى ان قرارها غير ملزم لأحد. لا تصدر قرارات. تقرأ العمل بشكل ودي. وان وافقت على نشره. تقول هذه الموافقة بشكل شفوي. ينشر العمل. دون ان يكتب على الأصول الكلمة القديمة «يطبع» وان طلبت هذه الكلمة. سيُقال لك. ان الجهاز غير موجود. فكيف يصرح ويلغي ويمنع وهو ملغى. ان ما يقوم به الجهاز. نوع من الخدمة الوطنية الاستشارية.

وان رفضت نشر الكتاب. تحجز المخطوط لديها. لن تكتب انها ترفض النشر. اذ كيف تسجل على نفسها كتابة انها ترفض نشر عمل أدبي في عصر الحريات العظيم. انها تعطيك الكتاب بأدب. وتقول لك

رأيها الاستشاري. تقول لك لا تنشر هـذا الكتاب. وبعـد ان ينصرف المؤلف. تقـوم الرقـابة. بكتـابة خـطاب رسمي إلى وزارة الـداخليـة. تخـطرها فيـه. ان المـواطن فـلان الفـلاني. والـذي يسكن في العنـوان الفـلاني. والذي يعمـل في المكان الفـلاني. تقدم لهـا بمخطوط لكتـاب للتصريح بالنشر وحيث ان الكتاب مليء بكذا وكذا وكـذا. مما لا يجـوز نشره عـلى الرأي العـام. وعلى الجماهير فقـد نصـح المؤلف بعـدم نشر الكتـاب. لا في داخـل مصر ولا في خـارجهـا. وعـلى الأخص خـارج البـلاد. ويذيـل الخطاب بعبـارة: مرسـل للإحـاطـة واتخـاذ المتبـع من الإجراءات. وتفضلوا ـ سيادتكم ـ بقبول فائق التحية والاحترام. وعلى الخطاب من أعلاه ومن أسفله جملة مكتوبة بالأحمر وتحتها أكثر من خط: سري جداً.

تبـدأ مباحث أمن الـدولة. عملهـا. وأول مسألـة على البـال: هـل لصـاحب هذا الكتـاب دوسيه عنـدهم. أم لا؟ ان كان لـه دوسيـه يتم استخراجه ويكملون العمل فيه. ابتـداء من اللحظة التي تـوقف فيها. وهـو يعفيهم من أعمال كثـيرة. لأنـه يكـون تقـريـراً وافيـاً عن المؤلف. وظـروف حياتـه وعمله ودخله وميولـه السياسيـة ومواقفـه. وان لم يكن للمؤلف دوسيه لديهم. يبدأون العمل من الصفر. مرحلة التحـريات. جمع أكبر قدر من المعلومات عنه. بصرف النظر عن أهميـة المعلومات أو عدم أهميتها.

منـطقة السكن، الجـيران، الأفراد الـذين يتعامـل معهم. البقـال، المكوجي، الخضري. الفاكهي. الأفـراد الذين يمكنهم دخـول المسكن دون إثـارة للريبـة، النجـار، السمكـري، السبـاك، صبي المكـوجي والزبال. أقرباء المؤلف من الدرجة الأولى والثانية والثالثة. من يزورونه في بيته. أوقات الزيارة. هـل تحضر سيارات غـريبة. ينـزل منها أنـاس

ويصعدون إلى شقته. ما هي أرقام السيارات؟ خطابات البريد التي تصله. أختامها وهل هي مصرية أم اجنبية؟ هل له علاقات نسائية. وان كانت موجودة. أي الأنواع من النساء يفضل؟ المرأة البيضاء أم السمراء. الممتلئة أم النحيفة. مواعيد الخروج من المنزل والعودة إليه. الانفاق اليومي. عادات النوم وتناول الطعام. هل يخاف القبض عليه؟ علاقته بزوجته وأولاده. هل فسدت العلاقة بالزوجة لدرجة ان تعمل مع جهاز الأمن ضده. وتكشف موقفه لهم.

في العمل، الرجال الذين يعملون لحراسة المبنى. من قوات الأمن. رئيس العمل، من يتمكنون من فتح المكتب بعد الظهر، مثل السعاة. لا بد وان الوزارة لها مندوبون في مكان العمل. فيطلب منهم التعاون في العمل يتم الحصول على صورة من أوراق ملفه. شهادة الميلاد. الشهادة الدراسية. ملخص موقفه الوظيفي. منذ التحاقه بالعمل. صفاته في العمل، مواعيد الحضور والانصراف. الدخل بالضبط. حتى تتم مضاهاته بالمنصرف. لمعرفة ان كان له دخل خارجي أم لا، من يزوره في العمل. البريد الذي يصله. المكالمات التليفونية التي تحول له. رأيه في الأحداث التي يمر بها الوطن. علاقاته النسائية. هل هو جبان، رعديد. شجاع، لا يهمه شيء. ما يقوله في مكتبه. الصور التي يعلقها فيه. الكلمات التي يضعها تحت زجاج مكتبه. الأوراق التي يرميها في صندوق الزبالة.

بعد السكن والعمل يأتي النادي. ان كان المؤلف عضواً في أي نادٍ. ثم النقابة المهنية أو العمالية. أو الاتحاد الذي هو عضو فيه. وكذلك المقهى الذي يجلس عليه. ان كان من هواة الجلوس في المقاهي. وهنا يلعب الجرسون وماسح الأحذية والباعة الجائلون الدور المطلوب. انهم يحاولون سماع ما يقوله المؤلف. ونوعية من يقابلهم. وهل يلتقي بهم

بصفة دورية. أم بالصدفة. قدرته على الانفاق في المقهى. لا بد من الإلمام بالنشاط السياسي للمؤلف. ان كان له أي نشاط سياسي. من خلال نقابة مهنية، أو من خلال العمل.

من ليس له ملف عندهم يسمونه علامة الاستفهام. ويظل هكذا حتى يفهموا كل شيء عنه. وربما استدعى الأمر وضع المكالمات التليفونية أو المراسلات البريدية له تحت الرقابة. كل هذا يعد مرحلة أولى. لوضع اليد على اتجاهاته.

تليها عملية التفتيش في القلب والنبش في الضمير. والبحث في أعماق الصدور والرحلة في النوايا والأفكار. وترجمة الهمسات وقطرات الدمع واستنطاق نظرات العين ودبيب القدم. والخطورة في هذه الخطوات لا حصر لها. أولها إنشاء ملف لشخص لم يكن له أصلاً ملف لديهم. وهذا يعني انه سيظل تحت أعينهم من الآن وإلى الأبد. حتى وان أصبح بعد هذا لا عمل له. فهو مراقب تحت عنوان العناصر الخاملة. المؤلف أصبح معتقلاً تحت الطلب. أو احتياطي معتقلين. والحاصل انه عند حدوث أية اضطرابات. فإن مثل هذه الأجهزة. لكي تبدو يقظة ترجع إلى ملفاتها. وتقدم كل من يوجد اسمه في الملفات. باعتبارهم الذين صنعوا الاضطرابات. وفي كل مرة يقع الكثير من الضحايا. وفي بعض الأحيان. تكون الدولة في حاجة إلى شغل الناس ببعض القضايا الجانبية. وتقدم الدوسيهات كل المطلوب. الأسماء والبيانات والاتهامات. وقد تكون هناك حالة من العداء مع دولة لها اتجاه سياسي. فيتم ضرب الأفراد الذين يمثلون هذا الاتجاه.

بعد جمع البيانات. المطلوبة. تجري عملية تسكين للمؤلف. في الادارة التي تقوم بمراقبة نشاطه. ومتابعة أموره. خاصة العمل الأدبي الذي كان ينوي نشره. والتسكين يبدأ بعد تحديد أولي. هل نشاط

المؤلف داخلي أم خارجي. وبعد ذلك يتم التسكين. سواء لدى مكتب النشاط الديني. أو مكتب مكافحة الشيوعية. وان كان المؤلف قد بدأ في الطبع فيوجد بالنسبة للمطبعة إدارة. اسمها مباحث المطابع تخطر بموضوع الكتاب. وحتى ان كان المؤلف لم يتعاقد مع أي مطبعة. فإن مباحث المطابع تبلغ كإجراء وقائي.

ـ مباحث المطابع؟

ـ نعم.

ـ ذلك شيء جديد.

ـ وما يستجد سيكون أكثر إثارة.

ـ ولكن ذلك من اختصاص وزارة الإعلام.

قال متولي. ان ذلك على الورق. ولكن الحاصل انه بعد رفع الرقابة على الكتب. وكان القرار سياسياً. كان لا بد من صدوره في توقيت زمني معين. وهذا يعني ان الدولة كانت في أمس الحاجة لصدوره. من يومها خصص كل قسم شرطة أو مركز أو حتى نقطة بوليس. مخبراً أو إثنين. أو أكثر حسب اتساع المركز وانتشار المطابع في دائرته. هذا المخبر مهمته المرور على المطابع يومياً. ومعه دفتر أحوال. به اسماء المطابع وعناوينها وأسماء أصحابها. ومهمته هي التأكد بنفسه. مما تقوم المطابع بطبعه يومياً يدونه بالدفتر. ويوقع صاحب المطبعة بالعلم.

ذلك مخالف للقانون. ولكنه يحدث وفي كثير من الأحيان يدخل هذا المخبر لتفتيش المطبعة. لعل وعسى. دفتر الأحوال يطلع عليه الضابط في القسم. وان شم رائحة الريبة في شيء يطلب إرسال الأصول والجمع إليه لكي يقرأها بنفسه وطبعاً لا يمكن استعجال الضابط. فهو جهة من جهات السيادة. وهذه الجهات لا يمكن استعجالها. وإن وجد

المخبر في المطبعة شيئاً يطبع ولم يبلغ به يجري إلى الضابط. وهناك يقدم تقريره. والاتهام جاهز. لدى القسم ومعد للتنفيذ. ثم ضبط منشورات معادية للنظام. تحرض على قلبه وتهاجم القيم الأساسية لهذا الشعب وغير مرخص بطبعها في المطبعة الفلانية.

وكما أن الاتهام جاهز. فإن الأدلة المادية والشهود على أهبة الاستعداد ويمكن إحضارهم في أي وقت لعرض الأمر على النيابة. التي أعطت الإذن بالتفتيش والضبط شفهياً بالتليفون لخطورة الأمر ومن لحظة صدور الأمر الشفهي. وحتى عرض الأمر على النيابة. تحدث أهوال. يتحول التفتيش إلى هتك عرض للمطبعة. ولا يدري أحد. من أين يحضرون منشوراتهم المعادية؟ يدخلون المطبعة بدونها. والمطبعة لا توجد بها منشورات. ولكن أثناء التفتيش يصيح واحد منهم. بأنه وجد المطلوب. وتكون المنشورات ملقاة وسط الكتب. وصاحب المطبعة هو آخر من يعلم. من أين أتت هذه المنشورات. والسؤال هو هل يملك صاحب المطبعة حق تفتيش الذين يفتشون المطبعة قبل دخولهم؟ طبعاً لا يملك هذا الحق. لأنهم هم الذين حصلوا على الأذن. وليس هو ولن تتمكن المياه من الصعود إلى الأعالي. هل يستطيع المحكوم أن يفتش الحاكم صاحب السيادة؟ ويعرض على النيابة. التي تقرر عرضه على نيابة أمن الدولة العليا.

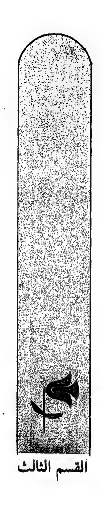
داخ المؤلف من قسوة الرحلة الطويلة. ومن جديد. أطل التساؤل القديم ورن في ذهن المؤلف المتعب:

ـ هل الرجل صاحب مطبعة، أم يعمل معهم؟.

بعد الحكاية الطويلة. قال له متولي: إنه مستعد لطبع الرواية الخطرة. ولن يخبر أحداً عنها. وذلك موقف منه. لأنه مع الفكر الحر

والرواية الجريئة. شكره المؤلف. ولكنه تساءل: هل يقـدم الرجـل على ذلك من أجل سواد عيني الفكر الحـر والروايـة الجريئـة. أم أن في الأمر مكيدة ما؟ ولأن المؤلف كان قد وصل إلى الحافـة الأخرى لليـأس قال: فليكن ما يكون.

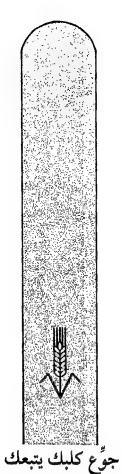
وقرر أن يكمل المشوار حتى نهايته. مع متولي.



القسم الثالث

ارق الفقراء





جوِّع كلبك يتبعك

«مثل من زماننا»

يقال انه واحد من وصايا أصدقائهم الاميريكيين العشر. حتى يحيون حياة مستقرة ولكي تتم المحافظة على الوضع الراهن كما هو.



١

ملف القضية

هذا هو الجزء الثالث. والأخير من الرواية. ومن يعود إلى الغلاف يجد أن عنوانه هو: أرق الفقراء. كان الجزء الأول عنوانه نوم الاغنياء. والثاني: المزاد. ويذكر المؤلف القارىء، ان التقابل في العنوان بين الجزئين الأول والثالث. كان ينطلق من عبارة تقول، ان مهمة الدولة في مصر. أصبحت حماية نوم الاغنياء من أرق الفقراء وهكذا دار فعل النوم الأول. والأرق الأخير والمستمر. حول البيع في المزاد.

المؤلف لا يفعل هذا، من باب تقديم ملخص ما نشر. على طريقة ما يحدث عندما تنشر القصص مسلسلة. ولكنه يحاول وصل الخيط. وربط الحاصل الآن بما سبقه من أحداث. ولهذا يعود إلى آخر ما جرى في ميدان التحرير. وربما يفعل المؤلف هذا لتصوره. ان الرواية من الصعب صدورها مرة واحدة. قد تكون هناك فترات زمنية. تفصل بين الجزء والآخر. كما انه من الممكن ان يصدر جزء في مكان. والجزء الثاني في مكان ثان. كل هذه الاحتمالات واردة.

المؤلف يبدأ من الخيط الذي تركناه معلقاً من قبل. وهو موقعة ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٦. أو حرب التحرير، أو معركة الكعكة الحجرية. كلها مسميات لما جرى في ميدان التحرير. في ذلك اليوم. كان آخر ما

جرى ان الأسرة التي القي القبض عليها. ومن لحظة القاء القبض على العائلة. تبدأ احداث هذا الجزء الثالث، الذي يتحدث عن الأرق المرهق والمضني للفقراء. في مواجهة النوم السعيد للأغنياء.

نبدأ من غبار معركة الميدان. ليس مهماً اسم ما جرى هناك. ولكن لأنها معركة. لا بد وان يكون هناك منتصر ومهزوم. ولا بد وان يعلن المنتصر نصره. وان يلعق المهزوم جراح هزيمته. كانت معركة. وكل معركة لها أسرى وشهداء وجيش يستعرض نصره. في شارع المواكب والاستعراضات. حيث يمر الجيش وبين يديه الاسرى والعبيد والسبايا.

هذا ما جرى فعلاً. بعد المعركة. والغبار لا يزال يغطي الميدان. والدخان يشكل طبقة كثيفة. كانت التقسيمة جاهزة: الجرحى نقلوا إلى المستشفى. والشهداء. الذين سموا قتلى نقلوا إلى مشرحة زينهم تحت حراسة مشددة لحين وصول أهاليهم لتسلم جثثهم. والأحياء الذين بقوا على قيد الحياة. نقلوا الى السجون. تمهيداً لاجراء تحقيقات معهم. على وجه السرعة.

ألقوا القبض على أسرة المليونير. من كانوا في الميدان أودعوا في السجن. ومن لم يكونوا في الميدان بدأت ملاحقتهم. والذين القي القبض عليهم. سلموا ما معهم في امانات السجن. شعروا بخجل لأن ما معهم كان قليلاً. أخذوا منهم حتى الساعات. وتركوا - عند دخول السجن - الزمن خارج الزنازين. والليل والنهار والاحساس بالزمن.

اللعبة تطورت. وصلت الى مستوى لم يكن يتوقعه أحد. من قبل، كنا نلف وندور في داخل عائلة المليونير. كان قعر العالم وسقفه معروفين. أول السلم وآخره. وكافة الدرجات بينهما. دخلت الصورة

عناصر جديدة. الشرطة والنيابة والمحاكم. شهود الزور ورجال المباحث. كل هذا أصبح طرفاً في اللعبة. ان افق الرواية. الذي كان ثابتاً من قبل. أصبح من الآن افقاً متحركاً يبدأ من عسكري البوليس. ولا أحد يعرف الى اين ينتهي. ان كان مقدراً له الانتهاء.

أسرة المليونير في السجن. البعض منهم يدخله لأول مرة. وربما تصورنا انهم يعانون من الخوف. الاعماق ترتجف والقلب ينبض بعنف. كأنه يدق دقاته الأخيرة. حقيقة الأمر. كانت غير هذا. المليونير واسرته. في وضع أفضل من حياة القبر. كل واحد في حجرة لها أربعة جدران. وسقف وباب يغلق ويفتح. صحيح أنه يغلق ويفتح بتعليمات صادرة من جهات أخرى. غير سكان الغرف. ولكن غرفة ـ ولو في السجن ـ افضل من غرفة حرة ولو في القبور.

هنا يوجد الطعام والمياه والشاي وأحياناً السجائر. من كان يحلم بهذا وفي ظل هذا الوضع المريح لعائلة المليونير. كان من القوا القبض عليهم في ورطة. ماذا سيفعلون بهذه العائلة. وبالعدد الضخم الذي القي القبض عليه في الميدان راحت السكرة وجاءت الفكرة. ولا بد من مواجهة الموقف الآن.

كانت حصيلة من القي القبض عليهم في الميدان كبيرة. والشرطة لها موقف واحد في مثل هذه الحلات. اقبض على كل من تمتد يداك اليه. وفي التحقيق تتم عمليات الفرز. التي يعرف بها الجاني من المجني عليه. وشاهد الاثبات من شاهد النفي.

هناك من هرب، لحظة القاء القبض، ومن فشل في الهرب القي القبض عليه. العائلة وقعت في ايدي الشرطة. وحتى ابناء العائلة الذين لم يتحركوا من القبر الى الميدان. القي القبض عليهم. الاستاذ القي القبض عليه، وهو فوق الكبري العلوي. وبمجرد وصول أيدي

الشرطة اليه . قال انه من العائلة . وانه وان كان قد رفض فكرة البيع في ميدان عام . الا انه حضر لأنه لا يمكنه نفض يديه من الأمر . وكأنه لا يعنيه .

حجز الاستاذ في مكان بعيد عن العائلة . عاش الملك أمسكوا به . قال لهم . انه يعمل معهم . ولهذا تم حجزه في مكان منفرد خاص به . وطلب منهم ابلاغ حضرة الضابط الذي يعمل معه . حتى يتحرك ويحضر من اجل انقاذه . القوا القبض عليه . وهو في مهمة عمل رسمية . ومكلف بها من الضابط .

المفاجأة الحقيقية ، كانت في جندي الأمن المركزي . الذي خلع ملابسه الرسمية ووقف مع العائلة . في نفس الدائرة . لحظة القاء القبض عليه كان يرتدي ملابسه الداخلية فقط . بعد ان كوّم الملابس الرسمية وسلاحه . وكل ما كان معه . وحتى اوراق اثبات شخصيته . في مكان ظاهر . ولأن من امسكوا به زملاؤه في العمل . فلم يكن محتاجاً لأن يقول لهم أي شيء عن نفسه .

تم حجزه في مكان خاص به . بعيداً عن الكل . سواء افراد الأسرة ، أو الجماهير التي كانت تقف في الميدان . وقيل ان هذا العسكري ، من المفروض ان تشكل له محكمة عسكرية عليا . لأن الجريمة التي ارتكبها ابشع جرائم الميدان . ولا تنطبق على أحد من الذين كانوا في الميدان . ان جريمته تصل الى الخيانة العظمى . ولكن كانت هناك قضية فرعية لا بد من حسمها وهي : هل كانت هناك علاقة بينه وبين العائلة أم لا ؟ حيث ان الأمر سيختلف كثيراً . في حالة وجود علاقة سابقة بينه وبين العائلة .

كان المؤلف هناك . سيق ضمن الآخرين ، الذين سيقوا الى السجون . وهو يركب احدى السيارت . التي كانت تقف في الشوارع

المهجـورة. والصامتـة. والتي منعوا النـاس من الوقـوف أو حتى المـرور فيها.

قال لنفسه: يبدو ان نصف مساحـة هذه البـلاد مخصص للسجون. هل يوجد وطن فيه سجون تكفي هذا العدد من المواطنين؟

قال المؤلف لنفسه: يبدو ان هناك سجـوناً احتيـاطية تحت الـطلب. جاهزة في كل وقت، لابتلاع اي عدد من المواطـنين. ولكن اين يوجـد هـذا العدد من السجـون الواسعـة. التي تفتـح افـواههـا في كـل وقت لتطلب المزيد مثل النار تماماً.

وهو يدخل السيارة كان يفكر. ان الـدولة ربمـا فشلت في حل ازمـة الاسكان. لأنها نجحت في بناء السجـون. وأنه بـدلاً من سكنى الناس في بيـوتهم. مفـروض ان تـطمئن الـدولـة الى سجـون واسعـة. تحت الطلب. قال المؤلف في مـرارة: مع اننـا نسمع في كـل يوم انهم هـدموا سجناً. يبدو ان القرار الحقيقي. يكون ببناء سجن جديد. فيه احـدث اشكال التعذيب. على آخر تكنولوجيا العصر. ثم يقولون لنـا ان العملية عبارة عن هدم سجن قديم.

عنـد القاء القبض عـلى النـاس في الميـدان. كـانت هنـاك تقسيمـة واحدة. العائلة التي عرضت للبيع. والمتفرجون. كـان ضرورياً فصـل هذه عن هؤلاء. العائلة اصبحت وحـدها. كـل فرد فيهـا وحده بعيـداً عن الآخـرين. كـان الهـدف ان يشعـروا بـدبيب الخـوف. وبـبرودة الوحدة. ربما كان وجود الآخرين في الميدان هـو الذي يمنحهم دفئـاً من المستحيل تعويضه.

أمـام قـوات الشرطـة المنتصرة. كـانت هنـاك مشكلة التصرف في الحالة، المفروض عرض العائلة على النيابة. ولكن المشكلة هي الجنـاية او الجريمة. التي يعرضون بها. محاولة بيع العائلة في ميدان عام لا تدخل

تحت اي بند من الجرائم الموجودة في قوانين العقوبات. كان لا بد من ربط العائلة بالجماهير التي كانت حولها. واعطاء الأمر صفة سياسية. وفي قواميس الشغب والانتفاضات الكثير من الأوصاف التي يمكن تطبيقها على حالة العائلة.

قبل بدء التحقيقات. جرى استعداد ضخم لدى الشرطة والنيابة، التي أخطرت بالأمر بصورة مبالغ فيه. وصلت الى اعلان حالة التأهب. وكأن البلاد تستعد لخوض حرب ضد الأعداء. وقبل بدء التحقيقات. تنبأ رجال الشرطة. ان وراء الرجل. الذي عرض أولاده للبيع في ميدان عام. جهازاً أو تنظيماً. وجهة مجهولة. وعقلاً خطط له الأمر. من أوله إلى آخره. والمسألة لن تتوقف عند حدود البيع. كان هناك مسلسل لم تكتمل فصوله. كان يمكن ان ينتهي بحرق القاهرة. بمن فيها. نحمد الله ان الأمر انتهى دون ان يصل المسلسل الى نهايته الطبيعية. قال الضابط: ان الجهة التي تقف وراء العائلة. معادية لشعب وحكام مصر على طول الخط.

كان الحديث يدور حول المخطط الدموي. لعب الخيال دوراً. في إكمال الجزء الباقي من الخطة. في الثامنة مساء. وهو وقت الذروة في الميدان. كان من المفروض، ان يصل الرجال الآخرون. الذين ينفذون الجزء الثاني من الخطة المتفق عليها. والنجاح مضمون. نحن شعب يعاني من حالة فراغ وتوتر اجتماعي. لا أحد يحقق ذاته أبداً. المشاكل رهيبة والترف الاستهلاكي. والعربدة الاقتصادية. وتبجح الأغنياء. وحصار البضائع في كل مكان. يجعل حواس الانسان متجهة الى الخارج. ان الفراغ والخواء الداخلي. يجعل حب الاستطلاع حالة مرضية.

المتآمرون لديهم فكرة جيدة عن عقلية الجماهير. وعن اللاشعور

الجمعي لها. ففي مصر. يكفي أن يجري اي شخص ما. وراء شخص آخر. ويقول الشخص الثاني عن الأول. انه حرامي أو جاسوس أو خاطف فتاة صغيرة. حتى يجري الكل وراءه. لا يهم ان يكون الأمر لعبة أو مؤامرة. وعلى هذه الخاصية الهامة لدى الجماهير. تم ترتيب حسابات المتآمرين. بكل دقة.

كان من المفروض ان يتم الأمر على النحو التالي: تصل العائلة إلى الميدان بصورة فردية. وقد تم اختيار ميدان التحرير. لكثرة المنافذ المؤدية إليه. انه الميدان الوحيد في مصر، وربما في العالم. الذي يؤدي اليه اربعة عشر منفذاً. كلها على شكل شوارع واسعة. ثم انه يطل على الميدان. وبالقرب منه. حوالي عشر مقاهي ومطاعم وكافتيريات. وفيه كوبري علوي على شكل دائري. يتسع لألف متسكع من البشر. ويطل على الميدان موقف اوتوبيس رئيسي تصب فيه. كل خطوط مواصلات القاهرة. وفيه حديقة عامة. وهذا يحقق للمتآمرين امرين. الأول: ضمان تدفق عدد كبير. من الناس بمجرد وصول العائلة الى الميدان. والثاني: ان يتمكن باقي افراد التنظيم من الاندساس وسط هؤلاء الناس. والتحرك معهم. الى العائلة في مكانها الذي ستقف فيه. وتحريك الموقف كله.

بالتأكيد هناك خطة محكمة. وأوراق مدون بها الخطة. وان لم تكن مدونة في أوراق. فهي موجودة في اذهان من نفذوا الأجزاء التي نفذت. ومهمة التحقيق هي استخراج كل الاعترافات الخطيرة من اذهانهم. مهما كانت صعوبة عملية استخراج المعلومات.

ويواصل الخيال البوليسي اكمال الخطة: كانت الخطة الموضوعة تقضي بأن يبدأ أعضاء التنظيم في ترديد بعض الهتافات. التي تستغل معاناة الجماهير الشريفة. ولأن القاعدة الجماهيرية وطنية مخلصة. فهي سترفض

ترديد الهتافات والشعارات لأنها معادية للوطن. وهنا سيُخرج المخربون السكاكين والخناجر. وتحت تهديد السلاح. قد تفعل الجماهير ما يطلب منها. وهو عبارة عن القتل والحرق والتخريب والتدمير. وهكذا تتحول القاهرة الى كتلة من اللهب في ثوان. ولولا حكمة رجال الشرطة لوصل الامر الى هذا الحد.

التحقيق المبدئي، الذي أجري مع العائلة. قبل وصول النيابة وعلمها بالأمر اجراه ضابط شرطة صغير السن، من ذاك النوع من البشر، الذي يقول عنه علماء النفس، انه يرغب في العراك مع سقف العالم يحلم بمقعد المأمور. وبمجرد جلوسه على مقعد المأمور. يبدأ في الحلم بمنصب مدير الأمن. وبعده مساعد الوزير. والوزير. ونائب رئيس الوزراء ورئيس الوزراء. وما ان يجلس على مكتب رئيس الوزراء. الضخم والفخم والانيق. حتى يضرب جرساً بجواره. وينادي سكرتيره او مدير مكتبه أو مستشاره. وهو في العادة، كائن من الدرجة الثانية. لا يجيد سوى ان يكون تابعاً. يقف اما الضابط الطموح. الذي يسأله. وابتسامة المنتصر تسبق سؤاله:

ـ ما هو اقصر طريق للجلوس فوق مقعد رئيس الجمهورية.

هذا الضابط الطموح. تقدم الى رؤسائه. وطلب منهم ان يعهدوا اليه بالتحقيق المبدئي. مع العائلة الخطيرة. لأن لديه خبرة واسعة. في التعامل مع الخارجين على القوانين. خاصة مع التنظيمات السرية. ولديه قدرة فائقة على كشف كافة محاولات التخفي لديهم.

بدأ التحقيق مع العائلة. ومع الأعداد الكبيرة التي القي القبض عليها، في الميدان وبدأت عملية ضخمة. من أجل جمع أكبر قدر من المعلومات عن العائلة.

لكن سعادة الضابط لم تدم طويلاً. لأنه امام ضخامة العدد

المقبوض عليه اتخذ الكبار قراراً بان يشارك في التحقيق. اكبر عدد من المحققين. ذهب الى المسئولين. قال لهم، ان لديه القدرة على التحقيق مع هذا العدد بمفرده. قالوا له ان ذلك من الناحية العملية مستحيل. ثم ان المطلوب هو السرعة. طلب ان يكون مشرفاً على التحقيق. قالوا له ان ذلك مستحيل ايضاً. لأنه سيشارك في التحقيق. بعض الضباط من ذوي الرتب الأعلى منه. كان الضابط حزيناً. قال لنفسه. انه تعرض لمؤامرة من نوع خطير. ضربت أحلامه الاساسية.

وفي الوقت الذي بدأ فيه التحقيق. بدأت التحريات. وجمع المعلومات عن العائلة. اكد البحث والتحري. الذي اجري بسرعة. جملة من الأمور الخطيرة. في حياة الأسرة المتآمرة. بدأت التحريات بسؤال اساسي: لماذا ذهبت الاسرة من الاساس الى المقابر؟ هناك رد جاهز لدى الأسرة. ذهبت الى المقابر لانها لم تجد سكناً لكي تعيش فيه. وهذا غير صحيح. فالاسرة كان لديها مسكن فخم وعظيم. في حي من احياء وسط المدينة، واكثرها قدماً وعراقة وهو حي عابدين. ولأن مصر اصبح لها في الايام الاخيرة سعراً. واصبح لكل مكان اهميته الخاصة. وثمنه الذي وصل الى ارقام خيالية. تنازلت الأسرة عن شقتها في حي عابدين وحصلت على مبلغ عبارة عن خلو رجل. يصل رقمه الى الصفر الثالث. وربما يتعداه. فالآلاف اصبحت مبالغ قليلة في بهجة هذه الأيام السعيدة.

الاسرة اذن، اقدمت على فعل يجرمه القانون. وله كثير من العقوبات في القوانين المصرية. فضلاً عن هذا. فان خلو الرجل جريمة لها طابع سياسي. فهي تهدد السلام الاجتماعي. وتخلق حالة من البلبلة توحي للآخرين. ان البلاد تعاني من ازمة اسكان. لا وجود لها.

المهم. حصل الرجل على خلو رجل، قبل أن يصبح المدعي العام

الإشتراكي مسئولاً عن مثل هذه الجرائم، ذات الطابع السياسي. ويبدو أن الرجل علم بمسئولية المدعي الإشتراكي عن الجريمة التي ارتكبها. فقرر أن يلعب هذه اللعبة.

وقد ثبت من التحريات، واقعة حصول الرجل على خلو الرجل. ومبلغه، ومن الذي دفعه، وشهود الإثبات. وأهمية الواقعة أنها تثبت أن الانتقال من عابدين، إلى القبر، لم يكن بسبب قهري. وهذا يضع آلافاً من علامات الاستفهام أمام حكاية الانتقال. ويعود السؤال لكي يطل برأسه: لماذا انتقلت العائلة إلى القبر إذن؟

المخطط قديم، وهو يعود إلى خمس سنوات مضت، وإن شئنا الدقة إلى خمس سنوات ونصف. والمخطط أخذ من القبور. مجرد مكان لتنفيذ الجريمة ومن السكان منفذين. وذلك من خلال العائلة التي اندست وسط سكان القبور. والمخطط أكبر من هذا. إنه يعود إلى العلاقات المريبة، بين العائلة، وبين القوى الدولية. التي تعمل ضد مصر. وشعب مصر وحكومة مصر، وقائد مصر وزعيم مصر. وتهدف إلى إسقاط الشعب المصري. من خلال إسقاط الحكومة الحالية. التي هي روح وضمير الشعب المصري العظيم.

منذ حضور العائلة إلى المقابر، وأفرادها يحاولون الاندساس وسط سكان القبور. الذين يعيشون حالة حقيقية من المعاناة من هموم الحياة اليومية. واختيار سكان القبور كنقطة لبدء أعمال العنف والتدمير والشغب لا يحتاج إلى مناقشات. من المؤكد، انه في تصور من يقف وراء العائلة. ان سكان القبور. لأنهم يعيشون في القبور. لديهم إحساس كاف بالاضطهاد الاجتماعي. والقهر الطبقي. وبالتالي، فهم بذرة صالحة، لبذر التمرد والفوضى. ودفع الناس للعمل ضد النظام. والاستجابة عندهم فورية وسريعة.

والـذين دفعوهم إلى هـذا. وقعـوا في خـطأ الاكتفـاء بـالتصـورات النظرية. المؤخوذة من الكتب. ونسوا اننـا هنا في مصر، نعيش كـأسرة واحدة، متآلفة، سواء كنا حكاماً أو محكومين، فقراء أو أغنيـاء، سكان مدن أو أهالي ريف من يعيشون في القصور. ومن كتب عليهم القضـاء والقـدر أن يعيشوا فـترة من الوقت في القبـور. كنوع من البـلاء الـذي يمتحن به الله. إرادة المؤمنين في هذه الحياة الدنيا، إنهم لا يعـرفون اننـا نعيش أسرة واحـدة. نحب بعضنا البعض. رغم اننـا ورثنا تـركة ثقيلة من عقد الستينات اللعين. الذي مضى وانقضى ولن يعود مرة أخرى.

مخـططـو المؤامـرة، بـدأوا العمـل من منـطقـة القبـور لتصـورهم الخاطىء، ان المنطقة ربما كانت بعيدة عن يد الدولـة. لأنها توجـد على هامش المجتمع. ولكننا خيبنا ظنهم، فرغم أن الإقامـة في القبور، تعـد من الأعمال غير الشرعيـة، وقوانـين البلاد تحـرم البقاء في المقـابـر بعـد الخامسة مساء. ولكن شرعية الحيـاة وسط القبور أمـر. وتواجـد أجهزة الدولة هنـاك أمر آخـر. ولهذا كـان لنا رجـالنا وسط السكـان والتربيـة والخفراء. لا نبالغ حين نقول: كان لنا رجالنـا وسط الأموات أنفسهم. لمعرفة ما قد يفكر فيه الميت من الأمور.

أليس وارداً، بالنسبة للمخـطـطات الخطيرة، استخـدام الموتى ضـد الدولة؟ من يستبعد قيام الموتى، بتأثير هذه المؤامرات، بالمطالبة بالعدالة في بناء القبور، من ناحية الشكل والحجم والتكاليف؟ وعندما ندرك أنه توجد في هذه المنطقـة مقابـر للشهداء. نـدرك خطورة العمـل. في هذا المجال، الجديد على أجهزة الشرطة في كل أنحاء العالم.

قمنا بزرع بعض عناصرنا بين الموتى، وذلك من أجل سلامة الوطن المصري. ولن نتكلم عن الـطريقة التي فعلنـا بها ذلـك. لأنها في غايـة السريـة ولا يمكن الكشف عنهـا في هـذا الجيـل أو الأجيـال القـادمـة.

سيطرنا على الأحياء والأموات. وإن كان هناك مجال جديد بالنسبة لنا. لم تمتد إليه أيدينا. فهو الأجنة في الأرحام. خاصة وأن العلم قال أخيراً. ان هذه الأجنة تفكر أحياناً. في أمور العالم. ونحن ندرس بالتعاون مع الأجهزة المماثلة في دول صديقة لنا. تعد من أكثر الدول تقدماً في عالم اليوم. طريقة السيطرة على الجنين في بطن أمه. ومعرفة إن كان يفكر ضد الدولة أو معها. ونحن الآن في سبيل الوصول إلى طريقة علمية لمعرفة فيم تفكر هذه الأجنة. منعاً لتسرب أي فكر معاد. يؤثر على الأجنة في الأرحام. ونحن نطمئن الجميع.

وصلت العائلة إلى القبور. وبدأ أفرادها يعلمون. كل واحد حسب الدور المطلوب منه. في العائلة شاب متعلم. اختفى بمجرد بدء الرحلة إلى ميدان التحرير. لأسباب قد لا نعلمها. ولكن من المؤكد أن الدور الذي قام به الشاب كان قبل التحرك. أثناء الإقامة في القبور. وكان دوره هو جمع أكبر قدر من المعلومات عن الحياة في المنطقة. قال الشاب للناس إنه يعد كتاباً عن الحياة وسط القبور. وهو سبب وجيه. ولكن ثبت لنا. انه كان مجرد غطاء خارجي لإخفاء السبب الحقيقي الذي لم يقله الشاب أبداً.

قام الشاب، بعملية مسح أولية. وجس نبض. مع محاولة التعرف على الناس في المنطقة. وربما كانت هناك بعض العناصر العملية بين سكان القبور. وهي عناصر قليلة جداً. وكان المطلوب من الشاب الاتصال بهم وإخبارهم أن العائلة قد وصلت. وان بدء العمل قد أوشك. وساعة الصفر على الأبواب. وان هناك كلمة للسر ستبلغ لهم في الوقت المناسب.

الشباب الذي قام بهذه الاتصالات. كان طالباً في الجامعة. والاختيار له هدفه فهو يتحرك داخل وسط قلق. برميل البارود،

الأرض الملتهبة. إنهم الشباب الذين لا يفهمون أمور الحياة. وليست لديهم خبرة دقيقة بالدنيا ومن السهل التأثير عليهم. الدور الذي لعبه الشاب، لا يجرنا إلى الاعتقاد. إنه العقل المدبر لما جرى. نحن أذكى من ذلك. ربما كان المقصود من وجوده أن يغطي على العقل الفعلي الذي دبر كل شيء. وهذا يجعل أصعب شيء. هو الوصول إلى العقل الفعلي المدبر لكل ما جرى.

الشاب المنظم، كان له مهمة أخرى. وهي إنشاء فرع الجامعة للتنظيم، والتنسيق مع الفروع الأخرى. في القطاعات المختلفة. وإن كانت له أهدافه الخاصة. مثل عمل صحف الحائط. وتجميع كل الطلاب الذين تسكن عائلاتهم في القبور. واتحادهم معاً. وعمل ندوات داخل الجامعة عن سكان القبور. وفي الجامعة جو حر يسمح بهذا. وقد تكون هناك أكثر من ندوة. واحدة عن صحة من يعيشون في القبور. وأخرى عن نفسية ساكن القبر. وثالثة عن اتجاهات سكان القبور نحو سكان البيوت.

هذا الشاب، كان مكلفاً بالاتصال بنقابة المحامين. رغم انه ليس عضواً فيها الآن من وضعوا المخطط يعلمون الدور الذي ستقوم به النقابة في ظل ظروف الوطن الراهنة. اتصل الشاب ببعض قيادات النقابة. ومن المتوقع أن نجد نتائج هذه الاتصالات في المستقبل. وقد تمكننا من جمع بعض كلمات الشاب التي يرددها وسط زملائه. فهو القائل. إن إصلاح مصر يعني تدميرها. وهو الذي يقول. إن بلدنا له قعر معروف ولكن السقف لا حدود له فلكل منا سقفه الخاص به. وهو الذي يردد: ليس أمام الحكومة الحالية سوى فرض حالة قشرية من الاستقرار عن طريق القوة القمعية. التي سرعان ما تصبح دموية الطابع. وقد يؤدي هذا إلى انفجار حالة من العنف التي تذكرنا بعنف أواخر الأربعينات وأوئل الخمسينات.

هـذا الكلام الخـطير، عـرفنـاه من التحـريـات. وإن كـانت أوراق الشاب لم تضبط بعد. والكل يتوقـع أن نجد في هـذه الأوراق. كل مـا نبحث عنه. في المؤامرة. ولكن في الكلمات الشفـوية. من القـرائن، ما يجب على كل سؤال. عن المؤامرة وحجمها وابعادها وأهدافها. كـما أن علاقات الشاب ستكشف عن التنظيم الخطير. الذي كان هدفه الوحيد قلب نظام الحكم.

في العائلة شخص، كان يخرج كل يوم، يتجه إلى ميـدان التحريـر. ثم يقف في مكان محدد لا يتغير. أمام مجمع المصالح الحكومية. إنه حـر يقف كـما يشاء، في أي مكـان وأي وقت يشـاء. والكـل أحـرار مثله. ولكن إن كان من حق هذا الشخص الوقوف بصـورة يومية متكررة في نفس المكان. فإن من حقنا. بل من واجبنا. أن نعرف مـا هي حكايتـه بالضبط.

أكدت المراقبة. انه يقف كل يوم. وبيده جريـدة قديمـة. ليست من الصحف القومية. ولكنها من الصحافة العميلة الصفـراء التي تصدر في الخارج، ولا عمل لها سوى الهجوم على مصر وقائدها. وما دامت مصر هي القائد. والقائد هو مصر. فمن يهاجم القـائد. فقـد هاجم مصر. السؤال يـطرح نفسه هنـا: من أين كـان يحضر هـذه الجـرائـد؟ التي لا تـدخل البـلاد. لأن مـوزعي الصحف والمجـلات ـ وهم من العنـاصر الوطنية والشريفة ـ رفضوا توزيع هذا الورق الأصفـر. والشعب رفض الإقبال عليه.

وجود هذه الأوراق معه. يؤكد أن ثمة جهة ما. أوصلتها إليه: ذلك خيط هـام من خيـوط القضيـة. نحن نتبعـه بكـل دقـة. بعـد وقـوف الشخص، فترة من الوقت. تحضر له فتاة. تتغير كل مرة. تتكلم معه. ثم يحضر بعـدها أفنـدي وهو لا يتغـير أبداً. ولـه ثلاثـة مكاتب للسفـر

خارج البلاد. وبعد الكلام والأخذ والعطاء، نحن لا نعرف طبعاً هذا الكلام. لأن التعليمات الصادرة لرجالنا. أن يراقبوا الناس من بعيد. وأن تكون المراقبة لتصرفاتهم دون محاولة السماع لما يقوله الناس من كلمات وجمل وعبارات. لأن ذلك يجعلنا نتعدى حدودنا. ونحن في دولة، أهم ما فيها الحدود الفاصلة بين السلطات والأفراد.

يتوجه الثلاثة. الشخص والفتاة والأفندي. إلى مكتب مأذون قريب من الميدان. وهو مأذون واحد في كل الحالات. وبعد قليل يخرجون إلى مكتب سفريات. ثم يعودون إلى مجمع التحرير، بالتحديد إلى إدارة الجوازات والهجرة.

النظرة الخارجية، تؤكد أن الذهاب إلى مكتب المأذون. بقصد الزواج، والذهاب إلى مكتب السفريات وإدارة الجوازات، بهدف السفر إلى الخارج بعد الزواج. وقد تبدو الأمور منطقية أمام من لا يستخدم ذهنه. في النفاذ إلى ما تحت أسطح الأشياء. كل هذا غطاء للعملية الأساسية. وهي الاتصال بمندوبة التنظيم القادمة من الخارج ومعها الدعم والتعليمات الجديدة. والخطط التي ربما تغيرت في اللحظة الأخيرة.

المأذون ومكتب السفريات مجرد أماكن للقاء أما الذهاب إلى الجوازات فالهدف منه إعطاء القصة صورة تجعلها قابلة للتصديق. وربما كانت الفتاة مجرد رسول من القادم الحقيقي من الخارج. الذي لا يظهر بنفسه. حتى لا ينكشف الأمر.

التنظيم يعمل بهمة ونشاط. لأن هذا اللقاء يتم في بعض الأحيان بصورة يومية ومهما قلت عدد مرات اللقاء. فهي لا تقل عن مرة في الأسبوع. وهي درجة متقدمة من الاتصال. تعكس مدى نشاط التنظيم. ومن المعروف أنه كلما اقترب موعد الضربة الأساسية. كلما كثرت اللقاءات.

تعالوا نلقي نظرة على خريطة العائلة. المؤامرة لم تترك فرداً دون أن يكون له دور فيها. حتى الأطفال الصغار. فهم يتوجهون كل صباح إلى طوابير الجمعيات الإستهلاكية. ويعودون منها في المساء. ولا يوجد مع أي منهم بضاعة اشتراها من الجمعيات. والسؤال: لماذا يذهب الأطفال إلى الجمعيات. إن كانوا لا يشترون منها أي شيء.؟ ولماذا يتحملون عذاب الوقوف في طوابيرها. كل هذا الوقت الطويل، دون هدف؟

من المعروف أن طوابير الجمعيات من الأماكن التي يتواجد فيها العامة من الناس. خاصة الفقراء والمحتاجين. الذين يقفون في الطوابير. في لحظات البحث عن الطعام. وهي لحظات من السهل أن يتكلم فيها الناس عن المتاعب التي يعانون من الظروف الصعبة. وهذا غير صحيح. ويدخل تحت بند الإشاعات، المغرضة. لأن أغنياء البلد يعانون. بدليل، انه عندما فكرت وزارة التموين، في سحب بطاقات التموين من الأغنياء. هاجوا وثاروا واشتكوا. وقالوا إنهم في أمس الحاجة إلى مثل هذه البطاقات لكي يعيشوا في سلام. وهذا أكبر دليل. على أنهم يعانون. وإلا ما اشتكوا وتمسكوا بهذه البطاقات.

ولكن يبقى السؤال: لماذا يستخدمون الأطفال بهذه الصورة؟ هل يذهبون لإثارة شفقة الناس عليهم؟ هل يقفون في الطوابير حتى تصورهم أجهزة الإعلام المعادية. ويقال إنه حتى الأطفال يتعرضون لمهانة الوقوف في الطوابير؟ هل يذهبون وفي ملابسهم أجهزة تسجيل دقيقة لمعرفة ما يقال في هذه الأماكن؟ أم انهم كانوا أداة للاتصال مع جهات أخرى.

بالنسبة للأطفال، لم يتخذ قرار. والعاملون في الأطفال يترددون عليها. يخضعون لتحقيق دقيق.

الأطفال يحضرون إلى الطوابير ويعودون. ؟ وإن كان الاحتمال القائم إن طوابير الجمعية. تصلح كستار للتحركات المشبوهة من شدة زحامها. ويكون من الصعب مراقبة العناصر التي تقوم بمثل هذه التحركات. والغريب، أن هذه العائلة. بعد أن سقطت في مستنقع الخيانة. وصل بها الأمر إلى درجة تجنيد الأطفال. وإدخالهم في هذه اللعبة. التي لا يمكن وصفها سوى بالخيانة.

حتى نساء العائلة، لهن أدوار في المؤامرة. في العائلة فتاة جميلة. طالبة في الجامعة. ويبدو أن الهدف من دخولها الجامعة. ليس التعليم. ولكنه هدف آخر. كان مرسوماً لها قبل دخولها الجامعة. لا علاقة له بالتعليم. لقد صادقت فتاة معينة. من بين آلاف الفتيات في الجامعة. هذه الفتاة لها شقيق. ارتبطت معه بعلاقة حب. وقد لا تكون هناك غرابة. ولكننا عندما نعلم أن والد الفتاة وأخاها. يعملان في أحد أجهزة الدولة الحساسة والخطيرة والهامة. لدرجة أنه لا يمكن كتابة اسم هذه الجهة في أوراقنا. إذن فالتنظيم يحاول اختراق. أحد أجهزة الدولة الحساسة.

يبقى السلاح الآخر، وهو الجنس. وقد فشل. رغم أن الفتاة رتبت خلوة. بين ابنة القبور وبين الشاب، شقيقها، في منزل صديقة ثالثة. والفشل سببه، أن أولاد الناس، حياتهم تعوم فوق بحيرة من الذهب. ولديهم حاسة سادسة. ضد هذا النوع من البشر. ويرفضون قيام علاقات معهم.

زوجة الرجل الكبير. بدأت بعد حضور العائلة إلى المقابر. تلف على سكان القبور. تتظاهر انها تضرب الودع. وتقرأ الغد والمكتوب. وهي حيلة لمن يشاهد الأمر من بعيد. ولكنها بعد الجلوس مع الزبون. بدلاً من قراءة الودع. ومناقشته فيما يكنه له الغد. فإنها تتحدث في

الموضوع الأساسي الخطة والتعليمات. ما نفذ وما لم ينفذ. وعند دفع الأتعاب لها. تنتقل الأوراق من الزبون إليها. ومنها هي للزبون.

العائلة تحتفظ بمخزن للسلاح تحت المقبرة التي كانت تعيش فيها. بعد حضور العائلة إلى القبر. بدأ الحفر. وتم إحضار الأسلحة ليلاً. قطع السلاح، كانت تنقل من السيارات التي أحضرتها إلى المخزن. كان هناك فرع للتنظيم يعيش تحت الأرض، مهمته توسيع رقعة المخازن. ويقال ان الهدف الآخر كان أن تشمل المخازن كل المنطقة الواقعة تحت القبور. ودخول السلاح في العمل. ينفي عن التنظيم سلمية العمل. ذلك أن هدفه ـ كان من الواضح قلب نظام الحكم بالقوة.

أكدت التحريات والمعلومات. التي لدينا. أن هناك شخصاً غريباً عن سكان القبور. يبدو أنه مثقف. أخذ يتردد في الفترة الأخيرة على سكان القبور. بعد أن ظهرت عليه. أعراض الاهتمام، الذي يصل إلى حد الهوس. بحياة سكان القبور. وهذا ما يعطي العملية. الكثير من الأبعاد الخطيرة. وحيث أن هذا الشخص المثقف، يستخدم أكثر من سيارة. ويترك السيارة في مكان بعيد. قبل دخول المنطقة. فمن المؤكد، انه يشكل الصلة، بين المنظمات الدولية والعائلة خصوصاً. وانه لم يكن يذهب بقصد التردد على قبر يخصه، مدفون فيه بعض أقاربه. ولم يكن ذهابه إلى القبور. في مناسبات عامة.

هذا الشخص، وضع تحت المراقبة الدقيقة. والجميل انه متورط في الكثير من الأمور الخارجة على القانون. أقلها يوصل لحبل المشنقة. ولكن الدولة تعامل رعاياها برحابة صدر لم تحدث من قبل. فالشخص المثقف يقرأ الجرائد والمجلات بدقة وعناية. وهذا معناه أنه عنصر مُعَادٍ. القراءة التي تنطلق من نوايا سليمة. معناها أن تقرأ المكتوب

فقط. أما الدقة والعناية فمعناها أنك تحاول قراءة ما بين السطور. وتحاول استنطاق الكلمات ـ حتى ما لم تقله هذه الكلمات ـ وهذا يؤكد النوايا السيئة المسبقة. منه ضد النظام.

إنه يجمع كل المعلومات المطلوبة. عن سكان القبور. وقد شوهد يتردد على منبر اليسار. وتلك جريمة متكاملة الاركان. من وجهة نظر الامن السياسي، أو السياسة الامنية. صحيح ان هذاالمنبر موجود رسمياً. وفي اطار من سيادة القانون والشرعية الدستورية. ولكننا نحن الساهرين على خدمة مصالح الوطن العليا، نرى ـ ونحن في البدايات ـ ان وجود هذا المنبر خطر على أمن الوطن والمواطن. وقد ابلغنا اعتراضنا رسمياً للدولة. بخطابات لدينا أرقامها.

ثم ان هذا الشخص، يشاهد كثيراً. وهو يحمل الكتب. وان كنا نشاهد شكل الكتاب الخارجي فقط. ولكن من يعرف ما تحويه بداخلها من الكوارث. التي لاحصر لها؟ ما من مصيبة حلت بالبشرية الا وكان سببها كتابا. هل سمع احد عن كتاب حقق تقدماً ما للبشرية؟ التقدم يحدث من الاختراعات العلمية فقط. أما الكتب فهي توزع الاحقاد والاوهام. والشكوك. نحن نكره هذه الكتب، حتى لو كانت مدرسية، أو جامعية. ونتمنى ان يكون هناك اختراع جديد بديلا عنها. تفاديا للاخطار التى تسببها. وقانا الله شرها.

هذا الصباح، تم تكليف، ثلاثة من اكفأ الضباط. الاول مكلف بالسفر الى روما. والثاني بالسفر الى بون. والثالث بالسفر الى طوكيو. وفي النية محاولة ارسال ضابط آخر الى طرابلس الغرب. وان كانت تجرى حالياً دراسات كثيرة. حول امكانية دفع احد العملاء. بدلا من ارسال ضابط. نظراً لحالة التوتر الموجودة في العلاقات مع ليبيا.

اما ان هذه العائلة تعمل مع دولة كبرى جداً. هى احدى القوتين

الاعظم. التي تعادي شعب مصر. وحتى الآن لم نتمكن من ايجاد صلة بين العائلة وبين الدولة الكبرى. واما انها تعمل مع احدى الدول العربية. التي تعادي القائد شخصياً. وفي حالة عدم ثبوت هذين الاحتمالين. يصبح من المؤكد ان العائلة. على علاقة بإحدى المنظمات الارهابية المدفوع لها. من هذه الدولة أو تلك.

حامت الشبهات، ان هذه المنظمة، إما ان تكون بادرماينهوف ومقرها المانيا الغربية. أو الالوية الحمراء وهي من ايطاليا. أو الجيش الاحمر الياباني. نعرف ان هذه المنظمات ضعيفة ولا تمثل أي قوة في بلادها. ويعد ان وصلت لحالة الشلل التام في بلادها. قد قررت نقل العمل الى الخارج. كمحاولة لاثبات القدرة على البقاء.

ارسلنا ضابطاً الى العنوان الذي قدمه المليونير. الرجل الكبير في العائلة على انه القرية التي حضر منها. الرجل متآمر من الدرجة الاولى. لأنه ذكر لنا اسم قرية. دون ان يحدد المركز أو المديرية التابعة لها. هذه القرية. ولأن الامر كله مؤامرة كبيرة من البداية. فقد اكد انه لا يذكر المركز ولا المديرية وانه هرب من قريته في فترة مبكرة من عمره. قال ان القرية اسمها الضهرية. وعند البحث في اوراقنا وسجلاتنا. اكتشفنا وجود اكثر من قرية تحمل الاسم. ولأننا لا نعرف كلمة مستحيل. لذلك سافر ضابط الى كل القرى التي تحمل اسم الضهرية.

عاد الضباط من الخارج. ليؤكدوا أنه لا توجد صلة بين هذه المنظمات وبين العائلة. ولكنهم تأكدوا من خلال العمل المضني. انه توجد دولة عربية. من الصعب كتابة اسمها في هذا التقرير. لأن الاسم رفع الى القيادة السياسية. على وجه السرعة. لكي تتخذ القرار السياسي المناسب. هذه الدولة تعد لثلاث محاولات في وقت واحد. الاولى: احداث شغب في الداخل والثانية: محاولة غزو الحدود.

والثالثة: محاولة اغتيال شخصية سياسية كبيرة. وان هذه الدولة. وهي عربية للأسف. اكدت هذه المنظمات. انها تحاول عمل بروفات للمحاولات الثلاث. على ان تقوم بهذه البروفات عناصر من المصريين أنفسهم.

بعد عودة الضباط الثلاثة. وجدنا انفسنا امام ثلاثة انواع من الاخطار. متاعب داخلية، محاولة غزو، محاولة اغتيال شخص هو رمز البلاد كلها. وأمنه الشخصي اهم من امن مصر. رفعت المعلومات بطريق التسلسل الطبيعي، الى السيد الوزير، كانت المعلومات تحمل تأشيرة السرعة المطلقة. ولكن الوزير قبل حمل هذه المعلومات الى استراحة الرئاسة. وبدلا من ان يشكر من قاموا بالعملية. ويقدر لهم ترقية. ويصرف لهم مرتب ستة اشهر فوراً. ويخصص لكل منهم سيارة وشقة وشاليه في المصيف. وقطعة ارض ضمن مشروعات الامن الغذائي والثورة الخضراء. بدلاً من هذا كله. سأل الوزير:

ـ أين الوثائق الحية التي عادوا بها؟

لم يجدْ ردا. الوثائق عبارة عن تقارير. عاد بها الضباط. وقد حولت صور منها لسيادته. ولأن الوزير لم يستمع الى اجابة قال ببطء:

ـ اين وثائق الصوت والصورة؟

كان الكلام جديداً بالنسبة لنا. الوزير يطلب وثائق من نوع جديد. قال انه كان يجب على كل ضابط. ان يحمل معه جهاز تصوير فيديو حديث. واجهزة تسجيل صوتية الكترونية. لكي يقدم ما عاد به بالصوت والصورة. لعرضه في استراحة الرئاسة.

قال الوزير انه يعتبر ذلك الطلب، من التعليمات الدائمة مستقبلاً. كل أمر لا بد من تصويره بالصوت والصورة. كنوع من التوثيق للعمل. وهو يقوم بهذا العمل. لا لكي يواجه به اعداء النظام. فهؤلاء

أمرهم معروف. ولكن ليواجه بعض عناصر هذا النظام. التي تسمي نفسها بالعناصر العاقلة، وهي تقلل من أهمية ما تتوصل اليه الوزارة. وتقلل من الاخطار التي تهدد النظام وفي مواجهة هذه العناصر، والى ان يتم ضربها. لا بد من تقديم الوثائق فهي أصدق من أي شيء آخر. قلنا للوزير ان الاعتمادات المالية مشكلة وفي الحال، فتح اعتمادات، مالية سرية وعلنية. ومن بنود ومن خارج البنود. ودخلت هذه الاعتمادات، أوراق الوزارة، من باب جديد. اصبح اسمه من الآن فصاعداً «بالصوت والصورة»، قال ضابط صغير لنفسه، بصوت لم يسمعه حتى هو شخصياً: من المتوقع انشاء ادارة في المرحلة القادمة، يكون اسمها، ادارة الصوت والصورة.

الذي لم يعرفه الضباط، ان الوزير، قبل ان يرفع الاوراق الى احدى الاستراحات. قد الحق بها رايه الخاص. قال، انه يتصور، والقرار متروك للقيادة العليا طبعاً. انه يجب شن حرب وقائية ضد هذه الدولة. من باب تأديبها. ومن باب. ان ترى ان عين القيادة المصرية من الممكن ان تكون حمراء. وان اليد المصرية. قادرة على التأديب. حتى خارج حدود الوطن. وان الردع قد يكون وسيلة مطلوبة في بعض الاحيان قال انه مرت فترة دون ان يحرز انتصارات خارجية. ومع هذه الدولة بالذات فالانتصار مؤكد ومضمون.

الضباط الذين سافروا في الداخل لم تكن مهمتهم بنفس سهولة مهمة الضباط الذين سافروا الى الخارج. ولهذا لم تكن الحصيلة بنفس القدر. سافر هؤلاء الضباط الى القرى المنتشرة والتي تحمل اسم الضهرية، دون ان تكون معهم بيانات صحيحة عن الرجل. كان من الصعب معرفة اسمه الحقيقي. واسم اولاده وزوجته. كما ان الضباط لم يكن ممكناً لهم الحديث بحرية عما قام به هذا الرجل في القاهرة. كل

مـا كـان معهم . . ألقــاب وصفـات وأعـمال مشكـوك فيهـا . وعـادوا بحصيلة من البيانات والمعلومات . .

خرجت العائلة الغريبة ، من قرية اسمها الضهرية . ونظراً لوجود اكثر من قرية تحمل هذا الاسم . في بـر مصر . جمعنا هـذه المعلومات من القـرى كلها . لم تستبعد المعلومـات ان يقدم شخص مثـل هذا . بمـا قام بـه في القـاهرة . واكـدت على الجـوانب السيـاسيـة في العملية من الالف الى الياء . واكدت التحريات . ان من يرفض الحياة في ريف مصر . ويجري نحو المدينة . لا بد وان فيـه خطأ ما . من البداية وان مثل هـذه العائلة التي رفضت الحيـاة الناعمـة في الريف . وجـرت نحو المـدينـة كـان من الطبيعي ان تتسبب في كل هذه المشاكل في المدينة . وربما يعـود الخلل في حياة هذه الاسرة الى الفقر . فهي من افقر فقـراء الريف المصري . ولا يعود نسبها الى اي من العائلات الكبـيرة . المعروفـة في الريف . كـما ان العائلة لم تترك عندما رحلت اي بقايا لها في القريـة . ويبـدو ان افـرادها رحلوا مرة واحدة .

هـذه الاسرة تركت الـريف فـي ظل ظـروف شديـدة الغموض . لم يحصل رب العائلة على عمل في المـدينة . ولم يكن هنـاك عذر قهـري في القرية يدفعه الى تركها واحد من الضباط الذين سافـروا . تعب جداً في اقتـلاع الذكـريات من اذهـان الرجـال الكبار . كـانت هامـة . في القاء الضوء على الحاصل الآن .

قبل ترك العائلة القرية بفترة . كان يحضر اليهم الغرباء . في السادسة صبـاحاً . يـتركون السيـارات الفخمة والضخمـة خارج القـرية . عـلى شاطىء الترعة . ويتسللون الى داخل القرية مثـل اللصوص . وفي بيت العائلة . كان الحديث يدور همساً . وبعد الكلام والشرح . كان الغـرباء يدفعون لرب العائلة أموالاً . اوراق مرقمة ، خارجة لتوهـا من البنوك .

يمكنها ان تذبح الانسان لو مرت على رقبته.

الأموال في يد الفقير، تظهر آثارها فوراً. عاد الغرباء الى مصر. بعد الاجتماع بالرجل. السيارة التي حضروا بها غالية. ومن النوع الذي يسابق الريح. او يطير في الجو. لونها ازرق مثل سماء الصيف الصافية. وارقامها فوق لوحة خضراء. وهي المرة الاولى، التي يشاهد فيها الناس. ارقام سيارة على لوحة بهذا اللون. ولأن الناس لا يعرفون القراءة او الكتابة. فإن أحداً لم يتمكن من معرفة رقم السيارة.

تناقصت الاموال التي تركها الغرباء. ويبدو ان الرجل لم يقم بالمطلوب منه. فلم يدفعوا له بعدها. او يبدو انهم طلبوا منه السفر. لانه في المدينة حيث الزحام.. الرهيب. يمكنه من العمل بسهولة دون ان ينكشف امره. سافر الرجل «هنا تختلف الروايات: البعض يقول انه تزوج وانجب اولاده في القرية. والبعض الاخر يقول: انه سافر ثم تزوج».

المهم، لم يكن هناك مبرر واحد لسفره الى مصر ولكنه سافر، وهذا السفر لم تكن له مقدمات، ولكنه سافر. لم يكن هناك ما يدفعه لترك الضهرية، ولكنه سافر. ولم يكن هناك ما ينتظره في مصر ام الدنيا لا فرصة عمل، ولا مكان يعيش فيه ولا ابناء ولا عم ولا خال. ولا سكن يخصه. ولكنه سافر. كل الظروف - هكذا قال الناس جميعاً - كل الظروف، كانت ضده ولكنه سافر. وهذا يؤكد ان المؤامرة كانت قديمة في نفسه.

كان التحقيق الذي اجري، مع العائلة ومع الآخرين. مباراة من نوع غريب وعجيب. وهو لم يتم مرة واحدة. ولم يجر في مكان واحد. والذين اجروه كانوا اشخاصاً مختلفين.. وبعد مرحلة من التحقيق. تم عزل الاسرة عن الاخرين. وفي الاسرة عزلوا الاستاذ في مكان خاص.

بعيداً عن العـائلة. والمؤلف الـذي ألقي القبض عليـه في الميـدان. تم التحقيق معه بصورة خاصة.

الجهة التي حققت مع جماهير المتفرجين. غير الجهة التي حققت مع العائلة. غير الجهة التي حققت مع الاستاذ. غير الجهة التي حققت مع المؤلف. عاش الملك كانت له جهة خاصة تولت أمره كله.

جماهير المتفرجين الذين ضبطوا في الميدان. كان عليهم الاجابة على عدد كبير من الاسئلة. الخاصة بالشكل قبل الدخول في الموضوع. لم جاءوا الى الميدان في هذا الوقت؟ ما هو السبب الجوهري للحضور؟ وما هي اثباتات ذلك؟ من الصعب على الانسان ان يتحرك في الحياة ومعه من الوثائق ما يثبت اسباب وحيثيات تحركه.

من قال انه كان ذاهباً الى الطبيب. طولب بورقة حجز الموعد وايصال الدفع والروشتة. وعندما رد بأن اطباء هذا الزمان، لا يعطون ايصالات، خوفاً من الحسد وتهرباً من الضرائب. خاصة وان اجورهم اصبحت من الامور المتحركة كل ساعة. قال المحقق: انه كان يجب الحصول على ورقة من الدكتور. وعندما يرد الشخص، لانه لم يكن يعلم، ان الرحلة الى الطبيب ستنتهي هنا. كان المحقق. يقلب شفتيه. لا يعرف رثاء ام سخرية.

من قال، انه كان ذاهباً للجلوس في المقهى. طلبوا منه ان يثبت ذلك من خلال صاحب المقهى، او الجرسون، اوماسح الاحذية. او من كان يجلس بجواره. هناك من قال، انه كان يجلس في المقهى لاول مرة في حياته. وانه من الصعب عليه ان يحضر من يشهد على ذلك. قالوا له. ان حظك سيىء.

هناك من قال انه نزل لكي يتمشى في وسط المدينة. تحدث عن الشقق الصغيرة، مثل علب الكبريت. وعدد الاولاد الضخم،

والاحياء الشعبية الضيقة، التي يتكدس فيها كل شيء. البيوت والباعة والمحلات والمجاري، واكوام القمامة. والناس التي تاهت وسط هذا التكدس. اصبح من المستحيل على الانسان أن يمارس انسانيته في هذه الحالة من التكدس العجيب، ولا مفر أمام الانسان. ان كانت لديه رغبة في شم قليل من الهواء سوى الحضور الى هنا. الى منطقة وسط المدينة. حيث هذه الحالة من الازدهار البائس، اوالبؤس المزدهر، على الاقل، الشوارع واسعة، وفيها كمية من الهواء النظيف، يمكن للانسان ان يشمها. ما يضايق هذا الانسان، هو وجود هذه الكمية من الروائح العطرية، التي تنطلق من جلود النساء البيضاء. واحساسه انها اصبحت تزحم هواء المدينة.

هذا الكلام، قاله اكثر من شخص في التحقيق. وقد قرر المحقق، انهم من المتعاطفين مع العائلة اياها. ويجب ان يكونوا جزءاً منه. وهذا اوصل المحققين الى تقسيمة جديدة. الجماهير المتفرجين. إما ان يكونوا مع العائلة او ضدها. ومن الذين ضدها. يمكن الخروج بعدد من شهود الاثبات. ضد العائلة. يمكن تقديمها الى النيابة فيما بعد.

الذين ضد العائلة. كان موقفهم واضحاً في التحقيق. كان يبدأ الحديث بادانة العائلة التي تسببت في المتاعب. كان يسأل عن رايه في تصرف العائلة. فيدين هذا التصرف. يبدأ استدراجه الى أمور أخرى. لماذا اقدمت العائلة على هذا التصرف؟ من يقف وراءها؟ هنا كان المحقق يجد نفسه أمام نوعين من البشر. نوع له خيال. ونوع آخر حرمه الله نعمة الخيال.

النوع الاول، كان هو المطلوب، لأن الخيال، كان يلعب دوره في اكمال الاجزاء الناقصة من المسلسل، الذي قدمه البوليس لما جرى. تحدث البعض عن محاولات تجنيده. لكي يقوم بدور ما. في الميدان.

والبعض قال انه وصلته ورقة فيها الهتافات المطلوب ترديدها. وهؤلاء كانوا يلاقون معاملة حسنة بمجرد أن يتطوعوا بتقديم هذه الاعترافات.

عند هذا الحد، يشعر المؤلف الأصلي. وليس المؤلف الداخلي، بقدر كبير من الحيرة. لم يصادفه من قبل. والحيرة حول الموقف من التحقيق، هل يثبته كله. وفي هذه الحالة قد يحتاج إلى مجلدات لا نهاية لها، لكي يثبت آلاف الاسئلة والاجوبة، التي تدور حول أمور لا تتطلب هذا القدر من الاسئلة والاجوبة. ام يكتفي بالتحقيق الذي اجري مع العائلة والمؤلف وجندي الامن المركزي. ومن تحولوا من جماهير المشاهدين الى شهود اثبات؟ هناك شهود نفي، وهم باقي الآلاف التي ضبطت. وان كان المحققون قد اخرجوهم من القضية. لأن الهدف، كان البحث عن كل ما يدين العائلة.

هل يثبت المؤلف كل ما لديه ام يختار. وفي حالة الاختيار: يختار على أي أساس؟ ان كلمة ملف القضية التي وضعها المؤلف عنواناً لهذا الفصل. تثير في النفس رائحة الوثائق. وتوحي بطعم الواقع وحضوره. ولكن ملف القضية. يتعدى الخمسة آلاف صفحة. المؤلف يدرك، ان الاختصار مطلوب في مواجهة رواية بهذا القدر من الضخامة. ولهذا سيقدم المؤلف بعض ما جرى في التحقيق.

يجب المؤلف ان يتوقف امام كلمة التحقيق، فالتحقيق، اجراء يقوم به شخص ما. مستنداً الى سلطة محددة. بهدف الوصول الى الحقيقة بنهج قائم على السؤال والجواب. وجمع الادلة والبراهين والتحريات والمعلومات. والهدف ان يصل المحقق الى حقيقة الامر.

ما جرى مع العائلة. ومن كانوا في الميدان. لا يمت الى هذا بأية صلة. من يجلسون على المكاتب، ويوجهون الاسئلة، كانوا يتكلمون لغة. ومن يردون على الاسئلة. كانوا يردون مستخدمين لغة اخرى. لا

تمت الى اللغة التي قيل بها السؤال. المحقق يتكلم عن الدولة ونظام الحكم والشغب والعنف وتحريك الجماهير. وتنظيم الاجتماعات. وعضوية تنظيم غير مشروع. قلب نظام الحكم. الاتصال بدولة اجنبية. الدعم والتمويل. ساعة الصفر وخطة العمل. ولحظة التنفيذ. الخطة البديلة رقم واحد. والخطة البديلة رقم ٢ والخطة البديلة رقم ٣. كان المحقق يشرح الفارق بين الفاعل الاصلي والشريك. وشهود الاثبات وشهود النفي. ومن عرفوا بالأمر ولكنهم لم يبلغوا عنه في الوقت المناسب. والجريمة البسيطة التي ارتكبوها.

كان يتحدث عن السلاح الذي ضبط في مكان وقوف العائلة. والمنشورات التي وزعت على الواقفين. والشعارات التي كانت مكتوبة في اللافتات ومن كتبها. كان المحقق يصل في حديثه الى ما يسميه بمحاولة قلب نظام الحكم بالقوة المسلحة. ويصل الامر الى مداه، عند الحديث عن مخازن السلاح الموجودة تحت المقابر. والتي زاحمت عظام الموتى. واماكن التدريب على استخدام الاسلحة. وفرع الجامعة للتنظيم. وفرع القبور للتنظيم. وفرع التحرير للتنظيم.

لغة لم يفهمها أحد من الذين كان يتم التحقيق معهم. كانت الكلمات تصل إلى آذانهم. تسقط فوقها. فلا تحدث أي دلالة. تبدو الكلمات وكأنها قادمة من عالم آخر. وكانت الردود التي تنطلق من افواه الاسرة تتكلم عن السكن والحياة في القبور. وحقهم في حياة انسانية. واصحاب القبر الذي يعيشون فيه. وحكم المحكمة. والحفر الذي تم بحثاً عن الكنز تحت القبر. وحكم الطرد الواجب التنفيذ. كان البعض منهم يصل في حديثه الى بداية المأساة. الى الحجرة الواحدة. فوق سطح البيت الذي كانوا يعيشون فيه في حي عابدين. وهدم البيت من أجل شق شارع الاستعراضات والمواكب والهتافات والاستقبالات.

عند الاسترسال، في الحكايات. كان المحقق يوقفهم عند حد معين. يقول ان الكلام اصبح خارج الموضوع. وانهم ـ أي أفراد الاسرة ـ يتكلمون عن حكاية لا علاقة لها بموضوع التحقيق. وانه يطلب العودة الى الموضوع الاصلي. وان ذلك اجدى من اللف والدوران.

«الموضوع الأصلي». ضاق الكل بهاتين الكلمتين. المحقق لديه موضوع أصلي اسمه المؤامرة. وهم لديهم موضوع اصلي اسمه السكن. المكان المكون من اربعة جدران وسقف وباب. بدلاً من الطرد الى الشارع. وجد المحققون ان الامر محيراً. ومن الصعب فهمه. الاسرة وجدت نفسها تواجه حكاية من نوع جديد. امر لم يخطر على بال أي منهم.

وهكذا مضت الايام الاولى. بعد القبض على العائلة. مباراة من الصعب وصفها أحياناً، كان يتم وقف التحقيق. من اجل السؤال عن الوثائق. وعند سماع افراد العائلة، كلمة الوثائق. كانت تصيبهم الدهشة بدون حد «وثائق»؟ قال البعض انه لا يعرف معنى الكلمة. التي ربما يسمعها لاول مرة. وهذا الرد كان لا يصدقه أحد من المحققين. وكان هذا يؤكد للمحققين ما يعتقدونه من أنهم أمام عائلة محيرة. لديها قدرة فريدة على اخفاء الحقيقة والتمويه واللعب على المحققين. وابعادهم عن الموضوع الأصلي. كانت العائلة غير مطمئنة لهذا الذي يجري. ولم يكن واحد من المحققين لديه الاحساس انه توصل الى ما يرضيه. او يرضي ما ستعرض عليهم نتائج التحقيق.

بداية التحقيق كانت مع المليونير. وجد نفسه يقف متعباً ضائعاً. أمام محقق مستريح. يبدو انه نام جيداً. في حجرة نوم بمفرده. لا يضايقه فيها أحد. وانه نام عشر ساعات كاملة. واستيقظ من النوم

وقد انتفخت جفونه وتورم خداه من كثرة النوم. ويبدو انه حضر الى هنا. بسيارة خاصة. لم يتعرض لزحام المواصلات. ولا لتعب السير في الشوارع.

وقبل ان يبدأ التحقيق. دخن سيجارته المفضلة. من الانواع المستوردة وشرب قهوته الساخنة، التي تفوح رائحتها في المكتب. فارضة نفسها بقوة على المكان. استراح المحقق في جلسته. وبدأ في املاء ديباجة التحقيق على الكاتب. الذي كان يجلس بجواره. اثناء عملية الاملاء. فكر المليونير كيف يشعر هذا الرجل المستريح بحكايته؟ كيف يدرك معنى ان يقيم الانسان في قبر؟ ان ينام فوق أجداده وأهله. قال المليونير، انه بدون اجداد وان الذين ينام فوقهم أجداد بشر آخرين غيره.

طلب المليونير ان يجلس. احضروا له مقعداً. وجلس في مواجهة المحقق. قال المليونير لنفسه. اللعب تحول الى جد. ما كان يتصور ان المسألة ستتطور الى هذا الحد. أدرك انه غير قادر على فهم ما يجري امامه. من الصعب ان يفهمه هذا الرجل. ومهما قال هو: لن يصدقه أحد. لن يسلمه أحد اذناً قادرة على استيعاب الحكاية. كما جرت. كان لديه يقين ان المحقق الوحيد القادر على فهمه واعطائه العذر. لا بد وان يكون من سكان القبور مثله. تساءل المليونير: قد يكون المحقق صاحب قبر. سكنه آخرون. وفي هذه الحالة سيكون عدوه من اللحظة الأولى.

تكلم المليونير، قبل ان يوجه اليه المحقق أي سؤال. قال موجهاً كلامه الى الكاتب. الذي كان يجلس على يمين المحقق. وقبل ان يكمل جملته. كان الكاتب قد افهمه ان الكلام انما يوجه الى السيد المحقق. التفت المليونير الى المحقق وقال:

ـ الا يوجد من بينكم من يسكن في القبور؟
سأله المحقق:
ـ من بين من؟
قال المليونير:
ـ الذين يحققون مع الناس.
سأله المحقق:
ـ أي قبور؟
ـ القبور التي نعيش فيها
قال المحقق بعد فترة صمت:
ـ ولكني لم افهم ما تقصده بسؤالك.

تدخل الكاتب لكي يشرح، ولكن يد المحقق اللامعة، رفعت في المسافة بينهما. وافهمه ان مهمته هي تدوين ما يمليه عليه. أما عن المشاركة فليس له أي دور فيها. التفت المحقق، بوجهه الناعم مثل الحرير، وذقنه اللامعة من كثرة الحلاقة. للمليونير. وسأله عما يطلبه.

قال المليونير انه كان يستفهم الا يوجد من بين الذين يحققون معهم، واحد مثلهم يعيش في القبور. لأنه الوحيد الذي سيفهم مشاكلهم وهمومهم. ويقف بجوارهم.

انتفض المحقق. عندما وصلته فكرة المليونير المتعب. اعتدل في جلسته اكثر من مرة. وقال انه يرفض الاهانة من حيث الشكل. وانه لا يمكن لمن يسكنون القبور. ان يخرجوا الى الحياة من يصلح لهذا المكان. واشار الى المكتب الذي يجلس عليه. ان الصفوة من الناس لها الاصول المعروفة التي تخرج منها. والدولة في الفترة الاخيرة. احسنت صنعاً. لأنها قررت ان تتحكم في المنبع. الذي تخرج منه الصفوة. فدخول بعض الكليات. أصبح مقصوراً على فئات الصفوة. حتى لا يتسلل الى

قيادات البلاد أحد من الذين خرجوا من القيعان.

سأل المحقق المليونير متوقفاً فجأة:

ـ هل اصابعك العشرة مثل بعضها؟

فتح المليونير فيمه ليرد. ولكن المحقق فاجأه بطلب جديد:

ـ انظر في يديك اولاً.

ولأن الطلب كان حاداً. وخرج من فم المحقق. مع الرزاز المتناثر وسط الكلمات. رفع المليونير يديه. المفرطحتي الاطراف. غير المتناسقة. غريبة الشكل. ونظر فيها. طالعته شقوق حتى في بطن اليد. ودمامل وجروح في ظهرها. شاهد أظافره الطويلة. التي تشبه حوافر الحيوان. شاهد كمية الاوساخ المحيطة بالاظافر. شعر المليونير بخجل. ادرك ان الرجل يحاول تعريته. وشعر المحقق بقرف. وكاد ان يرجع الافطار الدسم. الذي تناوله في كافتيريا فندق جديد افتتح في الحي الذي يسكن فيه.

شعر الكاتب بالرثاء للمليونير والكراهية للمحقق. وكاد ان يتدخل لولا انه ادرك الحدود التي لا يجب ان يتعداها في عمله. نظر المليونير ليديه، واخفاهما بسرعة وقال:

ـ فعلاً، لا يوجد إصبع مثل الآخر.

ضحك المحقق سعيداً. وقال ان مسألة الدرجات التي فوق بعضها هامة. في تحديد الأدوار. وان أي جماعة من الناس ليس لها كبير. لن يكتب لها.. البقاء. قال له ان المثل الشعبي يقول: ان من ليس له كبير عليه ان يشتري كبيره. الا يعكس ذلك الحنين الموجع داخل الانسان. لأن يكون له كبيره؟!

قال المليونير. ان كلام البيه المحقق سليم. وان كان المليونير لم يفهم ما قاله المحقق حول حكاية الدرجات. والكبير الذي لا بد من شرائه،

وان لم يكن موجوداً وما علاقة هذا كله بـالتحقيق الذي سيتم اجـراؤه. كان المحقق على النـاحية الأخـرى سعيداً. بهـذا الانتصار الخـاطف في البداية. واطمأن المليونير. لأنه سيكون عادلاً على طول الخط.

قبل دخول المليونير الى غرفة التحقيـق. سأله الحـارس ان كان معـه محـامياً ام لا. عـرض عليه ان يحضر لـه محامياً. يخرجـه من القضيـة. المليونير يعرف انه لا بد من اموال للمحامي. وهو ليس معه ثمن علبـة سجائر. شكره واشار ناحية السماء. التي لم تكن تبدو. لأنه يفصله عنها أسقف عشرة أدوار. تنام فوق الـدور الذي يجـري فيه التحقيق. وقـال ان محاميه ابو خيمة زرقاء.

غلبته الفكاهة. وكاد أن يسأل الساعي. ان كان هناك محـام مجانـاً. يتبرع بالوقوف بجوار العائلة بدون مقابل، او ان يحصل عـلى اجره فيـما بعد. تمنى لو ان الاستاذ بجواره الآن. علمه وانفق عليه، واقتـطع من قوت يومه من أجل هـذه اللحظة. كـان يقول انهم من الجـانب المظلوم من الناس. وان الظلم الواقع عليهم. أصبح جزءاً من حياتهم اليومية. ولهذا فاحتياجهم لمحام. مسألة مؤكـدة. علمه من أجـل ان يقف معه. وعنـدما اتت هـذه اللحظة. كـان الاستاذ ابعـد الناس عنـه. حتى لـو احضروه. لن يقف معه. لأنه كان له رأي آخـر مختلف عن والده قبـل بدء الحركة.

كيف يمكنه الدفاع عن تصرف لم يكن موافقـاً عليه؟ فكـر المليونـير، انه لن يطلب منه الدفاع عنه. ولكنه سيذكر اسمه كـواحد من ابنـائه. وعندما يحضر. لا بد وان يقف بجواره. لأن الدماء لا يمكن ان تصبح ماء. والظفر من المستحيل اخراجه من اللحم مهما حدث.

التحقيق مع العائلة. بعد احداث ميـدان التحريـر. محطة هـامة في الرواية. وتقديم ما جـرى في التحقيق. يتطلب من المؤلف. ان يقف.

وقفته الرابعة في الرواية. كانت الوقفة الأولى مع العائلة عندما قدمها والثانية عند الرحلة من القبر والثالثة في الميدان. والوقفة الرابعة اليوم امام المحققين. لن يضحك المؤلف على القارىء ويقول له انها ستكون الوقفة الأخيرة. فهناك وقفة اخرى. في احدى نهايات الرواية. قد يسميها المؤلف «اجتماع الشمل». .

هذه المرة. تقف العائلة امام المحقق ويجد المؤلف نفسه مضطراً لأن يقوم بعملية جرد. لأفراد العائلة. قبل ان يقف معهم امام المحقق.

بدأ المؤلف الرواية، ومعه ست عشرة شخصية، هم كل افراد العائلة. قدمهم في الجزء الأول من الرواية. وعندما وصلت العائلة من القبر الى الميدان كان الوضع كالتالي: اثنان بقيا في القبر. هم الست الكبيرة. والطفلة التي ولدت قبل الكارثة بأيام قليلة: انكسار. ذهبت امها في الرحلة. وبقيت هي في القبر مع جدتها. لأن الرحلة كانت صعبة عليها. رحلت العائلة وتركت في القبر أول وآخر العنقود معاً. ثلاثة اشخاص رفضوا الرحيل هم: الاستاذ والعبقري وفاتنة المقابر. واحد كان مع الكل وضد الكل هو عاش الملك. والذين تحركوا من القبر الى الميدان كانوا عشرة افراد.

ومن وصلوا الى الميدان كانوا سبعة الذين جلسوا على الكعكة الحجرية كانوا رجلين وامرأتين وثلاثة أطفال. أم من ضاعوا في الرحلة من القبر الى الميدان. فكانوا ثلاثة: وريث العرش. والدليل المتنقل والهائم.

وجد المحقق نفسه. أمام سبعة من افراد العائلة. رجلان وأمرأتان وثلاثة اطفال. واثنان وجدا في نفس المكان. هما الاستاذ وعاش الملك. تمكن المحقق من احضار الست الكبيرة لأنها كانت لا تزال في نفس القبر. واحضر العبقري الذي كان عنوان عمله معروفاً.

أما فاتنة المقابر، والدليل المتنقل، ووريث العرش، والهائم. كان من الصعب احضارهم.

«يعد المؤلف القارىء. ببحث هذه النقطة بقدر من التفصيل. عندما نصل الى جمع الشمل. في موكب العائد من فلسطين المحتلة في نهاية الرواية».

الحبس وقت التحقيق. له ظروف معينة كان من المفروض ان تذهب النساء الى سجن النساء. والأطفال الى اصلاحية للأحداث. والرجال الى السجن العادي. ولكن من تولوا التحقيق. رأوا ان الأمر في هذه الحالة سيكون شديد التعقيد. كان القرار. حبس الكل في مكان واحد. على ان يكون حبساً انفرادياً.

خافوا من حبسهم مع بعضهم. لأن ذلك قد يولد نوعاً من الاتصالات ربما اضرت بالتحقيق. نعود الى لغة الأرقام. والجرد على طريقة أمناء المخازن. اثنا عشر فرداً من العائلة وقفوا امام المحقق. السبعة الذين كانوا في الميدان. واثنان كانا في الميدان في اماكن اخرى. وثلاثة احضروهم بعد القبض على من كانوا في الميدان.

الغائبون عن التحقيق من العائلة. كانوا أربعة. الثلاثة الذين ضاعوا في الرحلة. وواحدة من الذين رفضوا البيع.

يشعر المؤلف. ان هذا الكلام لا يقال للمرة الأولى. ولن تكون الأخيرة انه مسئول عن هذا العدد من الناس. تسلمهم في بدء الرواية. ولا بد من بقائه مسئولاً عنهم. حتى آخر كلمة فيها. وفي المحطات الاساسية. لا يجد أمامه سوى القيام بعملية جرد لهذا العدد من البشر.

رفض عاش الملك ان يصدق الأمر. قال انه من المؤكد وجود خطأ ما

في الأمـر. من لحـظة القبض عليـه في الميدان. قـال لجنـدي الأمن المـركزي. انـه معهم. نظر لـه الجندي ببـلاهة. سألـه عن السبب في ارتداء ملابس مدنية. ضحك عندما ادرك ان الجندي فهم الأمر خطأً. ادرك ان معناها. انه منهم. انه جندي من الامن المركزي. شعر عـاش الملك بأهمية خـاصة وهـو يقول لـه،. انه يعمـل في وزارة الداخلية. في مباحث امن الدولة. وهذه الاهمية انعكست بدورها على الجندي الذي تـركه وذهب يسـأل الضابط. ثم عـاد ينقل الى عـاش الملك تساؤلاً من الضابط: هل انت في مهمة فعلاً؟

قال عاش الملك بسعادة:

ـ خاصة بما يجري في الميدان.

ذهب به الجندي إلى الضابط. الذي لم يكن مهتماً به بنفس القـدر. ما أن شاهده حتى طلب منه مـا يثبت شخصيته. لم يعـرف عاش الملك كيف يرد على الضابط الجديد. إنه لا يحمـل أية أوراق من التي يـطلبها الضابط. كرر الضابط طلبه. يـريد أن يـرى أية ورقـة تثبت صدق مـا يقوله.

قال الضابط:

ـ إذن أنت مجرد مرشد فقط.

حزن عاش الملك. قال في نفسه، إن الضابط، أفهمه من قبـل، انه عنصر هام في العمل. وانه ربما كـان أهم العناصر التي يتعـامل معهـا. مـرشد فقط، إنـه لم يسمـع هـذا اللقب سـوى الآن. من قبـل لم تكن الألقاب تعنيه. وافق على حكاية المرشد. ولكن المفاجـأة جاءت عنـدما طلب الضـابط القبض عليه مـع الآخرين إلى أن يتم التصرف في أمـره بمعرفة جهات الأمن المختصة.

احتقره الضابط. ولهذا لم ينصحه. لم يطلب منه إخفاء حكاية المرشد

داخل السجن. بمجرد قفل الأبواب عليه مع الآخرين. في الأيام الأولى من السجن. ولمجرد أن طلب من الحارس أن يتصل بالرائد أشرف في مباحث أمن الدولة. حتى انهال عليه الآخرون بالضرب. لا يعرف من أين أتته الركلات والضربات. كان الكل ضده.

ـ جاسوس.

ـ مخبر.

ـ قذر.

ـ خائن.

كلمات تناثرت مع الرزاز الخارج من الأفواه. وكانوا يتناوبون الضربات واللكمات. وكان لا يملك حتى الدفاع عن نفسه. كلما حاول الكلام أوقفته الضربات. نزف دمه. وتشوه وجهه وشعر بألم في أكثر من مكان في جسمه. كان يئن. وبعد انتهاء الحفلة التي قوبل بها لم يكن يجد أثراً لأية رائحة إنسانية في تعاملهم معه. بصق عليه واحد وقال:

ـ حتى في السجون تندس بيننا عناصرهم.

ـ رد عليه واحد:

ـ أليس سجن الحرية؟

حاول عاش الملك الاتصال بالرائد. وجاء الرد في كل مرة، ان الرائد غير موجود. الرائد أشرف في مأمورية، خارج البلاد. لن يعود إلى البلاد، قبل مرور سنوات قادمة. الرائد أشرف نقل إلى إدارة أخرى. فهم عاش الملك الأمر بهدوء. الرائد أشرف الذي كان يتحدث دائماً عن الشرف والقيم، لعب معه اللعبة القذرة. أخذه لحماً وها هو يرميه عظماً. الآن هو شخص له ماض ولكن ليس له مستقبل. مستقبله وراءه. وعليه أن يتصرف على هذا الأساس.

ظل عاش الملك منبوذاً. حتى محاولات إيضاح موقفه رفضت.

وعندما حاول أن يتكلم. مدوا أياديهم في آذانهم. لكي يسدونها دون كلماته. حرموه من الأكل والشراب. فكر في الذهاب إلى العائلة. ولكنه خشي الفضيحة ماذا سيقول لهم عن هذه الضربات؟

ما كان يتصور أن ما يقوم به من الأفعال يرفضها الناس بهذه الصورة. لم يحتمل، قال لنفسه. نار أهلي ولا جنة هؤلاء. كان يشعر بحالة غريبة من الجوع. كان جوعاناً لإنسان يكلمه. يقول له أي شيء. لأنه طوال مدة الحبس. لم يأت لسانه على لسان أحد أبداً. وازن موقفه. اكتشف انه من الأفضل له الذهاب إلى أهله. من السهل عليه اختراع قصة ما. للضرب وآثاره الموجودة على جسمه.

نادى على الحارس. طلب أحد الضباط. قال ان لديه أقوالاً هامة، وعندما حضر الضابط، قال له ببساطة:

ـ أنا من العائلة التي عرضت نفسها للبيع.

ارتفع حاجبا الضابط من الدهشة. أكمل عاش الملك:

ـ أنا ابن الرجل الكبير.

قال الضابط في نفسه:

ـ إنها عائلة غريبة لا أول لها ولا آخر.

قال باقي المساجين.

ـ ملعوب جديد. فصل آخر يقوم به هذا الجاسوس.

لولا وجود الضابط لضربوه من جديد. قرروا إبلاغ الأسرة أمره بأية وسيلة. ولكنهم فشلوا في ذلك لأن الأسرة كانت محتجزة في مكان آخر بعيد.

وصل إلى العائلة. أشفقوا عليه. لم يسأله أحد عما جرى له. والده ثار. هاج وماج واتهم المشرفين على السجن بأنهم هم الذين عذبوه.

وقال إنه لن يسكت عما جرى لابنه. وإنه سيصعد الأمر حتى رئيس الدولة.

كان عاش الملك حزيناً. اذن هؤلاء هم الناس باعهم برخص التراب. يقفون معه. ويتألمون من أجله. كانت راحته الحقيقة عندما عرف انه سيتم حبسه في سجن انفرادي. قال ان ذلك هو الراحة الوحيدة له.

إن الناس تخسر. يخسرون في كل مكان. ولكن القضية ليست هي الخسائر بقدر ما هي: من يصلح الخسائر. من الصعب أن يعاد المكسور إلى ما كان عليه قبل الكسر. هناك مثل شعبي يقول إن ما يكسر من المستحيل إصلاحه.

لن أتراجع عما أقوله أبداً.

أكرر ما سبق أن قلته من قبل..

ألقوا القبض على المؤلف في الميدان. ماذا تفعل هنا؟ كان السؤال مفاجئاً. من حق أي مواطن أن يتواجد في أي مكان من الوطن. دون أن يكون مطلوباً منه تقديم شرح واف للسبب الذي دفعه للحضور إلى هذا المكان.

قال لهم، إن منطقة وسط القاهرة. ليست من المناطق العسكرية، ممنوع دخولها. وليست منطقة حرة. لا بد من سبب لدخولها. وإجراءات تفتيش عن الخروج منها. كما أن منطقة وسط القاهرة، ليست من المناطق المحررة، التي لا بد من استئذان المحتل السابق، الحاضر الغائب. قبل الدخول إليها. إنها جزء من مصر. وميدان التحرير: فكر المؤلف أن يقول لهم من جديد: تحرير من؟ ولكنه خشي أن يدخله ذلك في حكاية جانبية. هو في غنى عنها الآن.

عند السؤال الأول. مرت فترة قبل الرد، أسترابوا في أمره أكثر. من

يرد فوراً، يكون موقفه سليماً. أما من يفكر قبل الرد. فهذا معناه وجود الرغبة في إخفاء الكثير عنهم، معناه أن يؤلف بعض الردود لهم. بدلاً من الردود الحقيقية. والتي من المفروض أن تخرج بصورة عفوية.

أصبح المؤلف وحيداً. تمنى لو أنهم وضعوه مع الآخرين، على الأقل تكون هناك فرصة الاقتراب من الناس في ظرف إستثنائي. تمنى لو أنه أحضر معه بعض الكتب. إذاً لاستفاد من وقته. قرر ألا يترك بيته بعد ذلك إلا ومعه كتاب وورق أبيض. استعداداً لطوارىء هذا الزمان التي أصبحت كثيرة. من قبل، عندما كان يركب الأتوبيسات. لم يكن يترك البيت إلا ومعه كتاب. لأنه كان يسلي الوقت الضائع بالقراءة. أما الآن. فهو يركب سيارة ولذلك من الصعب أن يقرأ.

أدرك المؤلف في وحدته أنه لا يوجد معه ورق. ولا يوجد سوى قلم واحد. قلم جاف حمله بالصدفة. عاش حالة من الجوع للورق. واستيقظ بداخله شبق غير عادي للأقلام. أصبح الوقت أمامه طويلاً. لم يعرف ماذا يفعل به. قال لنفسه، ان الأمر لن يستغرق أكثر من سؤال وجواب واعتذار عن الأمر الذي تم بطريق الخطأ. ثم يطلق سراحه.

تألم المؤلف. لن يكون هناك من يسأل عنه. ومن يطلب زيارته. ومن يحمل له اللهفة والحنين. والدموع في المآقي والشوق في الصدور. لن يكون هناك من يجري وراء قضيته. كاد أن يبكي، عندما أدرك، أنه لو بقي شهراً، عاماً، لن يكون هناك من يقول: أين ذهب.

استعرض في ذهنه كل من يعرفهم من الناس، وجوه، أسماء، بشر في أمكنة كثيرة. ومع ذلك من يتحرك من أجله؟ لا أحد. ربما في قريته البعيدة. القرية التي توجد في القرب النائي. قريبة لدرجة أنها مرسومة في القلب. وبعيدة لدرجة لا تصدق. ومع هذا كيف يعرفون في قريته، كيف يصلهم الخبر؟ وحتى إن عرفوا، ماذا يفعلون؟ انه بين يدي

الحكومة. ذلك الكيان الذي لا يعرف أحد أين يبدأ ولا أين ينتهي. ويصاب الكل بحالة رعب منه. من يجري وراءه في مواجهة الحكومة؟ فرس الحكومة الأبيض، الذي يدخل القرية وفوقه العسكري، يبعث الرعب في النفوس. فما بالك بالحكومة نفسها التي في مصر أم الدنيا.

راح المؤلف يتخيل الأيام القادمة. غداً أو بعد غد. تبدأ الجرائد في الحديث عن القضية. تفرد لها الصفحات. وتكتب عن التفصيلات الصغيرة، «أف» قالها لنفسه بصوت عال. المشكلة أنه مثل الطباخ، الذي دخل من الباب الخلفي لمطعم يبدو بابه الأمامي فاخراً ومثيراً لشهية من يدخل من الأبواب الأمامية. مشكلته أنه يعرف، كيف تتم الطبخات القذرة، التي يتم طبخها في الشوارع الخلفية لهذه الصحافة. التي تقول عن نفسها: صحافة الشعب. يعرف البهارات والشطة الحريفة التي ستوضع في القضية. يعرف، كافة الزملاء الذين سيحضرون لمقابلة الضباط والمحققين فقط. ويحصلون على كافة المعلومات من جانب واحد عن القضية. ثم يعودون إلى مكاتبهم. وينشرون ما معهم على لسان المتهمين.

يعرف أن بعض المحررين، سيذهب إلى بيوت المتهمين، ويقابل أهاليهم ويحاول الحصول، من أم المتهم الأول، على إدانته. ويحاول أن يحصل من والده على كلام يقول فيه انه يتبرأ من ابنه. ويذهب إلى صديق طفولته. ويعود بكلام على لسانه. يقول فيه، ان المتهم الأول، كان معادياً للبلاد منذ طفولته وان ما قام به، ليس غريباً ولا جديداً عليه.

قال المؤلف لنفسه، كم يبدو ذلك غير إنساني، وبعيد عن ما عرفته البشرية. سيحضرون له. يصورونه. يتحدثون معه. العقل المدبر للمؤامرة يتكلم. ابتسم لنفسه في مرارة. لن يدعهم يحولونه إلى حكاية

في البيوت وعلى المقاهي يتسلى بها الناس. قال المؤلف. غريب أمر مصر. إنها تأكل أبناءها مثل القطط. وتساءل: إلى متى تظل مصر هكذا؟

كانت المرة الأولى في حياته. التي يلقى القبض عليه فيها. راح يتذكر ما سمعه عن السجن، والحياة بداخله. تنبه إلى حقيقة الإحساس بالزمن. الإحساس بالزمن يعني أن لديك نوعاً من الارتباط. هنا أو هناك. وانك ذاهب إلى هذا المكان أو ذاك. يعني نزول قطرات الظلام. وان ذلك مقدمة الليل. وإن نزول أول قطرات الضوء يعني مجيء النهار.

الزمن هو الارتباطات والمواعيد. حاول المؤلف معرفة ماذا يتم في هذا الوقت من اليوم. ماذا يحدث في البيت؟ ماذا يحدث في العمل؟ لم تكن معه ساعة حتى يدرك، ما هو الوقت. أخذوها منه أمانات. قالوا له إنهم يأخذون منه الساعة من أجل الحفاظ على حياته. حتى لا يفكر في الانتحار مستعملاً إياها. ضحك من كلامهم.

تذكر آخر المشاهد التي رآها. القبض عليه في ميدان التحرير، يذكر المؤلف انه حاول الهرب. جرى. اكتشف أن كل منافذ الميدان مسدودة. جنود الأمن المركزي يشكلون جدراناً، ملامح الوجوه لا تقول شيئاً. حالة من البلادةوعدم الفهم. قال لنفسه، آه لو فهم هؤلاء اللعبة. كان متعباً وقف أمامهم ولم يتكلم. امتدت يد واحد منهم. أمسكت به. عندما وجده الجندي مطيعاً. أطلت من وجهه ابتسامة منتصرة. أخذوه إلى سيارة تقف في شارع جانبي.

في السجن اكتشف المؤلف، أن الزمن الخارجي. لا يدخل مع الإنسان سجنه. الزمن ليس تدفق الثواني والدقائق والساعات. إنه وعي

الأحياء بانتقال الدقائق والساعات. وهذا الوعي لا وجود له داخل السجن.

في الداخل. كان وقت المؤلف أرقاً حارقاً وغيبوبة لذيذة وسباحة في العرق. كان وقوفاً من جديد أمام كافة الرغبات التي تعشش داخل الإنسان.

من قبل، كان يقول ان معركة عمره مع الزمن أصلاً. الوقت يجري. الدقيقة التي تمر لن تعوض. إنه الآن أمامه جبال وصحارى وبحار ومحيطات من ذرات الوقت. التي لا يعرف كيف يتصرف فيها.

في اليوم التالي، استدعوه. سألوه، كان المحقق شاباً صغيراً وكان مشغولاً بأمر ما يخصه. كان حاضر الجسد غائب الذهن. وكان يلتقط جمل المؤلف من آخرها. أما الكلمات الأولى فلم تكن تصله. وكل تفسيراته. كانت مرتبطة بنهايات الجمل. بعد أن يفصلها عن السياق العادي للجملة. وكان يبدو أنه مصاب بحالة من الصداع. أمسك بجبهته أكثر من مرة. وطلب أكثر من فنجان قهوة سادة. واعتذر بأدب للمؤلف.

ما أن قال المؤلف، إن التسكع في شوارع هذه المدينة الغريبة، المتخلفة لدرجة الحياة في العصور الوسطى. والمتبهرجة لحد الابتذال. وما أن قال المؤلف إنه ـ ككاتب ـ يحتاج لأن تكون له علاقة ما. بالواقع الراهن في مصر. لأن مصر تغير جلدها في هذه الأيام. كل دقيقة. ومصر تقفز بالمظلات. تركت أرضها القديمة. ولم تجد لنفسها أرضاً جديدة تقف عليها. وما أن قال، انه مهتم بقضية سكان القبور. والمخرج من هذه الأزمة. وما أن تكلم عن السكان الذين لا يجدون السكن. والمساكن الخالية التي لا تجد من يسكنها. والخلل الذي يصل إلى حد التطرف. ما أن تكلم عن ساكن القبر وساكن القصر. والمسافة

بينهما. ما ان قال ان الاحتجاج الفردي لا يوصل إلى شيء. وإن تحويله إلى ثورة مسألة صعبة. ما أن تكلم عن الهرم المصري وضرورة قلبه. أن تكون القمة أسفل والقاعدة إلى أعلى.

هنا قال المحقق. ان الهرم لن يستقر بهذه الصورة. لا بد من سنادات تشده من الجهات الأربع حتى لا يقع. أما الوضع الحالي فهو مثالي وعظيم. توصل إليه المصريون القدماء. في أزمنة بعيدة.

قبل أن يدخل المؤلف في جدل مطول، حول الهرم المعدول، والهرم المقلوب. ما أن قال المؤلف. ان قليلاً من العنف يشفي المعدة المصرية. وإن حالة الرخاوة التي أصابت البلاد في السنوات التي مضت. كادت أن تصيب المواطن المصري بحالة من البلادة.

ما أن قال المؤلف كل هذا. حتى استيقظ المحقق. قال لنفسه، إن هذا الإنسان المتعب والمرهق. لا بد وان له دوراً رئيسياً وهاماً في الحكاية.

بدأ المحقق الأمر معه بشكل روتيني. كان يتصور أن الأمر لن يتعدى سؤالاً أو سؤالين. ولكن الكلمات التي قالها الشخص الذي يتم التحقيق معه. دفعت إلى المحقق بحالة من اليقظة. لم يعشها منذ سنوات مضت. اعتدل المحقق في جلسته. وطلب آخر فنجان قهوة قبل الصحوة التامة.

س: الإسم والسن والعمل وعنوان السكن.

طلب: أية أوراق معك أرجو تقديمها. بصرف النظر عن أهميتها وقيمتها..

أخذوا بصماته. كان المؤلف. قد تكلم عن الكتابة. وورد إسم المجلة التي يعمل بها ضمن الأقوال. قال المحقق: إنه واحد من المثقفين. تلك الفئة التي يهاجمها الرئيس في كل خطبة من خطبه. وهي الفئة.

التي يقول الوزير دائماً. إن كل أنشطة الوزارة يجب أن توجه ضدها. أليس الواقف أمامه واحداً من الأفنديات. إنه الذي يقصده الرئيس. أفنديات المدن. إنه يرتدي بدلة. ويضع على العينين نظارة. وجلده ناعم. ويده لم تعرف العمل اليدوي. وهو يعيش في القاهرة. ولكن هل يستعمل التكييف؟ ان الرئيس عندما يهاجم المثقفين يتكلم عن التكييف. سأله المحقق:

- هل لديك جهاز تكييف؟

رد المؤلف بسرعة. وقد استغرب السؤال:

- لا.

اقصد في العمل؟

- لا.

- أو في البيت.

- لا.

- لماذا لا يوجد عندك تكييف؟

- في العمل لا يوجد تكييف سوى في مكاتب المديرين والرؤساء. وفي البيوت لا يوجد سوى في بيوت المهربين واللصوص والمرتشين.

اكمل المؤلف:

- وكلاهما يقفان على خط عرض واحد.

صاح فيه المحقق:

- هل تقول نكتاً؟

قال المؤلف بهدوء:

أية نكت؟ خط العرض تعبير خاص بالمناخ. أما المديرون والرؤساء. واللصوص في البيوت. فتلك حالة خاصة بالوطن. أما كونهم على خط واحد.. فتلك مسألة مؤكدة.

قال المحقق، إن قدرتـه على اللعب بـالألفاظ، تؤكـد انه واحـد من الذين يشتمهم الرئيس في كل خطبة. قرر ان يتعامل معه باعتباره حالـة هامة. قـال المحقق: قد يكـون هو الـذي يقف وراء العملية من الألف الى الياء.

كان المؤلف يفكر طوال التحقيق معه. في الـطريقة التي سيصف بهـا التحقيق الذي تم معه في روايته. قال ان هـذا الأمر يخصـه هو. ولهـذا لن يتوقف امامه طويلاً حتى لا يقال انـه مؤلف ذاتي. وانه كتب الـرواية من أجل الحديث عن نفسه. قال ان افضـل الحلول ان يصبغ التحقيق معه. جزءاً من التحقيق مع الآخرين.

عندما دخل المؤلف مرة اخرى على المحقق. ابتسم له قائلاً:

ـ يا مولانا.

توقف المؤلف امام الكلمة. قال في نفسه. ربما أكدت لهم التحريات الدقيقة التي يقومون بها، انني انتمي الى تيار ديني خـطير. لم يكن يتصور ان النظام الذي يواجهه ورقي الى هذا الحد. كان يتصور انهم يعـرفون كل الأمور عن الناس، وانه من المستحيـل اخفاء أي أمـر عنهم. ولكنه الآن يقول انهم يعرفون عن الناس اقل من القليل.

من جديد، قال له المحقق:

ـ تفضل يا فضيلة الشيخ.

مد المؤلف يده، تحسس ذقنه. صحيح انها نابتة، وانه لم يحلقها منـذ ايام، ولكن ذلك بسبب ظـروف السجن. وليس بسبب الرغبـة في ان يبـدو شيخـاً. كـاد ان يشرح ذلـك للمحقق. ولكنـه سكت لأن ذلـك سيدخله في متاهة من نوع جديد. ويكفيه عذاب الدخول في المتـاهات من قبل.

استمـر التحقيق مع المؤلف طـويلاً. حـول كل المـوضـوعـات، الا

الموضوع الذي يتصور المؤلف انه الرئيسي. في كل مرة يجلس امام المحقق. يعيد في نفسه الاكتشاف المذهل. من قبل كان يتصور انهم يعرفون حتى ما يفكر فيه الانسان. وان الخاطرة في الذهن تكون معروفة لديهم. والأمنية في الصدور تبدأ من عندهم. ومشروع الدمعة في العين. كل هذا محسوب عندهم.

الآن، يدرك انها كلها اوهام. وانهم لا يعرفون حتى مكان اقدامهم. بعد ايام استدعوا المؤلف. قال لنفسه وهو في الطريق الى المحقق، من المؤكد ان الفأس وقعت في الرأس. الحديث الآن سيكون عن الرواية. وما يقوم به. والمشروع وغير المشروع، قال المؤلف ان لحظة المواجهة جاءت.

ما أدهشه ان المحقق واجهه بوقائع اخرى. حتى لم يواجهه بالكلام الذي سبق وان قاله في التحقيق الأول معه. حدثه عن المشي في الشوارع. والاندساس وسط الجماهير. وخطورة ان يراقب الانسان ما يجري في البلاد. تصور ان المحقق استدعاه بطريق الخطأ. ذكره بنفسه. حاول ان يتكلم عن الهرم المقلوب والهرم المعدول. والظروف في مصر. ولكن المحقق منعه من الاستمرار في الكلام. وبدأ يقدم له النصائح. قال انه ينصحه باخلاص انساني.

شعر المؤلف بقدر هائل من خيبة الامل. وهو يسمع هذا اكلام. حرموه. حتى من الحديث عن بطولته التي قام بها من وجهة نظره. حرموه حتى من الكلام..

حاصروا عمل العبقري في العباسية، كانوا مائة رجل من قوات الامن المركزي ومعهم ثلاثة من القواد. كانت المرة الأولى التي تحاصر فيها قوات الامن مبنى تابع للأمن. وقال الناس في الشارع ان الامن يضرب في بعضه، وعدوها من نوادر هذا الزمن. وقالوا ان اليوم الذي

ضرب فيه الامن الأمن. سيعد من التواريخ الهامة في حياة هذا الشعب المسكين.

أخذوا العبقري، بعد محاصرة المبنى، وقبل ان يفيق الناس من حالة الذهول. قيدوا يديه بالحديد، غطوا رأسه ببطانية، والقوا به في صندوق السيارة الخلفي. سأل من الذي أمر بالقاء القبض عليه. قالوا له كلمة واحدة:

ـ لا تسأل.

سأل ـ رغم التحذير ـ هل بدر مني شيء. قالوا مرة أخرى:

ـ لا تسأل.

قال له واحد منهم، انت وعائلتك تلوثون العالم البهيج والسعيد الذي تسبح فيه مصر هذه الايام. قال له. لو كان الأمر بيدي لصفيتك. وعندما لم يفهم معنى كلمة التصفية. قال له. كنت وضعت المسدس بقرب رأسك. وعددت من واحد الى عشرة. وخلصت مصر السعيدة منك ومن امثالك ومن عائلتك.

قال له شخص آخر. ان في مصر. العديد من الحشرات والديدان والهاموش. تحاول لوي عنق الواقع والعودة بالبلاد الى الخلف. الى الماضي البشع الذي غسلنا ايدينا منه جميعاً.

قال العبقري في التحقيق انه لا يعرف اي شيء عن الحكاية. لم يعلم بفكرة البيع في الميدان. منذ ان عمل في الوظيفة المحترمة، وهو منفصل عن العائلة. وكان يستعد لترك القبر ومن فيه. كل ما عطله ان الشقة التي حصل عليها في العباسية. لم يكن قد تسلمها بعد.

سألوه عن أية معلومات يعرفها عن حركة البيع في ميدان التحرير، فقال انه لا يعرف أية معلومات. سألوه عن اموال الدعم، وعن

الاجانب الذين يحضرون. وعن الادوار التي كانت موزعة على افراد الاسرة، فقال انه لا يعرف. حاولوا ان يفهموه أن قراره برفض البيع في ميدان عام قرار جيد. وان السبب في القرار يعود الى وطنيته. فهو ليس خائناً مثل الآخرين. وبدلاً من ان يفرح بذلك. قال ان الآخرين ليسوا خونة. ولكنهم تصرفوا. التصرف الذي قد يوصلهم الى الحل السليم من وجهة نظرهم.

سألوه عن الصواب والخطأ. في تصرف العائلة. فرد:

ـ ان الدم لا يتحول الى ماء.

استغرب المحقق الرد فقال العبقري موضحاً:

ـ هل يخرج الظفر من اللحم.

كان ذكاء المحقق محدوداً. انه عصر الرجال متوسطو القيمة والموهبة والجودة في مصر. قال للعبقري. انه يطلب الحكم على تصرف العائلة ولا بد من هذا الحكم. ان كان يريد العودة الى شقته في العباسية.

قال العبقري بوضوح:

ـ انهم اهلي..

وقال المحقق بنفس الوضوح:

ـ اذن تبقى معنا هنا فترة من الوقت.

نجح المحقق في احضار الست الكبيرة، من القبر. سألوها عن أمور لا تعرف عنها اي شيء. قالت ان الاسرة تحركت من اجل الحصول على شقة. وطلبوا منها الانتظار في القبر لحين الانتقال الى السكن الجديد. سألها المحقق لماذا تركوها ولم يتركوا اي شخص آخر. قالت ان تركها من الأمور الطبيعية، فهي المسمار. الذي يربط اجزاء البيت لبعضها البعض. وبدونها قد لا يكون هناك بيت.

بقيت في البيت، ليس لأنها امرأة. ولكن لأنها الست الكبيرة، قالت انها لم تر في البيت أي شخص غريب. وانهم ناس غلابـة. ضاع البيت فعاشوا في القبر. ولكن حتى القبر ضـاع. مطلوب طـردهم من القبر. اصحاب البيوت يطاردونهم حتى في القبر. وكان لا بد من حل.

توقفت وسألت المحقق:

ـ طبعاً لك بيت؟

الكاتب الذي كان يدون ما يجري. قـال في نفسه ان المحقق لـه اكثر من بيت، مثـل كل سـادة هذه الأيام. شقـة العـائلة. الجـارسـونيـرة، والشقة التي توجد في منطقة وسط المدينة. والتي حصل عليها بصورة أو بـأخـرى. وتبقى هكــذا خـاليــة. حتى يـأتي المشروع الــذي يمكن استخدامها فيه. مشاركة أو تأجير مفروش أو بيع بالجـدك والارقام وصلت الى الخانة السادسة. في هذه الأيام المجنونة.

لم يـرد عليهـا المحقق، فكـررت عليـه السؤال، وعنـدمـا لم يـرد استنكـرت ان يسكن البيك المحقق أيضـاً في قبر. وتسـاءلت: إن كـان البيك في قبر. فهذا معناه ان مصر كلها في القبور الآن.

قال المحقق هامساً لنفسه:

ـ صـدقت هذه المرأة، وان كـانت لم تحسن التعبير، مصر دولـة لا تحكم سوى من القبر.

قال المحقق بصوت عال، انه الوحيد في هذا المكان، الذي من حقه ان يوجه الاسئلة للآخرين. وعلى الآخرين ان يجيبوا على أي سؤال منه. ثم ان هذا الكلام، خـارج عن موضـوع التحقيق. سألهـا عن أمور لا تعلم عنها اي شيء. عن التمويل والهجرة من القرية البعيدة والغربـاء، ومحاولة عمل اثارة بـين سكان القبـور، والانقلاب والتـآمر، والعنف. والوصول الى حكم البلاد.

قـالت انها لا تعرف اي شيء عن هـذه الأمور. كـل ما تعـرفه. ان الأسرة تبحث عن مكان تعيش فيه. وانهم رضـوا بالقـبر مكانـاً. ولكن القـبر لم يرض بـذلك. فـطردوا منه. وعنـدما طـردوا لم يجدوا من يقف بجوارهم.

احتار المحقق في الموقف منها. هل تعود الى القبر؟ هـل يلقي القبض عليهـا وتنضم للعائلة؟ لم يكن سبب الحـيرة، ان مصير الانسـان أصبح من الأمـور الهامـة. ولكن بسبب مدى الفـائدة التي ستعـود عليهم من الابقاء عليها في السجن أو تركها تعود الى القبر.

بعد مناقشات ومداولات، تقرر ان تبقى في القبر. كنـوع من الطعم لكي يتصل بها الآخرون من العائلة. وعنـدما يحـدث هذا. يكـون من السهل الامساك بهم.

لم يصدق المحققون. طوال أيام التحقيق. حكاية الـذين ضاعـوا في الـطريق من القبر الى الميـدان. عندمـا تحدث أفـراد العائلـة عن الذين ضاعوا. ، كـانت اصواتهم تـرق. ويتجمع في الاعـين مشروع دموع. والهواء يبدو وكأنه محشو بالبكاء. كان افراد العائلة يطلبون من المحققين مساعدتهم بالبحث عن افراد العـائلة واحضارهم. وان ذلـك ـ لو تم ـ سيعد خدمة.

كان المحققون يـرفضون تصـديق الجانب الانسـاني في الأمر. كـانوا يتصـورون ان ما تقـوم به العـائلة. انما هـو من بـاب التمـويـه وابعـاد الشبهات عن العائلة. كانت هناك حالة غريبة من حتميـة الاصرار على معرفة أمر الذين ضاعوا.

عنـدما تـأكد للمحققـين، استحالـة احضـار من هـربـوا من افـراد العائلة. أو من تاهوا كما يقـول افراد العـائلة. كـان المحققون يـطلبون

من الحاضرين ان يتكلموا نيابة عن الغائبين. ماذا فعلوا. وما هو دورهم في العملية.

وكانوا لا يجدون سوى الصمت كرد عليهم. . في كل مرة. .

كانت مع الاستاذ أوراق. وكان جالساً فوق الكوبري العلوي. عندما حدث الهرج والمرج في الميدان. لم يتحرك من مكانه. وبقي حيث هو الى ان حضروا له. عندما قاموا بعملية التمشيط الأخيرة للميدان، وهو جالس فوق الكوبري، كان يفكر في قضية الخوف والشجاعة. كان يسأل نفسه: اليس من الأفضل ان يقوم من مكانه ويسلم نفسه. بدلاً من الانتظار حتى حضورهم والقاء القبض عليه. فكر مرة اخرى. ربما كان من الافضل بقاء فرد من العائلة دون القبض عليه. يترافع عن الآخرين. ويتحرك، ويصبح رجل البيت. الذي اصبح بدون رجال وبدون نساء. فكر في كل اشكال الشجاعة المفترضة، اكتشف انه خائف من كل احتمالات الغد. عندما امسكه جندي الامن المركزي تم الأمر بالصدفة. كانوا يمشطون الكوبري العلوي. مع ان ذلك كان يمكن ان لا يتم. كانوا قد أوشكوا على ترك الميدان، لولا ان الضابط قال لهم، انهم نسوا الكوبري العلوي. وطلب منهم الصعود من اجل تمشيطه.

وعندما صعد العساكر، لم يره العسكري الذي مر به. نظره كان ضعيفاً. لولا ان قدمه خبطت فيه. اهتز العسكري. وقبل ان يقع على الأرض، كان قد امسك به. واعلن العسكري ذلك له في سعادة بالغة. منى نفسه وهو يعود الى الضابط بالحصول على مكافأة مالية لا تقل عن علاوة دورية أو مرتب شهر. شرح الحكاية للاستاذ. قال انه متطوع وليس مجنداً. ولذلك فهو مخلص في عمله اكثر من المجندين.

سعادة الجندي المتطوع لم تدم طويلاً. لأن عدداً من الجنود

الآخـرين. نزلـوا ومعهم عدد آخـر من الذين كـانوا، فـوق الكوبـري العلوي. البعض تصنع الندم. والبعض الآخر قال انه كان يقضي ليلته هنـاك. لأنه ليس لـديه مكـان. والبعض نـزل يسـأل عـما يجـري وعـما يحدث. وما السبب في ازعـاجه. في هـذا الوقت من الليـل. هناك من سـأل، ان كان الـذين القوا القبض عليـه، في هذا الـوقت من الليل، معهم تصريح من النيابة. ردت عليه صفعة قوية. أتت على قفاه.

كان الرد، هذا يحدث في البيوت فقط. قال آخر، ان الرئيس اكـد، اكثر من مرة، انه لن يقبض على أحد. في الوقت الواقع مـا بين الثـامنة مسـاء، والسادسـة صباحـاً. الا في حالـة الضرورة القصـوى. حتى لا نـزعـج المـواطنـين في وقت الـراحـة، ركله الضـــابط. قـال ان عنصر الضرورة متوفر في هذه الحالة. سألـه: هل تـوجد ضرورة قصـوى اكثر من مؤامـرة بهذا الحجم، تهـدد سلامـة وأمن البلاد. حتى يـطلب منهم الانتظار لحين طلوع النهار.

قرر الاستاذ مواجهتهم بالموقف. سيقول انه من افراد العائلة. التي كانت تبيع نفسها. انه لن يفعل هذا. لكي يبـدو هامـاً في نظرهـم. ولا يفعله من اجل الحصول على معاملة من نوع خاص. ولكن لا مفـر من مـواجهة المـوقف بشجاعـة. لأول مرة في حيـاته، يـواجه مـوقفـاً عـلى الطبيعة. بدلاً من المواجهات الذهنية. التي تتم بداخله.

وقف بالقرب من الضابط، كانا في شارع جانبي، من الشوارع التي تصب في الميـدان. قال بهـدوء وببطء. ودون ان يـوجـه اليـه أحـد أي سؤال:

ـ انا واحد من افراد العائلة.

سأله الضابط..

ـ أية عائلة؟!

أشار الى منصة الميدان البعيدة. والتي لا يبدو واضحاً منها شيء في هذا الوقت من الليل. وقال:

ـ العائلة التي عرضت نفسها للبيع.

كان الضابط لا يعرف حقيقة ما جرى في الميدان. يمسك بالناس دون ان يعرف الحادث الأصلي الذي تسبب في هذا كله.

سأل الضابط:

ـ ألا تعرف ما جرى في الميدان الليلة؟

صاح فيه الضابط:

ـ هل ستحقق معي؟ مالي انا والعائلة؟ لقد حضرت الى هنا. لكي القي القبض على أمثالك. أما الحكايات التي تتكلم عنها فوفرها لمن سيتولون التحقيق معك. الا تعرف ما هو التخصص ما دمت تبدو متعلماً؟!

لم يرد الاستاذ، قال لنفسه انه كان واهماً، كان ينظر لكل هؤلاء باعتبارهم تروساً في آلة واحدة. ضخمة وقاتلة وجهنمية اسمها نظام الحكم، او الدولة. وكان يتصور أنهم يعرفون ما هو الدور الذي يقومون به. وانهم يفهمون اللعبة بكل حدودها. ولكن يبدو ان التروس لا تتصل ببعضها البعض. وان هناك حالة من الانفصال بين هذا الترس وذاك.

وهو يركب السيارة. لاحظ الضابط. أن معه بعض الاوراق والقلم، سأله لمن هذه الأشياء. قال له انها كما يراها أمامه. أوراق وقلم. طلب الضابط من العسكري أخذها منه. وعند التحقيق معه. سيتحدد موقفها ان كانت ستصبح مضبوطات تصبح أدلة ضده. أو مجرد امانات يتركها اي مسجون في ادارة السجن.

فكر الاستاذ في التمسك بهذه الاشياء. فستكون وسيلته الوحيدة لقضاء الوقت في الحبس، الى ان ينتهي الأمر. ولكنه اكتشف ضخامة المعركة التي قد يخوضها من اجل الاحتفاظ بهذه الاشياء معه. فقرر تركها. انها اوراق دون بها بعض الملاحظات حول الرحلة والوقوف في الميدان. ولحظة البيع التي لم تأت أبداً. والقلم الذي من الصعب عليه ان يتركه.

في مواجهة هذا العدد من الضباط. وهذا العدد الضخم من العساكر. وهذا العدد الأكثر ضخامة من الناس. الذين لا حول لهم ولا قوة في مواجهة الضباط والعساكر. قرر ان يترك ما معه. قال في نفسه، أمانات أو أدلة اتهام. ان هذا لا يهم.

لا يعرف الاستاذ كم مرة من قبل. عاش هذه الحكاية بخياله. وكم من التفصيلات الصغيرة وردت على ذهنه. لعب في الخيال دور المحقق والمحقق معه. السائل والمسئول. صاحب الاتهام والمتهم. ولكنه اكتشف. ان هناك فارقاً ضخماً، بين ان تعيش الأمر في الخيال، وأن تواجهه على أرض الواقع.

قال لنفسه: بدلاً من ارتداء روب المحاماة. والقول بصوت له رنين. حضرات القضاة، حضرات المستشارين. الوقفة التي عشتها بعين الخيال آلاف المرات بدلا منها. استعد الآن لكي اقف موقف المتهم. قبل ان تتحقق الاحلام. ها هو ينام في السجن دون ان يدافع عنه احد.

في اليوم الأول، دقوا عليه الباب بعنف. خبطات غير انسانية، افزعته. تصور ان الدنيا انهدت. أو ان القيامة قامت. فزع، قام من مكانه. فتحوا الباب. تساءل: لماذا يطرقون الابواب ما دامت المفاتيح معهم. بعد فتح الباب، رمت له يد لم يشاهدها ثلاثة ارغفة. رمتها

على الأرض. تأكد دون ان يمد يده لها انها يابسة. حمد الله. لأنها لم تصطدم به. والا كانت قد جرحته.

كانت العفونة الخضراء. قد بدأت تنتشر فوقها. اغلقوا الباب. نادى على من رمى الخبز. ولكن الباب كان قد فصله عن هذا العالم البعيد. لم يسمع سوى صدى صوته فقط. شعر بقهر لم يحدث له من قبل. قال انه لو كان قد تخرج واصبح وكيلاً للنائب العام أو محامياً لتغير الموقف. كان من الصعب القاء القبض عليه بهذه الصورة.

نادى من جديد، لم يسمعه أحد. وطوال الليل، كان يسمع كلمات المحبوسين، عبر الزنازين، أصوات عالية تتناثر في زحام الأبواب المغلقة والجدران العالية. أصوات تخدش الصمت. ولكن الصمت الغويط يمتصها بسرعة ويعود فارضاً نفسه على المكان والناس والأشياء.

عرف بعض الأخبار من الأصوات. لم يشارك في الحوار الدائر عبر آلاف الجدران والأبواب المغلقة.

- لماذا لم تكن معهم في الميدان؟
- لماذا كنت تحمل القلم معك؟
- لماذا كتبت هذ الورق في ميدان عام؟
- لماذا اخترت الجلوس فوق الكوبري العلوي بالذات؟
- لماذا بقيت كل هذا الوقت مختفياً؟

- ما هي العلاقة بينك وبين الآخرين، الذين ضبطوا في حالة تلبس معك فوق نفس الكوبري؟

- لماذا تصر على عدم معرفتك بهم؟

كانت الاسئلة كثيرة، وكانت تندفع من فم المحقق. وكل تدفق الاسئلة انطلق بناء على معلومة، كان الاستاذ مصدرها. عندما قال انه

واحـد من افراد العـائلة التي عرضت نفسهـا للبيـع . لم يتـوقف المحقق دقيقة واحدة، حتى لكي يتأكد من صدق المعلومة. ولكنه بنى عليها كل ما قاله.

وجه اليه كل الاسئلة دفعة واحدة. التمعت عينا المحقق. باكبر قدر من السعادة. قال انـه وحده الـذي وضع يـده على الأمـر كله. ليحقق الآخرون ما شاءوا. ليهوموا في بخار التفصيـلات الصغيرة. فهـو وحده الذي يضع يـديه عـلى القضية كلهـا. وهو الـذي سيقود المسئولين الى المؤامرة الضخمة.

تـدفقت الأسئلة من فمه. قـالها مـرة واحدة. وقبـل ان يستمـع الى الاجابة سأل من جديد:

- في اي الكليات انت؟
- في أي قسم؟
- من هم اصدقاء الجامعة.

وقبل ان يجيب الاستاذ. قـدم له المحقق ورقـة. وطلب له كـرسياً. عرض عليه الجلوس. قال له انـه يكتب احيانـاً. لذلـك، ربما كـان لا يستطيع التعبير عن نفسه سوى بالكتـابة بـدلاً من الكلام. انها امـزجة وطرق تعبير. لا مانع لـدى المحقق ان يكتب الاستاذ. بشرط ان يكتب كل ما يعرفه.

قام المحقق واقفاً. وقـام الكاتب لـوقفته. عـرض على الاستـاذ، ان يتـرك له الحجـرة بمفرده. ان كـان ذلك مـريحاً لـه. لكي يكتب كل مـا يعرفه. قبل ان يرد الاستاذ كان الكاتب قد همس في اذن المحقق بكـلام عن ان إجراءات الامن. تتطلب عدم ترك سجين في حجرة نافذتهـا من الزجاج. تردد المحقق. قد يهرب المتهم وذلك سهـل. ما كـان يجب ان يسمع هذا الكلام من الكاتب. بهـذه الصورة. وعـلى مسمع من المتهم

الرئيسي في القضية الخطيرة. والتي قد تهز البلاد كلها. وان كان كلام الكاتب قد دفع الى قلبه برعشة باردة وخوف، جعله يهتز من الداخل. من يدريه لو هرب هذا الانسان. اذن لأصبحت الانتصارات نكسة. ولألقي القبض عليه بدلاً منه في الحال.

أنقذ الموقف، ان الاستاذ رفض. قال انه لا يطلب حجرة له بمفرده، وانه لن يكتب. وانه سيقول كل ما يعرفه. وإن الامر لا يتطلب كل هذا الاحتفال. لأن ما يعرفه ضئيل للغاية. ولن يفيد أحداً. لسبب بسيط، وهو انه لا يوجد في الأمر كل ما يتصوره المحقق. ان المشكلة - قال المشكلة - تنبع من ان المحقق يستخدم خياله اكثر من اللازم. في حين ان المقبوض عليهم يتكلمون من واقع تجربة حدثت لهم. في ارض الواقع. والمسافة ضخمة بين الخيال الحر والمنطلق. وبين الواقع بكل تحديده. وهذا هو السبب، في الحالة الراهنة، من عدم التصديق.

قال الاستاذ انه لا يكذب، وكل الذين القي القبض عليهم لا يكذبون.

صاح فيه المحقق مقاطعاً:

- تكلم عن نفسك فقط. مالك أنت والآخرين.

جلس المحقق، حاول ان يستدرك الموقف. الواقف امامه طالب في كلية الحقوق. وهو يعرف ابسط ما يجب ان يعرفه المواطن العادي، في حكاية الحقوق والواجبات. ومع هذا ينسى. ان الحديث باسم الآخرين خطر. انه ينقل المسألة من مجرد تصرف فردي، الى تصرف جماعي، والفارق ضخم بين الاثنين.

أية حالة فردية. يمكن النظر اليها، في هذا الاطار الفردي. أما تحويلها الى أمر جماعي. فذلك خطر. انه يدخلها في دائرة الشغب والتظاهر وتحريك الجماهير ضد النظام. وهو يفتح باب المشاكل بصورة

لا أول لها. ولا آخر. قال المحقق، انه يدرك دقة الموقف، الذي يقفه الاستاذ. وهو معه وليس ضده. لأنه يجمع بينهما. انهما معاً ـ المحقق والاستاذ ـ يدرسان القانون. انهما يقفان على خط عرض واحد. قالها وهو يتصنع الضحك، حتى تقترب المسافات بينهما. ولكن موقف الاستاذ لم يكن مشجعاً. عبر المحقق حكاية الضحك بسرعة.

قال انه سيساعد الاستاذ، على ان يقول ما لديه. ويكون ذلك في صالحه. سيسأله عن بعض الجزئيات. وكل المطلوب من الاستاذ ان يجيب. وطبعاً الاسئلة هدفها خدمة الاستاذ وليس ضرره. لأنهما معاً في مركب واحد.

لم يرد الاستاذ.

اشار المحقق للكاتب أن يجلس، ثم وجه سؤاله الأول:

ـ كم شخص من ابناء القبور معك في الجامعة؟

قال الاستاذ:

ـ لا أعرف.

ـ كم من أصدقائك، من سكان القبور يدرسون في الجامعة؟

ـ لا أعرف.

ـ اذن قل لي معلوماتك عن سكان القبور الذين يطلبون العلم؟

ـ ومن اين لي ان أعرف؟

ـ الم تقم بعمل دراسات عن سكان القبور؟

ـ دراساتي لسكان القبور كانت بهدف تأليف كتاب.

ـ اذن درست؟

ـ نعم.

ـ ما هي النتائج الأولية؟

ـ لم أتوصل اليها بعد.

قرر المحقق العودة الى سياسة المباغتة. لا مفر من هذا. أمـام حالـة التصميم لدى هذا الشاب على ان يقول انه لا يعرف.

سأله فجأة:

ـ لماذا رفضت الحضور الى الميدان مع العائلة؟

ـ ولماذا حضرت منفرداً؟

ـ ولماذا اخترت الجلوس فوق الكوبري بالتحديد؟

قال الاستاذ بهدوء وبدون انفعـال، ان السؤال الأول يدخـل في بند خصـوصيات العـائلة. وانه لا يجب الخـوض فيها في تحقيق مثـل هذا. وقبـل ان يتكلم عن السؤالين الثـاني والثالث. كـان المحقق قد قفـز الى قضية اخرى:

ـ نصل الى موضوع الاقلام والأوراق التي كانت معك في الميدان.

قال المحقق قبل ان يرد الأستاذ:

ـ هنا لن تستطيع الرد بأي حال.

مد يده للكاتب:

ـ اكتب.

قالت له عينا الكاتب انه يكتب، بدون هذا الطلب من.

سين: ما هي اسباب وجود اقلام وورق معك

جيم: رد يا أستاذ

قال الاستاذ:

ـ وهل هناك تجريم لحمل الاوراق والاقلام في اي زمان ومكان؟ هل هناك مادة في قانون العقوبات تحرم ذلك؟.

قال المحقق بغضب:

ـ عدت الى توجيه الاسئلة.

صاح في الاستاذ:

ـ هل تحلم بالحصول على مكاني.

لم يرد الاستاذ، رغم ان الرد كان جاهزاً على طرف لسانه. كان يتمنى أن يقول له. انه يرفض مهنة الجلاد. سكت ولم يرد. وقال المحقق ان صمته اكبر دليل على انه يحلم بهذا. وان كان يمشي في الطريق، الذي لن يوصله الى ذلك أبداً. ومهما حاول.

عاد لسؤاله:

ـ الا ترى ان تصرف العائلة خطأ؟.

ـ وفي هذه الحالة لماذا سكت على هذا الخطأ؟

ـ لماذا لم تحاول منعهم من القيام بهذا التخريب؟

ـ ولماذا لم تبلغ السلطات؟

ـ ولماذا. .

قبل ان يكمل سؤاله. كان الاستاذ قد تكلم. قال ان تصرف العائلة طبيعي وسليم. على الرغم من عدم الموافقة عليه. سأل المحقق: وهل كان هناك طريق آخر؟ لم يرد المحقق، احتج من جديد، على ان يوجه المتهم سؤالاً الى المحقق. تساءل الاستاذ:

ـ المتهم؟!

قال المحقق:

ـ ألف متهم معاً. واصابعي العشرة في عينيك. في كل عين خمسة وإن لم تكف. سأضع أصابع قدمي أيضاً.

احتج الاستاذ على طريقة التحقيق. رفض الاجابة على أي سؤال. وراح المحقق يثبت في أوراقه آلاف الاسئلة. ثم يملي على الكتب ان المتهم رفض الاجابة. ويبدو ان صمت الاستاذ اسعده بصورة ما. لأن

معدل الاسئلة قد زاد ابتداء من لحظة الصمت. قال المحقق كل الاسئلة التي كان يشك في امكانية الاجابة عليها من قبل.

كان هو الذي يسأل، وهو الذي يملي ان المتهم رفض الاجابة، رفضاً قاطعاً. وكان سعيداً بهذه اللعبة التي يمارسها. وبعد ان تعب من اللعبة، اخذوا الاستاذ الى السجن. وقبل ان يأخذوه سالوا المحقق، عن المرة القادمة التي قد يطلبه فيها، من اجل استجواب جديد. فقال انه لا يدري، ان كان قد يطلبه مرة اخرى أم لا. وعاد الاستاذ الى سجنه سعيداً. وتساءل في الطريق: هل كان والده على حق؟ وسأل نفسه: لم كان يخاف من الدولة التي يمثلها هذا المحقق المضحك. وندم على كل ما فات.

اطلب الاذن من اجل غسيل ملابسي، ابقى عارياً حتى تجف. لم يكن في البيت أحد يسأل عليّ. اطلب الاذن لكي اذهب الى دورة المياه. وعندما يتأخر هذا الاذن، قد اتبول على نفسي. في الليل، لا اطلب هذا الاذن، لأن الجردل الذي يعطونه لي، يحل المشكلة. وان كانت الرائحة التي تنبعث منه بعد فترة من الوقت تبدو قاتلة.

الذهاب الى دورة المياه، العودة منها، العينان معصوبتان. سجن عسكري هذا؟ أم ما هي الحكاية بالضبط؟. احياناً يسخر مني السجان في رحلة الذهاب والعودة. واحياناً يكون انساناً طيباً. رغم انه مطلوب منه القسوة. وان يجمع المعلومات عن المساجين. وان يعذب الآخرين في بعض الاحيان. وبعضهم يقوم بدور المحقق. يسأل وينتظر الاجابة. وان كان لا يستطيع حملها الى من طلبوها منه. لأنه لم يفهمها.

في البداية، كان من الصعب العثور على عين آدمية في مثل هذا الجو غير الانساني. ولكني وجدت بعض البشر بين السجانين. كنت اكتشف

ان الانسانية ـ التي لا أتوقعها ـ تنبت تحت الجلد الخشن، ورغم خشونة الجلد. كان تحته قلوب تنبض. عبارة عن قارورة مليئة باللبن الابيض.

كان السجن تابعاً لمباحث امن الدولة. مع انني درست في كل كتب القانون. ان المحبوس على ذمة تحقيق. من المفروض ان يبقى في مكان تابع لوزارة العدل. وانه لا يذهب الى السجن التابع لوزارة الداخلية الا في حالة، صدور حكم واجب التنفيذ فقط..

ظلام الليالي، ضياع الضوء، السباحة في بحار العتمة.

كنت أسمع أصوات الآخرين. فأقول لنفسي، انني لست آخر الأحياء في هذا الواقع الذي يرعاه السجان. أسمع الضحكات، اتخيل اسنان المساجين المغطاة بطبقة من اللون الأصفر والتسوس. كنت اسمع الضحكات. فأقول انها ضحكات شائهة الخلقة. التي يتعاطاها الناس في هذا المكان غير الانساني.

كان المحقق وبعض السجانين، وبعض رجال الامن الذين تسللوا حتى في السجون يتكلمون بقدر من البهجة والسعادة. وكنت انظر لهذه السعادة وكأنها قادمة من عالم آخر. كان عرق الدم قد بدأ يرشح في السجون. وكانوا قد نشروا جثة بلادي. ومضوا يرقصون حولها من كل جانب.

أتمنى لو تركوا لي الورق والقلم. كلمات دامية تقطر دمعاً. كنت سأكتبها من هنا. لن أقول غير الصدق. ولكن المشكلة ان ابناء زماني. لا يحبون الحقيقة ويكرهون الصدق. وحتى ان أحبوا الحقيقة لدقائق معدودة. فمن منهم يقدر على مواجهتها؟!

تأكلني الرغبة في مشاهدة وجهي بعد كل ما جرى. البحث عن مرآة في هذا المكان ترف لا أجرؤ عن الحديث عنه.

قلت لنفسي: من قبل، كنت اتصور ان القرى المصرية، تمد مدن مصر، باكبر عدد من الخدم. ولكني كنت واهماً. ان القرى تمد المدن باكبر عدد من المتهمين والمذلين والمهانين والذين يتم التحقيق معهم. انها تمد المدن بمن يدخلون السجون، ومن تصدمهم السيارات في الشوارع. ومن تضربهم قوات الأمن. ومن ترمي المدينة نفاياتها عليهم.

كم تبدو القسوة في المدن. وكم يبدو ذلك القدر الهائل من التحمل والاستكانة في موقف القرى؟! آه لو اعرف قرية والدي؟!

جندي الأمن المركزي، كان له اسم آخر لدى المحققين، الانسان الذي لا يرتدي سوى الملابس الداخلية فقط. كانت له مشكلة، من نوع خاص مع المحقق، كل الاسئلة دارت حول قضية واحدة: علاقته بالعائلة. التي عرضت نفسها للبيع في ميدان التحرير. استدعي للتحقيق اكثر من مرة، في أوقات مختلفة. وسئل نفس الاسئلة. ورد بنفس الاجابات.

ولكن أحداً لم يصدقه. احضروا ملف خدمته. كان أول ملف يتم احضاره في القضية كلها لأنه تحت ايديهم. وجدوا في الملف كلمة واحدة اذهلتهم، الموطن الاصلي لجندي الامن المركزي هو: الضهرية. مركز شربين. محافظة الدقهلية. المليونير ايضاً من قرية الضهرية. وان كان لم يحدد المركز ولا المحافظة.

جندي الامن المركزي قال، انه لم يشاهد، من قبل، اي فرد من هذه العائلة الغريبة. أول مرة يشاهدهم هنا. وانه لا يستطيع التأكد ان كانوا من قريته ام لا، لأنه لا يعرف كل افراد قريته.

سئل عن سبب وجوده في ميدان التحرير، ابتسم وقال انها مأمورية، مثل كل المأموريات التي يكلف بها. تساءل: وهل يؤخذ رأي

أي أحد في مثل هـذه المأمـوريات؟ وهـل يذهب فيهـا أحد لأنـه طلب ذلـك؟ مـا كـان يـريـد الحضـور. ولكن من يـرفض في معسكـرات التعذيب. توقف الجندي عن الكلام. لأنه تذكر أن من يحققون معه. انما يعملون في نفس الوزارة، ربما كان الجـالس أمامـه. زميل الضـابط الذي يعذبهم. كل صباح في المعسكرات، في آخر مدينة نصر.

سئل الف مرة ومرة. هل قـابل من قبـل، اي فرد من العـائلة. قال ان ذلك لم يحدث ابداً. لا صدفة ولا بموجب ميعـاد. لم ينزل الى مـدينة القاهرة. من المعسكر الى باب الحديد الى القرية. ومن القرية الى ميدان باب الحديد الى المعسكر. يحدث هذا في الاجـازات القليلة التي يحصل عليها. منذ تجنيده، حتى هذه الحكـاية. التي لا يعلم ان كـان لها أول. وان كان لها آخر ايضاً.

أرسلوا في جمـع اكبر قـدر من المعلومات عنـه. سألـوا كل زمـلائه. استجـوبوا الضبـاط الذين يقـودونه، من يسكن معـه في نفس الخيمة، بـائعة الـطعمية والبـاذنجان المقـلي والبصل الأخضر. التي تبيـع الأكل والشاي في عشة وراء المعكسر. وقد قيل انه كان يـتردد عليها. قـالوا، ربمـا كانت هـذه المرأة هي وسيلة الاتصـال بين العسكـري وبين عـائلة المليونير سألوا الكل. نبشوا في كل لحظة من حياته.

كل المعلومات التي جمعوها عنه اكدت انـه عسكري مـطيع. يكتسي وجهـه بطبقـة من الرضـا. والهواء الـذي يحيط بـالـوجـه. يبـدو مثقـلاً بالبكاء. وان بقايا دمعه جفت منذ قليل. لا تزال عالقة بخـديه. قـالوا انه صموت، لا يتكلم كثيراً. وان علمه قليل وانه انسان لا طموح له. كان يعد عسكرياً مثالياً. اذا قورن بغيره من العساكر في المعسكرات.

كان مطيعاً، يقول التقرير عنه. أول من يطيع وآخر من يعصي. أتى من قرية صغيرة، والده عـامل زراعي لا يملك أيـة قطعـة من الأرض،

يعمل في حقول الآخرين. وعندما اتى موعد تجنيده للقوات المسلحة. كان توزيعه على الامن المركزي. لا يجيد القراءة، لا يجيد الكتابة. لم يذهب مرة واحدة الى اي مكان في القاهرة.

لم يتألم من اي اجراء ضده. صبور، متحمل. وان كان ما يفكر فيه، وما يدور في ذهنه. هو المشكلة التي واجهت كل من تولوا قيادته من قبل.

بعد اشهر من حضوره الى المعسكرات، في مدينة نصر. بدأ يخرج الى الدنيا. ينظر من بوابة المعسكر، فيرى السيارات تجري. والاتربة تتطاير من ورائها وتغطي الشارع كله. يومها قال: ما هو الفارق بين هذا الشارع في مصر أم الدنيا. والشارع الترابي الذي تركه في القرية من ورائه.

مرة كان يقف على باب المعسكر، وقت العصاري. وكانت المنطقة كلها تعوم في مجاريها. مياه في كل مكان. وماسورة بالقرب منه مفتوحة. تبدو مثل النافورة. ومع المياه الخارجة من باطن الأرض. كانت بعض الكتل السوداء تخرج. أعجبه المنظر. تحرك قليلاً لكي يشاهده عن قرب. كانت نظراته مركزة على النافورة الخارجة من باطن الأرض. ولهذا لم ير السيارة التي مرت بسرعة بالقرب منه. ولم ينتبه الى المياه التي غطت افروله كله. شم رائحة المياه. وجدها نتنة. علقت الرائحة بأنفه. فعاد الى المعسكر فوراً.

سأل زملاءه، فقالوا له انها مياه مجاري وان ما يغطي افروله سائل مكون من براز وبول سكان هذه البيوت. أشاروا الى الناحية الأخرى حيث توجد بلوكات الاسكان الشعبي. اعاد كل ما في بطنه. حاصرته الرائحة من كل جنب. اصبح لا يشم سوى هذه الرائحة فقط. بدا له الافرول وكأنه غطاء من الحديد.

دخل المعسكر، ذهب الى دورات المياه. أحضر كل الصابون الذي معه، وغسل الأفرول اكثر من مرة. وهو يغسل الافرول غسل نفسه، ثم غسل الماء الذي يغسل به الافرول. قضى اياماً. وهو يعاني من الطبقة التي أحاطت بجسمه من فضلات المدينة.

كان يقول، ان قريته البعيدة، والتي يأكل الذباب رموش عينيها، ويعشش القمل في شعر رأسها. افضل الف مرة من مصر أم الدنيا. التي تعوم في فضلات سكانها.

سألوا قادته عن الحكاية. قال واحد منهم، ان المشكلة تكمن في الهدف من وراء انشاء مثل هذه القوات، كان الهدف هو استخدامها ضد الآخرين. ومع ذلك لم نضع في اعتبارنا ان مثل هذه القوات يمكن ان تقوى على الدولة نفسها.

قال آخر. ان كل سلاح في الدنيا له حدّان. واحد ضار والآخر نافع. وان المسافة بين الضار والنافع تتحدد حسب طريقة استخدام هذا السلاح. لصالح من وضد من. مفروض ان عسكري الامن المركزي جاهل. انطلاقاً من قول قديم. ان الأمة الجاهلة. اسلس قياداً من الأمة المتعلمة. وانه من السهل اصدار الأوامر والتعليمات لأي فرد جاهل. لأن المتعلم يفكر ويناقش ويقلب الأمر على كل وجوهه. قبل ان ينفذ ما يطلب منه. وقد يكون ذلك كله صحيحاً. ولكن المشكلة التي نسيناها جميعاً. ان الجاهل. في تصرفاته قدر من الحمق. وقد يقدم على بعض التصرفات الغريبة. بطريقة مفاجئة. لم نعد أنفسنا لها. وان تصرفاته مثل الهبات التي لا تسبقها أية مقدمات. حتى يكون هناك توقع لمثل هذه التصرفات.

قال آخر، ما فعله هذا العسكري. رد فعل لما يلقاه هو وزملاؤه في معسكرات التدريب. وان ما فعله العسكري يجب اخذه في اطاره

الطبيعي كمقدمة لا بد منها. لبعض الأمور الاخرى. التي قد تحدث بعد هذا. من يدري؟ ربما كان الكل يفكر بهذه الطريقة فعلاً. وربما كان البعض يفكر في التصرف كذلك العسكري.

وقال قائد آخر. انه من الخطأ تركيز كل هذه الكائنات في القاهرة وحدها. ويجب نقلها الى عواصم المحافظات. كاجراء وقائي. كما ان الوسائل البدائية التي يواجهون بها الجماهير هي السبب. وانه لو كانت هناك وسائل متطورة. تستخدم التكنولوجيا الحديثة. لقلل هذا من تذمرهم. ثم ان التدريب على هذه الوسائل الحديثة. سيطور الافراد انفسهم. انهم لا يعتمدون سوى على ايديهم والعصي الغليظة. في حين ان العالم فيه العصي الكهربائية. والادوات التي تكشف تفكير الانسان من مسافات بعيدة. والمطلوب هو تزويدهم بكافة هذه الاشياء.

عندما وصل المحقق، الى سؤال جندي الامن المركزي. عن اسباب خلعه ملابسه وانضمامه الى العائلة بهذه الصورة. تكلم. هنا فقط، تكلم. قال انه بمجرد ان علم بحقيقة الامر. قرر الانضمام الى العائلة فوراً.

في المعسكر، قالوا له. ان المطلوب هو التحرك الى ميدان التحرير. ولم يعرف السبب. ومن يجرؤ على السؤال عن السبب؟ في كل مرة. لا يقولون له السبب الحقيقي. الا عندما يذهب الى الموقع، الذي ستتم فيه المواجهة.

في شارع جانبي، متفرع من ميدان التحرير. نزلوا من السيارات. وبعد التتميم الروتيني عليهم. شرح الضابط المهمة المطلوبة منهم.

توجد بالقرب منهم. وفي قلب ميدان التحرير. محاولة لقلب نظام الحكم بالقوة. ما يجري الآن، هو الجزء الأول من المؤامرة. والمطلوب

مواجهة الجماهير الموجودة في الميدان. تفريق هذه الجماهير اولا. وابعادها عن بعضها. والقاء القبض على اكبر عدد منها. والحصول على أية أشياء تفيد حدوث المؤامرة. مثل الاسلحة، والاوراق والمنشورات.

اختار الضابط، افضل مجموعة من جنوده. وكان من بينهم الجندي الذي يتم التحقيق معه. وقال ان محاصرة العائلة والقبض عليها بعد عزلها عن الجماهير هي مهمتهم.

تساءلنا:

ـ أية عائلة؟

قال الضابط، ان هناك عائلة، على المنصة، في قلب الميدان. هي التي تقود العملية. تساءلنا: عائلة وتقود انقلاباً؟ ان ذلك من الأمور الغريبة والحكايات العجيبة، في هذا الزمان.

عندما وصل العسكري مع زملائه الى العائلة، في منتصف الميدان، كان قد اخترق جداراً من البشر. وكانت أذناه قد التقطتا الكثير من الكلمات المتناثرة في الجو. فهم منها الحكاية. اسرة بدون سكن، تعيش في القبور. جاءت الى هنا. حتى يمنحها المسؤولون شقة تعيش فيها. أسرة بدون سكن.

انه من ابناء قرية بعيدة. ولا يوجد في مفردات حياته. ما يمكن ان يسمى ازمة سكن. ومع هذا أدرك بشاعة الحياة في قبر. في قريته، وفي كل مكان من العالم. يقولون ان القبور اماكن لدفن الموتى. سمع في قريته. ان الاقامة في القبور ليلاً حرام. فكيف تعيش اسرة في قبر؟ سمع من يقول. ان من يقيمون في القبور يصل عددهم الى الملايين. وان هناك من لا يجد القبر الذي يعيش فيه.

وصل الى الاسرة، شاهد اللافتات. وبعض الافراد المتعبين. سأل

نفسه: ما علاقة هؤلاء بقلب نظام الحكم بالقوة؟ انهم لا يعانون من مشكلة البحث عن سكن فقط. يبدو انهم لم يتناولوا اي طعام. منذ ايام مضت. وملابسهم تقول. ان الحصول على الحد الادنى من متطلبات الحياة اليومية غير متوفر لهم.

فكر العسكري وفكر. وكان التفكير عملاً جديداً وطارئاً بالنسبة له، ربما يقوم به للمرة الأولى. اكتشف انه حضر الى هنا. من اجل ضرب هؤلاء الناس. مع أن مطالبة الانسان بسكن له حق. ولا يجب ضرب الانسان لانه يطالب بحقه. نظر الى الناس في الميدان. كل هؤلاء متعاطفون مع هذه الأسرة. لو رش الملح لما نزل على الارض من كثرة الناس في الميدان. ومع هذا مطلوب ضرب الناس والقبض عليهم.

في لحظة خاطفة. أضاء عقله نور وهاج قوي. لن يضرب هؤلاء الناس وسينضم الى العائلة. من حق الاسرة ان يكون لها سكن. قال العسكري في التحقيق. انه لم يناقش أحداً في قراره. لا من زملائه ولا من الناس الواقفين في الميدان ولا من افراد الاسرة. ولم يفكر فيما سيجري له، بعد القرار.

ما حدث انه شعر بخجل من نفسه، ومن ملابسه، ومن الاسلحة التي في يده.، ومن التعليمات التي في ذهنه. شعر انه غير قادر على القيام بالمهمة المطلوبة منه. وكان لا بد وان يخلع هذا العار. من فوق جسمه فوراً. وبعد خلع الملابس لم يكن أمامه سوى الانضمام الى الاسرة.

سألوه. ان كان في حاجة الى شقة. قال ان بيت العائلة في الريف يكفي لسكنى أسرة معهم. وهو لا ينوي الحياة هنا في مصر. بعد انتهاء مدة تجنيده، التي لا يعرف متى تنتهي. وانه لا توجد لديه رغبة في الحصول على شقة. وان خجله من موقفه. واحساسه بالعجز عن

ضرب هؤلاء الناس. هو السبب الذي دفعه الى تصرفه.

سألوه، ان كان قد فكر في ذلك العمل من قبل. قال انها المرة الأولى التي يفكر فيها. في العمل الذي يقوم به. من قبل، كان يتحرك، يسمع كلاماً عاماً. عن العمل الذي سيقوم به في المعسكرات. وبالقرب من مكان الموقعة. يسمع كلاماً عاماً آخر. ما من مرة سابقة. كانت لديه فرصة للتفكير.

- لماذا فكرت هذه المرة؟

قال العسكري. ان الامر سهل هذه المرة. اسرة بدون سكن تعيش في قبر. وتطلب سكناً. هل هناك ما هو أوضح من هذه القضية؟ انها بسيطة وسهلة وتدخل الذهن مباشرة. ما من ضابط من قادته. الا وله اكثر من شقة. ومع هذا، هناك الملايين الذين يعيشون في القبور. هل يحتاج فهم هذا الامر الى جهد؟

سألوه للمرة الثانية: ألم يدرك خطورة العمل الذي قام به؟ قال انه لم يفكر في كل هذا. شعر بالخجل والعار. ادرك انه يجب ان يكون مع هؤلاء الناس. ففعل هذا بدون تفكير. هذا هو كل ما جرى.

بعد عدد كبير من الصفحات. وبالتحديد، في نهاية الرواية التي فرضتها الظروف. سنلتقي بقوات الامن المركزي من جديد. والتي تسمي نفسها ولسبب لا يدريه المؤلف، بالاحتياطي المركزي. وهذا يدفع دائماً الى الذهن بسؤال: احتياطي من؟

في هذه النهاية سنلتقي مع هذه القوات بكثافة. حيث يجتمع شمل العائلة. واشخاص الرواية في استقبال العائد من القدس. تركنا هذه القوات. في ميدان التحرير. بعد ان القت القبض على من كانوا في الميدان. والمؤلف لا يحب تركها في ميدان التحرير. حتى لا يقال انه

يحكم عواطفه تجاه الناس في الفعل الروائي .

الذي حدث، انه بعد وضع الناس، الذين كانوا في الميدان، في السيارات. التي تحركت بهم الى سجون مصر. ظهرت مشكلة نقل هذه القوات الى معسكراتها. السيارات امتلأت بالناس. بعضها تحرك الى السجون. والبعض الآخر. في انتظار العثور على سجن خال. لأنه لأول مرة في تاريخ مصر. يقال عن السجون في هذه الايام: كامل العدد.

كان وجود القوات بالقرب من ميدان التحرير مثيراً. ويعد دليلاً على ما حدث. ولهذا كان لا بد من عودتهم. بعض الجنود اقترح، ان تترك لهم حرية ايقاف اي سيارات تمر. ملاكي أو تاكسي أو نقل. ثم يركبون في هذه السيارات الى المعسكر.

الضابط الكبير رفض ذلك بحسم. قال:

ـ يكفي ما فعلناه الليلة.

كان القرار هو العودة سيراً على الاقدام من ميدان التحرير وحتى المعسكرات. على ان يعودوا فرادى. وليسوا على شكل جماعات. وان يخترقوا اكبر عدد ممكن من الشوارع. والا يستخدموا اي نوع من المواصلات.

ـ يكفي ما فيها من زحام.

كانت القوات بملابسها والشدة الكاملة. ومعها السلاح الذي استخدم في غزوة التحرير. ولهذا كان ركوب المواصلات العامة مثيراً للتساؤلات. قبل التحرك، حدثت مشكلة. الضابط الكبير كان رأيه، ان يتحرك الضباط مع القوات. ولكن الضباط رفضوا فكرة العودة على الأقدام. ولأن كرامة الضباط واحدة. تقرر ان تعين قيادات لهم من الصف والجنود. يقودون رحلة العودة.

كانت التعليمات تنص على ضرورة السرعة في رحلة العودة. وهكذا قاموا بالرحلة الغريبة. في ذلك الفجر العجيب. وكان المؤلف ينوي ان يرافقهم في هذه الرحلة. وان يقوم برحلة عكسية. تقابل رحلة العائلة من القبر الى ميدان التحرير. ولكن المؤلف القي القبض عليه. ولم يقم معهم بهذه الرحلة. مع انه كان يتمنى الاقتراب منهم. لكي يعرف كيف يفكر هؤلاء الذين خرجوا من قاع الشعب الذي خرجوا منه.

لم يكن للشهود دور في هذه المرحلة من التحقيقات. لم يكن لدى الذين حققوا رغبة في سماع شهود النفي. ولم يكونوا قد اعدوا شهود الاثبات من طرفهم. ولهذا تأجلت حكاية الشهود الى مرحلة تالية من القضية. مع انهم كانوا يعرفون المطلوب من الآن. سيتم العثور على شهود اثبات من طرفهم. وسيتم تلقينهم بالكلام الذي سيقال. وستعرض عليهم صور العائلة.

كان هناك من يرى اهمية تقديم الشهود في هذه المرحلة من القضية، حتى يلعبوا دورهم اكثر من مرة. ولهذا عند الوصول الى المحكمة. يكون هناك قدر من التمرس على القيام بالدور المطلوب منهم. ولكن الذين كانوا يشرفون على التحقيق رفضوا ذلك. قالوا انه لا أحد يعرف الاتجاه الذي ستسير فيه القضية. ولهذا فإن المطلوب قوله من قبل الشهود. لا أحد يعرفه الآن. ثم ان كثرة التحقيق مع هؤلاء الشهود قد يوقع الشهود في اخطاء عند الدخول الى عالم التفصيلات الصغيرة. التي ربما حدثت تناقضات عند اعادة ذكرها.

كان القرار الاخير يشمل الكل. بالنسبة لجماهير المشاهدين. من هاجم العائلة وتصرفها. اعتبروه من شهود الاثبات تحت الطلب. ومن تعاطف مع العائلة ومشكلتها افرجوا عنه ووضعوه تحت المراقبة السرية، بالنسبة للعائلة. كان القرار ضرورة ضبط واحضار باقي افراد

العـائلة . الذين يقـال انهم ضـاعـوا في الـرحلة . أمـا الأفـراد الـــذين شملهم التحقيق . فقد صدر قرار بحبسهم حبساً مـطلقاً لحـين الانتهاء من التحقيق . وصياغة قرار الاتهام . الذي يشمل هذه العائلة وما قامت بـه ضد مصـالح البـلاد . من أعمال ضـارة . كذلـك لحين الانتهـاء من كشف الخسائر التي سببتها العائلة بمـا قامت بـه من افعال خيـانية ضـد الوطن .

وكـان ضمن القرارات التي صـدرت وضـع حـراسـة مشـددة عـلى الكعكة الحجرية في قلب الميدان . وتعيين حراسة مشددة . على مداخـل الميدان الأربعة عشر . وباقي ميادين البـلاد . ما دامت المتـاعب تأتي من الميادين فيجب حراستهـا بصورة مشـددة . ووضـع حـراسة مشـددة على القـبر . في كل اوقـات الليـل والنهـار . وصرف مكـافـأة للقيـادات التي حـاصرت العملية . والاتصـال بـالجهـات الاعـلاميـة . المتعـاونـة مـع الـوزارة . من اجل دراسـة الطريقـة التي تقـدم بهـا القضيـة الى الـرأي العام . عندما يتقرر ذلك . .

٢

حرب المماليك تصل إلى المطبعة

بعد انتهاء متولي من جمع الرواية. قام المؤلف بتصحيح البروفة الأولى. وبدأت التصحيحات تمهيداً لمراجعتها مرة ثانية. ثم يعطي أمر الطبع. تمت كل هذه المراحل بسرعة. جعلت المؤلف سعيداً. راجع المؤلف، الرواية بعد تصحيح الأخطاء. ثم أعطى أمر الطبع. حدد له متولي موعداً يحصل فيه على النسخة الأولى من روايته. وقال له، إنه سيحصل على هذه النسخة بدون الغلاف. لأن الغلاف سيتم طبعه في مكان آخر. لأن مطبعته لا تخرج أغلفة جميلة، ومقبولة فنياً.

في اليوم المحدد، لكي يتسلم المؤلف النسخة الأولى. كتب المؤلف في أوراقه الخاصة، تاريخ اليوم، وتحت التاريخ، دون جملة صغيرة. قال فيها، إنه سيتسلم أول نسخة من روايته الجديدة. عصر هذا اليوم. راح يتذكر آخر مرة. حصل فيها على نسخة من أحد أعماله. اكتشف أن هناك سنوات أربع تفصله عن هذه اللحظة. صحيح أن بعض أعماله، صدرت خلال هذه الفترة ولكنها كلها تصدر خارج البلاد. والنسخة التي تصله ليست الأولى. وهي تصله بعد فترة من الوقت، تصل إلى العام في بعض الأحيان.

آخر مرة شاهد فيها متولي وعمال المطبعة. كانت منذ أيام. وعندما

حدد له متولي موعد الاستلام. وفي لحظة الحماس النادرة، قرر المؤلف تقديم الشاي والمعسل وقبلهما الكشري وحمص الشام بالشطة على حسابه. الخاص لكل عمال المطبعة. تسرع المؤلف ساعتها. ولم يفكر في سوء أحواله المالية. الذي يعاني منه.

وخلال عملية الطبع. كان مندوب من الداخلية يحضر إلى المطبعة كل صباح وكل مساء. يسأل عما طبع في المطبعة. وفي كل مرة، يأخذه متولي. يجلس معه أمام المطبعة. متولي على كرسي. وأمامه المخبر على كرسي. يرحب به. يرسم على الشفتين ابتسامة. لا يعرف المؤلف.. مصدرها. ويطلب له كوب الشاي وطبق الشكري، أو سندوتش الفول والطعمية.

بعد قليل، ينصرف العسكري لحاله، تكررت العملية، لدرجة أن المؤلف داخله قدر من الاطمئنان. جعله يتصور أن الرواية ستصدر في موعدها. المقرر دون حدوث أية مشاكل..

وبدأ المؤلف يحدث كل من يقابله عن الرواية. باعتبار أن صدورها. مسألة وقت فقط.

كان المؤلف ذاهباً إلى المطبعة، للاتفاق على طريقة توزيع الرواية. عندما وجد أن الشارع الذي يؤدي إلى المطبعة محاصر بقوات الأمن. قال في نفسه «الاحتياطي المركزي، أعوذ بالله». تصور أن خناقة قد وقعت في الحي. أو أن حريقاً شب. منعوه من دخول الحارة. نظر من بعيد. ولأنهم لم يتمكنوا من منع نظراته. استطاع رؤية ما يجري. وسمع بعض كلمات. عندما اقتربت فتاة. تضع ملاءة على جسدها المتفجر. من جندي وسالته عما يحدث. فابتسم وقال لها. إنه هجوم على المطبعة. سالته عن السبب فقال إنه لا يعرف أكثر من انه هجوم على مطبعة. زميل له يبدو انه يعرف، أكثر من غيره. فقرر أن يقول ما

لم يقله زميله. قال ان المطبعة فيها مناشير تكدر الأمن العام. ولهذا هوجمت.

استراحت نفس المؤلف. الأمر ليس خاصاً بروايته. راحته لم تكن كاملة، فكل فئران العالم كانت تلعب في عبه. شب على أطراف أصابعه. من يدريه. ربما كانت كل هذه القوات موجودة هنا من أجل روايته.

كان ما يحمله الجنود من المطبعة، هي نسخ الرواية: كانوا يضعونها في صندوق سيارة. أشبه بسيارات جمع القمامة من الأحياء الشعبية. عندما شاهد المؤلف الأمر. تصور، أن نسخ الرواية ستذهب إلى نفس المكان. الذي يأخذون إليه فضلات المدينة، كي تحترق. تساءل: وهل أصبحت الكتابة نفاية من نفايات الإنسان، مفروض أن يتخلص منها بالحرق؟

ويقف في مكانه. احتار ماذا يفعل. استدار في داخله خاطر. إن لحظة المواجهة أتت. المؤلف. الذي جعل من نفسه بطلاً لهذه الرواية. في مواجهة قوات الدولة. التي يناضل بالكلمات ضدها. كل ليلة. لحظة تتطلب من المؤلف الفعل وليس الكلمات. الأمر سهل وبسيط. كل المطلوب التقدم من هؤلاء الجنود. وشرح الفارق بين المناشير والرواية. وآه لو عرف هؤلاء مضمون الرواية.

كل المطلوب أن تقول لهم: خذوني مع روايتي. وأن يكون المصير واحداً. ولن يكلفك الأمر الكثير. كلمة واحدة وينتبهون إلى وجودك. ويصبح لك مكان في نفس السيارة التي حملت الرواية.

تراجع المؤلف: راح ينظر إلى الموقف أمامه. وخاطره يقول: إن هذا المشهد يذكرني برواية ١٩٨٤ لجورج أورويل. هذا المشهد سبق أن رأيته ألف مرة من قبل. عشت معه في فلم ٤٥١ فهرنهيت. تذكر

كلمات النازية، الفاشية، المكارثية. قال ان التاريخ يعيد نفسه. هذا ما فعله الهكسوس والتتار والمغول. قال ان مكتبة بغداد حرقت بنفس الطريقة. كل الفارق. أن النيران التي التهمت المكتبة. كانت عائمة فوق نهر دجلة. قال المؤلف لنفسه: ان أوراق مكتبة الإسكندرية تحولت إلى وقود لحمامات المدينة استمرت في تسخين المياه من أجل أن يستحم بها الناس. في شتاء الاسكندرية.

جلس بالقرب من القوات التي كانت تحاصر المكان. لم يكن في حياته ما يحرص عليه. ولكنه تردد. ولم يتقدم. شعرة واحدة كانت تفصله عن الفعل. لهذا لم يدرك من قبل. الفارق الحقيقي بين المعارك التي تدور في حقول الأبجدية. وبحار الكلمات ومياه اللغة. وبين الفعل الحقيقي.

فكر من جديد، لا يوجد في حياته ما يجعله يفكر ويتراجع. ويحرص ويخاف. ليست وراءه أسرة، ولا بيت مريح ولا مرتب كبير. ولا منصب يخشى فقدانه، لا يوجد في حياته سوى التعب والإنهاك اليومي. ومع هذا يحرص على هذه الأشياء.

اصطكت أسنانه. وسرت البرودة في أطرافه. ونبتت حبات عرق باردة تحت شعر رأسه. وانزلقت بعض حبات العرق على جلد وجهه، وتبخرت بعد قليل. فسببت له إحساساً نادراً بالبرودة. لم يجربه من قبل. جف ريقه. وزاغت نظراته. وتسارعت دقات القلب. وسرى تنميل لم يعرفه من قبل في عروقه.

سخر من نفسه، أهرب ما شاء لك الهروب. ستجد في التاريخ آلاف الأمثلة التي تتكلم عنها. وتجري مقارنات بينها وبين الموقف الذي تشاهده الآن. أدرك أن ثنائية عمره كله تواجه الآن. سأل المؤلف نفسه: لماذا يخشى المواجهة؟ كان المطلوب هو اختصار المسافة بين القول

والفعـل. أن نقـول لا. هـذا جيـد ولكن أن نفعلهـا فـذلـك هـو كـل المطلوب فعلاً.

كان يدرك أن الفعل الذي سيقدم عليه. يعني تحرره. من كل قيـود عمـره. حتى لو احتفظ بنسخـة واحدة من الـرواية. بعيـداً عن المصير الذي ينتظر الرواية كلها. المطلوب هو الفعل. التحـرك باتجـاه الناس. أن تقـول لهم. إن ما تفعله قـوات الأمن المركـزي. هو محاولة إحـراق روايـة تتكلم بصـدق وإخـلاص عن الهمـوم والمشـاكـل عن الضنى والعذاب اليومي. الذي بدون نهاية.

ولأنها تتكلم بصدق، وسط الكذب الذي أصبح غذاء كل يـوم. لا بد من حرقها. قل للنـاس هكذا فقط. قـال لنفسه: النـاس، النـاس، النـاس، ماذا سيفعلون وحصار الهموم والمشـاكل جعلهم يمشـون بجوار الحيطان. والحرص على الحياة، أفقدهم حتى القدرة على الحياة نفسها. كـان قرار المؤلف. أن يقف دون أن يلفت الأنـظار إليه. لحين الانتهاء من تحميل الرواية. ثم يذهب إلى متولي.

وقف. شاهد عملية أخذ نسخ الروايـة. شعر أن جـزءاً منه يـأخذه الآخرون. يموت. أدرك أن هنـاك من يغتصبه من الخلف. من يبـطحه أرضاً. ويجرده من ملابسه. أمام الآخرين. هناك من يبصق عليه. من يضع حذاءه في فمه. شعر بالانتهاك والقهر.

قال لنفسه: ان دخول دائرة الهـوان المباح، لا خـروج منه أبـداً. لم يبق أمامه سوى الرضوخ والبكاء المنفرد. كره كلمات اللغة العربية كلها. قال ان الكلمات فخاخ تلعب بنا. تفرغ ما بداخلها. تفقدنا القدرة على الفعل.

انفض المولد، وذهب المؤلف إلى متـولي. كان يقف أمـام المطبعـة. احتار المؤلف، ماذا يقول له، في هذا الموقف. بمجرد أن شاهده متولي.

حتى انطلق في هجوم على الدولة. قال، ان الحرية في بلادنا لها أنياب. والديمقراطية لها جيش من الدروع والخوذ. والقنابل المسيلة للدموع. رفع المؤلف يده. رجا متولي أن لا يتكلم في مثل هذه الأمور. لأن الأهم الآن. هو مواجهة موقف صعب. كانت المشكلة التي تشغل ذهن المؤلف. أن متولي سيطلب منه تكاليف الطباعة. الرواية أخذتها الحكومة. وكان المؤلف ينوي أن يسدد ما عليه من بيع الرواية. الآن، خسر المؤلف الجلد والسقط. ولم يعد لديه ما يدفع منه ما عليه.

المشكلة الأخرى. هي أنه لا توجد وسيلة أخرى لتسديد هذا المبلغ مستقبلاً. قال متولي ببساطة أذهلت المؤلف.

- ولا يهمك.

كيف؟ المبلغ ضخم، ومن المستحيل على المؤلف دفعه من جيبه. عاد يتحدث عن تكاليف الطباعة. والأموال النائمة على صدره مثل الجبل. ولكن متولي. قال من جديد. ان المادة ليست كل شيء. نظر المؤلف إلى متولي. وكأنه يراه لأول مرة. كان متولي ينظر إلى ما جرى وكأنه أمر طبيعي. وربما كان يتوقعه. مع أن ما جرى كان شديد الإزعاج للمؤلف.

تساءل المؤلف: هل كان متولي يعلم الذي سيحدث.؟ ما سبب حالة الهدوء التي تسيطر عليه الآن؟ قال متولي بهدوء:

- إنه صراع المماليك.

أي مماليك وأي صراع.؟ أكمل متولي:

- إن صراع المماليك يصل إلى المطبعة. وذلك هو الجديد.

كان كلام متولي، هذه المرة، هاماً، بالنسبة للمؤلف.

قال له متولي، إنه أثناء تناوله الشاي، مع العمال، وقت الغروب. نوجيء بحالة غريبة، المطبعة توجد في حارة، والحارة لها ستة منافذ.

من المنفذ الأول. شاهد خوذة وفوهة بندقية، وجزءاً من مدفع. في المنفذ الثاني: كانت هناك عصا لها شكل غريب في يد جندي. وفي الثالث: خنجر يلمع. رغم ضوء الغروب الشاحب. وفي الرابع، كانت آلة تصوير تلمع. بضوء فلاش سريع. تسجل الانتصار العظيم. وفي الخامسة، شاهد سيارة، يجلس بداخلها ضابط. يبلغ بجهاز لاسلكي. القيادات العليا. بما يجري على الطبيعة، أولاً بأول. ومن المنفذ السادس، كان احتياطي القوات يسد عين الشمس. التي كانت تتأهب للغروب.

متولي، كان أول من اهتم بالمسألة، وضع كوب الشاي، الذي كان في يده على الكرسي. وقال:

ـ المنطقة محاصرة.

وعندما لم تحدث الكلمة رد الفعل الذي كان يتصوره، أكمل:

ـ فعلوها.

قال متولي، بصوت عال، سمعه الكل:

ـ المماليك تحارب بعضها.

قال المؤلف:

ـ ولكن متى تحدث نكبة البرامكة.؟

قبل، أن يكمل متولي، حكايته، قال إنه حصل على نسخة وحيدة من الرواية. حفظها له في مكان أمين. لا يمكن أن يصل إليه أحد. مهما كان التفتيش دقيقاً. حصل عليها. بدلاً من أن تضيع الرواية إلى الأبد. حتى توجد ولو نسخة وحيدة منها. خوفاً من ضياع سنوات العمر التي أفناها المؤلف في كتابه الرواية.

قال متولي، إنه أخرج هذه النسخة الوحيدة، من الرواية، بطريقة أقرب إلى الأفلام البوليسية. ذهب إلى الغرزة التي يصنع فيها رجل

عجوز الشاي للمنطقة. أخذ صبي الغرزة إلى الداخل. من حسن الحظ أن جسم الصبي مماثل لجسم متولي. في حجرة المونة. استبدل ملابسه بملابس الصبي. وأعطاه بدلته.

أخذ نسخة الرواية، وضعها تحت الصينية. وفوق الصينية. وضع أكواب الشاي والبراد. واجتاز متولي. الذي أصبح صبي المقهى. دوائر الحصار. إنه يحمل الشاي للزبائن وعقب عودته. سيحمل الشاي إلى الجنود. بعد مرور من دوائر الحصار. شاهد في الشارع الرئيسي، سيارات مطافىء وإسعاف وسيارات لا تزال ممتلئة بالجنود الذين لم ينزلوا بعد من سياراتهم. شاهد بعض الجنود يقفون في الحواري الجانبية. سمع وهو يسير ببطء، حتى لا يلفت نظر أحد. من يسأل عن العلاقة بين المناشير والرواية وسيارات المطافىء. سمع من يرد عليه قائلاً، ان الحريق، الذي سيشتعل بعد قليل، حريق ذو طابع سياسي. ولا بد من الحذر والحيطة. خرج متولي من الدائرة كلها. فاكتشف أن الحصار مفروض على المنطقة.

قرر المؤلف ألا يعود إلى البيت والرواية معه. سيعطي نفسه الفرصة ليفكر في الأمر بهدوء. جلس، اكتشف الأمر بسهولة. كان يبحث عن مكان أمين، يضع الرواية فيه. سأل نفسه: لماذا لا يذهب إلى منطقة المقابر. لكي يضع الرواية هناك؟ لن يجد الأمان الحقيقي لها. سوى في قبر من القبور. سيذهب من فوره إلى أحد التربية أو الخفر. يطلب منه فتح مقبرة له. لم يدفن فيها أحد منذ فترة. تفادياً للرائحة.

سيعطي التربي والحارس مبلغاً من المال. سيفتح له الحقيبة حتى يعرف ما بداخلها ويدرك انه كتاب. وبذلك يضمن عدم سرقة الحقيبة. وكان المؤلف. قد وضع الكتاب في حقيبة من اجل الحفاظ عليه. كرر المؤلف لنفسه: ربما كان القبر هو المكان الوحيد المأمون في

هذا الوطن. قال لنفسه: بلدنا في بعض الاحيان يحكم من القبر. من يوجد في القبر له قداسة تحكم حتى تصرفات الأحياء.

مت أولاً، واذهب الى القبر ثانياً. وستكون خالداً. قال المؤلف، انه سيضع الجزء الاول في القبر. ولكن ماذا عن الجزءين الثاني والثالث من الرواية. ان الجزء الثاني لم ينته العمل فيه. والجزء الثالث. مجرد تخطيط في ورق. ولو كان قد انتهى منهما. لكان من السهل. العثور على قبر لكل منهما. وما اكثر القبور في هذا الوطن. فكر: لو كان لي صديق. لوضعت عنده اوراق الجزء الثاني. والثالث؟ ما أكثر قسوة العالم عندما يخلو حتى من الصديق.

ذهب المؤلف، الى منطقة المقابر. إستقبله أحد التربية، الذين عرفهم في الفترة التي كان يتردد فيها على القبور. كان الوقت ليلاً. ولهذا بدا حضور المؤلف غريباً في الوقت. قال التربي في نفسه، ماذا يريد ذلك الشخص، حامل الورق والاقلام. صاحب البال الرائق.؟

اقترب منه المؤلف.، قال ان لديه حقيبة يريد اخفاءها هنا.

سأله التربي:

ـ مخدرات؟!

أكد له المؤلف، أنه لا توجد في الحقيبة، اية مخدرات. سأل التربي:

ـ حبوب؟ دواء ممنوع؟

فتح المؤلف الحقيبة، اخرج الكتاب منها. قال ان الكتاب عبارة عن ذكرى عزيزة من والده. الذي مات مؤخراً، تساءل التربي:

ـ ودفنته بعيداً عنا؟ يا خسارة العشرة.

أفهمه ان والده من الريف. وانه دفن في القرية البعيدة. وان الدفن لو تم في مصر، كان سيحضر له فوراً. لم يصدق التربي كلام المؤلف.

لأنه لم يكن يبدو عليه ان والده مات بالأمس. اخذ منه الحقيبة. واتجه الى قبر معين والمؤلف يسير وراءه. كان يحاول تحديد اية علامات في المكان. اكتشف ان القبور متشابهة. نظر الى التربي. قال ان هذا الرجل، سيكون الدليل الوحيد الى كتابه. لو اختفى هذا الانسان او مات، او جرى له اي مكروه لضاع الكتاب الى الابد. او كان على المؤلف ان يحضر الى هذه القبور. وان ينبشها قبراً قبراً. حتى يعثر على الكتاب.

نظر الى التربي. حاول ان يدرك اين توجد قدرة هذا الانسان على البقاء في مواجهة الموت. عاد ينظر الى القبور من حوله. لعله يكتشف أية علامة من العلامات. وجد فوق جوار الحوش المقابل للقبر، الذي توقف عنده الرجل، كتابة. دعاية انتخابية. لاحدى المرشحات لعضوية مجلس الأمة، لايذكر في أية دورة من الدورات. والدعاية كانت تخلو من التاريخ. قرأ الاسم وابتسم لنفسه. نجمة الستينات ومطربة السبعينات. من يدري. ربما تحولت الى زعيمة في الثمانيات. «انسان لكل العصور» سرح بفكره مع هذه الظاهرة. العجيبة. قال في نفسه: هل هي ظاهرة مصرية. ؟ او توجد في اماكن اخرى من عالم اليوم. ؟

كان ذهنه متعباً. وفي هذه الاثناء، كان الرجل قد غاب. داخل القبر. وعاد وهو يتكلم عن الوقوف مع الاصدقاء وقت الشدة والجدعنة والرجولة. وكانت يدا المؤلف تدوران في قاعة جيبه يحاول جمع مبلغ من المال. لأنه ادرك ان كل هذه الكلمات تطلب مبلغاً من المال، يساوي الخدمة التي قدمها.

ترك المؤلف روايته في القبر وعاد. في الطريق الى بيته لم يكن مستريحاً، كان لديه احساس أنه ترك جزءاً منه داخل القبر. جزء منه

مات لحظة هجوم التتار على المطبعة. وجزء آخر يتركه الآن. بنفسه وبرغبته الكاملة في القبر والغريب انه يواجه كل هذا منفرداً. دون ان يكون معه أحد من ملايين الآخرين. الذين يكتب لهم وعنهم ومن أجلهم. كان ترك الرواية، يحمل فألا سيئا. خشي ان يضطر هو نفسه ذات يوم. الى الاختباء في القبر. هروباً من مطاردة التتار له.

سأل ان كان من الممكن عمل اجراء ضد مصادرة الرواية بهذه الصورة، قيل له ان ما جرى يعد من اعمال السيادة. اي انه عمل لا يناقش. وعلى المتضرر من الاجراء اللجوء الى القانون. اي يرفع قضية، وسيكون من الصعب قبول القضية من حيث الشكل. لأنها تناقش. أمراً من الصعب مناقشته. ثم ان جهاز الرقابة نفسه. ليس له وجود رسمي على الورق في مصر الآن، وأي اجراء له. من الصعب اخراجه الى النور. والحديث عنه بصورة علنية.

في الليل، بدأ المؤلف يفتش في اوراقه. والمؤلف يعاني من عادة سيئة وهي الاحتفاظ بأكبر قدر من الاوراق. يقول لنفسه. انها وثائق هامة عن هذا العصر العجيب. ولأنه لم يتمكن، حتى هذه اللحظة. من كتابة ما يود قوله، عن هذا العصر. فلا بد من وجود هذه الوثائق معه. في انتظار، ان تأتي اللحظة، التي يتمكن فيها من القول.

كان المؤلف، يدون الكثير من افكاره وخواطره. حول ما يجري في البلاد، كانت الافكار والكلمات تحاصره احيانا. وكان يدونها خوفاً من هروبها منه. او خوفاً من نسيانها. الايام تاكل في جوفها كل الاشياء الجميلة. في الحياة. (وهل اصبح في الحياة اي شيء جميل؟).

مزق بعض أوراقه، اكتشف ان ما مزقه كثير. قرر ان يعيد النظر في فكرة الاحتفاظ بالاوراق والوثائق. عن هذا العصر. اشار الى ذاكرته. قال ان الاحتفاظ بأية وثائق في الذاكرة. اكثر امانا من اي مكان آخر.

ولكنه اكتشف ان الذاكرة اصبحت ضعيفة. وانه ينسى الكثير. وان الذاكرة اصبحت مثل الصندوق. المثقوب من منتصفة. قرر ان يعالج نفسه. يذكر انه قرأ بعض التمرينات التي تقوي الذاكرة. وتجعل الانسان يتذكر كل شيء.

اخذ اوراق الجزء الثاني. والجزء الثالث من الرواية. لا بد من اخفائها في مكان بعيد. لو ضاعت. لكان معنى ذلك ضياع سنوات كاملة من عمره. من المستحيل اعادة كتابة. الاجزاء التي انتهى من كتابتها بنفس الصورة.

جلس يفكر في صمت الليل. عند من يخفي هذه الاوراق؟ لا بد من وضعها عند شخص. من خارج الدائرة التي يتحرك فيها اصلاً. شخص عادي اكتشف ان من يعرفهم من غير المثقفين. قلة شديدة. تعجب من نفسه. انه يتحرك وسط دائرة مغلقة. على عدد من الذين يتعاطون الكلمة المطبوعة فقط.

اكتشف انه يعرف عاملاً في مصنع. استبعده لحساسية المصنع الذي يعمل فيه. هداه تفكيره الى سائق من قريته. حضر منذ فترة. ويعيش على اطراف المدينة الأخرى. سيذهب اليه. ويترك الرواية عنده. في الطريق سيكون حذراً. لن يأخذ الاوراق في يده. من المعروف عنه انه لا يتحرك الا ومعه حقيبة.

سيتابع من يمشون خلفه. انه يعرف بعض الحيل. كأن يتوقف فجأة، ويبدو كمن يحاول ربط حذاءه. الذي انفك في هذه اللحظة فجأة. وخلال عملية الربط. يرى من خلفه. ان ركب تاكسياً. عيناه لن ترفعا عن المرآة. وعند السير على قدميه. يتوقف امام كل ناصية. يضرب قدميه في الارض كأنه ينفض التراب عن حذائه. يترك شيئاً يقع منه على الارض. ويحاول اخذه. يسرع في سيره. ثم يبطيء. وقد

يتـوقف لكي يسأل النـاس. وكل هـذا يجعله يدرك، ان كـان هناك من يتابعه ويلاحقه. في سيره ام لا.

في الـطريق، سأل نفسـه، هل يـترك الاوراق عند بلديـاتـه دون ان يحكي لـه الظروف. ام يقـول له الحكـاية؟ من الافضـل الا يقـول لـه ظروفه. يكفي ان يذهب، ويكلمه عن الاحـوال. ويقول لـه، انه مـر من هنـا بالصـدفة. ولهـذا قرر ان يسلم عـلى بلدياتـه. ويـطمئن عـلى احواله. ثم يقول، انه سيسافر الاسبوع القادم الى خـارج البلاد. وقـد يبقى في الخـارج فترة من الـوقت. لهذا فـانه يـترك هذه الحقيبـة. وفيها بعض الاوراق. ويرجو الحفاظ عليها. في مكـان امين. لحـين عودتـه. كذبة صغيرة. ولكنها من النوع الأبيض. لن تضر الرجل.

تعب حتى وصل الى عنوان الرجل. خبطت زوجته المريضة، بيـدها المتعبـة. بمجـرد ان عـرفت ان المؤلف من اولاد البلد. لم يفهم المؤلف السبب ولكنها قالت، ان من يحضر من البلد بهـذه الصورة. لابـد وانه يحمل خبراً سيئاً. من هناك. موت او قتل. حريق في البيت. او اطلاق ميـاه على زرع. امـا الاخبار السعيـدة والمفرحـة. فيتركـونها تصل عـلى مهلها.

طمـأنها المؤلف. قال انـه مثلهم يعيش في مصر. منـذ سنـوات وان حضوره تم بالصدفة. لأنه كان يمر من هنا.

كان الرجل غير مـوجود. سافر الى الصعيد. في محاولـة للعثور عـلى عقد عمل في احدى الدول العربية. ولن يعود قبل بضعة أيام. الـرزق صعب والحياة قاسية. هكذا قالت الزوجة المريضة. وهي تكلم المؤلف من خلال شراعة في البـاب. واعتذرت لأن زوجهـا اغلق عليها البـاب قبل سفره. خوفاً من اولاد الحرام الذين لم يتركوا لأولاد الحلال شيئاً.

مدت يدهـا، من خلال الشراعـة، وسلمت عليه، وضربت البـاب

بعنف. حتى اهتز البيت كله. وكاد البـاب ان ينخلع من مكانـه. احتار المؤلف. هل ضربت الباب من اجـل ان يتاكـد أنه مغلق. ام لأنها غـير راضية عن هذه الحالة الغريبة. التي وضعها فيها زوجها قبل سفره؟

سألته ان كان يريد شيئاً. فقال انه حضر للتحية والسلام. والسؤال عن الصحة والحال. الانطباع الذي شاهده على وجهها. اكد لـه. ان الريفية البسيطة، لم تصدقه. الحت عليه. ان يقـول السبب الذي جـاء من اجله. وكرر هو انه لا يوجد سبب. عندما كان يستدير. منصرفـاً. أشـارت يدهـا من خلال شراعـة الباب الى الحقيبـة. وقـالت ان هنـاك سببا. في الحضور. وان السبب يوجد في الحقيبة. فنفى من جديد. ثم انصرف.

في طريق العودة. أتاه الحل. من بعض مشاهد الافـلام البوليسيـة. التي تتكـرر في العديـد من الافلام. عنـدما تضيق الـدنيا عـلى البطل. وتكون معه حقيبة فيها مجوهرات يصل ثمنها الى مليون جنيه. وتـطارده عصابة شريرة. تريد الحصول على الحقيبة بـأي ثمن. ويهبط الحل عـلى البطل. الذي لا يخطر على بال أحد من افـراد العصابـة. ولا قائـدهـا. الذي يسمى الزعيم او الاستاذ.

يذهب البطل الى محطة السكة الحديد. أو محطة مصر كما يسمـونها. وفي مكتب الامانات. يـترك الحقيبة كـأمانـة لديهم. ثم يحضر لأخـذهـا بعد ان تنتهي الازمة. مكان مأمون. لا يخطر على بال أحد.

ضحـك المؤلف. لأن أوراق روايتـه ستحفظ عنـدهم. مـوظف من الهيئة الحاكمـة، هو الـذى سيحفظ أوراق روايته. طـوال فترة الحصـار الايـام العصيبة القـادمة. تـذكر الكلمـة القديمة. التي تقـول. دعهم يـوسعون من المبـاني. ويكـثرون من المصـالـح. ففي لحـظة الصـدام. يمكنـك استخدام هـذه الاماكن وتلك الـدوائر. التي تكـون قد اتسعت

عليهم. واصبحوا عاجزين عن ادارتها بالصورة السليمة.

استراح لفكرته. ترك اوراق روايته في امانات المحطة. سيحصل على ايصال بالحقيبة لا بد من وضعه في مكان امين. لأنه بدون الايصال، لن يصل الى الحقيبة ابداً. عندما يصل الى البيت. سيصنع جيباً سرياً. في الفانلة الداخلية. يضع فيه الايصال. ربما يتم تفتيش البيت والملابس.

وصل الى المكتب. سيبدو طبيعيا في تصرفاته. حتى لا يشك في امره احد من العاملين في المكتب. رسم حالة من الجدية على ملامح وجهه. تذكر ان الامانات التي توضع هنا. لا بد وان تكون لمسافرين. والدليل الوحيد على سفرهم. تذاكر السفر. قال ان المشكلة بسيطة. سيذهب الى داخل المحطة. وهنال سيعثر على آلاف التذاكر. يأخذ واحدة. يقدمها مع الحقيبة.

اختار تذكرة درجة أولى. اخذها من مسافر خارج لتوه من المحطة. نظر له المسافر باستغراب ثم اعطاه التذكرة في صمت. وفي مكتب الامانات قدم الحقيبة والتذكرة. وقال انه يرغب في إيداع الحقيبة امانات. نظر له الموظف. شك المؤلف ان يكون قد عرفه. ربما كان جزءاً من الفرقة التي هاجمت المطبعة. خيل اليه انه يعرفه. وانه كان ينتظره هنا. منذ فترة مضت. وانه يقف من اجل الحصول على اوراق روايته. هو بالذات.

كاد المؤلف ان يجري. عندما نظر الموظف في الحقيبة طويلاً. وقلبها بين يديه. ودون استئذان فتحها ونظر فيها. مد المؤلف يده. معترضا على فتح الحقيبة. ولكن الموظف اشار الى ورقة معلقة في منتصف باب المكتب. نظر المؤلف الى الورقة. كانت توجد بها تعليمات جديدة. خاصة بحفظ الحقائب. وتنبه على ضرورة فتح الحقائب والتأكد من محتوياتها. قبل ايداعها في المكتب.

وقف المؤلف ساكتاً. قال الرجل. الذى كان يقلب في محتويات الحقيبة. وكل محتوياتها كانت عبارة عن أوراق.

ـ المتفجرات في كل مكان.

قال الكلمات لنفسه. ثم قرأ عنوان الرواية:

ـ شكاوى المصري الفصيح (٢) المزاد.

قلب اوراق الرواية. واحدة بعد الاخرى. ثم تساءل. وهو يعيدها الى مكانها في الحقيبة:

ـ وهل بقي في بر مصر واحد فصيح؟

اعاد اغلاق الحقيبة وهو يكمل السؤال:

ـ أين هذا الفصيح الذي يشكو؟

ـ هذه المرة، كان السؤال موجها الى المؤلف. الذي لم يرد على الموظف مفضلا التريث والانتظار لحين الانتهاء من الامر. كان الموظف متعبا ومنهكا خيل للمؤلف انه لم ينم منذ عشر سنوات مضت. كانت عيناه متعبتين من عدم النوم.

قال وهو يجلس، انه يرفض اخذ الحقيبة بدون مفتاح. وفي هذه الحالة تعد سهلة السرقة. ثانياً: انهم يقبلون الحقائب الكبيرة التي يكون في حملها مشكلة بالنسبة لصاحبها. أما هذه الحقيبة فهي اصغر من حقيبة اليد. ثالثاً: انهم يأخذون الحقائب التي مع مسافرين سيسافرون مرة اخرى. وقد لا توجد تعليمات مكتوبة بذلك. ولكنهم ينفذونها خوفاً من ضغط الحقائب عليهم.

رابع هذه الاسباب خاص به. في هذه الحقيبة اوراق. تصرفه عن عمله. وقد تتسبب في فرض جزاء وعقوبة عليه. الحقيبة فيها اوراق تتحدث عن الشكاوى. والكل يشكو. والمصري الفصيح. والكل

أصابته حالة من الخرس. فقدوا القدرة على الكلام. رجال الوطن لا يجيدون سوى التصفيق. ونساء بر مصر لا يجدن سوى الزغاريد. وهو يريد معرفة ان كان في مصر من يختلف عن هذا.

قال له المؤلف. انه سيسافر قريباً. وكل ما يهمه هو ترك هذه الاوراق. اعتذر الموظف. وقال ان حكاية القفل المحكم. لأية حقيبة أساسية. وقبول أية حقيبة بدون قفل يعد مخالفة. فكر المؤلف في شراء حقيبة لها قفل ومفتاح. من اي مكان. ولكنه اكتشف انه لا يملك الثمن.

وقف المؤلف في ميدان باب الحديد. يفكر. لا يوجد من حل سوى القبر. مع انه لم يكن يريد وضع باقي روايته في القبر. يكفي انه يوجد في القبور الجزء الأول منها. كان القبر هو المكان الوحيد المتاح امامه من البداية. ولكنه كان يريد التنويع في الاماكن. من باب الا يضع الرواية كلها في مكان واحد. وان يكون الجزء الاول في مكان. واوراق الجزءين الثاني والثالث في مكان آخر.

الآن. لم يعد امامه سوى القبر، كل ما سيطلبه من التربي. ان يضع الاوراق في مكان آخر. غير المكان الذي يوجد فيه الجزء الأول منها. وبعد ان ينجلي الكرب الذي يهدد كل ما في الوطن. سيعود ليأخذ الرواية والاوراق.

توجه من باب الحديد الى منطقة المقابر مباشرة.

وهو في المقابر. كان وجه الرئيس يطل من تليفزيون ملون. في احد القبور. وكان يتحدث عن الديمقراطية والحرية. التي لم تحدث في كل تاريخ مصر السابق. كان يقول، ان الأمور الآن على اروع ما يكون. وان الأداء جيد ومبشر بالخير. وكان يتساءل: والغضب يطل من وجهه: كيف لا يشعر المصريون بكل هذا الخير والسعادة والرخاء؟

كيف؟ هل ينزل الى الشارع بنفسه. لكي يشرح لكل مواطن النعمة التي يعيش فيها؟

ـ المصريون أحرار لأول مرة. .

كررها الرئيس كثيراً. ووصلت الكلمات الى المؤلف وهو يسير بين القبور. في الظلام. وانتشرت حالة من المرارة تحت اللسان وبين الاسنان وعند منبت ضرس العقل.

قال المؤلف لنفسه، ان الحرية الوحيدة المتاحة. هي حرية السيد الرئيس في ان يقول ما يريد. وحريته في ان يفرض على الناس حتمية تصديق كل حرف يقوله. مهما كان. ومن لا يصدقه. لا بد من معاقبته بتهمة عدم. . تصديق الرئيس.

وكان الرئيس لا يزال يتحدث، عن كرامة الانسان المصري. التي أعيدت له وعن عيوب الحكم الشمولي. الذي مضى. ولن يعود بعد ذلك أبداً.

كان اكتشاف المؤلف في الايام التالية مذهلاً. وكان على المؤلف. ان يدرك منذ البداية. ان أعلى الاصوات في نقد الاوضاع. بالصورة التي كان يتصرف بها متولي. يجب على الانسان ان يتعامل معها. بأكبر قدر من الشك والريبة. والحذر.

في البلد جهتان أمنيتان رئيسيتان. ما اكثر الجهات الأخرى الفرعية. الصراع بينهما على اشده. في الزمن الماضي. كانت السيادة لاحداهما. على حساب الأخرى. لأنه من المستحيل أن تكون لهما معاً سيادة في وقت واحد. ثم انقلبت الامور. وتغيرت الاحوال. متولي كان يعمل مع الجهاز الذي كان سائداً ثم احيل الى المعاش. الجهاز الآخر. كان يسبب له العديد من المتاعب والمضايقات. خاصة بعد عجز جهازه عن حمايته.

متولي طبع الرواية بعلم الجهاز الذي كان يتعامل معه. وكان يرسل لـه نسخة من كـل صفحة يتم جمعهـا. ولأن الروايـة لا تـدخـل ضمن اختصاصات الجهـاز. حولهـا الى الارشيف. ومتولي اعتبر ان الصمت موافقة ضمنية. على طبع الرواية. والا كانوا لفتوا نظره الى مايقـوم به. ولأن الجهاز الأخر لم يتحرك.

تصور متولي. ان المؤلف ربما يعمل معه، ومتولي لديه يقـين لا يقبل المناقشة. ان الانسان يخلق ليعمل مع أحد الأجهزة. تلك هي القاعـدة الاساسية. وعدم العمل مع اي جهاز استثناء نادر الحدوث. ما من أحد يعمل. إلا وله جهازه الذي يعمل له.

قـرر متولي. ان يحـاول ارضـاء الجهـاز الجـديـد. الى جـانب عمله الثـابت مع الجهـاز القديم. حتى لا يضيـع بسبب الصراعـات بينهـما. والتي لا يعـرف أحد متى تنتهي هـذه الصراعات. لم يـدرك متولي. ان اجراء الرواية موجه له شخصياً. وان الأمر كله رسالة موجهة الى جهازه القديم. والذي تم ركنه على المعـاش فترة من الـوقت. ثم اجريت فيـه تغييرات جعلته لا يمت بأية صلة الى الجهاز الأول.

كـان قرار متـولي. بالتعـاون مع الجهـازين متأخـراً. وفترة التـاخـير اضاعت الرواية.

لا يملك المؤلف انهاء هـذا الفصل، سـوى بعدد من الافـتراضات. وهل يوجد من لديه يقين في هذه الايام؟ . . اين هو الشخص. المتأكـد من اي شيء في زمننا؟ . . سيفترض المؤلف ان الرواية نشرت في مصر. وسيفترض ان الرواية نشرت خارج البلاد. وهذه الافـتراضات هـامة. لأن المؤلف سيبني عليهـا الكثير من الأحـداث. وفي فصـل قـادم. عن هموم التوزيع. وهموم المؤلف مع قراء الرواية. سيبني المؤلف حديثه على

الافتراضين. قد يرفض القارىء حكاية الافتراضات. ويطلب التعامل معه. على اساس وقائع مؤكدة. ولكن المؤلف يقول له. ان رفضنا حكاية الافتراضات. هل نملك سواها؟ عندما يضن علينا الواقع بكل شيء. لا يبقى لنا سوى العوم في بحار الافتراضات. وهذا مايفعله المؤلف. عندما يواجه واقعاً شحيحاً بكل شيء.

٣

الضابط الكبير يعقد مؤتمراً صحفياً

قال الضابط الكبير:
ـ تبقى قضية هامة. كيف نستخدم هذه الحادثة. ونحولها الى دوي اعلامي لصالحنا. كيف تصبح نقطة لنا وليست ضدنا؟

كان الضابط الكبير جزءاً من عصره. كان ماكراً. يرى ان الكذب سلاح. والصدق تخلف. وان من قال، ان الطريق المستقيم اقصر مسافة بين ظالم وظالم. ساذج واهبل. كان زمناً عصيباً. كان الشرف يتهرب فيه من اكثر الجباه شموخاً. وعندما صدرت التعليمات العليا لضابط، من القيادة السياسية. بضرورة الاعلان عن هذه الحكاية. بدلاً من تركها للاشاعات. وكلام الناس. قال الضابط الكبير، انها فرصة. لكي يقول الكثير من خلالها.

قال مساعد الضابط الكبير:
ـ المهم الا نعمل نحن الآن شيئاً. ولكن يجب ان يتصرف الذين يعملون معنا.

دعا الضابط الكبير. الى اجتماع لأركان وزارته. للدراسة على الطبيعة. كيف يتصرفون في الأمر الآن؟ أمامه دوسيه ضخم. فيه ما تم التوصل اليه في القضية. كان الجمع سعيداً. بدوا كما لو حصلوا على

وجبة العمر. والمطلوب الآن هضم الوجبة في هدوء. هم جميعاً على بر الامان. والقضية وضعت على أول طريق السلامة. ولكن كيف التصرف فيها، (لم يقل كيف يتم استشارها رغم ان هذا كان المعنى الاساسي في ذهنه. لأن بعض الحاضرين لا يثق فيهم. وقد يستغلون هذه الكلمة ضده). من اجل هذا جمع كل المساعدين، فالأمر شورى. وانتهى زمن الحكم الشمولي. زمن القرارات الفردية.

لم تكن التحقيقات قد انتهت، وعملية التحريات وجمع المعلومات كانت مستمرة. واجهزة الاعلام لم تكن قد بدأت اللهاث وراء القضية. بسبب قرار حظر نشر أي شيء عنها. ولكن كان لا بد من التفكير في النشر. بدلاً من النشر عن طريق التسرب. القضية خبطة من النوع الهام. والذي لا يتكرر كثيراً في حياة مصر. وهي تقدم لسكان البلاد حكايات لا تصدق. تصل بالناس الى اقصى درجة من الدهشة.

كانت جريدة، من الدرجة الثانية، قد نشرت خبراً صغيراً. تمت صياغته بعناية عن شخص مجنون. يعرض أولاده للبيع في مكان عام. نشر الخبر تحت عنوان: هل تصدق؟ وقدم كنوع من نوادر مصر السعيدة. وقالت الجريدة إن هذا المواطن، . سيصدر قرار بشأنه. خلال الايام القادمة. حيث يعرض على اطباء نفسيين. لتقدير مدى سلامة قواه العقلية. وفي حالة ثبوت مرض نفسي. سيسلم الى مستشفى الامراض العقلية وكل الاجراءات ستتم في إطار سيادة القانون. أما العائلة التي ستبقى بعد هذا الرجل. فالمجتمع المصري. كفيل بأن يضعها في حبة العين. أخلاق القرية. تعني ان نقف جميعاً مع بعضنا البعض في مواجهة الأزمات والصعاب.

لكن الأمر الخطير. كان ما تسرب الى الناس عن الحكاية. سرى

همس وكلمات ترددت. وصل الأمر الى القول، انها كانت محاولة للانقلاب. وان تمرداً جماهيرياً جرى في ميدان التحرير. وان بعض افراد الأمن المركزي انضموا الى الناس. ووقفوا معهم. بدلاً من تصويب البنادق الى صدورهم. واستخدام العصي الكهربائية ـ وهي أحدث ما وصلت اليه تكنولوجيا تعذيب وتأديب الناس في العالم كله.

خاف المسئولون ـ الكبار قبل الصغار ـ على المقاعد التي يجلسون عليها. وكان رأي الضابط الكبير واضحاً. ما دام هناك قرار سياسي باعلان الحكاية على الناس. لا بد وان يتولوا هم ذلك. بدلاً من آلاف الحكايات التي تتردد كل يوم. ثم ان اعلانها. وهي في يد الأمن. قبل تحويلها الى جهة اخرى. وهي التي تتولى مخاطبة الرأي العام. والظهور بمظهر البطولة.

قال ضابط، ان من يمتلك الرأي العام ويقوده، هو من يتكلم اولا. ويفرض وجهة نظره. دون ان يترك الكاميرا والميكرفون. لأن تركهما. سيجعل جهة أخرى، تسرقهما منه. ولا بد من الكلام اولا.

قال ضابط آخر:

ـ ان المبادرة. هي نصف الطريق الى الانتصار.. نحن في معركة.

اكمل آخر:

ـ معركة مع هذا الشخص الذي عرض اولاده للبيع في ميدان التحرير.

ابتسم ضابط المبادرة وقال:

ـ لا، انه خارج اللعبة كلها. ولكن المعركة مع اجنحة النظام الاخرى. التي توجد حالة من الحرب الرهيبة معها. هناك جهات امنية اخرى. وجهات قضائية. وسياسية. والحرب مستمرة بين كل

الجهات. تحت قشرة الاستقرار الوهمية التي يتصور البعض وجودها الآن.

هكذا تم الاتفاق سريعاً. على الامر كله. يعقد مؤتمر صحفي تحضره كل أجهزة الاعلام. الداخلي والخارجي. والمهم هو الاعلام الخارجي. لأن الداخلي، من السهل صدور التعليمات له. فينشر حسب المطلوب بالضبط وان تقدم الحقيقة. بالطريقة المطلوب ان تقدم بها.

احتاروا. من الذي يعقد هذا المؤتمر. تحركت الامنيات المؤجلة في النفوس وحدثت حالة من الفوران. لكل ما يوجد تحت السطح. وكادت ان تحدث المعركة. لولا ان ضابطاً صغيراً. أصغر الحاضرين رتبة. وابعدهم عن الطموحات المخيفة. قال ان المؤتمر عمل سياسي بالدرجة الأولى. ولا بد ان يعقده الضابط الكبير.

استراح الجميع. حسمت المعركة لصالح الضابط الكبير. وانفض الاجتماع فوراً. . لكي يتم الاعداد لهذا المؤتمر. واقسم اكثر من ضابط. ان هناك لعبة تم التنسيق لها. بين الضابط الكبير وأصغر الحاضرين. حتى هذا الاجتماع كله. كان لعبة متفقاً عليها.

قال واحد لآخر:

ـ انه عصر المبادرات المتفق عليها.

كان الضابط الكبير. منتفخ الجسم. له كرش ضخم. وكان صغار الضباط عندما يشاهدونه، يسألون انفسهم. كيف وصل الضابط الكبير الى هذا الحجم. كان البعض يسأل نفسه: هل يمكن للضابط ان يجري عشر خطوات الآن؟. ما هي آخر مرة. اجرى بعض التمرينات الرياضية، هل يمكنه ارتداء البدلة الرسمية؟. وان فكر في ذلك، هل

يجدون له، بنطلوناً مناسباً في كل بلاد وادي النيل. كان لحم وجهه متهدلاً. وكان ينزل على شكل طبقات على صدره. وكانت بطنه التي تحولت الى كرش قد اصبح اللحم فيها طيات وحلقات. كانت تبدو واضحة من تحت قميصه.

كان الضابط الكبير، يحرك كتفيه عندما يتكلم. تتناوب حركات الكتفين مع الكلمات. وكان يجمع بين النقيضين في كل تصرفاته وكلمته. يحترم لدرجة التقديس كل من يعلوه في المنصب او الرتبة. ويقسو بصورة لا يمكن وصفها. على كل من هو اقل منه رتبة او منصباً.

حمل حقائب قادته فترة من الوقت، وفتح أبواب سيارات السادة. وأبواب مكاتب السادة. وأبواب بيوت السادة. وكان سكرتيراً لسنوات ليست بالقليلة. وبضربة حظ ركلته الى أعلى. أصبح ضابطاً كبيراً. لم يكن يعنيه في عمله سوى هذه الخبطات التي ترفع الى فوق. وكانت تصيبه حالة من النشوة. تصل الى ما بعد السكر، عندما يجد أمامه ميكرفوناً، او قلم صحفي. أو كاميرا مصور. ويتعدى الأمر الطرب والرقص. ان كان هناك تليفزيون.

كان يرتب الحملات المفاجئة. والجولات التفتيشية. وعندما يحضر مندوب التليفزيون. كان يسأل: وهل سيتم التصوير بالالوان الطبيعية ام بالأسود والابيض. كان يفاجأ ببعض الابتسامات من معاونيه. ولكنه كان يرد ان الأمر يختلف. ان كان التصوير بالالوان. عليه ان يرتدي من الملابس ما يناسب الموقف. وان كان التصوير بالابيض والاسود. فله ايضاً ما يناسبه من الملابس.

ما أن تقررت فكرة المؤتمر الصحفي. حتى تفرغ الضابط الكبير تماماً. من اجل التفاصيل الصغيرة. متى يعقد المؤتمر؟ في الصباح أم في المساء؟ من الذي يحضره؟ قال لمساعديه. انه لن يقنع هذه المرة، بأقل

من رؤساء تحرير الصحف. أية صحيفة لا يحضر رئيس تحريرها شخصياً. لا يريدها. لا بد من حضور. كل وسيلة اعلامية. حتى الجريدة الناطقة. لا بد من حضورها. خاصة وانها تخاطب جماهير السينما في مصر. وتصدر الى خارج البلاد. وتعرض على الجاليات المصرية في كافة انحاء العالم. وهي ارشيف حي. سيبقى من اجل التاريخ والخلود كان معركة المصريين الأولى. انه الدفاع ضد الفناء. وهو يحلم بالبقاء لكل ما يقدمه لمصر من خدمات.

اهتم الضابط الكبير، بوضع دورق للمياه أمامه. وبوكيهات الورد حوله. على يساره الورد الأحمر. وعلى يمينه الورد الابيض. رمز النقاء والطهر. عاد ورفض وضع الورد الاحمر على يساره. قال ان ذلك سيعطي المؤتمر دلالات سياسية خطيرة. يرفضها هو من الآن. ثم اختار اللون الاصفر ولكنه عاد ورفضه من جديد. قال انه لون الغيرة عند النساء.

حلت المشكلة، عندما قال حارسه وهو ضابط صغير. ان اللونين الاخضر والازرق. لونان لا علاقة لهما بالدلالات السياسية. وقد فرح الضابط الكبير بهذا الحل.

ثم بحث المشروبات التي ستقدم للحاضرين، ونظام الدخول، وطريقة الجلوس، والخروج من القاعة ونظامه. والوقت الذي من المفروض ان يستغرقه في القاء بيانه الصحفي. سأل ان كان هناك مترجمون.

ـ لماذا يا افندم؟

ـ من اجل الصحافة العالمية.

اكتشف انهم لم يوجهوا الدعوة للصحافة العالمية. رغم طلبه منهم دعوتها اكثر من مرة. ورغم حديثه عن اهميتها. التي ربما تفوق اهمية

الصحافة المحلية. قالوا له: ان الأمر الذي سيتناوله، في المؤتمر من القضايا الداخلية التي قد لا تهم الرأي العام العالمي.

هاج الضابط الكبير وثار. قال انه يتعرض لمؤامرة داخلية من العاملين معه في وزارته. وان هذه المؤامرة تنفذ لصالح وزير الظل. الضابط الذي عزله وابقاه في بيته. لا يكف عن الحلم بأن يحتل مكانه. وهناك من يعمل لحسابه. في قلب الوزارة الآن. وعدم دعوة المراسلين الاجانب جز من هذه المؤامرة. التي يمكن تسميتها التعتيم الاعلامي. على الجهد الخارق والعظيم الذي يقوم به. او تكذيبه. من خلال النشر في وسائل الاعلام المحلية وعدم النشر في الوسائل العالمية. فلا يصدق أحد ما جرى.

ـ أمر داخلي. . كيف هذا؟

وصل الغضب بالضابط الكبير الى مداه. وهو يشرح بلسانه وكتفيه، ويديه وملامح وجهه. ان هذا الكلام لا ينطبق على مصر. بلادنا الآن هي قبلة العالم بكل من فيه. واي أمر من امورنا الداخلية، هو امر عالمي في نفس الوقت. انظار العالم كله متجهة الينا. تحصي حتى انفاس الناس. ودقات القلوب. ثم انه لا يوجد لدينا ما نخفيه عن الآخرين. ونحن نعلن كل ما يجري.

تداركوا الأمر، ووجهوا الدعوة إلى كل المراسلين الأجانب.

انصرف الضابط الكبير، لكي يستعد لمؤتمره الصحفي. في الطريق إلى منزله. كان يركب سيارة صغيرة، ستائرها مسدلة. تخفي ما بداخلها. ومعه سائق وحارس. هناك أكثر من تهديد بقتله في الفترة الأخيرة.

هذه المرة، كان صامتاً. طوال الطريق من المكتب إلى البيت. كان يحسب عدد الرجال الذين يسبقونه، الذين يحتلون المسافة بينه وبين

مقعد الرجل الأول في البلاد. اكتشف في جلسته، أن العدد كبير. وأن المسافة إلى هذا المقعد طويلة.

سأل نفسه: ولماذا لا أصبح الرجل الأول؟ كان السؤال حاداً. وقد فتح الباب واسعاً على غرفة الأمنيات المؤجلة في نفسه. ولأن السؤال كان حارقاً، استدرك قائلاً: ولماذا لا أصبح حتى الرجل الثاني أو الثالث. ربما يكون ذلك أقرب إلى الوضع المعقول. أما الوضع الآن. فهو أقرب إلى المأساة. كان الطموح يعذبه. يأكله من الداخل. يحرمه حتى من القدرة على الاستمتاع بالحياة اليومية. وكان لديه قدر كبير من الأمل في هذه القضية. أن تدفعه خطوة إلى الأمام. وأن ينزع من طريقه معارضيه، وأن تقربه من أحد المقاعد الثلاثة: الأول أو الثاني. أو الثالث، شيء خير من لا شيء.

في قاعة فخمة ضخمة مهيبة، معطرة الجو، مكيفة الهواء. فيها تسجيلات سرية وعلنية. وعليها دوائر لا حصر لها من الحراسات السرية والعلنية. عقد الضابط الكبير، مؤتمره الصحفي الخطير. الذي لم يعلن عنه قبل عقده لأسباب أمنية. قبل دخول الضابط الكبير قاعة المؤتمر أجرى عملية تتميم على من حضروا المؤتمر. ومن لم يحضروا. لبى كل رؤساء التحرير الدعوة. ذهبوا فوراً إلى مكان الاجتماع. حمل كل منهم أوراقه وأقلامه. وقال أحد رؤساء التحرير للضابط الكبير وهو يدخل.انه سعيد بهذا الاجتماع لأنه يعيده الى سنوات العمل الميداني الأولى. التي كاد أن ينساها..

حدثت للضابط الكبير حالة من النشوة. رفعت روحه المعنوية. وجعلته يقترب أكثر من الهدف الذي يفعل كل هذا وعينه عليه. كان لدى الضابط الكبير بعض الشك في إمكانية حضور رؤساء التحرير بأنفسهم. ولكنه فوجىء بحضورهم فعلاً. المشكلة أن مندوبي الصحف والمجلات في وزارة الداخلية، والذين يلعبون أكثر من دور.

ويحملون تصاريح براءة خاصة من الوزارُة. براءة جنائية وبراءة فكرية وبراءة سياسية. أصروا على الحضور. رغم كل محاولات منعهم. استماتوا في الحضور. والذين نظموا المؤتمر كانوا سعداء بهذه الظاهرة.

كانوا يتصورون، أن الضابط الكبير. سيصل إلى حالة من النشوة، عندما يشاهد هذا العدد الضخم من الصحفيين. ولكنه عندما علم أصيب بحالة من الوجوم. قال ان حضور هؤلاء المندوبين معناه. انهم هم الذين سيكتبون عن المؤتمر. وما يكتبه المندوب لن يكون في مستوى ما يكتبه رئيس التحرير ولن تخصص له المساحة التي يخصصها كل رئيس تحرير لما يكتبه بنفسه.

الموقف كان محرجاً، فكر الضابط الكبير في إخراج هؤلاء المندوبين، ولكن تنفيذ ذلك كان صعباً. وطرد هؤلاء المندوبين. ربما كانت له آثار ضارة. أكثر من فوائده. فكر الضابط الكبير. في أن يطلب من رؤساء التحرير أن يكتبوا بأنفسهم عن المؤتمر. ولكن معظم هؤلاء الرؤساء يعملون مع جهات أخرى. بعضها معاد للضابط الكبير. وقد لا يضمن الفضيحة. التي ربما تحدث. بسبب هذا الطلب. من يدريه ربما يكون تأثير الطلب سلبياً.

ـ دع الملك للمالك. .

قالها الضابط الكبير هامساً. لن يقدم على أي تصرف. لأن النتائج ربما كانت سلبية. وهو لا يريد لأي شيء أن يفسد هذه اللحظات التي ربما كانت حاسمة في تقرير مستقبله.

من المراسلين الأجانب، لبى الدعوة بعضهم، وهم غير المعادين. والذين لا يقفون ضد الوطن. في الموعد المحدد، ذهبوا جميعاً. مروا بالإجراءات التي تحدث كل مرة. دخلوا القاعة الجديدة، والتي تم تأثيثها خصيصاً من أجل هذا المؤتمر.

في الواجهة علم البلاد. مفرود بحجم الحائط كله. وباقي الجدران مغطاة بخشب لامع مستورد. تتصدر القاعة منضدة ضخمة. عليها مفرش أخضر، غامق الخضرة. فوقها غابة من السماعات، الإضاءة سحرية ومن نوع جديد. لم تره البلاد من قبل. وفي القاعة مقاعد وأمام كل مقعد منضدة صغيرة. عليها سماعات، وميكرفونات. وورق وأقلام. ومشروبات من كل صنف. ومناديل ورق، وورق معطر. التليفونات والتلكسات في أركان القاعة الأربعة. بعض الخطوط مفتوحة على العالم. شرقه وغربه. شماله وجنوبه. غرفة الترجمة الفورية كانت جاهزة للعمل. وفيها أعظم أبناء الوطن في الترجمة. من العربية إلى كل لغات العالم المعروفة.

القمر الصناعي كان في الانتظار أيضاً. لينقل إلى الدنيا كلها وقائع المؤتمر الصحفي. وكان مساعدو الضابط الكبير. قد تمكنوا. في اللحظة الأخيرة، من الاتفاق على حكاية القمر الصناعي. وفكروا في الاتصال بالضابط الكبير في البيت. وإبلاغه بالنبأ السعيد. ولكن بعضهم اقترح أن يبقى الأمر مفاجأة اللحظة الأخيرة. وهذه المفاجأة. ستصل بالضابط إلى أحسن حالاته النفسية. سترفع روحه المعنوية إلى ما بعد السماء السابعة. وستبدد حالة التوتر والقلق. التي تحدث له عند مواجهة أي موقف صعب. وقد توقع المساعدون، العديد من المكافآت والترقيات. بعد هذه المفاجأة التي لم يتوقعها أحد.

في آخر القاعة، كانت توجد منضدة أخرى. في نفس حجم منضدة الضابط الكبير وشكلها. عليها كميات لا حصر لها من الورق الفاخر والأقلام الغالية. من يريد شيئاً يأخذه وبدون استئذان من أحد. وفي ركن آخر عدد كبير من المصورين. كان بين الحاضرين أربع سيدات فقط.

ـ سيداتي وسادتي. مرحباً بكم.

قبل أن أعلن بدء انعقاد هذا المؤتمر الكبير يسرني أن أنهي لكم.. صوت يردد نفس الكلمات بالإنجليزية. يعقبه صوت نسوي آخر يردد نفس الكلام بالفرنسية. والأصوات الثلاثة تتكلم عن المؤتمر. قال الصوت الأول. ان ثلاثة آلاف صحفي. من كل أنحاء العالم. حضروا هذا المؤتمر. وإن عشرة آلاف صحفي آخرين تقدموا بطلبات لتغطية المؤتمر. وألحوا في الطلب. وقاموا بعمل وساطات ومساعي. على مستوى رفيع الشأن. ولكننا اعتذرنا. لضيق القاعة. ولعدم وجود أماكن في الفنادق. إن فنادقنا كلها. فنادق الدرجة الأولى. والثانية والثالثة محجوزة كلها ولمدة خمس سنوات قادمة. (المؤلف يفصح: كل من حضر المؤتمر من الصحفيين المصريين ٤٥ صحفياً. منهم أربع سيدات و ٤١ رجلاً أما من المراسلين الأجانب. كان من الصعب معرفة عددهم. لأنه حتى بعد ابتداء المؤتمر الصحفي. كانوا يصلون.. واحداً بعد الآخر.

قال الضابط الكبير: إنه الرخاء القادم. الرخاء الذي يدق أبوابنا ويطلب الإذن بالدخول. وعموماً. فإن الأخوة الذين اعتذرنا لهم. فكرنا فيهم طويلاً وكان حزننا عظيماً بسبب عدم حضورهم. ولهذا قررنا إذاعة هذا المؤتمر بالقمر الصناعي. ولأن ظروفنا ليست صعبة. وخدمة لإخواننا الأعزاء في أمريكا الشمالية. وأوروبا الغربية. واليابان. قررنا نقل المؤتمر على الهواء مباشرة. ان العالم كله معنا الآن. (أرقام من عند المؤلف: تتكلف دقيقة الإرسال الواحدة بالقمر الصناعي ألف دولار. تدفع بالدولار).

أكمل الضابط الكبير: أن ٣٠٠ محطة إرسال تليفزيوني. تقدمت إلينا بطلب أن نعطيها حق نقل وإذاعة وعرض وقائع هذا المؤتمر.

وقالت في طلبها. إننا لا نملك التلفزيـون الملون. وإرسال هـذا المؤتمر. يتطلب ذلك. وقـالت إنها تقدر ظـروفنا. لانشغـالنا في حـروب كثيرة. وكان الرد عليهم إننا أدخلنا التلفزيون الملون إلى بـلادنا في أيـام. ليس مهماً ما تكلفه ذلك. ولكن الـرفاهيـة حق للجميع. ولن نعـطي أحداً فـرصة المـزايدة علينـا. ويقـول إننـا لا نملك التلفـزيـون الملون. وهـو يمتلكه. وهذا أبلغ رد على من يقولون في الخارج ان ظروفنا صعبة.

إنني أعلن لكم الآن. إنـه يوجـد من أجـل خـدمـة الـثـلاثـة آلاف صحفي وعـربي وأجنبي شقيق ١٥٠ خط تليفـونـي و ٥٠ خط مفتوحـة على العالم و ١٠ أجهزة تلكس و ١٢ دائرة تلفزيونية و ٤٠ كاسيت. كـما انه توجد ثلاثة آلاف سيارة. موديل ٧٨. العام بعد المقبل. نحن نسبق الـزمـان. مخصصـة لانتقـالات الأخـوة الضيـوف. وحتى الصحفيـين المحليين لهم سيارات. ولأن المؤتمـر الصحفي سيـطول. ستـوزع عـلى حضراتكم. علب من الكرتون الفاخر. بها وجبة كاملة. كحل عملي. ولكنهـا لن تقوم مكـان دعـوتي الغـذاء والعشـاء. في أفخم مـطاعم العاصمة.

يسعدني أن أعلن، أن الأخوة الحاضرين. مدعوون كلهم. من قبل الوزارة. وتم الحجز لهم. في فنادق شيراتون والميريـديان وهيلتـون ومينا هـاوس أوبروي وجـولي فيل. وسننـظم له بـرنامجـاً. لمشاهـدة السعادة والرفاهية والحرية في مصر الآن. سيكون مـع الأخوة مـرافقون لتقـديم أية خدمات وليسوا كنوع من الرقابة. فنحن لا توجد لدينا رقابة أبداً.

إن مشكلتنا الوحيدة الآن. إن كانت لنا أية مشـاكل. هي أننـا تعبنا من الحرية. وكلما تعبنا من الحرية. كان الحل مزيـداً من الحريـة. أنتم أحرار ما دمتم في بـلادنا. لا يعنينـا تحقق هذه الحـرية في بـلادكم. ولا نخشى أن تحملوا عـدوى الحريـة والديمقـراطيـة إلى بـلادكم. تلك هي

مهمتنا التاريخية. في العالم كله. ذلك هو قدرنا ومصيرنا. أن نكون القدوة والمثال لعالم اليوم. ولعالم الغد. ولكل العوالم في البر والبحر والجو.

صحفي شاب، من دولة أجنبية. كان يتابع الترجمة الإنجليزية لما يقال بسرعة عجزت يده عن المتابعة الدقيقة. توقف عن الكتابة. مد يده. أمسك بالورقة المسلمة له. قرأها. كان فيها كثير من التعليمات. والمحاذير. التي لا يجب الاقتراب منها أثناء وجوده في البلاد. نظر في القاعة. عد الحاضرين. تأكد للمرة الألف. أن عدد كل الحاضرين. بما في ذلك رجال الأمن ـ وما أكثرهم ـ لا يتعدى المائة. فكر في اللعبة كلها. سأل نفسه: كيف يحضر إلى هنا. ليغطي حكاية رجل عرض أولاده للبيع في ميدان عام بسبب سوء الأحوال. وكمخرج فردي من أزمة اقتصادية عامة. وتفادياً للجوع. ثم نلاقي هنا. كل هذا البذخ. الذي لا يوجد مثله في بلادي التي حضرت منها. والتي لا تعاني من أزمة اقتصادية بالمرة.

مسألة محيرة، قطعا هناك لغز ما. أو جزء ناقص من الحكاية. نظر في ورقة التحذيرات. كانت المسافة ضخمة بين ما يعلن وما يقال. وما يجري في أرض الواقع فعلاً. التحذير الأول. كان ينص على عدم إجراء أية مقابلات مع أية مجموعة من الناس، إلا بإذن مسبق من الجهات المختصة. ولا تتم المقابلة إلا بحضور مندوب من هذه الجهة. ولا يتم النشر إلا بعد التصديق على المقابلة. ورقة أخرى. فيها أسماء ممنوع الاتصال بها: يساريون، يمين، ليبراليون، مهنيون، صحافة، محاماة، طب، هندسة، صيدلة. قال الصحفي القادم من بلاد الضباب والعيون الزرق. إنه لو كان جاداً في كل هذه التساؤلات. إذن لقام من هنا. وذهب إلى العائلة حيث تكون. ولاتصل بكل الأسماء الممنوع

الأجنبية التي يثبت تورطها مع هذه العائلة.

صور شيكات بتبرعات مالية، لإصلاح ما أفسده المخربون في الميدان. والشوارع المؤدية إلى الميدان. بيانات سياسية من كافة المصالح والوزارات والهيئات التابعة للدولة. وشركات القطاع الخاص. ومكاتب التصدير والاستيراد. ومكاتب التوكيلات الأجنبية. وكلها تشجب وتدين وتستنكر فعل هذه الأسرة المتآمرة. وتؤيد الحكم العادل.

تحليل اجراه جهاز قياس الرأي العام. يقول ان ٩٩,٩٪ من الرأي العام. ضد الخونة. والمتآمرين والعملاء والمرتزقة. صور لمسيرات تحمل اللافتات. تستنكر ما جرى وتدينه. اللافتات تغطي هذه المسيرات. والشوارع، تغطيها اقواس النصر.

مقتطفات. مما كتبته الصحف المحلية. وكلها تدور في نفس فلك الشجب والادانة. برقيات من نوادي ابناء مصر العاملين والدارسين في الخارج. برقيات تجدد البيعة التي لم تكن في حاجة الى تجديد.

ثم مظروف صغير، به بيانات بدعوات الافطار والغداء والعشاء. الزمان والمكان. ورحلة في النيل الى اسوان جنوباً والاسكندرية شمالاً. على باخرة. وقضاء السهرات في ملاهي شارع الهرم. وملاهي فنادق الدرجة الأولى.

اعلن صوت في الميكرفون. ان الضابط الكبير. مستعد الآن للرد على أي سؤال من الأخوة الحاضرين. على الرغم من ان الأوراق التي معهم فيها كل المطلوب.

رفع الصحفي الاجنبي يده. قال له الصوت:

ـ اذكر اسمك. واسم الجريدة أو المجلة أو وكالة الأنباء التي تمثلها. ويجب ان يكون الحديث باللغة الأمريكية.

التحقيق. لكل فرد أربع صور. صورة للوجه. وأخرى للقفا. وثالثة ورابعة. كل منها لجانب الوجه. وصورة شاملة تجمع العائلة كلها. وهناك صور أخرى لمراحل المؤامرة. قالوا إنه تم تصويرها في مراحل تنفيذ المؤامرة. لأن عين الدولة. كانت وراء العائلة من اللحظة الأولى. مع انهم صوروها. عندما طلبوا من أفراد العائلة. إعادة تمثيل الحادث أمامهم من جديد.

صور لما جرى في ميدان التحرير: العائلة والناس من حولها: إجراءات الشرطة الأمنية. حتى القبض على العائلة. تعاطف الجماهير مع الشرطة. حالة من البهجة على الوجوه. لأنه عصر الشرطة. العائلة في السجن. كل من ألقي القبض عليه في الميدان. قيل إنه من شهود الإثبات. أعداد من الناس تطوعت من أجل أن تشهد.

التحقيق مع العائلة. المحاكمة، التي روعيت فيها كل الإجراءات القانونية العادلة. مع توفير من يدافع عن العائلة. بتكليف من الدولة. لأن معظم المحامين الوطنيين رفضوا الدفاع عن هذه العائلة غير الوطنية.

الأوراق التي كانت مع الصور. كان فيها بيان تاريخي بالحادث. مع التوقيت الزمني. والخرائط المكانية. مثل القول. إنه في ساعة كذا. يوم كذا. وفي المكان الفلاني. قامت العائلة المتآمرة. بالإقدام على الفعل الفلاني. مع أجزاء من الاعترافات. والوثائق المضبوطة. وأجزاء من أقوال الشهود، ومن التحريات التي أجرتها قوات الأمن. وصور من برقيات الاستنكار من طوائف التجار. تشجب ما حدث. وتدين ما جرى. وتجدد البيعة للقيادة. السياسة الحكيمة. وتطالب بأقصى العقوبات لهذه العائلة. بعض البرقيات. كان يقول: الموت للعملاء. وبعضها الآخر. كان يطالب بقطع العلاقات الدبلوماسية. مع الدول

الأجنبية التي يثبت تورطها مع هذه العائلة.

صور شيكات بتبرعات مالية، لإصلاح ما أفسده المخربون في الميدان. والشوارع المؤدية إلى الميدان. بيانات سياسية من كافة المصالح والوزارات والهيئات التابعة للدولة. وشركات القطاع الخاص. ومكاتب التصدير والاستيراد. ومكاتب التوكيلات الأجنبية. وكلها تشجب وتدين وتستنكر فعل هذه الأسرة المتآمرة. وتؤيد الحكم العادل.

تحليل اجراء جهاز قياس الرأي العام. يقول ان ٩٩,٩٪ من الرأي العام. ضد الخونة. والمتآمرين والعملاء والمرتزقة. صور لمسيرات تحمل اللافتات. تستنكر ما جرى وتدينه. اللافتات تغطي هذه المسيرات. والشوارع، تغطيها اقواس النصر.

مقتطفات. مما كتبته الصحف المحلية. وكلها تدور في نفس فلك الشجب والادانة. برقيات من نوادي ابناء مصر العالمين والدارسين في الخارج. برقيات تجدد البيعة التي لم تكن في حاجة الى تجديد.

ثم مظروف صغير، به بيانات بدعوات الافطار والغذاء والعشاء. الزمان والمكان. ورحلة في النيل الى اسوان جنوباً والاسكندرية شمالاً. على باخرة. وقضاء السهرات في ملاهي شارع الهرم. وملاهي فنادق الدرجة الأولى.

اعلن صوت في الميكرفون. ان الضابط الكبير. مستعد الآن للرد على أي سؤال من الأخوة الحاضرين. على الرغم من ان الأوراق التي معهم فيها كل المطلوب.

رفع الصحفي الاجنبي يده. قال له الصوت:

ـ اذكر اسمك. واسم الجريدة أو المجلة أو وكالة الأنباء التي تمثلها. ويجب ان يكون الحديث باللغة الأمريكية.

سأل الصحفي :

ـ ولكن أين أصحابُ الشأن؟

كان السؤال قصيراً. رد عليه الضابط الكبير بسؤال آخر :

ـ أي شأن؟

نظر الضابط الكبير مبتسماً الى الجالسين بجواره. يقرأ على وجوههم رد الفعل بطريقته الذكية والخارقة. في التصرف. رغم ان السؤال لم يحسب أحد حسابه من قبل.

قال الصحفي موضحاً :

ـ اقصد العائلة. التي عرضت نفسها للبيع في ميدان عام.

صاح فيه الضابط مقاطعاً، قبل ان يكمل سؤاله :

ـ المتمردون، الخونة، العملاء. حدد يا رجل ماذا تريد ان تقول بوضوح.

نطق الضابط الكبير منتصراً. خبط المنضدة الخضراء بيده. ثم قطب وجهه وأسند ذقنه بيده السمينة وتساءل :

ـ الا يكفي نحن؟

اشار لنفسه وللجالسين بجواره.

ـ الا توجد ثقة فينا؟

قبل ان يرد الصحفي. صاح الضابط من جديد. ولكن بهياج هذه المرة :

ـ انني احتج على مجرد تقديم السؤال. من حيث المبدأ. يجب سحب السؤال فوراً. والا الغيت المؤتمر الصحفي. لا تنس ايها الصحفي المشكلة انني هنا امثل دولة.

تكهرب الجو، وساد القاعة صمت متوتر: ومرت فترة صمت

صغيرة، مشحونة. بكافة الاحتمالات. وراح كل واحد. يتصور شكل التصرف القادم. أحد المساعدين الذين كانوا يجلسون حول الضابط الكبير. اقترب بفمه من اذن الضابط الكبير. وهمس له ببضع كلمات. زال بعدها كل توتر من فوق وجه الضابط الكبير. وهز رأسه دليل الموافقة. استراح الضابط الكبير في جلسته. وطلب كوباً من الدورق الموضوع أمامه. وقام شخص بصب كوب الماء وتقديمه له. وأشعل سيجارة.

وقال بعد فترة من الصمت:

ـ الحقيقة ايها الأخوة. كنا نحن نرغب في احضار هذه الأسرة هنا. ولكني سأصارحكم كأخوة لنا. بسر أرجو الا يخرج من باب هذه القاعة. لقد تقدمت هذه الأسرة بطلب. سأرسل من يحضره من ملف الاسرة. تطلب عدم مواجهة هذا المؤتمر. لأنها تخجل من مواجهة الرأي العام سواء في الداخل او الخارج، أو في أي مكان من العالم. بعد ان خانت هذه الاسرة الوطن. بهذه الصورة المخجلة. ان الوطن لم يقدم الى الاسرة الا كل خير. وكان الرد على هذه الخيرات هو الاساءة. سبب آخر دفع الاسرة، الى عدم الظهور. وهو الخوف من غضبة الجماهير. قد تفتك بهم الجماهير وهم في الطريق الى قاعة المؤتمر. لقد تأكدوا ان الشعب كله ضدهم. وقد قلنا لهم اننا سنتولى حمايتهم وحراستهم. واننا مسئولون عن هذه الحماية. من السجون الى قاعة المؤتمر وبالعكس. وكان ردهم ايضاً هو الرفض. نحن شعب متحضر. والحضارة معناها ان نعفي هؤلاء الناس من مواجهة ذلك الموقف الصعب. صحيح ان المتآمرين لا يعرفون اي شيء عن الحضارة. ولكن تحضرنا نحن يفرض علينا معاملة هؤلاء الخونة بصورة متحضرة. ولهذا اخذت منهم توكيلاً رسمياً ان اتحدث نيابة عنهم في المؤتمر الصحفي. والآن انا تحت امركم.

صحفي أجنبي آخر رفع يده وسأل:
ـ أين الطلب والتوكيل؟ ولماذا لم يوجدا ضمن الوثائق؟
ابتسم الضابط:

ـ كنا نعتقد ان الثقة هي أساس العلاقة بيننا. ولهذا لم نحضرهما.. أرسلت الآن في طلبهما. سيحضران بعد ساعة من الآن. وعملية التصوير قد تستغرق بعض الوقت. ونظراً لأن كل واحد من الأخوة الصحفيين سيكون من الآن في سباق مع الزمن. الدقيقة الواحدة قد تعطي غيره سبقاً عليه. سنرسل الوثيقتين. الى كل واحد في مكانه. ونحن قادرون على هذا بالطبع.

قال صوت المذيع. ان الفرصة متاحة امام كل من يرغب في توجيه أي سؤال. كرر قوله ثلاث مرات. وعندما لم يسأل احد. نظر الضابط الكبير الى الجالسين حوله. وعندما قرأ الاستحسان في الوجوه. اعطى اشارة بيده. تعني انتهاء المؤتمر. وقام موظف بسحب الكرسي الذي كان يجلس عليه الضابط الكبير. وعندما وقف على قدميه. وقف الجميع فوراً. دلالة.. انتهاء اعمال المؤتمر.

لحظة خروج الحاضرين. وعند باب القاعة. كان هناك طابور من الفتيات الجميلات. يقفن على شكل صف. يمكنك مشاهدة أوله. ولكن من المستحيل رؤية آخره. كل فتاة ترتدي فستاناً. عبارة عن إعلان عن سلعة. واحدة فستانها على شكل زجاجة مياه غازية. وثانية فستانها على شكل تليفزيون. وثالثة فستانها على شكل سيارة. وفي يد كل واحدة مجموعة من الاوراق. مكتوب فيها دعاية عن الشركة التي تمثلها.

أول من كان يحصل على الاوراق. كان الضابط الكبير. ويتم تصويره. لحظة مصافحة فتاة الاعلان. وهو يبتسم للكاميرا مرة. وللفتاة مرة اخرى. ثم يأخذ الأوراق.

تساءل الكل. وما علاقة هذه المحلات بالمؤتمر وما جرى فيه. في الأوراق كانت توجد الاجابة. هذه المحلات هي التي ساهمت في اقامة المؤتمر. كعمل وطني مقابل السماح لها بالدعاية والاعلان. باعتبار ان الحاضرين هم قادة الرأي العام في البلاد.

كل محل كان له دور في إقامة المؤتمر. هذا ركب الخشب في القاعة. وآخر احضر الاثاث. وثالث ركب الاضاءة السحرية. ومحل قدم كافة المشروبات. وآخر قدم علب السندويتشات. التي شكلت الوجبة الجاهزة.

حتى القمر الصناعي، الذي نقل وقائع المؤتمر. اشترك اكثر من محل في دفع نفقات نقله لوقائع المؤتمر الصحفي. نظراً لضخامة المبلغ الذي كان مطلوباً. ولعدم وجود أية اعتمادات مالية من الوزارة. من أجل القمر الصناعي.

أمام دهشة الحاضرين. قال مساعدو الضابط الكبير. ان ذلك نوع من الاعتماد على الذات. بدلاً من ان نحمل الدولة كل المطلوب. لماذا لا نتحمل نحن بعض النفقات. وما المانع ان يتم ذلك بطريقة مبتكرة؟

ضابط أكثر ذكاء، قال، ان كافة هذه المحلات. هي التي تقدمت بطلب المشاركة في هذا العمل الوطني. وانه توجد في الوزارة. اوراق رسمية. تطلب منها شرف المشاركة. في هذا العمل. كنوع من التعبير عن الاستنكار. لما قامت به العائلة. وتأييد الدولة في كل الاجراءات التي اقدمت عليها في مواجهة هذه المحاولة. التي كان هدفها ضرب التجربة الديموقراطية الوليدة في البلاد.

كان طابور الفتيات الجميلات طويلاً. وقد تعب رجال الاعلام من كثرة الأوراق التي حملوها. ولكن الضابط الكبير كان مستمراً في

المصافحات وكان يسأل عن كل محل.ونشاطه. ويشكر مندوبته. وهكذا كان يفعل كل الحاضرين.

ومضى وقت طويل. قبل الانتهاء من هذا العمل.

في آخر الطابور. تلفت واحد من رؤساء التحرير حوله. تأكد من عدم وجود أحد بالقرب منه وقال:

ـ الا توجد صناعة وطنية واحدة. كانت تستحق ان تمنح فرصة الوقوف في هذا الطابور. ام ان كافة الصناعات الوطنية رفضت المشاركة في هذا العمل. اليس غريباً. ان تكون كافة الاعلانات عن صناعات اجنبية؟ هل خلت البلاد من أي شعور وطني؟

قال هذا الكلام لنفسه. وارضى خاطره. بعد طابور المصافحات الطويل. لم يكن احد يجرؤ على توجيه السؤال. وكان طابور الجميلات الطويل الطويل. يعلن عن آلاف البضائع.

٤

سجن الحرية

هذه المرة، لا مفر من البدء بالافتراضات. بعض ما يجري في هذا الفصل، ربما لم يحدث في الواقع. والبعض الآخر ربما حدث بالفعل. تداخلت الأمور بالنسبة للمؤلف. وتاهت أو ضاعت المسافة. بين ما جرى فعلاً. وما قدمه المؤلف في روايته من خياله.

بدلاً من الحيرة، يرمي المؤلف كافة أوراقه للقارىء من الآن. مريحاً نفسه، ومريحاً قارئه من أي عناء. يقول له من الآن. لنفترض ان جزءاً من الرواية نشر في الوطن (كم تبدو كلمة الوطن غريبة على اذن المؤلف. ولها وقع عجيب). ولنفترض ايضاً ان باقي اجزاء الرواية، نشرت خارج حدود الوطن. في اي مكان آخر من وطننا العربي. الفسيح المترامي الاطراف.

وفي كل من الحالين، كان هناك من الهموم ما يكفي المؤلف. والمؤلف لا ينسى انه في فصل سابق من الرواية، قد قال. ان الرواية لم تنشر في مصر. رغم كل ما فعله. وهذا القول يلغي جانباً مما سيحدث في هذا الفصل. من هموم المؤلف مع التوزيع ومشاكل وصول الرواية الى الناس.

عندما خطط المؤلف لروايته. كان يتصور ان يكمل رحلته. مع

الرواية، في مصر بعد طبعها. ويبدو انه كان متفائلاً. ومتصوراً انه لا شيء يمنعه من نشر الرواية في مصر مهما حدث.

كان المؤلف يتصور، انه بعد الانتهاء من طبع روايته. ستمر بعملية التجليد والتغليف ثم تصل الى شركة التوزيع. وهي المحطة الاخيرة، قبل الوصول الى يد القارىء، والناقد. وكان المؤلف ينوي مواصلة الرحلة حتى لحظة النهاية. ولكن ما كل ما خطط له المؤلف في ذهنه حدث في الواقع. ان ما يجري في الواقع، حول المؤلف. حالة من الفوضى المنظمة. ومن العبث واللامعقول. قرر المؤلف ان يقدم تصورين لنشر الرواية. الأول، يقوم على تصور ان الرواية نشرت في مصر. والتصور الآخر على ان الرواية نشرت خارجها، وليكن في بيروت.

يطلب المؤلف من القارىء. ان يتصور معه الافتراضين معاً. لكي يواصلان الرحلة مع الرواية، حتى النهاية. ويبدأ من الافتراض الأول. الذي يقوم على أن الرواية نشرت في مصر. وهو افتراض يقترب من حدود الامنيات.

عندما صدرت الرواية، داخل مصر، كان على المؤلف مواجهة معركتين. الأولى لتوزيع الرواية في الداخل. والثانية تصديرها الى خارج البلاد، فبدأ بداخل البيت اولاً. اكتشف المؤلف. ان المسألة ليست سهلة. التوزيع الداخلي تحتكره ثلاث شركات فقط. على مستوى الدولة كلها. ومن يريد التوزيع عليه اللجوء الى احداها. ومن اجل التوزيع خارج البلاد، توجد شركة واحدة، هي الجهة الوحيدة، التي تتولى تصدير الكتاب وتوزيعه في الخارج.

ذهب المؤلف الى احدى شركات التوزيع الداخلية، أخذوا منه نسخة الرواية، كان العنوان مثيراً. نظروا في العنوان. قلبوا الرواية.

كانت الحجرة ممتلئة. وكان المؤلف يقف أمام موظف مسكين. على يمينه بقايا سندوتش فول. وسندوتش طعمية لم يقترب منه بعد. وعلى يساره كوب شاي. يبدو انه صنعه لنفسه، كنوع من التوفير. وخلف اذنه اليمنى سيجارة واحدة. كان الرجل سعيداً. ببقايا السندوتش الذي اكله. والسندوتش الذي لم يأكله بعد. وكوب الشاي الساخن، الذي صنعه بيده. والسيجارة التي كان يضعها خلف اذنه.

قلب الرواية في هدوء. وقد ازدادت سعادته بوقوف المؤلف أمامه. ثم اعاد الكتاب له معتذراً، عن توزيعه. وعندما سأل المؤلف عن السبب، قال له باختصار:

ـ الغلاف.

قال هذا. وأشار بحالة من القرف الى غلاف الرواية.

سأل المؤلف:

ـ ماله؟

قال الموظف:

ـ انظر له.

رد المؤلف:

ـ اني اعرفه جيداً.

ضحك الموظف:

ـ طبعاً انت المؤلف.

لم يشعر بأية سعادة، عند سماعه الكلمة، مثل الزمان الذي مضى. اشعره الاعتراف بحالة من الخجل. سأل المؤلف من جديد:

ـ ولكني اريد معرفة سبب الرفض.

دارت يد الموظف، على شكل دائرة في الهواء وقال:

ـ بسبب هذه المساحة من البياض في الغلاف.

شرح الموظف فكرته، وهو يتناول السندوتش الثاني، ويبلع الطعام الجاف بالشاي. كان يقطع لقمة من السندوتش. ثم يتبعها بجرعة شاي وكان يتحسس السيجارة، بين كل قطمة وجرعة. وقال للمؤلف الذي كان مشغولاً بحركات الموظف:

ـ سأحبس بها بعد الطعام.

قال الموظف، ان غلاف الكتاب، من المفروض الا تكون فيه مساحات ضخمة من البياض، لأن الكتاب عندما ينزل الى السوق، وغلافه عبارة عن مساحة بيضاء. لا يكون للكتاب حضور قوي. لدى الموزعين. الغلاف الملون أفضل. وكلما كانت الألوان غامقة. كان الحضور أقوى واكثر كثافة.

هذا من ناحية البيع. والشركة لا ترغب في طرح كتاب واعادة نسخه كما هي. لأن الشركة توزع بموجب عمولة فقط. وفي حالة إعادة النسخ كما هي، لن تكون هناك نسبة توزيع. والنتيجة، خسارة الشركة.

هناك اعتبار اخطر، في حكاية الأغلفة البيضاء. وهي ان الغلاف، الأبيض. يجعل الكتاب، في نهاية. فترة العرض. وقد جمع كافة اشكال الاتربة والقاذورات. وفي بلدنا ـ والحمد لله ـ اعلى نسبة من التلوث في الجو. ولهذا لا يعرف المؤلف كتابه، عند اعادته له، بعد العرض.

سأل المؤلف:

ـ والحل؟

قال له الموظف، انه ينصحه بشكل انساني، بعيداً عن العمل. ان يغلف الكتاب بالبلاستيك. ان يذهب الى احدى شركات التغليف. وهي كثيرة الآن، في مصر، والحمد لله. أو ان يذهب الى احدى

شركـات صناعـة البلاستيـك. ويحصل عـلى اكياس بحجم الكتـاب. ويقـوم هو. في بيتـه أو في المطبعـة. يتغليف الكتـاب. وهي الـوسيلة الوحيدة التي تمكنه من المحافظة على كتابه. وعلى الغلاف جيداً ونظيفاً. قال المؤلف:

ـ مستعد لفعل هذا فوراً. .

رفع الموظف يـده. قال ان النصيحـة التي قدمهـا. ليست لها عـلاقة بتوزيع الكتـاب عندهم. تساءل المؤلف:

ـ اذن، لا بد وان يكون هناك سبب واضح للرفض.

قال له الموظف:

ـ نحن شركة تابعة للدولة.

قال الموظف، ان ما تقوم به الشركة، ليس هدفه الربح فقط. ولكن المسألة ان للشركة دوراً. وفيه وجهـة نظر. وهـو كمسئول عن العمل. يرفض توزيع هذه الـرواية. لـو كان الأمـر تجارة. لكـان من السهل ان تكسب الشركـة الآلاف. ولكنها شركـة قطاع عـام. خاضعـة لاشراف واضح. وإدارة سياسية من قبل الدولة.

عنـد هذا الحـد، ادرك المؤلف الموقف كله مـرة واحـدة. تسـاءل: الجالس امامي، رقيب أو موظف في شركة توزيع؟ تمثل نظام حكم. أم يقوم بعمل تجاري؟ الرجل خائف من موضوع الرواية. ولأنه لم يقرأهـا بعـد. فإن خـوفه قـد تـركـز في مـوضـوع واحـد وهـو العنـوان. قـرأه فاستيقظت كل المخاوف في نفسه وقرر رفض الرواية.

مـا دام هذا هـو السبب، لن يفيـد المؤلف الـذهـاب الى أحـد من رؤسـائه. عليـه اخذ روايتـه والمضي من هنا. لا أمـل. أي رئيس لهـذا المـوظف ستصيبه حـالـة من الخـوف. بمجـرد معـرفـة السبب الحقيقي للرفض.

يبدو ان الشاب لم يسمعه . ، لأنه قال مواصلاً كلامه :

ـ ان طرح كتاب بهذه الصورة . ضار بالكتاب نفسه . الكمية قليلة . وفي غلافه . مساحة واسعة من البياض . يجعل مرتجع بعد التوزيع . عدماً .

قال المؤلف :

ـ يجب ان تكون هناك اكياس من البلاستيك . وسأفعل هذا أيضاً . نظر الشاب بسخرية ، كأنه يقول له ، وما دمت تعرف . لماذا احضرت الكتاب بهذه الصورة . قال المؤلف ، انه حضر هنا ، من اجل مناقشة المبدأ فقط . أما كافة هذه التفصيلات الصغيرة . فيمكن الحديث فيها بعد ذلك .

سأله الشاب :

ـ وهل حصلت على اذن من الرقابة؟

تساءل المؤلف ، وهو لا يصدق ما يسمعه :

ـ أية رقابة؟

قال الشاب :

ـ الرقابة على الكتب .

ـ وأين هي؟

ـ واحدة في مبنى هيئة الاستعلامات . في شارع سليمان باشا . والاخرى في عمارة ابو رجيلة . والثالثة في مبنى التليفزيون . وهناك موظف كبير يشرف على هذه الرقابات .

قال المؤلف . وهو متأكد من نفسه ، هذه المرة :

ـ ولكنها الغيت .

ضحك الشاب .

ـ هذا كلام ، على الورق فقط .

ـ الف نسخة.

كان يريد، ان يقول له، انها طبعة محدودة، وانه طبعها على نفقته الخاصة، بعد ان اعتذرت اكثر من دار نشر عن طبعها. وانه ينوي في المستقبل، عمل طبعة كبيرة وموسعة من الرواية. كان يريد ان يتكلم. ولكن تساؤل الشاب، الممزوج بالاستنكار اسكته:

ـ ألف فقط؟

بلع المؤلف ريقه، دون ان يرد

سأله الشاب وهو ينظر الى الغلاف الخلفي:

ـ وبكم تنوي ان تبيعها؟

قال المؤلف:

ـ بستين قرشاً فقط..

ـ وكيف يعرف المشتري. وكيف يعرف البائع السعر؟

سؤال منطقي. فاته ان يدون السعر على الغلاف. ليست له خبرة سابقة في مثل هذا العمل. وكان من المفروض ان ينبهه صاحب المطبعة الى ذلك. ثم انه طوال فترة الطبع. لم يفكر في حكاية السعر هذه. ولم يكن يعرف التكاليف النهائية للعمل.

ـ يكفي انني قلت لكم السعر..

قال له الشاب:

ـ ولكننا لسنا الذين نبيع الكتاب. هناك جهاز من الموزعين في الشوارع.

لم يرد المؤلف

ـ والمشتري لا يطمئن الى السعر ما لم يكن مدوناً على الكتاب.

قال المؤلف في هدوء:

ـ انا مستعد لحل هذه المشكلة.

يبدو ان الشاب لم يسمعه . ، لأنه قال مواصلاً كلامه :
ـ ان طرح كتاب بهذه الصورة . ضار بالكتاب نفسه . الكمية قليلة . وفي غلافه . مساحة واسعة من البياض . يجعل مرتجع بعد التوزيع . عدماً .

قال المؤلف :
ـ يجب ان تكون هناك اكياس من البلاستيك . وسأفعل هذا أيضاً . نظر الشاب بسخرية ، كأنه يقول له ، وما دمت تعرف . لماذا احضرت الكتاب بهذه الصورة . قال المؤلف ، انه حضر هنا ، من اجل مناقشة المبدأ فقط . أما كافة هذه التفصيلات الصغيرة . فيمكن الحديث فيها بعد ذلك .

سأله الشاب :
ـ وهل حصلت على اذن من الرقابة؟
تساءل المؤلف ، وهو لا يصدق ما يسمعه :
ـ أية رقابة؟
قال الشاب :
ـ الرقابة على الكتب .
ـ وأين هي؟
ـ واحدة في مبنى هيئة الاستعلامات . في شارع سليمان باشا . والاخرى في عمارة ابو رجيلة . والثالثة في مبنى التليفزيون . وهناك موظف كبير يشرف على هذه الرقابات .

قال المؤلف . وهو متأكد من نفسه ، هذه المرة :
ـ ولكنها الغيت .
ضحك الشاب .
ـ هذا كلام ، على الورق فقط .

أشار الى التليفون الموضوع بجواره، سأل المؤلف: هل تحب ان نجري، اتصالاً تليفونياً بها الآن؟ هل تحب ان نذهب معاً الى هناك؟ انا مستعد. انها موجودة كما كانت. كل ما حدث انها اصبحت على الورق فقط هيئة استشارية.

قال الشاب:

ـ كتاب مثل هذا. وله هذا العنوان بالذات. لا بد من عرضه على الرقابة.

شرح الشاب له الأمر. قال له. ان شركة التوزيع. هذه التي يجلس فيها. جزء من مؤسسة صحفية قومية. أي أن الصالح العام هدفها قبل ان يكون الربح هدفاً له. وانه وان كانت الرقابة ملغاة فعلاً، ولا يوجد لديه اي نص في نظام العمل. يدفعه الى حصول ناشر الكتاب أو مؤلفه على موافقة الرقابة، قبل توزيعه.

ولكنه مواطن، فوق كتفيه رأس. وفي الرأس عينان تريان. وذهن يفكر. وهو يعرف، ما هي الأعمال التي يجب الرجوع فيها الى الرقابة. وما هي الاعمال التي لا يجب الرجوع الى الرقابة بشأنها.

استراح الشاب في جلسته. وقال له بهدوء وهو ينقر على الكتاب:

ـ نحن شركة تابعة للدولة.

قال المؤلف لنفسه، انها نفس الكلمات، التي سمعتها من الموظف الذي ذهبت له بالأمس:

ـ الربح ليس هدفنا الوحيد.

أكمل الشاب:

ـ لنا رسالة، ودور نقوم به.

تساءل الشاب:

ـ من يضمن لي، ان هذه الرواية، لا يوجد فيها، ما لا يجوز نشره وانها لا يوجد فيها ما يهدد واقع المجتمع الذي نعيش فيه.

قال الشاب، كل المطلوب، هو الذهاب الى الرقابة. وهناك من يقرأ الرواية. ويكتب له في الصفحة الأخيرة منها. كلمة واحدة «تنشر» ويوقع عليها.

في هذه الحالة، قد يقبل توزيع الكتاب، متغاضياً عن بعض العيوب الأخرى.

تركه المؤلف ومضى، عاد الى بيته، ومعه نسخة الرواية. كان ما يشغله طول النهار. هو اعادة تركيب الموظف مع الشاب. يكتشف انهما وجهان لعملة واحدة. وقبل النوم، سمع الرئيس يتحدث. من راديو مجاور. فطار النوم من عينيه. كان الرئيس يتحدث يومياً. ولأنهم كانوا يعيدون اذاعة ما يقوله، كان يسمعه اكثر من مرة واحدة في اليوم. ابتداء من نشرة الثانية والنصف بعد الظهر. وحتى موجز الثانية من بعد منتصف الليل. والرئيس يتحدث عقب كل نشرة اخبار.

في هذا الوقت الليلي، والمؤلف يحاول ان ينام. كان الرئيس يتحدث. وكما هي العادة. كان الحديث عن الحرية. حرية المواطن، حرية المواطنين، وحرية الوطن. وحرية الحرية نفسها. وكان الرئيس كالعادة به، سعيداً. في غاية السعادة. والى ابعد حدود السعادة. لأن الناس جميعاً سعداء. ولا توجد في البلاد كلها مشكلة واحدة.

في طريق عودته، قابله صديق. كان المؤلف حزيناً، متجهماً. سأله الصديق عن سبب ضيقه. فحكى له الحكاية كلها. وبعد ان استمع الصديق اليه. قال له:

ـ انت المخطىء.

شعر المؤلف بضيق من نوع جديد.

ـ مخطىء لأنني اكتب، ان الكتابة هي العمل الوحيد، الـذي يمكنني القيام به.

قال له الصديق:

ـ بالعكس، ان اصرارك على الكتـابة. رغم ان كـافة الاسهم تشـير الى أسفل هو ميزتك الوحيدة.

أدرك المؤلف، الهجوم المبطن في الكلمات، ولكنه قرر تفويت الأمر. وان يستمع الى هذا الصديق، حتى النهاية.

قال له الصـديق، انه اخطأ، لأنه يذهب الى شركات التوزيع. من النافذة، ولا يدخل من الباب، ولا يلقي على من يجلسون هناك السلام بلغة العصر.

تساءل المؤلف:

ـ أية نافذة، وأية لغة عصر..

قال المؤلف، انه يدخل من الابواب، سأله الصديق:

ـ الباب الرسمي ام باب العصر؟

قـال المؤلف، انه لا يحب الحـديث، بكل هـذا القـدر من الألغـاز. ولكن ما يعرفه، انه يدخل من الباب الرسمي، الباب الذي يقف امامه حارس، وفوقه لافتة. وبالقرب منه موظف استعلامات. يسـأله، قبـل الدخول، الى اي مكان هو ذاهب. قاطعه الصديق:

ـ هذه ليست الأبواب، انها النوافذ التي اقصدها.

وصـل الضيق بالمؤلف الى مـداه، وطلب ايضاح الأمـر. قال انـه لا يفهم من هذا الكلام. أي شيء.

قال له الصديق:

ـ المثل يقول، ارشو تشفو.
اتسعت عينا المؤلف دهشة. قال بحدة وبصوت عال:
ـ ارفض هذا الاسلوب شكلاً وموضوعاً.
أكمل الصديق. وكأنه لم يسمعه:
ـ اذن هناك مثل آخر يقول: سكة ابو زيد كلها مسالك.

شك المؤلف، ان الصديق يعاني من حالة سكر. ولذلك يتكلم بهذه الطريقة الغريبة.

قال له:
ـ لا هذا ولا ذاك.
قال الصديق:
ـ اذن سيقف حالك الى الابد.
شرح له الصديق:
ـ لا مفر من البَـرْطَلَة، الم تسمع عن البذل والبرطلة في زمن المماليك. اسمها الآن الرشوة. وهي يفصلها خيط رفيع عن البقشيش.
اكمل الصديق الشرح:
هناك الوساطة. كل سكة لها العديد من المسالك.

فكر المؤلف. قد تكون الوساطة، أمر لا غبار عليه. عزت عليه نفسه، شعر بهوان يستقر حتى في نخاع العظام. اكتشف انه لا يعرف اي شيء عن غابة المصالح المتشابكة. التي اسمها عصابات التوزيع.

قال له الصديق، انه سيرسله الى شخص يعرفه، في الشركة الثالثة، وانه بذلك سيدخل الشركة من الباب وليس من النافذة. الموظف الذي سيذهب اليه. كان يكتب قصصاً في فترة سابقة. ولكن يبدو انه ادرك قواعد العصر وقوانينه. فطلق الكتابة بالثلاثة. واحترف العمل الوظيفي.

قال المؤلف، وهل هناك من يستطيع ان يشفى من هذا الوجع، ان كان الاستمرار بطولة، فإن الشفاء من هذا الجنون المذهل واللذيذ، أمر مستحيل.

اكمل الصديق، ان هذا الأخ، سيحل له كافة مشاكله. وان لم يحلها، على الأقل، سيدله على الطريق الى الحل. كل المطلوب، هو الذهاب له غداً.

في البيت، فكر المؤلف، في الأمر طويلاً. اكتشف انه من المفروض ان يذهب. ان كانت هناك نتيجة ما. مرحباً. وان لم تكن هناك أية نتيجة، لن يخسر شيئاً. اكثر من الخسارات التي حدثت له من قبل. قال لنفسه، ان الانسان يجيء في زماننا هذا الى العالم. لكي يخسر. الخسارة هي القاعدة. والاستثناء ليس ان يكسب الانسان. ولكن الا يخسر فقط.

ذهب اليه، في اليوم التالي، كان يائساً، وكان يقوم بهذا العمل، من باب اليأس وليس من باب الأمل. كان شخصاً مختلفاً. يبدو متقدماً في العمر. رحب به. شعر برائحة اكثر من انسانية. وابتسامته كانت صادقة. بعد جلوس المؤلف. طلب له شاياً وقدم له سيجارة. كانت اسنانه مغطاة بطبقة صفراء ثقيلة. وكانت اصابع يده اليمنى. مغطاة بلون غريب. وكان الصلع قد زحف الى كل رأسه. التي بدت مثل البطيخة وكانت ملابسه مهملة. والركن الذي يجلس فيه، مع الآخرين، تسوده حالة من الفوضى والارتباك. ترك المؤلف. استأذن وذهب. نظر المؤلف الى مكتبه. عادة لا يستطيع التخلص منها. حب استطلاع غريب ينخره من داخله. نظر الى غلاف الكتاب. شعر بضيق عندما اكتشف انه كتاب لم يسمع عنه من قبل. الغلاف يقول، انه دراسة عن سيكولوجية الانسان المقهور. أخذ الكتاب حتى دون

استئذان من صاحبه. الذي لم يكن موجوداً.

القى المؤلف. نظرة، على الفهرس. قرأ عناوين الموضوعات. نظر في بعض الصفحات. الجمل والكلمات التي وقع عليها نظره. اكدت له ان الكتاب يتحدث عنه. يتكلم عن ذلك القدر الهائل من القهر الذي يلاقيه كل يوم، وجد ان احرف وكلمات الكتاب تحرقه. تواجهه بمصيره. تحرق رموش عينيه ونور بصره.

عاد موظف التوزيع، جلس، سأله المؤلف عن الكتاب الذي كان على مكتبه. من اين احضره؟ قال له ان الكتاب جاءه من بيروت. من اجل طرحه في الاسواق. للتوزيع. ولكن الرقابة اعترضت عليه. فاحتفظ هو بالنسخة الاخرى. قال ان اي مكان عمل. مهما كان كئيباً. تكون له بعض الفوائد. ومن فوائد جلسته هنا. وصول مثل هذه الكتب اليه، التي لا تصل الى الآخرين. لم يطلب المؤلف الكتاب منه. ويبدو انه فهم رغبة المؤلف في قراءة الكتاب فوعده باعارته اياه. بعد الانتهاء من قراءته. استأذن فقط. في ان يمرر الكتاب على صديق ثالث، لمدة اسبوع. ثم يكون الكتاب تحت امره فوراً. .

شاهد الرواية في يد المؤلف. ويبدو انه فهم الموقف فوراً. أخذ منه نسخة الرواية. وقال ضاحكاً:

ـ ندخل في الموضوع.

قال المؤلف في نفسه، ان الأمور، رغم تناقضها، تتعايش في سلام بداخله. الرجل العملي، والكاتب السابق. يخلو الأمر من الصراع الدموي. الذي يعيش بداخل البعض، فترات قد تطول أحياناً. نظر في الرواية. قلبها بعين خبيرة وسأل المؤلف:

ـ أول رواية لك لا تجري أحداثها في الريف المصري.

كاد المؤلف أن يطير من الفرح. حملته أحرف الكلمات. إلى عالم

يتمناه ليل نهار. هل يصدق نفسه.؟ الرجل الجالس أمامه قرأ ما كتبه من قبل. سأله عن هذه الرواية. وعن ظروف نشرها.

استغرب، عندما عرف أن المؤلف نشرها على حسابه الخاص. رغم أنه له بعض الأعمال المنشورة من قبل. قال للمؤلف:

ـ بلدنا ليست له ذاكرة. . ، أو أن ذاكرتـه مثقوبة.

شرح له المؤلف الأمر:

ـ بلدنا مثل القطط تأكل أبناءها، بدون رحمة.

قلب الكتاب بهدوء. قال له، انه سيعرض له الكتاب، ويـوزعه، لم يتكلم عن المخاطرة التي في الأمر. شكر له المؤلف ذلك في نفسه قال إنه سيعرض الرواية، لمدة عشرة أيام. وسيختار له أيام الذروة في التوزيع. الإيام الخمسة الأخيرة من الشهر. والأيـام الخمسة الأولى من الشهـر الذي يليه. وإنه لن يعلن عن توزيعها في الجريدة. خوفاً من المشاكل. قال موضحاً:

ـ معذرة. ولكنه عصر الحد الأدنى بالنسبة لكل من يوجد فوق كتفيه رأس. ماذا نعمل؟!

ـ بدا السؤال بدون إجابة.

قال للمؤلف، إنه بسبب قلة الكميـة. سيعرضهـا للتوزيـع في أربع مـدن فقط. القاهـرة والاسكندريـة بصورة أسـاسية. وطنـطا من مدن الوجه البحري، وأسيوط من مدن الوجـه القبلي. كـان بوده عـرضها في كل مكان. ولكن الكمية صغيرة جداً.

نصـح المؤلف. بتغليف الروايـة. طلب منـه أن يقـوم بهـذا العمـل بنفسه، توفيراً للنفقات. قدم له فيها اسم وعنوان شركة: تصنع أكياس البلاستيك. ونصحه بأن يقوم بعمل اكليشيه بالثمن. ويشـتري ختامـة

ويطبع الثمن على كل نسخة. في أي مكان من صفحة الغلاف الرابعة. وأن يشتري دباسة وعلب دبابيس. وأن يقوم بعملية التغليف بنفسه بالتأكيد. فإن المؤلف. يمر الآن بفترة راحة أو هدنة بين عمل وآخر. وفي هذه الفترات. ربما كان أحب عمل إلى نفسه. أن يقوم ببعض الأعمال اليدوية. التي لا تتطلب القيام بمجهود ذهني ما.

شكره المؤلف. من كل قلبه. أحس أن قلبه محاط بطبقة من الزبد. وأن الحياة فيها من المسرات. ما يجعلها جديرة بأن نحياها. قال لنفسه، ربما يوجد في العالم أصدقاء لنا الآن. دون أن ندرك ذلك.

خرج المؤلف. ذهب إلى العتبة. صمم اكليشيه الثمن. اشترى الختامة والدباسة وعلب الدبابيس. ومن محلات أكياس البلاستيك. اشترى الكمية المطلوبة.

مرت عليه بعد ذلك، أيام سعيدة. كان يقوم بعمل يدوي. بعيداً عن التعب الذهني الذي مر به من قبل. عندما اقترب الموعد المحدد لطرح الرواية وكان المؤلف قد انتهى من كافة الأعمال المطلوبة منه. بشأن تجهيز الرواية للطرح في الأسواق. حضرت سيارة إلى بيته. أخذت نسخ الرواية.

ابتداء من اليوم الخامس والعشرين، كانت الرواية في الأسواق مع الباعة، وكان يمر على الباعة، في كل أنحاء القاهرة. كان يسأل كل بائع عن الرواية. الأسئلة واحدة. وإن اختلفت الإجابات.

- كم نسخة أعطيت لك؟
- كم نسخة بعتها؟
- والباقي كم؟

اكتشف أن معظم الباعة، ضعاف في إجراء العمليات الحسابية

الأرقام تدور في أذهانهم بطريقة بالغة الصعوبة. وتعجب، كيف يكسبون من عملهم. إن كانت العمليات الحسابية تتم بهذا القدر من الصعوبة. كان يقوم بهذا العمل يومياً، على مدى الأيام العشرة. وكان يجد سعادة ولذة في القيام به.

كل بائع كان يقول له، الباقي نسخة، اثنتان. كان يتصور في ذهنه، الرقم الذي تم بيعه من نسخ الرواية. وكان يتصور في بعض الأحيان، أن النسخ قد نفدت عن آخرها. وكان يعيش بعين الخيال، اللحظة التي سيقول فيها لأصدقائه، أن الرواية لم تعد منها نسخة واحدة.

ذات مساء، شاهد سيارة. نصف نقل، محملة بكميات من الكتب. نظر من الشرفة، ولم يصدق نفسه. قال، ربما كانت معهم كميات من الكتب تخصهم. ولكنهم عندما بدأوا في إنزال كميات الكتب على الأرض. تأكد انها روايته، صعد له موظف. وسلمه الأوراق، نظر فيها وهو لا يصدق نفسه:

المسلم من نسخ الرواية:	١٠٠٠ نسخة
ما بيع منها:	١٦٣ نسخة
الباقي (المرتجع):	٨٣٧
الثمن:	٩٧٨٠ قرشاً
عمولة التوزيع: ٤٠٪	٣٩١٢ قرشاً
الباقي للمؤلف:	٥٦٦٨ قرشاً

سلمه النسخ، والأوراق، كانت النسخ التي تسلمها أقل من الكمية المدونة في الأوراق. سأل عن السبب، قالوا له ان أية شركة توزيع تحصل على ٥٪ من أي كتاب يتم توزيعه. بهدف الترويج له. قال لهم، انه من المعروف أن عمولة التوزيع ٣٥٪ لماذا حصلوا منه ٤٠٪، قال له الموظف ان ال ٥٪ مقابل نشر إعلان عن الرواية في الجريدة التي

تصدرها المؤسسة وقت طرحها للتوزيع . قال المؤلف ان الإعلان لم ينشر. فقال الموظف ان المبلغ يخصم بصورة روتينية. سواء نشر الإعلان أم لم ينشر.

كان ما مع مندوب الشركة، ورقة الحساب ونسخ الرواية. أما الثمن، المفروض أن يذهب إلى الإدارة. وهناك سيجد المبلغ في انتظاره.

ـ غير معقول؟

قال له الموظف، إن ما يقوله، هو قمة العقل والمنطق، لسبب بسيط، وهو أن النسخ الباقية موجودة في السيارة، وسيحصل عليها الآن بالعدد. ضحك الموظف وهو يقول:

ـ بالتأكيد، نحن لم نطبع طبعة ثانية من الرواية.

اعتذر له المؤلف. ولكن الموظف أكمل:

ـ نحن نكون سعداء، مع الكتب التي تبيع أكثر، لأن هذا يرفع من قيمة العمولة التي نحصل عليها.

حمل العمال، كميات المرتجع، وضعوها في البيت. والمؤلف ذاهل عما حوله. لن يتكلم المؤلف عن مشاعره وإحباطه، وخيبة الأمل، لأن هناك فصلاً. سيتحدث فيه المؤلف. وإن كان المؤلف لا يعرف مكان هذا الفصل بالتحديد من الرواية. ولكنه يعرف عنوانه الذي قد يكون: كلمات المؤلف الأخيرة.

في اليوم التالي، فكر المؤلف في مشكلة الرواية. ليس أمامه سوى ترك نسخها هنا كالميت. أو أن يذهب بها إلى أية مكتبة من المكتبات، حيث تعرض أطول فترة من الوقت. حصر المكتبات في ذهنه. هل تقبل هذه المكتبات عرض هذه الرواية. استقر رأيه. على صديقه. الموزع والناشر ابن البلد. ودار النشر الرسمية. لها جهاز توزيع. تصل

فروعه إلى أي مكان في العالم الخارجي . . سيذهب إليهما. وإلى كافة المكتبات الأخرى. فمن المؤكد أن وجود الرواية. في أية مكتبة أفضل ألف مرة من نومها في بيته.

ذهب إلى دار النشر الرسمية، إنها المرة الثانية التي يحضر فيها إلى هذه الدار. حضر من قبل لنشر الرواية. واليوم يحضر في زيارة الحد الأدنى أن تتولى الدار عرض روايته فقط. تساءل: وهل يحصل على الحد الأدنى؟ إن من يكون هدفهم، هو الحصول على الحد الأدنى فقط. لا يحصلون على شيء بالمرة.

حكى حكايته، دلوه على مكتب الأستاذة. ذهب إليها. أعاد قول حكايته من الأول. ردت عليه فوراً. هناك قرار صدر منذ ساعة، بأن يقتصر دور الدار على عرض الكتب العلمية فقط. أما الروايات والقصص والأشعار. فلا تدخل في هذا التخصص. لو عرضوا كتاباً في النقد الأدبي. من المفروض أن يكون مقرراً على طلبة إحدى الجامعات. وإلا لن تقبله.

كانت تتكلم وكأنها تقرأ من ورقة أمامها. وكانت تبدو مستريحة في تعاملها مع الكلمات. وكان هو يفكر في الانصراف من أمامها. ولكنه ـ قبل انصرافه قال لها، إنه لا يطلب، من الدار شراء نسخ منه، نحن في عصر الحد الأدنى. وهو لا يطلب سوى عرض هذا الكتاب. كأمانات فقط.

رفعت حاجبيها. نظرت له بلوم. قالت له، إنه في هذه الحالة، يجب عرض الأمر على رئيس مجلس الإدارة. وهو الذي يقرر الأمر بصورة شخصية. ذهب إليه، كان سعيداً بالخروج من المكتب، وانتهاء حصة تسميع الملاحظات.

أبلغ سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة، وجلس ينتظر الإذن بالدخول.

ولكن الرجل حضر إليه بعد قليل في مكتب السكرتيرة. اعتبر المؤلف أن حضوره بادرة خير. في زمن لا يحب فيه كلمة المبادرات. صافحه، رجل كبير في السن. ولكن صوته العالي، لا يشعرك بتقدمه في السن. حاجباه كثيفان بصورة تلفت النظر.

سأله عن طلبه فوراً. وسط حالة من الفوضى، أشاعها دخول رئيس مجلس الإدارة مكتب السكرتيرة. عرض المؤلف الأمر كله. حكى القصة حتى كلام مسئولة التوزيع في الدار. قال ان كل المطلوب تأشيرة منه. ويقبل الكتاب فوراً. كان الكتاب، في هذه اللحظة، في المسافة الفاصلة بينهما. أخذه من يده. نظر فيه، قلب بعض أوراقه، وصاح فيه:

ـ ساعدني على البقاء هنا.

كانت نبرة صوته عالية جداً.

ـ إن مجرد وصول صديق لكم ـ وليس واحداً منكم ـ في هذا المكان وضع يجب الحفاظ عليه. في ظل هذه الظروف.

لم يتكلم المؤلف. ولكن الرجل أكمل:

ـ هل تتصور أنني أستطيع توزيع هذا الكتاب. من دار مملوكة للدولة. ومن المفروض أن تعبر عن وجهة نظرها. أولاً وأخيراً.

أخذ المؤلف الكتاب وشكره. مد يده لكي يصافحه، للمرة الأولى شاهد ابتسامة تعلو وجهه الذي كان يغطيه الغضب والعرق. هز الرجل يد المؤلف. قال له إنه يرحب به. وعندما يكون لديه عمل أدبي، يريد نشره يخلو مما لا يجوز نشره. سيكون سعيداً بنشر هذا العمل له فوراً.

خرج المؤلف، وهو لا يتبين حقيقة مشاعره تجاه ذلك الرجل. معه بعض الحق فيما قاله. ولكن المؤلف كان غاضباً. كان يمكن للرجل

قبول روايته وعرضها. دون حدوث مشاكل كما يتصور.

فكر المؤلف، في بلدنا، لا أحد يشعر بشرعية جلوسه على مقعده. ولهذا يتحول دوره من لحظة تعيينه. إلى لحظة فصله أو وفاته أو إحالته إلى المعاش. إلى محاولات إثبات هذه الشرعية. وعدم الاقتراب من أي تصرف، قد يهدد هذه الشرعية. من قمة هرم المسئولين. وحتى قاعدة الهرم. والقضية الأولى والأخيرة، هي شرعية التواجد. ما يجوز وما لا يجوز.

ضحك المؤلف، وهو يردد لنفسه، يكفي أن صديقاً لنا. سأل نفسه متوقفاً، نون الجماعة هذه تعود على من؟ صديق لنا في هذا المكان، وليس مجرد واحد منا ـ المأساة الحقيقية. إن الكل يفكر بعقلية وروح الحد الأدنى. نظر المؤلف إلى مبنى الدار، المطل على النيل. وقال لنفسه. فعلاً، يكفي أن يكون في هذا المبنى صديق لنا. لم يطمع الإنسان في أكثر من هذا.

لن ينقذ المؤلف من هذه الورطة. سوى صديقه الناشر ابن البلد. الصريح والواضح وسط تجار الزيف والكذب. يكفي المؤلف ما قام به اليوم. سيؤجل مشوار صديقه إلى الغد. ربما يكون يوماً أفضل من هذا اليوم الغريب.

في البيت. في الليل الذي لا يرحم. كان الرئيس الذي لا مفر منه أبداً يتكلم، كعادته كل يوم. كان يقول، إن البلاد في حالة من السعادة، لم تحدث من قبل. ولن تحدث بعد هذا. كان يتكلم عن عامل بياض شاهده الرئيس بنفسه، يجلس على طريق المعادي، كورنيش النيل، معه زوجته. تساءل المؤلف: ولماذا لا تكون رفيقته.؟ فوت: قليل من التفويت يريح العقل المصري المتعب من عناء التفكير. قال الرئيس إنها زوجته. وكلام الرئيس مطاع ولا بد من تصديقه. كان

العامل يجلس مع زوجته. وأمامه زجاجة بيرة مستوردة. توقف المؤلف. بيرة، ياه. المسافة طويلة بين البيرة والإيمان. كيف يجتمعان تحت سماء واحدة. ؟ وبيده علبة سجائر روثمان. فكر المؤلف: يجب منع الرؤساء وكبار المسئولين، من ذكر أسماء شركات ذات طابع تجاري. في أحاديثهم. لأنه توجد شبهة إعلان ودعاية في هذا الكلام. يجب على السلطة التشريعية أن تسن قانوناً بذلك. استدرك المؤلف. وحتى لو كان هناك تشريع. الرئيس فوق الجميع. في مصر شرعية وحيدة، وهي شرعية الرجل الواحد. أكمل الرئيس كلامه،وكان العامل يمسك بولاعة رونسون. مرة أخرى يذكر، أسماء بضائع وشركات.

حاول المؤلف، ان يتذكر اسماء الدول التي تصنع هذه المنتجات. ولكن الأمر كان صعباً. قال الرئيس، ان العامل كانت تنتظره سيارة مرسيدس. آخر موديل. البضائع والشركات والمنتجات مرة اخرى.

يكمل الرئيس القصة. توقف وسأل العامل. فاكتشف انه نقاش، ويحصل عالى عشرين جنيهاً في اليوم الواحد.

- عامل بياض بعشرين جنيهاً.

هكذا قال الرئيس سعيداً:

- اي ستمائة جنيه في الشهر.

لا بد وان الرئيس، لديه قدرة حسابية هائلة:

- أي سبعة آلاف ومائتا جنيه في السنة. النقاش.

بعد فترة صمت، سأل الرئيس المشاهدين والمستمعين معاً:

- هل شاهدت البلاد، عصراً ازهى واجمل او اروع من هذه الأيام؟

ولأنه لم تكن هناك اجابة، قال الرئيس:

- انها الحرية، التي اوصلتنا الى ما نحن فيه.

في الصباح، ذهب المؤلف الى صديقه القديم. الناشر ابن البلد.

وكـان قد حضر لـه، من قبل، يعـرض عليه نشر الـرواية. وكـان هذا الصـديق، قد قـال للمؤلف. بصراحته ووضـوحه، انـه لا يمكنـه نشر روايته. ولكنه يمكنه مساعدته. بأمرين الأول توزيعها. والثاني المساهمة في طبعهـا المؤلف ذاهب اليه الآن. بهـدف ان يتولى تـوزيـع الـروايـة. خشي وهـو في الـطريق اليـه. ان تكـون عـدوى الـزمن الصعب، قـد اصـابته، ان يكـون قد اصبـح مثـل الآخـرين. يكـذب ويلفق ويلف ويـدور. ان يجف نبع الصفـاء بداخله، ان يتـآكل، ان يـذوب. امـام ضراوة الـزمن المـوحش، الـذي اكـل كـل شيء. حتى صـديق عمـر المؤلف. فكر المؤلف ان صديق العمر حكاية اخرى ان أدخلهـا هنا قـد تشوه السياق العام. وتزيد من مأساوية الموقف. وقد تصل به الى حدود الانفجار.

وصل الى مكانه. كان يعمل، يبيع الفكر والثقافة. تبدو عـلى وجهه نقاط عرق. والجلابية التي لا يـزال متمسكاً بهـا. تعلن ان المسافـة بينه وبين كذابي العصر. لا تزال واسعة.

سلم عليه، سأله عن الصحة والحال. واخبار كتاباته الجديـدة. قال لـه ابن البلد. انـه من المفـروض ان يتمـاسـك وان يستمـر والا ينهـار. تساءل: في حالة انهيار الكل. من يقف على قدميه، ومن يعمـل، ومن يدافع؟ دهش المؤلف من حالة التماسك الداخلي، وربما الصلابـة. التي توجد في اعماق هذا الانسان البسيط.

لم يرد المؤلف بأية كلمات. قدم نسخة الرواية. نظر اليها، فرح بها. قال له:

ـ هذا هو الكلام.

قلبها، طبعاً لم يقرأ حرفاً. وان كان قد القى نظرة على العنوان:

ـ سلمت يداك.

قالها والرواية في يده. ابدى بعض الملاحظات. على الغلاف ونوعية الورق والاخراج. ونوع الحروف المستخدمة في الطباعة. دون مساومات، قال له:

ـ احضر لي. مائتي نسخة.

سأله المؤلف:

ـ متى؟

رد عليه الحاج:

ـ ان تمكنت من احضارها الآن. يكون افضل من الغد.

قال له ان كل الكمية التي حضرت له عن طريق التوزيع، قد نفدت عن آخرها. قبل ان يتركه المؤلف، سأله:

ـ هل صدرت منها نسخاً الى الخارج؟..

قال المؤلف:

ـ لا..

فكر المؤلف، لماذا لا يصدر بعض النسخ الى الدول العربية. على الاقل، بدلاً من ركنها في بيته بهذه الصورة. اقترب من الحاج:

ـ وهل هذا ممكن؟

بدلاً من الرد على سؤاله، قال له:

ـ لو كان لي سجل مصدرين، لفعلت هذا، بدون مقابل.

شرح له الاجراءات، واستدارت الفكرة في ذهن المؤلف. وقرر ان يبدأ ذلك من الغد. قال له، ان في مصر طريقتين لتصدير روايته. إما من خلال دار النشر الرسمية. وهي نفسها الدار التي رفضت مجرد عرض روايته في مكتباتها. فكيف تقبل تصدير الرواية الى الخارج تذكر كلمات رئيس الدار. وتحذيره. وطلبه من المؤلف. ان يتحلى بأخلاقيات الممكن. في هذه الظروف الصعبة.

قال له الحاج، هناك طريقة اخرى للتصدير، تقوم بها احدى دور النشر الخاصة. بشرط ان يكون لديها مصدرين. تذكر المؤلف. صديقاً له. كان مثقفاً من قبل. وكان يتعاطى الكلمة. ابداعاً وقراءة. ولكنه ومع الايام الاولى من السبعينات. شد الرحال الى بلاد العرب. عمل وتنقل. وفي المحطة الاخيرة. التي رست فيها سفينته. قبل الحضور الى مصر، وهي بيروت. مكث فترة اطول.

عاد الى مصر، ومعه مبلغ من المال. وقرر ان يؤسس داراً للنشر. يحقق من خلالها أحلام الزمان القديم. التي حال الفقر والعوز والاحتياج دون تحقيقها. حصل على مكتبة. يقال انه دفع ٢٥ ألف جنيه خلو رجل فيها. ومن يوم افتتاحها. وجهات الأمن. تعين فرقة كاملة من المخبرين. والمثقفين المخبرين. والصحفيين المخبرين. والكتاب المخبرين. والمتسكعين المخبرين. لمتابعة كل نشاط يقوم به. وتسجيل كل كلمة يدلي بها.

كان لدى أجهزة الامن تصور، يصل لدرجة اليقين. انه لا بد من وجود جهة ما. تقف وراءه. وان هذه الجهة لا يمكن ان تكون سوى. دولة اجنبية تحاول ان تلعب دوراً ما. من خلاله.

بعد الافتتاح. وحفل الافتتاح الضخم، الذي ضم كل أصدقاء ورفاق. المثقف الذي اصبح ناشراً. وبعد ان انفق كل ما لديه. في دفع خلو المكان. وشراء اجهزة التكييف الفاخرة. وتعيين ربع دستة من أجمل الفتيات للبيع والشراء وجذب العملاء بلغة هذا العصر العجيب. اكتشف ان ما بقى معه. لا يكفي لكي يبدأ حكاية النشر. فقرر ان يتاجر في الكتب الجديدة والمجلات الثقافية. وان يحول ارباحه من التجارة الى عملية النشر بعد فترة من الوقت.

وبهذا تلعب التجارة دورها. في خدمة الثقافة. ولكنه ـ ومع مرور

الـوقت ـ اكتشف ان الكتـاب غـريب. وان المجلة الجـادة. سلعـة لا يرغب فيها أحـد. وان أيامـاً كثيرة كـانت تمر. قبـل ان يقف على بـاب مكتبته فرد واحد. الذين تـرددوا عليه. ووقفـوا معه. كـانوا يعـرضون عليه مبالغ اكبر من المال. لكي يترك لهم الحكاية. من أولها الى آخرها. لأن المكان ممكن ان يستغل بصورة احسن. لو اخـرج من رأسه حكـاية النشر. كـان يرفض. فـالحلم لا يزال يـداعبه بقـوة. ويسيـطر عليـه. بصورة لم يعرف كيف يهرب منها أبداً.

اقترح عليه. بعض الاصـدقاء. إدخـال تجارات اخـرى. بجـانب الكتـاب. مثل الصـورة. والكروت السيـاحية. والخطابات والادوات الكتابية. وانواع الاقلام الغـالية. والمثلجـات والسجائـر. لأن عائـدها اسرع من عائد الكتاب. ظل فـترة من الوقت،.وهـو يرفض حتى مجـرد التفكير في هذا الأمر. كان يراه اتجاهاً خاطئاً، من الالف الى الياء.

تحت الالحاح، وأمام حالة الكساد، التي يعاني منها. قرر النـاشر. ان يبدأ على سبيل التجريب، التجارة في الأقلام التي وجدها في الاسواق. كـانت غاليـة الثمن جـداً. السن من الـذهب. والموديـل يحمـل نفس العام. اقلام زمن الانفتاح السعيد. المثقفون لا يقدرون عـلى دفع ثمن هذه الاقلام. وان كان هناك من يشتريها. وجوه أخرى. رجـال اعمال. اصحاب أعمال. اصحـاب توكيـلات تجاريـة. من يبحثون عن هـدايا يقدمونها لأنها تسلك لهم الأمور.

الربح الذي يعود من تجـارة هذه الاقـلام ضخم. ما يعـود عليه من البيعة الواحدة. يوازي ما يعود من بيع الكتب لمدة أيام.

ذهب اليه المؤلف. سال عنه. كان يبحث في نفسـه عن الاحساس الذي يشعر به ازاء هذا المثقف الـذي اصبح نـاشراً. قـال المؤلف. ان

الجملـة لا تستقيم هكذا. الصدق يتطلب القول: المثقف الـذي أصبح تاجراً.

لم يكن موجوداً.

ـ البيه في مشوار.

اكتشف المؤلف، انه ينطق اسم صديقه القـديم. مجرداً. في حين، ان الفتـاة الجميلة التي تعمل عنـده. وهي واحدة، من ربـع دستـة من الفتيات الجميلات. قالت البيك. جلس في انتـظاره. وقبل حضـوره. عـرف الحكايـة. من الجمل المتنـاثرة من الحسنـاوات. البيه في القسم. قضية تموينية. اخذته مباحث التموين. ضبطت احـد العاملين عنـده. يبيـع علبة سجـائر كليـوباتـرا. . بزيـادة قرش، صـاغ. قالت احـدى الجميلات. ان قضايا التموين. في هذه الايام. من قضايا أمن الدولة.

سألها المؤلف. وهل يبيعون هنا السجائر ايضاً. قالت الحسناء، التي أدركت انها تـورطت بـالحـديث امـام شخص يبـدو انـه من النـوع الفضـولي. إنهم لا يتاجـرون في السجائـر. ولكن المحل لـه حصـة من السجائر الكيلوباترا. يحصل عليها كل يوم في الصباح. يوزعها وينتهي الامر. والقرش الزيادة الذي ضبط اليوم. انما يعود الى واحد من امرين. إما الان الولد الذي باع السجائر لا يعرف الحساب. أو الى ازمة الفكة.

ان صـاحب العمل، سعـادة البيك، رجـل مثقف. وهو ضـد هذه الأمور، وكلماته صريحة وواضحة. ولكن الـولد، حـدثت له حـالة من اللخبطة. في عد النقود. ولهذا أخذوا صاحب المحل بسبب جهل الولد بالارقام.

حضر صديقه القديم. لم يرحب به. صافحه بفتور. كان يبدو قادماً من عالم آخر. كـان المؤلف يتكلم عن الكتاب. ولكن صـديقه النـاشر القديم، كان يتكلم عن المبلغ الـذي دفعه كفـالة. لكي لا يلقى بـه في

الحجز. مائتا جنيه. ثمن خطأ. ارتكبه ولد لا يجيد القراءة ولا الكتابة. ولا يدرك الارقام. كانا يتكلمان لغتين لا تواصل بينهما.

أخيراً، استطاع ان يدير الحوار معه. اكتشف ان صديقه القديم، لديه سجل مصدرين. ففرح ولكن صديقه القديم. اكد له. ان مسألة تصدير كتاب الى الخارج ليست سهلة. هناك أولاً. رقابة تصدير. يقدم لها. الكتاب المنشور. لكي تقرر. ان كان يصلح للتصدير أم لا.

تساءل المؤلف:

ـ رقابة تصدير؟!

ضحك صديقه، قال له، الكتاب الذي يصدر في الداخل. يخضع لرقابة ما. رقابة النشر، أو رقابة الأمن. او الرقابة الاساسية، التي هي الآن. نوع من الرقابة. الحاضرة الغائبة. ولكن تعرض الكتاب لكل هذه الانواع من الرقابات. وكونه صالحاً للنشر هنا في الداخل. لا يعني صلاحيته للتصدير خارج البلاد.

عند تصدير اي كتاب للخارج، لا بد من مروره على رقابة جديدة. تقرر هل يتم تصديره أم لا. بعد الصلاحية المبدئية. عليه ان يسدد. مقدماً. جمارك الكتاب وضرائبه. وهذا التسديد، يتم على اساس الكمية المرسلة. بصرف النظر. عن بيعها أم لا. الكمية التي ترسل الى الخارج. من المعروف أنها لا تعود سواء بيعت أم لا. العرف جرى. على ان يعود غلاف الكتاب. الذي لم يتم بيعه. دلالة على ذلك.

قال له صديقه القديم. انه يحصل على نسبة عمولة، قدرها ستون في المائة، من ثمن الكتاب. أما بخصوص نفقات الشحن والنقل. فلا يعرف من الذي يتحملها. تساءل المؤلف:

ـ تحصل على ٦٠٪ دون ان تتحمل اجراءات الشحن ولا نفقات النقل.

قال له صديقه:
ـ طبعاً. هذه النسبة من أجل استخدام اسم المحل. والانتفاع بالمزايا التي يمنحها سجل المصدرين فقط.

قال له صديقه القديم. أما باقي المصاريف. والنفقات. إما ان يدفعها المؤلف. أو الجهة التي سيصدر لها الكتاب. قال له المؤلف. انه سيفكر في الامر. ويرد عليه. لاحظ المؤلف، ان الرائحة الانسانية. في كلام صديقه قد اختفت. رجل أعمال مائة في المائة. فكر في القيام فوراً. ولكنه فضل البقاء قليلاً من الوقت. حتى لا تصل الأمور لحد القطيعة التامة.

تركه المؤلف ومشى. كانت فكرة تصدير روايته للخارج. قد بدأت تتلاشى وتتبخر من ذهنه. يكفي ان تبقى الرواية لدى صديقه الحاج. مكان وحيد. في وطن يتحرك فيه أربعون مليوناً من البشر. كيف تصل اليهم كلماته. كيف تلعب هذه الكلمات دوراً في حياة الناس؟ كان المؤلف يقول من قبل. ان كلماته يجب ان تحرق ابصار الناس وهم يرون مصائرهم. ووقائع حياتهم اليومية. تتحول الى أحرف وكلمات أمام اعينهم. ولكنه نسي أبسط هذه الأمور. وهي كيف تصل الكلمات الى الناس اصلاً.

في الليل. فكر المؤلف. في الاحتمال الثاني. لو ان هذه الرواية نشرت في الخارج. بيروت مثلاً. ماذا كان سيحدث؟. هل تصل الى البلاد؟ وبأية صورة؟ في زماننا، يعد الفكر من أكثر الممنوعات خطراً. كانت النسخ ستصل إما الى المطار. أو احد الموانىء. ثم ترسل نسخة واحدة منها. بعد احتجاز الكمية. الى رقابة المستورد. وتفحص جيداً. وتتم الموافقة او الرفض.

دهش المؤلف من تعقيدات الأمور. رقابة محلية، رقابة تصدير،

رقابة استيراد. هذا غير الرقابات النوعية. مثل الامنية او العسكرية او الدينية. والغريب، ان كل واحدة من هذه الرقابات. تعمل منفصلة تماماً عن الأخرى. فقد توافق هذه على عمل. وترفض الاخرى نفس العمل. ولكل منها أسبابها الخاصة.

سأل المؤلف: ماذ جرى للوطن؟ هل كان أحد يتصور ان تصل الأمور الى هذا الحد. ما كان يضحك المؤلف في بعض الاحيان. ويبكيه في احيان اخرى. هو صدفة كل الليالي. في رحلة العودة الى البيت كل مساء. كان يأتيه صوت العصر. كان الرئيس يتكلم في كل الليالي تقريباً. عن الحرية. إما انه يتكلم لاول مرة. أو ان الخطاب تعاد اذاعته. مرة اخرى. بناء على طلب الجماهير التي ارسلت كلها. تناشد وتطلب وترجو وتلح في اعادة اذاعة الخطاب مرات ومرات.

يقول ويكرر، انه سعيد. لأنه يحكم شعباً حراً. وان الحرية المتوفرة الآن. قد تعب منها المصريون. وقف المؤلف. استمع الى الرئيس وهو يتكلم عن الحرية. قال المؤلف لنفسه: ان كلمة الحرية لم تتكرر من قبل بهذه الصورة أبداً.

في البيت، قال المؤلف لكميات كتابه الباقية، انها ستؤنس وحشته لفترة طويلة قادمة بدلاً من وصولها الى الناس الذين كتبت لهم وعنهم ومن أجلهم. يحول بينها وبين الناس عشرات الرقابات. رقابة محلية. واخرى للتصدير. وثالثة للاستيراد. ورقابات نوعية وفرعية، ومن خلف هذه الرقابات ومن امام هذه الرقابات. اجهزة الأمن بمختلف انواعها. التي جعلت الشوارع مرعوشة. والبيوت مرعوبة. والناس تنادي الامان، الامان. ومن كل هذه الصورة. كلمات الرئيس التي لا مفر منها. عن الحرية التي تعب منها المصريون. لأنها حرية الحاكم في ان يضع القيود في يدي المحكوم. وجعل المشنقة حول رقبته.

انه زمن الغرائب والعجائب. التي لم تحدث من قبـل. ويبدو انها لن تحدث بعد ذلك. والمؤلف الخارجي. أعطى المؤلف الداخـلي حريـة في الحديث. لأن الفصل كله افتراضي. يقع في تلك المنطقة الحرجة. بـين مـا وقع فعـلاً في أرض الواقـع، وبين مـا يجري من الأحـداث في ذهن المؤلف. والمؤلفان معاً. الخارجي والداخلي. يقولان للقارىء اياه. انـه لا أحد يعرف. أين ينتهي الواقع. واين يبدأ عالم ذهن المؤلف. في هذا الفصل. ولا في الرواية كلها. بأجزائها الثلاثة.

٥

النهاية الأولى:
المصري الفصيح يقف متهماً في محكمة أمن الدولة العليا

لا مفر من وضع كلمة النهاية. في آخر هذه الصفحات المليئة بالكلمات. تلك مسألة أساسية في الرواية. ان الأحداث، التي تدفع بعضها البعض، نازلة منحدرة، أو صاعدة الى أعلى. لا بد وان تصل الى نهاية محددة. وعند كلمة النهاية، ينصرف القارىء الى حياته الخاصة. ولا أعرف أنا. ولا يعرف غيري، مدى فهمه لهذه الرواية، ولا مدى تأثيرها فيه.

لا بد من النهاية مرة أخرى. كان لهذه الرواية ثلاث بدايات. ولهذا وجد المؤلف. نفسه أمام ضرورة ان يكون للرواية ثلاث نهايات ايضاً. والمؤلف لا يفعل هذا تمشياً مع عصر الاثارة، ولا استخداماً لفن اشغال الناس عن قضاياها الحقيقية. وقد بحث المؤلف طويلاً. عن مبرر لحكاية النهايات الثلاث..

ولأن المؤلف. سبق وان جهز لكل موقف تبريره الخاص. يقول، انه لا يتذكر بالضبط، من الذي قال: ان الحكايات العظيمة لا يمكن ان تكون لها نهاية واحدة أبداً. كلما كانت الرواية جيدة. كلما أصبحت امكانيات العثور على نهايات لها. مسألة تفوق الحصر.

يقول المؤلف: ان صاحب هذا القول. روائي له تجربته الواسعة. ونقل كلمته ليست محاولة من المؤلف. لأن يضفي على روايته صفة العظمة. ولا أن يدرجها تحت بند الأعمال الروائية الجيدة. فهو يعرف انه مصري. وحيث ان الوطن، أصبح في هذه الأيام مثل القطة الهرمة الشرسة. التي لا عمل لها سوى أكل ابنائها. لهذا فطموحه لا يصل الى ما هو أبعد من الكتابة. أما الباقي، فتلك مسائل لا يفكر فيها الآن.

يذكر المؤلف، انه في رواياته السابقة، كان الوصول الى النهاية لا يقل صعوبة عن العثور على نقطة البدء لعمله. وبالنسبة لهذه الرواية، كان الأمر مأزقاً، من البداية، كان لدى المؤلف تصور، ان تكون للرواية بدايات ثلاث ونهايات ثلاث.

الآن، يعرض المؤلف، تصوراته للطريقة التي نتخلص بها جميعاً من هذه الورطة. التي هي الاستمرار في هذه الرواية. التي لن يحبها أحد. فالرواية أصبحت لكل الاطراف المشاركة فيها، الكاتب والقارىء والناشر والموزع، وعامل المطبعة، كابوساً مخيفاً. ويجب الانتهاء من هذا الكابوس على وجه السرعة.

هيا، لكي ننتهي من هذا الأرق، الذي اسمه: شكاوي المصري الفصيح، أطال المؤلف ـ كعادته ـ المقدمات، وهو معذور.

ولندخل الآن فوراً، الى حكاية النهايات الثلاث. ويتمنى المؤلف ان لا يتعدى الأمر. هذا العدد من النهايات فعلاً.

من الصعب على المؤلف. طوي هذه الأوراق، والانطلاق الى النهاية الأولى، دون المرور على هذا المعنى الاساسي. كيف تكون هناك نهاية لرواية لا تزال أحداثها مستمرة في الواقع؟

القبور كما هي؟ والسكان يعيشون فيها. بل ان أعداد من ينتقلون

الى القبور في تزايد مستمر. فكيف نضع لكل هذا نهاية؟ ولكن من قال، ان ما يقدمه المؤلف باعتباره نهايات. هو بالفعل نهايات للرواية؟ قد تتحول كافة الاوراق القادمة من الآن. الى محاولة لتأكيد استمرارية الرواية. التي ظلت مستمرة بالفعل في أرض الواقع.

النهاية الأولى. التي نبدأ بها الآن. عندما بدأ المؤلف في كتابتها، كان ينوي ان تتحول الى نهاية ساخرة. ولكنها خرجت من بين يديه ليكتشف. انها نهاية جادة. فيها قدر كبير من التجهم والجدية.

محضر اتهام:
- انهم جماعة خطرة على الأمن العام.

هذا ما قاله مسئول كبير في مديرية الأمن. الاجتماع عقد في ليلة متأخرة من الليلة التي انتهت فيها التحقيقات. كان القرار الأخير في القضية قد صدر. ولم يعلن بعد. وقبل إعلانه. عقد المسئول عن التحقيقات اجتماعاً مفاجئاً. تم ابلاغ خبره الى كافة القيادات بصورة عاجلة.

كان البعض يتصور، ان هذا الاجتماع لا مبرر له. فالأمر أصبح في يد القضاء، ولكن المدير، كان يريد ان يتكلم حول هذا الموضوع الهام. وهمس البعض، انه ربما يتم اجراء عملية تقييم للأمر كله. وقال الآخرون. ربما كانت هناك حركة ترقيات. وقال ثالث: من المؤكد ان هناك مرتب شهر مكافأة لكل من شارك في هذا الحادث.

قرر كل واحد، . ان يضيف اسم صديق، او قريب، الى كشوف المشاركين، فالخير من المفروض ان يعم الجميع.

في مكتب ضخم، عقد الاجتماع. ضم الذين، كان لهم دور في القضية. كانوا جميعاً بالملابس المدنية. والخاطر الذي كان يدور في

اذهانهم جميعا، انـه من سخريـات هذه الايـام. ان تتسبب الحشرات. والتي يـطلق عليها من بـاب الخطأ. ألقـاب انسانيـة. في اقـلاق راحـة السادة وابناء الناس.

ـ لماذا تخلق هذه الكائنات أصلاً؟

سؤال دار في صمت. في ذهن مسئول كبير. البدلة فاخرة، وجسده يبدو معطراً، بعد الحمام الدافىء الذي اخذه. والضيق الذي يشعر به، بسبب حضـوره في هذا الـوقت بالـذات، لا حـدود لـه. وكـان ضيقـه موجهاً الى هذه الاسرة بالذات.

أمام المدير يرقـد ملف ضخم، الكل عـرف من النظرة الأولى، انـه ملف القضية. بعض الضباط الذين لهم صلات وثيقة بالمدير. والـذين تمكنوا من الاطلاع على الملف، قبل هـذا الاجتماع الخـطير. قالـوا، ان الأمور وصلت الى الدرجة، التي كان يتمناها الكل.

جلس الكل، تنحنح المدير. واخرج نظارة طبية وضعها على عينيه. وقدم له سكـرتيره، اكـثر من قلم. ليس من بينها قلم التـوقيعات. لأن المـدير، لم يكن من المفـروض ان يـوقـع أيـة قـرارات هـامـة. في هـذا الاجتماع الهام.

تنحنح المدير من جديد. وفرض الصمت نفسه على الاجتماع.

وقبل ان يبدأ الحديث، فتح الملف الـذي أمامـه. وقرأ بصـوت عال من الصفحة الأولى:

ـ تحول القضية الى محكمة أمن الدولة العليا.

كان السطر مكتوباًبالقلم الأحمر، وكـان الملف يبدو ضخـماً. يتكون من حوالي خمسمائـة صفحة من القـطع الكبير. هي كـل أوراق الملف. والمدير نفسه، لم يكن لديه وقت ليقرأ هذا الملف. رغم ان الملف، كان

به العديد من الأمور المثيرة. التي قد لا يصدقها عقل.

بعد قراره، قرار الاحالة، انتقل المدير الى الاتهام الموجه الى العائلة، وكان هذا الاتهام اكثر الأمور غرابة. ويبدو، انه في الوقت الذي تبدأ فيه الأمور الغريبة. في بلد ما. فلا أحد يستطيع وقف هذه الأمور الغريبة أبداً.

كانت التهم الموجهة الى العائلة كثيرة. وادوار افرادها متنوعة. وان كانت التهم الكثيرة تدور حول معنى واحد: ان هذه العائلة. سعت من خلال الوقوف في ميدان التحرير، الى احداث حالة من الشغب والبلبلة. تكون مقدمة للوصول الى العنف كمحاولة لقلب نظام الحكم بالقوة. والوصول الى الحكم، من خلال بحار الدماء. وان هذه العائلة. كان مطلوباً منها تنفيذ هذا الجانب.

كان من المفروض ان تكون هناك أجزاء أخرى من المؤامرة. ولأن اجهزة الامن يقظة. وعلى مستوى المسئولية. فقد أحبطت المؤامرة. ولم تنفذ الاجزاء الأخرى. التي هي محل تحقيق دقيق الآن. حتى تعطى محاكمة هذه الأسرة حقها في الوقوف أمام ساحة القضاء بمفردها. وهذا نوع من الرأفة بها. وطلب الرحمة لها.

كانت هناك تهم أخرى. حول الاتصال بجهات اجنبية. والتآمر معها. وان كانت هذه الاتصالات قد فشلت. وكذلك تهمة قيام الاسرة بعمل تنظيم غير مصرح بقيامه شرعاً ولا قانوناً. من ناحية أفراد العائلة. كان لكل فرد تهمته. وقد قسمت العائلة الى مجموعات. كان هناك الفاعلون الاصليون والمشاركون. وشهود الاثبات. ومن انجروا الى الأمر بحسن نية. وهناك من توفر في سلوكهم عنصر التآمر. وسبق الاصرار والتخطيط. ومن شارك بالصدفة.

كانت العقوبات مختلفة. بعضها مخفف. والآخر يميل الى الحد

الأقصى. وكانت مواد قانون العقوبات المدونة تجاه كل اسم مختلفة، من فرد لآخر. وهذا الاختلاف في العقوبات. كان نابعاً من اختلاف الادوار والتهم. من فرد لآخر من افراد العائلة.

محضر تبرير:

انتهى المدير من قراءة الاتهام، واغلق الملف الكبير، ونظر الى الآخرين. وقال، ان هذا الاجتماع له هدف واحد. وهو إكمال النقص الموجود. في هذه الأوراق ليتمشى الأمر كله. مع الاتهام الموجه الى العائلة. وهو لا يتهم أحداً بالتقصير في عمله.

ولكن الذي حدث. ان الأمور التي تكشفت في هذه القضية مؤخراً. لم يكن أحد يتصورها من قبل. وهذا يتطلب اعادة العمل في بعض مراحل القضية. مثل التحريات، والاستجوابات، والحصول على وثائق. كذلك الاتفاق، على من سيقدمون كشهود اثبات. من رجال الامن في هذه القضية. وكذلك سماع أقوالهم. الآن. حتى لا يحدث تضارب أمام المحكمة. بعد ذلك. .

توقف المدير لحظة، نظر في الوجوه حوله. قال انه لا بد وان يؤكد أمراً هاماً. كان من المفروض ان يؤكده في بداية الاجتماع. فهو لم يعقد هذا الاجتماع. لكي يتم الاتفاق على فبركة قضية ما. أو تزوير بعض الأوراق. ولكنه اجتماع من أجل التوصل الى الصيغة النهائية. للقضية التي ستقدم الى القضاء.

لقد دخلوا الى عالم القضية من باب انها مشكلة مواطن يريد الحصول على سكن. وعندما انتابته حالة من اليأس. اقدم على تصرف غير مسئول بهدف العثور على مسكن. وقد اجرينا كافة مراحل التحقيق. على هذا الأساس. وكان الهدف الأول. هو الوصول، الى

لب مشكلة الرجل. ولكن الذي حدث، ان المسألة تطورت خلال التحقيقات.

ووضعنا أيدينا على محاولة لقلب نظام الحكم. وان المليونير وباقي افراد الأسرة، الذين حرصوا ان تكون صورتهم هي صورة الناس السذج البسطاء، المظلومين. ولكنهم في حقيقة الامر اقذار، اشرار. بل خونة بالمعنى العريض لجريمة الخيانة. خيانة الوطن والأرض والتراب. هذا هو التصور النهائي للقضية.

لدينا هنا، اعترافات. ويقال دائماً ان الاعتراف سيد الأدلة. ولدينا شهود إثبات. ولكن الأمر يبقى ناقصاً لكثير من الأدلة. لكي نقدم الأمر الى القضاء. والمطلوب أن ننتهي من هذا الأمر خلال أسبوع واحد من الآن.

توقف المدير عن الكلام. جفف عرقه بمنديل، مغموس في عطور مستوردة، ونظر الى الضباط الذين كانوا يستمعون في صمت. ثم أزاح الملف الضخم، بعيداً. وقال: ان هذا الملف حتى الآن. كان يسمى: ملف القضية. ولكن من هذه اللحظة، لن يصبح ملفاً للقضية. لأن المطلوب ملف آخر. يتمشى مع التصور الجديد حتى تقدم القضية. وهي كاملة من كافة الوجوه.

نحن نعرف ان القضية حساسة وصعبة للغاية. وهي اقرب الى الامتحان لنا جميعاً. ولأنه امتحان. ليس امامنا سوى النجاح مهما كانت الصعوبات. ومن يعرف المستحيُل عليه الا يعمل في عملنا هذا.

كانت كلمات المدير واضحة ومحددة. وبعد فترة صمت، استعاد المدير الملف الضخم من المكان الذي أبعده اليه. أخذ يوزع الادوار الجديدة على رجاله. هناك من اصبح مكلفاً بعمل تحريات على الأسس

الجـديدة وهنـاك من تم تكليفه بـإحضار شهـود الاثبات. والتـأكد من عنـوان إقامتهم. ومن تقـرر ان يسـافـر الى القـريـة التي حضرت منهـا العائلة، من جديد.

ـ القضية أصبحت سياسية.

قال المدير، هذا الكـلام، موضحـاً الأمر للمـرة الألف. كان يعيـد ويزيد ويكرر في الموضـوع مما اشعـر الحاضرين بـأهميته الخـاصة. فـترة الصمت التي أعقبت هـذا الكلام، كـانت قصيرة. قـطعهـا الضبـاط، الـذين رفعوا أيـديهم يستفسرون ويقدمـون اسئلة لا حصر لهـا. حـول القضية. الاسئلة والاجابات. اعادت خلق القضية من جديد. بكل ما جرى فيها من أحداث ومن وقائع.

محضر شرح:

قال المديـر، ان القضية الهـامة التي تشغـل ذهنه بكـل قوة. هي ان الضبـاط الـذين سيقـومـون بهـذا العمل الـوطني والقـومي. لا بـد من اقتناعهم الداخلي. بأن هـذا الرجـل قد قـام بعمل يهـدد نظام الحكم. الذي يدافع عنه الكل فعلاً. ان هذا الاقتناع الداخلي. نصف الـطريق الى الحقيقة.

الضـابط الكبير، يـرفض التعامـل مع مسـاعديـه باعتبـارهم آلات وادوات. ولكن يجب ان تكون هناك قناعة داخلية. بل دوافـع خاصـة من اجل ان يتم هذا العمل.

هذه القضية ستحول الى محكمة امن الدولة العليا. مروراً بنيابة امن الدولة. ولنـا ـ نحن جهاز الامن ـ بعض العنـاصر في الطرفـين. ولكن هناك بعض العناصر الأخرى. التي تعمل ضدنا. وفي هـذه الحالـة. لا بد من تقديم قضية، اكثر من متكـاملة. الوقـائع تسنـدها التحـريات.

والمضبوطات تؤكد الاتهام. وشهود الاثبات يكملون الدائرة حول اعناق عناصر هذه القضية.

ان القضية ستظل واحدة من اهم التحديات. التي واجهتنا في الفترة الاخيرة. ونجاحنا فيها. سيكون دليلاً هاماً. ومؤشراً على النجاح في المستقبل القريب والبعيد.

قال الضابط الكبير: ان الاهتمام بالجزئيات الصغيرة جداً. وبكل جزئية على حدة. يقدم في النهاية قضية تقف على قدميها. وان اهمال أي جزء هنا او هناك. قد يكون مقدمة لأن تتهاوى بعض اجزاء القضية.

اكد الضابط، ان الذكاء في التعامل مع القضية مطلوب. مثلاً. عندما نقدم شهود اثبات. يجب ان نقدم ايضاً بعض شهود النفي. ولكنه نفي من النوع إياه. اي من النوع الذي عندما يحاول ان ينفي تهمة ما. ان يلصق بالشخص تهمة اخرى. اكثر خطورة. من التهمة التي ينفيها.

شرح الضابط ابعاد الموقف. قال ان القضية سياسية. وهذا يتطلب ان يكون هناك جو عام. في اوساط المتهمين معاد للدولة ونظام الحكم. والحاكمين. وهذا يتطلب منا جميعاً النبش في العقول والقلوب والصدور. السياسة تعني الفكر. والفكر يبدأ في العقل. وهذا يجعل المهمة شاقة علينا. البدء من الافكار عند هؤلاء الناس. مسألة ليست سهلة. خاصة واننا نريد العثور على بذرة التمرد في حياة وافكار هؤلاء الناس. من اين نبتت وكيف نمت؟ الحمد لله، لدينا الأرضية الهامة. لبذرة التمرد هذه. وهي حياة الاسرة، في القبور. من السهل ان نقول كل ما نريده عن حالتهم النفسية، وموقفهم ضد الدولة. وضد نظام الحكم. هناك اعتبار آخر يخدمنا جميعاً. وهو وجود أحد ابناء العائلة من

الشبـان الذين يفكـرون. هذا الشـاب بتفكيره سيقـدم لنـا مـادة خـام وخدمة جليلة من اجل العثور على كل مقومات التمرد في هذه الأسرة.

الاسرة تعيش في القبـور، ونحن نعـرف كـرجـال أمن. أن هـذه المنـطقة، يحـدث فيها كـل شيء واي شيء. من السهـل ان نضيف لهم قضايا مخدرات. ودعارة. وتجـارة غير مشروعـة. وتعامـل في العملات الاجنبية. المفروض ان تكون كافة الاوراق في ايدينا. والعيار الـذي لا يصيب. فإنه يحدث حالة من الدوشة. وهذه الدوشة تنفعنا كثيراً.

لن يضرنـا ان يكـون معنـا عـدد ضخم من الاسلحـة. حتى لـو لم نستخدم هذا العدد. فوجود سلاح لا نستخدمه أفضل من عدم وجـود سلاح أصلاً.

محضر تحريات:

اخطر ما وصلت اليه التحريات. قد يبدو أمام الاعـين. أمراً عـادياً ولكنه يعد النقطة الاساسية. التي انطلق منهـا كل شيء. جنـدي الامن المركزي. الذي خلع ملابسـه في الميدان. وانضم الى الاسرة. ثبت من كافة التحريات انه من القرية التي خرجت منها الأسرة من قبل.

كل المطلوب قدر من الخيال. وهو ليس أمراً صعباً. لكي نعيد تخيل ما جرى. ان سينـاريو الانقـلاب يعود الى فـترات بعيدة وربمـا سنوات مضت. ان من يقومون بمثل هذه الأعمال - في العادة - يكون لديهم أكبر قدر من الصبر.

لن نثبت في هـذه الاوراق. التي قد تـطلع عليهـا بعض العنـاصر، خـطة الانقلاب ولا مـراحلهـا ولا الاشخـاص. الـذين كـان مـطلوبـاً اغتيالهم فور نجاح الانقلاب. ولا اسماء الوزراء في الـوزارة الجديـدة. التي كان من المفروض ان تشكل في حالة نجاح الانقلاب.

وفي الوقت المناسب. قد نعلن هذا كله.. مرة واحدة..
اما الآن فمن الصعب ان نعلن اكثر من هذا.

محضر جرد:

تم ضبط الاسلحة الآتية في ميدان التحرير. بالتحديد في المنطقة التي كانت تقف فيها العائلة:

عدد ٢٠ قنبلة دخان
عدد ١٥ بندقية نصف آلية.
عدد ١٠٠ مطواة قرن غزال.
عدد ١٨ مدفع رشاش شيوعي الصنع
عدد ١٥٠ صاروخ كاتيوشا
عدد ٥ مليون منشور مطبوع. يحث الجماهير على الثورة والتمرد.

وعند الهجوم على القبر، الذي تعيش فيه العائلة. تم العثور على مخبأ سري تحت القبر. وان لم يتم جرد هذا الموقع الخطير. خوفاً من انهياره على من ينزل فيه. ولكن تم العثور على الاشياء الآتية في القبر. وفي القبور المجاورة:

- بعض المواد المفرقعة التي تستخدم في صناعة الذخائر. في قبر قريب من قبر العائلة.

- آلة كاتبة غير مبلغ عن ملكيتها رسمياً لوزارة الداخلية. كما تقضي بذلك قوانين ملكية الآلات الكاتبة.

- كميات ضخمة من الاحبار ومن الاوراق. بعضها مستعمل. والبعض الآخر لم يستعمل بعد.

- بعض الآثار المصرية النادرة، وبعض عظام الموتى. ومن المؤكد ان هذه الاشياء لها استخداماتها في المؤامرة. وهذا سيتضح من كشف كافة العناصر والادوار والمراحل.

● آلة اتصال لاسلكي : وجدت لوحاتها مضبوطة على موجات توصل الى الدولة المعادية . وان كانت هذه الآلة قد وجدت في قبر مجاور لقبر العائلة . وهذا أمر مفهوم . لأن العائلة تريد ان تبعد عن نفسها كل ما قد يثير المشاكل . كما انه من الصعب القول ان الموتى الذين في القبر هم اصحاب الجهاز .

● نوتة عناوين : تخص احد ابناء العائلة . يبدو انه يدرس في الجامعة . والنوتة تعكس حالة من الاهتمام بنوعيات معينة من ابناء المجتمع المصري .

● ورقة أخرى . بها عناوين لبعض محلات وسيدات . يبدو انها تخص شخصاً آخر من العائلة .

● طوابع رسمية . للبريد والتمغة .

● نماذج رسمية . تخص احدى المصالح الخاصة بالدولة . ومن الصعب العثور على هذه النماذج . ما لم تكن من داخل المصلحة . ومن الصعب ان تتم المجازفة من أجل الحصول عليها . مالم يكن هناك عمل محدد من وراء احضارها .

ومن المؤكد ان هناك علاقة محددة . بين وجود هذه الأوراق . وبين المؤامرة .

محضر وقائع :

ويبدأ من اللحظة التي تلت محضر الشرح مباشرة . كان من المفروض ان يستغرق الامر اسبوعاً . المدير هو الذي حدد المهلة الزمنية . حتى يعود له الكل ومعه المطلوب منه . بعض الضباط طلبوا مهلة . لأن المطلوب ليس مجرد التنفيذ ولكن الدقة في التنفيذ اهم . ولهذا تعدى الامر عشرة أيام .

وكان الضباط قد تحدثوا عن صعوبة المهمة. قال واحد منهم. ان المطلوب أمر لم يحدث من قبل. أمامنا عائلة تعاملنا معها. باعتبارها مجرد عائلة تبحث عن سكن. واقعة عادية تحدث كل يوم. والمطلوب الآن تحويلها الى عائلة حاولت قلب نظام الحكم. وهي جريمة خطيرة. وستنظر أمام محكمة من نوع خاص.

وافق الضباط الآخرون على ما قاله زميلهم. ولكن الضابط الكبير ضحك في سره. قال لهم انه يرفض ان تكون نقطة البدء في القضية هي التضخيم من حجمها. قال انه كان ضابطاً صغيراً. ويفهم لماذا يفعلون ذلك من الآن. ولكنه يعدهم ان المكافآت على هذا العمل. قد تتعدى مجرد الحصول على اوسمة وانواط. والعلاوات. وقال انه ستكون هناك ترقيات بصورة استثنائية.

ثم توزيع الحاضرين الى فرق عمل. مجموعة للتحريات. لها رئيس. طلب تعديل اسم المهمة. الى مجموعة اعادة التحريات. قال آخر: مجموعة اعادة النظر في التحريات. ولكن الضابط الكبير رفض التسمية الجديدة. خوفاً من ان تستخدم ضدهم بعد ذلك. مجموعة اخرى من اجل اعادة التنسيق، والجرد بهدف العثور على ما يخدم القضية. مطلوب من هذه المجموعة تفتيش القبر من جديد. وكذلك المخزن الموجود تحت القبر. والقبور المجاورة. وان تطلب الاذن بتفتيش بيوت اصدقاء الاسرة. والاماكن التي يعمل فيها ويتردد عليها ابناء الاسرة.

طلب الضابط الكبير، اعادة النظر في كل الموجودين، في ميدان التحرير. في تلك الليلة. وكل من له صلة من قريب او بعيد بالعائلة. قال الضابط الكبير، انه يجب التركيز على شخص مثقف. تم ضبطه في الميدان. وفي التحقيق،قال انه يؤلف رواية عن العائلة. وعما جرى لها.

ضحك الضابط. واكمل ان نصف الشعب المصري يؤلف روايات ويقول الشعر. قال ضابط صغير، ان مشاكل الحياة اليومية. تدفع الناس الى المزيد من الاحلام. وقال آخر، ان ظاهرة الافراد الذين يكلمون انفسهم قد زادت في الفترة الاخيرة.

قرر الضابط ان يتم اجتماع يومي، مع فريق العمل. في السابعة من مساء كل يوم. سأل احد الضباط:

ـ الاجتماع في المكتب أم في النادي؟

رد عليه:

ـ يبدأ الاجتماع في المكتب. ثم نكمله في النادي بعد ذلك.

محضر تمام:

قال الضابط الكبير، لرئيسه. رئيس كل الضباط الذين في بر مصر.

ـ القضية اصبحت جاهزة يا أفندم.

سأله رئيس الضباط:

ـ مائة في المائة؟

ـ الف في المائة.

تساءل الرئيس:

ـ الن يكون هناك مأخذ من هنا أو مأخذ من هناك؟

ـ اطلاقاً يا سيدي.

قال الرئيس:

ـ أتوقع ان يتعدى الامر درجة الاتقان.

قال الضابط الكبير:

ـ نحن نؤصل قواعد وأسسا للاجيال القادمة.

قال الرئيس:

ـ اذن، لن تكون هناك ولو ثغرة واحدة.

اوضح الضابط الكبير:
ـ ان كانت هناك ثغرات ستكون لصالحنا.
سأل الرئيس:
ـ ماذا تتوقع من المحكمة؟
قال الضابط الكبير:

ـ اسمع يا سيدي، من الدقيقة الاولى. في الجلسة الاولى. لنظر هذه القضية الاولى من نوعها في تاريخ هذه البلاد. سيكون قرار القاضي في وضوح الشمس:

ـ تحول اوراق كافة المتهمين الى مفتي الديار المصرية فوراً. وضحكا معاً..

وفي صوت الضحكات، كان اكبر قدر من الصفاء.
محضر خير:

انفض اجتماع الضابط الكبير بمساعديه من الضابط. يرفض هو القول الضباط الصغار. لأن صغير اليوم، هو كبير الغد. وهذا أمر مؤكد ولا نقاش فيه. ولا يجب وصفه بالصغير لأنه قد يتشاءم. وقد يستخدم البعض هذا الوصف ضده في مستقبل الزمان. بعد ان يصبح كبيراً.

دق الضابط الكبير على جرس. استدعى بعض الجنود، فتحوا الابواب. لأن ذلك عمل لا يمكن ان يقوم به واحد من الضباط. ولا يفعله سوى الجنود، فتحوا الابواب حتى يخرج الدخان الذي انعقد على شكل حلقات في جو غرفة الاجتماع. كان من الصعب فتح الابواب والنوافذ خلال الاجتماع لأهمية وربما خطورة ما قيل فيه من الاسرار والحكايات والكلمات. ربما تتسرب الى جهة أو هيئة اخرى. قد تسأل وهل تخشى قوات الامن على اسرارها؟ وهذا حادث بالفعل. لأنه ما

اكثر جهات الامن في البلاد. وما اكثر ما تفعله ضد بعضها.

خارج القاعة، حاول الضابط ان يجعل من علاقات العمل. علاقات اخرى اكثر انسانية. قرر ان يوجه الدعوة لعدد من الضابط لتناول طعام العشاء في النادي. خاصة وان ذلك سيخدم العمل. طلب من بعض الضباط الانتظار في مكاتبهم بعض الوقت. قد يحتاجهم بعد قليل: سرت حالة من الدهشة في الوجوه. لم يعرف الآخرون. ماذا يدور في ذهن الضابط الكبير. ذهبوا الى مكاتبهم. وكل منهم يخمن: ما هي الحكاية بالضبط؟

البعض قال، انه سيتصل بالقيادة السياسية العليا. لكي يبلغ نتائج الاجتماع. وقد تصدر له بعض الاوامر الجديدة. وفي هذه الحالة سيعودون الى الاجتماع من جديد. البعض الآخر. اكد ان هناك مفاجأة سارة. يحاول الضابط الكبير الحصول عليها من أجلهم.

قال ضابط. ان الرجل يحاول الحصول لهم الآن. على بدل جديد، هو بدل الضمير. صحح له زميله الجملة. قال انه يحاول الحصول على بدل اسكات ضمير. الذي قد يتحرك في هذه الظروف.

قال آخر، انهم بعد الاستراحة القصيرة. ستحضر لهم الاوراق الجديدة، وفيها التصور الذي تكلموا عنه حول القضية. لكي يبدأ العمل من جديد.

في مكتبه الفخم المكيف، قال الضابط الكبير، انه يفضل الانفراد بنفسه، خرج الباقون وظل وحده، أمسك بسماعة التليفون بعد ان استراح في الكرسي الوثير. المتحرك بصورة آلية. والمغطى بريش النعام. والمستورد له خصيصاً من خارج البلاد.

اتصل بالنادي، سأل عن الطعام الموجود لديهم الآن. سيدعو كل

الضبـاط الذين حضروا الاجتـماع معه الى حفـل عشاء. سـأل الضابط الكبير نفسه. وهل يوجد بند في الميزانية يمكن تحميل العشاء عليه؟ ان لم يجـد. هناك البنـد الذي يتحمـل كل شيء واي شيء. بنـد المصروفات السرية. تساءل: ولكن ما دخل العشاء بالعمل في هذه الحـالة؟ عشـاء عمل. اجتمعت الكلمتان فانبثقت الفكرة في ذهنـه مرة واحـدة. عشاء عمل. شكل جديد وغير تقليدي للعمل.

كان المسئول عن النادي لا يـزال على الخط، ينتـظر كلمات الضابط الكبير:

ـ هل عندكم جمبري؟

أتاه الرد بـالاعتذار، ثم النفي. سـأل عن الاستاكـوزا، وعن كمية ديوك الرومي الموجودة، وعن الحمام المحشي. وفي كل مـرة، كان مـدير النادي يعتذر ويقول ان الطلب غير موجـود الآن. ولكن عندمـا ظهرت ملامح الغضب في نبرات صوت الضابط الكبير. قال مدير النادي. انه عـلى الرغم من عـدم وجـود هـذه الاصنـاف الآن. الا ان تجهيـزهـا. واعدادها. لن يكون صعباً ولا مستحيلاً.

سأل الضابط. بعد ان استراحت نفسه:

ـ وكم يستغرق اعدادها من الوقت؟

قال مدير النادي:

ـ ساعتان فقط. لاحضارها وتجهيزها واعدادها.

كان صوت مدير النادي أكثر بهجة:

ـ ساعتان ويكون الطعام على المائدة..

كل ما طلبه. ان يكون معـه احد الضبـاط. الذين لهم عـلاقة بعـالم التمـوين. حتى يكون الحصـول على الكميـات والانـواع سهـلا. كـان الضابط الكبير سعيداً. شعر بحالة من الصفـاء لم تحدث لـه منذ فـترة.

قال له، ان الضابط الذي يطلبه سيكون في الطريق اليه الآن. ومعه قائمة بالطلبات، وعدد الضباط الذين سيتناولون الطعام. طلب من مدير النادي اخلاءه من الآن. لأن العشاء سيتخلله بعض العمل. والذي يتطلب قدراً من السرية.

فعل الضابط الكبير هذا. حتى تبدو الأمور متمشية مع المنطق. ارسل الضابط الكبير في طلب باقي الضباط. حضروا جميعاً. وهم يرغبون في معرفة ما يجري. قال لهم جميعاً. وهم وقوف في مكتبه. ان هناك مفاجأة لم تحدث من قبل. ولن يقولها الآن. لأنها لا تخطر على بال أحد. ولكنه يطلب من الكل فقط الالتقاء في النادي بعد ساعتين من الآن.

يمكن للضباط. الذهاب الى بيوتهم لأخذ راحة ورؤية الاولاد. والمرور على عباد الله المخلصين. واخد حمام من المياه المعطرة. والتأكد ان الامن مستتب والامور على خير ما يرام. والعودة الى هنا. بعد ساعتين.

انصرف الضباط. . ركب كل منهم سيارته. وان كانت قصة العشاء، والبحث عن أصناف نادرة من الطعام قد تسربت الى الكل. ضابط صغير. قال ان الضابط الكبير معه حق. خاصة في اختيار انواع نادرة من الطعام. والاهم من ندرتها ان اسعارها ترتفع بصورة خيالية في الفترة الأخيرة. لقد اختار الضابط الكبير. الطعام الذي يخف وزنه ويرتفع ثمنه وله قيمة غذائية جنونية خاصة لمن تعدى الأربعين من العمر. وله زوجة، وله صديقة وله عشيقة.

تساءل الضابط الصغير. كيف يتمكن موظف عادي. يحصل على مرتبه فقط من تناول وجبة من الجمبري. كان السؤال وجيهاً. لأن ثمن كيلو الجمبري وصل في الفترة الأخيرة الى اثني عشر جنيهاً. قال له

آخر: ان افضل طريقة لاعداد الجمبري هي شويه على الفحم بعد تركيبه في سيخ من الحديد. وان الثلاثة جمبريات تزن كيلو. كان هذا الضابط حزيناً لأن الجمبري المشوي، لا يقدم سوى في فنادق الدرجة الأولى فقط. اما النادي. فهو لا يقدم سوى الجمبري من الدرجة الثانية. حيث تزن كل عشرين واحدة كيلو. ويقليه في الزيت.

تفرقوا على اساس اللقاء في النادي بعد ساعتين..

محضر عدالة:

ـ محكمة.

ينطق الصوت بهذه الكلمات المهيبة. وترن الكلمة في فضاء القاعة.. قبل ان يدخل القاضي. ولأن القضية احدى قضايا امن الدولة. فإن الجلسة تنعقد في مكان يوحي بالضخامة.

نطق الصوت بالكلمة. فرن رجع صداها في كل مكان. لأن القاعة كانت مبطنة بالخشب المستورد من البلاد البعيدة. اصطدم الصوت بالجدران وعاد الى الأرض. فكان له رنين مضاعف.

نطق الصوت. فبعث رعشة الى القلوب. قالها الحاجب. ولحظة نطقه لها. همس اكثر من فرد للجالس بجواره، ربما كان هذا الحاجب من سكان القبور ايضاً. من يدري؟

المؤلف لا يريد الحديث مطولاً عن هذا المشهد. أولاً لأنه مشهد مكرر ومعاد وتقليدي في الرواية المصرية. حدث اكثر من مرة من قبل. وثانياً: لأن نهايات الرواية بعضها افتراضي. اي لم يحدث في أرض الواقع فعلاً. وحكاية تعدد البدايات. واختلاف النهايات لعبة من المؤلف..

ومع هذا يقول المؤلف. ان المشهد جرى كالتالي..

دخل القاضي، شخص متعب، مكدود يعرج بصورة خفيفة بقـدمه اليمنى. والنظارة التي على عينيه سميكة. ومعه من سيجلسون على يمينه ومن سيجلسون على يساره. دخل ممثل الادعاء. شاب يدمـره طموحـه الذي يأكله من الداخل. يتفتح. وتنطلق من وجهـه حالـة من الحيويـة النادرة. وفي القفص كان افراد الأسرة. البعض يقف. والبعض الآخر يجلس. والكل لا يصدق التطور الذي وصلت اليـه الأمور مؤخـراً. ان اللعب عندما ينقلب الى جد. تصبح المسألة مأساوية.

وفي القاعة الواسعة، كان هناك. الابـطال، والذين ليسـوا ابطالاً. القتلة والضحـايا. شهـود الاثبات وشهـود الاثبات وشهـود الاثبات. ، شهود الزور والشهود المستأجرون. وشهود النفي الـذين يقدمـون نفيـاً يؤدي الى الاثبات. المحـامون المنتدبون. والحراس. وعدد ضخم من اعضاء نادي المتفـرجين المصريـين. وهو اكـبر النوادي المؤكـدة في مصر كلها. عضويته سهلة. لا تقود الى أيـة متاعب. والفـرجة ـ والحمـد لله من قبـل والحمد لله من بعـد ـ ليست عملاً متعبـاً ولا تترتب عليـه أيـة مشاكل مهما. . كان الأمر الذي تتفرج عليه.

كـل طرف لـه دوره في هذه القضيـة. أقصد اللعبـة، التي لا يعرف أحد كم مرة تكررت من قبل. ومن فـوق الكل. تـطل رموز العـدالة. الميزان المقدس الذي لا يميل في أية جهة من الجهـات ابداً. وتحتـه المرأة المعصوبة العينين.

مشهد مهيب ومؤثر. يخطف الابصار ويشد الانتباه حتى الابهار وهو مشهد يصلح لأن يكون نقطة البداية ونقطة النهاية معاً. يقدمه المؤلف ـ من الآن ـ لكـل من يفكر في تحـويل هـذه الـروايـة الى فيلم سينـمائي. والمؤلف يقـول لمن يفكر في هـذا. ان الفيلم سيبقى في دور السينما الف

اسبوع واسبوع . وبهذا يتفوق على شهرزاد التي لم تصمد حكاياتها سوى الف ليلة وليلة فقط .

نعود الى القاعة من جديد . الكل جاهز والجلسة علنية . ولم يطلب احد من الجهات المشاركة في اللعبة . ان تتحول الى السرية . تركنا القاعة، والكل وقوف . لحظة دخول هيئة المحكمة . يجلس القاضي . ويمد يديه للحاضرين فيجلس الجميع . وبعد الجلوس . تكون حالة من الصمت المهيب . لدرجة ان كل فرد يمكنه سماع صوت تنفسه .

يقول القاضي :

ـ باسم الشعب فتحت الجلسة . .

ويقول للحاجب بصورة تقليدية :

ـ نادي على القضية الأولى . . .

٦

عنوان هذا الفصل طويل يقول:

الكاتب المصري، الذي جلس القرفصاء أربعين
قرنا من الزمان. يقوم بالرحلة الخرافية. بحثاً
عن المصري الفصيح الذي اشتكى.
ولكنه يقع بين ثلاث جمل:
نوم الأغنياء، أرق الفقراء
وتلك الدولة التي لا علم لها سوى حماية النوم من الأرق

فكر المؤلف اكثر من مرة، في حذف هذا الفصل من الرواية. وكانت لدى المؤلف أسبابه الكثيرة لحذف الفصل أهمها، انه موجود في الرواية، بناء على افتراض يبدو المؤلف انه غير متأكد منه. حتى اللحظة الأخيرة. هذا الافتراض، خاص بنشر الرواية. هل نشرت في مصر أم خارجها؟ الأمر ليس بسيطاً والفارق ضخم بين الحالين. ولأنه من الناحية الواقعية. فإن هذا الكلام تتم كتابته قبل نشر الرواية. ولا يمكن كتابته بعد نشرها.

هنا لا بد من الافتراضات، مع انه من الصعب ان يتم بناء فعل روائي على عدد من الافتراضات، التي لا يمكن التأكد منها. سنفترض معاً. ان الرواية نشرت في مصر. وسنفترض في نفس الوقت انها نشرت

خارج مصر. لاستحالة نشرها فيها، في ظل الظروف الراهنة.

مع ان المؤلف يتصور ان لعبة الديموقراطية، وجدار الأمان الذي توفره حالة الأمية في البلاد. يمكن ان يسمحا بنشر مثل هذه الرواية، في مصر. فهي حرف مكتوب لاخطر منه. في ظل قلة عدد من يقرأون، ثم انها كلام مكتوب لم ينطلق بعد الى دنيا الفعل. ومن سيتعاملون معها. ينتمون الى تلك الفئة التي تفكر وتقول وتكتب. ولكنها لا تفعل أبداً.

من أين يأتي الخطر اذن؟ انها رواية وليست محاضرة في مدرج بإحدى الجامعات وسط حشود الطلاب. رواية وليست ندوة عمالية في مصنع، مجرد رواية وليست محاولة للنزول الى الفلاح في حقله. ومع هذا من يبدو متأكداً من اي شيء في هذه الأيام؟

يقول المؤلف. انه دفعه الى وجود هذا الفصل، سبب آخر. هو العذاب الذي عانى منه المؤلف في الفترة الاخيرة. عذاب اليقين من وجود القارىء أصلاً، الذي يكتب له ومن أجله. هل هذا القارىء موجود؟ سؤال صعب. ولكن المؤلف لديه تصور ان هذا القارىء لا وجود له أصلاً. وان كان هناك اثر له فقد اخذته وسائل الاعلام.

عندما خطط المؤلف لروايته. كان ينوي ان يقدم مخطوطها. لعدد كبير من القراء. من قطاعات مختلفة. وان يدون هنا آراءهم. حتى التي ضد الرواية. وقد قدم الرواية الى عدد منهم فعلاً. وما أثار دهشة المؤلف. ان كل من قرأ الرواية، كان منزعجاً. من الصورة التي تقدمها الرواية.

كان المؤلف يحزن ويفرح في وقت واحد. يفرح لأن الصورة التي يقدمها للعصر صادقة لدرجة الازعاج. ويحزن، لأن الناس رغم

ادراكها صورة العصر. فهي عندما تجد نفسها في مواجهة هذه الصورة، من خلال عمل فني، ترفض هذه الصورة.

طبعاً، هناك عدد من الذين أخذوا الرواية. وقالوا انهم قرأوها. وقالوا الكثير من الآراء حولها. وان كان المؤلف يدرك كذبهم.

ها هو الجزء الأول من الرواية في الاسواق. وفي يد المؤلف. شارع خيرت، السيدة زينب، النسخة الأولى منها. يتساءل: اين الطرب والفرح والغبطة؟ اين السعادة. حاول العثور على شعوره. وجد ان نفسه صافية من الداخل. حاول معرفة ان كان هناك من يراقبه. تساءل: ان كانت الدولة ستسبب له المزيد من المتاعب. بعد صدور هذه الرواية. تذكر ما كتبه في أوراقه بعد صدور روايته السابقة. قال: سأصبح من اليوم جزءاً من فرح هذا العالم وحزنه. روايتي، هذه، ستشق قشرة عالمنا، لتخرج بذره الجديد.

في اليوم الأول. لطرح الرواية مع الباعة، قام المؤلف بجولة واسعة في المدينة، مر على باعة الصحف واصحاب الأكشاك في القاهرة فقط. شركات التوزيع تطرح ٩٠٪ من الكتاب في القاهرة والاسكندرية وحدهما. ما تحصل عليه الاسكندرية نسبة شديدة الضآلة. صدق من سمى القاهرة. مدينة مصر.

حاول المؤلف ان يعرف كيف تجري الأمور في سوق الكتاب. والنوعيات التي تقرأ الأدب في هذه الأيام. قرر ان يسأل كل بائع عن الكمية التي سلمت له والتي باعها من الرواية.. كان المؤلف يتصرف وكأن الدنيا كلها. ليس لها اهتمام سوى بروايته. وان الكون توقف عند لحظة صدورها. كان المؤلف يتصور ان كل من نزل من بيته مبكراً هذا الصباح، إنما نزل بحثا عن نسخة من الرواية. كل اثنين شاهدهما المؤلف يتكلمان. تصور ان الحديث عن الرواية. وما فيها من هموم كل

الناس. توقع المؤلف ان يقرأ في صفحة الحوادث من صحف الغد. ان مواطناً مات بالسكتة القلبية. من هول مفاجأته بأحداث بلده. والتي وصلت الى درجة ان يبيع الانسان نفسه في ميدان عام. توقع المؤلف ان يحرق قديس نفسه احتجاجاً على حال هذه الأسرة. وفداء لها عن العذاب الذي مرت به.

لم يستبعد المؤلف ان تفتح احدى الجرائد اليومية، المولعة بالاثارة، باب التبرع لانقاذ هذه الاسرة. وقد تزورها ليلة القدر، من خلال صحفي شاب، من كائنات هذه الايام. ويقال، ان ليلة القدر، التي هي خير من الف شهر. فتحت ابوابها لهذه الاسرة البائسة. وقد تتدفق التبرعات من محلات الحلوى، ومكاتب التصدير والاستيراد، ومعارض الأثاث، وشركات بناء الاسكان الفاخر. وكلها مستعدة لمساعدة الاسرة، في حل مشكلتها، بشرط ان يعلن عن هذا بوضوح. وفي مكان بارز، وفي الصفحات الأولى. وان يكون الاعلان تحريراً. وبذلك تضرب هذه الشركات اكثر من عصفور بحجر واحد. تعلن عن نفسها. وتحصل على اعفاءات من الضرائب ومن الرسوم الجمركية. لأنها تقوم بنشاط اجتماعي فريد داخل البلاد.

كانت البداية أمام مبنى المصالح الحكومية في مجمع التحرير. وجد المؤلف نفسه أمام المشهد الذي سبق ووصفه في روايته. امرأة يبدو انها تعمل راقصة. عرف هذا من ملابسها وطريقة تحريك اجزاءجسمها. وقفت في مواجهة المبنى. بعد قليل قابلت شخصاً. يبدو انه يقوم بعمل الزوج للايجار. بدا الأمر للمؤلف وكأنه يحلم. جزء من روايته يحدث أمام عينيه. كما صوره تماماً.

اقترب المؤلف منهما اكثر، حاول ان يعرف تفاصيل الحوار. اكتشف انهما يتعارفان أرسلهما المكتب الى هنا. قبل الدخول، تحاول معرفة

اسمه، وان يحفظ هو اسمها حتى لا ينكشف الامر في الداخل. كانت وثيقة الزواج معها. اخرجتها من حقيبة يدها. واعطتها له. قالت ان المكتب طلب منها تقديم هذه الوثيقة له. مع الاقرار الذي سيوقعه بالموافقة لها بالسفر.

قال المؤلف لنفسه، ان الأمور تتدهور بسرعة مخيفة. من قبل، كانت هناك حالة من الحفاظ على الحد الأدنى من الشكليات. كان الزوج للايجار والمرأة التي تطلب الخدمة يذهبان الى مكتب المأذون معاً. ولكن المكتب استغنى حتى عن الذهاب الى المأذون. ربما كان ذلك نتيجة للزيادة الهائلة في العمل. ما المانع من احضار عدد من الوثائق الجاهزة اصلاً.

نظر الرجل في وثيقة الزواج. وعاد يسأل المرأة عن اسمها بالكامل، قالت له:

- أمامك في الورقة.

قال لها بغضب.

- هل قالوا لك انني أستاذ؟

ردت عليه:

- ومن قال انني أفك الخط؟

جاولت ان تذكر له الاسم، وحاول هو ان يكرر اسمها. ولكنهما فشلا في حفظ الاسمين. قال المؤلف. انه في ظل التدهور الحاصل. فإن الكثير من ملامح الواقع تضيع، قال ان المشهد الذي وصفه في روايته، كان أفضل من هذا.

انتبه المؤلف، على صوت الرجل يطلب من المرأة، ان تشتري من الكشك القريب نوتة، يدون لها أحد فيها بياناتها، قبل الذهاب الى

المكتب. بدت الفكرة قريبة من العبث، ما داما لا يعرفان القراءة او الكتابة. ما جدوى كتابة الاسمين. ذهبت المرأة في حركات راقصة الى الكشك. عادت لتقول للرجل، ان الموجود في الكشك جرائد ومجلات وكتب. أما النوتة والورق الأبيض. لا بد من عبور الميدان الى الناحية الأخرى.

كان الرجل متعباً. ولم تكن لدى المرأة أية نية للعبور. فطلب منها شراء كتاب. يدون فيه الاسماء والبيانات والعناوين. اتجهت المرأة من جديد الى الكشك ثم سألته من هناك، عن الكتاب الذي تشتريه. رفع صوته. وقال لها:

أي كتاب والسلام..

أكمل بعد لحظة صمت قصيرة:

المهم ان تكون فيه صفحات بيضاء نستخدمها في الكتابة.

اخذت واعطت في الكلام مع صاحب الكشك. كاد الأمر ان يصل لحد العراك. ثم تحولت الكلمات ذات الصوت العالي. الى همسات ووشوشات. بين الراقصة وصاحب الكشك أدرك الزوج المعد للإيجار ان المرأة تحصل على موعد منه. وانها لا تضيع اي وقت. عادت له وهي تشتم البلاد التي أصابت الاسعار فيها حالة من الجنون.

ـ الكتاب الوحيد الذي له صفحة بيضاء ثمنه جنيه.

تساءل الزوج للإيجار:

ـ جنيه؟!

اكتشف انه لا يوجد معه مليم. ولم يكن معها أيضاً. قبل أن ينطق، قالت له، إنها لن تشتري الكتاب، مهما كان ثمنه منخفضاً. لأنهما ـ والحمد لله ـ لا يعرفان القراءة أو الكتابة. فكرا في الاتجاه لأحد

العرضحالجية. فتحت حقيبتها. جعلت فتحتها ناحية الأرض. فلم ينزل منها شيء. مدت صدرها ناحيته. قالت إنها لا تملك سوى هذا ثمناً للكتابة. وقد يكون العرضحالجي عاجزاً فلا ينفع حتى هذا الصدر.

ويبدو أن صاحب الكشك، كان قد قرر أن يعطيها نسخة من الكتاب على الحساب ما داما قد اتفقا. نادى عليها. وسلمها نسخة من الكتاب. أخذته وعادت إلى الزوج للإيجار ومعها الكتاب.

في هذه اللحظة، شاهدا المؤلف معاً. اقتربت الراقصة من المؤلف. وعطر رخيص يسبقها. نظر لها المؤلف. طلبت منه أن يدون لهما الأسماء. أخرج قلمه في هدوء. نادت على الزوج للإيجار. وقفا حوله. هي من ناحية، وهو من ناحية أخرى. كان المؤلف في وسطهما تماماً. دهشة المؤلف وصلت لذروتها عندما أمسك بالكتاب، فاكتشف أنه الجزء الأول من روايته.

طلبت منه أن يدون في أية ورقة من الكتاب البيانات الخاصة بها. فكر المؤلف في أن يسألها: ولم اختارت هذا الكتاب بالذات؟ تذكر انه سمع الإجابة من قبل. فكر أيضاً. أن يطلب منها فرصة العودة إلى نفس مشهدهما، الذي وصفه في الرواية. وهما يعيشانه الآن. بكافة تفاصيله الدقيقة، فتح الرواية، آه لو عثر على نفس المشهد بالذات، الآن. قبل أن يتمكن من العثور على الفصل الذي يوجد فيه المشهد. صاحت فيه:

ـ المكتب له مواعيد.

نظر إليها، فأشارت للرجل:

ـ وهذا الرجل أجره بالساعة.

الرجل أجره بالساعة، رنت الكلمة في ذهن المؤلف، فتح الكتاب،

في صفحة بيضاء. كتب. اكتشف أن الصفحة ليست كلها بيضاء. كان مكتـوب في ذيـل الصفحـة، من النـاحيـة اليمنى، نصيحـة المصري الفصيح، التي تطلب من كـل مصري، أن يخفض رأسه، لأن الـرأس المرفوع يشقي صاحبه، اكتشف في هذه اللحظة، انه محني الرأس، وأن رأسـه قد اقـترب أكثر من الأرض، وانـه من كثرة انحنـاء رأسه، فـإنـه يوشك أن ينكسر.

فكر: مكسور الرأس، تعبير جـديد. من قبـل كان يقـول: مكسور الجنـاح، والآن يقول: مكسـور الرأس. هنـاك فارق بـين التعبـيرين. انكسار الجناح يجعل الإنسان عاجزاً عن مجرد التحليق والطيران. ولكن من يفكر في التحليق عندمـا يكون مكسـور الرأس. إن كـل مطالبـه لا تتعدى أن يعيش فقط والتحليق يبقى طموحاً لا يمكنه مجرد التفكير فيه.

كتب بيانات المرأة، ثم بيانات الرجـل، وقدم الكتـاب للمرأة، التي خطفته من يده وهي تستدير متجهة ناحية المبنى. لم تشكـره على مـا قام به. سألها المؤلف عن مصير الكتاب:

ـ ربما أخذه الموظف بدلاً من علبة السجائر.

قالت إنها تخشى، ربما كـانت السجائـر أهم للموظف من الكتـاب، عمـوماً إن رفضـه الموظف، ستعـطيه لتـاجـر الـروبـابيكيـا في البيت. استـدارت وتوقفت. ابتسمت لأول مـرة للمؤلف. قالت لـه، إن كـان يريد الكتـاب. عليه الانتـظار هنا، لحـين عودتهـا. والكتاب وصـاحبة الكتاب تحت أمره. وهي تعرف، انه يطلب صاحبة الكتاب.

غمـزت له بعينهـا وهي تستديـر، ساحبـة الزوج لـلإيجار وراءهـا. متجهة إلى مبنى المصالح الحكومية

أغلق المؤلف قلمه، قال لنفسه:

ـ راقصة وزوج للإيجار.

مط شفتيه، ضرب كفا بكف:
ـ بداية غريبة. ولكنها مصر..

كان حزيناً، ولكنه أدرك، انه هو الذي بدأ هذه اللعبة، تعجب من نفسه، لماذا يغضب والمشهد كله، يعد حالة مكررة، لما جرى في روايته؟ تساءل: عن الذين استغربوا وجود هذا المشهد في الواقع، قال لنفسه: أين هم، حتى يشاهدوا بأنفسهم الراقصة والزوج للإيجار؟ شعر بغضب بسبب ما جرى لنسخة روايته. قال لنفسه: إنه السبب، لأنه اختار هذا المكان نقطة بدء للبحث عمن سيشترون الرواية. قال إنه كان المفروض أن يبدأ بصديقه الناشر والموزع ابن البلد. عجب من نفسه، كيف غاب عنه أن يبدأ به. واتجه إليه فوراً..

وقف بالقرب من ابن البلد. الذي كان ناشراً من قبل، وهو الآن موزع فقط. وصل إلى قناعة تقول: ان توزيع الكتاب أكثر ربحاً من نشره. يتمنى أن تكون في البلاد حركة نشر ضخمة. فهذا يروج التوزيع عنده. سلم عليه، وقف بجواره. حاول أن يربط خيط الحديث. أن لا يبدأ من السؤال عن الرواية، أن يعود معه إلى رحلة البحث عن ناشر لروايته. قال له، إنه لا ينسى أن موقفه معه. كان أفضل موقف في رحلة البحث عن ناشر لشكاويه. كان الرجل واضحاً وصريحاً منذ البداية.

هنأ ابن البلد المؤلف على صدور هذا العمل الشجاع. قال له، من الصعب نسيان شجاعة هذا العمل. منذ أن عرف موضوع الرواية منه، عندما حضر إليه، يطلب منه نشره. قال له المؤلف إنه نشر الرواية أخيراً. ونسخها توجد لديه الآن. رد عليه ابن البلد. ان الرواية وصلته صباح اليوم، ودون الرجوع إلى أوراق. قال له من الذاكرة، إنه وصلته من الرواية ١٥ نسخة فقط. بيع منها حتى الآن ١٤ نسخة.

والباقي نسخة واحدة. طلب منها مائة نسخة أخرى يتمنى أن تصله اليوم. خجل المؤلف. كان يتمنى أن يسأله عمن اشترى النسخ التي بيعت. شعر المؤلف بحالة من السعادة. لم تدخل قلبه منذ سنوات مضت. شعر أن القلب قالب من الزبد، وأن الزمن صفا، والأيام أصبحت جميلة. الكمية قليلة، ولكن أن يباع هذا الرقم القليل، في هذا الوقت، فتلك مسألة تصل إلى الأحلام. قال لصديقه انه يود الجلوس عنده حتى تباع النسخة الأخيرة، لأنه يريد معرفة نوعية من يقرأون الروايات. رحب به ببساطة، قدم له مقعداً بدون مسند. وطلب منه أن يسند ظهره للحائط.

وهو يجلس، قال ابن البلد:

ـ جميل أن يكون هناك حائط يسند ظهر الإنسان..

أوجعت الكلمات قلب المؤلف. قال لنفسه: لم يبق سوى الحائط الذي يسند ظهر الإنسان في هذه الأيام العجيبة. كلمات مؤلمة. ولكنها الحقيقة. ربما سند الحائط ظهره، أكثر من أي إنسان آخر. طلب له كوب شاي من بوفيه. يعمل بالقرب منه. وأخرج علبة سجائره، قدم له واحدة منها. مع الاعتذار لأن السجائر مصرية الصنع.

شعر المؤلف بخجل. جلس يدخن ويشرب الشاي. ويشاهد من يقفون ويمشون. ومن يتوقفون طويلاً أمام الكتب. كانت أكثر الأسئلة عن مجلات الموضة والأزياء، وكتب الحظ والفلك والتنجيم. والغريب، أن معظم مجلات الموضة وتفصيلات الملابس قد نفذت. وهناك سؤال بلهفة، إما عن موعد صدور العدد الجديد، أو إعادة طرح كميات جديدة من العدد الذي نفذ.

كل الذين حضروا. لم تمتد يد واحد منهم إلى الرواية. كان المؤلف قد تحول إلى عينين لا تشاهدان سوى النسخة الوحيدة من روايته.

وكانت الأيادي تمتد وتقلب إلى أن تصل إلى مكـان الرواية. ثم تتوقف عن التقليب إلى أن امتدت يد. ولأن عينـا المؤلف. كانتـا مركـزتين عن الرواية، شاهد أصابع اليـد تمسك بـالروايـة، الأظافـر طويلة مـدببة، مغـطاة بلون أحمـر صـارخ: يتحـدث عن عجـز الـرجـال في زمـاننـا. والأصابع طويلة، جميلة وبيضاء. لم يدر المؤلف إن كانت اليد اليمنى أو اليسرى. ولكنها كانت خالية من الدبل. يبدو انه يوم المفاجآت.

امتدت نظرات المؤلف. شاهد فتاة. أخذت نسخـة الروايـة ووقفت وأخذت تتفحصها.نسي المؤلف موضوع الرواية.ومن يشتري الرواية.نظر إلى الفتـاة. طويلة مثـل عود السرو، ولـدت في أيام الـرخاء. قبـل أن يصـل القحط إلى الـبر كله. ويـأكـل الأخضر واليـابس، ولـدت في السنـوات السبع السـمان، قبل أن تـأكلهن السنوات السبع العجاف. وقد يزداد عدد السنوات العجاف عن السبع. رآهـا. باعتبـارها أجمـل نساء الأرض. وكانت جميلة فعلاً القدم يـدوس على الأرض، والـرأس يرفع السماء فوقه. الرموش تغطي فدانا من الأرض البراح.

تساءل المؤلف: هل تأخذ الـرواية؟ اقـترب منه المـوزع، جف حلق المؤلف. خشي أن يعرفه عليها. كان يفضل أن يبقى في ذهنها مجرد معنى غامض ولكن من هي: طالبة؟ موظفة؟ زوجة تعاني من الملل؟ عاشقة؟ إن كتابه أسعد حظاً منـه. يتسلل إلى حياتهـا الخاصـة. وسيعرف مـا لا يعرفه هو عنها.

ضحك الموزع:

ـ ستقرأ الرواية هنا..

لم يعلق المؤلف. ولكنه خاف أن يأخذ الكتاب منها. قلبت الكتـاب أكثر من مرة. وقعت عيناها على السعر. فوضعت الكتاب مكـانه بكـل عناية. هـل معقول أن هـذه الفاتنـة فقيرة.؟ المؤلف مستعـد أن يهديهـا

هذه النسخة من الرواية. كانت تمشي ببطء. ومع هـذا ذابت وسط نهر البشر المتحرك.

نظر له الموزع. صديقه ابن البلد. وكأنه يعتذر له عما جرى. وقالت له نظرات المؤلف. أن الأمـر لا يستحق الاعتذار. ولا حتى الإيضـاح، فهو بن هذا الوطن. ويعرف الكثير عن الناس هنـا. ربما كـانت مشكلة المؤلف انه يعرف أكثر مما ينبغي.

طـالت الجلسة، ولا أحـد يمد يـده للروايـة. إلى أن وقفت سيـارة، كانت تتهادى في الشارع كالسفينـة. سيارة ضخمـة. لم يشاهـد المؤلف أضخم منهـا من قبل. تهـتز وتتمايـل وهي تسير ببطء. الـزجـاج غـامق ولونها بني. وقفت في منتصف الميدان. قـال المؤلف لنفسه، ربمـا كانت سيارة مسئول ما. . بعد وقـوفها: نـزل الزجـاج الخلفي. وأطل عقـال أحمر. وتحته وجه جلده مشدود على العظم. وفوق العنين نظارة سوداء. وخرج الصوت عالير:

ـ يا حاجي، هات لنا الجديد، بالله عليك.

جرى الحاج، أخذ عدداً من الكتب الجديدة، وسار ناحية السيارة، ولكنـه وقف في منتصف المسافـة، ثم عـاد وأخـذ النسخـة الأخـيرة من الـرواية. ابتسم للمؤلف. وهـو يضعها فـوق صف الكتب. ويقـدمه للرجل من نافذة السيارة. الذي أخذ الكتب ثم ارتفع زجاج السيـارة. وتهادت في الشارع بنفس البطء وهي تتمايل. كالسفينة في نهر النيل.

عـاد الحاج إلى المؤلف. وقـال لـه ان النسخـة الأخـيرة من الـروايـة أخذها أمير عربي. سأله المؤلف عن ثمن الكتب. لماذا لم يحصل عليـه؟ ضحك الحاج وقال له، إن سمو الأمير لا يمكن أن يشغل نفسه بمثل هذه المسـائل التـافهـة، إنـه يـأخـذ الكتب ويمضي. أمـا الحسـاب والثمن، فيحضر موظف من الدائرة ليحاسب عليهـا. كل شهـر تقريبـاً. سألـه

المؤلف إن كان سمو الأمير يقرأ فعلاً. هل يجد لديه وقت للقراءة. ضحك الحاج. وقال إنهم يمثلون ثلاثة أرباع من يشترون الكتاب في هذه الأيام. وهم نوعان. هناك من يشتري من أجل القراءة فعلاً. خاصة وانهم بدون هموم أو مشاكل. وهذه الكتب تتحدث عن واقع غير واقعهم. والذين يقرأون بجدية هم الغالبية منهم. وهناك نوع آخر. يشتري الكتب. لأن أثاث قصورهم، والذي تم تصميمه في أوروبا. أتى وبه مكتبة. ولا بد من وجود كتب في هذه المكتبة. بدلاً من تركها فارغة. وهؤلاء يختارون الكتب الضخمة الحجم، المجلدة بصورة فاخرة. المكتوب عليها من الخارج بماء الذهب.

كثيرون من ابناء الطبقة الجديدة في مصر. يحضرون اليه. ويطلبون كتباً بهذه المواصفات. ويقولون ان دولاب المكتبة في البيت بدون كتب. ولا بد من وضع كتب فيه. أما سمو الأمير. الذي اخذ الرواية الآن. فهو يقرأ. وعندما يحضر احياناً في آخر الليل، فهو يناقش الحاج في بعض ما قرأه له. والمناقشة تكشف عن ثقافته.

قال له الحاج، انه محظوظ، وربما فتحت له طاقة القدر، ذكره ان الوقت ليس في رمضان. سأله ان كان لا يؤمن بالمعجزات. لم يرد المؤلف. قال الحاج، ان سمو الأمير. ان اعجبته الرواية. وسأل عنه. ربما اخذه معه الى الامارة. وهناك يصبح مستشاراً لسموه. اربع سنوات تحل له كافة مشاكل الأربعة عين. سأل المؤلف عن حكاية الاربعة عين. لأنه تصور انه يقصد النظارة والعينين الطبيعيتين. ولكن الحاج قال له:

ـ ان المقصود بالاربعة عين ان تكون عنده عربية وعمارة وعروسة وعزبة. وان هذا سيتم عقب العودة من الامارة فوراً. ضحك من بساطة الحلم. قال في نفسه. ان المأساوي في الأمر هو مصير النسخة

الاخيرة من الرواية. وعد الحاج بأن يطلب من الناشر إرسال، مائة نسخة اخرى.

قبل ان يمشي، سأل الحاج، هل قرأ الرواية؟ قال له الرجل، بنفس صراحته، انه لا يجد وقتاً للقراءة. فهو ينام في الثانية صباحاً. ويقوم من النوم في السادسة صباحاً. اي بعد اربع ساعات نوم فقط. وقبل النوم مباشرة، يكون لديه وقت ليتصفح الجرائد اليومية. وليس كلها.

مشى المؤلف. قرر ان يذهب الى محطة مصر. في ميدان رمسيس. وللمؤلف حب خاص لهذا المكان. فهو المكان الذي تلتقي فيه المدينة والقرية. هذا الميدان، أول مكان توضع فيه قدما الحاضر من الريف. وآخر مكان يتركه المسافر من المدينة الى القرية. وفيه عدد كبير من باعة الصحف والمجلات. سيقف في هذا الميدان. الذي يقول عنه. انه لا يعرف اين تنتهي القرية فيه، واين تبدأ المدينة.

يشاهد من جديد حكايته. رحيله من قريته الى المدينة. في بعض الاحيان يحضر الى هذا الميدان ليقابل مسافراً من ابناء قريته، يحضر الى القاهرة لأول مرة. أو لوداع أحد من ابناء القرية..

ذهب الى ميدان المحطة. وجد اكثر من بائع للجرائد. وقف بجوار الكشك الملاصق لمدخل ارصفة القطارات. نظر في الكتب. حمد الله عندما وجد بعض النسخ من روايته. وقف دون ان يوجه اي كلمات الى البائع، حضر شخص كان يجري، متجها الى رصيف القطار. الذي كان ينطلق منه صوت مرتفع. وفي الصالة كانت أصوات الميكرفون تعلن. عن مواعيد القطارات. قيام ووصول. وقف الرجل. ولكنه كان قلقاً. قدماه تتحركان على الأرض. قال بضع كلمات للبائع. اخذ البائع كتابا. ولكن الرجل أعاده ومد يده واخذ الرواية. قال كلمات وهو يأخذ الرواية. ولكن المؤلف لم يسمع ما قاله.

جرى الرجـل، بيده اليمنى حقيبـة ثقيلة، وبيده اليسرى نسخـة من الرواية، اقترب المؤلف من البائع، سأله دون مقدمات، عن سبب تغيير الكتاب الذى اخـذه الراكب الـذي جرى نحـو القطار. نظرله البائـع بريبة واستنكار، استغفر الله من شرور هذه الايام. ثم قال لنفسه:

ـ يتجسسون حتى على الكتب التي يقرأها الناس.

ثم قال للمؤلف:

ـ ان الكتابين اللذين جرت المفاصلة بينهما، مصرح بهما رسمياً.

ضحك المؤلف، في مرارة. لقد تصور البـائع انـه من رجال الأمن. في زمن اصبـح فيه بـين المخبر والمخبر مخبر. الكـل يشعر بـالريبـة نحو الكل. ربما يشك الانسان في زوجته وابنه. وقد يشك العـاشق في حبيبة القلب. والابن يشك في ابيه. قال المؤلف لنفسه:

ـ انه سجن الحرية.

همس لنفسه:

ـ لا، انها حالة الوطن المحتل. جزء من تراب الوطن محتل.

أفهم البائع انـه المؤلف. لم يصدقـه البائـع. ولم يثق فيه إلا بعـد ان رأى بطاقته. وتأكد من شخصيته. ثم قال لـه. ان المسافـر، حضر من اجل الحصول على رواية بوليسية يسلي بها نفسه في القطار. فهـو مسافـر الى مـرسي مطروح. ولأنـه لم يجد روايـة بـوليسيـة واحـدة. اعـطاه اي كتاب. ولكن الرجل اعاد الكتـاب واخذ كتـابك. لسببـين، اولهما انـه مكتوب عليه انه رواية. والثاني ان الكتاب سمين.

سأله عن عدد النسخ التي وصلته، وما بيـع منه. والبـاقي. قال لـه انـه وصلته ١٥ نسخـة، وانه بـاع ١١ نسخة. والبـاقي ٤. اكد لـه ان البعض، يشتري الرواية بسبب عنوانها أصلاً.

ترك المؤلف المحطة حزيناً. قال لنفسه، حتى الآن لم يتجه واحد الى بائع الجرائد، باحثا عن الرواية بالذات دون غيرها.

امام أحد محلات الخردوات، توقف المؤلف، تذكر انه يريد الحصول على بعض الاشياء الخاصة. جوارب، مناديل، معجون اسنان، صابون حلاقة، دخل المحل. وقف امام البائعة. ذكر لها رغبته. تركت كتابا كان في يدها. وضعت المتر الذي تقيس به. عند الصفحة التي وصلت اليها. اكتشف المؤلف ان الكتاب عبارة عن روايته. مد يده، اخذها. فتح الصفحة التي وصلت اليها. وجدها الصفحة التي يتكلم فيها عن حماية نوم الاغنياء من أرق الفقراء. وان ذلك اصبح المهمة الوحيدة للدولة. سعد جداً قال انه سيناقش البائعة فيما قرأته حتى الآن. نظر اليها. قطعة من الجمال المصري. العينان في لون طمي النيل، والشعر يعطي احساساً بلون الارض. والابتسامة فوق الوجه واسعة عريضة، احضرت له ما يريده. ابتسامتها جعلته يتصور انه يعرفها منذ فترة مضت. وانه التقى بها من قبل. كتبت الفاتورة التي سيدفع بموجبها، قدمتها له. ولكنه بدلا من الذهاب الى الخزينة ليدفع. امسك بالرواية وسألها عنها: لماذا اختارت هذه الرواية بالذات؟

الاستفهام الذي أطل من وجهها، كان يحاول معرفة سبب سؤاله الحقيقي، هل هو عن الرواية. فعلا، أم ان هناك أمراً آخر. قالت له: المشكلة انها من شبرا. ولها راحة وقت الظهر ساعتان، لا تكفيان للذهاب الى البيت والعودة منه. وقت الظهر الميت يصبح مشكلة. الذهاب الى السينما اصبح مكلفاً. والجلوس في مكان عام لا يتحمله مصروفها المحدود جداً. لا حل أمامها سوى شراء اي كتاب تقتل به الوقت الضائع لأنه أرخص.

الكتاب الذي ثمنه نصف جنيه. يمكنه قضاء اسبوعين. اليوم

الــواحــد لا يصــل الى الخمسة قــروش. وبعض الكتب تصـل الى الشهـر. حيث تقرأ وقت الـظهـر الـذي لا يـطاق، وفي الـوقت الـذي يفصل بين زبون وزبون آخر.

شعر المؤلف باحباط لا حدود له. كان قد فكر في ان يقـول لها، انـه المؤلف، ولكنه بلع الكلمات قبل النطق بها. سألها عن رأيهـا فيم قرأتـه من هذا الكتاب. قالت بسرعة، انها لم تفهم منـه اي شيء، وهي تفتح الصفحـات من باب قتـل الوقت. ولكن الكتـاب يتكلم بطريقـةبالغـة الصعوبة. تذكرها بصعوبـة القطع النـثرية التي كـانت مقررة عليهـا في المدرسة. جمل وكلمات وتعبيرات لا تفهم منها اي شيء أبداً.

يبدو ان الكتاب يتحدث عن الناس الذين يسكنون في القبـور. وقد سألت أكثر من شخص. خاصة صـاحب المحل. هـل هناك من يسكن في قبر من المصريين الآن؟ فقال لها، ان ذلك محاولة للتشكيك في الحكم الموجود وانـا لا يجب ان تسمع هـذا الكلام، الـذي لا هدف لـه سوى زرع المشاكل في البلاد.

قبل ان ينصرف المؤلف. فتحت الكتاب عنـد الصفحة التي وصلت اليها. وسألته:

ـ كيف تحمي الدولة النوم؟!

قالت انها لم تفهم هذه الجملة. كل ما وصلها منها كلمتا: الأغنيـاء والفقراء. والنوم والأرق. ذلك مفهوم. أمـا تدخـل الدولـة والحمايـة. فذلك امر من الصعب فهمه. احتار المؤلف ماذا يقـول لها. لكي يشرح المعنى الـذي بنى حولـه روايته كلهـا. فكر في القـول. ان النوم والأرق مجرد معاني رمزية. وفكر في ان يتكلم عن الاغنياء الذين يزدادون غنى. والفقراء الذين يزدادون فقراً. وفكـر في ان يقدم ثـنائية من يمـوتون من الجوع، ومن يموتون بالتخمة. فكر في ان يقول لها: ان من معـه يعطى

ويزاد. ومن ليس معه يؤخذ منه. فهل هذا وضع مقبول؟ فكر في ان يفتح عينيها على سكان القبور وسكان القصور. تزاحمت الكلمات على شفتيه في اللحظة المرهقة المتعبة التي مر بها. ولكنه احتار بأي الكلمات يبدأ.

كان لديه شك، يصل الى درجة اليقين ان هذه الانسانة البسيطة، لن تفهمه أبداً. لن تصلها كلماته بأي حال. تساءل: أين يقع الخطأ؟ عندما لا تصل كلماته الى هذه الانسانة، فهذا معناه. ان ثمة خطأ ما في كلماته، أو في الانسانة نفسها. هذا الخطأ اثر على عملية التوصيل. سألها. سؤالاً بدا غريباً:

ـ كم مرتبك؟

نظرت له بدهشة، وقالت بعد ابتسامة حائرة:

ـ عشرون جنيهاً في الشهر.

استغربت السؤال، وهو استغرب موقفها، انه يكتب من أجلها ولكن يبدو ان المشكلة في مفرداته.

قال لنفسه بغضب:

ـ لا بد من تغيير مفردات القاموس.

نظروا له في المحل. باعتباره رجلاً مجنوناً. بعد النطق بحكاية مفردات القاموس. طلبت منه ان يدفع الحساب ويتسلم البضاعة ويمضي حتى لا تخسر عملها بسبب وقوفه معها. فهي زهرات، لم تعين بعد. ومن السهل الاستغناء عنها. وهي تساعد اسرتها، بعد وفاة والدها العامل، انها اكبر اخواتها جميعاً.

دفع الحساب، واخذ الاشياء وخرج من المحل. وهو يقول لنفسه: لا بد من العثور على قاموس مفردات هؤلاء الناس، حتى تصبح هناك

وسيلة واحدة للتفاهم. المؤلف يكتب بلغة، والناس في الحياة اليومية يتكلمون بلغة اخرى. ولا توجد أرضية مشتركة بين اللغتين. لن تصل الكلمات الى الناس. ما دام الكل يسبح في عالم خاص به. بعيداً عن الآخرين.

تذكر محاولته السابقة، والتي لم تكتمل، لكي يكتب رواية بالعامية المصرية. أدرك ان الأمر كله صعب. شعر بالحزن يصعد الى القلب. وان قلمه مغموس في ماء مالح. وان طعم الملح اختلط بالدم. لماذا لا تصل كلماته الى من كتبت عنهم بالذات؟ ان الأمر يصله طازجاً. في نفس ايام صدور روايته. انه يصله في الساعة الخامسة والعشرين للعمل. الساعة بعد الأخيرة. عندما يكون أوان الانقاذ وعمل أي شيء. قد فات. وفي هذا الوقت. يكون الأمل في أي انقاذ قد فات أيضاً.

هز كتفيه ومضى. الشوارع ميتة، والحركة بطيئة. والناس يقل وجودهم في الشوارع في هذا الوقت. مشى حتى تعبت قدماه. سأل اكثر من بائع عن موقف الرواية. كانت الردود متناقضة. قال لنفسه، ان أمر هذا الشعب. سيظل من اكثر الأمور غرابة في حياته. كل بائع يقول انها باعت. وان الكمية التي بيعت كبيرة. تتعدى الثلاثة ارباع. ومع هذا. كانت النماذج التي اشترت الرواية. من اكثر الناس بعدا عن القراءة.

كاد ان ينهي الجولة. عندما شاهد. رجلاً متقدماً في العمر. تعدى الخمسين. ويبدو انه على مشارف الستين من عمره. بيده نسخة من الرواية. شخص يصل الى حدود النمط. البدلة قديمة. متهدلة عليه. والجاكت يبدو انه لم يغسل ولم يكو منذ سنوات. والقميص يحمل عرق عام بأكمله. الحذاء قديم لدرجة انه يعطيك الانطباع بأنه بدون نعل.

الرجل متعب. يحمل الرواية بيد وفي اليد الأخرى. ارغفة من الخبز وربطة جرجير خضراء تنز منها قطرات الماء. والرجل يقف على محطة الأتوبيس. كان متعباً. ومع هذا صمم المؤلف على سؤاله.

اقترب منه. وقف بجواره بدا كمن يقف في انتظار الأوتوبيس مثله. سأله. بعد فترة عن الرواية التي معه. كانت الكلمات تخرج من فم المؤلف. . بصعوبة. ولكن الرجل كان طيباً. اعطاه ارغفة الخبز وحزمة الجرجير. ونفض الجاكت من الردة التي نزلت من الخبز. واخرج منديلاً من جيبه مسح به عرقه. وقال له: كيف عرفت ان ما بيدي رواية؟

دهش المؤلف. الرجل اشترى الكتاب دون ان يعرف انه رواية. إذن لماذا اشتراه. سأله من جديد. فقال الرجل:

ـ انه شكاوى.

اكمل بعد فترة:

ـ لا عمل لي سوى كتابة الشكاوى منذ خمس سنوات.

ـ الرجل مظلوم. واحد من ملايين المظاليم. سيحال الى المعاش بعد ٩٤ يوماً وهو مصمم ان لا يحال الى المعاش دون رفع هذا الظلم. لأنه يؤثر على معاشه. يحرمه من اربعة جنيهات شهرياً. وان لم يرد له اعتباره قبل الاحالة الى المعاش. لن يحدث ذلك أبداً. عندما شاهد هذا الكتاب مع البائع أمس قال انها فرجت. وقد كان يظن ان أوان الفرج قد مات. كتاب يعلمك كيف تكتب الشكاوى. ومكتوب باللغة العربية. ليس مترجماً.

سأل عن ثمن الكتاب. وجده جنيهاً. لم يكن معه هذا المبلغ. طلب من البائع ان يبقي هذه النسخة لديه حتى الغد. من البيت. احضر جنيهاً معه. وضعه في جيبه من ليلة الأمس. خوفاً من نسيانه في

الصباح. وكان اول عمل قام به اليوم. ان اشترى نسخة من الكتاب حتى يساعده في كتابة الشكاوى.

تساءل المؤلف بمرارة؛

ـ كتاب يعلمك كتابة الشكاوى.

علا صوت الرجل هذه المرة. اخذ شكل المعلن. وهو يقول للمؤلف. انه توجد بعض الكتب التي تعلم العشاق خطابات الغرام. هز المؤلف رأسه علامة انه يعرف ذلك. اكمل الرجل شرحه. ان هذا الكتاب يعلم المظاليم كتابة الشكاوى. ولأن المثل يقول: انه ما مات حق وراءه مطالب.

فلن يسكت قبل حصوله على هذا الحق. ولن يتوقف أبداً عن كتابة الشكاوى. طالما انه حي يرزق. استفاض الرجل في الحديث. قال انه سمع عن بعض الناس لا تكتفي بالشكوى فقط. قال انه سيحكي للأخ قصة سمعها بالأمس عن اسرة كانت تسكن في احدى العمارات التي وقعت. لأن هناك الكثير من العيوب في بنائها. والمقاولون لا ضمير لهم في هذه الأيام. ولا بد من الضرب بيد من حديد على أيديهم.

احدى الأسر في العمارة التي وقعت. هل تعرف ماذا فعلت؟ احتجاجاً على أصحاب العمارات وطلب الانتقام منهم؟ ان رب هذه الاسرة. عرضها للبيع في ميدان عام. لقد تصادف وقوع العمارة. في وقت كانت الاسرة فيه في السينما كلها. لم يمت أحد منهم. اخذ الرجل الأسرة وذهب الى ميدان التحرير. انه شكل جديد. ولم يحدث من قبل للشكوى. هل تعرف ماذا جرى له؟ حضر له محافظ القاهرة بنفسه. في ميدان عابدين. الذي كان يقف فيه مع اسرته. ومعه عقد تمليك شقة بدون مقابل. واودع المقاول السجن فوراً. وسيحاكم في القريب العاجل. انه اسلوب مبتكر من أساليب الشكوى للمسئولين.

سأله المؤلف :

ـ ولكن الشكوى لغير الله مذلة . هكذا يقول المثل الشعبي .

قال الرجل بسرعة . وكأن الرد كان جاهزاً .

ـ هذا مثل من قبل أن توجد الدولة .

سأله المؤلف من جديد .

ـ لماذا لا تفعل مثل الذي عرض عائلته للبيع؟

اشار الرجل الى ذهنه وقال :

ـ هل انا مجنون؟ الرجل الذي عرض اسرته للبيع مسنود . لا يقدم على مثل هذه الحركات الا من كان يسنده أحد .

تعب الرجل من كثرة الكلام . أكمل بعد قليل :

ـ اقطع ذراعي . ان لم يكن هذا الرجل متفقاً مع المحافظ قبل الذهاب الى ميدان عابدين .

صحح له المؤلف :

ـ عابدين ام التحرير . .

قال الرجل :

ـ المسألة لا تفرق كثيراً . .

سأله المؤلف من جديد :

ـ ومن أين عرفت الحكاية؟

قال بثقة :

ـ شقيق زوج ابنة اختي . خاله رب الأسرة التي عرضت نفسها للبيع في ميدان عابدين .

ـ هل انت متأكد؟ .

ـ طبعاً . شقيق زوج ابنة اختي زار العائلة في الشقق التي حصلت عليها .

ـ شقة واحدة أم عدة شقق؟.

ـ خمس شقق متجاورة. زارهم وتناول معهم العشاء. بعد استلام هذه الشقق.

ـ ولماذا اختاروا ميدان عابدين؟

قال الرجل ضاحكاً:

ـ وهل تحتاج هذه السؤال. انه الميدان الذي وقف فيه عرابي باشا. منذ مائة سنة. وقال انه لن يستعبد بعد اليوم. ثم انه اقرب ميدان الى مكتب الاسكان الذي توجد به عقود ايجار وتمليك آلاف بل ملايين من الشقق الخالية. والتي لا تمنح سوى للمحاسيب.

تركه المؤلف ومضى. بعد ان مشى خطوات. اكتشف انه اخذ معه ارغفة الخبز وحزمة الجرجير. عاد ليعطيها للرجل. حزن المؤلف. عندما اكتشف انه ركب الاتوبيس الذي حضر. ويبدو ان فرحة الرجل بحضور الاوتوبيس انسته الارغفة وحزمة الجرجير الخضراء.

انتقل المؤلف. الى منطقة وسط المدينة من جديد. كان التعب قد وصل الى عظامه. جلس على المقهى الذي يجلس عليها المثقفون. طلب شايا واغمض عينيه من شدة التعب. احضر الجرسون الشاي. شم رائحته. وصلته قوية في حالته المتعبة. فتح عينيه وكان قد نسي موضوع الرواية. وسرح ذهنه في بعض الأمور البعيدة عنها.

وهو يقلب الشاي. بعد ان وضع فيه السكر. شاهد نسخة من الرواية. كانت موضوعة على منضدة قريبة منه. لم يكن هناك أحد. قال لنفسه ربما نسيها شخص ما. أو ان يكون من اشتراها قد قرأها وتركها هنا. حتى لا يحملها معه. فكر في القيام واخذ النسخة. ولكنه لم يجد الحماس الكافي للقيام من مكان. بعد قليل حضرت امرأة من داخل المقهى. جلست وامسكت بالرواية. وجه مألوف لديه. شاهده من

قبل. وان كان قد نسي حتى الاسم. ترى من هي؟ راح يتذكر. ادرك انه لن يتذكرها طالما انه يتعمد التذكر. ليشرب الشاي وبعده يتصرف. شاهدته هي من بعيد. امسكت بالرواية. واشارت محيية. اذن هي تعرفه. قام واتجه اليها. جلس معها. عرفها بنفسه. قالت له انها تعرفه جيداً. ذكرته بالمرة الوحيدة التي التقت فيها معه. ذاكرتها قوية. وذاكرته هو انتعشت بفعل جلوسه معها.

تذكرها. زوجة مناضل سياسي مسجون منذ سنوات مضت. يضربون بوفائها واخلاصها ووقوفها بجوار زوجها المثل. انسانة جادة. تمنى من قبل لو انه تزوج مثلها. لم يعرفها في البداية لانها ذبلت كثيراً. شاهدها من قبل مع زوجها. وها هو يقابلها للمرة الاولى بدون زوجها. تسلل اليها الشيب واهملت ملابسها. قال لنفسه. لا بد وان زوجها هو قضية عمرها الوحيدة الآن. سألها عنه. فقالت بعد فترة صمت. والحزن يشوه ملامح وجهها المجهد انها فزعة. لأن الروح المعنوية لزوجها هبطت في الفترة الأخيرة. أقسى ما يصيب الانسان ان تنكسر روحه. ان يهزم من الداخل. ان يرفع في اعماقه رايات الاستسلام. ذلك هو الخطر الحقيقي. ان يتآكل من داخله. ومقدمات ذلك تبدو واضحة في هذه الايام على زوجها. لذلك فهي تجري في كل مكان. تحاول الحصول على ادب وكتابات تشد من ازره. تشعره انه ليس وحده. وان معه آلافا آخرين. لهم نفس القضية. يدافعون عنها بكل قوة.

سعد المؤلف من جديد. تمنى ان تدوم هذه السعادة. ان لا تقول بعد قليل ما يبدد هذه السعادة. قالت له انها لم تقرأ هذه الرواية بعد. وكل ما يهمها ان تصل الى زوجها بسرعة. وستصله هذا الاسبوع. وان كانت تتمنى قراءتها قبل وصولها اليه لسبب بسيط. انها تخشى، ان

تكون الرواية متشائمة. وان تكون حزينة.

لم يرد المؤلف. قال في نفسه. من ناحية التشاؤم فيها ما يكفي بلداً بأكلمه. ومن ناحية الحزن فمن يشعر بالسعادة في هذه الايام، لا بد وانه بليد بشكل أو بآخر. لا يوجد ما يبهج الانسان ولا ما يشعره بالسعادة.

قالت موضحة، انها لا ترفض التشاؤم. ولكن هناك فارقاً بين التشاؤم الذي يقول انه لا أمل هناك. وبين التشاؤم الذي يوجد من خلاله بصيص من الأمل.

تساءل المؤلف:

ـ الأمل؟!

اكدت من جديد.

ـ الأمل.

قالت ان الأمل الذي تقصده ليس الأمل الرومانسي، وليس الأمل الذي يلغي الواقع. وليس الحلم فقط. ولكن ان يكون هناك جانب ايجابي. لم يشأ المؤلف ان يخبرها بحقيقة الأمر. طلبت منه ان يكتب اهداء على النسخة لزوجها. أمسك بالقلم. احتار ماذا يكتب. وجد نفسه يهديها الى بطل يفعل ما يعجز عنه المؤلف. قال في الاهداء انه يشعر بالخجل من حريته. امام بطولة الايام التي يقضيها غيره في السجن. وعدها باحضار نسخة اخرى لها. لكي تقرأها. ما دامت هذه النسخة ذاهبة الى السجن. سلم عليها وقام.

بجوار المقهى مكتبة. وقف امامها. شاهد افندياً يسير في الشارع، وحوله حراسة مسلحة. كان قد نزل من سيارة. سدت الشارع كله. وقفت في الممنوع. دون ان يقترب منها أحد من رجال الشرطة. اقترب الرجل الذي كانت حوله حراسة مشددة من المكتبة. دخل. طلب من

صاحب المكتبة. ان يزوده بالكتب الجديدة كلها. خاصة كتب الرفض للوضع الراهن في البلاد. نطق هذه الكلمات بصوت عال. ودون ان يلتفت حوله. أو يشعر بالخوف. قال لصاحب المكتبة. لا ينسى ان تكون الفاتورة باسم مكتبة الكونجرس. في الولايات المتحدة الامريكية.

اتسعت عينا المؤلف من الدهشة. نظر الى صاحب المكتبة. وجد انه وضع روايته وسط الكتب. فرز المندوب الكتب. وجعل الرواية في مكان وحدها، قال انها من ادب الرفض. هكذا يبدو من عنوانها. ولهم اهتمام خاص بمثل هذا الأدب. سأل صاحب المكتبة. ان كان لنفس المؤلف كتب اخرى عندهم. قال صاحب المكتبة. ان الاسم جديد عليه. وانها المرة الاولى التي يقرأه فيها. وان اتضح وجود كتب اخرى له. سيحضرها.

لم يفكر المؤلف في الاقتراب من المندوب السامي. مندوب الباب العالي الامريكي. ولم يقترب من السيارة السامية. التي كانت تسد الشارع. وتسد أيضاً عين الشمس. ورغم انه لم يكن مكتوباً عليها سوى ارقام ملاكي عادية. الا انه يبدو ان الكل كان يدرك من بعيد انها سيارة امريكية. وما ادراك ما امريكا في هذه الأيام.

في آخر جولته. قابل المؤلف، صديقاً كان يعمل بالسياسة. عندما كان الاتجاه صحيحاً. ولكنه الآن متفرغ لأعماله الخاصة. كان يحمل كتاباً في يده. الغلاف مكتوب عليه. القراءة الرشيدة للصف السادس الابتدائي. دهش المؤلف. اخذ منه الكتاب وتصفحه. كانت دهشته لا توصف عندما وجد ان الكتاب الذي بداخل الغلاف عبارة عن روايته. نظر الى صديقه وهو لا يصدق نفسه.

قال له الصديق موضحاً: انه لديه رغبة في قراءة الرواية. ولكنه كان

يخشى حمل نسخة منها معه. وكان الحل. نزع غلافها. حتى لا يشاهدها أحد معه ويسبب له المتاعب مع دولة الحرية.

قال له المؤلف. ولكن قراءة رواية ليست ممنوعة. رد عليه الصديق. انه في مصر الآن. كل شيء ممنوع. وكل شيء متاح ومسموح في نفس الوقت.

في آخر الليل، لم يكن بداخل المؤلف احساس محدد. كانت الامور غير محددة. لم يكن سعيداً. أو حزيناً. والمؤلف يشعر بقلق عندما لا تكون الامور واضحة بداخله.

في الايام التالية قابل عدداً من المثقفين. من ابناء جيله. ولأنه متأكد انه لا أحد يقرأ اعمال ابناء جيله. فقد استمع لكلمات المجاملة منهم بنصف اذن. ولم تكن لديه رغبة في اثبات آرائهم هنا.

قابل عدداً آخر من القراء، يحبهم على البعد. يقرأون الادب بنهم ولا يكتبون. عشاق محترفون للكلمة المكتوبة. ولا تعرف في اي البحار تصب مياه أنهارعشقهم. هؤلاء كانت لهم شكوى اساسية من طول الرواية. لكل منهم اسبابه الخاصة البعض قال الرواية فيها مط وتطويل متعمدين. الآخرون قالوا: نحن نعيش في عصر التليفزيون والسينما ومن لديه وقت لقراءة رواية بهذا الحجم. استاذ جامعي عائد من دولة عربية. قابله المؤلف. فقال له. انه يكتفي بمشاهدة المسلسلات التليفزيونية بدلاً من قراءة الرواية. وان آخر رواية قرأها تعود الى سنوات مضت لا يمكنه ان ينام الا بعد مشاهدة مسلسلي السابعة والربع والثامنة والربع. مائة وعشرون دقيقة من الدراما المصفاة. عالم بأكمله من الأفعال. مضى المؤلف وهو يمضغ المه. تصور ان الرجل يمزح. ولكنه في الايام التالية. اكتشف بالفعل ان الدكتور اصبح ناقداً

تليفـزيونيـاً. قال المؤلف. في هـذا العصر العجيب آلة رهيبـة وجهنمية عملها الوحيد هو افساد البشر.

كـاتب مسرحي قال لـه. اختصر من الروايـة. كلما امكنك ذلـك. اجعـل هـدفـك الأسـاسي ليس الكتـابـة ولكن الاختصـار. وكلما زاد الاختصار اصبحت الرواية عظيمة، طلب منه الذهاب الى الاستديو في السينـما. وحضور عمليـة المونتـاج. لكي يعايش عـلى الطبيعـة. هـذه القدرة الفريدة على الحذف والاختصار.

مصور صحفي. قرأ الرواية. وكـان تعليقه عـلى الجزء الاول منهـا، هـذه الحكايـة: مجلة عالميـة قررت ان تنشر تحقيقـاً صحفياً عن غـابات افريقيا. ارسلت صحفياً ومعه مصـور. وعندمـا نشر الموضـوع. كانت معـه ست صور. هـل تعرف عـدد الصور التي التقـطت في الاصل؟. كانت ٢٤ ألف صورة. لم يتم اختيار سوى ستة منها فقط. ادرك المؤلف ان المصور. كانت لديه رغبة في ان يحدثه عن الاختصار.

مخرج سينمائي. قال له. ان آخر فيلم له كان تسجيلياً. مدته سـاعة ولهذا صور ١٢٠٠ دقيقة. لكي يستقطر منها هذه الساعة. قـال له: ان كل ما نراه في الحياة لا يصلح لأن يكون مادة للكتابة.

قـارىء تساءل: عن هـذا التشابـه الشديـد، بين بعض النـماذج في الواقع والنماذج الموجودة في الرواية. خاصة نموذج النـاقد. انـه معروف في الحيـاة الادبية فعـلاً. والكاتب اياه. الـذي اصبـح روائي العصر. ويكتب الآن عملاً جديداً بالاشتراك مع صحفي من مافيا صحافة هـذا الزمان. لا أحد يعرف من الذي حل في جسد الآخر منهـما. حتى يكتبا عملاً واحداً.

هذا التقابل، يجعل الرواية محـاولة للنقـل عن الواقـع بكل مـا فيه. وان كـان يعكس قدرة تسجيليـة. الا انه عيب فني في النهـاية. استـاذ

جامعي. قال لـه. من عيوب الـرواية، هـذه الآراء. قد يكـون مكانها الطبيعي. كتاباً عن فن الرواية من خلال تجاربه. أو ان يكتب ذلـك في مذكراته الشخصية. ولكن تقديمه بهذه الصورة افسد الرواية.

قـارىء قال لـه. ان المؤلف الريفي. تـاه عندمـا قـرر ان يكتب عن المدينة. عندما كـان يكتب عن القريـة. كان يعـرف رأسه من رجليـه. وكان يدرك ابعاد العالم. الذي يتعامل معه. أما هنا. فقـد تاه في دروب المدينة. غـرق المؤلف. وغرقت معـه الروايـة في مـلايـين التفصيـلات الصغـيرة. وبدلاً من ان يقـدم الصورة العـامة في روايتـه. جـرى وراء الجزئيات الجانبية.

زميلة للمؤلف. كـانت غاضبـة. قالت، ان صـورة المرأة في الـواقع الـراهن ليست بهذا القـدر المظلم والبشـع معـاً. ان الـروايـة لا تقـدم شخصية نسائية واحدة بصورة ايجابية. أو قريبة من الاكتمال الـداخلي. النـاقدة ربـاب حيدر. ربما كانت اقـرب الى هذا. ولكن حتى تقـديمها يعكس رغبة المؤلف الجنسية فيها. مع انه من المفروض ان يتعـامل مـع عقلها فقط.

واحد من زملائه اكد لـه. ان المؤلف يعاني من حـالة من الـوحدة. تكـاد ان تصل الى حـد التوحش. ان عـزلة المؤلف. تصـل الى حـافـة الـوضع المـرضي. يبدو ان المؤلف. قـد عجـز بـالفعـل عن التـواصـل الانسـاني مع الآخـرين سواء من داخـل الوسط الأدبي أو من خـارجه. وقد انعكس هذا على الرواية نفسها.

كاتب قال له. ان الصورة في مصر ليست بهـذا القدر من التشـاؤم. في مصر الكثير من الجوانب الايجابية. ولكن الرواية لا تركز سـوى على الجـانب السـلبي فـقط. وواقـع مصر الـراهن. الى جـانـب آلاف

السلبيات. فيه ايضاً الكثير من الايجابيات. ولا بد من الوقوف امام هذا وذاك. حتى تكتمل الصورة.
واحد من الذين قرأوا الرواية سأله:

- لماذا تبدو هذه الدرجة الغريبة من اليقين في كلامك؟ لماذا تبدو متأكداً في عصر. لا يوجد من يتأكد من اي شيء فيه؟ ان عدم اليقين جزء من نبض هذا العصر. وعدم اليقين في حدا ذاته. يبدو قريباً من منطق الفن. أما اليقين والسيطرة التامة على عالمك. كما نجده في الرواية. فمن يصدقها. ان نبرتها غريبة على العصر الذي نعيشه.

ناقد ادبي شاب. اختلف مع فكرة انها رواية من داخل رواية. قال له: ان الرواية من داخل الرواية شكل فني متكامل. وهو يقول الكثير من خلال عملية التقابل بين الرواية الخارجية والاخرى الداخلية. هنا روايتان؟ نعم. ولكنهما خطان روائيان في رواية واحدة. أو صوتان يتكلمان في رواية. أما حكاية رواية من داخل رواية. فهذا ما لا نجده عندك أبداً.

كان المؤلف، يود الحديث عن الصحف والمجلات التي كتبت عن الرواية بعد صدورها. ولكنه يتساءل: اي صحف وأية مجلات؟ ان هذا الحديث قد يخرجنا من جو الرواية الى حكايات فرعية. يقول المؤلف بسرعة لكي ينتهي من هذا الأمر. لا توجد صحافة ادبية ولا مجلات ثقافية. وما يأتي من الوطن العربي يصادر كله. يمنعه حرس الحدود من الدخول. ويقف موظفو الجمارك دون دخوله. وهؤلاء لهم في كل عصر ممنوعات. يهتمون بها. في زمن مضى. كانوا يصادرون المخدرات والصور العارية والبضائع المصنوعة عند العدو الاسرائيلي. اليوم، لا يصادرون سوى الورق فيه اي شيء. حتى لو كان روشتة علاج. ورق وعليه كتابة. لا بد من منعه من الدخول.

بعض المقالات كتبت عن روايته. ولكنها نشرت خارج البلاد. مقالات بعيدة. مكتوبة ومنشورة في عواصم بعيدة. لم ير الكثير منها في حياته كلها تساءل: ماذا جرى لمصر؟. . قال له واحد من اياهم. انت تتجاهل ان كل جريدة ومجلة مصرية تخصص صفحة كاملة للادب. وهذا يحدث لأول مرة. لأن ساكن الباب العالي هو اديب أصلاً. ويحب الادباء ويكرمهم.

عاد للصحف. فيها صفحات تكتب عن الادب. ولكن اي ادب؟ ها هو تحقيق عنوانه: ابن الوز عوام. لقاءات مع ابناء وبنات الكتاب والمؤلفين. ومع اللقاء سؤال: هل سترثون الموهبة. بعد ان ورث آباؤكم مصر بمن فيها؟ الصورة تطالعه: شاعر ورسام مثل الفيل يبتسم للكاميرا في بلاهة. ويتكلم عما ورثه عن والده.

كاتب آخر. دفعته هذه الصحافة الادبية الى الانتحار. تذكر الجملة الشهيرة التي تقول: إنه اذا لم يكن هناك ما نكتب عنه. فلا بد من صنع هذه الاحداث لكي نكتب عنها بعد ذلك. كاتب قالوا له انت دستويفسكي مصر. فانتحر من الاكتشاف. وبدأت الطبول تدق في كل مكان. وابتسمت الكاتبة التي اعطته الكبريت ليحرق به نفسه. وقالت ببساطة:

- لقد فعلها المجنون بنفسه.

ثم اكملت:

- لقد كنا نلعب. ولكنه كان جاداً.

وهذا شخص آخر. قادم من شمال افريقيا عن طريق أوروبا. يقول انه أول مصري. (لم يجرؤ على القول انه اول عربي خوفاً من اغضاب السلطات وتمشياً مع الجو المعادي للعرب) يرشح لجائزة نوبل. قرأ المؤلف اسمه. وراح يتذكره. اكتشف انها المرة الاولى التي يسمع فيها

الاسم. الرجل يقـول. انه لـه مائـة مؤلف. كلها بلغـات أجنبية. انـه سعيد لأنه ليس لـه كتاب واحـد باللغـة العربيـة. وهو يعلن اليـوم عن اكتشـاف سيهز الكـون. كله. توصـل اليه في الاسبـوع المـاضي فقط. كارل ماركس. تراجع عن افكاره في اللحظة الاخيرة من حياته. وكتب كتاباً سرياً يعلن فيه ذلك بكل وضوح. ترك الكتاب لدى صديقة لـه. وهي سيدة سويسرية. وطلب منها الا تعلن ما فيه. الا بعد الف سنة. والباحث المرشح لنوبل. اصبح صديقاً لحفيـدة صديقـة كارل مـاركس ولأنها أحبته. فقد خالفت وصية الجدة. فاجـأته في الاسبـوع الماضي. وقـدمت له نسخـة من الكتـاب الهـام. الـذي سيغـير خـريـطة الكـرة الأرضية. ألا يوجد مائة مليون يدينون الآن بأفكار هـذا الرجـل؟. ان ارتدادهم عن افكارهم سيشكل مرحلة جديدة في تاريخ البشرية.

قال الرجـل لأنه يحب مصر. مصر التي هي مصر. مصر التي ليست شرقيـة ولا غربيـة. مصر التي ليست شـماليـة ولا جنـوبيـة. مصر التي ليست فـوقية ولا تحتيـة. مصر التي هي مصر فقط وكفى. فقـد رأى أن يعلن اكتشافه المذهل من هنا. من مصر العظيمة.

نظر لصورة الرجل. جميل، مهندم. يرتدي بدلة فـاخرة. في عـروة الجـاكت وردة. (لم يعـرف المؤلف لـونها لأن الصـورة المنشـورة لم تكن ملونـة). وفي الجيب العلوي منديـل. على شكـل إهرامـات مصر التي شـاهدت العجب في وقفتهـا الصـامتـة. وكـان الـرجـل يتحـدث عن إنجازاته العظيمة بإسهاب نادر.

في جريدة أخرى. محررة شابة تسأل كهول وشيوخ الكتاب: لماذا لا تكتبون مقدمات لروايات الشباب؟. وتسأل الشباب في نفس الـوقت: لماذا لا تسعون إلى الكبار لتقديمكم. كاتب شيخ. وأستـاذ جامعي عـلى المعاش، لعب برسـالة مصر فـترة. وبالأنـدلس فترة أخـرى. وعاد من

ديار النفط، والبترودولار مؤخراً. يسلي نفسه في هذه الأيام برئاسة تحرير أقدم مجلة ثقافية في الوطن العربي كله. قال لها رداً على السؤال:

ـ رداً على سؤال المحررة الشابة. المشكلة بالنسبة لي. ذات شقين مشكلة وقت من ناحية. ومشكلة أموال من ناحية أخرى. الوقت أحد هموم عمري. فهو محجوز من الآن وحتى نهاية العام القادم. ليفي بتعاقدات وقع عليها. (كله محجوز ذكرت المؤلف بالراقصة والتاكسي ومقعد السينما) إنه متعاقد مع اليونسكو وجامعات أوروبا وبعض المعاهد العلمية. وستوديوهات السينما. من أجل أفلام علمية جادة. وهذه الجهات تدفع بالكلمة. لقد وصل ثمن الكلمة عنده إلى ثلاثة جنيهات للكلمة الواحدة. تدفع بالعملة الصعبة وليس بالعملة المصرية التي ليست صعبة. وهي تفرق في هذه الحالة ٥٠٪ من قيمة المكافأة.

إن تنازل وكتب مقدمة لأي كاتب شاب. سيعطل هذا الأعمال الهامة لديه، ثم من الذي يمول العملية. إن أية مقدمة لأي كاتب. قد يصل أجرها إلى ثلاثة آلاف من الجنيهات. بالعملة المصرية. التي تدفع لأحد بنوك الكويت وسيكون مضحياً بذلك من أجل الشباب، ولكن من الذي يدفع؟

في الناحية الأخرى. كان أديب من شباب هذه الأيام يرد: نحن نرفض وصاية أي جيل آخر علينا. قال المؤلف: إنه سيرك من الحواة والنصابين والأفاقين. سيرك كتاب يعادون الموهبة. كتاب يحيا ويعيش. نؤيد ونبايع. نشجب ونستنكر وندين. ونقدم وثائق الدم. لكل من يركب فوق كرسي السلطان.

في صحيفة ثالثة تحقيق مطول. عن أدب رؤساء مجالس إدارات المؤسسات الصحفية. الذين تحولوا إلى روائيين وكتاب بقدرة قادر. بعد الوصول إلى هذه المناصب العليا. هؤلاء الكتاب العظام ورواياتهم

الخـالدة. كـان هذا هـو عنوان التحقيق الضخم. والـذي خصصنت له صفحة كاملة. إنهم الكتاب الذين شاهدوا في صمت الأحداث الجبارة والمـذهلة. في نصف قرن مضى. وقـرروا الخروج من دائـرة الصمت. لقد تعرضوا من قبل لحالة من الصمت الإجبـاري وهم اليوم أحـرار في الهجـوم على المـاضي. وتأييـد الحاضر. وتـأميم المستقبل لحسـاب هـذا الحاضر.

بعد أيام وصلته رسالة من ضميره. الذي تركه في القريـة. صديقـه الذي لم يتمكن من إحضاره معه إلى المدينة. يقرأ أعماله بكل دقة. كـان المؤلف يهمه معرفة رأي هذا الصديق. كان يستريح إلى وسـادة الصدق في كلماتـه. لا زيـف ولا كذب ولا طعنـات خناجـر. الصدق الـذي هو أحلى من الشهد. وأكثر بياضـاً من القشدة. رسالة منـه. معها مقـدمة بسيطة. يقول فيها إنه كتب الكلمات التـالية. والتي لا رابط بينهـا. بعد قـراءة الجزء الأول من روايتـه الأخيرة. إنـه يعتذر عن حـالـة الخلط في الكلمات. فحـالته العـامة والخـاصة. لم تعـطه الفرصـة لكي يـركـز في القـول. وأن يكون واضحـاً بنفس القدر السـابق. ربمـا كـانت حـالـة عارضة لن تدوم طويلاً.

قرأ المؤلف الخطاب. وقرر أن يثبته هنا ولا يحذف منـه حتى الكلمات التي لم يفهمها.

كيف يصبـح الكاتب متحـدثـاً بلسـان جمهـوره؟ كـل المـطلوب من الكـاتب الآن أن يتحلى بفضيلة عدم الكذب ولا شيء سـواهـا. كيف يتوجه الكاتب إلى جمهور غير محدد بدقة.؟ مشكلتنـا هنا. اننـا لا نعاني مشكلة الاختيار بين طبقات اجتماعية معينة وواضحة. صاحب الكلمـة المكتوبة في زمننا لديه إحساس انـه يتعامـل مع عـالم معاد. إنـه الشعور بغـربة الحـرف. الاختيار حـاد كالسيف. عـلى الكـاتب إمـا أن يـرتبط

بـالكلمة السعيـدة. وهي كلمات قليلة. أو بكلمات الفقر والثـورة وهي كثـيرة كثيرة. مـا من كـاتب يتعـامـل مـع جمهـوره من أرضيـة الكلمـة المكتوبة. له جمهور حقيقي. الموجود حـالياً. عـلاقة متـوترة بـين المنتج والمستهلك. خيبة الأمل. الرضوخ والبكاء المنفرد. يكتب لأن الكتـابة هي خـلاصه الـوحيـد. أخشى أن يتحـول أدب خيبـة الأمـل إلى أدب لليأس والاستسلام. الاعتداد بالذات يتحول إلى مسـاومة. الهـزيمة من الداخل. الابطال في الرواية هم الذين ليسوا أبطالاً. ويبـدو أن المؤلف أصبح هكذا فعلاً. دون أن يدري. الكفاح ضد التفاهة. واقـع يفتقد إلى المعنى وإلى جـذوة الروح. عـلى السطح يقـال ان هـذه الفـترة. من فـترات الاعتدال والتسـامح. ولكنهـا في باطنهـا فترة جمـع الملايـين بأي الوسائل. تخدر الاغنياء بالكلمـة السحريـة. زيدوا من أمـوالكم. إنها فترة ثراء رائـع. من لم يغتن في هذه الأيـام. لن يعرف طعم الـثراء بعد ذلك أبداً. من خلال المال يمكنك الحصول عـلى كل شيء الحق والقـوة والقدرة. هالة القداسة. المرء يحظى بالاحـترام لأنه غني وكفى. ضيق الأفق. العقـلانية الضحلة. السعي إلى الـربح فقط. الـدمـار مؤكـد. الصراع يـزداد وحشية. كـل شيء يفتقـد الجـانب الإنسـاني فيـه. كـل شخص يتحرك وهو محـاط بأعـدائه ومنـافسيه من كـل جانب. قـريباً. يفتحون مكاتب لبيع الروايـات المكتوبـة لمن يريـد وضع اسمـه عليها. وشركات لقرض الشعر ومؤسسات لتفصيل القصص القصيرة.

أدرك المؤلف. أن ثمة علاقة بين هذا الكلام. وبـين روايته. وضـع الكلمات كـما هي. وقال إنـه عند سفـره إلى البلد. سيقابـل صـديقـه. ويحاول معرفة سر هذه الجمل الغريبة منه. وعلاقتها بالرواية.

يعود المؤلف، بعد رحلته الطويلة إلى حكاية الافـتراضات. الـرحلة التي تمت قامت على افتراض أن الروايـة نشرت في مصر. والآن. لا بد

من الحديث عن افتراض أن الرواية نشرت خارج البلاد. لاستحالة نشرها فيها. نشر الرواية في الخارج معناه استحالة دخولها البلاد. نفس الكتاب. يمكن صدوره في الداخل. ومع هذا لو صدر في الخارج يمنع من الدخول. إنها حالة من التناقض بين أنواع الحرس. حرس الحدود. غير حرس الفكر الذي في الداخل. مع أنه من المفروض أن يكون هناك مكتب لقيادة الحرس العامة.

ومع ذلك، في مصر قاعدة ذهبية. كل ممنوع مرغوب. وكل ممنوع يجرى وراءه بصورة مبالغ فيها. فلا توجد قوة على الأرض. تمنع كتاباً من دخول البلاد.

نشرت الرواية في الخارج. ولكن المؤلف لم يرها. مرت أيام وهو يوصي كل المسافرين، أن يحضروا له نسخة من الرواية. والكل يعود ليقول. إنه أحضر نسخة. ولكن حرس الحدود. وفرق مكافحة الورق المطبوع في المطارات. أخذوا نسخ الرواية. صادروها. وقالوا، إن هناك إدارة خاصة تقرأ هذه الأوراق ولا تعيدها إلى أصحابها. إلا في حالتين، ألا تكون خطرة على الأمن العام. والا تكون لها أية فائدة لأية جهة من جهات الدولة. وهذا يستغرق من الوقت عمر جيل بأكمله.

إلى أن وقعت للمؤلف حادثة. أسعدته بدون حد. وجد نسخة من روايته على سور الكتب القديمة في السيدة زينب بعد الخروج من العمل. كانت معروضة للقراءة نظير مبلغ معين. وكان غلافها الخارجي منزوعاً. وكانت مغطاة بغلاف كتاب القراءة الرشيدة للصف السادس الابتدائي. قال البائع للمؤلف. إنه لا يعرف من الذي أحضر هذه النسخة إلى هنا. لا بد أن واحداً وضعها في هذا المكان ومضى.

في آخر الرحلة. قابل الناقد، رآه يتعثر وسط المارة في الشارع، كانت الساعة هي التاسعة صباحاً. وكان الناقد الهمام في حالة سكر

بين. قال المؤلف لنفسه، ربما قضى الليلة الماضية. وصباح اليوم وهو يشرب. همس المؤلف لنفسه: عندما يعرف الإنسان أعداءه الحقيقيين. وحجم هؤلاء الأعداء. فإن ذلك نصف الطريق. من أجل كسرهم والانتصار عليهم. إنه في لحظة ضعف الآن. تساءل المؤلف. ومتى كان في لحظة قوة؟ منذ أن عرفه وهو هكذا. بين لحظة السكر. ولحظة السكر، لحظة سكر ثالثة. سيقابله في هذه اللحظة. لا ليهديه نسخة من روايته. ولكن ليقول له، إنه لم ينكسر. رغم محاولات الناقد. وفريق الكشافة الذي يتبعه من كتاب القصة والرواية.

كما هو تماماً. مساحة اللون الأبيض في شعره بدأت تتسع. ونظارته الطبية غيرها. بواحدة أخرى. من نظارات الانفتاح. الذي يناضل الناقد ضده ليل نهار. تفوح من فمه رائحة الخمر. النضال والخمر معاً. قالها المؤلف بمرارة. سلم عليه. قال المؤلف. ان الوضع الطبيعي، أن يحمل كل منا. . خنجراً يغرسه في صدر الآخر. وعلى الأقل في ظهر الآخر. ما دمنا نعجز عن المواجهة. هذه الابتسامات. وتلك السلامات، هي الطريقة العصرية في إدارة الصراع.

كانت قدما الناقد تتمايلان، استند على السور الحديدي. طلب من المؤلف، قبل أن يتكلم معه. أن يحضر له علبة سجائر مستوردة أولاً. لأنه لن يسمع ولن يتكلم إلا بعد أن يدخن سيجارة. بحث عن كشك سجائر. وأحضر له العلبة المستوردة. بحث الناقد عن مقهى. جلس على أقرب كرسي وطلب من المؤلف. أن يحضر كمية من الليمون. عصرها. حتى امتلأت بها كوب. شربها. وطلب كوباً من القهوة السادة. قال الناقد. ان الليمون والقهوة السادة أفضل ما يقضي على آثار السكر التي في رأسه. ويطرد السكر حتى من دمه.

سأله المؤلف:

ـ يبدو انك شربت كثيراً؟

قال الناقد وكأنه يحكي بطولة عمره:

ـ بـدأت السهـرة في كلوت بـك. منـزل فـرفشـة. وأكملتهـا في الاسكنـدرية، حتى الآن لا أعـرف كيف ذهبت إلى الاسكندريـة. ولا كيف عدت. وإن كان هواء البحر لا يزال طازجاً في أنفي. من الفجر وحتى الآن. وأنا في شقة مفروشة في المهنـدسين. رحلة خـرافية. أليس كذلك؟

أكمل المؤلف:

ـ ولا رحلة السندباد نفسه.

قال الناقد بعد قليل:

ـ أنا الوحيد الذي أرفض دنس المشاركة. ولا بد من الهروب أحياناً

أوضح المؤلف:

ـ كأس وسيجارة وفخذا امرأة ورحلة خـرافية. تبـدأ من كلوت بك وتنتهي في المهندسين. حل عظيم.

بـدأ الناقـد ينتبه. ولكنـه لم يكن مستعداً للدخـول في المنـاقشـات. طلب من المؤلف خمسـة جنيهات. قـال إنه أنفق كـل مـا معـه في سهـر الأمس. تحسس المؤلف جيبـه. قال لـه لا يوجـد معه هـذا المبلغ. بعد مساومات. وأخذ وعطاء أصبح المبلغ خمسين قرشاً.

ـ مبلغ يكفيني. حتى أصل إلى المنزل.

أخرجها المؤلف. وأعطاها له. تهللت أسارير الناقد. الذي لم يبتسم في حيـاته من قبـل. طلب من المؤلف ورقة وقلمـاً. كتب بهدوء وبخط جميل عنوان بيته. قال للمؤلف. إن كل المشاكل المعلقة. يمكن أن تحـل بـالتفاهم. ان جلسـة واحدة. تتـوسطهـا زجاجـة بيرة مثلجـة. تفعل

المعجزات وان زيارة له في بيته. يمكن أن تحولها إلى حليفـين وليس مجرد صديقين قال الناقد:

ـ وعندما نتحالف. فأنا مع حليفي. بالباطل قبل الحق. ظـالماً قبـل أن يكون مظلوماً.

تاه لحظة ثم قال:

ـ لا تنس انني قلت. الباطل قبل الحق. والظالم قدمته على المظلوم.

ببطء أخرج المؤلف من جيبه نصف جنيه وقال:

ـ وإذا دفعت هذا أيضاً. ؟

اتسعت عينا الناقد من الدهشة:

ـ هل توجه لي الإهانة؟

قال المؤلف بهدوء:

ـ مـا دامت الخمسون قـرشـاً الأولى. جعلت البـاطـل قبـل الحق. والـظالم قبل المـظلوم. فأنـا أحاول معـرفة بمـاذا تأتي الخمسـون قـرشـاً الأخرى.

علا صوت الناقد:

ـ أنت معك لأنك جزء من النظام الفاسد. وأنـا ليس معي. لأن لي موقفاً. وعندما آخذ منك. فذلك يعني عملية إعادة تنظيم للثروة.

ضحك المؤلف ولم يرد، وقال الناقد:

ـ ورغـم مـا أخذتـه منك. فـأنت أسـوأ كـاتب في مصر. في هـذه الأيام. وقد قلت هذا. في رحلتي الأخيرة إلى الوطن العربي.

هـاج النـاقـد. ووقف. ولأن حـالـة السكـر كـانت قـد وصلت إلى مداها. فقد أمسك بأحد الكراسي. وبدأ يضرب المنـاضد بـالكراسي. هجم عمال المقهى على النـاقد. وبعـد معركـة قصيرة وسريعـة ولاهثة.

كان الناقد يجلس على أحد المقاعد وهو يلهث. خرج زبد أبيض حول شفتيه. وراح يبحث عن النظارة التي كانت معه. ووقعت على الأرض في اللحظة الشمشمونية التي مضت.

بعد أن عثر الناقد على النظارة. جلس. فكر المؤلف في الانصراف. ولكنه رغم ما جرى من الناقد. بقي معه، خوفاً عليه من عمال المقهى. جلس بالقرب منه. لم يتبادل معه كلمة واحدة. فجأة، انفجر الناقد في البكاء اقترب بكرسيه من المؤلف. وقال له:

ـ ألا تدرك صعوبة موقفي؟

لم يرد المؤلف.

ـ ألا تفهم ألا يكون لك بيت. وأن تعيش في حجرة مع الأسرة

ابتسم المؤلف في حيرة.

ـ ألا تفهم معنى أن تكون بدون وظيفة. ولا تحصل على مرتب أول كل شهر.

أكمل الناقد:

ـ هل حاولت فهم ألا يكون لك طفل يحمل اسمك؟

قال المؤلف:

ـ عندما سعيت لأن يكون لي بيت. كان يمكنك ذلك. ولكن الاحتياج إلى البيت مسألة لا تحدث للكثيرين. من البشر. وعندما نشرت إنتاجي كنت أعبر عن نفسي إزاء العالم. أما الحرص على الوظيفة. فأنت الذي قلت من قبل ان الحرص على أي شيء طعام سام وفاسد. وقد تناولت أنا هذا الطعام الذي رفضته أنت. ولم أمت حتى الآن.

قال الناقد من جديد:

ـ ألا تفهم..

رفع المؤلف، يده في المسافة بينهما. وقال:

- افهم، افهم كل شيء. حتى سر علاقتك بالادباء الشبان أقل من عشرين سنة. وسر السنة التي قضيتها في الخليج العربي. والحرب التي قامت بين امير وامير من اجلك. اعرف. ومشكلتي أنني اعرف اكثر مما ينبغي. واعرف ما فعلته في الدول العربية في جولتك الاخيرة. قلت لك. ان المعرفة الزائدة عن الحد تصبح لعنة وليست قوة.

انهار الناقد. وأخذ بكاؤه صورة غريبة من التشنج، ووصلت الى حالة من الهيستريا. تركه المؤلف. قال ان البكاء يمكن ان يطهر الانسان من شروره. ولكنه تساءل: هل تكفي كل مياه انهار هذا العالم. لكي تطهر هذا المخلوق بالذات؟!

٧

النهاية الثانية:
المصري الفصيح يصبح ممثلاً ويحلم بالأوسكار

دخلوا كلهم، منزل الست الدكتورة مرة واحدة. كان معهم مندوبان. واحد من الامن. والآخر من هيئة المسرح والموسيقى والسينما. فتح لهم الباب خادم نوبي أسمر الوجه. على الفور أطلت عليهم روائح تسر النفس. ادركوا أن في مصر عوالم كثيرة تفيض منها السعادة على الجانبين.

قبل الدخول، على باب العمارة الفاخرة، في حي جاردن سيتي. ذلك الحي المتشابك الشوارع. والذي تاهوا فيه اكثر من مرة. وقال قائد سيارة الامن. ان كل شوارعه مصممة على شكل انصاف دوائر. وانه مثل المتاهة. وان هذه المتاهة مقصودة لحماية سكانه الاغنياء من جوع وحقد الفقراء الذين يسكنون في أحياء القاهرة الاخرى. أو يحضروا اليها من الريف.

بصعوبة بالغة وصلوا الى المنزل. وتأكدوا كلهم من دقة وصدق معلومات السائق الامني. فالشوارع متشابهة ولا توجد فيها اية محلات. كل ما فيها عمارات. وحتى العمارات والبيوت من كثرة الغنى والعز متشابهة والأشجار الخضراء في الشوارع تجعل تمييز اي شيء مسألة صعبة.. جاردن سيتي، حديقة المدينة، أية حديقة واي مدينة؟؟

على باب العمارة، هب اكثر من بواب وحارس ومخبر واقفين. حيوا الحاضرين. ولكن بعد ان تأكدوا من نوعية الداخلين. وادركوا المسافة الضخمة بين أشكالهم. وبين العمارة التي يدخلونها. اضطروا للسؤال والاستفسار.

أخرج المرافقون من رجال الأمن والسينما اوراقهم. وشرحوا المهمة التي يقومون بها الآن. لم يهتم افراد العائلة بهذا الذي يجري. لا السؤال ولا الجواب. ولا الحديث عن المهمة الجارية الآن. كانت الدهشة مرسومة على الوجوه. بتأثير المبنى الضخم. والزرع والزهور والرمال التي تؤدي اليه.

مدخل، تحدده سجادة حمراء على شكل مشاية صغيرة. اربع مرايا على الجانبين. من الارض وحتى السماء. وفي السقف مرآة تغطيه كله. كراسي للجلوس، اكثر من مصعد. القدم تغوص في السجاجيد. فلا يبدو منها شيء. استراح بعضهم فتلك وسيلة جديدة لاخفاء حفاء أقدامهم.

عند الصعود، اضطروا لاستخدام اكثر من مصعد. وعلى باب شقة الست الدكتورة. هكذا سمعوا الوصف. رفع مندوب الأمن إصبعه. وضغط على زر يشع ضوءاً فسفورياً لامعاً. قالوا لهم ان هذا الزر يشع ضوءاً أخضر في الليل. وكلما تقدم الليل. كلما ازداد توهج الضوء. سمعوا من الداخل صوت موسيقى هادئة ناعمة تصوروا انها تنبعث من راديو.

بمجرد أن رفع المندوب إصبعه توقفت الموسيقى. فأدركوا انها بدلاً من الجرس. الذي يستخدم بدلاً من الخبط على الباب. فتحوا الباب. دخلوا الشقة كلهم مرة واحدة. على جدران الصالة لوحات وعلى الأرض سجاجيد. وفوقها فرو ثعالب وذئاب. صالة واسعة. يلعب

الانسان فيها الكـرة الشراب. من الممكن ان تكون مـوقفاً للسيـارات. فكر كل واحد من العائلة في الصالة بطريقته الخاصة.

اتجه الرجل الذي فتح لهم الباب، وضغط عـلى زر في أحد جـدران الصـالة. فـارتفع جـزء من الجدار المـواجـه لهم. وتسللت الشمس الى الصـالة. التي ادركـوا تحت ضـوء الشمس مـدى اتساعهـا. اكـثر من تصـوراتهم السابقـة. بدأت أعينهم تفحص المكـان وتدرك محتـوياتـه. يفتح على الصالة باب حجرة. لفت نظرهم اليها صوت ضحكة انثـوية ممطوطة. طويلة وهادئة وناعمة. ويشع منهـا روقان البـال. وخلـوه من اية هموم.

نظروا فشاهدوا ما لم يتوقعه أحـد. جزء من جسـد امرأة. القـدمين والساقين والفخذين. في بياض الحليب. ونعومة القشدة. باقي الجسم والوجه لم يتمكن أحد من مشاهدته. كان ينام عليها جسم اسود وبعـد التدقيق اكتشفوا انه كلب ضخم الجثة.

بعضهم دارى وجهـه لتصـوره ان الكلب والانثى في حـالـة جمـاع. ولكنها كانت جـالسة او نـائمة فـوق كرسي. يستعمـل سريراً في بعض الاحيان كان التليفون في يدها والكلب فوقها..

سأل كل واحد منهم نفسه:

ـ هل حضرنا لنضاجعها ام من اجل ماذا؟

أشار لهم الخادم بالجلوس. جلسوا فوق اشياء ولا نقول كراسي لأنها لم تكن مثل الكراسي العادية. سمعوا الحديث الـدائر. كـانت تتحدث عن السهـرة. سهـرة الليلة واي ليلة. لا يـدري احـد. استعـرضت الاماكن التي يمكن الذهاب اليها. اسماء اجنبية، كثيرة كثيرة، يا لاتساع هذا العالم المـترامي الاطراف يبـدو ان من يحدثهـا اقترح عليهـا تأجيـل

السهر الى ليلة اخرى. صاحت متألمة في غنج ممطوط. قالت انها تموت لو نزل الليل فوقها وهي محبوسة داخل المنزل. لا بد من الانطلاق.

ان الناس هنا، لم تتعود الاسلوب الامريكي العظيم في الحياة. الذي يجعل كل يوم متعة من نوع جديد. لو نزل عليها الليل في هذه الشقة الموحشة الكئيبة لماتت شهيدة الاسمنت والخراسنة المسلحة والسقف الواطىء.

قال اكثر من واحد، من العائلة، لا أحد يرضى بما قسم له. تعالي يا نائمة تحت الكلب انظري اين نعيش. إصرار المتحدث جعلها تتكلم من جديد عن الاماكن: قرية فلفلة، مينا هاوس، صحارى سيتي، مركب في النيل ناحية المعادي. شاليهات القناطر الخيرية. الجلوس بداخل السيارة في مكان بعيد، السهر في عوامة فوق النيل. اندريا. خرستو. شاليهات الفيوم. قضاء الليل على شاطىء بحيرة قارون. الرست هاوس في طريق القاهرة الاسكندرية الصحراوي. السفر الى بور سعيد وقضاء الليل هناك والعودة في الصباح. كافتيريا وبار اي فندق، من فنادق الدرجة الأولى. ومن الممكن النزول في حجرة في نفس الفندق ان من الله بالقدرة على اجراء وصال جنسي سريع. وان لم يتمكن. وظل باقياً في نادي عدم الامكان. وهو الشيء الوحيد المؤكد بالنسبة لكل رجال هذا العصر. فتقتصر السهرة على الجلوس. والكلام والشرب فقط. لكل ما في هذا العالم حدود.

تعجب الواقفون. كم من الليالي نزلت فوقهم وهم في القبر. ومع هذا لم يمت احد منهم. قال اكثر من واحد لنفسه. نحن لا نرى من القبر الذي نعيش فيه. سوى انوار السيارات التي تسير في طريق صلاح سالم. وانواع معسكرات الامن المركزي. دائماً الامن المركزي. اينما

تتوجه، فلا مفر من الامن المركزي وانوار بعض المقاهي البلدية الصغيرة.

لم تصل الست الدكتورة الى قرار. يبدو ان الرجل الذي كان يحدثها. قد ذهب الى كافة هذه الاماكن اكثر من مرة. وانه في حالة ملل منها قررت ان تعاود الاتصال من جديد.

وضعت الست الدكتورةالسماعة البيضاء. وانتبهت في هذه اللحظة فقط للواقفين والجالسين في الصالة. أزاحت الكلب الضخم من فوقها. مدت فستانها الشفاف. فدارت جزءاً من فخذيها. ابتسمت. مدت يدها وهي لا تزال شبه نائمة. صافحت مندوبي الأمن والسينما. ويبدو انها كانت على علم بالامر من قبل. اتسعت ابتساماتها. مدت يدها، الى زر صغير بجوارها. ضغطت عليه. فسمعوا موسيقى من نوع جديد. غير الموسيقى التي سمعوها من قبل. طلبت لهم شاياً. نظرت الى مندوب السينما. الذي كانت تعرفه من قبل.

سألته:

ـ ما هي الحكاية بالضبط؟

اشار المندوب. اشارة دائرية شملت العائلة كلها:

ـ هؤلاء الابطال الحقيقيون لفيلمك الجديد.

تساءلت:

ـ اي فيلم..

ـ ليس بالمسكن وحده يحيا الانسان.

مرت فترة قبل ان يكمل:

ـ فيلم عن حياة سكان القبور في مدينة القاهرة. وهو الفيلم الذي يقف في منتصف المسافة بين العمل الروائي والتسجيلي..

خبطت رأسها وصاحت:

ـ تذكرت. . تذكرت. .

نظرت لهم واحداً واحداً. مدت يـدها واخـرجت سيجارة من علبـة سجائرها. الموضوعة بجانبها. اشعلت السيجارة. سحبت نفساً طويلاً واخـرجت من فمها وفتحتي انفهـا دخـانـاً كثيفـاً. عكـر الجـو وغـامت المرئيات بسببه.

تساءلت ضاحكة. موجهة حديثها الى الحاضرين جميعاً:

ـ انتم العائلة التي تبحث عن مخرج؟

فرح واحد من العائلة وقال:

ـ فعلاً يا ست. نحن نبحث عن مخرج.

(وقد نطق كلمة مخرج بفتح الراء)

اسكته مندوب الامن، باشارة من يده.

قال للمخرجة:

ـ حضرنا للبحث في موضوع الفيلم. عن حياة المتمردين وخروجهم عن العرف العام والحياة وسط القبور.

قال أحد افراد العائلة:

ـ التمرد شرف.

قالت المخرجة:

ـ لا أحب ان نبدأ عملنا بالاختلاف. لنتفق أولاً ثم نختلف فيما بعد خلال العمل نفسه.

سكت الكل، بعد دعوة الاتفاق. فـرحت هي بتأثـير سيطرتهـا على الموقف. استطردت قائلة:

ـ نحن نقـوم بعمل فني. أحب ان نبتعـد عن السيـاسـة، انها كفيلة

بإفساد اي شيء. والفن موضوعه اشواق الانسان الى القيم النبيلة في الحياة. ما دخل السياسة في هذا؟

تساءل احد ابناء الأسرة:

ـ وهل يحل الفن مشكلتنا؟ اقصد هل سنجد لقمة نأكلها. هدمة نلبسها. بيت نسكن فيه. أموالاً ننفقها. .

صاحت المخرجة، بمجرد ان سمعت كلمة الاكل:

ـ تذكرت. ان ريتشارد لم يتناول طعامه بعد. عن إذنكم. .

مدت يدها الى التليفون الابيض. وهي تعتذر للكلب. عن نسيانها أمر طعامه، وتلعن العمل والسينما والفن لأنه كان السبب المباشر في نسيانها. أدارت رقماً. رد عليها التليفون بعد عناء. تغير صوتها. تكلمت بصوت جديد. يقطر رقة وعذوبة:

ـ جروبي، هاللو.

ما سمعه الجالسون، كان مذهلاً لهم جميعاً. بدون استثناء. بما في ذلك المندوبين معاً. مندوب الامن. ومندوب السينما. انها تتصل الآن بمحل اسمه جروبي. تطلب منه تجهيز وجبة للعزيز ريتشارد. الوجبة اليومية التي يعدها المحل للاعزاء. وتطلب ان تكون الوجبة مضاعفة في هذا اليوم. مع الاهتمام بوجه خاص باللحوم. خاصة الباردة والمحمرة. وتطلب ان يستثنى من سترسله من الطابور. وان يكون الطعام ملفوفاً في ورق من السلوفان.

شكرت المتحدث مرتين. المرة الاولى لأن جروبي، المحل العريق والذي ينتمي الى أيام العز التي ولت في اوائل الخمسينات. وعادت الى مصر مرة اخرى في اوائل السبعينات. فكر في عمل وجبة خاصة ورخيصة للاعزاء من كلاب مصر السعيدة. وهذا اكبر دليل على تحضر

ورقي شعب مصر، في الفترة الأخيرة. وقالت انها تتمنى ان يأتي اليوم، الذي تخصص فيه اماكن لمشي الكلاب، وسينما للكلاب ومسرح للكلاب وفرق موسيقية ومطاعم من أجل الكلاب. واماكن للاتصال الجنسي للكلاب وفنادق ومدافن خاصة للكلاب.

قالت مدللة عما وصل اليه عالم الكلاب. ان آخر اخبار باريس وواشنطن هو ارتفاع خلوات الرجل. بصورة لم تحدث من قبل. في مدافن الكلاب. وانه صدرت في أمريكامؤلفات ضخمة. تشرح افضل الطرق واكثرها انسانية في زيادة مقابر الكلاب. وفي الاحتفال بذكرى الكلاب. ثم تمنت ان يحدث هذا في مصر قريباً.

شكرت مدير المحل مرة ثانية، وقالت انها تشكره على طلب. بصورة مقدماً. قالت: لماذا يقتصر الطعام على اللحوم فقط. لماذا لا يقدم المحل شيوكولاته للكلاب وحلويات للكلاب ومشروبات للكلاب وسجائر للكلاب. ستشكر المحل من كل قلبها لو درس هذه الأمور. وستكون هي أول المساهمين في التعامل مع الاصناف الجديدة.

وضعت سماعة التليفون، ضغطت على الزر المجاور لها. حضر لها الخادم. وهو شخص آخر غير الذي فتح الباب. وغير الشخص الذي قدم لهم الشاي، أعطته ثلاثة جنيهات وربع. الجنيهات الثلاث ثمن الوجبة المضاعفة للعزيز ريتشارد. وغمزت بعينيها. واخرجت لسانها للكلب وهي تنطق اسمه، وتحرك جسمها حركة مثيرة. والربع جنيه هو البقشيش اليومي للعمال.لكي يهتموا بنوعية اللحم. ويعفوا سائقها من الوقوف في الطابور.

نظرت الى الكلب، حدثته بالانجليزية. ثم قالت له بالعربية:

ـ الا تريد شيئاً آخر يا عزيزي الغالي.

قالت ربة الأسرة ضاحكة :

ـ يريد كلبة، هذا ما ينقصه.

ضحكت المخرجة في فجور. واحتضنت الكلب قائلة :

ـ هل تضحكين. فعلا هذا ما ينقصه. ولا بد من تدبير الامر.

خبطت ابنه المليونير صدرها :

ـ كل هذا يقدم لكلب. لا حول ولا قوة الا بالله.

ردت عليها المخرجة :

ـ امسكي الخشب، انه بائس وحزين اذا ما قورن بحالته في أمريكا. هناك جنة الله على الأرض. منه لله الذي كان السبب في عودتنا.

تنهدت في حزن، وبانت سحابة من الحزن فوق وجهها، وخلال فترة الصمت، التي فرضت نفسها عليهم. قال مندوب السينما للعائلة. ان الست الدكتورة ليست طبيبة ولكنها مخرجة مسرح وسينما. سافرت الى أمريكا لدراسة المسرح هناك. وحصلت على الدكتوراه في فن المسرح. من إحدى جامعات أمريكا. وعادت في الشهر الماضي الى مصر.

ولأن أمريكا، بلد الحريات وجنة الخلد ومهد الحضارة والعراقة. فقد أخذوا إقراراً عليها لحظة العودة. ان لا تهتم سوى بمشاكل الفقراء والمحتاجين والمعوزين من ابناء مصر. والا سحبوا منها الدكتوراه أو خصموا من مرتبها تكاليف البعثة والتي استمرت لمدة سنوات.

هذا الشرط الأمريكي غيرقابل للنقاش. وهكذا عادت وسكنت في جاردن سيتي. واتصلت بنا وطلبت منا ان نبحث لها عن احد من موضوعات الفقراء والمحتاجين في بلادنا. وعدناها نحن بذلك.

واجهتنا مشكلة العثور على الفقراء. لأن الشرط الاساسي كان المشكلة الاولى. ان يكون الفقراء قد وصلوا الى حد الكفاف. حيث يعيشون على حافة الجوع. أو سبحوا حتى وصلوا الى الضفة الاخرى من الناس. أوصلهم سوء الحال، الى درجة الكفر بكل قيم العدل والتكامل الاجتماعي وتذويب الفوارق بين الطبقات.

من المفروض ان تكون العائلة على خطأ. لأننا ـ هنا في مصر ـ نعاني من بعض المشاكل الاقتصادية العابرة والطارئة. ولكن التكافل الاجتماعي وأخلاق القرية تجعلنا نمد ايدينا لبعضنا البعض. وهذا يمنع وجود مثل هذه الصور الصارخة. في مصرنا العظيمة، العامرة بالحب.

تعبنا في البحث عن طلبها. لدرجة اننا قررنا الاعلان عن جائزة مالية ضخمة لمن يعثر على مثل هذه الحالة. كان من المفروض ان نعلن عن مثل هذه الجائزة في كل وسائل الاعلام. ولكن يبدو ان خبر هذه المسابقة قد تسرب الى الناس. تقدم الينا أحد كبار الضباط الذين أشرفوا على التحقيقات. في حكاية العائلة. صحيح ان الاعلان لم ينشر. وهو ايضاً لم يتقدم الينا بصورة رسمية، ولكننا في مرحلة ننسف فيها الروتين. وتعقيدات الادارة. ولهذا اتخذ قرار فوري بقبول حكاية هذه العائلة، من حيث المبدأ وان صلحت قصة العائلة كموضوع لهذا الفيلم. سنصرف له المكافأة المرجوة. ومن حقه ـ ان طلب ـ ان نصرف له قيمة الاعلانات التي كنا سننشرها في الصحف ووسائل الاعلام الاخرى. سيحصل على المبالغ معفاة من الضرائب.

هناك مشكلة اخرى. يتم بحثها حالياً. هل يحصل على المبالغ بالعملة الصعبة ام بالعملة المحلية. هذه مشكلة يبحثها الآن المستشار القانوني. خاصة وان الفيلم كله ـ من الالف الى الياء ـ ممول من الولايات المتحدة الامريكية. جنة الله على الارض. من حق حضرة

الضابط الكبير، الحصول على المكافأة، بالدولار الامريكي. سيد عملات الأرض كلها. ثم ان تقديم الهدية بالجنيه المصري. قد يغضب الولايات المتحدة الأمريكية. وغضبها مسألة صعبة. فهي دولة صديقة. وقد تصبح في المستقبل القريب دولة شقيقة.

المشاكل لا تنتهي. ان حصل الضابط الكبير على المكافأة بالعملة المصرية، فعلى اي اساس نحسب سعر الجنيه. على اساس السعر الرسمي او سعر السوق السوداء. عموما هذه كلها، مشاكل قانونية. يجري بحثها على اساس قانوني صرف.

قال مندوب السينما. ان الضابط الكبير، أصدر قراراً بان يكون له. مندوب معنا. في كل مراحل العمل في الفيلم. لن يتركنا لحظة واحدة. ليس كنوع من الرقابة لا سمح الله. ولكن لكي يضمن الا يسرق أحد فكرته في أية مرحلة من مراحل التنفيذ. خاصة وانه لم يسجل الفكرة في الشهر العقاري.

صاح المليونير:

ـ كل هذه الاموال من وراء حكايتنا. نحن اولى بالمبالغ كلها.

رد عليه مندوب الضابط:

ـ ان سيادة الضابط هو الذي فكر في الفيلم. أما انتم فلم تفكروا سوى في التمرد. واحد يبني وجماعة تهدم.

ـ ولكننا نحن المادة الخام.

كانت الست الدكتورة المخرجة، طوال هذه المناقشات تدون بعض الملاحظات في دفتر معها. وعندما ارتفع الصراخ. توقفت غاضبة. قالت بصوت حاسم.

ـ يجب ان نبدأ بالاتفاق. دعونا ننتظر ان يأتي الخلاف فيها بعد.

سكتـوا. احضرت الدكتـورة اوراقـا واقـلامـاً. طلبت من منـدوب السينـما ان يدون كـل ما يقـال من الآن. لحـين تعيـين سكـرتـير عـام للفيلم. فقال لها: ان لديه وقت فراغ. لا يعرف ماذا يفعل بـه. سألهـا لماذا لا تعينه في هذا المنصب. سكرتيـر عام الفيلم. قـالت انها فكرة. ولم لا؟

قالت لرب العائلة:

ـ إحك لي حكايتك من البداية. وحتى النهاية.

قالت له زوجته موضحة او مترجمة:

يعني من طقطق لسلامو عليكو.

أمنت المخرجة على قولها:

ـ فعلاً.. أحسنت.

وقف رب العائلة. طلب من اسرته الصمت. قـال لهم انه مفـوض من قبـل العائلة. منـذ بدء هـذه المغامـرة. وحتى الآن. للكلام بـاسم الجميـع. وقد فعـل هذا بكـل نجاح حتى الآن. وهـو يشكر الجميـع. لأنهم وقفوا خلفه صفاً واحداً كالبنيان المرصوص. يشد بعضه بعضـاً. تـوقف بعد ان نـطق بهذه الجملة. لكي يقـرأ الاعجاب بـه على وجـوه الحاضرين.

قـال المليونـير، ان العائلة اوشكت في هـذه اللحظات. عـلى حصاد نتائج هذه المغامرة الجريئة. والتي تخرج حتى عن قدرات العقل البشري قال انه لا بد من الحفاظ على نتائـج هذه المغـامرة. لا بـد من التماسـك حتى النهـاية ـ فـات الكثير. مـا بقي الا القليل ويصـل الجميـع الى بـر السلامة..

بعد هذه الخـطبة، تـوجه الى المخرجة. قال لها. قبل ان نتكلم عـما

جرى. قبل ان ندخل في حكايتنا. ونقول حرفاً واحداً منها. لا بد وان نتفق الآن على تفاصيل الصفقة.

انزعجت المخرجة وتساءلت:

ـ أية صفقة؟

ـ الفيلم.

خبطت رأسها من جديد. بنفس الطريقة السابقة. قالت للمليونير. ذكرتني. شكرته برقة على انه ذكرها. امسكت بسماعة التليفون. ادارت الارقام فيه اكثر من مرة. عاكسها التليفون. هزته وكادت ان تكسره.

تأففت وتأوهت، وبان الضيق على ملامح وجهها. أخيراً رد التليفون فتهلل وجهها. قربت السماعة من فمها واذنها. مدت يدها الاخرى وسوت شعرها. واخرجت مرآةمن حقيبة سوداء بجوارها. نظرت فيها. اهتمت بملامح وجهها لدرجة تصور معها الحاضرون ان الذي سيحادثها بالتليفون سيراها من خلال السماعة.

أخيراً، اتاها الصوت. وضعت يدها على بوق السماعة. وطلبت من الحاضرين السكوت التام. فالاستاذ الذي ستحدثه الآن سمعه ثقيل. وتصل اليه الكلمات بصعوبة.

ـ هاللو. . هاللو.

التحيات، السلامات، السؤال عن الصحة والحال وروقان البال، وحال المدام والاولاد. سألته عن العمل الذي يكتبه. والعمل الذي يشرفه بقراءته هذه الايام. والسهرات الاسبوعية. ما أخبارها؟ والرحلات المختلسة بعيداً عن الفضوليين الى شاليهات صحارى سيتي. ربما قال لها كلمة خارجة. لأن ضحكتها هذه المرة كانت مرتفعة اكثر من اللازم. وفيها فجور.

بعد ان فترت الكلمات وتاه الحماس، قالت له، إنها كلمته من أجل خدمة بسيطة للغاية. مجرد أن يوافق. وهو الكاتب والروائي الاول في مصر لأكثر من نصف قرن بالتمام والكمال. ان يشرفها بأن يقبل وضع اسمه على فيلمها الأول. بعد عودتها من أمريكا. وهو فيلم روائي طويل. سيتم وضع اسمه كصاحب للقصة والسيناريو والحوار.

انها تعرف ان وقته مشحون ومشغول. وانه لا يجد الوقت الكافي، حتى لكي يهرش شعر رأسه. ولذلك فكل شيء جاهز لديها، ان كان لديه وقت سترسل اليه السيناريو. لكي يلقي عليه نظرة. وحتى هذه النظرة فهي تشك ان يكون هناك وقت لها. عموماً مطلوب منه ان يطمئن. فالقصة ستهز مصر كلها. ومن سيشاهدها سيقول على الفور انها من ابداع الكاتب الأول.

سألها المتحدث عن اسم الفيلم. ولأنها بوغتت بالسؤال.

استأذنت الاستاذ الكبير ووضعت يدها على بوق سماعة التليفون وسألت مندوب السينما عن اسم الفيلم. الذي بوغت بدوره بالسؤال. وقال لها:

ـ حتى الآن، لااسم له..

تصرفت هي بسرعة:

ـ الاسم المؤقت يا استاذي هو: ما أحلى الحياة في القبور. أو الفقرنعمة ادامها الله علينا. او صحة القبور وامراض القصور. وهذه كلها اسماء مؤقتة.

اكدت له ان الفيلم، سيكون بالالوان الطبيعية. وقد نتفق مع الجانب الامريكي الذي يتولى التمويل. ان يحضر مؤثرات جديدة. تصاحب عرض الفيلم. مثل تركيب انابيب في صالات العرض تشيع

الروائح التي يشمها ابطال الفيلم. وبهذا يدخل الفيلم تاريخ السينما العربية.

توقفت عن كلمة العربية. قالت: لا السينما المصرية. ما لنا نحن والعرب. هكذا قالوا لي في امريكا. قبل العودة. سيدخل هذا الفيلم تاريخ السينما المصرية باعتباره قفزة تكنولوجية. اختصرت من تاريخ السينما قرناً كاملاً من الزمان. لأنهم هناك في امريكا. وهي جنة الله على الأرض ـ يستمتعون الآن بكل هذه الانجازات. قالت اننا سنكتب على الفيلم. لا أحد احسن من أحد. كلنا اولاد تسعة. والقاهرة تستمتع بنفس الانجازات التي توجد في واشنطن وهوليود ونيويورك في نفس الوقت. ولا تتصور مدى اتساع دائرة عشاق امريكا في مصر اليوم وعدد الجالية الامريكية. توقفت وسألت الاستاذ:

ـ هل تعلم ان البعثة الدبلوماسية الامريكية في مصر الآن وصل عدد افرادها ١٥٠٠ شخص. وهي اكبر بعثة دبلوماسية في تاريخ العمل الدبلوماسي كله.

قررت ان تكمل حكايتها المثيرة:

ـ هل تعرف كم عدد الأمريكان في مصر الآن؟

ترددت:

ـ ان الرقم سر. انه مفزع من ضخامته. وربما يكون تليفوني مراقباً وهذا مؤكد. لماذا يراقب تليفون امريكي في زمن امريكي. انه نوع من الخوف من كثرة حب الناس لامريكا. وهذا الحب نوع من رد الفعل لسنوات الكبت السابقة. والتي ولت ولن تعود. وفيه ايضاً نوع من الاحساس بالذنب نحو الانسان الامريكي الطيب. الذي حضر الينا في الخمسينات لكي يصلح حياتنا. ويأخذ بأيدينا. من اجل سواد

عيون مصر. ولكننا قابلنا إحسانه بالرفض. ولكن الآن تم تصحيح كل شيء وعاد الى مساره الطبيعي.

فجأة توقفت عن الكلام. واعتذرت عن الرغي النسائي. توقفت. فهم الجالسون والواقفون حولها. ان الطرف الثاني قد مل الكلام. ولكن حديثها بعد فترة الصمت. اوضح لهم الموقف:

ـ لا تسأل حضرتك عن المكافأة. القصة فقط. الجاهزة الآن سنشتريها من سيادتك بخمسة آلاف جنيه. في ظرف ايام سيكون عندك المقدم وهو نصف المكافأة. السيناريو له وضع خاص. والحوار له وضع خاص.

مرت فترة صمت قبل ان تقول له:

ـ انا المسئولة امامك عن وصول الشيك. لا تتصل بأحد. فقط أعطني رقم حسابك. لا تذكره. هناك حساب في بنك اجنبي وآخر مصري. عموماً يكفي ان يكون الشيك باسم سيادتك. بشرفي الذي تعرفه جيداً. سيصلك الشيك. باي باي..

وضعت سماعة التليفون. نفخت. تأففت. قالت تكلم نفسها، وان كان الحاضرون قد سمعوا الكلام:

ـ مستغل، كل ما يهمه المقدم والشيك. وكل ما قاله هو الشكوى من تأخير الاموال. في زمن الكبت الذي مضى. ولن يعود. وصل الى شهرته على سلم صنعه له اليساريون. والآن يبيع اسمه مقابل مبلغ قادم من واشنطن. ورغم سنه يقول انه يريد قراءة القصة في شاليهات صحارى سيتي. مساء أي خميس قادم. اي ليلة الجمعة. فظيع مؤلم. اننا نتعامل مع التخلف بعينه.

بدت مرهقة متبعة. شاهد الجالسون قطرة عرق تنزل فوق خدها.

تـدحرجت وسط غـابـة التجـاعيـد التي اخفتهـا جيـداً بـالـديكـورات والاصبـاغ . مدت يـدهـا . مسحت القـطرة. ان العمل في مصر مسـألة مرهقة ومضنية .

استأذنت لإصلاح زينتها ودخلت. كان الحاضرون في حالة ذهول . خمسة آلاف جنيه لمجرد وضع اسم على القصة . تعبت الست الـدكتورة من مجـرد الحديث في التليفـون . كم هو مـليء هذا العـالم بكـل مـا هـو عجيب وشاذ من الأمور. استمرت فترة الصمت حتى عادت المخرجة . والتي عادت اليهم كانت مخرجة اخرى. لا علاقـة لها بـالمخرجـة التي ذهبت. تغيرت الاصباغ، وتغير الشعر. كانت شقراء منذ قليل. والآن شعرها أسود مفلفل. يبدو كجزء منتزع من فروة خروف الملابس كلهـا من الـوان تتفق مع الالـوان الجديـدة. جلست، طلبت لنفسها فنجـاناً ضخماً من القهوة السادة. امسكت برأسهـا بعصبية ظـاهرة. طلبت من مندوب السينما. كتابة مـا تم التوصـل اليه، حتى الآن. شكـا من عدم وجـود مكتب. ضغطت عـلى زر الجـرس المجاور لهـا. حضر الخـادم. طلبت منه احضار مكتب. ذهب الخـادم. وانظار الجميـع ذهبت معه. وعـاد وهو يـدفع امـامه مكتبـاً صغيراً متحـركاً فـوقه أبـاجورة. حـرك المكتب. الـذي كانت لـه اربع عجـلات. كانت الاعـين تتحـرك مـع المكتب. قال لهم المخرجة:

ـ انه عصر الديكور الامريكي المتحرك. انتهى زمن الثبات. .
سألها واحد من افراد العائلة:

ـ وهل السرير يتحرك. . ؟
ضحكت قائلة :

ـ هل تحب ان تراه؟
خجل ولم يرد. وتساءلت هي :

ـ منذ متى لم يدخله رجل . . ؟
قالت لمندوب السينما .
ـ انتهينا من المؤلف .

دون اسم المؤلف في أول صفحة أمامه .
اكملت :

ـ يبقى اختيار الطاقم الفني للفيلم .
اشار المندوب للعائلة :
انهم سيقومون بالادوار .
قالت له المخرجة بكلمات صارمة :

ـ لا بد من وجود نجوم من الدرجة الأولى . نجوم شباك تذاكر ، ولا بد من حضور ممثل وممثلة من امريكا . من اجل ضمان شباك التذاكر العالمي . بعد ضمان شباك التذاكر المحلي .

قال لها مندوب السينما :

ـ ولكن الفيلم لا يعنيه الربح . .

ردت عليه :

ـ النجوم لن يلعبوا الادوار لاسباب تجارية . ولكن بهدف الرواج .
نظرت الى العائلة وقالت :

ـ يكفينا اربعة ممثلين محترفين من نجوم الصف الاول . ممثل وممثلة من مصر . وممثل وممثلة من امريكا . ان ما قلته عن شباك التذاكر المحلي . وشباك التذاكر العالمي . القصد منه هو الرواج . وبقاء الفيلم اكبر مدة ممكنة . اتمنى لو بقي في احدى دور السينما الف اسبوع مثلاً .
هل فهمت؟

رد المندوب بالايجاب وقال لها :

ـ من حقك اختيار الطاقم الفني. ولكنك كنت بعيدة عن مصر، طوال السنوات الماضية.

ـ فعلاً كنت بعيدة. ولكني كنت اتابع كل شيء من أمريكا.

ما اقصده ان تتركي لي هذه المهمة. وسأعرض على معاليكِ كشف ترشيحات اولية صباح الغد. ومن حقك قبول او رفض هذه الترشيحات.

ـ اوكي . . . اوكي . .

اشار المندوب الى العائلة:

ـ وهؤلاء؟

قالت له بطريقتها:

ـ اشكرك. ذكرتني. سأفكر في الملابس والماكياج حتى الغد.

ـ والتصوير. هل يتم هناكِ؟

ـ سأذهب بنفسي في الغد. ولكن قبل ذهابي اود شرح تصوري.

ـ تفضلي.

اشارت له ان يقترب واشارت للعائلة ان تقترب. واشارت لمندوب الامن ان يقترب. وبعد ان شكلوا حلقة حولها. قالت بصوت اقرب الى الهمس.

ـ أريد ان تعيش العائلة في مقبرة خاصة باسرة غنية. وان تكون هذه المقبرة ملحقة بقصر هذه العائلة. لكي تتم المقارنة بين تمزق وبؤس ساكن القصر وسعادة ساكن القبر. . اقترب منها مندوب السينما. وقال بصوت هامس حتى لا يسمعه احد من الحلقة حولها:

ـ ولكن لا أحد يبني قبره بجوار قصره في هذه الايام. .

قالت له. . وهي تطلب منه السكوت بحركة من يدها:

ـ انـا اعرف. ان معلومـاتي غزيـرة جـداً عن مصر. ان بنـاء القصر بجوار القبر عادة فرعونية قديمة.

ـ ولكنها اندثرت.

ـ سنقدمها كتجسيد قوي لحنين مصر. لكي تعود مصر من جـديد. بعد مرحلة الاغتراب المصري. عندما طمسوا معـالمها بـدعوى القـومية العربية ثم ان الفكرة نفسها جيدة..

أية فكرة..

ـ هي الفكرة التي سيركز عليها الفيلم بصـورة اساسيـة. شقاء الغني بغناه وسعادة الفقـير بفقره. ورغبـة الطرفـين في تبادل مـواقعهما. ولكن الفقير يرفض هـذه الصفقة. لأن الفقـر مع الصحـة يطلب الفقـير بعيد النظر دوامها حتى الوفاة..

ـ حتى الوفاة..

ـ طبعـاً. لأن الفقر ان استمـر حتى الوفـاة ضمن الانسـان الجنـة في الآخرة وهي باقية. في حين ان كل ما في الدنيا فان والى زوال مؤكد..

صاح فيها المليونير:

ـ هذا غير صحيح وأنا ارفضه من الآن.

لم ترد المخرجة عليه.

قالت لمندوب الداخلية الذي لم تحدثه من قبل:

ـ هل رأيت؟ ان غياب الديمقراطيـة. طوال الفـترة التي ابتعدنـا فيها عن امريكا. جعل الناس تنسى أصـول الحوار الـديمقراطي.. معـذور هذا الرجل.

اكمل المليونير وكأنه لم يسمع كلامها:

ـ ما تقولينه تزييف لا أوافق عليه.

تكرمت هذه المرة وردت عليه:

لن يكون تزييفاً. لأن الفيلم سيقدمكم كعائلة متماسكة يحب افرادها بعضهم. وسكان القصر سيقدمهم لا يربط بينهم سوى الكراهية والتمزق والفجور والخلاعة، والعلاقات الجنسية الشاذة. يا عزيزي انت أحسن حالاً مني. الغني مثقل بغناه. أما انت فالمسألة بسيطة وسهلة، وخفيفة. ثم ان زرع الفضائل في النفوس يبدأ من الرضا والقناعة، وهناك معنى مصري لا بد من تأصيله في هذا الفيلم. وهو ان الفقير عندما يفكر في ان يصبح غنياً. يكون قد ارتكب جريمة في حق نفسه. لأنه يحرمها من فضائل الفقر الجميل. اوه. وصلت خلال الكلام الى عنوان الفيلم «الفقر الجميل» انه اسم مذهل.. أعود الى كلامي. ان المواطن يكون قد ارتكب ايضاً جريمة في حق أخيه الغني. والسؤال الذي لا بد من مناقشته هو: لماذا يريد الفقير ان يصبح غنياً. مع ان الغني يحسد الفقير على سعادة الفقر.

صاح المليونير:

ـ هذا تهريج مرفوض.

قالت له موضحة:

ـ يا عزيزي الحاج، انت ضحية سنوات الحقد والكراهية. ساعد مصر على ان تعثر على حقيقة مصر. اننا نمر الآن بمرحلة التأصيل الفكري. وأول اشكال التأصيل ان نجد مصر التي اضاعوها. بين جبال الحقد والحروب والدمار. وأول نقطة هي ان يبدأ كل منا بنفسه ان يحول ذاته الى نقطة من الحب. ان لا ينظر الى ما بيد غيره. ان يقنع بما اعطاه له الله سبحانه وتعالى. وان يطيع الحاكم. وبعد ان نعثر على مصر. تصبح المسألة كيف نحولها الى جنة. على ان تكون جنة مثل أمريكا. اقدم واعظم جنة على الأرض. ان المستقبل مشرق. بشرط

واحد ان نجعل مصر قطعة من أمريكا. ان ننقل امريكا الى هنا.

كانت قد تعبت. سكتت فجأة. وبدا صدرها يعلو ويهبط بصورة واضحة. انها تتنفس بصعوبة. ولكن هذا لم يقنع عباس المليونير بالتراجع. صاح فيها:

ـ لن نشترك في الفيلم. حتى لو اخذنا كل كنوز الأرض.

صاحت فيه الست الدكتورة وهي في قمة التعب:

ـ بل ستشترك

ـ لن اشترك

ـ ستمثل

ـ لن امثل

ـ ستفعل ما آمرك به

ـ لن افعل.

وصل الموقف الى حافة الصدام. ولكنها توقفت. اشارت لمندوب الامن وقالت:

ـ عموماً تلك هي مسئوليتك.

ثم اكملت مخاطبة الجميع:

ـ الفيلم عمل وطني. ورفض العمل فيه خيانة وطنية.

قال لها مندوب السينما:

ـ قد لا نحتاج لهم. في اسواق الكومبارس سنجد الملايين وقد نجد من بينهم من يعيشون في القبور و. . .

قاطعته وهي تقول آمرة:

ـ لا بد وان تمثل هذه العائلة بالذات حتى لو مثلوا تحت تهديد عصي الامن المركزي.

قال لها مندوب الامن السينهائي :

ـ تأكدي انهم سيشاركون. ان ما يحدث الآن مساومات من العائلة. للحصول على اكبر قدر ممكن من المال.

صاحت :

ـ فري جود. اذن نعتمد على الله.

اكمل مندوب السينها:

ـ وعلى أموال امريكا.

خبطت رأسها صائحة :

ـ شكراً لك. لقد ذكرتني. كدت انسى اهم ما في الموضوع كله.. ان نقطة البدء لم تتم حتى الآن.

سألها بخوف :

ـ ما هي.

قالت له وهي تشير له. طالبة منه الجلوس على المكتب:

ـ اذن اكتب خطاباً الى امريكا. اطلب فيه التصديق على الاعتماد المالي للفيلم. نطلب كم؟ كم؟ كم؟. مائة وخمسين الف دولار. تكفي؟ لا بد من دخول المبلغ الى دائرة المليون. نقول، نصف مليون دولار. بالعملة الصعبة. تحول على حسابي. وسأعطيك رقم الحساب. لا. سأكتبه في الاوراق بنفسي لأنه رقم سري. وبمجرد ان يصل التحويل سنبدأ على الفور. اسمع قل في آخر الخطاب ان هذا الرقم يشكل ميزانية مبدئية قابلة لأن تكون اكثر او اقل..

قال لها ضاحكاً:

ـ ولن تكون اقل ابداً..

ضحكا معاً. ولكنه توقف في منتصف الضحكة وقال لها مشيراً الى العائلة :

ـ هذا الكلام لا يجب ترديده أمام هؤلاء .
قالت له وهي تشير اليهم :
ـ وهل يفهم هؤلاء ما نقوله؟

تأهبوا للرحيل. قام افراد العائلة، تحركوا دون ان يسلموا عليها اقتربوا جميعهم من الباب. ولكن المخرجة طلبت منهم الوقوف جميعاً. وقفوا. اتجهت اليهم. قالت للعائلة :

ـ اجركم عن الفيلم. سيكون أجراً مختلفاً. هو الحصول على السكن المناسب لكم جميعاً. قبل البدء في العمل. ساجعل الحصول على السكن والحياة فيه خاتمة الفيلم السعيدة. وسأصور المحافظ وهو يسلمكم عقود التمليك. تمليك مجاني لن تدفعوا فيه مليماً واحداً. لأن ميزانية الفيلم هي التي ستدفع ان طلبت المحافظة مليماً واحداً. .

نادت المندوبين. اخذتهما الى جانب بعيد في الصالة الواسعة، قالت لمندوب الامن السينمائي :

ـ تحفظوا عليهم في مكان أمين. لا تحبسوهم. ولكنه تحفظ فقط. وفي مكان أمين. فهم ضمان النجاح الوحيد.

قال لها :
ـ من السهل التحفظ عليهم او سجنهم المسألة لا تفرق. .
قالت له تحذره :
ـ في نظر امريكا تفرق كثيراً.
وقالت لمندوب السينما الامنية :

ـ نسيت ان اذكرك. ضع في قائمة أعمال الغد. تدبير راقصة شرقية. استاذة في فن هز الوسط. انها حضارة الجنس والدين. ومطرب شعبي شهير وفتوة وكوميديان خفيف الظل وممثل معروف بأدائه لأدوار رجال

الـدين . شكـل لي لجنـة من بعض نقـاد السينـما والصحفيـين ورجـال الاعلام في الاذاعة والتليفزيون ومديري العلاقات العامة في الـوزارات المختلفـة وبعض الكتاب والمفكـرين ونجوم المجتمـع المصري . ورجال المال والاعمال . ستكون لجنة استشارية للفيلم على أعلى مستوى . وقـم بعمـل سجل لاجتـماعات هـذه اللجنة . ومن المفـروض ان تكـون قـد عقـدت اجتماعـين حتى الآن . كل من يحمـل لقب وحيد ضعـه فيها . . الكاتب الاوحد ، الروائي الاوحد . الموسيقار الاوحد . الناقـد الأوحد . نحن في الشرق . حضارة وشرعية الرجل الوحيد . إنـه الواقـع ذو البعد الواحد . والانسان ذو البعد الواحد .

اكملت بعد فترة :

ـ دون كل اقتراحاتك وترشيحاتك ولا تنس المبالغ المالية المطلوبة ولا تخش شيئاً ان كان المبلغ المرصود كميزانية للفيلم يبدو صغيراً فهـو مجرد ميزانية مبدئية . وقابل للزيادة . وغير قابل للنقصـان والأمريكـان شرفاء ولديهم شهامة لم نجربها من قبل .

وقف المندوب السينمائي . تصلب جسمـه . قال بصـوت عال وكـأنه يلقي خطبة :

ـ اوامر معالي الست الدكتورة أمريكا . تنفذ على الفور . أشّري فقط ونحن ننفذ كل المطلوب . اطلبي حتى لو كان الطلب سرقة الاهرامـات أو نقل النيل من مكانه .

اقـتربت منه اكـثر . حتى كادت ان تلتصق بـه . وضعت يدهـا عـلى خده :

شكراً يا جاهز .

٨

كلمات المؤلف الأخيرة

مع الكلمات الاخيرة من هذه الرواية، سأعود الى وحدتي، أعتصم بها من جديد. الوحدة تنعشني وتجدد روحي. ومن خلال صمتها أرى الامل من جديد، وسط حطام لا حد له. الوحدة تجدد شبابي، الوحدة علاجي وسلاحي، ومبرر رضائي الوحيد عن نفسي. وأنا أقول انه ليس ثمة امل أبداً. لا في نفسي أجد هذا الأمل. ولا لدى الآخرين. ولا في اي مظهر من مظاهر الواقع.

أقول، وانا رجل فنان اتكلم واشرح واحاول الفهم والاستيعاب بمنطق الفن وحده. ربما كنا على ابواب مرحلة انحطاط. لن أورد ما قاله صديق لي. ان الزمن يمر بنفس اطوار عمر الانسان، وان عصرنا وصل الى شيخوخته، وانه يموت الآن. ومع ذلك سيظل لفترة قادمة يمر بآلام الموت. ولن يموت الآن، لأن العصر الآخر، الذي سيخرج من رحم هذا العصر. لم توجد لديه شجاعة ان يوجد حتى الآن.

عملية مخاض غريبة، لا أحد يعرف الى متى تطول. انني احتفظ في ذاكرتي بأهم شيء في رحلة السقوط والانهيار التي نعيشها الآن. احتفظ بذكريات الزمن المبهج الذي مضى. زمن التألق والكبرياء. تبرق في الذاكرة. كلما حاصرني الانكسار واليأس ووصلت الهزيمة الى نخاعي.

احتفظ بهذه الذكريات ـ صدقوني ـ كما يحتفظ البخيل بذهبه في زمن يرفض الذهب ان يوجد فيه.

سأعود الى وحدتي، . فهي مرايا غير محرفة أرى فيها نفسي. وقبل العودة اقول انني لا أطمع ان تغير روايتي العالم. واقصى ما أتمناه ان يقرأها الآخرون. أدرك ان ذلك طريق لا جدوى منه. من المستحيل تحرير شعب بواسطة لغة أبوابها مغلقة أمام ٨٦٪ من ابنائه.

اتمنى لو ان ما اكتبه أدب شفهي. لا يعرف لغة الحرف المطبوع. واكره الشخص الذي اخترع المطبعة واتساءل: لم ابتلانا بهذه الآلة؟

اليوم هو السبت، التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٩٧٧. عام بأكمله مضى على وقفة العائلة في ميدان التحرير حول الكعكة الحجرية. عام مضى ومن المفروض ان ننهي معاً هذه الرواية العجيبة عند هذا الحد. لم تكن لدي شجاعة الانهاء ولا عند اشخاصها وليس ابطالها. ومع هذا جاء الواقع الخارجي من عنده بالنهاية، التي لم يكن يتوقعها أحد، ربما يقول البعض ان النهاية جاءت من الخارج. ومن قال ان داخل الحدث وخارجه مفصولان عن بعضهما البعض.

وقفت العائلة حول الكعكة الحجرية، وجرى ما جرى، وقال شخص ما، تعليقه على الذي جرى، ان الكعكة الحجرية ستصبح طوقاً ملتهباً من الغضب والكراهية والرفض. ولكن الغطاء الكثيف من اللامبالاة عند الناس جعل كل شيء يمضي كما هو.

من المفروض ان المؤلف الخارجي، اعطاني، انا المؤلف الداخلي هذا الفصل لكي اتكلم. ولكن بشرط ان تكون الكلمات الاخيرة. ففي الفصل بعد القادم ختام الرواية كلها. كنت اتمنى كتابة هذا الفصل باعصاب باردة ولكن من الصعب الحديث بهدوء وبرودة عن موضوع ملتهب.

في البيت، حاصرني الراديو والاصوات. قال صوت المذيع، الذي لا طعم له: السادات يبدأ من اليوم رحلة السلام الى القدس. واكمل مذيع آخر بصوت لا شخصية له: كارتر للسادات: سأتابع مع العالم كله. خطابك امام الكنيست. وقال كاتزير رئيس دولة اسرائيل، انه سيكون في استقبال السادات في اللد وهللت أصوات المذيعين: بشرى لكم يا سكان الوادي. اعلام مصر سترتفع في سماء القدس لأول مرة في هذا العصر على الا قل.

وتساءل شاب في الشارع: القدس؟ هل تم تحريرها بالجيش المصري ثم رفعوا العلم المصري عليها؟ هل فعلوا هذا دون الاعلان عنه، انه واحد من اهم عجائب هذا الزمان فأخذوه واختفى الشاب الى الابد.

وقال اعور بني اسرائيل، السفاح السابق، سنواجه موقفاً حرجاً اذا رفضنا يد السلام. واقول لنفسي، كما قلت من قبل ان الايام القادمة. ستتابع. يطرد كل منها الآخر في قسوة.

نزلت الى الشارع، وفي الشوارع كانت الناس تتكلم وكان يسيل من ملامح أصواتها الخوف. وكان في حناجر الناس جرح يسيل منه الدم مع الكلمات.

وصرخ صوت من ميكرفون معلق فوق مبنى للحزب الحاكم، سيتابع شعب مصر الرحلة على الهواء. عبر شاشات التليفزيون بالاقمار الصناعية. ورد عليه صوت آخر:

طائرة مصرية تهبط في مطار اللد لاتمام اجراءات ترتيبات الزيارة. واكمل الصوت: اجتماع استثنائي لحكومة بيجين. استدعاء بيريز ورابين من الخارج. برنامج عمل مفصل للسادات خلال زيارته التاريخية للقدس. تأييد لمبادرة الرئيس من الازهر ورجال الدين.

قلت لنفسي: اخشى ان يتحول ادب خيبة الامل الى ادب لليأس والاستسلام. اخاف ان تبدأ الهزيمة من الداخل. من قبل، كنت اقول ان المطلوب هو الدفاع ضد التفاهة في الواقع. ولكن اي واقع؟ انه واقع يفتقد حتى الى المعنى والى الروح.

أسلم نفسي لما يجري حولي. ابتعدت عن مبنى الحزب الحاكم. ولكن صوت الميكرفون كان يأتي من بعيد: العالم يحبس انفاسه في انتظار نتائج الزيارة. قلت: في هذه البلاد طبقة امتلأت بطونها حتى الشبع تنشد التسلية بأي شكل من الاشكال. طبقة قد تموت من كثرة التخمة ولكنها تريد تنسى ان في البلاد بطوناً قد يموت اصحابها من شدة الجوع.

منذ أيام، كنت في زيارة صديقي المفكر العظيم، الذي يرفض ان يشارك. قال لي بالحرف الواحد: دنس المشاركة اليومية. اغلق على نفسه باب بيته. لا يفتح الباب حتى للطارقين. قال لي الرجل وهو ينظر من نافذة منزله. القاهرة، انها بطن مصر الرخو وأكمل الرجل: ان قليلاً من العنف قد يشفي المعدة المصرية العليلة. قال لي الرجل: من يأكل لحم الفقير يختنق بعظامه. قلت له: ولكن من يأكل لحم الفقير يقول: اذا العصا في يدي فالحق في فمي. قال لي: دعهم يقولون.

وفي الاسواق، كانت هناك اعلانات عن شونجا، احدث عطور باريس. وكان هناك عطر باريسي آخر ينافسه. وقيل ان العطرين يدخلان مصر لأول مرة بعد زمن الانغلاق.

وفي أحد الشوارع سألت مذيعة مواطناً عن اكثر الفترات رعباً في حياته: فقال انه لا يخشى سوى الرعب المتحرك عند اشارة المرور وانه لا دخل له في السياسة. وقد وصل الرعب الى مداه عندما حلم ليلة الامس. وهو نائم، ان الأسد الذي في السيرك هرب من قفصه

الحديدي وأثار الرعب في المدينة. وان الاسد نام على بسطة سلمه في انتظار ان يصحو من نومه وان يخرج من غرفته الى الصالة، ومن الصالة الى السلم. حتى يصبح نقاطاً من الدم وكوماً من العظام وبعض اللحم.

وقال الذين كانوا يسمعونه، ان الرجل يهذي. وقال آخرون، انه ماكر ولا يريد ان يقول رأيه في اي شيء.

وادلى رئيس هيئة مرفق مياه القاهرة. بتحذير. كان وجهه متجهماً وكانت عروق رقبته منتفخة بهواء ساخن وهو يحذر. قال ان كل من يدعي ان المياه التي تنزل من الحنفيات غير نظيفة. وان من يدعي ذلك سيرفع عليه دعوى أمام القضاء بتهمة الادعاء الكاذب. ونشر الشائعات المغرضة.

قال لي صديقي المفكر، الذي يحلق في سماء استقلاليته، ان الناس تخسر الآن في كل مكان، وفي كل لحظة تمر. ان الكل يخسر ولكن القضية ليست حجم هذه الخسائر: بقدر ما هي من يصلح هذه الخسائر ذات يوم. ثم توقف وقال: في بلادنا يحدث لأول مرة ان تصبح الكتابة نفاية من النفايات. ويجب التعامل معها على هذا الاساس. قلت له: ان الكتابة هي خلاصي الوحيد. وبدونها اشعر ان الحياة تفتقد الى المعنى.

سألته، وماذا تكتب الآن ايها السيد العالي. المحلق في سماء الانفراد.

رد علي:

ـ اكتب دراسة طويلة.

سألته من جديد:

ـ عن أي الموضوعات؟

ابتسم مجهداً:

ـ عن سيكولوجية الحشاش.

وفي التليفـزيون، كـان الناس يشـاهدون فيلم بلبـل افنـدي للمـرة المائة. ومـع هذا كانت تطل الدهشة من أعينهم وتنـزلق التساؤلات من ملامح الوجوه. وعـلى شاشـات التليفزيـون المنتشرة في الغرف الضيقـة الخالية من الأثاث والهواء والطعام. وفي مقـاهي الأحياء الشعبيـة، كان فـريد الاطـرش وشاديـة وكمال الشنـاوي وصباح وكـان الفيلم غنـائيـاً راقصاً. يقوم على مفارقات بسبب الشبه بين الفتاة التي يحبها بلبل الذي هو فريد الاطرش. وقبـل عرض الفيلم غنت شهـرزاد يا نـاسيني. وفي الاذاعة كانت هناك تمثيلية عن الخليل ابراهيم لم يستمع اليها أحد. قال واحد: جاءت تمثيليات اللغة العـربية التي لا نفهم منهـا حرفـاً واحداً. وقرر الذهاب الى سينمات منطقة وسط المدينة حيث تتنـافس دور السينما في جذب المشاهدين. فذلك افضل من تمثيليات عن اللغة العربية.

سألت عن رباب، رباب حيدر (أنصح من نسيها من القراء ان يعود الى الفصل الأول من الرواية، سيجد ان هناك فصلاً كـاملاً عن ربـاب حيدر، الناقدة الادبية التي اعطاها المؤلف روايته. لكي تقرأها. وتقول رأيها فيها). في المرة الأولى، قالوا انها في السجن. وفي المرة الثانية كـان الصـوت بعيداً: قبضـوا عليها فجـر الامس. وفي الثالثـة: قيـل انها في المحكمة. ولا أحد يعرف ان كانت ستعود أم لا. هل يفرج عنها في قاعة المحكمـة أم تعاد الى السجن. وفي الـرابعة: كـان زوجها حـزيناً هـذه المرة، القوا القبض عليها وتركوه هو بمفرده. يريدون حرماننا من اهم ما يربطنا، القضية المشتركة. ولهذا عندما اتصلت في المرة الخامسة وعرفت ان الرجل قبض عليه هو الآخر، قلت ان ما يتمناه الرجـل قد حـدث. وفي المرة السادسـة لم يكن في المنزل أحـد. وكان رنـين جرس التليفـون

واضحاً. ولكني سمعت شريط تسجيل يعود. يدور ولكن الى الخلف. ويسترجع كافة مكالمات رباب حيدر وأسرتها. قلت ان الوطن اصبح اكبر من امكانيات رجال الامن. اتسعت الرقعة والامكانيات عليهم. وها هو جهاز التسجيل يعيد كل شيء من جديد.

وفي صحف زماننا الملطخة بحبر هذه الايام الكاذب. قرأت في الصباح انها متهمة في اكثر من قضية. تأسيس حزب، محاولة قلب نظام الحكم. التآمر ضد الدولة، العمالة، الاتصال بجهات اجنبية. محاولة اثارة الجماهير وتأليبها ضد النظام. شهود الاثبات. اذن النيابة، التفتيش وقت الفجر. القبض عليها.

وفي المساء، ملأ وجه الرئيس شاشات التليفزيون في طول البلاد وعرضها وتكلم عن القضايا كلها. وتوعد وهدد كعادته كل مساء. وقال ان الجرائم هذه المرة. بالصوت والصورة معاً.

قال انه سيقدم لجماهير شعبه تسجيلاً بالصوت والصورة لكل ما جرى. وقدم له موظف صغير. جهاز تسجيل. وقال الرئيس انه سيبدأ بالصوت ثم يقدم الصورة. ثم الصوت والصورة معاً. من خلال جهاز فيديو. وبذلك يكون الرئيس، الحريص على الحقيقة، والحقيقة وحدها، قد قدم الحقيقة مرة بالصوت، ومرة بالصورة. ومرة ثالثة بالصوت والصورة معاً. حتى يكون الامر مؤكداً.

مد الرئيس يده، ضغط على جهاز التسجيل .وحبست مصر انفاسها في انتظار الحقيقة التي سيقدمها الرئيس. ولكن الجهاز لم ينطق. نظر الرئيس في الجهاز اكثر من مرة. ولكن الجهاز قرر الصمت الى الابد. نادى الرئيس الموظف المسؤول عن الجهاز:

ـ يا ولد.

واحضر الصورة بدلاً من الصوت. كانت هناك شوارع مصرية.

فيها اناس يتحركون. البعض يسير ناحية الكاميرا. والبعض يبتعد عنها. ولكن عندما مد صبي اصبعيه وصنع بهما علامة النصر. انزعج الرئيس من هذه العلامة ونادى على الولد من جديد. وطلب اسكات الجهاز وايقاف العرض.

جفف الرئيس عرقه وكالعادة، قيل ان هناك عطلاً فنياً. وخشي الناس أن يتهم الذين اعدوا تسجيلات الصوت والصورة بأنهم متآمرون على الدولة.

كانت مصر حبلى بكل الاحتمالات وعلى شفتيها كانت تصرخ الكلمات. ترسم صورة دقيقة للموقف. ولكن سكان الباب العالي رفضوا ان ينصتوا للصوت المصري الصادق والذي لم يكن له هدف سوى انذارهم قبل فوات الأوان.

وفي صباح آخر، قرأت في الصحف ان رباب ستقف في المحكمة، متهمة بسبع تهم مرة واحدة. وان لها سبع قضايا. تعجبت من اختيار الرقم سبعة وان كنت واثقاً انها ستخرج براءة من كل هذه القضايا.

وفي سينما اوبرا عرضت ثورة النساء. وتواجد محمود يس في عشرة افلام في وقت واحد. كان مع سهير رمزي في صانع النجوم. وكان ثانياً مع فاتن حمامة في افواه وارانب وكان يبحث ثالثاً مع ميرفت امين عن شقة في وسط البلد. وفي سينما اخرى كان هناك فيلم عن الغيرة على الطريقة الايطالية.

سألت نفسي: كيف ومتى تصبح الكلمات مثل العجينة. لينة وجاهزة؟ انها لا تصبح هكذا، إلا عندما تكون لدينا الرغبة في الكذب. لحظة الدخول في اسواق السمسرة والبيع والشراء. عندما تنتفخ عروق رقابنا بالهواء الكاذب ونتكلم.

ولو فعلنا هذا مرة واحدة في العمر كله. سنقوم به الى الابد. وان حدث وعاد الزمن النظيف الى مصر مرة اخرى (وهل يحدث هذا؟) عموماً لنحلم ليس هناك ما يمنع من الحلم. (ولكن اين هي القدرة عليه؟) اقول عندما يأتي الزمن النظيف مرة اخرى. وعندما نريد العودة الى الكتابة بصدق وعندما نرغب في التعبير عن اشواق الحياة بداخلنا. عندما نطلب من الحرف أن يمهد للروح طريقها فإنه يهرب منا. يخون صدقنا الطارىء والجديد بعد ان خناه نحن من قبل. تصبح له قوة الاشجار وصمت القبور.

وفي تليفزيون مصر، هذا اليوم. كان الحب هو سيد الموقف. عرضوا فيلم هذا هو الحب ظهراً. وفي السهرة كان هناك فيلم ليتني ما عرفت الحب. وعلى القناة الاخرى كان هنك فيلم مطار الحب. لقد قرروا ان يكون الحديث عن الحب بديلاً لوجوده في حياة الناس. التي اكل الغضب قلوبها.

مررت في هذا اليوم على منطقة القبور. شيء ما يشدني اليها هذه الأيام. من قبل كنت احضر اليها من اجل الرؤية والمشاهدة. والبحث عن اجابات لأسئلة نهرب منها جميعاً. يبدو ان الهدف من الحضور تغير. لدي رغبة في البقاء هنا اكثر من الأول. اشعر ببعض الامان في هذه المنطقة. أصبحت اخشى هذه الرغبة الغريبة في الحضور الى هنا.

لاحظت هذه المرة، انه لا يوجد بائع واحد للجرائد والمجلات. والكتب في المنطقة كلها. سألت من اين يحصل الناس على الكتب والمجلات والجرائد. قالوا لي ان الكل يذهب الى الناحية الأخرى. حيث البيوت والشوارع. ومن هناك يعودون وهم معهم الجرائد والكتب والمجلات. سألت عن اقرب بائع جرائد الى المكان. قالوا والدهشة تطل من الوجوه: في ميدان الدراسة. سألت عن المكان

بالتحديد. فقالوا في موقف اوتوبيس الدراسة. لم اكن انا نفسي اعرف لماذا أسأل هـذه الاسئلة. ومع هـذا تدفقت الاسئلة في الـذهن: اقرب مدرسة الى المكان. قالـوا لي امرك غـريب. نحن نتصور ان تسـأل عن الخدمات التي تقدم لنا. ان تسأل عن اقرب نقـطة شرطة، اقـرب قسم شرطة اقرب مستودع بوتاجاز واقرب حنفية مياه الى القبر.

إن ذلك المساء البعيد. الذي يبدو مترهلاً في الذاكـرة. المساء الـذي قابلت فيه العائلة. قد ترك اثره في حـياتي بصورة أبعد مما كنت اتصـور. ويبدو انني انتقل من مجرد راو للحكاية الى طرف فيها.

وفي مساء تلك الليلة كانـوا يعرضـون: المتزوجـون، آنا آه وأنـا لأ. وشاهد ما شافش حاجة وكـان فريـد شوقي يغـازل حكومـة تلك الأيام ويعـرض لها مسرحيـة ترضيهـا: الحراميـة. وكانت كلمـة الحرامية قد دخلت قـاموس الحيـاة السياسيـة المصريـة من جـانب واحـد. جـانب الحكام. منذ يناير من ذلك العام.

في صبـاح هـذا اليـوم. بـدت الـغـرف في منـزلي وكـأنها كـبرت فـجـأة. شيـخـوخـة مفـاجئـة لم تـكن لهـا مقـدمـات طغت عليها. أصبحت أفتقد فيها دفء الترحاب القديم. والإلفـة بيني وبينها. وكنت أنظر فلا أجد ما يريح النظر أو الفكر. بدا لي بيتي وكـأنه غرفة عابرة ويبدوت وكأنني مسافر بـين الحجرات. حـاولت الخروج من ذلك الجو النفسي الخاص. وقلت لأفكر في الأمور العامـة. لأن أموري الخاصة ليست على ما يرام.

سألت نفسي: ماذا جرى في هذه البـلاد؟ من المؤكد أن حـالة التبلد تصيب من يعيش في ظل الإرهاب. عندما يعيش النـاس دون أن يكون لهم حق الشكـوى. إنهم يمرون بمـرحلة الامتعاض السلبي. أخشى أن يصل الناس إلى المرحلة التي لا يوجد فيها مـا يدعـو الناس إلى تفضيـل

أمر على غيره. ويا ويلنا لو وصلنا إلى هذا الحال.

وجرت مسابقة بين المطوفين من أجل الحصول على أكبر عدد ممكن من الحجاج وفي مطار القاهرة، دخل ١٥ ألف حاج من الباب الأمامي. بينما دخل عشرة آلاف من الباب الخلفي. فعدت هذه من ألوان الاختلاف في المعاملة، دون أن يكون هناك مبرر ما.

ولكن كل الأطعمة التي حملها الحجاج صودرت في المطار ولم يستثن من ذلك سوى المعلبات.

وفي مكتب مغلق مكيف، كان مسئول متوسط القيمة يقول: في استطاعة كل شخص أن يفعل ما يشاء ما دام يمتنع عن الشك في النظام القائم. إن الشعار معروف، إن ابتعد عن التفكير واستخدام الذهن نقول له: دعه يعمل، دعه يمر. إن الحدود في هذا الوطن واسعة جداً والحدود في هذا الوطن ضيقة جداً. كل شيء ممكن الحدوث. وكل شيء مستحيل الحدوث في نفس الوقت. الفارق الوحيد هو في استخدام الرأس الذي فوق الكتفين.

هناك من يستخدمه من أجل التفكير والفهم والاستعياب وفرز الأسئلة، وتلك كلها جرائم. وهناك من يستخدمه كمجرد زينة. لكي يضع فوقه شعراً وعلى العينين نظارة وفي الفم صفين من الأسنان الذهبية وعلى الفم شارب ضخم يقف عليه الصقر.

رد عليه مستمعه قائلاً: لكن ألا ترى أن ذلك يعكس سمة العصر، الذي يطرح علينا جميعاً نمطاً جديداً من الثقافة، لم تعرفه مصر من قبل، ثقافة محدثي النعمة التي تبحث عما هو ضخم ملفت للنظر. ويبالغ في مظاهر العظمة. خاصة وانها تفتقد إلى العظمة الروحية الداخلية، إن الكل يميل إلى ما هو زخرفي مثير، فاقع اللون. توجد

حالة ضعف خاصة إزاء الألوان البراقة والأشكال الوهاجة. التي تولد حالة من النشوة الحسية.

انزعج المسئول المتوسط المركز والمنصب والمسئوليات والقيمة، ذو الرأس الفارغ، الذي كان يمثل بطل العصر. وقف، وتصلب جسمه، وقبل أن ينهي المقابلة رفع يده، في منتصف المسافة. قال إنه حزين لأن المخبرين استولوا على عقل مستمعه. تسللوا إلى بعض العناصر الطيبة من أبناء هذا الوطن.

ومع هذا فالأمل في الإصلاح موجود، ولن يعرف اليأس طريقه إلى قلب أي إنسان أبداً.

وذهب ممثلو القوات المسلحة، زاروا قبور الشهداء. ووضعوا أكاليل الزهور على القبور، ورفعوا أياديهم، وقرأوا الفاتحة على أرواح الشهداء وتجولت الدموع في المآقي، وارتعشت الأصوات بالحزن واستيقظت الذكريات.

وتجمع حول قبور الشهداء في منطقة الدراسة بعض أهالي الشهداء حضروا من أماكن كثيرة في بر مصر.

وقررت وزارة التموين، أن تزيد كميات اللحوم المعروضة في المجمعات الاستهلاكية بنسبة ١٠٠٪ وأعلن متحدث باسم وزارة التموين، أن المجمعات الاستهلاكية ستعمل طوال أيام العيد، حتى منتصف الليل. وذلك من أجل تلبية احتياجات الجماهير. خاصة والعيد على الأبواب.

وضرب الناس كفاً بكف، وتساءلوا عن سر هذه المعاملة الجديدة. وقال واحد، لا بد وأنه وراء مضاعفة اللحوم وفتح الأبواب حتى منتصف الليل وتلبية احتياجات الجماهير ما وراءه من الأمور الجسام.

وقال آخر: إن الأيام ستكف لنا عن كل ما هو مثير وغريب.

وافتتح ممدوح سالم، الجزء الأخير من كوبري المشاة العلوي في رمسيس حتى يستمتع الجمهور الكريم، الذي عانى كثيراً في العيد الماضي.

كلمات قالها المؤلف وهو يسير في الشوارع: كيف تريدون مني أن أصمت؟ في الواقع كان الصمت مستحيلاً. الفقر ثروة الشعوب، لا تسألوا من ليس في بيته دقيق، فإن عقله غائب. هذا ما قاله الإمام الشافعي منذ قرون مضت. سيدي، لا يزال في مصر خير كثير ولا يزال فيها قوم يريدون أن يجنوا ثمار ما لم يزرعوا. هذا ما قاله كرومر عن مصر في كتابه المعروف. من معه يزاد ومن ليس معه يؤخذ منه. تلخيص مركز للحال في مصر. بدأ الأغنياء يغرقون في عرقهم. ولكنها قد لا تكون النهاية. إذ أردت أن تنظف سلم البيت فابدأ بأعلى درجة فيه. نصيحة فرعونية من أحد الحكماء لفراعنة مصر. كانت مصر كلها سمكة بدأت بالتعفن من الرأس. وكانت مصر تتجنب أن تنطق الكلمة المخيفة. كلمة الخلاص الحقيقي. ولكنها كانت تعيش حالة من المخاض. يرحل الزمان، يوماً وراء يوم، لا يزرع سوى المرارة في القلب والعطب في الروح. حين يزداد ما تملكه يقل ما تفهمه. ان الذهب والعقل لا يمشيان معاً. والأرض المحتلة لا تنبت سوى زهور الدم. كل عدوان هزيمة للمعتدى عليه. نحن سجناء الحرية. أصبحت القاهرة فوضى. مسببات الثورة كانت كثيرة ولكن الإشارات إليها كانت ضئيلة لحد الموت. السؤال يطرح على الواقع لا يجد أية إجابة. تليه المبادرة بالشكوى. ولكن الأمر كان يتوقف عند هذا الحد. نحن أبناء أيوب، أحفاد أيوب، مصنوعون من طينة أيوب. ومع كل الآلام فإن الصبر لا ينفد. حبال الصبر طويلة. أطول ما في حياتنا هي

حبال الصبر. وآبار التفاؤل والأمل لا تجف أبداً. إن السؤال الذي يطرح نفسه: هل أنت صبور تجاه صبر الآخرين عليك؟ شكل المأساة الناطقة والتي لا تحتاج إلى رتوش. وقبح الأحوال الذي لا يحتاج إلى قول أو تزويق. ورائحة العفن التي تخترق حتى الكمامات الواقية والمانعة للروائح الكريهة لقد وضعت يدي على الجرح النازف في قلب بلادي بلا انقطاع. إن تركناه سيظل ينزف وقد ينقطع قلب البلاد. ولهذا لا بد من وقف هذا النزيف الذي بلا نهاية. حتى لا تموت بلادنا وتصبح في خبر كان. أحياء القبور والصفيح والخنازير. أحزمة البؤس حول العاصمة.

كيف تريدون مني أن أصمت.؟ في الواقع كان الصمت مستحيلاً. وأعلن متحدث باسم وزارة الإعلام، ان عيد الأضحى المبارك. الذي يقف على أبواب مصر. يطرق الباب، يطلب الإذن بالدخول إلى ساحة الفرح المصري. عيد من نوع خاص. لهذا قرر التليفزيون أن يقدم أحد عشر فيلماً لم تقدم من قبل. وتعرض لأول مرة. وحيث أن إجازة هذا العيد خمسة أيام. فإن هذه الأفلام ستعرض بواقع فيلمين في اليوم الواحد. وذلك بخلاف الأفلام القديمة التي عرضت من قبل.

ونشرت الصحف رسائل إلى قائد النصر وهو في رحلة السلام. الأولى من وكيل الأزهر الشريف، والثانية من البابا شنودة، والثالثة من الدكتور حمدي السيد نقيب الأطباء والرابعة من سعد محمد أحمد وزير القوى العاملة والتدريب والخامسة من الدكتورة سعاد أبو السعود أمينة المرأة. والسادسة من فنان الشعب يوسف وهبى..

بجوار الرسائل خبر عن تثبيت الأسعار إلى ما وصلت إليه وتعهد انها لن ترتفع بعد ذلك أبداً. وتحت التعهد خبر عن إلقاء القبض على سارق الـ ٧٠ ألف جنيه من مسكن مقاول.

وكان الوفد الذي سافر إلى فلسطين المحتلة مكوناً من :

(١) الدكتور مصطفى خليل : الأمين الأول للجنة المركزية . وهو الذي طلب السفر تليفونياً من الرئيس . وقيل إنها كانت المرة الأولى . التي يطلب فيها طلباً من الرئيس . ولم ينس له الرئيس ذلك أبداً .

(٢) الفريق حسن التهامي : نائب رئيس الوزراء في رئاسة الجمهورية .

(٣) حسن أحمد كامل : رئيس ديوان رئيس الدولة .

(٤) الدكتور بطرس غالي : وزير الخارجية بالنيابة .

(٥) سعد محمد أحمد : وزير القوى العاملة والتدريب ورئيس اتحاد نقابات عمال مصر .

(٦) المهندس عثمان أحمد عثمان : رئيس المجموعة البرلمانية لمحافظة الإسماعيلية .

(٧) مصطفى كامل مراد : رئيس حزب الأحرار الإشتراكيين .

(٨) عبد الباري سليمان : عضو مجلس الشعب .

(٩) سالم اليماني : عضو مجلس الشعب .

وضبطت مباحث السياحة مواطناً فلسطينياً . وأهم ما في الأمر انه فلسطيني . وكان هذا المواطن يتزعم عصابة تقوم بعمليات النصب والاحتيال على السائحين العرب والأجانب .

وضبطت إدارة مكافحة المخدرات، محاولة لتهريب ٢ طن مخدرات . من حدود مصر الشرقية ثمنها ٣ ملايين جنيه . كان من المفروض أن توزع بمناسبة العيد . على أصحاب الكيف والمزاج والحشاشين . في هذه المرة . لم يجرؤ أحد على الحديث عن الحدود الشرقية لمصر . ومع من

نشترك فيها. ومن هي الدولة التي جاءت منها هذه المخدرات.

وتحدث السادات إلى مذيعة أمريكية تلفونياً. كان الصوت بعيداً يأتي ويذهب. وكان الرئيس كعادته يتكلم بكل لغات الأرض ما عدا لغة العرب. قال لها، والسعادة تقطر من نبرات صوته:

ـ لم أتداول في هذا القرار مع أي من زملائي الملوك والرؤساء العرب. لأن حالة الشك وفقدان الثقة لا تزال قائمة بين إسرائيل والعرب.

وفي ليل فندق شيراتون السابح في الأضواء، رقصت نجوى فؤاد على موسيقى ليل يا ليل لمحمد الموجي. وفي صحارى سيتي رقصت ففي عبده وزيزي مصطفى. وإن لم يعرف بالتحديد على أية موسيقى رقصتا ولا لمن كانت هذه الموسيقى. كل المؤكد أن الرقص كان في صحارى سيتي مع أن فيفي عبده كانت تسكن ـ في ذلك الوقت ـ في حي الزمالك.

وأعلنت وزارة الصناعة، أن الثلاجة عشرة قدم. حلم الطبقة الوسطى المصرية الدائم. ستباع بالتقسيط لأول مرة في تاريخ البلاد. والجدير بالذكر أن وعد وزارة الصناعة لم ينفذ أبداً.

وقال متحدث رياضي ان مصر هزمت أوغندا واحد صفر بعد مباراة طويلة وعنيفة.

وفي الجيزة، سرقت شغالة ساعة بأربعة آلاف جنيه من مخدومها وعرضتها للبيع بمائة جنيه فقط. وتمكنت أجهزة الأمن الساهرة على راحة الأغنياء من ضبط الخادمة قبل أن تبيع الساعة.

وأعلنت وزارة الكهرباء انه سيتم كهربة سواقي الريف المصري كلها ابتداء من هذا العام. وقالت إن سر عظمة هذا القرار، ان عمل

المواشي في السواقي يؤثر على لبنها. وان ساعة العمل في الساقية تستهلك كيلو من اللبن من البقرة أو الجاموسة. وان كهربة السواقي ستوفر لمصر ملايين الكيلوات من اللبن. وهذا القرار فضلاً عن أنه سيخفض من سعر اللبن. إلا أن كل طفل مصري سيجد كوباً من اللبن صباحاً وهو حلم مصري قديم. تحقق في الزمن الذي تحققت فيه كافة الأحلام. ثم اننا ستتمكن لأول مرة من تصدير اللبن إلى كل دول العالم بإذن الله.

وفي ندوة ليلية عن أزمة الإبداع لدى كتاب الرواية في مصر. قابلت صديق العمر. أو من يقول لي، إنه صديق العمر كل مساء. كانت المرة الأولى منذ سنوات. التي أدعى فيها إلى ندوة. وعندما وصلتني الدعوة تصورت انها جاءت عن طريق الخطأ. وأن المقصود بها شخص آخر ولكنهم أكدوا لي أنني المقصود بالدعوة. فذهبت وأنا أعد ذلك من النوادر في هذه الأيام التي كثرت فيها النوادر.

كانوا أربعة. وبعد أن فتحوا أجهزة التسجيل وأعطيت الفرصة لنا لكي نتكلم. أن يتكلم كل منا عن تجربته مع الإبداع. فوجئت بصديق العمر يسألني:

هل ما تكتبه أدباً؟

سألته بدوري:

ـ وماذا أكتب إذن؟

اعتدل صديق العمر في جلسته وقال، وكأنه قد أعد كل هذه الأسئلة على طرف لسانه قبل أن يحضر إلى هنا. قال:

ـ أنت تكتب منشورات سياسية. تكلم وأجب في الحال. لماذا يخلو أدبك من المفردات الجمالية التي يتطلبها فن الرواية الجميل.

وقبل أن أستوعب السؤال ويستدير بداخلي وأبدأ في الإجابة عليه. أتى السؤال الثاني:

ـ ما هي آخر مرة زرت فيها قريتك. ؟ القرية التي تكتب عنها. إنك دون أن تدري تقطع صلتك بالواقع الذي تكتب عنه.

كان صديق العمر مندفعاً وكان يلهث وهو يتكلم. وكانت الكلمات تتسابق على ذهنه وتتزلق على لسانه بسرعة. ويبدو أنه أدرك سخف الموقف فقال:

ـ آسف، ليس من حقي السؤال. ولكني فقط أردت أن أسخن الندوة وأن أعطي صديق العمر فرصة العمر لايضاح بعض القضايا الهامة المتعلقة به.

قلت كلاماً. لا أعرف كيف خرج من فمي، وكيف اصطدم بجهاز التسجيل. ولكني كنت أعيش حكايتي مع صديق العمر من الألف إلى الياء. من لحظة ذهابي الأولى إليه. وفي هذه الجلسة. ولأن هذه الحكاية، لها مكان آخر في عمل آخر. أتوقف عند هذا الحد.

وفي ديار الأعداء التي يسافر إليها الرئيس المؤمن اتخذت أكبر احتياطات أمن في تاريخ البلاد. وقيل ان ثلاثة آلاف صحفي حضروا إلى البلاد لتغطية هذه الزيارة. وإن حادث نزول الإنسان على القمر لأول مرة لم يحظ بهذا القدر من الاهتمام غير العادي من العالم كله.

والغى الرئيس الامريكي كارتر برنامجه اليومي. لكي يشاهد الرئيس المؤمن بالاقمار الصناعية وهو يخطب في كنيست الأعداء.

وتحدثت السيدة الأولى على مدى ٩٠ دقيقة. ساعة ونصف الساعة بالتمام والكمال عن أصعب أيام العمر واحلاها. وتكلمت عن احدث ما شاهدته في العالم كله شرقاً وغرباً.

تداخلت الاشياء في ذهني، كنت أخرج من منطقة القبور. وأنا أحسب في الذهن متى أعود اليها من جديد. بعد يوم، يومين، ثلاثة. وكنت أعيش بعين الخيال في شقتي البعيدة والرواية التي أعمل فيها عن حياة هؤلاء الناس. الرواية التي اكتبها في حجرة مريحة. اجلس على كرسي فوقه مخدة من الاسفنج وأمامي أباجورة مستوردة وبجواري الترمس المليء بالشاي الساخن وأمامي السجائر. اكتب وانا استمع الى الموسيقى الحالمة. تنبعث من جهاز تسجيل موضوع بجانبي. وأمامي في آخر الغرفة مروحة ودفاية على استعداد لتلطيف حالة الجو في الصيف وفي الشتاء فوراً. وعندما تقع عيناي عليهما. لا بد من استبدال هذه الأجهزة البدائية بجهاز تكييف عند أول فرصة. اسفل منزلي سيارة. وفي ثلاجتي خزين من المواد الغذائية يكفيني عاماً قادماً بأكمله. ومع هذا لا مفر من الضحك على القارىء والارتزاق من الحديث عن الذين لا يجدون سكناً ويكاد البعض منهم ان يموت من الجوع ولا توجد لديه وسيلة انتقال سوى قدميه. لأنه لا يملك ثمن تذكرة الاوتوبيس.

أليست لعبة طريفة مني. ولعبة طريفة من القارىء أيضاً؟ أعرف ان القارىء الذي يتمكن من شراء نسخة من هذه الرواية مستريح أيضاً في حياته. ربما كان يقرأ بعض الصفحات بعجلة وسرعة لأن لديه موعداً لتناول طعام العشاء في مطعم على اطراف المدينة. لا يمكنه الذهاب اليه سوى في سيارة خاصة. به حوض اسماك ينظر فيه الزبون. ويحدد السمكة التي يريدها. يصطادها له أحد عمال المطعم وتطهى امام عيني الزبون. أو في مطعم آخر بعيد بعيد هو الآخر. يحضرون له الدجاجة حية. ويضحك كثيراً على الفزع الذي يصيبها ويتشبث بعينيها قبل الذبح مباشرة ثم تشوى على بخار ماء يغلي.

وأنا لا أقول ان بعض القراء هم الذين ذهبوا الى مثل هذا المطعم

فقط. ذهبت اليه انا ايضاً اكثر من مرة. إما داعياً أو مدعواً.

وفي الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والاربعين وصلت الى الاسماعيلية طائرة هليوكبتر قادمة من القاهرة. كانت تقل المهندس سيد مرعي رئيس مجلس الشعب. وممدوح سالم رئيس مجلس الوزارة. والفريق أول محمد عبد الغني الجمسي نائب رئيس الوزراء. ووزير الحربية. حضروا من القاهرة ليكونوا في وداع المؤمن. عندما استقل طائرة هليوكبتر اقلته من استراحة جزيرة الفرسان الى مطار أبو صوير بجوار الاسماعيلية. حيث استقل طائرة أخرى أقلته الى القدس المحتلة. وكان ذلك في الساعة السابعة وعشرين دقيقة.

وقبل اقلاع الطائرة. اتجه المؤمن الى طياري وقائد قاعدة ابو صوير الجوية وصافحهم. وقد اصطحب الرئيس معه المعلق الامريكي والتر كرونكايت بشكل خاص.

كان الوضع غريباً. لم يكن أمامي. بعد ان وصلت الامور الى ما وصلت اليه سوى طريقين. إما الاستسلام والهجرة نحو الداخل أو الوقوف على الأرض ورفع الرأس عالياً.

اكتشفت انني لا أخشى الليل القادم. وسيظل صوتي عذباً رغم كل هذا الظلام الذي يطبق على الوطن بكل من فيه. سأحاول الغناء للأمل القادم. ومن المؤكد انه سيتولد عن آلام المخاض اطيب ما في هذا الوطن. وان كنت اقول لنفسي ـ في اللحظة الراهنة، انه لا يوجد ما يستحق تعب الكتابة. لا شيء سوى المأساة الكبرى والليل الطويل القادم. والسجن الصغير الذي سيتحول الى سجن كبير. ودموع الابرياء ولا جدوى استشهاد الشهداء وقيصر الجديد بعد القيصر الحالي.

وسأل المذيع الامريكي الرئيس بصورة مباغتة:

ـ وهل استشرت يا سيادة الرئيس شعبك قبل السفر الى فلسطين التي يحتلها الاعداء؟

وقال المؤمن، انه لم يفكر في ذلك من الأساس. ليس لأنه دكتاتور لا يعود الى الشعب في قراراته المصيرية والهامة. ولكن لأنه ملهم. يعرف بحسه الخاص ان هذا القرار لا بد وان يرضى به الشعب. كل الشعب.

تساءل المذيع:

ـ كل الشعب؟

قال المؤمن:

ـ تمام، كل الشعب المصري فرداً فرداً. قال انه ملهم. وقدرة الملهمين من الزعماء. ان يعرفوا من على البعد. ماذا تريد شعوبهم ثم يحققوا ذلك على الفور.

انه الالهام الآلهي والرباني.

قابلني صديق. قال لي انهم القوا القبض على عدد كبير من المثقفين سألته عن السبب، ضحك وقال لي: لا تسأل عن السبب في القاء القبض على أحد في بلادنا. وفي هذا الزمان بالذات، خلق الانسان ليقبض عليه. السجن هو القاعدة والحرية هي الاستثناء النادر الحدوث.

هذه المرة، القوا القبض على كل من قد يفكر في معارضة القفزة نحو المجهول التي يقوم بها المؤمن مساء اليوم. سألته وهل تعرف أحداً من الذين القي القبض عليهم. قال لي وكأنه يحفظ الاسماء:

ـ خذ عندك الذين يلقى القبض عليهم كل مرة. رباب حيدر، زوجها ابنها الأكبر.

اكمل باقي الاسماء. يبدو ان الكشوف الموجودة لديهم لم يدخل عليها اي تغيير منذ سنوات مضت. نفس الأسماء التي يلقى عليها القبض في كل مناسبة تمر بالبلاد. لا يفكرون في التجديد او التغيير او الاستبدال.

قال صديقي:

ـ حتى تتم الرحلة، لا بد من القاء القبض على هذا العدد من الناس. ان ذلك يحدث في كل مرة تقريباً.

سألته:

ـ وفي الكشوف بعض الموتى..،

قال:

ـ مطلوب القبض على بعض الموتى فعلاً. وأهاليهم أعطوهم عناوين القبور لكي يلقوا القبض عليهم فيها..

قلت:

ـ القبض على الناس حتى ولو في القبر.. إنه عصر الحرية..

٩

النهاية الثالثة:
المصري الفصيح يبحث عن ضهريته في بر مصر كله

في ذلك الصباح، الذي لم يكن جميلاً بالنسبة للعائلة، ادركوا ان ثمة أمراً ما سيحدث لهم. جمعوهم. التقت العائلة ببعضها بعد فراق دام فترات السجن. والتحقيق معهم. سألوا عن حكاية جمعهم. كان الرد مقتضباً:

ـ مجرد نقل الى مكان آخر.

كانت التساؤلات كثيرة:

ـ ولكن ما مبرر النقل؟

التحقيق لا يزال مستمراً، ومن المفروض ان يبقوا في نفس الموضع، حتى تصدر الاحكام ثم يبدأ التنفيذ. وحتى في هذه الحالة لن يكون هناك ترحيل. لأنهم من سكان العاصمة وليسوا من المحافظات.

وكان الرد على كافة التساؤلات واحداً:

ـ الاوامر صدرت. والاوامر هي الاوامر ولا بد من التنفيذ.

بدت لهم الشوارع جديدة على الأعين. راحوا يلتقطون الجزئيات الصغيرة في واقع الحياة. التي ابتعدوا عنها فترة من الوقت. الشوارع، مياه المجاري، الزبالة، عربات الفول، الافران، الأرغفة السمرا

الساخنة والتي يخرج منها البخار الابيض. الشباب والتسكع على النواصي. النساء والاسواق بكافة انواعها. اسواق الاحياء الراقية واسواق الاحياء الشعبية.

عندما انتظم سير السيارات في شارع رمسيس. قال المليونير:

ـ الموكب

تساءل الاستاذ:

ـ الى أين؟

رد عليه واحد من رجال الامن:

ـ مجرد ابعاد مؤقت عن القاهرة. سيتم توفير حياة آمنة سعيدة، بعيداً عن القاهرة المزدحمة والحادة. والتي تعاني من مشاكل الدنيا كلها.

قال الاستاذ، معلقاً، قبل ان يسترسل الرجل في حديثه عن متاعب القاهرة:

ـ منفى اذن.

صاح فيه الضابط:

ـ حذار من هذه الكلمة التي لقنكم إياها الخونة.

قال له الضابط، ان المنفى معناه ابعادهم عن مصر كلها. وما يتم معهم الآن ليس منفى او غيره. انه مجرد ابعاد او اعادة لهم الى القرية الاصلية التي حضروا منها. لا أكثر ولا أقل. وهذا اجراء لا يمس الحرية الشخصية أبداً.

قال الاستاذ:

ـ انه الطريق الى السجن مروراً بالبلد الاصلي.

قال واحد من افراد العائلة:

ـ قد يكون سجناً من نوع جديد. لم يعرفه احد من قبل.

فكروا جميعاً، كل بطريقتـه الخاصـة في الامر. بـدا لهم القبر الـذي كانوا يعيشـون فيه. أمـر معلوم. افضل الف مـرة من المجهول القـادم الـذي لا يعرفـون عنه اي شيء. شعـروا بالحنـين للقبر. بـدا أمـلاً من الصعب الحلم بـه الآن. والسجن ايضـاً كـان أفضـل من الغـد الـذي ينتظرهم.

ثم ان المليونير لا يعرف سوى اسم قريته فقط. أما المركز والمحافـظة فلا يعرف عنهما أي شيء. حتى القرية لا يذكر معالمها. خـرج منها طفـلاً وتاهت من الذهن كل الذكريات القديمة.

قرر المليونير ان يتوقف. ان يقول لهم. ان الاسرة موافقة على العودة الى القبر الذي خرجوا منـه. ولكنهم يرفضـون فكرة العـودة الى القريـة التي لا يعرفون سوى اسمها فقط. فكر المليونير وصمم بينه وبـين نفسه عـلى ان يفعل هـذا. ولكن حجم الحراسـة وكميـة الاسلحـة. جعلتـه يدرك صعوبة وربما استحالة ان يفعل هذا. فقرر السكوت.

قال الاستاذ:

ـ لماذا لا نقدم الى المحكمة؟

ان الـبراءة او الادانة. أمـور أفضل من الـوضـع الـذي يحـدث لهم الآن. لم يرد عليه أحد.

في هذه الرواية أربعة مواقف تصلح صوراً تذكارية للعائلة كلها. أو محطات في طريق تـطور الحدث. وتصلح ايضـاً اساسـاً لتصميم اغلفة الاجـزاء الثلاثـة من الروايـة. والمؤلف الاصلي. كـان يتمنى لو اصبح مؤلفاً شاملاً. يقوم بكل المطلوب. يكتب ويخرج ويصمم الغلاف. لـو قام المؤلف بهذا الدور لالتقط ثلاث صـور فوتـوغرافيـة للعائلة في هـذه المـواقف الأربعة. ووضعهـا على الغـلاف. عـلى ان تـوجـد في خلفيـة

الصورة شواهد قبور. ومن بين شاهدين يصل هيكل عمارة تحت التشطيب. عمارة تقف في المنطقة الحرجة بين الحقيقة والحلم.

الموقف الاول التقينا به عندما قابلنا العائلة كلها لأول مرة وقدمها لنا المؤلف تحت عنوان: وجوه من رحلة التعب. وقدمها على شكل شجرة كما تفعل العائلات الكبيرة. وهو يقع في الجزء الأول من الرواية.

الموقف الثاني هو موقف المزاد في ميدان التحرير. وهو يقع في الجزء الثاني من الرواية. والموقف الثالث هو ما سيتحدث عنه المؤلف الآن.

أما الموقف الرابع والاخير. فيأتي في الفصل القادم. وهو الفصل الأخير من الجزء الثالث والأخير من الرواية. وفيه تقف العائلة للمرة الأخيرة في الرواية لتكون في استقبال العائد من القدس تنفيذاً لأوامر عليا من الدولة. تتصل بالصالح القومي العام لمصر أم الدنيا ـ هكذا قال لهم من احضرهم بالقوة.

الموقف الثالث يحدث على محطة مصر، محطة السكة الحديد. حيث بدأت العائلة رحلة البحث عن قريتها. التي أتت منها الى القاهرة. وقد دام البحث طويلاً. ولم تعثر العائلة على هذ القرية أبداً. كانت هناك اكثر من قرية تحمل نفس الاسم. وكان من الصعب تحديد من اي هذه القرى خرجت العائلة.

وخروج العائلة من القاهرة، كان من المفروض ان يمثل إحدى نهايات الرواية الثلاث. وكان المؤلف في تخطيطه المبدئي. ينوي أن ينهي الرواية ـ تماماً كما بدأها ـ بثلاث نهايات. واحدة ضاحكة حتى الدموع. والثالثة: دامعة حتى الرغبة في الضحك. والثانية وسط تجمع ما بين الضحك والدموع. ولأن الضحك لم يعد ممكناً في مصر هذه الايام فستتغلب الرغبة في البكاء على الرغبة في الضحك.

كان المؤلف ينوي التوقف نهائياً عند هذا المشهد. في محطة السكة الحديد. وينفض يديه من هذه الرواية. التي اكملت العام السادس من العمل فيها. لولا ان العائلة فشلت في العثور على قرية لها.

وهذا ما سنعرفه في هذا الفصل. ثم حدثت ازمة محيرة وهي التصرف في امر هذه العائلة. الى ان اتى الحل من خارج المشهد والاحداث وايقاع الرواية نفسها. وهذا ما سنعرفه في الفصلين الحالي والقادم. وهما آخر فصول هذه الرواية. ولن يزيد المؤلف حرفاً واحداً عليهما. مهما كانت الظروف.

الأمور الخارجية التي فرضت نفسها على الرواية، اقتضته ضرورة أن تعود الاسرة الى القاهرة مرة اخرى. فأعادوها. رغم قرار ابعادها السابق. وبعد ان قامت بالمهمة التي عادت من اجلها. لم يكن هناك مفر من ان تعود الأسرة الى القبر من جديد.

كانت الساعة هي السادسة من صباح يوم قاهري عادي. عندما وصلت العائلة الى محطة السكة الحديد. سبقت وصولها اجراءأت امن غير عادية. ثم وصلت العائلة في اكثر من سيارة. تسبقهم سيارة حراسة. ووراءهم سيارة حراسة اخرى. وعلى الجانبين سيارات الحراسة وكان يقود هذا العدد من الحراس ضابط معه اوراق رسمية بالمهمة التي سيقوم بها.

كان القرار قد صدر قبل هذا الصباح ببضعة ايام. وكان مع الضابط اوراق بها اسماء سبع قرى اسمها الضهرية. وكان المفروض المرور على هذه القرى السبع حتى يتعرف الناس في احد هذه القرى على العائلة. وتتعرف العائلة على قريتها. فيتركها فيها ويعود.

يبدو الكلام الآن وكأنه محاولة للقفز فوق الواقع. ولا بد ان

القارىء يتساءل الآن: ما هي حكاية الترحيل من الاساس؟ وما دخلها في سياق احداث الرواية؟ ولكي يجيب المؤلف على هذه التساؤلات فإنه يترك العائلة لحظة دخولها الى محطة مصر وسط اجراءات امن ضخمة ليعود الى قرار الترحيل. ترحيل الخطرين على الامن العام من القاهرة.

كيف خرج القرار الى النور؟ ومن الذي اصدره؟ وما هي الحكمة في صدوره؟ المؤلف يعرف ان من يملكون هذا الوطن قادرون على إصدار أية قرارات، دون النظر الى أية اعتبارات. ولا يعنيهم حتى الحفاظ على الشكل العام. ولكنه يحاول البحث عما وراء هذا القرار. من خلال الوقائع ذاتها.

تمت الدعوة الى عقد اجتماع كبير. حضره كبار رجال الامن في البلاد.

الاجتماع كان مفاجئاً. وتم ابلاغ المسئولين به بوسيلة او بأخرى. لم تسعف الآلة العصرية المسماة بالتليفون كوسيلة للاتصال. فتم الاتصال بوسائل أخرى. لم تتضمن الدعوة الى عقد الاجتماع أية تفصيلات عنه. ولهذا عندما حضر كبار الضباط الى مكان الاجتماع، وانتزعوا من حياتهم اليومية العادية. كانت الدهشة تعلو الوجوه. وكان هناك مع الدهشة غضب وتوقع ومحاولة معرفة السبب الحقيقي من هذا الاجتماع، الذي افسد لهم مشروعاتهم العائلية. لقضاء جزء من اليوم وسهرة كاملة بعيداً عن العمل في مدينة الألف ملهى والألف مطعم فاخر والألف كازينو، والعدد الذي لا يحصى من الشقق المفروشة والألف شاليه، والكميات الهائلة من اللحم الابيض والافخاذ الرشيقة والصدور اللينة والمساحات الممطوطة من الغنج والتأوهات والآهات الليلية والنهارية.

قبل الاجتماع الرسمي. سأل البعض عن الحكاية. الذين يعرفون

خجلوا، لم يقولوا لمن لا يعرفون شيئاً عما جرى وعن سبب الاجتماع .

بدأ الاجتماع صامتاً مهيباً، جلسوا حول منضدة طويلة، وامام كل منهم دوسيه. بداخله اوراق بيضاء وبجواره قلم ابيض. وفي مواجهة فمه تماماً ميكروفون يلمع تنعكس عليها الاضواء بشكل جميل. والأضواء كانت تأتي من امكنة سحرية وبصورة غير مباشرة. وفي الأركان الأربعة والزوايا المختلفة اهرامات من التليفونات الكثيرة. المختلفة الالوان والاشكال والاحجام. وفي مواجهة المدير، لوحة عليها الاعلام وشهادات التقدير التي حصلت عليها المديرية تقديراً لدورها في حفظ الامن العام والنظام وحماية الضعيف وايقاف الظالم عند حده. واقامة الحدود بين خلق الله المساكين. ولوحة اخرى فيها صور من تولى منصب المدير من قبل. منذ ان عرفت البلاد فن التصوير. صنوف طويلة من الاسماء والبيانات تحتها.

دخل الضباط اولا. جلس كل منهم في مكانه، سوى ملابسه. امتدت يد كل ضابط باليد اليمنى وامسكت بالقلم ولم تدون شيئاً. اختبر بعضهم الميكروفونات بهزها أو الدق عليها.

دخل الضابط الكبير فوقفوا جميعاً. مد يديه مبتسماً واشار لهم ان يجلسوا دخل خلفه جندي بسرعة وسحب كرسيه. وبدأ الضابط الكبير يجلس فدفع الجندي الكرسي بعظمة مفصل قدميه. فجلس المدير مستريحاً. دخل وراءه ضابط يحمل الأوراق والملفات والاقلام وعلبة السيجار وعلبة كبريت ضخمة لم يرها واحد من الضباط من قبل. فقالوا انها مستوردة. تذكر بعضهم ان المدير عاد منذ ايام من الخارج. حيث كان في رحلة الى امريكا، الصديقة العزيزة. لدراسة احدث الوسائل لتفريق ومنع المتظاهرين وتأديبهم.

قال ضابط لنفسه: اذن فهو كبريت امريكي. وما دام من هناك فهو

كبريت عبقري وعظيم ومذهل. ولا توجد لديه أية نوايا خبيثة ضد الانسان المصري. مثل الانفجار واحداث بعض التلفيات أو الامتناع عن الاشتعال.

قرر الضابط، الذي كان مشغولاً بعملية الكبريت، عندما تعطى له الكلمة، . ان يقول للمدير حمداً لله على السلامة. ويتمنى ان تكون رحلة موفقة، الى بلاد الاصدقاء العظام. وبذلك ينفرد دون باقي زملائه. بأنه هو الوحيد الذي يتابع المدير في كل خطواته.

تمنى الا يسبقه احد في تقديم هذه اللفتة الانسانية، وندم لأنه لم يدخل مكتب المدير على انفراد ليقدم له التهنئة. تعكر مزاجه بسبب ضياع هذه الفرصة. وقرر ان يراعي مثل هذه الامور مستقبلاً.

جلس الرجل الكبير صامتاً، لم يتكلم. خلع النظارة البنية الغامقة ولبس نظارة اخرى بيضاء. عادة جديدة، يبدو ان الرجل الكبير تعلمها خلال وجوده في القارة الامريكية السعيدة. وربما ان عين الضابط الكبير موجوعة.

ضغط المدير على زر بجواره. دخل جندي. عظمه وحياه وخبط الارض بعنف هز المكتب. اشار المدير لحامل هرم التليفونات المتحرك القريب منه. شده العسكري حتى أصبحت تحت يد المدير. وقبل ان ينصرف العسكري أشار المديرإلى الاشجار المزروعة في اركان الغرفة وبجوار الحوائط وتشكل مربعاً. كانت الاصص جافة. وتعليمات الرجل الكبير. انه لا بد من وجود المياه دائماً حول الزرع. اقسم الجندي ان الزرع روي صباح اليوم بمياه صابحة. وانه لم يكن احد يعرف بامر هذا الاجتماع المفاجيء.

اشار المدير بيده. اشارة لم يفهمها العسكري. ولأنه لم يدرك ما يريده المدير حيا وانصرف. وعاد ومعه الماء. وبدأ يروي الزرع.

رفع الرجل الكبير سماعة احد التليفونات فرد عليه سكرتيره الخاص. الضابط الجالس على يمينه هو اركان حرب المديرية. احتار: كيف يفرق الرجل الكبير التليفونات عن بعضها. سأل نفسه: هل سيستطيع هو في المستقبل ان يفرق بين التليفونات بهذه السهولة. عد التليفونات. اكتشف في هذه اللحظة انها ستة. اكتشف انه لا يعرف الجهات التي تتصل بها. وان ذلك خطأ أساسي منه.

تكلم المدير، بصوت بطيء وبكلمات حاسمة. يده اليسرى ممسكة بالسماعة واليمنى فيها قلم رصاص. كان يخط على الورق وهو يعطي التعليمات. الضابط الذي يجلس على يساره كان نائبه. رأى في ذلك نوعاً من الابهة والعظمة فقرر ان يفعل هذا في الاجتماعات التي يراسها في غياب المدير.

مد النائب عينيه ليرى ماذا يكتب المدير في الورقة. وحاول ان يستمع الى التعليمات الهامة التي يصدرها قبل هذا الاجتماع. كان المدير يرسم، رسم عنقود عنب. وكتب كلمة دولار. ورسم قلباً وبه سهم واكثر من نقطة تنزف منه. وتحت الكل سلم متجه الى اعلى. ومهيأ لمن يصعد عليه.

أما التعليمات التي اصدرها الرجل الكبير لسكرتيره الخاص فكانت كالتالي:

اولا: كل المشروبات والمأكولات تدخل قبل بدء الاجتماع، مرة واحدة، لأنه لن يسمح لأحد بالدخول، اثناء الاجتماع. مهما كانت الاسباب. وسيقوم الضباط بخدمة انفسهم. ابتداء من الضابط الكبير نفسه. ومن الممكن ان يكون ذلك خبراً في باب الاجتماعيات في الصحف القومية. يقدم على انها المرة الأولى. التي يحدث فيها هذا الموقف الانساني من كبار الضباط. ويقال ايضاً ان المطلوب من

الآخرين الاقتداء بنا. لأنه لا يجب لانسان ان يعمل في خدمة انسان آخر.

ثانياً: اي اتصال تليفوني من الجهات العليا. والجهات العليا فقط يوصل الي فوراً. أما دون ذلك فيقال انني في اجتماع خطير.

ثالثاً: يعين جندي نوبتجي بجوار التليفون المباشر في مكتبي للرد على التليفونات المباشرة طوال وقت الاجتماع.

رابعاً: تدخل الصحافة للتصوير الآن. ويكتب بيان عن الاجتماع لمندوبي الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية لدى المديرية. يقال فيه ان الاجتماع امتد حتى الفجر. واننا تدارسنا فيه حال الامن العام. وتوفير الهدوء ومحاربة الضوضاء وتنقية الهواء من الأصوات المزعجة في العاصمة. وان هناك نية للقيام بحملة نظافة شاملة في الأحياء الشعبية. ولا يشار الى السبب الحقيقي لهذا الاجتماع.

وضع الرجل الكبير سماعة التليفون. وحدث الهجوم الضخم على قاعة الاجتماعات. في البداية وصلت سيارات المأكولات والمشروبات. ثم ما امكن جمعه من مندوبي الصحف والمجلات والاذاعة والتليفزيون. وقف الرجل الكبير. منع سيارات المأكولات والمشروبات من الدخول. وسمح لرجال الصحافة والاعلام فقط بالدخول.

اعجب اكثر من ضابط ببعد نظر المدير. لو دخلت سيارات المشروبات لبدت في الصور التي تنشر غداً. وربما كانت الصور مثار قيل وقال. من يدري قد يقدم نائب في مجلس الشعب استجواباً حول هذه الحكاية.

لمعت الأضواء في جور القاعة. وسمعوا تكتكات آلات التصوير. فرد المحررون اوراقهم. واتجهت عدسات الكاميرات الى المدير.

وميكروفونات التسجيل اتجهت ناحية فم الرجل الكبير. وجهت اليه الاسئلة ورد عليها. طلب منه بعض المصورين ان يقف وان يجلس في اوضاع معينة. للتصوير. ففعل ما طلبوه. ابتسم عندما قالوا ان الصورة ستنشر في الصفحات الأولى وكشر غضباً عندما قالوا له الصورة سينشر تحتها كلام عن حفظ الامن العام وتهديد المشاغبين.

سالت الرقة من وجهه وهو يسحب كرسياً لمذيعة حسناء جلست بجواره. واجرت معه حواراً عن الاجتماع والامن العام. كلمات، كلمات، كلمات، كلمات. جمل وعبارات، اسئلة واجوبة. ترددت خلالها كلمات الشعب، راحة الشعب، سعادة الشعب، هناء الشعب، الكل في خدمة الشعب، الجميع يعمل من اجل سواد عيون الشعب، المواطن العادي البسيط.

انتفخت عروق رقبة الرجل الكبير وهو يهدد الخارجين على القانون. ويقول انه سينزل الى الشوارع حاملاً مدفعه الرشاش لمحاربة حاملي الافكار الهدامة. ان اقتضى الامر ذلك. وعندما طلبت منه المذيعة ان يحدد الخارجين على القانون وحاملي الافكار الهدامة. حتى يعْرفوا انفسهم. لم يذكر السماسرة واللصوص الحقيقيين والتجار وأصحاب العمارات وتجار المخدرات.

ولكنه قال ان الخارجين على القانون هم السوقة والرعاع والغوغاء والعامة، أما حاملي الافكار الهدامة فهم من يحملون اي فكر يختلف عن الخط العام. أو لا يسير في هذا الخط. وهؤلاء عملاء لبعض الدول الاجنبية وهو سيحمل مسدسه المرخص وينزل الى الشارع ويذهب اليهم في عقر دارهم لكي يحاربهم. فلا مكان لأي منهم في مسيرتنا البيضاء والتي تستهدف رفاهية الانسان وسعادته.

خرج الصحفيون، ودخل العساكر يدفعون امامهم العربات

المتحركة. ورغم انهم يعينون بقرارات لا تزال محفوظة في ملفات خدمتهم. انهم يعملون على حفظ الامن العام. الا انهم تحولوا بقدرة قادر الى سفرجية وطهاة. وصناع شاي وقرفة وقهوة وزنجبيل. واعدت لهم الملابس والطواقي البيضاء. لدرجة ان من يشاهدهم لا يشك لحظة واحدة انه امام سفرجية وطباخين من الطراز الاول. رغم انهم من العسكر. ولكل منهم عدد من سنوات الخدمة.

السيارات المدفوعة، كان فوقها تلال من المشروبات، الساخن والبارد ومن المأكولات: السندوتشات والبسكويت والبتي فور والباتي والسلازيون. وفي الترامس كانت كميات من الشاي والقهوة والحلبة والمثلجات العصرية علب مستوردة من الالمونيوم. تشربها وترمي الفارغ فوراً. شعار امريكا في هذه الايام. اشتر وارم. وحيث انها نعم الصديق فنحن وراءها في كل شيء.

فوق احدى العربات تلال من الفواكه، المحلية في ناحية والمستوردة في ناحية اخرى. طلب الرجل الكبير من الجنود الخروج. قال اننا سنخدم انفسنا. نظر البعض الى العربات المتحركة والتلال فوقها ولم يتحرك. ظلوا في اماكنهم. لأن المشكلة كانت من يبدأ. من لديه الجرأة ليكون الأول.

وعندما مضى بعض الوقت ولم يتحرك احد. قال الرجل الكبير، انه منظم والنظام خير ما في العالم. لهذا فهو يفضل ان يأكلوا ويشربوا أولا ثم يجتمعوا ويناقشوا أمور البلاد ثانياً. أو ان يحدث العكس.

ولأن الطعام والشراب فيه بعض الاصناف الساخنة، من الأفضل ان يكون البدء بالطعام. قام المدير فوقفوا جميعاً لقيامه. واتجه الى العربات فساروا خلفه على شكل طابور منظم. مد يده فمدوا أيديهم. أخذ فأخذوا. أكل فأكلوا. شرب فشربوا، دخن فدخنوا. وعاد الى

مكانه. فعادوا الى اماكنهم من جديد.

الغرفة التي عقد فيه الاجتماع ضخمة وكبيرة. ومع هذا انعقدت في سمائها سحابات الدخان الكثيف. وسلى بعض الضباط نفسه بنفخ الدخان وابعاده الى السقف. اشار أحد الضباط الى الابواب والنوافذ لفتحها. ولكن المدير لم تكن لديه رغبة في ذلك. فتراجع الضابط عن رغبته فوراً.

أمسك الرجل الكبير بالقلم. وخبط ثلاث خبطات، فوق الدوسيه الموضوع أمامه. فصمتوا تماماً. وبدأ الاجتماع الهام فوراً.

تحدث الرجل الكبير، قال انه ضد التهوين من شأن ما حدث في ميدان التحرير. ما حدث خطير ولا بد من التصرف فيه بحسم. وان تعالج ليست واقعة الرجل الذي ذهب الى ميدان التحرير فقط. ولكن لا بد من علاج ظاهرة اساسية، تشغل باله منذ فترة طويلة مضت. وكان يؤجل مواجهتها. وهي قضية الخطرين على الامن العام. وهؤلاء عبارة عن كل من يعيشون في القاهرة بدون عمل محدد او سكن محدد.

انهم النباتات الطفيلية الذين يعيشون في مدينة القاهرة. وتخلص المدينة من مثل هذه الكائنات سيكون الخطوة الأولى، التي لا بد من الاقدام عليها. ما حدث مؤخراً. ان رجلاً مهرجاً او متآمراً أو من اعداء النظام. أو مجنوناً والله اعلم. قام بعمل مسرحية غريبة في ميدان التحرير. اصطحب أولاده. وعرض العائلة كلها للبيع. بالطبع تجمع الناس حوله. وكادت ان تحدث ازمات ضخمة لولا اننا تداركنا الأمور.

عندما عرض الامر علي. سألت عن عنوانه. وعندما قيل لي انه بدون عنوان، وانه يقيم حالياً في أحد المقابر. فهمت الأمر كله ببساطة، الرجل من المجرمين الخطرين. وما فعله الليلة كان مقدمة

لشيء آخر. مثل النشل الجماعي أو اشعال الحرائق او التخريب. والحل الجذري في تصوري، هو ابعاده عن القاهرة.

ضابطان طلبا الكلمة. واحد معروف انه سنيد المدير. والآخر كثير النقاش والحوار. ورغم تعليمات المدير الشفهية التي تقضي بعدم دعوته لحضور أية اجتماعات. بقدر الامكان. الا انه حضر. يسمون الأول السنيد ويسمون الثاني الشوكة في الزور. وقد شاءت الظروف ان يكون الأول ضخماً وسميناً. والثاني مثل العقلة.

تكلم السنيد أولا. كان زوره مسدوداً، ويبدو ان آثار الاكل ما زالت تقف فيه. والصوت كانت نبراته سمينة مشبعة بالطعام.

سلك زوره بأكواب من الشاي واقداح المياه. ثم تكلم. قال انه يفضل البدء بمقدمة، ربما كانت بعيدة بعض الشيء عن موضوع الليلة، ولكنها تمثل الاساس الهام لذلك. الناس في تصوره تنقسم الى نوعين: ابناء المدن. وهم الذين ولدوا لآباء وجدود من ابناء المدن اصلاً.

والنوع الآخر من ابناء الريف. وهؤلاء ينقسمون بدورهم الى فرعين الأول قانع بانه نشأ وتربى في الريف. وقرر ان يواصل الحياة فيه حيث الحياة سعيدة وخالية من المتاعب. والقناعة هي الكنز الذي لا يفنى وهؤلاء يمثلون الاصالة وروح مصر. الفرع الآخر يبدأ عندما يفكر ابن الريف في الهجرة الى المدينة. لأنه يتعب نفسه ويصبح مصدر ازعاج لابن المدينة.

ـ انا احتج.

قالها ضابط. خبط المكتب بيده. اكد ان كل الحاضرين ينتمون الى قرى قبل حضورهم الى المدينة. وتلك اهانة:

ـ انا اقصد

قال السنيد . ، ولكنه لم يكمل . أدار عينيه في الجالسين حوله . فوجد كل العيون تنطق برفض لما قاله . تذكر انهم جميعاً . بما في ذلك المدير نفسه . من ابناء الريف اصلاً . اكتشف ان افضل الطرق هي التراجع السريع . ولن يتم ذلك سوى بقوله انه لم يكن يقصد ما قاله بالحرف . ولكن كان في ذهنه معنى آخر .

حاول ان يوقف سيل التعليقات التي نزلت كالمطر . كانوا يقولون ، انها تفرقة ، وفوضى ، وان الكلام محاولة لتمزيق مصر الى ريف ومدن وكيف يحدث هذا في وقت يقال فيه ان اخلاق القرية هي مصدر التشريع ؟

قال السنيد ، انه يقصد ابناء الريف الشواذ . الذين يحضرون الى المدن بدون عمل وليس لهم سكن واضح . أما كل من لديه عمل يذهب اليه في الصباح . ومن يملك بيتاً يعود له في المساء فهو لا يقصده .

ان القرية المصرية هي مصدر الخير . فهي تمد المدينة بالبيض والدجاج واللحوم والجبن والخضار والفاكهة . وقد أمدت مصر على كل العصور بالرجال العظام .

أنهى المدير ذلك الجدل قائلاً ، ان الزميل لا يمكن ان يقصد إهانة زملائه ، ولكنها زلة لسان ، أو سوء تعبير . ثم تدارك الموقف . ومع هذا . فقد وصل المدير الى قرار فوري في هذه اللحظة . وهو ترحيل هذه الاسرة من القاهرة . والبدء في حملة ضخمة للتطهير . وهنا طلب شوكة الزور الكلمة . وعندما اعطيت له . قال انه يريد الكلام في امرين فقط .

الأول : هل حكاية الرجل خطيرة لحد عقد الاجتماع والتفكير في ترحيله إلى بلدته . والخوف أن يكون من أبناء القاهرة . كل المعلومات المتوفرة أن الرجل ضاقت به الحال ولم يستطع الحصول على أي سكن . وفشل

في لفت نظر أي مسئول. فقام بهذه العملية. ليصل صراخه إلى أحد. وها نحن بمجرد أن وصلنا صوته نفكر في أفضل الطرق لمعاقبته. بدلاً من حل مشكلته.

الأمر الثاني: عن قانونية ومشروعية الترحيل من القاهرة. هل يدخل ذلك في بند الحفاظ على الأمن العام. أم أنها عملية إكراه لمواطن على الإقامة في مكان معين. وألا يتناقض ذلك مع سيادة القانون. وألا يعد ذلك إجراء استثنائياً. ويتساوى مع تحديد الإقامة.

رفع المدير يده، فسكت المتحدث. قال ان مشكلة حضرة الضابط الذي تحدث انه لا يعرف الحكاية. إن ما حدث خطير إلى أبعد الحدود.

والرد على حكاية سيادة القانون بسيط. ألا يعرف الأخ أننا في حالة حرب مع الأعداء؟ وأن قانون الطوارىء ساري المفعول. وهو يضمن لنا أن نفعل ما نريد. أي محافظ بيده كافة سلطات الحاكم العسكري. ومن قال لك إننا سنرحل العائلة بمفردها؟. إن ذلك يتم في إطار ترحيل كل الغرباء الذين يعيشون في القاهرة. وتعريف الغريب. سيكون بسيطاً خالياً من التعقيد. كل من ليس له عنوان بيت ثابت ومعروف. وكل من ليس لديه عمل يقوم به.

بسرعة أملى المدير القرار الأخير. قبل أن تتسع المناقشات. قال وهو يملي كلماته، على من كان يسجل محضر الاجتماع: في إطار سيادة القانون. والشرعية التامة. تقرر تنظيف القاهرة من العناصر الخطرة على الأمن العام. الذين يكدرون الحياة السعيدة في العاصمة.

طلب منه ضابط أن يوضح الخطرين على الأمن العام حتى يكون التنفيذ سهلاً. قال المدير: أولاً عائلة المليونير كلها. ترحل بمفردها إلى موطنها الأصلي في الريف. هذه وحدها مرحلة قائمة بذاتها.

والمراحل التالية تنفذ على النحو التالي: يرحل كل من ليس له عمل واضح ومعروف لدى سلطات الأمن. ثانياً: كل من له صحيفة سوابق. ثالثاً سأله الضابط:

ـ حتى لو كان له عمل معروف.

رد المدير:

ـ نعم.

تساءل:

ولكن العدد يزيد، وفيهم القاهريين دماً ولحماً وبعض الأعيان وأولاد الناس والذوات.

توقف المدير وقال:

ـ ندرس هذه المسألة فيما بعد.

أكمل بعد قليل.

ـ رابعاً: كل المشتبه فيه والذين تحدد أسماءهم الجهات المختصة خامساً: كل الموضوعين تحت المراقبة لأي سبب من الأسباب.

رفع نفس الضابط يده. بان الغضب في عيني المدير. ولكن الضابط قال:

ـ إن الموضوعين تحت المراقبة حالياً عددهم ضخم جداً.

قال له المدير:

ـ ندرس هذه القضية الفرعية فيما بعد.

وأكمل:

ـ سادساً: يرحل كل من ليس له سكن معروف لدينا.

سأل المدير الضابط الذي تولى التحقيق مع الأسرة. عن البلد الذي تنتمي إليه. كما جاء في أقوالهم. قال الضابط ان الرجل قال إنه من قرية اسمها الضهرية. ولم يذكر أكثر من هذا.

ـ ألم يقل اسم المركز؟

ـ لا .

ـ ولا المديرية؟

ـ لا .

ـ ألا تعرف حتى إن كان من وجه بحري أو من وجه قبلي . ؟

ـ حتى هذا لا يذكره .

ـ ألم يذكر أية علامات خاصة بالمنطقة؟

ـ كل ما قاله ان القرية اسمها الضهرية .

ـ قرية صغيرة أم كبيرة . بها عمدة أو نقطة شرطة .

ـ لا يعرف ذلك .

ـ سهلة .

قال أحد الحاضرين، إنه من السهل معرفة البلد من خلال الوزارة . أوقف الاجتماع وأرسل أكثر من ضابط لمعرفة مكان هذه القرية . وكانت الدهشة وكان الذهول . عندما عاد سبعة من الضباط ومع كل منهم بيان عن قرية اسمها الضهرية في إحدى المحافظات .

سبع قرى تحمل نفس الإسم، هل هذا معقول؟ تصوروا أن الرجل ضحك عليهم . عاد الضباط السبعة وتأكدوا من بيانات القرى السبع . وبعد التأكد أكثر مرة . شرح لهم الضابط الحكاية . الضهرية هي النطق العامي لكلمة الظاهرية . نسبة إلى الظاهر بيبرس، السلطان الذي كان معجباً بنفسه . وأقام في مصر العديد من القرى التي تحمل اسمه .

إذن ترحل العائلة بحثاً عن الضهرية بين هذه القرى السبع . كان هناك اقتراح أن يذهب ضابط أولاً لمعرفة مكان هذه القرية . ولكن المشكلة كانت كيف يعرف القرية . قال المدير والمشكلة الأهم . . لن تبقى العائلة في القاهرة بعد اليوم . .

الضابط الذي كلف بقيادة العملية. قال لنفسه إن الحكاية تبدو معقدة منذ اللحظة الأولى. أرسل الضابط يطلب بيانات عن القرية. فعادوا يسألونه:

ـ أية ضهرية تطلب.

ـ كل القرى التي تحمل هذا الإسم.

وجاءت إليه المعلومات، تقول إنه توجد الضهرية مركز إيتاي البارود محافظة البحيرة، وهي تابعة لنقطة بوليس التوفيقية. والتوفيقية تقع في منتصف المسافة بين القاهرة والاسكندرية على الطريق الذي يصل بينهما. وهي مشهورة ببيع اللحوم للمسافرين. وهناك الضهرية مركز شربين محافظة الدقهلية. وهناك ضهرية ثالثة بالقرب من مدينة الاسكندرية. ورابعة تحمل نفس الاسم في صعيد مصر.

طلب الضابط التدقيق في الأسماء. قد تكون هناك بعض الفوارق. في أحرف الكلمة التي تؤكد أنه ليست كل هذه القرى لها اسم واحد.

لكن الوثائق كانت تقول ان القرى جميعاً إسمها الضهرية. لجأوا إلى هيئة البريد والسكك الحديدية والمساحة والحكم المحلي. وكانت الإجابات واحدة. لجأ الضابط إلى باحث متخصص في أسماء بلدان مصر وقراها. طلب منه العودة إلى الأوراق القديمة. ونفض تراب الزمن عنها. ومحاولة معرفة سر هذه الورطة. التي وجدوا أنفسهم فيها.

طلب الباحث مهلة من الوقت، لكي يدرس ويفكر ويفهم ما يجري في هذا العالم من الأمور. عاد الباحث، ليقول ان كلمة الضهرية محرفة عن كلمة الظاهرية. وهي تعود إلى الظاهر بيبرس السلطان الذي حكم مصر. وكان يبني القرى ويقيم الأحياء في المدن التي تحمل اسمه. صحيح أن الشعب المصري أحب الظاهر بيبرس وهناك ملحمة شعبية

عن حكمه. ولكن ذلك لم يكن مبرراً لكي ينشىء كل هذا العدد من القرى باسمه.

تقول كتب التاريخ، ان قرية الضهرية، مركز إيتاي البارود بحيرة بالذات لم ينشئها الظاهر بيبرس، وليس هو المؤسس الأول لها. كانت موجودة من قبله. إنها تعود إلى التاريخ الفرعوني القديم. وردت في بعض الكتب تحت اسم «منية أبيج» وكانت تقع في نفس مكان الضهرية الحالية وكانت على شاطىء النيل مباشرة.

يفسر علماء الجغرافيا الأمر، أن الضهرية الحالية بعيدة عن النهر والسبب في ذلك أن النيل يتحرك من مكانه ببطء. وعبر مئات السنين. يأخذ ـ من خلال عملية النحر ـ التربة من ناحية ويرسبها في الناحية الأخرى. ومع مرور الوقت البطيء يبتعد النيل عن القرى، ويقترب من القرى التي على الناحية الأخرى.

يقولون إنه تحدث حالة من الجفوة بين النيل والقرى التي يبتعد عنها ومع هذا، فإن اقتراب النيل من القرى في الناحية الأخرى ليس خيراً كله. إنه يأكل أرضها في اقترابه منها.

«منية أبيج» كانت الأصل، وتحول اسمها إلى الضهرية، بعد مرور الظاهر بيبرس عليها. الاسم الجديد قضى على الاسم القديم. وإن كان لم يندثر. أطلق على قرية أخرى لا تزال موجودة في الناحية الأخرى من النهر. بعد أن حذفت منه كلمة منية.

درس الضابط القرى السبع التي تحمل اسم الضهرية في بر مصر، بدا له أن المليونير إنما حضر من الضهرية التي تقع في البحيرة. بنى تصوره على أفكار كثيرة، فهي قرية كبيرة. تعدادها يتعدى العشرين ألف. وهي قريبة من وسائل المواصلات. القطار والطريق البري

والمائي. فيها أكثر من مدرسة ابتدائية وكتاب لتحفيظ القرآن الكريم. ومدرسة إعدادية. وفصول لمدرسة ثانوية ووحدة مجمعة، وجمعيتان زراعيتان وأكثر من مسجد وكنيسة.

واقع القرية يخلق حالة من التطلع الاجتماعي لدى الناس. ويدفع مثل المليونير للسفر إلى المدينة. قال الضابط: إذن هي الضهرية بحيرة دون سواها. سيكون منها هذا الرجل الغريب.

...

المشهد على رصيف محطة مصر، السفر والقطارات الطويلة والجري في كل أنحاء محطة مصر. الصعود مع النيل جنوباً، والهبوط مع الدلتا شمالاً. والتوجه نحو الغرب مرة والشرق مرة أخرى. رحلة مليئة بالحسرات ومناظر البؤس المصري. والمؤلف لا يحب تحويل روايته إلى متحف للبؤس. تكفينا بعض القطرات من محيطات وبحار وأنهار البؤس والفقر المصري.

تبدأ الرحلة من محطة مصر، المكان مسقوف، وفي السقف آلاف الثقوب ومنها تنزل بقع الشمس مثل القروش على الأرض. العائلة ليست بمفردها. وهي ومن معها، يعرفون محطة القيام، محطة مصر المحروسة، مدينة القاهرة.. ولكن من يعرف محطة الوصول. ولا في أي مكان تنتهي الرحلة.

كانوا معاً. افترقوا عن جندي الأمن المركزي الذي انضم إليهم في الميدان. سألوا عنه. قال الضابط انه سيبقى معهم. لم يقل أحد إنه سيقدم إلى محكمة عسكرية. وإن قائمة التهم الموجهة إليه انتهوا منها منذ يومين. وضعتها لجنة قانونية شكلت لهذا الغرض.

قبل الرحيل كان الوداع حاراً. أعطوه عنوان القبر الذي يعيشون فيه وأخذوا منه عنوان الوحدة واسم القرية التي جاء منها. وقال له المليونير

في لحظة إنسانية نادرة: «مسير الحي يتلاقى» ورد الجندي ان الدنيا كما انها واسعة بدون حدود. فهي أيضاً ضيقة جداً. ولا بد من اللقاء مرة أخرى.

الرحلة التي قامت بها الأسرة طويلة. من الصعب الإلمام بكافة تفاصيلها الصغيرة. أكملت الأسرة في الرحلة بقية العام الأول، على وقفة ميدان التحرير. جزء من العام في السؤال والجواب والنبش في العقول والتفتيش في الصدور. والجزء الآخر في البحث عن الضهرية التي خرجت منها العائلة. أو هكذا يقول المليونير عن نفسه.

خرجت العائلة من مصر المحروسة أو التي كانت محروسة من اللصوص. في ذلك الصباح الهام. ركبوا سيارة، جلسوا في صندوقها الخلفي الذي يشبه السجن المتنقل. النوافذ التي في الصندوق صغيرة وعالية، ولا يدخل منها الهواء. والباب الخلفي للصندوق من الحديد.

وكانت سلاسل من الحديد تربط أفراد العائلة. تبدأ من المليونير وتنتهي عند آخر الأفراد. وكانت الحراسة المشددة مكونة من عدد من الجنود، يصل إلى أضعاف عدد أفراد الأسرة، يقودها أكثر من ضابط. أقدمهم هو القائد العام للحملة.

المهمة المكلفون بها هي اصطحاب الأسرة والمرور على القرى التي تحمل اسم الضهرية السبعة. وإجراء طابور عرض أو معاينة يرى خلاله سكان القرى العائلة ويحاولون الإجابة على سؤال بسيط. هل خرج رب هذه الأسرة من القرية أم لا؟

في حالة التعرف على القرية. يترك الضباط الأسرة فيها. بعد أن يتم التأكيد على العمدة بعدم مغادرة الأسرة للقرية:

ـ تحديد إقامة؟!

سأل الضابط الذي يقود الحملة، حتى يعرف كيف يكون تصرفه، رد عليه الضابط الكبير:

ـ ليس بهذا المعنى القانوني تحديداً ولكن. .

شرح الضابط الكبير فكرته، على عمدة القرية أن يجد طريقة، تمنع العائلة من مغادرة القرية. ليس مهماً الاسم. طالما بعدت العائلة عن القاهرة، مصر أم الدنيا، وعاشت في إحدى القرى. ليكن لتحديد إقامة، منع من السفر، سجن.

في الريف ليس مهماًوضع تصرفك تحت اسم. ولكن الأهم، إطاعة الحكومة، وتنفيذ أوامرها. إن بقيت العائلة في الريف لن تفعل أي شيء. سيكون من السهل مراقبة تحركاتها.

قال الضابط الكبير، إن التحرك بالقطار قد يكون مسألة صعبة، هذا العدد من خلق الله. مربوطون بسلاسل من الحديد. وهذا العدد من الحراس. كيف يتحرك في القطارات المزدحمة؟ الرحلة قد تطول. تغطي مصر من أسوان إلى الاسكندرية، ومن يدري، قد تظهر قرى ـ تحمل اسم الضهرية.

قالوا له، إن السيارات مطلوبة في مهام أخرى كثيرة. العمل كثير في هذه الأيام. والبلد في حالة طوارىء. تساءل الضابط الكبير: ومنذ متى لم نكن في حالة طوارىء؟

أكدوا له أنهم يمكنهم الحصول على عربة خاصة من القطار. يركبونها جميعاً، العائلة والحراس والضباط. معهم أوراق موجهة إلى كل مسئول على أرض مصر. تطلب منه تسهيل المهمة التي يقومون بها. ابتداء من المحافظين. وانتهاء عند العمد وشيوخ القرى وشيوخ الخفر. وكل وسائل النقل العام والخاص والشخصي في مصر.

في باب الحديد، نزلت العائلة من السيارة، التي كانت خانقة، ومن الصعب السفر فيها. كانوا سعداء بالتخلص من السيارة، التي يخلو صندوقها من الهواء.

كان الضابط يدرك أن السيارة ستكون أفضل من السفر بالقطارات. وقفوا في المحطة، فكر الضابط: كيف يبدأ رحلته، لم تكن معه تعليمات محددة بشأن خط سير الرحلة. المطلوب هو العودة بدون العائلة. وأن يأخذ التعهدات بعدم عودتها إلى القاهرة، أو أية مدينة أخرى، دون أن يفهم من هذا انه تحديد إقامة. أما كيف يفعله، فلم يقل له أحد شيئاً عن الكيفية.

أمام الضابط رحلتان. الأولى شمالاً حتى البحار المالحة. والثانية جنوباً حتى الشمس التي تخبز العيش بدون نار. هكذا تقول خريطة القرى السبع. بأي الرحلتين يبدأ؟ قال الضابط، ربما كان من الأفضل، البدء بالجانب الأصعب من الرحلة. الصعيد ثم يعود إلى القاهرة. لكي يبدأ الجانب الأسهل.

كان في تقديره أن أسبوعين أو ثلاثة تكفي للرحلة. ولم يكن يتصور أنها قد تستغرق عدة أشهر. وانه لن يعود منها إلا بصدور تعليمات بالعودة إلى القاهرة لاستخدام العائلة في إحدى المهام. كي يستقبل العائد من القدس المحتلة. ولولا التعليمات لاستمرت العائلة في البحث عن قريتها سنوات قد تطول.

ذهب الضابط إلى المسئولين في السكة الحديد لكي يبلغهم بقرار الرحلة، ويطلب تخصيص عربة له ولمن معه. دخل المبنى وهو يتصور أن معه خاتم سليمان. الأوراق التي معه ستفتح له الأبواب المغلقة وستعطي كلامه قوة الأمر الذي لا بد وأن ينفذ.

دهش الضابط عندما قوبل بحالة من اللامبالاة. لم يبد على أحد من

الذين قابلوه، انـه أدرك أهمية المهمـة التي يقوم بهـا. تعاملوا معـه وكأن الأمر عادي. تكلم عن طبيعة العمل الذي يقوم به. وخطورته بالنسبـة للأمن القومي للبلاد. ما أذهله انه لم تكن هناك رغبة في الاستماع إليه.

ردوا عليه، من المستحيـل تخصيص عـربـة مستقلة لـه، تخلى من الركاب. يمكن عمـل هذا بشرط ان يكـون لديهم علم مسبق من قبـل بفترة كافية. لكي يخرج القطار من المخازن وبه عربة زائدة. تحدثوا عن الزحام والاختناق في العربات، وعن العجز في الحركة. تحدثوا عن حق الجماهير في ان يجد كل منهم مكاناً في القطارات.

تحدثوا عن متاعب العمل. النـاس تزايـد عددهـا. وعدد العـربات والقـطارات كما هـو ان لم يكن قد تنـاقص. من المستحيـل، وليس من الصعب فقط. تخصيص عربة له بدون ركاب.

رد الضابط عليهم. قال انه يخشى الاحتكاك بـالجماهـير. ومعه هـذا العدد من الناس المكبلين بالقيود. تصوروا امرأة مكبلة بـالقيود. طفـل في يـديه حـديد. مـاذا يفعل النـاس وسط الزحـام؟ ومن يضمن عـدم حدوث متاعب. عدد الركاب سيكون اضعاف قوات الامن التي معـه. والقوات الموجودة في القطار اصلاً.

قال لهم، ان القطار كيـان متحرك. ومن الصعب اجـراء اي اتصال بأية قوة على الارض ان حدثت متاعب خـلال الرحلة. قـالوا: لا يجب ان تخشى النـاس لسببـين: اولاً: ان كـل واحـد لا يهتم الآن سـوى بنفسه. كل واحـد يقول: انـا ومن بعدي الـطوفان. وتلك واحـدة من اهم سمات المجتمع المصري في الفترة الاخيرة. ثـانياً: مـا دامت العائلة التي معه في الحديد. فهم في نظر الناس مجرمون محكوم عليهم بـالسجن ويتم تـرحيلهم الى السجون المـوجودة في محـافظاتهم الاصليـة. تنفيـذاً لقـرارات اللامـركـزيـة في معـاملة المسـاجـين. أو انهم في الـطريق الى المحاكمة.

سينظر لهم الناس باكبر قدر من الاحتقار. من يتعاطف مع مجرم؟ يمكن الحديث عن الجرائم التي ارتكبوها مع الناس. فزع الضابط من فكرة الحديث مع الناس. قال ان ذلك غير وارد. كيف يتكلم مع الناس؟. المشكلة ليست ان تفتح الحديث. ولكنها ان تصل الى نهايته.

القى الضابط آخر قنابله. قال ان هذه الجماهير ليست من المجرمين العاديين. ولم يصدر ضدهم حكم. وهم ليسوا في الطريق الى المحاكمة. انهم جماعة من السياسيين.

تساءلوا:

ـ السياسيون.

اهتموا بالأمر، حاول بعضهم النظر من النوافذ لرؤية هؤلاء السياسيين. ، سيل من الاسئلة زحم الهواء، ماذا فعلوا؟ ما هي الحكاية؟ والى اين هم ذاهبون الآن. غضب الضابط من تغير حال الناس. عندما كانت القضية تهم الدولة لم يهتم احد. وعندما تحولت الى المجموعة التي معه، رقص الاهتمام في الوجوه.

سأل الضابط نفسه: من يقف مع النظام اذن؟ من يقف معنا؟.. سألوه عن مستقبل السياسيين الذين معه.، قال انه لا يعرف اكثر من ان المطلوب هو ابعاد العائلة التي معه عن القاهرة. والبحث عن قريتها في بر مصر.

قال واحد من العاملين:

ما دام نفياً داخلياً. اذن هم من الزعماء.

زاد ضيق الضابط. لأنه لم يكن يعرف حقيقة أمر العائلة. عندما سلموه العائلة والأوراق. كانت بداخله رغبة حارقة في ان يسأل، يعرف ماذا فعلت العائلة. خاف ان يسأل فيصبح متهماً بالاهتمام بأمر العائلة

وخـاف ان يسأل فيصبـح متهماً بـأنه لا يعـرف ما يجـري في البلد. وفي الحالين يكون قد اخطأ. ومن يدري عقـوبة الخـطأ الواحـد أو الخطأين معاً.

تقبل المهمة وكأنه يعـرف كل شيء عنهـا. فكر ان يسـأل العائلة عن حكايتها عنـد السفر. بشرط ألا يبـدو عليه انـه لم يكن يعرف. حتى لا تضحك العائلة على ضابط الشرطة الذي لم يكن يعرف.

أعـاد المسئولون في السكـة الحديـد بحث الأمر عـلى ضوء المعلومـة الجديدة التي قالها الضابط. ورغم اعجابهم بالعائلة السياسية. الا انهم وافقوا الضابط على امرين: اولاً: استحالة الانتقال في العربات العادية مع المسافـرين الآخرين. الأمـر الثاني: استحـالة تخصيص عـربة لهم. وكان يجب بحث الامر مع الهيئة قبل الترحيل بعدة أيام للترتيب له.

تساءل الضابط:

ـ والحل؟

قالوا هنـاك حلان. الأول هـو العودة ومعـه السياسيـون الى السجن ويتم الاتفاق من الآن على موعد آخر.

قال الضابط:

ـ هذا مستحيل.

كـان يخشى تفسير العـودة انه فشـل في مهمته الصعبـة. التي قال لـه الضابط رئيسه في العمل انه تم اختيـاره لها لكفـاءته. ولأن من سيقـوم بالمهمة سيكون باب الترقي مفتوحاً امامه وبدون نهاية.

قال الضابط لهم ان لديه اسباباً سياسية لا يمكنه الحديث عنها تفرض عليه حتمية السفر اليوم لديهم حل وحيد. سأل الضابط بلهفة:

ـ وما هو؟

ـ عربات العفش.

وافق بشرط الا يركب هو في عربة العفش.

ـ بالنسبة لك. لا مشكلة.

سعد الضابط. ولكن بعد ان قالوا له انه المسئول عن هذا الحل.

لعب الفأر في عبه. سأل عن السبب في تحديد المسئولية، هل هو الخوف من هروب العائلة؟ قالوا ان الحديث عن المسئولية متصل بواقعة ركوب عائلة من السياسيين في سيارة عفش. ربما نقلت نفس العربة من قبل بعض البهائم. مثلاً.

ضحك الضابط:

ـ من هذه الناحية ولا يهمك.

ضمن الضابط، انه سيتم حجز مقعد له في الدرجة الاولى المكيفة. وان الضباط الذين معه سيركبون معه في الدرجة الثانية. وان كان هناك بعض العسكر غير لازمين للحراسة يمكنهم ركوب الدرجة الثالثة.

اطمأن الضابط، عندما عرف ان عربة العفش تغلق من الخارج وأنها من الحديد قفص من الحديد. مستحيل فتحه. ضمن انه سيغلق الباب على العائلة بنفسه. وسيكون بالداخل ايضاً القوة المخصصة لحراسة العائلة. استثنى الضابط جندياً واحداً. سيركب معه عربة الدرجة الأولى المكيفة. دون ان يحجز له مقعداً فذلك ممنوع بالنسبة للجنود. ولكنه سيبقى في الطرقة الخارجية. من اجل ان يقدم اي خدمة يطلبها الضابط في رحلته.

اكتشف الضابط ان المشكلة قد حلت بصورة لم يكن يتوقعها. سار الى الرصيف الذي كانت تقف فيه العائلة سعيداً. كان الذي ذهب الى السكة الحديد شخصاً اخر غيره. سأل مندوب السكة الحديد، الذي

حضر معه من الذي سيوفر له حكاية عربة العفش في التحركات القادمة. قال له، ان المسألة تخضع للأخذ والعطاء. وانهم سيرسلون تعليمات الى كافة اجهزة الهيئة بتقديم كافة الخدمات المطلوبة له.

وبدأت الرحلة.

ـ كان القبر افضل.

ـ يبدو السجن الآن حلماً.

ـ اين هي السيارة التي بدون نوافذ؟

تكلموا كثيراً. بعد اكتشاف الامر. لا يدري المليونير كيف ادخلوهم العربة. من البداية لم يوافق على حكاية الترحيل. وما كان يتصور ان المسألة قد تصل الى ما وصلت اليه.

ـ كل ما جرى يساوي ركوب عربة البهائم.

قالها المليونير وهو يضرب كفا بكف. الغريب انه لا يعرف الان كيف جرت فصول العملية. بدأ الامر هكذا. وصل قطار الصعيد الى الرصيف اخذهم الضابط الى مقدمة القطار. تصور المليونير انه نوع من التكريم. ان يركبوا في العربة الأولى. بعد العربة التي تجر القطار.

عامل يرتدي افرولاً لونه أخضر شد الباب، سمعوا صوتاً مزعجاً للباب وهو يفتح. أشار الضابط لهم. يطلب منهم الدخول. وقفوا لكي يتناقشوا في الامر. ولكن الجنود اصبحوا على شكل دائرة حولهم. وكانت هناك دائرة اوسع من الجنود الآخرين أبعدوا المسافرين عنهم. الذين كانوا يحاولون رؤية وفهم ما يجري.

قال الضابط للعائلة:

ـ هل تفضلون الركوب برغبتكم او الركوب بالقوة؟

لم يترك لهم فرصة للرد على السؤال. ولم يترك لهم فرصة للاختيار بين

الطريقتين في الركوب. ضغط الجنود عليهم. ودفعوهم بـالقوة. كـانت العائلة متعبة من ليالي السجن وايام التحقيق. تمكن الجنود من إدخالهم غرفة العفش. هكذا كان مكتوباً عليها من الخارج. بعد الدخـول فيها اكتشفوا انها زريبة وليست عـربة. غلبت روح الفكـاهة عـلى احدهم، وقال انها زريبة ولكن متحركة عـلى اربع عجـلات قال آخـر انها زريبة متحـركـة عـلى ست عشرة عجلة من الحـديـد. تمشي عـلى قضبـان من الحديد.

كـانت المفاجـأة الثانيـة، هي دخول العسـاكر مـع العـائلة. كـانـوا يتصورون انهم سيدخلون العائلة ويركبون هم في العربات الاخرى مع المسافرين دخل البعض منهم عربة العفش لكي يقوم بـالعمل المطلوب في مثل هذه الحالات. الاطمئنان على تواجد العائلة في العربة، التـأكد من عدم وجود أية آلات حادة بداخلها وان التهوية مـوجودة. وامكـانية الهروب لا وجود لها. ثم يعودون للركوب مع حضرة الضابط.

عنـدما شـاهد العسكـر منظر الـزريبة من الـداخل تـأكـد لهم انهم سـيركبون في العـربات مـع الضباط. ولكنهم عنـدمـا دخلوا العـربـة، شاهدوا الضابط يدفع الباقين الى داخلها. ولم يبق معه سوى عسكـريْ واحـد. قريب من الضـابط. ينقل لـه اخبارهم ومـا يقولـونه. ومـا ان دخلوا جميعـاً في بطن الـزريبة، حتى شـاهدوا الضـابط يغلق الباب من الخارج.

شاهدوا عامل السكة الحديد وهو يضـع القفل الكبير الذي تاه لونـه الاصلي من الشمس والندى والمطر والهواء، في مكـانه، وشـاهدوه وهـو يغلقـه بمفتاح كبـير مرتـين. وشاهـدوا الضابط وهـو يأخـذ المفتـاح من العامل. ثم وهو يتأكد من اغلاق القفـل. شده بيـده وبكل قـوته لكي يتأكد من اغلاقه.

نظر الضابط للعسكر بعد اتمام الاغلاق، وعبر الحديد. دار السؤال والجواب، عن تأمين العربة من الداخل، وعن امكانية الهروب، والآلات الحادة.

كان الضابط يسأل والعسكر يجيبون. والعائلة موزعة بين الهلع من حالة العربةوبين التشفي في العسكر والتساؤل عن الرحلة. الى اين؟ والى متى يبقون على هذا الوضع. ويبدو ان السؤال كان يؤرق العسكر أيضاً.

- الى أين؟

اقترب من أحد العسكر وقال له:

- اسوان

طلب منه الا يبلغ العائلة بمقصدهم. وان يكتفي بالقول انه لا يعرف.

- سأل العسكري:

- ومشاكل الطعام والمياه. معنا اطفال ونساء.

شعرت العائلة ان الرحلة طويلة ومخيفة.

رد عليه الضابط:

- سنحل المشاكل في الطريق.

اكد العسكري ان المياه ضرورية. والطعام لا بد منه. لوح الضابط بيده. وقال له ان كل مشكلة ولها حل.

في الداخل كانت عربة العفش. هذا هو المفروض. ولكن العفش الذي نقل فيها من قبل كان نادراً. كانت عربة بهائم. الروث فيها كان طازجاً ورائحة بول البهائم كانت معلقة في جو العربة الكئيب. لم يكن هناك هواء فيها. فاحتلت الروائح كل مساحات العربة.

استغاثوا، طلبوا الضابط. خبطوا بأياديهم على العربة من الداخل. وفي الخارج مرت فترة حتى فهم الضابط ما يريدون قوله. وبعد ان فهم ما يريدون قوله. قال لهم بالاشارة والصوت. انه بمجرد تحرك العربة، سيطرد الهواء النقي تلك الروائح وقال لهم انه في اول محطة يتوقف فيها القطار. سيطلب من عمال السكة الحديد تنظيف العربة وغسلها من الداخل.

قال المليونير:

ـ سيعدنا بعد قليل بأنه سيغسل العربة بماء الكولونيا. وسيجعل الكولونيا تزاحم الهواء.

مرت فترة قبل ان يتحرك القطار. وخلال هذا الوقت الذي بدا طويلاً لهم. انزل البعض ما في بطونهم وظهرت حالات من الاغماء. انتقلت عدوى التبرم الى العساكر. ولكن الضابط كان مطمئناً لأن المفتاح معه.

ذهب الضابط الى احد مسئولي السكة الحديد. سأله ان كانت هناك أية فتحة اخرى للعربة غير الباب، فقال له ان العربة لها باب واحد. سأله ان كانت هناك نسخة اخرى من مفتاح الباب. فأكد له المسئول ان النسخة الوحيدة من المفتاح معه.

كان الكل في انتظار ان يتحرك القطار. من تحت الخيمة المسقوفة، ويبدأ رحلته. التي يعرفون نقطة البدء فيها ولكنهم لا يعرفون محطة الوصول. ولكن القطار تأخر طويلاً.

مع حركة القطار الرتيبة. كان الصمت، اتى الهواء النقي ولكن المكان كان مزدحماً. لم تكن في العربة مقاعد. وكان الجلوس صعباً. لأن البهائم لم تترك مكانها خالياً من الروث. الذي انتشر في كل مكان

من العربة. وقفوا على شكل مربع، استندوا الى جدران العربة الأربعة. لأن الوقوف في منتصفها كان صعباً بسبب اهتزاز العربة.

بدا منتصف العربة متسعاً. والصمت الذي فرض نفسه عليهم اولا. لم يدم طويلاً. تكلموا. افراد العائلة مع بعضهم. والحراس تكلموا في شئونهم الخاصة. هربوا جميعاً من اكثر الموضوعات الحاحاً على الذهن. وهو البقاء في الزريبة المتنقلة. الى متى؟

لم يظل الحال هكذا طويلاً، تكلم افراد العائلة مع العسكر بعد فترة. قالت العائلة ان الضابط عامل جنوده بدون رحمة، وبلا انسانية. وان مكان العسكر في عربات القطار. قد يكون في الدرجة الثالثة. ولكنه أفضل من البقاء في الزريبة المتنقلة.

قال العسكر، ان العائلة ما كان يجب ان تنقل بهذه الصورة. وانه كان يمكن الانتظار يوماً او يومين حتى توجد عربة قطار آدمية وليست عربة مخصصة لنقل الحيوانات.

ـ انتم عائلة سياسية.

نطق بها واحد من العسكر، ولكن الدهشة التي اطلت من اعين العائلة جعلته يتوقف في منتصف الجملة ولا يكملها.

تساءل المليونير:

ـ سياسية؟

قال الاستاذ:

ـ لكل مأساة جانبها المضحك.

وكانت البداية.

تكلموا، امتصت الكلمات الوقت الثقيل، وانستهم حرارة الكلمات العربة وروث البهائم، والوقوف والرجل التي تعبت من الوقوف

عليها. والدماء التي توقفت في العروق والشرايين.

نسوا الجوع الذي قرص البطون والعطش الذي جفف الافواه وجعل حركة اللسان في الفم صعبة والهواء الخارج من الفم مع الكلمات رائحته مثل رائحة القبور التي عرفت الدفن حديثاً.

نسوا طول الوقت وبعد المسافة ونسوا ان الضابط لم يف بوعده بتنظيف العربة في اول محطة يتوقفون فيها. وان الضابط لم يف بوعده بتدبير الطعام. وان الضابط لم يف بوعده باحضار مياه الشرب.

اكتشف العسكر، ان الذين معهم ليسوا من الحرامية، ولذلك لا تجري النقود في أياديهم مثل حبات الأرز. ولن تكون هناك سجائر ولا أكواب شاي ولا سندويتشات ولا علب بسكويت ولا جنيهات من التي تذبح مثل السكاكين ومع هذا لم يغضب عسكري واحد من الرحلة. الجيوب ليست ممتلئة بالنقود ولا تشخشخ فيها القروش. ومع هذا بدأت الرحلة دافئة. اكثر دفئاً من رحلات اخرى كثيرة.

عندما علم العسكر بحكاية العائلة، رفضوا التصديق اولا. نصف العسكر بدون سكن والنصف الباقي تعيش اسرهم في قراهم البعيدة التي حضروا منها لاستحالة الحصول على سكن. والباقون لم يفكروا في الزواج وفتح بيت وتكوين اسرة لاستحالة الحصول على شقة في هذه الايام الصعبة والقاسية.

بعض الجنود كان يسمع للمرة الاولى في حياته بالحياة في القبور. وتساءل عن امكانية العثور على قبر لكي يعيش فيه ويحضر زوجته من القرية البعيدة. وقد وعدهم المليونير بتدبير سكن لهم بمجرد العودة الى القبر.

قال الاستاذ معلقاً:

ـ وكم ذا بمصر من المضحكات.

وان كـان لم يكمل شـطر البيت الثاني، فـالبكاء جـاهز ولكن العـين جفت ولم يعد أحد بقادر على البكـاء في هذه الايـام التي جف فيها كـل شيء حتى الدمع في المآقي.

لم يكن في الأمر سياسة ولا يحزنون. شرح الاستاذ قـائلاً: انها اسرة راحت ضحية. تبحث عن ابسط حقوق الانسان في اي زمان ومكـان. تحاول العثور على سكن تعيش فيه. بعد ان طردوها حتى من القبر.

كانت الاسئلة تتدفق من افواه الجنود مثـل الشلالات ورخـات المطر وكان افراد الاسرة يجيبون عن كل سؤال، تكلمـوا بصراحة عن حـالهم وعن الحكاية من اولها حتى النهاية.

عنـدمـا تـوقفت اسئلة الجنـود، بـدأت أسئلة العـائلة، عن حيـاة العسكر، قال الاستاذ، إنهم كانوا يلعبون في الطفولـة البعيدة. لعبتـين العـريس والعروس والعسكر والحـرامية. وجـود عسكـري يفـترض ان يكون هناك حرامي. وان تتم لعبة المطاردة بين الاثنين، وكان الاطفـال عنـدما يلعبـون. لا بـد وان تنتهي اللعبـة بـانتصـار العسكـر وهـزيمـة الحرامية.

هكذا كانت تقول الحكايات الشعبية التي سمعوها من الجدات.

تساءل المليونـير، اين رأى هذا الـولد جـدته حتى يسمـع منها هـذه الحكايات عن العسكر والحرامية؟ ان المليونير لا يذكر الآن شكل أمه.

قال الاستاذ ان الحكايات لا تتحـدث الآن عن الحراميـة. ، وعسكر البـلاد مشغولـون بأمـور اخرى. لا عسكـر الحـدود مشغـولـون بـطرد الاعداء وتحرير الارض المحتلة ولا عسكر الـداخل يـطاردون الحراميـة وينتصرون في النهاية.

عسكـر الحدود وعسكـر الداخـل مشغولـون بمـطاردة كـل من يـرى

النظام انه يشكل خطراً عليه. يفتشون العقول وينبشون في الصدور ويطاردون الافكار. تساءل الاستاذ: من كان يتصور ان تصل الحال الى ما وصلت اليه؟

قال أحد العسكر، ان لديه شعوراً انه يعرف العائلة من قبل، وانه التقى بأفرادها اكثر من مرة. رق قلب العائلة. وأعاد الاستاذ النظر في احدى مسلمات عمره. كان ينظر الى عالم العسكر على انهم من جلادي الناس. كان يقول ان الزمن إما ان يكون زمان الناس او زمان العسكر. عندما يأتي زمن الناس يتوارى العسكر. وعندما يأتي زمن العسكر ـ ونحن نعيشه الآن بكل قوته ـ فإن الناس تمشي جنب الحيطان تنادي الامان الامان.

ما كان الاستاذ يتصور ان العسكر مثل باقي البشر في مصر، يعانون ويتألمون. وعندما يجلدون الناس. فإنه يقولون لأنفسهم انه العمل الوحيد الذي يجدون منه لقمة العيش التي تصل الى افواههم مغمسة بأنات الناس واصوات عذابهم. ومع هذا يأكلونها.

كان العسكري عبد العاطي هو البداية. وقف معهم في ميدان التحرير. ولا أحد يعرف مصيره الآن. ولكن المعنى الذي اكده لهم عبد العاطي لم يكن معنى فردياً. وها هم عدد آخر من العسكر، يعانون. وضعهم أسوأ حتى من العائلة. من كان يتصور؟

قال المؤلف، من قبل، انه من الصعب وصف الرحلة، رغم اهميتها بكل ما جرى فيها من الاهوال. وقد اكتشف المؤلف، بعد ذلك، استحالة ان يفعل ذلك. ولكنه يكتفي بالقول: ان الرحلة تمت بقطارات السكة الحديد وهذا ما جعل الرحلة اكثر تعقيداً.

في مصر، لا تصل القطارات الى القرى، انها تصل فقط إلى عواصم

المديريات التي اصبحت عواصم المحافظات. والبنادر والمراكز وبعض المدن الصغيرة. أما القرى، حتى التي تقع على نفس شريط السكة الحديد، فهي لا ترى من القطار سوى مروره السريع بها. يخطف الهواء ويهز البيوت وتكاد الأشجار ان تقع ويرى الرجال والنساء الموت لحظة مشاهدتهم. احتكاك الحديد بالحديد في حركة العجل فوق القضبان.

كانت البعثة تنزل في المدن الكبيرة، عواصم المحافظات، لأن التسلسل الاداري يتطلب البدء من الرئاسة اولا. تنزل البعثة في المحطات. يقف القطار اكثر من الوقت المخصص للوقوف اصلاً. يضرب العسكر كردوناً حول الرصيف المقابل للعربة التي ستنزل منها البعثة. تبعد الناس وتنزل البعثة.

طابور من البشر الذين تربط بينهم سلاسل الحديد. يسمعون صوت اصطدام الحديد ببعضه. يبدو الصمت غريباً لمن يتفرج من بعيد. وان كان قد اصبح من الاصوات المألوفة للعائلة.

يجلسون في مكان ما من المحطة، بعيداً عن أعين الناس وحولهم العسكر من كل جانب. يظلون هكذا حتى يذهب الضابط لمقابلة المسئولين. وكم من الوقت يستغرقه الانتظار. ما من مرة ذهب الضابط وكان المسئول موجوداً. في الاستراحة او في المرور او لديه اجتماع هام.

يعود الضابط معه حملة من العسكر المحليين. ثم تبدأ رحلة. تكررت اكثر من مرة. الذهاب الى المركز. وبعد المركز نقطة الشرطة. وأخيراً العمدة. في كل محطة يتوقفون، وتجرى مقابلات. وفيها يشرح الضابط حكاية العائلة التي معه. يعيد نفس الكلمات التي قالها من قبل.

في الانتقالات الداخلية في المحافظات، كان يركب السيارات،

القطارات والاتوبيسات، على حسب التساهيل. وعندما كان يستخدم لقطارات. فإنه كان يفضل عربات العفش. حتى عندما كان يجد العدد الكافي من عربات الركاب. فإنه كان يرفض ركوب العائلة فيها.

عربة الركاب لها بابان. وفيها نوافذ من الصعب اغلاقها. وقد تهرب منه العائلة. صحيح انها مربوطة بالسلاسل. ولكن من يضمن له. قد تهرب كلها مرة واحدة. وقد يهرب بعض افرادها. عربة العفش اضمن له. تدخل العائلة والعسكر فيها ويغلقها ويضع المفتاح في جيبه ثم ينام مستريحاً.

اصبحت تسلية العائلة في رحلتها الصعبة. لحظة دخول عربات العفش هي اكتشاف اي عفش كان فيها. يدخل المليونير اولا. فهو اول ذراع في السلاسل. يقف في مدخل العربة. يستخدم حواسه كلها مرة واحدة. ينظر ويلمس ويشم. يحاول معرفة نوع البضاعة التي كانت هنا.

يصيح: ثوم، دجاج، بيض، فول. وتكون بداية الحديث عن البضاعة التي انزلوها من العربة قبل ركوبهم مباشرة. وان كانت البضاعة المنقولة طعاماً. يكون الحديث عن آخر مرة اكلوه فيها، وأول مرة يقدم لهم مرة اخرى في الزمن القادم.

في حديث الاطعمة كان من النادر ن يتدخل العسكر. لم يأكلوا اللحوم أو الدجاج او السمك او البيض. ولن يأكلوها. لا أحد يتذكر. ولا احد يريد ان يتذكر هذه الحكايات المؤلمة للنفس.

في أي مكان يذهبون اليه يذهب الضابط ويعود، معه رجال الأمن في المنطقة. يتجهون الى المليونير. يعرفونه لان الضابط كان يشير اليه، بصورة لا تلاحظها العائلة. يستجوبونه عن المنطقة، هل هو من المحافظة؟ من اي العائلات هو؟ ما هي آخر مرة حضر فيها الى بلدته؟

اي العلامات لا تزال واضحة في ذهنه؟ الترع القريبة منها. الطرق التي توصل اليها. أولياء الله الصالحين، المدارس الموجودة فيها.

كان يقول انه لا يذكر كل ما يتحدثون عنه. وكانوا يردون عليه ان ما يقوله سيساعدهم في الاهتداء الى بلدته. حتى يرتاح من عناء الترحال والتجوال. وسيجعل حضرات الضباط يعودون من الرحلة العجيبة. يقول انه لا يتذكر.

كان الضابط يقول تعليقاً على حكاية انه لا يتذكر. ان الرجل لا يرغب أصلاً في العودة الى قريته. وبالتالي لن يتعرف على اي من القرى أبداً. سيقول انه فقد الذاكرة وانه لا يعرف. كان بعض الضباط يتساءلون: من ادرانا أن له قرية اصلاً. ربما كان هذا الرجل يمارس معهم لعبة من نوع جديد. وربما يشغلهم عن امور اخرى اكثر اهمية من حكايته.

في كل مركز ونقطة شرطة ودوار عمدة كانوا يطلبون من العاملين. مشاهدة المليونير. ومحاولة التعرف عليه. ولكن أحداً لم يقل انه يعرفه. بعد القرية الثالثة التي تحمل اسم الضهرية. تسلل الى الضباط احساس ان الرحلة قد لا تصل الى اي شيء.

فكر في العودة. ولكنه اكتشف ان العودة تخالف التعليمات التي لديه. فكر في البقاء باحدى المحافظات وارسال تقرير الى القاهرة. يقول فيه ما فعله حتى الآن وتصوراته بالنسبة لمستقبل الرحلة واقتراح بالتوقف عند هذا الحد.

ناقش الامر مع زملائه. وكان الاتجاه الغالب بينهم، ان يستمروا في الرحلة كما هي حتى الانتهاء من القرية السابعة. من يدريه. ربما كان الرجل من القرية السابعة فعلاً؟ وربما فسروا طلب عدم إكمال الرحلة

في القاهرة بصورة تسيء اليهم. ربما قالوا انهم تعبوا من الرحلة. وان هذا هو السبب في التوقف وارسال التقرير.

كان الوضع في العائلة مختلفاً. تحول الأمر إلى نوع من السياحة والفرجة تحت الحراسة المسلحة. كل يوم في مكان آخر مختلف. تعودوا على الظرف الدقيق والشاذ الذي يمرون به. كل يوم يدخلون محافظة أخرى. مدن لم يروها من قبل. إن تغير المكان المستمر تسلية فريدة. ولكنهم كانوا يتساءلون في بعض الأوقات: أما آن لكل هذا من نهاية. البداية يعرفونها جميعاً، ولكن النهاية ماذا عنها؟

الموضوع الذي ناقشه الضباط مع الميلونير في بداية الرحلة ولم يعودوا إليه بعد ذلك كان: بلدته أين هي بالتحديد؟ رد الميلونير عليهم والحديد في يديه: إنه ترك قريته منذ سنوات بعيدة مضت. وإنه لا يتذكر أي شيء.

قال الأستاذ للمليونير إنه يتوقع منه أن تكون ردوده على العائلة مختلفة عما يقوله للضابط. فهم أهله وعائلته. ومن المفروض أن يعرفوا أولاً. إن كانت هناك قرية أم لا. ثانياً: أين هذه القرية بالتحديد؟

تهرب المليونير من الإجابة. قال إنه لن يجيب على أسئلة الأستاذ من أجل صالح الأسرة. ومن أجل مستقبل أبنائها.

صاح الأستاذ:

ـ وكم من الجرائم ترتكب باسم الأسرة.

لم يفهموا كلام الأستاذ. وإن كان أفراد الأسرة يدركون بالفطرة دون سواها. ان المليونير كذاب في حكاية القرية التي جاء منها. وكل ما حكاه عن الثأر والأعين التي تجري وراءه في المدينة. مجرد كلام لا أساس له من الصحة.

قال الأستاذ إنهم أخطأوا في موقفهم من حكاية الأصل والقرية التي

جاء منها المليونير بصرف النظر عما حصل. كل إنسان في هذا العالم لا بد وأن يعرف الأصول التي ينتمي إليها. وأولها العائلة التي ينحدر منها. والبلد الذي يعيش فيه أهله. لا أحد تبدأ عائلته من والده. فقط. هذا الوالد كان له أب وكانت له أم وله أشقاء. وكان من المفروض معرفتهم من البداية. لقد حرموا من كلمتي: يا جدي ويا جدتي. لم ينطق أحد منهم بكلمة يا عمي سوى للغرباء في القاهرة. وكانت الكلمة تخرج من الفم معفرة بالهوان والإحساس بالمذلة.
قال الأستاذ: إنهم تأخروا في مواجهة الحقائق طويلاً.

رد المليونير: إن الأبكاتوا يحاول دفعه إلى الكلام. مع أن صالح الأسرة يفرض عليه عدم الكلام. وهو لن يتكلم لأن صالح الأسرة فوق أي اعتبار. وأكبر من هذه المنازعات التي تبدو مثل لعب الأطفال في الحواري. كان الأستاذ هو أكثر أفراد الأسرة يقيناً أن الرجل لا قرية له. وان الرحلة لن توصلهم إلى أية قرية.

بعض أفراد الأسرة كان يتصور أن المليونير له قرية وانه يعرفها. من منا يستطيع نسيان قريته؟ إنه يحملها معه في داخله مهما بعد عنها مكاناً وزماناً. لا أحد يستطيع استبدال قرية الماضي الجميل بمدينة الحاضر المتجهم في سنوات التبعثر والبحث. الرجل له قرية. وإن كان يفعل هذا. فلأنه يرغب في العودة إلى القاهرة.

في القرية الخامسة التي تحمل اسم الضهرية. كان في مدخلها نصب كبير قالوا إنه للشهداء. الذين استشهدوا في الحروب الأخيرة دفاعاً عن مصر. لم يسأل الأستاذ والده عن النصب. لأنه لم يكن مقاماً وقت خروجه من الضهرية. أقيم النصب بعد الحرب الأخيرة. كان النصب متوسط الحجم وكان في مدخل القرية تماماً. وفي مكان منه أسماء الضباط وتحتهم اسماء الصف والجنود.

الاسم والرتبة والسلاح الذي كان يخدم فيه وتاريخ الاستشهاد. الكتابة فوق لوحة من الرخام. وقف الأستاذ ليقرأ الأسماء. فشد الطابور إليه. سمع كلمات غضب من الآخرين. شدتهم السلاسل الحديدية في وقت لا يتوقعون التوقف فيه.

لم يكن الأستاذ يعرف سبباً واحداً للتوقف. ولكنه وجد انه لا يستطيع المشي. بدأ في قراءة الأسماء. الضباط سعداء. قالوا إنها العلامات الأولى لمعرفة القرية التي جاءت منها العائلة. تساءل ضابط: هل تكون أولى العلامات قائمة شهداء؟

أتاهم صوت الرئيس، كان يخطب. لم يتبين أحد مصدر الصوت. الذي كان عالياً جداً. سأل نفسه: صوت ميكرفون أو راديو هذا؟ كان التساؤل في محله. لأن الصوت كان من ميكرفون. معلق فوق مجلس القرية.

كان الوقت صباحاً. قال الأستاذ: وهل يخطب الرئيس صباحاً؟ لقد تعودنا على سماعه في أوقات الأماسي فقط. قال لنفسه: أينما تكونوا يدرككم صوت الرئيس أبداً.

قال أحد الضباط إنه يخطب في مجلس الشعب.

قال الأستاذ معلقاً:

ـ إذن لا بد من التصفيق بعد قليل.

خاف الضابط وأكمل الأستاذ:

ـ الرجال يصفقون والنساء يزغردن. تلك هي المهمة الأساسية. اقترب منه الضابط. قال الأستاذ:

ـ من نعم الله على الحاكم أن يسمع أكثر مما يتكلم. أن يستعمل اذنه وعقله أكثر من استخدام الفم. ولكن أين نحن وأين هي نعم الله سبحانه وتعالى.

كان صوت الرئيس المؤمن يقول إنه مستعد للذهاب إلى آخر العالم من أجل السلام.

سأل الأستاذ بصوت عال:

ـ السلام مع من؟

لم يرد عليه أحد.

أجاب هو:

ـ السلام مع الأعداء.

اقترب منه الضابط الذي يقود البعثة. وتساءل الأستاذ:

ـ ويذهب إلى آخر العالم.

تجمع الناس. رفع الأستاذ يديه وفيهما الحديد. ومن شدة الألم. رفع الذي قبله يديه. والذي بعده. وقال:

ـ ولكن يا سيادة الرئيس بدلاً من الذهاب إلى آخر العالم. نحن هنا. رعاياك يا مؤمن. لسنا أعداءك. نحن نحمل الجنسية التي تحملها. لماذا لا تفكر في إقامة سلام معنا نحن أولاً. ألسنا أولى؟ كيف تقيم سلاماً مع أعداء الوطن وجيوشك مصطفة على حدود الأخوة. والحرب معلنة على رعاياك. ونصف أسلحة الدولة موجهة للداخل. هل تسمعني يا سيادة الرئيس. أم أن صوتي لن يصل إليك مطلقاً.

تاه صوت الأستاذ. انطلق هدير التصفيق من الميكرفون حتى كاد أن ينفجر. اختلط التصفيق مع الزغاريد مع خروشة الصوت فقال واحد من الضابط:

ـ حتى الميكرفون لم يتحمل الهدير العالي للأكف التي تصفق.

تحول العسكر إلى كردون. أبعدوا الناس إلى أقصى مكان ممكن عن العائلة. دخل الضابط الذي يقود البعثة إلى الأستاذ. قال له. إن ما

يقوم به بعيد عن هدف الرحلة. خرجوا من أجل الحصول على القرية. الحديث في السياسة ممنوع وإلّا سيضطر إلى تغيير المعاملة من الآن.

نظر الضابط إلى الآخرين. أشار إلى باقي أفراد العائلة وتساءل: ما ذنب باقي العائلة حتى تصل إلى المعاملة الجديدة. بسبب تصرفات فرد طائش وغير مسئول.

يبدو أن الأستاذ لم يسمع الكلام لأنه توجه إلى اللوحة الرخامية وقال:

ـ هل كان أحد منكم يتوقع حدوث هذا؟ هل كنتم تتصورون ان دماءكم ستتحول إلى نهر يسبح فيه قارب الرئيس إلى آخر العالم. مادّاً يده لم استشهدتم في القتال معهم. آه لو عدتم مرة أخرى إلى بر مصر. ستفضلون البقاء حيث أنتم. إلى الأبد.

سحب الضباط والعساكر الطابور بالقوة. وطلبوا قوات مضاعفة من أقرب نقطة شرطة. وأعلنوا حالة الطوارىء بين خفر القرية. ولكن كل الإجراءات التي اتخذها الضباط لم تفلح في أن تسكت الأستاذ الذي اندفع في هذيان طويل عن هدير التصفيق والزغاريد وكلمات التأييد القادمة من القاعة الواسعة. والرئيس الذي سيسافر إلى آخر مكان في العالم بحثاً عن السلام. ومناجاته أن يحضر لهم أولاً وهم ليسوا في آخر العالم ولكن في بقعة ضائعة من مملكته. ومناجاة الشهداء. يطلب منهم ألا يستشهدوا من جديد من الذهول وعدم التصديق. طلب منهم التحلي بالصبر لأن ما حدث اليوم. مقدمة لما سيحدث. وقد تشيب من هوله الأجنة في الأرحام.

قال له أحد الضباط ان ما قاله السيد الرئيس لا يعني حرفية الكلمات. إن اللغة العربية أفعالها معظمها أقرب إلى أفعل تفضيل.

وهو لا يقصد ما قاله. ربما يقصد إحراج الأعداء. ويحاول وضعهم في ركن منزو صغير لكي يكشفهم أمام الرأي العام العالمي. لأنه يعرف موقف العدو مسبقاً ويعرف قيمة مخاطبة الرأي العالم العالمي.

قال ضابط آخر. وفي هذه الحالة يكون العرض ضربة معلم.

سألهما الأستاذ.

ـ ومن أدراكما أنه لا يوجد اتفاق قبل هذا الخطاب؟

لم يرد الضابطان، لأن الضابط الذي يقود البعثة عنفهما على فتح حوار سياسي مع الأستاذ. من يدريهما أن هذا الأستاذ فخ منصوب لهم جميعاً. ؟ لا مفر من مقابلة كلامه بالصمت.

قال الأستاذ:

ـ مصر بلد العجائب.. صح؟

ابتسم الضابط وسأله:

ـ وهل في هذا عيب؟

قال الأستاذ:

ـ المشكلة انه عندما تبدأ في مصر الأمور الغريبة والحكايات العجيبة. لن يستطيع أحد أن يوقفها أبداً.

قال له الضابط، الذي منع الآخرين من الكلام معه:

ـ ليست قاعدة.

قال له الأستاذ:

ـ إنها قاعدة مصرية. عندما تبدأ الأمور الغريبة في بر مصر. لن يستطيع حتى الذي بدأها أن يوقفها. ورهاني معكم على الغد.

قال الضابط لمن معه:

ـ جن الأستاذ والجنون أحياناً يكون سياسياً. مسكين.

وكان التصفيق الهادر يحاصر المكان. وكان الناس في حالة من

الدهشة وعدم التصديق والذهول. وكانت مصر تفيق. تتلفت حولها. تحاول الإمساك بالأمور والمصائر. قبل أن تبحر بعيداً عنها. قال الأستاذ ان مصر من ضخامة حالة الذهول. لن تمسك بزمام الأمور بعد الآن. أفلت من الأيادي والأذهان والقلوب.

في كل قرية من القرى السبع التي وصلوا إليها. كان الخجل يأكلهم. نظرات الكل تتجه إلى المليونير. تحاصره. تسأله: هل هذه هي قريتك، يا من ضحكت على الكل.؟ وكان المليونير لا يجيب على أي سؤال. بل يقف صامتاً.

يسأله الضابط السؤال القديم:

ـ هل هذه هي قريتك؟

وكان رد المليونير واضحاً:

ـ لا أعرف بالضبط؟

كان يقول إنه خرج من القرية طفلاً. لا يعرف أية ملامح من قريته ولا يتذكر أي شيء. ثم إن الحياة والقرى والناس تغيروا. يسأله الضابط عن أية علامة تميز القرية: مسجد، شارع، محل بقالة، مدرسة، صهريج مياه. مكتب بريد، جمعية تعاونية زراعية. ترعة بالقرب من البلد. اسم أحد أعيان القرية.

ـ كان يقول إنه لا يذكر أي شيء من هذا كله.

وفي العربات في طريق العودة. لا يكون هناك مفر من السؤال الجارح الذي يطل من وجوه أفراد الأسرة. كان يقول إنه لن يعود إلى قرية هو مطلوب للثأر فيها. لن يسلم نفسه للموت أبداً. وكان يقول في أحيان أخرى، إنه رفض أن يتعرف على قريته حتى يعودوا إلى مصر أم الدنيا. من يترك الشوارع والأضواء ومناظر النساء والأرصفة التي لا تبدو من كثرة البضاعة فوقها. من يترك هذا كله ويعود إلى صمت القبور في القرى.

توسل له أفراد العائلة. طلبوا منه التوقف عند أية قرية من القرى ويقول إن هذه القرية هي التي خرج منها. طلبوا منه أن يقول هذا من باب الكذب حتى تستريح العائلة من عناء السفر الذي بدون نهاية. ومن بهدلة الانتقال من بلد إلى بلد. ومن مهانة المبيت في القطارات الليلية المظلمة. والتي تخلو عربات البضاعة فيها من الهواء والماء. من مذلة المبيت وسط دائرة من الجنود المسلحين. من عار قضاء الليالي المسهدة الطويلة في عنابر الحجز مع المشبوهين والمتسولين وقطاع الطرق.

قال لهم المليونير ان عظامهم طرية. وان اليأس الذي أمسك بخناقهم لن يعرف طريقه إليه أبداً. إنه يعرف نتيجة ما يقوم به بعد اللف والدوران، على كل القرى. وبعد عدم تعرفه على أية قرية من القرى. لن يكون أمام الضابط سوى العودة بهم إلى القاهرة مرة أخرى.

فشل في العثور على القرية، إذن القاهرة من جديد. وفي مصر أم الدنيا. لن يذهب إلى المقابر. إما أن يسكن مثل باقي خلق الله في بيت له باب وفوقه سقف وتحده جدران أربعة. وفي هذه الجدران نوافذ يدخل منها الهواء الذي يتنفسه باقي عباد الله في كل مكان من الأرض. وأن يكون حول البيت بلكونات بحرية وشرقية يشرب فيها الشاي بالنعناع في ساعات العصاري الجميلة. وتنشر فيها الست الكبيرة غسيل ملابسهم الغالية الثمن. لن يقبل أقل من شقة لكل أسرة صغيرة. وهو والست الكبيرة شقة كبيرة. وإن لم يحدث سيبقى في القسم ولن يخرج منه أبداً.

قال لأفراد العائلة إن كل المطلوب منهم هو الصبر والاحتمال الذي سيتعب أولاً هو الذي سيسلم وهو الذي سيخسر. ليس من مصلحة

الشرطة الاحتفاظ بهم. لديهم أعمال يومية. وكل يوم يأتي برزق جديد من المقبوض عليهم. توجد أزمة في سجون مصر. وإن أصروا على البقاء ستحل المشكلة وكل المطلوب هو الصبر.

لم يصدق أحد في العائلة ما يقوله المليونير. الذي بدأ أمامهم وكأنه شخص اقترب من الجنون يتشبث بحلم لا يستطيع حتى الاقتراب منه.

ورغم حالة عدم التصديق التي قوبل بها من العائلة. كانت الأيام تدفعه إلى التشبث بحلمه أكثر وأكثر. وأن يحتضن هذا الحلم. وأن يصبح الحلم هدفه الفعلي من الرحلة.

الضهرية السابعة. في بر مصر كله. كانت الضهرية مركز إيتاي البارود ـ محافظة البحيرة. ولأنها تتوسط ضهريتين الأولى في حضن الاسكندرية والثانية في مركز شربين بالقرب من المنصورة قرر الضابط أن يختم بها الرحلة. ركبوا من المنصورة. في طنطا غيروا القطار. نزلوا بعد قليل في إيتاي البارود.

من المركز حصلوا على سيارة تصلح لنقل مساجين. بعد أن شرح الضابط المهمة. وحكى القصة من البداية وحتى النهاية للمسئولين في المركز.

قال له المسئولون في المركز، إنه يصل إليهم في ظرف صعب. لديهم تعليمات وأوامر. توصلهم إلى الدرجة القصوى من الاستعداد. لم تحدث من قبل. يسافر الرئيس مساء اليوم إلى إسرائيل. ومطلوب أكبر قدر من اليقظة والتنبه. لديهم تعليمات بإلقاء القبض على كل من قد يتسبب في حدوث أية متاعب. في هذه الأيام أو الأيام القادمة.

حمدوا الله لأن وداع الرئيس لم يكن شعبياً. ولم يمر موكبه في شوارع القاهرة. لأن الأمر سيتطلب أرسال أنفار من البلاد تودع الرئيس

بالروح والدم. وخفق القلب وحبة العين. ومع هذا فالأمر صعب. من السهل معرفة ما يجري هنا في البندر. ولكن من الصعب معرفة ما يجري في عدد القرى التابعة للمركز.

كادوا ان يطلبوا منه تأجيل الأمر. ولكنه قال لهم ان الحكاية سياسية ولكي يصل الاهتمام الى مداه. قال انها كانت محاولة انقلاب ضد نظام الحكم استخدمت فيها العائلة التي معه.

تساءلوا:

ـ هل هذا معقول؟

شرح وافاض في الشرح. قدم المعلومات الكثيرة التي حصل عليها من العائلة. حدثوه عن مواكب العائد من القدس المحتلة. التي يجب الاستعداد لها من الآن. صحيح ان التعليمات لم تصل. ولكن من المؤكد انها في الطريق اليهم الآن.

اعطوه سيارة ومرافقاً وعدداً من العساكر وضابطاً صغيراً. طلبوا منه المرور على نقطة شرطة التوفيقية. لأن القرية تتبعها ادارياً. لفتوا نظره الى ان الضهرية من القرى المشاغبة. قرية حدثت لها حالة من التطلع الاجتماعي واصبحت التجارة تسبق الزراعة فيها وتأتي قبلهما الأعمال الطفيلية غير المنتجة.

لخص له الضابط الذي تحرك معه الموقف بقوله: انها قرية ولكنها لم تعد قرية. وأيضاً لم تصبح مدينة بعد. فقدت الأرض التي كانت تقف عليها ولم تعثر على ارض بديلة بعد. ستجد حالة من التحلل التي لم ترها من قبل. اختفى المنتجون واحتل المسرح الذين لا يعملون.

قال الضابط الذي كان يقود الحملة، ان المهمة تبدو الآن اصعب. هذه القرية هي سابع القرى التي تحمل اسم الضهرية. وعندما يدخلها

لن يخرج منها ومعه العائلة. سواء كانت هذه العائلة من الضهرية او ليست منها.

لا يوجد أمامه سوى حل واحد. ان تبقى العائلة في القرية. قال له الضابط الذي رافقه من القسم. انه حر في التصرف. عندما يصل الى القرية. ودوره هو ومعاون نقطة الشرطة مساعدته في عمل اللازم.

في الطريق من ايتاي البارود الى التوفيقية. ومن التوفيقية الى الضهرية قال الاستاذ ان اليوم هو التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٩٧٧. قال انهم في مثل هذا اليوم منذ عام مضى. بدأت مغامرة المليونير. وها هو عام بأكمله يمضي. دون ان تصل العائلة الى أية نتيجة. سوى هذه البهدلة واللف على كل قرى مصر.

قال الاستاذ ان الشمعة الأولى. ينبغي اشعالها الآن في كعكة القفزة نحو المجهول. ويبدو انهم سيلفون ويدورون بحيث يزداد عدد الشمعات. ولا يعرف احد كم يصل عدد الشمعات بعد اللف والدوران.

اقترح عليهم الاستاذ ان يحتفلوا مساء اليوم بالذكرى الأولى لحركة المليونير. ضحك الآخرون وقالوا: انه لا أحد يعرف كيف ينزل عليهم الليل. ولا في اي مكان. في القرية أم في الحجز او عربة بضاعة في قطار سكة حديد. وربما في مركب شراعي يعبر نهر النيل. الى الضفة الغربية لنهر النيل. من يدري؟

قال الاستاذ. ان ذلك كله ليس مهماً. المهم هو ان يتم الاحتفال بالمناسبة القومية السعيدة. من المهم معرفة ما جرى ولماذا جرى والى اين يقودهم المليونير؟ انتفض المليونير في مكانه. قال انه لا يقود أحداً. قيادته تنتهي في ميدان التحرير. والحركة ناجحة مائة في المائة حتى الوصول الى الكعكة الحجرية.

بعد هذا الذي يقود هو الشرطة. قادوهم من الميدان الى السجون، والتحقيقات والسؤال والجواب. التفتيش في الضمائر والنبش في القلوب. ثم وصول اعلى أيدي الشرطة الى حالة البحث عن القرية التي جاءوا منها في ريف مصر.

انه مسئول عن الخطوة الأولى فقط. ومن بعد هذه الخطوة لا مسئولية عليه. قال الاستاذ انه سيحتفل بالمناسبة عندما يجيء الليل. في نفس الوقت الذي بدأت فيه عملية البيع والمزاد الذي لم يتم. والدعوة موجهة الى كل فرد من العائلة. يفكر بالمشاركة في الاحتفال. ومن لم يشارك له دعوة اخرى لكي يتفرج. فالمشاركة بالفرجة نوع آخر من المشاركة. ومن يخشى الفرجة خوفاً من المليونير. من حقه ان يستمع من بعيد.

وصلوا الى القرية. مدخل خاص يصل بينها وبين الطريق الزراعي، في المدخل الجمعية التعاونية والمدرسة والوحدة المجمعة وحمام المياه. قرية مثل كل القرى. تبدو هكذا من بعيد. مئذنة مسجد وصليب كنيسة اشجار ونخيل وابراج حمام. وبيوت طينية تبدو باهتة اللون وسط المباني الحديثة التي ارتفع بعضها اكثر من اللازم.

نزلوا البلد. كان يركب بجوار السائق الضابط الذي يقود الحملة، وبجواره الضابط المندوب من المركز. وضابط نقطة الشرطة. وكان بيت العمدة قريباً من المدخل. فلم يلفوا في الحواري الضيقة التي تبدو مثل الخنادق.

نزل الضابط أولاً. كان العمدة في حقله فارسلوا في طلبه وخوفاً من التأخير ارسلوا في طلب نائب العمدة. قال لهم كاتب حجرة التليفون والخفير النوبتجي، ان العمدة في الطريق اليهم. لأن هناك تعليمات

مشـددة وصلت منذ قليـل. بالنسبـة للحفاظ عـلى الامن. وطلب سفر بعض الانفار الى مصر بعد يومين.

تساءل الضابط:

ـ انفار؟ والى مصر؟

قال له ضابط النقطة:

ـ استقبال.

الضابط المرافق من المركز صحح الاسم:

ـ تشريفة.

قالوا له، ان الرئيس الذي سيسافر اليوم الى البلاد اياهـا. يتطلب سفـره محـافـظة اكـثر عـلى الامن. «الحـالـة الآن ج» أقصى درجـات الطوارىء. والرئيس الـذي سيعود من هنـاك بعد يـومين. يتـطلب ان يكـون في استقبالـه اكبر عـدد من المواطنـين يهتفون. ويـرفعـون صـور الرئيس ورايات البلاد. وتبدو على وجوههم الفرحة.

التعليمات الواردة. انه لا بد من وجـود عشرة ملايـين على الاقـل في الاستقبال. هذا هو الحد المعقول. ولكن الحد الادنى الـذي لا يجب ان يقل العدد عنه بأي حال: هو خمسة ملايين نسمة. لأن خـطاب الرئيس الـذي سيلقيه بعـد العودة من الـرحلة. والمعد من الآن. سيقـول وهـو يتكلم عن انجازات الرحلة. ان الرئيس سعيد غاية السعـادة لأن خمسة ملايين مصري كانوا في استقباله لحظة العودة. وان الموكب بهذا الحجم والقدر لم يحدث من قبل في تاريخ مصر أبداً.

قـالوا لـه. ان المشكلة تبدو في ان من كتب الخـطبة. قـد اشـار الى مساهمة المرأة المصرية العظيمة في الاستقبالات. والتي فاقت مـا قام بـه الرجال. وهذا معناه انه لا بد من وجود بعض النساء في الاستقبالات. وطبعـاً من المفـروض ان يكن من نسـاء المدن. ولكن في نفس الـوقت

مفروض ان تكون هناك بعض الفلاحات من بعض القرى.

انها المرة الأولى التي تشارك فيها الفلاحة المصرية في الاستقبالات السياسية. وان كان يجب نقل أية فلاحة مع زوجها منعاً للملابسات. والاحتكاكات هناك في المدن.

ظلت السيارة واقفة امام دوار العمدة ولم يسمح الضابط لأحد بالنزول من صندوق السيارة الخلفي. وفي داخل السيارة كان الجو خانقاً وكانت الاتربة تضايقهم. وكانت نظرات الذين تجمعوا حول السيارة من كل جانب، تسبب لهم الحرج والضيق. وكلما مر الوقت. كان عدد الواقفين يزداد. تطل من وجوههم التساؤلات. والرغبة في محاولة رؤية من في داخل العربة. وفي القرية تكهرب الجو وسرت الاشاعات والحكايات عن السيارة التي حضرت.

حضر العمدة أخيراً. جلس مع الضابط وارسل في طلب اعداد طعام فاخر يناسب هذا العدد من الضباط. وارسل في طلب الشاي والقهوة والفاكهة والمثلجات وعلبة السجائر المستوردة والولاعة الفاخرة المستوردة ايضاً.

قال الضابط الذي يقود الحملة، ان اكبر اكرام له واحتفاء به هو الا يعود ومعه العائلة الموجودة في السيارة. كان يمسك بالحكاية من آخرها وكان قد مل قول حكايته اكثر من مرة. وتساءل العمدة بدهشة:

ـ الم تحضروا من اجل الانفار؟

كان العمدة قد تصور انهم حضروا من اجل انفار بالروح بالدم

قال الضابط الذي حضر من المركز:

ـ لا تستعجل المتاعب يا عمدة.

كانت الاشارة قد وصلت لدى عامل التليفون. ولكنهم حضروا من

اجل حل مشكلة صغيرة قبل موضوع الاستقبال. حكى الضابط الذي حضر من مصر القصة من اولها. وسأله ان كان هذا الرجل من قريته ام لا.

طلب العمدة ان يشاهد الاسرة. قال ضاحكاً:
ـ أعاين البضاعة اولا. ثم اتكلم..

صعد الى السيارة، فتحوا الباب. ومرت فترة حتى تمكنت عيناه من الرؤية في ظلام الصندوق المغلق. الذي كانت توجد فيه العائلة والحراس. اخرجوا له المليونير، وانزلوه من السيارة. وان كان العمدة لم يتعرف عليه. سأله ابن من في البلدة هو.

قال المليونير، ان هذه القرية ليست قريته. اذن فكل سؤال وكل جواب لا قيمة له. عاد العمدة يقول، ان الرجل ليس من القرية. وهو الذي قال ذلك بنفسه. رفض الضابط منطق العمدة. قرر ان يجري عرضاً عكسياً هذه المرة. من قبل كان يعرض البلدة بمن فيها على الرجل لكي يقول ان كانت قريته ام لا. وفي كل مرة، كان الرجل يقول، ان القرية ليست قريته. ويبدو ان الرجل استراح لهذه اللعبة الجديدة. ان يظل يلف ويدور في كل القرى بلا نهاية. عموماً هذه آخر القرى. لا توجد في مصر قرية اخرى اسمها الضهرية. ولن يعود به الى مصر.

تلك هي التعليمات التي لديه. والتي لا بد من تنفيذها. والأوامر هي الأوامر مهما كانت الظروف انه لا يستطيع ترك العائلة في طريق عام. ولا بد من تركها في قرية يكون اسمها الضهرية. وهنا لا مفر من ترك العائلة.

سيعرض العائلة على القرية. وان تعرف اي واحد من اهل القرية على العائلة سيتركها ويعود.

سأله العمدة:

ـ وان لم يتعرف عليها أحد؟

رد الضابط:

سأترك العائلة أيضاً.

شرح الضابط مندوب المركز الأمر:

ـ في كل الاحوال سيتم ترك العائلة.

قال العمدة، في هذه الحالة، لا مبرر لعملية العرض. لأن الضهرية ليست مثل باقي القرى. ربما كانت هناك نتائج سيئة لعملية العرض. الضهرية سافر أبناؤها الى بلاد العرب. عادوا ومعهم الأموال. يتاجرون. يشترون ويبيعون ويتشاجرون في النهاية. سيقبل العائلة بشرط واحد.

تساءل الضابط بلهفة:

ـ أي شرط؟

كان الضابط يتمنى الخلاص من العائلة. لكي يعود ناجحاً. قال العمدة ان كل شروطه، هي ان يكون له حرية التصرف في العائلة. قال له الضابط، انه عمدة القرية. وان العائلة ستكون من رعاياه ومن الآن هو حر في التصرف فيها.

شرح العمدة فكرته. سيرحل العائلة ضمن المواكب التي ستكون في الاستقبالات. ثم يبدأ التصرف معها. ، بعد العودة من المواكب. ان عادت. وان لم تعد اليه. يكون الموقف قد انتهى.

احتار الضابط في الأمر. خاف ان تعود الاسرة الى القاهرة بعد يومين. فيفهمون ان ما فعله هو أنه تخلص من الأسرة. دون أن يكون هناك ضمان عدم عودتها الى القاهرة. كان الضابط متأكداً، ان العائلة ان ذهبت الى القاهرة. لن تعود منها أبداً.

الاستقبالات والهتافات ستكون فرصة ذهبية نادرة للعائلة لكي تهرب منهم الى الابد. لم يكن امامه سوى احتمالين. إما ان يعود الى القاهرة. ومعه العائلة. حتى تبقى تحت أيديهم ولا تتوه. أو ان يعود بمفرده. بعد ان يأخذ اقراراً مكتوباً على العمدة. بعدم مغادرة العائلة للقرية. وتصبح المسئولية على العمدة.

كان الضابط محتاراً، وكان القرار صعباً. وبينما كان الضابط محتاراً تأخذه بحار الحيرة الى آخر العالم. وتحضره منها. وبينما كان العمدة يشرف بنفسه على اعداد طعام من ثلاثة انواع. خاص وجيد للضابط. وطعام عادي للعسكر والسائق. وطعام من نوع ثالث. اقل من العادي للعائلة التي كانت مع الضابط. وبينما كانت الناس قد تجمعت في الخارج حول السيارة. وبينما كانت العائلة قد تعبت من البقاء داخل السيارة. كل هذا الوقت. وبينما كان الاستاذ يبحث عن مكان يحتفل فيه بالمناسبة التي تخصهم وهي الذكرى الأولى لمرور سنة على التحرك الى ميدان التحرير. وبينما كان الضباط يجولون حول دوار العمدة، يشمون الهواء البكر الطازج ويستعدون لتناول طعام العمدة. بينما يحدث كل هذا. أتت مكالمة تليفونية سريعة من مصر.

تمت المكالمة عبر المديرية والمركز والنقطة. كان الصوت بعيداً جداً. ولكن العمدة تمكن بصعوبة. وكل ردود العمدة كانت عبارة عن كلمات: حاضر، نعم، سينفذ ذلك فوراً وحالاً.

بعد أن وضع العمدة سماعة التليفون. كانت صينية الطعام من النوع الأول تدخل القاعة. صفق العمدة بيديه. وطفح البشر والسرور من تحت جلده. وتحسس بيديه كرشه الضخم. قال وهو يشير الى التليفون الحكومي. ـ ان المكالمة التي اتت من مصر حلت كل المشاكل. قال العمدة موجهاً كلامه إلى الضباط الثلاثة: ان التليفون كان من

مصر. من الداخلية نفسها. يطلب سرعة العودة بالعائلة فوراً. إلى مصر. لتكون العائلة في طوابير الاستقبال. مع شرط أن يعود عاش الملك. وعودته أهم من عودة العائلة كلها.

سأله الضباط الثلاثة، عن الذي تكلم. قال إنه لا يعرف. وإن كان يبدو من طبيعة الكلام انه مسئول هام وكبير. لأن الكلمات مختصرة والتعليمات واضحة.

سأل العمدة عن عاش الملك. قال هل هي كلمة سر ليفهم الضباط معناها. نفى الضابط. قال إنه إسم فرد من العائلة. وإنه موجود معهم.

عندما كان الضابط يرد على العمدة، دار في ذهنه خاطر مفزع، يبدو أن عاش الملك يعمل معهم هناك. ربما حضر مع العائلة كنوع من التجسس عليه. وقف الضابط يسترجع ويحاول تذكر كلمة خرجت من فمه. منذ أن تحركت الحملة من القاهرة. وحتى الآن.

اكتشف الضابط، أن ذلك ربما كان صعباً. قال إن الفرصة مناسبة في طريق العودة. لكي يصلح أي تصرف خاطىء أقدم عليه.

سيبدأ إصلاح الأمور من الآن. ذهب إلى السيارة، فتح الباب الخلفي. نادى على عاش الملك. أخرجه من السيارة. قال له سيبلغه الآن خبراً هاماً. يساوي مليون جنيه. لكي يبلغه بنفسه إلى العائلة. استفهم منه عاش الملك عن الخبر. فقال له الضابط ان العائلة ستعود الليلة إلى القاهرة.

لم يصدق عاش الملك ما يسمعه. أكمل الضابط إنه اختار عاش الملك، ليقول له الخبر لأنه أحبه من النظرة الأولى. أدرك إخلاصه لقضية الوطن من بداية الرحلة. وقال الضابط، إنه أصدر تعليماته من

أجل سواد عيني عاش الملك. لكي يعد للعائلة عشاء خاص.

اطمأن الضابط إلى هذه البدايات. وقال إنه سيؤمن عاش الملك لحسابه طوال رحلة العودة إلى القاهرة. وسيضع عاش الملك على كفوف الراحة.

عاد الضابط إلى دوار العمدة. قال إنه لولا التليفون الأخير ما استطاع حتى أن يأكل. لأن التليفون حسم الموقف.

وضعوا الطعام، دعاهم العمدة إلى تناوله. قال إن الاستمتاع بتناول الطعام أهم من تناوله. نظر إلى الضابط القادم من مصر وقال ان التليفون القادم من القاهرة حقق حالة من فض الاشتباك بينه وبين حضرة الضابط. قال ضاحكاً.

ـ ويادار ما دخلك شر.

صحح الضابط.

ـ يا دوار ما دخلك شر.

أثناء الأكل. قال العمدة للضابط القادم من المركز، إن التعليمات الخاصة بالأنفار الذين سيرحلون إلى مصر من أجل الموكب. لم تحدد العدد المطلوب.

قال له الضابط:

ـ العدد مفتوح. .

تساءل العمدة:

ـ حتى لو تمكنت من إحضار سكان القرية كلهم؟

ـ ستحصل على جائزة الدب الذهبي من الدولة.

ـ والسفر؟

ـ يمكن أن يبدأ من الآن.

ـ والهتافات؟

ـ سيتم توزيعها في القاهرة. قبل الموكب مباشرة.
ـ والأجر؟
ـ أكبر من أي أجر تم دفعه من قبل في أي موكب سابق.
ـ كم؟
ـ حتى الآن لم يتم تحديده لأن الاعتماد المالي لم يصل بعد حتى يتم توزيعه على عدد رؤوس الأنفار.
ـ والإعاشة لمن سيسافرون اليوم مثلاً.

ستتولى الإعاشة كلها. الطعام، السندويتشات. أما الشاي والسجائر فسنوزع أثمانها عليهم.
ضحك العمدة:
ـ يبدو أن الأشيا معدن.
قال الضابط:
ـ الأشيا ذهب. هل يمشي ذلك مع المثل الذي يتكلم عن الحال.

قال الضابط للعمدة، ان الأمور وصلت إلى درجة أنهم سيوزعون هذه المرة ملابس على من سيقومون بالأعمال القيادية في الموكب. ملابس من نوع خاص. قد تكون الزي القومي لكل محافظة.

كان الطعام دسماً. وقد استغرقت الجماعة الأولى المكونة من العمدة والضباط وقتاً أطول في تناول الطعام. وجماعة العسكر والسائق كانت بعدهم. أما العائلة فكانت أول من انتهى من تناول الطعام.
شكروا العمدة. ورحلوا بعد أن نزل الليل على القرية.

تساءل الضابط، عن مصير السلاسل الحديدية، هل يكون في استقبال العائد من فلسطين المحتلة. مواطنون مكبلون بالحديد.؟ ماذا يقول الناس عند ظهورهم بهذه الصورة. لا بد وأن يبدون وهم أحرار.

قـال البعض ان مشـاركـة العـائلة في المـوكب والهتـاف لا يعني أن خطرها قد زال. وانه مطلوب ترحيلها في الحديد. لأنه من المحتمل أن يتم ترحيلها بعد الموكب من القاهرة إلى الريف مرة أخرى.
سأل الضابط، هل تبقى العائلة في القاهرة.

رد عليـه زميل لـه. قـال إن العـائلة يمكن أن تبقى في القـاهـرة. في حالين. إما أن يكون الزمن القادم. زمن مواكب. بين الموكب والموكب موكب. أو مشاكلنا ستحل بضربـة سحريـة. ولن تكون هنـاك مشكلة إسكان أو مواصلات أو طعام أو ملبس. وفي هذه الحالـة ماذا يمنـع من ترك العائلة في القاهرة.

قال الضابط الثالث: ان الزميل يحلم. وفي السياسة لا أحلام ولكن أمور واقعية. رد عليهم الزميل الحـالم. قال إن كـل المقالات التي كتبت كانت تتكلم عن الرخـاء أكثر من الحـديث عن السلام. ورهـان الناس ليس عـلى مسألـة الحرب والسـلام. بقدر مـا هو عـلى التعب والضنك اليـومي. الذي يجعـل الناس مستعـدة للتضحية بكـل شيء. ليس من أجل الرخاء بقدر ما هو من أجل التقاط الأنفاس.
الرخاء القادم وصل إلى أبواب مصر. يطلب الإذن بالدخول.

اختلف الضباط في حكاية فك القيود. البعض مع فكهـا، والبعض الآخر مع إبقـائها. لجـأوا إلى القيادات العليـا. وجاء الـرد يطلب فـك القيود. اعتباراً من لحـظة البدء في رحلة بـالروح بـالدم. ومـطلوب أن تـذوب العائلة وسط بـاقي جماهـير ديار نعم ولكن بشرط أن تـظل تحت أعين رجال الشرطة. لأن المستقبل غير معروف. حتى الآن. ولا يعرف أحد طريقة التصرف معهم. كل الكبار يبدون الآن مثل أم العروسـة، مشغولون ولا عمل لديهم. ومن يجرؤ على سؤال أحد عن الرجل الذي عرض أولاده للبيع. في الوقت الذي ينتـظر فيه الكـل العائـد من رحلة

العصر. لا يعرف إلا الله مصيره. هل يمكن الحديث عن الذي باع وسجن. ونحن في انتظار من اشترى.

الزعيم صاحب أكبر ضربة معلم في النصف الثاني من القرن العشرين سأل الضابط نفسه وهو يسمع هذا الكلام من زميله، هل يأتي الرخاء إذن. ما داموا فكوا القيود عن أيادي أفراد العائلة؟ سأل نفسه قبل أن يجيب: هل يأتي الحل لمشاكل الداخل من رحلة تمت في الخارج؟

سيعد ذلك معجزة بكافة المقاييس. كان الضابط في حالة من عدم الفهم. ولكن الضابط الذي كان يقود الآخرين. قال إن تعب ساعة، مهما كانت درجته. أسهل من تعب كل ساعة. أمامهم عمل صعب وعصيب. ولكن يبقى السؤال: هل تنفرج الأيام القادمة عن الرخاء؟

عادت البعثة، قال المليونير من رحلة البحث والتجوال ولم تعثر على بئر بترول واحدة في أراضي مصر. محطة مصر من جديد. بعد العودة لمح المليونير بعض الشبان في المحطة. بالفطرة والخبرة السابقة. أدرك أنهم من اللصوص.

قال المليونير لنفسه، ان لصوص أيامنا أنواع وأشكال غريبة. ماذا يفعل السردين وسط حيتان هذه الأيام. أشار لهم أن يقتربوا. الأيادي حرة لأول مرة منذ بدء الرحلة. قال إنه سيعقد مؤتمراً صحفياً. بعد وصوله إلى ميناء القاهرة البري بسلامة الله.

تجمع الناس حوله ولم يتمكن الضابط من منعه. كان متهماً ولكنه الآن واحد من جماهير بالروح والدم. وهم مواطنون من الدرجة الأولى. ولا يجرؤ أحد على مضايقتهم.

الذين تجمعوا حول المليونير كانت نظراتهم مركزة على يديه وكان

القيد ظاهراً وواضحاً. ومن الصعب إخفاؤه. شعر المليونير بذلك وحاول إخفاء يديه وبدأ يتكلم.

قال إن البنورة المسحورة. والتي إن لمسها أي إنسان تحقق له كل رغباته في جزء من الثانية. تعيد ترتيب الكون. تحول المستحيل إلى ممكن، تشفي المرضى، تطعم الجائع. وتبني البيوت في غمضة عين. تنصر المهزوم على أعدائه. وتطيل الرءوس المحنية إلى الأرض. البنورة موجودة في مكان ما. في إحدى قرى بر مصر. تحت بئر مجهولة، والبئر تحت مئذنة عجوز. والمسجد مبني منذ آلاف السنين من الحجارة. حجارة الزمن القديم القوية. ولكن المئذنة مالت. تصدعت في الأيام الأخيرة. وإن كانت لم تقع بعد. لا بد من الوصول إلى البنورة قبل سقوط المئذنة. وإن سقطت لن يصل إلى المئذنة أحد.

المئذنة تهتز حالياً، ونحن في صراع مع الوقت. ولا بد أن يكون أول من يصل المئذنة إنسان محروم بكل معنى الكلمة. لا يملك البيت أو الطعام أو الملبس أو الوظيفة أو المركز الاجتماعي.

خرجت البعثة. تمثل كل المحرومين في بر مصر. والضباط يمثلون كل الشبعانين. حتى يتم الاقتسام بين الطرفين بالعدل. لفوا مصر من أولها إلى آخرها. ولم يجدوها. وقفوا أمام كل المساجد القديمة. والمآذن المتصدعة التي تهتز. ولم يجدوا البنورة المسحورة. وهو يعتقد أن البنورة تم تهريبها خارج مصر. وهي الآن في إحدى الدول السعيدة. ولهذا فهو يقترح على الدولة، سفر البعثة إلى الخارج في جولة حول العالم بحثاً عن البنورة المسحورة. لأنه لا مخرج لنا جميعاً. قال المليونير الشبعانين قبل المحرومين. سوى بالعثور على البنورة المسحورة. وصل الوضع إلى درجة أنه لا حل سوى هذا.

المؤلف يعتذر عن إكمال هذه النهاية. يترك العائلة الآن على أبواب القاهرة

مـدينة مصر التي لم تعـد محروسـة. دون أن يفكر حتى في طـرح السؤال القديم. وهل وصلت العائلة إلى بر الأمان؟

يقـول المؤلف رداً عـلى التسـاؤلات إننـا وصلنـا الآن إلى مـا بعـد الرواية. ورجال الأمن لا يعرفون ماذا يفعلون بالعائلة. والمؤلف متعب لدرجة أنـه لا يعرف كيف يتصرف في العـائلة. المؤلف يقول لنفسـه لا يـوجد شيء نهائي في هـذا العالم. ومن قبـل قال المؤلف: كيف أنهي في الرواية قضية لم تنه في أرض الواقع. عموماً لا يزال لدينا فصل آخـر في الرواية. قبل أن نصل إلى حيرة ما بعد الرواية..

لقد تعبت يد المؤلف من كثرة الكتابة.

١٠

خاتمة أخيرة :
كتبتها ظروف الوطن

والخاتمة الأخيرة، التي كتبتها ظروف الوطن. أو بتحديد أكثر ظروف محنة الوطن تتم كلها في موكب. تبدأ في الموكب وتنتهي في الموكب. تقال خلالها إجراءات وتتم إجراءات أمن. وفي هذا الموكب تلتقي العائلة كلها لأول مرة منذ عام مضى.

كان الموكب من أجل استقبال العائد من ديار الأعداء. ويبدو أنهم جميعاً، مصر بمن فيها. كل أبناء هذا الوطن، لكي يكونوا في الاستقبال، إما أنهم اعتصموا بمنازلهم أو أجبروا على الذهاب إلى الموكب. وعندما بدت الشوارع مهجورة وخالية من الناس. أطل شخص من نافذة بيته وقال: لا تخلو الشوارع هكذا إلا في أيام مباريات الكرة المثيرة أو عندما يكون الخيار، إما أن تعتصم بالبيت أو تذهب إلى الموكب مرغماً.

سأله ابنه الصغير، الذي كان يقف بجواره مندهشاً:

ـ أين مصر والمصريون يا أبي؟

قال الرجل:

ـ ذهبوا إلى الموكب تحت الحراسة المشددة.

تساءل الطفل:

ـ ومن الذي ذهب بمن؟

وقبل أن يجيب الوالد سأل الطفل من جديد.

ـ وهل هناك موكب تحت الحراسة المسلحة؟

قال الرجل:

ـ تلك حكايات يطول شرحها.

كان اليوم هو الاثنين، الحادي والعشرين من نوفمبر. والعام هو السابع والسبعين. وفي الخامسة إلا خمس دقائق. وصلت إلى مطار القاهرة الدولي أول طائرة قادمة من ديار الأعداء. مارة فوق تراب الوطن المحتل.

تساءل البعض: كيف جرى الاتصال الأول بين مطارنا ومطار الأعداء؟ من مطارات الأعداء انطلقت الطائرات لتحول أبناء هذا الوطن إلى شهداء. كيف جرى التفاهم؟ بلغة العرب؟ هذا مستحيل بالانجليزية؟ لغة المحتل السابق الذي عاد؟ نتمنى هذا جميعاً. نخشى أن يكون اللسان العربي قد أجبر على أن يتكلم باللغة العبرية. وأن يكون ذلك في مقدمة مطالب الأعداء. وأن يكون المطلب قد تم على أرض المطار، كان في استقبال الرئيس رجال الدولة، وفي مقدمتهم نائب الرئيس حسني مبارك. ورئيس الوزراء ممدوح سالم. ورجل الإقتصاد في البلاد، الدكتور عبد المنعم القيسوني.

وفي داخل المطار، كانت محطة الارسال الاذاعية رقم واحد. ومحطة الارسال التليفزيونية رقم واحد. وقال المذيع بصوت عال:

خلال هذه الرحلة، وصلت درجة الاستماع الاذاعي والتليفزيوني في أوروبا وأمريكا. مع وصول الرئيس الى القدس اعلى نسبة لها. منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

أعلنت مؤسسة قياس الرأي العام في أوروبا هذه النسبة. وقد كانت

مساوية في معظم البلاد الاوروبية والامريكية لمثيلها ليوم وصول الانسان الى القمر.

خارج المطار، كانت أولى مفاجآت الاستقبال التاريخي، مطرب كان يفاخر قبل ذلك بأيام، بأنه صاحب موقف، وأنه مجدد، وانه دفع في شرايين الاغنية دماء جديدة. اشترى كميات من الحمام. اخذ فرقته ووقف في الشارع يغني.

كان كلامه خليطاً عن حبة القمح والارض والابن والنيل واسراب الحمام انطلقت في الجو. وقد سعد الرئيس بهذه المفاجأة. وفي الايام التالية، حصل المطرب على المكافأة، قطعة من الأرض وتسهيلات اخرى كثيرة. وكان المطرب قد عرف من الأبواب الخلفية. قبل ان يقدم على هذه الخطوة. ان الشعار الجديد هو:

ـ ادفع وخذ. سلم باليمين واستلم بالشمال.

العملية فورية. ما بين الدفع والأخذ أقل من اغماضة عين وفتحها من جديد.

كان موكب المواكب، هكذا قال من كتبوا في وصف الموكب. . والموكب يأتي على خريطة الرواية في النهاية التي تأتي بعد كل النهايات.

في هذه النهاية يتوقع القارىء من المؤلف ان يقوم بجمع شمل من كانوا معنا في الرواية من البداية، وان يقدم الحلول لكافة القضايا التي اثارها في روايته.

بدأت الرواية ومعنا ستة عشر شخصاً، ولا أقول بطلاً. وهم في مواجهة تلال وجبال من المشاكل والقضايا والهموم. التي كان يواجهها اغلبية من يعيشون على ارض الوطن.

السؤال الطبيعي الأول: اين هم الآن؟ والسؤال الطبيعي الثاني،

وهل حلت كل هذه الصفحات مشاكل العائلة وهموم الوطن؟

تركنا العائلة كلها، في صباح اليوم الذي تحركوا فيه الى القبر. في الرحلة من القبر الى الميدان تاه وريث العرش والدليل المتنقل. وهناك من رفض التحرك أصلاً: رفض العبقري ورفضت فاتنة المقابر ورفض لعنة المقابر والاستاذ.

الآن. وفي النهاية التي فرضتها الظروف يتقابل افراد الأسرة، لا أقول جميعاً. لأن فيهم من ضاع ولم يعد أبداً. ووريث العرش لم يعد الى العائلة، من يوم فقده. ذهب مع العائلة التي كانت في جروبي. والتي جرت بينها وبين المحل معركة تفاصيلها موجودة في الرواية.

العائلة التي ذهب معها، رغم فقرها، والحال الذي وصلت اليه، رحبت به. وهو من ناحيته كان قد وصل الى درجة تتساوى معها كل الظروف. وجد في حياة الاسرة الغريبة وضعا افضل من ظروفه في القبر. سألوه عن أهله. فقال لهم كلمات لم يفهموا منها اي شيء. قال ان جده هو المليونير. فقالوا لأنفسهم، هذا ليس حال ابن مليونير أبداً. قال الدليل المتنقل فلم يفهموا من كلامه حرفاً.

قالوا ان الولد مريض، وانه لا يذكر بالضبط الظروف التي مرت به، وقالوا ربما يتذكر بعد تقدمه في السن. فقراء، يتمنون خطوة واحدة الى الامام، يعانون حتى من العثور على لقمة العيش، ومع هذا عادوا من المعركة ومعهم شخص آخر، وكانوا سعداء به. لم يتصوروا ان العودة بطفل زائد تعني سوء الحظ وقلة البخت. ولكنهم قالوا لأنفسهم في الليل. ان اي فم مفتوح في هذا العالم. انما يأتي ومعه رزقه.

منحوه اسماً جديداً. فكر رب الاسرة الجديدة في استخراج شهادة ميلاد له. ووريث العرش الذي اصبح بدون عرش، كان سعيداً بهذه الحياة الجديدة. ومع الوقت بدأ ينسى حياة المقابر.

تحرك موكب المواكب من المطار، وصل الى ميدان العباسية في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والاربعين. وفي موكب العائد من القدس، كان المؤلف هناك. لم يكن ضمن المستقبلين. ولم يتقاض اي اجر مقابل وجوده في الموكب. ولكنه ذهب ليرى. قال لنفسه: هناك سأكتشف الموقف كله. ربما كان من السهل ان تجمع اي عدد من الناس في مكان واحد. بالسلاح يمكنك ذلك. ولكن من المستحيل ان تعلق الابتسامات على الشفاه. وان ترسم السعادة على الوجوه. وان تطلق الهتافات الحماسية من حناجرهم وان تحرك أياديهم بالتلويحات. كان لا بد وان يذهب.

وفي الموكب، شعر المؤلف، انه يفصله عن هؤلاء الناس، حاجز من الرخام. تصور ان ما يشاهده جزء من فيلم تم اخراجه بصورة جيدة. اخرجه مخرج عنده قدرة فريدة على تحريك الجماهير. انفصل شيئاً فشيئاً عن المشهد خيل اليه ان لوحاً من الزجاج السميك يفصل بينه وبين المشهد. وان هذه الاصوات تصله من بعيد. من عالم بعيد. قال المؤلف لنفسه:

ـ أين يوجد العقل الجمعي الذي يحرك هذه الجماهير؟

لم يجد اجابة. قال لنفسه:

ـ انطلق التتار من عقالهم. ولن يستطيع أحد ان يوقفهم أبداً.

وقف يشاهد الجماهير. كان بوده ان يسأل الواقفين اليه:

ـ ألا يوجد في عائلتك شهيد؟

يسأل من؟ هل يوجه سؤاله الى آلاف الواقفين؟ واي البيوت لم تصله أسلحة العدو؟ واي القبور تحصي ارقام الشهداء.؟ واي القلوب لم تلذعها اللوعة، واي العيون لم تبك؟

كان الموكب يقترب. بينه وبين الموكب كانت الجثث والدماء

والاشلاء والجماجم وبطولات الرجال والنسيان القادم.

همس في خاطره، امامي حفل عشاء، الوجبة دسمة، لحم الشهداء والخمر دماء الشهداء والكئوس الجماجم المدفونة تحت رمال سيناء. الرمال البعيدة. حروب اربع. أرامل الشهداء، يتامى الشهداء، الامهات، الآباء، الزملاء، رفقة السنوات التي ضاعت.

كان فوق رأسه العلم، نظر اليه وفزع. كان فوق رأسه جيداً. نظر في العلم الذي بدا له غريباً، ومن خلال العلم تراءت له دمعة شهيد وملامح حزينة تطل من وجهه شهيد لم يجد من يدفنه.

تساءل: هل أنا الوحيد الذي يقف ورائي ماضٍ؟ ألا يوجد لكل هؤلاء ماض؟ هل نسوه في لحظة واحدة.؟

انطلقت الحناجر بلحن العصر:

ـ بالروح بالدم.

نزل جدار من الرخام والدهشة. بينه وبين الناس. نظر الى الحناجر التي تتحرك وعروق الرقاب المنتفخة وحبات العرق فوق الجباه. مستحيل ان يكون هؤلاء هم الذين كتب لهم وعنهم ومن أجلهم. طوال السنوات التي مضت من العمر.

نظر اليهم من جديد. حائط الرخام الزجاجي جعله يشاهد منظراً بعيداً لا تربطه به أية صلة. هؤلاء الهتافون. جماهير بالروح والدم انهم قادمون من زمن آخر، ومن مكان بعيد. ولا يعرف المؤلف لمن يهتفون ولا لماذا يفعلون هذا؟

راح المؤلف يتذكر اين شاهد هذا المنظر من قبل. هل قرأه في رواية؟ في رحلات أحد الرحالة؟ تمشى المؤلف بهدوء، كانت الاصوات التي تصله خافتة، كالأنين. نظر اليهم من خلال الحائط الرخامي.

قـال: بعد الف عـام سيأتي مؤرخ ويقـول: انهم خرجـوا للهتاف وهم مكبلون بالقيود. وأنـا اقول من الآن. انهم ليسـوا مكبلين. وان كانـوا يعيشون في سجن الحرية الذي بدون حد. انه سجن الديموقراطية.

حضروا بـالقوة، بـالاشارات والتعليـمات والاجـازات من العمـل، والترهيب والترغيب. من لم يحضره ذهب المعـز، احضره سيفه، جـاءوا بـالحصار. ولكن لا تـوجد قـوة عـلى الأرض تجبرهم عـلى الابتسـامـة والهتاف والتلويح بالأيادي.

وجد السيارات والاسلحة والبنادق والمسدسات والمدافع. تسـاءل: هل يستطيع الانسان خيانة ماضيه وشهدائه وارضه؟ اكتشف انه ما كان عليـه الحضور الى المـوكب. رجال الامن انـواع وانواع، يتبعـون آلاف الجهات. حولوا الشارع الى قلعة حصينة. هتـافات مسلحـة، هتافـات تحت السلاح. حرسوا حتى الهواء. وجعلوا قطعة السـماء التي تطل عـلى الشارع ترسانة سلاح. اعالي الاشجـار حرسـوها. الشرفـات والنوافـذ واسطح البيوت واسطح السيارات وابـواب المحلات احتلوهـا. قطعـة السحـاب التي كانت في السـماء، اصدروا لهـا الاوامر والتعليـمات لكي تقف في مكانها. وأرسلوا من يفتشها جيداً. كان رجال الامن اكثـر من جماهير بالروح والدم.

اهتم رجال الامن بخالـة المؤلف. عندمـا وقف صامتـاً استرابـوا في أمره. فكروا في القـاء القبض عليه بتهمـة التفكير في وقت لا يجب فيـه التفكير أبداً. خـاف ضابط ان يكـون هناك مـراسل اجنبي يصـور هذا المواطن الصامت. ويقول انه في مـواجهة جماهير بـالروح والـدم. كان هناك مواطن وحيد صامت.

فكر الضابط في الذهاب اليه، وان يقول له، ان مهمته الـوحيدة في الموكب هي الهتاف. وانه لا عمل لـه سوى هـذا. ولكن عندمـا اقترب

الضابط والعساكر من المؤلف. اكتشفوا انه يكلم نفسه. قال واحد منهم للآخرين:

ـ جن الرجل من شدة الفرح.

رد عليه آخر:

ـ بل من شدة التأييد.

وشرح ثالث:

ـ هذه الحالة تعقب الهتاف الشديد جداً. انها لوثة ما بعد الهتاف.

وقال الضابط ملخصاً الموقف:

ـ انه زمن المعجزات.

كانت الكلمات تستدير في ذهن المؤلف. وكانت الجملة التي اكتملت:

ـ شعرت اليوم، بأن الغضب قد فاض والكيل قد طفح وان الوضع لا يطاق. وان الامان الوحيد في بلادي هو في الذهاب الى القبر. من المؤكد ان البلاد اصبحت قبراً كبيراً. السجن الكبير يصبح قبراً كبيراً. والحياة في قبر صغير ربما كانت مخرجاً.

في الساعة السادسة. وصل الموكب الى ميدان رمسيس. وكان مكتوباً على لافتة عريضة ولا يهمك يا سادات وبعدها لافتة مكتوب عليها: يا سادات لا تهتم بتجار الوهم والشعارات. كانت الطبول تدق والراقصات يرقصن. المزمار البلدي، الدفوف، رجال الطرق الصوفية في حلقات كبيرة، الموسيقات العسكرية عزفت لتحية الرئيس المؤمن ومسيرات الفلاحين من كل المحافظات. وهذه المرة كان كل محافظ حريصاً على الحضور مع وفد محافظته.

في الساعة السادسة والنصف، وصل الموكب الى ميدان التحرير. وكانت اللافتة المعلقة بعرض الميدان، تبدأ بكلمة لا. تذكر رجال

الامن حوادث هذه الايام من العام الماضي. تجمد الدم في عروقهم، هل عادت العائلة للعمل؟ وفي هذا الموقف الصعب، انكشف الميدان وظهرت اللافتة كلها:

ـ لا لتجار الكلام.

هنا فقط، اتضحت المسألة، اللافتة تمشي في الخط، عموماً ما كان يجب ان تبدأ بكلمة لا. حتى وان كانت لا هذه موجهة الى فئة من الاعداء في الداخل او في الخارج. لا يجب ان توجه لهم كلمة واحدة في موكب الفرح والسعادة. منذ سفر الرئيس وكل من هو ضد السفر القي به في السجون. والبلد الآن نظيفة منهم.

في الموكب، كان هناك ٣ آلاف طالبة وطالب من سيناء ارسلهم محافظ سيناء اللواء فؤاد نصار. وكانت جماهير بني سويف تحتل مكاناً بالقرب من ميدان التحرير. وكانوا بقيادة كمال الجنزوري محافظ بني سويف وكانوا تحت حراسة مشددة. ومن محافظة قنا حضرت الجماهير تحت قيادة، عبد الحفيظ الباجوري محافظ قنا. وكانت كل اللافتات من حزب مصر العربي الاشتراكي وكانت كلمة العربي مكتوبة بلون اسود. في حين ان باقي اللافتة كان مكتوباً باللون الأحمر، وفي وفد محافظة قنا كان هناك ممثلون للاشراف والهوارة والعرب والحميدات وبعض رجال الدين.

ومن أسيوط وصلت أعداد من عاصمة الصعيد. وكانت البعثة بقيادة محمد عثمان اسماعيل محافظ اسيوط. ومن الاسكندرية، من الاستاذ الرياضي. تحركت ٢٥٠ سيارة وأتوبيسا. فيها عشرة آلاف مواطن من العمال والشباب والحرفيين والمهنيين والطلاب. وجميع طوائف الشعب المصري. يتقدمهم عبد التواب هديب محافظ الاسكندرية. وان كان يجلس في سيارة خاصة مكيفة.

وقال توفيق الحكيم، مخاطباً العائد من بلاد الاعداء:
هدمت جدار الهزيمة، وتهزم اليوم جدار العقد النفسية.
وقال رياض السنباطي:
نرشحك لجائزة نوبل للسلام.
وقال الدكتور سيد عويس:
القيم العربية بعثتها من جديد.

وقبل الموكب بايام، عقدت اجتماعات في القاهرة، من اجل الموكب. طلب فيها وزير الحكم المحلى، من المحافظين إرسال اكبر عدد ممكن من المواطنين الذين سيكونون في استقبال الرئيس. كان الكل يخشى التوقيت. فالرئيس يعود ثاني ايام عيد الاضحى المبارك. وهذا معناه ان المصالح في اجازات والمصانع لا تعمل وسكان المدن يذهبون الى الريف لقضاء العيد في القرى. ولا بد من الاطمئنان الى ضخامة الموكب. بصرف النظر عن العيد وظروفه.

لحظة الموكب، حدثت بعض الحوادث الجانبية، التي تعد من الحوادث المؤسفة في هذا الوقت السعيد. فقد شب حريق ضخم في مخزن لحفظ الآثار النادرة والقديمة في منطقة الاهرامات. وتمكنت قوات الاطفاء من إخماد النيران، وانقاذ باقي الآثار من الحريق. وفي التحقيق الذى أجري كان الهدف الوحيد هو معرفة ان كان للحريق علاقة بالموكب، هل هو محاولة للتأثير على الاستقبال العظيم؟ وعندما ثبت ان الحريق ليست له علاقة بالموكب. اقفل موضوع التحقيق. وكان الهمس عن موعد الجرد السنوي القادم. وعن موسم تقديم الهدايا في هيئة الآثار. اعداء الامس، الذين اصبحوا جيران اليوم. واصدقاء الغد وحلفاء المستقبل. عند حضورهم الى مصر لأول مرة. سيكون من الصعب تدبير أية هدايا لهم من آثار هذا الوطن. ولأنهم اعداء سابقون

فلن تصلح أية هدايا لهم سوى الآثار.

والقت قوات الامن القبض على ثلاثة شبان حاولوا خطف سيدة من زوجها، عندما كان يتمشى معها في أحد شوارع القاهرة الخالية. كان السؤال الأول الموجه الى الزوج: لماذا لم يذهب الى الموكب؟ وكان السؤال الاول الموجه للزوجة: لماذا لم تذهب الى الموكب؟ وكان السؤال الاول الموجه اليهما معاً: ألا يعد التخلف عن حضور الموكب عملاً غير وطني؟ ويعكس بعض النوايا غير الودية تجاه الدولة والرئيس والحزب ونظام الحكم؟ ان الدولة التي يعود فيها الرئيس. تغضب من تخلف مواطن عن حضور هذا الموكب.

كان السؤال الأول، الذي تم توجيهه الى الشبان الثلاثة: هل للحادث أية صلة بالموكب؟ هل هو محاولة للتأثير عليه، ولفت الانظار عنه، واظهار مصر وكأنها دولة تعاني من المشاكل. وان شبانها يعانون من الكبت الجنسي. اتضح للمحقق ان الأولاد الثلاثة لا يعرفون اي شيء عن الموكب او الرئيس. قالوا في التحقيق انهم لم يفكروا سوى في سرقة ما مع المرأة. انها في عمر أمهاتهم. لم ينظروا سوى ليديها وصدرها وحقيبة يدها. أما باقي اجزائها فلم يهتم بها احد منهم. غضبت المرأة وثارت. قالت الامر كله مؤامرة دبرها زوجها.

واجرى الضابط الذي كان مشغولاً بالموكب محضراً للصلح بين كل الاطراف وصرفهم من القسم بسرعة ما دام الامر ليست له صلة بموكب المواكب. وتمكن الشبان الثلاثة من سرقة المرأة التي كانت غاضبة بسبب انوثتها اثناء التحقيق في القسم.

وفي حي مصر الجديدة. وقع خلاف بين رئيس الحي ووزارة الثقافة حول سيرك العباسية. وتدخل المحافظ لفض الاشتباك. بعد انتقال السيرك للعمل في مصر الجديدة بمناسبة الاعياد.

قال رئيس الحي ان السيرك لم يحصل على رخصة للعمل في الحي الذي يرأسه، وهو يعمل أصلاً في العباسية. وقال المسئولون في السيرك، إنه سيرك الحكومة فكيف يحصل على رخصة من الحكومة مع انه سيركها. وكان حجز التذاكر مستمراً رغم الخلاف. وأمام السيرك تجمع الحاضرون ووجدت حالة من التجمهر. في وقت لا يجب ان يحدث فيه اي تجمهر سوى لتأييد المؤمن العائد من القدس.

وصل الأمر الى الحافظ. رئيس الحي يمنع المتفرجين من الدخول ومسئولو وزارة الثقافة وزعوا التذاكر وقادة السيرك يستعدون لتقديم العرض ولا بد من وجود الجماهير، والجماهير في الشارع أمام السيرك وما ذنبها؟ هذا الخلاف لا علاقة لها به. قال المحافظ اذن تدخل الجماهير السيرك بناء على قراري ورد عليه رئيس الحي بأن منع المتفرجين من الدخول بالقوة.

فقال المحافظ، القوة لا يقابلها سوى القوة. وارسل قوة خاصة رفعت الاختام من فوق ابواب السيرك وادخلت الجماهير بالقوة. رغم قرار رئيس الحي. وثبت للناس ان من معه القوة، فالحق في جانبه.

وقرر رئيس الحي ان ينتقم من العاملين في وزارة الثقافة. ومن الذين ذهبوا الى السيرك ومن المحافظ. سيبلغ عنهم. الجماهير تركت الموكب وذهبت الى السيرك. لأن المسئولين جعلوا السيرك يعمل في يوم قومي. والمحافظ مكن السيرك من العمل. واخذ بذلك عدداً من الجماهير التي كان من المفروض ان تكون في الموكب.

اثناء كتابة التقرير كانت لدى رئيس الحي اسماء العاملين في وزارة الثقافة واسم المحافظ وتاريخ تعيينه والذين يعملون معه. توقف وسأل نفسه: ولكن اين اسماء الذين شاهدوا العرض. ولكي يكون التقرير تاماً. أرسل وفداً كانت مهمته هي الحصول على اسماء وعناوين واماكن

عمل وارقام تليفونات وصحيفة سوابق من ذهبوا الى السيرك. في تلك الليلة المباركة الميمونة.

كان الزمن ينبض كقلب كبير.

وكان الموكب يلف في قاهرة المعز لدين الله الفاطمي. وكان في الموكب وجه الاقتراب منه معذباً والبعد عنه اكثر عذاباً. كان يشد كل من ينظر اليه، بخيوط تصبح بعد قليل مبتورة. كان وجه عقيد سابق. كان ينظر الى المشهد بعينه اليمنى. بعد ان اكلت شظية عينه اليسرى واحيل الى الاستيداع «مصاب حرب». وأصبح لقبه: «عضو جمعية المحاربين القدماء».

وهكذا استبدل كارنيه الخدمة العسكرية بكارنيه جديد. وكان مبرر وجوده في الحياة ان يحصل على المعاش، وان يحصل على المزايا التي يعطيها له هذا اللقب الجديد من اجل الزوجة والأولاد.

في منزله، حول غرفة المكتب الى مقر قيادة ميداني. نصب خيمة صغيرة، وأحضر مكتباً ميدانياً وتليفون ميدان عليه رمال حملها الهواء اليه. وعلى جدران الغرفة الأربع كان يضع صور الشهداء، رفاق السلاح، صور ضخمة موضوعة داخل اطارات تأخذ شكل علم البلاد.

اصبح يستخدم تواريخ استشهادهم كوسيلة لضبط الزمن واصبحت ذكرياتهم هي الزاد والزواد في رحلة العمر. كانوا اصدقاءه ورفاق عمره وابتداء من الليلة، لن يكون لحزنه حدود عليهم. مع انه من لحظة استشهادهم، وحتى الآن لم يحزن على اي منهم. لن يكون له صديق واحد من الاحياء. أية صداقة مع اي شخص من هؤلاء تسقط. نطق بالكلمات. وهو يحاول التآلف مع الاسرار التي يحملها بداخله ولم ينطق حتى وهو يتكلم.

اقترب منه جندي، حاول دفعه، صاح الجندي:
ـ من لا يهتف، ليس له الحق في الوقوف هنا.

دفعه بقوة، فاكتشف ان يده صناعية، كتلة يابسة من مادة جافة ليست من اللحم البشري. اسمنت؟ جبس؟ حديد؟ تساءل الجندي. لا بد وانها من البلاستيك. لأن ثمة برودة تشع من تحت الملابس التي يرتديها.

اقترب منه مصور، يبتسم في بلاهة. رفع الكاميرا. وقبل ان تنطلق شحنة الضوء الأبيض المتوهجة. رفع العقيد يده السليمة:
ـ لست من هواة اغلفة صحافتكم.
اشار لوجهه:
ـ انت ترى ان شكلي لا يصلح للنشر في صحافة زمانكم السعيد.
توقف المصور. وقال العقيد:
ـ الست معي. في انني لست من زمن الفرح الذي تعيشونه..؟

المحرر الذي كان يمشي مع المصور جذبه بعيداً. ذكره بنصيحة رئيس التحرير الجالس في مكتبه يؤيد ويؤيد ويؤيد. والذي تحولت ملامح وجهه، وشكله الخارجي، منذ ان اعلن عن الزيارة الى بلاد الاعداء، الى شكل يشبه بن جوريون. ويقال انه هو الذي فعل بنفسه ذلك. حتى يجد لنفسه مكاناً في قطار الزمن الجديد. قال رئيس التحرير: لا بد من صورة فتاة جميلة. ذكره مدير التحرير الذي سافر الى بلاد الاعداء. ويبدو مستعداً للسفر الى اي بلاد اخرى في العالم. ما دام في الأمر تقرب من الحكام والحصول على بدل السفر. وادخال أكبر قدر من البضائع. قال المدير: لا بد من تصوير فلاحة تزغرد. ان لم تجدوها في الموكب، اذهبوا الى الفرقة القومية للفنون الشعبية واحضروا

أية راقصة. واجعلوها ترتدي ملابس فلاحة. وخذوها الى الموكب. وصوروها هناك لكي تكون غلافاً.

قال المحرر للمصور، ورغم هذا فالغلاف معروف. سيكون الرئيس كل اسبوع لا بد من الرئيس. انه مبرر بقاء رئيس التحرير. الذي لبسته روح بن جوريون.

ذهب المصور والمحرر الى مجموعة من البشر وقد انطفأت الابتسامة على وجه المصور. طلبوا من المجموعة ان تهتف بالروح والدم. حتى يصوروهم وهم يهتفون.

تساءل العقيد:

ـ وهل تخرج الكلمات مع الصورة.

لم يرد عليه أحد، فقال:

ـ نحن الشعب الوحيد الذي خلق من اجل ان يصوره الغرباء. في كل وقت. بمناسبة او بدون مناسبة. وفي كل اوضاع حياتنا اليومية كان ايقاع الزمن يتهدم بداخله صورة مستمرة، وكان الحقد يتراكم تحت الجلد. يغلي ويطفح، دون ان يفتح ثغرة ما. واختلط الغضب في صدره بالاسئلة التي في ذهنه. فكونا معاً مزيجاً من نوع فريد.

نظر الى الآخرين، وكانت النظرات مشحونة بالريبة والاختبار. وفي الموكب، كانت الوجوه متزاحمة وناتئة فوق بعضها. كان التزاحم هدفه ان تعطي الوجوه انطباعاً بالكثرة بصورة لا توصف.

وكانت الأوامر قد صدرت من صباح الامس، صريحة وواضحة، ان يقول الكل، انه كان في موكب الاستقبال ٥ مليون مواطن مصري بينهم لأول مرة مليون مصرية.

وكان جنود الشرطة، الذين أرهقتهم الوقفة والحراسات. قد

اصابتهم حالة من الملل. أرجلهم تيبست من طول وقت الوقوف والدم رفض الحركة في عروقها. والسلاح والذخيرة وشدة الاستعراضات والمواكب الرسمية تبدو ثقيلة. الجلوس ممنوع وحتى ان كان مسموحاً به فلا مكان للجلوس من كثرة الناس الذين احضرهم. والرئاسات التي تمر لا حصر لها.

كانت السيارات تقف عند تقاطعات الشوارع محملة بالسلاح. فيها من السلاح والذخيرة والعتاد العسكري والقنابل ما يكفي لنسف مدينة مثل القاهرة بكل سكانها وكل زوارها ايضاً. وكل من حضر من اجل الموكب. قال العقيد:

ـ انها المواكب المسلحة.

بدت الجملة قصيرة، لا تفي بالغرض ولا تقدم المطلوب:

ـ مواكب من تحت ذقن السلاح.

اشتعلت الشوارع بالانوار. وقال العقيد. هل يأتي زمن الحرائق؟ ومن كثرة الهتافات وشدتها، ومن الزحام الشديد، وكثافة اجراءات الامن التي لم يشهد لها احد مثيلاً من قبل. اصبحت الناس اجساماً مادية تسقط في فراغ المدينة ثم تذوب.

حدد العقيد الموقف:

ـ اصبح المشي جنب الحيطان أسلوب حياة كل الناس. تجنباً لأية اخطار. لقد تعلموا الانسحاب بخفة من الحياة العامة.

وقالت جيهان السادات: ان سفرها الى الخارج ليس من اجل الفرجة ولكنه بهدف الدراسة. وعندما كانت في امريكا. كان معها عدد من الدارسين. وقالت انها من خلال دراستها في الجامعة احست بمشاكل الطلاب وخاصة المغتربين وافتقارهم الى السكن الملائم.

وستقوم جمعية رعاية الطلاب بايجاد هذه المساكن وتوفيرها. كما انها خصصت مبالغ كبيرة لمساعدتهم من اجل الحصول على الكتب.

وعرضت إحدى الجمعيات السينمائية نسخة تم تهريبها من فيلم عن حياة فرح ديبا. الفيلم كان عبارة عن مقابلة معها. تتكلم عن حياتها وبرنامجها اليومي واطعمتها وتمضية وقت فراغها. كان الفيلم كله مقابلة معها. ولكن خلال ردها على الصحفي الفرنسي. كان يقدم صوراً للبؤس والفقر الذي يعيشه الشعب الايراني.

كانت تتكلم عن جهودها في محو الامية. ثم يقدم الفيلم مع صورتها آخر الاحصائيات عن الامية في ايران. وكانت تتكلم عن الاعانات الاجتماعية ومع صورتها صورة للجياع. وما فعله الجوع بالشعب الايراني.

في الفيلمكان هناك مشهد طويل لمائدة افطار الامبراطور والامبراطورة وولي العهد. وكانت اللقطات تتقابل. المائدةالامبراطورية، . والترف الذي لم يحدث من قبل وفي الناحية الاخرى البؤس والقهر والمرض في حياة كل الناس. كان الفيلم ممنوعاً. وكان عرضه جريمة ولهذا عرض بصورة سرية.

وقدمت الى مصر ٢٥٠٠ شخصية تليفزيونية ومندوبو ٣١ ألف جريدة صباحية ومسائية من كل انحاء العالم. منها ١١ ألف جريدة من امريكا وحدها. وطلب التصريح من الدولة ٤٥٠٠ صحفي للتصوير وتغطية الزيارة ومواكب العودة الى مصر وقد تم التصريح لهم جميعاً.

وطرحت شركة صوت القاهرة شريطاً جديداً في الاسواق. كان مسجلاً عليه كل اغاني الافراح والليالي الملاح. ووقت الظهر عرض التليفزيون مسرحية مدرسة المشاغبين على احدى قناتيه وعلى القناة

الاخرى عرض فيلم «الحب الذي كان» وأعلنت المذيعة ان السهرة ستكون مع فيلم التلميذة.

واعلنوا رسمياً، ان الرئيس سيكتب مذكراته من الآن. وان المستر سيمون مايكل مدير دار النشر الامريكية هاربر أندرو اتفق معه على ان يدفع له مليون دولار كدفعة أولى من اجل نشر هذه المذكرات وقرر الرئيس ان يخصص هذا المبلغ من اجل اعادة بناء قريته. على ان تبنى بالدبش الابيض وان يكون مصدر الطاقة الوحيد فيها. هو الطاقة الشمسية. لأن آخر تكنولوجيا العصر لا بد وان تدخل القرية المصرية، فمن حق الفلاح الذي تعب كثيراً ان يستريح أخيراً.

وطلبت له جولدا مائير بعد ان قابلته على الطبيعة جائزة الاوسكار في التمثيل. وتقلقل ٦٠٠ ألف شهيد في قبور البركافة في نومهم، تحركت عظامهم وتساءلوا عما جرى في البر. ووقفت بعض الاحجار في نصب الجندي المجهول في ضاحية مدينة نصر. والذي تكلف مليوناً من الجنيهات. ونفذه باني مصر وواهب مصر وصاحب مصر. المقاول الاكبر والمجاهد الاكبر، الرجل الذي كان لا يفارق الرئيس لحظة واحدة.

ومالت لوحة في مدخل مركز ايتاي البارود بحيرة تحمل اسم شهداء المدينة والمركز في حرب اكتوبر الماجدة او المجيدة.

ومن الاذاعات البعيدة بدا صوت المذيع مرهقاً. كانت الكلمات تروح وتجيء مع الهواء. وكان الصوت تتضح بصماته او تتوه ملامحه. كان يقول بعصبية:

ـ بعد اليوم، ايها السادة، لن يعطي سفير مصر ظهره لسفير اسرائيل ان التقيا في اي محفل دبلوماسي، في اي مكان في العالم.

سيلتقيان بالوجه ويتصافحان باليدين ربما يتعانقان ويلتقطان الصور

التذكارية لكل لقاء. من يدري ايها السادة، ماذا يحمل لنا الغد. من المفاجآت. ربما لينسقا معاً مواقفهما.

وقال مذيع آخر:

يقال في كتب التاريخ ان صلاح الذين رفض ان تطأ قدماه القدس الا بعد تحريرها. وبعد التحرير أمر ان تغسل البيوت والشوارع والناس والاشجار والهواء والسماء فوق المدينة من دنس المحتل ثم دخلها بعد ان تحررت وتطهرت.

كانت العاصمة قد غاصت باسترخاء فيما يسمى بإجازة عيد الأضحى المبارك. كانت المدينة متعبة تهضم وجبتها ببطء. ولأن الوجبة كانت دسمة فالهضم كان صعباً. وفي الناحية الاخرى كانت البطون الخاوية متعبة ايضاً. لأنها لم تجد ما يمكن ان تهضمه.

هكذا بدت القاهرة. مدينة شلها الخوف ونخر قلبها القلق. وبدا الزمن فيها وكأنه قد توقف تماماً.

كانت مدينة القصور والفيللات والحجرات المكيفة والاكواخ والمساجد المسقوفة. والناس والقبور التي يتجاور فيها الاحياء والاموات معاً. كانت المدينة تقدم وجه عالم منهك، متعب، بعد ان تخلت عن اسمها القديم. وكانت المدينة قد اصبحت مقبرة كبيرة. انه عالم القاهرة العابق بالحرارة والانسانية ولكنه تآلف من زمن طويل مع الحضور الدائم للموت.

عائلة المليونير كانت في الموكب. ولا يمنع اختلاف النهايات. من حقيقة وجود الاسرة في الموكب. مهما كانت النهايات الثلاث السابقة ستوجد الاسرة ضمن المستقبلين في الموكب.

ان كانت الاسرة تلف وتدور في بر مصر بحثاً عن الضهرية، التي

خرج منها المليونير. ستعود الى النهاية الثالثة، والتي كان من الممكن ان تكون النهاية الاخيرة. لنجد ان كيف ان المكالمة التليفونية وصلت الى الاسرة وهي في الضهرية السابعة والاخيرة. تطلب منها الحضور الى موكب المواكب. وان قلنا ان الاسرة كانت في السجن تقضي مدة العقوبة في جريمة محاولة قلب نظام الحكم. يمكن ان نقول، انه بسبب جلال المناسبة ومن أجل ان يكون في استقبال الرئيس العدد المطلوب من خلق الله المؤيدين. أفرج عن المساجين بصفة مؤقتة. ليكونوا في استقبال المؤمن العائد ولا يعرف احد ان كانوا قد أعيدوا الى السجون مرة اخرى بعد الاستقبال ام ظلوا في سجن الحرية الكبير.

وان قلنا ان النهاية كانت عبارة عن فيلم يتم تصويره، فان موكب العائد سيكون احد مشاهد الفيلم، انه لحظة الخلاص الاخيرة. والفصل الذي سيتم تصوير المشهد فيه سيقدم في الفيلم بعنوان: يعيشون في القبور ولكن ذلك لم يقلل من انتمائهم للوطن. لقد خرجوا من القبور ليكونوا في استقبال المؤمن العائد من الارض المحتلة والتي يحتلها اعداء الوطن. ذلك ان المسئول عن وجودهم في القبر هو العهد السابق.

وهكذا تبدو القاعدة التي تحكم كل من يعيش في بر مصر. أينما كنتم لا بد وان يدرككم موكب العائد من القدس المحتلة. كل ماضي البلاد أصبح جزءاً من الموكب. حتى الهواء الذي يصل الى الصدور أصبح مشبعاً بالموكب. وشهادة الجنسية المصرية وشهادة الميلاد وشهادة حسن السير والسلوك وتصريح البقاء في بر مصر. لا تمنح سوى من خلال حضور الموكب.

في الموكب اجتمع شمل الاسرة. أو شمل بعض افراد الأسرة. ولكن القلوب كانت قد تاهت تحت الصوف والقطن والكتان والالياف

الصناعية وجدران السجون والوحشة التي خلقتها هذه الايام الصعبة والعصيبة.

لا بد من بضع كلمات عن مصائر افراد الاسرة الذين اصطفوا في شوارع القاهرة ليرحبوا بالعائد. اوقفوا العائلة بعد المطار مباشرة، وبعد مرور الموكب حملتهم سيارة اتجهت بسرعة الى ميدان التحرير. تشاءم المليونير من الذهاب الى ميدان التحرير. قال: كان السبب الرئيسي هو الذهاب الى هذا الميدان. وبعد مرور الموكب حملتهم سيارة اخرى الى الجيزة.

قال الاستاذ: انها المواكب المتحركة. التي تقف في شوارع متحركة قالوا لهم ان الجيزة ستكون المحطة الأخيرة في الاستقبال الذي كان اكثر حرارة من الاستقبالات السابقة.

اجتمعت العائلة، ولكن ما اكثر المسافات التي خلقت بين افرادها. تغيرت المصائر واصبح كل واحد يسبح في عالمه الخاص به. بعيداً عن الآخرين.

كان العبقري قد سكن في غرفة المدير فوق سطوح احدى العمارات. في العباسية، وكان قد تزوج من حبيبة او صديقة المدير التي حضرت الى الغرفة ذات اصيل فوجدته فيها. وكانت صديقة المدير حاملاً وكان العبقري لا يدرك حقيقة الحمل من اي الرجلين؟ منه ام من المدير. وكان الصمت قد اصبح من عادات العبقري. اوغل في رحلة داخلية لا يعرف كيف يعود منها.

أعطاها ظهره، وكان يتعامل معها بقدر من الجفاف. كانت تدق رأسه وأعصابه وذهنه ووجوده: الطفل القادم. لم يكن بقادر على ترك الغرفة وكان صديقه المدير قد تسللت الى حياته. ذاق بين يديها كثيراً من متع

هذا العالم. التي لم يكن يعلم عنها اي شيء. ولكنه كان ينظر الى الغد برعب.

كانت تطلب منه النزول معها، في فسحة بالمدينة وكان يرفض ذلك. قال ان الفتاة ترغب في ان تلبسه الامر كله. وان يتولى هو اصلاح ما فعله سيادة المدير.

وقت الاصيل، ذات يوم دخلت عليه الفتاة، فوجئت بوجوده، لم تكن تعرف ان هناك شخصاً آخر في الغرفة. تكلما معاً، اقتربا من بعضهما البعض. كان فيهما ذلك القدر النادر من الانكسار وخفة الظل. والرغبة في الحياة النظيفة برغم كل الظروف. قال لنفسه ان القلوب الكسيرة تدفىء بعضها.

هي التي عرضت عليه الزواج. قالت ان المدير موافق على ذلك. اكدت له ان المدير هو الذي رسم الحكاية بهذه الصورة. قال لها وهو يضغط على اضراسه:

ـ زواج ولكن على الورق فقط.

قال عاش الملك لنفسه، في ظروفي لا مفر من العمل مع الضابط. وكانت لدى الضابط رغبة في نسيان ما جرى. والبدء من الآن. قال له الضابط: من الصعب ان يستغني أحدهما عن الآخر. الضابط والوزارة اكثر احتياجاً لعاش الملك. الدنيا واسعة وبدون حدود امام عاش الملك. اما بالنسبة للضابط فمن الصعب العثور على بديل لعاش الملك.

عاش الملك كان يسمع هذا الكلام وسعادته بدون حدود. من الصعب وصفها بدقة. قال وهو يتصرف كأي انسان مشغول:

ـ والمطلوب الآن؟

صفق الضابط بيديه. ضغط على جرس أمامه. قال انه مبهور بهذه

الروح العملية عند عاش الملك . مطلوب اكبر عدد من خلق الله مهما كانت الشروط الجديدة . موكب المواكب، الذي لن يتكرر في تاريخ البلاد . اكبر عدد من الناس. العدد مفتوح هذه المرة. سلمه الضابط الاموال والشعارات والهتافات واماكن التجمع واماكن اللقاء .

تأكد عاش الملك انهم يحتاجونه هذه المرة، اكثر من المرات السابقة . ولكن سعادته لم تكتمل . من يضمن له ان يستمر هذا الاحتياج بنفس هذا القدر من المرات القادمة . المحزن انهم يتعاملون معه حسب العرض والطلب . وطريقة التعامل تسبب له الأرق والقلق وعدم الاطمئنان للغد .

يتمنى لو تحول من مجرد مرشد . الى احد العاملين . يحصل على مبالغ ثابتة . الى شرطي سري معين له مرتب اول كل شهر بصرف النظر عن المهام التي يقوم بها .

فكر في الضغط على الضابط هذه المرة. ولكنه تردد. انه عائد الى العمل. بعد حوالي سنة من الانقطاع . عليه القيام بهذه المهمة . ثم يأتي وقت الضغط على المدير بعد هذا .

انطلق نحو القبور. وبعد الاوراق والمال والهتافات واللافتات التي سيتم رفعها . كان يحسب المبلغ في ذهنه ويقسمه على عدد الافراد الذين سيحضرهم . كان يحسب عمولته . وما يمكن ان يوفره من نصيب كل شخص عندما كان يجد ان مبلغه قليل. كان يعيد الحسبة من جديد . يأخذ لنفسه قليلاً من مكافأة كل شخص يضيفها الى حسابه، يكتشف ان نصيبه كبير بصورة لم يكن يتوقعها . يعيد الحساب من جديد .

توقف وسأل نفسه . الا يعد ما يحصل عليه هو فكة بالنسبة لما يحصل عليه الضابط . الذي يتعامل مع عدد اكبر من المندوبين . وكان عاش الملك بعد الحضور الى القاهرة . ترك العائلة . ذهب الى الضابط الذي

كان يعمل معه. لم يكن يعنيه ما عرفه أهله عنه. يكفيه عذاب التجوال في البرسنة والمتاعب والهموم التي مر بها. كان الضابط غداراً. ولكن سنة التجوال كانت اكثر غدراً..

حضرت الشرطة للعبقري، قررت الفتاة الغريبة الا تتركه، ستقف معه، طلب منها الانتظار بدلا من الحضور معه. كانت سعيدة به. قالت انها ستنتظره العمر كله.

بعد رحيله مع الشرطة، غيرت كالون الباب. قررت ألا تفتح الباب للمدير. قالت ان ظل زوج افضل من ظل آلاف العشاق والمحبين الباهت. مهما كان الزوج فقيراً وظروفه صعبة. ومهما كان العشيق غنياً.

الهانم عاشت مع الشاب العربي في الشقة المفروشة. تركها وسافر قال انه ذاهب من اجل احضار بعض المال. لم تصدقه، قالت: ومافائدة البنوك ومكاتب البريد؟ يمكنه احضار الاموال بدلاً من الذهاب، ثم انها اول مرة تسمع عن عربي يطلب مالاً. لمحت له انها لن تستريح بسبب سفره بمفرده. وانها تفضل لو سافرت معه.

قال لها، ان السفر معه الآن الى بلاده، يبدوسابقا لأوانه، وانه يفضل لو تم ذلك في الوقت المناسب. سدد ايجار الشقة، وترك لها مبلغاً من المال وسافر. كان لديها يقين داخلي انه لن يعود اليها مرة اخرى. ومع هذا ظلت في الشقة.

الغريب انه عاد. لم تصدق نفسها عندما طرق باب الشقة ذات مساء، كان متعباً من السفر. ورغم انه كان شحيح الكلمات. الا ان ملامح وجهه وتصرفاته قالت لها بوضوح، ان الشاب العربي وقع في غرامها. وأنه يهواها على طريقته الخاصة. سعدت به هي الاخرى. كانت متدفقة العواطف. لم تقترب من الموضوع الذي يهمها. حتى ترسي سفينة عمرها على بر أمان. حتى لو كان هذا الامان. هو هذا الشخص المريض والمتعب.

سعادتها لم تدم، لأنه قرر بعد فترة اخرى ان يسافر من جديد، كادت ان تحدثه عن البنوك والتليفونات ومكاتب البريد والحوالات البريدية والشيكات التي تصرف من البنوك وما اكثرها في مصر الآن. ان البنوك اكثر من البشر.

قال باختصار، انه سيسافر مثل المرة السابقة. ويعود ومعه الاموال، سألته لماذا لا تحضر من الاموال ما يكفي فترة طويلة من الوقت؟ لماذا لا تسافر معه الى بلده العربي؟ لماذا لا يحضر له قريب ومعه المال؟ انها بدونه تبدو مثل ريشة في مهب الرياح. لا وجود لها الا معه. هو بالذات.

يبدو انه كان سعيداً بسماع كلامها. نظر اليها كانه يطلب المزيد من الكلمات التي كانت تتناوب مع الدموع. ولكن الكلمات جفت والدموع توقفت.

مثل المرة السابقة. ترك لها ايجار الشقة. وترك لها مبلغا من المال يكفيها حتى يعود، وسافر، انتظرته بلهفة اكثر من المرة السابقة ولكنه لم يعد.

في الموكب، كانت تقف بعيدة عن الاسرة، لم تلتق بها. نزلت من كثرة الملل. نزلت تتمشى في الشوارع، كانت المرة الاولى التي تنزل بنفسها الى الشارع. كانت من قبل تنزل الى الشوارع بعينها وهي واقفة في الشرفة او وراء النافذة. ملت الحركة في دائرة ضيقة لا تتعدى الشقة التي تعيش فيها.

نزلت، كانت الشوارع خالية، والمدينة تبدو مهجورة. سألت عن الناس. فقيل لها ان قوات الامن دفعت بكل الناس الى الموكب. سألت عن الموكب فقالوا لها إن من سافر الى بلاد الاعداء ومن صافح الاعداء ومن حيا علم الاعداء ومن سمع موسيقى بلاده الوطنية تعزف بآلات

الاعداء ومن حيا حرس شرف الاعداء. قد عاد الى الوطن مرة اخرى. ولا بد من استقباله حتى لو كان الاستقبال مسلحاً.

وقفت في الشارع، عندما اقبل موكب العائد من احضان قاتلي ابناء شعبه واقترب منها. وعندما شاهدت الاضواء التي تبرق من سيارته ومن الموتوسيكلات التي تتقدمه، قالت لنفسها، الذي سافر الى بلاد الاعداء عاد. ولكن من ذهب الى اهله ليحضر لقمة العيش لم يعد. آه يا قلة البخت.

طفرت الدموع من عينيها، كانت الهتافات تحاصرها، ولكنها كانت تبكي وكانت التعليمات واضحة لكل من يقف في موكب المواكب. لا بد من الفرح والابتسام. ولكن الفرح لم يكن ممكنا في موقفها. شاهدها احد رجال الامن وقف امامها. كانت الدموع تغطي وجهها شكلا لامعاً.

قال رجل الامن لنفسه، لا بد وانها تبكي من الفرحة. أو ان لها شهيدا. زوجها او شقيقها تذكرته في الموكب. تمنت لو كان معها هنا في زمن موكب المواكب.

تركها تبكي واحترم ذلك القدر غير العادي من الدموع النازل من عينيها وبعد الموكب عادت الى البيت.

كانت حزينة.

فاتنة المقابر كانت تعيش في بيت حبيب قلبها. وصلت الى بيته. وكان خارجا من البيت الى احدى سفرياته. تركها مع اهله. قال لها ان امه هي امها، واخته اختها ووالده والدها. وشقيقه شقيقها والبيت بيتها. انه يتركها من اجل العمل ولكنه عند العودة سيتزوجها.

لم يكن امامها سوى الانتظار.

حاولت ان تقول له قصتها الحقيقية. وقال هو انه لن يستمع الى كلمة واحدة منها. المهم انها وصلت اليه وقابلته قبل مغادرته البيت. قال ان المطلوب هو البدء من هذه اللحظة. اكد لها انه لن يسمح للماضي بأن يحاصر الحاضر ويخنق المستقبل. وكانت العواطف الحقيقية بداخلها تجاهه تأخذ شكلها وهو يتكلم بهذه البساطة.

انتهى الموكب، وجدت العائلة نفسها بمفردها، ورغم انهم لم يحصلوا على السكن الا انهم وجدوا انهم يتحركون بمفردهم. بدون رجال الامن لأول مرة منذ سنة مضت.

قال المليونير:

ـ الى القبر فوراً.

تساءل الاستاذ:

ـ وهل كان هناك مبرر لكل ما جرى. ما دامت النهاية هي القبر. ؟

رفض المليونير سماع كلامه، قال ان الكلام لن يفيد. كل ما يطلبونه هو ان يجدوا القبر كما تركوه. وحتى ان كان قد تم شغله بآخرين. ففي منطقة القبور متسع لكل الناس.

المؤلف، الذي كان واقفاً، كان قد اتخذ قراره بأنه لن يعود الى مكان في مصر سوى القبور. قال المؤلف، بعد ان جرى ما جرى. لا مكان لي سوى هناك في القبور. لقد غاص الوطن في كابوس لا نهاية له. والمطلوب من اي انسان بعد الآن ان يعرف كيف يلجم نفسه وكتب صحفي اوروبي في جريدته:

عدت اليوم من بلد بائس، اغنياؤه قلة. وان كانت درجة غناهم مذهلة. لكن الفقراء فيه يسدون عين الشمس. والاهم من هذا أنهم قادرون على الثورة. ومع هذا لا يفكر أحد في القيام بها.

من قبـل، تكلم المؤلف طويـلاً عن الحياة في القبـور. لم يكن له من عمل في هذه الـرواية الـطويلة، سوى الحـديث عن القبور. وهـو الآن يدخل منـطقة القبـور. انه لا يـدخلها لـدراسة حيـاة الناس فيهـا. ولا بهدف جمع معلومات عنها. وليس زائر ولا عابرا ولا متفرجاً.

هذه المرة يدخل منطقة القبور لكي يعيش فيها. من الآن والى الابـد والى ما بعد الابد نفسه.

وصف المؤلف، في مرات سابقة لحظة الـدخول الى منـطقة القبـور. ولكنه هذه المرة، لا يعرف بأي الكلمات يصفها. ويقول واصفاً دخـوله الحقيقي الى المنـطقة. لقـد وقف من ناحيـة طريق صـلاح سالم. حضر بدون سيارته. وعندما سأله، أحد التربية عن الهدف من الزيارة. قال:

ـ استئجار قبر.

وعندما سأله عن السبب:

ـ من اجل الحياة فيه.

كان هناك سؤال عن المدة، قال:

ـ حتى تحـين لحظة الانتقـال من القبر الـذي فوق الأرض، الى القـبر الذي تحت الارض.

خيل اليه، وهو يسير بـين القبور، انـه سار هنـا من قبل، حضر الى هنـا واستأجـر قبراً. وحـاول الحياة فيـه. بدا انـه يقوم بعمـل سبق له القيام به. بنفس التفصيلات الصغيرة والكلمات التي تقـال، ولكن متى حدث هذا؟ كان من الصعب عليه ان يتـذكر الـوقت بالتحـديد. هـل فعله في الحلم؟ في الحقيقة؟ في الخيال؟

نظر الى حياته الماضية. كم يبدو الامس القـريب وكأنـه ماض بعيـد العمل، الوظيفة، السيارة، الـطموح، الاحـلام، الغد الـذي ينتظره،

الشهرة، المجد. بدت له هذه الامور كأنها احلام شخص آخر غيره لا يعرفه ولا يمت اليه بأية صلة من الصلات. شخص بعيد عنه، غيره هو.

تساءل: فخاخ ام احلام؟ بدا له هذا الشخص مدانا بدنس المشاركة كان ضعيفاً امام اغراءات كل يوم. جبانا غير قادر على اتخاذ اي قرار سأل المؤلف نفسه:

ـ والآن: هل اتخذت قراري؟

نظر بعينين واسعتي الاحداق للصراعات والحرب والجري. وقف ونظر خلفه وعاد ينظر امامه. ها هو قبر امك، قبر ابيك. قبر من أحببت، قبر الانسانة التي ارتعش لها القلب لأول مرة في العمر كله. عليك ان تدفن الماضي وتحاول انقاذ الحاضر. لعل وعسى ان يكون هناك أمل ما في المستقبل.

بقي المؤلف واقفاً، كان وجهه مثل قطعة من الرخام لا تعبر عن أي شيء. نظر الى البيوت، والحياة. وقال بصوت كان يخرج بصعوبة من بين أسنانه:

ـ إني أبصق على دنياكم.

وأتت المفاجأة الاولى. قال له التربي، الوضع في القبور تغير الآن، تزايد الطلب على السكن في القبور. لدرجة ان خلو الرجل ومقدم الايجار وصلنا الى هنا. قال له التربي ان القبر الذي تم تأجيره في الاسبوع الماضي. تم دفع الف جنيه خلو رجل وليست مقدما.

قال له التربي: ان بعض القبور تعرض للتمليك وليست للايجار. وان الذين يحضرون للسكنى في هذه الايام لا يحضرون من بيوت منهارة. ولكن البعض يحضر وكان يعيش من قبل في الخيام والمساجد وفوق الارصفة.

آخر انسان كان يبحث عن قبر لكي يعيش فيه. ترك عنوانه، كان العنوان: الرصيف رقم ١٣، المواجه للبيت رقم ١٣. عطفة قطز، متفرعة من صلاح الدين، من شارع المعز لدين الله.

قال له التربي:

ـ انه العرض والطلب.

سمع المؤلف في وقفته رجلاً مجذوباً. كان يقول:

ـ سيظهر اليهود مرة اخرى في بر مصر. سيعودون. والغريب الذي يحمله المستقبل ان اليهود سيصلون الى المقابر وسيظهرون في مقابر اليهود. وسيلجأون الى القضاء. يقولون: هذه قبورنا. كيف يسكن فيها فقراء مصر.

توقف الرجل، الذي قال عنه التربي، انه مجذوب. وقال:

ـ نستحق كل ما جرى لنا. طالما اننا سمحنا لهم بالوصول الى حرمات الموتى. ماذا ننتظر منهم بعد ان تطأ اقدامهم حرمات الموتى. قدمنا لهم الحاضر. فقرروا الحصول على الماضي والمشاركة في تشكيل المستقبل.

صفق الرجل بيديه وقال:

ـ ذلك هو المختصر المفيد. في زمن اللت والعجن.

عندما وصلت العائلة الى القبور. كانت فرقة الموتوسيكلات تستعد للعمل. قال الاستاذ: موكب آخر في زمن المواكب السعيدة كان طريق الموكب مرسوما في ورقة مع قائده. يبدأ الطريق من القبور يصل الى فندق شيراتون. حيث تقام ليلة الفرح. وينطلق العريس والعروس من الفندق الى مطار القاهرة الدولي. العروس مصرية والعريس اوروبي. وهما يسافران ليس لقضاء شهر العسل ولكن للحياة هناك.

عند المطار، ستعزف الموسيقى نوبة وداع اخيرة.

قال الاستاذ:

ـ والمواكب في زماننا انواع وانواع.

قرر المؤلف، ان يقضي وقته في منطقة المقابر في عمل واحد. انه يعيد كتابة روايته من جديد.

وبذلك نصل الى ختام اللعبة. الى مرحلة ما بعد الرواية. من المفروض ان يحضر المؤلف روايته التي نشرت. ويجمع الملاحظات التي قيلت عنها. ملاحظات عامل المطبعة والناشر والموزع والقراء والنقاد ثم يعيد كتابتها ويعدلها على ضوء هذه الملاحظات. فتصبح الكتابة الثانية. نوع من الخلق الجماعي الذي يشترك فيه كل من تعامل مع الرواية.

أخذ أوراق الملاحظات، كانت كثيرة، واخذ الرواية، وعاش في القبر الذي سهل له التربية العثور عليه. باعتبار ان اقامته ستكون عابرة ولن تطول. وانه سيترك منطقة القبور يوماً ما.

قرر المؤلف ان يبدأ في كتابة الرواية من جديد. مرت ايام. اليوم ينتهي ويأتي وراءه يوم جديد. والمؤلف يبحث في كل يوم. عن المبررات لكي يتهرب من لحظة البدء في الكتابة. راح يستجدي تلك اللحظة التى لا يعرف لها اسماً محدداً. اللحظة التي يجلس فيها لكي يبدأ الكتابة. ولكن هذه اللحظة لم تأت أبداً. كلما جلس. شعر بفراغ في الذهن وخمول وكسل وشعر ان الرغبة في الكتابة تهرب منه.

قال المؤلف لنفسه ذات مساء، لأبعد نفسي وذهني عن الحاصل في بلدي وبهذا استطيع البدء في كتابة الرواية. حاول ان يقيم مسافة بينه وبين الواقع اكتشف استحالة ذلك. تدهورت الأحوال التي بدأ يكتب روايته فيها. وهو اليوم يترحم على الامس. لأنه كان احسن.

سأل نفسه عن شكل الغد. فاكتشف انه سيكون اكثر سوءا من اليوم. تساءل: الى اين تسير سفينة البلاد؟ ولم يجد اجابة واضحة في ذهنه. قال المؤلف: عندما تسوء الأمور في بلد ما. يصبح السؤال على السنة الناس العاديين في الشوارع. من يستطيع ان يوقف هذا التدهور؟ لا أحد ينشد الأحسن. ولكن فقط محاولة وقف التدهور لأن الأمس يبدو ورديا وبعيدا لدرجة ان البعض لا يجرؤ حتى على الحلم به.

كانت العائلة قد استقرت في قبرها القديم. وان كان الشمل لم يجتمع أبداً. وكان المؤلف قد استقر في قبر بصورة مؤقتة. وقال المؤلف: كل منا يبحر نحو قبره الخاص به.

كان الحال صعباً، ولم يكن أحد يرضى به. ومع هذا حدث ما هدد استمرار هذا الحال ذات صباح. وصل الى منطقة القبور مهندسون، وعمال. كانوا من الادارة الهندسية للجبانات. كانوا يقسمون الأرض ويعدون القبور. ويغرقون في العدد والاحصاء، بين القبور التي يسكن فيها البشر، والقبور التي ينام فيها الموتى فقط.

سأل السكان عن السبب، فقالوا لهم:

- سترفع القبور من هذه المنطقة كلها.

سأل السكان:

- الى اين؟

قالوا:

- ستخصص المحافظة . . ٧٠ فدان في صحراء مدينة نصر لكي تنقل اليها القبور. بالموتى؟

- وهذه المنطقة؟

ـ سيعاد تخطيطها من جديد لكي تبنى مساكن.

ـ لم؟

ـ لأن الحي ابقى من الميت..

ـ ومن قال ان الذين يسكنون هنا من الموتى. ان الاحياء اكثر من الموتى.

ـ ولكن ذلك يتم بصورة غير قانونية. على الورق المنطقة للموتى فقط ولا وجود للأحياء فيها.

قالوا لهم، ان هذه المنطقة، تعد من مناطق وسط المدينة. وبدلا من التوسع المستمر خارج المدينة. ستتحول المنطقة إلى مساكن. ثم ان صحراء مدينة نصر تصلح للقبور اكثر، فهي منطقة رملية جافة. وهي اكثر مناسبة للدفن فيها.

قال الاستاذ:

ـ رضينا بالهم ولكن الهم لم يرض بنا.

أوضح المليونير:

ـ قبلنا الحياة في قبر. ولكن القبر رفض ان نعيش فيه.

قال المهندسون، ان ما سيحدث في منطقة القبور مجرد مقدمة لتجديد القاهرة وازالة التجاعيد والبثور والدمامل من وجه العاصمة. وهذا سيشمل حتى الاحياء القديمة ايضاً.

تساءل الاستاذ:

ـ باعتبار ان سكان الاحياء القديمة من الموتى الاحياء. أم لأن هناك مستثمراً أجنبياً عيناه على هذه المناطق؟

اكمل المهندسون:

ما المانع من تحويل باب الشعرية وعشش الترجمان وبولاق الدكرور ومصر القديمة ورملة بولاق. ومناطق القبور الى جنات جديدة على الأرض. الشوارع نظيفة، والخضرة وارفة، تظللها من كل ناحية. العمارات تصل السماء بالأرض. هل تتصورون ان أول ناطحة سحاب في تاريخ مصر ستقام في الدراسة. انه مشروع قومي يساوي بناء القاهرة الاولى. وسيكون في منطقة القاهرة الكبرى أربعة اهرامات بدلا من ثلاثة.

ستعرض منطقة القبور والاحياء الشعبية في مناقصة دولية لهدمها ونقل مخلفاتها وبناء احياء راقية مكانها. ان من سيقوم بهذه العملية من حقه ان يسمي المدينة الجديدة باسمه. فالقاهرة اسم المدينة التي كانت والتي تغيرت تماماً. بل واختفت بفعل هذه التجديدات.

سألوا:

- ومصير من يسكنون القبور؟

قال كبير المهندسين:

- نحن نعرف ان عددهم حوالي مائتي فرد فقط يشكلون عشر أسر.

اعترضوا على الرقم. لأن الواقفين حولهم كانوا اكثر من مائتين. ولكنه استمر في قوله:

- هؤلاء قد نعطيهم مساكن شعبية حالياً. وبعد بناء ناطحات السحاب ستكون لهم اولوية في تملك شقق فيها بالشروط الجديدة.

- وعظام الموتى؟

- ستنقل الى منطقة القبور الجديدة.

- ولكن الشرع يحرم هذا ؟

ـ تلك مسألة فيها قولان.

ـ يقال ان نقل عظام الميت من قبر الى آخر يجدد الحساب عليه.

ـ وماذا يضير الميت ان تجدد حسابه؟ على الاقل في المقابل فانه سيسكن في ظروف افضل من هنا.

سألوه:

ـ ومن سيقوم بالهدم والبناء. ؟

ـ هناك اكثر من شركة استشارية اجنبية. مؤسسة طبقاً لقوانين الانفتاح الاقتصادي. ولأن الأمور تجري بطريقة صحيحة. سيتم الاعلان في مناقصة دولية. ومن يرسي عليه العطاء هو الذي سينفذه.

علق الاستاذ:

ـ ومن حق الدولة قبول او رفض العطاءات. بدون ابداء الاسباب.

قال المهندس:

ـ هذا المشروع القومي تاخر تنفيذه نصف قرن من الزمان. بسبب الحروب التي خاضتها البلاد. والآن يمكن تنفيذه.

عاد المؤلف الى قبره. تأكد له الآن ان الواقع يتآمر عليه لكي لا ينتهي من الرواية. قضى سنوات من عمره يعمل في الرواية. وليس امامه سوى الانتهاء منها. كتب الرواية عن عذاب الحياة في القبر. وعندما قرر اعادة كتابة الرواية بصورة نهائية. تصبح الحياة في القبر حلماً بعيد المنال. حتى الاقامة في القبور لم تعد متاحة لأحد. ان ما جرى يضع الأمور في بداية فصل جديد. لا بد من الكتابة عنه بدلا من اعادة كتابة الرواية. ما جرى اليوم سيحول الرواية الى ماض تام. تسكن في خانات التاريخ القديم. فسكان القبور. الذين كانوا يرفضون الاقامة

في القبور مهددون ابتداء من اليوم بالطرد من القبور.

ـ المأوى قبل كل شيء.

اتاه صوت زمجرة الرجال في الخارج. تدافعت الاقدام. وسمع صوت تنفس الرجال الغاضب واضحاً.

ـ المأوى قبل كل شيء.

سمع صوت المليونير يطرح فكرته القديمة. يتحرك كل سكان القبور من هنا وحتى ميدان التحرير. وعدم التحرك من الميدان قبل الحصول على سكن.

رفضوا فكرته قبل ان يكمل شرح جوانبها.

قالوا له جميعاً:

ـ المأوى قبل كل شيء آخر.

لن يتحرك اي شخص من هنا. قبل الحصول على سكن يناسبه. وليس اي سكن.

وقف المؤلف على باب القبر، الذي يعيش فيه «المأوى قبل كل شيء» المسكن قبل لقمة الطعام وهدمة الملابس والاتوبيس والمياه والكهرباء المسكن اولا.

قال المؤلف، عندما يتداخل الضحك والبكاء في زمن واحد. وعندما لا تبصر العين لأنها امتلأت حتى آخرها بالدموع. عندما يصاب الناس بالسكتة من كثرة الضحك. نكون قد دخلنا في زمن الغرائب والعجائب التي لم يحوها كتاب من قبل. وازمنة العجائب والغرائب قد تعرف نقطة بدئها ولكن من يعرف اين تنتهي.

الكلمات الاربع التي استقرت تحت الجلد. وصلته محملة بتراب

القبـور. ورائحة عـظام الموتى. والكلمات الاربـع كانت تنـطق بصوت جماعي هذه المرة:

ـ المأوى قبل كل شيء.

وكان المهندس يحاول إسكاتهم. قال وكأنه يخطب:

ـ الآن، وقد عاد الرئيس من رحلته. سنتفـرغ لمشاريعنـا الداخليـة هذه المنطقـة سينتهي العمل فيهـا بعد سنـة واحدة. وستعـرض الشقق للتمليك. مع اولـوية مـطلقة لمن يـدفع بـالدولار وسنخصم لمن يـدفع القيمـة كلها مقـدماً. وسيكـون البيـع بـالمـزاد العلني. واسم العـمارات سيكون: دراسة سنتر.

صاح الواقفون:

ـ قبور سنتر، موتى سنتر.

قال الرجل:

ـ ان ذلك هو أول مشروع بعد عودة الرئيس المظفرة من رحلته.

كان صوت الرجال هادراً..

ـ المأوى قبل كل شيء.

قال المؤلف بصوت عال:

ـ لن أضـع على الـورق نهايـة لـروايـة لا تـزال مستمـرة عـلى أرض الواقع. لن تنتهي روايتي أبداً..

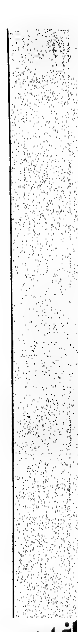
نظر الى الناس وفكر، لن اعيد كتـابة الـرواية من جـديد. ستكتب افعال الناس البسـطاء رواية أخـرى. حكايـة غير كـل الحكايـات التي عندي سيكون فيها الصدق والبساطة والعفوية. كلمات استخـدمت من قبل، في الحديث عن الهزيمة وتبرير افعـال الحـاكم وخـداع الجماهـير.

كلماتي تحولت من قبل الى مصانع لتصدير الاحلام الى الناس . أمـا الآن يختلف الامر كثيراً . افعال هؤلاء الناس بكر . لم تحدث من قبل .

ان النـاس تخرج من دائـرة الفرجـة وتدخـل ارض الفعـل . وذلـك تاريخ فاصل في حياة بر مصر .

أصابت المؤلف رعشة جديدة . حلوة وطـرية وطـارئة . وهبت عليـه لأول مرة منذ سنوات نسمة هواء نظيفة . ليست معفرة بالهون ولا توجد فيها رائحة الانحناء . خرج من مكانه . قال لنفسه من اليوم لا كتابة ولا روايات . ولكن هنا . في قلب قلب المكان الذي يتواجد فيه الناس . ان بر مصر يتبدل والازمنة تتغير والناس عرفت طريقها الى الفعل . ان زمن الافعال الكبيرة يـا مصر قد جـاء . . يدق الابـواب . يقتحم . لا يطلب الاذن بالدخول . فأزمنة الفعل تفرض نفسها ومنطقها وقانونها . وعندما يصبح الفعل هو بواب العصر . تسقط كل الكلمات . .

وذاب المؤلف وسط الناس .

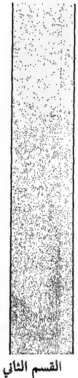


الفهرس





القسم الأول



القسم الثاني



القسم الثالث

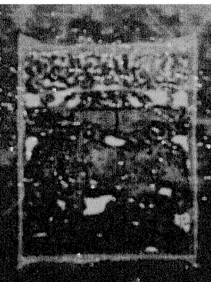
مطابع الشروق

بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ . ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤ برقياً: شروق - تلكس: SHROK UN









شكاوى المصري الفصيح، الرواية الثالثة للروائي المصري الكبير يوسف القعيد وهي تأتي بعد: يحدث في مصر الآن.. والحرب في بر مصر. الروايتان اللتان تعدان من الأدب السياسي.

شكاوى المصري الفصيح رواية من ثلاثة أجزاء: الأول: نوم الأغنياء... الثاني: المزاد.. الثالث: أرق الفقراء. مؤلف مأزوم يقدم لنا واقع سكان القبور من خلال عائلة ضاق بها الحال، فعرض للبيع.. الرواية هي رحلة العائلة من القبر الى ميدان التحرير، ورحلة المؤلف من أزمته الى لحظة بيع العائلة.

ونوم الأغنياء تبدأ من سكان القبور، وتقدم جذور الأزمة التي أوصلت الجميع الى لحظة البيع.. وقد بدأ المؤلف كتابتها من نوفمبر ١٩٧٦، راصداً ما يجري في مصر هذه الأيام، راصداً لا تنقصه الشجاعة ولا يغفل الجانب الفني للرواية.

المزاد: انتقلت العائلة بهمومها من سجن الى سجن، وحمل المؤلف عناء الرواية التي تمنى لو جعلها مغامرة فنية. يرنو من خلالها الى مقترح لتقديم رواية من داخل الرواية.

وأرق الفقراء، من معركة الكعكة الحجرية التي وقعت في ميدان التحرير في التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٩٧٦، وتصل الى التاسع عشر من نوفمبر ١٩٧٧، عندما وصل العائد من القدس المحتلة الى مصر.

الغلاف للفنان حلمي التوني

دار الشروق